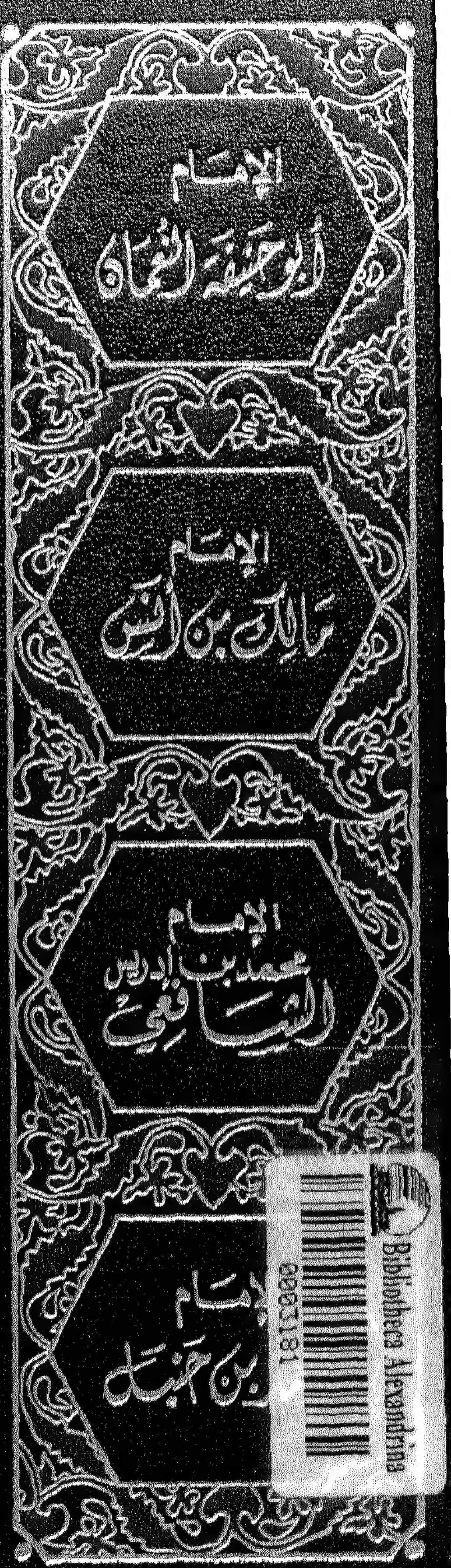
الأئمة الأربعة

تأليف

الدكتور مصطفى الشكعة

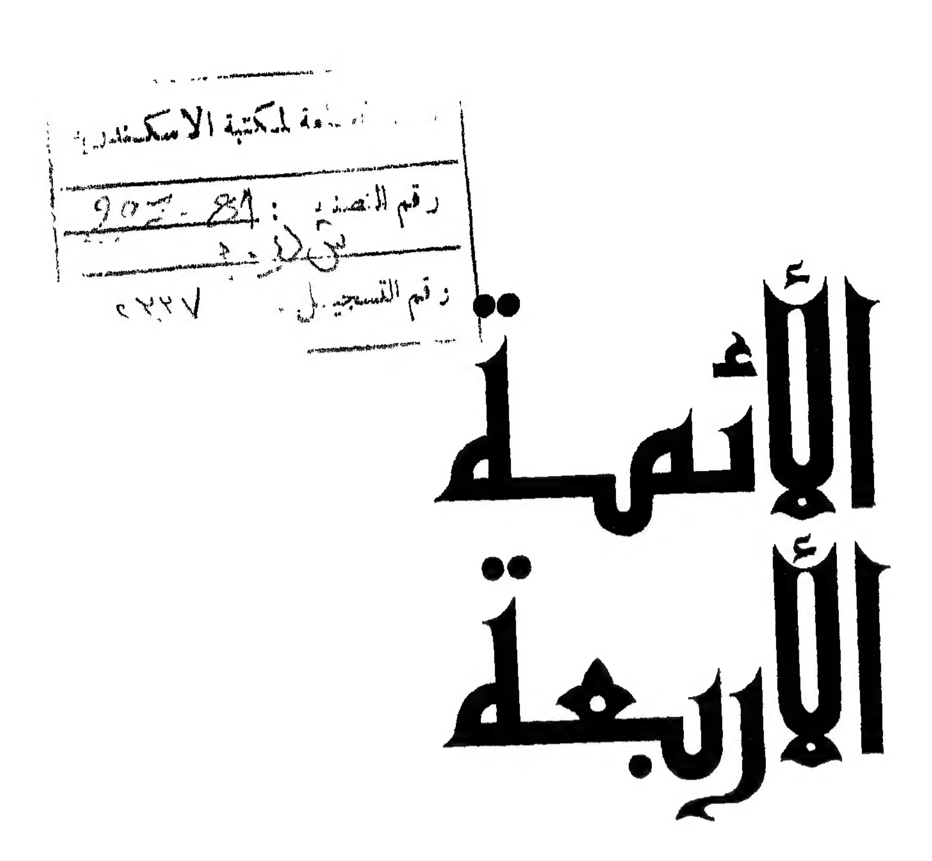
دار الكتاب المصري — القاهرة
دار الكتاب اللبناني — بيروت











الأئمة الأربعة

الدكتور
مصطفى الشكعة



دار الكتاب المصرى
القاهرة

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

رقم الإيداع

١٩٩٠ / ٤٤٤٩

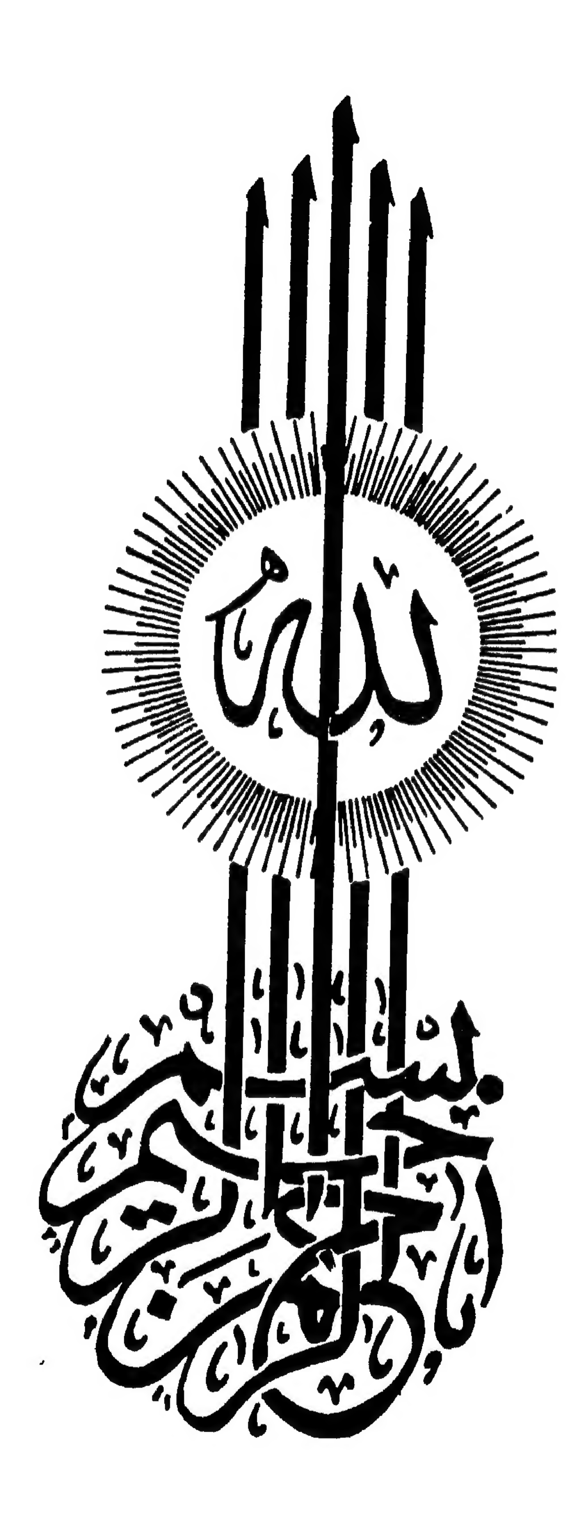
I.S.B.N. 977 - 238 - 063 - 3

دار الكتاب المصري
٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج م ع
ت ١٦٨ (٣٩٢٢) / ٣٩٢٣١٣١ فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقياً كتامصر
TELEX No 23081 - 23381 - 22181
ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN
FAX. (202) 3924657

دار الكتاب اللبناني
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت : ٨٦١٥٦٣ - ٨٦١٧٩٢ - ٨٦٠٧٩٢ - فاكسميلي ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
ص.ب ١١/٨٣٣٠ أو ١٣٥٣٥٢ - بيروت - لبنان
برقيا : داكليان
TELEX DKL 23715 LE
ATT MISS MAY HASSAN EL - ZEIN
FAX (9611) 351433

الطبعة الثالثة
١٤١١هـ - ١٩٩١م

Third Edition
1991 A.D — H 1411


الله
بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

يحمل هذا الكتاب عنوانا حبيبا إلى قلب كل مسلم ، أثيرا عنده ، عزيزا لديه ، فهو عن الأئمة الأربعة الذين بعلمهم نهتدى ، وبفقههم نقتدى ، وبخلقهم نستلهم الهدى ، وبفكرهم نستجلب السداد ، إنهم أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ، وكل واحد من هؤلاء يشكل دنيا من العلم ، وصرحا من الفقه ، ونبراسا من التقى ، وقبسا من النور .

ونحن حين نخصّ هؤلاء الأربعة بالدراسة فإننا لا نغضّ من شأن أئمة آخرين أصحاب فكر ودين ، وأنضاء علم وتقوى ، اهتدى الناس بعلمهم أزمنة طويلة ، واسترشدوا بهديهم أحقابا متواصلة ، نذكر منهم الأوزاعى والثورى والليث والطبرى وداوود الظاهرى وأبا ثور إبراهيم بن خالد ، ولا ننسى إمامين جليلين من أبناء بيت النبوة هما جعفر الصادق بن محمد الباقر وزيد بن على زين العابدين ، فجميع هؤلاء أئمة مجتهدون ذللوا للمسلمين سبل التعرف على أحكام دينهم ومسائله ، ومهدوا لهم الطريق وأناروا الدروب .

إن علماء المسلمين الذين بلغوا مبلغ الإمامة فى علمهم وفقههم وورعهم وسلوكهم من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤهم ومن الوفرة بحيث يمتنع استقصاؤهم ، وسوف تقع العين على كثيرين منهم عند الحديث عن كل إمام وشيوخه وصحابه وتلامذته ، فبين هؤلاء جميعا من شيوخ وصحاب وتلاميذ ، أعلام تنضح هالات الإمامة من عقولهم وقلوبهم ، وتتفجر ينابيع العلم من أفئدتهم وأفواههم .

وإنما وقع الاختيار على الأئمة الأربعة المعروفين لأنهم القدوة لجمهرة المسلمين ، وفى حياة كل منهم من الأحداث والسلوك والاجتهاد والتضحية

ما يجعل منه قدوة للعلماء والجمهرة ، والخاصة والعامة على وجه سواء ، ولقد تاقت النفس وتمنى القلب أن أنهض بهذا العمل منذ زمن بعيد ، فالحمد لله أن هيأ لى سبل النهوض به . ويسّر لى من الأسباب ما يجعله حقيقة بين يدى كل من أحب الأئمة وسعى إلى معرفة المزيد من علمهم وأخبارهم .

إننا سوف نجد عجبا فى حياة هؤلاء الأئمة البررة منذ نعومة أظفارهم إلى أن بلغوا مبلغ الإمامة ، وسوف نجد ثلاثة منهم مدينين لأمهاتهم بالتوجه إلى العلم دون غيره من صنائع الحياة ، بل سنجد أنفسنا كمسلمين مدينين لهؤلاء الأمهات الفضليات اللائى أهدين إلى البشرية نجوم هدى ورسل سلام ، ويتمثل ذلك أكثر ما يتمثل فى والدة مالك ووالدة الشافعى ، فأما أم مالك فقد عممته وهو صغير وألبسته ملابس العلماء وقالت له : اذهب إلى ربيعة فتعلم أدبه قبل علمه ، وكان الصغير مالك يريد أن يشتغل بالغناء فصرفته أمه عن ذلك صرفا جميلا ، وأما أم الشافعى فقد ظلت به فى غزة حيث ولد قبل وفاة أبيه بزمن قصير ، فلما أن بلغ عمره حولين ، وأصبح قادرا على تحمل الرحلة إلى ديار أهله بالحجاز ، حملته أمه إلى مكة وتولت رعايته ، فقد كانت فرصة تعلمه الفقه لا تتهيأ له فى مكان بقدر ما تهيأت له فى الحجاز .

وتبدو صورة الكفاح والرحلة فى طلب العلم أكثر ما تبدو فى حياة هؤلاء الأئمة البررة باستثناء الإمام مالك الذى آثر ألا يغادر دار الهجرة إلا حاجاً لبيت الله الحرام ، فأما أبو حنيفة فقد طوف بمدن العراق ثم قضى فى مكة بضع سنين يطلب العلم ويستجير بالبيت ، وأما الشافعى فقد طوف باليمن والعراق والشام ومصر ، وكانت تطول إقامته حيث ينزل جامعا علما أو باعثا فضلا أو ناشرا فقها ، وما من بلد حلّ فيه إلا وله فيه آثار وتلامذة ومريدون ، وبخاصة فى مكة وبغداد وأخيرا فى مصر ، فأما الإمام أحمد فقد طوف بقاع دنيا المسلمين طلبا للعلم وسماعا لحديث رسول الله ﷺ ، فزار مدن العراق جميعا ، واتجه إلى مكة فحج وسمع ودرس ، وارتحل إلى اليمن ماشيا ليسمع الحديث عن عبد الرزاق بن همام ، وسافر إلى الشام والثغور وسعى إلى كثير من بلاد فارس . وهكذا يعلمنا الأئمة أن العلم

يُسعى إليه ، ويرتحل فى سبيله ، وأنه جدير بأن يبذل فيه الجهد والمال ، وتلك سنة حميدة سنها لنا الأئمة الكرام .

وكان كل إمام من الأئمة الأربع صاحب مدرسة غنية بالطلاب حافلة بالدارسين ، وكانت هذه المدارس أقرب ما تكون إلى المجامع العلمية أو الأكاديميات بلغة عصرنا ، كانت تدور فيها المناقشات وتتنوع أسباب الحوار فى الموضوع الواحد بين التلاميذ بعضهم وبعض فى حضرة شيخهم أبى حنيفة يناقشونه ويناقشهم ، ويتقبل منهم ماكان صوابا ، ويرشدهم إلى ما لم يكن كذلك ، وكانت المناقشات وضروب الحوار تمتد أحيانا إلى ما يقرب من الفجر .

وكان الأمر يجرى على هذا النحو أو قريبا منه فى حلقة الإمام الشافعى فى مكة ثم فى بغداد ثم فى جامعة الفسطاط التى كان جامع عمرو بن العاص مقرا لها ، كانت الحلقة تبدأ بعد صلاة الفجر وتستمر إلى الضحى فى موضوعات مختلفة من علوم قرآن وفقه وحديث ولغة وأدب ، وكان الأئمة جميعا قد سلحوا أنفسهم فى بدايات مسيراتهم العلمية بالقرآن والحديث واللغة والفقه والقراءات ، وربما ذهب بعضهم إلى « الكلام » لمجرد العلم وإن لم يأخذ به بعد ذلك .

ومن الأمور التى ينبغى أن يعرفها كل مسلم ، بل كل متعلم أن مبدأ المنح الدراسية المالية قد قام أول ما قام على يد الإمام أبى حنيفة ، فقد فرّغ تلامذته للعلم دون سواه ، ومنعهم من أن يمارسوا أعمالا أخرى فى الصناعات والحرف ، وقد كان الناس جميعا من عالمين وغير عالمين يعيشون بما تدره عليهم صناعات أو ألوان من التجارة ، فجاء أبو حنيفة وأجرى رواتب شهرية لتلامذته وفى مقدمتهم أبو يوسف الذى نشأ فى بيت فقير ، وأراد أبواه أن يصرفاه عما هو فيه من طلب العلم ، فقام الإمام بسدّ حاجته وحاجتهما من المال ، وموضوع أبى حنيفة والمال موضوع طويل سيلبى الفصل الخاص به حاجة القارئ إلى ما يبتغيه منه .

وكان للحوار آدابه وللمناقشات تقاليدها فيما بين الأئمة بعضهم وبعض إذا كانوا متعاصرين ، وفيما بينهم وبين الناس ، وفيما بينهم وبين تلامذتهم ، وفيما بين

تلامذتهم بعضهم وبعض ، كان الأئمة يضعون تلك الأسس ويقومون على تنفيذها .

كان الشافعي إذا رأى تلاميذه دخلوا فى نقاش لا يرضى عنه حجب نفسه عهم ولا ينزل إليهم ، فيكون ذلك بمثابة التوجيه المهذب ، والتأديب غير الجارح ، وهم مع ذلك كبار غير صغار ، وكان يعلمهم أدب الحوار فيقول : ما ناظرت أحدا قط على الغلبة ، ويقول : ما ناظرت أحدا قط وأحببت أن يخطئ ، ويقول : ماكلمت أحدا إلا أحببت أن يوفق ويسدّد .

ولقد سبق أبو حنيفة الإمام الشافعي بحكم السن والعصر ، فمهد أدب الحوار لتلامذته وأصحابه ، وكان يقول لتلاميذه – وأبو حنيفة من أبرع المناظرين – كنا نناظر وكأن على رءوسنا الطير مخافة أن يزلّ صاحبنا . وكان يعلمهم منهج البحث العلمى السليم فيقول : لا يحل لمن يفتى من كتبى أن يفتى حتى يعلم من أين قلت . وكان يقول لتلاميذه : أنتم مسار قلبى وجلاء حزنى وقد أسرجت لكم الفقه وألجمته فنشدتكم الله بقدر ما وهب لكم من جلالة العلم لما صنتموه عن ذل الاستئجار .

نقول إن حلقات أبى حنيفة والشافعى كانت بمثابة المجامع العلمية ، ولكنها كانت تزيد على المجامع المعاصرة بآداب أصيلة ملتزمة ، وتقاليد ثابتة ممتدحة ولذلك فقد خرجت علماء ، وأثمرت فقهاء ، وتمخضت عن رجال صاروا أئمة فيما بعد ، ومن المستطاع مراجعة أسماء هؤلاء فى الفصول الخاصة بتلاميذ كل إمام من الأئمة الأربعة وصحابهم .

هذا ولا ينبغى لنا أن نترك هذا الحديث القصير عن حلقات الأئمة دون الإشارة إلى حلقتى مالك وأحمد ، لقد كانت حلقة كل منهما من الغنى بالرجال بمكان ، حتى إن حجابا كانوا ينظمون الدخول على مالك فى موسم الحج ، وكانت حلقة أحمد فى مسجد بغداد تضم الآلاف من التلاميذ ، ولكنهما – أى حلقتى مالك وأحمد – كانتا تختلفان من حيث التقاليد عن حلقتى أبى حنيفة والشافعى ، فقد كان السماع وحده دون المناقشة هو طابع الحلقتين إلا فى حالات

قليلة ، وكان لكل من مالك وأحمد هيبة فى قلوب تلاميذهما تمنعهم من مناقشتهما ، وهو ضرب آخر من الحلقات أنتج من العلماء والأئمة من لا يقلون قدرا عمن تخرجوا فى حلقتى أبى حنيفة والشافعى .

لم يكن الأربعة إذن أئمة لعلمهم وحسب ، ولكن لأنهم كانوا أصحاب مدارس بحث علمى ، ومحافل تمحيص فقهى ، وكل حلقة خرّجت عددا من الفقهاء العظام وغير واحد من الأئمة ، فى حلقة أبى حنيفة تخرج أبويوسف ومحمد بن الحسن ، وفى حلقة مالك تخرج الشافعى وابن وهب وابن القاسم ، وفى حلقة الشافعى تخرج الإمام أحمد فى العراق والبويطى والمزنى والربيعان فى مصر .

لقد كان الأئمة يمثلون القدوة الصالحة فى العلم ، ولكن العلم وحده غير كاف فى مجال القدوة ، ومن ثم كانوا قدوة فى كل شيء متصل الأسباب بالدين والحكم والسلطة والحياة .

كانوا قدوة للعلماء فى احترام العلم ومعرفة قدره ، فقد أراد الرشيد أن يسمع حديث رسول الله من مالك وهو بالمدينة ، فأصر مالك على أن يكون الدرس فى بيته لا فى بيت الخليفة وقال للرشيد : العلم يزار ولا يزور ، فلما أن جاء الخليفة إلى البيت جلس بجوار مالك ، فطلب منه مالك أن يجلس ين يديه كما يجلس أى طالب علم ، ولم يزد الرشيد على أن استجاب طالبا أن يخلو المجلس من غير المقربين ، وكان مالك إذا دخل على مجلس المهدى فى المدينة وقف بعيدا ثم قال للخليفة : أين يجلس شيخك ؟ فيفسح له الطريق ويجلسه بجواره .

وكانوا قدوة فى نصح الخلفاء والحكام فقد سأل المنصور العباسى ابن طاووس أن يحدثه عن أبيه فى وجود الإمام مالك ، فحدثه أن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى فى سلطانه فأدخل عليه الجور فى حكم . ويعلق الإمام مالك فيقول : فضممت ثيابى خوفا من أن يصيبنى دمه .

وشكا قوم من المدينة واليها الحسن بن زيد للمنصور ، وكان الفقيه ابن أبى ذئب حاضرا ، فقالوا للخليفة : سل ابن أبى ذئب عنه ، فقال ابن أبى ذئب : أشهد بأنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه ، فقال الوالى للخليفة : سله عن

نفسك . فقال أبو جعفر : فيم تقول فيّ ؟ فقال : أو يعفيني أمير المؤمنين ؟ فقال : والله لتخبرني . فقال : أشهد أنك أخذت المال من غير حقه . وجعلته في غير أهله . فتحرك أبو جعفر من موضعه ووضع يده على قفاه وقال : والله لولا أنا لأخذت فارس والروم والترك والديلم هذا المكان منك . وأطلق سبيله وقال : والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك .

ويدخل المهدي مسجد الرسول ﷺ فيقوم الناس جميعا إلا ابن أبي ذئب . فقال له المسيب بن زهير : قم ، هذا أمير المؤمنين . فأجاب : إنما يقوم الناس لرب العالمين . فقال الخليفة المهدي : دعه فقد قامت كل شعرة في رأسي .

ويقول الرشيد يوما للفضيل بن عياض : ما أزهدك – وكان الفضيل من كبار الزهاد – فيقول الفضيل : أنت أزهد مني . فيقول الرشيد : كيف ؟ فيقول الفضيل : لأني أزهد في الدنيا وأنت تزهد في الآخرة . والدنيا فانية والآخرة باقية .

والأئمة قدوة في الاستمساك برأيهم . ولقد كانت وقفة أحمد بن حنبل في محنة خلق القرآن وثباته على رأيه وهزيمة ثلاثة من خلفاء بني العباس لما يبيض له وجه العلم . وترتفع به هامات العلماء . لقد دفع إلى ساحة المعتصم والناس يتوقعون أن تضرب رأسه . وكان قد ضرب عنق رجلين قبله . فلم يزد الإمام على أن نظر إلى صاحبه أبي عبد الرحمن الشافعي فقال : أي شيء تحفظ عن الشافعي في المسح ؟ فجن أحمد بن أبي دؤاد أحد رءوس الفتنة وقال : انظروا رجلا هو ذا يقدم لضرب عنقه يناظر في الفقه .

وكان الأئمة قدوة في السياسة . لم يكونوا تابعين لحزب أو نصراء لحاكم . وإنما كانوا قدوة للناس ، يتصرفون حيث يملي عليهم الدين والخلق أن يتصرفوا . فحين خرج محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بالمدينة وخرج أخوه إبراهيم بالعراق ، انضم الإمام أبو حنيفة إلى إبراهيم ، وأفتى بضرورة مناصرته ، وحض قواد المنصور على الامتناع عن حربه ، وانضم الإمام مالك في المدينة إلى محمد وأفتى الناس بأن ينضموا إليه وأن بيعتهم للمنصور باطلة لأنه لا يمين على مستكره .

وكان الأئمة قدوة فى البعد عن السلطان . عرض القضاء على أبى حنيفة مرتين فامتنع وأوذى بسبب امتناعه . وكان الإمام أحمد يرى أن العالم إذا تقرب إلى السلطان فكأنه قد جر على نفسه الداء ، ويقول فى ذلك : الدنيا داء ، والسلطان داء ، والعالِم طبيب . فإذا رأيت الطبيب يجرّ الداء لنفسه فاحذره .

ولقد كان الأئمة قدوة فى التعفف عن مال السلطان . ولكل من الإمام أحمد والإمام أبى حنيفة فى ذلك أخبار كريمة . لقد ظل أبو حنيفة يرفض مال المنصور حتى اتهم بأنه يعاديه فلا يستحل ماله . ولكن أبا حنيفة كان يرى مال السلطان حراما لأنه مغتصب فلا يحل له قبوله ، وكان الإمام أحمد وهو فى حالة قاسية من شظف العيش يرد الآلاف التى يبعث بها المتوكل العباسى له استرضاء بعد فعل أبيه المعتصم به ، فكان يرفضها وهو فى أشد الحاجة إلى دينار ، ويمنع أولاده من تقبلها ، ويذهب الأمر بإبراهيم الحربى تلميذ الإمام أحمد حين بعث إليه المعتضد بألف دينار أن يقول لرسول الخليفة : قل لأمير المؤمنين أن يتركنا وإلا تحولنا من جواره . وقد وصل الرشيد الإمام الشافعى بآلاف من الدنانير بعد براءته من تهمة الخروج عليه ، فما يكاد الإمام – وكان لا يزال فى الثلاثين ونيّف – يصل إلى باب القصر حتى يوزعها على الحجاب والخدم .

لقد كانوا أئمة فى العلم والدين والخلق والتعفف والسلوك والترفع عن الصغائر ومن ثم كانوا أحسن قدوة لمن يريد الاقتداء من الخاصة والعامة ، ومن العلماء والسواد ، وأما أخبارهم فى الزهد والتعبد والورع والتقوى فالكتاب مترع بها .

إننا فى هذا العمل العلمى بذلنا من الجهد ماقد وسعنا من التعريف بكل إمام من الأئمة الأربعة : حياته وتحصيله وشيوخه وبيئته وصفاته وعلمه وفكره وفقهه وكتبه وتلاميذه ، نازعين إلى البساطة فى المنهج ، والتيسير فى الأسلوب ، والسهولة فى العرض ، حتى يستطيع الناشئة من أبنائنا الذين حيل بينهم وبين أن يعرفوا شيئاً عن دينهم وأئمتهم سنوات طويلة خلت – ونسأل الله ألا تعود – أن يقفوا على نماذج شامخة من الرجال ، وأمثلة فريدة من العلماء ، ومناهج رائدة فى البحث الدينى والنهج الإسلامى ، وسبل التخريج وأنماط الاستنباط ، فيطمئنوا

إلى أنه كانت هناك حياة ثقافية نامية فى ظل العقيدة ، ومناهج علمية رائدة فى رحاب الإيمان ، وتطورات فكرية نقية تحت علم الإسلام ، وأن التدين منطق وعدل ، وأن الإيمان عقل وانفتاح .

لقد آذن القرن الرابع عشر الهجرى بالمغيب ، ويوشك القرن الخامس عشر أن يهل على دنيا المؤمنين ، وبذلك يكون قد مر على هجرة صاحب الرسالة ﷺ أربعمائة وألف سنة ، حفلت بالخير وأترعت بالنفع ، كما رزئت دنيا المسلمين خلالها بالكثير من الرزايا ، ولو أنهم وعوا جوهر عقيدتهم ، واحتفلوا بأسس إيمانهم وتحلوا برسالة صاحب الهجرة ، وقرأوا تاريخ رجالهم ، وسلكوا سبل أئمتهم لنجوا من كثير من المحن ، ولكانت أيامهم نقية بيضاء وأعوامهم وضيئة ناصعة ، خالية من الهم بريئة من الحزن .

وإذا كان كل من الفرد والجماعة يحتفل على طريقته بوداع قرن هجرى انقضى واستقبال قرن آخر بسبيل القدوم ، فإنى قد جعلت هذا الكتاب وسيلة احتفالى بهذه المناسبة الغالية واستقبالى للقرن الجديد الذى آمل أن يكون مليئا بالخير مترعا بالبركات .

أسأل الله سبحانه أن يتقبل هذا الجهد ، وأن ينفع به ، وأن يجعل منه ذخرا لى ولكل قارئ . إنه سميع مجيب .

مصطفى محمد الشكعه

مصر الجديدة فى
٨ من ربيع الأول ١٣٩٩ هـ
٥ من فبراير (شباط) ١٩٧٩م

الأئمة الأربعة

(١)

الإمام الأعظم
أبو حنيفة النعمان

الدكتور
مصطفى الشكعة

الناشرون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

رقم الإيداع

٤٤٥٠ / ١٩٩٠

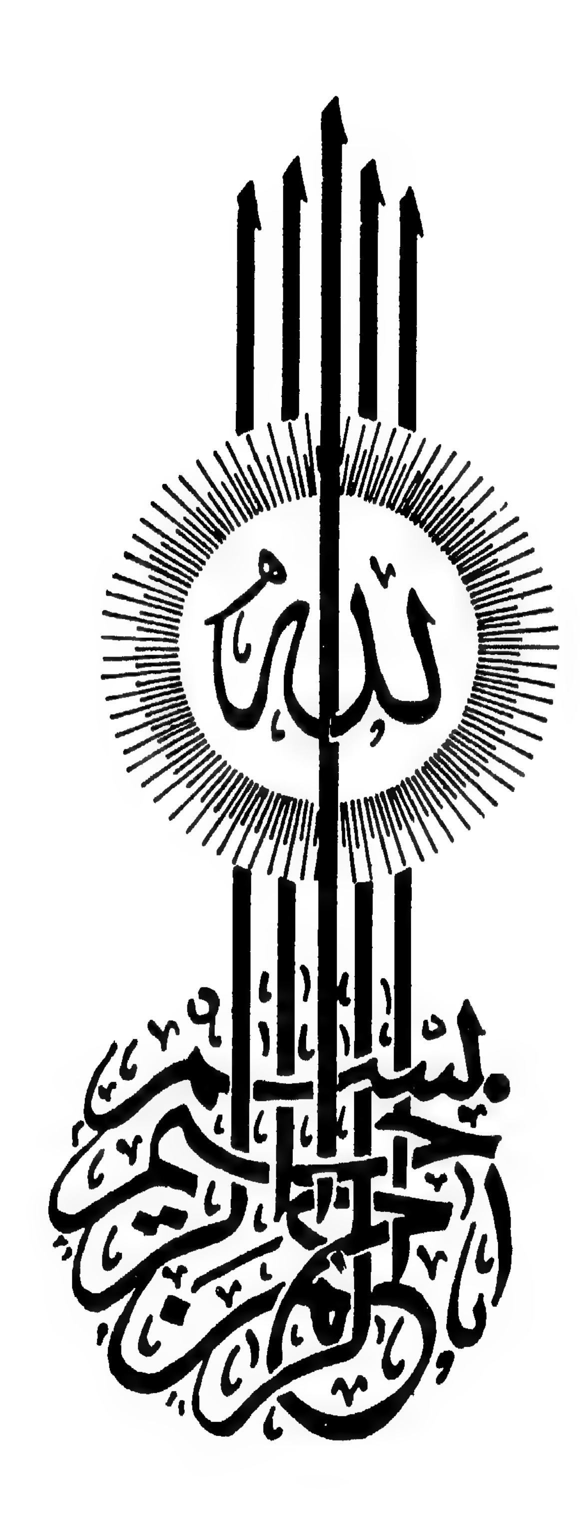
I.S.B.N. 977 - 238 - 064 - 1

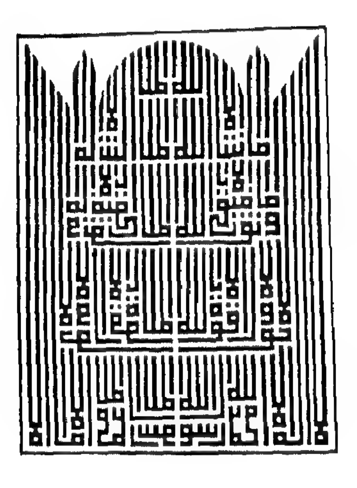
دار الكتاب المصري
٢٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
ت: ٣٩٢٢١٦٨/ ٣٩٣٤٣٠١/ ٣٩٣٤٣٠١ فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقياً كتامصر
TELFX No: 23081 - 23381 - 22181
ATT MR HASSAN EL - ZEIN
FAX. (202) 3924657

دار الكتاب اللبناني
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت: ٨٦١٥٦٣ - ٨٦٠٧٩٢ - ٨٦١٧٩٢ فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
ص.ب ٨٣٣٠/١١ أو ١٣٥٣٥٢ - بيروت - لبنان
برقياً راكلبان
TELEX DKL 23715 LE
ATT MISS MAY HASSAN EL - ZEIN
FAX (9611) 351433

الطبعة الثالثة
١٤١١هـ - ١٩٩١م

Third Edition
1991 A.D — H 1411


الله
بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــة

أحمد الله سبحانه وتعالى وأسأله أن يصلى ويسلم على سيدنا محمد سيد الرسل وخير الأنبياء وخاتمهم ، وأن يجعلنا أهلا لشفاعته « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

إن الحديث عن أئمة المسلمين له من النفع والفائدة فى الدنيا والآخرة ما يجعل كل مسلم مطالبا بأن يعكف على قراءة سيرهم ، ودراسة فقههم ، واستلهام أفكارهم ، واقتفاء خطواتهم ، وإحياء آثارهم ، ذلك أنهم لم يكونوا مجرد فقهاء يوضحون للمسلمين قضايا دينهم ويستنبطون أحكام شريعتهم – ولو لم يكن لهم غير ذلك لكفاهم – ولكنهم كانوا رواد فكر ، وفرسان كلمة ، ودعاة إصلاح ، ومؤثلى مجد، ومحققى عدل ، لم يدخروا وسعا فى نصح السلطان إذا طلب المشورة ، فإذا لم يطلبها تطوعوا من تلقاء أنفسهم إلى فعل ذلك ، فقد كان الواحد منهم يتمثل الحديث الشريف : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل » فوضعوا أنفسهم مواضع التكريم ،ونأوا بها عن مواطن الريب فى دنيا الفكر والسياسة ، وانتظموا قافلة الكرام من القادة ، يضيئون للناس الطريق ، وينيرون لهم السبيل ، مهما كان الطريق صعبا والسبيل غير ممهد .

وأئمة المسلمين من الكثرة بمكان ، ومن الفضل بحيث لا تخطئهم البصيرة النيّرة ، ولا تغمض عنهم العين الساهرة فى سبيل الله ، ولعل أوفرهم حظا من التعامل مع الشريعة السمحة والعقيدة الحنيفية هم أبو حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ،ومحمد بن إدريس الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وجعفر الصادق بن محمد الباقر ، وزيد بن على زين العابدين ، وعبد الرحمن الأوزاعى ، ومحمد

ابن جرير الطبرى ، وداود الظاهرى . على أن أشهرهم جميعا هم الستة الأوائل ، أربعة منهم لأهل السنة ، والإمامان الآخران أحدهما للشيعة الجعفرية وثانيهما للشيعة الزيدية ، وإن كنا فى واقع الأمر لا نكاد نفضّل واحدا على الآخر ، فهم جميعا أئمة صدق وقادة إصلاح ، نسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء بما قدموا من علم نافع وقدوة راشدة .

أما وقد استخرنا الله أن نكتب عن هؤلاء الأئمة البررة لاستجلاء شخصياتهم ، واستبانة مناهجهم ، واستيضاح فقههم ، واستكناه فكرهم ، فقد رأينا أن تكون أولى الدراسات فى هذا الميدان عن الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت .

وتأبى الحقيقة المجردة إلا أن تسجل للإسلام صفحة ناصعة النقاء بفضل السماحة التى تسوى تحت رايته بين العربى وغير العربى ، فإن دستور الإسلام يسوى بين الناس جميعا ، وهم كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، فأبو حنيفة النعمان لم يكن عربى الأصول ، وإنما هو من أصول فارسية ، ومع ذلك فهو أول أئمة المسلمين زمنا ، وأبعدهم صيتا ، وقد تميز بأن أضيف إلى اسمه صفة الأعظم ، فيقال « الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان » ، وما ذلك إلا لعلمه وفضله وريادته وقوة إقناعه وبالغ حجته ، ولقد سئل الإمام مالك ذات يوم : هل رأيت أبا حنيفة ؟ فأجاب : نعم ، رأيت رجلا لو كلمك فى هذه السارية – يريد سارية المسجد – أن يجعلها ذهبا لقام بحجته .

وإلى الإمام أبى حنيفة ينسب تدوين علم الشريعة ، وكان يقال إن حلقته تضم ثلاثة أرباع العلم ، والربع الباقى ينازعهم فيه ، وهو الذى وضع آداب الحوار ، وطبقه على تلاميذه أولا ، كما أنه أول من ابتكر المنح المالية الدراسية ، وطبق هذا المبدأ على أكثر تلامذته بادئا بأبى يوسف .

وحتى لا يدفع بنا الإعجاب بالإمام الأعظم إلى الاسترسال ، فإننا نسارع إلى عرض المنهج الذى ارتضيناه لهذا الكتاب ، فنقرر أننا جعلناه فى عشرة فصول

ولما كان الإمام أبو حنيفة كوفى المولد والنشأة والإقامة ، فقد خصصنا الفصل الأول للحديث عن نشأته العلمية ، فقد أقنعه « الشعبى » أن يتحول من العمل فى السوق بائعا وشاريا إلى العلم والفقه ، ولقد راق لنا أن نتحدث عن البيئة العلمية فى العراق بعامة وفى الكوفة بخاصة ، وأشرنا فى هذا السياق إلى سعيد بن جبير والشعبى وإبراهيم النخعى .

وإذا كانت طبيعة الدراسة تقتضى التعرف على شيوخ الإمام وأساتذته ، لأن المرء فى علمه ثمرة غرسهم ، فقد خصصنا الفصل الثانى للتعرف على شيوخ أبى حنيفة الذين أشهرهم عطاء بن أبى رباح ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وهشام ابن عروة بن الزبير بن العوام ، والإمام محمد الباقر ، وأخوه الإمام زيد ، وعبد الله بن الحسن بن الحسن ، كما كانت له محاورات نافعة مع الإمام جعفر الصادق ، على أن الشيخ الذى لزمه أبو حنيفة وجعل منه أستاذه الأصيل فهو حماد بن أبى سليمان الذى أحب الإمام أكثر من حبه لأولاده ، وقد بادله أبو حنيفة هذا الحب حسبما يتضح ذلك من التفصيلات التى يضمها هذا الفصل من الكتاب ، ومن المعروف أن الإمام أطلق على أكبر أولاده اسم « حماد » تيمّناً بشيخه ووفاء لفضله ، وقد بلغ من وفاء أبى حنيفة لشيخه حماد أنه لم ينفرد بمجلس علمى – مع أنه كان مؤهلا لذلك – إلا بعد وفاة الشيخ حماد .

أما الفصل الثالث من هذا الكتاب فقد أفردناه للحديث عن حلقة أبى حنيفة ، وهى حلقة فريدة بين ما عرف من حلقات العلم فى مختلف ديار الإسلام وأمصاره ، ولعلها الحلقة الوحيدة التى قيل عنها إنها كانت تضم ثلاثة أرباع العلم على النحو الذى أشرنا إليه قبل قليل ، كما أن تقاليد رفيعة فى الحوار والمناقشة قد أرسيت قواعدها بفضل هذه الحلقة العلمية المباركة ، إذ كانت القضية تطرح على التلاميذ فيناقشونها بعضهم مع بعض ، والإمام يوجه الحوار فى براعة يقظة وعمق راشد وأبوّة حانية ، حتى إذا انتهى الجمع إلى رأى بعينه ، طلب الإمام من أبى يوسف – كبير تلاميذ الحلقة – أن يدوّن المسألة ، فكانت الحلقة أشبه ما تكون بأكاديمية علمية ، أو مجمع بحوث دينية على النحو الذى نعرفه فى زماننا

هذا ، وأما علاقة الإمام بتلاميذه فأمر ذلك يدعو إلى العجب والإعجاب ، ومن الخير أن نحيل القارئ إلى تفصيلاتها فى مكانها من هذا الفصل من الكتاب

وأبو حنيفة كإنسان ، امتلك ناصية الخُلُق السمح الرفيق الرفيع ، وكانّ شديد الورع والتقوى ، ومن منطلق هذا الورع رفض تولى القضاء ، وتعرض للأذى والإهانة بسبب هذا الرفض ، ولم يزده الأذى إلا إصرارا على موقفه ، وكان أبو حنيفة وفياً حليما فطنا أنيقا صدوقا جوادا بماله كريما ، ولم يكن متزمتا ولا عابسا ، وإنما كانت النادرة الفكهة تصدر عنه فتبعث الابتسامة على الشفاه ، وتزيح الكد عن النفوس ، ومن ثم فقد خصصنا هذا الفصل الرابع للحديث عن صفات الإمام ومناقبه .

ولم يكن الإمام أبو حنيفة بمعزل عن الأحداث السياسية فى عصره ، وإنما كان يتابعها ويسهم فى صنعها بالرأى والفتيا والمال ، وقد كان متعاطفا مع آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانتصر للإمام زيد إبان ثورته على بنى أمية ، ولما قامت دولة العباسيين رحّب بقيامها أول الأمر ، فلما تنكبت الطريق السوى ناهضها ، ووقف فى صف محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم حين قاما بثورتهما على العباسيين ، ولما فشلت الثورة لم يبد الإمام ندماً على مشاركته فيها وإسهامه فى تمويلها ، وليس من شك فى أن ذلك كان من أسباب الجفوة التى قامت بينه وبين الخليفة المنصور ، وتبعا لذلك فقد ذهب قوم من كتاب التاريخ إلى أن أبا حنيفة مات مسموما فى بغداد بإيعاز من الخليفة العباسى ، إن هذا الموضوع الدقيق كان صلب الدراسة التى ضمها الفصل الخامس من الكتاب .

أما الفصل السادس فقد أفردناه لموضوع على جانب من الطرافة ، ألا وهو موقف أبى حنيفة من هدايا الخلفاء ، فقد كان للإمام نظرة متشددة فى هدايا الخلفاء ومن ثم كان يرفضها جميعا ، وهو فى الوقت ذاته يقبل الهدايا من سائر الناس ، أما حجته فى رفض هدايا الخلفاء فقائمة على شكه فى مدى كون مال الخليفة حلالا أم حراما ، فهو بالتالى مال مشبوه ، أما هدايا الأفراد فإنها من مال تعبوا فى جمعه من

حلال ، وكدوا فى كسبه بسبل مشروعة ، هذا من ناحية ، وأما من الناحية الأخرى فإنه – أى الإمام – كان يستطيع بعد فترة زمنية معينة أن يبادل الإنسان الذى هاداه بهدية أثمن من هديته ، علما بأن الإمام الأعظم كان يوزع الهدايا التى تصل إليه جميعا ولا يستبقى منها شيئا لبيته وذويه . وقد أثر فى هذا السبيل أن المنصور العباسى استدعى أبا حنيفة وقال له : لم لا تقبل صلتى ؟ فأجاب : ما وصلنى أمير المؤمنين بشىء من ماله فرددته ، ولو وصلنى بذلك لقبلته ، وإنما وصلنى من بيت مال المسلمين ، ولا حق لى فى بيت مالهم ، إننى لست ممن يقاتل من ورائهم فآخذ ما يأخذ المقاتل ، ولست من ولدانهم فآخذ ما يأخذ الولدان ، ولست من فقرائهم فآخذ ما يأخذ الفقراء .

وأما هدايا الناس فقد ذكرنا أنه كان يقبلها ، ولكنه لا يستبقى شيئا لبيته أو أولاده ، وقد وصلت إليه ذات مرة هدية قوامها ألف نعل ففرقها جميعا على أصحابه ، ثم رآه الناس فى السوق بعد يومين يشترى نعلا لولده .

ولما كان لكل من الإمامين مالك والشافعى آراء بعينها فى هدايا الخلفاء ربما اتفق بعضها مع أبى حنيفة واختلف بعضها الآخر معه ، فقد أوردنا فى الفصل ذاته آراء كل من الإمامين الجليلين مالك والشافعى فى هذا الموضوع .

ولما كان الإمام – أى إمام – لا يستحق هذا اللقب إلا بمؤهلات خاصة ، فقد خصصنا الفصل السابع للمؤهلات الخلقية والسلوكية والثقافية والعلمية التى جعلت أبا حنيفة أهلا لإمامة المسلمين ، ومن المعروف فى هذا السبيل أن الإمام أبا حنيفة كان يشرِّع للمستقبل ، وأنه عرف بكونه مدون علم الشريعة ، وأن الإمام الشافعى قرر فى هذا السبيل أن الناس عيال على أبى حنيفة فى الفقه .

ولقد خصصنا الفصل الثامن لمصادر الفقه الحنفى التى هى الكتاب ، والسنة ، وقول الصحابة ، والإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والعرف . ولما كان مبدأ القياس قد أثار بعض الفقهاء على أبى حنيفة ، وحمل عليه بشدة بعض الأئمة المعاصرين له مثل مالك ومحمد الباقر والأوزاعى ، فقد أوردنا دفاع الإمام عن

القياس وسجلنا الحوار الممتع المقنع الذى جرى بينه وبين الإمام محمد الباقر فى هذا السبيل .

والفصل التاسع أفردناه لمؤلفات أبى حنيفة ، وهى الفقه الأكبر ، ورسالة العالم والمتعلم ، ورسالته إلى عثمان البتى ، والردّ على القدرية ، والعلم شرقا وغربا وبعدا وقربا ، ومسند أبى حنيفة . كما عرضنا لمبدأ الحرية الشخصية عند الإمام وحرية الملكية وتأكيده على قدسيتها ، وذكرنا أنه ربما خطر بباله – وكان يشرع للمستقبل – أن بعض حكام البلاد الإسلامية سوف يستبيحون أموال المسلمين وأملاكهم فيصادرونها متذرعين بمسميات كاذبة خلابة ، فأكد الإمام على فساد تلك التصرفات ، وأكد على حرية المسلم ، بل حرية الإنسان فى أن يتملك ، وأن هذه الملكية شبه مقدسة وغير قابلة للمصادرة ، وهيأ لها كل أسباب الحصانة ضد عدوان الحاكم الظالم أو السلطان الجائر ، كذلك صورنا نظرية الإمام فى الإصلاح الاجتماعى والثقافى ، وهى مبادئ ونظريات تضع أبا حنيفة على قدم المساواة مع المصلحين العالميين .

أما الفصل العاشر والأخير فى هذا الكتاب ، فقد خصصناه للحديث عن تلاميذ أبى حنيفة وفكرهم ومؤلفاتهم ومواقفهم ، فتحدثنا بشىء من الإيجاز غير المخل عن أبى يوسف كبير تلامذة الإمام الذى صار قاضى القضاة لهارون الرشيد – أى ما يماثل وزير العدل فى زماننا – وأبدينا دهشتنا لصروف الزمان ، لأن أبا حنيفة رفض ولاية القضاء وعذب بسبب رفضه ، ثم يجىء تلميذه فيلى القضاء ويموت عن تركة قدرت بمليونين من الدنانير ، ثم تابعنا الحديث عن محمد بن الحسن الشيبانى ، وزفر بن الهذيل ، والحسن بن زياد اللؤلؤى ، وهم جميعا من التلاميذ النجباء أو هم بالأحرى صفوة النجباء من تلامذة أبى حنيفة الكثيرى العدد الرفيعى المقدار .

والأمر الجدير بالتنويه أننا ألحقنا بآخر الكتاب نماذج من الفقه الحنفى، اخترناها لتكون للقارئ هاديا إلى فقه الإمام الأعظم ، فأوردنا نموذجا من كتاب الآثار لأبى حنيفة برواية يوسف بن القاضى أبى يوسف موضوعه البيوع والسلف ، وأما النموذج الثانى فقد أخذناه من كتاب المبسوط ، إعداد السرخسى ، واخترنا منه باب افتتاح

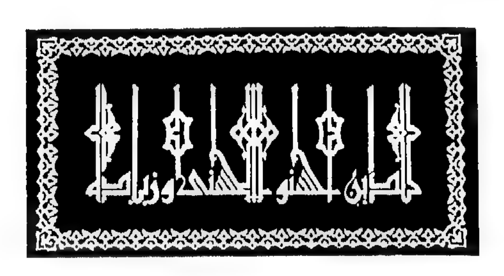
الصلاة وباب القيام فى الفريضة ، وأما النموذج الثالث فقد تخيرناه من كتاب الخراج لأبى يوسف .

نسأل الله سبحانه أن يتقبل عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم ، وأن يهىءُ لنا سبيل الخير وطريق السداد ، إنه على ما يشاء قدير .

مصطفى محمد الشكعه .

مكة المكرمة فى ٢٢ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ
١٧ مارس (آذار) ١٩٨٢ م





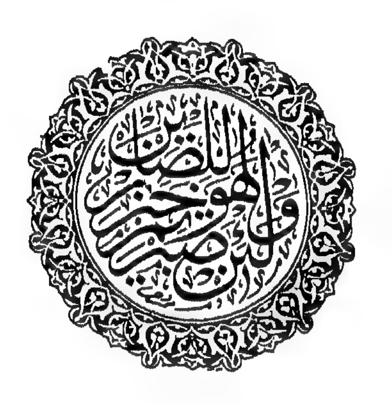
الإمام الأعظم

أبو حنيفة النعمان ابن ثابت

٨٠ - ١٥٠هـ



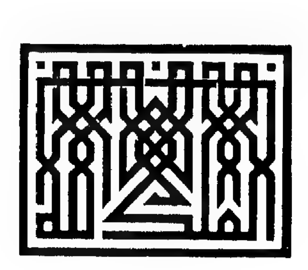




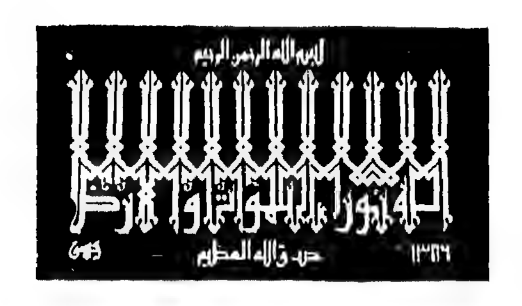
الفصل الأول

المنشأ والمربى

* تحت مظلة المساواة فى الإسلام .
* أبو حنيفة يلتمس طريق العلم .
* شيوخ الكوفة وبيئتها .
* بيئة العلم فى العراق .






بسم الله الرحمن الرحيم
الله نور السموات والأرض
صدق الله العظيم
١٣٥٦

الفصل الأول

المنشأ والمربى

- ١ -

تحت مظلة المساواة فى الإسلام :

فى مدينة الكوفة فى العام الهجرى الثمانين ولد النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان ، وحسبما هو واضح من اسم الجد الأكبر لانجد أنفسنا محتاجين إلى كبير تأمل لكى نعرف أن هذا الوليد المبارك – الذى كنى عندما شب وكبر بأبى حنيفة – هو سلالة بيت فارسى .

ومن المصادفات الطيبة أن يصبح هذا الوليد بعد أن استوت له أسباب النماء الثقافى والتكوين العلمى أول أئمة أهل السنة عند المسلمين . إنه ليس قرشيا ، بل هو ليس بمضرى ، بل ليس بعربى ، ومع ذلك أصبح يلقب فيما بعد بالإمام الأعظم ، ويعرف بإمام المسلمين ، وتلك مزية كبرى من مزايا الإسلام الذى لايفرق بين لون ولون ، أو بين جنس وجنس ، وإنما الناس فى دوحته وتحت ظلاله سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . وكان أبو حنيفة النعمان صاحب تقوى ، وهو بعد ذلك صاحب علم وعمل ، ومن ثم فقد فضل كثيرا من العرب وتميز عن كثير من القرشيين .

ولقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن جد أبى حنيفة كان يسمى زوطى ، وأنه كان مملوكا لبنى تيم الله بن ثعلبة ، وتوهموا بذلك أنهم ينالون من قدر أبى حنيفة ويغضون من مكانته ، سالكين بهذا النهج المسلك الجاهلى البعيد الذى يفاخر بالأحساب والأنساب ، ونسوا أن هذا اللون من التفاخر بالأنساب قد انتهى إلى غير رجعة بمجرد إشراق نور الشريعة الإسلامية التى كرمت الإنسان فى كل الأزمان ، وجعلت معيار التكريم وميزانه متمثلين فى صحة الإيمان والعمل

الصالح ، وإلا لكان أبو جهل أفضل من كثير من عظماء المسلمين الأولين .

ولكن وعلى الرغم من ذلك الذى ادعاه بعض المؤرخين بحسن نية حيناً وبسوء نية حيناً آخر فيما يتصل بنسب أبى حنيفة ، فقد كان الإمام الجليل من أسرة فارسية حرة لم تعرف هوان الرق ولم تلحقها مذلة العبودية ، وقد فصل فى هذه القضية إسماعيل حفيد أبى حنيفة حين أقسم – غير حانث – فنفى الرق عن أسلافه قائلا : « أنا إسماعيل بن حماد بن النعمان (أبى حنيفة) بن ثابت بن النعمان بن المرزبان من أبناء فارس الأحرار ، والله ماوقع علينا رقٌ قط »[1] .

ويستطرد إسماعيل حفيد أبى حنيفة فيذكر خبرا يصل بين جديه الثانى والثالث – ونعنى بهما ثابت والنعمان – بوشيجة مباركة بأمير المؤمنين على بن أبى طالب فحواه أن ثابتا حين كان صغيرا ذهب إلى على بن أبى طالب فدعا له بالبركة فيه وفى ذريته ، وأن النعمان – والد ثابت وجد أبى حنيفة – هو الذى أهدى للإمام على بن أبى طالب الفالوذج فى يوم المهرجان ، فسرّ لذلك علىّ وقال مبتسما متلطفا : مهرجونا كل يوم . وفى رواية أن الهدية كانت يوم النيروز نورزونا كل يوم .

وهكذا يكون الإمام أبو حنيفة من الأحرار وليس من العبيد حسبما ذهب إلى ذلك بعض خصومه ، وإن كانت العبودية فى جدوده لاتعيبه ، فما استعبد إنسان برغبته قط ، لأن الله خلق الناس جميعا أحراراً ، وإنما استعبد بعضهم الأشرار فى غيبة الأخلاق وبمنأى عن فلسفة العقيدة ، كما أن هناك صلة مودة وولاء ربطت بين والد أبى حنيفة وجده وبين الإمام على بن أبى طالب مما يفسر لنا فيما بعد ميل أبى حنيفة إلى أبناء علىّ ونسبته إلى التشيع .

وحتى نقطع الشك باليقين فى هذه القضية فإننا نقرر أن أئمة المسلمين فى عهد هشام بن عبد الملك لم يكن منهم أحد من العرب إلا واحد فقط هو إبراهيم النخعى ، ويطرح عيسى بن موسى على القاضى ابن أبى ليلى سؤالا حول فقهاء الأمصار الإسلامية فإذا هم واحد وعشرون فقيها ليس بينهم غير عربيين اثنين .

---

(١) تاريخ بغداد ٣٢٦/١٣ .

إن الحوار بين عيسى بن موسى وابن أبى ليلى يجرى على النحو التالى :

قال ابن أبى ليلى : قال لى عيسى بن موسى وكان جائرا شديد العصبية : من كان فقيه البصرة ؟ قلت : الحسن بن أبى الحسن (يعنى الحسن البصرى) ، قال : ثم من ؟ قلت : محمد بن سيرين . قال : فما هما ؟ قلت : موليان ، قال : فمن كان فقيه مكة ؟ قلت : عطاء بن أبى رباح ومجاهد بن جبر وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار ، قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موالى . قال : فمن فقهاء المدينة ؟ قلت : زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبى نجيح ، قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موالى ، فتغير لونه ، ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت : ربيعة الرأى وابن أبى الزناد ، قال : فما كانا ؟ قلت : من الموالى ، فاربدّ وجهه ، ثم قال : فمن كان فقيه اليمن ؟ قلت : طاووس وابنه ، وهمّام بن منبه ، قال : فما هؤلاء ؟ قلت : من الموالى ، فانتفخت أوداجه وانتصب قاعدا ثم قال : فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت : عطاء بن عبد الله الخراسانى قال : فما كان عطاء هذا ؟ قلت : مولى ، فازداد وجهه تربدا وأسودّ اسودادا حتى خفته ، ثم قال : فمن كان فقيه الشام ؟ قلت : مكحول ، قال : فما كان مكحول هذا ؟ قلت : مولى ، فازداد تغيظا وحنقا ثم قال : فمن كان فقيه الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران ، قال : فما كان ؟ قلت : مولى ثم تنفس الصعداء وقال : فمن كان فقيه الكوفة ؟ وهنا يقول ابن أبى ليلى : فوالله لولا خوفه لقلت : الحكم بن عيينه وحماد بن أبى سليمان ، لكن رأيت فيه الشر فقلت إبراهيم والشعبى ، قال : فما كانا ؟ قلت : عربيان ، قال : الله أكبر ، وسكن جأشه .[٢]

ولقد نشأ أبو حنيفة النشأة العلمية الرفيعة التى أهلته لكى يتسنم مكانته السامية بين فقهاء المسلمين ، ويتبوأ سدة الإمامة فى فترة من الزمان حفلت بعظماء العلماء من ناحية ، وازدحمت من ناحية أخرى بذوى الأهواء وأصحاب المقالات الذين حاولوا اللعب بالعقيدة الإسلامية ميلا بها عن جادتها ، وتحولا بشريعتها عن أصولها .

---

(٢) مناقب أبى حنيفة للموفق المكى ٥٩/١ .

- ٢ -

أبو حنيفة يلتمس طريق العلم :

على أن الأمر الجدير بالذكر أن أبا حنيفة لم يتفرغ للعلم منذ صغره الباكر ، وإنما كان أكثر اهتمامه بالتردد على السوق وممارسته للتجارة ، ثم حدث التحول إلى العلم وهو شاب فتى ، وهو والحال كذلك يختلف عن الأئمة الآخرين الذين توفروا على طلب العلم منذ نعومة أظفارهم مثل مالك والشافعى وأحمد ، فكل من هؤلاء الثلاثة طلب العلم صغيراً ، واختلف إلى الشيوخ ولما يستوف بعد عقدا كاملا من السنين .

فأما أبو حنيفة فإن الذى دفع به إلى ساحة العلم هو الشّعبى العالم الفقيه المحدث ، لقد استشف فى الفتى النعمان بن ثابت مخايل الفطنة وتباشير العبقرية ، فحبب إليه العلم ونصحه بطلب المعرفة .

إن الإمام يروى بنفسه قصة تحوله من عالم التجارة إلى دنيا العلم فيقول : « مررت يوما على الشعبى وهو جالس فدعانى ، فقال لى : إلى من تختلف؟ قلت : أختلف إلى السوق ، قال : لم أعن الاختلاف إلى السوق ، عنيت الاختلاف إلى العلماء ، فقلت له : أنا قليل الاختلاف إليهم ، فقال لى : لاتغفل ، وعليك النظر فى العلم ومجالسة العلماء فإنى أرى فيك يقظة وحركة » . ويمضى الإمام قائلا : « فوقع فى قلبى من قوله ، فتركت الاختلاف إلى السوق وأخذت فى العلم فنفعنى الله به »[٣] .

ويختلف أبو حنيفة إلى حلقات العلماء ومجالس الشيوخ فى علوم شتى ، ويأخذ من كل منها بطرف ، ولكنه يريد التخصص فى علم بذاته ، يجيده وينبغ فيه ، ويهيىء لنفسه من خلاله مكانة مرموقة ومقاما سويا ، ويسائل أبو حنيفة نفسه عن أى فرع من فروع العلم يفضل ، وأى نمط من أنماط المعرفة يختار؟ إن الفتى العبقرى كان من الفطنة والحصافة بحيث بسط أمام ناظريه أصناف المعرفة كما

---

(٣) العقد الفريد ٣/٤١٥ .

يبسط الجوهرى الماهر الأحجار الكريمة ينتقى أنفسها ويختار أجودها ، أو بالاحرى يختار ما يناسب ذوقه واستعداده . إن أبا حنيفة وهو يحدث تلاميذه عن شيء من أخبار نشأته يقول : لما أردت طلب العلم جعلت أتخير العلوم وأسأل عن عواقبها ، فقيل لى : تعلم القرآن ، فقلت إذا تعلمت القرآن وحفظته فما يكون آخره ؟ قالوا : تجلس فى المسجد ويقرأ عليك الصبيان والأحداث ثم لاتلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك أو يساويك فى الحفظ فتذهب رياستك . قلت : فإن سمعت الحديث وكتبته حتى لم يكن فى الدنيا أحفظ منى ؟ قالوا : إذا كبرت وضعفت حدثت واجتمع عليك الأحداث والصبيان ، ثم لا تأمن أن تغلط فيرموك بالكذب فيصير عارا عليك فى عقبك ، فقلت لاحاجة لى فى هذا ، ثم قلت . أتعلم النحو ، فقلت إذا حفظت النحو والعربية ما يكون آخر أمرى ؟ قالوا : تقعد معلما ، فأكثر رزقك ديناران إلى ثلاثة ، وهذا لا عاقبة له ، قلت : فإن نظرت فى الشعر فلم يكن أحد أشعر منى ما يكون أمرى ؟ قالوا : تمدح هذا فيهب لك ، أو يحملك على دابة ، أو يخلع عليك خلعة ، وإن حرمك هجوته فصرت تقذف المحصنات ، قلت لا حاجة لى فى هذا . قلت فإن نظرت فى الكلام ما يكون آخره ؟ قالوا : لايسلم من نظر فى الكلام من مشنعات الكلام فيرمى بالزندقة ، فإما أن تؤخذ فتقتل ، وإما أن تسلم فتكون مذموما ملوماً قلت فإن تعلمت الفقه ؟ قالوا : تُسأل وتَفْتِى الناس وتُطلب للقضاء وإن كنت شابا . قلت : ليس فى العلوم شيء أنفع من هذا ، فلزمت الفقه وتعلمته(٤)

تلك كانت أولى مراحل التفكير فى العلم والإقبال عليه عند أبى حنيفة ، وهى استعراضه أصناف العلوم والمقارنة بينها والمفاضلة حول أيها يختار ، لقد وجد أبو حنيفة لكل فرع من فروع المعرفة عيبا يباعد بينه وبين التفرغ له ، ومأخذا يصرفه عنه ، ماعدا الفقه الذى به يرتفع شأن الدارس ويسمو قدره .

وتروى هذه المرحلة من حياة أبى حنيفة بأسلوب آخر ولكن بمزيد من الإيضاح الذى يبين كيف أن أبا حنيفة قد أصاب قدرا من الدراسة المتقدمة فى

---

(٤) تاريخ بغداد ٣٣١/١٣ ، ٣٣٢ .

غير ميدان الفقة ، وأنه توفر على مجادلة بعض أصحاب النزعات الذين يباعدون بفكرهم بين أنفسهم وبين جمهرة المسلمين ، وأن أبا حنيفة كان يقصد إليهم قصدا فى عقر دارهم فى البصرة ، وأنه دخل البصرة أكثر من عشرين مرة لهذا الغرض ، ثم مالبث بعد ذلك أن وجد أن دراسة الفقه به أفضل وأليق .

إن هذه الرواية ينقلها يحيى بن شيبان عن أبى حنيفة الذى يقول ، والقول هنا لأبى حنيفة : «كنت رجلا أعطيت جدلا فى الكلام ، فمضى دهر أتردد فيه ، وبه أخاصم ، وعنه أناضل ، وكان أصحاب الجدل والخصومات أكثرهم بالبصرة ، فدخلت البصرة نيفا وعشرين مرة أقيم سنة أو أقل أو أكثر ، وكنت نازعت طبقات الخوارج من الإباضية والصفرية وغيرهم . وكنت أعد « الكلام » أفضل العلوم ، وكنت أقول هذا الكلام فى أصل الدين ، فراجعت نفسى بعد ما مضى لى فيه عمر ، وتدبرت فقلت : إن المتقدمين من أصحاب النبى ﷺ والتابعين لم يكن يفوتهم شىء مما ندركه نحن ، وكانوا عليه أقدر وبه أعرف ، وأعلم بحقائق الأمور ، ثم لم ينتصبوا فيه منازعين ولا مجادلين ، ولم يخوضوا فيه ، بل أمسكوا عن ذلك ، ونهوا عنه أشد النهى ، ورأيت خوضهم فى الشرائع وأبواب الفقه ، وكلامهم فيه ، عليه تجالسوا ، وإليه حضروا . كانوا يعلمون الناس ويدعونهم إلى التعلم ، ويرغبونهم فيه ويفتون ويستفتون ، وعلى ذلك مضى الصدر الأول من السابقين . وتبعهم التابعون عليه ، فلما ظهر لنا من أمورهم هذا الذى وصفنا ، تركنا المنازعة والمجادلة والخوض فى الكلام ، واكتفينا بمعرفته ورجعنا إلى ما كان عليه السلف ، وأخذنا فيما كانوا عليه ، وشرعنا فيما شرعوا ، وجالسنا أهل المعرفة بذلك . وإنى رأيت من ينتحل الكلام ويجادل فيه ليس سيماهم سيما المتقدمين ، ولا منهاجهم منهاج الصالحين ، رأيتهم قاسية قلوبهم غليظة أفئدتهم ، لا يبالون مخالفة الكتاب والسنة والسلف الصالح ولم يكن لهم ورع ولا تقى » .

هكذا يقدم الإمام أبو حنيفة درسا لتلاميذه عن الفرق المختلفة والجدل والكلام من خلال ترجمته لنفسه وإبانة مراحل تعلمه . إن الإمام يحكى هذا

الذى حكاه وهو فقيه كبير ذو حلقة وصاحب مجلس ، فهو والأمر كذلك يضع دستوراً لفكره ويوضح منهجه فى الفقه ، ويصدر أحكاما على أولئك الذين ابتغوا طريقا غير طريق الجماعة ، ونهجوا سبيلا غير سبيل السلف .

يتضح من قول الإمام التزامه بالكتاب والسنة ومتابعة السلف الصالح وإدانة من لايلتزم بغير هذا النهج ، كما يبدى رأيه واضحا فى أصحاب الجدل والكلام من المعتزلة وفرق الخوارج ، وهو رأى يدينهم ويباعد بينهم وبين النهج الإسلامى الصافى ، هذا فضلا عن وصفه إياهم بقسوة القلب وغلظة الفؤاد ، وأنهم غير ذوى ورع بعيدون عن التقوى .

وإذا كانت الروايات يكمّل بعضها بعضا ، فإن الإمام فى رواية أخرى لنشأته العلمية يطلعنا عن سبب هام من أسباب عنايته بالفقه واحتفاله به وإقباله عليه . إن زفر بن الهذيل تلميذ الإمام وصاحبه يروى قائلا : « سمعت أبا حنيفة يقول : كنت أنظر فى الكلام حتى بلغت فيه مبلغا كان يشار إلىّ فيه بالأصابع ، وكنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبى سليمان فجاءتنى امرأة يوما فقالت : رجل له امرأة أمة ، أراد أن يطلقها للسنة[٥] ، كم يطلقها ؟ فأمرتها أن تسأل حمادا ، ثم ترجع فتخبرنى ، فسألت حمادا فقال : يطلقها وهى طاهرة من الحيض والجماع تطليقة ، ثم يتركها حتى تحيض حيضتين ، فإذا اغتسلت فقد حلت للأزواج ، فرجعتْ ، فقلت : لا حاجة لى فى « الكلام » وأخذت نعلى فجلست إلى حماد ، فكنت أسمع مسائله فأحفظ قوله ، ثم يعيدها من الغد فأحفظ ويخطئُ أصحابه ، فقال : لايجلس فى صدر الحلقة بإزائى غير أبى حنيفة » .

---

(٥) الطلاق قسمان : طلاق السنة وطلاق البدعة ، فأما طلاق السنة فهو أن يطلق الزوج زوجته المدخول بها طلقة واحدة فى طهر لم يمسسها فيه يعقبها رجعة ، ثم مرة ثانية يعقبها رجعة كذلك ، ثم فى المرة الثالثة يكون الطلاق بائنا ، وأما الطلاق البدعى فهو الطلاق المخالف للمشروع ، كالتطليق ثلاثا فى مرة واحدة أو يطلقها ثلاثا متفرقات فى مجلس واحد ، أو يطلقها فى حيض أو نفاس أو فى طهر حدث فيه مباشرة .

إن أبا حنيفة الشاب الصغير ينال من علوم زمانه ما قد يسر له النبوغ فى بعضها وبذلك كون لنفسه قاعدة فكرية التمسها من المعارف العامة . ثم ما لبث أن اختار أشرف العلوم على الناس وأقربها إلى قلبه فمال إلى الفقه واتخذ من كبير فقهاء الكوفة حمادبن أبى سليمان شيخا وأستاذا ، هذا فضلا عن مشايخ آخرين كثيرين سوف نعرض لهم بالذكر والدراسة بعد قليل .

هكذا رسم أبو حنيفة لنفسه طريق العلم الذى ارتضاه وأحس فى قرارة نفسه أنه قادر على أن ينفع به وينتفع منه ، ولعمْر الحق لقد نفع أكثر مما انتفع . ووهب أكثر مما استوهب ، وتعب أكثر مما أفاد إن كان مقياسنا الأمور الظاهرة والمنافع العارضة ، وأما إذا كان المعيار أدبيا معنويا ، فقد أصاب أبو حنيفة من دراسة الفقه وتفرغه له واقباله عليه خيرا لم يصبه إلا قلة من البشر ، لقد كانت مكافأته أن صار إماما للمسلمين ، وحسبه ذلك فخرا وعوضا ، وإذا كان غيره من أعلام الفقه قد أصاب لقب الإمام مشاركا أبا حنيفة فيه ، فإن أبا حنيفة قد تميز عن أترابه من الأئمة بالسبق زمنا ، وبلقب الإمام الأعظم الذى لم يشاركه فيه من سائر الأئمة مشارك .

وإنه لايفوتنا من قصة الإمام هذه أن نشير إلى أنه بذلك الذى حكاه من أصناف العلوم إنما كان يؤرخ للفترة الزمنية التى عاش طفولته فيها تأريخا ثقافيا ، بمعنى أن علوم القرآن والحديث والنحو واللغة والأدب والكلام والفقه كانت مزدهرة منتعشة ، وأن كوكبة من العلماء فى كل فرع من هذه الفروع كانت تملك أعنتها وتأخذ بناصيتها ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى لايستطيع دارس الفقه أن يصيب فيه نجاحا أو أن ينال فيه نبوغا مالم يتسلح بالقرآن الكريم قراءة وحفظا ، وبالحديث الشريف رواية وفهما ، وباللغة والنحو إجادة وإتقانا ، وبالأدب دراسة وإلماما ، ذلك أن هذه العلوم جميعا تعتبر معبرا ضروريا لمن يريد أن يكون فقيها مجيدا ، فالأحكام الفقهية كلها تنبع من الكتاب العزيز والسنة الشريفة ثم مايتلو ذلك من إجماع وقياس ورأى إلى غير ذلك من الأصول التى جعلها كل إمام أساسا لمذهبه ، ومرتكزا لأحكامه ، ومن ثم لم يكن أبو حنيفة فى

صغره أو كبره بمعزل عن تلك الفروع من العلم التى شاعت فى زمانه ، أو بمنأى عن تلك الطعوم من المعرفة التى سادت العراق وبخاصة الكوفة والبصرة .

- ٣ -

شيوخ الكوفة وبيئتها

هكذا كانت مفاضلات أبى حنيفة بين هذا العلم وذاك من علوم القرآن والحديث والكلام واللغة والشعر والفقه بعد أن أخذ من كل منها بالقدر الذى استطاعه وارتضاه ، إلى أن انتهى إلى الفقه واتخذ منه ميدانا لدراسته وحقلا لتخصصه .

إن أبا حنيفة يختار أساتذته الذين إليهم جلس وعنهم روى وتعلم ، فتذكر كتب التراجم أنه رأى أنس بن مالك الصحابى الجليل حين كان يزور الكوفة ، كما سمع عطاء بن أبى رباح ، وأبا إسحاق السبيعى ، ومحارب بن دثار ، وحماد بن أبى سليمان ، والهيثم بن حبيب الصواف ، وقيس بن مسلم ، ومحمد بن المنكدر ، ونافعا مولى عبد الله بن عمر ، وهشام بن عروة ، ويزيد بن الفقير ، وسماك بن حرب ، وعلقمة بن مرثد ، وعطية العوفى ، وعبد العزيز بن رفيع وعبد الكريم أبا أمية [٦] .

ولقد جالس أبو حنيفة أربعة من كبار أهل بيت رسول الله ﷺ عرفوا بالعلم الغزير والفضل الجم والأدب الوفير ، فلقد تتلمذ على الإمام زيد بن على زين العابدين إمام الزيدية الذى استشهد فى حربه ضد بنى أمية أيام هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢هـ . كما تتلمذ على محمد بن على أخى زيد من والده والمعروف بمحمد الباقر ، وعلى ولده الإمام جعفر بن محمد المشهور بجعفر الصادق وتتلمذ أيضاً على الفرع الحسنى من بيت الرسول ممثلا فى عبد الله بن الحسن بن الحسن .

---

(٦) تاريخ بغداد ٣٢٤/١٣

أولئك جميعا وهم صفوة علماء المسلمين من سنة وشيعة كانوا أساتذة لأبى حنيفة ، جلس إليهم فى فترات متفاوته من سنى عمره ، ومنهم من لم يكبره سنا مثل الإمام جعفر الذى كان فى سن أبى حنيفة فقد ولدا فى سنة واحدة . مما يدل على أن الإمام جعل من سنى حياته كلها سنوات دراسة وتحصيل ، ولم يكن يضيره أن يجلس إلى هذا الإمام أو ذاك ، ويختلف إلى هذا الفقيه أو غيره فى وقت كان فيه صاحب علم وفتيا ، وتلك شيمة العلماء الأئمة مايكاد المرء يظن أنه قد علم إلا ويحس أنه لايزال فى أول الطريق ، وأنه فى حاجة لمزيد من العلم وجديد من المعرفة .

فأما بداية طريق العلم بالنسبة للإمام فإنه يكفينا مؤونة البحث فى ذلك بقوله حين سئل عن كيف بدأ تحصيله : «كنت فى معدن العلم والفقه فجالست أهله ولزمت فقيها من فقهائهم » .

وهنا نرى أن أبا حنيفة يستن سنة لزوم الشيخ الواحد فى قوله : لزمت فقيها من فقهائهم ، وسوف نلاحظ ذلك – أى الانقطاع إلى شيخ واحد – عند كل من الإمام مالك والإمام الشافعى والإمام أحمد ، فمن المعروف أن مالكا انقطع إلى ابن هرمز ، وأن الشافعى انقطع إلى مالك ، وأن ابن حنبل كان منقطعا إلى الشافعى حتى غادر الشافعى العراق إلى مصر.

غير أن الانقطاع إلى شيخ بعينه لايعنى الاستغناء عن السماع من مشايخ آخرين أو الامتناع عن سؤالهم والتلقى عنهم ، وإنما يكون الدارس مرتبطا بالشيخ الذى يرى أنه أكثر علما وأرحب صدرا ، وأنه بانقطاعه إليه تكون حصيلته العلمية منه أكثر من حصيلته فيما لو انقطع لغيره ، هذا هو معنى لزوم الشيخ الواحد والانقطاع إليه .

فأما ذلك الشيخ الذى انقطع إليه أبو حنيفة – وقد مر ذكره – فهو حماد بن أبى سليمان ، لقد صحبه أبو حنيفة ثمانى عشرة سنة كاملة ، ومن حق المرء أن يتساءل عن ذلك الفقيه الذى شد رجلا فى عبقرية أبى حنيفة هذه السنوات الطويلة التى تناهز عقدين من الزمان .

وحتى نلقى مزيدا من الضوء على هذه الصحبة المباركة فإننا نعيد قصة أبى حنيفة حين اختار دراسة الفقه وجلس إلى حلقة حماد ، ورأى فيه الشيخ قوة فى الحفظ وإقبالا على الدرس وامتيازا على رفاقه فقال : لايجلس فى صدر الحلقة بحذائى غيرأبى حنيفة . يقول الإمام : « فصحبته عشر سنين ، ثم نازعتنى نفسى لطلب للرياسة فأحببت أن اعتزله وأجلس فى حلقة لنفسى » . ويمضى الإمام العظيم ذو الخلق والوقاء والشمائل قائلا : « فخرجت يوما بالعشى وعزمى أن أفعل - أى يتخذ لنفسه حلقة مستقلة - فلما دخلت المسجد ورأيته لم تطب نفسى أن أعتزله ، فجئت وجلست معه فجاءه فى تلك الليلة نعى قرابة له قد مات بالبصرة ، وترك مالا وليس له وارث غيره ، فأمرنى أن أجلس مكانه ».

وهكذا يجلس أبو حنيفة فى مكان شيخه فى الليلة التى كان قد اعتزم فيها أن ينفصل عنه فى حلقة منفردة، غير أن الأمر الطريف أنه يرأس الحلقة بطريق شرعى غير انفصالى ، وبإذن من أستاذه الذى كان الإمام يحبه كل الحب فى حياته ، ويظل يذكره بعد مماته ، حتى إنه مادعا لوالديه بالمغفرة إلا دعا له ، وما ذكرهما إلا ذكره معهما .

يجلس الإمام للدرس والفتيا وكان لايزال فى الثلاثين من عمره ويكمل القصة قائلا « فما هو إلا أن خرج حتى وردت على مسائل لم أسمعها منه ، فكنت أجيب وأكتب جوابى ، فغاب شهرين ، ثم قدم فعرضت عليه المسائل - وكانت نحوا من ستين مسألة - فوافقنى فى أربعين ، وخالفنى فى عشرين ، فآليت على نفسى ألا أفارقه حتى يموت ، فلم أفارقه حتى مات »[٧] .

وفى رواية أخرى على لسان الإمام يقول فيها « قدمت البصرة فظننت أنى لا أسأل عن شيء إلا أجبت فيه ، فسألونى عن أشياء لم يكن عندى فيها جواب فجعلت على نفسى ألا أفارق حمادا حتى يموت ، فصحبته ثمانى عشرة سنة » وقد مات حماد سنة مائة وعشرين .

---

(٧) تاريخ بغداد ١٣/٣٣٣ .

والحق أن مثل هذه القضايا لاينبغى أن تمر بغير احتفال ودون أن تكون درسا مفيدا فى حياة كل طالب علم ، ودستورا رئيسيا فى خطواته وسلوكه ، فحبال العلم طويله ، وأغواره بعيدة ، وشواطئه نائية ، ومن ثم فإنه لاينال إلا بالقدوة والأستاذ والمتابعة والتواضع والاستقامة ، وماعدا ذلك لايعدو أن يكون فقاقيع لاتغنى إلا بقدر ما تمكث ، ثم لاتلبث أن تزول دون أثر وتنمحى بغير نفع .

على أن أبا حنيفة لم يختر حمادا شيخا له وأستاذا دون سبب ظاهر ، فقد كانت الكوفة مليئة بالعلماء والشيوخ ، وإنما اختاره لأن حمادا كان حامل علم الصحابة الأولين ممن عرفوا بالعلم الغزير وأخذوا عن صاحب الرسالة ﷺ دستور العقيدة وأصول الشريعة ونعنى بهم الفاروق عمر ، والإمام على ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس .

إن أبا حنيفة يقول : دخلت على أبى جعفر المنصور أمير المؤمنين فقال لى : ياأبا حنيفة ، عن من أخذت العلم ؟ قلت : عن حماد عن إبراهيم عن عمربن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس ، فقال أبو جعفر بخ بخ ، استوثقت ماشئت يا أبا حنيفة الطيبين الطاهرين المباركين صلوات الله عليهم .

إن المنصور خبير بمعادن الرجال ، والرجال هنا هم الأئمة والعلماء الذين ذكرهم أبو حنيفة مصدراً لعلمه ، ذلك أن المنصور كان فقيها محدثا قبل أن يؤول إليه أمر الخلافة ، وهو الذى طلب إلى الإمام مالك فيما بعد أن يجمع حديث رسول الله فجمعه فى كتاب الموطأ على ماسوف نبين عند دراسة الإمام مالك .

إبراهيم النخعى :

لقد أخذ أبو حنيفة عن حماد ، وأخذ حماد عن إبراهيم ، وإبراهيم هذا هو إبراهيم بن يزيد النَّخَعى التقىّ الحفىّ ، الفقيه الرضى ، حسبما وصفه صاحب حلية الأولياء .

إن إبراهيم بن يزيد النخعى شيخ حماد كان من كبار التابعين وكان فقيه العراق

ومحدث العراق ، اتصف بالورع والتقوى ، وعرف بالزهد والعبادة ، مات فى زمن الحجاج سنة ست وتسعين فى الخمسين من عمره ، ودفن ليلا ، فلما كان الصباح قال الشعبى : دفنتم ذلك الرجل الليلة ؟ قيل له : نعم ، قال : دفنتم أفقه الناس . قيل : ومنَ الحسن ؟ يعنون الحسن البصرى . قال : أفقه من الحسن ومن أهل البصرة ، ومن أهل الكوفة وأهل الشام وأهل الحجاز.

ولعلم النخعى ومكانته كان سعيد بن جبير إذا سئل يقول : تستفتونى وفيكم إبراهيم النخعى[٨] ؟ وكان إبراهيم لفرط تواضعه لايتكلم حتى يسأل ، وكان يقول إذا سئل فأجاب : لقد تكلمت ، ولو وجدت بدا ماتكلمت ، وإن زمانا أكون فيه فقيه الكوفة لزمان سوء .

وكانت الكوفة فى تلك الفترة من الزمان مليئة بأصحاب المقالات من الجهمية والمرجئة والمعتزلة ومن إليهم ، فسئل النخعى فى شأنهم فقال : أوه ! ! دققوا قولا واخترعوا دينا من قبل أنفسهم ، ليس من كتاب الله ولا من سنة رسوله ﷺ ، فقالوا هذا هو الحق وما خالفه باطل ، فقد تركوا دين محمد ﷺ . ثم قال لسائله : إياك وإياهم .

ولإبراهيم النخعى آراء فى الفقه تجعله قريبا من أن يكون صاحب مذهب ، فهو يرى على سبيل المثال أن الكذب يفطر الصائم ، وأن الغيبة تنقض الوضوء . يقول الحارث العكلى : كنت آخذ بيد إبراهيم فذكرت رجلا فتنقصته ، فلما دنونا من باب المسجد انتزع يده من يدى وقال : اذهب فتوضأ ، قد كان السلف يعدون هذا هجرا[٩] . وكان إبراهيم يرى أن مصافحة المرأة الشابة تنقض الوضوء ، فإذا كانت جاوزت مرحلة الشباب فإنها لاتنقضه . إنه يقول : لقيتنى امرأة فأرادت أن أصافحها فجعلت على يدى ثوبا ، فكشفت قناعها فإذا هى امرأة من الحى قد اكتهلت ، فصافحتها وليس على يدى شىء .

---

(٨) الطبقات الكبرى ٦/٢٧٠ .
(٩) حلية الأولياء ٤/٢٢٧ .

ولم يكن إبراهيم النخعى يصدر فيما يذهب إليه من فتاوى عن مجرد رأى يطوف برأسه ، وإنما كان يعتمد على نص أو أثر ، فهو صاحب موقف من « الرأى » يتمثل فى قوله : لا يستقيم رأى إلا برواية ، ولا رواية إلا برأى .

وكان إبراهيم – على الرغم من كونه أعور وزاهدا – ذا مهابة بحيث يقول عنه سفيان بن مغيرة : كنا نهاب إبراهيم مهابة الأمير(١٠) .

وإبراهيم ذو صلة وثيقة بالفضل وصاحب وشيجة متينة بالعلم من حيث كونه ينتمى إلى بيت علم وفضل ، فعمه علقمة بن قيس كان فقيه العراق ، وكان مثيلا لعبد الله بن مسعود فضلاً وسمتاً وهدياً ، وكان العم الآخر لإبراهيم هو الأسود النخعى القارئ الفقيه الورع الصوام ، وكان ثالثهم عبد الرحمن ، وكان الشعبى يقول : هم أهل بيت خلقوا للجنة(١١) .

هذا البيت الذى أنجب إبراهيم يتصل ببيت النبوة بسبب ، فقد كان بين أعمامه وأم المؤمنين عائشة إخاء وود ، ومن ثم فإن إبراهيم كان يدخل على أم المؤمنين عائشة وهو صبى صغير حين كان يرافق أعمامه فى الحج(١٢) . وكان إبراهيم منصفاً فى رأيه حيال الراشدين البررة ، فقد قال له رجل ذات يوم : علىٌّ أحب إلىّ من أبى بكر وعمر ، فقال له إبراهيم : أما إن علياً لو سمع كلامك لأوجع ظهرك ، إذا كنتم تجالسوننا بهذا فلا تجالسونا .

هذا ولإبراهيم تفسير لبعض آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى :

« وَالَّذِيْنَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُوْنَ »

قال : دائمون والصلاة هنا هى المكتوبة ، وقوله تعالى: « كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيْدٍ » أى المناكب عن الحق ، وفى قوله تعالى « عُتُلٍ بَعدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ »

---

(١٠) الطبقات الكبرى ٢٧١/٦ .
(١١) حلية الأولياء ١٠٣/٢ .
(١٢) حلية الأولياء ٢٣١/٤ ، ٢٣٢ .

قال : العتل الفاجر ، والزنيم اللئيم فى أخلاق الناس . وفى قوله تعالى « وَلا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمانِكُم »قال : هو الرجل يحلف ألاَّ يصل رحمه ، ولا يبرّ قرابته ، ولا يصلح بين اثنين ، يقول الله فلا يمنعه يمينه من أن يفعل ذلك ، ويكفّر عن يمينه(١٤) .

وإبراهيم إلى جوار كونه فقيها مفسرا ، كان أيضاً محدثاً ، يقول الأعمش عنه إنه كان صيرفى الحديث ، فكنت إذا سمعت الحديث من بعض أصحابنا عرضته عليه(١٥) . وفى خبر عن ابن عون أن إبراهيم كان يحدث بالحديث بالمعانى(١٦) ، ولعل هذا الذى ذهب إليه ابن عون إنما هو حين يقصد إبراهيم تصويب معنى الحديث وليس نصه ، فإذا ماثبت وجود حديث بهذا المعنى أو ذاك ، التمس بعد ذلك نص الحديث بالطريق الذى كان يتبعه رجال الحديث .

وكان إبراهيم النخعى فضلاً عن علمه وفقهه وحديثه وتواضعه وورعه وزهده يتخلق بأخلاق العلماء فى الدعوة إلى العدل واستنكار ظلم الحكام ، فقد رأى إبراهيم أمير حلوان يسير فى زرع فقال له : الجور فى الطريق خير من الجور فى الدين .

ولقد شارك إبراهيم الكثرة من فقهاء الكوفة الخروج مع عبد الرحمن بن الأشعث ضد عبد الملك بن مروان وخاض معركة دير الجماجم ، ثم اختفى بعد الهزيمة زمناً حتى مات الحجاج ، ثم ظهر فقيل له : أين كنت ؟ قال : بحيث يقول الشاعر :

عَوَى الذئبُ فاستأْنَسْتُ بالذئبِ إذْ عوى
وَصَوَّتَ إنسانٌ فكدتُ أطِيرُ

---

(١٤) حلية الأولياء ٢٣١/٤ ، ٢٣٢ .

(١٥) المرجع ٢١٩/٤ ، ٢٢٠ .

(١٦) حجة الله البالغة للدهلوى ١٤٦/١ .

وسوف نرى أن عدداً من كبار الفقهاء أصحاب إبراهيم خرجوا على عبد الملك مثلما خرج إبراهيم ، وأن عدداً قليلاً منهم نجا من سيف الحجاج الذى ظل يعمل القتل فيهم يوماً كاملاً ، حتى ضج منه عبد الملك بن مروان الذى كان الخروج عليه .

هـذا هو إبراهيم بن يزيد النخعى التابعى الجليل ، وأستاذ حماد بن أبى سليمان شيخ أبى حنيفة ، وهو المعين الذى نهل منه حماد ، ومن حماد نهل أبو حنيفة ، ولذلك فقد اعتبر بعض العلماء أقوال إبراهيم النخعى هى معين الفقه الحنفى .

عامر الشعبى :

لا يكاد يذكر إبراهيم النَّخَعِى حتى يذكر معه عامر الشَّعْبى ، فقد كانا صديقين حميمين ، بل كانا توأمى علم ، وقد بكى الشعبى إبراهيم صبيحة أن دفنوه بقوله : دفنتم أفقه الناس ، ولم تمض سنوات سبع أو بالحرى لم تكد تمر من القرن الثانى سنوات ثلاث حتى كان الشعبى قد لحق بصاحبه ، ووارت الكوفة ثراه مثلما وارت تربتها الكثيرين من الصحابة والتابعين وعلى رأسهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

لقد كان الشعبى من أئمة فقهاء المسلمين بالكوفة وغير الكوفة ، فقد أدرك خمسمائة من أصحاب رسول الله ﷺ أخذ من علمهم واستمع إلى أقوالهم ، وكان صاحب حلقة كبيرة فى مسجد الكوفة ، فإن محمد بن سيرين يقول : قدمت الكوفة وللشعبى حلقة عظيمة وأصحاب رسول الله يومئذ كثير .

وشخصية الشعبى تعتبر مجمع ثقافات دينية وأدبية وحكمّية ، فهو فقيه جليل ، ومحدث صدوق ، وحكيم تجرى الحكمة على لسانه ذلولا ، وهو أديب يردد الشعر ويقوله ، وله مع الشاعر الأخطل مواقف فى حضرة عبد الملك بن مروان ، كما أنه كان زوجاً لأخت أعشى همدان ، والأعشى كان أيضاً زوجاً لأخته .

فأما من ناحية الفقه فمصدره عنده كتاب الله وسنة رسوله وأعمال الصحابة وأقوالهم وبخاصة الفاروق عمر بن الخطاب ، فقد كان الشعبى يقول : إذا اختلف الناس فى شىء فانظر كيف صنع عمر ، فإن عمر لم يكن يضع شيئاً حتى يشاور ، والمشاورة فى شئون الفقه تعنى الإجماع أو الترجيح ، وكان ابن شهاب الزهرى يقول العلماء أربعة : ابن المسيب بالمدينة والشعبى بالكوفة والحسن البصرى بالبصرة ومكحول بالشام .

وكان الشعبى يأخذ فى فتاواه بالجانب الأسلم ، فقد سأله خالد بن دينار عن المزارعة ، فقال : دع الربا والريبة إلى مالا يريبك . وكان يميل إلى القصد فى الأحكام وبخاصة ماكان منها متصلا بالشئون العامة ، فمن حيث اللباس مثلا ، كان يقول البس من الثياب مالا يزدريك فيه السفهاء ولا يعيبه عليك العلماء ، وكان فيه سماحة ويسر إذا ما تعامل مع الناس ، فقد مر على نصرانى اسمه موسى النصرانى فقال له : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فقيل له فى ذلك ، أى سئل عن ذلك فقال : أوليس فى رحمة الله ؟ لو لم يكن فى رحمة الله هلك . وسئل الشعبى عن الرجل يعسر عن الأضحية ولا يجد مايشترى فقال : « لأن أتركها وأنا موسر أحب إلى من أن أتكلفها وأنا معسر » . ومجمل القول فى فقهه أنه كان سلفياً فى سماحة يلتزم الأثر وينكر القياس ، وهو يعبر عن ذلك بقوله : إنما هلكتم لأنكم تركتم الآثار وأخذتم المقاييس .

وكان موقف الشعبى من الصحابة جميعاً ومن عثمان وعلىّ بخاصة موقف المسلم الذى يقسط فى الأحكام ويأخذ فى الأمور بيسر حكمته ، فقد سئل يوماً : ما تقول فيما قال فيه الناس عن هذين الرجلين ؟ قال : أى هذين الرجلين ؟ قيل : علىّ وعثمان ؟ قال : إنى والله لغنىّ أن أجىء يوم القيامة خصيماً لعلىّ وعثمان رضى الله تعالى عنهما وغفر لنا ولهما .

وللشعبى أقوال حكيمة تجرى على لسانه من منطلق إسلامى ، فمن ذلك قوله : لاتمنعوا العلم عن أهله فتأثموا ، ولا تحدثوا به غير أهله فتأثموا . وقوله : من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها . وقوله : مابكيت من زمان إلا بكيت

عليه.وقوله : اسقنى أهون موجود وأشد مفقود ، يعنى الماء ، ومنها أن رجلا قال له كلاما أقذع فيه ، فقال له : إن كنت صادقاً غفر الله لى ، وإن كنتَ كاذباً غفر الله لك .

وكان الشعبى يجرى الحكمة فى مجلسه على ألسنة الحيوان ، فمن ذلك قوله : مرض الأسد فعاده السباع ما خلا الثعلب ، فقال الذئب : أيها الملك مرضت فعادك السباع إلا الثعلب ؟ قال : فإذا حضر فأعلمنى . فبلغ ذلك الثعلب فجاء ، فقال له الأسد : يا أبا الحصين ، عادنى السباع كلهم فلم تعدنى ! قال : بلغنى مرض الملك فكنت فى طلب الدواء . قال : فأى شىء أصبت ؟ قال : قالوا خرزة فى ساق الذئب ينبغى أن تخرج ، فضرب الأسد بمخالبه إلى ساق الذئب ، فانسل الثعلب وقعد على الطريق ، فمر به الذئب والدماء تسيل عليه ، فناداه الثعلب : يا صاحب الخف الأحمر ، إذا قعدت بعد هذا عند السلطان فانظر ماذا يخرج من رأسك ، وأما هذه فقد خرجت من رجلك .

وكان بيان الشعبى وفصاحته وحدة بديهته وقوة عارضته سببا فى نجاته من سيف الحجاج الذى كان دائم التعطش إلى الدماء ، لم يعرف من رقاب المسلمين شبعاً ولامن دمائهم ريا ، فقد خرج الشعبى عليه بين الكثيرين الذين خرجوا مع عبد الرحمن بن الأشعث على عبد الملك وألقى القبض عليه ، وسيق إلى ساحة الحجاج بين اشفاق عامة المسلمين وخاصتهم ، فقد كان من العلم والفقه بحيث يفتقده الناس إذا قتل ، وكان سيف الحجاج أعمى لا يفرق بين عالم وجاهل ، بل ربما كان أكثر بطشاً بالعالم منه بالجاهل .

إن الشعبى يحكى قصته مع الحجاج فيقول : « أُتِيَ بى إلى الحجاج موثقاً ، فلما انتهيت إلى باب القصر لقينى يزيد بن أبى مسلم[17] فقال : إنا لله يا شعبى لما بين دفتيك من العلم ، وليس بيوم شفاعة ، بؤ للأمير بالشرك والنفاق على نفسك فبالحرى أن تنجو ، ثم لقينى محمد بن الحجاج فقال لى مثل مقالة

---

(١٧) هو يزيد بن دينار الثقفى كاتب الحجاج فى حياته ثم عامل الخراج بعد وفاته ولاّه سليمان ابن عبد الملك إفريقية سنة ١٠١ ومات قتيلا بها سنة ١٠٢ وكان فطنا داهية .

يزيد ، فلما دخلت عليه قال : وأنت يا شعبى فيمن خرج علينا وكثر؟ قلت : « أصلح الله الأمير أحزن بنا المنزل ، وأجدب الجناب ، وضاق المسلك ، واكتحلنى السهر ، واستحلسنا الخوف ، ودفعنا فى حرب حربة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء » فقال الحجاج : صدق والله ، مابروا فى خروجهم علينا ، ولا قووا علينا حيث فجروا ، فأطلقا عنه[18] . وفى رواية أخرى زيادة فى قول الشعبى فى حديثه مع الحجاج إذ يقول : « وقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا ، فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إلينا أيدينا وإن عفوت فبحلمك ؛ وبعد فالحجة لك علينا » . فقال الحجاج أنت والله أحب إلى ممن يدخل علىّ يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول : ما فعلت وما شهدت ، قد أمنت عندنا يا شعبى[19] .

والشعبى هو سفير عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم فى القصة المشهورة ، فقد كان ملك الروم لا يسأله عن مسألة إلا أجاب عنها أحسن جواب ، فاستبقاه أياماً طويلة ، فلما أراد العودة فاستأذن فيها سأله ملك الروم : أمن بيت الملك أنت ؟ قال : لا ولكنى رجل من العرب فى الجملة ، فدفع إليه رقعة وقال : إذا أوصلت الرسائل إلى صاحبك - يعنى عبد الملك - فأوصل إليه هذه الرقعة ، يقول الشعبى « فأديت الرسائل عند وصولى إلى عبد الملك وأنسيت الرقعة فلما صرت فى بعض الدار أريد الخروج تذكرتها ، فرجعت فأوصلتها إليه ، فلما قرأها قال لى : أقال لك شيئاً قبل أن يدفعها إليك ؟ قلت : نعم ، قال لى : من أهل بيت المملكة أنت ؟ قلت لا ولكننى من العرب فى الجملة ، ثم خرجت من عنده ، فلما بلغت الباب رُدِدْتُ ، فلما مثلت بين يديه قال لى : أتدرى مافى الرقعة ؟ قلت : لا ، قال : اقرأها فقرأتها فإذا فيها : عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف مَلَّكوا غيره ؟ فقلت له : والله لو علمت ما فيها ماحملتها ، وإنما قال هذا لأنه لم يرك ، قال : أفتدرى لم كتبها ؟ قلت : لا ، قال : حسدنى عليك وأراد أن يغرينى بقتلك .

---

(١٨) حلية الأولياء ٤/٣٢٥ .

(١٩) وفيات الأعيان مادة عامر بن شراحيل الشعبى .

لقد كان الشعبى على فقهه وعلمه ذا فطنة وذكاء وكياسة وسياسة . فهو بفطنته يبقى على حياته وينتزع العفو من الحجاج سفاك الدماء . وهو بلباقته يجالس عبد الملك بن مروان ويسفُر له عند ملك الروم . وهو بذكائه الحاد وسياسته يستولى على إعجاب ملك الروم بحيث يحسد عليه العرب ويكيد له كى يقتله عبد الملك .

وكان الشعبى فى بلاغته وكياسته يسيطر على لب محدثه وفكره ؛ وقد مر حديثه مع الحجاج فانتزع به العفو لنفسه . وهاهو ببلاغة قوله وعمق منطقه ينتزع العفو لآخرين ، فقد كلم أمير العراقين عمر بن هبيرة فى قوم حبسهم ليطلقهم فأبى ، فقال له : أيها الأمير إن حبستهم بالباطل فالحق يخرجهم ؛ وإن حبستهم بالحق فالعفو يسعهم . فأطلق الأمير سراحهم .

وكان الشعبى يفيض لسانه بدرر الحديث ورائق القول . قوله وقول غيره ، إنه يتحدث عن أعرابى كان يجالسه ويطيل الصمت فقال له الشعبى يوماً : ألا تتكلم ؟ فقال الأعرابى : أسكت فأسلم ، وأسمع فأعلم ؛ إن حظ المرء فى أذنه له ؛ وفى لسانه لغيره .

ولم يكن العلم ووفرته والفقه وجلاله بمانعين الشعبى من أن يكون مرحاً فكهاً ساخراً فى كثير من الأحيان . فقد كان الفقيه الكبير ضئيل الجسم نحيلا لأنه كان توأماً ، فقيل له يوماً : مالنا نراك ضئيلاً ؟ فقال : لأنى زوحمت فى الرحم . ويحكى أنّ رجلاً دخل عليه البيت ومعه إحدى سيدات البيت ؛ فقال : أيكما الشعبى ؟ فقال : هـذه .

وقال له الحجاج ذات يوم : كم عطاءك فى السنة – بفتح الهمزة – فقال : ألفين . فقال : ويحك . كم عطاؤك ؟ فقال : ألفان . قال : كيف لحنت أولاً ؟ قال : لحن الأمير فلحنت ؛ فلما أعرب أعربت ؛ ولا يمكن أن يلحن الأمير فأعرب أنا .

وكان الشعبى يقول الشعر ويردد شعر غيره . فمن ذلك ترديده لبيت مسكين الدارمى :

ليست الأحلامُ فى حالِ الرضى
إنما الأحلامُ فِى وقتِ الغضبْ

ولم يكن قول الغزل ببعيد عن الفقيه الكبير. فقد كان يقول :

إذا أنتَ لم تعشِقْ ولمْ تَدْرِ ما الهوى
فأنت وعِيرٌ بالفلاةِ سواءُ

وقد سئل الشعبى عن عمره فقال :

نفسِى تَشَكّى إلىّ الموتَ موجعَةً
وقد حملْتُكَ سبعاً بعدَ سبعينا
إنْ تُحْدِثِى أملاً يا نفسُ كاذبةً
إن الثلاثَ يُوافِينَ الثمانينا

إننا نذكر ذلك عن الشعبى باعتباره مثالاً للفقهاء فى الكوفة بصفة خاصة وفى العراق بصفة عامة . وفى الأقطار الإسلامية بصفة أعم ؛ لم يكن الفقهاء مجرد قوم يعقدون الحلقات ويلقون الدروس ويصدرون الفتاوى ، وإنما كانوا أصحاب فكر وأدب ، مشاركين فى حياة الناس ، مسهمين فى الحكم بالنصح والإرشاد حيناً . والمشورة والسفارة حيناً آخر ، والمعارضة والمقاومة حيناً ثالثاً .

سعيد بن جبير :

وإذا كنا قد ذكرنا كلا من إبراهيم النخعى وعامرا الشعبى باعتبارهما أستاذين لحماد بن أبى سليمان أستاذ أبى حنيفة ، فإن السياق العلمى يفرض علينا أن نذكر كوفيًّا ثالثاً هو سعيد بن جُبَيْر المولود فى المدينة سنة خمس وأربعين ، المقتول شهيداً فى واسط بالعراق سنة خمس وتسعين عن خمسين سنة ، وقيل عن تسع وأربعين عند من عيّن وفاته سنة أربع وتسعين .

ينتظم سعيد بن جبير قافلة العلماء العاملين المجاهدين من زملائه ؛ فلقد خرج ثلاثتهم على مُلك بني أمية ، وعلى الحجاج بصفة خاصة ؛ خرج إبراهيم النخعي وخرج عامر الشعبي وألقى القبض عليه ونجا لاعتذاره اللبق وسابقة علاقته بعبد الملك بن مروان ؛ وخرج الإمام سعيد بن جبير مثلما خرج زميلاه وانتظموا جميعاً جيش عبد الرحمن بن محمد الأشعث ، وحين هزم ابن الأشعث فى موقعة دير الجماجم هرب سعيد إلى مكة ، ولكنّ واشياً وشى به فحمل إلى واسط حيث مدينة الحجاج ، فلما سأله الحجاج عن سبب خروجه قال دون ماخوف : بيعة كانت فى عنقى لابن الأشعث فقال الحجاج : أفما كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك فى عنقك من قبل ؟ والله لأقتلنك ، ثم نادى : يا حرسيّ ، اضرب عنقه ، وكان ذلك فى شعبان سنة خمس وتسعين ثم مات الحجاج بعده بشهر .

وعلى كثرة ماقتل الحجاج من أئمة المسلمين ، فإن جسم الأمة الإسلامية لم يتوجع كما توجع لقتل سعيد بن جبير .

إن سعيداً على الرغم من سواد لونه فقد كان أحد أعلام التابعين ؛ فالإسلام لا يفرق بين أبيض وأسود ، وإنما العلم والفضل والتقى هو الفيصل بين الناس . والمرء رهن بسلوكه ، ولذلك فإن الحسن البصرى إمام البصرة حين بلغه قتل الحجاج سعيد بن جبير قال : اللهم ايت على فاسق ثقيف ، والله لو أن من بين المشرق والمغرب اشتركوا فى قتله – أى قتل سعيد – لكبّهم الله عز وجل فى النار .

لقد كان سعيد عالماً قارئاً فقيها ، يؤم المسلمين فى رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود وليلة بقراءة زيد بن ثابت ، وليلة بقراءة غيرهما من القراء .

وكان لا ينشر علمه إلا حيث ينبغى أن ينشر العلم ؛ فقد عاش فى أصفهان زمناً كان لا يحدث فيه ، فلما رجع إلى الكوفة حدث ؛ فقيل له يا أبا محمد : كنت بأصبهان لاتحدث وأنت بالكوفة تحدث ؟ فقال : انشر بَزّك حيث يعرف .

لقد كان الفقهاء يعرفون قدر العلم ، يلقون به فى أسماع المؤهلين لسماعه ويضنون به على الجهلاء والسوقة والغافلين ؛ وقد سبق لنا معرفة رأى الشعبى فى

هـذا السبيل حين قال : لا تمنعوا العلم عن أهله فتأثموا . ولا تحدثوا به غير أهله فتأثموا .

وقـد تميز سعيد بن جبير على كثير من التابعين فى زمانه بمجمل العلوم الدينية فقد قيل إن أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب . وبالحج عطاء بن أبى رباح . وبالحلال والحرام طاووس، وبالتفسير مجاهد بن حبر . وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير .

والإمام أحمد بن حنبل يعرف قدر سعيد على بعد الشقة الزمنية بينهما . ويتحسر على قتله وهو فى سن العطاء . ولذلك يقول : قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه .

ومجمل القول فى سعيد بن جبير العالم الشهيد أن أهل الكوفة كانوا إذا أتوا عبد الله بن عباس يستفتونه كان يقول لهم : أليس فيكم ابن أم الدهماء – يعنى سعيد بن جبير .

هكذا كانت الكوفة عامرة بكبار العلماء وصفوة الفقهاء وأحبار الأمة من التابعين وتابعى التابعين الذين سوف نعرض لهم بإيجاز ونحن نذكر شيوخ أبى حنيفة .

– ٤ –

بيئة العلم فى العراق :

كانت هناك منافسة شديدة بين علماء العراق وعلماء الحجاز بلغت مرحلة من التشدد وأشكالاً من العنف . جعلت أهل المدينة يجرحون أهل العراق ويجردونهم من العلم ؛ بل وينسبون إليهم تزييف أحاديث رسول الله ﷺ وتشويهها .

ومن الغريب أن الاتهام الموجه إلى أهل العراق كان يصدر عن فقهاء ذوى شأن ومكانة ، فإن ابن شهاب الزهرى – وهو أحد كبار فقهاء المدينة ورواتها وأحد أشياخ مالك – يقول : يخرج الحديث من عندنا شبراً فيعود من العراق

ذراعاً[٢٠] وهـذا ربيعة بن أبى عبد الرحمن المشهور بربيعة الرأى – وهو أول أستاذ لمالك جلس إليه ولما يزل الشنف فى أذنه – يستدعيه أبو العباس السفاح من المدينة ليسند إليه قضاء العراق ، فيقول : لتلميذه مالك عند توديعه إياه . وكان مالك آنذاك قد طبّق الأربعين من العمر وصار شيخاً ذا خطر وفقه وإمامة : إن سمعت أنى حدثتهم شيئاً أو أفتيتهم – يعنى العراقيين – فلا تعدَّنى شيئاً[٢١] ، ويبدو أن ربيعة قد التزم بهذا العهد الذى أخذه على نفسه ، ذلك أنه لزم بيته فى العراق فلم يتكلم بحديث ولم يصدر أيا من الفتاوى .

وبلغت الخصومة بين فقهاء المدينة وفقهاء العراق مبلغاً لا تستريح إليه النفس ، ولا يطمئن له المشتغل بالعلم حين يسمع أن أهل المدينة يقولون : انزلوا أحاديث أهل العراق منزلة أحاديث أهل الكتاب – يعنى اليهود النصارى – فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم[٢٢] .

ويزيد الطين بلة أن بعض الفقهاء العراقيين من أبناء الأمصار العراقية المختلفة كان يضعّف بعضهم رواية بعض ويشكك فريق منهم فى علم فريق ، فإنه قد نسب إلى عبد الرحمن بن مهدى كبير فقهاء البصرة فى عصره أنه شكك فى نزاهة علماء الكوفة وأنه قال : لا تكاد أن تهجم على إسناد من أسانيد أهل الكوفة لاتجد له أصلاً إلا هجمت . وفى هـذا القول تطرف وغلو ، بل تطاول وإسفاف ننزه ابن مهدى عن قوله ، فإن ابن مهدى فيما نعرف عن علمه وعقله وفقهه وأدبه وشمائله – وكان يتصف بأولئك جميعاً – لا يتصور أن يصدر عنه مثل ذلك السفه ، وإنما هى حمى الحسد بين بعض المتطرفين من أتباع الفقهاء الكبار جعلت بعضهم يلقى هـذه التهم الكبيرة فى الساحة العلمية ، وينسبها إلى هـذا وذاك من العلماء الأجلاء ، ولقد أقضّ هـذا الخلاف وذاك التجريح مضجع العقلاء من أبناء الدولة الإسلامية مما جعل أبا العتاهية الشاعر يصور هـذا الموقف أصدق تصوير فى قوله :

---

(٢٠) مناقب مالك للزواوى ص ٥٧ .

(٢١) المصدر السابق ص ٥٦ .

(٢٢) ،، ،، ص٥٥ .

بكى شَجْوَهُ الإسلامُ فى عُلَمَائِهِ
فما اكترثُوا مما رَأَوْا من بكائِهِ

فأكثرُهُمْ مستقبحٌ لصوابِ من
يُخالِفُهُ مستحسِنٌ لخَطَائِهِ

فأيهمُ المرجوُّ فينا لِدِينِه
وأيهمُ الموثوقُ فينا برائِهِ

إنها نظرة متشائمة على كل حال ، وقد بدأ الخلاف من منطلق شريف . اختلاف فى وجهات النظر حول قضايا الفقه والفتيا ، وجرأة فى التخريج والاستنباط أقدم عليها أبو حنيفة ماكان معاصروه من فقهاء المدينة المحافظين المستمسكين بالسنة دون الرأى ليستسيغوها ، وربما لم يستطع بعضهم مواجهة حجة أبى حنيفة وجدله فى سبيل فكرته ودفاعه عن مذهبه فكان أن وجهت إليه اتهامات مختلفة ، ونسبت إليه أفكار هو منها براء . فهو معتزلى حيناً ، ومرجىء حيناً آخر ، وجهمى تارة وشيعى تارة أخرى إلى غير ذلك من الأوصاف التى أريد بها أن تنال من مقام الإمام الجليل(٢٣) .

والإمام هو فقيه الكوفة الذى تعتز به ويسمو قدرها وقدر أبنائها . ولذلك لانجد كبير غرابة فى أن يتصدى شاعر كوفى للدفاع عن مدينته والاعتزاز بها وبإمامها وبعلمائها ، ولا يكتفى الشاعر بذلك ، بل يحاول التعريض بعلماء المدينة المنورة والنيل من مروءة أهلها فيقول :

وليسَ يعرفُ هذا الدين نَعْلَمُه
إلا حنيفيّةٌ كوفيةُ الدورِ

لا تسألنَّ مدينيًّا وتكفره
إلاّ عن البمِّ والمثناة والزيرِ

---

(٢٣) تاريخ بغداد ١١/١٣ .

وهو شعر ضعيف ركيك الأسلوب مما يدل على أن قائله قد ارتدى ثوب الحماسة والعصبية، أكثر مما تزين بأخلاق العلم وشمائل العلماء.

ومن الطريف أن رجلاً من أهل المدينة على نفس المستوى من الصوغ الشعري، وأغلب الظن أيضاً أنه كذلك من حيث صلته بالعلم يرد عليه بهذه الأبيات:

لقد عجبتُ لغاوٍ ساقهُ قدرٌ
وكلُّ أمر إذَا مَا حُمَّ مقدورُ
قال: المدينةُ أرضٌ لا يكون بها
إلا الغِناء وإلا البَمُّ والزير
لقد كذبْتَ - لعمر اللهِ - إنَّ بها
قبرَ الرسولِ وخير الناسِ مقبورُ(٢٤)

ويعبىء أنصار مدرسة المدينة وخصوم العراق كل جهودهم لتجريح العراق كقطر إسلامى مؤهل لتخريج العلماء وتنشئة الفقهاء. ويتخذون من الأحداث التى جرت فى العراق سبيلا إلى ذلك قائلين: إن من العراق خرجت الخوارج. وفيها اعتزلت المعتزلة. وظهرت القدرية. وقامت الجهمية. وبها كان المختار الثقفى الكذاب والحجاج بن يوسف. ومقتل الحسين وتشيع الشيعة. ومبدأ دين القرامطة والمجوس فى هذه الأمة(٢٥).

وكثير من هذه الاتهامات إن صح أنها اتهامات - لأنها مجرد أحداث - يمكن أن يرد عليها، ويمكن أن يفسر بعضها لصالح العراقيين. وبعضها ينال منهم، ولكن عنصر الاتهام ومبدأ التجريح من قبل خصوم العراق كانا هما الهدف حتى يكون فقهاء المدينة وحدهم - دون غيرهم - المؤهلين للنهوض بالعلوم الإسلامية فقها وحديثاً وفتيا.

(٢٤) تاريخ الطبرى ٣/١٠٣

(٢٥) مناقب مالك للزواوى ص ٥٤.

ولكن الرأى الصائب يفرض نفسه على الواقع ، والحكم الصادق يلقى مكاناً رحباً لدى العقول الراجحة والصدور الواعية ، فإن الحكم الذى يصدر عن عصبية يناله التجريح ، والرأى الذى يصدر عن حسد يصيبه الوهن ، وليس من شك فى أن أكثر الأحكام التى صدرت فى حق هؤلاء من فقهاء مصر إسلامى ضد أولئك من فقهاء مصر آخر ينبغى أن ينظر إليها نظرة فاحصة ، وأن تدرس دراسة مستأنية ، فلا تتقبل على عواهنها ولا يسلم بها دون دراسة ودراية ، فيقبل منها ما كان متمشيا مع العقل ووثوق الخبر وحقيقة الواقع ، ويرفض منها ماليس كذلك .

وتبعاً لذلك فإن أكثر مانسب إلى فقهاء العراق لا ينبغى قبوله ، وأغلب ما أثر عن بيئة العراق من حيث تجريحها فقهياً لا يحسن التسليم به ، فلقد حفلت مدن العراق بكوكبة شامخة من كبار الصحابة ، ومن ثم كان فى العراق سنة متواترة ، وأحاديث صحيحة الإسناد ، بريئة من التجريح ، سليمة من التزييف ، ومن ثم لا ينبغى أن تعامل هذه الأحاديث كما تعامل أحاديث أهل الكتاب حسبما سلف القول بحيث لا تصدق ولا تكذب ، فهذا حكم يعيبه الشطط ويجرّحه الغلو ، ومن ثم يكون مرفوضاً ، وغير جدير بأن يؤخذ مأخذ الجد .

لقد سكن العراق أمير المؤمنين على بن أبى طالب وجعل الكوفة عاصمة للخلافة ، وهو من هو علما وحفظاً ورواية وفقهاً وتشريعاً وتعليماً ، وليس من المتصور أن يكون الإمام علىّ ترك علمه وفقهه فى المدينة وجاء إلى العراق خلوًا منهما .

بل إن جمهرة كبيرة من صحابة رسول الله ﷺ ومن فقهاء المسلمين جاءوا إلى العراق واستقروا به زمناً غير يسير قبل الخلافة الراشدة الرابعة ، وذلك على عهد عمر وعثمان ، فقد كان العراق قاعدة الانطلاق فى الفتوحات الإسلامية إلى الشرق حتى بلغت فى سنوات قليلة حدود الصين .

لقد سكن العراق الصحابى الفاتح القائد المظفر سعد بن أبى وقاص ، وسكنه عبد الله بن مسعود مفتياً وقاضياً ، أرسله الفاروق عمر إلى تلك البلاد

هدية منه إليها مؤثراً به إياهم على نفسه على حد تعبير عمر ، وسكن العراق الصحابى الجليل الذى ربى فى بيت النبوة عمار بن ياسر ، وسكنه صحابى جليل آخر وربيب بيت النبوة أيضاً ، وهو سلمان الفارسى وقبره الآن غير بعيد عن بقايا إيوان كسرى ، وسكنه كذلك كل من أنس بن مالك وأقام بالبصرة وتوفى بها سنة ٩٣ وسكنه المغيرة بن شعبة ، الذى كان لدهائه وبديهته يعرف بمغيرة الرأى ، وقد ولى البصرة والكوفة لعمر ، ثم ولى الكوفة لمعاوية وبقى بها إلى أن مات سنة ٥٠ هـ وليس من شك فى أن هؤلاء الصحابة الأجلاء كانوا ينشرون علمهم فى أرجائه ، ويشعون فقههم فى سمائه ، ويحدثون بحديث رسول الله ﷺ فى كل أنحائه .

وإن علينا ألا ننسى سُكنى أبى موسى الأشعرى للعراق ، وهو بدوره صحابى جليل وفقيه عظيم ، ربما يكون الرجل على غير وعى بالسياسة ، ومن ثم ارتبطت بشخصه بعض أسباب الفتنة التى نتجت عن التحكيم بين أمير المؤمنين على والوالى على الشام آنذاك معاوية بن أبى سفيان ، ولكن العيب لم يكن فى الأصل عيب أبى موسى بقدر ما كان العيب فى جنود أمير المؤمنين وتخاذلهم وعدم انصياعهم لأوامره فى القتال حتى يستتب الأمر وتثبت أركان الخلافة .

نقول إن إقامة أبى موسى فى العراق ، وهو صحابى جليل كانت ذات أثر فقهى خاص استأثر به العراق دون غيره من الأقطار الإسلامية ، ذلك أن الخليفة عمر اختصّ أبا موسى ، وبالتالى اختص العراق برسالته المشهورة فى القضاء ، وإذا كان المقام هنا لا يسمح بتسجيل هذه الرسالة ، فإن ذلك لا يمنع من أن نقرر أنها تشمل جميع الأسس الفقهية المتعلقة بنظام القضاء فى الإسلام ، ومن العراق سرت الرسالة إلى بقية الأمصار الإسلامية وجرى تطبيقها ، وأفردت لها الدراسات الطويلة ، ومنها استمدت الأحكام التى تخطت دنيا المسلمين إلى دساتير الدول الغربية المسيحية المعاصرة .

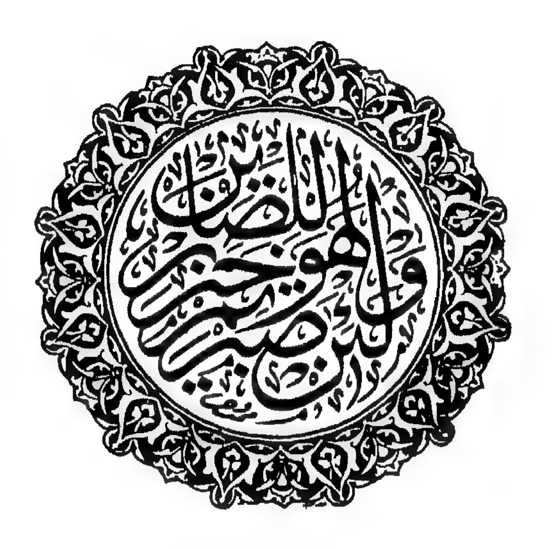
وإذا كان الرأى غير المتحرز المتسم بالغلو والشطط لا يستمر طويلاً — وهذا

دستور الحياة – فإننا نجد فقهاء المالكية الذين غلا بعضهم فى الحملة على العراق واشتط فى النيل من فقهائه ، لا يلبثون أن يعودوا إلى القصد أو ما يشبه القصد فى أحكامهم على العراق والعراقيين فيقول قائلهم : « لا ننكر أنه كان بالعراق علماء فى الدين ورواية فى السنة ، ولا ندعى العصمة لإمامنا ، ونفى الصواب عن غير علمائنا ، لكننا ندعى الفضل له والترجيح لمذهبه ونقول إنه أقوم قيلاً وأهدى سبيلاً » .

إن مثل هـذا القول يعتبر غاية فى التغير الفكرى من المالكية ، فقد ألفوا فى وقت ما ألا يعترفوا بغير إمامة مالك ، وذهب بعض معتنقى المذهب إلى إسباغ نوع من التقديس على الإمام بعد وفاته بزمن قصير ، مما كاد أن يحدث فتنة فى بعض أنحاء العالم الإسلامى ، ومما اضطر الإمام الشافعى – وهو تلميذ مالك – إلى أن يؤلف كتابا يواجه به بعض ما ينكره من اجتهاد مالك أسماه « اختلاف مالك » على ما سوف نبين في كتابنا عن الإمام الشافعي إن شاء الله.

لقد كان العراق مهداً للعلماء ومقراً للفقهاء وموطناً للمحدثين ، ففيه بزغ نجم أبى حنيفة وصاحبيه أبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى ، وفيه ظهر عبد الرحمن بن مهدى ، وحماد بن زيد ، ومن تحت سمائه ظهر إمام جليل عظيـم يقر به الدين عيناً ، وتنعم حرية الرأى به رائداً ، ويفخر المؤمنون به إماماً هو أحمد بن حنبل ، وما لنا ننسى الحسن البصرى ومدرسته العاقلة المتزنة فى جنوب العراق ، ومحمد بن سيرين معاصره زمناً ومرافقه سكنا .

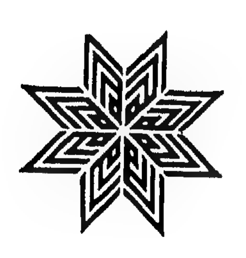
هـذا وليس من المستحب فى هـذا المجال ألا نشير إلى علماء اللغة والتاريخ والأخبار الذين عاشوا فى العراق وهم سدنة بحكم تخصصاتهم للعلوم الدينية ، وخدام لها ومسهمين فى تنشيطها ، ومن ثم يكون العراق أرض علم وعلماء ، وموطن فقه وفقهاء ، مؤهلين للدرس والإفتاء ، قادرين على التخريج والاستنباط .


ولئن صبرتم لهو خير للصابرين

الفصل الثاني

شيوخ أبي حنيفة وأساتذته

* حماد بن أبي سليمان .
* شيوخ كوفيون آخرون .
* شيوخ غير كوفيين .
* شيوخه من آل البيت .





الفصل الثانى

شيوخ أبى حنيفة وأساتذته

أسلفنا القول بذكر شيوخ أبى حنيفة وأساتذته ، وهم بطبيعة الحال كوفيون فى أكثرهم ، تلقى عنهم فى موطنه الكوفة التى كان الفاروق عمربن الخطاب يسمى أهلها رأس أهل الإسلام حينا ، وحينا آخر كان يسميهم رمح الله وكنز الإيمان وجمجمة العرب ، وكان أمير المؤمنين على بن أبى طالب يقول إنها جمجمة الإسلام وكنز الإيمان وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء .

— ١ —

حماد بن أبى سليمان :

فأما الكوفيون من شيوخ أبى حنيفة فهم حماد بن أبى سليمان ، ومحمد بن دثار وسماك بن حرب ، وعبد الكريم أبو أمية ، وعبد العزيز بن رفيع .

على أن الشيخ الذى لازمه أبو حنيفة وجلس إليه أطول مجلس مختصا به متفرغا له مقبلا عليه هو حماد بن أبى سليمان المتوفى سنة مائة وعشرين .

وكان حماد شيخا لعدد غير قليل من الأئمة والفقهاء ، منهم الإمام سفيان الثورى ، ومنهم شُعْبَةُ بن الحجاج الفقيه المحدّث الراوية الأديب الذى قال الإمام الشافعى فى شأنه : لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق ، والذى قال عنه الأصمعى : لم نر أحدا قط أعلم بالشعر من شعبة ، والذى وصفه أبو نعيم الأصفهانى بأمير المؤمنين فى الرواية والتحديث ، وزين المحدثين فى القديم والحديث ، ومنهم مسعربن كدام بن ظهير الهلالى الكوفى الذى كان يقال له « المصحف » لدقة ما يروى من الحديث ، وقد وصفه الإمام سفيان بن عيينة بأنه من معادن الصدق والذى قال عنه الإمام سفيان الثورى : لم يكن فى زمانى

مثله . ومنهم سليمان بن مهران الملقب بالأعمش العالم بالقرآن والحديث والفرائض وكان يعتبر قمة فى السلوك بين العلماء حتى قال السخاوى فى شأنه وعلاقته بالملوك : لم ير السلاطين والملوك والأغنياء فى مجلس أحقر منهم فى مجلس الأعمش مع شدة حاجته وفقره .

هؤلاء الأعلام جميعاً وكثيرون غيرهم كانوا تلاميذ حماد بن أبى سليمان ورفقاء أبى حنيفة فى حلقته ، ومن ثم يكون حماد فى مقدمة علماء الكوفة بل علماء المسلمين ، فقد تخرج فى حلقته أكثر من إمام ، وتعلم فى ساحته أكثر من فقيه ، وهو فى رأى بعض العلماء أحد أفقه ثلاثة بين علماء عصرهم ، وهؤلاء هم الزهرى وقتادة وحماد .

وحماد كان أفقه أصحاب إبراهيم النخعى ، وقد مر بنا قبل قليل تعريف بالنخعى وشخصيته العلمية الفقهية الخلقية التى قل وجود طراز لها ، ولذلك فإن حماداً لم يأخذ من إبراهيم النخعى العلم وحسب وإنما الخلق والشمائل أيضاً ، فقد قال عنه داوود الطائى إنه كان سخيا على الطعام جواداً بالدنانير.[1] .

وقد سبق أن ألمحنا إلى أن حمادا لم يتلق فقه إبراهيم النخعى وحسب وإنما نهل أيضاً من علم الشعبى وسعيد بن جبير ، وثلاثتهم أئمة فى العلم ، عباد فى المحراب ، فرسان فى الحرب ، وقد سبق الحديث عن موقفهم من حرب بنى أمية وانخراطهم فى الجيش الذى حارب الحجاج فى معركة دير الجماجم وقصة استشهاد سعيد بن جبير .

وإذن فقد كان بين ما أخذه حماد ، عن شيوخه رأيا سياسيا نابعا من الشرع منبثقاً من الاجتهاد ، وهو ألا يؤمن إلا بخلافة صحيحة لا لبس حول صحتها ولا خلاف حول شرعيتها ، وهو أمر ظهر فيما بعد فى الفكر السياسى لأبى حنيفة الذى لم يسلم بشرعية حكم بنى أمية أو صحة ملك بنى العباس .

وإذا أردنا أن نعرف الاتجاه الأصيل لفقه حماد وجدناه فقه الإمامين الجليلين

---

(١) تهذيب التهذيب ١٧/٣ .

على بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، فإنهما قد أورثا علمهما الغزير أهل الكوفة وعلى رأسهم علقمة بن قيس والقاضى شريح بن الحارث ، ومسروق بن الأجدع الوادعى وقد كان يقال فى حق هذين التابعيين الأخيرين : مسروق أعلم بالفتيا من شريح ، وشريح أبصر بالقضاء من مسروق . وعن هؤلاء الثلاثة الأعلام أخذ إبراهيم علمه وفقهه وعنه تلقى حماد الذى كان أشهر تلاميذه وأقربهم إليه وأكثرهم أخذا عنه أبو حنيفة النعمان وقد كان حماد يقول بالرأى كأستاذه النخعى ومن ثم كان انتماء أبى حنيفة إلى مدرسة الرأى ثم تزعمه لها والجلوس على قمتها ، ومدرسة الرأى كما سوف نبين فيما يستقبل من صفحات تأخذ فقهها وتستمد أحكامها من الكتاب والسنة وتقول بالرأى حيث لا يكون هناك نص من كتاب أو سنة .

سلف القول أن أبا حنيفة لزم حمادا ثمانى عشرة سنة ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يختلف إلى شيوخ آخرين فى الكوفة ، وشيوخ آخرين فى مكة والمدينة عندما كان يقوم بأداء فريضة الحج ، وقد ذهب أكثر مؤرخى أبى حنيفة إلى أنه حج خمسا وخمسين حجة . هذا فضلا عن إقامته شبه المتصلة بمكة بين سنتى مائة وثلاثين ومائة وست وثلاثين .

— ٢ —

شيوخ كوفيون آخرون :

من شيوخ الكوفة الذين أخذ أبو حنيفة عنهم التابعى محارب بن دثار الذى وصف فى علمه بالأمانة والثقة والصدق ، وكان يكنى حينا بأبى مطرف ، ويعرف حينا آخر بأبى النضر الكوفى القاضى ، وقد روى عن فريق من كبار الصحابة والتابعين أمثال عبد الله بن عمر وعمران بن حطان والأسود بن يزيد النخعى أخى إبراهيم النخعى شيخ حماد بن أبى سليمان . وروى عنه عدد من كبار الأئمة والفقهاء من رفاق أبي حنيفة وشيوخه من أمثال عطاء بن السائب والأعمش وسعيد بن مسروق وشعبة ومسعر بن كدام والسفيانين.

وكان محارب بالإضافة إلى علمه الغزير وفضله الكثير فارساً شجاعاً بحيث وصف بأنه أفرس الناس ، وهو إلى فروسيته عابد زاهد حتى إن الإمام سفيان الثورى يقول عنه : ما يخيل إلى أنى رأيت زاهدا أفضل من محارب .

بل إن سماك بن حرب – وهو أحد شيوخ أبى حنيفة كما سوف نفصل بعد قليل – يقول فى شأن محارب ، وكان يعرفه ويلقاه : كان أهل الجاهلية إذا كان فى الرجل ست خصال سودوه : الحلم والصبر والسخاء والشجاعة والبيان والتواضع ، ولا يكملن فى الإسلام إلا بالعفاف ، وقد كملن فى هذا الرجل يعنى محارب بن دثار .

إن الإمام أبا حنيفة كان يمتلك كل هذه الصفات فضلا عن العلم والذكاء الخارق ، ولاشك أنه تأثر فى بعضها بمحارب .

وكان محارب قاضيا للكوفة ، ثم عزل عن القضاء ثم أعيد إليه وتوفى سنة مائة وست عشرة ، وكان من المرجئة فى شأن على وعثمان .

ومن شيوخ أبى حنيفة الكوفيين سماك بن حرب بن أوس الذهلى البكرى ذلك الذى مر ذكره قبل قليل وصاحب الرأى الجميل فى القاضى الفقيه محارب ، ولقد أدرك سماك ثمانين صحابيا أخذ عن أكثرهم ، كما أخذ عن كبار التابعين ، روى عن أنس بن مالك والنعمان بن بشير وعبد الله بن الزبير وإبراهيم النخعى والشعبى وسعيد بن جبير وغيرهم . وروى عنه ابنه سعيد بن سماك والأعمش وحماد بن سلمة وشعبة وسفيان الثورى وغيرهم ، ومن كان هؤلاء شيوخه وأولئك رواته يكون فى مكان رفيع من العلم والحديث .

وكان سماك فصيحا عالما بالشعر وأيام الناس ، ولمكانته فى الحديث روى له أصحاب كتب الحديث الستة ، وتوفى سنة ثلاث وعشرين ومائة .

ومنهم أيضا عبد الكريم أبو أمية المتوفى سنة ست وعشرين ومائة ، سمع منه الإمام أبو حنيفة . يقول سفيان بن عيينه : أول ماجالست من الناس عبد الكريم أبو أمية وأنا ابن خمس عشرة سنة ، فكأن عبد الكريم بالنسبة لسفيان مثل ربيعة بالنسبة لمالك ومثل مالك بالنسبة إلى الشافعى ، ومثل حماد بالنسبة إلى أبى

حنيفة ، وإذا سأل سائل : مابال سفيان بن عيينة يجلس إليه وهو حجازى وعبد الكريم كوفى ؟ كان الجواب أن سفيانا كوفى الأصل ، ولد بالكوفة سنة سبع ومائة ، وكان أبوه من عمال خالد القسرى ، فلما عزل خالد هرب والد سفيان إلى مكة فنشأ سفيان بها واشتهرت حلقته فى البيت الحرام بعد أن استفاضت معارفه وذاعت شهرته .

ومن شيوخ أبى حنيفة فى الكوفة أيضا عطية بن سعد بن جنادة الكوفى المتوفى سنة احدى عشرة ومائة ، روى عن بعض الصحابة مثل عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وزيد بن أرقم ، كما روى عن عدى بن ثابت شيخ الإمامية فى الكوفة فيكون قد جمع بين علم أهل السنة ممثلا فى ابن عمر وابن عباس ، وعلم الشيعة ممثلا فى عدى .

وعن عطية روى كثير من الأعلام منهم الأعمش ومحمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، على أن عطية قد اعتبر من علماء الشيعة بالكوفة وكان التشيع آنذاك أقرب إلى القصد وأدنى إلى الاعتدال وأبعد مايكون عن الغلو والإسراف فى أمور الشرع والعقيدة .

وكان عطية قد انتظم عقد الخارجين على بنى أمية وحارب مع ابن الأشعث شأنه فى ذلك شأن ابراهيم النخعى والشعبى وسعيد بن جبير ، ولقد أمر الحجاج بضربه أربعمائة سوط وحلق رأسه ولحيته لأنه رفض أن يسب عليا حين طلب إليه ذلك [٢] .

— ٣ —

شيوخ لأبى حنيفة غير كوفيين :

سمع أبو حنيفة من شيوخ آخرين غير كوفيين ، فقد كان بعض الفقهاء الكبار يزورون الكوفة فكان أبو حنيفة يستمع منهم حين يعقدون حلقات موقوتة مثل الصحابى الجليل أنس بن مالك ، والتابعى الفقيه هشام بن عروة بن الزبير .

---

(٢) تهذيب التهذيب ٢٢٤/٧ .

وكان أبو حنيفة كثيرا ما يذهب إلى الحج ، بل إنه أقام فى الحجاز بضع سنوات فى أواخر أيام بنى أمية وأوائل حكم بنى العباس حسبما سلف القول ، فكان يجلس آنذاك إلى كبار فقهاء التابعين ينقل عنهم ويحسن الاستماع إليهم .

فإذا مارجعنا للحديث عن أنس بن مالك ذكرنا أنه خادم رسول الله وأحد صحابته البررة ، وأنه ترك المدينة وسكن البصرة ، وكان آخر من توفى بالبصرة من صحابة رسول الله ﷺ ، وكان ذلك سنة ثلاث وتسعين هجرية ، والصلة بين الكوفة والبصرة معروفة منذ أن أنشئت المدينتان الإسلاميتان الزاهرتان ، ساكن الكوفة يتردد على البصرة ، وكذلك يفعل ساكن البصرة فيتردد على الكوفة ، وتبعا لذلك فقد زار الصحابى الجليل أنس بن مالك الكوفة – فى عمره الطويل الذى جاوز المائة – عدة مرات ، وكان أهلها يعرفون فضله ويتحلقون حوله فى المسجد ويسمعون منه حديث رسول الله ﷺ ، وأبو حنيفة بينهم وإن يكن حديث السن .ولأن أبا حنيفة قد سمع الصحابى أنس بن مالك فقد اعتبره بعض مؤرخى السير من التابعين على أساس أن التابعى هو من سمع من الصحابى وقد فعل أبو حنيفة ذلك حين استمع إلى أنس .

ولقد كان أنس كثير الحفظ لأحاديث رسول الله ﷺ ، روى عنه رجال الحديث ألفين ومائتين وستة وثمانين حديثا ، وكان يقول لبنيه : يابنى قيدوا العلم بالكتاب ، أى اكتبوه حتى لايضيع من صدوركم ، وكان أبو هريرة يقول عن أنس : ما رأيت أحدا أشبه صلاة برسول الله ﷺ من ابن أم سليم يعنى أنس بن مالك[٣] .

وليس من شك فى أن أبا حنيفة قد رأى صلاة رسول الله ﷺ حين كان يرى أنسًا يصلى بالناس فى مسجد الكوفة إبان زيارته لها .

وأما الفقيه الآخر غير الكوفى الذى استمع إليه أبو حنيفة وهو يزور الكوفة فهو هشام بن عروة بن الزبير بن العوام حسبما سلف القول ، وعمه عبد الله بن الزبير كان حبر هذه الأمة ، وجده الزبير بن العوام صحابى رسول الله ﷺ وابن

---

(٣) الطبقات الكبرى ١٧/٧ وما بعدها .

عمته ، وإن هشاما فضلا عن ذلك رأى من الصحابة عبد الله بن عمر وأنس بن مالك وسمع منهما ومن ابن شهاب الزهرى ، وهشام إلى ذلك يعدّ شيخا لكل من سمع منه وما أكثرهم وأفضلهم ، فقد سمع منه يحيى بن سعيد الأنصارى ويحيىّ بن سعيد القطان والإمام مالك والإمام الليث بن سعد ووكيع بن الجراح والإمام سفيان الثورى وسميه الإمام سفيان بن عيينة .

وكان هشام ترك الحجاز ورحل إلى العراق واستقر فى بغداد على عهد أبى جعفر المنصور وتوفى وهو عند المنصور سنة ست وأربعين ومائة فصلى عليه بنفسه .

وهناك قصة حدثت بين المنصور وهشام يجمل بنا ذكرها لأنها تبين خلق العلماء والتزامهم الصدق وتجنبهم الكذب مجاملة لخليفة أو تحية لسلطان ، فحين دخل هشام على المنصور أول مرة قال له المنصور على سبيل التحية : ياأبا المنذر تذكر يوم دخلت عليك أنا وإخوتى الخلائف وأنت تشرب سويقا بقصبة يراع ، فلما خرجنا من عندك قال لنا أبونا : اعرفوا لهذا الشيخ حقه فإنه لايزال فى قومهم بقية مابقى . قال : لا أذكر ياأمير المؤمنين . فلما خرج هشام من حضرة المنصور قيل له : يذكرك أمير المؤمنين ماتمتّ به إليه فتقول لا أذكره ؟ فقال : لم أكن أذكر ذلك ولم يعودنى الله فى الصدق إلا خيرا .

وهكذا يأبى الفقيه الجليل أن يجامل الخليفة فى أمر لم تكن المجاملة فيه ذات ضرر ، ولكنه الصدق الذى ينبغى أن يتحلى به من ينتمى إلى زمرة العلماء .

وأما فقهاء الحجاز الذين لقيهم أبو حنيفة وأخذ عنهم وتحدث إليهم فيجىء فى مقدمتهم عطاء بن أبى رباح الفقيه المحدث التابعى الجليل ، وهو يمنى المولد مكى الثقافة والإقامة والوفاة فقد ولد سنة سبع وعشرين وتوفى سنة مائة وأربع عشرة ، وكان عطاء مفتى مكة وفقيهها ، جمع بين العلم والزهد .

وأما شيوخ عطاء ومن قد سمع منهم فعدد كبير من الصحابة الكرام منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير ومعاوية وأسامة بن زيد وعقيل بن أبى طالب وعلى بن أبى طالب وأبى الدرداء ورافع بن خديج وأبى سعيد الخدرى وأبى هريرة كما سمع من

أمهات المؤمنين عائشة وأم سلمة ولقد ذكر عطاء أنه رأى مائتين من الصحابة .

وأما من رووا عنه واستمعوا إليه فصفوة فقهاء الإسلام من أمثال مجاهد وابن شهاب الزهرى وأيوب السختيانى والإمام الأوزاعى والإمام أبى حنيفة والأعمش وابن جريج وعمرو بن دينار والإمام الصادق جعفر بن محمد .

وكان عطاء مشاركا فى أحداث زمانه ، وعلى الرغم من أنه قد نودى به مفتيا وفقيها لمكة على عهد الأمويين فإنه قد خاض الحرب فى صفوف ابن الزبير وقطعت يده معه[٤] .

وكان عطاء بن أبى رباح من الفضل والعلم بحيث يقول عنه عبد الله بن عباس حين يستفتيه أهل مكة : تجتمعون إلىّ ياأهل مكة وعندكم عطاء ؟ وكان عبد الله بن عمر يقول القول نفسه . وكان قتادة بن دعامة السدوسى البصرى الفقيه الحافظ المحدث اللغوى المتوفى سنة ١١٨هـ يقول : إذا اجتمع لى أربعة لم أُبَالِ من خالفهم وهم الحسن البصرى وسعيد بن جبير وإبراهيم النَّخَعِى وعطاء[٥] . وكان الإمام أبو حنيفة يقول : ما رأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء ولا لقيت فيمن لقيت أكذب من جابر الجعفى .

إن الامام أبا حنيفة يسعى إلى حلقة عطاء فى المسجد الحرام فيسأله : من أين أنت ؟ فيجيب أبو حنيفة : من الكوفة . فيقول عطاء : من أهل القرية الذين فرقوا دينهم شيعا ؟ فيقول له : نعم . فيقول له عطاء : فمن أى الأصناف أنت ؟ فيجيب الإمام : ممن لايسب السلف ويؤمن بالقدر ولا يكفر أحدا بذنب . فيهش له عطاء ويقول : عرفت فالزم .

لقد حج عطاء سبعين حجة . وكان فراشه المسجد عشرين سنة وكان أحسن الناس صلاة[٦] فجمع بين العلم والتقى والزهد والسيادة وهو مع ذلك أسود

---

(٤) تهذيب التهذيب ٢٠٠/٧ .

(٥) المصدر السابق الجزء والصفحة . وجابر الجعفى هو جابر بن يزيد بن الحارث الجعفى من فقهاء الشيعة بالكوفة توفى سنة ١٢٨ .

(٦) حلية الأولياء ٣١٠/٣ .

كالغراب أعور أفطس أشل أعرج . ثم عمى فى آخر حياته . ولكن العلم والفضل والتقوى قد حجبت كل هذه العيوب الخلقية والعاهات الجسمية وجعلت فضله يعرف ويحمد ويذكر ويخلد .

ومن الطرائف التى يذكرها الإمام أبو حنيفة – وللإمام طرائف كثيرة – أنّه تعلم من حجّام عن عطاء . يقول الإمام : أخطأت فى خمسة أبواب من المناسك بمكة فعلمنيها حجام . وذلك أنى أردت أن أحلق رأسى فقال لى : أعربى أنت ؟ فقلت نعم . وكنت قد قلت له : بكم تحلق رأسى ؟ فقال : النسك لايشارط فيه – يعنى لاينبغى المشارطة فى مناسك الحج – اجلس . فجلست منحرفا عن القبلة . فأوما لى باستقبال القبلة . وأردت أن أحلق رأسى من الجانب الأيسر . فقال : أدر شقك الأيمن من رأسك فأدرته . وجعل يحلق رأسى وأنا ساكت . فقال لى : كبر . فجعلت أكبر حتى قمت لأذهب . فقال : أين تريد ؟ قلت : رحلى . قال صل ركعتين ثم امض . فقلت ماينبغى أن يكون هذا من قبل هذا الحجام إلا ومعه عالم . فقلت من أين لك ما رأيتك أمرتنى به . فقال : رأيت عطاء بن أبى رباح يفعل هذا(٧) .

لقد كان عطاء فى علمه وفضله جديرا بأن يلفت نظر الإمام النعمان أبى حنيفة . فيختلف إلى ساحته وينهل من فضله . لقد نهل من علم حجام سمع من عطاء . فليس عجيبا أن يرد حوض عطاء نفسه . فإن عنده خيرا كثيرا .

ومن كبار الفقهاء الذين سمع منهم أبو حنيفة فى المدينة نافع مولى عبد الله بن عمر . وكان عبد الله قد أصابه فى بعض مغازيه وهو غلام صغير فأكرمه وأحسن تربيته . ولذلك لم يكن نافع يعرف اسم أبيه أو اسم أحد من أهله . وقد قيل إنه ديلمى وكان يعرف بنافع مولى ابن عمر ويكنى بأبى عبد الله وينسب إلى المدينة المنورة فيقال له المدنى . وكان يعرف أيضا بنافع الفقيه .

وقد سمع نافع من عدد من الصحابة وفى مقدمتهم عبد الله بن عمر مولاه .

---

(٧) وفيات الأعيان ترجمة عطاء بن رباح .

وأبى هريرة ، وأبى سعيد الخدرى ورافع بن خديج ، وأم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين أم سلمة ، كما روى عن أبناء مولاه الأربعة عبد الله وعبيد الله وسالم وزيد .

وقد روى عنه أولاده أبو عمر ، وعمر ، وعبد الله وعدد كبير من كبار التابعين وتابعيهم مثل يحيى بن سعيد الأنصارى ، ومحمد بن شهاب الزهرى ، وميمون بن مهران قاضى الكوفة والرقة وفاتح قبرص ، وابن جريج ، والأئمة الأوزاعى ومالك والليث بن سعد وغيرهم كثيرين .

وكان مولاه عبد الله بن عمر يعرف قدر نافع وفى ذلك يقول : لقد من الله علينا بنافع ، وإن نافعا من جلال الفقه وصدق الحديث ووفرة العلم بحيث أن الخليفة الجليل عمر بن عبد العزيز قد بعث به إلى مصر ليعلم المصريين السنن .

ومن ناحية روايته قد قال رجال الحديث إنه لا يعرف له خطأ فى جميع ما رواه[8] ولذلك كان الإمام مالك يقول : كنت إذا سمعت من نافع يحدث عن ابن عمر لا أبالى ألا أسمعه من غيره ، وأهل الحديث يقولون : رواية الشافعى عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب لجلالة كل واحد منهم[9] .

وحول نافع ومولاه عبد الله بن عمر نروى حادثة طريفة أثارت بعض الجدل الفقهى . إن ابن خلكان ينقل عن « المهذب » لأبى إسحاق الشيرازى قول نافع وهو يروى الحادثة على هذا النحو : «كنت أسير مع عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فسمع زمارة راع ، فوضع إصبعيه فى أذنيه ثم عدل عن الطريق فلم يزل يقول : يانافع أتسمع ؟ حتى قلت لا ، فأخرج إصبيعيه عن أذنيه ثم رجع إلى الطريق ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع » .

والجدل الفقهى حول القصة هو : كيف سد ابن عمر أذنيه عن استماع صوت المزمار ولم يأمر مولاه نافعا بفعل ذلك بل مكنه من الاستماع إليه ، وكان يسأله كل وقت هل انقطع الصوت ؟ .

---

(٨) تهذيب التهذيب ٤١٤/١٠ .

(٩) وفيات الأعيان ترجمة نافع .

وقد قيل فى هذا السبيل إن نافعا كان صغيرا ومن ثم لم يكن مكلفا حتى يمنعه عن الاستماع . وهناك استدراك بأن إخبار الصبى غير مقبول فكيف ركن ابن عمر إلى إخباره فى انقطاع الصوت ؟ ويخرج بعض الفقهاء من ذلك إلى تعضيد حجة من قال إن رواية الصبى مقبولة .

ومهما كان الأمر فإن شخصية نافع ذات أثر كبير فى أكثر ائمة المسلمين وفقهائهم من أمثال أبى حنيفة ومالك والليث والأوزاعى وابن جريج ، وقد توفى نافع سنة مائة وسبع عشرة أو تسع عشرة .

— ٤ —

شيوخ أبى حنيفة من آل البيت :

أبو حنيفة محب لآل بيت رسول الله ، موقر لهم ، مقبل عليهم ، معترف بفضلهم . يأخذ عنهم العلم ويفتى بأحقيتهم بالحكم ، وهو لا يفعل ذلك لأنه فارسى حسبما ذهب بعض الباحثين وإنما يفعل ذلك لأنه مسلم . وكل المسلمين بلا استثناء يحبون آل بيت رسول الله ﷺ ويمجدون الحسن والحسين وعلى بن الحسين وزيداً ومحمداً ابنى على، وجعفراً الصادق بن محمد وبقية العترة الطاهرة من أبناء فاطمة الزهراء أحفاد رسول الله ﷺ .

لقد لقى أبو حنيفة محمداً الباقر وأخاه زيدا وهما ابنا زين العابدين على بن الحسين . وكلاهما أكبر من أبى حنيفة فأخذ عنهما — وبخاصة عن زيد — علما كثيرا كما لقى آخرين من أعلام آل البيت حسبما نسوق الحديث بعد قليل .

الإمام محمد الباقر :

إن محمداً الباقر — أول من أخذ عنه أبو حنيفة من آل البيت — كان عالما سيدا جليلا متصفا بأخلاق بيت النبوة من سماحة وعلم ووقار وسيادة . ولقد لقب بالباقر لأنه تبقر فى العلم أى توسع فيه . والإمام محمد الباقر سليل لبيت النبوة أبا وأما . فأبوه على زين العابدين بن سيد الشهداء الإمام الحسين بن الزهراء فاطمة بنت رسول الله ﷺ . وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن الحسن بن الزهراء فاطمة بنت

رسول الله فجده من ناحية أبيه الحسين . وجده من ناحية أمه الحسن . فجداه والحال هذه هما سيدا شباب أهل الجنة . ومحمد مولود سنة ست وخمسين هـ وتوفى سنة مائة وأربع عشرة ومن ثم فإنه يعد من طبقة العلماء التابعين وقد هيأت له نشأته فى بيت النبوة وعيشته فى المدينة روافد من العلم متعددة . ومصادر من الفضل متنوعة فقد روى عن أبيه وجديه الحسين والحسن وعم أبيه محمد بن على بن أبى طالب المعروف بمحمد بن الحنفية . وعبد الله بن عباس . وعبد الله بن عمرو وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وأنس بن مالك وغيرهم من صحابة رسول الله الذين عاشوا حتى زمان تلقى محمد العلم .

وقد روى عن الباقر كثيرون من صفوة الأئمة وخيرة العلماء وأجلة المحدثين منهم ولده الإمام جعفر الصادق ومحمد بن شهاب الزهرى وعمرو بن دينار . والأعمش والأوزاعى وابن جريج وغيرهم .

وكان الإمام محمد من الفضل والنقاء بحيث لا يذكر الخلفاء الراشدين إلا بالإجلال والتكريم مترفعا عما تورط فيه بعض من غلا من الشيعة فى النيل منهم يقول سالم بن أبى حفصة : سألت أبا جعفر وابنه جعفراً الصادق عن أبى بكر وعمر . فقالا لى : ياسالم تولهما وابرأ من عدوهما فإنهما كانا إمامى هدى . ومرة أخرى يقول الإمام محمد الباقر : ما أدركت أحدا من أهل بيتى إلا وهو يتولاهما (١٠) .

بل إن الإمام محمدا الباقر كان شديد التوبيخ لمن يتورط فى ذكر الخلفاء الراشدين الأولين بسوء ويواجههم بعبارات من التقريع الشديد . فقد ذكر بعض أهل العراق إمامة أبا بكر وعمر وعثمان بسوء فغضب لذلك وقال لهم فى استنكار : أنتم من المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ؟ قالوا : لا . فقال : أنتم من الذين تبوأوا الدار والإيمان ؟ قالوا : لا . فقال مؤنبا : ولستم من الذين جاءوا من بعدهم يقولون :

« رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الذينَ سَبَقُونَا بالإِيمَان »

(١٠) تهذيب التهذيب ٩/٣٥٠ .

ثم استطرد : قوموا عنى ، لاقرب الله داركم ، تُقِرُّون بالإسلام ولستم من أهله .

هذا هو محمد الباقر الذى اتصل به أبو حنيفة فى رحلاته إلى الحجاز وفى أثناء إقامته به بين مكة والمدينة مهاجرا من الكوفة إبان أواخر عهد الأمويين بالخلافة ، وهو بحكم علمه وعمره يعدّ فى مقام الأستاذ لأبى حنيفة ، ولقد جرى حوار فقهى طريف بين الإمام الباقر وبين الشاب أبى حنيفة النعمان فى أول لقاء بينهما توطدت بعده أسباب المودة وروابط الأخذ والرواية .

وقد لا نكون متعجلين إذا أوردنا صيغة هذا الحوار الفقهى الطريف بين الإمام الجليل الباقر والشاب المرشح لأن يكون واحدا من أئمة المسلمين لأن هذا الحوار متعلق بجوهر فقه أبى حنيفة وهو الرأى والقياس ، وبسبب الرأى والقياس لقى أبو حنيفة هجوما من بعض مخالفيه لم يسلم فيه الإمام الجليل من أن يرمى بالزيغ حينا والكفر حينا آخر .

إن الإمام الباقر يوجه إلى أبى حنيفة سؤالا يحمل صيغة توبيخ مهذب قائلا أنت الذى حولت دين جدى وأحاديثه بالقياس ؟ فيقول أبو حنيفة فى براءة وصدق : معاذ الله ، ولكن الباقر يقول : بل حولته . وكان الباقر بدوره يقول ذلك بصدق بينه وبين نفسه لكثرة ما سمع من أخبار غالية حول فتاوى أبى حنيفة ، وأبو حنيفة من ذلك كله براء ، ولذلك فإن الفقيه الشاب تأخذه حمية العلم وغريزة الدفاع عن فكره ويقول لمحمد الباقر : اجلس مكانك كما يحق لك حتى أجلس كما يحق لى ، فإن لك عندى حرمة كحرمة جدك ﷺ فى حياته على صحابه ، فجلس الإمام الباقر ، وفى أدبه الجم وشدة التوقير لآل بيت الرسول يجلس أبو حنيفة بين يديه ثم يقول موجها الأسئلة إلى الإمام الباقر : إنى سائلك عن ثلاث كلمات فأجبنى ، الرجل أضعف أم المرأة ؟ فيقول الإمام الباقر : المرأة . فيقول أبو حنيفة : كم سهم للمرأة ؟ ويجيب الباقر : للرجل سهمان وللمرأة سهم ، فيقول أبو حنيفة : هذا قول جدك ، ولو حولت دين جدك لكان ينبغى فى القياس أن يكون للرجل سهم وللمرأة سهمان لأن المرأة أضعف من الرجل .

وينتقل أبو حنيفة إلى السؤال الثانى قائلا : الصلاة أفضل أم الصوم ؟ فيقول الباقر : الصلاة أفضل ، فيقول أبو حنيفة : هذا قول جدك ، ولو حولت قول جدك لكان القياس أن المرأة إذا طهرت من الحيض أمرتها أن تقضى الصلاة ولا تقضى الصوم .

ثم ينتقل أبو حنيفة إلى السؤال الثالث : البول أنجس أو النطفة ؟ فيقول الباقر : البول أنجس ، فيقول أبو حنيفة : لو كنت حولت دين جدك بالقياس لكنت أمرت أن يُغتسل من البول ويُتوضأ من النطفة ، ويمضى أبو حنيفة قائلا : ولكن معاذ الله أن أحول دين جدك بالقياس . وهنا يقوم الإمام الجليل باقر العلم فيعانق أبا حنيفة ويقبل وجهه ويفيض عليه من كرمه .

الإمام زيد بن علىّ :

وممن أخذ عنهم أبو حنيفة من أهل بيت النبوة الإمام زيد بن على زين العابدين ، وزيد أخ لمحمد الباقر الإمام الذى سلف الحديث عنه ، غير أن زيدا أصغر من أخيه ببضعة عشر عاما لمولده سنة تسع وسبعين بينما مولد محمد سنة ست وخمسين حسبما أوضحنا قبل قليل .

ويمتاز زيد بكونه مجمع ثقافات عديدة ، ووعاء معارف متنوعة ، كان غزير العلم وافر الحديث فارسا مقداما ذا شمائل وصاحب زهد حتى إن جعفر بن أخيه محمد يقول فيه : يرحم الله عمى ، كان والله سيداً ، والله ما ترك فينا لدنيا ولا آخرة مثله .

وزيد هو إمام المذهب الذى يحمل اسمه ، وقد مات شهيدا فى الكوفة وهو يقاتل بنى أمية لما أوقعوا بالناس من ظلم ، وقد بايعه أربعون ألفاً من المسلمين أكثرهم من الكوفة على الدعوة إلى الكتاب والسنة وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين والعدل فى قسمة الفىء ورد المظالم ونصر أهل البيت ، ونشبت المعارك التى انتهت باستشهاده سنة اثنتين وعشرين ومائة فصلب جسمه أربع سنوات ، وأما رأسه فأخذ إلى دمشق فنصب على بابها ثم أرسل إلى

المدينة فنصب عند قبر جده ﷺ ، ثم أرسل إلى مصر فنصب بالجامع ، وتقول الروايات إن أهل مصر سرقوه ودفنوه . وإن الروايات التى ذكرت حول صلب الإمام زيد وما فعله عمال بنى أمية بجسده ،لممّاينال من مروءتهم ويجرح إنسانيتهم .

فإذا كان الأمر متعلقا بإمامة زيد وعلمه ، وهو موضوع الاهتمام فى هذا السياق ، فإن زيدا قد حاز فقه السنة بروايته عن أبان بن عثمان بن عفان وابن شهاب الزهرى وعروة بن الزبير وشعبة بن الحجاج وغيرهم ، وحاز فقه الشيعة بروايته عن أبيه زين العابدين وعن أخيه محمد الباقر ، وحاز فكر المعتزلة بتلمذته لواصل بن عطاء وقراءته عليه ، واقتباسه منه ، حتى إن المعتزلة يعدونه منهم . وكان أخوه الإمام محمد يعيب عليه جلوسه إلى واصل لأن واصلا يجوّز الخطأ على جده على بن أبى طالب لخروجه إلى حرب المسلمين فى موقعتى الجمل والنهروان(١١) ومن المعروف أن الشيعة تقول بعصمة الإمام ، وعلىّ هو أول الأئمة .

ومذهب الإمام زيد يعترف بخلافة أبى بكر وعمر ، ونذكر فى هذا السبيل أن فريقا من الشيعة جاءوا إلى زيد حين خرج على بنى أمية وطلب لنفسه الخلافة وطلبوا منه أن يتبرأ من أبى بكر وعمر حتى يكونوا معه من المؤيدين والمقاتلين فأجاب قائلا : بل أتولاهما ، فقالوا إذن نرفضك ، فسميت الرافضة .

وكان الإمام زيد لا يفتأ يمجد أبا بكر وعمر ، وقد سأله بعض أصحابه عن قوله تعالى :

« وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ »(١٢)

فقال : أبو بكر وعمر ، ثم قال : لا أنالنى الله شفاعة جدى إن لم أوالها . وكان يقول : الرافضة حربى وحرب أبى فى الدنيا والآخرة(١٣) .

---

(١١) فوات الوفيات ترجمة زيد بن على .

(١٢) سورة الواقعة الآية ١٠ .

(١٣) تهذيب التهذيب ٤١٩/٣ .

ومع اعتراف زيد بصحة خلافة أبي بكر وعمر فإنه كان يفضل عليا عليهما وعلى بقية الصحابة، ذلك أن مذهب الإمام زيد يجوز خلافة المفضول مع وجود الأفضل، والإمام علي - جده الثاني - أفضلهم جميعاً من وجهة نظره وأن الخلافة قد فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رآها الصحابة، ولقاعدة دينية راعوها.

لقد كان الإمام زيد بعلمه هذا المتنوع الغزير فى الفقه والعقائد والقراءات والحديث وغير ذلك أستاذا لأبى حنيفة ، وقد قيل إنه جلس إليه سنتين وذلك إبان إقامة أبى حنيفة فى الحجاز ، وقد ضعف بعض الرواة جلوس أبى حنيفة طوال هذه المدة ، وإنما كانت جلساته إليه متفرقة ، ومهما كان الرأى فى ذلك فإن الأمر الذى لا شك فيه أن أبا حنيفة تلميذ لزيد وقد وصفه بقوله : « شاهدت زيد بن على كما شاهدت أهله ، فما رأيت فى زمانه أفقه منه ، ولا أعلم ولا أسرع جوابا ، ولا أبين قولا ، لقد كان منقطع القرين » .

عبد الله بن الحسن بن الحسن :

ومن شيوخ أبى حنيفة من آل البيت أيضا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، كان عالما جليلا ذا شرف وهيبة وعارضة وبيان ، وكان موضع الاحترام والتكريم من صفوة العلماء وعامتهم ، وعنه يقول مصعب بن عبد الله : ما رأيت أحدا من علمائنا يكرمون أحدا مثلما يكرمون عبد الله بن حسن بن حسن [١٤]

وأبو محمد عبد الله بن الحسن كان محدثا صدوقا ، وإذا حدث قيل عن روايته هذه الرواية الصادقة . وقد روى عن أبيه وأمه وابن عم جده عبد الله بن جعفر بن أبى طالب والأعرج وعكرمة .

وأما من رووا عنه فكثيرون منهم بعض الأئمة مثل مالك وسفيان الثورى .

وكان عبد الله ذا مكانة ومنزلة عند الخليفة الأموى العادل عمر بن عبد العزيز

---

(١٤) تاريخ بغداد ٤٣٢/٩ .

وهو والد محمد بن عبد الله المعروف بالشبه لأنه كان قريبا فى ملامحه من رسول الله ﷺ والمعروف بمحمد النفس الزكية ، وإبراهيم الذى كان يعرف بإبراهيم الإمام .

وحين قامت دولة بنى العباس تقرب أبو العباس السفاح إلى عبد الله وأكرمه ، فلما آل الحكم إلى أبى جعفر المنصور توجس خيفة من محمد وإبراهيم ابنى عبد الله وطلب إلى أبيهما تسليمهما إليه وكانا قد استترا ، فلما لم يفعل ألقى القبض عليه وحبسه مقيدا فى داره بعض الوقت ، ثم نقله إلى حبس بالكوفة وظل به إلى أن لقى ربه سنة مائة وخمس وأربعين وهو ابن خمس وسبعين سنة . وتعتبر هذه القسوة من سقطات المنصور الكبيرة ، ومن المؤسف المحزن أن المنصور لم يقبض على عبد الله وحده ، وإنما ألقى القبض على جميع الذكور من بنى الحسن ، ويذكر الخطيب البغدادى أن المنصور لما أراد الخروج للحج جلست له ابنة لعبد الله بن الحسن اسمها فاطمة ، فلما أن مر أنشأت تقول :

ارحمْ كبيراً سِنُّهُ متهدمٌ فى السجن بينَ سلاسلٍ وقيودِ

وارحمْ صغارَ بنى يزيد إنهم يُتِمُوا لفقدكَ لا لِفَقْدِ يزيدِ

إن جُدْتَ بالرحمِ القريبةِ بيننا ماجدّنا من جدّكمْ ببعيدِ

فقال أبو جعفر : أذْكَرْتِنِيه ، ثم أمر به فحدر إلى المطبق ، أى تحت الأرض .

لقد خرج ولداه محمد وإبراهيم على المنصور لما علما بموت أبيهما ولكن ثورتهما لم يكتب لها النجاح على الرغم من أن صفوة العلماء خرجوا معهما وأفتوا بمشروعية خروج محمد ، وفى مقدمتهم الإمامان الجليلان أبو حنيفة ومالك .

إن أبا حنيفة كان تلميذا لهذا الإمام الجليل عبد الله بن الحسن والد الشهيدين الفارسين والفقيهين الجليلين محمد النفس الزكية الذى قتل وهو يواجه جيش المنصور وقوامه أربعة آلاف فارس، قتل محمد وحده منهم سبعين فارسا ثم استشهد لما تفرق أصحابه ، وقتل أخوه إبراهيم وهو يقود جيشه فى العراق فى نفس السنة التى توفى فيها أبوهما .

الإمام جعفر بن محمد :

ومن ذكروا كشيوخ لأبى حنيفة من آل البيت الإمام جعفر بن محمد المعروف بالصادق لصدقه وفضله ، وقد سلفت الإشارة عند الحديث عن أبيه محمد الباقر أنهما قالا عن أبى بكر وعمر لمن سألهما عنهما : إنهما إماميْ هُدى ، وكان الإمام جعفر – وهو الإمام السادس عند الشيعة الإمامية – يقول : ولدنى أبو بكر مرتين فإن أمه هى أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر[١٥] ، وكذلك كانت جدته حفيدة للصديق أبى بكر .

وكان الإمام الصادق فقيها عظيما ومحدثا صدوقا ، روى عن أبيه وعن معاصريه من فقهاء آل البيت ، كما روى عن غير أهل البيت من علماء المسلمين ، فقد روى عن عطاء بن أبى رباح أحد أشياخ أبى حنيفة ، وعكرمة بن عبد الله البربرى مولى عبد الله بن عباس ، وعبيد الله بن أبى رافع وعبد الرحمن بن القاسم[١٦]

لقد حرصنا على ذكر من روى عنهم الإمام جعفر من الفقهاء من غير أهل بيت الرسول لأن بعض علماء الشيعة يرفضون الأحاديث النبوية إذا لم تكن مروية عن طريق أهل البيت ، ولكن ها هو جعفر الصادق إمامهم يأخذ الحديث عمن ذكرنا من عامة فقهاء المسلمين .

ولقد روى عن الإمام جعفر عدد من أئمة المسلمين وفقهائهم مثل الإمام مالك والإمام الثورى وابن عيينة وشعبة بن الحجاج كما أخذ منه مسلم بن الحجاج فى « صحيحه » عددا من الأحاديث .

وكان الإمام سفيان الثورى قريبا إلى الإمام جعفر وقد سمع منه كثيرا من الأحاديث والحكم[١٧] . والإمام جعفر من السماحة ورحابة الصدر وسعة الأفق

---

(١٥) وفيات الأعيان . ترجمة جعفر بن محمد الصادق .

(١٦) حلية الأولياء ٣/١٩٨ .

(١٧) المرجع ٣/١٩٣ .

بحيث يرى وحدة الفكر عند المسلمين أمرا لازما فيقول فى ذلك : **إياكم والخصومة فى الدين فإنها تشغل القلب وتورث النفاق** . وكان يقول لسفيان الثورى فى معرض النصح والحكمة : **لا يتم المعروف إلا بثلاثة ، بتعجيله ، وتصغيره ، وستره** .

ولما سئل الإمام جعفر : لم حرم الله الربا ؟ أجاب : لئلا يتمانع الناس المعروف .

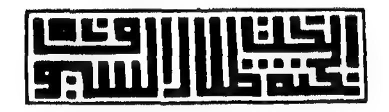
وعن الفرائض الأربعة يقول الإمام جعفر : الصلاة قربان كل تقى ، والحج جهاد كل ضعيف ، وزكاة البدن الصيام ، والداعى بلا عمل كالرامى بلا وتر ، واستنزلوا الرزق بالصدقة ، وحصنوا أموالكم بالزكاة .

ومجمل القول عن الإمام جعفر أنه كان من خيرة أئمة المسلمين ، غير أن تلمذة أبى حنيفة له لم تكن تلمذة بالمعنى الدقيق فهما ولدا فى سنة واحدة وبالتالى هما من عمر واحد وإن كان ذلك غير مانع من أن يتتلمذ المرء على من هو فى سنه ، بل كثيرا ما يتعلم ممن هو أصغر منه ، ولكن صلة أبى حنيفة بالإمام الصادق تقع فى ميدان تبادل المعرفة العلمية ، وهناك قصة لقائهما فى مجلس المنصور العباسى وكان أبو حنيفة يسأل الإمام السؤال فيجيبه قائلا : أنتم تقولون كذا ، وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا ، فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا . وهنا يقول أبو حنيفة رافعا من قدر الإمام جعفر : إن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس ، وكان الإمام جعفر حينما يقول لأبى حنيفة أنتم تقولون كذا ، كان يعنى الفقهاء العراقيين ، وحينما يقول وأهل المدينة يقولون كذا ، كان يقصد القائلين بالأثر ، وحينما يقول ونحن نقول كذا ، كان يعنى الشيعة ومذهبهم .

ولقد توفى الإمام جعفر سنة ثمان وأربعين ومائة يعنى قبل وفاة أبى حنيفة بعامين ، وكان الإمام أبو حنيفة يقول عنه : والله ما رأيت أحدا أفقه أفقه من جعفر الصادق

وبعد ، فهؤلاء أساتذة أبى حنيفة ، وهم من مدارس شتى ، ومشارب متباينة ، فيهم الكوفيون العراقيون والكوفيون بالإقامة ، وأكثرهم من أصحاب

الرأى ، وفيهم الحجازيون المكيون والمدنيون ، وفيهم من هم من أهل بيت النبوة ، وفيهم المعتزلة أو من هم قريبون إلى الاعتزال ، وهم بين فقيه ومحدث ، وعالم قراءات وعالم لغة ، وأبو حنيفة إلى ذلك كله يتردد على البصرة يستمع ويسمع ، ويدرس ويجادل ، وهى بلد الجدل والأهواء ، ثم هو يذهب إلى الحجاز مقيما نحو ست سنوات شبه متتابعة مستمعا إلى فقهاء مكة المقيمين والوافدين ، دارسا على فقهاء المدينة دار الهجرة ، هذا فضلا عن ذكاء مفرط ، وعارضة حادة ، واستقامة وتقوى ، ودراسة وتحصيل فى تتابع وتلاحق . إن كل هذه الملابسات جديرة بأن تخرج فقيها عظيما وإماما كبيراً .

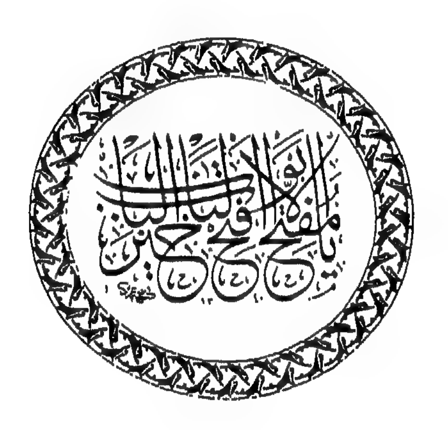


الفصل الثالث

حلقة أبى حنيفة

* حلقات مسجد الكوفة .
* حلقة أبى حنيفة تضم ثلاثة أرباع العلم .
* حلقة أبى حنيفة مجمع للبحوث الدينية .

وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ



الفصل الثالث

حلقة أبي حنيفة

سلف القول أن أبا حنيفة لم يجلس فى حلقة مستقلة به إلا بعد وفاة أستاذه حماد بن أبى سليمان سنة ١٢٠هـ ، وقلنا إن نفسه قد نازعته ذات مرة أن يترك حلقة أستاذه ويصنع لنفسه حلقة منفردة ، ولكنه ما ان دخل المسجد ووقع نظره على أستاذه حتى شعر بخجل شديد وأخذ مكانه بين يدى أستاذه الذى دعت الضرورة إلى أن يسافر فى اليوم نفسه إلى البصرة بلدته لتسلم ميراث استحقه ، فأناب أبا حنيفة ليكون رأس الحلقة وأستاذها . وغاب حماد شهرين ثم عاد إلى الكوفة فإذا بتلميذه يعرض عليه ماقد سئل عنه من مسائل كان قد سجل إجاباته عنها جميعا فيقره الأستاذ على صحة أربعين ويخطئه فى عشرين ، فيحسّ أبو حنيفة فى داخل نفسه بغير قليل من الندم لأن نفسه قد نازعته إلى الانفراد بحلقة وحده ولما يستكمل بعد كل أسباب النضوج العلمى .

وهاهو الشيخ حماد شيخ أبى حنيفة وأستاذه ينتقل إلى الرفيق الأعلى وسن التلميذ فى تلك الفترة أربعين سنة بالتمام والكمال ، وهى السن التى يكتمل فيها العقل ، ويتم فيها النضج ، وتستوى فيها أسباب العطاء ، فيجلس أبو حنيفة مكان حماد ويرأس حلقته ، ويبدأ فى إنشاء مجمع علمى فريد يسمى حلقة أبى حنيفة .

– ١ –

حلقات مسجد الكوفة :

كانت الكوفة معدن العلم حسب تعبير أبى حنيفة ، وكان مسجدها الأعظم قد حفل بحلقات الفقهاء الأعلام الذين أشرنا إليهم وذكرنا أطرافا من أخبارهم

فلما جلس أبو حنيفة كانت حلقته أكبر الحلقات وأكثرها امتلاء بالرجال وأوفرها اكتظاظا بالمستمعين . لقد حفل المسجد بعدة حلقات لعدد من كبار الفقهاء الأئمة ، فهاهى حلقة الأعمش سليمان بن مهران المتوفى قبل أبى حنيفة بعامين (٦١ – ١٤٨هـ) يجلس إليها القوم وقد أخذوا بفصاحته وتأثروا بزهده ، وتلك حلقة مسعر بن كدام الذى كان يقال له « المصحف » لحفظه ، غير أن مسعرا مالبث أن غادر الكوفة إلى مكة حيث توفى بها سنة ١٥٢هـ ، وعلى مقربة من هذه وتلك تنتصب حلقة الإمام سفيان الثورى الذى لم يلبث أن فعل ما فعله مسعر فترك الكوفة سنة ١٤٤ هـ إلى مكة حيث انتقلت حلقته إلى البيت الحرام وتوفى بها سنة ١٦١ هـ .

ولم تكن حلقات مسجد الكوفة قاصرة على الفقه والحديث وإنما كانت هناك حلقات القراءات ، فهذه حلقة حمزة بن حبيب القارئ الذى انعقد الإجماع على تلقى قراءته بالقبول ، والذى قال عنه سفيان الثورى إنه ما قرأ حرفا من كتاب الله إلا بأثر ، ولقد كان حمزة يعمل بتجارة الزيت ينقله من الكوفة إلى بلاد الجبل ، فإذا جلس للقراءة لم يتخلف أحد عن الاستماع إليه ولقد مات غريبا عن الكوفة سنة ١٥٦ هـ وولد فى السنة التى ولـد فيها أبو حنيفة . وغير بعيد عن حلقة حمزة حلقة أخرى يقرأ فيها القرآن كما أنزل ، إنها حلقة شعبة بن عياش بن سالم الأزدى الذى عاش مايقرب من مائة عام (٩٥ – ١٩٣) يعلم القرآن ويلقن الفقه لطالبى العلم من أبناء الكوفة والوافدين عليها ، فقد كان شعبة فقيها فى الدين إلى جانب كونه من مشاهير القراء .

وهناك حلقة للقراءات سبقت حلقتى حمزة وشعبة ، تلك هى حلقة عاصم صاحب القراءة المشهورة ، إنه عاصم بن أبى النجود شيخ أبى حنيفة فى القراءة ، عليه قرأ وعنه أخذ ، ولكن أبا حنيفة ينفرد بحلقته سنة مائة وعشرين حسبما أسلفنا القول ، فإذا كانت وفاة عاصم قد حدثت سنة مائة وسبع وعشرين حسبما ورد فى كتب التراجم[1] يكون أبو حنيفة قد جلس للتعليم والإفتاء فى حلقة قريبة من حلقة شيخه لفترة زمنية استمرت سبع سنوات .

(١) وفيات الأعيان ترجمة عاصم بن أبى النجود .

مع هذه الحلقات جميعا فى مسجد الكوفة الأعظم كانت حلقة أبى حنيفة ، ولكنها حلقة متميزة ، فيها صفوة شباب الكوفة يستمعون إلى شيخهم الذى يتدفق بالعلم كما يتدفق السيل بالماء الزلال ، فإذا ماقصد الشيخ أبو حنيفة إلى أداء فريضة الحج – وقد أداها خمسا وخمسين مرة – انتقلت حلقته إلى المسجد الحرام فى مكة وقد سبقته شهرته إليها ، فإذا توجه للزيارة انعقدت حلقته فى الروضة الشريفة ، والتقى بالإمام مالك فتناقشا فى قضايا الدين ومسائل الفقه وغالبا ما كانا ينتهيان إلى رأى واحد بعد أن يقنع أحدهما الآخر بوجهة نظره مستندا إلى نص من كتاب الله أو أثر من الحديث الشريف أو إعمال الفكر فى ضوء مأثور من قول صحابى أو فعل أهل المدينة .

– ٢ –

ثلاثة أرباع العلم :

كانت حلقة أبى حنيفة فى الكوفة تضم « ثلاثة أرباع العلم » ذلك أن رجلا تكلم فى أبى حنيفة كلاما غير مرضى فسمعه ابن سريج فنهره قائلا : مه ياهذا فإن ثلاثة أرباع العلم مسلمة له بالإجماع والربع الرابع لايسلمه لهم ، قال : وكيف ؟ قال : لأن العلم سؤال وجواب ، وهو أول من وضع الأسئلة ، فهذا نصف العلم ، ثم أجاب عنها ، فقال بعض : أصاب ، وقال بعض : أخطأ ، فإذا جعلنا صوابه بخطئه صار له نصف العلم الباقى ، والربع الرابع ينازعهم فيه ولا يسلمه لهم(٢) .

هكذا كانت صورة أبى حنيفة فى أذهان علماء عصره ، أنه يملك ثلاثة أرباع العلم ، وأنه واضع الأسئلة والمجيب عنها ، وذلك يعطينا فكرة عن طبيعة حلقة درسه ومنهجه فى تعليم صحابه وتلاميذه .

إن الفضيل بن عياض العالم الإمام الفقيه الزاهد يصف أبا حنيفة فيقول :

---

(٢) مقدمة السرخسى للمبسوط ص ٢ .

«كان أبو حنيفة رجلا فقيها ، معروفا بالفقه مشهورا بالورع واسع المال ، معروفا بالأفضال على كل من يطيف به » ، ثم يتحدث الفضيل عن أبى حنيفة المعلم فيقول : «كان صبورا على تعليم العلم بالليل والنهار ، حسن الليل ، كثير الصمت ، قليل الكلام حتى ترد مسألة فى حلال أو حرام فكان يحسن أن يدل على الحق ، هاربا من مال السلطان »(٣) .

إن اماما آخر من أئمة المسلمين معاصرا لأبى حنيفة هو عبد الله بن المبارك يصف حلقة أبى حنيفة وقد ضمت الفقيه الحافظ مسعر بن كدام فيقول : رأيت مسعرا فى حلقة أبى حنيفة جالسا بين يديه ، يسأله ويستفيد منه ، وما رأيت أحدا قط تكلم فى الفقه أحسن من أبى حنيفة(٤) .

وأما مسعر بن كدام نفسه الذى انتظمه مجلس أبى حنيفة واحتوته حلقته سائلا ومستفيدا فإنه يصف الحلقة وروادها فيقول : «كانوا يتفرقون فى حوائجهم بعد الغداة ، ثم يجتمعون إليه - أى إلى الإمام أبى حنيفة - فيجلس لهم ، فمن سائل ، ومن مناظر ، ويرفعون الأصوات لكثرة مايحتج لهم » . ويستطرد مسعر فى الحديث عن أبى حنيفة الأستاذ قائلا : «إن رجلا يسكن الله به هذه الأصوات لعظيم الشأن »(٥) .

- ٣ -

مجمع البحوث الدينية :

الحق أن حلقة أبى حنيفة كانت بلغة عصرنا مجمع بحث علمى مكون من باحثين شبان أو شيوخ يرأسهم أستاذهم الذى يفتح باب المناقشة فى القضية التى يراد دراستها ، فتطول المناقشة ويستمر البحث فيها أياما وليالى ، فإذا ما انتهى فيها إلى رأى ارتضاه الأستاذ قال لتلميذه أبى يوسف : ضعها فى الباب الفلانى .

---

(٣) تاريخ بغداد ١٣/٣٤٠ .

(٤) المرجع السابق ٣٤٣ .

(٥) المناقب للموفق المكى ٢/٣٦ .

إنها مناقشة جماعية يُستَمَعُ فيها إلى كل رأى ، ويُصْغَى إلى كل قول ، وترتفع الأصوات ولكن لاتتعدى حدود آداب المناقشة ، لأن الإمام الصبور الواسع الصدر المحب لكل فرد فى الحلقة ، يحيط الجميع بالرعاية الأدبية والمساعدة المادية على ماسوف نبين بعد قليل . وينفضّ المجلس ويتفرق الصحاب على أمل اللقاء فى الغد ، ولكن أحد التلاميذ وهو زُفَر بن الْهُذَيْل الذى سوف يلمع نجمه بعد أن يبلغ مبلغ العلماء يثير المناقشة فى قضية أخرى فيستبقيه الأستاذ مستمعا إليه مجيبا إياه حتّى الفجر ، ومعروف أن أبا حنيفة متهجد قوام الليل ، ولكنه يرى فى الاستماع إلى زفر ومناقشته له نوعا آخر من العبادة والتّهجد .

والإمام أبو حنيفة عالم متفتح غير متصلب ولا متعسف ، لايسمح بكتابة رأيه فى مسألة ما إذا لم يكن مطمئنا كل الاطمئنان إلى كامل صوابها ، وإن رواية لتلميذه زفر تبين مدى استمساك الإمام بهذا المنهج . يقول زفر : كنا نختلف إلى أبى حنيفة ومعنا أبو يوسف ومحمد بن الحسن – والثلاثة هم ألمع أصحاب أبى حنيفة – فكنا نكتب عنه ، فقال يوما أبو حنيفة لأبى يوسف : ويحك يا يعقوب ، لا تكتب كل ما تسمعه منى ، فإنى قد أرى الرأى اليوم فأتركه غداً ، وأرى الرأى غداً وأتركه بعد غد[٦] .

إن أبا حنيفة هنا متأدب بآداب الفاروق عمر ، آخذ بنصحه ، عامل بتوجيهه ، فقد كتب عمر رسالة إلى أبى موسى الأشعرى حين ولاه قضاء البصرة يوضح له فيها دستور القضاء ، وهى رسالة نفيسة تعتبر فى رأينا الدستور الأمثل لنهج العدالة القضائية فى العالم[٧] . يقول عمر لأبى موسى فى أحد مواضع الرسالة : لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » .

---

(٦) تاريخ بغداد ٤٠٢/١٣ .

(٧) راجع رسالة عمر وتعليقنا عليها فى الفصل الخاص بالقضاء فى كتابنا « معالم الحضارة الإسلامية » .

تلك وصية عمر لأبى موسى فى القضاء وهى ألا يتمسك بحكم أصدره ثم تبين بعد ذلك أنه خاطئ ، وكذلك يفعل أبو حنيفة إذا أصدر رأيا فى مسألة ثم اتضح أنه ليس أفضل الآراء .

والعلم الذى يتملك أبو حنيفة ناصيته ليس القصد منه الجاه الدنيوى والعرض المادى ، وإنما الغرض منه حسن العقيدة وصلاح الملة ، وهو لذلك يقول : « من تعلم العلم للدنيا حرم بركته ولم يرسخ فى قلبه ، ومن تعلمه للدين بورك له فى علمه ورسخ فى قلبه وانتفع المقتبسون منه » ومما لاشك فيه أن أبا حنيفة لم يكن يعنى ذاته بهذا القول ، فقد كان من الغنى واليسر بحيث ينفق على تلاميذه وعدد آخر من علماء زمانه ، وإنما يستهدف الإمام بقوله هذا أن يضع دستوراً لطالبى العلم ، أن يطلبوه لذاته ولنفع الناس به وليس للكسب والاتجار ، فذلك أمر لايجمل بالعلماء ، وعيب لايليق بالدارسين .

إن أبا حنيفة – وكانت له تجارة رابحة – كان يعتبر بضائعه ملكا لتلامذته والمستحقين بالدرجة الأولى ، ولأبنائه وأهل بيته بالدرجة الثانية ، ومن ثم كان ينفق على تلاميذه ، ويشترى لهم ما يحتاجون ، ويدفع لكل منهم راتباً من الدنانير بنهج منتظم ، ثم يقول لهم : أنفقوا فى حوائجكم ، ولاتحمدوا إلا الله سبحانه وتعالى فإنها أرباح بضائعكم مما يجريه الله لكم على يدى .

إن الجامعات فى الدول الحديثة تقرر عدداً من المنح التى بمقتضاها يعفى الدارس من نفقات الدراسة ويحصل على راتب شهرى يستعين به على أعباء الحياة ، لقد فعل أبو حنيفة ذلك قبل ما يقرب من ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، أليس ما يفعله أبو حنيفة مع تلاميذه من تكفل بنفقاتهم وشراء حاجاتهم وصرف رواتب مالية لهم هو نفسه ما يعرف فى زماننا بنظام المنح الدراسية ، غير أن الفرق بين الحالين ، أن المنح فى الحالة الأولى كانت تصدر عن فرد واحد ، وهى فى الحالة الثانية تصدر عن جامعات أو عن دول وحكومات . رحم الله أبا حنيفة لقد كان بمفرده أغنى نفسا وأوفر عطاء وأكثر علما من عديد من حكومات هذا الزمان .

ولكى يكون الحق كاملا والخبر صادقا ، وجب أن نقرر أن أبا حنيفة قد

ورث هذه الفعال من أستاذه حماد بن أبى سليمان ، وأن حمادا قد ورث ذلك عن أستاذه إبراهيم النخعى .

إن أبا يوسف يقول : كان أبو حنيفة يعولنى وعيالى عشرين سنة ، وإذا قلت له : ما رأيت أجود منك ! ! يقول : كيف لو رأيت حمادا .

لقد كان الإمام يحب تلامذته حبا جما ويرعاهم إلى المدى الذى يقال عنه : كان الذباب إذا وقع على أحد منهم يرى مشقة ذلك على نفسه . وكان هذا الحب يجعله يدفع عنهم الأذى ويحول بين الواحد منهم وبين أن يتعرض للحرج أو المهانة ، وكان يلجأ فى ذلك إلى طرق لاتخلو من طرافة ، فقد زاد إطراؤه لتلميذه أبى يوسف وامتداح نجابته إلى المدى الذى جعل أبا يوسف يترك حلقة أستاذه وينفرد لنفسه بحلقة فى المسجد . إن الإمام يعرف ما لدى أبى يوسف من علم فهو أدرى الناس به ، ويعرف أن العلم الذى لديه لايؤهله للنهوض منفرداً بأعباء حلقة علمية ، وهو – أى أبو يوسف – والأمر كذلك معرض للخطأ فى احكامه ، فإذا حدث ذلك تعرض للحرج الأدبى بل ربما للأذى المادى ، فيعمد أبو حنيفة إلى حيلة طريفة بأن يبعث إليه رجلا يسأله فى مسألة على النحو الآتى : ما تقول فى رجل دفع إلى قصّار ثوبا ليقصره بدرهم ، فصار إليه بعد ثلاثة أيام فى طلب الثوب ، فقال له القصار : مالك عندى شيء وأنكره ، ثم إن رب الثوب رجع إليه فدفع له الثوب مقصوراً ، أله أجرة ؟ فإن قال لك : له أجرة ، فقل له أخطأت ، وإن قال : لا أجرة له فقل : أخطأت . فسار إليه الرجل وسأله ، فقال أبو يوسف : له أجرة ، فقال : أخطأت ، فنظر ساعة ثم قال : لا أجرة له ، فقال له : أخطأت . فقام أبو يوسف من ساعته فأتى أبا حنيفة ، فقال له أبو حنيفة باسما : ما أتى بك إلا مسألة القصار ، قال : أجل ، قال : سبحان الله ، من قعد يفتى الناس وعقد مجلسا يتكلم فى دين الله وهذا قدره لايحسن أن يجيب فى مسألة من الإجارات ؟ فقال : يا أبا حنيفة علمنى ، فقال : إن كان قصره بعد ماغصبه فلا أجرة لأنه قصره لنفسه ، وإن كان قصره قبل أن يغصبه فله الأجرة لأنه قصره لصاحبه ثم يوجه أبو حنيفة هذه النصيحة إلى تلميذه الذى

تعجل الجلوس للإفتاء قائلا : من ظن أنه يستغنى عن التعلم فليبك على نفسه[8] . لقد كان هذا الدرس لأبى يوسف من أسباب تكوينه وتقويمه ونمائه حتى صار حجة فى الفقه فقربه الرشيد إليه وأسند إليه أسمى منصب قضائى فى الدولة وهو منصب قاضى القضاة وأقبلت عليه الدنيا مالا وجاها وسلطانا فخلف تركة تقدر بمليونين من الدنانير ومن ثم كان إذا نظر فى نعمته تلك بعد وفاة أبى حنيفة قال : تغمد الله أبا حنيفة برحمته وجازاه خيراً فإنه أطعمنى الدنيا والآخرة إطعاما .

وأبو حنيفة خليق بأن يستحق الدعاء بالرحمة ، لا من أبى يوسف وحده وإنما من تلاميذه جميعا ، فقد علمهم الدين والدنيا ، فسعت إليهم الدنيا وما تخلوا عن قيمهم ونزاهتهم . وليس من شك فى أن تلامذة الإمام حين كانوا يدعون له بالرحمة . كانوا يفعلون ذلك تقليدا لشيخهم الذى كانوا يسمعونه وهو يفعل الصنيع ذاته مع أستاذه حماد ، فقد سمعوا أبا حنيفة وهو يقول : « ما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدىّ ، وإنى لأستغفر لمن تعلمت عليه علما ، ومن علمته علما » . وهكذا لم يكن أبو حنيفة صاحب مدرسة فى العلم وحسب ، وإنما كان صاحب مدرسة فى الوفاء وصاحب رسالة فى الأخلاق .

ويلازم الوفاء أبا يوسف وهو فى قمة السلطان والغنى ، فقد سئل يوما عن شيء يتمناه فقال : وددت أن لى مجلسا من أبى حنيفة بنصف ما أمتلك .

إن أبا يوسف لم يعد لب المنطق حين أفصح عن تمنيه ذلك الذى قاله ، فلقد عاش بعلم أبى حنيفة وتربية أبى حنيفة ونصح أبى حنيفة ، لقد كان الإمام الجليل يخص تلامذته بخالص النصيحة ولب تجارب الحياة ، فهو يقول لأبى يوسف وقد توسم فيه النجابة ولمس فى شخصه الطموح : «كن من السلطان كما أنت من النار ، تنتفع منها وتتباعد عنها ، ولاتَدْنُ منها فإنك تحترق وتتأذى منها ، فإن السلطان لايرى لأحد مايرى لنفسه » .

---

(٨) تاريخ بغداد ٣٤٩/١٣ .

بقى أن نذكر أن الإمام الأعظم كان ينبه تلامذته إلى تلافى الفاسد من الأمور مثلما كان يشجعهم على الإقبال على الصالح منها ، وكان يحذرهم كذلك ممن لايوثق فى علمه ، كما يلفت أنظارهم إلى جلة العلماء الذين يُطمأن إلى علمهم ، ويؤثر عنه قوله لهم « ما رأيت فيمن رأيت أفضل من عطاء ولا أكذب من جابر الجعفى »(٩) .

هذا وإن الإمام الأعظم قد رسم لتلامذته وغير تلامذته طريق العلم الصحيح والأخذ الأمين بقوله : « لايحل لمن يفتى من كتبى أن يفتى حتى يعلم من أين قلت » . ولو تدبرنا هذا القول للإمام العظيم لعرفنا أن الشيخ لايريد من تلامذته أن يكونوا متواكلين يقتنصون الفتاوى من كتبه دون جهد أو مشقة ، وإنما هو يدفع بهم إلى ميادين البحث والمتابعة حتى يصيبوا دربة ودراية وتكتمل عندهم أسباب النماء العقلى وأسس التمكن العلمى .

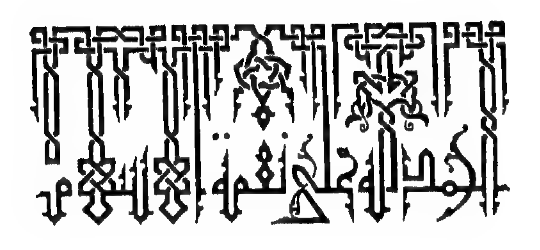
لقد صدق الجاحظ كل الصدق – وهو ينتمى إلى مدرسة فكرية غير تلك التى أنشأها أبو حنيفة – فى قوله عن مدرسة أبى حنيفة : « قد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ، ويجالس الفقهاء خمسين عاما وهو لايعد فقيها ولا يجعل قاضيا . فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة ، وأشباه أبى حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال ، وبالحرى لايمر عليه من الأيام إلا اليسير ، حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار ، أو بلد من البلدان(١٠) » .

تلك كانت حلقة أبى حنيفة وهذه آثارها ، لقد خرَّجت صفوة الفقهاء فى نطاق البحث والمناقشة والحوار ، فلمع فى سماء الدنيا من أبنائها أبو يوسف ومحمد بن الحسن وزفر وغيرهم وسوف يكون لنا مع كل من هؤلاء وقفة مستأنية فى الموضع المناسب من هذا الكتاب .

---

(٩) المناقب للموفق للمكى ٤٢/٢ .

(١٠) الحيوان ٨٧/١ .


الحمد لله على نعمة الإسلام

الفصل الرابع

صفات أبي حنيفة ومناقبه

* علم أبي حنيفة وفضله .
* ورع أبي حنيفة وتقواه .
* أبو حنيفة يرفض ولاية القضاء .
* وفـــاء أبي حنيفة .
* حلم أبي حنيفة وتواضعه .
* فطنة أبي حنيفة وبديهته وثباته .
* أناقة أبي حنيفة ومظهره .
* أبو حنيفة التاجر الصدوق .
* جود أبي حنيفة وكرمه وصدقاته .
* فكـــاهة أبي حنيفـــة .

* * *



الفصل الرابع

صفات أبى حنيفة ومناقبه

كان الإمام أبو حنيفة مجمعا لصفات الفضل ، ومحورا لشمائل النبل ، ومنبعا لخصال الكرم ، ومناطا لخزائن العلم ، ومثالا لمناقب التقوي والورع . كان الإمام ذا هيبة وبهاء طلعة ، وورع وتقوى ، ووفاء وعطف ، وحلم وتواضع وعلم وفضل ، وعفة وتسامح ، وكرم وجود ، وفطنة وفراسة ، ولطف وفكاهة ، وهو إلى أولئك جميعا العالم العامل المعلم التاجر الصدوق المحسن الأمين .

كانت هذه بعض صفات أبى حنيفة وليست جميعها ، وتحت كل صفة من هذه الصفات تتتابع أخبار ، وتتوارد أنباء ، وتترى مآثر ، وكل هذه الأخبار وتلك الأنباء وهاتيك المآثر من الكثرة بمكان ومن الصدق بمكان ، فقد عاش الإمام الأعظم حياة حافلة ، لانقول طويلة ، ولكن نقول مباركة ، عاش سبعين عاما كلها فى طاعة الله تعلما وتعليما ، وصلاة وصياما ، وعبادة وقياما ، وعملا وجودا ، ينشر العلم ويشرع فى الفقه ويبشر بمكارم الأخلاق .

– ١ –

علم أبى حنيفة وفضله :

كان أبو حنيفة فى ورعه وتقواه منارا للعابدين وسراجا للمهتدين ، وكان لابد له من أن يكون كذلك ، فالعلم وحده لايجزى مالم يكن مقترنا بالتقوى ، مشفوعا بالورع مكللا بخشية الله .

إن الإمام يقدم نفسه لواحد من كبار فقهاء مكة هو عطاء بن رباح حين سأله عن الفئة التى ينتمى إليها من أهل الكوفة بقوله : « إننى ممن لايسب السلف ،

ويؤمن بالقدر ، ولايكفر أحدا بذنب »[1] فهو والأمر كذلك ينتمى إلى مدرسة الاعتدال والقصد ، ويبتعد عن التقصير أو الغلو ، فربط نفسه بمدرسة الأولين السابقين من أصحاب العقيدة الصحيحة والفهم السليم السمح لرسالة الإسلام .

ولم يحاول الإمام أن يربط نفسه بحاكم أو يشغل نفسه بسلطة ، مما عرضه لكثير من الأذى وغير قليل من الإهانة وبخاصة فيما يتعلق برفضه تولى القضاء ، وذلك حديث منفرد يجئ فى حينه بإذن الله ، وإنما يكفى أن نورد هنا أن أبا حنيفة لعظم ماعرف عنه من صفات الأمانة قد عرض عليه أن يلى أمر بيت المال ، ولكنه لفرط ما أخذ به نفسه من عفة وابتعاد عن سلطان رفض وأبى ، وكان الذى عرض عليه هذا المنصب هو يزيد بن عمر بن هبيرة والى بنى أمية ، وكان غليظا – شأن كل ولاة بنى أمية على العراق – فضرب أبا حنيفة بالسياط لرفضه ظنا منه أن مثل هذا الفعل الشائن يثنى عالما جليلا مثل أبى حنيفة عن عزمه ، وكانت صلابة الإمام الفقيه العالم أقوى من عدوان الوالى المتعسف الظالم ، وارتبط المكان الذى ضرب فيه أبو حنيفة – واسمه الكناسة – فى أذهان الأجيال بمثالب بنى أمية وظلمهم ، ولما لم يفلح ابن هبيرة فى إرغام أبى حنيفة على تولى بيت المال ، عرض عليه تولى القضاء ، فأصر على الرفض ، وأصر الوالى على العدوان الموصول ، ولذلك فإن حمادا ولد أبى حنيفة كان كلما مر على حى الكناسة بالكوفة بكى ، فسأله ولده إسماعيل ذات مرة قائلا يا أبت ما يبكيك ؟ ، فقال : يا بنى فى هذا الموضع ضرب ابن هبيرة أبى عشرة أيام فى كل يوم عشرة أسواط على أن يلى القضاء فلم يفعل . وكان الإمام الجليل أحمد بن حنبل – وقد تعرض لمحنة كبرى هو الآخر – إذا ذكر ماحل بأبى حنيفة بكى وترحم عليه .

لقد كان أبو حنيفة يطبق أخلاق العلماء على نفسه ، ويلتزم بها أمام ربه ونفسه وأمام الناس ، وكان سلوكه القويم يمثل نغمة عذبة فى أسماع معاصريه ، كما كانت سيرته الحميدة أنشودة طيبة الكلمات طاهرة النفثات تجرى على ألسنة أترابه من ائمة وفقهاء وزهاد .

---

(١) تاريخ بغداد ١٣/٣٣١ .

إن الإمام عبد الله بن المبارك على علو قدره وسمو منزلته يعدد أسماء فضلاء زمانه حين يقول : رأيت أعبد الناس ، ورأيت أورع الناس ، ورأيت أعلم الناس ، ورأيت أفقه الناس ، فأما أعبد الناس فعبد العزيز بن أبى داوود ، وأما أورع الناس فالفضيل بن عياض ، وأما أعلم الناس فسفيان الثورى ، وأما أفقه الناس فأبو حنيفة ، ثم يمضى ابن المبارك قائلا : ما رأيت فى الفقه مثله .

وعبد الله بن المبارك صاحب هذا القول هو فقيه خراسان الكبير وهو فى رأى إحدى زوجات الرشيد ، صاحب ملك يفوق ملك الرشيد ، فقد حدث أن دخل الرشيد مدينة الرقة – وهى مصيفه المفضل – فى موكب ملكى ، وبعد ذلك بساعة مر موكب آخر ، وإذ بالناس جميعا يتسابقون للحاق به وتحية صاحبه حتّى لم يبق فى الرقة من لم يخرج ، وكانت إحدى أمهات ولد هارون الرشيد تطل من قصره وترى جلال الموكب الآخر فسألت : موكب من هذا ؟ فقيل لها : إن عبد الله بن المبارك فقيه خراسان يمر فى طريقه لثغر المصيصة حيث يرابط مع مجاهدى المسلمين ، فقالت فى صدق : هذا هو الملك الحقيقى لا ملك هارون الذى يرتكز على قوة الجنود .

والحقيقة أن أبا حنيفة كان فى نظر عبد الله بن المبارك أكثر من فقيه وأكثر من عالم ، وإنما هو إنسان نبيل وإمام جليل ، وهو خير عوض للأمة الإسلامية بعد أن فقدت أستاذه حماد بن أبى سليمان ، ومبالغة فى إجلال أبى حنيفة وعلمه وفقهه ينشىء ابن المبارك أبياتا شعرية رقيقة يمدحه فيها ويعلى من شأنه وهو الضّنين بمدح الخلفاء ، المستعلى عليهم ، المنافس لهم إذا ما استفتّى الناس فى قدره وقدر الخلفاء . يقول الإمام ابن المبارك فى الإمام أبى حنيفة :

رأيتُ أبا حنيفةَ كلَّ يومٍ ... يزيدُ نبالةً ويزيدُ خيرًا
وينطقُ بالصوابِ ويصطفيهِ ... إذا ماقالَ أهلُ الجورِ جُوراَ
يقايِسُ مَنْ يقايسهُ بلُبٍّ ... فَمَنْ ذَا يجعلونَ له نَظِيرَا
كفانَا فَقْدُ حمادٍ وكانتْ ... مُصِيبَتُنَا به أمْرًا كبيرَا

فَرَدَّ شماتةَ الأعداءِ عنَّا وأبْدَى بَعْدَهُ علماً كثيرَا
رأيتُ أبا حنيفةَ حين يُؤْتَى ويُطْلَبُ علمُهُ بحرًا غزيرا
إذا ما المشكلاتُ تَدَافَعَتْهَا رجالُ العلمِ كان بها بصيرا

قد لا يكون هذا الشعر فى مرتبة رفيعة من حيث القيمة الفنية إذا ما أخضعناه لمقاييس القصيد أو قارناه بغيره من شعر الشعراء المشهورين ، ولكنه فى مرتبة سامية القيمة لأنه صادر من الإمام الفقيه المجاهد الفارس عبد الله بن المبارك فى حق الإمام الأعظم .

والأمر الجدير بالذكر ، الخليق بالاهتمام ، أنه مامن أحد من أولئك الذين ذكرهم عبد الله بن المبارك وجعل كل واحد منهم أفضل الناس فى ميدان من ميادين الورع والعلم إلا وله فى أبى حنيفة رأى جميل وقول سديد ، فالفضيل بن عياض الورع الزاهد ، المستعلى على السلاطين والخلفاء ، الخافض الجناح للمساكين والفقراء يصف أبا حنيفة بالفقه والعلم والورع والجود والإحسان والتعبد والتعفف واتباع الصحابة فى العمل والاجتهاد فيما ليس فيه نص أو أثر ، وهذا هو قول الفضيل : كان أبو حنيفة رجلا فقيها معروفا بالفقه ، مشهورا بالورع ، واسع المال ، معروفا بالأفضال على كل من يطيف به ، صبورا على تعليم العلم بالليل والنهار ، حسن الليل كثير الصمت ، قليل الكلام حتى ترد مسألة فى حلال أو حرام فكان يحسن أن يدل على الحق ، هاربا من مال السلطان ، وكان إذا وردت عليه مسألة فيها حديث صحيح اتبعه ، إن كان عن الصحابة والتابعين ، وإلا قاس وأحسن القياس[٢] .

وللإمام سفيان الثورى رأى جليل فى أبى حنيفة – وسفيان هو الذى وصفه عبد الله بن المبارك بأنه أعلم الناس – أعلنه على رؤوس الأشهاد مفحما به خصوم أبى حنيفة الذين رأوه يكرم الإمام الجليل فاستنكروا ذلك منه ، ذلك أن عمر بن سعيد أخا سفيان قد توفى ، فجاءت وفود الناس لعزاء سفيان ، ثم أقبل

---

(٢) تاريخ بغداد ٣٣٩/١٣ : ٣٤٠ .

أبو حنيفة فى جماعة معه للعزاء والمجلس غاص بالناس من خاصة وعامة وبينهم عبد الله بن إدريس ، وما أن رأى سفيان أبا حنيفة حتى تحرك من مجلسه ثم قام فاعتنقه ، وأجلسه فى موضع كريم وقعد بين يديه . ولما رأى كل من ابن إدريس وابن عياش احتفاء سفيان بأبى حنيفة – وكانا يظنان أنه لن يفعل لأن أبا سفيان من مدرسة الأثر وأبا حنيفة من مدرسة الرأى – أصابهما غيظ وسخط ، وقررا ألا ينصرفا إلا بعد انصراف الناس ثم يسائلا سفيانا فى ذلك .

وينصرف المعزون ويبقى عبد الله بن إدريس وأبو بكر بن عياش ، ويوجه هذا الأخير الحديث إلى سفيان قائلا : يا أبا عبد الله ، رأيتك اليوم فعلت شيئا أنكرته وأنكره أصحابنا عليك ، قال : وما هو؟ قال ابن عياش : جاءك أبو حنيفة فقمت إليه وأجلسته فى مجلسك وصنعت به صنيعا بليغا ، وهذا عند أصحابنا منكر . وهنا يرد الإمام سفيان على بن عياش ورفيقه ابن إدريس ردا هو أقرب إلى الزجر منه إلى الإجابة العابرة ، ويخلع على شخص أبى حنيفة من أسباب التكريم ماهو جدير به ، وما هو خليق بسفيان أن يفعله ، قال سفيان لابن عياش ، وما أنكرت من ذاك ؟ هذا رجل من العلم بمكان ، فإن لم أقم لعلمه قمت لسنه ، وإن لم أقم لسنه قمت لفقهه ، وإن لم أقم لفقهه قمت لورعه . وهنا يقول ابن عياش : فأفحمنى ، فلم يكن عندى جواب .

إن المتمعن فى قول الإمام سفيان يجده قد خلع على أبى حنيفة صفات العلم والفقه والورع والوقار ، فحيا الله سفيانا وحيا الله أبا حنيفة ، فكلاهما إمام وتلك أخلاق الأئمة وشيمهم .

وللحقيقة والتاريخ نقرر أن الاحترام كان متبادلا بين كل من الإمامين الجليلين وكان كلا منهما صاحب حلقة ، وكان محمد بن بشر يختلف إلى كل منهما . يقول ابن بشر : كنت أختلف إلى أبى حنيفة وإلى سفيان ، فآتى أبا حنيفة فيقول لى : من أين جئت ؟ فأقول : من عند سفيان ، فيقول : لقد جئت من عند رجل لو أن علقمة والأسود حضرا لاحتاجا إلى مثله . فآتى سفيانا فيقول لى : من أين ؟ فأقول : من عند أبى حنيفة ، فيقول : لقد جئت من عند أفقه أهل الأرض

وحول إمامة أبى حنيفة فى الفقه يقول مليح بن وكيع : سمعت أبى يقول : مالقيت أحداً أفقه من أبى حنيفة ولا أحسن صلاة منه .

ويسأل سائل أبا عاصم النبيل عن سفيان وأبى حنيفة طالبا المفاضلة بينهما قائلا : أيما أفقه ، سفيان أو أبو حنيفة ؟ فيجيب أبو عاصم : إنما يقاس الشىء إلى شكله ، أبو حنيفة فقيه تام الفقه ، وسفيان رجل متفقه .

وكان أبو جعفر الرازى الفقيه يقول : ما رأيت أحداً أفقه من أبى حنيفة . ومارأيت أحدا أورع من أبى - يفة ، وكان عكرمة المخزومى يقول القول نفسه بلفظه ومعناه .

وأما مسعر بن كدام الفقيه الجليل الذى مر ذكره قبل صفحات فكان يرى أن أبا حنيفة أفقه أهل الكوفة ، وكانت عبارته فى ذلك من اللباقة بمكان وذلك بقوله : ما أحسد احدا بالكوفة إلا رجلين : أبا حنيفة فى فقهه والحسن بن صالح فى زهده ، وكان يقول أيضا : من جعل أبا حنيفة بينه وين الله رجوت أن لا يخاف ولايكون فرط فى الاحتياط لنفسه . ولذلك كان مسعر يختلف إلى حلقة أبى حنيفة ويجلس ين يديه ويسأله ويستفيد منه .

وإذا كان سفيان الثورى قد أدلى بدلوه حول علم أبى حنيفة وفقهه وفضله فإن معاصره وسميه سفيان بن عيينه يبدى رأيه فى أبى حنيفة فى إيجاز بليغ بقوله : شيئان ما ظننتهما يجاوزان قنطرة الكوفة وقد بلغا الآفاق : قراءة حمزة وفقه أبى حنيفة .

وكان جعفر بن الربيع يقول : أقمت على أبى حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول صمتا منه ، فإذا سئل عن شيء من الفقه تفتح وسال كالوادى وسمعت له دويا وجهارة بالكلام .

حقا لقد كان أبو حنيفة ظاهرة فريدة فى الفقه والفتوى والتقوى حتى إن يزيد بن زريع يقول وقد ذكر بعض القوم أبا حنيفة : هيهات ! طارت بفتياه البغال الشهب . وأما عبد الرحمن المقرئ فكان إذا حدث عن أبى حنيفة يقول : حدثنا شاهنشاه . أى ملك الملوك .

ومع العلم الذى احتواه صدر أبى حنيفة كان العقل والحجى يخلعان على شخصه الجليل الاحترام والتكريم ، فقد كان على بن عاصم يقول : لو وزن عقل أبى حنيفة بعقل أهل الأرض لرجح بهم ، وكان يزيد بن هارون يقول فى ذلك أيضا : أدركت الناس فما رأيت أعقل ولا أفضل ولا أورع من أبى حنيفة .

كان طبيعياً والأمر كذلك أن يقول عبد الله بن داوود الخريبى : يجب على أهل الإسلام أن يدعوا الله لأبى حنيفة فى صلاتهم فقد حفظ عليهم السنن والفقه .

هذا جانب من شهادة الأعلام لفقه أبى حنيفة وعلمه وريادته فيهما وتقدمه على من سواه ، وسوف يكون لنا حديث قريب عن فقه هذا الإمام العظيم .

— ٢ —

ورع أبى حنيفة وتقواه :

فإذا كان الحديث عن ورع أبى حنيفة وتقواه ، فإننا نرى فى ذلك عجبا ، نرى رجلا عاش عابدا بالنهار فى رحاب العلم والصلاة والصيام ، متبتلا بالليل فى رحاب الصلاة قياما وتهجدا ، والدعاء بكاء وتضرعا ، وقراءة القرآن تقربا إلى الله وتنسكا ، فكان وجهه يضيء بنور الإيمان ، وطلعته تفيض ببهاء السنى وقسمات الرضى ، مما جعل الفقيه الجليل يحيى بن سعيد القطان يقول : كنت والله إذا نظرت إلى أبى حنيفة عرفت فى وجهه أنه يتقى الله عز وجل .

وللتقوى فى حياة أبى حنيفة علامات بينات ، وللورع فى سلوكه أخبار صادقات ، ولخشية الله فى نهجه مأثورات ثقات .

لقد كان أبو حنيفة من أشهر العباد فى زمانه ، وكان أشهر عابد فى الكوفة . إن الحسن بن محمد الليثى يخبر عن ذلك بقوله : قدمت الكوفة فسألت عن أعبد أهلها فدفعت إلى أبى حنيفة .

ولم لا يكون أبو حنيفة أعبد أهل الكوفة وهو الذى صلى الفجر بوضوء العشاء

أربعين سنة ، فكان عامة الليل يقرأ جميع القرآن فى ركعة واحدة ، وكان يسمع بكاؤه بالليل حتى يرحمه جيرانه ، وختم القرآن فى الموضع الذى توفى به سبعة الآف مرة . هكذا قال معاصره أسد بن عمر الكوفى فى رواية أوردها الخطيب البغدادى (٣)

فأبو حنيفة يقوم الليل كله مصليا متعبدا متهجداً باكيا تائبا ، وكان الإمام الأعظم يستعين بالصبر والصلاة والصيام وقراءة القرآن . إن يحيى بن أيوب الزاهد يقول : كان أبو حنيفة لا ينام الليل . ويقول أبو عاصم النبيل : كان أبو حنيفة يسمى الوتد لكثرة صلاته . وتتواتر الأخبار بأنه كان يحيى الليل بقراءة القرآن فى ركعة واحدة ثلاثين سنة ، وأنه ربما ختم القرآن فى شهر رمضان ستين ختمة .

ويروى الفقيه العالم مسعر بن كدام خبرا حول صلاة أبى حنيفة وقيامه ليلا وختم القرآن فى صلاته بقوله : دخلت ذات ليلة المسجد ، فرأيت رجلا يصلى فاستحليت قراءته ، فقرأ سبعا ، فقلت يركع ، ثم قرأ الثلث ، ثم قرأ النصف ، فلم يزل يقرأ القرآن حتى ختمه كله فنظرت فإذا هو أبو حنيفة .

فإذا ما كان أبو حنيفة فى البيت الحرام ، فإنه لا يرى إلا مصليا عابدا طائفا حول البيت ممسكا بأستار الكعبة . إن الإمام سفيان بن عيينة يقول : ما قدم مكة رجل فى وقتنا أكثر صلاة من أبى حنيفة ، وعن أبى حنيفة وسفيان يقول أبو مطيع : كنت بمكة فما دخلت فى الطواف فى ساعة من ساعات الليل إلا رأيت أبا حنيفة وسفيانا فى الطواف . وأبو حنيفة أحد أربعة من الأئمة ختموا القرآن فى الكعبة وهم أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وتميم الدارى ، وسعيد بن جبير ، والإمام الأعظم بطبيعة الحال .

والحق أن حياة التقوى التى عاشها أبو حنيفة لمن الصور الفريدة التى قل أن وجد لها مثيل فى نهج حياة العباد المتقين .

كان أبو حنيفة – وهو من الذين أنعم الله عليهم بالعلم والتقوى – يرتعد من

---

(٣) تاريخ بغداد ٣٥٤/١٣ .

خشية الله إذا ما قرأ أو قرئت عليه آية من آيات العذاب . يقول خارجة : صليت مع أبى حنيفة فى مسجده ، عشاء الآخرة ، وخرج الناس ، ولم يعلم أنى فى المسجد وأردت أن أسأله عن مسألة من حيث لا يرانى أحد ، فقام فقرأ – وقد افتتح الصلاة – حتى بلغ إلى قوله تعالى : « **فَمَنَّ اللهُ علينا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ** » . يقول خارجة : فأقمت بالمسجد أنتظر فراغه فلم يزل يرددها حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر .

وفى إحدى الليالى يُسمع أبو حنيفة وهو يردد هذه الآية :

« بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ والسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ »

فيمضى فى ترديدها ويبكى ويتضرع إلى الله سبحانه وتعالى .

ويروى يزيد بن الكميت خبرا من أخبار أبى حنيفة حول قيامه الليل بالصلاة والعبادة والضراعة والتوسل والدعاء فيقول : كان أبو حنيفة شديد الخوف من الله ، فقرأ بنا علىّ بن الحسين المؤذن ليلة فى عشاء الآخرة :

« إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرضُ زِلْزَالَهَا ، وأَخْرَجَتِ الأرضُ أَثْقَالَهَا ، وَقَالَ الإنسانُ مَا لَها ، يومئذٍ تُحَدِّثُ أخبَارَهَا بانَّ رَبَّكَ أَوْحَى لهاَ ، يومئذٍ يَصْدُرُ الناسُ أشتاتاً لِيُرَوْا أعمالَهُمْ ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهُ ، ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شرًّا يَرَهْ »

وأبو حنيفة خلفه ، فلما قضى الصلاة وخرج الناس نظرت إلى أبى حنيفة وهو جالس يفكر ويتنفس ، فقلت أقوم حتى لا يشتغل قلبه بى ، فلما خرجت تركت القنديل ولم يكن فيه إلا زيت قليل . ثم عدت إلى المسجد وقد طلع الفجر : وابو حنيفة قائم قد أخذ بلحيته هو يقول : يامن يجرى بمثقال ذرة خير خيرا . ويامن يجزى بمثقال ذرة شر شرا ، أجِرْ النعمان عبدك من النار ، وما يقرب منها من السوء . وأدخله فى سعة رحمتك « ويمضى يزيد بن الكميت – وكان من خيار الناس – يقول : فَأذَّنْتُ ، فإذا القنديل يزهر وأبو حنيفة قائم ، فلما دخلت قال :

تريد أن تأخذ القنديل ؟ قلت : قد أذّنت لصلاة الغداة ، فقال : اكتم عليّ ما رأيت ، وركع ركعتى الفجر ، وجلس حتى أقمت الصلاة وصلى معنا صلاة الغداة على وضوء أول الليل .

وحين يصلى أبو حنيفة ويقوم الليل يكون خشوعه وضراعته ما قد رأينا ، ولكنه فى الوقت ذاته يحرص على أن يؤدى الصلاة وهو فى أتم زينة مرتديا أجمل الثياب وأغلاها ، ويتعطر ويسرح لحيته ، فلما قيل له : إنما يلبس الناس هذا اللباس إذا لقوا سلطانا أو اجتمعوا فى محفل كبير ، قال : التزين لله عز وجل أولى من التزين للناس .

لقد قال يحيى بن سعيد القطان عن أبى حنيفة فى حياته : جالسنا والله أبا حنيفة وسمعنا منه ، وكنت والله إذا نظرت إليه عرفت فى وجهه أنه يتقى الله عز وجل . وحين يموت يقوم على غسله الحسن بن عمارة ، وما أن ينتهى من غسله حتى يوجه حديثه إلى الجسد الطاهر المسجى قائلا : رحمك الله وغفر لك ، لم تفطر منذ ثلاثين سنة ، ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنة وقد أتعبت من بعدك وفضحت القراء .

إن أخبار التُّقاة كثيرة ، وسير الصالحين مستفيضة ، ولكن أخبار أبى حنيفة فى التقوى والعبادة والصلاة والصوم والتهجد والقيام قلَّ أن نجد لها نظيراً . ذلك أنه بلغ به الحرص فى التقوى والخوف من الله أن أوصى بأن يدفن فى مقبرة تكون أرضها غير مغصوبة ، مع أنه غير مسئول عن المكان الذى يقبر فيه ، ولكنه الإمام الأعظم فى علمه وفقهه وتقواه وخشية الله .

وكان الإمام الأعظم على ورعه وتقواه عليماً بأصول العلاقات الاجتماعية ، يحترم الناس كل الناس ، ويفسح لهم من صدره الرحيب ، وإذا خاطب المرأة خاطبها فى حنان الأب ، وأسبغ عليها من العناية ما يجعلها بمنأى من مرمى الأنظار أو سوء المظنة ، فقد كان فى حلقته ملحق بعيد تجلس فيه النساء يستمعن إلى علم الإمام ، والمرأة منذ ظهر الإسلام تجلس فى حلقات الدرس بمنأى عن العيون ، ولقد مهد لها ترددها على حلقات العلم أن تكون فقيهة ومفتية ومحدثة .

كانت المرأة تجيء إلى أبى حنيفة تسأله فى قضية أو تستفتيه فى شأن من شئون دينها ، فيترك مكانه فى الحلقة ويتجه إليها حيث تحتجب خلف إحدى ساريات المسجد ، ثم لا يلبث أن يعود إلى مكانه من الحلقة ، ويذكر ما جرى من سؤال وجواب وهو لا يعرف من هـذه السائلة إلا أن تكون طالبة علم من بنات المسلمين . بل إن الإمام يعلّم تلامذته آداب معاملة النساء فيقول لهم إنه ذهب إليها بعيداً لكى يعصمها من نظرات الفضول ويحصنها من أحداق الرجال .

وكان الإمام يأخذ الناس بدستور من الأخلاق فى تعاملهم مع النساء حفاظاً على العفة وأخذاً بأسباب اللياقة فيقول : إذا قامت المرأة من مجلسها فلا تجلس فيه حتى يبرد .

وأما حقوق المرأة حسبما أبرزها أبو حنيفة فمكانها موضع آخر من هـذا الكتاب .

— ٣ —

أبو حنيفة يرفض ولاية القضاء :

يرى كثير من الناس أن ولاية القضاء شرف كبير يسعون إليه ، وسلطة مغرية تهفو نفوسهم إليها ، أما الأطهار من الرجال والأتقياء من العلماء فإنهم كانوا يعرضون عنه ويفرون منه ، فمنصب القضاء جاه وسلطان ، والأطهار من العلماء يرون الجاه فى التقوى والسلطان فى العبادة ، وهم قد قرأوا حديث رسول الله ﷺ « **قاض فى الجنة وقاضيان فى النار** » وهم يعملون للجنة ويسعون إليها ، ويفرون من النار ويهربون مما يبعث بهم إلى سعيرها .

والعلماء الأطهار يعرفون أن القضاة فى كل زمان معرضون للضغط من الحاكم لكى يقضوا طبقاً لهواه وليس استجابة للعدل ، وإذا ما اهتز الميزان فى يد القاضى مرة ، اختل أمان المجتمع ، وشاعت الفوضى ، وسادت الفاحشة ، وانتهى أمر الناس إلى كوارث ليس إلى تداركها من سبيل .

والأطهار العلماء يرفضون ولاية القضاء لأنهم يؤمنون بأن القضاة يبعثون يوم القيامة مع السلاطين وأن العلماء يبعثون مع الأنبياء ، وأبو حنيفة فى مقدمة هؤلاء العلماء الأطهار ، ومن ثم فقد كان طبيعياً أن يعرض عن تولى القضاء ، ويفضل أن يعيش فى الدنيا منزهاً عن ظلم برىء ، أو محاباة ذى سلطة ، وأن يبّعث فى الآخرة مع الأنبياء .

لقد ولد أبو حنيفة حسبما هو معروف سنة ثمانين وتوفى سنة مائة وخمسين هجرية ، وهو بذلك قد عاصر دولتى بنى مروان وبنى العباس ، وحين دالت دولة بنى مروان كان قد نيف على الخمسين وقد عرض عليه القضاء من قبل الدولتين فرفض وتعرض للأذى من ضرب وسجن .

إن الحاكم الحصيف يهمه أن يختار للناس قاضياً مدعوماً بالعلم ، معروفاً بالتقوى ، موسوماً بالفطنة ، موصوفاً بالعدل ، ناشئاً على الاستقامة ، وكان أبو حنيفة يتصف بتلك الصفات جميعاً ، فتنبه إليه يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراقيين لمروان بن محمد ، وكان يزيد فارساً مخاطراً ذا قسوة وعنف ، وطلب أبا حنيفة لكى يلى قضاء الكوفة ، ولكنه أبى . وكان رفض أبى حنيفة للقضاء للأسباب التى مر ذكرها على الأرجح ، وربما كان من أسباب ذلك أن الإمام الجليل لم يكن يحب بنى أمية أو متعاطفاً معهم ، فعوقب أبو حنيفة على ذلك بالضرب مائة سوط، كل يوم عشرة أسواط من منطقة الكناسة وهو على رفضه. وقد رفضه . وقد كان يقول بعد أن ضرب : إن آلامى لغم أمى كانت أقسى على من الضرب . وكان ولده حماد كلما مر بالكناسة دمعت عيناه وتذكر أن أباه العظيم قد ضرب فى هذا المكان .

وتضيف الروايات أن ابن هبيرة قد أراد أبا حنيفة على بيت المال ، وبيت المال يحتاج إلى رجل فيه صفات أبى حنيفة ، ولكن الإمام بقى على رفضه ، فكان من أمر ضربه ما كان ، وهو ثابت كالطود لا يتزعزع .

وتدول دولة بنى مروان سنة مائة واثنتين وثلاثين ، ويقتل ابن هبيرة ، ويلى أمر الدولة الجديدة السفاح ثم أبو جعفر المنصور ، ولأبى حنيفة مع كل منهما مواقف

سوف نشير إليها فى الفصل الخاص بالسياسة ، ويكون من أمر المنصور مع أبى حنيفة ماكان من أمر ابن هبيرة معه ، فلقد أشخص أبو جعفر المنصور إلى الكوفة من يستدعى أبا حنيفة لكى يوليه القضاء ، فلما أن عرض الأمر عليه أبى ، فحلف عليه المنصور أن يقبل المنصب ، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل ، وتكرر الحلف من الجانبين ، هـذا يحلف على أبى حنيفة كى يقبل ، وأبو حنيفة يقسم ألا يفعل ، وكان الربيع بن يونس حاجب المنصور واقفاً – ولأبى حنيفة معه مواقف – فقال : ألا ترى أمير المؤمنين يحلف ؟ ! ! فقال أبو حنيفة : أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر منى على كفارة أيمانى ، وظل على إبائه ، فأمر به المنصور إلى الحبس فحبس .

ولا ييأس المنصور من رفض أبى حنيفة ، وكأنما أخذته العزة إزاء إباء أبى حنيفة وكيف يعصى لأمير المؤمنين أمراً ، فيبعث إليه من يستحضره من سجنه ، ويحاول أن يجرب معه أسلوب التوريط والإحراج ويقول له : أترغب عما نحن فيه ؟ أى هل أنت عدو لحكمنا ؟ فيقول أبو حنيفة : أصلح الله أمير المؤمنين ، أنا لا أصلح للقضاء ، فيقول المنصور : كذبت . وهنا يستعمل أبو حنيفة فطنته وحدة بديهته وكأنما رأى لنفسه مخرجاً فيقول : قـد حكم علىّ أمير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء لأنه ينسبنى إلى الكذب ، فإن كنت كاذباً فلا أصلح ، وإن كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح ، فرده المنصور إلى الحبس .

ويروى هـذا الحوار بطريق آخر ، يرويه الحاجب الربيع قائلاً : رأيت أمير المؤمنين المنصور ينازل أبا حنيفة فى أمر القضاء وهو يقول – أى أبو حنيفة – اتق الله ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله ، والله ما أنا بمأمون الرضى ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات أو أن توليني الحكم لاخترت أن أغرق ، ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك ، فلا أصلح لذلك ، فقال له المنصور : كذبت ، أنت تصلح ، فقال : قـد حكمت لى على نفسك ، كيف يحل لك أن تولى قاضياً على أمانتك وهو كذاب .

إن العنصر الهام فى رفض أبى حنيفة ، أنه يتوقى القضاء خشية أن يتورط فى

إيقاع ظلم بأحد دون أن يدرى ، والأكثر أهمية من ذلك أنه فى ظل الحكم المطلق الذى يمارسه المنصور لن يستطيع أبو حنيفة أن ينتصف من أحد من الحاشية إذا ماكان فى موضع المساءلة ، والحاكم المطلق تعيث حاشيته فى الأرض فساداً ، ويريد أفرادها من يصانعهم وينافقهم ، وقد خفف أبو حنيفة من هذا المعنى فقال « يكرمهم » وأبو حنيفة أكبر من أن يجامل فى حق ، وأجل من أن ينافق الخليفة نفسه فضلاً عن الحاشية والأذناب .

هذا وهناك حقيقة لاشك فيها وهى أن أبا حنيفة كان يرى نفسه أكبر من أن يكون عاملاً فى نظام حكم لا يرضى عنه ويتمنى زواله .

لقد أعيد أبو حنيفة إلى السجن وظل به إلى أن مات فيه حسب الرواية التى أوردها الخطيب البغدادى(٤) .

وهناك رواية أخرى لم تنل قدراً كافياً من الصواب تذهب إلى أن أبا حنيفة قد قبل ولاية قضاء الرصافة على الجانب الشرقى من بغداد بعد تهديده بالضرب ولم يستمر فى ذلك غير خمسة أيام مرض بعدها مرضاً قصيراً ثم مات .

ومهما يكن من أمر فإن أبا حنيفة قد رفض القضاء خشية ألا يستطيع أن يعطى كل ذى حق حقه ، وأن يتعرض لضغوط ذوى الحاجات من أصحاب السلطان ، وهو بعد ذلك فى مقام من العلم أرفع ، وفى منزلة من الإمامة أسمى .

— ٤ —

وفاء أبى حنيفة :

الوفاء خلق رفيع جليل فى كل زمان وفى كل مكان ، والأوفياء فى الدنيا قليلون بل إن وجودهم نادر فى المجتمعات ، ولكن من كان فى مثل علم أبى حنيفة وورعه وفضله ، فإن فضيلة الوفاء لا تكون بعيدة عنه ، لقد كان أبو حنيفة وفياً للناس أجمعين إذا ما جعلنا من مقاييس الوفاء جلوسه فى حلقته ليلا ونهارا ينشر

---

(٤) تاريخ بغداد ١٣/٣٢٨ .

علمه على الناس كما تتناثر الدرر ، يأخذ بأيديهم ، ويدلهم على شئون دينهم ، ويصلح لهم أمور دنياهم .

فإذا ما أخذنا الوفاء بمعناه المحدود المتعارف عليه ، وجدنا أبا حنيفة فى ذلك رائداً سباقا . لقد سبق الحديث عن علاقته بأستاذه حماد ، وكيف أنه قرر أن يجعل لنفسه حلقة خاصة به فى مسجد الكوفة فى مواجهة حلقة أستاذه ، وما أن دخل المسجد ووقع ناظراه على أستاذه حتى أحس بالخجل ، وحث خطاه لكى يجلس فى مقعده الأثير بين يدى حماد ، ولم ينفرد بحلقة علم فى الكوفة إلا بعد وفاة أستاذه .

وينتقل حماد إلى رحمة الله ويتسنم أبو حنيفة مكان الصدارة فى العلم والفقه ، ويصبح إماما كبيرا تطير بفتياه البغال الشهب حسب عبارة يزيد بن زريع محدث البصرة وريحانتها ، ولكنه لا ينسى أستاذه ، وإنما يذكره دائماً ، وذكره إياه يكون فى خير موقف وأطهره ، أنه يذكره ويدعو له بعد كل صلاة ، تماماً مثلما يدعو لوالديه ويستغفر الله لهما . يقول الإمام : « ما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدىّ ، وإنى لأستغفر لمن تعلمت منه علما أو علمته علماً » إنها صيغة جديدة فى نهج الوفاء يشرعها أبو حنيفة ، فقد جعل الأستاذية أبوة كاملة لها أسمى ما للوالدين من حقوق ، وهل هناك أسمى من الوفاء بالدعاء والاستغفار ؟ هكذا كان يفعل أبو حنيفة ، ويتسع نهج الوفاء عند الإمام الجليل بحيث يشمل دعاؤه واستغفاره من علّمهم أيضاً .

ونحن حين نقرر أن أبا حنيفة قد شرع هذا النهج من الوفاء وجعل منه سنة حميدة ، فإننا لا نعدو جانب الصواب ، ذلك أن تلميذه الأثير النجيب أبا يوسف قد استمر يحيى هذه السنة الجليلة بالدعاء لأستاذه ، ولكنه كان ذهب فى وفائه شوطا أبعد حين يقول : إنى لأدعو لأبى حنيفة قبل أبوىّ .

إنها سنة جليلة استنها الإمام الأعظم فانطبق عليه قول الرسول الكريم :
« مَنْ سَنَّ سُنَّةً طَيِّبَةً فَلَهُ أَجرُهَا وَأَجرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »
وهكذا يجعل أبو حنيفة من نسب العلم أبوة للاستاذ وبنوة للتلميذ .

وفى مجال الحديث عن وفاء أبى حنيفة لوالديه تجمل الإشارة إلى وفاء الإمام الجليل لأمه ومعاملة كل منهما للآخر ، تلك المعاملة التى كانت تجمع الطرافة إلى الوفاء ، والسماحة إلى الدعاء .

لقد تعرض الإمام الأعظم للضرب والتعذيب لعزوفه عن ولاية قضاء الكوفة وبيت مالها حسبما أسلفنا القول ، والضرب مهانة نفسية وآلام حسية ، ومع ذلك فإن آلام أبى حنيفة لغم أمه عليه كانت أقسى عليه من الضرب ، وفى ذلك يقول الإمام «كان غم والدتى أشد علىّ من الضرب» .

وكان الإمام الجليل من السماحة وسعة الصدر مع أمه فى مواقف بعينها رائداً للوفاء والتواضع وكان مسلكه يدعو إلى العجب والإعجاب . فقد حلفت بيمين وحنثت فيه ، فاستفتت ولدها فأفتاها ، ولكن فتواه لم ترضها ، وقالت له : لا أرضى إلا بما يقول زُرْعة القاصّ ، وكان زرعة رجلا صالحاً واعظاً اتخذ من مسجد الحضرميين بالكوفة مكاناً يعظ الناس فيه فعرف بزرعة القاصّ ، إن الإمام الأعظم لم يضق بوالدته ذرعاً . بل اصطحبها بكل ما يتسع له صدره من سماحة وإجلال للأمومة ، وجاء بها إلى زرعة فسألته ، فتعجب زرعة من سؤالها وقال لها : أفتيك ومعك فقيه الكوفة ؟ ! ! فأسر أبو حنيفة إلى زرعة أن أفتها بكذا وكذا . فأفتاها فرضيت . ثم عاد بها الإمام إلى البيت وهو راض برضى أمه . ما أعجب أمر الأمهات ! ! إنهن يتصرفن مع الأبناء مهما يبلغوا من علم أو سن أو مكانة وكأنهم لا يزالون صغاراً أغماراً .

ولا يقتصر وفاء أبى حنيفة على والديه وأساتذته وتلامذته وحسب ، وإنما تتسع دائرة الوفاء عنده لتشمل جيرانه حتى وإن كان هؤلاء الجيران لا يرعون حرمة الجوار أو يصونون مقتضيات المجاملات.

كان لأبى حنيفة جار بالكوفة إسكاف يعمل النهار بطوله ، فإذا ماجنه الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحما فطبخه أو سمكة فشواها ، ثم لا يزال يشرب حتى إذا أخذ الشراب منه مأخذه رفع عقيرته مغنيا بيت الشاعر العرجى :

أضاعونى وأىَّ فتًى أضاعوا
ليومِ كريهةٍ وسِدادِ ثَغْرِ

فلا يزال يشرب ويردد البيت حتى يأخذه النوم ، إن الإمام صوام قوام ، نهاره علم وصوم وجد وسعى ، وليله عبادة وصلاة وقيام ودعاء ، وإنه ليسمع صوت الجار الإسكاف وقد رفع عقيرته بصوت لا نخاله إلا منكرا ، فهو صوت سكران ، وترديد مخمور ، فما تبرم أو اشتكى .

وذات ليلة اختفى الصوت وتوقف الغناء على غير ما هو معهود ، ومضت ليلة ثانية وثالثة فظن الإمام أن شيئاً ما حل بالجار ، فسأل عنه ، فقيل له إن العسس أخذوه منذ ليال ، وهو محبوس ، فصلى الإمام صلاة الفجر وركب بغلته واتجه إلى أمير الكوفة مستأذناً عليه فى الدخول ، وما إن علم الأمير أن أبا حنيفة بالباب حتى قال لرجاله : ائذنوا له ، وأقبلوا به راكباً ، ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ، ففعلوا ولم يزل الأمير يوسع له فى مجلسه متهللا ، ثم سائلا عن حاجته ، فقال الإمام : لى جار إسكاف أخذه العسس منذ ليال ، يأمر الأمير بتخليته ، فاستجاب الأمير قائلا : نعم وكل من أخذ فى تلك الليلة إلى يومنا هذا ، فخلى عنهم أجمعين .

وركب الإمام منصرفاً والإسكاف يمشى وراءه ، فلما ترجل أبو حنيفة مضى إليه فقال : يا فتى ! ! أضعناك ؟ قال : لا ، بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق ، وتاب الرجل ولم يعد بعد ذلك إلى ما كان عليه من صخب وشراب .

— ٥ —

حلم أبى حنيفة وتواضعه :

وكان للإمام الأعظم — شأن العظماء دائماً — حساد وأعداء يطلقون فيه ألسنة حدادا ، وينسبون إليه ما هو منه براء حين يضيقون ذرعا بفتاواه التى كانت فوق

مستوى عقولهم وتفكيرهم ، فلم يقابل سوءهم بسوء ، ولم يبادلهم حسدا بحسد ، وإنما بقى عف اللسان نقى الكلمات ، مما جعل الإمام عبد الله بن المبارك يقول للإمام سفيان الثورى متسائلا : يا أبا عبد الله ، ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة ! ! ما سمعته يغتاب عدواً له قط . فيقول سفيان : هو والله أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهب بها .

إن الإمام يعلم أن حساده كثيرون ، ولكنه يعلم أن تلامذته وأتباعه وصحابه هم الأكثر عدداً ، والأسمى مكانة ، والأرفع قدراً ، والأقوى حجة ، وقد كان الفقيه المحدث عبد الله بن داوود الخريبى يقول : الناس فى أبى حنيفة رجلان : جاهل به وحاسد له ، ويستطرد قائلا : وأحسنهم عندى حالا الجاهل . وكان خارجة بن مصعب يشارك الخريبى الرأى فى حساد أبى حنيفة ويرى أنهم ناقصو العقل ويقول : من لا يرى المسح على الخفين أو يقع فى أبى حنيفة فهو ناقص العقل . وكان الإمام محمد بن الحسن المعروف بالنفس الزكية حين يبلغه ما يحمله بعض الناس لأبى حنيفة من الحسد يردد هذا البيت :

مُحَسَّدُونَ وَشَرُّ الناسِ منزلةً
مَنْ عاشَ فى الناسِ يوماً غَيْرَ محسُودِ

أما الإمام الجليل أبو حنيفة ، فكان يطرق أسى إذا سمع بأحد يذكره بغير الخير وينشىء قائلا :

إنْ يَحْسدُونى فإنِّى غيرُ لائمِهِمْ
قبلى من الناسِ أهلُ الفضْلِ قد حُسِدُوا .
فَدَامَ لِى ولهُمْ ما بى وما بِهِمُ
وماتَ أَكْثَرُنا غيظًا بما يَجِدُ

ويبلغ الحلم بأبى حنيفة درجة تكاد تسمو به عن ثوب البشرية ، إن رجلا يدخل عليه مسجد الخيف بمنى فى أيام التشريق يسأله عن مسألة بعينها ، فيجيبه

الإجابة السليمة المثلى ، فقال رجل لعله كان يتابع الحوار : إن الحسن يقول كذا وكذا (لعله قصد الحسن البصرى) فقال أبو حنيفة . أخطأ الحسن ، فجاء رجل مغطى الوجه بعصابة فقال : أنت تقول أخطأ الحسن ياابن الزانية ؟ . ثم مضى ، فما تغير وجه أبى حنيفة ولا تلون ، وإنما أردف قائلا فى حزن . أى والله اخطأ الحسن وأصاب ابن مسعود . وهنا يظهر حلم أبى حنيفة بحيث لا يغضب وإنما يأسى ، وهو حين قال مجيبا عن السؤال لم يقل برأيه وإنما قال برأى عبد الله بن مسعود صحابى رسول الله وخادمه وكاتم سره ، وفرق كبير بين رأى صحابى جليل ، وبين رأى تابعى جليل .

كان أبو حنيفة فى مثل هذه الأحوال التى يتطاول عليه فيها أحمق يتجه إلى الله مناجيا مردداً : اللهم من ضاق بنا صدره فإن قلوبنا قد اتسعت له . وفى أحيان أخرى يتلو قول الله سبحانه :

« فَبَشِّرْ عِبادِ الذينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » .

لم يكن غريبا والحال كذلك أن يتصدى عالم فذ وإمام جليل مثل يزيد بن هارون فيجعل من أبى حنيفة آية فى الحلم بجانب كونه آية فى العلم فيقول قولته الصادقة : ما رأيت أحداً أحلم من أبى حنيفة (٥) . وقد يجمل بنا أن نعرف شيئا عن صاحب هذا القول الذى وصف أبا حنيفة بأنه أحلم الناس ، إنه أبو خالد يزيد بن هارون الفقيه الحافظ المحدث الذى كان المأمون يخشى جانبه ولم يجرؤ أن يقول بخلق القرآن إلا بعد وفاته . فقد قال المأمون فى زمن مبكر : لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرت أن القرآن مخلوق ، فقيل له : ومن يزيد حتى يُتَّقى ؟ قال أخاف إن أظهرته فيرد علىّ . فيختلف الناس وتكون فتنة (٦) . ومن المؤسف أن المأمون قد فجر تلك الفتنة التى نالت من سمعته كخليفة مستنير ، ولنا مع هذه الفتنة وقفة في كتابنا عن الإمام أحمد بن حنبل الذى استبسل حتى أخمدها وانتصر على ثلاثة من كبار خلفاء بنى العباس فى القضاء عليها .

---

(٥) النجوم الزاهرة ١٣/٢

(٦) تذكرة الحفاظ ٢٩١/١ .

وكان الإمام على ما خصه الله به من علم وفقه وحلم من أكثر العلماء تواضعا وأقربهم إلى تبنى الحق والرجوع عن الخطأ إلى الصواب فكان يقول : قولنا هذا رأى ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب .

— ٦ —

فطنة أبى حنيفة وبديهته وثباته :

ومن صفات أبى حنيفة التى عرف بها مثلما عرف بغيرها من الفضائل ، الفطنة الحادة والبديهة الحاضرة والثبات عند الشدائد . لقد كان الإمام يجل الخلفاء الراشدين : أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا ، وإن كان يؤثر عليا بمزيد من الحب حسبما سوف نبين فيما بعد ، وكان رجل بالكوفة شديد التحامل على ذى النورين الراشد الثالث عثمان بن عفان ويقول عنه إنه كان يهوديا ، وفزع أبو حنيفة لقول الرجل ، فما ينبغى لمسلم أن يقول ذلك ، بل إن الغلاة من الشيعة الذين لم يسلموا بخلافة الراشدين الأولين الثلاثة لم يقولوا شيئا من ذلك ولم يجهروا به ، وفكر الإمام الفطن فى الأمر ، وقرر الذهاب إلى الرجل ، ولما أن رآه قال له : أتيتك خاطبا ، فقال الرجل : لمن ؟ قال أبو حنيفة : لابنتك ، رجل شريف غنى المال ، حافظ لكتاب الله ، سخى ، يقوم الليل فى ركعة ، كثير البكاء من خوف الله . قال الرجل : فى دون هذا مقنع ياأبا حنيفة . فقال الإمام الفطن إلا أن فيه خصلة ، قال الرجل : وماهى ؟ قال أبو حنيفة : يهودى ، قال الرجل : سبحان الله . تأمرنى أن أزوج ابنتى من يهودى ؟ قال : ألا تفعل ؟ قال : لا ، قال أبو حنيفة . فالنبى ﷺ زوج ابنتيه من يهودى ! ! ففهم الرجل ما قصد إليه أبو حنيفة وقال : أستغفر الله ، إنى تائب إلى الله عز وجل[٧] .

بمثل هذه الفطنة السمحة كان أبو حنيفة يرد الجاهلين إلى الصواب والمشتطين إلى جانب العدل والغلاة إلى سبيل القصد .

---

(٧) تاريخ بغداد ١٣/٣٦٤ .

وقريب من ذلك ، ما حكاه إسماعيل حفيد الإمام من أن جارا لهم كان رافضيا ، وكان يعمل طحانا ، وعنده بغلان ، أطلق على أحدهما اسم أبي بكر ، وعلى الثانى اسم عمر ، ويبدو وأنه كان من الإصرار على الوقاحة بحيث لم يعبأ بمشاعر الناس أو نصحهم ، وذات ليلة رمحه أحد البغلين فقتله ، فبلغ الخبر أبا حنيفة ، فقال على الفور : انظروا البغل الذى رمحه ، إنه الذى سماه عمر . فنظر الناس فإذا الأمر كما تنبأ أبو حنيفة ، والحقيقة أن المسألة هنا ليست نبوءة بقدر ما هى فراسة مؤمن .

وأما بديهة أبى حنيفة وسرعة خاطره وحسن تخلصه مما يحاك له من خصومه فى حضرة الخلفاء بخاصة فصورها كثيرة ، وأخبارها عديدة ، فقد كان أبو العباس الطوسى ممن يكنون لأبى حنيفة الحسد والكراهية – وهو بذلك يقع تحت حكم خارجة بن مصعب والخريبى اللذين مر خبرهما قبل قليل – وأراد الطوسى أن يوقع بأبى حنيفة فى مجلس أبى جعفر المنصور . فحين دخل أبو حنيفة على أبى جعفر وعنده ناس كثيرون . قال الطوسى لبعض من حوله : اليوم أقتل أبا حنيفة . ثم توجه إليه بالقول : يا أبا حنيفة إن أمير المؤمنين يدعو الرجل منا فيأمره بضرب عنق الرجل لايدرى ماهو؟ أيسعه أن يضرب عنقه ؟ فقال أبو حنيفة : يا أبا العباس . أمير المؤمنين يأمر بالحق أو بالباطل ؟ قال : بالحق . فقال أبو حنيفة : أنفذ الحق حيث كان ولا تسل عنه . ونظر أبو حنيفة إلى بعض من قرب منه باسما وقال : هذا أراد أن يوثقنى فربطته وهذا الخبر لاشك أنه من الطرافة بمكان ولكنه يدل على فطنة أبى حنيفة وسرعة بديهته وحسن تخلصه .

وشىء آخر قريب من ذلك جرى بين أبى حنيفة والربيع بن يونس حاجب المنصور ، وكان الربيع لا يحب أبا حنيفة ، فقد دعا المنصور يوما أبا حنيفة ، وبينما هو متخذ طريقه إلى الخليفة قال الربيع : ياأمير المؤمنين ، هذا أبو حنيفة يخالف جدك عبد الله بن عباس الذى يقول : إذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين جاز الاستثناء ، ويقول أبو حنيفة لا يجوز الاستثناء إلا متصلا باليمين . فقال أبو حنيفة بما عرف عنه من فطنة سليمة وبديهة مواتية : ياأمير المؤمنين ، إن الربيع يزعم أنه ليس لك فى رقاب جندك بيعة . قال : وكيف ؟

قال : يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم فضحك المنصور وقال : ياربيع ، لا تعرض لأبى حنيفة . فلما خرج أبو حنيفة قال له الربيع معاتبا : أردت أن تشيط بدمى ؟ فقال أبو حنيفة بسماحة وبساطة : لا ، ولكنك أردت أن تشيط بدمى فخلصتك وخلصت نفسى .

وأما ثبات أبى حنيفة ورباطة جأشه مع البديهة الحاضرة فمن خبرها أن الخوارج دخلوا مسجد الكوفة وأبو حنيفة وأصحابه جلوس – والخوارج يقتلون المسلمين أنى وجدوهم ، ويتركون المشركين إن استجاروا بهم – وفى كلمتين قال أبو حنيفة لصحابه : لا تبرحوا . ووقف الخوارج على رأس الحلقة وقالوا : ما أنتم ؟ فقال أبو حنيفة : نحن مستجيرون ، فقال أمير الخوارج : دعوهم وأبلغوهم مأمنهم ، واقرأوا عليهم القرآن ، فقرأوا عليهم القرآن وأبلغوهم مأمنهم .

إن الإمام أبا حنيفة دارس للفرق الإسلامية عارف بشرائعها ، سواء فى ذلك من قد عمدوا إلى الغلو والشطط ، ومن قد أخذوا أنفسهم بالقصد والاعتدال ، والخوارج ينتسبون إلى الفرق الأولى ، وقد قتلوا من المسلمين الأبرياء أعداداً كبيرة ، وأما غير المسلمين فإنهم يطبقون عليهم قول الله عز وجل :

« وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ المشرِكِينَ استَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنهم قومٌ لا يَعْلَمُونَ »[٨]

إن أبا حنيفة يعرف شريعة الخوارج ومن ثم سارع بإجابتهم عن سؤالهم بقوله : نحن مستجيرون ، فأنقذ نفسه وصحبه ، ولو قال غير ذلك لكانت السيوف إلى رقابهم أسرع من البرق فى الليلة الظلماء .

ومن مظاهر ثبات أبى حنيفة وحسن تصرفه عند الشدائد ما ذكره الإمام عبد الله بن المبارك فى قوله : كنا يوما فى مسجد الجامع فوقعت حية فسقطت فى حجر أبى حنيفة ، وهرب الناس فزعا ، وأمَّا أبو حنيفة فما رأيته زاد على أن نفض الحية وجلس مكانه .

(٨) التوبة آية (٦) .

هكذا كان أبو حنيفة وافر الفطنة ، بعيد النظر ، صادق الفراسة ، سريع البديهة ، رابط الجأش ، ثابت الجنان .

— ٧ —

أناقة أبى حنيفة ومظهره :

يذهب بعض الناس إلى أن التفرغ للعلم والإقبال على العبادة قد لايستوجبان العناية بالمظهر والأخذ بأسباب النعمة فى اللباس . والأناقة فى الزى . والاهتمام بالشكل العام . وهذا خطأ شديد . فقد كان رسول الله ﷺ آية فى الجمال والكمال والنظافة والعناية بمظهره وملبسه على بساطته . وكان ﷺ يقول :

« إنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ يرى أثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ » .

والله سبحانه يقول :

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ »(٩) .

كان الإمام الأعظم أبو حنيفة يستجيب لهذه الآية الكريمة ويقتدى بحديث رسول الله ﷺ فى إظهار نعمة ربه عليه ، فقد وصفه ولده حماد بقوله : كان أبو حنيفة طوالا تعلوه سمرة ، لباسا حسن الهيئة كثير التعطر ، يعرف بريح الطيب إذا أقبل أو خرج من منزله قبل أن تراه . وأما تلميذه أبو يوسف الذى كان عند الإمام فى مقام ولده حماد فإنه يزيد على قول حماد فى وصف الإمام أنه ليس بالقصير ولا بالطويل ، وأنه أحسن الناس منطقا ، وأحلاهم نغمة ، وأنبههم على ما يريده(١٠) .

---

(٩) سورة الأعراف الآية ٣٢ .

(١٠) تاريخ بغداد ٣٣٠/١٣ وما بعدها .

ويصفه الفقيه المحدث أبو نعيم بأنه حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الرائحة ، شديد الكرم ، حسن المواساة لإخوانه . ويقول العالم الفقيه النضر بن محمد : كان أبو حنيفة جميل الوجه نقي الثوب عطر الرائحة(١١).

فالإمام الجليل أبو حنيفة جمع بين جمال الخَلْق وسمو الخُلُق ونعمة العلم . فهو حسن الوجه جميل المحيا ، وهو ليس شديد البياض ولاحالك السواد وإنما تعلو محياه سمرة جميلة ، وهو ليس بالطويل الممجوج ولا بالقصير المعيب وإنما هو بين الرجال معتدل ربعة وربما كان أدنى إلى الطول ، وهو دائم التعطر بالطيب حتى لاتمل مصاحبته ، فإن في طلعته البهية وعلمه الغزير وحسن معاشرته للناس وسماحة أخلاقه ما يحبب الخلق إليه ، فإذا كان الطيب يواكب ذلك كله فقد كملت أسباب الصحبة وزادت بواعث الملازمة .

وكان يسار أبي حنيفة وغناه يسمحان له بأن يرتدى ثيابا غالية الثمن أنيقة الهيئة ، فقد كان كساؤه يقدر بثلاثين دينارا ، وهو ما يفسر لنا قول ولده حماد من أن أباه كان لباسا .

ولاتستقيم أناقة الكساء مالم يكن النعل نظيفا معتنى به ، وكذلك كان يفعل أبو حنيفة فهو دائم العناية بنعله حتى لم ير منقطع الشسع(١٢) .

ولم يكن أبو حنيفة يهتم بزيه ومظهره دون بقية مجالسيه ، وإنما كان يحض صحابه وتلامذته على ذلك ، يساعدهم بالمال ، ويوزع عليهم الكساء ، فقد كان صاحب متجر خز على ماسوف نبين بعد قليل ، ومن ثم فقد كانت حلقته تجمع بين ثراء العقل وجمال المظهر أو بعبارة أخرى كان هو وتلامذته يجمعون بين رواء المظهر ونقاء المخبر .

لقد كان الإمام الأعظم يوزع المال والكساء على صحابه ومريديه ، ولكنه كان إذا رأى إنسانا رث الهيئة سارع إلى مد يد العون إليه بالمال على الفور حتى

(١١) النجوم الزاهرة ٢/١٣ .

(١٢) الخيرات الحسان ص ٦١ والشسع هو زمام النعل بين الاصبع الوسطى والتي تليها

يصلح من شأن مظهره ، ويروى فى هذا السياق خبر لطيف، فقد رأى الإمام على بعض جلسائه ثيابا رثة لم يرقه منظرها وقد بدا صاحبها وكأنه غريب عن المجلس ، فأمره أن يبقى بعد أن يتفرق الناس ، فلما أن انفض السامر ولم يبق أحد غيرهما قال له أبو حنيفة : ارفع المصلى وخذ ماتحته ، فرفع الرجل المصلى فكان تحته ألف درهم ، فقال له الإمام : خذ هذه الدراهم فغير بها من حالك ، فقال الرجل : إنى موسر ، وأنا فى نعمة ولست أحتاج إليها ، فقال له الإمام : أما بلغك الحديث :

« إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَىَ أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ » .

فينبغى لك أن تغير حالك حتى لايغتم بك صديقك[١٣] .

إن أبا حنيفة لايهتم بثيابه ومظهره وحسب ، ولكنه يدفع الناس جميعا إلى النظافة والأناقة والتعطر . وربما كان أبو حنيفة يعرف حقيقة ذلك الجليس الرث الثياب ، ربما كان يعرف أنه من اليسر بمكان ، ولكن بخله منعه من أن يهتم بمظهره ، فأراد أن يلفت نظره بطريقة مهذبة إلى ضرورة العناية بنفسه وثوبه حين أعطاه المال ، وبذلك نبهه إلى ما يحسن منظره وفى الوقت ذاته وبخه على بخله فليس شىء يعيب الرجل مثل أن يكون بخيلا .

ويسهم الإمام عبد الله بن المبارك - وهو كثير الخلطة كثير الأخبار عن أبى حنيفة - فى وصف هيئة الإمام الأعظم ومجلسه وسلوكه بقوله : ماكان أوقر مجلس أبى حنيفة ، كان يشبه الفقهاء ، وكان حسن السمة ، حسن الوجه ، حسن الثوب.ومرة أخرى يصفه وصفا موجزا جامعا مانعا فيقول : «كان أبو حنيفة آية » فيقول قائل أغلب ظنى أنه من خصوم أبى حنيفة : فى الشرّ يا أبا عبد الرحمن أوفى الخير؟ فينهره ابن المبارك ويفحمه بهذه الإجابة الرصينة قائلا : اسكت ياهذا ، فإنه يقال غاية فى الشر وآية فى الخير. ثم يشفع ابن المبارك إجابته تلك بشاهد من القرآن الكريم ، وهو قوله تعالى :

(١٣) تاريخ بغداد ٣٦٢/١٣ .

« وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً »[14] .

وإذا كان هذا هو وصف الإمام عبد الله بن المبارك للإمام الأعظم مطنبا مرة فى جمع من الكلمات البليغات ، موجزا مرة أخرى فى كلمات ثلاث ، فإن إماما آخر معاصرا لأبى حنيفة ، وسامعا منه جالسا إليه وطائفا معه حول الكعبة ليالى طويلة هو سفيان بن عيينة يوجز وصف أبى حنيفة فى كلمات تتفجر من حواشيها المعانى الجلال قائلا : ما مقلت عينى مثل أبى حنيفة[15] . ومعنى ذلك أن أبا حنيفة كان يملأ العين بهجة ، والقلب هيبة ، والعقل إعجابا ، والسمع إطرابا ، والروح رضى ، والجوانح إجلالا .

كان مثل ماوصفه ابن خلكان حسن الوجه ، حسن المجلس ، شديد الكرم ، حسن المواساة لإخوانه ، طوالا تعلوه سمرة ، أحسن الناس منطقا وأحلاهم نغمة[16] .

– ٨ –

أبو حنيفة التاجر الصدوق :

سلف القول أن أبا حنيفة كان سخيا شديد الكرم يفيض على صحابه وتلاميذه من ماله ، حسن المواساة لهم وللناس . فمن أين أتى هذا المال الوفير لأبى حنيفة ؟ من الحقائق المقررة أن أبا حنيفة ترفع عن مال الخلفاء ورفض أعطياتهم ، فإذا ما أرسلوا المال إلى داره لم يجد حرجا فى أن يرده إليهم فى أدب وحزم معا ، وذلك حديث مستقل به قادم إن شاء الله .

إن مال أبى حنيفة قد جاءه حلالا وفيرا من تجارة الخز (الحرير) التى كان يمارسها ، فقد كان أبو حنيفة إلى جانب فقهه وعلمه وأستاذيته من تجار الكوفة

---

(١٤) المؤمنون الآية ٥٠ .

(١٥) تاريخ بغداد ٣٣٦/١٣ .

(١٦) وفيات الأعيان ترجمة النعمان بن ثابت .

الذين يشار إليهم بالبنان . وكان متجره يحتل دارا من أكبر دور الكوفة وأشهرها هي دار الصحابي الجليل عمرو بن حريث المخزومي القرشي الذى كان واليا على الكوفة فى أيام حكم زياد وولده عبيد الله بن زياد ثم توفى عام ٨٥هـ أى بعد مولد أبى حنيفة بخمس سنين .

كانت هـذه الدار الكبرى الشهيرة - دار عمرو بن حريث - هى مقر تجارة أبى حنيفة ، ونستطيع أن نستنتج فى سهولة ويسر ضخامة المتجر وثراءه بالبضاعة وامتلاءه بالحرير ، وبالتالى عائده من الربح ، وريعه من الكسب ، وهو لاشك كثير ، ولكنه مال حلال ، يذهب أكثره فى سبيل الخير من إنفاق على العلم والعلماء ، وصدقات على المعوزين والفقراء ، وعون لأولئك الذين يحسبهم الناس أغنياء من التعفف .

فإذا سأل سائل : كيف يكون الجمع بين العلم والتجارة ، كانت الإجابة أن التجارة عمل شريف مادامت بريئة من الطمع خالية من الاستغلال ، وربما كانت التجارة من أشرف الأعمال مادامت تمارس فى نطاق هـذه القيـم وفى حدود تلك المعانى ، ولقد

« أَحلَّ اللهُ البيْعَ وحَرَّمَ الرِّبَا »

ولم يكن من المألوف أنذاك أن يتكسب المرء بعلمه مادام قادراً على العمل والكسب ، فإذا جمع المرء بين العمل والعلم فقد جمع بين الحسنيين . ولقد كان صدّيق رسول الله أبو بكر تاجراً فى مكة قبل الهجرة وتاجراً فى المدينة بعد الهجرة مع صحبته لرسول الله ﷺ وإسهامه فى نشر الدعوة واشتراكه فى الغزوات . ومن المصادفات الطريفة أن يكون الصديق تاجر قماش وكذلك كان أبو حنيفة ، غير أن الصديق كان تاجر بز وأبو حنيفة كان تاجر خز ، ولقد ظل أبو بكر يمارس عمله فى التجارة حتّى بايعـه الصحابة خليفة لرسول الله وأميرا للمؤمنين ، ومن الطرائف المأثورة أن أبا بكر حمل بضاعته واتجه إلى السوق غداة بويـع أميراً للمؤمنين حتّى يؤمن سبيل نفقاته ، ولكن عمر أمسك به ورده عن وجهته وقال له إن بيت المال كفيل بنفقات أمير المؤمنين .

فأبو حنيفة إمام عالم معلم ، وهو أيضاً تاجر كبير صدوق من أولئك الذين يستظلون تحت عرش الله يوم لاظل إلا ظله . جمع بين النشاطين نشاط العلم تحصيلاً ثم عطاء ، ونشاط تجارة الخز بيعاً وشراء .

وكان الإمام الأعظم يقسم أيامه وينسقها بين الجلوس فى المتجر ، وبين الجلوس للعلم والفتيا ، وبين حاجاته الخاصة به وبأسرته وبين الاهتمام بتلامذته وصحابه ، فقد كان – حسبما أورد الموفق المكى – يجعل يوم السبت لحوائجه ولا يحضر فى السوق – أى المتجر – بل يتفرغ لأهل منزله وخاصة أموره ، وكان يوم الجمعة يدعو أصحابه إلى بيته جميعاً ويقدم لهم ألوان الطعام ، وأما بقية الأيام فكان يجعل وقت الضحى وساعات بعده للقعود فى المتجر ، وما بقى بعد ذلك من الساعات – ربما حتى الفجر – للدرس والتعليم(١٧) .

وإذا كانت حركة المتجر دائمة دائبة لا تنهض إمكانيات الإمام الجليل على الوفاء بها . فإن رجلاً جليلاً صاحب فضل كان يضطلع بأكثر ذلك وهو حفص بن عبد الرحمن شريك أبى حنيفة وتلميذه فى العلم والتجارة والذى ظل شريكاً للإمام مدة ثلاثين عاماً ، وتوحى الأخبار التى أثرت عن متجر أبى حنيفة أن ولده حماداً كان يشارك فى البيع والشراء ، وكذلك كان أكثر تلامذة الإمام يفعلون .

ودار عمرو بن حريث أو بالأحرى متجر أبى حنيفة كان على ضخامته وامتلائه بالبضائع ونشاط حركته يمثل مدرسة إسلامية إنسانية فى أدب التعامل مع الناس وفى نهج البيع والشراء . فإذا وفدت امرأة على المتجر فالمعاملة تتم فى نطاق الحشمة والوقار والعفة ، لا ينظر إليها أحد نظرة مريبة ولا تمتلئ العين منها وإنما يطبق العاملون قول أستاذهم صاحب المتجر : من وصف خف امرأة كبير أو صغير فقد وصف قدمها ، ومن وصف قدمها لم يكن عدلاً .

وللمتجر نظام دقيق أمين فى البيع والشراء ، الربح قليل ، وفى حالات كثيرة يتعامل صاحب المتجر الإمام الجواد السخى بغير ربح مع الفقراء والأقربين ثم هو

(١٧) المناقب ١٠٦/٢ .

ينصف البائع غير البصير بالسوق ويزكي بضاعته ويدفع له السعر الذى تستحقه هـذه البضاعة ولو كلفه ذلك أضعاف ما طلبه البائع ، والمتجر لا يعلن عن بضاعته ولا يطريها أو يمتدحها ، فإن أمانة التاجر الصدوق تفرض عليه ألا يبيع إلا كل جيد من البضائع فإن وجد ثوب به عيب تحتّم عليه أن ينبه المشترى إلى ذلك وألا يتقاضى من ثمنه إلا ما يتناسب مع طبيعته .

والأمر الأكثر إثارة وإعجاباً أن أكثر من تسعين فى المائة من ربح المتجر تذهب صدقات أو ما يشبه الصدقات ، ولا يستبقى الإمام صاحب المتجر لنفسه إلا أربعة آلاف درهم كل عام ، والأكثر من ذلك طرافة أن للعمال الذين يتولون البيع فى المتجر – وأكثرهم من تلامذة صاحبه – نصيباً كبيراً من الربح ، يوزع عليهم فى نهاية كل عام أو فى المناسبات العامة كالأعياد أو ما شابهها .

إنه يجمل بنا أن نسوق بعض الأمثلة لبعض أنواع التعامل فى متجر أبى حنيفة من منطلق القيـم التى كانت تطبق فى المتجر مما سبقت الإشارة إلى بعضها .

جاءت امرأة إلى أبى حنيفة تشترى ثوب خز ، فأخرج لها ثوباً يتفق مع ما طلبت ، ولكنها كانت فقيرة ، فقالت لأبى حنيفة : إنى امرأة ضعيفة وإنى مستأمنة إياك ، فبعنى هـذا الثوب بما يقوّم عليك – يعنى بأصل ثمنه بلغة عصرنا – فقال لها : خذيه بأربعة دراهم ، فقالت المرأة : لا تسخر بى وأنا عجوز كبيرة ، فقال لها أبو حنيفة فى جد وسماحة نفس : إنى اشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم ، فبقى هـذا الثوب علىَّ بأربعة دراهم ، فأخذته المرأة سعيدة شاكرة داعية للتاجر الإمام الصدوق .

« وصفقة » أخرى من ذلك القبيل لأبى حنيفة مع صديق له احتاج إلى ثوب خز ، فسأله أبو حنيفة عن لونه ، فقال : كذا وكذا ، فقال له : اصبر حتى يقع لى ثوب بالمواصفات المطلوبة وسوف آخذه لك إن شاء الله . وما إن استتمت أيام الأسبوع حتى ورد الثوب لأبى حنيفة ، فمر به الرجل ، فقال له أبو حنيفة : قد وقعت حاجتك وأخرج إليه الثوب فأعجبه ، ثم قال : يا أبا حنيفة : كم أزن للغلام ؟ يعنى كم ثمن الثوب حتى أدفعه لصراف المتجر ؟ . فقال أبو حنيفة :

درهماً ، فقال الرجل : يا أبا حنيفة : ماكنت أظنك تهزأ بى ! ! قال : ماهزأت ، إنى اشتريت ثوبين بعشرين ديناراً ودرهم ، وإنى بعت أحدهما بعشرين ديناراً ، وبقى هذا بدرهم وما كنت لأربح من صديق .

كان هذان نموذجين لكرم أبى حنيفة فى البيع لمن هم أهل لأن ييسر عليهم ، فالحالة الأولى كانت مع سيدة عجوز فقيرة ، والحالة الثانية كانت مع صديق ، وإن مروءة التاجر الصادق الشهم تأبى عليه أن يربح من هذه أو ذاك[18] .

فى الوقت الذى يتعفف فيه أبو حنيفة عن الربح فى البيع فى حالات بعينها . نجده يطبق المبادئ نفسها . أو بعبارة أدق الشمائل نفسها . فى حالات الشراء . وقد سبقت الإشارة إلى أن متجره يبيع الخزّ ويشتريه أيضاً .

جاءت امرأة إلى المتجر تحمل ثوباً من الحرير تريد بيعه ، فقال لها أبو حنيفة : بكم تريدين بيعه ؟ قالت : مائة ، فقال لها : هو خير من ذلك أى أغلى من الثمن الذى تطلبين . فزادت مائة أخرى وأبو حنيفة يقول : بل أكثر من ذلك ، إلى أن طلبت المرأة أربعمائة ، فقال لها : هو خير من ذلك ، فقالت المرأة وقد عجزت عن أن تفهم صدق أبى حنيفة : تهزأ بى ؟ فقال : هاتى رجلاً يقومه ، فجاءت برجل قومه فاشتراه أبو حنيفة بخمسمائة[19] .

وأمانة أبى حنيفة فى البيع والشراء لاحدود لها ، وحرصه على الكسب الحلال أيضاً من الفعال التى ينبغى أن تعرف وتذيع وبخاصة فى أوساط التجار على اختلاف سلعهم .

بعث أبو حنيفة إلى شريكه حفص بن عبد الرحمن بمتاع ، أى بضائع يمون بها المتجر ، وأعلمه أن فى ثوب كذا وكذا عيوباً ، فإذا بعتها فبين العيب وأدخل ذلك في الحسبان عند قبض الثمن ، فباع حفص المتاع جميعه ونسى أن يبين

---

(١٨) تاريخ بغداد ٣٦١/١٣ ، ٣٦٢ .
(١٩) الخيرات الحسان ص ٤٤ .

العيب ولم يعلم لمن باعه ، فلما علم أبو حنيفة بذلك أحس بالحرج الشديد وخشى على ماله من أن يدخل فيه حرام فتصدق بثمن المتاع كله[٢٠] ، وقيل إنه فض الشركة التى بينه وبين حفص بن عبد الرحمن لهذا السبب ، وإن كنا لا نميل إلى تصديق هـذا الانفصال بسبب حلم أبى حنيفة ووفائه لشريكه الذى لم يفعل ذلك إلا نسياناً وسهواً .

ومن شمائل دار عمرو بن حريث وتقاليدها فى البيع والشراء أن مشترياً وفد عليها طالباً ثوباً من الخز ، فقال أبو حنيفة لولده حماد : أخرج له ثوباً ، ففعل حماد ونشر الثوب أمام المشترى فى رشاقة قائلاً صلى الله على محمد . فقال له أبوه : مه ياحماد ، قد مدحت الثوب ، ورفض أن يبيعه .

لقد وضع أبو حنيفة دستوراً خلقياً للبيع والشراء ، وشرع مبادئ للأمانة فى التعامل مع البائع والشارى ، وحدد مقادير الربح المعقول ، وترفع عن الربح من الفقراء وتعفف عن قبول ربح فيه شبهة ورسم تقاليد عفة فى التعامل مع النساء ، وأشرك عمال متجره فى صافى ارباحه ، وجعل جل ماكسبه صدقات فى أعمال الخير ، واستبقى لنفسه ولبيته القليل ، وجعل لله وللناس من المستحقين وأصحاب الحاجات نصيباً ، فبورك له فى متجره ، وزاده الله غنى وثراء ليس فى المال وحسب ، ولكن فى المال والعلم حتى أصبح فى قائمة الأئمة الخالدين .

— ٩ —

جود أبى حنيفة وكرمه وصدقاته .

كان جود أبى حنيفة من الوفرة بحيث يكاد يتوافق مع عقله وعلمه وفقهه وورعه ، فقد كانت حياة الإمام الأعظم متسمة بالاتساق فى كل شىء ، فإن وزن عقله فهو أعقل الناس ، وإن قوم علمه فهو اعلم الناس ، وإن نظر إلى ورعه فهو أورع الناس ، وكذلك الحال فى فقهه وحلمه وكرمه وتعففه .

---

(٢٠) تاريخ بغداد ١٣/٣٥٨ .

إن جود أبي حنيفة يصدر عنه سجية وليس افتعالاً ، وطبعاً وليس تطبعاً ، وعفو الخاطر وليس تصنعاً . لقد سلف القول أن أبا حنيفة صاحب متجر كثير الأرباح وافر المكاسب بحيث يهيء لصاحبه أن يعيش فى قمة من رغد العيش ، يسكن القصور ويقتنى النفائس ، ولكن أبا حنيفة عالم قبل أن يكون تاجراً وإمام قبل أن يكون موسراً ، ولذلك فهو يوظف فائض ماله فيما ينفع الناس فى دينهم ودنياهم بين إنفاق على العلماء والطلاب ، وصدقات على المحتاجين والبؤساء ، وسد عوز وإغاثة ملهوف .

لقد كان الإمام يحتجز لنفسه أربعة آلاف درهم ليس غير كل عام لنفقته وحاجات أهله وولده وبيته ، وهو مبلغ صغير إذا ما قورن بأرباح متجره الكبير وأما بقية الأرباح فتذهب كرماً وجوداً وصدقات .

إن الإمام العظيم يقول : ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أربعين سنة إلا أخرجته ، ثم يبرر احتفاظه بالأربعة آلاف - وهو ليس فى حاجة إلى تبرير الاحتفاظ بها لأنها من حر ماله الحلال - قائلاً : وإنما أمسكتها لقول على رضى الله عنه : أربعة آلاف فما دونها نفقة ، ثم يمضى الإمام فى مزيد من التبرير قائلاً : ولولا أنى أخاف أن ألجأ إلى هؤلاء ما تركت منها درهماً واحداً .

هكذا جعل أبو حنيفة كل إيراده صدقات وإحساناً ، وهو فى هذا السبيل يضع لنفسه دستوراً للتصدق ، أو بالحرى دستوراً يدفع به إلى الإكثار من التصدق ، فمن ذلك أنه ألزم نفسه بأن يتصدق بدرهم كلما حلف بالله ، فحلف فتصدق به ، ثم جعل على نفسه عهداً بأن تكون الصدقة ديناراً كلما حلف بالله ، فكان إذا حلف بالله صادقاً فى عرض كلامه - وهو دائماً صادق - تصدق بدينار .

كان أبو حنيفة يفعل ذلك من الآلاف الأربعة التى يمسكها لنفسه كل عام ،

ثم يزيد الإمام التصدق درجة أخرى بحيث أنه كان إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها ، وإذا اكتسى ثوباً جديداً كسى بقدر ثمنه الشيوخ العلماء .

وكرم أبى حنيفة مع الشيوخ والعلماء والصحاب والتلاميذ حديثه عذب طويل ، فقد كان يخصهم بأرباح صفقات تجارية يجريها بين بغداد والكوفة ويجمع ذلك عنده حتى نهاية السنة ثم يقوم بشراء حوائج هؤلاء جميعاً من أقوات وكساوى وما إليها ، ثم يدفع إليهم بباقى المال ويقول لهم : أنفقوا فى حوائجكم ، ولا تحمدوا إلا الله ، فإنى لم أعطكم شيئاً من مالى ، ولكن من فضل الله على فيكم وهذه أرباح بضائعكم ، فإن ذلك والله هو مما يجريه الله لكم على يدىّ .

إن المرء ليتساءل فى صدق ، هل وجد لهذا الإمام نظير فى جوده ، بل هو وجد لهذا التاجر مثيل فى كرمه ؟ فضلاً عن ذلك الأسلوب المهذب العف فى توزيع الأموال على من هم أهل لها ؟ ربما كان هذا السؤال مما تصعب الإجابة عنه .

لقد كان أبو حنيفة كالسيل فى كرمه وفى رعاية حقوق من هم جديرون بالعون والإغاثة ، فقد حُبس إبراهيم بن عيينة فى دين يربو على أربعة آلاف درهم وإبراهيم هذا أخ للإمام سفيان صديق أبى حنيفة وصفيه ، ولقد مر بنا أن سفياناً كوفى ثم هاجر إلى مكة ، وبدأ ذوو المروءة من أصحاب إبراهيم يجمعون المال ليسددوا دين صاحبهم ويطلقوه من محبسه ، فلما ذهبوا إلى أبى حنيفة يستوهبونه بعض ما يسهم به لإغاثة إبراهيم ، أمر برد كل ما جمعوه من المال إلى أصحابه وتولى بمفرده قضاء الدين عن صاحبه .

وينبغى ألا يذهب الخاطر بعيداً فيظن أن أبا حنيفة إنما سدد الدين عن إبراهيم لأنه أخ للإمام سفيان بن عيينة ، وإنما هدف أبى حنيفة كان إغاثة ملهوف وإطلاق سراح مكروب ، أيًّا كان هذا الملهوف ، سواء أكان قريباً من أبى حنيفة أم بعيداً عنه ، فقد لاحظ أبو حنيفة ذات يوم رجلاً فى مجلسه لم يألف أن يختلف إليه ، وقرأ فى عين الجالس الوقور أشياء كثيرة ، قرأ فى عينيه فقراً بعد غنى ، واستبان فى هيئته بؤساً بعد ميسرة ، ورأى فى قلقه عسراً بعد

يسر ولما أن انفض المجلس انصرف الرجل مع المنصرفين ، ولكن أبا حنيفة تابعه حتى عرف داره ، ولما أن هدأت السابلة ، وأقبل ظلام الليل جهز أبو حنيفة خمسة آلاف درهم ، واتجه إلى بيت الرجل ودق الباب وقال للرجل فى صوت لا يكاد يسمعه غيرهما : « أيها الرجل وضعت عند بابك شيئاً هو لك » وعاد أبو حنيفة مسرعاً من حيث أتى ، وما أن أخذ الرجل الصرة وحل عقدتها حتى وجد المال ومعه كلمة رقيقة من أبى حنيفة يقول فيها : هذا المقدار – من المال – جاء به أبو حنيفة إليك من وجه حلال ، فليفرغ بالك .

وكان لأبى حنيفة وسائل أخرى للجود والصدقات يضمنها معاملاته فى البيع والشراء ، فهو إذا باع شيئاً بأصل قيمته فقد تصدق بالمبلغ الذى كان من المقرر أن يربحه ، وقد مرت بنا قبل صفحات قصة المرأة التى باعها ثوباً بأربعة دراهم ، وليس من شك فى أن الثوب لو بيع لغيرها لكان ثمنه أعلى كثيراً من تلك الدراهم الأربعة التى جعلها أبو حنيفة ثمناً له .

كان أبو حنيفة كريماً جواداً يستعذب الكرم ويلتذ الجود ، وكان يخلق المناسبة للعطاء حتى لا يشعر صاحبه بحرج أو خجل ، فحين حفظ ولده حماد سورة الفاتحة وكان طفلاً صغيراً بطبيعة الحال أقام الإمام حفلاً لهذه المناسبة وأعطى المعلم خمسمائة درهم ، فلما استكثر المعلم ذلك قال له : إنك تستحق أضعاف ذلك ولو كان معنا الآن أكثر لأعطيناك .

ولم يكن الأمر يقف بأبى حنيفة عند عطاء المال وشراء الضروريات لتفريقها على ذوى الحاجات ، وإنما كان يجود بالهدايا التى كان يتلقاها ويوزعها على صحابه ، وما أكثر ما كان يتلقى أبو حنيفة من الهدايا . فمن الأمور الفريدة فى هذا السبيل أن الإمام قد تسلم هدية عبارة عن ألف نعل فوزعها جميعاً على صحابه ، ثم رؤى فى السوق بعد ذلك بيومين يشترى لولده نعلاً .

هكذا كان جود أبى حنيفة وتلك كانت عطاياه يؤثر بها المستحقين ، ويمد بها المحتاجين ، ويغيث بها الملهوفين ، ثم هو بعد ذلك يكفل العيش الرضى للعلماء والشيوخ والتلاميذ حتى يتفرغ الشيخ لعلمه والتلميذ لدراسته ، وإن تلميذه

أبا يوسف يسجل ذلك بقوله : كان يعولنى وعيالى عشرين سنة ، وإذا قلت له : ما رأيت أجود منك ! ! يقول : كيف لو رأيت حماداً ؟ يعنى أستاذه حماد بن أبى سليمان .

لقد كانت حلقة أبى حنيفة منتدى للبر والحب والوفاء مثلما كانت معهدا للعلم والفقه ومكارم الأخلاق .

– ١٠ –

فكاهة أبى حنيفة :

كان الإمام أبو حنيفة ذا سمت ووقار ، وجد واتزان مع بشاشة وجه وحسن طلعة واشراق محيا ، ولكنه لم يتخل عن البسمة إذا سنحت ، ولم يكتم الفكاهة إذا حلت ، ولا الملحة إذا جاءت مناسبتها ، فإن التزمت كان بعيداً عنه ، والغلظة لم تكن من طبعه ، وليس هناك ما يمنع من أن يجمع المرء بين العمل والبسمة ، والجد والمزحة ، فقد كان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا صدقا ، وكان أبو حنيفة يقتفى آثار الرسول قولا وعملا .

فمن لطائف أبى حنيفة خبره مع الحجام الذى كان يأخذ من شعره ، فقال له : تتبع مواضع الشعر الأبيض فاقلعه ، فقال له الحجام : لا تزد ، قال : ولم ؟ قال : لأنه يكثر ، فقال الإمام ضاحكا : إذن تتبع مواضع السواد لعله يكثر .

ومن فكاهات ردود الإمام على بعض الأسئلة أن رجلا سأله : متى يحرم الطعام على الصائم ؟ فقال له : إذا طلع الفجر ، فقال السائل : فإن طلع نصف الليل ؟ فضحك الإمام وقال له : قم ياأعرج ! !

ومن طرائف آراء أبى حنيفة أو فتاواه أن رجلا سأله عن حقه فى أن يفتح خوخة فى حائطه ، فقال له أبو حنيفة : افتح ما شئت ولكن لا تطلع على جارك . فشكاه الجار إلى قاضى الكوفة الفقيه الكبير ابن أبى ليلى فأصدر القاضى حكما بمنعه ، فعاد الرجل إلى أبى حنيفة فقال له : افتح فيه بابا ، فمنعه ابن أبى

ليلى ، فعاد الرجل إلى أبى حنيفة للمرة الثالثة ، فقال له : كم قيمة حائطك ؟ قال الرجل ثلاثة دنانير ، قال : اهدمه ولك على الدنانير الثلاثة . فذهب الرجل لهدم حائطه ، فاشتكى الجار إلى ابن أبى ليلى ، فقال ابن أبى ليلى مستنكراً : رجل يريد أن يهدم حائطه وتسألنى أن أمنعه ؟ ثم التفت إلى صاحب الجدار قائلا إذهب فاهدمه واصنع ما شئت فى جدارك ، فقال الجار : كان فتح الخوخة أهون لى .

إن فتوى أبى حنيفة فتوى جادة من حيث الموضوع ولكنها من حيث الشكل فتوى ضاحكة مرحة حلت مشكلة صاحب الجدار ، وفى الوقت نفسه أوقعت قاضيا عظيما مثل ابن أبى ليلى فى تناقض ظاهر ، فقد أقر اليوم ما أنكره بالأمس وهل هناك تناقض أكثر من رفض الحكم بفتح خوخة فى جدار ثم الحكم بعد ذلك بالموافقة على هدم الجدار جميعه .

ولمناسبة فتاوى أبى حنيفة التى تناقض أحكام القاضى ابن أبى ليلى يجدر بنا أن نعرض لهذه القضية الطريفة التى أصدر فيها القاضى حكما وناقضه أبو حنيفة مناقضات جعلت ابن أبى ليلى مثارا للهزء والسخرية مما اضطره أن يشكو أبا حنيفة إلى الخليفة .

كانت امرأة مجنونه اسمها أم عمران تجلس فى حى الكناسة بالكوفة ، فمر بها رجل فكلمها بشىء أغضبها فشتمته قائلة له . ياابن الزانيين ، وكان ابن أبى ليلى حاضرا وسمع قول أم عمران ، فقال للرجل : أدخلها على المسجد ، وأقام عليها حدين ، حدا لأبيه وحد لأمه . فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال : أخطأ ابن ليلى فى ستة مواضع :

- أقام الحد فى المسجد ولا تقام الحدود فى المساجد .
- وضربها قائمة والنساء يضربن قعودا .
- وضرب لأبيه حدا ولأمه حدا ، ولو أن رجلا قذف جماعة لأقيم عليه حد واحد .
- وجمع بين حدين ، ولا يجمع بين حدين حتى يخف أحدهما .

– والمجنونة ليس عليها حد .
– وحدٌ لأبويه وهما غائبان لم يحضرا فيدعيا بحقهما .

فبلغ ذلك ابن أبى ليلى فدخل على الأمير شاكيا أبا حنيفة فأصدر الأمير أمرا يحجر على أبى حنيفة أن يفتى . فلم تمض أيام حتى قدم رسول من ولى العهد يعرض على أبى حنيفة مسائل كى يفتى فيها . فاعتذر أبو حنيفة وقال : أنا محجور على . فذهب الرسول إلى الأمير الذى سحب حكمه وقال : قد أذنت له ، فقعد أبو حنيفة بعد ذلك فأفتى[٢١] .

ومن طرائف أبى حنيفة مع قاضٍ آخر مشهور من قضاة الكوفة هو عبد الله ابن شبرمة أن رجلا مات وأوصى لأبى حنيفة وهو غائب ، ولما قدم أبو حنيفة رفع الأمر إلى القاضى ابن شبرة لصحة الوصية وإقامة البينة على أن فلانا مات وأوصى إليه ، فقال ابن شبرمة : ياأبا حنيفة ، احلف أن شهودك شهدوا بالحق.قال : ليس علىَّ يمين فقد كنت غائبا . قال : ضلت مقاليدك ياأبا حنيفة . وهنا استنكر أبو حنيفة قول القاضى وقرر أن يفحمه فقال : ضلت مقاليدى ؟ ! ! إذن ما تقول فى أعمى شج ، فشهد له شاهدان أن فلانا شجه ، هل على الأعمى يمين ؟ إن شهوده شهدوا بالحق ولا يرى[٢٢] ، فأسقط فى يد القاضى الذى كان يكن لأبى حنيفة شيئا من البغضاء ، ولم يلبث أن جعلته الأيام بعد ذلك يقر بفضل الإمام الأعظم .

ولأبى حنيفة طرفة أخرى مع بعض السذج من فصيلة ذلك الذى سأله عن وقت تحريم الطعام على الصائم ، فقد دفن رجل مالا فى موضع ثم نسى فى أى موضع دفنه ، فجاء إلى أبى حنيفة فشكا إليه ، فقال له أبو حنيفة : ما هذا فقه فأحتال عليه ، ولكن اذهب فصلِّ الليلة ، ففعل الرجل ، ولو يقم إلا اقل من ربع الليل حتى ذكر الموضع ، فجاء إلى أبى حنيفة فأخبره ، فقال له أبو حنيفة :

---

(٢١) تاريخ بغداد ٣٥١/١٣ .
(٢٢) المرجع ٣٤٨/١٣ .

قد علمت إن الشيطان لا يدعك تصلى حتى يذكرك ، فهلا أتممت ليلتك شكراً لله عز وجل .[23]

هكذا كانت البسمة كثيرا ما تكسو وجه أبي حنيفة ، وترتسم على محيا أصحابه ، نتيجة لطرفة طارئة ، أو فكاهة طارقة ، فرطبت دنيا العلماء الجادين وصارت فيها بعد خبرا لطيفا يسجله التاريخ وملحة بريئة ترويها الأزمان.



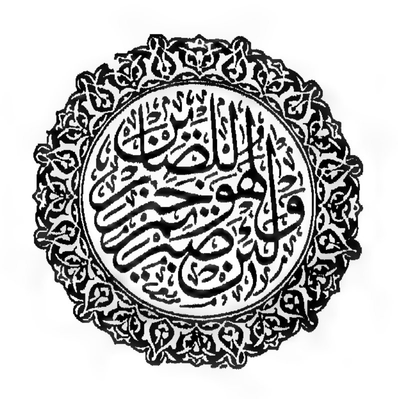
---

(٢٣) وفيات الأعيان ترجمة النعمان بن ثابت .

الفصل الخامس

أبو حنيفة والسياسة

* أبو حنيفة وبنو أمية .
* أبو حنيفة والسفاح والترحيب بالعباسيين .
* أبو حنيفة يناهض الحكم العباسى .


ولئن صبرتم لهو خير للصابرين

الفصل الخامس

أبو حنيفة والسياسة

أبو حنيفة عالم كبير وإمام جليل ، والعلماء لا يعملون بالسياسة ولا ينبغى لهم أن يفعلوا ، بمعنى أن العلماء فى مقام يجعل الرؤساء يدينون لهم بالطاعة والاحترام ، لا أن يدينوا هم للحكام ، ومن ثم يكون العلماء هم مصدر التوجيه ومنبع التشريع ومنشأ الإبداع وليس العكس ، فإذا ما اشتغل العالم بالسياسة ، فإنما يكون ذلك فى حدود هذه المعانى ، وفى نطاق هذه المفاهيم ، إن العالم يقرّ الصواب من الأعمال ، ويشجع الصالح من الأوضاع ، وينكر الانحراف ، ويقاوم الفساد ، وهو فى النهاية رأس وليس بذنب ، ورائد وليس بخادم ، ومتبوع وليس بتابع ، وصاحب رأى وليس بذيل .

من هذا المفهوم كان أبو حنيفة يعمل بالسياسة فى غير ما احتراف ، ويمارسها فى غير ما تبعية ، يرضى فى مقام الرضى ويغضب فى مقام الغضب ، ويعلن الرأى الذى يعتقده صواباً ، رضى الحاكم أو لم يرض ، سخط السلطان أم لم يسخط .

— ١ —

أبو حنيفة وبنو أمية :

أبو حنيفة محب لرسول الله وآل بيته ، يفعل ذلك تدينا وليس تشيعا ، فمن أحب الرسول أحب سلالته ، وهو يجلّ الخلفاء الراشدين ويخص عليا بمزيد من الحب وفيض من الإجلال ، وإن لجده مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب خبر مضى ذكره حين أهدى إليه الفالوذج فى يوم المهرجان ، فقال أمير المؤمنين متبسطاً : « مهرجونا كل يوم » كناية عن إعجابه بالفالوذج الذى قدمه النعمان جد أبى حنيفة إليه .

وتذكر الأخبار أن ثابتا والد أبى حنيفة ذهب إلى الإمام علىّ وهو صغير ، فدعا له بالبركة فيه وفى ذريته ، فأبو حنيفة والأمر كذلك محب لآل البيت ، لأن دينه يدفع به إلى ذلك ، وهو من ناحية أخرى محب للإمام على ، لأنه قد دعا بالبركة لأبيه وهو صغير ، وطلب من الله أن تكون هذه البركة فيه وفى ذريته ، وأبو حنيفة يحس بالبركة تحوطه من كل جانب ، بركة العلم وبركة المال وبركة الإيمان ، وإذن فهو بعلمه وماله وإيمانه وصيته ، ثمرة زكية لدعوة مباركة دعاها على بن أبى طالب فاستجاب الله لها .

وينشأ أبو حنيفة على هذا الحب لآل البيت ، ويرى الحكم فى بنى أمية خصوم آل البيت ، ويلمس ما يوقعه بنو أمية بآل بيت رسول الله من أذى . . واضطهاد وسفك دماء ، فيجد نفسه لهم كارها ، ولحكمهم مبغضا ، فلا يستجيب لعاملهم إذا ما رغب فى الاستعانة به ، ولا يقول فيهم كلمة طيبة إذا ما دعتهم الحاجة لأن يطلبوا إليه ذلك .

عاش أبو حنيفة سبعين سنة منها اثنتان وخمسون فى عهد بنى أمية ، وهو على هذه الحال من مشاعر الكراهية لهم ، وعدم الرضى عن حكمهم ، آملا أن تدول دولتهم ، وأن يتفرق شملهم ، ويتمزق جمعهم .

ونستطيع أن نعرض لموقفين حاسمين بين مواقف كثيرة نحدد من خلالها مشاعر أبى حنيفة قِبَلَ بنى أمية وحكامهم .

فأما الموقف الأول . . فكان إبّان خروج الإمام زيد بن على زين العابدين على الأمويين سنة مائة وواحد وعشرين هجرية ، وكان أمرهم يومئذ بيد هشام بن عبد الملك . وكان خروج زيد على بنى أمية هو الخروج الثالث ، فقد كان أول من حاربهم عبد الله بن الزبير ، والخروج الثانى كان لسيد الشهداء الإمام الحسين جد زيد ، والخروج الثالث هو هذا الذى نشير إليه ، وكان زيد أستاذا لأبى حنيفة حسبما ذكرنا عند الحديث على مشايخ الإمام من أهل البيت ، وكانت

جموع المسلمين تؤيد زيدا وتتمنى فوزه ، وقد خرج معه أربعون ألفا من المسلمين ، والتقى الجمعان ، واستشهد زيد بعد قتال باسل جعل من زيد إماما للفرسان المقاتلين بالإضافة إلى كونه إماما للبررة من المؤمنين .

ويحزن أبو حنيفة لفشل ثورة زيد وانتصار أعدائه الأمويين ويقول : لو علمت أن الناس لا يخذلونه كما لا يخذلون أباه لجاهدت معهم لأنه إمام حق[1] .

وكان موقف أبى حنيفة من دعوة زيد موقف المؤيد بالمال المؤازر بالإثارة . فقد كان أبو حنيفة ممولا لهذه الثورة ، أو بصيغة أدق كان أحد ممويلها ، وقد بعث إلى زيد بعشرة الآف درهم دعماً منه للثورة . وكان أيضاً مؤازرا لها مؤازرة أدبية حتى إنه شبه خروج زيد بخروج رسول الله ﷺ يوم بدر . فقيل له : لم تخلفت عن المشاركة فى القتال ؟ فأجاب : حبسنى عن ذلك ودائع الناس ، وقد عرضتها على ابن أبى ليلى فلم يقبل ، فخفت أن أموت مجهلا .

هذا موقف لأبى حنيفة من دولة بنى مروان ، يؤيد عدوهم الثائر عليهم ، ويبارك خروجه ، ويجعل من معركته معهم جهادا مقدسا مثل موقعة بدر ، ثم هو بعد ذلك يساعد الثورة بعشرة آلاف من حر ماله .

ولعل ما تعرض له أبو حنيفة من ضرب وأذى حين دعى لتولى القضاء أو بيت المال من قبل الوالى الأموى ابن هبيرة كان امتحانا لمدى ولائه لبنى أمية وجزءا من تصفية الحساب بينه وبينهم .

فأما الموقف الثانى فكان حين دبت عوامل الفساد والبلى فى دولة بنى مروان ، وانفجرت الثورات ضدهم فى كل مكان من الأرض الإسلامية وأولها العراق بطبيعة الحال . وهنا يتحرك عامل بنى مروان على العراق ، إنه هو نفسه ابن هبيرة الذى أوقع الأذى بأبى حنيفة قبل فترة زمنية قصيرة ، ويجمع ابن هبيرة كبار فقهاء العراق من أمثال ابن أبى ليلى ، وابن شبرمة – وهما قاضيان كبيران – وداوود بن أبى هند شيخ علماء البصرة وكبير محدثيها ، ويولى كل واحد

---

(١) مناقب أبى حنيفة لابن البزازى ١/٥٥ .

منهم عملا بعينه ، والدول حين يدول أمرها ويتمزق شملها تتشبث بأسباب الحكم وتقرب العلماء أو تتظاهر بذلك لكى يحسن الناس الظن بها ، وكان لابد لابن هبيرة من أن يستدعى أبا حنيفة كبير علماء الكوفة وإمامها حتى يلحق بركب العلماء المستوظفين ، ويرسل ابن هبيرة فى طلبه ، ويريد أن يجعل خاتم الدولة فى يده بحيث لا يخرج رسالة إلا من تحت يده ، ويرفض أبو حنيفة قبول هذا العمل ، فهو يرفض أن يكون أداة لإطالة عمر الدولة المتداعية ، وهو من ناحية أخرى يرفض أن يكون عاملا تحت سلطان من هو دونه علما وعقلا ومروءة ودينا ، ويتلقى أبو حنيفة التّهديد بالضرب ، فلا يستجيب ، ويناشده إخوانه العلماء ألا يورد نفسه مورد التّهلكة ، ويقولون إنهم كارهون لما هم فيه من أعمال ، ولكنهم يتقون العقاب بالاستجابة ، فيقول أبو حنيفة : لو أرادنى أن أعدّ له أبواب مسجد واسط لم أدخل فى ذلك ، فكيف وهو يريد منى أن يكتب دم رجل يضرب عنقه وأختم أنا على ذلك الكتاب ؟ فوالله لا أدخل فى ذلك أبدا ، فقال ابن أبى ليلى : دعوه ، فهو المصيب ونحن المخطئون ، فحبس أبو حنيفة وضرب أياما متتالية حتى أشرف على الهلاك ، وحتى أشفق عليه المكلف بالضرب ، وكان يقول لابن هبيرة إن الرجل – أى أبا حنيفة – ميت . ويبحث عن حيلة يوقف بها عذاب الإمام المحبوس قائلا : ألا ناصح لهذا المحبوس أن يستأجلنى فأؤجله ؟ وأخبر أبو حنيفة بذلك فقال : دعونى أستشر إخوانى وأنظر فى أمرى ، فاستجاب ابن هبيرة لذلك وأمر بتخلية سبيله ، وما أن أحس بنسيم الحرية حتى هرب إلى مكة ، وبقى بها حتى دالت دولة بنى أمية وجاءت دولة بنى العباس ، بل إنه لم يعد إلى العراق عودة الاستقرار إلا فى عهد أبى جعفر المنصور وبذلك يكون أبو حنيفة قد بقى بعيدا عن الكوفة من سنة مائة وثلاثين إلى سنة مائة وست وثلاثين .

وهكذا تكون كل عواطف أبى حنيفة ومشاعره مضادة لسلطان بنى أمية ، حاملة عليهم ، متمنية زوال ملكهم ، ولقد زال ملك بنى أمية بعد أن لقى خلاله الإمام مالقى ، فماذا كان الموقف مع بنى العباس ؟ .

– ٢ –

أبو حنيفة والسفاح والترحيب بالدولة العباسية :

سقطت دولة بنى أمية فى ظروف سياسية متشابكة وقتل آخر خلفائها مروان بن محمد ، فغصت لذلك حلوق وحزنت نفوس ، ومن ناحية أخرى تهللت وجوه واستبشرت قلوب ، وكان لكل فريق حجته إزاء مشاعره ، فالذين أصيبوا بالغصة والحزن كانوا يحسون أنهم يعتبرون دولة بنى أمية عربية الوجه واليد واللسان ، ومهما جرى على أيدى خلفائها وقوادها وولاتها من اقتراف ظلم أو سفك دماء ، فقد كانت الشمائل العربية غير بعيدة عنهم ، وكانت فروسية قوادهم وعمالهم هى التى فتحت بقاع الأرض من أقصى الشرق إلى أقصى المغرب والأندلس .

وأما الفريق الذى تهلل واستبشر ، فهو الذى يرى أن حكم بنى أمية قام على الظلم ، ولم يستند على النظام الإسلامى الذى يأخذ بالشورى ، فضلا عن أن القوم قد جعلوا من الخلافة الإسلامية نظاما ملكيا مستبدا أقرب مايكون إلى نظام الأكاسرة الذى أجهزت الفتوحات عليه ، ونظام القياصرة الذى يقع على حدودهم الشمالية .

ومن هذا الفريق أيضا جماعة الفرس بقضهم وقضيضهم بسبب استشراء العصبية عند بنى أمية وإهدارهم لكرامة غير العرب ، أو فى أحسن الأحوال تجاهلهم للفرس الذين كانوا يعرفون بالموالى ، ومن ثم فقد أسهم هؤلاء الموالى إسهاما حاسما فى القضاء على بنى أمية وتأييد الحكم الجديد الذى عرف بدولة بنى العباس أو دولة الهاشميين .

ومن هذا الفريق أيضا إمام الكوفة وشيخ علمائها المهاجر إلى مكة تجنبا لظلم والى بنى أمية على العراق بعد أن وقع عليه من الأذى ماقد مر حديثه .

إن أبا حنيفة لم يؤيد الحكم العباسى الجديد استجابة لعواطف قومه من الفرس ، فإن أبا حنيفة لم يعتبر نفسه فارسيا فى يوم من الأيام ، وإنما هو ينتمى إلى

الجنسية الشاملة التى تظلل الفارسى والعربى والرومى والتركى متى ما استظل بظلها ، إنها الجنسية الإسلامية ، أو بالأحرى الانتماء الإسلامى ، فلقد أسقط الإسلام كل العصبيات ، وأذاب جميع الفروق ، وأصبح المؤمن به من عربى وأعجمى يردد هذا البيت :

أَبِى الإسلامُ لاَ أَبَ لِى سِوَاهُ   إذَا افْتَخَرُوا بقيسٍ أو تَمِيمِ

فالإمام أبو حنيفة لم يرض بسقوط بنى أمية لأنه فارسى ، فذلك معنى لم يطف بخاطره ، فهو مسلم لاغير ، والمسلم أخ للمسلم عربيا كان أو أعجميا ، وإنما كان سخطه على بنى أمية بسبب ظلمهم ، فالخليفة أو الحاكم متى تحول من العدل إلى الظلم فقد بطلت بيعته شرعيا وسقطت خلافته دينيا .

على أن هناك معنى آخر كان ماثلا فى خاطر أبى حنيفة لم يفارقه يوما ، هذا المعنى هو حبه لآل بيت رسول الله ، وولاؤه لهم ، وتعلقه بهم ، ولقد أوقع بنو أمية بآل بيت رسول الله من التقتيل والاضطهاد ماقد استنكره كل المسلمين ، وذرفوا الدموع مدرارة على الدماء الطاهرة المسفوحة ظلما ، المعطرة بعبير النبوة ، ولقد كان هذا المعنى الحزين ممثلا فيما صنعه بنو أمية بالإمام الحسين ومن معه ، وما أوقعوه بحفيدة الإمام زيد ومن معه ، هذا فضلا عن الاضطهاد الموصول للدوحة النبوية المباركة عترة الرسول ﷺ .

أما والحال كذلك ، وأن الدولة الجديدة عباسية هاشمية ، فإن موازين العدل متوقعة على أيديهم ، وموجات التسامح منتظرة من خلال حكمهم ، وإنصاف أبناء الدوحة المحمدية شبه مضمون مؤكد ، والظلم الذى كان يقع عليهم قد انتهى إلى غير رجعة ، مما جعل الإمام المهاجر المجاور للبيت العتيق يعود إلى بلدته الحبيبة مستشعرا ما يجرى فيها بعد انتهاء عهد بنى أمية ، وبعد مقدم الحكم العباسى الهاشمى .

ويدخل أبو العباس السفاح – أول خلفاء بنى العباس – الكوفة وفيها أبو حنيفة العائد الزائر لأهله وعشيرته ، ويجمع العلماء طالبا تأييدهم ، ملتمسا

بيعتهم ، مبينا دستور الدولة الجديدة ، وتلك سنة جرى عليها كل حاكم جديد ، يفزع إلى العلماء فى أول عهده بالحكم ، فإذا ما استقر له الأمر كان أول من يبطش بهم هم أولئك العلماء الذين لجأ إليهم وسألهم العون والتأييد ، اللهم إلا إذا كان هذا الحاكم الجديد قد أخذ نفسه بأسباب العدل ومبادئ الإنصاف .

إن أبا العباس السفاح يتوجه إلى علماء الكوفة قائلا : « إن هذا الأمر قد أفضى إلى بيت نبيكم ، وجاءكم الله بالفضل وأقام الحق ، وأنتم معاشر العلماء أحق من أعان عليه ، ولكم الحباء والكرامة والضيافة من مال الله ما أحببتم ، فبايعوا بيعة تكون عند إمامكم حجة لكم وعليكم ، وأمانا فى معادكم ، لاتلقوا الله بلا إمام فتكونوا ممن لاحجة له » .

فنظر علماء الكوفة إلى أبى حنيفة صاحب العقل والعلم والدين والفطنة ، وصاحب التجربة الأليمة مع الدولة الغاربة . وكان بين هؤلاء العلماء شخصيات مرموقة فى الفقه والقضاء مثل ابن أبى ليلى والقاضى ابن شبرمة ، وقد سلفت الإشارة إليهما فى أكثر من موضع . وينظر أبو حنيفة بدوره إلى أقرانه من العلماء ويقول لهم : إن أحببتم أن أتكلم عنى وعنكم ؟ فيقولون : قد أحببنا ذلك . فيقول أبو حنيفة ردا على السفاح « الحمد لله الذى بلغ الحق من قرابة نبيه ﷺ ، وأمات عنا جور الظلمة وبسط ألسنتنا بالحق ، قد بايعناك على أمر الله ، والوفاء لك بعهدك إلى قيام الساعة ، فلا أخلى الله هذا الأمر من قرابة نبيه ﷺ » .

ويتلقى السفاح البيعة راضيا متهللا ، إنها بيعة علماء الكوفة ذوى الفضل والمكانة ، خاصة أن المتحدث باسمهم هو الفقيه العالم الإمام أبو حنيفة النعمان ، ويثنى أبو العباس السفاح على أبى حنيفة بكلمات طيبة عذاب ، كما يمتدح جمع العلماء امتداحا ينم عن اطمئنانه وامتنانه[٢] .

هكذا يبايع أبو حنيفة أبا العباس السفاح بيعة رضى وطمأنينة وصدق ، والآمال تحدوه فى أن يكون العهد الجديد خيرا من سابقه ، وأن تكون العدالة

---

(٢) مناقب الإمام الأعظم للمكى ٢/١٥١ .

دستوره والنصفة رائده ، وإكرام آل البيت رسول الله ﷺ – أبناء عمومة الحكم الجديد – هدفا ومقصدا .

ويعود الإمام إلى مكة مرة أخرى ، ويزور الكوفة بين الحين والحين ، حتى إذا شعر باستقرار الأمر للبيت العباسي الهاشمي عاد أدراجه إلى بلده ، ونقل مجلسه من البيت الحرام إلى مسجد الكوفة ، وعادت حلقته الى النشاط والاكتمال ، تنشر العلم سمحا فى الأجواء ، وتبث المعرفة نقية فى الأرجاء .

– ٣ –

أبو حنيفة يناهض الحكم العباسي :

أبو حنيفة إمام جليل ، وفقيه كبير ، وانسان سوىّ ، ومن ثم فهو إذا رضى فإنما يرضى استجابة للحق ، وإذا غضب فهو أيضا يغضب للحق ، ولقد حاول أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الثانى والمؤسس الحقيقى لدولة بنى العباس أن يسترضيه بالتكريم تارة وبالمال تارة أخرى ، ولكن القضية عند أبى حنيفة أكبر من ذلك وأعظم ، فمن ناحية التكريم يرى نفسه ويراه الناس فى مقام من تكريم العلم يسمو به ويرجح تكريم الخليفة ، وأما المال فهو غنىّ عنه ، غنىّ بماله ، غنىّ بتقاه ، فلم يكن يطمئن إلى أن أموال الخلفاء حلال ، ولذلك رفض عطاياهم جميعا وفى مختلف المناسبات وذلك حديث لنا إليه عودة .

القضية عند أبى حنيفة هى التزام الخليفة بالعدل ، وإشاعة الأمان بين الناس ، والحفاظ على أموال الدولة التى هى أموالهم ، والكفّ عن الظلم والإقلاع عن العدوان ، وكل أولئك قيم إسلامية أخلاقية ألزم أبو حنيفة نفسه بطاعة الخليفة ما كان ملتزما بها ، فإذا ما فرط فيها فقد سقطت بيعته ، ووجب البحث عن غيره لتحقيق مبادئ العدل بين الناس .

وزاد من تعقيد العلاقات بين أبى حنيفة والحكم العباسي ، أن آل بيت رسول الله لم ينصفوا من الظلم ، ولم يخلصوا من الأذى ، بل إن البلاء قد

تضاعف ، وأصبح ما يلقون على يد أبناء عمومتهم العباسيين أشد وأنكى مما كانوا يلقونه على يد الأمويين .

ولقد رأى أبو حنيفة كيف قبض المنصور على عبد الله بن الحسن بن الحسن إن لم يسلم ولديه العالمين العظيمين الفارسين محمداً وإبراهيم . وعبد الله أستاذ لأبى حنيفة كما هو معروف ، وهو رأس الحسنيين وكبير الدوحة المحمدية ، وأبو حنيفة محب للرسول وآله ، تألم من أجلهم كثيرا فى عهد بنى أمية ، وخاض معركة زيد بماله لأنه لم يستطع ذلك بساعده ، وها هو يرى أصحاب النبل والسماحة من آل البيت يتعرضون للاضطهاد مرة ثانية ، فلا يجد أبو حنيفة بدا من أن يساندهم ، وأن يعادى بنى العباس وعلى رأسهم المنصور تأييدا لهم وغضبا لتعذيبهم .

ويعلم محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه إبراهيم بما حدث لوالدهما ، وكان الأول يعرف بالنفس الزكية ، كما كان يعرف بالشبه ، وكان الثانى يعرف بالإمام ، فيخرجان على الحكم العباسى ، غير أن النجاح لايكتب لهما ، وينتصر المنصور على تلك الثورة الحسنية ويجهضها ، ولكن أبا حنيفة لم يكن بمنأى عما يجرى ، فعمد إلى مساندة الثورة بوسائل شتى ، منها أنه كان يمنع قواد المنصور من حرب محمد النفس الزكية ، فعل ذلك مع الحسن بن قحطبة أحد الذين وجههم الخليفة لقتال محمد ، وقد استجاب القائد لأبى حنيفة ودخل على المنصور معتذرا عن قيادة الجيش ، فقاده أخوه حميد بن قحطبة بدلا منه . وقد ظل المنصور يبحث عمن يكون قد ثنى قائده عن خوض المعركة إلى أن عرف أنه يتردد على أبى حنيفة[٣] .

ولم يكن أبو حنيفة يكتفى بتثبيط همم قواد المنصور عن محاربة محمد وإبراهيم ويقف به الأمر عند ذلك ، بل كان يدفع الناس إلى خوض غمار الحرب معهما ضد بنى العباس ، ويبدو أن عددا غير قليل من الفقهاء كانوا يتمنون النصر لمحمد وأخيه ، غير أن بعضهم كان يتمنى ذلك بقلبه ، فإذا ما خوطب فى الأمر أظهر الحياد ، وكان الناس فى مثل تلك الحالات يستفتون العلماء قبل أن يخرجوا .

(٣) مناقب أبى حنيفة لابن البزازى ٢٢/٢ .

إن إبراهيم بن محمد الفزارى يقص ذلك الخبر الذى يبين موقف الإمام أبى حنيفة من الحركة الحسنية . يقول الفزارى : جاءنى نعى أخى من العراق ، وكان قد خرج مع إبراهيم بن عبد الله الطالبى ، فقدمت الكوفة فأخبرونى أنه قتل ، وأنه قد استشار سفياناً الثورى وأبا حنيفة ، فأتيت سفيان أنبئه مصيبتى بأخى وقلت له : قد أخبرت أنه استفتاك ، فقال : نعم ، فقلت : ماذا أفتيته ؟ قال : قلت له ، لا آمرك بالخروج ولا أنهاك . فأتيت أبا حنيفة فقلت له : بلغنى أن أخى أتاك فاستفتاك ، قال : نعم جاءنى فاستفتانى ، قلت : فما أفتيته ؟ قال : أفتيته بالخروج . فقلت : لاجزاك الله خيراً ، قال : هذا رأيى .

وتزيد رواية أخرى أن الفزارى كان يقص ذلك على الإمام الأوزاعى ، وكان الفزارى قادما من المصيصة ، وأن أبا حنيفة قال له : لو أنك قتلت مع أخيك كان خيرا لك من المكان الذى جئت منه[٤] .

ولعل خبر الفزارى هذا يوضح لنا آراء الأئمة والفقهاء فى خروج محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، فالإمام أبو حنيفة يرى مناصرة هذه الثورة الحسنية ضرورة وواجبا ، بل إنه فضل الاشتراك فيها ، والقتال فى صفها على الرباط فى الثغور الإسلامية ، وكان الفزارى راوى الخبر مرابطا فى المصيصة حسب ماهو مفهوم من الخبر . وأما الإمام سفيان الثورى فكان محايدا ، لم يأمر بالخروج كما لم ينه عنه ، والحياد هنا يعنى المناصرة ، إذ لو أنه رأى فيه ما ينافى البيعة أو استشعر حرمة دينية لمنع الفزارى من القتال حين استفتاه فى ذلك . وأما الإمام الأوزاعى وكان يعيش فى بيروت ، فيرى أن مثل هذا الخروج يعتبر حراما ، وهو لهذا كان يحمل على أبى حنيفة ويتهمه بأنه رجل يرى السيف فى أمة محمد ﷺ ، يعنى يبيح قتال المسلمين بعضهم بعضا .

والحقيقة أن أبا حنيفة لم يكن يرى السيف فى أمة محمد ﷺ ، وإنما كان يرى السيف أداة لمناصرة الحق ، ووسيلة لإزاحة الباطل ، وسبيلا للقضاء على الحاكم المنحرف .

---

(٤) تاريخ بغداد ١٣/٣٨٥ .

ولم ييأس أبو حنيفة من مناصبة المنصور العداء ، ومناصرة إبراهيم بن عبد الله وكان خروجه بالكوفة ، وكان دائم التأييد له كثير الحديث عنه فى حلقته ومجالسه ، معلنا رأيه مجاهرا به مجاهرة شديدة ، مما جعل تلميذه زفر بن الهذيل يقول له : والله ما أنت بمنته حتى توضع الحبال فى أعناقنا(٥) .

وينسب إلى زفر قوله : إنه لم يلبث أن جاء كتاب المنصور إلى عيسى بن موسى أن احمل أبا حنيفة ، فحمله إلى بغداد فعاش خمسة عشر يوما ثم سقاه السم فمات .

وسواء صح خبر السم أم لم يصح ، فإن أبا حنيفة كان شديد المناصرة لأهل البيت من بنى الحسن ، مسهما فى ثورتهم ضد المنصور ، مشجعا الناس على الانضواء تحت لوائها وخوض غمار الحرب انتصارا لها .

لقد كان عداء أبى حنيفة للمنصور نابعا من موقف عدل واقتناع ، ولم يكن صادرا عن نزوة أو هوى ، فأساء إليه المنصور وحبسه ، ثم مالبث أن أخرجه من السجن وأقام حوله حصارا أو ما يشبه الحصار ، ومنعه من الفتوى وهو أنقى ما يكون دينا ، وأجل ما يكون شيخوخة ، وأعظم مايكون قدرة على الإفتاء الدقيق الصحيح ، وحمل الناس على تفهم دين الله وشريعته .

وكان أبو حنيفة وهو فى أيامه الأخيرة لايتعب من الحملة على المنصور والتشهير به بطريق غير مباشر فيتهمه بالظلم واغتصاب أملاك الرعية ، فأوصى بأن يدفن فى مقبرة واقعة فى أرض لم يجر فيها غصب ، فقد كان جانب من أرض المقبرة وقع عليه غصب ، وكان المنصور متهما بأنه غصب تلك الأرض ، ولذلك فإن المنصور حين سمع كلام أبى حنيفة فى هذا الأمر قال بما يشبه الاستغاثة : من يعذرنى من أبى حنيفة حيا وميتا ؟ ! !.

لقد مات أبو حنيفة وهو فى جلال الشيخوخة وقمة الجهاد ، من أجل إيجاد الحاكم الصالح ، والخليفة العادل ، وتهيئة حياة الأمن للمسلمين ، وتجنيبهم ظلم الحاكم ، واستبداد السلطان .

(٥) المصدر ١٣/٣٢٩ ، ٣٣٠ .

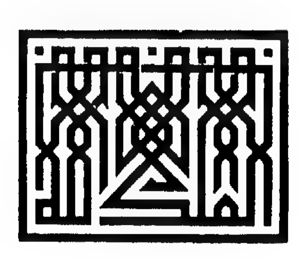
وفى رجب سنة مائة وخمسين طويت صفحة العلم والفقه والورع والجود والجهاد ، ومات أبو حنيفة ، فقامت بغداد كلها تشيع جنازة شاهنشاه العلم أو ملك الملوك حسبما كان يسميه أبو عبد الرحمن المقرئ وصلى عليه خمسون ألفا من المشيعين ، ولم يجد المنصور مفرا من أن يسعى إلى القبر رهبة وإجلالا ، فيصلى الجنازة على صاحب القبر الذى أقض مضجع الظلم فى شخص الخليفة حيا وميتا . لقد صلى الناس عليه ست مرات لشدة الزحام ، وكان آخر من صلى عليه ولده حماد .



الفصل السادس

أبو حنيفة وهدايا الخلفاء

* العلماء وهدايا الخلفاء .
* مالك يقبل هداياهم .
* الشافعي يرفض هداياهم .
* أبو حنيفة يرفض هداياهم .





الفصل السادس

العلماء وهدايا الخلفاء

- ١ -

الخلفاء يبعثون بالهدايا :

ألف الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس أن يقدموا العطايا والمنح والهدايا للعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والأعيان ورجال الحاشية . ويبدو الأمر طبيعيا بالنسبة لغير الأئمة الفقهاء ، ذلك أن الكثرة من هذه الجماعات لم تكن تعنى بتحرى منبع هذا المال الذى يقدمه الخليفة لهم أو بحث مصدر العطايا التى كان يخلعها عليهم . وأما بالنسبة للأئمة الفقهاء – وأبو حنيفة فى مقدمتهم – فإن الأمر يختلف اختلافا بينا ، ذلك أن الفقيه لابد له من أن يتحرى مصدر المال الذى يصل إلى يديه ، وهل هو حلال أو حرام ، فإن كان حلالا فلا بأس فى قبوله ، وإن كان حراما تحتّم عليه عدم قبوله .

إن هذا الموضوع ، موضع العلماء وهدايا الخلفاء بصفة عامة وموقف أبى حنيفة منه بصفة خاصة ، قد يستفيض الحديث فيه لكى يشكل فصلا فى هذا الكتاب . ولذلك فنحن نخصه بفصل مستقل . وهدفنا من ذلك توضيح حرص أبى حنيفة كإمام عظيم على ألا يقع فى يديه إلا مال قد اطمأن كل الاطمئنان إلى سلامة الطريق الذى عنه وصل إليه ، خاصة أننا الآن نعيش فى عصر قد اختلت فيه الموازين ، وأصبح لا يفصل بين الحلال والحرام من المال سوى خيط رفيع لا يكاد يرى ، وأخشى أن أقرر أن ذلك الخيط قد رثّ وأصابه البلى ، فلم تعد العين تقع عليه ، ومن ثم فقد اختلط الحلال بالحرام ، ومتى حدث ذلك فالمال كله حرام .

إن الإمام أبا حنيفة صاحب متجر كبير كما سلف القول ، ومع ذلك فإن الخلفاء لم ييأسوا من إرسال الهدايا إليه فى شكل أموال كثيرة ، حتى إن خليفة قد عرف فى صفحات التاريخ بالحرص الشديد ولا نقول البخل الشديد هو المنصور

العباسي كان يبعث إليه بعشرات الآلاف ، ولكن هيهات ، فليس أبو حنيفة من التساهل فى دينه بحيث يقبل مثل هذه الهدايا دون ترو أو تمحيص .

لم يكن دافع أبي حنيفة فى رفض هدايا الخلفاء غناه ويساره ، فقد قبل هدايا غير الخلفاء حسبما مر بنا فيما مضى من فصول ، وهناك علماء آخرون كانوا على جانب من اليسار وقبلوا هذا النوع من الهدايا . أما أبو حنيفة فقد كان ملتزما يرفض هذه الهدايا رغم احتيال الخليفة له بطرق شتى ووسائل متباينة.

لقد كان المنصور العباسي يبعث إلى أبي حنيفة بالهدايا حتى يختبر ولاءه ، فإن قبلها كان ذلك دليلا على ولائه ، وإن لم يفعل كان دليلا على أنه يخفى شيئا فى نفسه تجاه خلافته ، غير أن أبا حنيفة كان ينظر إلى القضية من زاوية أخرى بعيدة عن فكرة الولاء أو المعارضة – مع كونه معارضاً فى قرارة نفسه – فالولاء والمعارضة من الأمور التى لا يدخلها الإمام فى هذا المضمار ، ذلك أن أبا حنيفة – وسلوكه سلوك العلماء الأئمة – لا يرى أنه يوصف بالولاء أو العداء لهذا الحكم أو ذاك ، فإن العلماء أرفع قدرا من أن يوصفوا بالولاء ، وأسمى مقاماً من أن ينعتوا بالمعارضة . إن قولهم هى الحق المطلق ، وآراءهم هى النبراس المضىء ، وهم يصدرون الأحكام ، ويؤسسون القضايا ، ويقررون المبادئ ، وليس فى اعتبارهم موازين الأشخاص أو الحكام ، لقد رفض أبو حنيفة هدايا خلفاء بنى أمية وحكامهم مثلما رفض هدايا بنى العباس ، ورفضه لهدايا هؤلاء وأولئك مبعثه مبدأ الحلال والحرام ، وقد كان أبو حنيفة يرى أنها حرام ، أو بعبارة أكثر دقة كان يشك فى أنها حلال ، والإمام الفاضل والعالم الفطن يتلافى مواضع الشبهات ، ولا يمارس من الأمور إلا ما كان حلالاً بينا ، ليس فيه ظلال من شبهة أو ذرة من شك .

– ٢ –

مالك يقبل هدايا الخلفاء

على أن هناك أئمة آخرين كانوا يقبلون هدايا الخلفاء ، كان الإمام مالك يفعل ذلك ، وهو يقبل هذه الهدايا وفى يقينه واجتهاده أنها حلال ، وقد كانت تشكل بعض مصادر رزقه ، ومن الإنصاف أن نقرر أن الإمام مالكا فى الوقت

الذى يقبل فيها الهدايا من الخلفاء كان يرفضها ممن هم دونهم ، وقد سئل فى ذلك فقال : أما الخلفاء فلا شك – يعنى لا شك فى أن قبول هداياهم حلال – وأما من دونهم فإن فيه شيئا .

وما دمنا بسبيل قضية الهدايا وشرعية قبولها ، فإنه يكون من المفيد أن نلم برأى الإمام الشافعى . فقد كان الإمام الشافعى على حد علمنا يتهرب من قبول هدايا الخلفاء ، ويرفض هدايا من هم دونهم من الحكام ، ولكنه يقبل هدايا شيوخه من العلماء والفقهاء .

– ٣ –

الشافعى يرفضها :

ولمزيد من البيان فى موقف الإمام الشافعى نقول إنّ الإمام مثل أمام الرشيد فى محاكمة مفادها اتّهامه بالخروج على الدولة مع جماعة من العلويين فى اليمن ، ولقد بُرّئت ساحة الإمام بدفاع بليغ قام به لدحض ما قد نسب إليه من اتّهام ، وبشهادة الفقيه العظيم محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة والمقرب من الرشيد ، وما كاد الشافعى ينصرف من حضرة الخليفة العباسى الكبير حتّى أمر الرشيد بمنحه خمسين ألف دينار .

هل يرفض الشافعى الهدية وقد تم صرفها إليه فى حضرة الخليفة ، وكانت عنقه تحت رحمته ، وكانت ضربة سيف تنتظره ، والآن قد بعث إلى الحياة من جديد ؟ لقد قبل الشافعى الهدية ورفضها فى الوقت ذاته ، قبلها بأن تسلمها بيده ، ورفضها بمعنى أنه ما كاد يخرج من باب قصر الرشيد حتّى قام بتوزيعها جميعا على الناس . هكذا فعل الشافعى الشاب الفقير إلى الثروة والمال ، الغنى علما وقناعة ودينا .

أما رفضه هدايا من هم دون الخليفة ، وبالتالى من هم دون الشافعى نفسه رفضا مباشرا ناجزا ، فخبرها أنه لحق بالشافعى ساعة خروجه من حضرة الرشيد هرثمة بن أعين ، وهو أحد قواد الرشيد المرموقين ، وأحد أعيان الدولة ورؤسائها ،

وسارع إلى تقديم هدية عظيمة للإمام الشاب – أغلب الظن أنها تقديرا لشجاعته وإعجابا بفطنته – ولكن الإمام المطلبى القرشى يردها فى حزم قائلا : إنى لا آخذ الهدية ممن هو دونى .

يالعظمة العلماء !.. ، شاب كان لا يزال مغمورا نسبيا ولكنه من أهل العلم ، وبالتالى من أهل المروءة – فالعلم بغير مروءة لا يساوى شيئا – يقرر الحقيقة ويعلنها فى وجه صاحبها حين يقول لواحد من أخطر قواد أشهر خليفة : أنت دونى . ونحن نرجح أن الشافعى كان فى موقفه هذا متابعا لرأى أستاذه مالك من أنه لا يستحل هدايا من هم دون الخلفاء ، غير أن مالكا كان لا يستحلها لأنه كان يشك فى مصدرها وما إذا كان مال صاحب الهدية جاء من حلال أو من حرام ، وأما الشافعى فيرفضها لأن صاحب الهدية دونه علما وفضلا ومقاما ، باعتبار أن مقام العلم والفضل لا يسمو عليه مقام .

وأما قبول الشافعى لهدايا الفقهاء واستحلاله ذلك ، فقد قبل هدايا مالية من محمد بن الحسن أكثر من مرة ، وكانت قيمتها كبيرة ، وكان الشافعى يسدد بها ديونه ، ومحمد بن الحسن يعتبر أستاذا للشافعى ، جلس إليه يتلقى عنه فى بغداد ، وعلى الرغم من اختلاف الرجلين العظيمين فى كثير من القضايا الفقهية ، فإن الشافعى كان يجل محمدا ، ويعتبره أستاذا من أساتذته وشيخا من شيوخه .

فإذا عدنا ثانية إلى الإمام أبى حنيفة وجدناه يرفض هدايا الخلفاء رفضا قاطعا ، ويصدر حكما لا لبس فيه ولا إبهام بتحريمها وتجريمها ، ولكنه لا يجد مانعا من قبول هدايا الفقهاء والشيوخ ، إننى لا أعرف أنه تلقى هدايا من شيوخ أو فقهاء وربما يكون قد فعل ، ولكن الأمر البين أن أبا حنيفة نفسه قد سن تلك السنة حين كان يوزع المال على تلامذته ، وكان أبو حنيفة من الحصافة وعلو الهمة بحيث لا يعتبر هذا المال صدقة ، فى هذا المفهوم جرح لمشاعر من يهدى إليه المال ، ولكنه كان يعتبره هدية ، ولقد فعل ذلك مع تلميذه النجيب أبى يوسف حين أجرى عليه راتبا يسمح له بالتفرغ للعلم وقد كان رقيق الحال من أسرة فقيرة ، ولم يكن هذا الراتب الذى يتقاضاه أبو يوسف من الإمام سوى منحة أو

هدية ، وإذن فقبول هدايا العلماء والشيوخ حلال فى فقه أبى حنيفة ، وقبول ما سواها حرام ليس فيه من الحلال احتمال .

— ٣ —

أبو حنيفة يرفض هدايا الخلفاء

أرسل المنصور إلى أبى حنيفة هدية مالية قدرها عشرة آلاف درهم وجارية شابة فرفضها ، ولم يكن الدافع إلى الهدية نزعة كرم كامنة فى نفس الخليفة ، ولكنه كان يختبر ولاء أبى حنيفة ، إذا قبلها كان صاحب ولاء ، وإلا فهو خصم لحكمه حسبما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وكان وزير المنصور آنذاك رجلا فاضلا حسن الرأى فى أبى حنيفة هو عبد الملك بن حمد ، وقد أشفق الوزير على أبى حنيفة وقال له فيما يشبه التوسل : « أنشدك الله ، إن أمير المؤمنين يطلب عليك علة ، فإن لم تقبل صدق على نفسك ما ظن بك » ولكن أبا حنيفة يصر على رفضه غير أن الوزير وقد أراد أن يسهم فى حل المشكلة بإثبات الهدية فى قائمة الجوائز وإن لم يتسلمها أبو حنيفة يقول للإمام : « أما المال فقد أثبته فى الجوائز ، وبقيت الجارية ، فاقبلها منى أو قل عذرك حتى أعذرك عند أمير المؤمنين » ، فيجيب أبو حنيفة فى إصرار على رفض الجارية إصراره على رفض المال قائلا : إنى ضعفت عن النساء وكبرت ، فلا أستحل أن أقبل جارية لا أصل إليها ، ولا اجترئ أن أبيع جارية خرجت من ملك أمير المؤمنين .

ولا يقف الأمر بأبى حنيفة عند رفضه هدايا المنصور التى يأمر بها فى غيبة الخليفة ، ولكن الإمام الأعظم يرفضها فى مواجهته ، وقد حدثت هذه المواجهة أكثر من مرة .

فى إحدى المرات التى استقدم فيها المنصور أبا حنيفة ليرغمه على تولى القضاء وكان الحوار ينتهى فى كل مرة برفض أبى حنيفة ، قال له المنصور — وكان يظن أن رفض أبى حنيفة صادرا عن موقف سياسى — : إنك لا تقبل تولى القضاء

لأسباب تكرر ذكرها ، فلم لا تقبل صلتى ؟ فأجاب أبو حنيفة هذه الإجابة التى ينبغى على كل عالم أن يحفظها لأنها درس فى المروءة والشجاعة والقناعة والفقه ، قال أبو حنيفة رداً على المنصور ، « ما وصلنى أمير المؤمنين من ماله بشىء فرددته ، ولو وصلنى بذلك لقبلته ، وإنما وصلنى من بيت مال المسلمين ، ولا حق لى فى بيت مالهم . إنى لست ممن يقاتل من ورائهم فآخذ ما يأخذ المقاتل ، ولست من ولدانهم فآخذ ما يأخذ الولدان ، ولست من فقرائهم فآخذ ما يأخذ الفقراء » .

بهذه المواجهة الكريمة الشجاعة يرفض أبو حنيفة هدايا الخليفة فى نطاق اتهام مقنّع بأنه يتصرف فى غير ماله ، وأن هذا المال حق للمسلمين وليس للخليفة أن يجعله لنفسه فيتصرف فيه بالهدايا والهبات ، وهذا الكلام إضافة إلى كونه اتّهاما صريحاً ، يمثل درسا فى أمانة الحكم من منطلق عادل ، سدته العلم ولحمته الفقه .

إن المنصور وقد سمع هذا الدرس الساخن لا يجد بدأً من أن يغضى احترّاما للإمام الذى أمامه ولو على كره منه ويقول له : « أقم تأتك القضاة فيما لعلهم أن يحتاجوا إليك فيه » وذلك يعنى أن المنصور قد ولاه وظيفة كبرى عرفت فيما بعد بمنصب قاضى القضاة ، ذلك المنصب الذى وليه تلميذه أبو يوسف للرشيد فيما بعد ، ولكن أبا حنيفة يرفض ذلك أيضا ، فيأمر المنصور بإيداعه السجن رغم كبره وشيخوخته

وحتّى لا يفسر رفض أبى حنيفة لجوائز المنصور تفسيرا سياسيا وحسب ، فإننا نشير إلى أن أبا حنيفة كان يرفض جوائز أخرى تّهدى إليه من غير المنصور ، فقد أهدت إليه الحرة زوج المنصور هدايا نفيسة بمناسبة الاحتكام إليه فى خلافها مع زوجها الخليفة وانتصافه لها منه .

وقع خلاف بين المنصور والحرة زوجه لأمر يتصل بالعلاقات بينهما كزوجين فطلبت الحرة الانتصاف لحقها ، فسألها المنصور عمن ترضى من الفقهاء لكى يكون حكما بينهما ، فاختارت أبا حنيفة ، وفى الوقت ذاته رضى به المنصور حكما . وأرسل المنصور إلى الإمام يستحضره ، فجاء أبو حنيفة والتقى بالخليفة

وزوجه ، وكانت الحرة تقف خلف ستار ، فقال المنصور : يا أبا حنيفة ، الحرة تخاصمنى فأنصفنى منها ، فقال أبو حنيفة : ليتكلم أمير المؤمنين ، فقال : يا أبا حنيفة ، كم يحل للرجل أن يتزوج من النساء فيجمع بينهن ؟ قال : أربع ، قال المنصور : وكم يحل له من الإماء ؟ قال : ماشاء ، ليس لهن عدد ، قال : وهل يجوز لأحد أن يقول خلاف ذلك ؟ قال : لا ، فقال أبو جعفر لزوجته : قد سمعت

وهنا يتدخل أبو حنيفة لكي يكمل الفتوى، فإن المنصور بدهائه وجه إلى الإمام أسئلة لا تشكل الإجابات عليها الحل الشرعي للقضية. يقول أبو حنيفة للمنصور مكملاً له الحكم الشرعي السليم في التعدد: إنما أحل الله هذا لأهل العدل، فمن لم يعدل أو خاف ألا يعدل فينبغي ألا يجاوز الواحدة، ويتبع أبو حنيفة الحكم بالنص قائلاً: قال الله تعالى:

« فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً »

ويمضى أبو حنيفة موجها الحديث إلى المنصور : فينبغى لنا أن نتأدب بأدب الله ، ونتعظ بمواعظه . فسكت المنصور وطال سكوته فانصرف أبو حنيفة .

إن الإمام الجليل لم يجامل الخليفة فى أمر من أمور الدين وفى حكم فقهى واضح ، ولقد توقع المنصور ألا يخذله أبو حنيفة ، ولكن أنى له ذلك ، فمثل أبى حنيفة لا يجامل فى حكم شرعى ، وربما لم يواجه المنصور بمثل هذه الفتوى من إمام آخر يلزمه باحترام حقوق الزوجة التى كفلها لها الإسلام كفالة واضحة محددة لا تحتمل مداورة أو تأويلا ، فالتعدد لمن يستطيع العدل ، ولما كان ذلك من الأمور التى يصعب تنفيذها فلا مفر من الأخذ بروح الشريعة .

وحين وصل أبو حنيفة إلى منزله لم يلبث إلا قليلا ثم وجد خادما قادماً من قبل زوج أمير المؤمنين ومعه هدية نفيسة من مال وثياب وجارية وحمار مصرى ، ولكن أبا حنيفة اعتذر عن قبولها وقال للخادم : « اقرئها السلام وقل لها : إنما ناضلت عن دينى وقمت ذلك المقام لله لم أرد به تقربا إلى أحد ، ولا التمست به دنيا » .

لم ييأس المنصور من رفض أبى حنيفة لهداياه ، واستمر يواصل محاولاته لإقناع أبى حنيفة ولو لمرة واحدة ليقبل صلة من صلاته أو هدية من هداياه .

إن قبول الهدية يحمل أكثر من معنى ، وكذلك يحمل رفضها أكثر من معنى . إن فى قبول أبى حنيفة لهدية المنصور تكريما للمنصور وليس لأبى حنيفة ، وإن فى دوام رفضها معنى من معانى الإهمال ، وفى أحسن الأحوال يحمل رفض الهدية الشعور بالإهمال وعدم الاكتراث ، وذلك معنى يفزع المنصور الذى عرف بالشدة والبطش والاستعلاء ، فضلا عن دهائه الذى بواسطته أنشأ دولة بنى العباس وثبت أركانها . هذا ومن المعروف أن من قبل مالاً أو هدايا فقد ضُمِن سكوته ، وما أكثر النفوس التى اشتريت بالمال ، والألسنة التى أسكتت بالهدايا ، ولكن أبا حنيفة بفضله وعلمه ودينه ومروءته ليس ممن يُشْرَوْنَ أو يباعون .

تقول الأخبار إن أبا جعفر المنصور أجاز أبا حنيفة بثلاثين ألف درهم فى دفعات ولكن أبا حنيفة – وكان ذلك فى أواخر أيامه – يبحث عن عذر لرفضها فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى ببغداد غريب وليس عندى موضع ، فاجعلها فى بيت المال ، فأجابه المنصور إلى ذلك . فلما مات أبو حنيفة أخرجت ودائع كثيرة للناس من بيته فلما علم المنصور بذلك قال : خدعنا أبو حنيفة .

ولقد قدرت الودائع التى كانت فى بيت أبى حنيفة ببغداد بخمسين ألفا ، يعنى مايقرب من ضعف المبالغ التى كان المنصور قد وصله بها ، وفى ذلك يقول عبد الرحمن المسعودى : مارأيت أحسن من أبى حنيفة ! ! مات يوم مات وعنده ودائع بخمسين ألفا ، ماضاع منها ولا درهم واحد[1] .

كان الإمام الأعظم يرفض هدايا الخلفاء ومن هم فى حكمهم ويعتذر عن عدم قبول الصلات . يفعل ذلك فى حزم حينا ، وفى لطف وتحايل حيناً آخر . ولكنه فى الحالين يرى أنه لايليق به أن يتلقى عطاء إلا من الله عز وجل ، وكان يتمثل كثيراً بهذين البيتين :

---

(١) تاريخ بغداد ٣٥٩/١٣

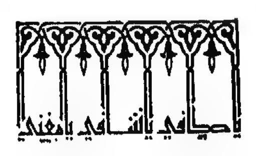
عطاءُ ذِى العرشِ خيرٌ من عطائِكِمُ
وسَيْبُهُ واسعٌ يُرْجَى ويَنْتَظَرُ
أنتم يكدّرٌ ماتعطون مَنُّكُمُ
واللهُ يعطى بلا مَنٍّ ولا كدر

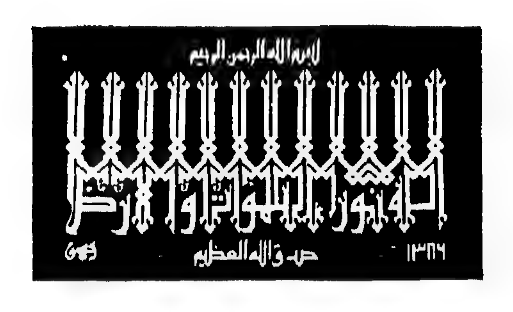
هكذا كان أبو حنيفة يرفض عطايا الخلفاء وصلات الحكام ، لم يستحلها يوما ، وكان يرى أنها حرام وليست حلالا .

فإذا كان الأمر متعلقا بهدايا عامة الناس . فإن أبا حنيفة يقبلها بكل الرضى والسرور ، ولكن لايلبث أن يوزعها على أصحابه .

فقد وصلت إليه هدية ماهيتها ألف نعل ، ففرقها على أصحابه ثم رآه الناس فى السوق بعد ذلك بيومين يشترى نعلا لولده . وفى الأحوال الأخرى التى كان يقبل فيها هدايا الناس ، لم يكن يلبث إلا قليلا لكى يعوض صاحب الهدية بهدية أجل وأعظم . إذ أنه كان يرى فى قبول هدايا أصدقائه نوعا من توثيق الود وإشاعة المروءة . ومناسبة لكى يفيض على من أهداه مزيداً من الفضل وفيضاً من الكرم .

رحم الله أبا حنيفة ما كان أعظمه فى علمه ومروءته وتعففه وشجاعته وقناعته . .




بسم الله الرحمن الرحيم
الله نور السموات والارض
صدق الله العظيم
١٣٦٦

الفصل السابع

أبو حنيفة الإمام

* معاصرو أبي حنيفة من الأئمة ومكانته بينهم .
* الإمام الأعظم متعلماً ومعلماً .
* أدب الحوار وقوة الإقناع .
* أبو حنيفة يشرع للمستقبل.
* أبو حنيفة مدون علم الشريعة .





الفصل السابع

أبو حنيفة الإمام

للإمامة مؤهلات كثيرة تفوق كل المؤهلات التى تقتضيها أسمى المناصب وأرفعها ، ذلك أن الإمامة قيادة علمية ، وريادة فكرية ، وسجايا أخلاقية ، وشمائل سلوكية .

ولقد كان أبو حنيفة مزيجاً من أولئك جميعاً ، فاستحق أن يكون أول الأئمة المرموقين عند جمهرة المسلمين ، وأن يكون خليقاً بلقب الإمام الأعظم .

كان الإمام من السمو بحيث حاز كل صفات الإمامة العلمية والريادة الفكرية والزعامة الدينية ، كان ذا علم وفقه ، وفصاحة وبيان ، وورع وتقوى ، وعقل وبديهة ، وشجاعة وعفة ، ومروءة وجود ، وصدقات وإحسان ، وتعليم وتعلم ، وتواضع وحلم ، وسماحة ووقار ، وأمانة وصدق ، وبرّ ووفاء .

كانت هذه الشمائل جميعاً جزءاً من بنية أبى حنيفة العقلية والخلقية والنفسية بحيث يستطاع فى يسر وسهولة سَوْقَ أكثر من مثال أو خبر أو حادثة عن كل صفة من هذه الصفات ، وهى جميعاً المؤهل الأسمى للإمامة .

— ١ —

مكانة أبى حنيفة بين أئمة عصره :

فأما العلم فإن أبا حنيفة قد تسنم ذروته دون منازع ، وجلس إلى حلقته وتتلمذ عليه كبار الأئمة وشيوخ الفقهاء من أمثال عبد الله بن المبارك ، وسفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ، ومسعر بن كدام ، وأبى يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيبانى ، وزفر بن الهذيل ، ويوسف السمتى ، كما شهد بفضله من أئمة الزمان مالك والأوزاعى والشافعى وغيرهم .

لقد سئل الإمام مالك هل رأيت أبا حنيفة ؟ فقال : نعم ، رأيت رجلاً

لوكلمك فى هـذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته ، وتعنى إجابة الإمام مالك هـذه ماكان يتمتع به الإمام الأعظم من شدة الفطنة وعمق الفكرة وقوة الإقناع ووفرة العلم . ولقد التقيا أكثر من مرة فى المدينة المنورة حين كان الإمام الأعظم يتردد عليها زائراً ، إذ المعروف أن مالكاً لم يغادر مدينة الرسول إلا فى موسم الحج ، ولم يعرف عنه أن خرج من منطقة الحجاز طوال حياته .

كان الإمام مالك يختلف مع الإمام أبى حنيفة فى كثير من القضايا التى تصل إلى سمعه ، فلما التقيا وتبادلا الرأى ، وتحاورا حوار العلماء ، سلّم مالك لأبى حنيفة بكثير مما قد اختلفا عليه ، ثم قال مالك قولته هـذه فى الإمام الأعظم .

وأما الإمام أبو عمرو عبد الرحمن الأوزاعى إمام الشام ومعاصر مالك وأبى حنيفة والصفوة الكريمة من أعيان الزمان ، فقد كان بادئ الأمر سيء الرأى فى الإمام الأعظم ، وله فى ذلك عبارات متسمة بالقسوة ، وأحكام يشوبها التحامل ، ثم لم يلبث بعد أن اطلع على بعض علم أبى حنيفة أن ذكره بالحمد والثناء .

إن الإمام عبد الله بن المبارك – وكان شديد القرب من أبى حنيفة – يقص خبراً فى هـذا الصدد يقول فيه : قدمت الشام على الأوزاعى فرأيته ببيروت ، فقال لى : يا خراسانى ، من هـذا المبتدع الذى خرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة ؟ فرجعت إلى بيتى ، فأقبلت على كتب أبى حنيفة ، فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل وبقيت فى ذلك ثلاثة أيام ، فجئت يوم الثالث وهو مؤذن مسجدهم وإمامهم – أى إمام أهل بيروت – والكتاب فى يدى ، فقال : أى شيء هـذا الكتاب ؟ فناولته الكتاب ، فنظر فى مسألة وقعت عليها عيناه مما قال النعمان ، فمازال قائماً بعدما أذن حتى قرأ صدراً من الكتاب ، ثم وضع الكتاب فى كمه ، ثم أقام الصلاة وصلى ، ثم أخرج الكتاب حتى أتى على المسائل التى احتواها ، فقال لى : يا خراسانى ، من النعمان بن ثابت هـذا ؟ قلت : شيخ

لقيته بالعراق ، فقال : هـذا نبيل من المشايخ ، اذهب فاستكثر منه ، قلت : هـذا أبو حنيفة الذى نهيت عنه[1] .

لقد كان علم أبى حنيفة وفقهه فوق مستوى أفهام عامة الناس ، ومن ثم عمد فريق من حساده إلى ذكره بسوء ، وليس من شك فى أنهم أيضاً كانوا يحرفون أقواله ، فلما حدث اللقاء بينه وبين مالك ردت الأمور إلى نصابها ، ولما قرأ الأوزاعى بعض مسائله اعترف له بالفضل ، وقال قولته الجليلة : هـذا نبيل من المشايخ اذهب فاستكثر منه .

وتمضى الأيام ويلتقى الإمامان الجليلان فى موسم الحج بمكة ، وتجرى المناقشة بينهما حول المسائل التى تضمنتها كراسة ابن المبارك ، وتتسع دائرة الحوار بين الإمامين العظيمين إمام الكوفة وإمام الشام ، وكان أبو حنيفة صاحب أدب فى الحوار ، ورقة حاشية فى النقاش ، فأفاض فى القول والأوزاعى يحسن الاستماع ، فلما انفض المجلس ، قال الأوزاعى لابن المبارك وكان حاضراً : غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله ، واستغفر الله تعالى ، لقد كنت فى غلط ظاهر . ثم يوجه الأوزاعى الحديث إلى عبد الله بن المبارك قائلاً : الزم الرجل فإنه بخلاف ما بلغنى عنه .

وثالث الأئمة الكبار المعاصرين لأبى حنيفة هو سفيان الثورى ، وسفيان كوفى المولد والدار والإقامة ، وكان من رجاحة العقل بحيث أراده المنصور والياً على الكوفة فأبى ، فتركها سنة ١٤٤ هـ وسكن مكة والمدينة ، وكان يلقب بأمير المؤمنين فى الحديث ، وكان عبد الله بن المبارك يقول : إذا اجتمع سفيان وأبو حنيفة فمن يقوم لهما على فتيا ! !

كان سفيان الثورى على علمه وفضله شديد الحرص على الأخذ عن أبى حنيفة ، يأخذ عنه تارة بطريق غير مباشر ، وتارة أخرى يأخذ عنه بطريق مباشر . فأما الأخذ بالطريق الأول فقد ذكرت الأخبار أنه مازال يحتال فى كتاب

---

(١) تاريخ بغداد ١٣/٣٣٧ ، ٣٣٨ .

الرهن لأبى حنيفة حتى نسخه ، ومتى نسخه أصبح من اليسير عليه أن يستوعبه ويفيد منه . جاء هذا الخبر فى قول ليزيد بن هارون حين سأله أبو مسلم الخراسانى ببغداد عن أبى حنيفة والنظر فى كتبه فأجاب : انظروا فيها إن كنتم تريدون أن تفقهوا ، فإنى ما رأيت أحداً من الفقهاء يكره النظر فى قوله ، ثم يستطرد يزيد فيقول : ولقد احتال الثورى فى كتاب الرهن حتى نسخه .

إن يزيد بن هارون صاحب هذا الثناء على أبى حنيفة وعلمه هو أحد كبار علماء العراق المعمرين ١١٨ - ٢٠٦ هـ وكان يقول : أحفظ أربعة وعشرين ألف حديث ولافخر ، وكان يحضر مجلسه سبعون ألفاً ، ومهما يكن الرأى فى عدد الأحاديث التى نسب إليه أنه يحفظها ، فإن الأمر الذى لاشك فيه أنه كان من العلماء الكبار الذين يُتحامى جانبهم ، وقد سلف القول أن المأمون كان يخافه وأنه قال : لولا يزيد بن هارون لأظهرت خلق القرآن . . . . . . إلى آخر الخبر .

فإذا ما عدنا إلى الثورى وإلى كيفية أخذه عن أبى حنيفة بطريق مباشر ، وجدناه يعترض على فتوى لأبى حنيفة فى شيء من حدة القول ، فلما أن التقى به وسمع من الإمام رضى وسلم ، وقصة الفتوى أن رجلاً جاء أبا حنيفة ممتلئاً بالهم والضجر قائلاً : حلفت بالطلاق لا أكلم امرأتى قبل أن تكلمنى ، فقالت : والعتاق لازم لا أكلمك قبل أن تكلمنى ، فكيف أصنع ؟ فقال له الإمام : اذهب فكلمها ولا حنث عليكما . فذهب الرجل إلى الإمام سفيان يعلمه بفتوى أبى حنيفة ، وكأنه غير مطمئن إلا بفتوى الإمامين ، وما أن سمع سفيان الفتوى حتى أخذ منه الغضب مأخذه ، وهرول إلى أبى حنيفة قائلاً أتبيح الفروج ؟ وهى عبارة حادة كما نرى ، فقال له أبو حنيفة بكل هدوء : « هو كذا ، أى الرأى ما رأينا ، واستطرد قائلاً : إنها لما قالت له وعلىَّ العتاق لا أكلمك قبل أن تكلمنى ، شافهته بالكلام فانحلت يمينه ، فإذا كلمها لم يقع الطلاق » . فعاد الرضى إلى قلب سفيان وقال للإمام فى هدوء واقتناع : إنك لتكشف ما كنا عنه غافلين .

وفى موقف آخر كان سفيان قد أفتى بجواز الوضوء بماء مستعمل ، فلما أفتى

أبو حنيفة بعدم الجواز رجع سفيان عن فتواه واقتنع بالحجج التى ساقها الإمام الأعظم فى هذه القضية . وقد سبقت الإشارة إلى أن سفيان وصف أبا حنيفة بأنه أفقه أهل الأرض .

وهناك سفيانٌ كوفى آخر هو سفيان بن عيينة ، ويطلق عليه وعلى سفيان الثورى : السفيانان ، وابن عيينة أصغر من سميه الثورى بعشر سنين ، فهذا ولد سنة ١٠٧ وتوفى سنة ١٩٨ وذاك ولد سنة ٩٧ وتوفى سنة ١٦١ هـ ، غير أن ابن عيينة عمر طويلاً ، والثورى مات فى الرابعة والستين من العمر .

لقد صنع ابن عيينة بالكوفة ماصنعه الثورى ، فقد هاجر منها إلى مكة ، وصار صاحب حلقة بجوار الكعبة ، وغدا يعرف بكونه فقيها حجازياً أكثر مما يعرف بكونه كوفيا ، وقد قال الشافعى فيه وفى مالك :

لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز .

يقول سفيان بن عيينة عن أبى حنيفة فى مجال الثناء والتمجيد :

« شيئان ما ظننتهما يجاوزان قنطرة الكوفة وقد بلغا الآفاق : قراءة حمزة ورأى أبى حنيفة » . وحمزة هو حمزة بن حبيب أحد القراء السبعة على ماهو معروف .

وأما عبد الله بن المبارك فثناؤه على أبى حنيفة وافر مستطاب فهو أحد تلاميذه الذين أداموا الجلوس إليه والاستماع منه ، وهو فقيه خراسان دون جدال ، وأحد المرابطين الكبار على الثغور الإسلامية ، وصاحب المواكب التى كانت تتضاءل أمامها مواكب الرشيد .

يقول ابن المبارك فى مجال المقارنة بين مالك وسفيان الثورى وأبى حنيفة : إن كان الأثر قد عرف واحتيج إلى الرأى ، فرأى مالك وسفيان وأبى حنيفة ، وأبو حنيفة أحسنهم ، وأدقهم فطنة ، وأغوصهم على الفقه ، وهو أفقه الثلاثة (٢) .

---

(٢) تاريخ بغداد ٣٤٣/١٣ .

وفى مقام آخر يقول ابن المبارك : إن كان أحد ينبغى أن يقول برأى ، فأبو حنيفة ينبغى أن يقول برأيه . ويصف ابن المبارك عظمة أبى حنيفة بكلمات تتفق مع وصفه العام بالإمام الأعظم وذلك بقوله : رأيت الأكابر فى مجلس أبى حنيفة صغاراً ، وما رأيت أحداً حاور أبا حنيفة إلا رحمته .

وكان جرير الضبى فقيه الرى ومحدثها - وهو كوفى الأصل - يقول : قال لى مغيرة ، أى مغيرة بن مقسم الضبى الكوفى الفقيه المحدث : « جالس أبا حنيفة تتفقه ، فإن إبراهيم النخعى لو كان حيا لجالسه » . وقد عرفنا فيما سبق من فصول من هو إبراهيم النخعى علما وقدرا وفروسية وفقها وجهادا .

ويُسأل الأعمش الفقيه العظيم عن مسألة فيقول : إنما يحسن هذا النعمان بن ثابت وأظنه بورك له فى علمه(٣) . والأعمش الذى يقول هذا الرأى هو أحد الثقات الكبار فى علوم القرآن والفقه والحديث والفرائض ، وهو الذى قال عنه السخاوى : « لم يُرَ السلاطينُ والملوك والأغنياء أحقر منهم فى مجلس الأعمش مع شدة حاجته وفقره» ، وسوف نرى كيف أن الأعمش كان سبباً في تحويل السمتى إلى واحد من أعظم تلاميذ أبي حنيفة .

وللإمام الشافعى فى أبى حنيفة آراء وأقوال تجعل منه الإمام الأول والأعظم فهو القائل : ما رأيت أحداً أفقه من أبى حنيفة . وقد أعاد هذا القول بصيغة أخرى هى : الناس عيال على أبى حنيفة فى الفقه . وللشافعى فى أبى حنيفة كلمة مانعة جامعة هى : قول أبى حنيفة أعظم من أن يدفع بالهوينى .

والنضر بن شميّل عالم البصرة الكبير يقول عن فضل أبى حنيفة على الفقه : كان الناس نياما عن الفقه حتى أيقظهم أبو حنيفة بما فتقه وبينه ولخصه .

ولقد سبق لنا أن ذكرنا قول ابن سريج أن ثلاثة أرباع العلم مسلمة لأبى حنيفة ، وأما الربع الرابع فإنه لايسلمه لهم ، فقال له السائل : وكيف ؟ قال : لأن العلم سؤال وجواب ، وهو أول من وضع الأسئلة فهذا نصف العلم ، ثم

---

(٣) النجوم الزاهرة ١٤/٢ .

أجاب عنها ، فقال بعض أصاب وقال بعض أخطأ ، فإذا جعلنا صوابه بخطئه صار له نصف العلم الباقى ، والربع الرابع ينازعهم فيه ولايسلمه لهم .

وأما عيسى بن موسى العباسى فهو يرى أن أبا حنيفة عالم الدنيا . وعيسى بن موسى هو ابن أخ السفاح والمنصور ، وكان ولى عهد المنصور وواليا على الكوفة حتى سنة ١٤٧ هـ وفيها عزله المنصور عن ولاية العهد وجعلها فى ولده المهدى .

دخل أبو حنيفة يوما على المنصور وعنده عيسى بن موسى سالف الذكر فقال للمنصور مشيرا إلى أبى حنيفة : « هذا عالم الدنيا » . فقال المنصور : يا نعمان ، عمّن أخذت العلم ؟ فقال : « عن أصحاب عمر عن عمر ، وعن أصحاب علىّ عن علىّ ، وعن أصحاب عبد الله عن عبد الله – أى عبد الله بن عباس – وما كان فى وقت ابن عباس على وجه الأرض أعلم منه » فقال المنصور : لقد استوثقت لنفسك .

وأما أبو يوسف قاضى قضاة الرشيد وتلميذ أبى حنيفة فإنه يقول عن أستاذه الإمام الأعظم : « ما رأيت أحدا أعلم بتفسير الحديث ومواضع النكت التى فيه من الفقه من أبى حنيفة » . ثم يضع أبو يوسف نفسه فى موضعها الدقيق من أبى حنيفه فيقول : « ما خالفت أبا حنيفة فى شىء قط فتدبرته إلا رأيت مذهبه الذى ذهب إليه أنجى فى الآخرة ، وكنت ربما ملت إلى الحديث ، وكان هو أبصر بالحديث الصحيح منى » .

تلك أقوال أئمة الزمان وآراؤهم وأحكامهم على شخص أبى حنيفة ، وهى فى حقيقتها وجوهرها تمثل مبايعة صريحة له بإمامة المسلمين ، وبأنه خليق باللقب الذى خلع عليه وهو الإمام الأعظم .

– ٢ –

الإمام الأعظم متعلما ومعلما :

أسلفنا الحديث عن أطوار تحصيل أبى حنيفة لدروسه وجلوسه إلى عدد كبير من علماء عصره وأئمته ، ثم تحدثنا عن حلقته العلمية ، وبينا كيف كانت مجمع

بحوث فقهية وإسلامية تحتدم فيها المناقشة ولكن فى نطاق الاحتشام ، ويجرى فيها الحوار ولكن فى سياج من تقاليد مهذبة وضعها الإمام فى كياسة وأناة .

لقد كان الإمام أبو حنيفة أول من وضع تقليد التفرغ لأستاذ واحد يجلس إليه الطالب سنوات حياته الدراسية ، ولابأس عليه فى أن يشرك معه بعض علماء العصر ولكن بشرط أن يكون بشكل جزئى ، ومن ثم فقد جلس إلى أستاذه حماد بن أبى سليمان ثمانى عشرة سنة كاملة ، وسار من بعده على نفس التقليد من الأئمة ، مالك ثم الشافعى ثم أحمد .

وحتّى تكون التلمذة صادقة ، فلابد لها من أن تكون مقرونة بالحب إلى درجة قريبة من البنوة ، مع وراثة خلق الأستاذ وشمائله ، ولقد انتهج أبو حنيفة هذا الطريق ، فلقد أحب أستاذه حمادا حبا جما ، كان يجلس إليه أطراف النهار وآناء من الليل ، وكان لحماد ديك يصيح ، فإن صاح انفضت الجلسة وانفرط عقدها ، فإذا ما صاح الديك ، وكان لابد أن يفعل ، قام الأستاذ من مجلسه معلنا انتهاء الحلقة ، فيعبر أبو حنيفة عن مشاعره إزاء شيخه وانفضاض الحلقة بهذه الكلمات العذبة العفوية الطريفة : يالك من ديك ، قبحك الله ، قطعت حديثنا ، إن شر الديكة ما صاح أول الليل .

ولفرط حب أبى حنيفة لشيخه حرص على أن يلازمه طوال حياته ، ولقد نازعته نفسه ذات يوم إلى الاستقلال عن أستاذه بإقامة حلقة خاصة به ، فما طاوعته نفسه إلى ذلك ، وكان قد مضى عليه مع أستاذه عشر سنين فأكملها ثمانى عشرة سنة .

وكان أستاذه يبادله حبا وتكريما ، فقد غاب حماد فترة زمنية عن الكوفة ، فلما عاد سئل عمن هو مشوق إليه ، وخامر الظن ولده أن أباه سيعلن عن شوقه له ولأهله ، ولكن حمادا قال إن أكثر شوقه إلى تلميذه أبى حنيفة . وهذا يدلنا على أن التلمذة إذا كانت صادقة صارت بنوة كاملة .

فلما انتقل حماد إلى رحمة الله ، كان أبو حنيفة يدعو له مع والديه بعد كل صلاة ، ويستغفر الله له معهما ، وتلك هى البنوة الكاملة الوفية .

وكان حماد سخيا مع تلامذته ، وكان يكسوهم فى العيد ، فكان أبو حنيفة بعد أن صار إماما وصاحب حلقة يكسو تلاميذه وصحابه ، ولم يكن يكتفى بذلك وإنما كان يوزع عليهم الأموال بشكل ثابت منتظم .

وكما اختص حماد تلميذه الأثير أبا حنيفة بالعناية ، اختص أبو حنيفة تلميذه الأثير أبا يوسف بالعناية وأجرى عليه راتبا يكفيه وأبويه احتياجاتهم ، فإذا ما أراد أبو يوسف أن يثنى على أستاذه أبى حنيفة لفرط كرمه رده أبو حنيفة بلطف وقال له : كيف لو رأيت حمادا ؟ ! !

ويمتد النسب العلمى إلى أبى يوسف بعد وفاة أبى حنيفة . فكان أبو يوسف يقول : إنى لأدعو لأبى حنيفة قبل أبوى . ولما وصل أبو يوسف إلى منصب قاضى القضاة وأصاب من الغنى ما يناهز المليونين من الدنانير ، سئل عما يوده فأجاب : وددت أن لى مجلسا من أبى حنيفة بنصف ما أمتلك ، وهذا يعنى أن أبا يوسف تمنى أن يسمع درسا من أبى حنيفة تكلفته مليون دينار . لعلنى لا أغلو إذا قلت إن هذا أغلى الدروس ثمنا فى تاريخ البشرية ، ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن أبا يوسف كان يهدف إلى الإشادة بأستاذه وشيخه أدبيا ومعنويا من خلال ذلك الثمن الكبير الذى جرى به لسانه .

هكذا كان أبو حنيفة يتعلم من حماد ، وهكذا جعل منه شيخا وأبا ، فامتدت سمات الوفاء منه إلى تلاميذه وبخاصة أبا يوسف .

وأبو حنيفة فى مجال التعلم لا يستحى ولا يتأفف عمن يأخذ العلم مادام علما صادقا ، لقد أخذ العلم ذات مرة عن حجام – وقد اصطلح الناس على أن مهنة الحجام ليست من المهن الكريمة – فلم يجد فى ذلك غضاضة أو يشعر بحرج ، فقد ذكر أبو حنيفة أنه أخطأ فى خمسة أبواب من المناسك ، فعلمه إياها حجام حول الكعبة ، ولما سأل الحجام عمن تعلم ، قال : رأيت عطاء بن رباح يفعل هذا . وقد ذكرنا الخبر كاملا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب عند الحديث عن شيوخ أبى حنيفة غير الكوفيين .

هذا ما كان من أمر أبى حنيفة طالب العلم ، وهو بسلوكه هذا الذى كان

يسلكه مؤهل للإمامة والريادة ، وهو السبيل الذى ينتهى به كما ينتهى بكل من سلكه إلى مقام الاستيعاب ثم العطاء .

فأما أبو حنيفة المعلم فقد مرت أطراف من تعاليمه ومناهجه عند الحديث عن حلقته ، وإنما يهمنا هنا أن نلفت النظر إلى مواقف بعينها للمعلم الإمام . وهى مواقف ترفع من قدره كمعلم وتأخذ بيده وتجلسه على قمة سدة الإمامة العلمية والزعامة الفقهية .

إن أبا حنيفة يوضح فلسفة العلم والعمل فى كتابه « العالم والمتعلم » فيقول : اعلم أن العمل تبع للعلم كما أن الأعضاء تبع للبصر ، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير ، ومثل ذلك الزاد القليل الذى لابد منه فى المفازة مع الهداية بها ، أنفع من الجهل مع الزاد الكثير ، وكذلك قال الله تعالى .

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذينَ يَعْلَمُونَ والَّذِيْنَ لاَ يَعْلَمُونَ ، إِنَّماَ يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ » .

تلك نظرية أبى حنيفة كإمام معلم فى العلم وخطره كما سجلها فى أحد كتبه .

هذا ومن صفات الإمام المعلم الصمت الطويل إلا إذا كانت المناسبة تقتضى الكلام المفيد ، وقد نسب إلى الإمام على بن أبى طالب قوله : ما ندمت قط على كلمة لم أقلها ، وأبو حنيفة تلميذ للإمام علىّ بطريق أو بآخر ، ومن ثم فهو يسير على نهجه ويتخلق بأخلاقه .

يقول أحد تلاميذ أبى حنيفة — هو فضل بن الربيع — يصف مجلس الإمام وسلوكه العلمى : أقمت على أبى حنيفة خمس سنين ، فما رأيت أطول صمتا منه ، فإذا سئل عن شىء من الفقه تفتح وسال كالوادى ، وسمعت له دويا وجهارة بالكلام .

والإمام مع هذا التدفق الشديد فى علمه لا يزهو أو يتعالى ، وإنما يحرص دائما

على التواضع ويردد : « قولنا هذا رأى ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا » .

لقد كان أبو حنيفة في نطاق العلم - بل فى كل نطاق آخر - رحب الصدر عميق الفكر سمح النفس واسع الأفق ، ولم يكن العلم لديه غصبا أو احتكارا ، كما لم يكن متعصبا لرأى ، ولا متعسفا فى قضية ، ولا جامدا فى مسألة ، وإنما هو مترفق فى قوله ، مع وقوف على أرض صلبة مستمدة صلابتها من كتاب الله وسنة رسوله والأخذ بأقوال الصحابة والتابعين ، والاجتهاد برأيه الثاقب المدرب فى ضوء علمه وتحصيله .

لم يكن غريباً إذن أن تكون شخصية أبى حنيفة شخصية جاذبة مؤنسة ، فعمرت الحلقة بالدارسين الذين صاروا بعد ذلك أئمة فقهاء مثل عبد الله بن المبارك ومسعر بن كدام الذى وصفه أبو نعيم الأصفهانى بأنه « المعظم للمعانى العظام المعتصم بمنهج الصحابة والأعلام » . والذى قال عنه شعبة : كنا نسمى مسعرا المصحف[٤] .

كان مسعر يذهب إلى حلقة أبى حنيفة ويجلس بين يديه ، ويسأله ويستفيد منه ، هكذا رآه ابن المبارك فى الحلقة تلميذا يحسن الاستماع وهو فى حقيقة أمره أستاذ يحسن العطاء .

وإذا كان الأستاذ يحنو على تلامذته حنو الأب على أبنائه ، فقد كان أبو حنيفة يفعل ذلك ، ولقد مر بنا طرف من معاملته لهم وصرف الكساء والمال وقضاء الحوائج ، غير أن مهمة الأستاذ الشيخ تتسع دائرتها لتشمل الحماية الفكرية لتلامذته من الآراء المنحرفة والعقائد الضالة .

كان بالكوفة كثير من أصحاب العقائد المنحرفة التى ورد أكثرها من البصرة ، وكان أحد أصحاب هذه الأهواء كوفى الدار والإقامة وهو جابر الجعفى الذى قال عنه الإمام : ما رأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء ، أى عطاء بن أبى رباح ، ولا لقيت فيمن لقيت أكذب من جابر الجعفى .

---

(٤) حلية الأولياء ٢٠٩/٧ ، ٢١٣ .

وفى نطاق محافظة الإمام أبى حنيفة على تلامذته كان ينهاهم عن مجالسته وكان يوسع دائرة فكرهم بمزيد من المعارف العامة حتى لا تتلقفهم العقائد الوافدة التى تكون فى أول أمرها ذات بريق ولمعان ، فإذا ما اقترب الدارس منها تبين له أن هذا البريق لا يخرج عن أحد ظاهرتين : إما أنه نار تحرق وتدمر ، أو أنه برق خلب كاذب لا خير فيه ولا غيث .

وفى نطاق محافظة الإمام على تلاميذه ودفع الأذى عنهم ، والحيلولة بينهم وبين أن يتورطوا فيما يسبب لهم المشكلات، كان يمنعهم من الجلوس للفتيا قبل أن ينضجوا وتكتمل لهم مؤهلات الاستقلال والفتيا ، إنه يفعل ذلك من واقع التجربة الذاتية ، فقد جلس للافتاء وهو شاب نائبا عن أستاذه حماد وبأمره حين دعت بعض الظروف أستاذه إلى أن يغيب عن الكوفة فى سفرة طارئة ، وغاب الأستاذ شهرين سئل خلالهما أبو حنيفة ستين سؤالا ، فكان يجيب عنها ويسجل إجابته ، ولما عاد أستاذه من سفرته ، عرض عليه أبو حنيفة المسائل الستين وإجاباته عنها ، فأقره على أربعين واعترض على عشرين ، وقد كان أبو حنيفة حينئذ يظن فى نفسه القدرة على الاستقلال بالفتيا .

ولذلك فإن أبا يوسف تلميذ الإمام حين أنس فى نفسه القدرة على الفتيا وتسرع وعقد لنفسه مجلسا منفرداً ، سارع أبو حنيفة إلى منعه من ذلك حبا له وحرصا عليه ، ولجأ إلى طريقة لطيفة ذكية سبق أن أشرنا إليها ، فقد دعا أبو حنيفة واحدا ممن يثق فيهم وأرسله إليه يسأله فى مسألة الثوب والقصار(٥) ، وما أن أشكلت الإجابة على أبى يوسف حتى سارع بالعودة إلى حلقة أستاذه ، فضحك أبو حنيفة وقال له : ما أتى بك إلا مسألة القصار .

هكذا كان أبو حنيفة يحب تلاميذه ويعيدهم إلى حلقته إذا ما ظن أحدهم فى نفسه علما ناضجا وهو بعد فى أول الطريق .

---

(٥) راجع المسألة فى الفصل الثالث موضوع مجمع البحوث الدينية وتاريخ بغداد ٣٤٩/١٣ ووفيات الأعيان ترجمة النعمان بن ثابت .

وكما أحب أبو حنيفة تلاميذه ، فقد أوصاهم بحب العلم واحترامه والحفاظ عليه من استرخاص شأنه أو الاتجار به ، ولذلك فإنه يوصيهم قائلا : أنتم مسار قلبى وجلاء حزنى ، وقد أسرجت لكم الفقه وألجمته ، فنشدتكم الله بقدر ما وهب لكم من جلالة العلم لما صنتموه عن ذل الاستئجار .

— ٣ —

أدب الحوار وقوة الاقناع :

للحوار أدب وأصول ، وللمناظرة تقاليد وحدود ، والحوار وسيلة مشروعة للوصول إلى الحقيقة ، والمناظرة نمط حضارى للانتهاء إلى الرأى الصائب ، فالحوار الصادق طريق الهدى ، والمناظرة الهادفة سبيل السلام . ومن أدب الحوار الهدوء والسكينة ، ومن أصول المناظرة حرص المناظر على سلامة مناظره فى عافيته وفكره وعقيدته ، برده إلى الخير واستعادته إلى الصواب .

تلك أصول وضعها أبو حنيفة وطبقها وثبت أركانها ، وكان أبو حنيفة قد رأى ولده حماداً يناظر فى الكلام فنهاه عن ذلك ، فقال تلامذة الإمام : رأيناك تناظر ، فقال لهم : « كنا نناظر وكأن على رؤوسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا ، وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم ، ومن أراد أن يزل صاحبه فقد أراد أن يكفر صاحبه ، ومن أراد أن يكفر صاحبه فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه »(٦) .

تلك أخلاق المناظر كما رآها أبو حنيفة وكما ينبغي أن تكون ، فإن المناظرة فى نظره سبيل الوصول إلى الحق . بغض النظر عن أىٍّ من المتناظرين هو الغالب .

وسوف نرى حين يصل المطاف بنا إلى الإمام الشافعى أنه كان يحتذى سبيل أبى حنيفة من حيث هدف الحوار وأدب المناظرة .

وللإمام أبى حنيفة مناظرات كثيرة مع قوم احتدم الخلاف الفكرى بينه وبينهم ، وكان بالتزامه أدب المناظرة معهم ينتهون سوياً إلى الهدف الذى نشدوه ،

(٦) مناقب أبى حنيفة لابن البزازى ١٢١/١ وما بعدها .

وهو الحقيقة والصواب ، وكان الوصول إلى الحقيقة والصواب يجيء دائماً عن طريق أبى حنيفة .

فمن هذه المناظرات مناظرة جرت بينه وبين الخوارج ، وكان الخوارج يرون أن مرتكب الكبيرة كافر ، وأما أبو حنيفة فيرى أن مرتكب الكبيرة مذنب وليس بكافر .

جاء وفد من هؤلاء الخوارج يريدون مناظرة أبى حنيفة وقالوا له : هاتان جنازتان على باب المسجد ، أما إحداهما فجنازة رجل شرب الخمر حتى كظته وحشرج بها فمات ، والأخرى جنازة امرأة زنت ، حتى إذا أيقنت بالحبل قتلت نفسها . فقال الإمام متسائلاً : من أى الملل كانا ؟ أمن اليهود ؟ قالوا : لا ، قال : أمن النصارى ؟ قالوا : لا ، قال : أفمن المجوس ؟ قالوا : لا . قال فمن أى الملل كانا ؟ قالوا : من الملة التى تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، قال : فأخبرونى عن هذه الشهادة ، أهى من الإيمان ثلث أو ربع أو خمس ؟ قالوا : إن الإيمان لا يكون ثلثاً ولا ربعاً ولا خمساً ، قال : فكم هى من الإيمان ؟ قالوا : الإيمان كله ، قال : فما سؤالكم إياى عن قوم زعمتم وأقررتم أنهما كانا مؤمنين .

ويمضى الخوارج مع الإمام فى الحوار فيقولون له : دع عنك هذا ، أمن أهل الجنة هما أم من أهل النار؟ قال : أما إذا أبيتم فإنى أقول فيهما ما قاله نبى الله إبراهيم فى قوم كانوا أعظم جرماً منهما :

« فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٧)

وأقول فيهما ما قاله نبى الله عيسى فى قوم كانوا أعظم جرماً منهما :

« إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فإنكَ أنتَ العزيزُ الحَكِيمُ » (٨)

---

(٧) سورة إبراهيم الآية ٣٦ .

(٨) سورة المائدة الآية ١١٨ .

وأقول فيهما ما قال نبى الله نوح إذ :

« قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ، قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ[٩] »

وأقول ما قال نوح عليه السلام :

« وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً ، اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنْفُسِهِمْ ، إِنِّى إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ »[١٠]

وعندما سمع الخوارج هـذا المنطق ألقوا سلاحهم وانصرفوا .

ومن مواقف الحوار المقنعة الجادة ذلك الذى يقصه يوسف بن خالد السمتى وكان يذهب مذاهب المعتزلة كما قيل إنه من أئمة الجهمية قبل صلاح أمره .

كان السمتى بصرياً ، وأراد أن يخرج إلى الكوفة ويلتقى بمشايخها ويستمع إليهم ، وعند دخوله الكوفة دلّه القوم على سليمان بن مهران الأعمش الذى استصغر شأنه وقال لبعض الحاضرين : اذهب به إلى مجلس النعمان ، فوالله لو رأى أصغر أصحابه لعلم أنه لو قام أهل الموقف لأوسعهم جواباً .

يقول السمتى يصف الإمام أبا حنيفة وقد وصل إليه بعد مشقة : فخرجت أسأل عنه قبيلة بعد قبيلة حتى أتيت بنى حرام فى آخر القبائل وقد دخل وقت العصر ، فإذا بكهل قد أقبل ، حسن الوجه ، حسن الثياب ، وخلفه غلام أشبه الناس به ، فلما دنا سلّم ، ثم صعد المئذنة فأذن أذاناً حسنا ، فتوسمت فيه أنه النعمان ، ثم نزل فصلى ركعتين خفيفتين تامتين أشبه بصلاة الحسن وابن سيرين ، واجتمع نفر من أصحابه ، وتقدم وصلى بهم صلاة أهل البصرة ، فلما سلم استند إلى المحراب وأقبل بوجهه إلى الناس فحياهم ، ثم سأل كل واحد من أصحابه عن حاله ، فلما انتهى إلىّ قال : كأنك غريب من أهل البصرة وقد نُهِيتَ عن

---

(٩) سورة الشعراء الآيات ١١١ - ١١٤ .

(١٠) سورة هود ٣١

مجالستنا ! ! قلت : نعم ، قال : فما اسمك ؟ فأخبرته باسمى ونسبى ، ثم سأل عن كنيتى فأخبرته ، فقال : أكنت من المختلفين إلى البتّى[11] ؟ قلت : نعم ، قال : لو أدركنى لترك كثيراً من قوله ، ثم قال هات مامعك ، وابدأ قبل أصحابك فإن بك وحشة مغربة ، وحق لمثلك من التفقهة التقدم ، ولكل داخل دهشة ، ولكل قادم حاجة .

وكانت القضية التى يريد السمتى معرفة الرأى فيها هى القدر ، ومسألة القدر هى عقيدة المعتزلة الذين كان السمتى يختلف إلى بعضهم وبخاصة عثمان البتى الذى مضى ذكره وترجمنا له ترجمة موجزة فى هامش الصفحة . يقول الإمام أبو حنيفة بعد أن تلقى القادم الغريب بالبشاشة والسماحة وسرّى عنه وقدمه على غيره من الحاضرين : إن الأمم قبلكم ما اجتمعت ولا تجتمع أبدا ، والله تعالى يقول :

« وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ »[12]

ولولا ماجرت به المقادير واختلفت الطبائع ما اختلفت ولكن ،

« كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سبيلاً »[13] .

فيقول السمتى : ما تقول فيما اختلفوا فيه من القدر ؟ فقال الإمام مجيبا : أهل البصرة وأهل الكوفة اختلفوا فى القدر على ما علمت . وكبر عمرو عن الطوق . وهذه مسألة قد استصعبت على الناس . فأنى يطيقونها . هذه مسألة مقفلة قد

---

(١١) هو عثمان البتى من المعتزلة وهو كوفى انتقل إلى البصرة وسكنها وتوفى سنة ١٤٣ وكان يبيع البتوت ، والبت كساء غليظ – انظر تهذيب التهذيب ١٥٣/٧ .

(١٢) سورة هود الآيتان ١١٨ ، ١١٩ وكمال الآيتين قوله تعالى :
« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحدةً ولا يزالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ولِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلمةُ ربِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أجْمَعِين » .

(١٣) الاسراء الآية ٨٤ .

ضل مفتاحها . فإن وُجدَ مفتاحُها عُلِمَ ما فيها . لم يفتح إلا بمخبر من الله . يأتى بما عنده ويأتى ببينة وبرهان . وقد فات ذلك . والذى نقول قولا متوسطا بين القولين : لاجبر . ولا تفويض . ولا تسليط . والله تعالى لا يكلف العباد بما لا يطيقون . ولا أراد منهم مالا يعلمون . ولا عاقبهم بما لم يعملوا . ولا سألهم عما لم يعملوا . ولا رضى لهم بالخوض فيما ليس لهم به علم . والله أعلم بما نحن فيه . والصواب الذى عنده . ونحن مجتهدون . وكل مجتهد مصيب . إلا أنه لم يكلفهم الاجتهاد فيما ليس لهم به علم . والله ولى كل نجوى . وإليه رغبة كل راغب . وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضى(١٤) .

هكذا كان حديث الإمام الأعظم فى القدر ، ولقد كان القدر قضية ساخنة فى ذلك الأوان ، وكانت حلقات النقاش حولها فى البصرة خشنة ، عالية الصوت كثيرة الصخب ، فلما أن وصلت إلى ساحة أبى حنيفة كان العلاج على ما رأينا: سماحة في القول، وهدوء في التناول، وقصداً في الحكم، وتواضعاً في الإدلاء ، وفهماً عميقاً للعدالة الإلهية انبثقت من خلالها آراء الإمام سهلة ذلولا ، وما إخال السمتى انصرف من مجلس الإمام إلا وقد أنعم النظر فى قوله وترك غلواء المعتزلة وانتظم قافلة المقسطين من أبناء الأمة الإسلامية وفى مقدمتها مدرسة أبى حنيفة ، ولقد كان الأمر كذلك إذ تحول يوسف بن خالد السمتى من مبشر بمذاهب البصرة إلى تلميذ نجيب لأبى حنيفة ، ثم يعود إلى موطنه يعلم أهل البصرة مذهب أهل الكوفة ، ولقد خصه الإمام الأعظم بوصية خالدة أصبحت له سراجاً وهداية ، ونبراساً ورائداً .

— ٤ —

أبو حنيفة يشرع للمستقبل ويضع المسائل :

كان أبو حنيفة حجة فى الفقه ، رئيساً فى الفتيا ، رائداً فى تأليف المسائل ، وكانت الميزة التى يفوق فيها أبو حنيفة غيره من الفقهاء أنه يضع المسائل التى

---

(١٤) مناقب البزازى ١/٨٥ وما بعدها .

لم تقع بعد ، ولكنّ حدوثها محتمل إن لم يكن فى الحاضر فهو ممكن فى المستقبل .

وتمثل هـذه القضية الطريفة نهج أبى حنيفة فى خلق المسائل التى لم تحدث فى زمانه ولكن احتمال وقوعها غير بعيد ، وهو ماسمى بالفقه التقديرى .

لقد زار الكوفة قتادة بن دعامة السدوسي عالم البصرة ومحدثها ، ونزل فى دار أبى بردة ، وأبو بردة هو عامر بن أبى موسى الأشعرى ، وكان قاضياً على الكوفة وتوفى سنة ١٠٣ وترك داراً كبيرة هى تلك التى نزل فيها قتادة . وكانت شهرة قتادة قـد سبقته إلى الكوفة ، وهو مجمع ثقافات ، جمع بين الحديث والتفسير واللغة وأيام العرب وأنسابهم .

جلس قتادة للناس وقـد اجتمع إليه خلق كثير ، فقال والله الذى لا إله إلا هو ما يسألنى أحد عن الحلال والحرام إلا أجبته ، فقام إليه أبو حنيفة فقال : يا أبا الخطاب ، ماتقول فى رجل غاب عن أهله أعواماً فظنت امرأته أن زوجها مات فتزوجت ، ثم رجع زوجها الأول ، ماتقول فى صداقها ؟ وهمس أبو حنيفة فيمن حوله من الأصحاب الذين اجتمعوا إليه قائلاً : لئن حدّث بحديث ليكذبن ، ولئن قال برأى نفسه ليخطئن .

فكر قتادة قليلاً ثم قال لأبى حنيفة : ويحك ، أوقعت هـذه المسألة ؟ قال : لا ، قال : فلم تسألنى عما لم يقع ؟ قال أبو حنيفة : إننا نستعد للبلاء قبل نزوله ، فإذا ماوقع عرفنا الدخول فيه والخروج منه .

كان هذا هو نهج تفكير أبى حنيفة ، يفكر فى قضايا المستقبل ، فقد منحه عمله كتاجر فى السوق تجربة فى الحياة ودراية بها وتحسبا لما يمكن أن يحدث فى المستقبل ، وهو فى ذلك يختلف عن بقية الفقهاء الذين لاتهىء لهم أنماط حياتهم المحدودة ماقد هيأت له حياته النشطة المنفتحة على الحياة العامة . وطبيعى جداً أن تقع هذه الحادثة فى الحياة ، وليس من شك فى أنها وقعت بعد ذلك مئات المرات .

ولايقف الأمر بقتادة وأبى حنيفة عند هذا الحد من السؤال والجواب ، فإن

قتادة لكى يفلت من حصار السؤال الذى ربطه به أبو حنيفة قال : والله لا أحدثكم بشىء من الحرام والحلال ، سلونى عن التفسير ، فقام إليه أبو حنيفة مرة أخرى وقال له : يا أبا الخطاب ، ما تقول فى قول الله تعالى :

« قَالَ الذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ »

قال : نعم ، هذا آصف بن برخيا بن شمعيا كاتب سليمان بن داوود ، كان يعرف اسم الله الأعظم ، فقال أبو حنيفة : هل كان سليمان يعرف الاسم ؟ قلل : لا . قال : أفيجوز أن يكون فى زمن نبى من هو أعلم من النبى ؟

فقال قتادة : والله لا أحدثكم بشىء من التفسير . سلونى عما اختلفت فيه العلماء ، فقام إليه أبو حنيفة مرة ثالثة وقال : يا أبا الخطاب ، أمؤمن أنت ؟ قال : أرجو ، فقال أبو حنيفة : ولم ؟ قال : لقول إبراهيم :

« والَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ » .

فقال أبو حنيفة : فهلا قلت كما قال إبراهيم عليه السلام :

« قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى » فهلا قلت بلى .

وهنا ضاق قتادة بأسئلة أبى حنيفة فقام مغضبا فدخل الدار وحلف ألا يحدثهم .

إن الأمر الذى نهتم له فى هذا الحوار هو السؤال الأول الذى ينم عن عقلية فقهية فذة تعمل للحاضر وتفكر للمستقبل . ومن الطريف أن أبا حنيفة كان آنذاك لايزال شابا لم يكتسب بعد القدر الكافى من تجارب السنين ، فلقد مات قتادة سنة ١١٧هـ وفى رواية أخرى سنة ١١٨هـ ، ومن المعروف أن أبا حنيفة ولد سنة ثمانين ، فإذا كان هذا الحوار قد جرى قبل وفاة قتادة ببضع سنين ، وهو مانرجحه يكون سن أبى حنيفة وقت الحوار حوالى ثلاثين سنة

ومسائل أبى حنيفة كثيرة وطريفة وتنم عن عقلية فقهية فذة ، سواء تلك التى

كان يؤلفها مثل سؤاله ذلك الذى وجهه لقتادة ، أو السؤال الذى بعث به إلى تلميذه أبى يوسف لكى يثنيه عن الانفراد بحلقة درس وفتيا ولما تكتمل له بعد أسبابها ، وهى مسألة الثوب والقصار ومدى استحقاق القصار للأجرة[١٥] .

ومن المسائل التى سئل عنها أبو حنيفة وليست مما يسهل الإجابة عليه مسألة وجهت إليه فى حلقة درسه فى مكة فى موسم الحج ، وكان الإمام – حسبما هو معروف – يعقد حلقاته فى موسم الحج فى البيت الحرام وفى المسجد النبوى الشريف .

جاء رجل فقال : يا أبا حنيفة ، قصدتك أسألك عن أمر أهمنى وأزعجنى ، قال : وما هو؟ قال : لى ولد وليس لى غيره ، فإن زوَّجتُهُ طلَّق ، وإن سرَّيتُهُ أعتَقَ ، وقد عجزت عن هذا ، فهل من حيلة ؟ قال له : نعم ، اشترِ الجارية التى يرضاها لنفسه ثم زوّجها منه ، فإن طلق رجعت إليك مملوكتك ، وإن أعتق أعتق ما لايملك وإن ولدت ثبت نسبه لك .

مثل هذه القضايا المعقدة كان الناس يواجهون بها أبا حنيفة ، وكان أبو حنيفة بعلمه وفطنته وحدة بديهته يجد لها الجواب الشافى . ومن الطريف أن قاضى الكوفة ابن شبرمة كان يحج فى تلك السنة ، وكان واقفا يستمع إلى ما يجرى فى الحلقة دون أن يراه أبو حنيفة ، وكان فى نفسه شىء من الإمام حين أفحمه فى قضية وصية سبقت الإشارة إليها . يقول ابن شبرمة وقد خبر الإمام فى هذه الحلقة : كنت شديد الإزراء على أبى حنيفة ، فعلمت أن الرجل فقيه من يومئذ ، وكففت عن ذكره إلا بخير[١٦] .

مشكلة أخرى لاتخلو من طرافة أفتى فيها كل من سفيان وأبى حنيفة ، فقد زوج رجل ابنتيه من أخوين ، وبعد فترة خرج الرجل وهو يقول : أصابتنا مصيبة عظيمة ، غلطنا فزفت إلى كل واحد غير امرأته ودخل بها . وكان الجمع

---

(١٥) انظر المسألة فى فصل سابق وفى تاريخ بغداد ٣٤٩/١٣ .

(١٦) وفيات الأعيان ترجمة النعمان بن ثابت .

يضم كلا من سفيان وأبى حنيفة ، فقال سفيان لابأس بذلك : أرى أن على كلٍّ المهر بما أصاب من المرأة ، وترجع كلٌّ إلى زوجها ، فاستحسن الناس ذلك منه ، وأبو حنيفة ساكت ، فقال له مسعر بن كدام – أحد العلماء الأجلاء من تلاميذ الإمام – : قل فيها ، أى قل برأيك ، فقال سفيان : وما عسى أن يقول خلاف هذا ؟ وكان سفيان معتمدا فى فتواه على رأى للإمام على بن أبى طالب .

ولكن أبا حنيفة استجاب لمسعر وقال : علىَّ بالغلامين ، فأُحضرا ، فقال : لكل واحد منهما : أتحب أن تكون عندك التى زفت إليك ؟ قال : نعم ، قال : فما اسم امرأتك التى عند أخيك ؟ قال : هى فلانة ، قال : قل هى طالق منى ، ثم زوَّج كُلاًّ المرأةَ التى دخل بها ، وأمرهم بتجديد عرس آخر ، فعجب الناس من فتياه بذلك ، ونهض مسعر قائما فقبله ثم قال فى إعجاب بأستاذه : تلومونى على حبه ! ! وأما سفيان فقد ظل ساكتا لايقول شيئا .

ولمناسبة حديث الفتاوى بين أبى حنيفة والثورى ، فإنه يجمل بنا أن نشير مرة أخرى إلى مسألة الرجل الذى حلف بالطلاق ألا يكلم امرأته قبل أن تكلمه فقالت : والعتاق لن تكلمه قبل أن يكلمها ، فقال الإمام للرجل : اذهب فكلمها ولاحنث عليكما فعلم سفيان بذلك واحتج على الإمام وكان أن اقتنع سفيان بفتوى أبى حنيفة فى آخر المطاف[17] .

لقد كان أبو حنيفة بعلمه وفكره وفقهه إماما لعصره ولما يجئ بعد ذلك من عصور .

– ٥ –

أبو حنيفة مدوّن علم الشريعة :

تبقى بعد ذلك واحدة من أهم الميزات التى تميز بها أبو حنيفة بين أئمة المسلمين ، وهى أنه أول من وضع الفقة ودوّن الشريعة . وقد سبقت الإشارة إلى قول الإمام الشافعى أن الناس عيال على أبى حنيفة فى الفقة وأقوال أخرى للشافعى فى هذا المعنى .

---

(١٧) راجع القضية فى أول هذا الفصل عند الحديث عن مكانة أبى حنيفة بين معاصريه

والإمام الشافعي هو واضع علم الأصول على ماسوف نرى في كتابنا عنه ، وأبو حنيفة هو مدون علم الشريعة ، وفى ذلك يقول ابن البزازى فى ترجمته للإمام الأعظم : « أبو حنيفة أول من دون علم الشريعة ، ولم يسبقه أحد من قبله ، لأن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم لم يضعوا فى علم الشريعة أبوابا مبوبة ولاكتبا مرتبة ، وإنما كانوا يعتمدون على قوة فهمهم ، وجعلوا قلوبهم صناديق فهمهم . ونشأ أبو حنيفة بعدهم فرأى العلم منتشرا ، فخاف عليه الخلف السوء أن يضيعوه ولهذا قال ﷺ :

« إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِن قُلُوبِ النَّاسِ ، وَإِنَّمَا يَنْتَزِعُهُ بِمَوْتِ العُلَمَاءِ فَيَبْقَى رُؤُساء جُهَّالٌ ، فَيُفْتُونَ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيَضِلُّون وَيُضِلُّونَ » .

فلذلك دوّنه أبو حنيفة ، فجعله أبوابا مبوبة ، وكتبا مرتبة ، فبدأ بالطهارة ثم بالصلاة ، ثم بسائر العبادات على الولاء ، ثم بالمعاملات ثم ختم بكتب المواريث . وإنما ابتدأ بالطهارة ثم بالصلاة لأن المكلف بعد صحة الاعتقاد أول ما يخاطب بالصلاة لأنها أخص العبادات وأعمها وجوبا »(١٨) .

وهكذا يكون أبو حنيفة رائد الأئمة والفقهاء فى تدوين الفقه وعلوم الشريعة مرتبة على منهج واضح ، مثبتة على أسس سليمة ، ومن هنا يكون الإمام الأعظم صاحب سبق فى هذا المجال بالإضافة إلى المجالات الكثيرة الأخرى التى تناولناها فى الفصول السابقة .

إن هذا الفصل قد خصصناه لأبى حنيفة الإمام ، وكل مسلك للإمام فى حياته العلمية أو الاجتماعية أو الذاتية أو الفكرية أو السياسية يجعل منه إماما للأئمة . لقد أبرزنا فى الفصول السابقة مسيرة حياة أبى حنيفة ، وكان فيها جميعا صاحب علم وفقه ، وفصاحة وبيان ، وورع وتقوى ، وعقل وبديهة ، وشجاعة وعفة ، ومروءة وجود ، وصدقات وإحسان ، وتعليم وتعلم ، وكرامة وتصوّن ، وتواضع وحلم ، وسماحة ووقار ، وأمانة وصدق ، وبر ووفاء .

من أجل أولئك جميعا كان أبو حنيفة إماما

---

(١٨) مناقب أبى حنيفة لابن البزازى ١٨٨/٢ .

الفصل الثامن

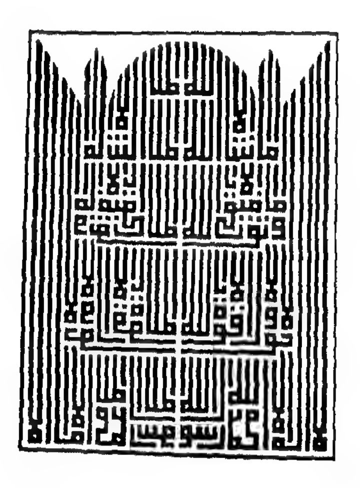
فقه أبي حنيفة

* مصادر فقه أبي حنيفة
* الرأى والرواية
* أصول المذهب

الكتاب . السنة . فتوى الصحابة ،
الإجماع ، القياس ، الاستحسان ،
العرف




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الفصل الثامن

فقه أبي حنيفة

– ١ –

مصادر فقه أبي حنيفة :

من الأمور المسلم بها أن أبا حنيفة هو واضع علم الفقه ، فإذا أردنا التخفيف من هذا الحكم قلنا إنه مؤسس مدرسة الفقه في الإسلام ، ومثبت أركانها وواضع منهجها .

إن الإمام الشافعي ، وهو من هو بين أئمة المسلمين يقول : الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه . بل إنه يعمد إلى مزيد من التوضيح حول شيوخ مدارس المعرفة في نطاق العلوم الإسلامية فيقول : الناس عيال على هؤلاء الخمسة ، من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة ، ومن أراد أن يتبحر في الشعر فهو عيال على زهير بن أبي سلمى ، ومن أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق ، ومن أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي ، ومن أراد أن يتبحر في القرآن فهو عيال على مقاتل بن سليمان[1] .

يقول حرملة بن يحيى تلميذ الشافعي وصاحبه وراوي هذا الخبر إن الشافعي أضاف عند ذكره أبي حنيفة قوله : كان أبو حنيفة ممن وُفِّق له الفقه . وشهادة الشافعي وهو أحد عباقرة الإسلام دينا وفكرا وتشريعا وثقافة وأدبا لما تنحنى لها الرؤوس وتعنو لها الجباه .

ولكن أبا حنيفة لم يضع أسس الفقه من فراغ ، وإنما هو عالم بكتاب الله وسنة رسوله ، واسع الاطلاع في شئون الدين والدنيا ، متلمذ على كبار أئمة

---

(١) تاريخ بغداد ٣٤٦/١٣ .

التابعين ، هاضم لعلمهم مستوعب لفقههم ، ومن ثم كانت مصادر فقهه ، هى المصادر التى لا مناص لمسلم من أن يجعلها مصدره ومعينه ، وهو بعد ذلك يعمل فكره ، ويحكم رأيه دون خروج على نص ، أو تصادم مع أثر ، ومن ثم اضطلع بتدوين الفقه الإسلامى على منهج وضعه ، وسبيل عبده ، وطريق يسّره ، خشية أن يموت العلماء وفى صدرهم علم الشريعة ، ويجىء بعدهم جهال يدعون العلم فيضلون ويضلون ، وقد أورد البزازى فى مناقب أبى حنيفة قصة الإمام باعتباره أول من دون علم الشريعة وقد أثبتناها فى آخر الفصل السابق فليرجع القارىء إليها إن شاء .

فإذا ما كان البحث عن مصدر أبى حنيفة فى فقهه فإن الإمام الأعظم يحدد بنفسه مصادر فقهه ومنهجه فى الإفتاء بقوله : « آخذ بكتاب الله ، فما لم أجد فبسنة رسول الله ﷺ ، فإن لم أجد فى كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ أخذت بقول أصحابه ، آخذ بقول من شئت منهم وأدع من شئت منهم ، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم ، فإذا ما انتهى الأمر أو جاء إلى إبراهيم والشعبى وابن سيرين والحسن وعطاء وسعيد بن المسيب – وعدّد رجالا آخرين – فقوم اجتهدوا ، فأجتهد كما اجتهدوا »[٢] .

تلك هى مصادر فقه أبى حنيفة يقررها فى وضوح وجلاء حين سمع أن زميله ومعاصره وصديقه وابن بلدته سفيانا الثورى ينقم على فتاواه وأحكامه .

فأبو حنيفة والأمر كذلك يلتزم بالمصدرين الأساسيين للفقه الإسلامى وهما كتاب الله وسنة رسوله ، ثم يلزم نفسه بمصدر ثالث هو أقوال صحابة رسول الله ﷺ ، ولما لم تكن أقوالهم متطابقة تطابقا كاملا فى بعض القضايا فإن أبا حنيفة يأخذ عمن يراه أكثر علما من غيره ، وهو مع ذلك ملتزم بقول رسول الله ﷺ فى صحابته

« أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمْ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ »

---

(٢) تاريخ بغداد ٣٦٨/١٣ .

فإذا كان الأمر متعلقا بالتابعين ، والتابعون على جلال قدرهم لايستوون مع الصحابة فى موازين العلم والتقدير ، فإن أبا حنيفة يرى نفسه أهلا لأن يجتهد كما اجتهدوا وأنه ليس ملزما بالأخذ عنهم إلا تطوعا واقتناعا ، وذكر فى هذا السبيل عددا من خيرة التابعين ، وبعضهم يعتبر شيخا له مثل عطاء بن أبى رباح ، وقد أسلفنا قصة لقائه مع الإمام فى مكة وما جرى بينهما من حوار حول أهل الكوفة ، كما ذكرنا قصة الحجام الذى أخذ شعائر الحج عن عطاء فأخذها أبو حنيفة عنه ، والشيء نفسه يقال عن إبراهيم ، وهو إبراهيم النخعى ، الذى كان أستاذا لحماد بن أبى سليمان شيخ أبى حنيفة والذى قال فى صدده بعض مؤرخى الفقه إن أبا حنيفة يسبح بفقهه فى بحر إبراهيم ، وقد كان إبراهيم النخعى يقول بالرأى ، وكان رأسا من رؤوس علماء الإسلام .

ومهما يكن الأمر فأبو حنيفة مؤهل لأن يجتهد كما اجتهد غيره من العلماء الذين ذكرهم فى معرض ذكر مصادر فقهه من غير الصحابة طبعا .

وحين أسرف قوم فى اتهام أبى حنيفة فى فقهه لتوسعه فى استعمال القياس وبلغ ذلك أبا جعفر المنصور ، كتب إلى أبى حنيفة مستنكرا أو مستفسرا برسالة جاء فيها : بلغنى أنك تقدم القياس على الحديث . فرد عليه أبو حنيفة برسالة قال فيها : ليس الأمر كما بلغك ياأمير المؤمنين ، إنما أعمل أولا بكتاب الله ، ثم بسنة رسول الله ﷺ ، ثم بأقضية أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم ، ثم بأقضية بقية الصحابة ، ثم أقيس بعد ذلك إذا اختلفوا وليس بين الله وبين خلقه قرابة (٣) .

إن أبا حنيفة يعبر للمنصور تعبيرا صادقا عن مصادر فقهه ، وعن مسلكه فى الأخذ والتطبيق ، وهو يقيس قياسا منطقيا عادلا ، فإن لم يستقم له القياس أخذ بالاستحسان ، فإن لم يؤد الاستحسان إلى الغرض المنشود فى نطاق الشرع عمد إلى الاستعانة بما يتعامل به الناس أى عمد إلى استعمال العرف .

---

(٣) انظر الميزان للشعرانى ٥٢/١ .

لقد أوضح الموفق المكى هذا النهج فى قوله عن فقه الإمام الأعظم مايلى : «كلام أبى حنيفة أخذ بالثقة ، وفرار من القبح ، والنظر فى معاملات الناس وما استقاموا عليه وصلح عليه أمورهم . يمضى الأمور على القياس ، فإذا قبح القياس يمضيها على الاستحسان ما دام يمضى له ، فإذا لم يمض له رجع إلى مايتعامل المسلمون به ، وكان يؤصل الحديث المعروف الذى أجمع عليه ، ثم يقيس عليه مادام القياس سائغا ، ثم يرجع إلى الاستحسان أيهما كان أوفق رجع إليه »[٤] .

من أقوال أبى حنيفة السالفة الذكر وأقوال الموفق المكى والشعرانى يتبين لنا أن أبا حنيفة كان يأخذ فى نطاق اجتهاده بالقياس والاستحسان والعرف إذا لم يجد نصا فى كتاب الله وسنة رسوله أو حكما مأثورا عن أحد الصحابة ينير له الطريق ويوضح له السبيل .

– ٢ –

الرأى والرواية :

الفقهاء قسمان قسم يفتى بالرأى ، وقسم يفتى بالأثر أو بالرواية ، وكلا الفريقين صادق مع نفسه نبيل فى هدفه ، فأما فقهاء الرأى فهم الذين لا يجدون نصا من كتاب الله أو سنة رسول الله فيجتهدون بآرائهم فى نطاق المفهوم الدينى والعرف الشرعى والأحكام الإسلامية والقياس على رأى مشابه منصوص عليه ، وأما فقهاء الأثر فهم يستمسكون فى أحكامهم بضرورة الاحتكام إلى نص شرعى من الكتاب أو السنة أو قول الصحابة أو عمل أهل المدينة ، وكان الإمام مالك يتمسك بهذا الشرط الأخير تمسكا شديدا على غير ما كان يفعل أبو حنيفة والشافعى .

وكان فى مقدمة فقهاء الرأى الإمام أبو حنيفة وصحابه ، ومن قبلهم كان إبراهيم النخعى وحماد بن أبى سليمان الذى كان تلميذا لإبراهيم وشيخا لأبى حنيفة وأبا روحيا له على ماهو معروف

---

(٤) بناقب أبى حنيفة للمكى ٨٢/١

وأما فقهاء الأثر فهم فقهاء الحجاز بعامة ، وعلى رأسهم الإمام مالك ، والثورى فى الكوفة ، والأوزاعي في الشام . وقد سلف القول أن سفيان بن عيينة الكوفى المولد والنشأة هاجر إلى الحجاز وأقام فيه حياته وعرف أيضا بأنه من فقهاء الأثر ، وفيه وفى مالك قال الشافعي قولته المشهورة : لولا مالك وسفيان لضاع علم الحجاز .

على أن الأمر الجدير بالذكر أن مالكا وسفيانا الثورى لم يكونا بعيدين عن الرأى ، وأن فتاواهما لم تكن صادرة عن الأثر لا غير ، فإن أكثر من خبر ذكر أنهما كانا يفتيان بالرأى فى فترة ما من فترات حياتهما ، فإن الإمام عبد الله بن المبارك عالم خراسان وتلميذ أبى حنيفة يقول : « إن كان الأثر قد عرف واحتيج إلى الرأى ، فرأى مالك وسفيان (الثورى) وأبى حنيفة » ولكنه يميز أبا حنيفة عن رفيقيه بالتفضيل قائلا : « وأبو حنيفة أحسنهم ، وأدقهم فطنة ، وأغوصهم على الفقه ، وهو أفقه الثلاثة » .

ويجدر بنا أن نقرر أن أهل الرواية والأثر لم يكونوا يأخذون بالرأى إلا فى حالة الاضطرار ، وحين لايكون عن الأخذ به بديل ، وكانوا أصحاب حجة وجيهة فى ذلك ، فالقوم على جانب كبير من الأمانة والالتزام ، وهم يخافون إن هم أخذوا بالرأى واسترسلوا فيه ، فإن ذلك قد يؤدى إلى مزيد من التفريعات التى تباعد بين الحكم المعتمد عليه وبين الأحكام الشرعية المألوفة ، وقد كان عليهم والأمر كذلك أن يهيئوا السبيل أمام الفقيه بتيسير الأصول ووضعها بين يديه حتى لا يقع فى محظور ويستعين بحديث ضعيف أو آخر موضوع ، فسارع كبار الأئمة إلى جمع حديث رسول الله فجمع مالك الموطأ ، وجمع سفيان الثورى الجامع الكبير فى الفقه والأحاديث ، وجمع سفيان بن عيينة الجوامع فى السنن والآداب .

وثمة سبب آخر لهذا الجهد الذى قام به هؤلاء الثلاثة الأبرار وهو أن أهل الرأى كانوا يرفضون فى أكثر الأوقات الأخذ بالأحاديث الضعيفة فى حين يأخذ بها أهل الأثر ، فقد أخذ الإمام مالك بالمنقطع والمرسل والموقوف من

الأحاديث ، ولا يتجه إلى الرأى إلا إذا لم يجد أيا من الأحاديث بما فى ذلك هذه الأحاديث الضعيفة (٥) .

ولكن هل يمتنع جلة الفقهاء عن الإفتاء بالرأى لأن فريقا عارضهم ، واستقبح نهجهم ، ووجه إليهم اتهامات بالتحيف والانحراف ؟ . الحقيقة أن الأمر ليس كذلك ، فالإسلام دين عقل وفكر وتدبر ، وما دعا الإسلام إلى العلم والتعلم إلى المدى الذى جعلها فريضة على المسلمين إلا لكى يتدبر المسلم شئونه من دينية ودنيوية فى ظلال عقيدته ، ولكى يعمل فكره إذا لم يكن هناك نص من كتاب أو أثر من سنة .

لقد عرف المسلمون الرأى وعملوا به فى حياة الرسول ﷺ ، وفى عهد صحابته ، وفى عصر التابعين .

أما فى عصر الرسول فالأمثلة كثيرة ، وأشهرها خبر معاذ بن جبل حين بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن فسأله :

«كيف تَقْضِى إذا عُرِضَ لَكَ قضاءٌ ؟ قَالَ : أَقْضِى بِكِتَابِ اللهِ . قَالَ : فَإِنْ لَّمْ تَجِدْ فِىْ كِتَابِ اللهِ ؟ قَالَ : فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ قَالَ : فَإِن لَّمْ تَجِدْ فِىْ كِتَابِ اللهِ وَلاَ فِىْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ؟ قَالَ : أَجْتَهِدُ بِرَأْيِىْ وَلاَ آلُو . فَضَرَبَ رَسولُ اللهِ ﷺ صَدْرَهُ وَقَالَ : الْحَمْدُ للهِ الذى وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لما يُرْضِى رسولَ اللهِ » .

وفى عهد الفاروق عمر بن الخطاب تكرر ذلك أكثر من مرة ، ولعل رسالة عمر إلى عبد الله بن قيس أبى موسى الأشعرى مما يحضّ على الإفتاء بالرأى والقضاء عن طريقه بشكل لايدعو إلى التّردد ، ففيها يقول عمر لأبى موسى : الْفَهْمَ الْفَهْمَ فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق » .

وكان عبد الله بن مسعود يفتّى برأيه ، وابن مسعود هو خادم رسول الله

---

(٥) الإمام أبى حنيفة للشيخ أبى زهرة ص ١١٣ وأعلام الموقعين ٢/١ .

وصاحبه ومن أكثر الصحابة صلة به ومصاحبة له ، وكان عمر بن الخطاب يقول عنه إنه « وعاء ملىء علما » ، وكان دافعه إلى القول برأيه أنه يتحمل وزر الخطأ إن وقع ، ولا يتحمل خطأ الكذب على رسول الله ، وكان يقول : أقول هذا برأيى ، فإن كان صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان .

وعبد الله بن مسعود هو أستاذ فقهاء الكوفة ، فقد ولى بيت المال فيها ، وفيها تبلورت مدرسته الفقهية ، فلما جعل أمير المؤمنين على بن أبى طالب الكوفة حاضرة لخلافته تأصلت فيها جذور العلم ، فأصبحت دار فقه الإمام علىّ ، ودار فقه عبد الله بن مسعود .

وهنا يحسن أن نشير إلى حوار جرى بين الإمامين أبى حنيفة والأوزاعى فى مكة فى الموسم حول رفع اليدين فى الصلاة ، ونلاحظ فيه أن أبا حنيفة يستشهد بعبد الله بن مسعود ، وأن الأوزاعى يستشهد بسالم بن عبد الله بن عمر .

أما هذا الحوار الفقهى الممتع الذى جرى بين فقيه الرأى أبى حنيفة ، وفقيه الأثر أبى عمرو الأوزاعى فيتلخص فى أن الإمامين الجليلين اجتمعا فى دار الحناطين فى مكة ، فسأل الأوزاعى أبا حنيفة عن سبب عدم رفع يديه عند الركوع فى الصلاة وعند القيام منه ، فأجابه أبو حنيفة بأنه لم يصح عن النبى شىء منه ، فقال الأوزاعى : كيف وقد حدثنى الزهرى عن سالم (ابن عبد الله بن عمر) عن أبيه عن رسول الله ﷺ

أَنَّه كَانَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ إِذَا افْتَتَحَ الصَّلاَةَ وَعِنْدَ الرُّكُوعِ وَعِنْدَ الرَّفْعِ .

فقال أبو حنيفة : حدثنا حماد عن إبراهيم (النخعى) عن علقمة (النخعى) والأسود (بن يزيد النخعى) عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ

كَانَ لاَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ إِلاَّ عِنْدَ افْتِتَاحِ الصَّلاَةِ ولاَ يَعُودُ إِلى شَىْءٍ مِنْ ذَلِكَ .

وهنا يحدث الصدام بين الرأيين ، أو بعبارة أدق بين المدرستين ، يقول الأوزاعى لأبى حنيفة : أحدثك عن الزهرى عن سالم عن أبيه وتقول : حدثنى حماد عن إبراهيم ؟ فيقول أبو حنيفة : حماد أفقه من الزهرى ، وكان إبراهيم أفقه

من سالم ، ولولا فضل الصحبة لقلت علقمة أفقه من ابن عمر ، وعبد الله هو عبد الله .

ولقد سبق أن قلنا أن عمر – وهو والد عبد الله بن عمر – كان يقول حين يرى عبد الله بن مسعود : وعاء ملىء علما .

هكذا كان الفرق بين المدرستين ، وهما مدرستان شريفتان ، ويكفى أن رأس إحداهما هو عبد الله بن مسعود ، ورأس الأخرى هو عبد الله بن عمر ، وكلاهما ممن لايستطيع البصر أن يطيل النظر فى وجهه بل يخفضه إغضاء وحياء .

على أن جانب التعصب ينبغى أن يُنَحَّى جانبا فى هذا السياق ، فالهدف عند كل من المدرستين هو وجه الله والحقيقة ، وكان الإمام أبو حنيفة من رحابة الصدر ومرونة الفكر بحيث يعود اليوم عن رأى رآه بالأمس إذا ماتبين خطأ رأى الأمس بنص أو أثر . وكذلك كان أبو يوسف ، وهو تلميذ أبى حنيفة وراوية فقهه ومتمم مسيرته العلمية ، فإذا رأى رأيا رآه من قبل وتبين أنه يخالف السنة ، سارع بالرجوع عنه والأخذ بالرأى الذى يتفق مع السنة ، والشىء نفسه يقال عن محمد بن الحسن الصاحب الثانى لأبى حنيفة .

حتى إذا جاء الإمام الشافعى بعلمه وعقله وانفتاحه ربط بين الرأى والرواية فى حدود رسمها ، ومعايير حددها ،

– ٣ –

أصول المذهب الحنفى :

استمد أبو حنيفة أصول مذهبه من سبعة مصادر هى :

كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ وهما المعينان الأصيلان الثابتان ثم فتوى الصحابة ، والاجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والعرف .

أما الإمام مالك فكانت مصادر فقهه : الكتاب ، والسنة ، وقول

الصحابة ، والإجماع وعمل أهل المدينة ، والقياس ، والاستحسان ، والمصالح المرسلة . وقد توسع مالك فى الاستحسان توسعاً كبيراً ، وكان يقول : الاستحسان تسعة أعشار العلم .

أما الإمام الشافعى فكان يقول العلم طبقات : الأولى الكتاب والسنة ، والثانية الإجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سنة ، والثالثة أن يقول الصحابى فلا يعلم له مخالف ، والرابعة اختلاف الصحابة ، والخامسة القياس[6] . وسوف نتناول ذلك كله بالدراسة والمحيص والتفصيل في كتابينا عن كل من مالك والشافعي.

لقد رأينا أن نذكر هذه الأصول عند الأئمة الثلاثة بشكل متتابع حتى يكون التناول واضحا حين نتحدث عن كل مصدر من مصادر فقه أبى حنيفة بالنظر إلى مصادر الأئمة الآخرين . ولنعرض الآن للمصادر التى استمد منها أبو حنيفة أصول مذهبه .

الكتاب : وهو القرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله حاملا أصول الرسالة وأركان الملة وأحكام الشريعة ، وقد ضم الأصول والأركان جميعاً من توحيد وإيمان وتشريع وفرائض .

ولقد نسب إلى أبى حنيفة أنه يرى أن القرآن هو المعنى فقط[7] ، وهو بمعناه شامل للأحكام جامع للأركان ، واستدلوا على ذلك بأن قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة تجزىء أن تكفى . ولكن شيئا من ذلك لم يثبت قوله عن الإمام الأعظم ، وأن القرآن الكريم اسم للنظم والمعنى معاً . وقد قال الصاحبان أبو يوسف ومحمد بن الحسن أنه لا تقبل القراءة بغير العربية إلا فى حالة العجز عن العربية .

وعليه فإن الإمام أبا حنيفة بعمق إيمانه ووفرة علمه وشمول إحاطته لا يصدر عنه مثل هذا الرأى ، غير أن البعض يرى أنه ربما صدر عنه شىء من ذلك على

---

(٦) أعلام الموقعين ١٧٩/٣ .

(٧) السرخسى فى المبسوط ٢٧/١ .

سبيل الرخصة عند الجهل بالعربية أو سوء نطقها ، وبالتالى تفاديا لتشويه التلاوة القرآنية فى الصلاة ، ولكن أثرا واحداً عن أبى حنيفة فى هذا الصدد لم يصل إلى سمع أو بصر . ويكفى أن يستشهد للإمام الأعظم بأنه وهو الذى يجعل للإيمان ركنين هما التصديق بالقلب والإقرار باللسان ، لا يصدق عنه إلا أن يجعل كتاب الله ركنين : النظم والمعنى . غير أن أبا حنيفة ومدرسته يرون أن السنة مبينة للكتاب إن احتاج إلى بيان . وهم فى ذلك غير مغربين ولا مبتدعين ، فتلك حقيقة مقررة لخصها الإمام الشاطبى فى « الموافقات » بقوله لا ينبغى فى الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه دون النظر فى شرحه وبيانه وهو السنة ، لأنه إذا كان كلياً ، وفيه أمور كلية كما فى شأن الصلاة والزكاة والحج والصوم ونحوها ، فلا محيص عن النظر فى بيانه .

السنـــة : إنها الأصل الثانى الذى اعتمد عليه أبو حنيفة واعتمد عليه جميع الأئمة فى مصادر فقههم ، وهى مبيّنة للكتاب تابعة له ، وهى مفصلة للأمور الكلية التى وردت فى الكتاب العزيز ، ولقد مر حديث الشاطبى فى ضرورة الاعتماد على السنة فى الأمور الكلية كالعبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج . فليس فى الكتاب تفصيل لعدد الركعات فى الصلاة أو كيفية الركوع والسجود والنية والتسليم ، والشيء نفسه يقال فى بقية العبادات ، ومن ثم لم يكن بد من أن تكون السنة هى المصدر الثانى للشريعة ، وأنها مبينة لتفاصيلها مكملة لمفاهيمها .

ولقد مر بنا قبل قليل حديث رسول الله ﷺ حين أرسل معاذا إلى اليمن

وسأله بِمَ تَحْكُمُ ، فقال بِكِتَابِ اللهِ ، قَالَ فَإِن لَّمْ تَجِدْ ؟ قَالَ : فَبِسُنَّةِ رَسُوْلِ اللهِ إلى آخر الحديث الذى أوردناه كاملا فى مستهل هذا الفصل . وهذا عمر بن الخطاب يكتب إلى شريح القاضى : إذا أتاك أمر فاقض بكتاب الله ، فإن أتاك ما ليس فى كتاب الله فاقض بما سن رسول الله ﷺ .

ولمناسبة الحديث عن السنة الشريفة كمصدر ثان لفقه أبى حنيفة نذكر أن

كثرة من خصوم الإمام وحاسديه كانوا يزعمون أنه يقدم القياس على السنة ، وهذا وهم سخيف واتهام رخيص ، فإيمان أبى حنيفة وتقواه وحسن إسلامه ، وسجاياه الدينية جميعا ترد على هؤلاء الغلاة فى خصومتهم ، المتطرفين فى عداوتهم ، إن الإمام الجليل يرد على هؤلاء جميعا فيقول : « نحن لا نقيس إلا عند الضرورة الشديدة ، وذلك أننا ننظر فى دليل المسألة من الكتاب والسنة أو أقضية الصحابة ، فإن لم نجد دليلا قسنا مسكوتاً عنه على منطوق به »[8]

بل إن الإمام أبا حنيفة كان يقبل حديث الآحاد ويحتج بها فى الوقت الذى أحجم فيه بعض الفقهاء عن الاعتداد بها ، فإن وجد حديثا يخالفها عدل رأيه طبقا للحديث الصحيح والخبر الصادق ، وقد عبر عن ذلك عيسى بن أبان الفقيه الحنفى الكبير وتلميذ محمد بن الحسن بقوله : إن كان راوى خبر الآحاد عادلا فقيها وجب تقديم خبره على القياس .

وقد سبقت الإشارة إلى مناظرة أبى حنيفة والأوزاعى حول رفع اليدين فى الصلاة ورأينا أن أبا حنيفة يقدم رواية الأفقه – من وجهة نظره – على رواية من هو أقل فقها .

فتوى الصحابة : صحابة رسول الله ﷺ من الكثرة والبركة والعلم بمكان ، ولكنهم بغير شك يتفاوتون علما وإن لم يتفاوتوا فضلا ، ولقد مر بنا أن أبا حنيفة جعل فتوى الصحابة ثالث مصادره الفقهية ، فقال ردًّا على أبى جعفر المنصور وقد بلغه أنه يقدم القياس ما نصه وسبق ذكره : « ليس الأمر كما بلغك يا أمير المؤمنين ، إنما أعمل أولا بكتاب الله ، ثم بسنة رسول الله ﷺ ، ثم بأقضية أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم ، ثم بأقضية بقية الصحابة ، ثم أقيس بعد ذلك إذا اختلفوا ، وليس بين الله وبين خلقه قرابة » .

وهنا نلاحظ أن الصحابة عند أبى حنيفة من حيث وزنهم العلمى وقدرهم الفقهى فريقان : فريق متقدم متميز ، وفريق يأتى بعد ذلك ، فالفريق المتقدم

---

(٨) الميزان للشعرانى : ٥١ .

المتميز هم الراشدون ، الأربعة ، ولذلك كانوا أهلا للتقديم والتمييز فى الأخذ عنهم ، والفريق الأخير هم – فى رأينا – الذين عناهم أبو حنيفة بقوله : « آخذ بقول من شئت ، وأدع من شئت منهم ، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم » وأبو حنيفة فى ذلك منسجم مع عقله وتفكيره ، منطقى مع فهمه ومنهجه ، عالم بأنهم جميعا مستظلون بقول الرسول ﷺ :

« أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِم اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ » .

على أن أبا حنيفة لم يكن يخالف الصحابة إلا فيما للرأى فيه مجال ، فالأصل أن قول الصحابى حجة ، وهو مقدم على القياس ، وهذا هو رأى أبى حنيفة ، وبعبارة أوضح إنه يجب الأخذ برأى الصحابى حين لا يكون هناك مجال للرأى والاجتهاد ، لأن فتوى الصحابى حينئذ تكون عن سماع من رسول الله ﷺ ، وفيما عدا ذلك ، فلا مانع من الرأى والاجتهاد .

الإجماع : وهو الركن الرابع فى مصادر الفقه الحنفى ، وتعريف الإجماع هو « اتفاق المجتهدين من الأمة الإسلامية فى عصر على الحكم فى أمر من الأمور » .

والإجماع نوعان ، إجماع قولى ، وإجماع سكوتى . والإجماع القولى هو الإجماع على حكم من الأحكام قولا وإعلاناً ، وأما الإعلان السكوتى فله عدة صور مثال ذلك أن يذهب واحد من أهل الحل والعقد أو الاجتهاد فى عصر إلى حكم فى مسألة قبل استقرار المذاهب على تلك المسألة ، وينشر ذلك بين أهل عصره وتمضى مدة التأويل فيه ، ولم يظهر له مخالف .

وصورة أخرى للإجماع السكوتى فيما يتصل بالأفعال ، مثال ذلك أن يفعل واحد من أهل الإجماع فعلا ، ويعلم به أهل زمانه ، ولا ينكره عليه أحد وتمضى مدة التأويل والتفسير[٩] .

وصورة الإجماع السكوتى تذكرنا فى عصرنا الحاضر بالأحكام التى تصدرها المحاكم وتكون قابلة للاستئناف ، فإذا لم يستأنف صاحب المصلحة الحكم فى غضون المدة المحددة فى الإجراءات القضائية صار الحكم نهائيا .

(٩) أبو حنيفة للشيخ أبى زهرة : ص ٣٥٣ عن كتاب كشف الأسرار .

والإجماع ليس أمرا مستحدثا على الرغم من الصراع الفقهي الذى جرى حوله عند بعض الأئمة وبخاصة الشافعي ، فإن رسول الله ﷺ يقول :

« لاَ تَجْتَمِعُ أُمَّتِىْ عَلَى ضَلاَلَةٍ »

ويقول أيضاً فى المعنى نفسه :

« مَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَناً فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ » .

إن الأمر الذى يشك فى صحته هو أن الرسول ﷺ يقصد « بأمتى » الصالحين من أمتى الصادق الإيمان ، وهذا هو ما يأخذ به أبو حنيفة وأصحابه ، إذ أن لهم شروطا فى صحة الإجماع أو بالأحرى أهلية من ينعقد منهم الإجماع ، فلا يدخل فى الإجماع المنحرفون من أصحاب البدع والفسّاق ، ولا أهل الأهواء كالخوارج والروافض ، فإن فيهم من التعصب ما يهدد آراء الجماعة الإسلامية ، ومن ثم فإن الإجماع ينعقد بغيرهم مهما شذ هؤلاء من الخوارج والروافض والفساق ، والمفهوم لهذا الحكم مستمد من قوله تعالى :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »(١٠)

فأصحاب الأهواء والخوارج والفساق ليسوا ممن يندرجون تحت تعريف الأمة الإسلامية فى المعنى القرآنى .

القياس : عرّف العلماء القياس بقولهم : إنه بيان حكم أمر غير منصوص على حكمه بأمر معلوم حُكمُه بالكتاب أو السنة أو الإجماع لاشتراكه معه فى علة الحكم (١١) .

وكان الإمام أبو حنيفة يكثر من القياس بحكم البيئة التى يعيش فيها وتنوع مشكلاتها وتعقد قضاياها واتساع آفاق الحياة فى ربوعها ، ومن ثم كان يتوسع فى الاستنباط وينظر إلى المستقبل ، ويستجيب لقوله الذى قاله لقتادة حين نزل

---

(١٠) سورة آل عمران الاية ١١٠ .

(١١) أبو حنيفة لأبى زهرة : ص ٣٦٧ .

الكوفة وسأله أبو حنيفة عن المرأة التى غاب زوجها فظنت أنه مات فتزوجت غيره ؛ إننا نستعد للبلاء قبل نزوله .

على أن أبا حنيفة كان كثيرا ما يخرج عن القياس إلى الاستحسان ، وقيل فى ذلك إنه كان يقيس ما استقام له القياس ولم يقبح ، فإن قبح القياس استحسن ولاحظ تعامل الناس .

والقياس الذى عمد إليه أبو حنيفة كان فى خدمة مجتمع المسلمين والتيسير عليهم بهدف التوصل إلى الأحكام السليمة التى تتمشى مع روح الشرع ولا تجافيه . ولقد اتهم أبو حنيفة بأنه يقدم القياس على الحديث – وحاشاه أن يفعل – وقد ذكرنا قبل صفحات رسالة أبى جعفر المنصور إليه فى هذا الصدد ورده عليها ، وقد رد مرة أخرى على أولئك الذين يطعنون فى قياسه ويتهمونه بمخالفة السنة فقال : «كذب والله وافترى علينا من يقول إننا نقدم القياس على النص ، وهل يحتاج بعد النص إلى قياس ؟ » ويمضى الإمام الأعظم فى تبيين منهجه فى القياس وأسبابه فيقول : « نحن لا نقيس إلا عند الضرورة الشديدة ، وذلك أننا ننظر فى دليل المسألة من الكتاب والسنة وأقضية الصحابة ، فإن لم نجد دليلا ، قسنا حينئذ مسكوتاً عنه على منطوق به » .

ولقد اتسعت دائرة الاتهام تجاه الإمام الأعظم حتى وصلت إلى أسماع الإمام الجليل محمد الباقر ، فلما التقيا لأول مرة وكان ذلك بالمدينة المنورة قال له الباقر : أنت الذى حولت دين جدى وأحاديثه بالقياس ؟ فقال أبو حنيفة : معاذ الله ، فقال محمد : بل حولته . وهنا قال له أبوحنيفة : اجلس مكانك كما يحق لك حتى أجلس كما يحق لى ، فإن لك عندى حرمة كحرمة جدك ﷺ فى حياته على صحابه ، فجلس ، ثم جثا أبو حنيفة بين يديه ثم قال : إنى سائلك عن ثلاث كلمات فأجبنى : الرجل أضعف أم المرأة ؟ فقال محمد : المرأة . فقال أبوحنيفة : كم سهم للمرأة ؟ فقال الباقر : للرجل سهمان وللمرأة سهم ، فقال أبو حنيفة : هذا قول جدك ، ولو حولت دين جدك لكان ينبغى فى القياس أن يكون للرجل سهم ، وللمرأة سهمان لأن المرأة أضعف من الرجل . ثم قال : الصلاة أفضل أم

الصوم ؟ فقال محمد : الصلاة افضل ، قال : هذا قول جدك ، ولو حولت قول جدك لكان القياس أن المرأة إذا طهرت من الحيض أمرتها أن تقضى الصلاة ولا تقضى الصوم . ثم قال : البول أنجس أم النطفة ؟ قال البول أنجس . قال : فلو كنت حولت دين جدك بالقياس لكنت أمرت أن يغتسل من البول ويتوضأ من النطفة ، ولكن معاذ الله أن أحول دين جدك بالقياس . فقام الإمام محمد الباقر فعانقه وقبل وجهه وأكرمه .

فالقياس والأمر كذلك مرتبط بقواعد ، مشدود بأصول ، ولا يكون عشوائيا أو نمطيا ، وقد رأينا فى الحوار سالف الذكر ما يؤكد ذلك .

مثال ذلك أيضاً أن من أكل أو شرب ناسيا فى رمضان لا يكون مفطراً ، فلولا النص هنا ، وهو حديث شريف رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ لأخذ الموضوع بالقياس ، فهناك علة عامة للإفطار ، وهى من أكل أو شرب فى رمضان فقد أفطر ، ولكن النص منع القياس .

الاستحســـان : كان الإمام أبو حنيفة يأخذ بالاستحسان ويكثر منه وكان ذلك بدوره مدعاة لأن يطعن فيه خصومه وحساده ، مع أن الإمام مالكا – وهو معاصر له وإمام الأثر – كان يأخذ به ويتوسع فيه ويقول إنه تسعة أعشار العلم حسبما سلف القول .

وإذا كان الإجماع قد نبع من قول رسول الله ﷺ .

« لا تَجتَمِعُ أُمَّتِىْ عَلَى ضَلاَلَةٍ » .

فقد نبع الإستحسان من قول الله عز وجل :

« يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ولاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ »(١٢)

وقوله ﷺ :

« خيرُ دِينِكُمْ اليُسْرُ » .

---

(١٢) أبو حنيفة : ص ٣٩٢ .

وتعريف الاستحسان عند الأحناف هو : ترك القياس والأخذ بما هو أوفق للناس . وقيل : الاستحسان طلب السهولة فى الأحكام فيما يبتلى فيه الخاص والعام ، وقيل : الأخذ بالسعة وابتغاء الدعة .

ومن التعريفات الدقيقة للاستحسان ما قاله أبو الحسن الكرخي وهو : أن يعدل المجتهد عن أن يحكم فى المسألة بمثل ما حكم به فى نظائرها لوجه أقوى يقتضى العدول عن الأول .

والاستحسان بصورته هذه يتمشى مع نهج فقهاء الرأى وسبيلهم فى الاجتهاد فهو استنباط لعلل الأحكام من النصوص ثم تعميمها .

ومن أمثلة الاستحسان هذه القضية : إذا اختلف البائع والمشترى فى ثمن بضاعة قبل أن يقبض المشترى الشىء المبيع والبائع الثمن ، فإن القياس كان يوجب أن يحلف المشترى على الزيادة التى يدعيها البائع فى الثمن ، إذ هما قد اتفقا على مقدار ، وهو الذى يقر المشترى به ، واختلفا فى الزيادة فادعاها البائع وأنكرها المشترى . والقاعدة العامة أن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، فلا يمين على البائع لأنه المدعى ، وهذا هو القياس ولكن استحسن أن يحلف البائع كما يحلف المشترى لأن كليهما يدعى شيئا ينكره الآخر ، فالبائع يدعى الزيادة ، والمشترى يدعى استحقاق القبض ووجوب التسلم بالثمن الذى يقر به ، والبائع ينكر ذلك الاستحقاق ، فكان كلاهما مدعيا ومدعى عليه ، فيتحالفان إذا لم يكن ثمة إثبات لأحدهما ، وأما إذا كان الاختلاف بعد القبض فإنهما يتحالفان استحسانا ، ولكن لا لاستحسان القياس ، بل لورود الأثر وهو قوله ﷺ .

« إِذَا اخْتَلَفَ المُتَبَايِعَانِ وَالسِلْعَةُ قَائِمَةٌ تحَالَفَا وَتَرَادَّا » .

ومن أمثلة الاستحسان أيضا مسألة سؤر سباع الطير ، والسؤر هو بقيه الماء الذى يشرب منه . فإن سباع الطير تشبه سباع البهائم فى كون لحمها غير مأكول .

وكون لحمها نجسا ، وبما أن سؤر سباع البهائم نجس ، فينبغى أن يكون سؤر سباع الطير كالنسر والحدأة نجسا أيضا بموجب القياس ، ولكن الاستحسان يتجه لقياس آخر خفى ، وهو أن سؤر سباع البهائم نجس لوجود لعابها فيه ، واللعاب متصل باللحم فهو نجس بنجاسته ، أما سباع الطير فإنها تشرب بمناقيرها ، فلا تلقى لعابها فى الماء ، فلا يتنجس به فلا يكون السؤر نجسا ، وللاحتياط قالوا إنه مكروه الاستعمال .

فالاستحسان هنا إعمال للعلة الخفية لأنها أقوى أثرا فى المسألة موضع النزاع[١٣]

ومهما يكن الأمر فالقاعدة الشرعية عند الأحناف أنه لا يجوز العمل بالاستحسان مع جواز العمل بالقياس ، ، فالقياس يتقدم الاستحسان إلا حيث .ينبغى استعمال الاستحسان .

العــــرف : جرى فقهاء الحنفية على الأخذ بالقياس والاستحسان ما لم يكن هناك نص ، فإذا قبح القياس أخذ بالاستحسان ، فإذا كان الاستحسان لا يلبى طبيعة الوصول إلى الحكم السليم ، رجع الفقيه إلى ما يتعامل به المسلمون ، أو ما عليه تعامل الناس ، وتعامل الناس فى هذا الموضع هو نفسه العرف الجارى بينهم . والعرف والعادة فى تعريف بعض الفقهاء « هو ما استقر فى النفوس من جهة العقول ، وتلقته الطباع السليمة بالقبول » .

والعرف والعادة بمعنى واحد من حيث المقاصد وإن اختلفا من حيث المفهوم ، ولذلك فإن عادة الجماعة وعرفها بمعنى واحد فى نظر الفقهاء ، ومن ثم فقد جعل الفقهاء العرفَ من مصادر الاستنباط وأصلا من أصول الاستنتاج يُرجع إليه ما لم يوجد سواه من الأصول الأخرى التى سبق أن تناولناها .

ولقد رد الفقهاء الاحتكام إلى العرف وجعله أصلا من الأصول إلى مصادر شتى . فالصحابى الجليل عبد الله بن مسعود يقول عن العرف « ما رآه المسلمون

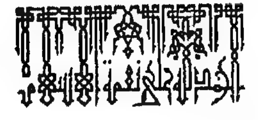
---

(١٣) ابو حنيفة : ص ٣٩٢

حسنا فهو عند الله حسن » وهناك من جعل هذا القول حديثا شريفا . ويقول السرخسى شارح « المبسوط » : الثابت بالعرف كالثابت بالنص .

والعرف مأخوذ به حيث لا يوجد دليل شرعي ، ومأخوذ به حيث لا كتاب ولا سنة ، وهو مرفوض غير مأخوذ به إذا تعارض مع الشرع وخالف أصول الدين كشرب الخمر والربا وما إلى ذلك من المحرمات الشائعة فى بعض المجتمعات ، وإذا كان العرف يختلف باختلاف الزمان دخل ذلك فى الحسبان وصار موضعا للاعتبار ، فالعرف فى زمن أبى حنيفة فى كثير من المسائل ، ليس بالضرورة هو العرف فى زماننا بالنسبة للمسألة ذاتها ، ومن ثم كان لابد من مراعاة العرف تبعا للزمان والمكان ، ومراعاة التخفيف والتيسير ورفع الضرر والفساد .

وغنى عن البيان أن من يتصدى للحكم بالعرف لابد له من أن يكون عالما بالكتاب والسنة من ناحية ، وعليما بأحوال الناس خبيرا بمجتمعهم من ناحية أخرى ، وذلك تلافيا للإفتاء بأمر أقره العرف وحرمه النص .

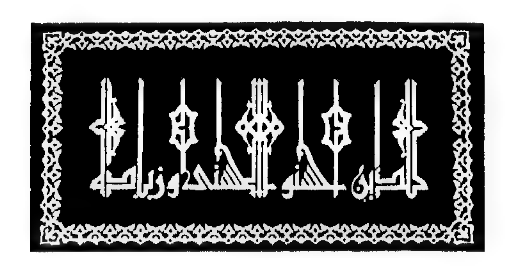


الفصـل التاسـع

مؤلفات أبي حنيفـة وفكره

* مؤلفات أبى حنيفة .
* مفهوم الإيمان عند أبى حنيفة .
* الحرية الشخصية وحق الملكية .
* الإصلاح الاجتماعى والثقافى فى فكر أبى حنيفة





الفصل التاسع

مؤلفات أبي حنيفة وفكره

— ١ —

مؤلفات أبى حنيفة :

يسود اعتقاد عند أكثر الذين كتبوا عن أبى حنيفة أن الإمام الأعظم لم يترك كتباً مؤلفة ، وإنما هى كتب ألفها تلامذته بإملائه ومراجعته ، ومن يؤمن بهذا الرأى ينبغى عليه أن يراجع فكره ويتدبر الأمر من جديد ، فمن النصوص التى تدعو إلى الاعتقاد بأن الإمام كتب وألف ما ذكره الموفق المكى من « أن أبا حنيفة أول من دون علم الشريعة ، لم يسبقه أحد من قبله ، ويمضى المكى فى قوله ذاكراً أن الصحابة والتابعين لم يفعلوا ذلك لأنهم كانوا يعتمدون على قوة فهمهم وجعلوا قلوبهم صناديق علمهم . . ونشأ أبو حنيفة بعدهم فرأى العلم منتشراً ، فخاف عليه الخلف السوء أن يضيعوه ، ولهذا قال ﷺ :

« إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ ، وَإِنَّمَا يَنْتَزِعُهُ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ فَيَبْقَى رُؤَسَاءُ جُهَّال ، فَيُفْتُونَ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ »

فلذلك دونه أبو حنيفة ، فجعله أبواباً مبوبة وكتباً مرتبة ، فبدأ بالطهارة ثم بالصلاة ثم بسائر العبادات على الولاء ، ثم بالمعاملات ، ثم بالمواريث[1]

وقارئ الخبر يرى أن المكى قد نص بما لايدع مجالاً للشبهة بأن الإمام أول من دون الشريعة ، وأنه جعل العلم أبواباً مبوبة وكتباً مرتبة ، ثم مضى فذكر منهج الإمام فى التدوين فقال : بدأ بالطهارة ثم الصلاة ثم بسائر العبادات ، ولم يكتف

---

(١) مناقب الإمام الأعظم للموفق المكى ١٣١/٢ .

الموفق المكى بذلك بل ذكر الحكمة من ترتيب أبى حنيفة لأبواب الفقه بابا إثر باب .

والتدوين كما يكون بالكتابة يكون بالإملاء وكذلك الحال فى ترتيب الكتب ، ومن ثم فإن صدق الخبر مع تغليب المنطق ينتهيان بنا إلى أن الإمام قد مارس التأليف بقلمه ودواته وخلف فقها مكتوباً على صفحات الكتب .

ولقد مر بنا فى معرض قول سابق أن سفيانا الثورى قد احتال حتى نسخ كتاب الرهن لأبى حنيفة ، حدث ذلك فى حياة الإمام لابعد وفاته ، والقرينة فى ذلك جد سهلة ، فقد هجر الثورى الكوفة سنة ١٤٤ هـ أى قبل وفاة الإمام الأعظم بست سنين واستقر بمكة والمدينة ثم هرب من المنصور العباسى وتوارى فى البصرة ولم يعد إلى الكوفة بعد هجرته .

ولقد ذكر ابن النديم لأبى حنيفة عدداً من المؤلفات ، وابن النديم من الدقة فى ذكر المؤلفات بحيث يعتبر ثقة إلى حد كبير فيما يرويه فى هذا السبيل ، وأما الكتب التى ذكرها ابن النديم لأبى حنيفة فهى الفقه الأكبر ، ورسالة العالم والمتعلم ، ورسالة إلى عثمان البتى ، وكتاب الرد على القدرية ، والعلم شرقاً وغرباً بعداً وقرباً .

ولقد قيل إن كتاب الفقه الأكبر يحتوى على ستين ألف مسألة . وهى ثروة فقهية لو لم تذهب بها الأقدار وتضيعها صروف المحن التى حلت ببغداد ومناطق كثيرة فى العالم الإسلامى لكانت مدداً نفيسا للمسلمين فى القضايا الفقهية والمسائل الدينية ، ورجحت كفة الشريعة الإسلامية عند بعض من لا يزالون مترددين فى الأخذ بها وتطبيق احكامها.

وليس غريباً أن يقوم أبو حنيفة بتدوين كثير من مسائله الفقهية بنفسه ، فقد روت الأخبار أن إبراهيم النخعى جمع فتاواه فى مجموعة ، وكذلك فعل تلميذه حماد بن أبى سليمان الذى هو فى الوقت نفسه شيخ أبى حنيفة .

فأبو حنيفة والأمر كذلك قد مارس التأليف بنفسه وخلّف كتباً كاملة التأليف

مثل كتاب الرهن والكتب الخمسة التي ذكرها ابن النديم وسلفت الإشارة إليها قبل قليل .

ولأبى حنيفة بالإضافة إلى ذلك مسند فى الحديث ، وهو نفس العنوان الذى اختاره كل من الإمام الشافعى والإمام أحمد لكتابيهما فى الحديث بعد حوالى نصف قرن من وفاة الإمام الأعظم ، وقد ذكر العلماء الذين رأوا مسند أبى حنيفة أنه مرتب على ترتيب أبواب الفقه . وبهذه المناسبة نذكر أن لكل من الصاحبين أبى يوسف ومحمد بن الحسن كتاباً يحمل اسم الآثار . وبين يدينا كل من الكتابين ، والكتاب الذى يحمل اسم أبى يوسف تفيد مقدمته أن يوسف بن أبى يوسف رواه عن أبيه ، وأن أباه رواه عن الإمام الأعظم ، ومن ثم فهو نفسه مسند الإمام الأعظم ، وسوف ننقل نماذج منه نلحقها بآخر هذا البحث المتعلق بأبى حنيفة إن شاء الله .

ويذهب ابن حجر العسقلانى إلى أن مسند أبى حنيفة هو ذلك الذى رواه محمد بن الحسن وأطلق عليه الاسم ذاته « الآثار » ونفى أن يكون « الآثار » الذى رواه أبو يوسف من جمع أبى حنيفة ، وهو رأى يحتاج إلى مزيد من التحقيق .

ولمسند أبى حنيفة إخراج آخر قام على جمعه أبو محمد الحارثى الحافظ الحنفى المحدث ورتبه على شيوخ أبى حنيفة ، ويذكر بعض الحفاظ أن مسند أبى حنيفة قد رواه الحسن بن زياد اللؤلؤى الكوفى تلميذ أبى حنيفة .

ليست هذه الكتب التي ذكرنا هي كل ما خلّف أبو حنيفة من مؤلفات، وإنما الحقيقة أن كثيراً من الكتب التى ألفها أصحابه وبخاصة الصاحبين أبا يوسف ومحمد بن الحسن ليست إلا كتباً للإمام ، أملاها عليهما وراجعها بنفسه واقر محتواها ، فهى وإن حملت اسم غيره فإن ذلك لايعنى أنها ليست كتبه مثل كتاب السير الصغير وكتاب السير الكبير اللذين يحملان اسم محمد بن الحسن ، ومثل كتاب المبسوط الذى ينسب أيضاً إلى محمد ويضم المسائل التى أفتى بها أبو حنيفة ، ومثل كتابى الآثار – أحدهما من تأليف أبى يوسف والآخر من تأليف محمد – وكلاهما من إملاء الإمام الأعظم .

فالإمام أبو حنيفة قد ألف عدداً من الكتب كتبها بنفسه ودبجها بقلمه ، وألف عدداً آخر عن طريق الإملاء على تلاميذه ، ثم قام بمراجعتها معهم حتى تخلو من الغلط وتبرأ من الخطأ ، وهذا هو ماأثبته واحد من كبار المتوفرين على دراسة الإمام الأعظم وأعنى به الموفق المكى حيث يقول فى هذا السبيل : كان أبو حنيفة يلقى مسألة مسألة ، يقلبها ويسمع ما عندهم – يعنى تلاميذه – ويقول ما عنده ، ويناظرهم حتى يستقر أحد الأقوال فيها ، ثم يثبتها أبو يوسف فى الأصول حتى أثبت الأصول كلها[٢] .

أما والحال كذلك فإن الإمام أبا حنيفة برغم انشغاله بالدراسة والدرس والتجارة والعبادة والمناظرة قد خلف للفقه الإسلامى وحديث رسول الله ﷺ هذه الثروة من الكتب التى يحمل بعضها اسمه ويحمل بعضها الآخر اسم بعض تلاميذه .

– ٢ –

مفهوم الإيمان عند أبى حنيفة :

لا خلاف فى أن للإيمان تعريفاً يعرفه العام والخاص وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإيمان مرحلة أسمى ودرجة أرفع ، فالله سبحانه يقول :

« قَالَتِ الأعرابُ آمنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولكنْ قولُوا أسْلَمْنَا ولمَّا يدخُلِ الإيمانُ فى قُلُوبِكُم »[٣] » .

يتناول الإمام أبو حنيفة قضية الإيمان حتى يوضحها لجمهرة المسلمين ، فلم يكن الإمام مجرد فقيه ، وإنما كان مفكراً عظيماً يغوص إلى أعماق القضايا

---

(٢) مناقب الامام الأعظم ١٣٣/٢ .

(٣) سورة الحجرات الاية ١٤ .

الإسلامية يعمل فيها عقله ويقدح زناد فكره ويكتب ويناقش ويناظر حتى ينقل مافى فكره إلى عقول الآخرين .

فى تعريف الدين يقول أبو حنيفة : الدين اسم واقع على الإيمان والإسلام والشرائع كلها . فإذا ما تكلم عن الإيمان قال : الإيمان هو الإقرار والتصديق أى الإقرار باللسان والتصديق بالقلب .

فإذا تكلم الإمام عن الإسلام عرفه أولا تعريفاً لغوياً فقال : الإسلام هو التسليم والانقياد لأوامر الله ، فإذا ما كان الأمر متعلقاً بالإسلام عقيدة لا لغة سارع إلى الربط بينه وبين الإيمان فقال مستدركاً : ولكن لا يكون إيمان بلا إسلام ولا يوجد إسلام بلا إيمان وهما كالظهر مع البطن(٤) ، وهو يعنى بذلك أن الإنسان لا يعيش بظهر دون بطن والعكس صحيح .

ويتوسع أبو حنيفة قليلاً فى شرح مفهوم الإيمان ومراتبه فيقول : الإيمان هو المعرفة والتصديق والإقرار بالإسلام .

وهذا الذى ذكره أبو حنيفة عن سبق المعرفة للتصديق أمر منطقى ، إذ كيف يحدث التصديق بغير معرفة أو كيف يصدق المرء على ما لا يعرف ، فمعرفة ما هو قابل للتصديق أمر لا يستقيم التصديق بغيره ، ولذلك فإن الإمام الأعظم قد أعطى التصديق مزيداً من العناية والإبانة فقال :

الناس فى التصديق على ثلاث منازل : فمنهم من صدق بالله وما جاء منه بقلبه ولسانه ، وصاحب هذه المنزلة عند الله وعند الناس مؤمن . ومنهم – وهو الفريق الثانى – من صدق بلسانه وهو يكذب بقلبه ، وصاحب هذه المنزلة عند الله كافر وعند الناس مؤمن . ومنهم – وهو الفريق الثالث – من يصدق بقلبه ويكذب بلسانه ، وهذا الفريق مؤمن عند الله كافر عند الناس ، وهذا النوع من الناس غالباً ما يظهر الكفر فى حال التقية .

والإيمان بمفهومه عند أبى حنيفة كلٌّ غير قابل للتجزئة فليس هناك إنسان

---

(٤) الفقه الأكبر : ص ١٠ ، ١١ .

نصف مؤمن أو ثلث مؤمن أو ربع مؤمن . وقد وضح رأى أبى حنيفة هذا فى حواره مع الخوارج عندما حاوروه فى مسجد الكوفة فى شأن رجل شرب الخمر فكظته فشرق فمات وامرأة زنت فلما أيقنت بالحمل قتلت نفسها .

قال أبو حنيفة للخوارج فى شأن الميتين : من أى الملل كانا ؟ وانتهى بهم إلى أن أخذ اعترافهم بأنهما - أى الرجل والمرأة الميتين - من الملة التى تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . فقال لهم : أخبرونى عن هذه الشهادة ، أهى من الإيمان ثلث أو ربع أو خمس ؟ قالوا : إن الإيمان لا يكون ثلثاً ولا ربعاً ولا خمساً . قال : فكم هى - يعنى الشهادة - من الإيمان ؟ قالوا : الإيمان كله .

فالإيمان عند أبى حنيفة كلٌّ لا يتجزأ ، بذلك قال ، وبذلك أقنع الخوارج على الرغم من غلوهم وتعصبهم لآرائهم فى شأن مقترفى الذنوب .

وتتضح قضية الإيمان بشكل أوسع فى ذلك الحوار الذى جرى بين أبى حنيفة وبين جهم بن صفوان ، وجهم هذا يمثل رأس جماعة ضالة نسبت إليه فعرفت بالجهمية ، وكانت تزعم أن الإيمان هو المعرفة وأن الكفر هو الجهل ، وأنه لا شىء خالد ، وأن الجنة والنار تفنيان ، وأن الخلود المذكور فى القرآن هو طول المكث ، وأفكار أخرى ضالة من هذا القبيل ، وقد قتل الجهم بن صفوان سنة ١٢٨ هـ لمناصرته شريح بن الحارث على نصر بن سيار فى أواخر عصر بنى مروان .

قصد جهم بن صفوان أبا حنيفة ، وبعد اشتداد من الإمام عليه ودفاع من جهم عن نفسه قال : يا أبا حنيفة لأسألك عن شىء إلا عن الإيمان . قال أبو حنيفة : أو لم تعرف الإيمان إلى الساعة حتى تسألنى عنه ؟ قال : بلى ، ولكن شككت فى نوع منه . قال : الشك فى الإيمان كفر . فقال جهم : لا يحل لك إلا أن تبين لى من أى وجه يلحقنى الكفر . قال : سل . فقال جهم : أخبرنى عمن عرف الله بقلبه وعرف أنه واحد لا شريك له ولا ند ، وعرفه بصفاته وأنه ليس كمثله شىء ، ثم مات قبل أن يتكلم بلسانه أمؤمناً مات أم كافراً ؟ قال

الإمام : كافر من أهل النار حتى يتكلم بلسانه مع ما عرفه بقلبه . قال : وكيف لا يكون مؤمناً وقد عرف الله بصفاته ؟ قال أبو حنيفة : إن كنت تؤمن بالقرآن وتجعله حجة كلمتك به ؟ وإن كنت تؤمن به ولا تجعله حجة كلمتك بما تكلم به من خالف ملة الإسلام . قال : أومن بالقرآن وأجعله حجة . قال أبو حنيفة : قد جعل الله تبارك وتعالى الإيمان فى كتابه بجارحتين : بالقلب وباللسان فقال تبارك وتعالى :

« وإذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلى الرسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ من الدمْعِ ممَّا عَرَفُوا مِن الحقِّ يَقُولُون ربَّنَا آمنَّا فاكْتبْنَا مع الشاهِدِين ، ومَا لَنَا لا نؤمنُ باللهِ ومَا جَاءَنَا من الحقِّ ونَطْمَعُ أنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مع القومِ الصالحين ، فَأَثَابَهُمُ اللهُ بما قالُوا جنَّاتٍ تجرِى من تحتِهَا الأنهارُخالدينَ فيهَا وذلك جَزَاءُ المحسنين »[5] .

ويمضى أبو حنيفة قائلاً ، فأوصلهم إلى الجنة بالمعرفة والقول وجعلهم مؤمنين بالجارحتين : بالقلب واللسان . وقال تعالى :

« قُولُوا آمنَّا بالله وما أُنزِلَ إلينَا وما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ ، ومَا أُوتِىَ موسى وعيسى ، وما أُوتِىَ النبيُّون مِن رَبِّهِمْ ، لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحنُ له مسلمون ، فإنْ آمنوا بمثْلِ ما آمنتم بهِ فقد اهْتَدَوْا »[6] . وقال تعالى « وأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى »[7] » وقالَ تعالى : « وَهُدُوا إلى الطيِّبِ من القولِ » وقال تعالى : « إليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ

---

(٥) المائدة الآيات ٨٣ – ٨٥ .

(٦) البقرة الآية ١٣٦ وبعض الآية ١٣٧ .

(٧) الفتح ٢٦ .

الطيبُ »[8] وقال تعالى : « يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمنوا بالقوْلِ الثابتِ فى الحياةِ الدنيَا وفى الآخرةِ »[9] .

وقال النبى ﷺ :

« قُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ تُفْلِحُواْ »

فلم يجعل الفلاح بالمعرفة دون القول . وقال النبى ﷺ

« يخرج مِنَ النَّارِ مَن قالَ لاَ إِلَه إِلاَّ اللهُ وَكَانَ فى قَلْبِهِ كَذَا »

ولم يقل يخرج من النار من عرف الله وكان فى قلبه كذا .

ويمضى أبو حنيفة فى حديثه عن الإيمان بالإقرار والتصديق موجهاً الكلام إلى جهم بن صفوان قائلاً : ولو كان القول لا يُحتاج إليه ويُكتفَى بالمعرفة لكان من رد الله بلسانه وأنكره بلسانه إذا عرفه مؤمنا ولكان إبليس مؤمناً لأنه عارف بربه ، يعرف أنه خالقه ومميته ، وباعثه ومغويه

« قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى »[10] وقال « أَنْظِرْنِى إلى يوم يُبْعَثُون »[11] وقال : « خَلَقْتَنِى من نارٍ وخَلَقْتَهُ من طِينٍ »[12]

ولكان الكفار مؤمنين بمعرفتهم ربهم إذا أنكروا بلسانهم . قال تعالى :

« وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أنفُسُهُم »[13]

فلم يجعلهم مع استيقانهم بأن الله واحد مؤمنين مع جحدهم بلسانهم . وقال جل وعز :

---

(8) فاطر ١٠ .

(9) إبراهيم ٢٧ .

(10) الحجر ٣٩ .

(11) لأعراف ١٤ .

(12) لأعراف ١٢ .

(13) النمل ١٤ .

« يَعْرِفُونَ نعمةَ اللهِ ثم يُنْكِرُونَها وأَكثرُهُمُ الكافِرُون »[١٤] وقال تعالى « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السماءِ والأرضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَمْعَ والأَبْصارَ ومَنْ يُخْرِجُ الحيَّ من الميتِ، ويُخرجُ الميتَ من الحيِّ ، ومن يُدبِّرُ الأمرَ فسَيَقولونَ اللهَ ، فقلْ أفلاَ تَتَّقُون ، فَذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ الحقُّ »[١٥]

فلم تنفعهم معرفتهم مع إنكارهم ، وقد قال تعالى :

« يَعْرِفُونَهُ كما يَعْرِفُونَ أبناءَهُم »[١٦]

فلم تفيدهم المعرفة مع كتمانهم أمره وجحودهم به.

هكذا يتدافع أبو حنيفة فى حججه كما يتدافع السيل ، الحجة تلو الحجة ، والآية تلو الآية ، فهو مستحضر كتاب الله فى عقله وقلبه وخاطره ، كل ذلك يحدث دون سابق استعداد ، فقد جاءه جهم بدون سابق إنذار. أما وقد سمع جهم ما سمع فلم يجد مخلصاً إلا بالفرار ، الفرار الحقيق لا المجازى . ذلك أنه قال للإمام : قد أوقعت فى خلدى شيئاً فسأرجع إليك[١٧] .

هذا ما كان من أمر الإيمان ومفهومه عند أبى حنيفة وهو يجيب أحد الذين يزعمون الإيمان ، أو بالأحرى يريدون أن يعرفوا ماهو الإيمان ، ولو كان السائل فرداً من عامة الناس لكانت إجابة الإمام أقرب إلى الإيجاز ، ولكنه عمد إلى التفصيل وإلى الاستشهاد بالآيات القرآنية المتتابعة التى زعم جهم أنه يؤمن بها فأوسع المجال للإمام ليصول ويجول ، فإذا ماعمد الإمام إلى الإيجاز قال : لا نكفر مسلماً بذنب ولو كان كبيرة ، إذا لم يستحلها – أى يجعلها حلالاً – ولا نزيل عنه اسم الإيمان .

---

(١٤) النحل ٨٣ .

(١٥) يونس ٣١ .

(١٦) البقرة ١٤٦ .

(١٧) مناقب الإمام الأعظم ١/١٤٥ وما بعدها .

— ٣ —

الحرية الشخصية وحرية الملكية :

يصدر أبو حنيفة فى فكره عن أدب القرآن وشريعة الإسلام ، والإسلام كرم بنى آدم ، والله سبحانه جعله خليفة فى الأرض ، ويسر له سبل الحياة الكريمة ، ووهبه الحرية والعقل ودعاه إلى الاستزادة من العلم ، ومن ثم كانت الإرادة الذاتية للإنسان مكفولة ، وحريته مضمونة ، وملكيته مقدسة ، والعدوان عليها بادرة ظلم يرفضها الإسلام ويدينها القرآن .

المهم أن يكون المرء كامل العقل ، فما دام المرء عاقلا بات من حقه أن يدير شئونه دون تدخل من ولى أو حاكم ، اللهم إلا إذا صدر عنه مايخل بالنظام العام أو انتهاك لحرمة دينية أو افتئات على قيمة شرعية .

وعلى هذا الأساس قد أباح الإسلام للإنسان العاقل حرية الاقتناء والتملك وحرية التصرف فيما يملك ، وذهب أبو حنيفة فى ذلك مذهبا بعيدا بحيث منع كل ما من شأنه أن يوقع الضرر المادى بالإنسان ، وهو من أجل تحقيق هذه الغاية يرفع شعاراً فحواه أن كل مالك حر فيما ملك ، وتبعا لذلك فليس لأحد منعه من التصرف في ملكه حتى وإن تضرر من ذلك غيره، إلا إذا كان لهذا الغير حق عيني، كأن كأن يكون صاحب حق طابق أعلى والمالك فى الأسفل .

ويذهب أبو حنيفة فيما يتعلق بحق الملكية شوطا بعيدا فهو يجعل للمالك الحق فى أن يفعل بعقاره مايشاء كأن يفتح النوافذ دون قيد أو شرط ، أو يحفر بئرا أو بالوعة ، بل إنه لايجعل الضرر من البئر أو البالوعة سببا فى أن يتدخل جاره فى شأنه ، ذلك أن منع صاحب العقار من الانتفاع به – وقد تكون البئر نفعا – يفقده حرية التصرف ، وإيقاف حرية التصرف تدخل فى مفهوم الملكية

إن أبا حنيفة يمنع القضاء من التدخل فى مثل هذه الحالة مادام التصرف فى دائرة الملكية .

لعلنا نرى غلوًّا فى هذا الحق الذى منحه أبو حنيفة لصاحب الملك ، وإذا تدبرنا الأمر قليلا لوجدنا أبا حنيفة بحكم تجاربه العميقة فى الحياة قد رأى بعض ذوى الأهواء يحقدون على أصحاب الأملاك، ولو خلى بينهم وبينها لاغتصبوها، وهو ما تفعله اليوم بعض المذاهب المعاصرة في البلاد الاشتراكية. لقد وجد شيء قريب من ذلك فى أيام أبى حنيفة ، ولما كان الإسلام قد وضع الملكية الفردية موضعا قريبا من أن يكون مقدسا ، فقد عمد أبو حنيفة فى فقهه إلى التشدد فى صيانة الملكية استجابة للمعنى الإسلامى وحفاظا على الكرامة الإنسانية .

ولكنه بعد ذلك يدخل المفهوم الدينى حكَماً فى حالة الضرر الذى يقع على الجار ، وقد حرص الإسلام أول ماحرص على دفع الأذى عن الناس ، والوصاية خيرا بالجار ، ومن ثم كان الوازع الدينى هو الفيصل فى هذا الموقف .

بل إنه فى نطاق حرية الملكية الشخصية تصدى أبو حنيفة للوقف وجعله يأخذ حكم الإعارة ويمكن للواقف الرجوع عنه ، وأبو حنيفة فى ذلك غير مبتدع إذ أن المقرر فقهيا حيال الملكية ما يلى :

أولا : أن الملكية تقتضى حرية التصرف بالبيع والهبة والرهن وتنويع الاستغلال ، فكل تصرف يمنع الحرية باطل إذا لم يرد به نص شرعى صريح لأنه يفصل اللازم عن الملزوم .

ثانيا : أن الشيء إذا وقع فى ملك أحد لا يخرج من ملكه إلى غير مالك .

وفى الوقف – وهو يمنع التصرف فى الملكية – مناقضة للمبدأين السالفي الذكر (١٨) .

فإذا مانظرنا لبعض أحكام الفقه الحنفى حيال المرأة وجدناه يحرص على الحفاظ على شخصيتها حفاظه على شخصية الرجل ولكن من خلال القيم الأساسية التى تصونها عن الابتذال .

---

(١٨) أبو حنيفة للشيخ أبى زهرة : ٤٦٦ .

فلقد انفرد الفقه الحنفى بأن جعل للمرأة البالغة العاقلة تمام الولاية على نفسها فيثبت لها من الحقوق المالية ما يثبت للرجل ، ويمنحها إرادة مستقلة تتصرف من خلالها التصرفات التى يقرها الشارع ، ولها الحق فى مباشرة نشاط تجارى أو استثمار مالى .

ورأى أبو حنيفة أن تتولى المرأة البالغة العاقلة زواجها بنفسها وليس لأحد عليها من سبيل لكنه اشترط أن يكون الزوج كفئا والمهر مهر المثل ، ولكنه يستحسن أن يتولى وليها عنها العقد .

ولقد اعتمد أبو حنيفة فى إعطاء المرأة الثيّب حرية الزواج على قول رسول الله ﷺ .

« لَيْسَ لِلْوَلِىِّ مَعَ الثَّيِّبِ أَمْرٌ » وقوله أيضا « الأَيِّمُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا » .

ولكن الفقه الحنفى قد أعطى للأولياء حق الاعتراض وفسخ عقد الزواج إذا كان زواج المرأة بغير كفء لها .

على أن المعمول به فى زواج النساء فى الإسلام ينبثق من الحديث الشريف .

« لاَنِكَاحَ إلاَّ بِوَلِىٍّ وَشَاهِدَىْ عَدْلٍ » وقوله ﷺ « أَيُّمَا امْرَأَةٍ زَوَّجَتْ نَفْسَهَا بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّها فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ بَاطِلٌ بَاطِلٌ ، وَإن دَخَلَ بِهاَ فَالمَهْرُ لَهَا بِماَ أَصَابَ مِنْهاَ ، فَإِن اشْتَجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِىُّ مَنْ لاَ وَلِىَّ لَهُ » :

هكذا تناول الفقه الحنفى الحرية الشخصية وبخاصة فى الملكية ثم جعلها تمتد لتشمل المرأة فى كثير من شئونها ، ولاشك أنه فضّل للمرأة أن تتزوج بولى وجعل ذلك أفضل من الإباحة بأن تفعل بغير ولى ولكن على سبيل الكراهة .

— ٤ —

الإصلاح الاجتماعى والثقافى فى فكر أبى حنيفة :

الإمامة ليست دراسة وعلما وفقها وحسب وإنما هى أكثر من ذلك شمولا وأوسع احتواء ، إن الإمام ينظم حياة الناس ، ويضع لهم دستور السلوك الذى يحتذونه فى حياتهم الخاصة والعامة وفى علاقاتهم بعضهم ببعض ، الناس كل الناس ، من حكام ومحكومين ، وعلماء وعامة ، ورجال ونساء ، وكبار وصغار .

لقد فعل أبو حنيفة ذلك كله فربط بين الفضائل الدينية والحياة اليومية ، وطبق ذلك على نفسه وعلى صحابه وتلاميذه وعلى مخالطيه جميعاً ، ابتداء من الخلفاء والولاة إلى أصغر الناس من حوله . ولم يكتف أبو حنيفة بذلك ، بل سجل أفكاره الإصلاحية فى عدد من الوصايا مثل وصيته لتلميذه يوسف بن خالد السمتى حين أرسله إلى أهل البصرة – وهم قومه – ليعلمهم الفقه الكوفى ، أو بالأحرى فقه الإمام أبى حنيفة ، ومثل وصيته أو وصاياه إلى تلميذه أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم التى سوف نورد أكثر نصوصها عند حديثنا عنه إن شاء الله . غير أننا سوف نجعل مصدر فكر أبى حنيفة الاجتماعى منبثقا عن هذه الوصية ، وليس من شك فى أن الفصول الماضية قد حوت بين ثناياها الكثير من الفلسفة الاجتماعية والثقافية والتربوية لأبى حنيفة .

وسوف نحاول دراسة الاتجاه الإصلاحى عند أبى حنيفة من خلال عدد من الموضوعات نتناولها على النحو التالى :

أولا : صلة العلماء بالسلاطين والحكام :

أثبتت مسيرة التاريخ منذ أن عرف العالم السلاطين والعلماء أن الصلة بينهما أمر لامناص منه أو بالأحرى لامفر منه ، فالحاكم يريد أن يرتبط بالعالم والفقيه حتى يقال عنه إنه يحب العلم ويكرم العلماء ، وحتى يستعين بالعلماء فى تبرير بعض أفعاله غير الشرعية واستصدار الفتاوى منهم فيما يساعد على تحليل فساده ، هذا إذا كان

الحاكم فاسدا مستبدا ، والعالم يريد بعلمه أن ينير للحاكم السبيل السوى فى الحكم ، والنهج السليم فى إشاعة العدل ، وإنصاف الرعية ، والبعد عن الحيف ، والتخلى عن الاستبداد . فإذا كان الحاكم فاسدا مستبدا ، والعلماء مستسلمين مطيعين ، فسد الحكم وشاع الظلم وتهدم المجتمع ، وإذا كان الحاكم فاسدا مستبدا ، والعلماء متمسكين بعلمهم حافظين لمروءتهم ، حدث الصدام وانتهى بانتصار العلماء ، وبالتالى رجوع الحق إلى نصابه ، وإشاعة العدل بين الناس . وإذا كان الحاكم عادلا مستنيرا ، والعلماء متمسكين بخلق العلم والدين ، سعد المجتمع ، وشاع الإصلاح ، وذاعت العدالة ، وأصبح الناس يعيشون وكأنهم تحت حكم الراشدين أو فى خلافة عمر بن عبد العزيز .

لقد أدرك أبو حنيفة خطورة هذه الصلة التى تكون بين الحكام والعلماء سواء من الناحية الإيجابية أم من الناحية السلبية ، وربما كان أبو حنيفة نفسه قد استشهد نتيجة لمبادئه تلك التى هذب بها العلاقة بين الحكام والعلماء فيما لو صح الخبر الذى يتردد فى بعض المصادر التاريخية من أن المنصور العباسى دس له السم فى الطعام .

إن للسلطان – كل سلطان – مكانته ومقامه ، ومن ثم فهو جدير بأن يعامل من قبل الناس بعامة والعلماء بخاصة – لشيوع قربهم منه – معاملة التوقير والتعظيم ، ولكن فى نطاق من التماسك وعدم التهافت أو التقرب غير المهذب أو النفاق . ولذلك فإن أبا حنيفة يحدد علاقة العلماء بالسلطان من خلال وصيته لأبى يوسف على النحو التالى :

* « وقر السلطان وعظم منزلته ، وإياك والكذب بين يديه ، ولاتدخل عليه فى كل وقت وفى كل حال ، مالم يدعك لحاجة علمية ، فإنك إن أكثرت الاختلاف إليه تهاون واستخف بك وصغرت منزلتك عنده » ويعمد أبو حنيفة هنا إلى ضرب المثل الدقيق فى الكيفية التى ينبغى أن تتحدد فيها علاقة العلماء بالسلاطين بعداً وقربا وذلك بقوله : « فكن منه كما أنت من النار ، تنتفع بها وتتباعد عنها ، ولا تدن منها فإنك تحترق وتتأذى » .

* يحذر أبو حنيفة العلماء من تولى المناصب إلا بشروط حددها ، تصان من خلالها كرامة العالم وتحفظ بسببها مصالح الناس ، وذلك بقوله لأبى يوسف : « إذا ولاك السلطان عملا مما يصلح لك فلا تقبل ذلك منه إلا بعد أن تعلم أنك لو لم تقبل لقبله غيرك ويتضرر به الناس ، وبعد أن تعلم أنه إنما يوليك ذلك لعلمك » .

هذه واحدة ، وأما الثانية فهى قوله « وإذا عرض – السلطان – عليك شيئا من أعماله فلا تقبل منه إلا بعد أن تعلم أنه يرضاك ويرضى مذهبك كى لاتحتاج إلى ارتكاب مذهب غيرك فى الحكومات » أى فى طريقة إصدار الأحكام .

* يوضح أبو حنيفة السبيل الذى به يقوّم العالم سلوك السلطان الفاسد ويرسم الطريق فى تؤدة وأناة بقوله فى الوصية « وإذا رأيت من سلطانك مالا يوافق العلم فاذكر ذلك مع طاعتك إياه ، فإن يده أقوى من يدك . تقول له أنا مطيع لك فى الذى أنت مسلطن فيه علىّ ، غير أنى أذكر من سيرتك مالا يوافق العلم ، فإذا فعلت ذلك مع السلطان مرة كفاك . . . . فإذا فعل ذلك مرة أخرى فادخل عليه وحدك فى داره ، وانصحه فى الدين ، وناظره إن كان مبتدعا ، وإن كان سلطانا فاذكر له مايحضرك من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ .

* ويحذر أبو حنيفة العلماء من علاقتهم بالسلطان تحذيرا صالحا لكل زمان وبخاصة زماننا هذا فيقول : « لاتظهر من نفسك التقرب إلى السلاطين وإن قربوك ، فإنهم يرفعون إليك الحوائج ، فإن قمت بها أهانوك ، وإن لم تقم بها عابوك » .

وترجمة هذه النصيحة بلغة عصرنا أن الحاكم يطلب من العلماء تبرير أمور غير قابلة للتبرير ، وتحسين انحرافات غير قابلة للتحسين ، والإفتاء فى قضايا بغير مايتمشى مع روح العدل وصلب الدين ، فإن استجاب العلماء لذلك احتقرهم الحكام على الرغم من الرضى الذى يظهرونه وربما أمروا بمكافآت تصرف لهم .

وإن لم يستجب العلماء لمطالب الحاكم عابهم الحاكم وهاجمهم وحاول النيل منهم ، ومن ثم فالابتعاد عن السلطان خير ، وترك مصاحبته صواب .

ثانيا : العلم والحرص على طلبه :

من الأمور المنطقية أن يكون العلم محل عناية عظمى من لدن الإمام الأعظم ، فهو عالم ومعلم ، وعلى شيوع العلم مناط صلاح البشرية وسعادتها ، ولقد وضح الكثير من تعليمات أبى حنيفة فى ذلك عند الحديث عن حلقته العلمية ، ولكن يحسن أن نشير هنا إلى بعض العناصر التى يراها أبو حنيفة جديرة بالاهتمام .

* أنه يجعل العلم أهم من العمل على كسب القوت ، بمعنى أن يبدأ المرء بالدراسة أولا ويكتفى بالقليل الذى يقيم أوده ، والعلم بعد ذلك جدير بأن يهيء للمرء أسباب الحياة الطيبة ، وهو لذلك يقول فى وصيته « إن بقيت عشر سنين بلا كسب ولاقوت فلا تعرض عن العلم ، فإنك إذا أعرضت عنه كانت معيشتك ضنكا على ماقاله تعالى :

« وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى ، فإنَّ له مَعِيْشَةً ضَنْكاً » .

والعلم ذكر ، والذكر عبادة ، فجميع النصوص تقر بأن مجالس العلم مجالس عبادة .

* ويقدم أبو حنيفة طلب العلم على الزواج ، فإن السعى فى طلب المال استعدادا للزواج يحول بين المرء وطلب العلم ، ومن ثم كان طلب العلم أحق بالسبق ، وفى ذلك يقول أبو حنيفة « ولاتتزوج إلا بعد أن تعلم أنك قادر على القيام بجميع حوائجها – يعنى حوائج الزوجة – واطلب العلم أولا ، ثم اجمع المال من الحلال ، ثم تزوج ، فإنك إذا اشتغلت بطلب المال فى وقت التعلم عجزت عن طلب العلم .

* فإذا ماصار المرء عالما له تلاميذ يجلسون إليه وحلقة يجلس على رأسها لزمته

أمور وأصبحت عليه واجبات هى طريقة تعامله مع تلاميذه ، وطريقة تعامله مع العامة .

فأما تلامذته فعليه أن يحيطهم بالحب ، ويشملهم بالرعاية ، ويجعل من كل منهم ابنا . يقول أبو حنيفة « وأقبل على متفقهتك فإنك اتخذت من كل واحد منهم ابنا وولدا لتزيدهم رغبة فى العلم » وأما بالنسبة للعامة والسوقة فإن أبا حنيفة يقول : « ومن ناقشك من العامة والسوقة فلا تناقشه فإنه يذهب ماء وجهك ». ويضيف الإمام قائلا : « ولاتحتشم أحدا عند ذكر الحق وإن كان سلطانا».

* ويبين الإمام أبوحنيفة طريقة التعامل مع العلماء ، وبخاصة إذا كان المرء وافدا عليهم فى بلدهم فيقول : « وإذا دخلت بلدة فيها أهل العلم فلا تتخذها لنفسك ، بل كن واحداً من أهلها ليعلموا أنك لاتقصد جاههم ، وإلا خرجوا عليك بأجمعهم وطعنوا فى مذهبك » .

* ويوصى أبو حنيفة العلماء بذكر أساتذتهم الذين انتقلوا إلى رحمة الله والاستغفار لهم ، وقد مربنا أن أبا حنيفة كان يستغفر لأستاذه حماد مع والديه بعد كل صلاة ، ولذلك يقول الإمام موصيا : « واذكر الموت ، واستغفر لأساتذتك ومن أخذت عنهم العلم . وداوم على تلاوة القرآن ، وأكثر من زيارة القبور والمشايخ والأماكن المباركة »

ويحذر أبو حنيفة العلماء من مناظرة من يجهل آدابها ومن الكلام مع المجانين قائلا : « وإياك أن تكلم المجانين ومن لايعرف المناظرة والحجة من أهل العلم والذين يطلبون الجاه ويتسوقون بذكر المسائل فيما بين الناس ، فإنهم يقصدون تخجيلك ولايبالون منك وإن عرفوك على حق » .

ثالثا : القضايا العامة :-

التعامل مع الحكام والسلاطين . وسلوك العلماء هما أهم عنصرين اهتم بهما أبو حنيفة فى وصيته لأبى يوسف . ولكن هناك عدداً من القضايا أثارها الإمام ونبه إليها . ورسم الطريق السوى للتعامل من خلالها . وأهمها مايلى :

* طريقة التعامل مع العامة وعدم الحديث معهم فى أصول الدين وتجنب الجلوس على قارعة الطريق أو الحوانيت أو الأكل فى الأسواق والمساجد .

* تجنب الإكثار من الخروج إلى الأسواق والمشى مع العامة فى قارعة الطريق ، فإذا ماقدّمهم العالم أزرى ذلك بعلمه ، وإذا أخّرهم عيب ذلك عليه لأنه أخر من هم أسن منه . وبذلك يخالف الحديث الشريف :

« مَن لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيْرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيْرَنَا فَلَيْسَ مِنَا » .

* تجنب كثرة الضحك لأنه يميت القلب ، والإقلال من محادثة النساء ومجالستهن ، وألا يجيب المرء من دعاه من الخلف فإن البهائم تنادى من خلف .

* التأنى والتبصر قبل الزواج كأن لايتزوج المرء من كان لها بعل أو أب أو أم أو بنت إلا بشرط ألا يدخل عليها أحد من أقاربها ، وبخاصة إذا كانت ذات مال ، فإن أباها يدعى أن جميع مالها له .

ومن ذلك ألا يزف المرء أو يسكن فى بيت أهل الزوجة حتى لايكون محلا للطمع من قبلهم .

ومن ذلك ألا يتزوج ذات البنين والبنات لأنها تدخر جميع المال لهم ، فإن الولد أعز لديها من الزوج .

* تجنب البخل والطمع والكذب ، والحرص على لبس الثياب البيض ما أمكن ذلك والظهور بالمظهر اللائق وعدم إظهار الفقر ولو كان العالم فقيرا .

* ذكر الله وتقواه وشكره والإكثار من التعبد صلاة وصياما ، وفى ذلك يقول أبو حنيفة « وأكثر ذكر الله تعالى فيما بين الناس ليتعلموا ذلك منك ، واتخذ لنفسك وردا خلف الصلوات تقرأ فيه القرآن ، وتذكر الله تعالى وتشكره على ما أودعك من الصبر ، وما أولاك من النعم ، واتخذ لنفسك أياما معدودة من كل شهر تصوم فيها ليقتدى غيرك بك فى ذلك ، ولاترض لنفسك من العبادات بما ترضى به العامة » .

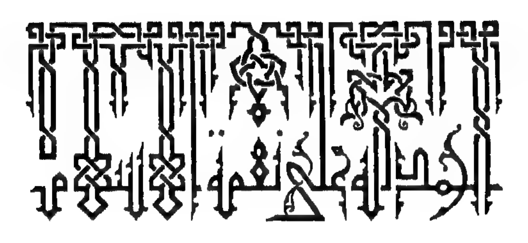
الفصل العاشر

تلاميذ أبي حنيفة

* أبو يوسف
نشأته وصفاته
أبو حنيفة يوصى أبا يوسف
أبو يوسف يحكم ضد الخليفة
طرائف من فتاوى أبى يوسف
كتب أبى يوسف

* محمد بن الحسن الشيبانى
نشأته
ثروة خلقية وعلمية
كتب محمد بن الحسن

* * *



الفصل العاشر

تلاميذ أبي حنيفة

كانت حلقة أبي حنيفة مجمعاً علمياً حقيقياً بلغة عصرنا هذا الذى نعيش فيه ، أستاذ جليل القدر ، رفيع الشأن ، وافر العلم ، سمح الخلائق . يجلس ومن حوله تلاميذه الذين هيأ لهم كل أسباب الدراسة الجادة والعيش المريح من مال وكساء ، وحرية فى الحوار ، وشورى فى البحث ، وتمحيص للمسائل ، واستقصاء للقضايا . كان مذهب الإمام فى حلقته شورى بينهم . لم يستبدّ فيه بنفسه دونهم اجتهادا منه فى الدين ، ومبالغة فى النصيحة لله ورسوله والمؤمنين ، فكان يلقى مسألة مسألة ، يقلبها ويسمع ما عندهم ، ويناظرهم حتى يستقر أحد الأقوال فيها ، ثم يثبتها أبو يوسف فى الأصول حتى أثبت الأصول كلها »[1]

تلك كانت حلقة أبي حنيفة ، وهى حلقة فريدة ، ومن ثم كانت خليقة بأن تخرج الأعلام من الفقهاء ، والثقاة من العلماء ، والنابهين من القضاة .

وتلامذة أبي حنيفة قسمان : قسم ملازم له دائم التلقى عنه ، وقسم آخر يسمع القدر الذى يروقه من العلم ، ثم يقفل عائدا إلى بلده . وقد قيل فى صحاب أبي حنيفة وتلاميذه إن عدد الملازمين له بلغوا ستة وثلاثين منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، وستة يصلحون للفتوى ، واثنان يصلحان لتأديب القضاة وأرباب الفتوى وهما أبو يوسف وزفر ، ومعنى ذلك أن ثمانية من صحاب أبي حنيفة وتلاميذه يصلحون للفتوى ، وهو عدد إن دل على شيء فإنما يدل على أن حلقة أبي حنيفة كانت من أكثر حلقات العلم فى الإسلام غنى وثراء بحيث تخرج ثمانية يصلحون للفتوى.

---

(١) مناقب الإمام الأعظم ١٣٣/٢ .

أما حماد بن أبي حنيفة فيقول : كان أصحاب أبي عشرة : أبو يوسف ، وزفر ، وأسد بن عمر ، والبجلي ، وعافية الأودي ، وداوود الطائي ، والقاسم بن معن المسعودي ، وعلي بن مسهر ، ويحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، وحبان ومندل ابنا علي العنزي . ويضيف حماد قوله : ولم يكن فيهم مثل أبي يوسف وزفر[٢] .

وقد سأل المزني - صاحب الشافعي - رجل من فقهاء العراق قائلاً : ما تقول في أبي حنيفة ؟ قال : سيدهم ، قال : فأبو يوسف ؟ قال : أتبعهم للحديث . قال : فمحمد بن الحسن ؟ قال : أكثرهم تفريعا . قال : فزفر ؟ قال : أحدّهم قياساً .

وليس من شك في أن أنبه تلاميذ أبي حنيفة وأشهرهم هم أبو يوسف ، ومحمد بن الحسن ، وزفر وسوف نحاول التعريف بكل منهم تعريفاً موجزاً .



(٢) تاريخ بغداد ٢٤٦/١٤ .

أبو يوسف

– ١ –

نشأته وصفاته :

إنه يعقوب بن إبراهيم أشهر تلامذة أبى حنيفة ، رفع العلم قدره وأعلى الفقه شأنه من تلميذ فقير بدأ حياته قصارا فتعهده أستاذه حتى وصل إلى وظيفة قاضى قضاة الرشيد وهى بمنزلة وزير العدل فى زماننا ، وهو أول من سمى بقاضى القضاة فى الإسلام ، وكان مكاناً للتكريم والإجلال عند الرشيد ، كما ولى القضاء لاثنين من قبله هما أخوه الهادى ووالده المهدى .

وأبو يوسف كان فى أول أمره تلميذا لابن أبى ليلى ، ولكن يبدو أن أستاذه هذا لم يكن من السماحة والبر بحيث استطاع أن يؤلف قلبه ، بل ربما كان على العكس من ذلك ، وكان أبو يوسف شديد الإقبال على العلم ، وافر الذكاء ، عظيم الفطنة ، وما أن اختلف إلى حلقة أبى حنيفة حتى شمله بالرعاية واتخذ منه ابناً وتلميذاً ، وجعله مقدم حلقته حتى أصبح كاتب الحلقة وأمين مسائلها .

وكان كل من أبى يوسف وزفر فارسى حلقة أبى حنيفة على كثرة ماضمت من تلامذة نابهين ، وكانا كثيرى الجدل بعضهما مع بعض فى الحلقة وفى حضرة الأستاذ الإمام . يروى حماد بن أبى حنيفة أنه رأى أباه يوماً وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر وهما يتجادلان فى مسألة ، فلا يقول أبو يوسف قولاً إلا أفسده زفر ، ولا يقول زفر قولاً إلا أفسده أبو يوسف إلى وقت الظهر ، فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده فضرب بها على فخذ زفر وقال : لا يطمع فى رياسة ببلدة فيها أبو يوسف ، وقضى لأبى يوسف على زفر .

وكان أبو يوسف متصفاً بالوفاء وبصفات كثيرة أخرى جليلة علمه إياها أستاذه أبو حنيفة ونشأه عليها بحكم المعايشة وبوصية طويلة أوصاه بها سجلنا جانباً

منها فى الفصل السابق ، وسنذكر طرفاً آخر منها بعد قليل . ولم يكن وفاؤه لأستاذه أبى حنيفة وحسب ، بل كان يحمل وفاء لأستاذه الأول ابن أبى ليلى ، فقد أثر عنه قوله : ماكان فى الدنيا أحب إلى من مجلس أجلسه مع أبى حنيفة وابن أبى ليلى ، فإنى مارأيت فقيهاً أفقه من أبى حنيفة ، ولا قاضياً خيراً من ابن أبى ليلى .

لقد أدب أبو حنيفة أبا يوسف فأحسن تأديبه ، وعلمه فأحسن تعليمه ، وأوصاه بأنفس الوصايا فعمل بها ، ومن ثم خرج إلى الحياة العامة والخاصة علماً من أعلام العلم ، وإماماً من أئمة الحديث ، وقاضياً من أعدل القضاة ، وعيناً من أعيان الدولة العباسية .

— ٢ —

أبو حنيفة يوصى أبا يوسف :

إن وصية أبى حنيفة لأبى يوسف تشمل كل جوانب النصح التى يمكن أن يوصى بها أب ابنه أو أستاذ تلميذه ، أو شيخ مريده .

ففيما يتعلق بالعلاقة بالسلطان يوصى أبو حنيفة يعقوب بقوله : « وقّر السلطان وعظم منزلته ، وإياك والكذب بين يديه ، ولا تدخل عليه فى كل وقت وفى كل حال مالم يَدْعُكَ لحاجة علمية ، فإنك إن أكثرت الاختلاف إليه تهاون واستخف بك ، وصغرت منزلتك فى عينه ، فكن منه كما أنت من النار ، تنتفع بها وتتباعد عنها . ولا تدن منها فإنك تحترق وتتأذى منها ، فإن السلطان لا يرى لأحد مايرى لنفسه » . . . . .

ويمضى أبو حنيفة فى وصيته فى العلاقة بالسلطان حتى يصل إلى الحاشيه فيقول : « ولا تواصل أولياء السلطان وحاشيته ، بل تقرب إليه فقط ، وتباعد عن حاشيته ليكون محلك وجاهك باقياً » .

ويطنب أبو حنيفة فى نصائحه لأبى يوسف فيما يتصل بالعلاقة المثلى بينه وبين السلطان خاصة فى شئون العلم فيقول :

« وإذا رأيت من سلطانك مالا يوافق العلم ، فاذكر ذلك مع طاعتك إياه ، فإن يده أقوى من يدك . تقول له : أنا مطيع لك فى الذى أنت مسلطن فيه علىّ ، غير أنى أذكر من سيرتك مالا يوافق العلم .

فإذا فعلت ذلك مع السلطان مرة كفاك ، لأنك إذا واظبت عليه لعلهم يقمعونك فيكون فى ذلك قمع الدين ، وافعل ذلك مرة أو مرتين ليعرف منك الجدّ فى الدين والحرص فى الأمر بالمعروف ، فإذا فعل ذلك مرة أخرى فادخل عليه وحدك فى داره ، وانصحه فى الدين ، وناظره إن كان مبتدعاً ، وإن كان سلطاناً فاذكر له ما يحضرك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإن قبل ذلك منك ، وإلا فاسأل الله أن يحفظك منه » .

وفيما يتعلق بالعامة والتعامل معهم يوصى أبو حنيفة تلميذه بقوله : « ولا تتكلم بين العامة إلا بما تسأل عنه ، وإياك فى الكلام فى المعاملة والتجارة إلا بما يرجع إلى العلم كى لا يوقف منك على رغبة فى المال فإنهم يسيئون الظن بك ، ويعتقدون ميلك إلى أخذ الرشوة منهم وبسط اليد إليهم .

ولا تضحك ولا تتبسم فيما بين العامة ، ولا تكثر الخروج إلى الأسواق ، ولا تكلم الصبيان المراهقين ، ولا بأس أن تكلم الأطفال وتمسح رؤوسهم ، ولا تمش فى قارعة الطريق مع المشايخ من العامة ، فإنك إن قدمتهم أزرى ذلك بعلمك ، وإن أخرتهم ازدرى بك من حيث أنهم أسنّ منك ، فإن النبى ﷺ قال

« مَن لَمْ يُوقِّرْ كَبِيْرَنَا وَلَمْ يَرْحَمْ صَغِيْرَنَا فَلَيْسَ مِنَّا » .

ويمضى أبو حنيفة فى نصح تلميذه فى نطاق النشاط العلمى فيقول : « وإياك أن تكلم العامة فى أصول الدين والكلام ، فإنهم قوم يقلدونك فيشتغلون بذلك ، ومن جاءك يستفتيك فى المسائل فلا تجب إلا على سؤاله ، ولا تضم إليه غيره فإنه يتشوس عليه جواب سؤاله . وإن بقيت عشر سنين بلا كسب ولا قوت فلا تعرض عن العلم ، فإنك إذا أعرضت عنه كانت معيشتك ضنكاً على ما قال تعالى : « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذكرى فإنَّ له مَعِيشَةً ضَنْكاً » .

وأقبل على متفقهتك – أى تلاميذك – كأنك اتخذت كل واحد منهم ابنا وولداً لتزيدهم رغبة فى العلم ، ومن ناقشك من العامة والسوقة فلا تناقشه فإنه يذهب ماء وجهك ، ولاتحتشم أحداً عند ذكر الحق ولو كان سلطانا » .

وفى مجال الوعظ والحضّ على العبادة يوصى أبو حنيفة أبا يوسف قائلا : « وأكثر ذكر الله تعالى فيما بين الناس ليتعلموا ذلك منك ، واتخذ لنفسك وردا خلف الصلوات تقرأ فيه القرآن ، وتذكر الله تعالى وتشكره على ما أودعك من الصبر وما أولاك من النعم ، واتخذ لنفسك أياما معدودة من كل شهر تصوم فيها ليقتدى غيرك بك فى ذلك ، ولا ترض لنفسك من العبادات بما ترضى به العامة » .

ويقول أبو حنيفة أيضا فى مجال وعظ تلميذه : « واذكر الموت واستغفر لأساتذتك ومن أخذت عنهم العلم ، وداوم على تلاوة القرآن وأكثر من زيارة القبور والمشايخ والأماكن المباركة » .

إن هذه الوصية من الطول والاستفاضة بمكان ، ولكنها مجمع للنصائح الغالية ومخزن للمواعظ الحسنة ، ودليل نفيس لأسلوب حياة من يبتغى الكمال فى صلته بالله وبالناس جميعا من خاصة وعامة ، وهى صورة صادقة لمسلك أبى حنيفة فى الحياة من تكريم لنفسه وإكرام لغيره وإقبال على العلم والتعلم وعطف على الكبير والصغير واستعلاء على السلطان الجائر واستجابة للحاكم العادل ، والظهور بالمظهر اللائق ، والتمسك بمكارم الأخلاق ، ورعاية الوفاء ، والاستمساك بتقوى الله ، والإكثار من التعبد صوما وصلاة وتلاوة للقرآن الكريم .

وكان من الطبيعى أن تكون هذه الوصية نبراسا لأبى يوسف احتذاها فى حياته وطبقها فى معاملاته ، فكان من أمره فى العلم والسيادة والسلطة والغنى ما كان .

وإذا كانت تقاليد العلم آنذاك تذهب بالدارس إلى الالتزام بشيخ واحد كما فعل أبو حنيفة مع حماد ، وكما فعل مالك والشافعى وأحمد ، ثم يحضر بعض

الوقت على غيره من الأئمة المعاصرين فقد فعل ذلك أبو يوسف حين تفرغ للجلوس على أبى حنيفة وفى الوقت ذاته سمع من سليمان الأعمش وهشام بن عروة ويحيى بن سعيد ومحمد بن إسحاق والليث بن سعد .

ومن الأمور ذات الأهمية أن أبا يوسف هو أول أستاذ للإمام العظيم أحمد بن حنبل ، فإن الإمام أحمد يقول : أول ماطلبت الحديث ذهبت إلى أبى يوسف القاضى(٣) .

وكان القاضى أبو يوسف ذا حافظة قوية فى حديث رسول الله ﷺ ، فقد كان يسمع المحدث فيحفظ منه خمسين أو ستين حديثا ثم يقوم ويمليها على الناس ، وأحيانا كان يحفظ الأحاديث التى نسيها رواتها وتأويلاتها ، وهو يقص بنفسه خبرا طريفا فى هذا الموضوع فيقول : سألنى الأعمش عن مسألة فأجبته فيها ، فقال لى : من أين قلت هذا ؟ فقلت : لحديثك الذى حدثتناه أنت ، ثم ذكرت له الحديث . فقال لى : يا يعقوب إنى لأحفظ هذا الحديث قبل أن يجتمع أبواك فما عرفت تأويله حتى الآن .

— ٣ —

أبو يوسف يحكم ضد الخليفة :

كان أبو يوسف شخصية سوية ، فهو نتاج طيب لتربية أبى حنيفة ، وقد ذكرنا قبل قليل وصية أبى حنيفة له ، ولاشك أنه عمل بها جميعا ، فارتفع بها خلقه وعلمه وسلوكه وحفاظه على كرامته وتحول من صبى فقير يتيم عمل بعض الوقت صبيا لقصار إلى قاضى قضاة الرشيد ، ومن قبل ذلك قاضى المهدى والهادى .

---

(٣) تاريخ بغداد ٢٥٥/٤ .

وصل أبو يوسف إلى ذلك المنصب الرفيع بالعلم والدين والخلق ، فمن ناحية العلم سوف نذكر أمره فيه بعد قليل ، ولكن من حيث السلوك العلمى كان يقول : العلم شيء لايعطيك بعضه حتى تعطيه كلك .

ومن السلوك العام وضرورة صحبة خيار الناس كان يقول : « صحبة من لايخشى العار عار يوم القيامة » . وتجمع الأخبار على أن الرشيد كان يكرمه ويجله وأنه كان عنده حظيا مكينا .

والخلفاء والحكام لا يجلون العلماء لعلمهم وحسب ، وإنما يجلونهم إذا ما كانوا صادقين مع أنفسهم ، صادقين مع الناس ، مترفعين عن الصغار ، بعيدين عن المغانم ، رافضين للنفاق ، فأكثر حكام الزمان يطربون للنفاق ، وهم يقربون من ينافقهم وبخاصة إذا كانوا ممن يلبسون مسوح العلم . ولكنهم فى الوقت الذى يقربونهم فيه يحتقرونهم فى دخيلة أنفسهم فتسقط مهابتهم وتتدنى مكانتهم ، ولم يكن أبو يوسف من هذا الصنف من العلماء .

واستطرادا من ذلك نقول إن أبا يوسف كان عادلا فى حكمه ، حازما فى قضائه ، ذكيا فى الخروج من المآزق التى يتعرض لها القاضى ، وبخاصة إذا كانت القضية ذات صلة بالخليفة أو السلطان ، فقد خوصم أمير المؤمنين الهادى فى بستانه ، فكان الحكم فى الظاهر لأمير المؤمنين ، وكانت حقيقة الأمر خلاف ذلك . فقال أمير المؤمنين لأبى يوسف . ماصنعت فى الأمر الذى يُتنازع إليك فيه ؟ أى هل حكمت لنا فى القضية المعروضة عليك فقال : خصم أمير المؤمنين يسألنى أن أحلّف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق . فقال له الهادى : وترى ذلك ؟ فقال : قد كان ابن أبى ليلى يراه . فقال الهادى فى الحال وقد فهم مقصد أبى يوسف من أنه لن يحلف : اردد البستان عليه فى الحال[٤] . وهكذا لم يداهن أبو يوسف الخليفة فيحكم له ظلما وإنما تصرف بذكاء وأصدر حكما عادلاً لصالح أحد الرعايا ضد الخليفة ولقد عرف أبو يوسف بالعدل وقد أثر عنه

---

(٤) تاريخ بغداد ٢٤٩/١٤ .

أنه قال يوم وفاته : « اللهم إنك تعلم أنى لم أجر فى حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمدا ، ولقد اجتهدت فى الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيّك ﷺ ، وكل ما أشكل علىّ جعلت أبا حنيفة بينى وبينك ، وكان عندى والله ممن يعرف أمرك ولايخرج عن الحق وهو يعلمه[٥] » وقد عاش تسعا وستين سنة فقد ولد سنة ١١٣ وتوفى سنة ١٨٢ .

والقضاة العدول الذين كانوا يحكمون ضد الخلفاء والأمراء كثيرون ، وقد كان الحكام يتقبلون هذه الأحكام صاغرين ، بعضهم كان يتقبلها استجابة لنواميس العدالة ، وبعضهم الآخر كان يتقبلها خشية الناس وخوفاً من شجاعة القاضى العادل .

ولقد حدثت قضية مشابهة لقضية بستان الهادى فى الفترة الزمنية نفسها ، ولكنها كانت فى الأندلس فى عهد عبد الرحمن الداخل ، والمعروف أن الهادى وعبد الرحمن متعاصران فقد مات الهادى سنة ١٧٠هـ ومات عبد الرحمن سنة ١٧٢ هـ وكان قاضى عبد الرحمن هو نصر بن طريف اليحصبى وكان الفرق بين حكمى أبى يوسف ونصر اليحصبى أن اليحصبى حين طلب إليه الأمير إرجاء إصدار الحكم سارع إلى إصداره ضد إرادة عبد الرحمن وجعله مشمولا بالنفاذ ، فلما اعترض عبد الرحمن الداخل على ذلك وبخه القاضى ، ووجه إليه عبارات شديدة جعلته يذعن للحكم ويدعو للقاضى بالخير[٦] .

إن الخلفاء والأمراء والحكام يحترمون العلماء ما احترم العلماء أنفسهم ، ويحتقرونهم ويشهرون بهم ولايعبأون بأشخاصهم إذا ماحادوا عن هذا الطريق السوى .

وكان أبو يوسف لايخلو من فكاهة وسخرية حيث يكون الموقف يدعو إلى ذلك ، فقد كان رجل يجلس إليه فيطيل الصمت ، فقال له أبو يوسف :

---

(٥) وفياة الأعيان ترجمة يعقوب بن إبراهيم .

(٦) راجع الخبر فى فصل القضاء من كتابنا « معالم الحضارة الإسلامية » .

ألاتتكلم ؟ فقال : بلى ، متى يفطر الصائم ؟ فقال : إذا غابت الشمس . فقال الرجل : فإن لم تغب إلى نصف الليل ؟ فضحك أبو يوسف وقال : أصبت فى صمتك وأخطأت أنا فى استدعاء نطقك ، ثم أنشد متمثلا :

عجبتُ لإزْراءِ العَيِيِّ بنفسه
وَصَمْتِ الذى قد كان بالقَوْلِ أَعْلَماَ
وفى الصمتِ سَتْرٌ للعَيِيِّ وإنماَ
صحيفةُ لبِّ المرءِ أنْ يتكلماّ

ومن طرائف أبى يوسف أيضاً أنه فى إحدى حجات الرشيد – وما أكثر ماكان يحج – أشار عليه أن يتقدم كى يؤم المسلمين فصلى الرشيد ركعتين وسلم ، فنادى أبو يوسف فى المصلين قائلا : يا أهل مكة ، أتموا صلاتكم فإن أمير المؤمنين مسافر ونحن قوم على سفر . فرد عليه رجل من المصلين من أهل مكة قائلا : يا أبا يوسف نحن أعلم منك وممن علمك ، فأجابه أبو يوسف على الفور : لو كنت كما تقول لما تكلمت فى صلاتك .

هكذا نجد أبا يوسف على جده ووقاره كان صاحب طرائف وملح وبدائه .

– ٤ –

من طرائف فتاوى أبى يوسف :

كانت فتاوى أبى يوسف كثيرة ومثيرة ، وكان بعضها يبدو جريئا ، مثل فتواه فى الفتى الذى رآه الرشيد متلبسا بجريمة الزنا ، ولكن فتاواه جميعا كان مصدرها كتاب الله وسنة رسوله أو الاجتهاد السليم والقياس الدقيق فى ضوء الكتاب والسنّة .

ولعل من أطرف فتاواه هى تلك التى أفتى بها حين حلف الرشيد على زبيدة يمينا بالطلاق ألا تبيت ليلتها فى بلد يدخل فى ولايته ، وكان الرشيد قد حلف تلك اليمين فى نزوة غضب إثر خلاف جرى بينه وبين زوجه الأثيرة لديه ذات القدر الكبير عنده وعند الناس ، ومقتضى اليمين آنذاك هو طلاقها من أمير المؤمنين ، فلقد كانت ولاية الرشيد شاسعة الأرجاء ، وكان ملكه واسع الأنحاء ، ولم يكن فى الاستطاعة أن تغادر زبيدة مملكة الرشيد قبل قدوم الليل ، ولو أن هذه الحادثة وقعت فى أيامنا لكان الأمر هينا ، فإن الطائرات تحمل المرء من أدنى بقاع الأرض إلى أقصاها فى ساعات قليلة ، وإذن فقد فزع البلاط آنذاك على مصير العلاقة بين الخليفة القرشى العباسى وزوجه القرشية العباسية ، فقد كانت زبيدة فيما نعلم الوحيدة بين كل أزواج الخلفاء العباسيين القرشية محتدا العباسية نسبا .

وهرول رجال البلاط العباسى إلى أبى يوسف قاضى القضاة وفقيه الفقهاء حتى ينظر فى هذه المشكلة لعله يجد لها حلا . وكان حل المسألة عند أبى يوسف من اليسر والسرعة والكمال بمكان ، لقد أمر أن تبيت زبيدة فى المسجد لأنه ليس لأحد فى العالم ولاية على المساجد ولو كان الرشيد نفسه ، هذا مافرضه الله تعالى وقرره الإسلام من حكم كتاب الله فى قوله تعالى :

« وَأَنَّ المسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا »[٧] .

فحملت زوج أمير المؤمنين إلى مسجد بغداد وقضت ليلتها فى أكرم بيت وأطهر مكان ، ساهرة ساجدة عابدة ، بعيدة عن كل ولاية إلا ولاية الخالق الأعظم رب السموات والأرض وما بينهما .

ما أحقر كل ملك الرشيد وإمبراطوريته بالقياس إلى بيت صغير من بيوت الله فى ركن بعيد أو قريب فى بغداد أو القاهرة أو دمشق أو طهران ، بل فى طرف قرية نائية من قرى احدى تلك البلاد .

---

(٧) سورة الجن الآية ١٨ .

— ٥ —

كتب أبى يوسف :

كان أبو يوسف التلميذ الأول لأبى حنيفة ، وكان كاتب إملاءات الإمام ومسجلْ مسائله بعد أن يفرغ الإمام من مناقشتها مع صحابه وتلامذته ، وبعد موت أبى حنيفة وتولية أبى يوسف منصبه الرفيغ فى القضاء فى خلافة المهدى والهادى ، ثم ولاية منصب قاضى القضاة على عهد الرشيد لم يمنعه ذلك كله من الجلوس للدرس والإملاء والتحديث والتأليف ؛ وبسبب ذلك كثرت الآراء التى تقرر أن أبا يوسف هو أول من وضع الكتب فى أصول الفقه على مذهب أبى حنيفة ، وأملى المسائل ونشرها ، وبث علم أبى حنيفة فى أقطار الأرض .

فإذا راجعنا قائمة مؤلفات أبى يوسف عند من ترجم له من المؤرخين وجدناها نحواً من سبعة عشر كتابا هى : كتاب الصلاة ، كتاب الزكاة ، كتاب الصيام ، كتاب الفرائض ، كتاب البيوع ، كتاب الحدود ، كتاب الوكالة ، كتاب الوصاية ، كتاب الصيد والذبائح ، كتاب الغصب والاستبراء ، كتاب اختلاف الأمصار ، كتاب الرد على مالك بن أنس ، كتاب الجوامع ، رسالة فى الخراج (كتاب الخراج) كتاب الآثار، كتاب الرد على ابن أبي ليلى، كتاب الرد على سير الأوزاعي.

ولقد فقدت هذه الكتب أو هى فى حكم المفقودة باستثناء الكتب الأربعة الأخيرة ، وهى من القيمة العلمية بمكان ، وسوف نعرف بها بشىء من الايجاز .

كتاب الخراج :

هو رسالة كتبها أبو يوسف يجيب فيها عن مسائل كان الخليفة هارون الرشيد كلفه بالإجابة عنها : فسجلها وأجاب عنها مسألة مسألة داعما إجاباته بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأفعال الصحابة وآراء الإمام أبى حنيفة .

ويستهل أبو يوسف كتابه بوعظ الخليفة على النحو التالى :

« أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام له العز فى تمام من النعمة ، ودوام من الكرامة ، وجعل ما أنعم به عليه موصولا بنعيم الآخرة الذى لا ينفد ولا يزول ، ومرافقة النبى ﷺ .

إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألنى أن أضع له كتابا جامعا يعمل به فى جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالى (الجاليات) وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به ، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته ، والصلاح لأمرهم ، وفق الله تعالى أمير المؤمنين وسدده وأعانه على ما تولى من ذلك ، وسلمه مما يخاف ويحذر . وطلب أن أبين له ما سألنى عنه مما يريد العمل به وأفسّره وأشرحه ، وقد فسرت ذلك وشرحته .

ياأمير المؤمنين إن الله – وله الحمد – قد قلدك أمرا عظيما ، ثوابه أعظم الثواب ، وعقابه أشد العقاب ، قلدك أمر هذه الأمة ، فأصبحت وأمسيت وأنت تبنى لخلق كثير قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم ، وولاك أمرهم ، وليس يلبث البنيان إذا أسس على غير التقوى أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه ، وأعان عليه ، فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية ، فإن القوة فى العمل بإذن الله . لا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، فإنك إذا فعلت ذلك أضعت . إن الأجل دون الأمل . فبادر الأجل بالعمل ، فإنه لا عمل بعد الأجل » .

هكذا استفتح أبو يوسف كتابه بذكر الغرض من كتابه ، وبتوجيه النصح للخليفة فى نطاق من المواعظ وأحاديث الترغيب والتهديد .

والكتاب يحتوى على مسائل كثيرة مثل قسمة الغنائم ، الفىء والخراج ، ما عمل به فى السواد ، فصل فى أرض الشام ، وهكذا مجموعة من القضايا والإجابات الواضحة المكتملة لكل قضية ، ولقد ألحقنا بآخر هذا الفصل نموذجا حول فصل « فى الجزائر فى دجلة والفرات والغروب » .

وكتاب الخراج ثروة فقهية نفيسة ،ومفخرة للتشريع الاسلامى حول كل ما يتعلق بأمور الخراج وما يتصل به من قريب أو بعيد ، فهو فى الحقيقة كتاب فقه وحديث ومحاسبة وقانون واجتماع وأدب وجغرافيا ورحلات وفكر وبحث وحوار .

كتاب الآثار :

هذا الكتاب على جانب كبير من القيمة لأنه فى حقيقته هو كتاب المسند الذى خلفه أبو حنيفة . والكتاب رواه يوسف بن أبى يوسف عن أبيه عن الإمام الأعظم ، ومن ثم فهو يقدم لنا نمطا دقيقا لروايات الإمام الأعظم وطريقته فى الاستنباط من الأحاديث النبوية الشريفة . هذا فضلا عن كونه يمثل الفقه العراقى المعتمد من خلال فقه علماء الكوفة ، وقد كانت الكوفة معقلا للعلماء على التتابع حسبما أوضحنا فى الفصول الأولى من هذا الكتاب .

وكان يوسف فقيها مثل أبيه ولى القضاء بعد أبيه منتهجا سبيل العدل بين الناس ، وكان يقول : وليت القضاء وولى أبى من قبلى ، فكانت ولايتنا ثلاثين سنة ما بالينا أن نقضى بين جد وأخ .

ولقد سمع الشاعر الكبير أبو يعقوب الخريمى نبأ وفاة أبى يوسف .

وكان صديقاً لأبى يوسف ولولده يوسف فقال هذه الأبيات :

يا ناعيَ الفقهِ إلى أهْلِهِ   أنْ مات يعقوبُ ولا يدرِى
لم يمتْ الفقهُ ولكنه   حُوِّل من صدرٍ إلى صدرِ
ألقاهُ يعقوبُ إلى يوسفٍ   فآل من طيبٍ إلى طُهْرِ

وكتاب الآثار ، أو بالأحرى مسند الإمام أبى حنيفة يضم ألفاً وسبعاً وستين مسألة تشمل أكثر أبواب الفقه تقريباً وفى مقدمتها العبادات إذ يبدأ بالوضوء والطهارة ، ثم الأذان ، افتتاح الصلاة ، السهو فى الصلاة ، صلاة العيدين ، صلاة الخوف ، غسل الميت وكفنه ، ثم الزكاة والمناسك والحج وهكذا بحيث يغطى المسند تسعة وثلاثين باباً من أبواب الفقه .

ولا نستطيع أن نقرر أن الكتاب يشمل كل أبواب الفقه وجزئياته ، وإنما يضم نماذج لما رواه أبو حنيفة من أحاديث جعلها سنداً لفقهه وفتاواه وقد نقلنا نماذج منه ألحقناها بآخر هذا الفصل .

كتاب الرد على سير الأوزاعي :

كان الإمام الأوزاعي معاصرا للإمام أبي حنيفة على ماهو معروف ، وكان الأوزاعي فقيه الشام وأبو حنيفة فقيه العراق ، وكان الأوزاعي فقيه أثر ورواية وأبو حنيفة فقيه رأى ، وكان من الطبيعي أن يكون بينهما خلاف فى المسائل بحكم طريقة كل منهما فى الإفتاء وفهمه للنصوص ، وقد مر بنا أنهما التقيا فى مكة فى دار الحناطين وجرى حوار بينهما فى مسائل كانت ولا تزال موضع خلاف بين الإمامين الجليلين . وقد كان طبيعياً أن يكون الخلاف فى قضايا كثيرة ، ولقد كتب الإمام الأوزاعي كتاباً فى السير ، أى فى فقه الحرب وأحكامها مما يتصل بالسلام والهدنة والأمان والغنائم والأسلاب ، فكل هذه الموضوعات منضبطة بأحكام شرعية ، منظمة بدستور فقهى منبعه الكتاب والسنة وأفعال الراشدين والصحابة .

ولقد حوى كتاب الأوزاعي كثيراً من الأحكام التى تخالف ماذهب إليه أبو حنيفة فى الموضوع نفسه ، فنهض أبو يوسف وألف كتاباً فى الموضوع أسماه « الرد على سير الأوزاعي » .

وموضوعات الكتاب نفيسة طريفة نضرب أمثالاً لبعضها : باب قسمة الغنائم ، باب أخذ السلاح ، باب سهم الفارس والراجل وتفضيل الخيل ، باب سهمان للخيل ، باب فى المرأة تسبى ثم يسبى زوجها ، باب كراهية بيع السبى من أهل الحرب إذا خرجوا إلى دار الإسلام ، باب إذا تترس المشركون بأطفال المسلمين ، باب بيع السبى فى دار الحرب ، باب الرجل يغنم وحده ، باب إقامة الحدود فى دار الحرب ، باب ما عجز الجيش عن حمله من الغنائم ، باب قطع أشجار العدو ، باب ما جاء فى صلاة الحرس ، باب المستأمن فى دار الإسلام ،

باب بيع الدرهم بدرهمين فى دار الحرب ، باب الرجل يسلم فى دار الحرب وله بها مال ، بحث فتح مكة عنوة أو صلحاً .

فالكتاب يضم موضوعات كثيرة من الدقة والعمق بمكان وفيه يعمد أبو يوسف إلى عرض الموضوع والرد على الأوزاعى من وجهة النظر الفقهية الحنفية .

كتاب اختلاف أبى حنيفة وابن أبى ليلى :

كان ابن أبى ليلى فقيها وقاضيا للكوفة ، وكان ذا علم وفضل ، وكان أستاذا لأبى يوسف قبل أن يجلس إلى أبى حنيفة ، وكان بين أبى حنيفة وابن أبى ليلى خلاف فى كثير من القضايا الفقهية ، وقد مرت بنا قضية أم عمران حين حدّها ابن أبى ليلى لأنها سبت رجلا وقالت له : ياابن الزانيين ، فلما علم أبو حنيفة قال إن القاضى ابن أبى ليلى أخطأ فى ستة مواضع ، وقد مر ذكر الحادثة .

وأبو يوسف كان ينتصر فى مواطن الاختلاف إلى استاذه أبى حنيفة ، ليس لمجرد كونه أستاذه ، ولكن لأن أبا حنيفة كان أعمق بصراً بالفقه وأكثر فهما ، بل كان أرجح رأياً فى مسائل القضاء من ابن أبى ليلى على الرغم من أن ابن أبى ليلى مارس القضاء ، ولم يمارسه أبو حنيفة . على أن ذلك لم يمنع أبا يوسف من أن ينتصر لابن أبى ليلى فى بعض المواقف التى يكون الحق فيها فى جانبه ، ولكنه قليلا ما كان يفعل ، فمثلا : إذا ما أثبت القاضى فى ديوانه الإقرار وشهادة الشهود ثم رفع إليه وهو لا يذكره فإن أبا حنيفة كان يقول : لا ينبغى له أن يجيزه ، بينما كان ابن أبى ليلى يجيزه ويوافقه أبو يوسف على ذلك . وهى مسألة اجراءات قضائية كما نرى .

والكتاب مفيد كل الفائدة فى المسائل المرتبطة بالقضاء ، وهو هدية نفيسة من مدرسة أبى حنيفة بفكر أبى يوسف للشريعة الإسلامية .

محمد بن الحسن

- ١ -

نشأته :

إنه محمد بن الحسن الشيبانى الذى يقال له أحيانا ابن فرقد أحد التلامذة النابهين للإمام الأعظم أبى حنيفة ثم لصاحبه أبى يوسف من بعده .

ومحمد من مواليد مدينة واسط بالعراق سنة مائة وواحدة وثلاثين وقيل اثنتين وثلاثين ، وكانت نشأته بالكوفة ، وفيها تلقى العلم على أبى حنيفة لمدة عامين ، ولكنهما عامان ثريان حافلان ، اغترف أثناءهما محمد من علم الإمام وفضله وخلقه ما قد وسعه أن يغترف ، فلما انتقل الإمام الأعظم إلى الرفيق الأعلى وترأس زفر ثم أبو يوسف الحلقة ، جلس إليهما محمد ولكنه كان بالنسبة لأبى يوسف تلميذا وأخا وصاحبا إلى أن رقت العلاقات بينهما فيما بعد .

ولقد أضاف محمد إلى شرف سماعه من أبى حنيفة وأبى يوسف سماعا آخر من رجالات العصر وأئمته وعلمائه ، فجلس إلى مسعر بن كدام وسفيان الثورى ومالك والأوزاعى .

وكان محمد يؤمن بالتفرغ للعلم والإنفاق فى سبيل الدرس ، وكانت هذه واحدة من وصايا أبى حنيفة ، ولذلك يقول محمد إنه ورث من أبيه ثلاثين ألفا أنفق منها خمسة عشر ألفا على النحو والشعر ومثلها على الحديث والفقه .

وكان محمد من أكرم الناس وأعلم الناس ، ومن أكثر العلماء توقيرا لنفسه ومعرفة بقدره ، كان صديق الشافعى وأستاذه ، وكان جليس الرشيد ومشاوره ، وكان سببا فى إنقاذ الإمام الشافعى من سيف « مسرور » سياف الرشيد حين اتهم بالتآمر على الدولة وأرسل من اليمن إلى بغداد ومثل بين يدى الرشيد معرضا لأسوأ مصير ، ولكن شهادة منصفة عادلة أدلى بها محمد بن الحسن للرشيد فى إنصاف

الشافعى أنقذته من هلاك محقق . وكان الرجل يصل الشافعى بالعلم فى شكل كتب ودروس ، وبالمال يقضى به شئونه ويسد به ديونه ، وقد جرت بينه وبين الشافعى مناظرات مفيدة نافعة .

وكان محمد من سعة الأفق والفصاحة بمكان . كان الشافعى يصف فصاحته بقوله : لو أشاء أن أقول إن القرآن نزل بلغة محمد بن الحسن لقلته لفصاحته . ويقول الشافعى أيضاً : كان محمد بن الحسن إذا أخذ فى المسألة كأنه قرآن ينزل عليه ، لا يقدم حرفا ولا يؤخر .

- ٢ -

محمد بن الحسن ثروة خلقية وعلمية :

لقد كان الرجل كذلك حقا ، خلق وشمائل ، وعلم وفضائل ، فهو حليم هادىء وقور واسع الصدر ، يقول الإمام الشافعى عن رحابة صدره فى العلم والحوار والمناقشة : ما رأيت أحدا يسأل عن مسألة فيها نظر إلا تبيّنت الكراهة فى وجهه إلا محمد بن الحسن . وهى شهادة معتمدة لأنها من عالم قريش ، ولأن ابن الحسن تلميذ أبى حنيفة ، وكان أبو حنيفة قد وضع لآداب المناقشة تعاليم وتقاليد التزم بها محمد ولم يحد عنها .

كان محمد بن الحسن الشيبانى يعرف قدر نفسه كعالم إمام ، فلم يكن يقوم لأحد ولو كان الرشيد . بل إنه فعلها ولم يقم للرشيد حين قام الناس وبقى هو جالسا .

يحكى هذه القصة أبو عبيد ، وقد يكون من الخير أن ننقلها كما وردت فى تاريخ بغداد بلسان من خبر بها :

«كنا مع محمد بن الحسن إذ أقبل الرشيد ، فقام إليه الناس كلهم إلا محمد بن الحسن فإنه لم يقم ، وكان الحسن بن زياد ثقيل القلب على محمد بن الحسن ، فقام ، ودخل الناس من أصحاب الخليفة ، فأمهل الرشيد يسيرا ثم

خرج الآذن فقال : محمد بن الحسن ، فجزع أصحابه له ، فأدخل ، فأمهل ثم خرج طيب النفس مسرورا فقال : قال لى الرشيد ، مالك لم تقم مع الناس ؟ فقلت : كرهت أن أخرج عن الطبقة التى جعلتنى فيها ، إنك أهلتنى للعلم ، فكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التى هى خارجة منه ، وإن ابن عمك ﷺ قال :

« مَنْ أحَبَّ أن يَتَمَثَّلَ لَه الرِّجَالُ قِيَاماً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار » .

وإنه إنما أراد بذلك العلماء ، فمن قام بحق الخدمة وإعزاز الملك فهو هيبة للعدو ، ومن قعد اتبع السنة التى عنكم أخذت ، فهو زين لكم . قال : صدقت يامحمد[٨] »

هكذا كان محمد بن الحسن الشيبانى ذا كرامة ، أعنى كرامة العلماء التى تتأبى أن تخفض الهامة حتى فى بلاط الرشيد .

فإذا ما انتقلنا إلى الجانب العلمى لمحمد وجدناه من النضوج المبكر بحيث صار له مجلس فى الكوفة وهو ابن عشرين ، وليس معنى ذلك أنه بمجلسه هذا توقف عن التلقى وامتنع عن السماع ، لقد ظل يتلقى ويكتب ويدرس ويفتى طوال حياته .

كان محمد من العلم بحيث يتبوأ مقام الإمامة ، فقد تبحر فى فقه العراق على أبى حنيفة وزفر وأبى يوسف ، وتبحر فى فقه الحجاز على مالك حين صاحبه ثلاث سنين ونيفا ، وسمع منه فقه الحجاز ، وأسمعه فقه العراق ، وتناقشا وتحاورا وتفاهما حتى صار محمد ثقة فى فقه الحجاز تماما كما هو ثقة فى فقه العراق ، ثم أكمل الإمام محمد الشوط العلمى بتجويده فقه الشام وجلوسه إلى الإمام أبى عمرو الأوزاعى ، وهو إلى ذلك ذو خبرة بالفتوى ، وصاحب تجربة فى القضاء ، فقد ولى قضاء الرقة للرشيد عامين ثم عزل .

---

(٨) تاريخ بغداد ١٧٣/٢ ، ١٧٤ ؛

وإذا كان الإمام محمد قد جلس إلى مالك وتلقى منه وأسمعه ، فإن ذلك لايمنع من أن نقرر أن أول لقاء لهما فى المدينة كان طريفا ومثيرا . يقول مجاشع بن يوسف : كنت بالمدينة عند مالك وهو يفتى الناس ، فدخل عليه محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة وهو حدث ، فقال : ماتقول فى جنب لايجد الماء إلا فى المسجد ؟ فقال مالك : لا يدخل الجنب المسجد ، فقال محمد : كيف يصنع وقد حضرت الصلاة وهو يرى الماء ؟ فجعل مالك يكرر : لايدخل الجنب المسجد . فلما أكثر عليه – يعنى ألح عليه بالسؤال – قال له مالك : فما تقول أنت فى هذا ؟ قال : يتيمم ويدخل فيأخذ الماء من المسجد ويخرج فيغتسل . قال : من أين أنت ؟ قال محمد : من أهل هذه ـ وأشار إلى الأرض – فقال مالك : ما من أهل المدينة أحد لا أعرفه . فقال محمد : ما أكثر من لاتعرف ، ثم نهض .

فقال بعض الحاضرين لمالك : هذا محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة ، فقال مالك : محمد بن الحسن كيف يكذب وقد ذكر أنه من أهل المدينة ؟ قالوا : إنما قال ، من أهل هذه وأشار إلى الأرض . قال : هذا أشد علىّ من ذاك .

كتب محمد بن الحسن :

إن الفقه الحنفى يدين بتسجيله أول مايدين إلى الإمام محمد بن الحسن الشيبانى ، فقد ترهب فى محراب هذا الفقه مسجلا ومقررا وشارحا ومخرجا ومستنبطا ، فكتبه هى المراجع الأولى لهذا الفقه ، ومن الأخبار الطريفة التى تروى عن هذه الثروة من كتب الإمام محمد ما ذكر حول كتب أهل البصرة وكتب أهل الكوفة ، فقد قال الحسن بن داوود : فخر أهل البصرة بأربعة كتب هى البيان والتبيين للجاحظ والحيوان له ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل بن أحمد ، ونحن نفتخر بسبع وعشرين ألف مسألة فى الحلال والحرام عملها رجل من أهل الكوفة يقال له محمد بن الحسن قياسية عقلية لايسع الناس جهلها ، ثم ذكر كتب الفراء وابن الأعرابى .

وكانت كتب الإمام محمد بن الحسن من المصادر التى أفاد منها الإمام أحمد بن حنبل الدقة فى المسائل والعمق فى الاستنباط ، فقد سئل الإمام أحمد : هذه المسائل الدقائق من أين لك ؟ فأجاب قائلا : من كتب محمد بن الحسن .

إن محمدا لم يعش حياة طويلة ، فقد توفى فى الثامنة والخمسين من العمر على الأرجح ، ولكنها سنين مباركة أنجز فيها من الكتب الأصيلة قدرا هائلا لايقوم بمثله إلا العصبة أولو العزم ، وليس من شك فى أن إبعاده بتعيينه قاضيا للرقة لمدة عامين ثم عزله بعد ذلك كانا خيرا وبركة عليه وعلى فقه أبى حنيفة ، لأن ذلك أتاح له فرصة التفرغ الكامل الذى هيأ له الاضطلاع بهذا العبء الكبير المتكامل من الكتب والمؤلفات .

ولقد قسم الفقهاء الحنفية كتب محمد بن الحسن إلى قسمين أو بالحرى إلى صفتين : مؤلفات أطلقوا عليها «كتب ظاهر الرواية » ، وهى الكتب التى رويت عنه برواية الرواة الثقات ومن ثم فإنه لاشك فى كونها ثابتة النسبة إليه بالتواتر والشهرة ، وتسمى هذه الكتب أيضا بالأصول وهى حسبما أوردها ابن عابدين فى رسالته : المبسوط ، والزيادات ، والجامع الصغير ، والسير الصغير ، والجامع الكبير ، والسير الكبير[10] . ويضاف إلى هذه الأصول كتابان آخران على جانب كبير من النفاسة والفائدة ، وليس ثمت شك فى صحة نسبتها إلى الإمام محمد ، هما : كتاب الآثار – ولأبى يوسف كتاب بهذا الاسم رواه عن الإمام الأعظم – وكتاب الرد على أهل المدينة ، أى على فقه أهل المدينة ، وهذه الكتب التى ذكرنا هى الأصل الذى لاشك فيه التى يرجع إليها فى الفقه الحنفى .

والقسم الثانى من كتب الإمام محمد : ويقال عنها الكتب غير ظاهر الرواية ، ليس لأن نسبتها إليه غير ثابتة . ولكن لأن روايتها غير ظاهرة الإسناد ومن ثم كانت درجة ثبوتها أقل من درجة ثبوت الفريق الأول من كتب ظاهر الرواية ، .

---

(٩) تاريخ بغداد ١٧٤/٢ .

(١٠) رسالة رسم المفتى ص ١٩ .

وهذه الكتب هى : الكيسانيات ، والهارونيات ، والجرجانيات ، والرقيات ، وزيادة الزيادات .

والأمر الجدير بالذكر أن جميع هذه الكتب من تأليف الإمام وتحقيقه ، وكان العبء جميعه واقعا عليه باستثناء كتاب الجامع الصغير الذى رواه عن أبى يوسف وقرأه عليه .

وحتى يمكن جمع الفقه الحنفى فى سفر واحد فقد عنى الفقهاء الأحناف بجمع مؤلفات الإمام محمد فى كتاب واحد ليسهل الرجوع إليها ، وهى الكتب الستة المذكورة تحت صفة « كتب ظاهر الرواية » باستثناء كتاب الآثار وكتاب الرد على أهل المدينة .

لقد قام بهذا الجهد الهائل محمد بن محمد المروزى الشهير بالحاكم الشهيد ، فقد كان عالما جليلا بأصول المذهب ، ولى القضاء فى مرو وإليها ينسب ، كما ولى الوزارة فى خراسان ، وقتل شهيدا فى الرى سنة ثلاثمائه وأربع وثلاثين ، وهى السنة المشئومة التى سقطت فيها بغداد فى يد بنى بويه الديلميين ، وللحاكم المروزى كتابان جليلان هما « الكافى » و« المنتقى » . وكتاب الكافى هو الجهد الكبير الذى قام به الحاكم ، وجمع فيه مواد الكتب الستة مع حذف المسائل المكررة فى أكثر من كتاب من كتب الإمام محمد .

وها نحن نحاول أن نقدم تعريفاً موجزاً بكتب الإمام محمد بن الحسن نوضح فيه أهم ماينبغى ذكره عن كل كتاب ، وإن كان ذلك لا يغنى عن الاطلاع على الكتاب نفسه ، فإن المقام هنا لا يتسع لذلك فيما لو حاولنا تقديم كل كتاب على نحو مستفيض . وهو ما نأمل أن تسمح لنا به الظروف فى يوم ما بمشيئة الله .

كتاب المبسوط :

وهذا الكتاب يعرف بالأصل لأنه يمثل الفقه العراقى أصدق تمثيل ، وهو تبعا لذلك أهم مرجع للفقه الحنفى ، ولقد سبقت الإشارة إلى أن الحاكم المروزى الشهيد قام بجمع الكتب الستة للإمام محمد فى كتاب واحد أسماه « الكافى »

والحقيقة أن « الكافى » هو نفسه « المبسوط » الذى نتحدث عنه ، قام بشرحه أبو بكر شمس الأئمة محمد بن أحمد بن سهل السرخسى ، وكان السرخسى جديرا بلقب شمس الأئمة ، فهو قاض مجتهد من أهل سرخس فى خراسان ، أملى كتابه « المبسوط » على « الكافى » سالف الذكر وهو سجين فى الجب فى بلدة أوزجند بفرغانه . والحق أن السرخسى بصنيعه هذا فى مثل حاله تلك وهو فى السجن يعتبر نموذجا رائعا لسلوك العلماء حتى وهم محرومون من حرياتهم مسجونون بسبب كلمة حق ، أو نصيحة صدق ، قيلت لسلطان أو خاقان . ولقد توفى السرخسى سنة أربعمائة وثلاث وثمانين فى مدينة فرغانة بعد أن أطلق سراحه ، وللإمام السرخسى غير المبسوط من كتب الإمام محمد بن الحسن كتاب شرح السير الكبير ، وكتاب شرح الجامع الكبير ، وله أيضا شرح مختصر الطحاوى ، والأصول فى أصول الفقه .

فإذا ماعدنا إلى « المبسوط » وجدنا السرخسى قد أفاض فى الشرح والتعليق والاستنباط وبيان أوجه المسائل والقياس فيها . ولقد ذهب جماعة من الفقهاء إلى أن « المبسوط » للسرخسى هو الحجة فى الفقه الحنفى بحيث لايركن إلا إليه ، ولايعول إلا عليه ، ولا يعمل بما يخالفه . ويقع الكتاب فى ثلاثين جزءا كبيرا لا يستغنى عنه باحث فى الفقه عامة وفى الفقه الحنفى بخاصة ، وقد رأينا أن نضع بين يدى القارئ مقدمة الكتاب بقلم السرخسى نفسه ، كما ألحقنا بآخر هذا الفصل نماذج من طريقة تناوله للمسائل .

يقول السرخسى فى مقدمة المبسوط :

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم (قال الشيخ) الإمام الأجل شمس الأئمة أبو بكر محمد بن أبى سهل السرخسى رحمه الله ونور ضريحه ، وهو فى الحبس بأوزجند إملاء : الحمد لله بارئ النسم ، ومحى الرمم ، ومجزل القسم ، مبدع البدائع ، وشارع الشرائع ، دينا رضيا ، ونوراً مضيا ، لتكليف المحجوجين ، ووعد المؤتمرين ، ووأد المعتدين بينة

للعالمين ، على لسان سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، خاتم النبيين ، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين (وبعد) فإن أقوى الفرائض بعد الإيمان بالله تعالى طلب العلم كما جاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال :

« طلبُ العلمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسِلمٍ وَمُسْلِمةٍ »

والعلم ميراث النبوة كما جاء فى الحديث أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يورثوا دينارا ولادرهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافرٍ ، والعلم علمان : علم التوحيد والصفات ، وعلم الفقه والشرائع . فالأصل فى علم التوحيد التمسك بالكتاب والسنة ومجانبة الهوى والبدعة كما كان عليه الصحابة والتابعون والسلف الصالحون رضوان الله عليهم أجمعين الذين أخفاهم التراب ، وآثارهم بتصانيفهم باقية فى هذا الباب ، وقد عزمت على جمع أقاويلهم فى تأليف هذا الكتاب ، تذكرة لأولى الألباب ، وأما علم الفقه والشرائع فهو الخير الكثير كما قال الله عز وجل .

« وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كثيراً » .

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنه الحكمة معرفة الأحكام من الحلال والحرام . وقد ندب الله تعالى إلى ذلك بقوله تعالى .

« فلولا نَفَرَ مِنْ كلِّ فرقةٍ منهم طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ ولِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذَاَ رجَعُوا إليهِمْ لَعَلَّهُم يَحْذَرُونَ » .

فقد جعل ولاية الإنذار والدعوة للفقهاء ، وهذه درجة الأنبياء ، تركوها ميراثا للعلماء ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

« العُلَماءُ ورَثَةُ الأَنْبِياءِ » .

وبعد انقطاع النبوة ، هذه الدرجة أعلى النهاية فى القوة ، وهو معنى قول النبى عليه الصلاة والسلام .

« مَنْ يُرِدُ اللهُ به خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّين » . وقال عليه الصلاة والسلام « خِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ إذا فَقِهُوا » .

ولهذا اشتغل به أعلام الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم .

وأول من فرّع فيه وألف وصنف ، سراج الأمة أبو حنيفة رحمة الله عليه بتوفيق من الله عز وجل خصه به واتفاق من أصحاب اجتمعوا له ، كأبى يوسف يعقوب بن إبراهيم بن خنيس الأنصارى رحمه الله تعالى المقدم فى علم الأخبار ، والحسن بن زياد اللؤلؤى المقدم فى السؤال والتفريع ، وزفر بن الهذيل رحمه الله ابن قيس بن سليم بن قيس بن مكمل بن ذهل بن ذؤيب بن جذيمة بن عمرو المقدم فى القياس ، ومحمد بن الحسن الشيبانى رحمه الله تعالى المقدم فى الفطنة وعلم الإعراب والنحو والحساب . هذا مع أنه ولد فى عهد الصحابة رضوان الله عليهم ولقى منهم جماعة كأنس بن مالك وعامر بن الطفيل وعبد الله بن خير الزبيدى رضوان الله عليهم أجمعين ، ونشأ فى زمن التابعين رحمهم الله وتفقه وأفتى معهم ، وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام :

« خَيْرُ القُرُونِ قَرْنِي الّذِينَ أَنَا فِيهِم ثُمَّ الّذِيْنَ يَلُونَهُم ، ثُمَّ الذين يَلُونَهُم ، ثمّ يَفْشو الكَذِبُ حتّى يَشْهَدَ الرجلُ قبل أن يُسْتَشْهَدَ ، ويحلف قبل أن يُستَحْلَف . » .

فمن فرع ودون العلم فى زمن ، شهد رسول الله ﷺ لأهله بالخير والصدق كان مصيبا مقدما ، كيف وقد أقر له الخصوم بذلك حتّى قال الشافعى رضى الله عنه : الناس كلهم عيال على أبى حنيفة رحمه الله فى الفقه . وبلغ ابن سريج رحمه الله وكان مقدما من أصحاب الشافعى رحمه الله أن رجلا يقع فى أبى حنيفة رحمه الله ، فدعاه وقال ياهذا : أتقع فى رجل سلم له جميع الأمة ثلاثة أرباع العلم وهو لايسلم لهم الربع ؟ قال وكيف ذلك ؟ قال الفقه سؤال وجواب وهو الذى تفرد بوضع الأسئلة فسلم له نصف العلم ، ثم أجاب عن الكل ، وخصومه لايقولون أنه أخطأ فى الكل ، فإذا جعلت ماوفقوه مقابلا بما خالفوه ، سلم له ثلاثة أرباع العلم ، وبقى الربع بينه وبين سائر الناس ، فتاب الرجل عن

مقالته ومن فرغ نفسه لتصنيف مافرعه أبو حنيفة رحمه الله ، محمد بن الحسن الشيبانى رحمه الله ، فإنه جمع المبسوط لترغيب المتعلمين ، والتيسير عليهم ببسط الألفاظ ، وتكرار المسائل فى الكتب ليحفظوها ، شاءوا أو أبوا ، إلى أن رأى الحاكم الشهيد أبو الفضل محمد بن أحمد المروزى رحمه الله إعراضا من بعض المتعلمين عن قراءة المبسوط ، لبسط فى الألفاظ ، وتكرار فى المسائل ، فرأى الصواب فى تأليف المختصر بذكر معانى كتب محمد بن الحسن رحمه الله المبسوطة فيه ، وحذف المكرر من مسائله ترغيبا للمقتبسين ، ونعم ماصنع قال شيخ الإمام رحمه الله تعالى : ثم إنى رأيت فى زمانى بعض الإعراض عن الفقه من الطالبين لأسباب . فمنها قصور الهمم لبعضهم حتى اكتفوا بالخلافيات من المسائل الطوال ، ومنها ترك النصيحة من بعض المدرسين بالتطويل عليهم بالنكات الطردية التى لافقه تحتها ، ومنها تطويل بعض المتكلمين بذكر ألفاظ الفلاسفة فى شرح معانى الفقه وخلط حدود كلامهم بها ، فرأيت الصواب فى تأليف شرح المختصر لا أزيد على المعنى المؤثر فى بيان كل مسئلة إكتفاء بما هو المعتمد فى كل باب ، وقد انضم إلى ذلك سؤال بعض الخواص من أصحابى زمن حبسى ، حين ساعدونى لأنسى ، أن أملى عليهم ذلك فأجبتهم إليه ، وأسأل الله تعالى التوفيق للصواب . والعصمة عن الخطأ وما يوجب العقاب . وأن يجعل مانويت ، فيما أمليت سببا لخلاص فى الدنيا ، ونجاتى فى الآخرة إنه قريب مجيب » .

هذه قصة المبسوط كما رواها السرخسى بقلمه أو كما أملاها فقد كان سجينا أنذاك وهو من الكتب التى لاغنى عنها لدارس الفقه الحنفى .

وقد ألحقنا بآخر هذا الباب نماذج من هذا الكتاب النفيس « المبسوط » واخترنا « باب افتتاح الصلاة » « وباب القيام فى الفريضة »

الجامع الكبير :

إن كتاب الجامع الكبير بدوره يعتبر من الأعمال العلمية الفقهية الكبرى التى

اضطلع بالقيام بها الإمام محمد بن الحسن ، ويحتوى على الكثير من المسائل فى فقه الإمام الأعظم ، وقد ألف محمد هذا الكتاب مرتين وكان سبب تأليفه للمرة الثانية ماقد رآه من زيادات واجبة الإضافة وأبواب لايكتمل الكتاب إلا بذكرها ، فضلا عن إعادة صياغته فى لغة أقوم ، ولفظ أوضح على الرغم من أن لغة محمد بطبيعتها رفيعة الأسلوب ناصعة البيان ، ولقد روى الكتاب فى حاليه الأولى والثانية أصحابه أبو سليمان الجوزجانى ، ومحمد بن سماعة ، وأبو حفص الكبير ، وهشام بن عبيد الله الرازى .

ولقد قام على شرح الكتاب والتعليق على مسائله عدد غير قليل من فقهاء الحنيفة منهم شمس الأئمة السرخسى سالف الذكر ، وأبو بكر الجصاص الرازى ، وأبو الليث نصر بن محمد السمرقندى ، وغيرهم كثيرون . والجامع الكبير يعطى المادة الفقهية التى يحتاج إليها الدارس مفصلة مفرعة وإن لم يعبأ بقضية الاستدلال الفقهى على اعتبار أن الرجل ثقة فيما يكتب ، وأنه عمد إلى ذلك فى كتبه الأخرى التى فيها غناء فى الاستدلال بالكتاب والسنة ، والكتاب مع ذلك من روائع ما أخرج الإمام محمد من كتب الفقه .

ومن طريف ما يذكر حول نفاسة هذا الكتاب أن عالما يهوديا كان بالبصرة ، فطلب كتاب الجامع الكبير ، وما أن اطلع عليه ووقف على مسائله وتبصر فى قضاياه حتى قال : من بحث عن دينه مثل هذا ، ودقق هذه المسائل ثم لم يدعها لنفسه وإنما نسبها لنبى، أشهد أنه على حق ، ثم أسلم اليهودى .

الجامع الصغير :

وهو دون الجامع الكبير من حيث الحجم والمادة العلمية ، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن الجامع الصغير هو الوحيد ين كتب الإمام محمد التى قرئت على أبى يوسف وروجعت معه ، وإن بعض الفقهاء المعاصرين يذهب إلى أن كل كتاب صغير للإمام محمد روجع مع أبى يوسف(١١) وقد روى الكتاب عن محمد

---

(١١) أبو حنيفة للشيخ أبى زهرة ص ٢٣٧ .

بعض تلاميذه ممن سبق ذكرهم فى رواية الجامع الكبير. ولم يكن الإمام محمد قد بوّب الكتاب كما فعل فى المبسوط فقام الإمام القاضى أبو طاهر الدباس بترتيبه وتبويبه ، وقد ورد فى بعض المصادر الحنفية أن الذى قام بتبويب الكتاب وترتيبه هو الحسن بن أحمد الزعفرانى الفقيه الحنفى . ولكن ذلك لايمنع من أن يكون كل من أبى طاهر الدباس والحسن الزعفرانى قام على حدة بترتيب الكتاب وتبويبه ، فقد كانت كتب الإمام محمد من النفاسة والأصالة بحيث تغرى العلماء بالعناية بها تقديما وتبويبا وشرحا وتعليقا حسبما هو الحال مع المبسوط والجامع الكبير.

كتاب السير الصغير وكتاب السير الكبير :

لابد لنا من الحديث عن هذين الكتابين مجتمعين ، ذلك لأن موضوعهما واحد ، ولأن أحدهما كتب بعد الآخر.

وكتب « السير » كثيرة ، وقد استعرضنا عند الحديث عن أبى يوسف كتابه « الرد على سير الأوزاعى » ، فقد كتب الأوزاعى كتاباً فى السير مطبوع ضمن كتاب الأم للشافعى وإن كثيراً من مسائله قد أوردها أبو يوسف ورد عليها من واقع آراء الإمام الأعظم أبى حنيفة ، فقد كان الإمام أبو حنيفة تناول فقه السير فى دروسه وحلقاته وفهمها تلاميذه وهضموها وفى مقدمتهم بطبيعة الحال أبو يوسف ، ومحمد بن الحسن سماعاً من الإمام ومن صحابه ، كما رواها كذلك الحسن بن زياد اللؤلؤى صاحب أبى حنيفة وتلميذه.

ألف محمد كتاب « السير الصغير » متضمنا الأبواب المعينة التى يتضمنها هذا الطراز من الكتب حسبما أشرنا عند الحديث على « الرد على سير الأوزاعى » من أحكام الجهاد والحرب والسلم والأمان والصلح والغنائم والسبايا وكل مايتصل بفقه الحرب فى الإسلام.

أما كتاب « السير الكبير » فإن سبب تأليفه - فيما يروى - عبارة قالها الإمام الأوزاعى حين اطلع على كتاب السير الصغير. فحين دفع الكتاب فى يد الأوزاعى قال : لمن هذا الكتاب ؟ فقيل له : لمحمد العراقى ، يعنى محمد بن الحسن الشيبانى فقال : ما لأهل العراق والتصنيف فى هذا الباب ، فإنه لاعلم لهم

بالسير ، ومغازى رسول الله ﷺ وأصحابه كانت من جانب الشام والحجاز دون العراق ، فإنها محدثة فتحا .

ومن الطريف أن محمدا كان عراقيا بالمولد والثقافة وأما من ناحية الأصل فهو شامى ، لأن أباه شامى من قرية « حرستا » غير بعيد عن دمشق ، فلما بلغ محمداً قول الأوزاعى أصابه غيظ شديد وتفرغ لكتابة « السير الكبير » وتشاء المقادير أن يطلع عليه الأوزاعى كما اطلع على أخيه الصغير من قبل ، فلم يملك إلا أن يبدى إعجابه بالكتاب وقال : لولا ماتضمنه الكتاب من الأحاديث لقلت إنه يضع العلم – أى يزيفه – واستطرد قائلا : وإن الله تعالى عيّن إصابة الجواب فى رأيه ، وفوق كل ذى علم عليم..[١٢]

كتاب الآثار :

هـذا الكتاب مثـل سابقيه من ناحية أنـه سمىٌّ كتاب آخر لأبى يوسف يحمل العنوان نفسه ، والكتابان فى موضوع واحد ومنهجهما يكاد يكون واحدا ، فهذا الكتاب – شأنه فى ذلك شأن سميه – يجمع الأحاديث والآثار التى من خلالها عمد الفقيه العراقى إلى الاستدلال فى إصدار الأحكام فى المسائل الفقهية . ومصدر الكتابين أحاديث الإمام أبى حنيفة ومسائله . ومن ثم يمكن أن نطلق على هذا الكتاب مثلما أطلقنا على نظيره عند أبى يوسف « مسند أبى حنيفة » ، والمحتوى مجموعة فتاوى ومسائل ، الاعتماد فيها على أحاديث رسول الله ﷺ وصحابته والتابعين من خلال شروط الرواية التى كان يلتزم بها الإمام أبو حنيفة ، وتأصيل الأصول ، وتفريع الفروع ، ووضع القواعد .

كتاب الرد على أهل المدينة :

المقصود بأهل المدينة هنا فقهاء المدينة بصفة عامة والإمام مالك بصفة خاصة ، والكتاب ليس للإمام محمد بن الحسن بقدر ماهو للإمام الأعظم ، ولمحمد فيه فضل النقل والرواية .

---

(١٢) شرح السير الكبير ط الهند ص ٤ .

ولقد اهتم الإمام الشافعي بهذا الكتاب وعنى به عناية خاصة ، فنقله فى كتاب الأم ، وناقش مسائله . ومثل هذا الكتاب جدير بالعماية لأنه يسجل الخلاف بين فقه الحجاز وفقه العراق ، وفقه الحجاز يمثل فقه الرواية والأثر ، وفقه العراق يمثل فقه الرأى المستند على أسس من كتاب الله وسنة رسوله مع الاجتهاد والقياس ، فلما نظر الإمام الشافعي فى الكتاب ، جعل من نفسه حكما بين المدرستين ، فوافق أبا حنيفة فى بعض المسائل ، ووافق أهل المدينة فى البعض الآخر ، وهكذا يجتمع جانب من فقه الحجاز وفقه العراق وفقه الشافعي فى كتاب واحد برواية الشافعي وتعليقه ، ومن ثم يكون كتابا نفيسا فى قيمته فريدا فى محتواه ، وبذلك يمثل الكتاب مرحلة لقاء فقه الأثر بفقه الرأى ، وهو مايتمثل فى فقه الشافعي ، فقد كان الشافعي باعتداله وسعة أفقه وسطا بين مدرستى الأثر والرأى . والكتاب بعد ذلك يعتبر نموذجا طيبا لما يمكن أن يسمى بالفقه المقارن .

هذا هو الإمام محمد بن الحسن الشيبانى نشأة ، وسلوكا ، وخلقا ، وترفعا من ناحية ، وفقها ، وعلما ، وعمقاً وثراء عطاء ، ووفرة إنتاج ، ونفاسة تأليف من ناحية أخرى .

وفى سنة تسع وثمانين ومائة خرج الرشيد إلى الرىّ واصطحب معه محمد بن الحسن إمام الفقه ، والكسائى إمام اللغة فماتا فى يوم واحد ، وطويت صفحتان ناصعتان فى المعرفة الإسلامية ، فحزن الرشيد ، وكان يقول : دفنت الفقه والعربية بالرى . ومن المصادفات أيضا أن يكون محمد بن الحسن الشيبانى الإمام فى الفقه ابن خالة الفراء إمام النحو واللغة .

زفر والحسن بن زياد :

للإمام أبى حنيفة تلامذة آخرون لهم قدرهم فى العلم ، ومكانتهم فى الفقه ، منهم زفر بن الهذيل ، وكان من أقدم تلامذة الإمام وصاحب صدارة فى الحلقة ، ومحاورات منفردة مع الإمام سبقت الإشارة إليها فى فصول سابقة ، وقد امتحن بالقضاء فأبى فعوقب بهدم داره أكثر من مرة . ولكن يبدو أنه أذعن فى آخر الأمر وولى قضاء البصرة فى حياة أستاذه ، وكان يحتال على أهل البصرة حتى

سقاهم فقه أبى حنيفة كما يسقى الساقى العطاش الماء الزلال .

وتوفى سنة ثمان وخمسين ومائة ، وكان إذ ذاك فى الثامنة والأربعين من العمر . وقد قيل عن زفر إنه أقيس الحنفية . جاء فى الأخبار أن المزنى صاحب الشافعى سئل عن أهل العراق فقال : أبو حنيفة سيدهم ، وأبو يوسف أتبعهم للحديث ، ومحمد بن الحسن أكثرهم تفريعا ، وزفر أحدّهم قياسا .

ومن طرائف الفتاوى التى اشترك فيها أكثر من فقيه أن رجلا شك فى طلاق زوجته ، فذهب يسأل شريكا القاضى فقال له : طلقها ثم راجعها ، فذهب يسأل سفيانا الثورى فقال له : إن كنت قد طلقتها فقد راجعتها ، فذهب إلى زفر يسأله فقال له : هى امرأتك حتى تتيقن من طلاقها ، وكان زفر فى ذلك مستجيبا لمذهب الأحناف الذى يقضى بأن الشك لايزيل اليقين . ثم إن الرجل ذهب فى آخر المطاف إلى الإمام الأعظم يعرض عليه الآراء الثلاثة فقال له الإمام : أما الثورى فقد أتاك بالورع ، وأما زفر فقد أتاك بعين الفقه ، وأما شريك فمثله مثل رجل سئل : لا أدرى أهل أصاب ثوبى بول أم لا ؟ فقال : بُلْ على ثوبك فاغسله .

لقد كان زفر فقيها كبيرا وأحد الصحاب المرموقين فى مدرسة أبى حنيفة .

ومن تلامذة أبى حنيفة الذين اشتهروا بصحبتهم للإمام والجلوس إليه الحسن بن زياد اللؤلؤى الكوفى ، وكان مشهوراً برواية الحديث ، وذكر فى ذلك أنه كتب عن ابن جريج اثنى عشر ألف حديث كلها يحتاج إليه الفقهاء .

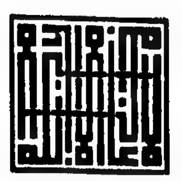
وكان الحسن بن زياد شأن جميع تلاميذ أبى حنيفة سمح الخلق لين الجانب كثير العطاء ، فقد أصاب سعة فى الرزق بعد نشأة فى ضيق وإملاق ، شأنه فى ذلك شأن أبى يوسف ، مع فارق كبير فى العلم والخلق والمال ، وقد قال عنه أحد معاصريه : ما رأيت أحسن خلقا من الحسن بن زياد ولا أقرب مأخذا ، ولا أسهل جانبا ، وكان يكسو مماليكه مما يكسو نفسه .

وقد ولى الحسن قضاء الكوفة سنة ١٩٤ هـ وجلس مكان حفص بن غياث ،

غير أنه لم يكن موفقا فى قضائه مع براعته فى الفقه . فقد كان إذا جلس ليحكم ذهب عنه التوفيق ونسي وسأل أصحابه ، فإذا قام عن مجلس القضاء عاد إلى ماكان عليه من الحفظ فرأى أن من الخير له أن يستعفى ويترك القضاء ففعل .

ولقد روى عنه عدد من الجيل الثانى من فقهاء الحنفية مثل محمد بن سماعة القاضي ، ومحمد بن شجاع الثلجى وتوفى سنة أربع ومائتين وهى السنة التى توفى فيها الإمام الشافعي . وللحسن بن زياد عدد من المؤلفات منها كتاب المجرد لأبى حنيفة ، وكتاب أدب القاضى ، وكتاب الخراج ، وكتاب الوصايا وكتاب معانى الإيمان . وكتاب الفرائض ، وكتاب النفقات ، وكتاب الخصال ، وكتاب الأمالى .

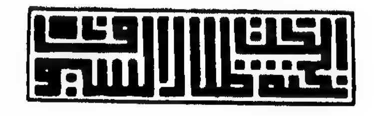
أولئك هم أشهر أصحاب أبى حنيفة وإن كانت التلمذة الأكثر عطاء وثمارا قد تمثلت فى أبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى .

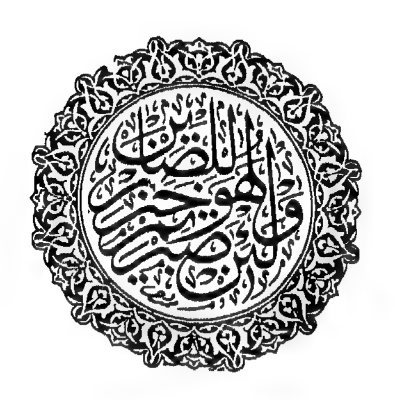


نمـاذج من

كتب الفقه الحنفى

* من كتاب الآثار لأبى حنيفة
  برواية يوسف بن أبى يوسف
* من كتاب المبسوط لمحمد بن الحسن الشيبانى
  بشرح شمس الأئمة السرخسى .
* من كتاب الخراج لأبى يوسف .



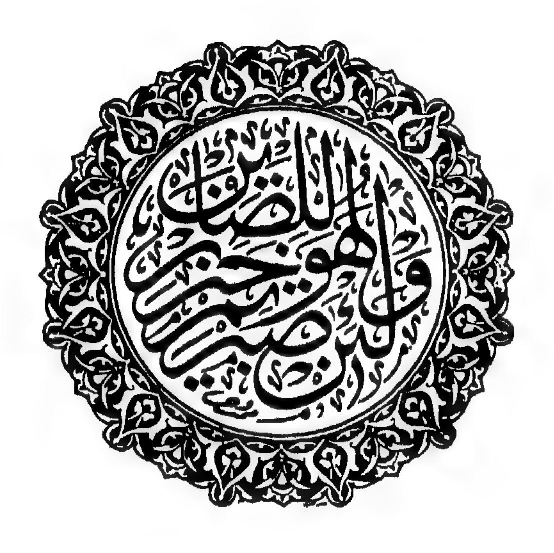


نموذج من كتاب الآثار لأبى حنيفة

رواية يوسف بن القاضى أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم

فصل فى البيوع والسلف





نموذج من كتاب الآثار
لأبي حنيفة
رواية يوسف بن القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم

فصل في البيوع والسلف

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن أبي يحيى عمن حدثه عن عتاب بن أبي أسيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه أميرا على مكة ، وقال :

إنِّي أَبْعَثُكَ إلى أَهْلِ اللهِ فانْهَهُمْ عَنْ أربعِ خِصالٍ : عَنْ ربحِ مَالَمْ يُضْمَنْ ، وبيعِ مالمْ يُقْبَضْ وَعَنْ شَرْطَيْنِ في بيعٍ وسلفٍ[1] .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال :

« مَنْ بَاعَ نَخلاً مُؤَبَّراً[2] أوْ عبْدًا فَثَمرُ النَّخلِ ومالُ العبْدِ للْبَائعِ إلا أنْ يَشْتَرِطَ المُبْتاعُ[3] » .

(١) وأخرجه الإمام محمد أيضا في الآثار عنه ، ثم قال : وبهذا كله نأخذ ، فأما قوله « سلف وبيع » فالرجل يقول للرجل أبيعك عبدي هذا بكذا وكذا على أن تقرضني كذا وكذا ، أو يقول تقرضني على أن أبيعك فلا ينبغي هذا . وقوله « شرطين في بيع » فالرجل يبيع الشيء في الحال بألف درهم وإلى شهر بألفين فيقع البيع على هذا ، فهذا لا يجوز . وأما قوله « ربح مالم يضمن » فالرجل يشترى الشيء فيبيعه قبل أن يقبضه بربح ، فليس ينبغي له ذلك ، وكذلك لا ينبغي له أن يبيع شيئاً اشتراه حتى يقبضه . وهذا كله قول أبي حنيفة إلا في خصلة واحدة العقار من الدور والأرضين ، قال : لا باس أن يبيعها الذي اشتراها قبل أن يقبضها لأنها لا تتحول عن موضعها ، قال محمد : وهذا عندنا لا يجوز ، وهو كغيره من الأشياء .

(٢) التأبير هو التشقيق والتلقيح : يعني شق طلع النخلة بشيء ليذر فيه شيء من طلع النخل الذكر ليكون ذلك أجود ، وهو خاص بالنخل ، وكان أهل المدينة يفعلونه فنهاهم رسول الله ﷺ ثم أجازه .

(٣) وأخرجه الإمام محمد أيضا عنه في الآثار ، ثم قال : وبه نأخذ إذا طلع الثمر في النخل ، أو كان في الأرض زرع ثابت ، فباعها صاحبها ، فالثمرة والزرع للبائع إلا أن يشترط ذلك المشترى ، قال محمد : وبه نأخذ وكذلك العبد إذا كان له مال ، وهو قول أبي حنيفة .

قال : أخبرنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه باع من الأشعث رقيقاً من رقيق الإمارة ، فقال الأشعث : أخذتهم بعشرة آلاف ، وقال عبد الله : بعشرين ألفا ، فقال عبدُ الله : اجعل بيني وبينك رجلا ، فقال الأشعث : أنت بيني وبينك ، فقال عبد الله : لأقضين فيها بقضاء رسول الله ﷺ . قال :

« **إذَا اخْتَلَفَ المُتَبَايِعَانِ فالقولُ قَوْلُ البائع أو يَتَرَادَّانِ البيعَ**[٤] » .

قال : ثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن الوليد بن سريع[٥] عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال سألته فقلت : إني اشتريت بغاية العشرة بسبعة ونصف وبسبعة ، فقال أتى عمر رضى الله عنه بإناء قد أحكمت صناعته فأمرني أن أبيعه له فأعطيت به وزنه وزيادة فذكرت ذلك له فقال عمر : لا إلا مثلا بمثل وأن الفضلَ رباً[٦] .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن عطية العوفى[٧] عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :

---

(٤) وأخرج الإمام محمد فى الموطأ عن مالك بلغه أن ابن مسعود كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال : أيما بيعان تبايعا فالقول قول البائع أو يترادان . قال محمد : وبهذا نأخذ إذا اختلفا فى الثمن تخالفا وترادا البيع . وهو قول أبى حنيفة والعامة من فقهائنا إذا كان المبيع قائما بعينه . فإن كان المشترى قد استهلكه فالقول ما قال المشترى فى الثمن فى قول أبى حنيفة . وأما فى قولنا فيتحالفان ويترادان القيمة .

(٥) هو الوليد بن سريع كأمير . الكوفى مولى آل عمرو بن حريث ، روى عن عمرو بن حريث وعبد الله بن أبى أوفى ، وعنه إسماعيل بن أبى خالد والمسعودى ومسعر وأبو حنيفة وخلف بن خليفة وغيرهم ، روى له مسلم والنسائى ذكره ابن حبان فى الثقات .

(٦) وأخرجه الإمامان الحسن بن زياد فى مسنده عنه ومحمد بن الحسن فى مسنديه عنه ولفظهما : « بعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه بإناء من فضة خسروانى قد أحكمت صنعته فأمر الرسول أن يبيعه فرجع الرسول فقال : إنى أزاد على وزنه فقال عمر : لا فإن الفضل ربا ، ثم قال محمد : وبه نأخذ ، وهو قول أبى حنيفة .

(٧) هو عطية بن سعد بن جنادة العوفى « بفتح المهملة وإسكان الواو بعدها فاء » الجدلى أبو الحسن الكوفى ، روى عن أبى هريرة وأبى سعيد وابن عباس رضى الله عنهم ، وعنه ابناه عمر والحسن وإسماعيل بن أبى خالد ومسعر وخلق ، روى له البخارى فى الأدب وأبو داود والترمذى وابن ماجه ، ضعفه الثورى وحسن له الترمذى أحاديث مات سنة إحدى عشرة ومائة . .

« الذَّهَبُ بالذَّهَبِ وَزْنًا بِوَزْنٍ يداً بِيَدٍ والفَضْلُ رِبًا ، والفِضَّة بالفضة وزنًا بوزنٍ يدًا بِيَدٍ والفَضْلُ رِبًا ، والحِنْطَةُ بالحِنْطَةِ كَيْلاً بِكَيْلٍ والفضلُ رِبًا ، والشَّعِير بالشعير كيلاً بِكيل والفضلُ رِبًا ، والتَّمْرُ بالتمر كيلاً بكيلٍ والفضلُ رِبًا ، والْمِلْحُ بالمِلْحِ كيلاً بِكَيْلٍ والفضل ربًا[٨] »

وقال أبو حنيفة ذكرنا بيع الهر عند عطاءٍ فلم يعبه[٩] .

قال حدثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن الهيثم رفعه إلى النبي ﷺ أنه قيل له : سَعِّرْ فقال :

« إنْ الرخْصَ والغَلاء من اللهِ ، وإنِّى أُحِبُّ أنْ أَلْقى اللهَ تَعَالَى وَلاَ مَظْلَمَةَ لأَحدٍ عِنْدِى[١٠] » .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم أن ابن

---

(٨) قلت : هذا الحديث معروف مشهور عن أصحابه ﷺ عمر وعثمان وعلى وعبادة وأبى سعيد وابن عمر وغيرهم رضى الله عنهم ، وتابع عطية عن أبى سعيد على هدا الحديث أبو المتوكل كما هو عند مسلم فى صحيحه .

(٩) وأخرجه الإمام محمد أيضا فى الآثار عنه ثم قال : وبه نأخذ ، وهو قول أبى حنيفة لا بأس ببيع السباع كلها إذا كان لها قيمة ، قلت : وأخرج الحارثى وابن المظفر وابن خسرو من طريق الإمام محمد عن الإمام عن الهيثم عن عكرمة عن ابن عباس قال : « رخص رسول الله ﷺ فى ثمن كلب الصيد ، فالهر أحسن حالا من الكلب » .

(١٠) قلت : وأخرج أبو داود من طريق سليمان بن بلال عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله سعِّر ، قال : بل أدع الله ، ثم جاءه رجل فقال يارسول الله سعر . قال : بل الله يرفع ويخفض ، وإنى لأرجو أن ألقى الله وليست لأحد عندى مظلمة » ورواه أيضاً عن إسماعيل بن جعفر عن العلاء ، وأخرجه البيهقى بالطريق الأول ، وعن قتادة وثابت وحميد عن أنس نحوه ، وقال · وروى ذلك عن أبى سعيد وابن عباس عن النبى ﷺ ، وأخرج الإمام محمد فى الموطأ عن مالك عن يونس بن يوسف عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب مر على حاطب بن أبى بلتعة وهو يبيع زبيبا له بالسوق فقال له عمر · إما أن تزيد فى السعر وإما أن ترفع من سوقنا ، قال محمد : وبهذا نأخذ لا ينبغى أن يسعر على المسلمين ، فيقال لهم بيعوا كذا وكذا بكذا وكذا ويجبروا على ذلك ، وهو قول أبى حنيفة والعامة من فقهائنا .

مسعود رضى الله عنه أقرض رجلا دراهم فأتاه بدراهم أجود منها . فأعطاها إياه . فأبى أن يقبلها وقال : إئتنا بمثل دراهمنا (١١)

قال : ثنا يوسف عن أبيه عن أبى حنيفة عن حماد عن إبراهيم أنه كان يكره أن يأخذ الرجل من الرجل الدراهم قرضا على أن يوفيه إياها فى أرض أخرى (١٢) .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبى حنيفة عن مرزوق أبى بكير عن أبى جبلة (١٣) عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سأله فقال : إنا نقدم الأرض ومعنا الورق الخفاف النافقة . وبها الورق الثقال الكاسدة أفنشترى ورقهم بورقنا ؟ فقال : لا ولكن بع ورقك بالدنانير واشتر ورقهم بالدنانير . ولا تفارقه حتى تقبض . وإن صعد فوق بيت فاصعد معه . وإن وثب فثب معه (١٤) .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبى حنيفة عن حماد عن إبراهيم أنه قال فى

---

(١١) وأخرجه الإمام محمد أيضا فى الآثار عنه ، ثم قال : ولسنا نأخذ بهذا ، لا بأس بهذا ما لم يكن شرطا اشترط عليه ، فإذا كان شرطا اشترطه فلا خير فيه ، وهو قول أبى حنيفة ، وأخرج فى الموطأ عن مالك عن حميد المكى عن مجاهد قال : استسلف عبد الله بن عمر من رجل دراهم ثم قضى خيرا منها فقال الرجل : هذه خير من دراهمى التى أسلفتك قال ابن عمر : قد علمت ، ولكن نفسى بذلك طيبة . ثم أخرج عن أبى رافع : أن رسول الله ﷺ استسلف من رجل بكرا فقدمت عليه إبل من الصدقة فأمر أبا رافع أن يقضى الرجل بكره . فرجع إليه أبو رافع فقال ، لم أجد فيها إلا جملا رباعيا خيارا . فقال : أعطه إياه . فإن خيار الناس أحسنهم قضاء ، قال محمد : ويقول ابن عمر نأخذ لا بأس بذلك إذا كان من غير شرط اشترط عليه ، وهو قول أبى حنيفة رحمه الله .

(١٢) وأخرجه الإمام محمد فى الآثار عنه ، ثم قال : وبه نأخذ . وهو قول أبى حنيفة رضى الله عنه .

(١٣) قلت : عند أبى أحمد فى الكنى أبو جبلة الكوفى لا يعرف اسمه شيخ يروى عن الزهرى فإن يكون هو فروايته عن ابن عمر منقطعة ، قلت : قال ابن حبان فى الثقات : يروى عن الزهرى ، روى عن معاوية بن صالح وقال الخوارزمى فى باب المشايخ من جامع المسانيد أبو يحيى قيل أبو جبلة وقيل أبو عمير يروى عن سعيد بن جبير . وعنه الإمام . قلت : وكان فى الأصل أبى جميلة وهو غلط .

(١٤) وأخرجه الحافظ طلحة من طريق أبى يوسف وابن خسرو من طريق الحسن بن زياد وأخرجه الحسن أيضا فى مسنده ومحمد فى الآثار عنه سندا ومتنا . ثم قال وبه نأخذ . وهو قول أبى حنيفة .

الدراهم تكون للرجل على الرجل ، فياخذ بها دنانير أو دنانير فيأخذ بها دراهم أو يأخذ بذلك عروضا يداً بيد فقال : لا بأس بذلك .

قال : ثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم أنه قال : فى الرجل يكون له الدين على الرجل إلى أجل فيعجل له بعضها قبل الأجل ويحط عنه ، قال لا بأس بذلك إنما هو ماله تركه له .

قال : ثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن زياد بن ميسرة عن أبيه قال : سألت ابن عمر رضى الله عنهما أن لرجل عليّ أربعة آلاف درهم إلى أجل وأنه قال : عجِّلْ لى ألفين وأَحُطُّ عنك ألفين : فنهانى ثم سألته فنهانى ثم سألته فنهانى ثم سألته فقام ابن عمر فأخذ بيدى وقال : إن هذا يريد أن أطعمه الربا[١٥] .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن رجل من أهل مكة عن أبيه أنه كان لرجل عليه دين فقال : عجّل لى وأضع عنك ، فسأل عن ذلك ابن عمر رضى الله عنهما فنهاه ، فقال : إنما هو ماله يهب لى منه ، فنهاه فأعاد عليه ، فأخذ بيده وقال : إنَّ هذا يريد أن أطعمه الربا ؟

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن حماد عن أبي عمر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى الرجل يأخذ بعض سلمه ويأخذ بعض رأس ماله فقال : لا بأس به ذلك المعروف الحسن الجميل .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن أبي إسحق عن امرأة أبي السفر[١٦] أن امرأة سألت عائشة رضى الله عنها فقالت : إن زيد بن أرقم باعنى

---

(١٥) قلت : أخرج الامام محمد فى الموطأ عن مالك عن أبي الزناد عن بسر بن سعيد عن أبي صالح بن عبيد مولى السفاح أنه أخبره انه باع بزا من أهل دار نخلة إلى أجل ثم أرادو الخروج إلى الكوفة فسالوا أن ينقدوه ويضع عنهم ، فسأل زيد بن ثابت فقال : لا آمرك أن تأكل ذلك ولا توكله ، قال محمد : وبهذا نأخذ من وجب له دين على إنسان إلى أجل فسأل أن يضع عنه ويعجل له ما بقى لم ينبغ ذلك لأنه يعجل قليلا بكثير دينا فكأنه يبيع قليلا نقدا بكثير دينا . وهو قول عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر ، وهو قول أبي حنيفة .

(١٦) امراة أبي السفر لم يسمها أحد وأما أبو السفر فهو سعيد بن محمد ويقال أحمد الهمدانى الثورى الكوفى . روى عن ابن عباس وابن عمر والبراء ومعاوية بن سويد وعلى بن ربيعة والحارث الأعور

جارية بثمانمائة درهم ز بئة واشتراها منى بستمائة فقالت عائشة : أبلغنى زيد بن أرقم رضى الله عنه، الله تعالى قد أبطل جهاده إن لم يتب !

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبى حنيفة عمن حدثه عن الزهرى أن ابن مسعود ، رضى الله عنه اشترى من زينب الثقفية جارية واشترطت عليه إن هو استغنى عنها فهى أحق بالثمن ، فأتى عمربن الخطاب رضى الله عنه فسأله عن ذلك فقال : ما يعجبنى أن تطأها ولأحد فيها شرط قال : فرجع فردها .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبى حنيفة عن حماد عن إبراهيم أن ابن مسعود رضى الله عنه أعطى زيد بن خليدة[17] مالا مضاربة فأسلم إلى عتريس بن عرقوب[18] فى قلائص معلومة إلى أجل معلوم فحلت فأخذ منه بعضا وبقى بعض ، فاشتدّ عليه فيما بقى فأتى عبد الله وكلمه فى أن ينظره فيما بقى فأرسل إلى زيد فسأله فيم أسلمت ؟ قال أسلمت إليه فى قلائص معلومة بأسنان معلومة إلى أجل معلوم ، فقال عبد الله : أردد ما أخذت منه وخذ رأس مالك ولا تسلّم شيئا من أموالنا فى الحيوان[19] .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبى حنيفة عن حماد عن إبراهيم أنه قال : أسلم ما يكال فيما يوزن ، وأسلم ما يوزن فيما يكال ، ولا تسلم ما يكال فيما يكال ،

وغيرهم ، روى عنه ابنه عبد الله وإسماعيل بن أبى خالد ومطرف ويونس والأعمش وشعبة ومالك ابن مغول ، وروى له الستة مات سنة أثنى عشر أو ثلاث عشرة ومائة ، ويحمد ذكر « الدارقطنى » بضم الياء » وأصحاب الحديث يقولون « بفتح الياء » وقيل كل ما فى حمير من هذه الأسماء مثل يحمد ويعفر فهو بالضم وما فى الأزد وبقية العرب فهو بالفتح .

(١٧) قال الخوارزمى فى باب المشايخ : زيد بن خليدة الكرى الكوفى ، ذكره البخارى فى تاريخه ، وقال هو والد محمد ، قال الشعبى : حدثنى زيد بن خليدة السكرى أنه لقى هرة بن حيان العبدى وابن مسعود رضى الله عنهما ، قلت : ذكره ابن حيان فى الثقات وقال الشكرى مكان السكرى . قلت : وكان فى الأصل زائدة فكتب زيدا . .

(١٨) قال الخوارزمى : عتريس بن عرقوب أورده البخارى فى تاريخه ، وقال : سمع ابن مسعود رضى الله عنه . .

(١٩) وأخرجه الإمام محمد أيضا فى الآثار عنه ، ثم قال : وبهذا كله نأخذ لا يجوز السلم فى شىء من الحيوان ، وهو قول أبى حنيفة رضى الله عنه .

ولا ما يوزن فيما يوزن ، وإذا كان نوعا واحدا مما لا يكال ولا يوزن ، فلا بأس به اثنين بواحد يدا بيد ولا خير فيه نسيئة[٢٠]

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبى حنيفة عن حماد عن إبراهيم أنه قال : لا تأخذ إلا رأس مالك أو ما أسلمت فيه بعينه ، وإذا كان نوعان مختلفان مما لا يكال ولا يوزن ، فلا بأس باثنين بواحد يدا بيد ، ولا بأس به نسيئته .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبى حنيفة عمن حدثه[٢١] عن عامر أنه قال : إذا اختلف النوعان فلا بأس أن يسلم ما يوزن فيما يوزن ، وما يكال فيما يكال .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبى حنيفة عن حماد عن إبراهيم أنه قال : لا بأس بالسلم فى الثياب إذا كان ذلك معلوما[٢٢] .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبى حنيفة عن حماد عن إبراهيم أنه قال : لا بأس بالسلم فى الفلوس[٢٣] .

قال : ثنا يوسف عن أبيه عن أبى حنيفة عن حماد عن إبراهيم أنه قال : لا تسلم فى الثمرة[٢٤] .

---

(٢٠) وأخرجه الإمام محمد أيضاً فى الآثار عنه ، ثم قال : وبهذا كله نأخذ ، وهو قول أبى حنيفة رضى الله عنه .

(٢١) لعل الذى أبهمه هو مجالد بن سعيد : لأنه يروى عنه عن الشعبى ، ورواه عنه بلا واسطة أيضا . .

(٢٢) وأخرجه الإمام محمد أيضا فى الآثار عنه : ثم قال : وبه نأخذ إذا سمى الطول والعرض والرقعة والجنس والأجل ونقد الثمن قبل أن يتفرقا ، وهو قول أبى حنيفة رضى الله عنه .

(٢٣) وأخرجه الإمام محمد أيضا فى الآثار عنه ، ثم قال : وبه نأخذ وهو قول أبى حنيفة .

(٢٤) وأخرجه الإمام محمد فى الآثار عنه ، ثم قال : وبه نأخذ لا ينبغى أن يسلم فى ثمرة ليست فى أيدى الناس إلا فى زمانها بعد بلوغها ويجعل أجل السلم قبل انقطاعها ، فإذا فعل ذلك فهو جائز ، وإلا فلا خير فيه وهو قول أبى حنيفة .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم فى رجل يكون له على رَجُلٍ دَيْنٌ فيجعله فى السلم قال : لا حتَّى يقبضه (٢٥) .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم فى الرجل يسلم فى الفاكهة إلى القطاع (٢٦) فيأخذها قفيزا قفيزا ؟ قال لا خير فيه (٢٧) .

قال : ثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم أنه قال : لا بأس بالسلم إذا كان كيلا معلوما أو ذرعا معلوما إلى أجل معلوم .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم أنه قال : لا بأس بالسلم إذا كان كيلا معلوما ، أو زرعا معلوما إلى أجل معلوم .

قال : حدثنا يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم أنه قال : لا بأس بالرهن والكفيل فى السلم والبيع (٢٨) .

---

(٢٥) وأخرجه الإمام محمد فى الآثار ، ولفظه : « لا خير فيه حتى يقبضه » ثم قال : وبه نأخذ : لأن ذلك بيع الدين بالدين ، وهو قول أبي حنيفة .

(٢٦) أى إلى قطاف الكرم وجذاذ النخل .

(٢٧) وأخرجه الإمام محمد فى الآثار ، ثم قال : وبه نأخذ ، وهو قول أبي حنيفة وأخرج قبل ذلك عنه عن حماد عن إبراهيم قال : يكره السلم إلى الحصَّاد وإلى القطاع ، ثم قال : وبه نأخذ ، لأنه أجل مجهول يتقدم ويتأخر ، وهو قول أبي حنيفة .

(٢٨) وأخرجه الإمام محمد أيضا فى كتاب الآثار عنه ، ثم قال : وبه نأخذ ، وهو قول أبي حنيفة رضى الله عنه .

نموذج من كتاب المبسوط

لمحمد بن الحسن الشيبانى

عن الإمام الأعظم أبى حنيفة

اعداد : شمس الدين السرخسى

* باب افتتاح الصلاة
* باب القيام فى الفريضة




والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا

نموذج

من كتاب المبسوط

محمد بن الحسن الشيبانى

عن الإمام الأعظم أبى حنيفة

رواية شمس الدين السرخسى

باب افتتاح الصلاة (١)

قال (وإذا انتهى الرجل إلى الإمام وقد سبقه بركعتين وهو قاعد يكبر تكبيرة الافتتاح ليدخل بها فى صلاته ثم كبّر أخرى ويقعد بها) لأنه التزم بمتابعة الإمام وهو قاعد والانتقال من القيام إلى القعود يكون بالتكبير. والحاصل أنه يبدأ بما أدرك مع الإمام لقوله ﷺ :

« إذَا أَتَيتُمْ الصلاةَ فأْتُوهَا وأَنْتُمْ تَمْشُونَ وَلاَ تَأْتُوهَا وأنْتم تَسْعَونَ عَلَيْكُمْ بالسَّكِينَةِ والوَقَارِ وَمَا أدْرَكْتُم فَصَلُّوا ومَا فَاتَكُمْ فَاقْضُوا » .

وكان الحكم فى الابتداء أن المسبوق يبدأ بقضاء ما فاته حتى إن معاذا رضى الله عنه جاء يوما وقد سبقه النبى ﷺ ببعض الصلاة فتابعه فيما بقى ، ثم قضى ما فاته ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ يامُعَاذُ ؟ فقالَ وَجَدْتُكَ على حالٍ فَكَرِهْتُ أَنْ أُخَالِفَكَ عَلَيْهِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ سَنَّ لَكَمْ مُعَاذُ سُنَّةً حَسَنَةً فاستَنُّوا بِهَا » .

---

(١) المبسوط الجزء الأول صفحة ٣٥ – ٤٤ .

ثم لاخلاف أن المسبوق يتابع الإمام فى التشهد ولا يقوم للقضاء حتى يسلم الإمام . وتكلموا أنَّ بعد الفراغ من التشهد ماذا يصنع ؟ فكان ابن شجاع رحمه الله يقول : يكرر التشهد ، وأبو بكر الرازى يقول : يسكت لأن الدعاء مؤخر إلى آخر الصلاة والأصح أنه يأتى بالدعاء متابعة للإمام لأن المصلى إنما لا يشتغل بالدعاء فى خلال الصلاة لما فيه من تأخير الأركان ، وهذا المعنى لا يوجد هنا لأنه لا يمكنه أن يقوم قبل سلام الإمام .

ويجوز افتتاح الصلاة بالتسبيح والتهليل والتحميد فى قول أبى حنيفة ومحمد رحمهما الله ، وفى قول أبى يوسف رحمه الله إذا كان يحسن التكبير ويعلم أن الصلاة تفتح بالتكبير لا يصير شارعا بغيره وإن كان لا يحسنه أجزأه . وألفاظ التكبير عنده أربعة الله أكبر ، الله الأكبر ، الله الكبير ، الله كبير . وعند الشافعى رضى الله عنه لا يصير شارعا إلا بلفظى الله أكبر الله الأكبر ، وعند مالك رحمه الله لا يصير شارعا إلا بقوله الله أكبر ، واستدل بقوله ﷺ :

« لاَ يَقْبَلُ اللهُ صَلاَةَ امرىءٍ حتى يَضَعَ الطَّهُورَ مواضِعَهُ ويَسْتَقْبِلَ القِبْلَة ويقولَ اللهُ أكْبر » .

وبهذا احتج الشافعى ولكنه يقول : الله الأكبر أبلغ فى الثناء بادخال الألف واللام فيه فهو أولى ، وأبو يوسف استدل بقوله ﷺ ؛ وتحريمها التكبير فلابد من لفظة التكبير ، وفى العبادات البدنية يعتبر المنصوص عليه ولا يشتغل بالتعليل حتى لا يقام السجود على الخد والذقن مقام السجود على الجبهة والأنف .

والأذان لا يُنَادى بغير لفظ التكبير ، فالتحريم للصلاة أولى ، وأبو حنيفة رحمه الله ومحمد رحمه الله استدلاً بحديث مجاهد رضى الله عنه قال : كان الأنبياء صلوات الله عليهم يفتتحون الصلاة بلا إله إلا الله ولأن الركن ذكر الله تعالى على سبيل التعظيم وهو الثابت بالنص ، قال الله تعالى :

« وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » .

---

(٠) محمد هو محمد بن الحسن الشيبانى تلميذ أبى حنيفة راوى فقهه ومؤلف كتاب المبسوط وسوف يرد اسمه كثيرا فى الصفحات التالية مجردا من صفته ولقبه .

وإذا قال الله أعظم أو الله أجلّ فقد وجد ما هو الركن ، فأما لفظ التكبير فقد وردت به الأخبار ، فيوجب العمل به حتى يكره افتتاح الصلاة بغيره لمن يحسنه ، ولكن الركن ما هو ثابت بالنص . ثم من قال : الرحمن أكبر فقد أتى بالتكبير قال الله تعالى :

« قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ » الآية

والتكبير بمعنى التعظيم قال الله تعالى :

« فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ » أى عظمنه « وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ » أى فعظم .

والتعظيم حصل بقوله الله أعظم (فأما) الأذان فالمقصود منه الإعلام ، وبتغيير اللفظ يفوت ما هو المقصود ، فإن الناس لا يعلمون أنه أذان ، فإن قال : الله ، لا يصير شارعا بهذا اللفظ عند محمد رحمه الله لأن تمام التعظيم بذكر الاسم والصفة . وعند أبى حنيفة رحمه الله يصير شارعا لأن فى هذا الاسم معنى التعظيم ، فإنه مشتق من التأله وهو التحير ، وإن قال اللهم اغفر لى ، لا يصير شارعا لأن هذا سؤال ، والسؤال غير الذكر قال عليه الصلاة والسلام فيما يؤثر عن ربه عز وجل :

« مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِى عَنْ مَسْأَلَتِى أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِى السَّائِلِينَ » .

فإن قال : اللهم ، فالبصريون من أهل النحو قالوا : الميم بدل عن ياء النداء فهو كقولك : يا الله ، فيصير شارعا عند أبى حنيفة والكوفيون قالوا : الميم بمعنى السؤال أى يا الله آمنا بخير ، فلا يصير شارعا به ، ولو كبر بالفارسية جاز عند أبى حنيفة رحمه الله بناء على أصله أن المقصود هو الذكر ، وذلك حاصل بكل لسان ولا يجوز عند أبى يوسف ومحمد رحمهما الله إلا أن لا يحسن العربية ، فأبو يوسف رحمه الله تعالى مّر على أصله فى مراعاة المنصوص عليه ، ومحمد فرّق فقال : للعربية من الفضيلة ما ليس لغيرها من الألسنة ، فإذا عَبّر إلى لفظ آخر من العربية جاز ، وإذا عَبّرَ إلى الفارسية لا يجوز وأصل هذه المسألة إذا قرأ فى صلاته بالفارسية جاز عند أبى حنيفة رحمه الله ويكره . عندهما لا يجوز إذا كان يحسن

العربية ، وإذا كان لا يحسنها يجوز وعند الشافعى رضى الله عنه لا تجوز القراءة بالفارسية بحال ، ولكنه إن كان لا يحسن العربية وهو أمى يصلى بغير قراءة ، وكذلك الخلاف فيما إذا تشهد بالفارسية أو خطب الإمام يوم الجمعة بالفارسية ، فالشافعى رحمه الله يقول إن الفارسية غير القرآن ، قال الله تعالى :

« إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا » وقال الله تعالى : « وَلَوْ جَعَلْنَاه قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا » الآية .

فالواجب قراءه القرآن فلا يتأدى بغيره بالفارسية ، والفارسية من كلام الناس فتفسد الصلاة ، وأبو يوسف ومحمد رحمهما الله قالا : القرآن معجز ، والإعجاز فى النظم والمعنى ، فإذا قدر عليهما فلا يتأدى الواجب إلا بهما ، وإذا عجز عن النظم أتى بما قدر عليه كمن عجز عن الركوع والسجود يصلى بالإيماء . وأبو حنيفة رحمه الله استدل بما روىَ أن الفرس كتبوا إلى سلمان رضى الله عنه أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية فكانوا يقرءون ذلك فى الصلاة حتّى لانت ألسنتهم للعربية . ثم الواجب عليه قراءة المعجز ، والإعجاز فى المعنى ، فإن القرآن حجة على الناس كافة وعَجْز الفرس عن الإتيان بمثله إنما يظهر بلسانهم ، والقرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ولا محدث ، واللغات كلها محدثة ، فعرفنا أنه لا يجوز أن يقال إنه قرآن بلسان مخصوص ، كيف وقد قال الله تعالى :

« وإنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلين » .

وقد كان بلسانهم . ولو آمن بالفارسية كان مؤمنا ، وكذلك ولو سَمىَّ عند الذبح بالفارسية أولبّى بالفارسية فكذلك إذا كبّر وقرأ بالفارسية (وروى الحسن عن أبى حنيفة رحمهما الله أنه إذا أذّن بالفارسية يعلمون أنه أذان جاز ، وإن كانوا لا يعلمون ذلك لم يجز ، لأن المقصود الإعلام ولم يحصل به ، ثم عند أبى حنيفة رحمه الله إنما يجوز إذا قرأ بالفارسية إذا كان يتيقّن بأنه معنى العربية .

فأما إذا صلى بتفسير القرآن لا يجوز ، لأنه غير مقطوع به ، إذا افتتح الصلاة قبل الإمام ثم كبر الإمام فصلى الرجل بصلاته لا يجزئه لقوله عليه الصلاة والسلام :

« إنما جُعِلَ الإِمَامُ إمَاماً لِيُؤْتَمَّ بِهِ فَلاَ تَخْتَلِفُوا عَلَيْهِ »

والائتمام لا يتحقق إذا لم يكبر الإمام ، وقد اختلف عليه حين كبر قبله ، فلا يجزئه إلا أن يجدد التكبير بعد تكبير الإمام بنية الدخول فى صلاته ، وحينئذ يصير قاطعا لما كان فيه شارعا فى صلاة الإمام ، والتكبيرة الواحدة تعمل هذين العملين كمن كان فى النافلة فكبر ينوى الفريضة .

ومن غير هذا الباب إذا باع بألف ثم جدّد بيعا بألفين كان فسخا للأول وانعقاد عقد آخر ، وأشار فى الكتاب إلى أنه بالتكبير قبل تكبير الإمام يصير شارعا فى الصلاة لأنه قال : تكبيره الثانى قطع لما كان فيه ، فقيل تأويله إن لم يكن نوى الاقتداء . وقيل إن نوى الاقتداء صار شارعا فى صلاة نفسه ، وهو قول أبى يوسف رحمه الله . وعند محمد رحمه الله لايصير شارعا فى الصلاة بناء على أصل ، وهو أن الجهة إذا فسدت يبقى أصل الصلاة عند أبى يوسف رحمه الله ، وعند محمد لايبقى . وعن أبى حنيفة رحمه الله فيه روايتان يأتى بيانه فى موضعه . ثم الأفضل عند أبى حنيفة أن يكبّر المقتدى مع الإمام لأنه شريكه فى الصلاة ، وحقيقة المشاركة فى المقارنة ، وعندهما الأفضل أن يكبّر بعد تكبير الإمام لأنه تبع للإمام ، وظاهر قوله ﷺ .

« إذَا كَبَّرَ الإِمَامُ فَكَبِّرُوا » .

يشهد لهذا وكذلك سائر الأفعال . وفى التسليم روايتان عن أبى حنيفة رحمه الله : إحداهما أنه يسلم بعد الإمام ليكون تحلله بعد تحلل الإمام ، والأخرى أنه يسلم مع الإمام كسائر الأفعال ، وإذا سلّم الإمام فى الفجر والعصر يقعد فى مكانه ليشتغل بالدعاء لأنه لاتطوع بعدهما ، ولكنه ينبغى أن يستقبل القوم بوجهه ولا يجلس كما هو مستقبل القبلة ، وإن كان خير المجالس ما استقبلت به القبلة للأثر

المروى : جلوس الإمام فى مصلاه بعد الفراغ مستقبل القبلة بدعة . وكان ﷺ إذا صلى الفجر استقبل أصحابه بوجهه وقال :

« هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا فِيهِ بُشْرَى بِفَتْحِ مَكَّةَ » .

ولأنه يفتتن الداخل بجلوسه مستقبل القبلة لأنه يظنه فى الصلاة فيقتدى به ، وإنما يستقبلهم بوجهه إذا لم يكن بحذائه مسبوق يصلى ، فإن كان ، فلينحرف يمنة أو يسرة ، لأن استقبال المصلى بوجهه مكروه لحديث عمر رضى الله عنه ، فإنه رأى رجلا يصلى إلى وجه رجل فعلاهما بالدرة ، وقال للمصلى أتستقبل الصورة ؟ وقال للآخر أتستقبل المصلِّى بوجهك ؟ فأما فى صلاة الظهر والعشاء والمغرب يكره له المكث قاعدا لأنه مندوب(*) إلى التنقل بعد هذه الصلوات والسنن لجبر نقصان مايمكن فى الفرائض ، فيشتغل بها . وكراهية القعود فى مكانه مروى عن عمر وعلى وابن مسعود وابن عمر رضى الله تعالى عنهم ، ولا يشتغل بالتطوع فى مكان الفريضة للحديث المروى :

« أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ إِذَا صَلَّى أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ بِسُبْحَتِهِ » .

أى بنافلته ولأنه يفتتن به الداخل ، أى يظنه فى الفريضة فيقتدى به ، ولكنه يتحول إلى مكان آخر للتطوع استكثارا من شهوده ، فإن مكان المصلىّ يَشْهَدُ له يوم القيامة . والأَوْلَى أن يتقدم المقتدِى ويتأخر الإمام ليكون حالها فى التطوع خلاف حالها فى الفريضة ، فإن كان الإمام مع القوم فى المسجد فإنى أحب لهم أن يقوموا فى الصف إذا قال المؤذن حىّ على الفلاح ، فإذا قال قد قامت الصلاة ، كبر الإمام والقوم جميعا فى قول أبى حنيفة ومحمد رحمهما الله ، وإن أخروا التكبير حتى يفرغ المؤذن من الإقامة جاز ، وقال أبو يوسف رحمه الله : لايكبر حتى يفرغ المؤذن من الإقامة وقال زفر : إذا قال المؤذن مرة قد قامت الصلاة قاموا فى الصف ، وإذا قال ثانيا كبروا ، وقال لأن الإقامة تباين الأذان بهاتين الكلمتين ، فتقام الصلاة عندها . وأبو يوسف احتج بحديث عمر رضى الله

(*) الندب أحد الأحكام الخمسة ، وهى على الترتيب الإيجاب والندب والتحريم والكراهة والإباحة .

تعالى عنه فإنه بعد فراغ المؤذن من الإقامة كان يقوم فى المحراب ويبعث رجالا يمنة ويسرة ليسووا الصفوف ، فإذا نادوا استوت ، كبّر ، ولأنه لوكبر الإمام قبل فراغ المؤذن من الإقامة ، فاتت المؤذن تكبيرة الافتتاح ، فيؤدى إلى تقليل رغائب الناس فى هذه الإمامة . وأبو حنيفة ومحمد رحمهما الله استدلاً بحديث بلال حيث قال لرسول الله ﷺ :

« **مَهْمَا سَبَقْتَنِى بالتَّكْبِيرِ فَلاَ تَسْبِقْنِى بِالتَّأمِينِ** »

فدلّ على أنه كان يكبر بعد فراغه من الإقامة ، ولأن المؤذن بقوله قد قامت الصلاة ، يخبر بأن الصلاة قد أقيمت وهو أمين ، فإذا لم يكبر كان كاذبا فى هذا الإخبار ، فينبغى أن يحققوا خبره بفعلهم لتحقق أمانته ، وهذا إذا كان المؤذن غير الإمام ، فإن كان هو الإمام لم يقوموا حتى يفرغ من الإقامة ، لأنهم تبع للإمام ، وإمامهم الآن قائم للإقامة لا للصلاة ، وكذلك بعد فراغه من الإقامة مالم يدخل المسجد لايقومون ، فإذا اختلط بالصفوف قام كل صف جاوزهم حتى ينتهى إلى المحراب ، وكذلك إذا لم يكن الإمام معهم فى المسجد يُكْره لهم أن يقوموا فى الصف حتى يدخل الإمام ، لقوله ﷺ :

« **لاَتَقُومُوا فِى الصَّفِّ حَتَّى تَرَوْنِى خَرَجْتُ** »

وإن عليا رضى الله تعالى عنه دخل المسجد فرأى الناس قياما ينتظرونه فقال : مالى أراكم سامدين أى واقفين متحيرين . ومن تثاءب فى الصلاة ينبغى له أن يغطى فاه لقوله ﷺ :

« **إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فِى صَلاَتِهِ فَلْيُغَطِّ فَاهُ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ فِيهِ أو قال « فَمَهُ** » .

ولأن ترك تغطية الفم عند التثاؤب فى المحادثة مع الناس تعد من سوء الادب ففى مناجاة الرب أولى . قال (وأكره أن يكون الإمام على الدكان والقوم على الأرض) لأن النبى ﷺ نزل عن المنبر لصلاة الجمعة فلو لم يكره كون الإمام على الدكان لصلى على المنبر ليكون أشهر ، وأن حذيفة رضى الله عنه قام على دكان

يصلى لأصحابه ، فجذبه سلمان حتى أنزله ، فلما فرغ قال : أما علمت أن أصحابك يكرهون ذلك ؟ قال : فلهذا اتّبعتك حين جذبتنى . (وروى) أن عمار بن ياسر رضى الله تعالى عنه قام بالمدائن على دكان يصلى بأصحابه . فجذبه حذيفة رضى الله تعالى عنه ، فلما فرغ قال : أما سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن هذا ؟ قال لقد تذكرت ذلك حين جذبتنى . وفى قيامه على الدكان تشبه باليهود وأظهارٌ للتكبر على القوم ، وذلك مكروه ، فإن كان الإمام على الأرض والقوم على الدكان فذلك مكروه فى رواية الأصل ، لأن فيه استخفافا من القوم لأئمتهم . وفى رواية الطحاوى هذا لايكره لأنه مخالف لأهل الكتاب . وكذلك إن كان مع الإمام بعض القوم لم يكره ، ولم يبين فى الأصل حد ارتفاع الدكان . (وذكر) الطحاوى أنه مالم يجاوز القامة لايكره لأن القليل من الارتفاع عفو ، فنى الأرض هبوط وصعود ، والكثير ليس بعفو ، فجعلنا الحد الفاصل أن يجاوز القامة ، لأن القوم حينئذ يحتاجون إلى التكلف للنظر إلى الإمام ، وربما يشتبه عليهم حاله .

قال (ويجوز إمامة الأعمى والأعرابى والعبد وولد الزنا والفاسق وغيرهم أحب إلىّ) والأصل فيه أن مكان الإمامة ميراث من النبى ﷺ ، فإنه أول من تقدم للإمامة ، فيُختار له من يكون أشبه به خلقا وخلقا ثم هو مكانٌ استنبط منه الخلافة فإن النبى ﷺ لما أمر أبا بكر أن يصلى بالناس ، قالت الصحابة بعد موته إنه اختار أبا بكر لأمر دينكم ، فهو المختار لأمر دنياكم ، فإنما يختار لهذا المكان من هو أعظم فى الناس (وتكثير الجماعة مندوب إليه) قال ﷺ :

« صَلاَةُ الرَّجُلِ مَعَ اثْنَيْنِ خَيْرٌ مِنْ صَلاَتِه وَحْدَهُ وصَلاَتُهُ مَعَ الثَّلاثَةِ خَيْرٌ من صَلاَتِهِ مَعَ اثْنَيْنِ » .

وكلما كثرت الجماعة فهو عند الله أفضل . وفى تقديم المعظم تكثير الجماعة فكان أولى . إذا ثبت هذا فنقول تقديم الفاسق للإمامة جائز عندنا ويُكره ، وقال مالك رضى الله عنه : لاتجوز الصلاة خلفَ الفاسق لأنه لمّا ظهرت منه الخيانة فى الأمور الدينية فلا يؤتمن فى أهم الأمور ، ألا ترى أن المشرع أسقط شهادته لكونها أمانة .

(ولنا) حديث مكحول أن النبى ﷺ قال :
« **الجِهَادُ مَعَ كُلِّ أميرٍ والصَّلاَةُ خَلْفَ كُلِّ إمَامٍ والصَّلاةُ على كُلِّ مَيِّتٍ** » وقال
ﷺ : « **صَلُّوا خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وفَاجِرٍ** » .

ولأن الصحابة والتابعين كانوا لايمتنعون من الاقتداء بالحجاج فى صلاة الجمعة وغيرها مع أنه كان أفسق أهل زمانه حتى قال الحسن رحمه الله تعالى : لو جاء كل أمة بخبيثاتها ونحن جئنا بأبى محمد لغلبناهم . وإنما يكره لأن فى تقديمه تقليل الجماعة . وقلما يرغب الناس فى الاقتداء به .

وقال أبو يوسف فى الأمالى أكره أن يكون الإمام صاحب هوى أو بدعة لأن الناس لا يرغبون فى الاقتداء به ، وإنما جاز إمامة الأعمى لأن النبى ﷺ استخلف ابن أم مكتوم على المدينة مرة ، وعتبان بن مالك مرة ، وكانا أعميين ، والبصير أولى لأنه قيل لابن عباس رضى الله تعالى عنهما بعد ما كُفَّ بصره : ألا تؤمهم ؟ قال : كيف أؤمهم وهم يسوونى إلى القبلة ولأن الأعمى قد لايمكنه أن يصون ثيابه عن النجاسات ، فالبصير أولى بالإمامة وأما جواز إمامة الأعرابى فإن الله تعالى أثنى على بعض الأعراب بقوله :
« وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ باللهِ والْيومِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ » الآية

وغيره أولى . لأن الجهل عليهم غالب والتقوى فيهم نادرة ، وقد ذم الله تعالى بعض الأعراب بقوله تعالى :
« الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا » .

وأما العبد فجواز إمامته لحديث أبى سعيد مولى أبى أسيد قال : عرّست وأنا عبد فدعوت رهطا من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم أبو ذرّ فحضرت الصلاة ، فقدمونى فصليت بهم ، وغيره أولى لأن الناس قلما يرغبون فى الاقتداء بالعبيد والجهل عليهم غالب ، لاشتغالهم بخدمة المولى عن تعلم الأحكام ، والتقوى فيهم

نادرة . وكذلك ولد الزنا فإنه لم يكن له أب يفقهه ، فالجهل عليه غالب ، والذى رُوى عن النبى ﷺ :

« **وَلَدُ الزِّنَا شَرُّ الثَّلاثَةِ** » .

فقد روت عائشة رضى الله تعالى عنها هذا الحديث وقالت كيف يصح هذا وقد قال الله تعالى :

« وَلاَتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

ثم المراد شر الثلاثة نسبا ، أو قاله فى ولد زنا بعينه نشأ مرتدا . فأما من كان منهم مؤمنا فالاقتداء به صحيح .

(قال ويؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله وأعلمهم بالسنة وأفضلهم ورعا وأكبرهم سنا) لحديث بن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال :

« **يَؤُمُّ القَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى فَإِنْ كَانُوا سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ فَإِنْ كَانُوا سواءً فأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً فإِنْ كَانُوا سواءً فأكبرُهُمْ سِنًّا وأَفْضَلُهُم وَرَعًا** » .

وزاد فى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها « **فإنْ كَانُوا سَوَاءً فَأَحْسَنُهُم وَجْهاً** » .

فبعض مشايخنا اعتمدوا ظاهر الحديث وقالوا : من يكون أقرأ لكتاب الله تعالى يقدم فى الإمامة لأن النبى ﷺ بدأ به ، وقال النبى ﷺ :

« **أَهْلُ القُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ** »

والأصح أن الأعلم بالسنة إذا كان يعلم من القرآن مقدار ماتجوز به الصلاة فهو أولى ، لأن القراءة يُحتاج إليها فى ركن واحد والعلم يحتاج إليه فى جميع الصلاة ، والخطأ المفسد للصلاة فى القراءة لايعرف إلا بالعلم ، وإنما قُدّم الأقرأ فى الحديث لأنهم كانوا فى ذلك الوقت يتعلمون القرآن بأحكامه على مارُوِىَ أن عمر رضى الله عنه حفظ سورة البقرة فى ثنتى عشرة سنة ، فالأقرأ منهم يكون أعلم فأما فى زماننا فقد يكون الرجل ماهرا فى القرآن ولاحظ له فى العلم ،

فالأعلم بالسنة أولى ، إلا أن يكون ممن يطعن عليه فى دينه . فحينئذ لايقدم لأن الناس لايرغبون فى الاقتداء به (فإن استووا فى العلم بالسنة فأفضلهم ورعا) لقوله ﷺ :

« **مَنْ صَلَّى خَلْفَ عَالِمٍ تَقِيٍّ فكأَنَّمَا صَلَّى خَلْفَ نَبِيٍّ** (وقال) ﷺ : **مِلاَكُ دِينِكُمْ الْوَرَعُ** » .

وفى الحديث يقدم أقدمهم هجرة لأنها كانت فريضة يومئذ ثم انتسخ بقوله ﷺ :

« **لاهِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْح** » .

ولأن أقدمهم هجرة يكون أعلمهم بالسنة لأنهم كانوا يهاجرون لتعلم الأحكام ، فإن كانوا سواء فأكبرهم سنا لقوله ﷺ :

« **الكِبَرَ الْكِبَرَ** »

ولأن أكبرهم سنا يكون أعظمهم حرمة عادة ، ورغبة الناس فى الاقتداء به أكثر والذى قال فى حديث عائشة رضى الله عنها « فإن كانوا سواء فأحسنهم وجها » قيل معناه أكثرهم خبرة بالأمور كما يقال وجه هذا الأمر كذا . وإن حمل على ظاهره فالمراد منه أكثرهم صلاة بالليل . جاء فى الحديث

« **مَنْ كَثُرَتْ صَلاَتُهُ بالَّلْيلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالَّنهَارِ** »

قال : ويكره للرجل أن يؤم الرجل فى بيته إلا بإذنه لقوله ﷺ :

لاَيَؤُمُّ الرجُلُ الرجُلَ فى سُلْطَانِهِ ولاَيَجْلِس عَلَى تَكْرِمَتِهِ إلاَّ بإِذْنِهِ »

ولأن فى التقدم عليه ازدراء به بين عشيرته وأقاربه . وذلك لايليق بحسن الخلق إلا أن يكون الضيف سلطانا فحقُّ الإمامة له حيث يكون ، وليس للغير أن يتقدم عليه إلا بإذنه ، وإذا كان مع الإمام رجلان فإنه يتقدم الإمام ويصلى بهما لأن للمثنى حكم الجماعة . قال ﷺ :

« **الاثْنَانِ فَمَا فَوْقَهُمَا جَمَاعَةٌ** »

وكذلك معنى الجمع من الاجتماع وذلك حاصل بالمثنى والذى روى أن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه صلى بعلقمة والأسود فى بيت واحد فقام فى وسطهما . قال إبراهيم النخعى رحمه الله : كان ذلك لضيق البيت . والأصح أن هذا كان مذهب ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ، ولهذا قال فى الكتاب : وإن لم يتقدم الإمام وصلى بهم فصلاتهم تامة لأن فعلهم حصل فى موضع الاجتهاد ، وأقل الجمع المتفق عليه ثلاثة ، والتقدم للإمامة من سنة الجماعة . ولهذا قال أبو حنيفة ومحمد رحمهما الله تعالى فى صلاة الجمعة : النصاب ثلاثة سوى الإمام (وإن كان القوم كثيرا فقام الإمام وسطهم أو فى ميمنة الصف أو فى ميسرة الصف فقد أساء الإمام وصلاتهم تامة) . أما جواز الصلاة فلأن المفسد تقدمُ القوم على الإمام ولم يوجد ، وأما الكراهة فلأن النبى ﷺ تقدم للإمامة بأصحابه رضوان الله عليهم وواظب على ذلك . والإعراض عن سنته مكروه ، ولأن مقام الإمام فى وسط الصف يشبه جماعة النساء ، ويكره للرجال التشبه بهن (وإن تقدم المقتدى على الإمام لايصح اقتداؤه به إلا على قول مالك رحمه الله تعالى فإنه يقول : الواجب عليه المتابعة فى الأفعال ، فإذا أتى به لم يضره قيامه قدّام الإمام) (ولنا)(*) الحديث ليس مع الإمام من يقدمه ، ولأنه إذا تقدم على الإمام اشتبه عليه حالة افتتاحه واحتاج إلى النظر وراءه فى كل وقت ليقتدى به . فلهذا لايجوز . فإن كان مع الإمام واحد وقف على يمين الإمام لحديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال بت عند خالتى ميمونة رضى الله عنها لأراقب صلاة النبى ﷺ بالليل . فانتبه فقال :

« نَامَتْ الْعُيُونُ وَغَارَتْ النُّجُومُ وَبقِىَ الحَىُّ القَيُّوم . ثم قرأَ آخِرَ سُورَةِ آل عِمْرَانَ : إنَّ فى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ إلى آخر الآيَةِ ثُمَّ قَامَ إلى شَنٍّ ماءٍ مُعَلَّقٍ فَتَوَضَّأَ وافْتَتَحَ الصَّلاَةَ فَقُمْتُ وَتَوَضَّأْتُ ، وَوَقَفْتُ عَلَى يَسَارِهِ ، فأَخَذَ بِأُذُنِى وَأَدَارَنِى خَلْفَهُ حَتَّى أَقَامَنِى عَنْ يَمِينِهِ فَعُدْتُ إلى مَكَانِى . فَأَعَادَنِى ثَانِياً وَثَالِثًا

(*) لنا أى لشارح الكتاب وهو السرخسى .

فلمَّا فَرَغَ قالَ : مَامَنَعَكَ ياغلامُ أنْ تَثْبُتَ فى المَوْضِعِ الذّى أَوْقَفْتُكَ ، قلتُ : أنتَ رسولُ اللهِ ولاَيَنْبَغِى لأَحدٍ أَنْ يُسَاوِيَكَ فى الْمَوْقِفِ فقالَ : اللّهُمَّ فَقِّهْهُ فى الدِّينِ وَعلِّمْهُ التَّأْوِيلَ »

فإعادةُ رسول الله ﷺ إياه إلى الجانب الأيمن دليل على أنه هو المختار إذا كان مع الإمام رجل واحد . (وفى ظاهر الرواية لايتأخر المقتدى عن الإمام ، وعن محمد رحمه الله تعالى قال ينبغى : أن تكون أصابعه عند عقب الإمام وهو الذى وقع عند العوام) وإن كان المقتدى أطول فكان سجوده قدام الإمام لم يضره لأن العبرة بموضع الوقوف لابموضع السجود ، كما لو وقف فى الصف ووقع فى سجوده أمام الإمام لطوله : وإن صلت خلفه امرأة جازت صلاته لحديث أنس رضى الله عنه أن جدته مليكة رضى الله تعالى عنها دعت رسول الله ﷺ إلى طعام فقال :

« قُومُوا لأُصَلِّىَ بِكُمْ فَأَقَامَنى واليتيمُ مِنْ وَرَائِهِ وأُمِّى أُمُّ سُلَيْمٍ وَرَاءَنَا » .

وصلاة الصبى تخلق ، فبقى أنس رضى الله تعالى عنه واقفا خلفه وحده ، وأم سليم وقفت خلف الصبى وحدها . وفى الحديث دليل على أنه إذا كان مع الإمام اثنان ، يتقدمها الإمام ، ويصطفان خلفه . (قال) وكذلك إن وقف على يسار الإمام ، لأن ابن عباس رضى الله عنهما وقف فى الابتداء عن يساره واقتدى به ، ثم جواز اقتدائه به وفى الإدارة حصل خلفه ، فدل أن شيئا من ذلك غير مفسد قال (وهو مسىء من أصحابنا من قال هذه الإساءة إذا وقف عن يسار الإمام لاخلفه) لأن الواقف خلفه أحد الجانبين منه على يمينه فلايتم إعراضه عن السنة بخلاف الواقف على يساره (والأصح أن جواب الإساءة فى الفصلين جميعا لأنه عَطَفَ أحدهما على الآخر بقوله : وكذلك) والله سبحانه وتعالى أعلم . .

باب القيام فى الفريضة (٢)

قال محمد رحمه الله تعالى فى الأصل بلغنا عن النبى ﷺ أنه قال :

« **مَنْ أمَّ قَوْماً فَلْيُصَلِّ بِهِمْ صَلاَةَ أَضْعَفِهِمْ فإنَّ فِيهِمْ الكَبِيرَ والمَرِيضَ وَذَا الْحَاجَةِ** » .

وفى هذا دليل على أنه لا ينبغى للإمام أن يطوّل القراءة على وجه يملّ القوم ، لقوله ﷺ :

« **إِنَّ مِنَ الأئِمَّةِ الطَّرَّادِينَ** » .

ولما شكا قوم معاذا رضى الله تعالى عنه إلى رسول الله ﷺ تطويل القراءة دعاه قال الراوى فما رأيته فى موعظة أشدّ منه فى تلك الموعظة قال :

« **أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذ** » قالها ثلاثا « **أيْنَ أَنْتَ مِنْ والسَّمَاءِ والطَّارِقِ ، والشَّمْسِ وَضُحَاهَا** » ،

وقال ﷺ :

« **تكَلَّفُوا مِنَ الأعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ فإنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يَمَلُّ حتىَّ تَمَلُّوا** » .

وقال أنس رضى الله تعالى عنه : ما صليت خلف أحد أتمَّ وأخفَّ مما صليت خلف رسول الله ﷺ . وروى أن رسول الله ﷺ قرأ المعوذتين فى صلاة الفجر يومًا فلما فرغ قالوا : أوجزت قال :

« **سمِعْتُ بُكَاءَ صَبِيٍّ فَخَشِيتُ عَلَى أُمِّهِ أنْ تُفْتَنَ** »

فدل أن الإمام ينبغى له أن يراعى حال قومه ، قال : (ويقرأ الإمام فى

---

(٢) المبسوط الجزء الأول صفحة ١٦٢ - ١٦٩ .

الفجر فى ركعتين جميعا بأربعين آية مع فاتحة الكتاب) يعنى سواها ، وفى الجامع الصغير قال : بأربعين خمسين ستين ، وفى رواية الحسن(*) عن أبى حنيفة رحمه الله تعالى قال : ما بين الستين إلى مائة آية ، وهذا لاختلاف الآثار فيه ، فعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى الفجر يوم الجمعة .

« آلم » تنزيل السجدة ، « وهَلْ أتَى عَلَى الإنْسَانِ » .

وعن مورق العجلى ، قال : تلقفت سورة قّ واقتربت من فى(**) رسول الله ﷺ من كثرة قراءته لها فى صلاة الفجر وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه ﷺ قرأ .

« والْمُرْسَلاَتِ » و « عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ » .

فى صلاة الفجر ، وفى رواية ،

« إذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » و « إذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » .

وأن أبا بكر رضى الله تعالى عنه قرأ فى الفجر سورة « البقرة » فلما فرغ قال له عمر : كادت الشمس تطلع يا خليفة رسول الله ، فقال : لو طلعت لم تجدنا غافلين ، وعمر رضى الله عنه قرأ فى الفجر سورة يوسف فلما انتهى إلى قوله .

« إنَّمَا أشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إلى اللهِ » .

خنقته العبرة فركع ؛ فلما اختلفت الآثار اختلفت الروايات فيه كما بينا . ووجه التوفيق أن القوم إن كانوا من علية الرجال يرغبون فى العبادة قرأ مائة آية كما فى رواية الحسن ، وإن كانوا كسالى غير راغبين فى العبادة يقرأ أربعين آية كما فى الأصل ، وإن كانوا فيما بين ذلك يقرأ خمسين ستين كما فى الجامع الصغير ، وقيل يبنى على كثرة اشتغال القوم وقيل غير ذلك ، ويختلف ذلك باختلاف الأوقات ،

(*) هو الحسن بن زياد اللؤلؤى تلميذ أبى حنيفة .

(**) يعنى من فم رسول الله ﷺ .

وقيل يبنى على طول الليالى وقصرها ، وقيل يبنى على حال نفسه فى الخفة والثقل وحسن الصوت ، والحاصل أنه يتحرز عما ينفرّ القوم عنه لكيلا يؤدى إلى تقليل الجماعة . ويقرأ فى الظهر بنحو ذلك أو دونه لحديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه حذرنا قراءة رسول الله ﷺ فى صلاة الظهر فى الركعتين بثلاثين آية . قال سجد رسول الله ﷺ فى صلاة الظهر ، فظننا أنه قرأ « ألم تنزيل السجدة » . وعن النعمان بن بشير أن النبى ﷺ قرأ فى الجمعة سورة «الجمعة والمنافقين» والقراءة فى الظهر نحو القراءة فى الجمعة قال « ويقرأ فى العصر بعشرين آية مع فاتحة الكتاب) لحديث أبى هريرة رضى الله عنه وجابر بن سمرة رضى الله تعالى عنهما ؛ كان النبى ﷺ يقرأ فى العصر بعشرين آية سورة .

« سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى » و « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ »

وفى العشاء مثل ذلك فى رواية الأصل . وفى رواية الحسن مثل قراءته فى الظهر . وفى المغرب بسورة قصيرة : خمس آيات أو ستا مع فاتحة الكتاب لحديث عمر رضى الله تعالى عنه فإنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه : أن اقرأ فى الفجر والظهر بطوال المفصل ، وفى العصر والعشاء بأوساط المفصل ، وفى المغرب بقصار المفصل . ومن أصحابنا من تكلف فيه لمعنى ، قال الفجر يؤدَّى فى حال نوم الناس فيطوّل القراءة فيها لكى لا تفوتهم الجماعة ، وكذلك الظهر فى الصيف ، فإن الناس يقيلون . وأما العصر ، يؤدى فى حال حاجة الناس إلى الرجوع إلى منازلهم ، فلتكن القراءة فيها دون ذلك ، وكذلك العشاء تؤدى فى حال عزم الناس على النوم ، والمغرب تؤدى فى حال عزم الناس على الأكل ، فلتكن القراءة فيها أقصر لقلة صبر الناس على الأكل خصوصا للصائمين قال : (وما قرأ فى الوتر من شيء فهو حسن) وقد بلغنا عن النبى ﷺ أنه قرأ فى الركعة الأولى من الوتر .

« بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » .

وفى الثانية .

« بِقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » .

وفى الثالثة « بقُلْ هُو اللهُ أَحَدٌ » والكلام فيه في فصول (أحدها) أن الوتر ثلاث ركعات لايسلم إلا فى آخرهن عندنا(*) وقال الشافعى رحمه الله تعالى : ركعة واحدة ، وقال مالك رحمه الله تعالى : ثلاث ركعات بتسليمتين ، واستدل الشافعى بقوله عليه الصلاة والسلام :

« إنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ فَأَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ » .

ومالك استدل بحديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال النبى ﷺ :

« صَلاَةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى فإذَا خَشِيتَ الصُّبْحَ فَأَوْتِرْ بركعةٍ يُوتِرُ لَكَ مَا قَبْلَهُ »

وكان سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه يوتر بركعة واحدة (ولنا) حديث عائشة رضى الله تعالى عنها كما روينا فى صفة قيام رسول الله ﷺ « ثم يوتر بثلاث » . وبعث ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أمه لتراقب وتر رسول الله ﷺ فذكرت أنه أوتر بثلاث ركعات ، قرأ فى الأولى : « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى » وفى الثانية « قُلْ يَا أَيُّها الْكَافِرُونَ » وفى الثالثة « قُلْ هُو الله أَحَدٌ » وقنت قبل الركوع وهكذا ذكر ابن عباس رضى الله عنهما حين بات عند خالته ميمونة ليراقب وتر رسول الله ﷺ ، ولما رأى عمر رضى الله تعالى عنه سعداً يوتر بركعة ، فقال : ما هذه البتيراء ، لتشفعنها ، أو لأوذينك ، وإنما قال ذلك لأن الوتر اشتهر أن النبى ﷺ نهى عن البتيراء . وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : والله ما أجزأت ركعة قط ، ولأنه لو جاز الاكتفاء بركعة فى شىء من الصلوات لدخل فى الفجر قصر بسبب السفر ، ولا حجة له فيما روى ، فإن الله تعالى وبر لا من حيث العدد (والفصل الثانى) أنه يقنت فى الوتر فى جميع السنة عندنا لما روينا . وعند الشافعى رضى الله تعالى عنه لايقنت إلا فى النصف الأخير من رمضان ، لِمَا روى أن عمر رضى الله تعالى عنه لَمَّا أمر أبىّ بن كعب بالإمامة فى ليالى رمضان ، أمره بالقنوت فى النصف الأخير منه ، وتأويله عندنا أنّ المراد بالقنوت طول القراءة لا القنوت فى الوتر (والثالث) أنه يقنت قبل الركوع عندنا ، لما روينا من الآثار

(*) المقصود بلفظ عندنا أى عندنا نحن الأحناف .

ولأن القنوت فى معنى القراءة ، فإن قوله « اللهم إنا نستعينك » مكتوب فى مصحف أبيّ وابن مسعود فى سورتين ، فالقراءة قبل الركوع ، فكذلك القنوت . وعند الشافعى رحمه الله تعالى بعد الركوع ، ولا أثر له فى قنوت الوتر فى ذلك ، إنما الأثر فى القنوت فى صلاة الفجر ، فقاس به القنوت فى الوتر قال (ولا قنوت فى شىء من الصلوات سوى الوتر عندنا) . وقال الشافعى رحمه الله تعالى : يقنت فى صلاة الفجر فى الركعة الثانية بعد الركوع ، واستدل بحديث أنس رضى الله تعالى عنه كان النبى ﷺ يقنت فى صلاة الفجر إلى أن فارق الدنيا ، وقد صح قنوته فيها ، فمن قال إنه انتسخ ، فعليه إثباته بالدليل ، وقد صح أن عليا رضى الله تعالى عنه فى حروبه كان يقنت على من ناوأه فى صلاة الفجر (ولنا) حديث ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قنت فى صلاة الفجر شهرا يدعو على حى من أحياء العرب ، ثم تركه ، وهكذا عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قنت رسول الله ﷺ فى صلاة الفجر شهرا ، أو قال أربعين يوما يدعو على رعل وذكوان ، ويقول فى قنوته :

« اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ على مُضَرٍ واجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِى يُوسُفَ » .

فلما نزل قوله تعالى :

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ »

الآية ترك ذلك ، وقال أبو عثمان النهدى رضى الله تعالى عنه : صليت خلف أبى بكر سنين ، وخلف عمر كذلك ، فلم أر واحداً منهما يقنت فى صلاة الفجر . ورووا القنوت ورووا تركه كذلك ، ففعله المتأخر ينسخ فعله المتقدم . وقد صح أنه كان يقنت فى صلاة المغرب كما يقنت فى صلاه الفجر ، ثم انتسخ أحدهما بالاتفاق ، فكذلك الآخر قال (وكان يقال : مقدار القيام فى القنوت) « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ » وليس فيها دعاء مؤقت يريد به سوى قوله « اللهم إنا نستعينك » فالصحابة اتفقوا على هذا فى القنوت ، والأولى أن يأتى بعده بما علّم رسول الله ﷺ الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما فى قنوته « اللَّهُمَّ اهْدِنِى فِيمَنْ هَدَيْتَ) إلى آخره ، والقراءة أهم من القنوت ، فإذا لم يؤقت فى القراءة فى

شيء فى الصلاة فنى دعاء القنوت أولى . وقد روى عن محمد رحمه الله تعالى التوقيت فى الدعاء يذهب برقة القلب . ومشايخنا قالوا : مراده فى أدعية المناسك ، فأما فى الصلاة إذا لم يؤقت ، فربما يجرى على لسانه ما يفسد صلاته . قال (ويرفع يديه حين يفتتح القنوت) للحديث المعروف :

« **لاَ تُرْفَعَ الأَيْدِى إلاَّ فى سَبْعَةِ مَوَاطِنَ ، فى افتتاحِ الصَّلاةِ ، وقُنُوتِ الوِتْرِ ، وفى العِيدَيْنِ ، وعِنْدَ استِلامِ الْحَجَرِ ، وعَلَى الصَّفَا والْمَرْوَةِ ، وَبِعَرَفَاتٍ وَبِجَمْعٍ (*) وعند المَقَامَيْنِ وعندَ الجَمْرَتَيْنِ** »

(ثم يكفيهما) قيل معناه يرسلهما ليكون حال الدعاء مخالفا لحال القراءة ، وقيل يضع إحداهما على الأخرى لأن القنوت مشبه بالقراءة وهو الأصح ، فالوضع سنة القيام ، فكل قيام فيه ذكر فإنه يطول ، فالوضع فيه أولى . وعن محمد بن الحنفية رضى الله تعالى عنه قال : الدعاء أربعة ، دعاء رغبة ودعاء رهبة ، ودعاء تضرع ودعاء خفية . فنى دعاء الرغبة يجعل بطون كفيه نحو السماء ، وفى دعاء الرهبة يجعل ظهر كفيه إلى وجهه كالمستغيث من الشيء ، وفى دعاء التضرع يعقد الخنصر والبنصر ويحلق بالإبهام والوسطى ويشير بالسبابة ، ودعاء الخفية مايفعله المرء فى نفسه وعلى هذا قال أبو يوسف رحمه الله تعالى فى « الإملاء » يستقبل بباطن كفيه القبلة عند افتتاح الصلاة واستلام الحجر وقنوت الوتر وتكبيرات العيد ، ويستقبل بباطن كفيه السماء عند رفع الأيدى على الصفا والمروة وبعرفات وبجمع وعند الجمرتين ، لأنه يدعو فى هذه المواقف بدعاء الرغبة . والاختيار الإخفاء فى دعاء القنوت فى حق الإمام والقوم ، لقوله ﷺ :

« **خَيْرُ الدُّعَاءِ الْخَفِىُّ** » .

وعن أبى يوسف رحمه الله تعالى أن الإمام يجهر والقوم يؤمنون على قياس الدعاء خارج الصلاة قال (وإذا أمّ الرجل نساء فى مسجد جماعة ليس معهن

(*) جمع بفتح فسكون هو المزدلفة وهو المشعر ، سمى جمعا لاجتماع الناس به .

رجل فلا بأس بذلك) لما روى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه أمر أبيّ بن كعب أن يصلى بالرجال فى ليالى رمضان وسليمان بن أبى حثمة بأن يصلى بالنساء ولأن المسجد ليس بموضع الخلوة فلا بأس للرجل أن يجمع معهن فيه ، فأما فى غير المسجد من البيوت ونحوها فإنه يكره ذلك إلا أن يكون معهن ذو رحم محرم منهن لقوله ﷺ :

« ألاَ لاَ يَخْلُوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ ليس مِنْها بَسَبِيل فإنَّ ثَالِثَهُمَا الشيْطَانُ » .

وبتفرد النساء يزداد معنى خوف الفتنة فلا تزول الكراهة إلا أن يكون معهن محرم لحديث أنس رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ صلى بهم فى بيتهم ، قال فأقامنى واليتيم من ورائه ، وأقام أمى أم سليم وراءنا ، ولأن بوجود المحرم يزول معنى خوف الفتنة ، ويستوى إن كان المحرم لهن أو لبعضهن ، وتجوز الصلاة بكل حال لأن الكراهة لمعنىً فى غير الصلاة .

قال (رجل فاتته الصلاة بالجماعة فى مسجد حيه فإن أتى مسجدا آخر يرجو إدراك الجماعة فيه فحسن ، وإن صلى فى مسجد حيه فحسن) لحديث الحسن ، قال : كانوا إذا فاتتهم الجماعة فمنهم من يصلى فى مسجد حيه ومنهم من يتبع الجماعة ، ومراده الصحابة . ولأن فى كل جانب مراعاة جهة وترك أخرى فى أحد الجانبين ، مراعاة حرمة مسجده وترك الجماعة ، وفى الجانب الآخر مراعاة فضيلة الجماعة وترك حق مسجده ، فإذا تعذر الجمع بينهما مال إلى أيهما شاء ، والأولى فى زماننا إن لم يدخل مسجده بعد أن يتبع الجماعة ، فإن دخل مسجده صلى فيه . قال (ولا بأس بأن يتطوع قبل المكتوبة إذا لم يخف فوات الوقت) وكان الكرخى رحمه الله تعالى يستدلّ بهذا اللفظ أن له أن يترك الأربع قبل الظهر إذا فاتته الجماعة ، لأنه قال لا بأس بأن يفعل ، فدل أن له أن يترك وهو الذى وقع عند العوام ، والمعنى فيه أن من فاتته الجماعة فهو كالمدد لهم ، فليجعل أداء الفريضة ليلحق بهم فى أن لا يتطوع قبل المكتوبة إلا لم يخف فوات الوقت ، والأصح أنه لا ينبغى له أن يدعه لأن التطوع مشروع جبرا لنقصان الفرائض ، وحاجة من فاتته الجماعة إلى هذا أمسّ .

قال (وإذا أخذ المؤذن فى الإقامة كرهت للرجل أن يتطوع لقوله ﷺ : **« إذَا أُقِيمَتْ الصَّلاَةُ فَلاَ صَلاَةَ الاَّ المكْتُوبَةُ إلاَّ ركْعَتَىْ الفَجْرِ فإنِّى لَمْ أكْرَهِهُمَا »**)

وكذلك إذا انتهى إلى المسجد وقد افتتح القوم صلاه الفجر ، يأتى بركعتى الفجر إن رجا أن يدرك مع الإمام ركعة فى الجماعة ، وهذا عندنا . وقال الشافعى رحمه الله تعالى : يدخل مع الإمام على قياس سائر التطوعات « ولنا » ماروى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه دخل المسجد والإمام فى صلاة الفجر فقام إلى سارية من سوارى المسجد وصلى ركعتى الفجر ثم دخل مع الإمام . وعن أبى عثمان النهدى قال : إنى لأذكر أن أبا بكر كان يفتتح صلاة الفجر ، فيدخل الناس ويصلون ركعتى الفجر ، ثم يدخلون معه ، وهذا بناء على أن عندنا لا يقضى هاتين الركعتين بعد الفوات فيحرزهما إذا طمع فى إدراك ركعة من الصلاة كإدراك جميع الصلاة . قال ﷺ :

« مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنَ الْفَجْرِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فَقَدْ أدْرَكَ » .

وعند الشافعى رحمه الله تعالى يقضيها بعد الفراغ من الصلاة ، فيشتغل بإحراز فضيلة تكبيرة الافتتاح ، وإن خاف فوت الجماعة دخل مع القوم ، لأن أداء الصلاة بالجماعة من سنن الهدى ، قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : عليكم بالجماعات فإنها من سنن الهدى ، ولو صليتم فى بيوتكم كما فعل هذا المتخلف ، لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم (وقال) عمر رضى الله تعالى عنه : لقد هممت أن آمر من يصلى بالناس ثم أنظر إلى من لم يشهد الجماعة فآمر فتيانى أن يحرقوا بيوتهم . فدل أن الجماعة أقوى السنن ، فيشتغل بإحراز فضيلتها ، ولم يذكر إذا كان يرجو إدراك التشهد . وقيل على قول أبى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله إدراك التشهد كإدراك ركعة كما فى صلاة الجمعة ، فيبدأ بركعتى الفجر . وعند محمد رحمه الله تعالى لا يعتبر إدراك التشهد كإدراك ركعة فيدخل مع الإمام .

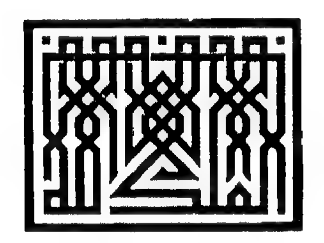
قال (رجل سلم على تمام من صلاته فى نفسه ثم اقتدى به رجل وكبر ، ثم ذكر الإمام أن عليه سجدة التلاوة أو أنه لم يقرأ التشهد فى الرابعة ، فاقتداء الرجل به صحيح ، لأن سلام الإمام سهو ، وسلام السهو لا يخرجه من الصلاة ، فحصل الاقتداء فى حال بقاء تحريمه الإمام ، فإن عاد الإمام إلى سجدة التلاوة ، أو قرا قراءة التشهد تابعه الرجل ثم يقوم لإتمام صلاته بعد فراغ الإمام من التشهد ، أو من سجود السهو ، وإن لم يعد الإمام إليها لم تفسد صلاته ، لأن ما تذكر ليس من الأركان ، وكذلك لا تفسد صلاة المقتدى فيقوم لإتمام صلاته ، وإن ذكر الإمام أن عليه سجود السهو ، فعلى قول أبى حنيفة وأبى يوسف رحمهم الله تعالى اقتداء الرجل به ، فإن عاد الإمام إلى سجود السهو صح الاقتداء وتابعه الرجل ، وإن لم يعد ، لا يصح اقتداؤه به . وعند محمد وزفر رحمهم الله تعالى الاقتداء صحيح على كل حال . وقال بشر : لا يصح الاقتداء على كل حال ، لأن مذهبه أن سجود السهو ليس من الصلاة ، فإنه يؤدى بعد السلام . وعندنا سجود السهو من الصلاة لأنه جبر لنقصانها ، ثم عند محمد وزفر رحمهما الله تعالى : من سلم وعليه سجود السهو لا يصير خارجا من الصلاة لأنه قد بقى عليه واجب من واجبات الصلاة ، فهو كسجدة التلاوة ، وقراءة التشهد . ولو خرج من الصلاة لم يعد فيها إلا بتحريمة جديدة ، فإذا لم يخرج صح اقتداء الرجل به على كل حال . وعند أبى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله : بالسلام يخرج من الصلاة ، لأن السلام محلل . قال ﷺ :

« وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ » .

وقد أتى به فى موضعه مع العلم بحاله فيعمل عمله فى التحليل ، إلا أنه إذا عاد يعود إلى حرمة الصلاة ضرورة ، ولا تتحقق تلك الضرورة قبل عوده ، فيخرج بالسلام من الصلاة عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى ثم يعود إليها بالعود إلى سجود السهو ، وعند أبى يوسف رحمه الله تعالى يتوقف حكم خروجه من الصلاة ، فلهذا كان الاقتداء به موقوفا . وينبنى على هذا الأصل أربع مسائل : (إحداها) ما بينا (والثانية) إذا نوى المسافر الإقامة بعد ما سلم وعليه سجود

السهو فعند أبى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله تعالى لا يتعين فرضه . ويسقط عنه سجود السهو . وعند محمد وزفر رحمهما الله تعالى يتعين فرضه فيقوم لإتمام صلاته (والثالثة) إذا ضحك قهقهة فى هذه الحالة لم يلزمه الوضوء فى قول أبى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله تعالى . وقال محمد رحمه الله تعالى : يلزمه الوضوء لصلاة أخرى (والرابعة) إذا اقتدى به رجل بنية التطوع ثم تكلم قبل عود الإمام إلى سجود السهو فليس عليه قضاء شيء عند أبى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله تعالى . وإن عاد الإمام إلى سجود السهو بعد ذلك . وعند محمد رحمه الله تعالى عليه قضاء التطوع . لأن اقتداءه به حصل فى حال بقاء الحرمة . فصار شرعا فى التطوع ثم مفسدا . فعليه القضاء . والله سبحانه وتعالى أعلم . .

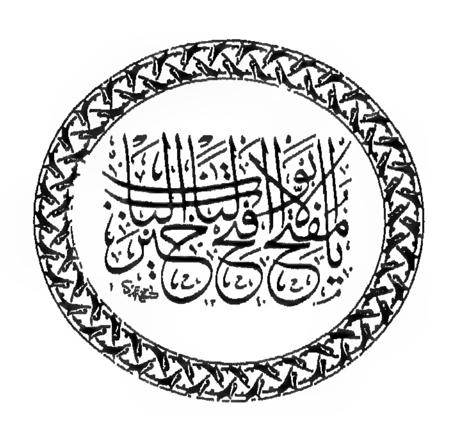
وأما بنعمة ربك فحدث



نموذج من كتاب الخراج
لأبي يوسف

فصل في الجزائر في دجلة والفرات والغروب





نموذج من كتاب الخراج
لأبي يوسف

فصل
(فى الجزائر فى دجلة والفرات والغروب)

قال أبو يوسف رحمه الله : وسألتَ يا أمير المؤمنين عن الجزائر التى تكون فى دجلة والفرات ينضب عنها الماء ، فجاء رجل وفى جزيرة أرض له فحصنها من الماء ، وزرع فيها ، أو إذا نضب الماء عن جزيرة دجلة أو الفرات فجاء رجل ملاصق لتلك الجزيرة بأرض له فحصنها من الماء وزرع فيها ، فهى له ، وهذا مثل الأرض الموات إذا كان ذلك لايضر بأحد ، وإن كان يضر أحداً منع من ذلك ولم يترك يحصنها ولايزرع فيها ، ويُحدِث فيها حدثا إلا بإذن الإمام ، فأما إذا نضب الماء عن جزيرة فى دجلة — مثل هذه الجزيرة التى بحذاء بستان موسى ، وهذه الجزيرة التى من الجانب الشرقى — فليس لأحد أن يحدث فيها شيئا لابناءً ولازرعا ، لأن مثل هذه الجزيرة إذا حصنت وزرعت ، كان ذلك ضررا على أهل المنازل والدور . قال : ولايسع الإمام أن يقطع شيئا من هذا ، ولايُحْدِث فيه حدثا .

قال : وأما ماكان خارج المدينة فهو بمنزلة الأرض الميتة ، يحييها الرجل ويؤدى عنها حق السلطان ، ولو أن رجلا فى طائفة من البطيحة[1] مما ليس فيه ملك لأحد ، غلب عليه الماء فضرب عليها المسناة واستخرجها وأحياها وقطع مافيها من القصب ، فإنها بمنزلة الأرض الميتة . وكذلك كل ماعالج من أجمة أو من بحر أو من برّ . بعد أن لايكون فيه ملك لإنسان فاستخرجه رجل وعمره ، فهو له ، وهو بمنزلة الموات ، ولو أن رجلا أحيا من ذلك شيئا قد كان له مالك

---

(١) البطيحة والأبطح كل مكان متسع .

قبله ، رددت ذلك إلى الأول . ولم أجعل للثاني فيه حقا ، فإن كان الثانى قد زرع فيه فله زرعه وهو ضامن لما نقصت الأرض ، وليس عليه أجرة ، وهو ضامن لما قطع من قصبها ، وكذلك لوكانت هذه الأرض فى البرية فيها نبات لأنها بمنزلة القصب . .

قال : ولو أن رجلا حظر حظيرة فى البطيحة ، وكرى لها نهرا فجاء رجل فقال : أنا أدخل معك فى هذه الأرض وأشركك فيها ، فإن كان نضب الماء عنها حين دخل معه فالشركة باطلة ، وإن كان لم ينضب عنها فالشركة جائزة . وكذلك إذا كان فى بريّة فأتاه رجل فقال : أنا أدخل معك ، فإن كان قد حفر فيها بركة أو بئراً أو نهرا وساق إليها الماء ، فالشركة فى هذا فاسدة ، وإن كان لم يحفر ولم يكرِ فالشركة جائزة مثل الأول .

قال : وإذا نضب الماء عن جزيرة فى دجلة أو الفرات ، وكانت بحذاء منزل رجل وفنائه ، فأراد أن يصيرها فى فنائه ويزيدها فيه ، فليس له ذلك ولايترك ذلك . .

فإن جاء رجل فحصها من الماء ، وزرع فيها وأدّى عنها حق السلطان ، فهى بمنزلة أرض الموات يحييها الرجل. فإن أراد هذا الذى هى بحذاء فنائه أن يعتملها ويؤدى عنها حق السلطان ، فهو أحق بها وهى له ، وإن كانت هذه الجزيرة التى نضب عنها الماء إذا حصلت وضرب عليها المسناة أضر ذلك بالسفن التى تمر بدجلة والفرات وخاف المارة فى السفن الغرق من ذلك ، أخرجت من يد هذا ، وردت إلى حالها الأولى ، لأن هذه الجزيرة بمنزلة طريق المسلمين ، ولاينبغى لأحد أن يحدث شيئا فى طريق المسلمين مما يضرهم ، ولايجوز للإمام أن يقطع شيئا من طريق المسلمين مما فيه الضرر عليهم ، ولايسعه ذلك . وإن أراد الإمام أن يُقْطِعَ طريقاً من طرق المسلمين الجادة رجلاً يبنى عليه وللعامة طريق غير ذلك قريب أو بعيد منه لم يسعه إقطاع ذلك ولم يحل له وهو آثم إن فعل ذلك ، وكذلك الجزائر التى ينضب عنها الماء فى مثل الفرات ودجلة للإمام أن يُقْطِعَها إذا لم يكن فى ذلك ضرر على المسلمين فإن كان فى ذلك ضرر لم يُقْطِعْها ، ومن أحدث فيها حدثا وكان فيه ضرر ، ردت إلى حالها الأولى . .

وسألتَ عن الغروب التى تتخذ فى دجلة وفى ممر السفن التى تمر إلى دجلة وفيها نفع وضرر ، فان كانت تضر بالسفن التى تمر فى دجلة نحيت ولم يترك أصحابها وإعادتها إلى ذلك الموضع ، وإن لم يكن فيها ضرر تركت على حالها .

فقيل لأبى يوسف فيها من الضرر أن السفينة ربما حملها الماء عليها فانكسرت ، قال أبو يوسف : ماتكسر عليها من السفن ، فصاحب الغربة ضامن لذلك ، ولايترك الإمام شيئا من ذلك إلا أمر به فهم ونحى ، فإن فى ذلك ضررا عظيما ، فالفرات ودجلة إنما هما بمنزلة طريق المسلمين ليس لأحد أن يحدث فيه شيئا ، فمن أحدث فيه شيئا فعطب بذلك عاطب ضمن ، وقد أرى أن يوكل بذلك رجلا ثقة أمينا حتى يتتبع ذلك ولايدع من هذه الغروب شيئا فى دجلة والفرات فى موضع يضـــر بالسفن ويتخوف عليها منه إلا نَحَّاهُ وتوعَّد أهله على إعادة شىء منه ، فإن فى ذلك أجرا عظيما . .

فصـــل

(فى القنى والآبار والأنهار والشرب)

قال أبو يوسف : وسألتَ يا أمير المؤمنين عن نهر حافتاه صارا كبسا[٢] على طريق العامة ، حتى أضر ذلك بمنازل قوم من فعل وال أو أمير أو من غير فعله ، وأضر ذلك بغير واحد فى منازلهم ، فى حال أنهم يدخلون منازلهم فى هبوط وشدة ، ما القول فى ذلك ؟ أيكون للإمام أن يأمرهم بطم هذا ونقضه إذا رفع إليه ؟

قال : إن كان هذا النهر قديما فإنه يترك على حاله ، وإن كان محدثا من فعل وال أو غيره ، نظر فى ذلك إلى منفعته وإلى ضرره ، فإن كانت منفعته أكثر ، ترك على حاله ، وإن كان ضرره أكثر ، أمرت بهدمه وطمّه وتسويته بالأرض ، وكل نهر له منفعة أكثر فلا ينبغى للإمام أن يهدمه ولايتعرض له ، وكل نهر مضرته أكثر من منفعته فعلى الإمام أن يهدمه ويطمّه ويسويه بالأرض إلا ماكان للشفة[٣] ،

(٢) كبس البئر والنهر طمها بالتراب . وذلك التراب كبس بكسر الكاف .

(٣) أى شرب الشفة دون سقى الأرض .

فإن كان فيه ضرر على قوم وصلاح لآخرين فى الشفة لم يتعرض له وإن تعرض له قوم فسدّوه أو طمّوه بغير إذن الإمام ، فينبغى للإمام أن يأمر برده إلى حاله وأن يوجعوا عقوبة لأنّ شرب الشفة غير شرب الأرضين شرب الشفة نرى القتال عليه ، ولأصحاب الشفة من هذا النهر أن يمنعوا رجلا أن يسقّى زرعه من تلك ونخله وشجره وكرمه إذا كان يضر بأصحابه .

وسألتَ عن نهر بين قوم خاصة يأخذ من دجلة أو الفرات أرادوا أن يكروه أو يحفروه ، فكيف الحفر عليهم ، فإنهم يجتمعون جميعا فيكرونه من أعلاه إلى أسفله ، فكلما جاوزا أرض رجل رفع عنه الكرى وكرى بقيّتهم كذلك حتى ينتهى إلى أسفله ، وقد قال بعض الفقهاء : يكرى النهر من أعلاه إلى أسفله فإذا فرغ من ذلك حسب أجر جميع حَفْرِ ذلك النهر على جميع مايشرب منه من الأرض فلزم كل إنسان من أهله بقدر ماله . فخذ يا أمير المؤمنين بأى القولين أحببت ، فإنى أرجو أن لايضيق عليك الأمر إن شاء الله تعالى .

قال : وإذا خاف أهل هذا النهر أن ينشق عليهم فأرادوا تحصينه من ذلك فامتنع بعض أهله من الدخول معهم فيه ، فإن كان فى ذلك ضرر عام أجبرهم جميعا على أن يحصنّوه بالحصص ، وإن لم يكن فيه ضرر عام ، لم يجبروا على ذلك ، وأمرت كل إنسان منهم أن يحصن نصيب نفسه ، وليس لأهل هذا النهر أن يمنعوا أحدا أن يشرب منه للشفة ولهم أن يمنعوا من سقى الأرض .

قال : وكل من كانت له عين أو بئر أو قناة فليس له أن يمنع ابن السبيل من أن يشرب منها ويسقّى دابته وبعيره وغنمه منها . وليس له أن يبيع من ذلك شيئا للشفه ، والشفه عندنا الشرب لبنى آدم والبهائم والنعم والدواب ، وله أن يمنع السقى للأرض ، والزرع والنخل والشجر ، وليس لأحد أن يسقّى شيئا من ذلك إلاّ بإذنه ، فإن أذن له فلا بأس بذلك ، وإن باعه ذلك لم يجز البيع ولم يحل للبائع والمشترى ، لأنه مجهول غرر لايُعْرف ، وكذلك لو كان فى مصنعة يجتمع فيها الماء من السيول فلاخير فى بيعة أيضاً ، ولو سمى له كيلا معلوما أو عدد أيام معلومة ، لم يجز ذلك أيضاً للحديث الذى جاء فى ذلك والسنة ؟ . .

قال : ولابأس ببيع الماء إذا كان فى الأوعية . هٰذا ماء قد أحرز ، فإذا أحرزه فى وعائه فلابأس ببيعه . وإن هيأ له مصنعة فاستقى فيها بأوعيته حتى جمع فيها ماءً كثيراً . ثم باع من ذلك فلابأس إذا وقع فى الأوعية ، فقد أحرزه وقد طاب بيعه . فإذا كان إنما يجتمع من السيول فلاخير فى بيعه ، وإن كان فى بئر أو عين يزداد ويكثر أو لايزداد ولايكثر فلاخير فى بيعه ، ولو باعه لم يجز البيع . ومن استقى منه شيئا فهو له ولوكان يجوز بيعه ، ما طاب للذى يستقيه حتى يستطيب نفس صاحبه ، ألا ترى أنه لايطيب لرجل أن يأخذ ماء من سقاء صاحبه إلا بإذنه وطيب نفسه إلا يكون حال ضرورة يخاف فيها على نفسه .

قال : وليس لصاحب العين والقناة والبئر والنهر أن يمنع الماء عن ابن السبيل لما جاء فى ذلك من الحديث والآثار ، وله أن يمنع سقى الزرع والنخل والشجر والكرم من قبل أن هذا لم يجئ فيه حديث وهو يضر بصاحبه . فأما الحيوان المواشى والإبل والدواب فليس له أن يمنع من ذلك . ألا ترى لو أن رجلا صرف نهر رجل إلى أرضه فاختصما ، قضيت به لرب النهر ، ومنعت الذى قهره من صرف مائه إلى ارضه من نهر كان أو قناة أو عين بئر أو مصنعة . ألا ترى أن هذا يهلك حرث صاحب الماء ، وليس ماذكرنا من سقى الحيوان يجحف بصاحب الماء ؟ ألا ترى أن صرف الماء فى نهر الغاصب يقطعه عن حرث أرضه وعن سقى ررعه ونخله وشجره ، وأن شرب الشفة لايقطع عن ذلك ولايضر ، وفصل مابين هذين الأحاديثُ التى جاءت فى ذلك والسنة .

حدثنى محمد بن عبدالرحمن بن أبى ليلى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كتب غلام لعبد الله بن عمر إلى عبد الله بن عمر : أما بعد . فقد أعطيت بفضل مائى ثلاثين ألفا بعد ما أرويت زرعى ونخلى وأصلى . فإن رأيت أن أبيعه وأشترى به رقيقا أستعين بهم فى عملك فعلت . فكتب إليه : قد جاءنى كتابك وفهمت ماكتبت به إلى ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من منع فضل ماء ليمنع به فضل كلأ منعه الله فضله يوم القيامة » فإذا جاءك كتابى هذا فاسق نخلك وزرعك وأصلك ، وما فضل فاسق جيرانك الأقرب فالأقرب . والسلام .

قال : وحدثني حريز بن عثمان الحمصي عن زيد بن حبان الشرعي قال : كان منا رجل بأرض الروم نازلا . وكان قوم يزرعون حول خبائه فطردهم . فنهاه رجل من المهاجرين عن ذلك وزجره . فامتنع . فقال الرجل : لقد غزوت مع رسول الله ﷺ ثلاث غزوات أسمعه فيها يقول

« **الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِى ثَلَاثٍ : اَلْمَاءُ وَالْكَلأُ وَالنَّارُ** » ؟

فلما سمع الرجل ذكر النبي ﷺ رق فأتى الرجل فاعتنقه . واعتذر إليه .

قال : وحدثنا العلاء بن كثير عن مكحول قال : قال رسول الله ﷺ .

« **لاَ تَمْنَعُوا كلأً ولاَمَاءً ولاَنَاراً . فَإِنَّهُ مَتَاعٌ لِلْمُقْوِين . وَقُوَّةٌ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ** » .

قال : وحدثنا محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر عن عمرة عن عائشة قالت : نهى رسول الله ﷺ عن بَيْع الْمَاءِ . قال أبو يوسف : وتفسير هذا عندنا والله أعلم أنه نهى عن بيعه قبل أن يُحرز . والإحراز لا يكون إلا فى الأوعية والآنية فأما الآبار والأحواض فلا

قال : وحدثنا الحسن بن عمارة عن عدى بن ثابت عن أبى حازم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« **لاَيَمْنَعَنَّ أَحَدُكُمْ المَاءَ مَخَافَةَ الكلا** »

ولو أن صاحب النهر أو العين أو البئر أو القناة منع ابن السبيل من الشرب منها أو أن يسقى دابته أو بعيره أو شاته حتى يخاف على نفسه . فإن اصحابنا كانوا يرون القتال على الماء إذا خاف الرجل على نفسه بالسلاح إذا كان فى الماء فضل عمن هو معه . ولايرون ذلك فى الطعام . ويرون فيه الأخذ والغصب من غير قتال . فأما الماء خاصة فإنهم كانوا يرون فيه إذا خيف على النفس . قتال المانع منه وهو فى الأوعية عند الاضطرار إذا كان فيه فضل عمن هو فى يده . ويحتجون فى ذلك بحديث عمر فى القوم السفر الذين وردوا الماء فسألوا أهله أن يدلوهم على البئر فلم يدلوهم عليها . قالوا : إن أعناقنا وأعناق مطايانا قد كادت تنقطع من شدة العطش فدلونا على البئر وأعطونا دلواً نستقى به . فلم يفعلوا فذكروا ذلك

لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه . فقال : هلا وضعتم فيهم السلاح

والمسلمون جميعا شركاء فى دجلة والفرات وكل نهر عظيم نحوهما أو واد يستقون منه ويسقون الشفة والحافر والخف . وليس لأحد أن يمنع . ولكل قوم شرب أرضهم ونخلهم وشجرهم . لايحبس الماء عن أحد دون أحد . وإن أراد رجل أن يكرى نهرا فى أرضه من هذا النهر الأعظم . فإن كان فى ذلك ضرر فى النهر الأعظم لم يكن له ذلك ولم يُترك يكريه . وإن لم يكن فيه ضرر ترك يكريه . وعلى الإمام كرى هذا النهر الأعظم الذى لعامة المسلمين إن احتاج إلى كرى . وعليه أن يصلح مسناته إن خيف منه ، وليس النهر الأعظم الذى لعامة المسلمين كنهر خاص لقوم ليس لأحد أن يدخل عليهم . ألا ترى أن أصحاب هذا النهر فيه شفعاء لو باع أحدهم أرضا له . ولهم أن يمنعوا من أن يسقى أحد من نهرهم أرضه أو شجره أو نخله وليس الفرات ودجلة كذلك . فإن الفرات ودجلة يسقى منهما من شاء وتمر فيهما السفن ولايكونون فيهما شفعاء لشركتهم فى شربه . .

فصـــل

ولو أن رجلا اتخذ مشرعة فى أرضه على شاطئ الفرات أو دجلة يستقى منها السقاءون ويأخذ منهم فيها الأجرة أن ذلك لايجوز ولايصلح لأنه لم يبعهم شيئا ولم يؤجرهم أرضا . ولو قبل هذه المشرعة التى فى أرضه كل شهر بشيء مسمى تقوم فيها الإبل والدواب كان ذلك جائزا . فهذا قد أجر أرضا لعمل مسمى . ولو استأجر رجل قطعة منها يقيم فيها بعيرا أو دابة يوما جاز ذلك . وإذا كانت هذه المشرعة لايملكها الذى اتخذها فليس ينبغى له ذلك ولايصلح له . ولو كانت فى موضع لاحقّ لأحد فيه فاتخذه منعته من ذلك ، وكان للمسلمين أن يسقوا من ذلك المكان بغير أجر . وإنما أجزت له إذا كانت الأرض له يملك رقبتها . فإذا لم تكن له بملك ولابتصيير من الإمام ملكها له ، لم يترك أن يكريها ولايؤاجرها ولايحدث فيها حدثا ، وإن كانت الأرض له وأراد المسلمون أن يمروا فى تلك الأرض ليستقوا الماء فمنعهم من ذلك فإن الإمام ينظر فى ذلك . فإن

لم يكن لهم طريق يستقون منه الماء غيره لم يكن له أن يمنعهم ومروا في أرضه ومشرعته بغير أجر ولاكرى لأنه لايستطيع أن يمنع الشفة ، وإن كان لهم طريق غير ذلك كان له أن يمنعهم من الممر . ولايجوز لأحد أن يتخذ مشرعة فى مثل الفرات ودجلة يؤاجرها إلا أن تكون له الأرض أو يكون الإمام صيرها له يحدث فيها مايشاء ، لأن الفرات ودجلة لجميع المسلمين ، فهم فيهما شركاء ، فإن أحدث رجل مشرعة أو غيرها لم يكن له ذلك إلا أن يكون جعلها للناس فيجوز ذلك .

قال : وإذا اتخذ أهل المحلة مشرعة لأنفسهم يستقون منها فليس لهم أن يمنعوا أحداً من الناس يستقى منها . فإن كان فى ذلك ضرر عليهم من قيام الدواب والإبل منعوهم من ذلك ، فأما غيرهم فلا يمنعوهم .

وَسَأَلْتَ يا أمير المؤمنين عن الرجل يكون له النهر الخاص فيسقى منه حرثه ونخله وشجره فينفجر من ماء نهره فى أرضه فيسيل الماء من أرضه إلى أرض غيره فيغرقها ، هل يضمن ؟ قال : ليس على رب النهر فى ذلك ضمان من قبل أن ذلك فى ملكه ، وكذلك لو نزت أرض هذا من الماء ففسدت لم يكن على رب الأرض الأولى شيء وعلى صاحب الأرض التى غرقت ونزت أن يحصن أرضه ، ولايحل لمسلم أن يتعمد أرضاً لمسلم أو ذمى بذلك ليهلك حرثه فيها ، يريد بذلك الإضرار به . فقد نهى رسول الله ﷺ عَنِ الضِرَّارِ ، وقد قال :

« مَلْعُونٌ مَنْ ضَارَّ مُسْلِماً أو غَيْرَهُ مَلْعُونٌ » .

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى أبى عبيده يأمره أن يمنع المسلمين من ظلم أحد من أهل الذمة .

وإن عرف أن صاحب النهر يريد أن يفتح الماء فى أرضه للإضرار بجيرانه والذهاب بغلاتهم . وتبين ذلك ، فينبغى أن يمنع من الإضرار بهم ، ولو اجتمع فى أرض هذا الثانى السمك من الماء فصاده رجل كان للذى صاده ولم يكن لرب الأرض . ألا ترى أن رجلا لو صاد فى أرض رجل كان له ، فكذلك السمك . ولصاحب الأرض أن يمنعه من العود إلى ذلك وأن يدخل أرضه ، فإن

عاد فصاد فما صاد فهو له ، وليس عليه فيه شيء ، وأما المحظور عليه من السمك الذى يؤخذ باليد فإن صاده رجل فهو لرب الأرض .

ولو أن رجلا له نهر فى أرض رجل يجرى ، فأراد رب الأرض أن لايجرى النهر فى أرضه فليس له ذلك ، إذا كان جاريا فيها جعلته على حاله جاريا فيها كما هو لأنه فى يديه على ذلك ، وإن لم يكن فى يديه ولم يكن جاريا ، سألته البينة أن هذا النهر له ، فإن جاء ببينة قضيت له به ، وإن لم يكن له بينة على أصل النهر وجاء ببينة على أنه قد كان مجريا فى هذا النهر يسوق الماء فيه إلى أرضه حتى يسقيها ، أجزت له ذلك ، وكان له النهر وحريمه من جانبيه لكريه ، فإذا اراد أن يعالج نهره لكريه ويصلحه ، فمنعه صاحب الأرض لم يكن له منعه من ذلك ، ويطرح ترابه على حافتى نهره فى حريمه ولايدخل عليه فى أرضه من ذلك مايضر به ، وكذلك لوكان نهره ذلك يصيب فى أرض أخرى فمنعه صاحب الأرض السفلى المجرى فأقام بينةً على أصل النهر أنه له ، أجزت ذلك ، وأجرى ماؤه فى أرضه احتفر بئرا أو نهرا أو قناة فى أرض لرجل بغير إذنه فله أن يمنعه من ذلك وأن يأخذه بطمّ ما أحدث من الحفر فى أرضه ، فإن كان ذلك أضر بأرضه ضمن قيمة الفساد وهو مانقص من أرضه بالحفر .

قال : ولو أن رجلا له قناة فاحتفر رجل قناة فأجراها من تحتها أو من فوقها ، كان لصاحب القناة أن يمنعه من ذلك ويأخذه بطمها ، فإن كان أذن له فى احتفارها فحفرها ، فله أن يمنعه بعد ذلك إذا شاء ولاغرم عليه فى الإذن ماخلا خصلة واحدة : أن يكون أذن له ووقّت له وقتا ثم منعه من ذلك قبل أن يجئ الوقت . فإذا كان على هذا ضمن له قيمة البناء ولم يضمن له قيمة الحفر .

قال : وَسَأَلْتَ يا أمير المؤمنين عن حريم ما احتفر من الآبار والقنى والعيون للحرث وللماشية والشفة فى المفاوز ، فإذا احتفر رجل بئرا فى مفازة فى غير حق مسلم ولا معاهد ، كان له مما حولها أربعون ذراعا إذا كانت للماشية . فإن كانت للناضح فلها من الحريم ستون ذراعا ، وإن كانت عينا فلها من الحريم خمسمائة ذراع . وتفسير بئر الناضح أنها التى يسقى منها الزرع بالإبل . وبئر العطن هى بئر

الماشية التي يسقى منها الرجل الماشية ولايسقى منها الزرع . وكل بئر يُسقى منها الزرع بالإبل فهى بئر الناضح . .

وروى أبو يوسف عن الحسن بن عمارة عن الزهرى قال : قال رسول الله ﷺ « حَرِيمُ الْعَيْنِ خَمْسُمِائَةِ ذِرَاعٍ ، وحَرِيْمُ الْبِئْرِ النَّاضِحِ سِتُّونَ ذِرَاعاً ، وحَرِيْمُ بِئْرِ الْعَطِنِ أَرْبَعُوْنَ ذِرَاعاً ، عطنا للماشية » .

قال : وحدثنا إسماعيل بن مسلم عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ حَفَرَ بِئْراً كَانَ لَه مِمَّا حَوْلَهاَ أَرَبَعُوْنَ ذِرَاعاً عطنا لماشيته » .

قال : وحدثنا أشعث بن سوار عن الشعبى أنه قال : حريم البئر أربعون ذراعا من ههنا وههنا ، ولايدخل عليه أحد فى حريمه ولا فى مائه .

قال أبو يوسف : وأجعل للقناة من الحريم مالم يسح على الأرض ما أجعل للآبار وليس لأحد أن يدخل فى حريم بئر هذا الحافر ولا فى حريم عينه ولا فى قناته ولايحفر فيه بئرا ، فإن حفر لم يكن له ذلك ، وكان لصاحب البئر والعين أن يمنعه من ذلك ويطمّ ما حفر الثانى ، لأن له منعه من حريم بئره وعينه ، وكذلك لو بنى الثانى فى ذلك الموضع بناء أو زرعا أو أحدث فيه شيئا ، كان للأول أن يمنعه من ذلك كله ، وماعطب فى بئر الأول فلا ضمان عليه ، وماعطب من عمل الثانى فالثانى ضامن ، وذلك لأنه أحدثه فى غير ملكه .

وانظر فى ذلك إلى مالا يضرّ به فاجعل منتهى الحريم إليه . فإذا ظهر الماء وساح على وجه الأرض جعلت حريمه كحريم النهر .

قال : ولو أن الثانى حفر بئرا فى غير حريم الأول وهى قريبة منه فذهب ماء الأول ، وعرف أن ذهابه من حفر هذه البئر الثانية لم يجب على الآخر شيء لأنه لم يحدث فى حريم الأول شيئا . ألا ترى أنى أجعل للآخر حريما مثل حريم الأول وحقا مثل حق الأول ؟ وكذلك العين أيضا مثل بئر العطن والناضح .

قال أبو يوسف : حدثنا الحسن بن عمارة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب

عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : من أحيا أرضا ميتة فهى له ؛ وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين .

قال أبو يوسف : فأخذ من حديث عمر من يحتجر حقا بعد ثلاث سنين ولم يعمل به فلا حق له ، والمحتجر هو أن يجئ الرجل إلى أرض موات فيحظر عليها حظيرة ولايعمرها ولايحييها فهو أحق بها إلى ثلاث سنين ، فإن لم يحييها بعد ثلاث سنين فهو فى ذلك والناس شرع واحد فلايكون أحق به بعد ثلاث سنين .

قال أبو يوسف : حدثنا محمد بن إسحاق عن أبى بكر بن محمد عن عمرو بن حزم قال سألته عن الأعطان فقال : أما الجاهلية منها فكانت خمسين خمسين . فلما كان الإسلام جعل بين البئرين خمسون لكل بئر خمسة وعشرون من نواحيها . .

قال : وحدثنا محمد بن عبد الله بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال :

« مَنْ حَفَرَ بِئْراً فَلَهُ ماحَوْلَهاَ خَمْسُونَ ذِرَاعاً يُحِيطُهاَ ، لَيْسِ لأَحَدٍ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ فِيهاَ » .

قال : وحدثنا قيس بن الربيع عن بلال بن يحيى العبسى رفعه إلى النبى ﷺ قال :

« لاَحِمى إلاَّ فِى ثَلاثٍ : الْبِئْر ، وَطَوْلُ الفَرَسِ[٤] ، وَحَلَقَةُ الْقَوْمِ إِذَا جَلَسُوا » .

قال : وحدثنا محمد بن إسحاق رفعه إلى النبى ﷺ قال :

« إِذَا بَلَغَ الوَادِى الْكَعْبَيْنِ لَمْ يَكُنْ لِأَهْلِ الأَعْلَى أَنْ يَحْبِسُوهُ عَلَى أَهْلِ الأَسْفَلِ » .

---

(٤) طولت للدابة أرخيت لها حبلها لترعى .

قال : وحدثنا أبو عميس عن القاسم بن عبد الرحمن عن عبد الله بن مسعود أنه قال :

« أَهْلُ الأَسْفَلِ مِنَ الشُّرْبِ أمراء عَلَى أَعْلاَهُ حَتَّى يَرْوَوا» .

قال : وحدثنا أبو معشر عن أشياخه رفعه إلى النبى ﷺ أنه .

« قَضَى فِي الشّرَاج مِنْ ماءِ الْمَطَرِ إِذَا بَلَغَ الْكَعْبَيْنِ أن لايَحْبِسَهُ الأعْلَى عَلَى جَارِهِ » والشراج : السواق .

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ

محتويات الكتاب

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الموضوع | الصفحة

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

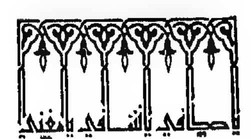
الموضوع **الصفحة**

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الموضوع | الصفحة

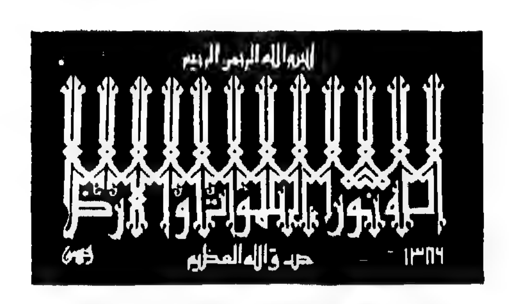
الفصل الحادى عشر



مطبعة نهضة مصر






بسم الله الرحمن الرحيم
الله نور السموات والأرض
صدق الله العظيم
١٣٨٦

الأئمة الأربعة

(٢)

الإمام مالك بن أنس

الدكتور
مصطفى الشكعة

الناشرون

دار الكتاب المصرى
القاهرة

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

رقم الإيداع

١٩٩٠ / ٤٤٥١

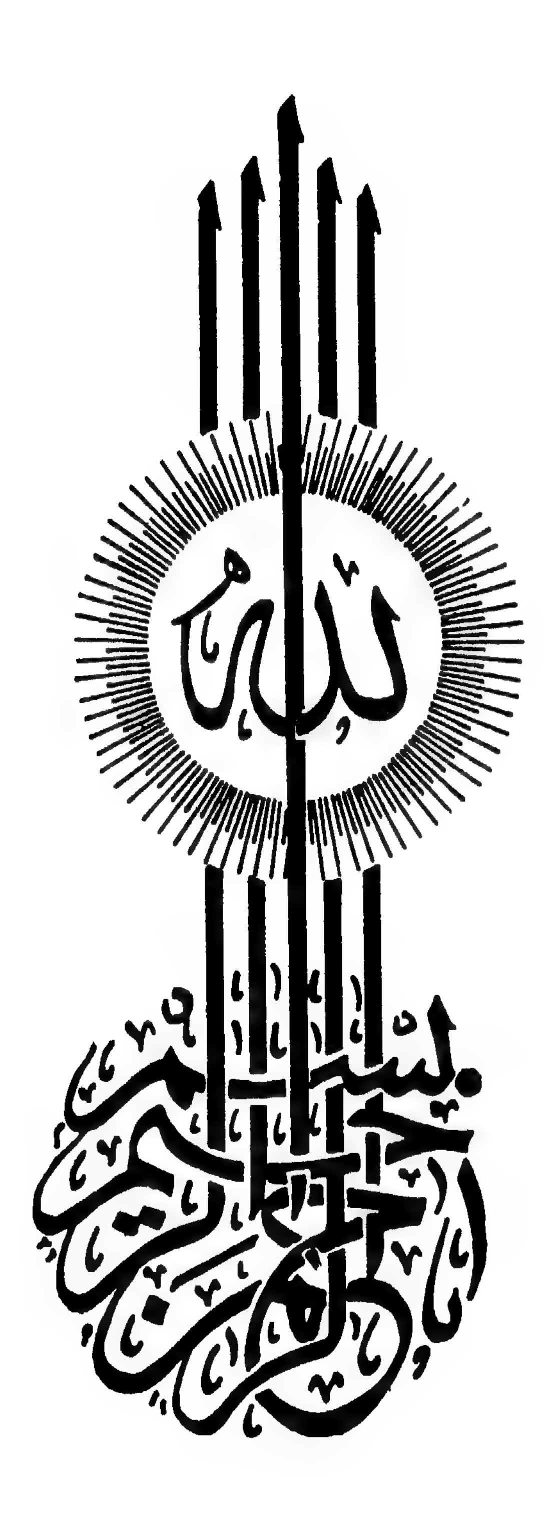
I.S.B.N. 977 - 238 - 065 - X

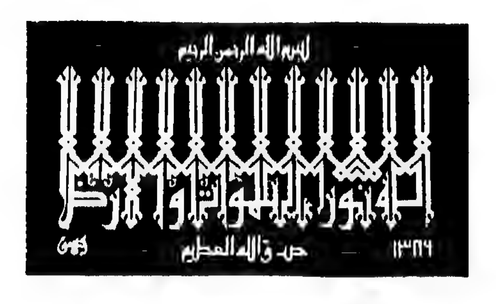
دار الكتاب المصري
٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج م ع
ت ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٣٤٣١/٣٩٢٢١٦٨ فاكسيملي ٣٩٢٤٦٥٧(٢٠٢)
ص.ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقياً كتامصر
TELEX No: 23081 - 23381 - 22181
ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN
FAX: (202) 3924657

دار الكتاب اللبناني
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت ٨٦١٥٦٣ - ٨٦١٧٩٢ - ٨٦٠٧٩٢ فاكسيملي ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
ص.ب ٨٣٣٠/١١ أو ١٣٥٣٥٢ - بيروت - لبنان
برقياً: راكلبان
TELEX DKL 23715 LE
ATT MISS MAY HASSAN EL - ZEIN
FAX (9611) 351433

الطبعة الثالثة
١٤١١هـ - ١٩٩١م

Third Edition
1991 A.D — H 1411


الله
بسم الله الرحمن الرحيم


بسم الله الرحمن الرحيم
الله نور السموات والأرض
صدق الله العظيم
١٣٧٦



ـ مقدمة ـ

كان أئمة المسلمين ولا يزالون يشكلون المثل الأعلى للإنسان المسلم علما وفضلا وسلوكا ، ومن ثم فهم القدوة لمن أراد أن يلتزم سبيل الرشد فى دينه ونهج الاستقامة فى دنياه ، وإن دراسة حياة الواحد منهم مهما بلغت درجته من الفضل لا تغنى عن معرفة حياة الآخرين ، فقد كان لكل منهم نهجه فى العلم وسبيله فى الحياة ، وهم فى جملتهم بعد ذلك نجوم هدى ، وينابيع فضل ، ومصادر فكر ، ودعاة خير ، وطاقات نور ، ورواد عطاء .

لقد افتتحنا هذه السلسلة من الدراسات بكتاب عن الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان، حاولنا فيه قدر استطاعتنا التعريف بشخصه والتعرف على تكوينه العلمى ، وبسطنا كثيرا من الضوء على منهجه فى العلم ونهجه فى الحياة ، وقمنا بالتغلغل فى حلقته الدراسية وتقاليدها ، وكيفية تسجيل فقهه ، والتعرف على تلامذته الكثيرين ، إلى غير ذلك من التفصيلات الدقيقة الجليلة التى حفل بها ذلك الكتاب .

وها نحن نحاول فى هذا الكتاب أن نقدم للدارسين صورة أمينة عن الإمام مالك ومذهبه وتلاميذه ، ذلك أن مالكا من أئمة المسلمين ذوى الشأن على مسيرة التاريخ، وأصحاب الفضل على مساحة الأرض الإسلامية ، ما هو كائن منها الآن وما قد زالت عنه صفته الإسلامية كالأندلس وصقلية ، وهو قبل ذلك كله إمام دار الهجرة ، فقد سكن مدينة الرسول وأحبها ، ولم يحاول أن يرتحل عنها إلا ارتحال عبادة إلى بيت الله الحرام حاجاً ومعتمراً ، وكان العنصر المعتمد فى فقهه بعد الكتاب والسنة قول الصحابة والإجماع ثم عمل أهل المدينة . ذلك أنهم من وجهة نظره أبناء أولئك الذين عايشوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وشاهدوه يعلم صحابته أصول دينهم ، ويؤدبهم فى سلوكهم ، ويقرر لهم أساليب الحياة النقية المستقيمة . هذا وإن مذهب الإمام مالك لا يزال أكثر مذاهب أهل السنة انتشارا فى بلاد المسلمين ، وبخاصة فى ديار الإسلام فى القارة الإفريقية فى صعيد مصر والقطر السودانى وأقطار شمال إفريقية من حدود مصر إلى المغرب العربى ، وكذلك كل أقطار غرب إفريقية ابتداء من موريتانيا ومرور بالسنجال ووصولا إلى كافة الأقطار الإسلامية هناك إلى جنوب خط الاستواء .

إن هذا الكتاب يشتمل على ثمانية فصول ،جعلنا الفصل الأول منها مخصصا للحديث عن منشأ الإمام مالك ومرباه ، فالإمام مالك من مواليد المدينة على أرجح الروايات ، وإن كانت إحدى الروايات ذهبت إلى أنه ولد فى « ذى المروة » غير بعيد عن المدينة ، ثم وفد إليها فى طفولته فى صحبة والديه . والإمام مالك من أسرة علم وفضل على الرغم من أن أباه كان يصنع النبال ، ولكن المهن والصناعات والتجارة لم تكن لتحول بين المرء وتحصيل العلم ، ولم يكن والده وحده هو المشتغل بالعلم ، وإنما كان أعمامه أويس ونافع والربيع يسيرون على نفس الدرب ، فقد كانوا جميعا يحسنون الرواية عن والدهم الذى كان من كبار التابعين وكان اسمه مالكا ، ومن ثم فقد كانت تسمية إمامنا الجليل اقتداء باسم جده وتيمنا به .

ولما كانت بيئة المدينة آنذاك ولأزمان كثيرة طويلة بعد ذلك تعجّ بالعلماء والحفاظ ، فقد كان طبيعيا أن يتجه الإمام مالك ، أو بالأحرى توجهه أمه إلى تحصيل العلم وتلبسه العمامة رغم صغره وتقول له : اذهب إلى ربيعة – أى ربيعة الرأى – فتعلم من علمه قبل أدبه .

وكانت المدينة المنوّرة فى تلك الفترة دار الفقهاء السبعة ، عاش فيها على زمن مالك نحو أربعين من الفقهاء المرموقين الذين منهم مشايخ مالك وقد أفردنا الفصل الثانى للتعريف بهم .

جعلنا الفصل الثانى إذن لشيوخ مالك وكلهم مدنيون ، فكان شيخه الأول

حسبما سلف القول قبل قليل هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن المشهور بربيعة الرأى وكان شيخه الثانى ومعلمه الرئيسى هو عبد الله بن هرمز الذى صحبه الإمام سبع سنين متصلة لم يشرك معه شيخا آخر ، ومن المزايا الإسلامية الكبرى أن يكون هذا الشيخ الأعجمى الأصم الأعرج مولى السدوسيين أستاذا لإمام دار الهجرة مالك بن أنس ، وليس فى ذلك أية غرابة ، فالإسلام يسوى بين الناس عامة ، ويقدم أهل العلم على ذوى النسب ، ولو كانوا من الموالى العتقاء .

وكذلك كان الشيخ الثالث لمالك مولى لعبد الله بن عمر . إنه نافع بن سرجيس الديلمى الذى اغترف العلم اغترافا من مولاه عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكان نافع على الرغم من لكنة فى لسانه يلقب بفقيه المدينة ، كما كان يعرف بالإمام المعلم ، ومن ثم كان مالك الطالب ينتظره على قارعة الطريق تحت أشعة الشمس الحارقة صيفاً حتى إذا ما خرج من بيته متجها إلى الصلاة فى مسجد رسول الله لحق به مالك وسأله فيما يريد استيضاحه وسمع منه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن شيوخ مالك أيضا ابن شهاب الزهرى ، الذى ظل فترة طويلة من الزمان يطوّف فى الآفاق ومعه ألواح وصحف يجمع فيها أحاديث رسول الله من أفواه الحفاظ والرواة ، وكما سمع مالك من أولئك جميعا فقد تتلمذ على الإمام جعفر الصادق سليل بيت النبوة ، الغزير العلم ، الوافر الحكمة ، الكامل الأدب ، الزاهد فى الدنيا ، البرىء من الغلو والتطرف . هذا فضلا عن شيوخ آخرين ذكرناهم فى موضعهم من هذا الكتاب من أمثال سعيد الأنصارى قاضى المدينة : وعبد الله بن ذكوان المشهور بأبى الزناد ، ومحمد بن المنكدر التيْمى القرشى .

وأما الفصل الثالث فقد خصصناه للتعريف بشخصية الإمام مالك ، وهى فى الحقيقة شخصية فذة مقنعة آسرة جمعت من الفضل والتماسك والهيبة قبائل وأسبابا ، لقد ضمّنا هذا الفصل شيئا عن معالم شخصية الإمام ووسامته وأناقته

واهتمامه بمظهره وانتقاء ملبسه ومأكله ، وهو لا يرى فى ذلك تضاداً أو معارضة للتقى والدين ، وكان يقول فى الرد على من ينكرون الاستمتاع بالنعمة : التواضع فى التقى والدين لا فى اللباس . كما كان بيته رضى الله عنه ناعم الأثاث سوىّ الترتيب مليئا بالنمارق والبسط والحشايا ، وقد كتب على صدر البيت الجملة القرآنية « ما شاء الله » .

وفى هذا الفصل أشرنا إلى مصادر أموال الإمام ، وأوضحنا أن بعضها كان ريعاً لأربعمائة دينار تستغل فى المتاجرة ، وأن البعض الآخر كان من عطاء الخلفاء العباسيين الذين كانوا يغدقون عليه بسخاء ، وهم المنصور – الذى عرف بالحرص – والمهدى والرشيد ، ولكن الإمام فى واقع أمره لم تلن له قناة فى قول كلمة الحق فى وجه هؤلاء الخلفاء على الرغم من إغداقهم عليه .

وقد شمل هذا الفصل أيضا حديثا موجزا عن أسرة الإمام المكونة من زوجه وأبنائه يحيى ومحمد وحماد وابنته فاطمة التى كانت تحفظ كتاب الموطأ ، وتراقب من خلف الباب من يقرأ فى حضرة أبيها ، فإذا أخطأ القارئ نقرت الباب لكى يفطن أبوها ويرد الخطأ .. كذلك كان للإمام موقف من الزهد ، فقد كان العصر حافلا بالزهاد الكبار المرموقين ، ولكن الإمام كان يقف إلى جانب العلم ويقول : إن الاشتغال بالعلم ليس أقل من الانقطاع للعبادة . وأما صلة مالك بالخلفاء العباسيين ، وقد سبقت الإشارة إلى أنه كان يقبل عطاياهم وأموالهم ، فهى صلة العالم الذى يعرف قدر نفسه وقيمة علمه ، كان لا يتهافت ولا يتصاغر ، وكان هؤلاء الخلفاء بحكم كونهم علماء يعرفون قدره ، فيجلسونه على كراسيّهم ويقدمونه على غيره ، وقد طلب إليه الرشيد أن يحدثه فى قصره بالمدينة فأرسل إليه الإمام من يقول له : العلم يزار ولا يزور يا أمير المؤمنين ، فانصاع الرشيد للأمر واتجه إلى بيت الإمام ، وجلس بين يديه مجلس التلميذ من الأستاذ ، وقرأ عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد مضينا فى هذا الفصل نوضح نهج الإمام فى وعظ الحكام ، ومذهبه فى قبول الهدايا ، ورأيه فى الغناء وأسلوبه فى المزاح ، كما أشرنا إلى بعض المواقف التى أخذت عليه .

ولما كان الأئمة جميعا ذوى آراء سياسية عرفت عنهم أتبعتها مواقف تعرضوا بسببها للأذى . فقد كان بدهيا أن نفرد فصلا للمواقف السياسية للإمام مالك ، ومن ثم فقد خصصنا الفصل الرابع لهذا الموضوع المثير ، فمن المعروف أن الوالى العباسى على المدينة جعفر بن سليمان – وهو عم الخليفة المنصور – قد دعا الإمام مالكا وجرده من ثيابه وضربه بالسياط ، وأمعن فى تعذيبه حتى خلع كتفه بسبب وشاية مفادها أن الإمام يحدث بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس على مستكره طلاق » وجسّم الوشاة الأمر لجعفر ، وقالوا : إن مالكا لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشئ لأنها أخذت بالإكراه ، وكان مُلْك بنى العباس يهتز آنذاك بشدة لخروج محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم الإمام على العباسيين ، وتعاطف الناس معهم ، ولم يكن العدوان على الإمام الكبير ليمضى دون ضجة ، فقد ثار الناس لذلك ، وبلغ الأمر أبا جعفر المنصور فى بغداد ، فعزل عمه عن ولاية المدينة ، وأمر بإحضاره إلى بغداد على قتب ، ثم استرضى الإمام على النحو المفصّل فى مكانه من هذا الفصل .

على أن الإمام مالكا فى قرارة نفسه لم يكن يرضى كل الرضا عن العباسيين أو سابقيهم من الأمويين . لأنه سئل ذات مرة : هل يجوز قتال الخارجين على الخلفاء ؟ فأجاب قائلا : يجوز إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز . وهى إجابة فى ذروة الدهاء ، لأن أحدا من خلفاء الأمويين أو العباسيين لم يكن فيه عشر معشار ما فى عمر بن عبد العزيز من فضل وعدل ، هذا وللإمام مالك آراء غريبة وجريئة فى خلافة كل من الراشدْين الجليلين عثمان وعلى ، بل إنه يكاد لا يعترف بخلافة أمير المؤمنين علىّ . وفى ضوء الأحداث السياسية ومواقف مالك منها ، أنهينا هذا الفصل الرابع بالحديث عن الفكر السياسى للإمام مالك الذى انتهينا فيه إلى أن فكره فى هذا المجال كان نابعا من منطلق إسلامى محض ، غير متأثر بعلاقة طردية أو عكسية بهؤلاء أو أولئك من الحكام الأمويين والعباسيين .

ولقد جعلنا الفصل الخامس خاصا بالحديث عن مالك الإمام ، أى عن مؤهلات الإمامة عند مالك ، إذ ليس كل فقيه مهما نبه شأنه واستفاض علمه

صالحا لأن يكون إماما للمسلمين ،وإنما هناك مؤهلات ذاتية بارزة ، وملامح شخصيه متميزة إذا تجمعت فى عالم بذاته جعلت منه إماما للمسلمين ، ولقد توفرت هذه الميزات فى مالك كما توفرت قبله فى أبى حنيفة وجعفر الصادق وزيد ابن على ، وتوفرت بعده فى الشافعى وابن حنبل والطبرى .

فى هذا الفصل تحدثنا عن فقهاء المدينة السبعة وهم سعيد بن المسّيب ، وعروة بن الزبير ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى ، وسليمان بن يسار ، وخارجة بن زيد بن ثابت . لقد عمدنا إلى ذكر الفقهاء السبعة باعتبار كونهم فقهاء الإسلام على زمانهم ، وعلى هؤلاء السبعة الكرام تلقى خمسة من شيوخ مالك الفقه والحديث ، ومن ثم فقد كان مالك تلميذاً بطريق الواسطة لهؤلاء الفقهاء الأعلام ، هذا وقد أوتى الإمام مالك القدرة على الفتيا فى سن مبكرة ، وكان يقول فى هذا المقام : ما جلست للفتيا حتى شهد لى سبعون شيخا من أهل العلم أنى موضع لذلك .

وكان لمجلس الإمام مالك تقاليده وآدابه ، فلتلاميذه حدود معلومة فى التعامل معه ، وكانت دروسه ذات مستويين مختلفين : مستوى العلم الرفيع والقضايا الفقهية ، وهذا خاص بتلامذته المواظبين ، ومستوى العلم العام دون الغوص فى القضايا التى تحتاج إلى خلفية فقهية عميقة . وكان العلماء من مختلف الديار والأقطار يقصدون الإمام مالكا وبخاصة فى موسم الحج ، وكان يستقبلهم أفواجا ، وكان له حاجب ينادى عليهم ويرتب دخولهم إليه .

وبهذه المناسبة كان للإمام مالك دستور فى الإفتاء ، هذا الدستور يتمثل فى التمهل والتؤدة والامتناع أحيانا عن الإجابة حتى يقتل القضية بحثا ، ولم يكن يتحرج من قول لا أدرى ، وكان يقول فى هذا المقام : « من أحب أن يجيب على كل مسألة فليعرض نفسه على الجنة والنار ، ثم يجيب » وقد أدركناهم إذا سئل أحدهم فكأن الموت أشرف عليه » وللإمام فى هذه القضية مواقف كثيرة من الجد والجدة بمكان ، فصلناها فى هذا الفصل تفصيلا .

وكان من مؤهلات إمامة مالك أنه صار-حين نضج علمه واستقام عوده-شيخا لأساتذته يجلسون إليه مستمعين مثلما فعل ابن شهاب الزهرى ويحيى بن سعيد وهما من شيوخه ، ومثلما فعل الإمام سفيان بن عيينة . هذا وللإمام مالك مهابة تفرض احترامه وتدعو إلى إجلاله ، يهابه الخلفاء كما يهابه العوام ، والأمثلة على ذلك من الكثرة بمكان ، وقد قيل فى ذلك إن الذين رأوا مهابة عبد الرحمن الداخل المعروف بصقر قريش – وكان شديد المهابة – ثم رأوا بعد ذلك مالكا أحسّوا بضآلة مهابة عبد الرحمن . لقد كان مالك بعلمه وفضله وشهرته ومسلكه ومهابته مؤهلا لإمامة المسلمين جديرا بها كل الجدارة .

أما الباب السادس فقد خصصناه للحديث عن فقه الإمام مالك ، تحدثنا فيه عن مالك والرأى ، فالقول الشائع والمأثور أن مالكا كان فقيه أثر ، ولكن دراستنا فى هذا الفصل تثبت أنه كان فقيه رأى بالإضافة إلى كونه فقيه أثر ، بل إن شهرته كفقيه رأى غلبت شهرته فى فترة من فترات حياته كفقيه أثر . هذا وكان الإمام مالك يلتقى بأئمة عصره ويناقش آراءهم مثلما فعل مع أبى حنيفة والأوزاعى وسفيان الثورى والليث بن سعد ، وأما مصادر فقهه فهى كتاب الله ، والسنّة النبوية الشريفة ، وقول الصحابة ، والإجماع ، وعمل أهل المدينة ، كما كان يأخذ بالقياس أحيانا ، والاستحسان ، والعرف ، وسد الذرائع ، والمصالح المرسلة .

ومن المواقف الفقهية الهامة تلك المساجلات المتبادلة بين الإمام مالك والإمام الليث بن سعد المصرى ، ومن ثم فقد أولينا هذه المساجلات عناية خاصة ، لأنها تمثل لونا فريدا من الحوار الفكرى الفقهى بين اثنين من ألمع أئمة المسلمين .

ولما كان كتاب الموطأ هو أول مسند لحديث رسول الله ، اتّسم بالإفاضة وعرف بالدقة وتميز بالصدق فقد أوليناه شيئا من العناية ، فقد قال الإمام الشافعى فى شأنه : ما فى الأرض كتاب فى العلم أكثر صوابا من موطأ مالك . كما أشرنا بعد ذلك إلى مؤلفاته الأخرى .

والمذهب المالكى معروف بالمرونة مشهور بالتيسير ، ويعتمد كثيرا على المصالح المرسلة والعرف والاستحسان ، ومن ثم فقد أولينا هذا الموضوع شيئا من العناية فى نطاق هذا الفصل . هذا وللاجتهاد مفهوم خاص فى المذهب المالكى ولذلك فقد عالجنا قضية الاجتهاد فى المذهب ، كما تحدثنا من خلاله عن طبقات المجتهدين .

فإذا كان الأمر متعلقا بالفصل السابع ، فإننا قد خصّصناه للحديث عن أصحاب مالك وتلاميذه ، وهم كثيرون ، انتشروا فى آفاق الأراضى الإسلامية مشرقا ومغربا ، كما أن بعضهم قد آثر البقاء فى المدينة بعد انتقال الإمام إلى رحمة الله . لقد تابعنا هؤلاء كُلاًّ فى مقره ومستقره ، فالذين استقروا فى المدينة هم محمد ابن إبراهيم بن دينار ، وعبد العزيز بن أبى حازم ، وعثمان بن عيسى ، والمغيرة ابن عبد الرحمن ، ومعن بن عيسى الذى كان يعرف بعصيّة مالك ، وعبد الملك ابن عبد العزيز الماجشون وغيرهم . وأما تلاميذ مالك الذين شرّقوا فأشهرهم عبد الله بن مسلمة القعنبى ، وأبو زكريا يحيى بن يحيى التميمى النيسابورى ، وأما الذين غربوا فقد استقر فى تونس علىّ بن زياد التونسى ، وعبد الله بن غانم الإفريقى ، وفى الأندلس استقر أبو محمد يحيى بن يحيى الذى نقل الموطأ إلى الأفق الاندلسى ونال مكانة سامية فى قرطبة حيث عمل على نشر المذهب المالكى ، ومن أصحاب مالك الجوالين أبو مصعب مطرف بن عبد الله وأسد بن الفرات .

بقى أن نشير إلى أهم تلاميذ مالك ، وكانوا مصريين ، عادوا إلى مصر بعد وفاته واستقروا بالفسطاط ، وهم عبد الرحمن بن القاسم ، وعبد الله بن وهب ، وأشهب بن عبد العزيز . وإلى عبد الرحمن بن القاسم يرجع الفضل فى تسجيل المذهب المالكى ، وقد أولينا ثلاثتهم دراسة تفى -على الرغم من إيجازها- بالغرض الذى يؤدى إلى التعريف بهم .

وأما الفصل الثامن والأخير فقد جعلناه للحديث عن كتب المذهب المالكى وأصحابها ، وأما هذه الكتب وأصحابها فهى الأسدية لأسد بن الفرات ، والمدونة لسحنون ، والواضحة لعبد الملك بن حبيب الأندلسى ، والعتبيّة أو

المستخرجة لمحمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبى الأندلسى القرطبى ، والموازية للعالم المصرى الإسكندرى محمد بن إبراهيم بن زياد المشهور بابن الموّاز

إن كلا من هذه الكتب الأمهات لها قدرها وخطرها فى التعريف بالفقه المالكى ، ولكن أهمها جميعا وأكثرها دقة وأطولها تفصيلا وأرحبها تناولا فهى المدونة التى كتبها عبد السلام بن سعيد المشهور بسحنون .

لقد قدمنا تعريفا بشخصية سحنون مثلما فعلنا الشيء نفسه مع زملائه الآخرين من أصحاب الكتب التى مر ذكرها. وأوضحنا كيف أملى عبد الرحمن ابن القاسم المصرى « المدونة » على سحنون فى الفسطاط ، فجاءت ضخمة الحجم ، نفيسة القدر ، دقيقة الأحكام ، جليلة المحتوى ، وقد سهر سحنون بعد ذلك على ترتيبها وتهذيبها وتبويبها ، بحيث صارت الكتاب الأول فى الفقه المالكى ، واحتفل بها عدد من العلماء الكبار وفى مقدمتهم الفقيه الكبير قاضى الجماعة فى قرطبة أبو الوليد ابن رشد الكبير ، جد الفقيه الفيلسوف المعروف أبى الوليد بن رشد ، فألف كتابا اعتبر بمثابة مقدمة فقهية لها ، جعل عنوانه « المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات »

وعلى عادتنا فى إلحاق نموذج من فقه كل إمام بنهاية الدراسة التى وضعناها له فقد أثبتنا فصلا استقيناه من المدونة واخترناه من أحكام الزكاة مثل زكاة الذهب والفضة ، وزكاة الحلىّ ، وأموال الصبيان والمجانين ، وزكاة السلع ، والزكاة فى الحرث والعين والماشية، وزكاة القرض وجميع الدين ، وزكاة الفائدة .

وبهذا نرجو أن نكون قد وفينا إمام دار الهجرة الإمام الجليل مالك بن أنس بعض حقه . نسأل الله أن يتقبل عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم ، وأن يلهمنا الصواب ، ويمنّ علينا بالسداد ، إنه نعم الموفق لما فيه النفع والخير ، وعليه جلّ وعز قصد السبيل .

مصطفى محمد الشكعه

مكة المكرمة فى ٢٥ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ
٢٠ من مارس (آذار) ١٩٨٢ م



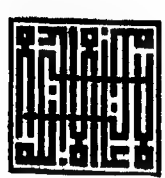

وأما بنعمة ربك فحدث

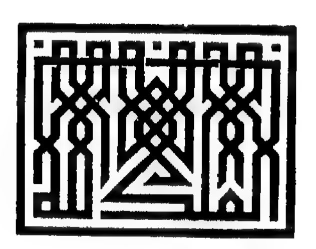
الإمام مالك بن انس

٩٣ - ١٧٩ هـ

الفصل الأول

* المنشأ والمربى
* العلم فى أسرة مالك
* أم الإمام مالك .
* دار الهجرة والعلم فيها .
* مالك الصبىّ على الطريق السوى .





الفصل الأول

- ١ -

المنشأ والمربى :

ولد الإمام مالك سنة ثلاث وتسعين للهجرة على أرجح الروايات ، ذلك أن المصادر التاريخية قد اختلفت فى سنة مولده ، فبعضها حددها بسنة تسعين ، وبعض آخر قال إنها سنة أربع وتسعين ، ومصدر ثالث قال بل خمس وتسعين ، وقيل بل ست وتسعين ، وقيل ثمان وتسعين .

ومهما يكن الأمر فلم يختلف مؤرخ عن آخر فى أن مالكا ولد فى العقد الأخير من القرن الأول للهجرة ، فإذا صحت الرواية التى أثرت عن مالك نفسه فإن مولده يكون سنة ثلاث وتسعين ، ذلك أنه قال : ولدت سنة ثلاث وتسعين[١] .

أما مكان الميلاد فالجمهرة متفقة على أنه المدينة المنورة . ويذهب أستاذنا أمين الخولى إلى أن مالكا ولد فى مكان يبعد عن المدينة المنورة إلى الشمال منها باثنين وثلاثين فرسخا ، وذلك يعنى بمقاييس العصر مائة واثنين وتسعين كيلو مترا ، واسم هذا المكان « ذو المروة » وهو شبيه بالواحة لما فيه من عيون ومزارع وبساتين ، ثم ما لبث والده أن انتقل إلى المدينة فاختار « العقيق » سكنا له[٢] ، وكان العقيق آنذاك ضاحية على مبعدة نحو ميلين من المدينة ذات ماء وخضرة وبساتين .

وإذا كان الإمام مالك قد أغرق نفسه فى بحر العلم منذ نعومة أظفاره ، فإن ذلك ليس بالشىء الغريب عن الأسرة ، فقد كان أبوه وأعمامه وجدّه من أصحاب العلم وأرباب الفضل ، لهم مع العلم صلات ووشائج ، ومع الفضل روابط وأسباب .

---

(١) تزيين الممالك للسيوطى ص ٧ .

(٢) مالك بن أنس ص ١٩ .

فأما النسب فعربي يمني ، هاجرت الأسرة على عهد جده وسميه مالك المكنى بأبي أنس ، وقيل بل هو أبو عامر الجد الثاني للإمام الذي جاء إلى المدينة يشكو بعض الولاة .

إن الأمر الذي يهتم له هو أن مالكا قد هيأت له الأسباب أن ينخرط في سلك الدراسات الدينية ، وأهم هذه الأسباب الوراثة أو التقاليد ، ووجوده في مدينة الرسول المليئة بعلماء العصر فضلا عن أم فاضلة تحسن صناعة التربية ، وتجيد الاختيار والتوجيه .

كان أنس والد مالك نبّالا ، أي يصنع النِّبال ، وليس في ذلك ما يعيبه . فالمرء مطالب بكسب رزقه ، على أن يكون ذلك من حلال ، وقد كان الإمام مالك بعد أن استوت له أمور الدنيا يقول : طلب الرزق في شبهة أحسن من الحاجة إلى الناس(٣) .

وكان أنس بالإضافة إلى ذلك مقعدا ، ولكن على الرغم من انشغاله بصناعته وقعوده عن الحركة كان صاحب علم وحديث ، وهو واحد ممن روى عنهم الإمام ومن الأخبار المأثورة عن مالك فيما يتعلق بثقافة أبيه قوله : كان لي أخ في سن ابن شهاب – يقصد ابن شهاب الزّهري – فألقى أبي يوما علينا مسألة ، فأصاب أخي وأخطأت ، فقال لي أبي : ألهتك الحمام عن طلب العلم ، أي اللعب بالحمام ، وهي عادة قديمة حديثة ، يقول مالك : فغضبت وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين ، وفي رواية ثمانية على ما سوف نفصل بعد قليل .

— ٢ —

العلم في أسرة مالك :

هذا ما كان من شأن الأب ، وأما الأعمام فثلاثة من الفضلاء هم أويس ، ونافع المكنى بأبي سهيل ، والربيع وكنيته أبو مالك . وكان الإخوة الأربعة يحسنون

---

(٣) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون ص ٢٥ .

الرواية عن والدهم مالك – جد الإمام – وكان أشهرهم فى هذا الميدان هو أبو سهيل نافع الذى عدّ من شيوخ ابن شهاب الزهرى على الرغم من أن فارق السن بينهما لم يكن كبيرا ، بل إن وفاته كانت بعد وفاة الزهرى ، فلقد عمر ردحا من الزمن [٤]

وأما مالك الجدّ ، ذلك العالم الذى كان يروى عنه أبناؤه وكان يكنى بأبى أنس ، فهو من كبار التابعين وعلمائهم ، وهو مصدر علم لحفيده باتفاق العلماء ، وكان ذا صلة بالخليفة عثمان ، فقد كان ممن يكتب المصاحف حين جمع عثمان المصاحف ، وذكر أنه كان يملى على الكتاب ، وهو بعد ذلك أحد الأربعة الذين حملوا جثمان عثمان رضى الله عنه ووسّدوه قبره ليلا [٥] ، ويبدو أن مالكا الجدّ قد امتد به العمر زمنا طويلا فعاش حتى عصر الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وكان له به صلة ما ، فقد كان عمر يستشيره فى بعض الأمور [٦] .

ويبدو أن أسرة الإمام واحدة من تلك الأسر التى يرزق أفرادها عمرا طويلا فالإمام نفسه عاش ما يقارب التسعين عاما ، وهذا عمه أبو سهيل نافع يعيش بعد وفاة الزهرى ، وكان أكبر سنا منه ، والزهرى عاش من سنة ٥٨ إلى ١٢٤ هـ وهذا جده يعيش قريبا من الراشد الثالث ويرى عند الراشدين الأول والثانى ، ويمتد به العمر إلى ما بعد سنة تسع وتسعين وهى السنة التى ولى فيها عمر بن عبد العزيز الخلافة ، فإذا اجتمع طول العمر وحسن العمل وطلب العلم ومتابعته كان الحصاد ذا وفرة ، والعطاء ذا بركة .

لم يكن مالك الصغير وحده إذن صاحب العلم فى الأسرة ، فقد سبقت الإشارة إلى أن أباه سأله وأخاه مسألة أجاب عنها الأخ إجابة صحيحة ، أما هو فقد أخطأ ، إن هذا الأخ هو النضر بن أنس الذى كان مقبلا على العلم ، ملازما للفقهاء ، متلقيا عنهم ، معروفا لديهم ، حتى إن مالكا كان يُعْرَفُ بأخى النضر ،

---

(٤) فتح البارى ٨٠/٤ .

(٥) تاريخ الطبرى ١٤٤/٥ ط مصر.

(٦) الديباج المذهب ص ١٨ .

لأن النضر كان أسبق منه فى طلب العلم ، وبالتالى كان معروفا أكثر من أخيه . ثم تشاء المقادير أن يصيب مالك بعد ذلك من العلم والفضل ما قد أصاب وأن تذيع شهرته بين شيوخ المدينة وعلمائها فتنقلب الصورة ويذكر النضر على أنه أخو مالك .

— ٣ —

أم مـالك :

هذه السيدة الجليلة جديرة بأن يخصص له عنوان وإنْ يكن صغيرا ، صحيح أن مالكا سليل أسرة عرفت بالعلم ، أنجبت علماء بارزين لعدة أجيال متعاقبة ، ولكن ذلك لم يكن كافيا لكى يجعل من مالك عالما جليلا وإماما كبيرا ، فكثير من أبناء الأسر المعروفة بالعلم لا يختطون ذلك النهج ، ولا يتبعون ذاك السبيل ، فكم من أسرة عرفت بالعلم ثم رزئت بأبناء جهلاء ، وكم من أسر مغمورة هى أبعد ما تكون عن العلم أنجبت علماء نابهين ، وفقهاء مرموقين .

لم يكن السبب فى نجابة مالك مجرد انتمائه إلى هذه الأسرة المستنيرة ذات الأجيال المتعاقبة من العلماء وحسب ، وإنما هناك سر آخر يكمن فى الأم العاقلة التى تحسن توجيه أبنائها وتختار لهم الطريق السوى وتهىء لهم أسباب النجاح .

هذه الأم هى عالية بنت شريك بن عبد الرحمن بن شريك ، وهى والحال كذلك عربية أزدية ، وهناك من المصادر من يذكرها باسم طليحة ولا يذكر أباً لها ، وقد اختلفت الروايات كما اختلف المحققون حول اسم هذه الأم العظيمة التى أهدت إلى البشرية إماما عظيما ، أهى عالية أم غالية ، أم طليحة ؟ بل لقد اختلفوا فى أمرها ، وهل هى من الموالى أم من الحرائر ، والحق إنه لموقف يستحق المؤرخون المؤاخذة عليه ، فكم من مرة اهتموا فيها بالمغنيات والقيان ، والضاربات على الدفوف والراقصات ، والخارجات عن الجادة المجاهرات بالمعصية ؟ أما كان الأجدر بهم أن يهتموا بالكرائم من النساء ، ويحتفلوا بأخبار المستعصمات من الأمهات ؟ إنه لما يعيب المؤرخين ألا نجد عندهم من الخبر ما يشفى غلة عن أم الإمام ، ولكن مهما كان الأمر من ذكر أو إغفال ، فقد فرضت

نفسها على الزمان المتطاول حين أنجبت مالكا وحين أحسنت توجيهه .

إن مالكا الطفل لم يكن يريد أن يتجه إلى العلم ، وإنما رغب فى أن يتعلم الغناء ويجيده ، وبالتالى يجعل منه صناعة ، والغناء مصدر ثرٌ للمال ، ومجلبة سريعة للثروة فى كل الأزمنة ، والأم العاقلة لا ترضى لولدها بذلك ، والأم الجاهلة أو العاقلة تسارع إلى تشجيع ولدها إلى ذلك ، وكانت أم مالك لحسن الحظ من الفريق الأول من الأمهات ، إنها فى لطف شديد ولباقة جمة تصرف ولدها عن فكرته ، وتختار لها بديلا سريعا هو العلم الذى يرفع من قدر البيوت وإن كانت خاملة ، ويعلى من قيمة الرجال وإن جاءوا من حضيض الفقر وقسوة العوز .

يقول الإمام عن تلك الحادثة : نشأت وأنا غلام فأعجبنى الأخذ عن المغنّين ، فقالت أمى : يابنّى إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه ، فدع الغناء واطلب الفقه ، فتركت المغنين وتبعت الفقهاء ، فبلغ الله بى ما ترى[7] .

إن هذه الأم الفاضلة لم تكذب على ولدها وتقول له إنه قبيح الوجه ، فلم يكن مالك كذلك ، بل كان وسيما ذا شقرة ورواء ، وإنما هى أرادت أن توحى إليه بما يصرفه عن عزمه فقالت قولتها تلك اللبقة المهذبة .

إن أم مالك لم تكتف بتوجيهه إلى طلب العلم وحسب ، بل ألبسته ثياب العلم ، وفى ذلك يقول مالك : فألبستنى ثيابا مشمّرة ، ووضعت الطويلة على رأسى – يعنى القلنسوة الطويلة – وعَمَّمتنى فوقها ثم قالت : اذهب فاكتب الآن[8] ، ثم تستدرك وتختار له المعلم والأستاذ ، وكان أشهرهم آنذاك ربيعة بن أبى عبد الرحمن ، فتقول : اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه ، وفى رواية : فتعلم علمه قبل أدبه .

وأيًّا ما كان القول ، فالعلم بغير أدب لا يساوى شيئا ، والأدب بغير علم لا يساوى كثيرا ، ومقصد الأم هنا هو تعلم العلم والأدب جميعا .

---

(٧) سرح العيون ص ١٨١ .

(٨) الديباج المذهب ص ٢٠ .

ولم يلبث الطفل مالك أن توجه إلى حلقة ربيعة متشحا بثياب العلم وفى أذنه شنف . ولا يكون الشنف فى أذن المرء إلا إذا كان طفلا أو فتى صغيرا .

بذلك يبتدىء الصبى الصغير مالك بن أنس مسيرته الطويلة فى طريق العلم حتى يصير إماما فذا من أئمة المسلمين ، فيكون أثمن عطية ، وأغلى هدية ، من أم فاضلة عاقلة ، تجيد التربية وتحسن التوجيه .

— ٤ —

دار الهجرة والعلم فيها :

سبب آخر ثالث أسهم فى تكوين مالك ، ذلك التكوين الذى جعل منه إماما كبيرا ، ذلك هو وجوده فى مدينة الرسول .

والمدينة آنذاك — أى زمن طفولة مالك — كانت تعج بالعلماء من التابعين الأخيار . وكانت مدرستها مسجد الرسول ، فى أرجائه تنتشر حلقات العلم ، ويجلس على رأس كل حلقة أحد العلماء المرموقين من أمثال ربيعة بن أبى عبد الرحمن ، وابن هرمز ، ونافع ، وابن شهاب الزهرى ، ومحمد بن المنكدر ، وجعفر الصادق بن محمد الباقر رأس آل البيت .

وكان العهد بعصر الرسول وخلفائه الراشدين وصحابته الأخيار غير بعيد . ومن ثم فالفتاوى باقية فى الصدور ، والأحاديث النبوية محفوظة فى القلوب ومروية على الألسنة ، وفقه عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وسعيد بن المسيب وما سجلوا من مسائل أو استنبطوا من أحكام لا تزال تروى فى الحلقات جيلا بعد جيل . كل ذلك فضلا عن ثقة المسلمين بساكنى دار الهجرة الذين تعلموا على آثار مدرسة النبوة ، وورثوا شمائل الصحابة ، وتداولوا أحكام الفقهاء وعلم التابعين الأولين .

إن الاعتزاز بعلم علماء المدينة أمر لم يكن إلى تجاهله سبيل حين تلمّ الملمات وتنزل الأزمات ، فحين تنازع كل من عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير على

الخلافة ، كان كل من المتنازعين يطلب مشورة عبد الله بن عمر ، فكتب إليهما كتابا يقول فيه : « إن كنتما تريدان المشورة فعليكما بدار الهجرة » .

بل إن الاعتزاز بالعلم فى المدينة المنورة – وبالتالى فى علمائها – جعل بعض الصحابة إذا أصدروا فتاوى فى أمور بعينها وهم فى مصر من الأمصار الإسلامية ثم عادوا إلى المدينة فوجدوا ما يخالفها . رجعوا فى الحال عن فتاواهم وقاموا بتصحيحها ، ولعبد الله بن مسعود فى ذلك مواقف ترويها الأخبار ، لقد كان ابن مسعود يسأل عن الأمر وهو فى العراق فيصدر فتواه ، فإذا ما جاء إلى المدينة ووجد ما يخالفه عاد إلى العراق لا يحط عن راحلته حتى يرجع إلى من أفتاه فيخبره بالصواب .

كانت المدينة دار الفقهاء السبعة المعروفين . وبها عاش نحو من أربعين من الفقهاء المرموقين حتى عهد مالك . وإن الإمام مالكا نفسه يأخذ بفكرة تمييز أهل المدينة . ويرجح آراءهم لكثرة الصحابة فيها ، ويقول انصرف رسول الله ﷺ من غزوة كذا فى نحو كذا وكذا ألفا من الصحابة . مات بالمدينة منهم عشرة آلاف – أى عاشوا فيها إلى أن ماتوا – وباقيهم تفرق فى البلدان ، فأيهما أحرى أن يتبع ويؤخذ بقولهم ؟ من مات عندهم النبى ﷺ وأصحابه الذين ذكرت . أم من مات عندهم واحد أو اثنان من أصحاب النبى ﷺ ؟(٩) .

صحيح أنه وجد بالمدينة جماعة من القدرية ، ولهم مواقف مشهورة بعضها كان فى مواجهة مع الخليفة العباسى المهدى . أى على عهد الإمام مالك . ولذلك نجد للإمام رسالة طويلة فى الرد عليهم . وصحيح أيضا أن الغناء كان منتشرا بالمدينة . ولكن ذلك لا ينال من قدر العلم فيها ومن قدر فقهائها

ومن الطريف بل من المؤسف أن العصبية التى كانت بين علماء الأمصار والعصبية التى يستمسك بها كل فقيه لبلده قد جعلت بعض الشعراء يعرّضون بمدن الآخرين . فهذا عراقى كوفى يتعصب لبلدته ويتهم أهل المدينة فيقول :

---

(٩) ترتيب المدارك ١/٧ .

وليس يَعْرِفُ هذَا الدِّينَ نَعْلَمُهُ
إلاَّ حنيفيَّةٌ كوفيَّةُ الدُّورِ
لا تسأَلَنَّ مدينياً وتكفُرُهُ
إلاَّ عن البَمِّ والمثناةِ والزِّيرِ

فيجيه واحد من أهل المدينة قائلا :

لقد حبْتُ لِغَاوٍ سَاقَهُ قدر
وكلُّ أمرٍ إِذَا ما حُمَّ مقدورُ
قال : المدينةُ أرضٌ لا يكونُ بها
إلاَّ الغناءُ وإلاَّ البَمُّ والزيرُ
لقد كَذبْتَ لعمر اللهِ إنَّ بها
قبرَ الرسولِ وخيرَ الناسِ مَقْبُور (١٠)

ومهما يكن من أمر هذه المحاورات والعصبيات فإن الأمر الذى لا شك فيه أن المدينة المنورة كانت إلى ذلك الحين معقل الدين ، ومناط الشريعة ، وموئل الفقه ، ودار الحديث ، ومجمع العلماء ، وهى البيئة التى هيأت لمالك الصغير أن يشب على العلم ، ويربو على الفقه ، وينشأ على الحديث ، ويثبت على علوم العربية .

كل ذلك مع جهد متواصل منذ أن بدأ طريقه على الدرب ، ومع سعى لا يعرف الكلل ، وجهاد ومثابرة ، وصبر ومصابرة حتى صار إمام دار الهجرة ثم إماما لأكبر عدد من المسلمين .

---

(١٠) الطبرى ١٣/١٠٣ .

— ٥ —

مالك الصّبى على الطريق السوىّ :

لقد بدأ مالك الإقبال على طلب العلم وهو جِدُّ صغير ، فقد مرّ بنا قبل قليل أن والدته ألبسته ملابس العلماء ووضعت العمامة على رأسه وقالت له اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه . وكان فى أذنه شنف ، وإذا كان التعلم فى الصغر مثل النقش على الحجر كما يقولون فى الأمثال ، فإننا نعتقد أن كثيرا من الخلال الطيبة ، والرقة فى السلوك ، والأناقة فى الملبس ، وهى علامات مميزة الشخصية مالك ، إنما هى أمور ورثها مالك من أول أساتذته – ونعنى ربيعة – لأن ربيعة كان معروفا بذلك كله ، ولعل ذلك هو السبب الذى جعل أم مالك تختار ربيعة من بين علماء المدينة ليكون أول شيخ لولدها الصغير .

وتجمع الأخبار على أن مالكا كان تلميذا مجدا طموحا على الرغم من صغر سنه ، ولقد بدأ هذا الجدّ فيما نرجح بعد أن وبخه أبوه لتقصيره فى الإجابة عن سؤال وجهه إليه وإلى أخيه النضر حسبما مرّ بنا فى موضع سابق ، إن مالكا يعلق على تلك الحادثة ويقول : فغضبت – أى من تقصيره وتقريع أبيه – وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين لم أخلطه بغيره .

وليس ذلك كل ما نقصد إليه من هذا الخبر ، وإنما الذى نريد التنويه به هو ما حكاه مالك – لكى يستأثر وحده بأستاذه – من أنه كان يجعل فى كمّه تمرا يعطيه للصبيان ويقول لهم : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا له مشغول ، وهى حيلة لطيفة مهما يكن الحكم على شرعيتها ، وهو على كل حال تصرف لا يخلو من « شيطنة » من طفل ذكى مجد يريد أن ينهل من علم ابن هرمز ، وأن يسمع من أحاديثه أكبر قدر مستطاع . ويبلغ من حرص مالك على الانتفاع بعلم أستاذه أن يطيل الوقوف ببابه ، ويحسّ ابن هرمز أن أحداً على الباب ، ربما لحركة يقوم بها مالك ، فيسمعها من داخل الدار ، فيقول لجاريته من بالباب ؟ فتتجه إلى الباب

لترى من هناك ثم ترجع فتقول لسيدها : ما ثَمَّ إلا ذاك الأشقر – تعنى مالكا – فيقول لها ادعيه فذلك عالم الناس[11] .

إنها شهادة عظيمة للصبى الناشىء من أستاذ عظيم . ولا شك فى أن مالكا آنذاك كان لا يزال صغيرا . فإن الشيخ بعد ذلك بفترة من الزمن قد كفّ بصره . وكان مالك يقوده من البيت إلى المسجد ، ومن المسجد إلى البيت . وقول الشيخ عن مالك إنه عالم الناس إنما هو من قبيل التفاؤل والإعجاب بتلميذه وتشجيعه ؛ ويمضى هذا الخبر فيقول إن مالكا يتخذ ثياباً – أى سراويل – محشوة يتقى بها برد حجر على باب ابن هرمز كان يجلس عليه حتى تحين له فرصة لقاء أستاذه .

وإذا كان مالك قد ذكر أنه انقطع إلى ابن هرمز سبع سنين . فإنه قد ذكر فى رواية أخرى أنها ثمانى سنين لم يخلطه بغيره . وأن المسألة لم تكن مجرد تردد لساعة أو ساعتين . أو ليومين أو ثلاثة فى الأسبوع . وإنما كان يلازمه طول النهار ويقول فى ذلك «كنت آتى ابن هرمز من بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل»[12] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن النهج السليم فى تربية الفقيه كان يتمثل فى الانقطاع إلى شيخ أطول مدة ممكنة ؛ وقد أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن نشأة الإمام أبى حنيفة وتفرغه لأستاذ واحد هو حماد بن أبى سليمان . ثم لا بأس بعد ذلك من أن يختلف إلى غيره مع الاحتفاظ بالتردد على شيخه الأصيل .

ويتمثل أيضا مبلغ حرص مالك الصبى على تحصيل العلم اختلافه إلى نافع مولى عبد الله بن عمر . وكان يعمد إلى الحيلة لكى يلتقى به متجشما فى ذلك الوقوف فى الشمس لفترات طويلة لا يقيه من حر شعاعها شىء . حتى إذا ما ظهر نافع تابعه مالك . ثم يتحين الفرصة لسؤاله والأخذ عنه . إن مالكا يقص هذا الخبر على هذا النحو : «كنت آتى نافعا نصف النهار وما تظلنى الشجرة من

---

(11) ترتيب المدارك ١/١١٦ .

(12) الديباج المذهب ص ٢٠ .

الشمس أتحين خروجه . فإذا خرج أدعه ساعة كأنى لم اره . ثم أتعرض له فأسلم عليه وأدعه ، حتى إذا دخل – يعنى المسجد – أقول له كيف قال ابن عمر فى كذا وكذا . فيجيبنى . ثم أحبس عنه ، وكان فيه حدة »[١٣] .

إن الذى يتفحص كلمات مالك هذه يلمس أن الفتى كان يفكر طويلا فى كيفية لقاء العلماء وذلك برسم خطة ذكية بارعة ، بل هو يباشر بعض « التكتيك » حين يتعرض للشيخ وكأنه لا يراه ، ثم يتعرض له ويسلم عليه ويتركه وكأنه لا يبغى منه شيئا ، فإذا دخل المسجد واستقر ، تحين فرصة « الاقتناص » فلا يتركها تمر دون أن يخرج منها بصيد سمين .

وكان لمالك أخت تشفق عليه وهو يقف فى نهار الصيف قبالة بيت نافع فى البقيع دون ما حاجز أو شجرة تردّ عنه حرارتها ، وحينا آخر تراه يجلس تحت ظلال الأشجار يراجع ما كتب وتخبر أباها بذلك ، فيقول لها : يابنية إنه يحفظ حديث رسول الله ﷺ .

ومن أخبار تفرغ مالك للعلم وانقطاعه لتحصيله أنه لم يكن يعرف لنفسه يوم راحة متى كان اقتناص العلم مواتيا ، حتى لو كان اليوم يوم عيد ، بل إنه كان ينتظر العيد لعلمه أن أحدا لا يزاحمه فى ذلك اليوم ، ويذهب إلى بيت ابن شهاب الزهرى بعد أن عاد هذا الأخير إلى المدينة من الشام ، وكان عبد الملك قد استدعاه فبقى فترة زمنية طويلة فى بلاط بنى أمية ، فلما ولى هشام الخلافة عهد إليه بتعليم ولده ، ولما ولى يزيد بن عبد الملك جعله قاضيا على بلاد الشام .

إن مالكا يقص خبر درس يوم العيد هذا فيقول : شهدت العيد ، فقلت : هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب ، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه ، فسمعته يقول لجاريته : انظرى من بالباب ؟ فنظرت . فسمعتها تقول : مولاك الأشقر ، مالك . قال : أدخليه ، فدخلت ، فقال : ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك – وكأنه يقول له فى أدب ما الذى جاء بك اليوم وهو يوم عيد ؟ – قلت :

---

(١٣) الديباج المذهب ص ١١٧ .

لا ، قال : هل أكلت شيئا ، قلت : لا ، قال : أطعم ، قلت : لا حاجة لى فيه : قال فما تريد؟ قلت : تحدثنى ، قال لى : هات. فأخرجت ألواحى فحدثنى بأربعين حديثا ، فقلت : زدنى ، قال : حسبك إن كنت رويت هذه الأحاديث فأنت من الحفاظ ، قلت : قد رويتها ، فجبذ الألواح من يدى ثم قال : حدّث ، فحدثته بها ، فردها الىّ وقال : قم فأنت من أوعية العلم »[١٤] .

وكان مالك لفرط حرصه على حفظ أحاديث رسول الله التى يلقيها ابن شهاب فى حلقته يحمل معه خيطا ، فكلما انتهى ابن شهاب من رواية حديث عقد مالك عقدة فى الخيط وفى النهاية يعرف كم من الأحاديث رُوِيَتْ وذلك بمراجعة عدد العقد ، ويراجع مالك الأحاديث فى ذاكرته فإذا هى تسعه وعشرون لا غير وقد نسى حديثا ، فيلقى الزهرىّ ويسأله عنه ، فيقول له الزهرى : ألم تكن بالمجلس ، فيجيب مالك : بلى ، فيقول الزهرى : لِمَ لمْ تحفظ ؟ فيقول مالك : ثلاثون وإنما ذهب عنى منها واحد ، وهنا تظهر الدهشة على وجه الزهرى ويردف قائلا : لقد ذهب حفظ الناس ، ما استودعت قلبى شيئاً قط فنسيته ، ثم يقول لمالك : هات ما عندك ، فيسأله مالك عن الحديث الذى نسيه فيجيبه.

كل هذه المواظبة على الفقهاء والمحدّثين كان مالك يتابعها فى نشاط وإقبال ، بل فى متعة ورضى ، يساعده ذكاؤه المفرط ، ويشد من أزره كثرة الفقهاء ،تسامحهم إلى المدى الذى يستقبلون فيه التلاميذ ويفيضون عليهم عطفا وعلما فى ايام العيد ، إنهم أساتذة المدينة الذين تأدبوا فى بيئة أدّبها الرسول ، وترك فيها من مكارم الأخلاق ذخيرة لا تنفد يقتنى الناس أثرها ويسيرون على هداها .



(١٤) ترتيب المدارك ١٩/١ .

الفصل الثانى

شيوخ مالك

* ربيعة الرأى
* عبد الله بن هرمز
* نافع مولى ابن عمر
* ابن شهاب الزُّهرى
* جعفر الصادق
* شيوخ آخرون

« يحيى بن سعيد - أبو الزناد - محمد بن المنكدر - عروة بن يحيى (ابن أذينة) »





الفصل الثانى

شيوخ مالك

إن أخبار مالك التلميذ الصغير . العاكف على العلم . المتابع للتحصيل ، المتفانى فى التلقى من الكثرة بمكان . بل من الطرافة بمكان ، وهى جميعا منبئة بأن هذا الفتى سوف يكون ذا قدر وصاحب شأن ، فمن هم هؤلاء الشيوخ الذين أخذ عنهم ؟ وما مكانتهم ؟ وماذا أخذ منهم ؟ وماذا ترك إن كان قد ترك شيئا ؟

— ١ —

ربيعة الرأى :

لقد كان ربيعة الرأى أول الفقهاء الذين جلس إليهم مالك من علماء المدينة وكان إذا ذاك طفلا ثم عاد إلى الجلوس إليه بعدما نما عوده وبلغ مبلغ الشباب ، وكانت فترة لزومه ابن هرمز متوسطة بين فترتى تلمذته لربيعة ، وذلك طبقا لما يشير إليه تسلسل أخبار مالك ، لقد أخذ مالك من ربيعة الفقه والحديث والأدب ، وكان لسلوك ربيعة وأناقته أثر فى سلوك مالك وأناقته حسبما أشرنا قبل قليل ، وامتدت صحبة مالك لربيعة طوال حياة ربيعة ، وكان مالك فى آخر حياة أستاذه قد صار رجلا ، ومن ثم اتخذه أستاذه صديقا ، وقد كان مالك يذهب فى صحبة ربيعة لزيارة الزهرى حيث يستمعان إليه سويا وهو يحدّث بأحاديث رسول الله ﷺ . هذا السماع مع ربيعة غير ذلك السماع الذى انتفع به مالك وهو لا يزال صغير السن غضّ الإهاب .

وربيعة الرأي هو ربيعة بن أبى عبد الرحمن فروخ المدينى المتوفى سنة ١٣ هـ، وهو مولى لآل المنكدر، ولكن الإسلام سوى بين السيد والمولى، وفضّل المولى على الحر إذا كان صاحب علم وعمل . وقد نسب ربيعة – فيما يرى المرحوم الأستاذ أمين الخولى – إلى الرأى أى إلى اللب والعقل والسداد والفطنة وليس إلى

الراى الفقهى[1] مثلما نسب الصحابى ربيعة بن المغيرة ، فكان يقال له « مغيرة الرأى » لأنه كان من دهاة العرب .

إن الإمام مالكاً يأخذ عن ربيعة فقها كثيرا ، فإذا حانت كلمة حول الفقهاء قال مالك : ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة بن أبى عبد الرحمن[2] . ولقد روى مالك عن ربيعة كثيرا من الأحاديث الشريفة ، أورد عددا غير قليل منها فى الموطأ . وكان مالك يشير إلى ربيعة ومعاصريه من الشيوخ عندما يقول : على هذا أدركت أهل العلم ببلدنا . وليس من شك فى أن مالكا قد أفاد من ربيعة عقلا رشيدا ، وفكرا سديداً .

لقد قال خصوم ربيعة فيه كلاما كثيرا ، وطعنوا فى لباقته ، وادعوا أنه كثير الكلام إلى المدى الذى يبعث الملل والسأم ، ولكنه كان على عكس ذلك تماما ، وقد وصفه الليث بن سعد – على ما بينهما من خلاف فى الرأى – وصفا يفيض بالنصفة والاعتدال ، فقال فى فقرة من رسالته المشهورة إلى مالك ما نصه : « ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير ، وعقل أصيل ، ولسان بليغ ، وفضل مستبين ، وطريقة حسنة فى الإسلام ، ومودة صادقة لإخوانه عامة ولنا خاصة ، رحمه الله وغفر له وجزاه بأحسن من عمله » .

ويرى الأستاذ الجليل المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة أن ربيعة سمى بربيعة الرأى لأنه أخذ المادة الفقهية من بيئة المدينة ، ومن الفقهاء السبعة والتابعين بشكل عام ، وربما خالفهم فى فتاواهم بوجهات نظر لم يؤثر للفقهاء السابقين نظائر لها حتى سمى ربيعة الرأى لكثرة ما أبدى من آراء فقهية[3] .

ويرى الشيخ أبو زهرة أيضا أن مالكا أخذ عن ربيعة فقه الأثر بحيث يتجه منه إلى البناء لا إلى الوقوف عنده « يفتى فيما يقع من الأمور بما يراه مأثورا ، فإن لم يجد المأثور بنى عليه . وقد يخالف بعض التابعين ويبين وجه مخالفته ، وقد كان

---

(١) مالك بن أنس للأستاذ أمين الخولى ص ٦٤ .

(٢) تاريخ بغداد ٤٢١/٨ .

(٣) مالك : حياته وعصره ص ١١٣ .

مالك يستسيغ منه ذلك فى أول دراسته عليه . ويأخذه عنه . ويسلك سبيله . ثم خالفه بعد تلقيه عن ابن شهاب »[٤]

والاختلاف بين مالك وأستاذه ربيعة لم يكن اختلافا كليا . وإنما كان خلافا جزئيا . فقد كان كلٌّ منهما – شأنهما فى ذلك شأن سائر فقهاء المدينة – لا يوافق العراقيين فى آرائهم الفقهية . وإنما كان لكل منهما رأى سيء فى العراق . بل إن لربيعة فى العراقيين قولة شديدة . وهى «كأنَّ النبى الذى بعث إلينا غير النبى الذى بعث إليهم » وإن لمالك فيهم أقوالا أشد من تلك . غير أن الأمر الذى يخفف من فكرة خلاف مالك وأستاذه على النحو الذى صورته بعض الروايات لا يصل إلى درجة الخصومة الفقهية . ذلك أن ربيعة وهو فى طريقه إلى العراق . تلك الرحلة التى لم يعد منها . لأنه استدعى من قبل أبى العباس السفاح ليوليه قضاء الهاشمية أول عاصمة للعباسيين فتوفى فيها . نقول إنه قال لتلميذه وهو يودعه – وكان آخر وداع – « إن بلغك أنى أفتيت فتوى . أو حدثت بحديث ماكنت فى العراق . فاعلم أنى مجنون » .

ومهما كان الأمر . فمالك تلميذ لربيعة أخذ منه الكثير . واقتبس من طريقة تفكيره بحيث يرى الدارس الفاحص أن آراء ربيعة تعلن عن نفسها فى فقه مالك . بل فى أساس فقه مالك ، فربيعة كان يأخذ برأى أهل المدينة إذا وجدهم اتفقوا على أمر من الأمور ، واعتبر هذا أقوى من ناحية الأخذ به من حديث الآحاد . ولربيعة فى ذلك قول مشهور وهو : ألف عن ألف أحب إلىّ من واحد عن واحد . فإن واحدا عن واحد ينتزع السنة من أيديكم[٥] .

– ٢ –

عبد الله بن هرمز :

إن الأستاذ الثانى لمالك هو ابن هرمز ، والحقيقة أنه الأستاذ الثانى من حيث الترتيب الزمنى . وأما من الناحية العملية فهو الأستاذ الأول . ذلك أن مالكا لزم

(٤) المصدر السابق ص ١١٥ .

(٥) ترتيب المدارك ١٣٨/١ .

صحبته حسب قوله سبع سنين – أو ثماني سنين – لزوما متصلا لا يخلط به أحدا من الشيوخ ، ثم سمحت ظروف مالك بعد ذلك بحكم التقدم العقلي ووصوله إلى مرحلة اليفاع أن يتصل بأساتذة آخرين أو بشيوخ آخرين حسب لغة العصر . ومع ذلك فلم تنقطع صلته بشيخه الأساسي ابن هرمز . فلقد امتدت صلته به ثلاثين عاما . ذلك أن مالكا يقول فى منهج تعلمه . وهو المنهج الذى يؤمن به لكى يتخرج الدارس ويكون مؤهلا لصفة الفقيه : « أنْ كان الرجل ليختلف للرجل ثلاثين سنة يتعلم منه » وكان تلامذة مالك الذين يسمعون منه هذا القول يذهبون إلى أن الإمام يريد بهذا القول اختلافه إلى ابن هرمز ولزومه له .

ولكن من هو ابن هرمز هذا الذى استطاع أن يهدى إلى المسلمين واحدا من جلة أئمتهم وخيرة فقهائهم وفرة علم وصحة حديث . ووضوح فقه . ونقاء مسلك واستواء فكر . وشموخ شخصية واستمساكا بأهداب القيم الرفيعة مع الحكام والمحكومين .

إنه أبو بكر عبد الله بن يزيد . المعروف بابن هرمز . المتوفى فى المدينة المنورة ١٤٨ هـ . أى أنه توفى حين كان عمر الإمام خمسة وخمسين عاما . ومن هنا كانت قولة مالك كاملة الصدق – ومالك صادق دائما – كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين عاما .

وابن هرمز كان مولى ولم يكن عربيا صليبة ومرة أخرى نكرر القول أن مكانة المرء فى الإسلام مقرونة بعلمه وعمله . وليس بحسبه ونسبه وماله . إن مالكا العربى صليبة الأزدى محتدا يقضى معظم حياته العلمية ملازما لرجل من الموالى . يقف على بابه . ويتحين الفرص للقائه . يسمع منه الفقه . ويتلقى عنه الرواية . وتلك الظاهرة مبدأ أساسى من مبادىء الإسلام الذى سوّى بين الناس جميعا وجعلهم كأسنان المشط لا يتفاضلون إلا بالعمل الصالح .

لقد سلف القول أن مالكا كان إذا سئل عن مسألة وأراد أن يخلع على إجابته ثوبا من التوثيق قال : على هذا أدركت أهل العلم ببلدنا والأمر عندنا . وأهل العلم الذين كان يقصدهم فى قوله هذا هما ربيعة وابن هرمز[٦] .

---

(٦) ترتيب المدارك ١/٣٧ .

لقد كان ابن هرمز مولى للسدوسيين ، وكان أعرج وأصم ، وتلك صفات لا تعيبه ولا تنال من قدره ، فهو من الناحية العلمية من علو الشأن وسمو المكانة بحيث ينتظم الطبقة التالية لفقهاء المدينة السبعة المشهورين ، وهو بين فقهاء المسلمين ينتظم الطبقة الرابعة التى منها ربيعة بن أبى عبد الرحمن ، وابن شهاب الزهرى . وعمر بن عبد العزيز ، وأبو الزناد[7] .

وهكذا يكون أربعة من شيوخ مالك معدودين فى الطبقة الرابعة من علماء المسلمين . ونعنى بهم ربيعة وابن هرمز وابن شهاب وأبا الزناد .

ولم يكن مالك وحده من بين الصفوة من فقهاء المسلمين الذى شهد لابن هرمز وإنما يشهد له أنداده من الفقهاء وأبناء طبقته من العلماء . فربيعة الرأى معاصره ونده يسأله سليمان بن بلال المدنى والى خراج المدينة : أرأيت العلماء والناس ؟ يعنى فى العلم والفقه . فيقول له ربيعة : ما رأيت عالما قط يعينك إلا ذاك الأصم ابن هريرة[8] .

وابن هرمز على علمه وفضله كان يستحلف مالكا ألا يروى عنه حديث رسول الله على كثرة ما ألقى ابن هرمز على سمع مالك من أحاديث ، وعلى وفرة ما وعته حافظته من أخبار الرسالة والرسول ، فقد كان مالك – حسب روايته – يذهب إلى بيت ابن هرمز فيتلقاه تلقى المرحب به ، ويأمر جاريته فتغلق الباب وترخى الستر . ويذكر أول هذه الأمة ثم يبكى حتى تخضل لحيته . إنه عليم بالسنة قولا وعملا وتطبيقا . ولكنه يتحرز ويستحلف مالكا ألا يروى عنه الحديث خشية وورعا واحتراسا . فهو يحفظ قول رسول الله ﷺ .

«مَنْ كَذَبَ عليَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار» .

ولكن ابن هرمز لم يكن ليكذب على رسول الله وإنما كان يخشى الخطأ غير المقصود وبخاصة عندما تقدمت به السن ، والقرينة ترجح أن هذا الاستحلاف حدث عندما كان مالك صاحب حلقة ومجازاً فى أن يحدّث ، فإن لتقدم السن حكمه فى ضعف الذاكرة والنسيان .

(٧) طبقات الفقهاء للشيرازى ص ٣٧ .

(٨) المصدر السابق ص ٣٩ .

وكان ابن هرمز على مكانته العلمية لا ينشط لسرعة الإجابة عن المسائل، ولا يتهجم على الإفتاء، ولا تسعى نفسه للتظاهر بالصدارة في العلم والرياسة في الفقه كما يفعل بعض أنصاف العلماء في زماننا، ولكنه كان يؤثر الأناة وطول التفكير قبل الإجابة عن مسألة من المسائل ، ثم ينتهى إلى القول : لا أدرى . ولم يكن الفقيه الحافظ يجد فى ذلك أية غضاضة . فقول المرء لا أدرى خير من أن يجيب إجابة خاطئة أو إجابة غير كاملة الصواب . ولم يكن ابن هرمز يقول ذلك فى مجال توجيه الأسئلة إليه وحسب . وإنما كان ذلك مذهبه فى العلم ومنهجه فى التعليم . ذلك أن الإمام مالكا يروى أنه سمع شيخه ابن هرمز يقول ينبغى أن يورّث العالم جلساءه قول لا أدرى حتى يكون ذلك أصلا فى أيديهم يفزعون إليه . فإذا سئل أحدهم عما لا يدرى . قال : لا أدرى .

ولقد تأثر مالك وهو إمام بذلك تأثرا شديدا فقولة لا أدرى عنده كثيرة . بل كان يلح عليها ويشفعها بتفسيرات وتبريرات . ولقد كانت : لا أدرى ذائعة بين الأمناء من العلماء قبل ابن هرمز وبعده . فمن المتقدمين الذين لم يتحرجوا من قول : « لا أدرى » الفاروق عمر . وحجة العلم عبد الله بن عباس الذى كان يقول : إذا أخطأ العالم « لا أدرى » أصيبت مقاتلة . ومنهم وعاء العلم عبد الله بن عمر .

وأشهر المتأخرين الذين كانوا يجيبون بلا أدرى إذا لم يكن متيقنا من الإجابة . العالم الجليل أبو العباس ثعلب صاحب « المجالس » و «كتاب الفصيح» فقد سأله رجلٌ ذات مرة عن مسألة بعينها فقال: لا أدرى، فلم تعجب الإجابة السائل . وقال لثعلب مستنكرا : أتقول لا أدرى وإليك تضرب أكباد الإبل وإليك الرحلة من كل بلد ؟ . فيجيبه ثعلب إجابة تجمع بين صادق الجد وقمة السخرية قائلا : لو كان لأمك بعدد ما لا أدرى بعر لاستغنت .

ويبقى أمر مهم فى شأن ابن هرمز قد لا يكون الخاطر مؤهلا لتوقعه فى ضوء معرفتنا بميله للعزلة . وقلة صلته بالناس وعرجه . ذلك الأمر هو خروجه على العباسيين وانضمامه إلى محمد النفس الزكية حينما دعا محمد لنفسه وسعى إلى إمارة

المؤمنين . وكان محمد فى قمة الصلاح والتقوى . وكان مزداناً بالعلم موسوماً بالخلق ، وهو قبل ذلك كله أشبه آل البيت بسيدنا محمد ﷺ ، ولذلك كان النفس الزكية يلقب « بمحمد الشبه » هذا فضلا عن أن اسمه محمد بن عبد الله

ولقد ذكرنا فى كتابنا «الإمام أبو حنيفة» خروج أبى حنيفة مع أخيه إبراهيم الإمام فى العراق وحضَّ المسلمين على الخروج معه. لقد كان موقف ابن هرمز فى قمة الشجاعة، وهو بكل تأكيد كعالم من كبار علماء الأمة وفقيه من رؤوس فقهائها لم يؤازر محمدا وإبراهيم ابنى الحسن طمعًا فى جاه أو سعياً إلى مال ، فذلك أمر بعيد عن العلماء الحقيقيين . وإنما خرج معه عن عقيدة دينية قاده إليها اجتهاده . وانتهى به إليها فكره . ذلك أن العلماء يكونون دائماً متبوعين لا تابعين مهما سما قدر الحاكم . ومهما بلغ من فطنة أو جبروت . على أن الذى حدث بعد ذلك معروف . فقد استطاع العباسيون أن يقضوا على الحركة الحسنية . ثم عفوا بعد ذلك عن ابن هرمز الذى كان متقدماً فى السن، ذلك العمر الذى لم يمنعه من مؤازرة حركة محمد الشبه . وقد قيل لابن هرمز : والله مافيك شيء – يعنى مافيك شيء ينفع الحركة – فكان يجيب قائلا : قد علمت . ولكن يرانى جاهل فيقتدى بى ولم تمض عليه بعد ذلك إلا سنوات ثلاث أو أقل قليلا حتى كان قد انتقل إلى دار البقاء سنة ١٤٨ هـ .

وكما تأثر مالك بابن هرمز فى علمه وفقهه وورعه واستينائه فى الإجابة عن المسائل وقوله لا أدرى إذا لم تكن الإجابة مواتية . فقد تأثر بميوله السياسية على ما نرجح . واتخذ مواقف فى السياسة العامة شبيهة بتلك التى وقفها ابن هرمز .

– ٣ –

نافع الديلمى :

ومن المشايخ الأعلام الذين أخذ عنهم مالك . الفقيه المحدث نافع . وقد سلفت الإشارة إلى أن مالكا كان ينتظره فى الطريق فى حرارة الصيف . وما يظله شيء . يترصد ظهوره حتى يجد سبيلا للتحدث إليه والأخذ عنه . وقد طالت

صحبة مالك له فيما بعد حين كف بصره . فكان مالك يقوده من منزله بالبقيع إلى المسجد النبوى ثم يعود به إلى المنزل .

إن أخبار مالك الفتى ثم الشاب كثيرة مع نافع على الرغم من أن صحبته له كانت دون صحبته لأى من مشايخه الآخرين . ذلك أن نافعا توفى سنة ١١٧ هـ وفى رواية أخرى سنة ١٢٠ هـ ومعنى ذلك أن نافعا توفى ومالك فى الرابعة والعشرين إن صح التاريخ الأول للوفاة . وفى السابعة والعشرين إن صح التاريخ الثانى .

والاسم الكامل لنافع هو نافع بن سرجيس . وكنيته أبو عبد الله الديلمى ، وهو مولى عبد الله بن عمر . وكان متواضعا قليل الكلام وفى لسانه لكنة لكونه ديلميا .

ومرة ثالثة نقول إنه لا علاقة لتواضع منشئه ولكنته وكونه مولى بسمو مكانته ورفعة قدره وخلوده فى التاريخ بين فقهاء المسلمين ورواة حديث رسول الله . فقد رفع الإسلام من شأنه . وسما العلم بقدره . وعظم الحديث من مكانته إلى المدى الذى جعل الراشد الخامس الخليفة عمر بن عبد العزيز يبعث به إلى أهل مصر لكى يعلمهم السنن . إن مولى فى كلامه لكنة يجعله العلم معلما لقطر من أعرق أقطار الدنيا،ومصر من أخطر الأمصار الإسلامية لَشَهادَةٌ معطرة الأرْدانِ لقيمة العلم فى الإسلام .

إن عبد الله بن عمر نشَّأ مولاه نافعا على العلم . وفقَّهه فى الدين . وكان نافع من الذكاء والحذق بحيث أخذ الحديث عن ابن عمر . وأبى هريرة . وأبى سعيد الخدرى . وأم المؤمنين عائشة ، وكان أعلم الناس بفقه مولاه عبد الله بن عمر . وابن عمر كما نعلم هو أحد العبادلة الثلاثة الذين إليهم انتهت الرواية والأحكام .

وكان نافع بعد أن كبر يلقب بفقيه المدينة ، كما كان يلقب بالإمام العلم ؟ وكان ابن شهاب الزهرى يسمع منه الحديث ويرويه . غير أنه كان ينسب الرواية إلى سالم بن عبد الله بن عمر ، وربما كان الزهرى فى ذلك يستكثر على نفسه أن

يكون محدثه هو نافع المولى . ولو صح ذلك - ونرجو ألا يكون صحيحا - لاستحق الزهرى المؤاخذة على ذلك .

ولقد أفاد مالك من نافع فقها وحديثا . وأخذ عنه أحاديث ابن عمر . وكان مالك شديد الثقة فى نافع بحيث كان يقول : إذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر لا أبالى ألا أسمعه من أحد غيره[٩] ومن هنا قال رجال الحديث : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر . وحين يتصل الشافعى بهذه السلسلة فإنها تسمى سلسلة الذهب .

وإذن فلقد أخذ مالك عن نافع فقه عبد الله بن عمر وحديث عبد الله بن عمر . فأنعم به من آخذ . وأنعم بنافع من مأخوذ عنه . ولقد سبق أن قدمنا تعريفا بنافع فى كتابنا «الإمام الأعظم أبو حنيفة»، وكان أبو حنيفة قد سمع من نافع وأخذ عنه.

— ٤ —

ابن شهاب الزهرى :

ومن أشياخ مالك أبو بكر محمد بن مسلم المشهور بابن شهاب الزهرى . وهو مدنى أصيل . منسوب إلى زهرة جد رسول الله من ناحية أمه . ومن ثم فله برسول الله نسب وقرابة . وهو تابعى صغير . فقد لقى بعض صحابة رسول الله ﷺ وأخذ عنهم . بل كان فيما تقول بعض الروايات مقدما عليهم . وكان عمرو بن دينار وهو من التابعين سمع عن علمه أخبارا كثيرة . فكان يقول : أى شىء عند الزهرى ؟ لقيت ابن عمر وابن عباس ولم يلقهما ! ! ثم قدم الزهرى إلى مكة وسمع بذلك ابن دينار . وكان شيخا كبيرا مقعدا فقال : احملونى إليه . فحمل إليه ولم يعد إلى أصحابه إلا ليلا . فقالوا له : كيف رأيته . فقال والإعجاب باد عليه : والله ما رأيت مثل هذا القرشى .

---

(٩) وفيات الأعيان ترجمة مالك .

لم تكن شهادة التابعى الجليل عمرو بن دينار وحدها المأثورة عن فضل ابن شهاب وعلمه . وإنما كان أيضا موضعا لثقة الخليفة عمر بن عبد العزيز . فقد كتب فى الآفاق « عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أعلم بالسنة الماضية منه » كما أن عمر بن عبد العزيز أمره بتدوين أحاديث رسول الله ﷺ ولعل ذلك هو السبب فيما يروى أصحاب الأخبار من أن الزهرى كان يطوف على العلماء ومعه الألواح والصحف يكتب ما يسمع(١٠) .

وكما كان الزهرى موضع ثقة عمر بن عبد العزيز ومشهودا له من عمرو بن دينار . فإن لليث بن سعد إمام مصر وشيخ علمائها قبل الشافعى رأيا فيه جليلا ، فهو القائل فى الزهرى : ما رأيت أعلم منه . وقد سبقت الإشارة إلى أنه كان مقدما عند خلفاء بنى أمية .

وكان الزهرى كثير القراءة دائم الاطلاع له مكتبة خاصة فى بيته ، يجلس بين كتبه يطيل النظر ويشتغل بها عن كل أمور الدنيا ، ومن الطرائف التى تروى فى هذا السبيل أن زوجته قد ضاقت بكتبه ذرعا فقالت له يوما : والله لهذه الكتب أشد علىّ من ثلاث ضرائر . لذلك كان الزهرى صاحب ثقافة عريضة ، إن حدّث عن العرب والأنساب قلت لا يحسن إلا هذا ، وإن حدّث عن القرآن والسنة قيل كذلك . هذا فضلا عن أنه كان من أعلم الناس بالأنساب .

لقد جلس مالك إلى شيخ هذه ثقافته ، وتلقّى عن عالم أخذ من علم المدينة ما استطاع أن تعيه ذاكرته الفذة . ومن بين ما وعى علم الفقهاء السبعة ، وأحاديث رسول الله التى كلف بجمعها ، وقد مر بنا طرف من جلوس مالك إليه يتلقى عنه الأحاديث ، ويذكر ابن القيم فى كتابه إعلام الموقعين أن للزهرى العديد من الفتاوى التى جمعها محمد بن نوح فى ثلاثة أسفار ضخمة مرتبة على أبواب الفقه وإذن يكون الزهرى من أسبق علماء المسلمين الذين ألفوا كتاباً فى الفقه . ويكون فيما لو تأكد الخبر قد سبق أبا حنيفة فى هذا الميدان .

---

(١٠) تذكرة الحفاظ ١٠٦/١ .

إن مالكا جلس إلى الزهرى ساعات وأياما . وقد سلف خبر قضائه معه يوم عيد . فقال عنه إعجابا بحفظه لحديث رسول الله إنه من أوعية العلم . كما استقبله شابا مع ربيعة الرأى . فليس غريبا أن يفيد منه مالك فقها كثيرا وأحاديث عديدة وأن يقول عنه إنه ليس له فى الناس نظير . وقد توفى الزهرى سنة مائة وأربع وعشرين ببلدة شغب على حدود الحجاز وفلسطين .

— ٥ —

جعفر الصادق :

ومن الشيوخ الذين أخذ عنهم مالك وتأثر بهم فى سلوكه الإمام جعفر بن محمد بن على بن الحسين . وهو المعروف بجعفر الصادق . وكان رأس آل البيت فى المدينة وتوفى سنة ١٤٨ هـ .

وربما أحسّ الدارس هذه الأيام بشيء من الغرابة فى أن يأخذ أحد أئمة أهل السنة عن أحد أئمة الشيعة . والحقيقة أن واقع حياة المسلمين على عهد مالك وجعفر لم تكن كواقعها فى هذا العصر الذى توجد فيه فجوة واسعة بين الفريقين .

هذا من ناحية . ومن الناحية الأخرى كانت شخصية الإمام جعفر من ناحية العلم والفضل والتقوى والتسامح لما يدعو كل مسلم مهما كان مذهبه إلى احترامه وإجلاله . وهل من مسلم إلا ويحب أبناء آل البيت . فما بالنا إذا كان هذا الابن غزير العلم . وافر الحكمة . كامل الأدب . زاهدا ورعا . بعيدا عن الغلو . بريئا من التطرف . لا يحب الاعتزال . هكذا كان الإمام جعفر .

وإذا كان بعض الشيعة قد نسبوا إليه كتاب الجفر الذى يحتوى على «كل ما يحتاجون إليه إلى يوم القيامة» فإن نسبة الشيء إلى شخص ما لا تتحقق ما لم تكن نسبة مؤكدة بالتوثيق . وليس الأمر كذلك فيما يتصل بكتاب الجفر . بل إن كتاب الجفر لم يكن وحده الذى نسب إلى الإمام جعفر . وإنما نسب إليه أنه كتب خمسمائة رسالة فى الكيمياء دوّنها جابر بن حيان تلميذ الإمام .

لقد كان الإمام جعفر – على خلاف الشيعة المتأخرين – يؤمن بخلافة أبى بكر وعمر ، ولا يذكرهما إلا بكل حمد وثناء ، بل هو حفيد لأبى بكر من ناحيتين : من ناحية أمه ، ومن ناحية جدته لأمه ، ذلك أن أمه هى أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، وجدته من ناحية أمه هى أسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، ولذلك كان يقول : ولدنى أبو بكر مرتين . وإن الذى يقول ذلك يصعب أن تلصق به مسحة من الغلو على الرغم من كونه رأس فرقة كبيرة بين الشيعة الاثنى عشرية . هذا فضلا عن أنه لم يكن يؤمن بالغيبة أو الرجعة أو التناسخ .

وإذا كانت شخصية المرء تقوّم من أقواله وأفعاله ، فإن أقوال الإمام جعفر تؤكد موضعه من الإجلال والاحترام ، فمن أقواله : إن الله تعالى أراد بنا شيئا وأراد منا شيئا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا .

وكان الإمام جعفر يدعو الله بكلمات فى غاية من البلاغة ، وتترجم عن غاية من الطاعة ، كان يدعو الله فيقول : اللهم لك الحمد إن أطعتك . ولك الحجة إن عصيتك . لا صنيع لى ولا لغيرى فى إحسان ، ولا حجة لى ولا لغيرى فى إساءة .

والإمام مالك الذى صحب الإمام جعفرا بعض الوقت وأخذ منه . يرسم له صورة مشرقة على النحو التالى : كنت أرى جعفر بن محمد . وكان كثير الدعابة والتبسم . فإذا ذكر عنده النبى ﷺ اخضرّ واصفرّ . ولقد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاثة خصال : إما مصليا ، وإما صائما ، وإما يقرأ القرآن . وما رأيته قط يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على الطهارة ، ولا يتكلم فيما لا يعنيه . وكان من العلماء والعباد والزهاد الذين يخشون الله ، وما أتيته قط إلا ويخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتى .

هذا هو الإمام جعفر كما رآه الإمام مالك ، ومن المعروف أنه كان فى قمة من المسالمة إلى الحد الذى جعله يغادر المدينة المنورة – مسكنه ودار إقامته – حين

خرج ابن عمه محمد بن عبد الله بن الحسن على العباسيين ؛ ولم يعد إليها إلا بعد أن انتهت الثورة وقتل محمد وأخوه إبراهيم .

لقد تأثر مالك بكثير مما فى جعفر . تأثر به فى الحديث فروى له ؛ ولقد ضمن مالك كتابه « الموطأ » عددا من الأحاديث التى رواها عنه بلغ عددها تسعة . ولقد تأثر به مالك فى أنه لم يجلس ليحدث حديث رسول الله إلا وهو على الطهارة . كما أن مالكا عاش مسالما من الناحية السياسية إلى حد كبير . ربما أبدى آراء بعينها من حيث كونها صادرة من المنطلق الشرعى . وأما الممارسة السياسية فلم يلمس جانبها من حيث كونها ممارسة واضحة واشتغالا صريحا . وسوف يحتاج ذلك إلى مزيد من البيان .

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن الإمام جعفراً كان ذا صلة وثيقة بالإمام أبى حنيفة لحمتها المشاركة العلمية والمعرفة الفقهية . وسداها المودة الصادقة . والحب المتبادل. وقد وضحنا ذلك فى كتابنا عن الإمام أبى حنيفة.

ولم يكن مالك وأبو حنيفة وحدهما الآخذين من فيض علم الإمام جعفر من بين أئمة أهل السنة ؛ وإنما أخذ عنه واتصل به السفيانان الثورى وابن عيينة وشعبة بن الحجاج وغيرهم .

— ٦ —

شيوخ آخرون :

هؤلاء الفقهاء الخمسة ربيعة الرأى ، وابن هرمز ، ونافع ، والزهرى ، وجعفر بن محمد يعتبرون أكثر الفقهاء تأثيرا فى مالك ، ويعتبر مالك تلميذا لكل واحد منهم بأقدار تكاد تكون متساوية باستثناء جعفر الذى كان ارتباط مالك به أقل من ارتباطه بالآخرين . غير أن هناك عددا آخر من شيوخ مالك الذين أسهموا فى تكوينه ونضجه . ومن الصعب على من يقدم دراسة عن مالك ألا يذكرهم ويعرف بهم ولو بشكل موجز .

فمن هؤلاء الفقهاء يحيى بن سعيد الأنصارى قاضى المدينة . الذى توفى سنة ١٤٣ هـ والذى رحل إلى العراق شأنه فى ذلك شأن ربيعة . وليس من باب المصادفة أن يرحل كل من ربيعة ويحيى إلى العراق دون غيرهم من فقهاء المدينة المرموقين . ولكنه التشابه فى الفقه والفكر . فقد كان كل منهما من فقهاء الرأى . وكان الرأى مذهب أهل العراق . ومن ثم فقد رحل كل منهما استدعاء من الحكام . وكان يحيى عالما ثبتا أخذ عن فقهاء المدينة السبعة . وكان أكثر أخذا عن الفقيه العظيم سعيد بن المسيب . بل إنه أخذ أيضا عن أئمة فقهاء عصره من أمثال الزهرى فى المدينة . والأوزاعى فى الشام . وسفيان الثورى فى الكوفة . وسفيان بن عيينة فى مكة . بل إن الرجل لتعطشه إلى العلم لم يجد ما يشينه إذا جلس إلى أحد تلامذته النابهين يتلقى العلم عنه . ومن هنا كان مجلسه إلى تلميذه مالك يأخذ عنه . وتلك مفخرة من مفاخر مالك أن يصير بعض أساتذته تلامذة له . وإن هذا الموقف يكبر من شأن يحيى ولا ينال من قدره فقد أكبره خاصة الفقهاء وزكاه كبار العلماء . ويكفى يحيى بن سعيد مجدا أن يقول عنه الإمام العظيم أحمد بن حنبل إنه أثبت الناس .

ومن هؤلاء أيضا – ونعنى شيوخ مالك – عبد الله بن ذكوان المشهور بأبى الزناد المكنى بأبى عبد الرحمن . وأصله من الموالى . وكان أحد الذين يثق بهم وبعلمهم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز . فولاه خراج العراق لبعض الوقت . وكان أبو الزناد وافر العلم كثير الجلوس للتحديث . تلقى العلم عن الفقهاء السبعة . ومن معينهم ارتوى . وعلى حوضهم ورد . وكان فقيه رواية . ذا مكانة سامية ومنزلة رفيعة . ويعدّ أبو الزناد آخر أساتذة مالك من حيث أن مالكا قد جلس بعد ذلك للدرس . وتوفى أبو الزناد سنة ١٣٠ هـ .

ومن شيوخ مالك الذين أخذ عنهم فقها . وروى عنهم الحديث . محمد بن المنكدر التيمى القرشى . وآل المنكدر أصحاب أسهم وافرة فى الفقه والحديث . وكانوا من أعيان المدينة . وقد عرف آل المنكدر بالفضل واشتهر منهم أربعة : محمد هذا الذى سمع منه مالك . وأعمامه : ربيعة بن المنكدر الذى يعدّ من فقهاء

الحجاز . وأبو بكر بن المنكدر . وعمر بن المنكدر . وهذان الأخيران فقيهان معروفان .

ومن الطريف أيضا أن بعض موالى آل المنكدر يعتبرون من الفقهاء العظام فمن مواليهم ربيعة الرأى . ومن مواليهم أيضا يعقوب الماجشون[١١] .

والذى يعنينا الآن بين آل المنكدر هو محمد الذى عرف بالزهد والإسناد والولوع بحديث رسول الله ﷺ . وكان لا يسأله أحد عن حديث إلا بكى . وهو على زهده وتقواه وبكائه كان إذا سئل عن أى الأعمال أفضل . أجاب : إدخال السرور على المؤمن . وإذا سئل : أى الدنيا أحب إليك ؟ قال : الإفضال على الإخوان .

لقد تأثر مالك بمحمد بن المنكدر فيما نرى فى حالين : الحال الأولى تأثره بزهده . وكانت نفسية مالك نفسية زاهدة على الرغم مما يبدو عليه من أشكال النعمة . فكثيرا ما تخفى الظواهر البراقة بواطن نورانية شفافة . يقول مالك عن ابن المنكدر هذا : كنت إذا وجدت من قلبى قسوة آتى ابن المنكدر فأنظر إليه نظرة فأبغض نفسى أياما . أو فأتعظ بنفسى أياما على رواية أخرى[١٢] . وأما الحال الثانية التى تأثر فيها مالك بابن المنكدر فهى العلم والرواية . وهو معدود من رجال « الموطأ » وله فيه عدد من الأحاديث .

إن شيوخ مالك على كثرتهم يمثلون أنماطا بشرية مختلفة . فمنهم عالم الأثر . ومنهم عالم الرأى . ومنهم من ملك فقه السنة والرأى جميعا . ومنهم الزاهد فى الدنيا البكاء تقى ورهبة . ومنهم – وهذا هو الجديد فى الأمر – الشاعر ذو الصنعة فى الغناء وهذا الشيخ الشاعر المغنى الذى نقصده هو عروة بن يحيى بن مالك القرشى المدنى المشهور بأبى عامر عروة بن أذينة . فهو القائل :

يادِيارَ الحىِّ بالأَجَمَهْ لَمْ تُبِنْ دَارُهَا كَلِمَهْ

---

(١١) الطبقات الكبرى للشعرانى ٣٢/١ .

(١٢) شذرات الذهب ١٧٨/١ .

وهو صاحب الصوت الذى غنى به البيت . او بعبارة هذا الزمان صاحب اللحن الذى أُدِّىَ به البيت غناء .

لقد كان أبو عامر شاعرا غزلا مما يجعله موضع اتهام عند الخاصة من رجال ونساء . ومن المرويات عنه أن سكينة بنت الحسين كانت فى موكبها فمرت عليه هى وجواريها ثم وقفت عنده . وقالت له : يا أبا عامر . أنت الذى تزعم أن لك مروءة . وأن غزلك من وراء عفة . وأنك تقى ؟ ! ! قال : نعم . قالت فأنت الذى يقول :

قالتْ وأَبْثَثْتُهَا وَجْدِى فَبُحْتُ بهِ
قد كنتَ عندِى تحبُّ السِّتْرَ فاسْتَتِرِ

أَلسْتَ تُبْصِرُ مَنْ حَوْلِى ؟ فقلتُ لها :
غَطَّى هواكِ وما أُلْقِى على بَصَرِى

قال لها : بلى . قالت : هن حرائر إن كان هذا خرج من قلب سليم

والحقيقة أن فى كل زمان نمطا من الشعراء ممن يقولون مثل هذا الشعر وهم فى الوقت نفسه فقهاء أو مجتهدون . وما العهد بالفقيه العراقى الشاعر المجتهد سعيد الحبوبى ببعيد . فإن شعره – وديوانه منشور – مترع بقصائد الغزل مزدحم بموشحات الخمر . ولكن هل تغزل الرجل بامرأة حقيقة ؟ هذا ما لا يعرفه أحد .

المهم عندنا أن هـذا الشاعر ذا الصنعة الغنائية أبا عامر عروة بن أذينة قـد روى عنه الإمام مالك وأخذ عنه شيئا من الفقه[١٣] . ونحن نميل إلى أن أبا عامر لم يكن مغرقا فى الشعر والغناء . ولكن ربما كانت هواية بريئة ذات إقلال . فقد كان الإمام نفسه يحب الغناء البرىء .

هؤلاء هم شيوخ الإمام مالك المنظورين على تفاوت بينهم فى مدى الصلة بهم والانقطاع إليهم . وهم أصحاب علم كثير هذا فضلا عن مئات آخرين لم تذكر أسماؤهم .

وإن دارسا مجدا ذكيا ذا عقل ومثابرة ودين . هؤلاء أساتذته وشيوخه . موهل كل التأهيل لأن يكون فقيها كبيرا . ومحدثا ثبتا . وإماما عظيما .

---

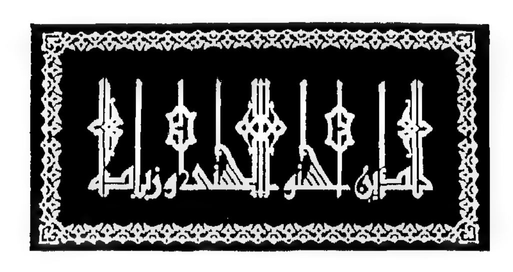
(١٣) المعارف لابن قتيبة ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

الفصل الثالث

معالم شخصية مالك

- وسامته وحياته الخاصة
- مصادر أمواله
- أسرة الإمام مالك
- سلوك مالك مع العامة
- العلم والزهد
- سلطان العلم وسلطان الحكم
- مالك والخلفاء العباسيين

  مالك وأبو جعفر – مالك والمهدى – مالك والرشيد
- نهج مالك فى وعظ الحكام
- مالك والهدايا
- مالك والغناء والمزاح
- مواقف أخذت على مالك



الفصل الثالث

معالم شخصية مالك

– ١ –

وسامته وحياته الخاصة.

كان الإمام مالك يتسم بجمال الخلقة وسامة وقسامة . ولم يكن من أولئك الذين إن منحوا الوسامة حرموا أشياء أخرى . وإنما أعطى الله مالكا وسامة الخلقة وجمال القسمات ورزانة العقل وكمال الصفات . لقد وصف بأنه من أحسن الناس وجها . أبيض شديد البياض فى شقرة . مع قوام فيه بسطة وتناسق . مضافا إلى ذلك كله أناقة فى الثياب وعناية فى الملبس .

وليس من شك فى أن المظهر الجميل إذا رافقه علم نافع وعقل راجح . كان أكثر تأثيراً فى نفوس الناس . وأدعى للاحترام وأخلق بالهيبة وحرى بالإجلال .

كان الإمام مالك – فيما تذكر كتب مناقبه – يرى عليه طيلسان يساوى خمسمائة . وقد رفع جناحاه على عينه أشبه شيء بالملوك . وكان يلبس الثياب المروزية الجياد ـ نسبة إلى مدينة مرو ـ والثياب الخراسانية الجياد. والمصرية المترفعة . والرقاق العدنية . وكان يتختم بالفضة مكتوب على خاتمه « حسبى الله ونعم الوكيل » وكان بالخاتم فص أسود .

كان الإمام يعتنى بلباسه ومظهره عامدا إلى ذلك عمدا . وكان يقول : ما أحب لأحد أنعم الله عليه إلا أن يرى أثر نعمته عليه . وخصوصا أهل العلم . ينبغى لهم أن يظهروا مروءاتهم فى ثيابهم: إجلالا للعلم[1] .

وربما أبدى بعض الناس ملاحظات حول العناية الفائقة التى كان مالك يوليها ملبسه ومظهره العام . وأن ذلك ربما كان بعيدا عن التواضع فيقول مجيبا

---

(١) المناقب للزواوى ص ٤٢ .

هؤلاء : التواضع فى التقى والدين لا فى اللباس . ويكرر القول : إنما كنا نتواضع فى التقى والدين لا فى اللباس .

وكما كان مالك يهتم بملبسه ومظهره العام كان أيضا يولى اهتماما كبيرا بمأكله . ولم يكن ذلك صادرا عن بطنة أو حب للطعام ذاته بقدر ما كان نظاما يلتزمه من منطلق ذوقه العام وعنايته بكل شئونه الخاصة . لقد كان لبيته راتب يومى من اللحم قيمته درهمان . وكان يحب الفاكهة . ويفضل الموز منها بشكل خاص . فإذا سئل فى ذلك قال : لم يمسه ذباب ولا يد أسود . ولا تطلبه فى شتاء ولا صيف إلا وجدته . فليس شيء أشبه بثمر الجنة منه .

ولم يكن التوسع فى الطعام عند مالك له ولأهل بيته خاصة . وإنما كان ينال تلامذته شيء من بره بين الحين والحين . فيدعوهم إلى الطعام ويفسح لهم ويمكنهم من مرافق بيته فى حرية وراحة . وكانت هذه عادة للأئمة مع تلامذتهم، وكذلك أبو حنيفة كان يدعو تلاميذه كل يوم جمعة للطعام.

أما بيت مالك فنظيف أنيق . مليء بالأثاث الناعم من نمارق وضجاع ومخاد محشوة بالريش وبسط ، ومنصات ، ويلفت نظر المرء عبارة « ما شاء الله » مكتوبة على باب البيت ، ويسأل مالك فى ذلك فيقول : قال الله تعالى :
« وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ » .

والجنة الدار ، ومن الطرائف أن زائرا عراقيا سأله عن الصورة فى البيت . فقال مالك إنه لا ينبغى وجودها ، فأشار الزائر إلى صورة كانت فى الحائط ، فقال مالك بأن الصورة ربما كانت لساكن سابق – وكان مالك يكترى الدار – ثم أمر مالك الضيف أن يقوم فيحكها ويزيلها .

ولقد قيل إن الدار التي كان يسكنها مالك في المدينة هي دار عبد الله بن مسعود، غير أن الأمر الذي ينبغي توضيحه أن مالكاً سكن العقيق ـ وهو يبعد عن المدينة نحو أربعة كيلو مترات ـ في طفولته وفي شيخوخته، بل نستطيع

أن نقرر أنه عاش فى العقيق للمرة الثانية اعتبارا من عام ١٦٠ هـ على وجه التقريب ، والقرينة فى ذلك أن والى المدينة حين أراد تقديم الشافعى إلى مالك بتزكية من والى مكة . ذهب به إلى بيت مالك بالعقيق (٢) . وحين بعث الرشيد بولديه إلى مالك ليتلقيا عنه . كان أيضا بالعقيق . تقول الرواية إن ابنى الرشيد دقا عليه الباب فلم يفتح لهما فجلسا على الباب والريح يضرب وجوههما بتراب العقيق ، فلما يئسا انصرفا (٣) وكانت وفادة الغلامين العباسيين فى العقد الثامن من القرن الثانى أى سنة مائة وكذا وسبعين . وتلك قرينة على أن الإمام قد عاش زمنا غير قصير فى المرحلة الأخيرة من حياته بالعقيق . على عكس ما هو وارد من أنه سكن المدينة أكثر الوقت .

– ٢ –

مصادر أمواله :

كان الإمام مالك ينعم بدخل كبير يهيىء له أسباب الحياة الناعمة والعيش الرغيد ؛ صحيح أنه كابد وسعى سعيا حثيثا فى سبيل الرزق فى أول حياته فاشتغل بتجارة البز ، التى لم تكن تفى بمتطلبات الحياة . وقيل بعد ذلك إن قوام عيشه أربعمائة دينار يعيش من ريعها فى التجارة ، ولم يكن هو الذى يمارس التجارة حين غلبت الصفة العلمية على شخصه . وفى غالب الظن أن ريع هذا المبلغ لم يكن هو الآخر كافيا لمعيشة مالك مما جعله يواجه أزمات مالية اضطر فى إحدى المرات إلى أن ينقض سقف بيته ويبيعه حتى يفلت منها . تلك صعاب مالية واجهها مالك فى أول حياته ، ولكنه عاش بعد ذلك عيشة مترفة ، فقد أغدق عليه الخلفاء العباسيون بسخاء ، وإن ما وصله به أبو جعفر المنصور وحده – وكان ذا حرص فى العطاء – يناهز الستة آلاف من الدنانير ، ناهيك عن عطايا المهدى وصلات الرشيد ، ولقد سئل فى هذه الأموال ومدى شرعية قبولها

---

(٢) معجم الأدباء ٢٨٥/١٧ دار المأمون .

(٣) ترتيب المدارك ٣٦ .

فكانت إجابته تفيد أنه كان يستحلها لذاته . ويحمّل غيره تبعة قبولها إذا ما سأله فى ذلك .

غير أن كلمة الحق ينبغى أن تقال . ذلك أن الشيخ لم يكن يتهافت على القوم ولا يتصاغر أمامهم بالقول أو العمل . بل كانت كلماته معهم ونصحه لهم وزجره لبعضهم لمّا يليق به كإمام من كبار علماء المسلمين . لقد أمر المنصور له ذات مرة بخمسة آلاف وكسوة سنية كما أمر بألف لولده محمد ، وكان المألوف أن يجعل تابع الخليفة الكسوة على كتف من خلعت عليه لكى يخرج بها على الناس ، وأراد الخصىّ أن يلحق بمالك ويضع الكسوة على كتفيه . ولكن الإمام الجليل انحنى عنها . ولم يمكّن الخادم من طرحها على كتفيه . حدث ذلك على مرأى من الخليفة الذى أمر الخادم قائلا : ألحقها برحل أبى عبد الله[4] . أى اذهب إلى ركب الإمام وأوصلها إلى هناك ولا تفعل مع الإمام ما تفعله مع الآخرين .

وكانت رابطة ود وصداقة تجمع بين مالك فى المدينة والليث بن سعد إمام مصر وكان الليث على جانب كبير من الثراء جمع بين غنى النفس وثروة العلم وثراء الخلق ووفرة المال ، وكان ينفق فيض ماله حيث ينبغى أن ينفق . ومن ثم كان يبعث لرجال العلم بهدايا مالية تارة وعينية تارة أخرى . فكان يرسل إلى مالك كل سنة مائة دينار – ونحن نرى أن المبلغ كان أكبر من ذلك بكثير – ومن طرائف العلاقة بين الليث ومالك أن مالكا أرسل إليه يطلب قليلا من العصفر يصبغ به ثياب الصبيان فأنفذ إليه الليث ما صبغ به ثياب الصبيان وثياب الجيران . وبيع الفضل بألف دينار[5] . وهكذا كانت عطايا الليث دائما .

---

(٤) ترتيب المدارك ٣٥ .

(٥) الرحمة الغيثية فى الترجمة الليثية ص ٥ ط بولاق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— ٣ —

أسرة الإمام مالك :

وأما أسرة الإمام والصبيان الذين كتبوا إلى الليث فى مصر يطلبون العصفر لصبغ ثيابهم فإن الأخبار عنهم قليلة . غير أننا نعرف من أبنائه أربعة : ثلاثة بنين وفتاة . فأما البنون فهم يحيى ومحمد وحماد . وأما الابنة فهى فاطمة . وكانت فاطمة فى علمها وحفظها جديرة بأن تكون ابنة لمالك . فقد كانت تحفظ الموطأ . وتراقب القارئ فى حضرة أبيها من خلف الباب . فإذا أخطأ نقرت الباب فيفطن مالك ويرد الخطأ .

ولكن من عجيب المفارقات أن تكون ابنة مالك على هذا النحو من العلم والحفظ ويكون أحد أولاده — لا يعرف اسمه على وجه التحديد — على النقيض من ذلك تماما . يخرج ويدخل وعلى يده باشق — طائر الصيد — وفى رجله نعل كيسانى . وقد أرخى سراويله وأبوه يحدّث فلا يجلس إليه . وليس من شك فى أن مالكا كان يألم لذلك ويلتفت إلى تلاميذه ويقول : إنما الأدب أدب الله . هذا ابنى وهذه ابنتى . وكان الإمام يواسى نفسه لهذا الذى يراه من ولده فيقول : مما يهوّن علىّ أن هذا الشأن — أى العلم — لا يورث . وأن أحدا لم يخلف أباه فى مجلسه إلا عبد الرحمن بن القاسم .

— ٤ —

سلوك مالك مع العامة :

وكان للإمام مالك تقاليد اختص بها لنفسه . وعادات استنها لشخصه . بحيث تجعل منه مثلا أعلى لمعاصريه من الناس عامة . وأنداده من العلماء خاصة . تقاليد التزمها . وسنن لم يحد عنها . كان إذا أصبح لبس ثيابه وتعمم . ولا يراه أحد من أهله أو أصدقائه إلا متعمما لابسا ثيابه . وما رآه أحد أكل أو شرب حيث يراه الناس .

وكان مالك يرى أنه لا يجمل بالعالم أن يذهب إلى السوق لشراء حاجاته وحاجات بيته ، ويقول فى ذلك : ينبغى للعالم ألا يتولى شراء حوائجه من السوق بنفسه وإن كان يقع عليه فى ذلك نقص فى ماله . فإن العامة لا يعرفون قدره . ومن الطريف أن الذى يسوق هذا الخبر عن فعل مالك هو القاضى عياض . والقاضى عياض أندلسى كما نعرف . وكان العلماء فى الأندلس إذا نزلوا السوق لشراء حوائجهم كان البائعون يعرفونهم ويعاملونهم معاملة خاصة من ناحية الأسعار ، بحيث كان العالم إذا نزل بنفسه إلى أسواق قرطبة أو اشبيلية أو غرناطة أو ما إلى ذلك من مدن الأندلس وبلدانه خَفّض البائعون له من أثمان بضائعهم بما يجعل العالم أو الفقيه يشعر بأنه موضع التكريم والإكرام، لشدَّ ماكان الفرق بين عامة الشرق وعامة الأندلس ! !

ومن الطريف أن الإمام أبا حنيفة كان هو الآخر يرى أنه لا يجمل بالعلماء أن ينزلوا إلى الأسواق لكى يشتروا حوائجهم وما يلزم لبيوتهم ؛ وإنما ينبغى أن يكلف بذلك بعض من كانوا قريبين إليه أو بعض الخدم ، وقد أورد هذا الرأى فى فقرة من فقرات وصيته لتلميذه أبى يوسف . وقد أوردنا طرفا منها فى الكتاب الخاص بأبى حنيفة .

— ٥ —

العلم والزهد :

للإمام مالك موقف من الزهاد والعباد ، ومن ناحية أخرى نستطيع أن نقول إن للزهاد والعباد موقفا منه ؛ إنه الخلاف التقليدى بين الفقهاء والزهاد الذين هم فى الأغلب يصيرون متصوفة .

كان القرن الثانى حافلا بالفقهاء الأئمة من أمثال أبى حنيفة ومالك والشافعى والأوزاعى وسفيان الثورى وسفيان بن عيينة وابن شهاب الزهرى وابن هرمز ونافع وربيعة الرأى وعمرو بن دينار ومحمد بن الحسن وأبى يوسف وعبد الرحمن بن مهدى وجعفر الصادق والليث بن سعد ويحيى بن سعيد القطان وشعبة بن الحجاج وابن أبى ذئب ووكيع بن الجراح وغيرهم من هذه الصفوة الرفيعة القدر

والمقام الذين يصعب إحصاؤهم ، وليس واحد منهم مجالا لشك فى علمه أو مثارا لطعن فى دينه .

ولقد حفل القرن الثانى أيضا بعدد كبير من أئمة الزهاد من أمثال عبد الله بن المبارك ، والفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، ومالك بن دينار ، وداوود بن نصير الطائى . ومسعر بن كدام ، ووهب بن الورد وغيرهم ، ولم يكن هؤلاء بمعزل عن العلم ، أعنى الفقه والحديث ، لقد كانوا دائما كذلك أول أمرهم . وبلغ بعضهم الذروة فى علمه ، ولكنهم يرون أن الزاهد لا ينبغى له أن يتكلم فى الفقه أو الحديث وأنه إن فعل فقد أخلّ بالزهد .

إن عالما مثل أبى سلمة مسعر بن كدام كان لفرط إتقانه الحفظ والتجويد والاستنباط من القرآن الكريم يسمى « المصحف » ، وكان يسمى « الميزان » لدقة نقده الحديث ومعرفة درجاته، ولكن ما أن تزهد حتى ترى ذلك جميعا، وكان يدعو على من يبغضه أن يجعله الله محدثاً[٦].

إن الزهد والتعبد أمران عظيمان يقربان الإنسان من خالقه ، ويطهران قلبه ، ويشعشعان روحه . وقد كان الزهاد ذوى سلطان بين الناس ، وإن شئنا قلنا أصحاب مملكة . وقد رأت جارية فى قصر الرشيد فى مصيفه بالرقة موكب الخليفة وهو قادم من بغداد ، وبعد ساعات قليلة رأت موكبا هائلا تتدافع الناس فيه وتتلاطم أمواج البشر . فسألت عن الأمر فقيل لها إن عبد الله بن المبارك يمر فى الطريق إلى الرباط فى الثغور ، فقالت على الفور : هذا هو الملك الحقيقى لا ملك هارون .

ولكن هل معنى ذلك ألا يكون هناك فقهاء وألا يوجد محدثون ، وهل الزهد خير من العلم . إن مالكا يعرض للموقف ويقول : إن الاشتغال بالعلم ليس أقل من الانقطاع للعبادة ، بل إن بعض الأئمة ذهب إلى أن مجلس العلم خير من صلاة التطوع والسنن .

---

(٦) المعارف لابن قتيبه ص ١٦٥ .

ويرى الإمام مالك أن الإنسان يختار طريقه علما أو عبادة . ويرجو أن يتقبل الله عمل هذا وعلم ذاك . فقد كتب ردا مهذبا متواضعا على رسالة جاءته من زاهد يدعوه إلى الانفراد والتعبد قال فيه : « إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق . فربّ رجل فُتِح له فى الصلاة ولم يُفْتَح له فى الصوم . وآخر فُتِحَ له فى الصدقة ولم يُفْتَح له فى الصوم . وآخر فتح له فى الجهاد . ونشر العلم من أفضل الأعمال . وقد رضيت بما فُتح لى فيه . وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه . وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر »[7].

وقد بلغ الأمر بالإمام مالك فى بعض سلوكه أن يجعل من الأناقة سبباً لنفى مظاهر التفاخر بالعبادة . فكثير من الناس يحبون أن يعرفوا بكثرة الصلاة من علامة بجباههم تسمى الزبيبة يساعد على ظهورها السجود على شىء خشن . وليس كل صاحب زبيبة مفاخرا بها جاعلا منها سببا للإعلان عن تقوى ذاته وصلاح أمره . بل هى على الأغلب تنبت فى جباه الصالحين الركع السجود . وأما علاقة مالك بهذا الأمر فهو أنه كان يحمل فى كمه منديلا مطويا على أربع طاقات . فإذا حان وقت الصلاة نشره وسجد عليه . فقيل له فى ذلك . فقال : أجعله لئلا يؤثر الحصى فى جبهتى فيظن الناس أنى أقوم الليل[8] .

سلطان العلم وسلطان الحكم

ومن السنن الحميدة التى استنها مالك لنفسه والتزم بها أنه ما حدث بحديث رسول الله ﷺ إلا وهو متطهر متطيب – وقد نستثنى من ذلك فترة مرضه – فقد كان إذا أراد التحديث دخل مغتسله فاغتسل وتطيّب ولبس ملابس جديدة . ثم يمشط لحيته ، ويصلح من شأنه ، ويجلس فى مكانه المعتاد سواء أكان فى الروضة بالمسجد النبوى الشريف أم فى بيته بعد أن انقطع عن الناس بسبب المرض والشيخوخة ؛ وكان مرضه هو سلس البول.

---

(٧) مالك بن أنس للخولى ص ٢٤٥ عن مخطوطة تاريخ الإسلام ٥١/٩ .

(٨) المدارك ٢٩ .

ولمناسبة مرض مالك . كان الرجل على جلال قدره يستحى أن يبوح بمرضه . فقد كان الإمام فى حالته العادية يقوم بكل الواجبات العلمية والاجتماعية التى تطلب من مثله . كان يأتى المسجد بانتظام ويشهد الصلوات والجمعة والجنائز . ويعود المرضى ويقضى الحقوق . ويجلس فى المجلس فيجتمع إليه أصحابه . ثم بعد ذلك ترك الجلوس فى المسجد ، فكان يصلى وينصرف إلى مجلسه . وترك حضور الجنائز فكان يأتى أصحابها فيعزيهم . ثم ترك ذلك كله فلم يكن يشهد الصلوات فى المسجد ولا الجمعة ولا يأتى أحداً يعزيه . واحتمل الناس له كل ذلك حتى مات . يقول ابن فرحون فى الديباج : وربما قيل له فى ذلك . أى نبه إلى ذلك واستفسر منه عن السبب . فكان يقول : ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره[٩] .

فإذا ما عدنا لذكر احتفال مالك بحديث رسول الله ﷺ من تطهر وتطيب فإننا لا نترك الموقف يمر دون أن نشير إلى أن الإمام الجليل لم يتوان يوما عن الاحتفال بحديث رسول الله حتى وهو يطلب العلم ويسمع فى حلقات الفقهاء . ولكن احتفاله آنذاك كان بطريقة أخرى . إذ أنه لم يكن يسمح لنفسه أن يكتب حديث رسول الله من الفقهاء والمحدثين إلا إذا كان جالسا مطمئنا بعيدا عن المزاحمة خالصا من المضايقة . سأل سائل مالكا : هل سمعت من عمرو بن دينار؟ فأجاب : رأيته يحدث والناس قيام يكتبون فكرهت أن أكتب حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم .

ومرَّ مالك بأبى الزناد – أحد أساتذته – وهو يحدّث فلم يجلس إليه . فلما لقيه بعد ذلك سأله : ما منعك أن تجلس إلىّ – أى أن تنتظم حلقة الدرس ؟ – قال : كان الموضع ضيقا فلم أرد أن أكتب حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم .

---

(٩) الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ص ٢٢ .

مالك والخلفاء العباسيين :

لعل أهم معالم شخصية مالك هو اعتزازه بنفسه واحترامه لذاته ووقوفه أمام أعلى الناس قدرا وأقواهم نفوذا موقف العالم الأستاذ الناصح حينا . الواعظ حينا آخر . الزاجر حينا ثالثا . لقد كان يفعل ذلك مع الخلفاء . وأى الخلفاء ؟ الخلفاء العباسيين . ومَنْ مِنْ خلفاء العباسيين ؟ المنصور والمهدى والرشيد . وهؤلاء الثلاثة هم بغير شك أعظم خلفاء العباسيين شأنا وأشدهم بأسا . وأثبتهم حكما . وأكثرهم علما . وأطولهم باعا فى الحرب والسلام على حد سواء .

إنهم يطلبون مالكا ليعلم أولادهم فيمتنع عنهم . ويرجونه لكى يسمعوا منه فيستعصى عليهم . إنه يفعل ذلك ليس ضنًّا بعلم . ولا بُخْلاً بحديث . فهو يرى أن العلم كالعبادة سواء بسواء . وقد مرّ ذلك قبل قليل . ولكنه يعرف للعلم قدره . وللعالم مقداره . ويقول لغير واحد من هؤلاء الخلفاء العظام : إن العلم يزار ولا يزور . ومرة أخرى يؤتى ولا يأتى ! !

أرأيت كيف يتصرف العلماء . لا يتهافتون مهما كان شأن الطالب . ولا يتضاءلون مهما كان قدر الحاكم . ليت علماء عصرنا يتعلمون من إمام دار الهجرة ! ! ليتهم يفعلون .

لقد جلس الرشيد إلى مالك فى بيت مالك يسمع منه الحديث على ما سوف نفّصل بعد قليل . فقال له الرشيد بعد مدة : تواضعنا لعلمك فانتفعنا بك . وتواضع لنا سفيان بن عيينة فلم ننتفع به . وكان سفيان يذهب إليهم فى قصورهم ليحدثهم .

مرة أخرى ليت العلماء يعرفون أقدار أنفسهم ويحافظون على كرامتهم . إذن لنفعوا الناس جميعا . ونالوا احترام الناس جميعا . ولهم فى الإمام الجليل خير أسوة .

لقد بعث الخليفة المهدى إلى مالك بألفين من الدنانير وفى رواية ثلاثة آلاف

وطلب إليه أن يركب إلى دار السلام ، فرفض أن يقبل المال ورفض أن يركب إلى بغداد ، فما هى إلا شهور قليلة مضت حتى بعث إليه المهدى بستة آلاف . وهنا يقول مالك للجالسين حوله مشيرا إلى المنحة التى رفضها : من ترك شيئا لله عوضه الله عما ترك .

لقد كان من الطبيعي والأمر كذلك أن يحترم الخلفاء مالكا ويجلونه ويبعثون بأبنائهم من بغداد إلى المدينة لكى يتلقوا العلم على يديه وفى حضرته ، فبعث الخليفة المهدى بولديه موسى وهارون اللذين صار كل منهما خليفة بعد ذلك ، ثم بعث الرشيد أيضا بعد أن صار خليفة بولدين من أولاده يتلقيان العلم على مالك فى المدينة طبعا لأن مالكا لم يغادر الحجاز طول حياته .

ولولدى الرشيد قصة طريفة حين وفدا إلى المدينة للقاء مالك مرت الإشارة إليها ، فقد ذهبا إلى بيت مالك فى العقيق وكانت الضاحية الخضراء فى جنوب المدينة ، وطرقا الباب فلم يسمع أحد من الداخل الطرق ، فجلسا على عتبة الباب بعض الوقت . ويبدو أن اليوم كان ذى رياح هوج فأخذت الريح تضرب وجهيهما بتراب العقيق ، فلما يئسا من لقاء الشيخ فى ذلك اليوم انصرفا إلى المدينة .

لقد كان لمالك شأن أى شأن مع الخلفاء العباسيين ، كان أول شيء يفعله موعظة حسنة وكلمة طيبة فى صالح المسلمين . إن مالكا يُسمع وهو يقسم بالله قائلا : ما دخلت على أحد من هؤلاء الخلفاء أو السلاطين –كما كان يسميهم – إلا أذهب الله هيبته من قلبى حتى أقول له الحق[١٠] ويؤكد مالك هذا المعنى فى مبدأ يضعه فى علاقة العلماء بذوى السلطان فيقول : حق على كل مسلم أو رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم أو الفقه أن يدخل إلى ذى سلطان ، فيأمره بالخير وينهاه عن الشر ، ويعظه حتى يتبين دخول العالم عن غيره ، لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك ، فإن كان ، فهو الفضل الذى لا بعده فضل .

(١٠) ترتيب المدارك ٣٦ .

ولم يكن الإمام مالك يختلف إلى مجالس الخلفاء رياء أو تقربا ، فذلك أمر بعيد خاصة بالنسبة للعباسيين . فهو متهم بعداوته لهم ، وبأنه أموى الهوى . إلا أنه من جانبه يداريهم . وهم من جانبهم يسترضونه لعلهم يكسبونه . ولكن مداراة مالك للعباسيين وحضوره مجالسهم إذا جاءوا للزيارة لم تكن مداراة خداع أو نفاق . وإنما هو يصرح – تبريرا لذلك – بقوله : لولا أنى آتيهم ما رأيت للنبى ﷺ فى هذه المدينة سُنة معمولا بها .

إن مالكا يطبق فى تصرفه هذا القول الشريف : إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . وتلك صفات العالم وأعماق فهمه للأمور . وأخلاق الإمام الذى يسهر على تنفيذ أحكام الله وسنة رسوله . وكان مالك أشهر أئمة المسلمين أخذاً بسنة رسول الله ، وتطبيقا لها ، واستمساكا بها .

مالك وأبو جعفر المنصور

وللإمام مالك مواقف من الخلفاء العباسيين نجد من الضرورة بمكان الإشارة إليها والإشادة بها .

إن له مواقف عديدة مع الصانع الأول للملك العباسى ونعنى به أبا جعفر المنصور . وعهد المنصور بالنسبة لإمامنا الجليل عهد تشوبه الشائبات ولا ترتاح إليه القيم الرشيدة . ذلك أن محنة مالك فى المدينة واعتداء واليها جعفربن سليمان عليه وإيقاع الأذى به كان فى عهد المنصور سنة ١٤٦ على وجه التحديد أو السنة التى تليها على رواية أخرى . وليس من شك فى أن المنصور على الرغم من قوة شخصيته وثبات ملكه آنذاك إلى حد كبير قد شعر أن كرسى الخلافة يهتز من تحته فيما تختص بسلطانه على الحجاز على أقل تقدير . فما كانت الشعوب لتتسامح مع من يؤذى علماءها وينتهك حرمات أهل العلم . اللهم إلا إذا كانت شعوبا خاملة خامدة، والمنصور يعلم أن الشعوب الإسلامية آنذاك لم تكن كذلك . فسعى إلى استرضاء مالك والتقرب إليه على النحو الذى سنبينه حين الحديث عن محنة مالك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذكرنا قبل قليل أن مالكا كان يتعرض لخلفاء بنى العباس بالموعظة والتنبيه ، ولم يكن يتحدث فى أمور تتعلق به ، بل كان كل اهتمامه ينصرف إلى العناية بشئون المسلمين والحرص على خيرهم ، وفى إحدى جلساته مع المنصور وعظه باقتفاء أحوال المسلمين والحرص على خيرهم ، والسهر على مصالحهم ، فتلك أولى واجبات الحاكم ، فيجيبه المنصور إجابة من يدافع عن نفسه ويثبت له أنه قائم بهذا الذى يدعوه مالك إليه ، ويقول : أليس إذا بكت ابنتك من الجوع تأمر بحجر الرحى فيحرك لئلا يسمع الجيران – وكان ذلك يحدث فى أيام عسرة مالك – فيدهش مالك لذلك كل الدهشة ويقول : والله ما علم بهذا أحد إلا الله ، فيقول جعفر : قد علمتُ هذا ولا أعلم أحوال رعيتى ! ! فيرضى مالك لأن الخليفة عند حسن ظنه ، وإن كان الأمر عندنا يبدو مختلفا بعض الشيء ، فلقد كان مالك محل اهتمام الحكام العباسيين لعدم اطمئنانهم إلى مشاعره حيالهم ، فكان على الأغلب موضعا للشك ومن ثم محلا للمراقبة التى تجعل ما خفى من أحواله جلية أمامهم واضحة لرجالهم ، ومن ثم كانت أخباره ترفع إلى رأس الدولة ببغداد فيما ترفع من أحوال الرجال الآخرين الذين تخشى الدولة جانبهم .

وكان مالك يعطى نفسه قدرها فى مجالس الخلفاء ، ولايتخذ مكانا للجلوس حيثما اتفق . وإنما يعمد إلى فرض وجوده والتنبيه إلى مقامه حتى يهيأ له أكرم مكان بين الجالسين . إن مالكا يدخل على المنصور بعد أن أخذ الناس مجالسهم . وما أن يراه المنصور حتى يقول له : إلىَّ ها هنا يا أبا عبد الله ، وكان يُدْنيه إليه احتراما لقدره بحيث يلصق ركبتيه بركبتيه . وكان المنصور يقول له : حقيق أنت بكل خير . وحقيق بكل إكرام .

وهذا الذى يحدث فى مجلس المنصور يحدث فى مجلس ولده المهدى . وحفيده الرشيد ، وكان مالك لبسطة عمره قد عاصر خمسة من الخلفاء العباسيين ، ومن قبلهم عاصر ثمانية من خلفاء الأمويين فيكون مجموع من عاصرهم من خلفاء الدولتين ثلاثة عشر .

كان مالك إذا دخل على المهدى أو الرشيد والمجلس غاص بالناس لايجلس فى المؤخرة . ولاينشط أدبا منه لأن يتخطى رقاب الناس حتى يصل إلى صدر المجلس . ولكنه يسأل الخليفة قائلا : أين يجلس الشيخ مالك ؟ ومرة أخرى تكون صيغة سؤاله : أين يجلس شيخك ؟ أو أين يجلس عمك مالك ؟ فكان الخليفة فى كل مرة . سواء أكان المهدى أو الرشيد يقول : إلىّ إلىّ يا أبا عبد الله . حينئذ يتخطى الناس ليصل إلى الصدارة ويجلس مع الخليفة .

ولم يكن مالك يلزم نفسه فى مجالس الخلفاء بتقاليد القصور وأشكال التحدث مع الخلفاء وقواعد التعامل معهم . فتلك قواعد وضعت للعامة أو للعامة والخاصة باستثناء العلماء . كان كل من يدخل على المنصور حتى من كبار بنى هاشم وأشراف المدينة يقبل يديه . فإذا أراد الانصراف ألقى إليه أبو جعفر كمه فقبله . فهل يفعل مالك ذلك وقد فعله أشراف المدينة وبعض كبار بنى هاشم ؟ إن مالكا لايفعل . لم يقبل يدا ولم يقبل كماً . وليكن فى ذلك من كسر حلقة عادات الخلافة مافيه . فالعلماء هم الذين تُقبل أياديهم وليس هم الذين يقبلون الأيدى .

وفى مجلس آخر يعطس المنصور فيشمته مالك . ولم تكن عادات التعامل مع الخلفاء تسمح بذلك . وحين انتهت الجلسة وأخذ مالك طريقه إلى الانصراف ينكر حاجب المنصور عليه تشميته للخليفة . وينهى إليه ألا يفعل ذلك مرة أخرى . ويجلس مالك إلى المنصور فى مجلس آخر بعد ذلك فيعطس الخليفة . وهنا ينظر مالك إلى الحاجب ويقول للمنصور : أى حكم تريد يا أمير المؤمنين . أحكم الله أم حكم الشيطان ؟ فيقول : لا . بل حكم الله . فيقول مالك : يرحمك الله .

وقبل صفحات قليلة من هذا الفصل مر بنا أن مالكا نأى بقدره أن يخرج من مجلس المنصور وعليه خلعة خلعها عليه الخليفة . وأنه نحاها عن كتفه حين أراد الخصى وضعها على كتفيه . فأمر المنصور أن تلحق الخلعة برحله .

لقد كان من الأمور المنطقية – وذلك سلوك مالك مع المنصور – أن يرفع

المنصور من مكانته بين الناس . ويجعل منه الرجل الأول فى الحجاز بأسره . ويعهد إليه بمؤاخذة عمال الخلافة إذا قصروا . ويكتب المنصور إلى عماله بذلك . إن المنصور يقول لمالك : « إن رأيت ريبة من عامل المدينة أو عامل مكة أو أحد عمال الحجاز فى ذاتك أو ذات غيرك أو سوء سيرة فى الرعية . فاكتب إلى بذلك أنزل بهم ما يستحقون . وقد أكتب إلى عمالى بها أن يسمعوا منك ويطيعوك فى كل ماتعهد إليهم . فانههم عن المنكر وأمرهم بالمعروف تؤجر على ذلك . وأنت خليق أن تطاع ويسمع منك » .

كل ذلك من مظاهر الاحترام والتقدير من قبل المنصور نحو مالك إنما جاء نتيجة لسلوك مالك حيال نفسه وحيال السلاطين . إن المنصور رفع صوته ذات يوم فى مسجد الرسول – ربما دون أن يشعر لأنه كان فقيها – فنهاه مالك عن ذلك . ولاشك فى أن الآية الكريمة كانت فى خاطره :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىِّ » .

مالك والمهدى :

كان المهدي في تقديره لمالك واحترامه لشخصه لا يقل عن أبيه المنصور، بل إن المهدي قد فعل ما لم يفعله أبوه من حيث تقديره لمالك. وبيان ذلك أنه زاره في بيته في المدينة، ولم تجر عادة الخلفاء بزيارة غير الرسميين من الرعية في بيوتهم، وإذا حدث ذلك فإنما يكون من باب الاستثناء، على أن زيارة المهدي لمالك في بيته لم تكن من تلك الزيارات التقليدية التي ينتهي خبرها بعد حدوثها، ولكنها كانت زيارة لم تخل حواشيها من طرافة، ذلك أن المهدي لما استأذن على مالك لزيارته لم يأذن له في الحال، وإنما استمهله ساعة، أو حسب تعبير الرواية حبسه ساعة ثم أذن له، فلما دخل المهدي البيت اعتذر له مالك هذا الاعتذار الطريف قائلاً: يا أمير المؤمنين إن العيال سمعوا بمجيئك فأحبُّوا أن يصلحوا منزلهم.

هكذا بكل بساطة كان مالك يتعامل مع أمراء المؤمنين . إنه يتعامل معهم من

حيث هو لا من حيث هم . أى أنه يتعامل معهم وهو مدرك قدر نفسه وقيمة ذاته بغضّ النظر عن مقاماتهم .

طلب مالك قدحا من الماء وهو فى مجلس للمهدى . فأتِى له بقدح من زجاج له حلقة من الفضة ؛ وليس فى ذلك كبير غرابة ، فذلك ماعون ببيت أمير المؤمنين كما يقولون ؛ وقد أريد تكريم الشيخ الجليل بتقديم الماء إليه فى قدح أنيق . ولكن مالكا أبى أن يشرب . فأتى له بكوز من فخار فشرب منه . وأمر المهدى بالحلقة الفضة فنزعت من الكأس . لم يضق المهدى ذرعا بما فعل مالك. والذى يعرف مالكا يدرك أنه لايفعل ذلك من قبيل التظاهر وإنما هو يلتزم بتطبيق مايؤمن بأنه الصواب . ومن الإنصاف أيضاً أن نقرر أن المهدى قد تقبل ذلك من الشيخ الإمام تقبلا عفويا دون ماضيق به أو اعتراض عليه ، فلقد نشأ المهدى منذ صغره بين أيدى العلماء متلقيا دارسا ، فلما أن كبر وولى شئون الخلافة جعل من أساتذته مشاورين له وجلساء ، يسمع منهم العلم مجملا ومنجما . والنصح خالصا وصريحا .

هذا وقد سلف القول بأن المهدى أرسل إليه ألفين من الدنانير لكى يركب معه إلى دار السلام فرد المال واعتذر عن الركوب ، وقد مرّ بنا أيضا أن المهدى بعث بولديه موسى وهارون من بغداد عاصمة الخلافة والعلم والثقافة إلى المدينة ليسمعا من الإمام مالك حديث رسول الله ﷺ .

مالك والرشيد :

كان الرشيد من أكثر خلفاء بنى العباس نشاطا للحج . فقد حج مرات عديدة وهو خليفة . وفى كل مرة يحج فيها كانت تؤثر عنه قصص وأخبار . ولم يكن الرشيد – وهو فى المدينة زائرا – بمستطيع إلاَّ أن يكون على صلة بإمام دار الهجرة ، متلقيا أو مجالسا أو مستفتيا .

لقد طلب الرشيد من مالك أن يحدثه بحديث رسول الله . ومالك يؤمن بأن العلم يزار ولايزور ، وأن العلم يؤتى إليه ولايأتى . فكان على خليفة المسلمين إذا أراد أن يسمع مالكا محدثا أن يذهب إليه فى بيته . وقد فعل ذلك امتثالا لسلطان

العلم ، فلما وصل هارون إلى بيت مالك ، صنع مالك مايصنعه كلما أراد أن يجلس للحديث ، دخل فاغتسل ، ولبس ثيابا جددا ، وتطيب ، ووضع مجامير عود ، وجلس وقال : هات ، فقال هارون : تقرأ عليّ ؟ قال مالك . ما قرأت على أحد منذ زمان ، قال الخليفة : إذن أخرج الناس عنى حتّى أقرأ الحديث عليك ، فقال مالك : إن العلم إذا منع عن العامة لأجل الخاصة لم ينتفع به الخاصة ، قال الخليفة : فأمُرْ بعض أصحابك يقرأه ، فأمر مالك المغيرة بالقراءة والرشيد يسمع .

ونضيف إلى ذلك أن الرشيد هنا لم يسمع الحديث كخليفة أو كأمير للمؤمنين ، وإنما سمع الحديث كطالب علم ، لقد أراد أن يجلس فى مجلس العلم هذا جلسة الإمارة مستندا إلى جنب مالك ، فنبهه مالك إلى ذلك قائلا : يا أمير المؤمنين من تواضع لله رفعه ، وفى رواية قال : من إجلال الله إجلال ذى الشيبة المسلم ، فقام الرشيد فجلس بين يديه فحدثه ، فلما فرغ عاد إلى مكانه .

هذا سلوك مالك الأستاذ العالم المحدث مع واحد من أشهر خلفاء المسلمين فى التاريخ ، أليس مالك حقيقا بالإجلال ؟ أليس جديرا بأن يقتفى العلماء أثره ؟ إذن لو فعلوا لذاع العلم ، وعظم العلماء ، وانتفع الحكام ، وما استطاعوا أن يطغوا أو يفسدوا أو يستبدوا .

هذا يجرى مع الرشيد فى بيت مالك . الرشيد طالب علم ومالك أستاذ وشيخ . إن سلطان العلم لايفارق مالكا فى بيته أو بيت الرشيد ، إن مالكا يدخل على الرشيد – وهو فى المدينة بطبيعة الحال – فيجد « شطرنجا » منصوبا بين يديه ، فيظل واقفا ولايجلس . ثم يوجه النصح إلى الخليفة ولانريد أن نقول الزجر قائلا : أحق هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا . قال مالك : فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ! ! فرمى الرشيد الشطرنج برجله وقال : لاينصبن بين يدىّ بعد .

هكذا كانت شخصية مالك مع الخلفاء ؛ إن الرشيد لم يرم الشطرنج بعيدا وحسب ، بل أمر ألا ينصب بين يديه بعد ذلك . وسواء صدق الرشيد فى عزمه

بعد ذلك أم عاد لممارسة هوايته فى اللعب . فإن الموقف الذى وقفه مالك على بساطته ينبغى أن يحسب على أنه أمر عظيم وإنجاز سلوكى جليل .

وللإمام مالك مع الرشيد مواقف أعظم من تلك وأجلّ . لأنها مواقف دينية محضة . متصلة بالعلم والفتيا والحديث . لقد حنث الرشيد مرة فى يمين . واستشار العلماء فى ذلك فأجمعوا على أن عليه عتق رقبة . فلما سأل مالكا فى اليمين أفتى بما لم يفت به مجمع العلماء وقال : عليه صيام ثلاثة أيام . فقال الرشيد لمالك فى صيغة تشبه الاعتراض : أأنا معدم ؟ ومضى قائلا : قال الله سبحانه :

« فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ » .

ويمضى الرشيد موجها القول لمالك : فأقمتنى مقام المعدم ! ! فيقول مالك . بشجاعة العلماء وثقة الفقهاء : يا أمير المؤمنين . كل مافى يدك ليس لك . فعليك صيام ثلاثة أيام .

إن هذه الفتوى تعتبر من أصدق الفتاوى فى مثل حالات الخلفاء . وهى من الجرأة بمكان . ذلك أن عتق الرقبة بالنسبة إلى خليفة يملك الآلاف من الرقاب يعدّ أمراً يسيراً، بل تافها، ومن ثم لا تكون الكفارة مجزئة في مثل ذلك الموقف . فالأصل فى الكفارة الاحساس بالجزاء . وهى فى حالة العتق هذه لاتصور جزاء . هذا من ناحية . ومن الناحية الأخرى وهى الأكثر خطورة أن مالكا لايرى أن أموال الخلفاء ملك لهم . وذلك لأسباب كثيرة أخفها وأيسرها أنـها غيـر محددة المعالم وأن خصوصية الملكية غير واضحة فيها لتداخلها في بيت المال . وربما كان للإمام مالك دوافع أخرى ومفاهيم معينة حين قال للرشيد : كل مافى يدك ليس لك .

ولقد سبق أن قال الإمام أبو حنيفة لأبى جعفر المنصور قولا أكثر صراحة من ذلك . فقد قال المنصور يوما لأبى حنيفة : إذا كنت ترفض ولاية القضاء لنا . فلماذا لاتقبل هدايانا . فقال له أبو حنيفة : إن أمير المؤمنين لم يهد إلى شيئا من ماله فرفضته . ولكنها أموال المسلمين وأنا لست ممن يستحقون شيئا من بيت مال المسلمين .

وهذا الذى فعله أبو حنيفة ثم مالك من بعده يضع حدودا واضحة لمنع الخلفاء ورؤساء الدول من أن يتصرفوا فى الأموال العامة وكأنها ملك خاص لهم .

وكان مالك يتشدد كل التشدد فيما كان له بالدين صلة إذا حاول هذا الخليفة أو ذاك أن يحدث بدعة أو يعطل حكما دينيا ، من ذلك أن الرشيد بعث إلى مالك ألا يحدث بحديث السفرجل وينهاه عن ذلك لأن الحديث يضفى الكثير من التكريم على شخص معاوية بن أبى سفيان ، وإن مابين الأمويين والعباسيين من عداوة وخلاف أمر مشهور. والحديث هو :

« أنه أَهْدِىَ إلىَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَفَرجَل ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ وَاحِدَةً وَاحِدَةً ، وأَعْطَى مُعَاوِيَةَ ثَلاَثَ سَفَرْجلاَتٍ وَقَالَ : الْقَنى بِهِنَّ فِى الْجَنَّةِ » .

إن الإمام الجليل مايكاد يقرأ رسالة الرشيد أو يستمع إلى حامل الرسالة حتى تأخذه غضبة شديدة ويتلو قول الله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَابَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ ويلعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ(١١) .

ثم يقول: والله لأخبرن بها فى هذه العرصة ، ثم اندفع وقال : حدثنا نافع عن ابن عمر قال : « كنت عند رسول الله ﷺ فأهدى إليه سفرجل . . . . . . » ويحدث بباقى الحديث .

الذى نود أن نشير إليه أنه كلما استمسك مالك بأهداب السنة ازداد احتراما فى أعين الخلفاء ، وكلما وضع نفسه فى مكانها اللائق بها من الترفع والبعد عن التهافت والترخص ، كان ذلك أدعى إلى مزيد من الإجلال ، وقد بلغ تأثر الرشيد بشخصية الإمام الجليل أن أمر واليه على المدينة سنة ١٧٣ هـ ألا يقطع أمرا دون مالك . وكان المنصور – جدّ الرشيد – قد فعل الصنيع نفسه أو أكثر منه قبل ذلك بنحو ربع قرن من الزمان .

---

(١١) البقرة ١٥٩ .

نهج مالك فى وعظ الحكام :

إذا كانت هذه مواقف مالك مع الخلفاء أمراء المؤمنين وهى من التشدد فى الحق قولا وعملا ماقد رأينا . فمن باب أولى يكون ذا مواقف أخرى مع الولاة إذا مادعت الضرورة إلى ذلك ، وإننا نذكر على سبيل المثال موقفه مع عبد الملك بن صالح أحد ولاة المدينة على عصر مالك . وكم من ولاة رآهم مالك فى المدينة .

خرج مالك يوم عيد لصلاة العيد فرأى عبد الملك بن صالح فى موكب به رايات وسلاح . وعبد الملك هذا من رؤوس العباسيين ذوى الشكيمة والنفوذ . فأنكر عليه مالك هذا الذى يفعله وأعطاه درسا مستمدا من سماحة الرسول : وحدثه عن دخول الرسول ﷺ مكة يوم الفتح . وما صاحب ذلك من سلام وتسامح ، كما حدثه عن خروجه ﷺ إلى صلاة العيد وصلاة الاستسقاء .

لاشك فى أن عبد الملك بن صالح قد وعى الدرس جيدا ولم يعد إلى صنيعه مرة أخرى طوال ولايته للمدينة .

إن ما مربنا من نصح للخلفاء . أو توجيه لأمراء المؤمنين . أو تصويب للولاة . كان يصدر من الإمام مواجهة لامكاتبة . وتلك قمة الشجاعة وذروة الإيمان .

هذا وأن للإمام مالك رسائل فى الوعظ والنصح وجهها إلى بعض الخلفاء . وهى بما حوت من جوامع الكلم وساميات المعانى صالحة لأن يقرأها الخلفاء والعامة على السواء . وهى مكتوبة فى أسلوب راق ونهج رفيع يشير إلى بلاغة الإمام ومقدرته حين يكتب . وهذا هو نص الرسالة :

« أما بعد فإنى كتبت لك كتابا لم آلك فيه رشدا ولم أدخر فيه نصحا . فيه تحميد لله تعالى . وأدب رسول الله ﷺ . فتدبر ذلك بعقلك . وردد فيه بصرك . وأرعه سمعك . وأعقله بعقلك . وأحضره فهمك . ولايغيبن عن ذهنك . فإن فيه فضل الدنيا وحسن ثواب الله فى الآخرة .

ذكر نفسك غمرات الموت وكربه ، وما هو نازل به منك ، وما أنت موقوف عليه بعد الموت ، من العرض على الله ثم الحساب ، ثم الخلود بعد الحساب إماً إلى الجنة وإمّا إلى النار ، وأعدّ له ما يسهّل عنك به عنت أهوال تلك المشاهد وكربها ، فإنك لو رأيت أهل سخط الله وما صاروا إليه من أهوال العذاب وشدة نقمة الله تعالى . وسمعت زفيرهم فى النار وشهيقهم مع كلوح وجوههم وطول غمتهم . وتقلبهم فى أدراكها على وجوههم لايسمعون ولايبصرون . يدعون بالثبور . وأعظم من ذلك حسرة عليهم إعراض الله تعالى عنهم بوجهه . وانقطاع رجائهم من روحه من إجابته إياهم بعد طول الغم . أن :

« اخْسَأُوا فِيهَا وَلَاتُكَلِّمُونِ[١٢] » .

لم يتعاظمك شيء فى الدنيا أردت به النجاة من ذلك ، ولا أمنك من هوله ، ولو قدّمت فى طلب النجاة جميع ما لأهل الدنيا كان ذلك صغيرا . ولو رأيت أهل طاعة الله وما صاروا إليه من كرم الله تعالى ومنزلتهم مع قربهم من الله تعالى ونضرة وجوههم ونور ألوانهم وسرورهم بالنظر إليه ، والمكانة منه ، والجاه عنده ، مع قربهم منه ، لتقلل فى عينك عظم ما طلبت به الدنيا ، فاحذر على نفسك حذر غير تغرير ، وبادر إلى نفسك قبل أن يسبق إليها ماتخاف الحسرة فيه عند نزول الموت ، وخاصم نفسك لله تعالى على مهل ، وأنت تقدر بإذن الله تعالى على جلب المنفعة إليها ، وصرف السيئة عنها قبل أن يوليك الله حسابها ، ثم لاتقدر على صرف المكروه عنها ، واجعل لله تعالى من نفسك نصيبا بالليل والنهار ، فإن عمرك ينقضى مع ساعات الليل والنهار ، وأنت قائم على الأرض وهو سار بك ، وكلما مضت ساعة من أجلك والحفظة لايغفلون عنْ الدق والجل منها حتى تمتلئْ صحيفتك التى كتب الله عليك ، فعليك بخلاص نفسك إن كنت لها محبا ، ثم احذر ماقد حذرك الله تعالى فإنه يقول :

---

(١٢) سورة المؤمنون الآية ١٠٨ وهى قوله تعالى : « قال اخسأوا فيها ولا تكلمون »

« وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ »

ولا تحقر الذنب الصغير مع ماقد علمت من قول الله تعالى .

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ »

وقال : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »

وحافظ على فرائض الله ، واجتنب سخط الله ، واحذر دعوة المظلوم .

« وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ »(١٣) والسلام .

إن المتأمل فى هذه الرسالة من أسلوب وإطار ومحتوى يجدها قريبة الشبه من أساليب المواعظ التى كانت توجه إلى خلفاء بنى أمية وبنى العباس .

إن كل إنسان محتاج لأن يذكر بالموت والحساب والثواب والعذاب والبعث والجنة والنار والوقوف أمام الله سبحانه عاريا من كل قوة ، خاليا من نفوذ ، وحيدا لا يفيده مال ، ولايحميه جاه ، وإنما الفوز يكون بالعمل الصالح ، والنجاة تكون بتقوى الله فى الناس والعرض والمال ، وإشاعة العدل ، والإشاحة عن الظلم ، والأمر بالعرف والنهى عن المنكر .

على أن أكثر الناس حاجة إلى المواعظ هم الملوك والخلفاء والحكام ، بل إن الحاجة أكثر ماتكون إلى وعظ هؤلاء ، فإن الحاكم منهم إذا ظلم قتل الأنفس ، ونهب المال . واستباح العرض ، واعتدى على الأبرياء ، وجعل الأمن خوفا ، وقلب العدل ظلما ، وصير العمران خرابا ، وصادر المال فجعل الغنى فقيرا ، وزاد الفقير فقرا ، وأشاع الفتنة بين الناس ، وألب بعضهم على بعض ، وزرع الكراهية فى قلوبهم ، إلى غير ذلك مما يفعله الحاكم الغاشم . ولقد كابد العالم الإسلامى من مثل هؤلاء الحكام ماكابد فى أزمنته القديمة والوسيطة والحديثة

---

(١٣) البقرة الآية ٢٨١ وكمال الآية ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيه إِلَى اللَّهِ ثُم تُوَفَّى كل نَفْسٍ ما كَسَبَت وهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ .

والمعاصرة . ومن ثم كانت رسالة الإمام مالك ضرورية لأن تأخذ طريقها لسمع هذا الخليفة أو ذاك . وأن تظل نبراسا طيبا وأنموذجا هاديا لكل ما يمكن أن يوجه إلى الحاكم من وعظ ونصح . ولو قد وجد بعض الحكام الذين رزئت بهم بعض الدول الإسلامية فعاثوا فيها فسادا ، وقلبوا أمنها خوفا . وغناها فقرا . وقتلوا الأبرياء واستباحوا الحرمات وملأوا السجون بالكبير والصغير . نقول لو أن هؤلاء الحكام صادفوا مثل الإمام مالك واستمعوا لمثل رسالته هذه . لكانت البلاد فى مأمن من كثير من أسباب الظلم التى حلت بها . وبمنجاة من عديد من الكوارث التى تعرض لها أبناؤها .

لقد ذهب بعض الدارسين إلى أن هذه الرسالة ليست للإمام مالك . وعذرهم أنه قد ألحقت بها عبارات ساذجة ونصائح لا يليق أن توجه للخلفاء حسبما وردت فى خاتمة كتاب « سعد الشموس والأقار وزبدة شريعة النبى المختار » غير أنه من اليسير على المشتغلين بالتأريخ للأئمة أن يجردوا الرسالة مما علق بها من زيادات أضافها إليها بعض السذج على مختلف العصور . والصواب من النص هو ما أثبتناه دون ما تزيّد أو إضافة أو تزييف .

وسوف يكون لنا عودة إلى بعض رسائل مالك فى موضوعات أخرى إن شاء الله .

— ٩ —

مالك والهدايا :

شغلت قضية الهدايا والأموال التى تلقاها مالك من الخلفاء بعض الأذهان . ذلك أن مالكا كان فى أول أمره يباشر التجارة ويرتزق منها . بمعنى أنه كان يجمع بين طلب العلم وممارسة تجارة البز . وكان شريكا لأخيه فى هذه التجارة . بل إن رأس ماله قد قدر فى بعض الأخبار بأربعمائه دينار يعيش من حصيلة ربحها[١٤] والمعقول فى هذا الخبر أن مثل هذا النشاط فى الجمع بين طلب العلم والتجارة

(١٤) الديباج المذهب ص ٩

كان فى زمن الشباب ، ولكن حين تقدمت السن بالإمام الجليل وتفرغ للفقه والحديث ولتلامذته ، لم تكن حاله تسمح له بممارسة التجارة ، خاصة وأن الإمام أعطى عمرا طويلا مباركا ، وقد اضطر فى سنى حياته الأخيرة إلى أن يلزم بيته لايكاد يخرج منه ، فلم يعد يتردد على المسجد أو يحضر الجنائز أو يعود المرضى بسبب مرضه بسلس البول ، فمن أين كان الإمام ينفق ؟

إنَّ دخل الأربعمائة دينار لابد أنه تبدد بحكم توقف الإمام عن ممارسة التجارة فإذا لم يكن الدخل قد توقف على افتراض أن أحدا من أقارب الإمام يسهر على تجارته – ونحن لاننشط كثيرا لهذا الافتراض – فإن الحصيلة لاتكاد تقوم بمطالب مالك الذى كان يعيش عيشة رخية من مطعم وملبس ومسكن ومظهر عام .

إن الإمام كان يغطى متطلبات حياته من هدايا الخلفاء حسبما سلف القول فى كتابنا عن الإمام أبي حنيفة الذي كان لا يرى مال الخلفاء مما يحل قبوله. ولكن الإمام مالكا كان يرى أن مال الخلفاء الذى يصلونه به ويهدونه إليه شىء يحل قبوله شرعا ، وله فى ذلك رأى مسجل حين سئل عن شرعية قبول مال السلاطين فقال : أما الخلفاء فلاشك – أى لاشك فى أن قبول هداياهم حلال – وأما من دونهم فإن فيه شيئا .

ولما كانت هدايا الخلفاء لمالك تشكل قدرا كبيرا من المال ، فقد سئل الإمام فى ذلك خاصة بعد أن أجازه الرشيد ذات مرة بثلاثة آلاف من الدنانير فقيل له : « ياأبا عبد الله . ثلاثة آلاف تأخذها من أمير المؤمنين . فقال : لو كان إمام عدل فأنصف أهل المروءة لم أر به بأسا » .

وهنا ينبغى أن نقف قليلا إنصافا للإمام الجليل ، فإن إجابته هذه لاتعنى أنه يستحل هدايا الخلفاء – كل الخلفاء وكانوا يلقبون أيضا بالأئمة – ولكن شرعية قبوله مال الخليفة مشروطة بصفة معينة ينبغى توفرها فى الإمام وهى العدل ، ومعنى ذلك بداهة أن مالكا لم يقض باستحلال قبول هدايا الخلفاء غير العدول وما أكثرهم بين بنى أمية وبين بنى العباس ، بل ما أكثرهم فى العصور المتطاولة التالية .

ولكى يكون الموقف فى حالة من الاكتمال ، فإن استنتاجنا يذهب إلى أن مالكا كان يقبل مثل هذه الهدايا من الخلفاء وفى نفسه شىء ، بمعنى أنه لم يكن مرتاحا إلى قبولها كل الارتياح ، ولولا الضرورة وكثرة نفقاته وصدقاته ماقبلها ، ولذلك كان يفتى من يسأله فى ذلك بعكس ماكان يفعل هو ، فقد كان يرى إن كان فى قبول هدايا الخلفاء إثما أو وزرا فليتحمله هو ، ذلك أن سائلا سأله عن هدايا السلطان فقال له : لاتأخذها ، فقال السائل : أنت تقبلها ، فأجابه : أتريد أن تبوء بإثمى وإثمك ؟ فالإمام هنا يتحرز تحرزا شديدا فى أمر قبول هدايا السلطان . بل إنه كان يشعر بشىء من الاستحياء حين يقال له : أنت تقبلها ، فيجيب سائله فى ألم أو مايشبه الألم : أحببت أن تبكتنى بذنوبى ؟ » .

— ١٠ —

مالك والغناء والمزاح :

أما عن مالك والغناء فذلك خبر صحيح قديم ، قديم قدم طفولة مالك ، فقد استهواه فن الغناء وهو صغير ، وأراد أن يتعلمه ، وينتظم فى سلك المغنين فى الحجاز وفى المدينة على وجه التحديد التى كان للغناء فيها سوق نافقة لولا أن أم مالك كانت من الفضل وحسن التوجيه بحيث استطاعت أن تثنيه عن ذلك ، وأن توجهه إلى تعلم الفقه على مامر بنا تفصيلا فى صدر هذه الدراسة .

فما هو حديث الغناء إذن ؟ ولماذا نعود لإثارته بل وتحديد عنوان للحديث عنه ؟

إن أبا الفرج الأصبهانى يذكر فى « الأغانى » هذا الخبر الذى يقول : « أخبرنى محمد بن عمرو العباسى القرشى ، قال : حدثنا محمد بن خلف بن المرزبان ولم أسمعه أنا من محمد بن خلف ، قال : حدثنى إسحاق بن محمد بن أبان الكوفى ، قال : حدثنى حسين بن دحمان الأشقر قال : كنت بالمدينة فخلا لى الطريق وسط النهار فجعلت أتغنى :

مابالُ أَهْلِكِ يا رَبابْ خُزْرًا كأنهمُ غِضَابْ

قال : فإذا خوخة قد فتحت ، وإذا وجه قد بدا تتبعه لحية حمراء فقال : يا فاسق أسأت التأدية ، ومنعت القائلة ، وأذعت الفاحشة ، ثم اندفع يغنيه فظننت أن طويسا قد نشر يغنيه ، فقلت له : أصلحك الله ، من أين لك هذا الغناء ؟ فقال : نشأت وأنا غلام حدث أتبع المغنين وآخذ عنهم ، فقالت لى أمى : يابنى إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه ، فدع الغناء واطلب الفقه ، فإنه لايضر معه قبح الوجه ، فتركت المغنين واتبعت الفقهاء ، فبلغ الله بى عز وجل ماترى ، فقلت له : أعد جعلت فداك . قال : لا ولا كرامة ، أتريد أن تقول أخذته عن مالك بن أنس ، وإذا هو مالك بن أنس ولا أعلم »(١٥) .

ويستطيع أى إنسان له أقل دراية بحياة مالك أن يرفض هذه الرواية بشدة ، ويصفع بها وجه راويها ، فلم يكن الإمام مالك الوقور المتشدد ، المتحرج من الابتسامة ، العَلَمُ فى المدينة وشيخ علمائها وكبير محدثيها ، الذى يزور الخلفاء بيته ، ليفتح خوخة بابه ، ويطل منها ويوبخ المغنى لسوء أدائه ثم يرفع عقيرته بالغناء ، ثم يقص شيئا من تاريخ طفولته لمأفون يغنى فى الطريق .

إن نهاية القصة تصلح لأن تكون نكتة تروى فى مجلس ، أو ملحة تحكى فى منتدى ليس غير ، أما أن يكون الإمام مالك هو بطلها . فالاختراع ظاهر فيها وليس ذلك ببعيد على أبى الفرج الغالى فى تشيعه ، وكأنما يريد النيل من الإمام الجليل لموقفه الخاص به من أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

وأبو الفرج كان عند سوقه الخبر من الدهاء بمكان ، فإنه يتحرز فى طريقة رواية الخبر وإسناده بحيث لايفطن إلى كذبه إلا كل ذى دراية ؛ وإلا كل من يقرأه فى تمعن وأناة ، فإن صدر الخبر يرد على هذا النحو : « أخبرنى محمد بن عمرو العباسى القرشى ، قال حدثنا محمد بن خلف بن المرزبان ولم اسمعه أنا من محمد بن خلف . . . » فى الوقت الذى يروى فيه الخبر يقول : ولم أسمعه أنا ،

---

(١٥) الأغانى ٣٩/٤ . ٤٠ دى ساسى .

وكان فى الاستطاعة أن يتحقق من مدى صدق خبر كهذا متصل بأحد أعلام الأمة الإسلامية . ولكنه لم يفعل لسوء نية بادية . وتشهير مقصود بالإمام الجليل.

لم يكتف أبو الفرج الأصفهانى بإيراد ذلك الخبر الواضح الكذب . وإنما يلح فى الإساءة إلى الإمام فيذكر خبرا آخر يوحى من خلاله إلى القارئ أن الإمام مالكا كان أحد مطربى المدينة لأنه كان يغنى فى الأفراح ! ! هكذا . وقد أورد الخبر على النحو التالى :

« أخبرنى الحسين بن يحيى ومحمد بن مزيد . قالا : حدثنا حماد بن إسحاق عن أبيه . قال : سمعت إبراهيم بن سعد يحلف للرشيد وقد سأله عمن بالمدينة يكره الغناء فقال : من قنَّعه الله بخزيه مالك بن أنس . ثم حلف أنه سمع مالكا يغنى :

سُلَيْمَى أزمعتْ بَيْنَا فأيْنَ تَقُولُهَا أَيْنَا[16]

وهذا البيت من أبيات لعروة بين أذنيه – وقد مر حديثه – والغناء فيه لابن عائشة المغنى . والأبيات هى :

سليمى أزمعتْ بَيْنَا فـأيـنَ تقـولُهـاَ أيْنَا
وقدْ قالتْ لأتْرابٍ لهاَ زُهْرٍ تَلاقَيْنَـــا
تعـاليـن فقـد طـابَ لنَا العَيْشُ تَعالَيْنَا
وغابَ البَرَمُ الليلـ ـةَ والعينُ فَلاَ عيْنَا
فأقْبَلْنَ إلَيْهَـا مسْـ ـرِعَـاتٍ يَتَهـادَيْنَـا
إلى مِثْل مهاةِ الرمْـ ـلِ تكسُو المجْلِسَ الزَّيْنَا
إلى خَوْدٍ منعَّمَــةٍ حَفَفْنَ بها وَفَدَّيْنَا
تَمَنَّيْنَ مُنَـــاهُـنَّ فكُنَّـا مَا تَمنَّيْنَـا

(١٦) الأغانى ٧٨/٢ دى ساسى . ٢ ٦٥٦ دار الكتب

إن الأمر هنا أدهى وأمر . الإمام مالك يغنى فى عرس فى المدينة ! ! ! ولمن تقص القصة ؟ ؟ للرشيد . الذى كان إجلاله للإمام ماقد مرّ حديثه . الرشيد الذى توسل إلى مالك أن يحدثه فأبى أن يحدثه إلا فى بيته ، ثم فرض عليه أن يجلس جلسة التلميذ لا جلسة الخليفة . وحين يذكر أبو الفرج اسم مالك على لسان الرواية يلحق به هذه الجملة القبيحة أو هذا الدعاء المنكر « قنعه الله بخزية » كل ذلك يحدث فى حضرة الرشيد .

ولئن كان الخبر السابق واضح الكذب ، فإن خبر غناء الإمام فى عرس فى المدينة لا يمكن أن يكونَ أبو الفرج كتبه وافتعل إسناده إلا وهو غارق فى سكره ، فقد كان حليف كأس دائم السكر ، فضلا عن نقائص أخرى كثيرة خُلُقيّةٍ وخَلْقِيَّةٍ نربأ بالقلم أن يسطرها فى هذا المقام الشريف ، مقام الكتابة عن مالك إمام دار الهجرة .

نقول إن الخبرين السابقين مرفوضان لأن مصدرهما والطريقة التى وردا بها والإسناد الذى رويا به هو ماقد ذكرنا ، هذا فضلا عن التجريح الواضح والتّهجم البين الذى تضمنها الخبران فى حق إمام جليل ، ومنافاتّهما للعقل والمنطق والحس الإخبارى .

غير أن الإمام مالكا وهو يعيش فى المدينة ويتابع مايجرى فيها لم يكن بمنأى عما يحدث فى بيئتّها ، وليس من شك فى أن تعليقات بعينها كانت تصدر عنه فى هذا الشأن أو ذاك من شئون الحياة العامة ومنها الغناء ، والعالم لايكون كامل العلم مالم يكن مرتبط الأسباب بما يجرى حوله ، وبخاصة الفقيه الذى يشرع لمجتمعه ويعالج قضاياه من مختلف زواياه ، ومن ثم فقد كان للإمام مالك تعليق ما . على أغنية ما ، من قبيل الاستحسان أو الاستقباح أو الحلال أو الحرام . والإمام مالك كإنسان وكبشر قد يجرى التعليق على لسانه مجرى النكتة وينساق من فه مساق الملحة . ولكنه فى حقيقته يعبر عن رأى جاد أو حكم صادق .

غير أننا إذا كان لنا أن نسمع مثل هذه الملح فلا ينبغى أن تكون من أبى

الفرج وأمثاله ، وإنما تؤخذ عمن يمكن تصديق رواياتهم ، والاطمئنان إلى أخبارهم من علماء التراجم الثقاة مثل القاضي عياض ومن هم فى طبقته .

إن القاضي عياضا يورد هذا الخبر اللطيف حول الإمام والسماع . فقد كان الإمام يمشي مع ابن أخته – ابن أبى أويس – فى إحدى طرقات المدينة . فإذا جارية تحمل جرة ماء وتقول :

لَيْتَنِي أَرْضٌ لِسَلْمَى فَتَطَانِي قَدَمَاهَا
لَيْتَنِي دِرْعٌ لسَلْمَى تَرْتَدِينِي مِنْ رِداهَا
لَيتَنِي خَادِمُ سَلْمَى قَاعِدٌ حيثُ أَرَاهَا

فقال : يا إسماعيل ، رجل أو امرأة ؟ فقال ابن أخته : هى « غزال » خادم بنى عمارة ، قال : إنها لفصيحة اللهجة ، حسنة التأدية . لم يزد الإمام فى تعليقه على ذلك كلمة واحدة ، وهو تعليق جمع بين اللطف والوقار ، خليق بأن يصدر عن عالم جليل مثل الإمام مالك .

وخبر آخر أورده القاضي عياض فى الموضوع نفسه . وهو أن الإمام مرّ بمغنية تغني وتقول :

أَنْتِ أُخْتِي أَنتِ حُرْمَةُ جَارِى
وحقيقٌ عليَّ حِفْظُ الجِوَارِ
أَنَا للجارِ ماتَغَيَّبَ عَنِّى
حافظٌ للمغيبِ فى الأَسْرَارِ
مَا أُبَالِى أَكَانَ لِلْبَابِ سِتْرٌ
مُسْبَلٌ أَمْ بَقِى بغيرِ سِتَارِ

فقال مالك : لو غُنّي بها حول الكعبة لجاز . أو قال : يا أهل الدار علموا قينتكم مثل هذا[17] .

إن الغناء الذى سمعه الإمام يصور معنى من أسمى المعانى الإنسانية . وقيمة من أرق القيم الدينية . وهى العفة والمحافظة على الجار . ولذلك كان رد فعل الإمام فى تعليقه متسما بالحماس فى التعبير عن إعجابه إلى المدى الذى جعله يجوِّز هذا الغناء حول الكعبة .

أما أن يسمع الإمام رجلا يغنى فى الشارع فيفتح خوخة بيته لكى يوبخه لتشويهه اللحن ثم يرفع عقيرته بالغناء مصححا مصوبا . فهو مما لايقبله عقل . وأما أن يغنى الإمام فى عرس فهذا الخبر لايصدر إلا عن حاقد مغيظ أو متطرف مجنون .

هذا ماكان من أمر الغناء . أما ماكان من أمر الفكاهة . والمداعبات والملح فلم تكن مجالس الإمام تخلو من ذلك .

إن سائلا يسأل الإمام فى مسألة فلايجيبه . فيسأله مسألة أخرى فلا يجيبه . فيقول السائل بما يشبه الاحتجاج : ولم ؟ فيقول الإمام : ياغلام خذ بيده فاذهب به إلى السجن . فيقول السائل : إنى قاضى أمير المؤمنين . فيقول له الإمام مداعبا : ذلك أهون لك . فيقول القاضى مبتسما طبعا : إنى لا أعود لذلك . وهنا يأمر مالك غلامه بأن يخلّى سبيله .

ومن مداعباته لبعض العلماء ماكان منه لعبد الله بن المبارك وأصحابه . فقد دخل ابن المبارك ونفر من أصحابه على الإمام وقالوا له : حدثنا . ولا تحدثنا إلا بحديث الزهرى . فيحس الإمام أن القوم تجاوزوا حدود التعامل اللائقة معه حين أملوا عليه شروطهم حول من يحدثهم عنه . فيقول : يؤخذ بأيديهم . فينصرف القوم . ولكنهم ما يلبثون أن يعودوا فى اليوم التالى . فيعتبهم الإمام ثم يحدثهم كما أرادوا .

---

(١٧) ترتيب المدارك ٤٠ .

ويفد على مالك بقية بن الوليد الكلاعى محدث الشام ويسأله عن مسألة بعد أخرى فيجيبه الإمام عنها جميعا حتى بلغ عددها ستًا . ويريد بقية أن يمضى فى توجيه مزيد من الأسئلة فيقول له مالك : أكثرت . خذوا بيد الشيخ . فيجئ اثنان يمسكان به ويخرجانه .

إن هذه التصرفات من الإمام لم تكن تجرى إلا على سبيل الدعابة أو « المباسطة » بلغة عصرنا . ولم يكن الدافع إليها غلظة أو تكبر أو قلة ذوق . فلم يكن الإمام مالك على شيء من ذلك . وإن مثل هذه الأمور كانت ولاتزال تحدث فى مجالس العلم . وقد شهدنا شيئا من ذلك مع بعض أساتذتنا فى الجامعات . كما أننا نمارسها أحيانا فى دروسنا دون عزم على خشونة من جانبنا أو قصد إلى إهانة تلامذتنا .

وكثيرا ماكانت تحدث مداعبات من أبى يوسف للإمام فيرد عليها بمثيلاتها فى حضرة الرشيد .

إن أبا يوسف قاضى قضاة الرشيد وتلميذ أبى حنيفة يداعب مالكا ويسأله عن الرأى فى محرم كسر ثنية ظبى ؟ فيجيب الإمام فى براءة : عليه الفدية . فيضحك أبو يوسف مليا ويقول للإمام : وهل للظبى ثنية ؟ (الثنايا مقدمة الأسنان) فيزجره الإمام ثم يلتفت إلى الرشيد معرّضاً بأبى يوسف ويقول : يا أمير المؤمنين . سفيه يسأل عن مسائل السفهاء . لم توليه أمور المسلمين ؟

ومرة أخرى يحج الرشيد ومعه قاضى قضاته فيدخل مالك عليه . فيقول الرشيد للإمام : ناظر أبا يوسف . فيقول مالك : ليس هو عندى من أهل العلم فأناظره .

إن الإمام مالكا ليس من الغفلة بحيث لايعتبر أبا يوسف من أهل العلم . وإنما المسألة لاتخرج عن الدعابة والمزاح .

وتكثر المداعبات بين أبى يوسف ومالك حتى يظنها البعض مشاحنات وماهى بمشاحنات . وإنما هى مداعبات فقهية . إن أبا يوسف يسأل مالكا فى مجلس

الرشيد عن مسألة . فلا يجيبه مالك . فيقول له الرشيد . أجبه . فيقول مالك : إذا رأيتنا جلسنا لأهل الباطل فتعال حتّى أجيبك .

إن هذه الأخبار وغيرها مما قد أكثر كتّاب الطبقات من ذكرها لاتخرج عن حدود المداعبات التى تمليها طبيعة المناقشة والمنافسة خاصة إذا ماكانت المناقشات بين العلماء . وإن الذين يتابعون علاقات علماء اللغة والنحاة من المدارس المتخالفة ومناظرات بعضهم بعضا يرون فى دلك عجبا .

— ١١ —

مواقف للمناقشة:

لم يكن مالك نبيا ولا رسولا . ومن ثم لم يكن معصوما من الوقوع فى الخطأ . إذ العصمة شرف خص الله به رسله وأنبياءه دون بقية البشر . ولقد كان مالك واحدا من هؤلاء البشر الذين يجوز عليهم الخطأ كما يجوز عليهم الصواب .

نذكر هذه المقدمة الموجزة لأن بعض العلماء والدارسين على مسرى الزمان **نسبوا إلى مالك أخطاء بعينها في مواقف معينة، أو فى طباعه وشيء من سلوكه مع الناس.**

فمن تلك المواقف التى نسبت إلى مالك ورأى فيها معاصر له أنها انحراف عن الجادة . ماروى من أن والى المدينة قد حبس أحد القرشيين لجرم اقترفه . فبعث يشكو إلى المنصور – وهو قريبه – ضيق سجنه وسوء معاملته . فأرسل الخليفة رسولا إلى المدينة كي يجمع بعض علمائها ليزوروا القرشى فى سجنه ويكتبوا إليه عن حاله . واتجه إلى الحبس عدد من العلماء وأدخلوا على السجين . وكان منهم مالك وابن أبى ذئب وابن أبى سبرة وآخرون . وكان الوالى قبل ذهاب العلماء إلى الحبس قد حل وثاق السجين وألبسه ثيابا مناسبة وكلف من كنس المكان ورشّه .

فلما دخل العلماء ورأوا من حال السجين ما رأوا، قال رسول الخليفة : اكتبوا إلى أمير المؤمنين بما رأيتم، وما أن بدأوا في الكتابة حتى قال ابن أبي ذئب: لا تكتبوا شهادتي وإنما سأكتبها بيدي، وبعد أن فرغ العلماء من كتابة ما رأوا ألقوا بالرسالة إلى ابن أبي ذئب ليقرأها فوجدهم قد كتبوا: رأينا محبساً ليناً وهيئة

حسنة إلى غير ذلك من الحال التى رأوا عليها السجن والسجين . فالتفت ابن أبى ذئب إلى مالك وقال : يا مالك . داهنت وملت مع الهوى . لكن اكتب : رأيت محبسا ضيقا وأمرا شديدا .

لقد عمد بعض الدارسين إلى اعتبار هذا الموقف منزلقا ماكان لمالك أن يتردى فيه . وأنه فى شهادته تلك لم يكن منصفا وهى شهادة لحساب الحاكم .

ونحن إذا تدبرنا الأمر لم نجد مالكا قد حاد عن جادة الحق . فالشهادة الصادقة أن يقرر المرء ما رآه كاملا بغير زيادة أو نقصان . والذى رآه مالك من حال السجين وحال الحبس هو ماقرره وزملاؤه العلماء . إذ أنهم غير مسئولين عن معاملة سيئة لم يلمسوها . أو حبس قذر لم يروه . اللهم إلا أن يكونوا على علم بحال السجن والسجين قبل الزيارة وهو أمر غير ثابت . والمسألة من وجهة نظرنا لاتعدو أن تكون صدى للخلاف الشديد والخصومة المعروفة التى كانت بين ابن أبى ذئب وبين الإمام مالك . فقد كان صاحبنا كثير التعرض لمالك هو وعدد آخر قليل من علماء المدينة مثل عبد العزيز بن الماجشون ومحمد بن إسحاق .

مسألة أخرى نسبت إلى مالك واعتبرت وساطة غير كريمة قام بها الإمام لحساب المنصور العباسى ضد آل الحسن فى المدينة . وبشكل خاص ضد محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم المعروف بإبراهيم الإمام .

ذلك أن المنصور حج سنة ١٤٤هـ . ولم يأت لزيارته محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالشبه – أى شبيه رسول الله ﷺ – والملقب بالنفس الزكية . وقد مرت قصة خروجه على المنصور فى كتابنا عن الإمام أبى حنيفة . كما لم يأت لزيارته أيضا أخوه إبراهيم . فاهتم لذلك المنصور اهتماما شديدا . وكان يعرف مقام الأخوين ووالدهما عند جمهرة المسلمين . ويتوجس منهم خيفة . ويخشى منهم على عرش بنى العباس .

قام المنصور برصد العيون وبذل الأموال طلبا لمحمد وإبراهيم . فلما لم يستطع أن يعثر عليهما ألقى القبض على آل الحسن ووضعهم فى الحبس .

وهنا يبدأ ظهور مالك فى القصة . فلقد أرسل المنصور الإمام مالكا ومحمد بن عمران إلى آل الحسن فى محبسهم يسألانهم أن يدفعا محمدا وإبراهيم إلى المنصور . فدخلا الحبس على آل الحسن وعبد الله أبوهم قائم يصلى . فأبلغا الرسالة إلى أخ لعبد الله . وما أن فرغ عبد الله من صلاته حتى أعادا الرسالة على سمعه . فقال : لا والله لا أرد عليكما حرفا . إن أحب أن يأذن لى فألقاه فليفعل . وانصرف الرسولان – مالك وابن عمران – فأبلغا المنصور بما حدث .

هذا هو دور مالك فى هذا الموقف أو بالأحرى تلك كانت وساطته . والحقيقة أن وساطة مالك هنا لمن الأمور التى لانجد لها تبريرا حسنا . هل أرغم الإمام على ذلك تحت وطأة ظروف لانعرفها ؟ لقد كان مالك آنئذ فى الواحدة والخمسين من العمر . مكتملا أسباب العلم . حائزا لشرف الرئاسة والصدارة بين علماء المسلمين . فكيف يقبل أن يكون وساطة فى تسليم خير اثنين من شباب آل بيت رسول الله إلى المنصور كى يفعل بهما ما يشاء . وأغلب ما كان فى خفية أمره – أى المنصور- أن يتخلص منهما حفاظاً على ملكه. ويبدو لنا أن الإمام قد كلف بتبليغ رسالة أخرى غير تلك التى ذكرتها الرواية.

إن الإمام قد تصرف بجرأة فيما بعد بما يغاير هذا الموقف، ويدرأ الشبهة إن وجدت، حين نفذ محمد وأخوه إبراهيم خطتهما فخرج محمد لإمارة المؤمنين بالحجاز وخرج إبراهيم بالعراق، فكان مالك يدعو الناس للخروج معه ويحثهم على ذلك، وكان أهل المدينة يستفتون مالكا ويقولون له: إن فى أعناقنا بيعة لأبى جعفر فكيف نخرج؟ فكان مالك يقول: إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين. فكان الناس يسارعون إلى الخروج مع محمد وعلى رأسهم ابن هرمز أحد أساتذة مالك، وخرج مع إبراهيم فى العراق الإمام أبو حنيفة وشعبة بن الحجاج أحد أمراء المؤمنين في الحديث الذى وصف معركة باخمرا التى قتل فيها إبراهيم بقوله: والله لهى عندى بدر الصغرى.

ومهما يكن الأمر حيال سلوك الإمام فى قبوله أن يكون وسيط المنصور لدى بنى الحسن لتسليم محمد وإبراهيم ؛ فقد كان موقفه فى صف محمد ودعوة الناس للخروج معه وفتواه فى ذلك عملا كبيرا يرجح تورطه فى الوساطة ويمحو من نفوس المسلمين آثارها فيما لو صح خبرها.

ومما يتوقف بعض الدارسين عنده من تشدد الإمام فى تعامله مع الناس ماذكر عن إصدار أمره لحرس مسجد الرسول ﷺ أن يحملوا ابن مهدى فقيه البصرة ومحدثها إلى الحبس . فقد قدم عبد الرحمن بن مهدى إلى المدينة ودخل مسجد الرسول لأداء الصلاة ، فوضع رداءه بين يديه فى الصف ، فرمقه الإمام مالك بعد انتهاء الصلاة ، ثم قال من هنا من الحراس ؟ فجاءه حارسان فقال لهما : خذا صاحب هذا الثوب واحبساه ، فحبس ، فقيل له : إنه ابن مهدى ، فوجه إليه القول : أما خفت الله واتقيته أنْ وضعت ثوبك بين يديك فى الصف ، وأشغلت المصلين بالنظر إليه ، وأحدثت فى مسجدنا شيئاً لم نكن نعرفه ؟ وقد قال النبى ﷺ :

« مَنْ أَحْدَثَ فى مَسْجِدِنَا شَيْئاً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ؟ » .

فبكى ابن مهدى وآل على نفسه ألا يفعل ذلك أبدا فى مسجد رسول الله ﷺ ولا فى غيره ، والأرجح أن ابن مهدى كان آنذاك فى مقتبل العمر ، ولم يكن بعد ذا شهرة وصيت .

لقد كان ابن مهدى إنسانا عظيما وعالما جليلا ، وهو الذى كلف الإمام الشافعى بكتابة كتابه العظيم « الرسالة » ونحن لا نهتم لبكاء ابن مهدى ، ذلك أنه لم يبك لأنه حبس ، فقد كان سبب بكائه إحساسه بأنه ارتكب خطأ فى مسجد الرسول ما كان ينبغى لمثل من كان فى علمه وفضله وتوفره على الرسول حبا وعلى حديثه حفظا وتحديثا أن يفعل ذلك ، وإنما الذى نهتم له هو سلوك الإمام معه وكان عند الإمام مندوحة من ذلك بكلمة ناصحة ، أو بعبارة واعظة ، فلقد كان رسول الله ﷺ من رحابة الصدر ، ووفرة الحلم ، ورقة النصح ، مايمكن أن يكون خير قدوة للإمام مالك فى مثل هذا الموقف ، والحق أن مالكا جعل من الرسول ﷺ السيد والمعلم والقدوة ، ولكن مالكا بشر على كل حال ، والبشر يخطئون ويصيبون ، إن الناس يقترفون الخطأ كل حسب قدره وعلمه وتقاه ، وهذا النوع من البشر يكون خطؤهم محمولا وغلطهم مغتفرا لأنه وإن كان

خطأ ضارا ، فهو غلط لايصيب مقتلا ، وهم فى النهاية يستغفرون الله وإليه يرجعون .

إن هذه المعالم فى جملتها تمثل الجانب الأكبر من شخصية مالك فى مراحل كثيرة من مراحل حياته ، إنه مالك الصبى ، والفتى والدارس والمتلقى والعالم والمعلم والإنسان ورب الأسرة ، وأستاذ الأمراء والخلفاء الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر .

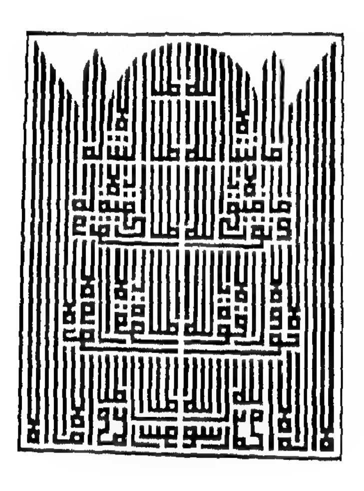
والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون

الفصل الرابع

مالك والسياسة

- مالك يعتدى عليه بسبب رأيه السياسى .
- مالك ورأيه فى الإمام علىّ بن أبى طالب .
- مالك ورأيه فى عثمان .
- فكر مالك السياسى منطلقه إسلامى .





الفصل الثانى

مالك والسياسة

الأئمة فى مقام التشريع السياسى :

أسلفنا القول ونحن نقدم دراستنا عن أبى حنيفة فى الكتاب الأول من هـذه السلسلة، أن العلماء لا ينبغى لهم أن يعملوا بالسياسة إلا فى نطاق الدستور الإسلامى ؛ وألا يكونوا تابعين لحاكم ما ، وإنما ينبغى أن يكونوا متبوعين فهم المشرعون . أو بعبارة أصدق هم القائمون على فهم الشريعة ؛ وبالتالى هم أقدر الناس على تقديمها للعام والخاص . ومن ثم فقد أصبح من غير اللائق بهم أن يسيروا فى موكب . أو يدقوا الطبول لقانون ليسوا هم القائمين على تنسيقه الساهرين على تنفيذه .

ومن هـذا المنطلق كان إسهام الإمام أبى حنيفة فى السياسة حسبما أوضحنا بغير قليل من الإيجاز فى الفصل الخاص بأبى حنيفة والسياسة . وقـد يحسن بالقارئ أن يرجع إليه وهو يقرأ هـذا الفصل عن مالك والسياسة .

لم يحاول الإمام مالك أن يسهم برأى فى السياسة والحكم إلا فى نطاق الشريعة وفى هدى من روح الإسلام وفهمه لدستور الحكم فيه .

— ١ —

مالك يعتدى عليه بسبب رأيه السياسى :

لقد تعرض الإمام مالك للأذى بسبب عقيدته السياسية . شأنه فى ذلك شأن الإمام أبى حنيفة الذى استشهد بسبب هـذه العقيدة فيما لو صح الخبر الذى روى من أن أبا جعفر المنصور وضع له السم تخلصاً من معارضته لحكم بنى العباس بالقول والإفتاء والعمل . أما الإمام مالك فقد تعرض للأذى والعدوان مرة واحدة ، وذلك حين سُعِىَ به إلى جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن

العباس – عم المنصور العباسى – وقيل له : إن مالكاً لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشىء ، فغضب جعفر ودعا به وجرده من ثيابه وضربه بالسياط ، ومدت يده حتى خلعت كتفه[1] ، ومهما اختلفت الروايات فى طبيعة الوشاية التى أوذى مالك بسببها فإن الراجح أن السبب هو أنه كان يحدث بحديث رسول الله ﷺ

« لَيْسَ عَلَى مُسْتَكْرَهٍ طَلاَقٌ »

فقال الوشاة لجعفر هذا الذى مر ذكره : إن مالكاً يفتى بألا يمين على مستكره ومعنى ذلك أن ما أبرمتموه من بيعة الناس بالاستكراه ينقضه مالك بفتواه ، فكان الأذى الذى لحق بمالك من جراء تصميمه على صحة الحديث والتحديث به فى وقت كان ملك بنى العباس مهدداً بسبب خروج محمد النفس الزكية ، ولكن الأذى الذى لحق مالكاً أهاج خواطر الناس ، وبلغ بهم الغضب مبلغاً شديداً أقلق المنصور نفسه ، واضطره إلى عزل جعفر من ولاية المدينة ، وإحضاره إلى عاصمة الملك على قتب ، وأرسل للإمام يستقدمه ، ولكنه اعتذر عن ترك المدينة ، وتأجل اللقاء إلى موسم الحج فكان استرضاء المنصور لمالك أثناء لقائهما من التكريم ما جعل مالكاً يغفر هذه الزلة للحكم العباسى ويثنى على المنصور وعلمه وفضله .

والإمام مالك لم يؤيد ملك بنى أمية ولا ملك بنى العباس لأنه يرى أن كلاً من النظامين بعيد عن الشورى والإسلام .

وقد سئل مالك مرة هل يجوز قتال الخارجين على الخلفاء ؟ فأجاب إجابة تتسم بالدقة والحنكة قائلاً : يجوز إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز . ومعنى ذلك أنه لا يجوز مقاتلة الخارجين على بقية ملوك الأمويين والعباسيين فليس أحد منهم شبيهاً بعمر بن عبد العزيز أو مماثلاً له فى عدله – وقد عاش مالك فى العهدين – ويستطرد السائل قائلاً : فإن لم يكونوا مثله ، أى مثل عمر بن عبد العزيز ، فيجيب مالك : دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ، ثم ينتقم من كليهما .

(١) الوفيات ترجمة مالك بن أنس .

– ٢ –

مالك ورأيه فى الإمام على :

هناك فى آراء مالك السياسية أمر يدعو إلى بعض التأمل وخاصة فيما يتعلق بالخلفاء الراشدين ، فهو يرى أنهم ثلاثة وليسوا أربعة ، إذ هو يجعل خلافة الراشدين فى أبى بكر وعمر وعثمان ، ويجعلهم فى مرتبة دونها سائر الناس ، وأما علىّ فإنه فى نظره واحد من جملة الصحابة لا يزيد عنهم فى شىء الأمر الذى جعل الأستاذ أبا زهرة والأستاذ أمين الخولى يذكران أن مالكاً قد اتهم بأن فيه نزعة أموية[٢] رغم كونه غير راض عنهم مما يستفاد من استثنائه عمر بن عبد العزيز من بينهم ، والاستنتاج الذى أفضى إلى تصور الميول الأموية عند مالك يفهم من سؤال وجه إليه أثناء درسه : من خير الناس بعد رسول الله ﷺ : فأجاب : أبو بكر ، فسئل : ثم من ؟ فقال : ثم عمر ، فسئل ثم من ؟ قال : عثمان . فسئل : ثم من ؟ قال : هنا وقف الناس ، هؤلاء خيرة رسول الله ﷺ ، أمر أبا بكر بالصلاة ، واختار أبو بكر عمر ، وجعلها عمر إلى ستة ، وفى رواية أن مالكاً مضى قائلاً : وليس من طلب الأمر كمن لم يطلبه[٣] .

إن الإمام مالكاً تجاهل ذكر أمير المؤمنين علياً ، ثم يقول العبارة التى تعدّ التصريح الوحيد الصادر منه ضد خلافة أمير المؤمنين ، وذلك بقوله : ليس من طلب الأمر كمن لم يطلبه .

وإذن فطلب الخلافة فى نظر الإمام مالك والسعى إليها يشكل سبباً من أسباب بطلانها ، وهو فى نظرنا اجتهاد شخصى من الإمام مالك . صحيح أن أحداً من الراشدين الثلاثة الأولين أبى بكر وعمر وعثمان لم يطلب الخلافة ، وإنما استخلف كل منهم بالوسيلة المعروفة فى كتب التاريخ ، ولكن يبدو أن هناك أسباباً اقتنع بها الإمام مالك لمعارضة خلافة الإمام علىّ منها أن علياً نقل عاصمة

---

(٢) الإمام مالك لأبي زهرة ٦٠، ٦١ ومالك بن أنس لأمين الخولي ٣٤٦ - ٣٤٨.
(٣) المدارك ٢٠٤ .

الخلافة من المدينة المنورة إلى الكوفة ، وتعلق مالك بالمدينة وتقديسها لها إلى المدى الذى جعله لا يغادرها إلا للحج يبين مأخذه على نقل العاصمة منها إلى مدينة مستحدثة فى قطر غير الحجاز.

ومن الأسباب التى وقرت فى أعماق مالك فلم تحبب إليه خلافة على ومن ثم جعلته لا يعترف بالراشد الرابع خليفة على المسلمين حدوث أكثر من حرب وأكثر من معركة طرفاها المسلمون الأولون ، واستشهد فيها عدد غير قليل من صحابة رسول الله الذين كان يضن بحياتهم إلا فى الاستشهاد فى سبيل الدعوة ، ولم تكن هذه الحروب التى وقعت فى عهد علىّ – من وجهة نظر الإمام مالك – فى سبيل الدعوة ، ولقد فزع مالك من معركتين رهيبتين هما وقعة الجمل ووقعة صفين ، ولم تحدث حروب بين المسلمين قبل ولاية على :

ولكننا نعود فنتساءل : هل كان الإمام على مسئولاً عن هذه الحروب ؟ وهل كان معاوية أفضل من علىّ حتى تترك له إمارة المؤمنين ؟

غير أن مالكاً يذكر فى بعض الروايات أن الذين نصّبوا علياً أميراً هم قتلة عثمان . وإن صح ذلك عنده فيكون من حقه الوقوف والتريث .

— ٣ —

مالك ورأيه فى عثمان :

وثمت رواية ذكرها ابن عبد ربه تدخل عثمان فى دائرة اعتراض مالك عليه ، فقد روى أنه كان يذكر عثمان وعلياً وطلحة والزبير فيقول : « والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر[٤] » يعنى الثريد الأبيض الذى أضيفَ إليه الإدام بكثرة فحول لونه من البياض وجعله أعفر .

إن المعنى الذى يقصد إليه مالك من وراء عبارته هذه أنهم لم يقتتلوا من أجل الدين ، وإنما كان قتالهم لدنيا يصيبونها .

---

(٤) العقد الفريد ٢/٢٣٥

وحول هذا الرأى ومدى دقته . وتردد مالك فى الاستمساك بخلافة عثمان استمساكه بشرعية خلافة أبى بكر وعمر . روى عن الإمام مالك أنه قال : إمام الناس عندى بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه « زيد بن ثابت » . وإمام الناس بعد « زيد بن ثابت » . « عبد الله بن عمر »[٥] .

ونحن إذا ربطنا بين هذه الرواية والرواية السابقة التى قال مالك فيها عن عثمان وعلىّ وطلحة والزبير : « والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر » نستطيع أن نلمس بوضوح فتور مشاعر مالك بل تجريحه الصريح لعثمان مثلما جرح علياً وأبى أن يسلكه فى عقد الخلفاء الراشدين .

وعثمان هو عنوان الأمويه عند الذين يذهبون إلى أن مالكاً كان ذا ميول أموية . فإذا ما تناول مالك عثمان بهذا الذى تناوله به . مع سابق رأيه بأن إمام الناس بعد عمر هو زيد بن ثابت إلى بقية الخبر . وضح لنا أن مالكاً قبل الاعتراف بخلافة عثمان لاعن نزعة أموية ولكن لأنه استخلف بطريقة شرعية إسلامية .

وحتى تتضح الصورة بشكل أكثر جلاء لإبراء مالك من تهمة الانحياز إلى حزب بعينه وهو الحزب الأموى نعود إلى حديث مالك عن الراشدين عوداً جديداً . كان مالك يُسأل : من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فيقول فى غير تردد : أبو بكر ثم عمر . ثم يمسك فى بعض المرات بعد عمر ، أى يسكت ولا يسترسل ، فيقول له السائل : إنى امرؤ أقتدى بك فى دينى : فيقول حينئذ : عثمان[٦] .

لو كان مالك أموياً حقاً لما تردد فى الإجابة عند عثمان . ولما قال قولته عن اختلافهم حول الثريد الأعفر ، ولما ذكر أن إمام المسلمين بعد عمر هو زيد بن ثابت من وجهة نظره .

---

(٥) ترتيب المدارك ص ٢٠ .

(٦) المصدر السابق والصفحة نفسها .

فكر مالك السياسى يصدر عن منطلق إسلامى :

الرأى عندنا أن مالكاً لم يكن ذا هوى سياسى بالمعنى العام ، وإنما كان يحكم دينه وعقله ومنطقه فى المواقف السياسية . إن تفضيله للراشدين – فيما لو صح أنه لم يتردد فى الاعتراف بخلافة عثمان – وإيثاره إياهم دون علىّ . لايحمل طعنا فى علىّ . فقد وضعه معّ بقية الصحابة الأخيار ، ولوكان مالك أموى الهوى لتناول علياً بالطريقة التى تناوله بها الأمويون وأشياعهم ، هـذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى . كان الحديث الذى حدث به مالك وضرب بسببه وشهر به . يؤدى بطريق مباشر إلى نصرة الطالبيين من آل الحسن . فالحديث الشريف الذى كان يتمسك بالتحديث به رغم طلب العباسيين منه السكوت عن روايته هو :

« لَيْسَ عَلَى مُسْتَكرهٍ طَلَاقٌ » .

لقد ردد مالك هـذا الحديث وقت خروج محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية) على العباسيين والدعوة لنفسه بالخلافة . وكان ذلك بمثابة تشجيع مباشر للمسلمين على خلع بيعتهم للعباسيين التى أكرهوا عليها إكراهاً . ومنحها للطالبى الحسنى محمد النفس الزكية .

إن الخبر الثابت تاريخياً أن مالكاً كان يحث الناس على الخروج مع محمد . وقـد استفتاه أهل المدينة قائلين : إن فى أعناقنا بيعة لأبى جعفر . فقال لهم : « إنما بايعتم مكرهين . وليس على مكره يمين » . فأسرع الناس إلى محمد[7] . فلو كان مالك أموى الهوى والنزعة لما عرض نفسه لـلأذى بسبب حديث طلب إليه أن يمتنع عن التحديث به . ولما جاهر بفتوى الخروج مع محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . وهوكما نرى سليل الإمام على كرم الله وجهه .

تبقى بعد ذلك شبهه قرينة يعتبرها الدارسون برهاناً على أموية مالك . تلك هى أن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية المتوفى سنة ١٨٠ أخذ الناس جميعاً فى

---

(٧) تاريخ ابن الأثير ١٩٧/٥ .

الأندلس بالتزام مذهب مالك وصير القضاء والفتيا عليه وذلك فى عشرة السبعين ومائة . أى فى العقد الثامن من القرن الثانى الهجرى أى قبل وفاة مالك بقليل إذ أن مالكاً توفى إلى رحمة الله سنة ١٧٩ هـ على ماهو معروف .

القضية من وجهة نظرنا لاتعدو إعجاباً متبادلاً بين مالك بعلمه وفضله وورعه وهيبته وبين هشام بن عبد الرحمن بورعه وعلمه وعدله وزهده . وفى رواية أنه الداخل نفسه والد هشام .

إن شهرة الإمام مالك كانت قد وصلت إلى الأندلس . وذاع صيته فى ربوعها . ووصل « موطأه » إليها مع تلاميذه الأندلسيين . وقد كانت رحلة البشر ورحلة الثقافة على قدر كبير من النشاط بين الأندلس والمشرق ؛ وكان الأندلسيون لا يزالون ينظرون إلى المشرق نظرة الولد إلى أمه . منه يأخذون كل شيء .

جاء فريق من حجاج الأندلس وزاروا شيخ علماء المدينة . وجرى الحديث مبسطاً بينه وبينهم . فسألهم عن أحوال بلادهم وعن سيرة حاكمهم . وكان إذ ذاك هشام بن عبد الرحمن . وفى رواية أخرى عبد الرحمن نفسه . فامتدح الأندلسيون حاكمهم وقالوا : إنه يأكل خبز الشعير ويلبس الصوف ويجاهد فى سبيل الله . وأخذوا يعددون مناقبه . وهى مناقب مفقودة فى خليفة بغداد . أو على أحسن الفروض لم يكن خليفة العباسيين فى بغداد يصلح لأن يقارن بأمير الأندلس الذى هذه شمائله . فلم يكن من مالك – كإنسان عاقل وكفقيه للمسلمين – إلا أن امتدح أميراً على هذا القدر الرفيع من الصفات . فقال : ليت أن الله زين حرمنا بمثله .

وحين عاد القوم إلى الأندلس أبلغوا أميرهم بما قال مالك . ولم يكن مالك شيئاً جديداً على الأمير فلقد سمع به دون شك ورأى كتابه الموطأ ؛ أول كتاب ثبت فى سنة رسول الله . فبدأ يقتنع بشخصية مالك . ومن ثم التفكير فى اتخاذ مذهبه مذهباً للأندلس .

هذا إذا كان الأمير الذى سأل عنه مالك هو عبد الرحمن . فإذا لم يكن عبد الرحمن وإنما هو ولده الأمير هشام . فإن إعجاب مالك به سوف يزداد كثيراً

عن إعجابه بوالده عبد الرحمن . ذلك أن هشاما كان يتشبه فى خلقه وسلوكه وعلمه وعدله وتقشفه بعمر بن عبد العزيز . ونحن نعرف إعزاز مالك لعمر بن عبد العزيز وإجلاله لسيرته وإكباره لطريقة سياسة دولته . وقد مر بنا أن مالكاً سئل : هل يجوز قتال الخارجين على الخلفاء ؟ فأجاب : يجوز إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز . فعمر بن عبد العزيز هو المثل الأعلى للخليفة المسلم – بعد الراشدين الأولين بطبيعة الحال – ومن ثم يكون قول مالك لوفد الحجاج الأندلسيين : « ليت أن الله زين حرمنا بمثله » قولا صادراً عن عقيدة دينية وليس عن حزبية أموية . وإذا كان هشام من الفضل كما ذكرنا فإنه لاشك مختار فقه مالك مذهبا ، لما عرف عن مالك من علم ودين . وتوفره على عمل غير مسبوق إليه وهو جمع سنة رسول الله فى « الموطأ » .

وإذا كان فرض مذهب مالك على أهل الأندلس وإلزامهم به فى القضاء والفتيا قرينة على أن مالكاً كان أموى المشاعر والاتجاه . فهل يمكن تطبيق تلك القرينة ذاتها على الإمام الجليل حين قرر الأدارسة فى المغرب أن يكون فقه مالك مذهباً لهم . والأدارسة هم سلالة الحسن بن على بن أبى طالب .

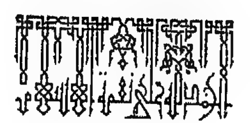
لماذا يعتبر مالك أموياً لأن الأمراء الأمويين فى الأندلس التزموا بفقهه مذهباً ولا يعتبر حسنياً لأن الأدارسة هم الذين نشروا مذهبه بالمغرب ؟ إذ ليس ثمت شك فى أن انتشار مذهب مالك فى المغرب كان على يد إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبى طالب مؤسس دولة الأدارسة . وهو القائل فى مجال التقدير لمالك وفقهه : نحن أولى بمذهبه . ومن ثم انتشر فى المغرب ولا يزال المذهب الرسمى والشامل للمغاربة حتى اليوم .

لقد كان مالك فى عقيدته السياسية غير مرتبط بهذا أو بذاك من الخلفاء أو الملوك ، وإنما كانت آراؤه تصدر عن ارتباط باقتناع شخصى ، موصول الأسباب دائماً بأصل دينى ومعنى إسلامى .

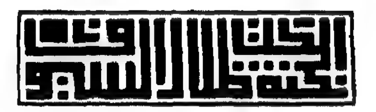
الفصل الخامس

مالك الإمام

* فقهاء المدينة .
* مالك والفتيا .
* مجلس مالك وآدابه وتقاليده .
* دستور مالك فى الإفتاء .
* مالك يصبح شيخاً لأساتذته .
* مهابة مالك .







الفصل الخامس

مالك الإمام

– ١ –

فقهاء المدينة :

كانت القرائن كلها توحى بأن الفتى الصغير الذى هيأت له أمه أن يتوجه إلى مجلس ربيعة الرأى فى مسجد رسول الله ﷺ سوف يكون ذا شأن كبير فى قائمة علماء المسلمين وأئمتهم ، ذلك أنه خريج الروضة الشريفة إن صح هذا التعبير .

فى الروضة كان يجلس رسول الله ﷺ يتلو القرآن الكريم غضًّا على الصحابة البررة ، وفيها استمعوا منه ﷺ إلى أحكام العقيدة وأسس التشريع .

وفى الروضة اتخذ الفاروق عمر مجلساً للفتوى بكتاب الله وسنة رسوله ، وفيها جلس العبادلة الثلاث عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن مسعود ومعهم عبد الله بن عمرو يبصرون المسلمين الأولين بما احتاجوا إلى فهمه مما خفى عليهم من الأحكام ، وفيها اتخذ سعيد بن المسيب – أشهر الفقهاء السبعة – مجلسه المترع بأسباب العلم ، يرده كل من أحس بظمأ فى الفقه وأحاديث رسول الله فينهل حتى يرتوى .

وفى الروضة الشريفة جلس الفقهاء السبعة الذين بقى بعضهم فى المدينة وآثر البعض الآخر الرحلة إلى الأمصار الإسلامية سبيلاً ، فبالإضافة إلى سعيد بن المسيب جلس عروة بن الزبير . والقاسم بن محمد بن أبى بكر ، وخارجة بن زيد ، وأبو بكر بن عبيد بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام ، وسليمان بن يسار . وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود .

هؤلاء الأعلام السبعة نشقوا عبير العلم فى روضة رسول الله ثم نشروه على الناس كما يفوح نشر الزهرة عبيراً معطراً يشرح القلوب بعلم رسول الله .

لقد حرص بعض المسلمين الأولين على تضمين أسماء هؤلاء الفقهاء الأعلام فى بيت شعر ، حتى يسهل حفظه على العقول والقلوب ، تمجيداً لذكرهم وحرصاً على تذكرهم وضنا بأسمائهم أن تنسى فقال :

إذا قِيلَ مَنْ فى العلمِ سبعةُ أبحرٍ
روايتُهُمْ ليستْ عن العلْمِ خَارِجَهْ
فقلْ هم عبيدُ الله عروةُ قاسمٌ
سعيدٌ أبو بكر سليمانُ خَارجَهْ

لقد كان كل واحد من هؤلاء السبعة الفقهاء الأبرار ينبوعاً من العلم ونبراساً من الهداية وقبساً من النور.

فسعيد بن المسيب هو الذى كان إليه المنتهى فى الفقه والفتيا وقد قيل عنه ، لهضمه الأحكام وتمكنه من علوم دينه ، إنه كان يفتى حيث يتهيب غيره الفتيا . وقيل عنه أيضاً إن الرجل كان يدخل فى ذلك الزمان ليسأل عن الشيء فيدفعه الناس من مجلس إلى مجلس كراهية للفتيا حتى يُدفع إلى مجلس سعيد بن المسيب ، وكانوا لذلك يدعونه سعيد بن المسيب الجرئ[1] وقد أخذ عنه يحيى بن سعيد أحد أساتذة مالك ؛ كما أخذ عن غيره من الفقهاء السبعة .

وثانى الفقهاء السبعة فى المدينة هو عروة بن الزبير بن العوام ، ابن ذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر ، وابن أخت أم المؤمنين عائشة ، وحفيد خليفة رسول الله أبى بكر ، وشقيق حبر الأمة عبد الله بن الزبير ؛ وفى الوقت الذى كان فيه ابن مسعود أفقه أهل المدينة كان عروة أغزرهم حديثاً مع قدم ثابتة فى الفقه ، وكان عروة – وهذا شأنه – محاطاً بالعلم من كل جانب ، فقد نقع فيها نقعاً ، وتشربه تشرب احتفاظ وتمكن ، وكان يقول عن نفسه : لقد رأيتنى قبل موت عائشة بأربع حجج – أى سنوات – وأنا أقول : لو ماتت ماندمت على حديث عندها إلا وقد وعيته .

(١) إعلام الموقعين ١/١٨ .

من هنا كان تمكن عروة فى الحديث . فقد وعى كل ما كان عند أم المؤمنين عائشة من حديث رسول الله ﷺ ، وكان تلميذه ابن شهاب الزهرى – أحد الأساتذة الكبار للإمام مالك – يقول عن عروة : كان بحراً فى الحديث لا تكدره الدلاء ، وكان عروة قد كتب كتباً فى الفقه والحديث ثم أحرقها يوم الحرة ثم ندم على ذلك ندماً شديداً .

وثالث الفقهاء السبعة أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث الذى جمع بين الفقه والحديث ولكن غلب عليه التنسك والزهد ، ومن ثم كان يسلك فى حياته مسالك الزهاد حتى سمى راهب قريش ، وكان أخذ الحديث عن عائشة أم المؤمنين وأم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنهما .

ورابع فقهاء المدينة السبعة هو القاسم بن محمد بن أبى بكر الذى جمع الحسنيين ذلك أن جده عصبا هو خليفة رسول الله ﷺ . وأن عمته هى أم المؤمنين عائشة الحفيظة لحديث رسول الله . وكان القاسم يجمع بين الفقه والحديث فى تمكن ووعى . فقد تعلم وروى عن أم المؤمنين وعن عبد الله بن عباس . وكان القاسم ذا همة وكياسة . وفهم وسياسة . وكان الخليفة العادل عمر بن العزيز لا يجد ما يمنع من استخلافه بعده . وقال فى ذلك : لو كان لى من الأمر شىء لاستخلفت أعيمش بن تيم . يعنى القاسم .

وإذا كان المقام هنا مقام العلم والحديث لا مقام السياسة . فإن أبا الزناد عبد الله بن ذكوان تلميذ القاسم يقول فيه : ما رأيت فقيهاً أعلم من القاسم . وما رأيت أحداً أعلم بالسنة منه . ولم تكن شهادة أبى الزناد مجرد حماس لأستاذه وإعجاب به . وإنما تميز القاسم بكونه – فوق فقهه – محدثاً ناقداً . يعرض الحديث على كتاب الله والمشهور من السنة قبل أن يحدث به . وأبو الزناد صاحب هذا القول هو أحد أساتذة الإمام مالك .

وخامس الفقهاء السبعة هو عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي، وشأنه في الرواية شأن القاسم بن محمد، فقد روى عبيدالله عن أم المؤمنين عائشة وعن ابن عباس وأبي هريرة، وكان متمكناً في فقهه، متيناً في حديثه، وكان

ذا صلة ومكانة بعمر بن عبد العزيز فقد كان يؤدبه . شأنه فى ذلك شأن القاسم . غير أن القاسم كان ذا هيبة وقوة وسياسة . فأما عبيد الله فكان رقيق المشاعر دافق العاطفة شاعراً غزلاً . حتى إنه يمكن أن ينتظم عقد الشعراء العذريين . وهو مع ذلك كله كان أستاذاً لعمر . ذا سلطان عليه . ومن شعر عبيد الله فى الغزل الرقيق قوله [٢] :

شَقَقْتِ القَلْبَ ثم ذَرَرْتِ فيهِ
هواكِ فَلِيمَ والتأمَ الفُطُورُ

تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ فى فؤادِى
فَبَادِيهِ مع الخافِى يسيرُ

تغلغلَ حيثُ لمْ يَبْلُغْ شرابٌ
ولا حُزْنٌ ولم يبلغْ سُرورُ

وهو شعر كما نرى بالغ الرقة سلس الوقع دفاق العاطفة . ولكن الأمر الأكثر من ذلك ملاحة هو ماروى من أن امرأة من هذيل مفرطة الجمال قدمت المدينة فأثار جمالها الناس ، وكادت تذهب بعقولهم . وقالوا فيها شعراً كثيراً . ومن أولئك الذين سبتهم الهذلية بجمالها وكادت أن تذهب بلبهم . ابن قبيلتها الفقيه عبيد الله الذى أنشد فيها أبياتاً رقيقة ذكر فيها زملاءه من فقهاء المدينة الستة الذين هو سابعهم . لقد ذكرهم واحداً بعد الآخر وجعلهم جميعاً شهداء على حبه . بصراء بوجده . إنها أبيات رقيقة لانجد بأساً من ذكرها مادام قائلها هو أحد السبعة الفقهاء :

أُحِبُّكِ حبًّا لو عَلِمْتِ بِبَعْضِهِ
لَجُدْتِ ولمْ يَصْعُبْ عليكِ شديدُ

---

(٢) زهر الآداب ١٥٣/١ والأغانى ٣٢٧١/٩ ط دار الكتب والفطور الشقوق .

أحبك حبًّا لايُحِبُّكِ مِثْلَهُ
قريبٌ ولا فى العالمينَ بعيدُ
وحبُّكِ يا أم العلاءِ مُتيِّمِى
شهيدِى « أبو بكر » فذاكَ شهيدُ
ويعلم وجدى « قاسمُ بنُ محمدٍ »
و « عروةُ » ماألقى بكم و « سَعِيدُ »
ويعلم ما أُخْفِى « سليمانُ » كلَّه
و « خارِجَةٌ » يُبْدِى بنا ويُعِيدُ
متى تسألى عما أقولُ فَتُخْبَرِى
فللحُبِّ عندِى طَارِفٌ وتليدُ(٣)

ونحن لانحب أن نطيل التعليق على هذه الأبيات ودلالتها . فلقد كان الشيخ عفا طاهراً فيما نعتقد . ومن هنا يمكن تصديق أولئك الغزلين من الشعراء الذين ذهبوا فى غزلهم شوطاً أبعد من ذلك ثم أقسموا أنهم لم يقترفوا كبيرة من الكبائر .

إن الأكثر طرافة من ذلك أن الناس كانوا يقولون لعبيد الله : أتقول الشعر على شرفك ؟ فكان يجيبهم قائلاً : لابد للمصدور أن ينفث(٤) أو يقال له : أتقول الشعر فى فضلك ونسكك ؟ فيقول : إن المصدور إذا نفث برأ(٥) .

والفقيه السادس هو سليمان بن يسار الذى كان مولى لأم المؤمنين ميمونة بنت الحارث ثم صار حراً . وقد تلقى سليمان علمه عن قطبين عظيمين وحبرين جليلين هما زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر . ثم زاد عليهما الأخذ عن أبى هريرة ، بل

---

(٣) الأغانى ٣٢٦٨/٢ دار الكتب .
(٤) زهر الآداب ١٥٣/١
(٥) الأغانى ٣٢٦٦/٢

إن سليمان بحكم صلته ببيت رسول الله ﷺ قد أخذ عن سيدته أم المؤمنين ميمونة . كما أخذ أيضاً عن كل من أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين أم سلمة . بل إن سليمان قد كان قريباً من عمر بن عبد العزيز وموضعاً لثقته . حتى إن عمر جعله مشرفاً على سوق المدينة حينما كان والياً عليها . وهنا لا ينبغي أن ندع الكلمات تمضي دون أن نشير إلى أن الإسلام قد سما بالمؤمن العالم حتى ولو كان عبداً فرفع قدره إلى أن صار من فقهاء المدينة السبعة والمشرف على سوق مدينة رسول الله .

والفقيه السابع هو خارجة بن زيد بن ثابت . وزيد بن ثابت هو من نعرف علو كعب . وسمو قدر . وقرباً من أصول الرسالة . فليس بغريب أن يأخذ ولده عنه ، وأن يسير على دربه . وكان خارجة فقيهاً أكثر منه محدثاً ، وكان يفتى الناس فى الفرائض والمواريث ، ولعل شهرته بمعرفة المواريث كانت أشمل وأعم . فقد ذكر أنه « كان خارجة وطلحة بن عبد الرحمن بن عوف فى زمنهما يُستَفتَيان ، وينتهى الناس إلى قولهما . ويقسمان المواريث بين أهلها من الدور والنخل والأموال ، ويكتبان الوثائق للناس » .

وقد لجأ خارجة فى آخر حياته إلى العزلة والتعبد ، شأنه فى ذلك شأن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث . وبذلك يكون اثنان من الفقهاء السبعة قد انتهيا إلى العزلة والتعبد والزهد ، وأحدهم كان شاعراً عذب اللفظ رقيق المعانى .

على هؤلاء السبعة الفقهاء الكبار تلقى خمسة من أساتذة مالك علمهم من فقه وحديث . وهؤلاء هم ربيعة بن أبى عبد الرحمن . وابن شهاب الزهرى . وأبو الزناد ، ويحيى بن سعيد ، ونافع مولى عبد الله بن عمر . وكلهم أخذوا فقههم من الفقهاء السبعة . وقد رأينا أن هؤلاء الفقهاء الكرام جمع بعضهم بين الفقه والسنة . وكان بعضهم جريئاً فى فتاواه من أمثال سعيد والقاسم . ولذلك رأينا فى أساتذة مالك من يفتى بالرأى مثل ربيعة ويحيى بن سعيد .

أخذ مالك علم هؤلاء من فقه وحديث ، وهؤلاء أخذوا فقههم عن الصحابة الأولين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ :

«أَصْحَابِى كالنُّجُوم بأَيِّهِمْ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ»

كما أخذ بعضهم من معين بيت النبوة ، أعنى من أمهات المؤمنين .

إن مالك بن أنس وهو موصول الأسباب بعلم رسول الله عن طريق هذه السلسلة المباركة الصادقة . مع صدقه وإقباله على حديث رسول الله فى مدينة رسول الله . جدير بأن يرشح للإمامة فى مستهل حياته وأن يصبح أهلاً لها فى هرمه وبعد وفاته .

— ٢ —

مالك والفتيا :

روى مالك عن تسعمائة شيخ فيما يقول الرواة ؛ ولقد حمل التاريخ لنا أشهر من روى عنهم . ولكنه حين يروى يحكم قواعد الرواية والتحديث عمن يروى عنهم . وحين يفتى – وقد جلس للفتيا شاباً يحدد من يصلح للفتيا .

فالزهاد على ورعهم وتقواهم وإجلال مالك لما هم فيه من عبادة الله وانقطاع إليه وزهد عن الدنيا فى سبيله . لايصلحون للفتيا أو الحديث . وهو يقول فى ذلك : أدركت فى هذه البلدة – يعنى المدينة المنورة – أقواماً لو استسقوا بهم المطر لسقوا . قد سمعوا العلم والحديث كثيراً . ماحدثت عن أحدهم شيئاً . لأنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد . وهذا الشأن – يعنى الفتيا والحديث – يحتاج إلى رجل معه تقى وورع . وصيانة وإتقان . وعلم وفهم . فيعلم ما يخرج من رأسه وما يصل إليه غداً . فأما رجل بلا إتقان ولا معرفة فلا ينتفع به ؛ ولا هو حجة ولا يؤخذ عنه[٦] .

ويكرر مالك هذا المعنى حول من يصلح لرواية حديث رسول الله ﷺ حفاظاً على صحة الأحاديث من أن تحرف أو تروى غير منضبطة . وهى المصدر

---

(٦) ترتيب المدارك ١/١٧ .

الثانى للتشريع والعقيدة . والمحافظة على العقيدة تقتضى توفير كل السبل لصيانة حديث رسول الله من أن يحرف بالتشويه أو الزيادة أو النقصان . كان مالك خادماً أميناً لحديث رسول الله ولذلك يقول : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه . ثم يمضي فى القول : لقد أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين - ويشير إلى أعمدة المسجد - فما أخذت عنهم شيئاً . وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أميناً . إلا أنهم لم يكونوا أهلاً لهذا الشأن .

إن الإمام مالكاً - وهذا قوله - كان يدقق التدقيق كله في تقبل أحاديث رسول الله ﷺ . فلا يحدث بها مالم يطمئن إلى سندها وصحة نسبتها إلى قائلها عليه صلاة الله وسلامه . ومن هنا كان قول الإمام الشافعي . وهو أحد تلامذة مالك . كان مالك إذا شك فى شيء من الحديث تركه .

وكان الإمام مالك يجلس للحديث والفتيا فى مسجد رسول الله فى المكان الذى كان يجلس فيه عمر وعبد الله بن مسعود . وقد جلس للفتيا مبكراً . ولكن ليس في سن السابعة عشرة كما حلا لبعض مترجميه أن يرددوا، وكان بعض العلماء يعترض على ذلك . وآخرون يريدون أن يتصدوا للفتيا كما تصدى مالك فكان يقول : لاخير فيمن يرى نفسه فى حالة لا يراه الناس أهلاً لها . ثم يقول عن نفسه خاصة وعن الجلوس للحديث والفتيا عامة : ليس كل من أحب أن يجلس فى المسجد للحديث والفتيا جلس حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل . فإن رأوه لذلك أهلاً جلس . وما جلست حتى شهد لى سبعون شيخاً من أهل العلم أنى موضع لذلك[(٧)] .

إن الذى يشهد له سبعون شيخاً من شيوخ مسجد رسول الله حقيق بالفضل قمين بالعلم جدير بالإمامة .

ولقد كان مالك شديد الاحترام لحديث رسول الله ﷺ . فلا يحدّث إلا عن

---

(٧) ترتيب المدارك ١٢٧ .

طهارة واحتفال بالتحديث . فقد كان إذا جلس للحديث توضأ ولبس أحسن اللباس وغالباً ماكان يفضل الثياب البيضاء .

كان مالك يحدث في مسجد رسول الله ثم لما مرض نقل مجلسه إلى بيته . فظلّ سائراً على النسق نفسه . وفى ذلك يحكى تلميذه مطرف ويقول : «كان مالك إذا أتاه الناس خرجت إليهم الجارية وتقول لهم : يقول لكم الشيخ : أتريدون الحديث أم المسائل ؟ – يعنى الفقه – فإن قالوا المسائل خرج إليهم فأفتاهم . وإن قالوا : الحديث قال لهم اجلسوا . ودخل مغتسله فاغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً ولبس ساجة(*) وتعمم وتلقى له المنصّة فيخرج إليهم قد لبس وتطيب وعليه الخشوع . ويوضع عود فلا يزال يبخرّ حتى ينتهى من حديث رسول الله ﷺ (٨) .

وكان الإمام فى توقيره لحديث رسول الله وإجلاله له يحرم على الجالسين أن يرفع أحد صوته معتبراً بالآية الكريمة

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِى » .

ولقد مر بنا أن الرشيد حين جلس يستمع إلى مالك يحدث بحديث رسول الله وأراد أن يسند ظهره ويستوى مع مالك فى جلسته كتفاً بكتف . قال له مالك : يا أمير المؤمنين ، من إجلال الله إجلال ذى الشيبه . فقام الرشيد فجلس بين يديه فحدثه . فلما فرغ عاد إلى مكانه . والحق أن مالكاً لم يفعل ذلك مع الرشيد ولم يطلب إليه أن يجلس جلسة التلميذ لا جلسة الخليفة إلا احتراماً لحديث رسول الله .

(*) الساجة لباس للرأس كلباس الملوك .

(٨) الديباج المذهب ص ٢٣ .

– ٣ –

مجلس مالك وآدابه وتقاليده :

كان مجلس مالك إذا أفتى أو حدث مجلساً تحيط به المهابة . وتشمله السكينة . ويلفه الوقار . ويسوده الهدوء . كان مجلساً ذا آداب وتقاليد . وقد وردت أوصاف كثيرة لمجلس مالك أجمعت على أنه كان كذلك . فالواقدى يصف هذا المجلس وصاحبه بقوله : «كان مجلسه مجلس وقار وعلم . وكان رجلاً مهيباً نبيلاً . ليس فى مجلسه شيء من المراء واللَّغَط ولا رفع صوت . وإذا سئل عن شيء فأجاب سائله لم يقل له من أين هذا» .

ويذكر رجال المناقب أن مالكاً ظل يحدث بحديث رسول الله ويجلس للفتيا خمسين سنة لم يؤخذ عليه لغو فى قول أو مزاح أو تندر . وما عدّت له ضحكة أو ضحكتان . ويقول بعض معاصرى الإمام مالك من غير أبناء المدينة فى وصف حلقته الدراسية . دخلت المدينة سنة أربع وأربعين ومائة ومالك أسود الرأس واللحية . والناس حوله سكوت . لا يتكلم أحد هيبة له[٩] . ولاشك أن الراوى يقصد أن الشيب لم يكن بعد قد وخط شعر رأس مالك أو لحيته لأن الإمام فيما هو مشهور عنه كان أشقر .

وكان التواضع يغلب على سلوك الإمام مالك على الرغم مما يبدو من تشدده أحياناً . والواقع أن تشدد مالك كان منصباً على أمور العلم والدين وما يتصل بهما . يقول بعض تلاميذ الإمام : كان مالك إذا جلس معنا فكأنه واحدٌ منا . يتبسط معنا فى الحديث . وهو أشد تواضعاً منا له . فإذا أخذ فى حديث رسول الله تهيبنا كلامه فكأنه ما عرفنا ولا عرفناه .

هذا ما كان من أمر مالك مع تلاميذه . رقة وإيناساً وتواضعاً فى تعاطف ومودة مع الذين يتوفرون على درسه . فإذا ما كان الدرس . كان الحرص على

---

(٩) ترتيب المدارك ص ١٨٧ .

أدب الاستماع الدستور السائد الذى يتصف به درس الإمام . فإذا خالف أحد هذا الدستور أو أخل بالسكينة أخرج على الفور من الدرس .

ولطلاب الإمام أداب يتبعونها . وتقاليد يلتزمون بها . فإذا ما أحسوا أن الإمام يتحدث مع ضيف – وقد يكون الضيف قادماً للتلقى – حديثاً تلوح منه صفة الخصوصية سارعوا إلى الانسحاب وإخلاء المجلس حتى يهيئوا لشيخهم مزيدا من الارتياح .

إن حماد بن أبى حنيفة يقص شيئاً من ذلك ويقول : أتيت مالكاً فرأيته جالسا فى صدر بيته وأصحابه بجنبتى الباب . كل واحد منهم له مجلس . فقمت على باب البيت . فقال : من أنت ؟ فقلت فلان أسأل عن مسألة . قال : ادْنُ . فدنوت حتى أقعدنى بين يدى فراشه . فلما رأى ذلك أصحابه قاموا جميعاً من مجالسهم فخرجوا من البيت . فقال لى : ماكان يقول أبوك فى كذا ؟ فأخبرته . فقال : وماكانت حجته ؟ فأعلمته . وجعل يسألنى عن أشياء من مذهب أبى حنيفة وعن حجته . ثم قال : سل . فسألته . فأجابنى . فلما خرجت عاد أصحابه إلى مجالسهم » .

ولسنا نحب أن نترك هذا الخبر دون أن نشير إلى أمر هام فى حياة الإمام مالك . وهو أنه لم يكن بعزلة عن آراء أئمة عصره وعلمائه مكتفياً بعلمه وعلم علماء المدينة وحدهم . ولكنه كان على صلة بفقه أئمة عصره فى العراق والشام ومصر وغيرها . ومن المعروف أن محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة جالس مالكاً ثلاث سنوات كاملة عرف مالك منه خلالها فقه أبى حنيفة . وكانت للإمام مالك مراسلات كثيرة مع إمام مصر الليث بن سعد على ماسوف نفصل فى فصل قادم من هذا الكتاب . فكان الإمام يفتى وهو عالم بآراء معاصريه وعلمهم وحججهم .

وكانت دروس الإمام ذات مستويين : مستوى العلم الرفيع والقضايا الفقهية . وكان ذلك خاصاً بتلامذته المواظبين على حلقته المنتظمين فى مجلسه . ومستوى العلم العام دون الغوص إلى أعماق القضايا الفقهية . وكان ذلك خاصاً

بالعامة الذين يجلسون إليه لتلقى الثقافة الدينية العامة دون أن يدخل فى تفاصيل فقهية أو مسائل تدق على إدراكهم وتستعصى على أفهامهم .

ومالك كإمام جليل وفقيه كبير استفاضت شهرته فطبقت آفاق البلاد الإسلامية مشرقاً ومغرباً من عراق وشام ويمن . ومصر ومغرب وأندلس . وكان العلماء وأصحاب المسائل من هـذه الديار جميعاً يفدون إلى مجلسه يستمعون ويستفتون . وأكثر مايفد هؤلاء على الإمام يكون فى موسم الحج . وكان مالك يستقبلهم أفواجاً أفواجاً . يبدأ بأهل الحجاز . ثم ببقية أبناء الأقطار الأخرى . وكان لـلإمام حاجب ينادى على الوفود فى الموسم . وينظم دخولهم إلى مجلسه العلمى . وكان بعض تلاميذه الذين طالت مصاحبتهم له يتصرفون فى تنظيـم المجلس الخاص بالحاضرين كما يتصرف رجال الشرطة فى محافل الزحام .

إن أحد معاصرى مالك وشهود مجلسه وهو الحسن بن الربيع يصف الوفود على باب مالك وطريقة دخولهم إليه فيقول : كنت على باب مالك فنادى مناديه : ليدخل أهل الحجاز ، فما دخل إلا هم ، ثم نادى فى أهل الشام . ثم فى أهل العراق فكنت آخر من دخل وفينا حماد بن أبى حنيفة .

لقد كان لمالك دولة إذن ولكنها دولة من نوع آخر ، إنها دولة العلم . وكان مالك سلطان هـذه الدولة ، حتى إن بعض رواة مناقبه قالوا إن له حاجباً كالملوك . وهو تشبيه ماخطر لمالك على بال ، فقد كان يرى أن دولة العلم أرفع قدراً من دولة السلاطين والحكام ، وتلك أخلاق الأئمة ، ومن ثم كان مالك جديراً بالإمامة حقيقاً بالرئاسة .

— ٤ —

دستور مالك فى الإفتاء :

هذا ماكان من شأن مجلس مالك وازدحام طلاب العلم حوله . وقصدهم اياه من كل حدب وصوب . فماذا إذن عن فتاواه وإجاباته عما يوجه إليه من مسائل ؟

لقد اتخذ مالك لنفسه شعاراً فى ذلك حتى لا يفتى إلا بما يعتقد اعتقاداً راسخاً بأنه الصواب كل الصواب ، أما هذا الشعار الذى رفعه مالك والتزم به وألزم به غيره فهو قوله : « من أحب أن يجيب على كل مسألة فليعرض نفسه على الجنة والنار ثم يجيب ، وقد أدركناهم إذا سئل أحدهم فكأن الموت أشرف عليه » . فهل هناك دستور ينتهى بالمرء ألا يخوض فى الفتيا بأبلغ من هذا الذى قاله مالك ؟ ولنتدبر تعبيره الفريد بقوله : « فكأن الموت أشرف عليه » . ولم يقل فكأنه أشرف على الموت، لقوة التعبير الأول وإفزاعه وتنبيهه إلى خطورة موقف الإفتاء .

كان مالك يطبق هذا الدستور على نفسه تطبيقاً دقيقاً ويقول : مامن شيء أشد علىّ من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام . لأن هذا هو القطع فى حكم الله . وكان يصرح – وهو إمام دار الهجرة – قائلاً : إنى لأفكر فى مسألة منذ بضع عشرة سنة ما اتفق لى فيها رأى حتى الآن .

إن مالكاً الإمام يفكر فى المسألة بضع عشرة سنة – وهو الصادق فى قوله وفعله وعلمه – فلا يتفق له حيالها رأى . ولا يصل فيها إلى حل . فهل يقرأ ذلك علماء زماننا الذين يطوّع بعضهم آيات كتاب الله وسنة رسوله مرات ومرات لكل مغامر من الحكام يصادر أموال الناس بالباطل . ويهدر إنسانية الإنسان . ويعبث بسنن الله فى خلقه ؟ ليتهم يقرأون قول مالك ويتبعون دستوره .

إن مالكا وهذا طريقه فى الفتوى ودستوره فى المسائل كان يزن كل كلمة تصدر عنه بميزان دقيق . ويقيس كل حكم يدلى به . وما أقل ما كان يصدر من فتاوى ، وما أكثر ما كان يجيب : لا أدرى ، وكان إذا انتهى إلى إصدار فتوى أردف قائلاً وكأن ذلك القول جزء من الفتوى : « إن نظن إلا ظناً، ومانحن بمستيقنين » .

يقول ابن القاسم المصرى تلميذ مالك وناشر مذهبه فى هذا الصدد «كان مالك لا يكاد يجيب ، وكان أصحابه يحتالون أن يجيء رجل بالمسألة التى يحبون أن يعلموها كأنها بلوى فيجيب فيها » .

لذلك كان مالك يستمهل السائلين أياماً إذا سألوا . ولا يجد كبير ضير فى أن يجدد الاستمهال إذا ماعاود السائل السؤال . ولقد خوطب مالك فى ذلك فبكى وقال : « إنى أخاف أن يكون لى من هـذه المسائل يوم وأى يوم » .

وإذا اعترض السائل على تأجيل الإجابة بسبب سهولة سؤاله كان مالك يجيب غاضباً : « ليس فى العلم شيء خفيف . أما سمعت قول الله تعالى : « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً » فالعلم كله ثقيل . وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة .

من هنا كان تحرز الإمام فى إجاباته وتأنيه فى إصدار فتاواه . ولم يكن يتحرج من عدم الإجابة عما لايرى نفسه قادراً على إجابته . فقد سئل مرة عن ثمان وأربعين مسألة لم يجب إلا عن اثنتين وثلاثين منها . وقال فى الاعتذار عن بقيتها : لا أدرى .

وقـد روى عبد الرحمن بن مهدى شيخ علماء البصرة على زمانه – وكان يحضر مجلس مالك – أن رجلاً سأل مالكاً عن مسألة . وذكر أنه قادم من مسيرة أربعة أشهر من المغرب لكى يسمع إجابته . فقال له الإمام : أخبر الذى أرسلك أن لا علم لى بها . فقال : ومن يعلمها ؟ قال : الذى علمه الله .

وكان الإمام أكثر تحرجاً حين يسأل الرأى فى قضايا فرضية . وكان يقول لسائله فى هـذا الصدد : سل عما يكون ودع مالا يكون . أو يقول لسائله : لو سألت عما ينتفع به لأجبتك .

وقـد سأله رجل من أهل المغرب عن مسألة كلفه بها أهل بلده فأجابه الإمام : « ما أدرى . ما ابتلينا بهذه المسألة فى بلدنا . وما سمعنا أحداً من أشياخنا تكلم فيها . ولكن تعود » – أى تعود إلىّ غدا – فلما كان من الغد جاء وقـد حمل ثقله على بغلة يقودها . فقال له مالك : سألتنى وما أدرى ماهى ! فقال الرجل : يا أبا عبد الله تركت خلفى من يقول ليس على وجه الأرض أعلم منك : فقال مالك : لا أحسن [١٠] .

---

١٠) ترتيب المدارك ١٥٩ .

كانت هذه طريقة مالك ، وكان هذا مذهبه فى الفتوى : الأمانة الكاملة فى الإجابة عما هو كائن . والامتناع الكامل عن الإجابة عما هو فرضى . أو عن مالم يكن له شبيه أو سابقة فى المدينة ، ومرد ذلك أن مالكاً كان ملتزماً بالسلف . مستمسكاً بالأثر ، لا يعمل الرأى إلا فى حالات قليلة لعلها كانت فى فترة شبابه .

أما وإن هذا هو مذهب مالك فى طريقة الفتوى ، فإنه كان يسمح لتلاميذه فى بعض الأحيان بكتابة مايسمعون ولا ينهاهم عن ذلك ، وكان أحياناً أخرى يستنكر الكتابة عنه ويقول فيما يشبه الضيق : « إننى بشر أخطئ وأرجع ، أكل ما أقوله يكتب ؟ ! ! » .

إن مالكا لم يكن يجد حرجاً فى أن يصدر فتوى ويرجع عنها ، بل إنه كان يجد ذلك ضرورة متى ما اطمأن إلى أن الرأى الذى أبداه لم يكن كامل الصواب ، حينئذ يعود إلى تصويب ما أفتى ، وذلك يبرر الأخبار التى أثرت عن استنكاره كتابة ما يصدر عنه من فتاوى فى بعض الأحيان .

— ٥ —

مالك يصبح شيخاً لأساتذته :

من السمات البارزة فى حياة مالك العلمية أنه واحد من أولئك العلماء القلائل الذين صاروا أساتذة لمن كانوا يجلسون إليهم بالأمس .

لقد كان مالك تلميذاً لكل من ابن شهاب الزهرى ويحيى بن سعيد الأنصارى ، جلس إليهما ونهل من فيض علمهما . وإن أخباره مع ابن شهاب من الكثرة والطرافة بمكان ، وقد مرّ علينا خبره مع ابن شهاب حين قال له : قم فأنت من أوعية العلم . هى شهادة مبكرة من فقيه جليل لتلميذ نجيب ، كانت بمثابة إرهاص مبكر لنبوغ التلميذ وفيض علمه وذيوع صيته واستفاضة شهرته .

ولم تمض سنون طويلة بعد قول ابن شهاب هذا لتلميذه حتى أصبح التلميذ

إماماً ذا حلقة فى روضة رسول الله ﷺ ، يختلف إليها طلاب العلم ومستمعو الحديث ، ويصبح ابن شهاب أحد المختلفين إلى حلقة تلميذه المنتفعين بوافر علمه[11] . وما يقال عن ابن شهاب الزهرى ينطبق على يحيى بن سعيد الأنصارى ولكن فى نطاق أقل ، ومهما كان الأمر فقد ذكر مالك بين من ذكروا من شيوخ يحيى ، ويحيى كما نعرف كان قاضى المدينة وأحد فقهائها الذين أخذ عنهم مالك ، وأحد الرواة الثقات ، فإن له نحو ثلاثمائة حديث .

ومن أئمة المسلمين الذين اختلفوا إلى حلقة مالك ، سفيان بن عيينة ، فقد كان سفيان صاحب حلقة حول الكعبة ، وكان إذا زار المدينة جعل لنفسه حلقة فى مسجد الرسول ، والأمر الطريف هنا أن سفياناً كان إذا جاء المدينة يجلس فى حلقة مالك ، فإذا خرج حلّق لنفسه حلقة[12] .

وكان ربيعة الرأى شيخاً لمالك كما هو معروف ، بل كان أول شيوخه فقد ألبسته أمه وهو طفل ملابس الفقهاء وعممته وقالت له : « اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه » على ما سبق ذكره . إن مالكاً يجلس للحديث والإفتاء فى حياة أستاذه ربيعة ، فكان لكل منهما – الشيخ وتلميذه – حلقته الخاصة به .

ولقد قيل إن مالكا اختلف مع أستاذه ربيعة . وكان ربيعة يفتى بالرأى ومالك يستمسك بالأثر ، فترك مجلس أستاذه وجعل لنفسه حلقة خاصة به ، وهناك من العلماء القدامى والمحدثين من يجرى مقارنة بين ترك مالك مجلس ربيعة واعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى على مابين الموقفين من فوارق بينة .

غير أن الخبر المتواتر أن مالكاً لم يجلس للفتوى حتى أذن له بذلك اثنان من مشايخه أحدهما ربيعة ، وقد أثبت مالك نفسه هذا الإذن فى نطاق خبر

---

(١١) ينفى ابن عبد البر أن يكون ابن شهاب قد سمع من مالك أو روى عنه ويقرر أن ابن شهاب روى عن عم مالك أبى سهيل نافع بن مالك (الانتقاء ص ١٣) .

(١٢) مناقب الرواوى ص ٩ .

يتلخص فى أن رجلاً جاء يسأله عن مسألة ، فسارع ابن القاسم تلميذ مالك فأفتاه ، فغضب منه مالك غضباً شديداً وقال له : جسرت على أن تفتى يا عبد الرحمن ! ! ! وأخذ يكررها عليه ، واستطرد مالك قائلاً : ما أفتيت حتى سألت : هل أنا للفتيا موضع ؟ يعنى هل أنا مؤهل للفتيا ؟ ولما سكن غضبه قيل له : من سألت ؟ قال الزهرى وربيعة(١٣) .

وهكذا نرى مالكاً يجلس للفتيا ويعقد لنفسه حلقة مقاربة لحلقة أستاذه ربيعة ، ونرى شيخه ابن شهاب الزهرى أحد الذين منحوه الإذن بالجلوس للفتوى يجلس مستمعاً إليه آخذاً عنه فيما لو صح الخبر ، ونرى أيضاً أستاذه يحيى بن سعيد يأخذ عنه ، ونرى الإمام سفيان بن عيينة يجلس إليه ويأخذ عنه ، بل نرى الإمام الجليل محمد بن إدريس الشافعى ثمرة من عطائه وغصناً من غرسه .

إن مالكا تلميذ لعدد من الأئمة وأستاذ لعدد من الأئمة ، وبعضهم كانوا له أساتذة وشيوخاً ، إن مالكاً جدير بالإمامة حقيق بالإجلال .

والإمام مالك – شأن كل إمام – رائد فى التأليف وفى جمع حديث رسول الله ، فقد قام بالمحاولة الأولى الحقيقية المتكاملة لجمع الحديث فى « الموطأ » هذا فضلاً عن أعماله العلمية الأخرى حسبما سوف تفصل فيما يستقبل من صفحات ، و « الموطأ » بالجهد الذى بذل فى إعداده ، والنسق الذى اتبع فى جمعه ، والعلم الذى استخدم لتحقيق إسناده لايستطيع القيام به إلا من كانت تتوفر فيه صفات تجعله جديراً بالصدارة حقيقاً بالإمامة .

– ٦ –

مهابة مالك :

ومالك مع علمه وفضله ومكانته وشهرته قد وهبه الله مهابة لم يعرف بها إلا القليل من معاصريه ، بل ربما كانت مهابة مالك أكثر أثراً فى النفوس وأعمق

---

(١٣) ترتيب المدارك ص ١٢٧ .

نفاذاً إلى القلوب . وقد ساعد على هذه المهابة صفات خلقية وشمائل خلقية . فكان من القسامة والوسامة ماقد ذكرنا . وكان من الشمائل بحيث لايسلك إلا القويم من النهج ، ولا يتفوه إلا بالعفيف من اللفظ . لم يتملق إنساناً ، ولم ينافق سلطاناً . ولم يتصاغر أو يصعر خده ، أو يقف على باب أو يسعى لمنصب . وكان مهيباً عند الخاصة والعامة ، يهابه الخلفاء كما يهابه العوام . كان إذا دخل على الخليفة تنحى الناس له وأوسعوا الطريق حتى يصل إلى حيث يجلس الخليفة فيفسح له الخليفة من مجلسه . وكان كل من المنصور والرشيد قد أصدروا أوامرهم إلى ولاتهم على المدينة ألا يبرموا أمراً دون مشورته .

إن الهيبة التي جاءت مالكاً كانت هيبة العلم ووقاره . فكم من أنيق جميل المحيا لايزن قدره عند الله والناس جناح بعوضة . فلولا العلم والتقى اللذان خلعا على مالك رونقهما مادخلت هيبته فى قلوب الناس فضلاً عن قلوب الحكام . إن الإمام الشافعى يقص قصة مقدمه صغيراً إلى المدينة مع خطاب توصية إلى واليها من والى مكة لكى يصله بمالك فيقول : « دخلت إلى والى مكة وأخذت كتابه إلى والى المدينة وإلى مالك بن أنس . فقدمت المدينة فأبلغت الكتاب إلى الوالى . فلما قرأه قال : يافتى . إن مشيى من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً أهون علىّ من المشى إلى باب مالك بن أنس . فلست أرى الذل حتى أقف ببابه . فقلت : أصلح الله الأمير . إن رأى الأمير يوجه إليه حتى يحضر . فقال : هيهات . ليت أنى إذا ركبت أنا ومن معى وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا . فواعدته العصر وركبنا جميعاً ، فوالله لكان كما قال ، أصابنا من تراب العقيق . فتقدم رجل فقرع الباب . فخرجت إلينا جارية سوداء . فقال لها الأمير : قولى لمولاك إنى بالباب . فدخلت فأبطأت . ثم خرجت فقالت : إن مولاى يقرئك السلام ويقول : إن كانت لديك مسألة فارفعها فى رقعة يخرج إليك الجواب ، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرفْ . فقال لها : قولى له إن معى كتاب والى مكة إليه فى حاجة مهمة ، فدخلت وخرجت وفى يدها كرسى فوضعته . ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار ، وهو شيخ طويل ، فجلس وهو متطلس . فرفع إليه الوالى الكتاب ، فبلغ إلى هذا — أى

إلى هذا الموطن من خطاب التوصية - « إن هذا رجل من أمره وحاله فتحدثه ، وتفعل وتصنع » فرمى بالكتاب من يده ثم قال : سبحان الله ، أو صار علم رسول الله ﷺ يؤخذ بالوسائل ؟ فرأيت الوالى قد تهيبه أن يكلمه ، فتقدمت إليه وقلت : أصلحك الله إنى رجل مطلبى ، ومن حالى وقصتى ، فلما سمع كلامى نظر إلىّ ساعة ، وكان لمالك فراسة ، فقال : ما اسمك ؟ فقلت : محمد فقال لى : يامحمد ، اتق الله واجتنب المعاصى فإنه سيكون لك شأن من الشأن » .

وكان للإمام أقوال اتخذ منها دستوراً لحياته . وجماعها يخلق مهابة لمن يأخذ بها . وجلالاً لمن يعمل بها . فمن هذه الأقوال :

* العلم نور لا يأنس إلا بقلب تقى خاشع .
* من علم أن قوله من عمله قلّ كلامه .
* ينبغى لأهل العلم أن يخلوا أنفسهم من المزاح وخصوصاً إذا ذكر العلم .
* حق على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية .
* من أدب العالم ألا يضحك إلا تبسماً .

كان مالك مهيباً فى طلعته . مهيباً فى حضرته . مهيباً فى مجلسه ، وقد رآه سفيان الثورى وهو فى مجلسه . وكان سفيان إماماً جليلاً صاحب مذهب ومدرسة فقهية . فأخذته هيبة مالك ومجلسه فقال فى ذلك :

يأْبَى الجوابَ فلا يُرَاجَعُ هيبةً
والسائِلونَ نَوَاكِسُ الأَذْقَانِ

أَدَبُ الوقارِ وعزُّ سلطانِ التُّقَى
فهو الْمَهِيبُ وليسَ ذَا سُلْطَانِ(١٤)

وممن عرفوا بالمهابة بين الملوك عبد الرحمن بن معاوية الداخل الذى عرف بصقر قريش . إن الذين رأوه وأخذتهم مهابته ثم رأوا بعد ذلك مالكاً أحسوا بضآلة مهابته إذا ما قورنت بمهابة الإمام .

---

(١٤) الديباج المذهب ص ٢٤ .

إن سعيد بن هند الأندلسى يدخل على الإمام مالك فتأخذه هيبته فيقول ماهبت أحدا هيبتى عبد الرحمن بن معاوية . فدخلت على مالك فهبته هيبة شديدة صغرت معها هيبة ابن معاوية .

إن هيبة مالك وشمائله فضلا عن علمه لما يجعل للإمام مكانة خاصة بين أعلام المسلمين من علماء وخلفاء . فهذا أحد تلامذته الأندلسيين يحيى بن يحيى جلس يتلقى العلم على مالك ماشاء له حظه أن يتلقى . فلما فرغ من سماعه أقام عند الإمام سنة . فقيل له فى ذلك فقال : إنما أقمت مستفيدا لشمائله . فإنها شمائل الصحابة والتابعين .

إن حديث شمائل مالك وعلمه وفضله حديث طويل منير . غير أننا نختم هذا الفصل عن مالك الإمام بقول الشافعى عنه « مالك معلمى وأستاذى . ومنه تعلمنا العلم . وما أحد أمنّ علىّ من مالك . وجعلت مالكا حجة فيما بينى وبين الله تعالى » .

فأنعم بالشافعى تلميذا وأنعم بمالك إماما .

هذا هو مالك بن أنس ذو الهيبة التى جعلت الخلفاء والحكام يقفون على بابه فلا يؤذن لهم بالدخول عليه إلا بمشقة . والتى جعلت كبار خلفاء بنى العباس يجلسون إليه مجلس التلميذ من الأستاذ . ويتحملون من أقواله لهم وأفعاله معهم مالم يسبق أن تحمله سلطان من أحد رعاياه .

إنه سلطان العلم ومهابة العلماء . فللعلم سلطان . وللعلماء مهابة فى نفوس الكبار والصغار ماحفظ العلماء للعلم مقامه . وماحفظوا لأنفسهم أقدارها فلم يتهافتوا أو ينافقوا أو يتصاغروا .

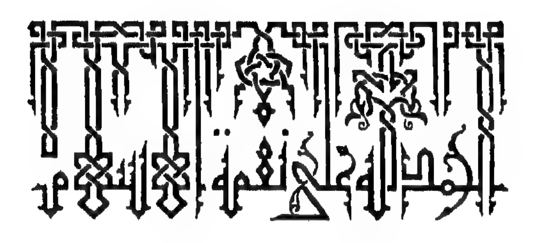
لقد حافظ مالك على العلم فمنحه العلم هيبة . وحين اعتدى عليه والى بنى العباس على المدينة اهتز عرش بنى العباس فى بغداد تحت أقدام أبى جعفر المنصور. فجاء إليه معتذرا فى موسم الحج .

الفصل السادس

فقه مالك

* مالك بين الرأى والرواية .
* مصادر فقه مالك .
* بين مالك والليث بن سعد .
* مالك يؤلف الموطأ .
* مرونة المذهب المالكى .





الفصل السادس

فقه مالك

— ١ —

مالك بين الرأى والرواية :

أخذ الإمام مالك كثيراً من فقه ربيعة الرأى ، وهو فقه دراية ورواية معا ، وإن كانت الدراية تغلب عليه والرأى يمثل ظاهرة واضحة فى علمه ، ومن ثم اشتهر بربيعة الرأى أكثر من اشتهاره باسمه الحقيقى وهو ربيعة بن أبى عبد الرحمن ، ومهما كانت وجوه الخلاف بين مالك التلميذ وربيعة الأستاذ فإن جماع مافى فقه مالك من رأى – وفيه من ذلك غير قليل – كان من غرس ربيعة وأثرا من آثاره ، بل نستطيع أن نلمس أثر يحيى بن سعيد الأنصارى أيضاً فى علم مالك ، وكان بدوره حسبما مر القول من أصحاب الرأى . وقد كان شيخاً من شيوخ مالك ، ويتمتع بمكانة ممتازة بين أهل المدينة لعلمه ولكونه قاضى المدينة ، فالإمام مالك فقيه رأى ودراية كما أنه فقيه سنة ورواية ، وظاهرة الرأى عنده حصيلة منطقية لملازمته لربيعة زمناً طويلاً ، ولسماعه من يحيى بن سعيد زمناً غير قليل ، والظاهرة المنطقية تقول : مادام هناك فقه فلابد أن يكون رأى .

ولزم مالك ابن هرمز وانقطع إليه لم يخلط به شيخاً آخر حسبما مر من حديث ، ثم لزم نافعاً زمناً طويلاً حتى فى ذهابه إلى المسجد والعودة منه ، وبخاصة بعد أن كف بصر نافع واحتاج إلى دليل طريق يأخذ بيده ، ولما عاد ابن شهاب الزهرى من الشام لزمه مالك أيضاً وكان موضع إعجابه حتى إنه قال له يوماً : قم فأنت من أوعية العلم .

إن هؤلاء الشيوخ الثلاثة الذين ارتبطت حياة مالك العلمية بهم ارتباطها

بربيعة كانوا فقهاء رواية ، وكان علم مالك المتوارث عنهم كثيراً ووفيراً ، وكان تأثره بفقههم تأثراً بالغاً ، ومن ثم كان مالك فقيه رواية .

إن مالكا إذن درس فقه الرواية وفقه الرأى ، وعمل بهما معا ، وأفتى بالأثر كما أفتى بالرأى ، وإنه ليقرر ذلك صراحة حين كان يريد توثيق رأى أو تأكيد فتوى من فتاواه فيقول : على هـذا أهل العلم ببلدنا ، وأهل العلم الذين يقصدهم حسبما يذكر ابن عبد البر هما ربيعة الرأى وابن هرمز ، ولقد عرفنا أن الأول فقيه رأى ، وأن الثانى فقيه أثر .

إن تخصيص مالك وتركيزه على فقيهين اثنين من بين شيوخه الكثيرين العظام ، وتلك صفة كل منهما علماً وفقهاً ، يعنى أنه كان متأثراً بهما بقدر كبير على نسب متفاوتة فى مبلغ تأثره بكل منهما .

وإن واحداً من ألمع فقهاء الزمان هو عبد الرحمن بن مهدى الذى يرجع إليه الفضل فى ظهور كتاب الرسالة للشافعى – فهو الذى طلب إليه أن يكتبها – يشهد لمالك بالإمامة فى الفقه والحديث جميعاً ، إذ أنه القائل : أئمة الحديث الذين يقتدى بهم أربعة : سفيان الثورى بالكوفة ، ومالك بالحجاز ، والأوزاعى بالشام ، وحماد بن زيد بالبصرة ، ثم استطرد مبيناً فضل كل منهم على الآخر فى الحقل الذى يجيده فقال : الثورى إمام فى الحديث وليس إماماً فى السنة ، والأوزاعى إمام فى السنة وليس إماماً فى الحديث ، وأما مالك فإمام فيهما .

ولمناسبة ذكر مالك لكل من ربيعة وابن هرمز تشاء المقادير أن يرحل كل من الفقيهين الجليلين – فقيهى الرأى – ربيعة الرأى ويحيى بن سعيد إلى العراق ، تلك الرحلة التى لم يعد منها ربيعة حيث وافته المنية بالهاشمية ، فتخلو الساحة لمالك فى المدينة ويقعد للدرس والفتيا . والمأثور أن مالكاً حلَّ محل الأستاذين فى القول بالرأى واشتهر بذلك شهرة كبيرة ، بيد أن الأمر يبدو على عكس ذلك حين انقلبت شهرة مالك فى الأعصر التالية ، فصارت تربطه بفقه الأثر وتشده إليه دون فقه الرأى .

لقد عرفت مدرسة المدينة بالأثر والرواية وهـذا أمر لاشك فيه ، ولكن الأمر

الذى ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار أن الرأى فى المدينة قديم . ولم يكن ربيعة ويحيى بن سعيد إلا امتداداً لمدرسة تركت جذوراً لم تزل تمنح الغذاء لشجرة باقية وإن كانت ذات فروع قليلة . لقد قام الإفتاء فى المدينة على سنة رسول الله ﷺ . وكانت بيّنة المعالم واضحة القسمات . ولكن الفقيه فى كل زمان ومكان يجد نفسه – حيث يفتقد النص الصريح – مضطراً لإعمال فكره مهتدياً بأقرب قرينة للإجابة عما بين يديه من مسائل . فلا يجد مفراً من القول بالرأى .

وقد عرف بين الصحابة من يفتى بالرأى مثل عمرو بن زيد . وعبد الله بن عباس . ووجد الرأى عند أكثر الفقهاء السبعة . فقد كان خمسة منهم من ذوى الرأى . وممن عرف بالرأى من تلامذة الفقهاء السبعة بالمدينة . ربيعة الرأى . ويحيى بن سعيد . وكثير بن فرقد .

والإمام مالك سليل مدرسة النبوة . وابن مدينة رسول الله ﷺ حيث كان الفقهاء فيها يأخذون بالرأى على هذا النحو الذى ذكرنا وكان كما قال الدهلوى[1] : « من أثبتهم فى حديث المدنيين عن رسول الله ﷺ ، وأوثقهم إسناداً وأعلمهم بقضايا عمر ، وأقاويل عبد الله بن عمر ، وعائشة وأصحابهم من الفقهاء السبعة ، وبه وبأمثاله قام علم الرواية والفتوى ، فلما وسد إليه الأمر حدث وأفتى وأفاد وأجاد » .

والذى يفهم من ذلك كله أن مالكا كان فقيه رأى فضلاً عن كونه محدثا ، وقد عده ابن قتيبة فقيه رأى[2] حسبما أسلفنا فى فصل سابق .

بل إن شهرة مالك كفقيه رأى رجحت كفة شهرته فى فترة ما من فترات حياته كفقيه أثر ، ذلك أن ابن لهيعة قاضى مصر وفقيهها قال فى خبر ذكرته المراجع التى ترجمت لمالك : قدم علينا أبو الأسود محمد بن عبد الرحيم بن نوفل يتيم عروة بن الزبير فقيل له : من للرأى بعد ربيعة بالمدينة ، فإن يحيى بن سعيد فى العراق ؟ فقال : الغلام الأصبحى[3].

(١) حجة الله البالغة ١/١٤٥ .

(٢) المعارف ص ٢١٨ .

(٣) الانتقاء ص ٢٦ والمناقب للزواوى ص ١٢ .

وإذن فقد كان مالك يفتى بالرأى لاجدال فى ذلك . وهذا الخبر إنما هو رواية علماء مالكية تابعين لمذهبه متحمسين له . فمن الوضوح بمكان أن مالكا كان فقيه رأى كما كان فقيه أثر . غير أنه قد مال فى أواخر سنيه إلى الأثر أكثر من ميله إلى الرأى ، هذا إذا لم يكن قد ترك الفتيا بالرأى نهائيا والتزم فقه الأثر لاغير .

تلك وقفة لم يكن لنا بد من أن نقفها تعريفاً بفضل مالك والإشارة إلى سعة أفقه فى تناول القضايا .

والحق أن مالكا كان يلتقى بأئمة عصره ويناقشهم أراءهم ، وقد فعل ذلك مع أبى حنيفة والأوزاعي وسفيان الثورى والليث بن سعد حسبما أسلفنا ، وكان كلٌّ منهم إماماً فى بلده له مذهب وأتباع ، وقد مر بنا كيف جلس مع حماد بن أبى حنيفة وسأله عن بعض آراء أبيه وحججه فيها ، كما أن الصاحب الثانى لأبى حنيفة وهو محمد بن الحسن قد جلس إلى مالك ثلاث سنين يسمع منه فى أوائل خلافة المهدى . فإذا ماكان علينا أن ندلف إلى الحديث عن فقه مالك فى نطاقه المحدد . فقد بات علينا أن نقول إنه واسع المدى بعيد الساحل عميق الغور فى العلم والحديث . وأنه مر بمراحل الرأى فيما مر به فى حياته العلمية الطويلة العريضة ، ولكنه اعتمد فى آخر حياته فقه الأثر والرواية دون فقه الرأى والدراية .

— ٢ —

مصادر فقه مالك :

كان مالك يعتمد فى فقهه على خمسة مصادر أساسية ، وأربعة فرعية وذلك على النحو التالى :

المصدر الأول : وهو كتاب الله ، وهو المصدر الأصلى لكل ماهو مرتبط بالإسلام من عقيدة وشريعة وفقه وأحكام ، والإمام مالك من خيرة أئمة المسلمين الذين يفهمون كتاب الله ويحسنون استنباط الأحكام منه ، وليس كل مسلم مؤهلاً لأن يستنبط الأحكام من الكتاب العزيز وإنما هناك شروط ينبغى توفرها فيه .

وغنى عن البيان أن الإمام أو الفقيه لابد له من أن يستعين بالسنة الشريفة فى ذلك .

والمصدر الثانى للفقه والتشريع عند الإمام هو السنة النبوية الشريفة ، ذلك أن السنة مبيّنة لأحكام القرآن ، شارحة لنصوصه ، مفسرة لما جاء به من قضايا تحتاج إلى شرح وتبيان ، وكان الإمام كثيراً ما يتمثل فى هذا السبيل الآيات الكريمة التى توجه إلى الانتفاع بالسنة النبوية كقوله تعالى :

« وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » أو قوله تعالى « فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لاَ يجِدُوا فى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » أو قوله تعالى : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » .

وكان مالك فى مقام تعلقه بالسنة الشريفة يردد دائماً قول الشاعر :

وَخَيْرُ أُمُورِ الدِّينِ مَا كَانَ سُنَّةً
وشَرُّ الأمورِ المُحْدَثَاتُ الْبَدَائِعُ

والمصدر الثالث من مصادر فقه مالك هو قول الصحابة ، فقد كانوا قريبين إلى الرسول ﷺ مرتبطين به فى حياتهم وتصرفاتهم ، وقد شاهدوا أفعاله وسمعوا أقواله وتتلمذوا له وتعلموا على يديه ، يستوى فى ذلك عند مالك المهاجرون من الصحابة والأنصار .

وكان المصدر الرابع لفقه مالك الإجماع ، وهو مايجتمع عليه أهل الفقه والعلم على حد سواء .

وكان مصدره الخامس هو ما يعمله أهل المدينة ، لأنهم أبناء أولئك الذين صاحبوا رسول الله ، ولأن الأحكام العامة تعيش فى المكان لعدة أجيال .

وكان الإمام مالك بالإضافة إلى ذلك كله ، إذا أعوزه النص أو الدليل

القريب . يأخذ بالقياس والاستحسان والعرف وسد الذرائع والمصالح المرسلة ، ولكنه فى هـذه الأخيرة – أى المصالح المرسلة – يشترط لـلأخذ بها عدة شروط أهمها :

١ – ألا تنافى المصلحةُ أصلاً من أصول الإسلام ولا دليلاً قطعياً من أدلته .

٢ – أن تكون المصلحة مقبولة عند ذوى العقول .

٣ – أن يرتفع بها الحرجْ لقول الله تعالى

« وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » .

فإذا أردنا أن نضرب مثلاً للمصالح المرسلة نظرنا إلى بيت مال المسلمين فإذا وجـد خاوياً أو أن مابه لا يكفى لاحتياجات الدولة فى صميـم مصالحها مثل رواتب الجنود ونفقات الدفاع الملحة . فإن للخليفة أو السلطان أن يأخذ من الأغنياء ما يسد الحاجة ويفى بالنفقات التى لابد من الوفاء بها حتى يعمر بيت مال المسلمين (٤) .

والذى نراه حتى تكون المسألة متمشية مع روح الإسلام ونصه أن يقوم الحاكم أو ولىّ الأمر برد هـذه الأموال إلى أصحابها متى توفرت فى بيت المال . اللهم إلا إذا تنازل أصحاب الأموال إلى بيت مال المسلمين .

وسوف نعرض نماذج لفقه الإمام مالك ونلحقها في آخر هذا البحث، كما سوف نقف على رأى الإمام في كثير من القضايا الفقهية من خلال رسالته إلى الإمام الليث بن سعد ورد الليث عليه.

---

(٤) انظر الأئمة الأربعة للدكتور أحمد الشرباصى ص ١٠٢

بين مالك والليث بن سعد :

ولكي تنكشف لنا بعض المساجلات التي كانت تجرى بين الإمام مالك وبعض معاصريه من الأئمة والفقهاء فى قضايا فقهية خالصة اختلفت فيها الآراء وتباينت فيها الأحكام ، فإن الرسائل المتبادلة بينه وبين الليث بن سعد إمام مصر – وكانا صديقين – يمكن أن تمدنا بنماذج نفيسة من مناهج الأئمة فى طريقة تبادل وجهات النظر بعضهم مع بعض .

غير أن جميع الرسائل التى تكاتب بها الإمامان الجليلان ليست بين أيدينا ، فقد ضاع أكثرها وبقيت هاتان الرسالتان النفيستان اللتان نورد نصها فيما يلى :

رسالة مالك :

« من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد :

سلام عليكم ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد ، فعصمنا الله وإياك بطاعته فى السر والعلانية ، وعافانا وإياكم من كل مكروه .

واعلم – رحمك الله – أنه بلغنى أنك تفتى الناس بأشياء مختلفة مخالفة لما عليه الناس عندنا ، وببلدنا الذى نحن فيه ، وأنت – فى أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك ، وحاجة من قبلك إليك ، واعتمادهم على ما جاءهم منك – حقيق بأن تخاف على نفسك ، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه ، فإن الله تعالى يقول فى كتابه :

« والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ والذينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ » .

وقال تعالى : « فَبَشِّرْ عِبَادِ الذينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الذينَ هَدَاهُمُ اللهُ وأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ » .

فإنما الناس تبع لأهل المدينة ، إليها كانت الهجرة ، وبها تَنَزَّلَ القرآن . وأحل الحلال وحرم الحرام ، إذ رسول الله ﷺ بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل ، ويأمرهم فيطيعونه ، ويسن لهم فيتبعونه ، حتى توفاه الله ، واختار له ما عنده . صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته » .

والرسالة كما نرى تمثل اعتراضاً مهذباً وجهه الإمام مالك إلى صديقه إمام مصر الليث بن سعد لأنه بلغه أن الليث يفتى الناس بما يخالف فقه أهل المدينة وبالتالى فقه الإمام مالك نفسه .

رسالة الليث :

يرد الإمام الليث على الإمام مالك برسالة طويلة تعتبر قطعة من الأدب الرفيع فضلاً عن كونها وثيقة أخلاقية فقهية نفيسة . مدعومة بالأسانيد الفقهية الصحيحة يقول فيها :

« سلام عليكم . فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد عافانا الله وإياك . وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا والآخرة .

قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى فأدام الله ذلك لكم . وأتمه بالعون على شكره . والزيادة إليك . وإقامتك إياها وختمك عليها بخاتمك . وقد أتتنا . فجزاك الله عما قدمت منها خيراً ، فإنها كتبٌ انتهت إلينا عنك . فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها .

وذكرت أنه قد أنشطك ماكتبتُ إليك فيه من تقويم ما آتانى عنك إلى ابتدائى بالنصيحة . ورجوت أن يكون لها عندى موضع . وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلاً . وإلا لأنى لم أذاكرك مثل هذا .

وإنه بلغك أنى أفتى بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم . وإنى يحق علىّ الخوف على نفسى لاعتماد من قبلى على ما أفتيتهم به . وأن الناس تبع لأهل المدينة التى بها كانت الهجرة . وبها نزل القرآن .

وقد أصبْتَ بالذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع منّى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحدًا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ بفتياهم فيما اتفقوا عليه منى ، والحمد لله رب العالمين لا شريك له .

وأما ما ذكرتَ من مُقام رسول الله ﷺ بالمدينة ، ونزول القرآن بها عليه بين ظهرانى أصحابه ، وما علّمهم الله منه ، وأن الناس صاروا به تبعاً لهم فيه ، فكما ذكرت .

وأما ما ذكرت من قوله تعالى :

« والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ والذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بإحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عنهمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، وأعَدَّ لَهُمْ جنَّاتٍ تجرِى مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيها أبَدًا ، ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ »

فإن كثيراً من أولئك السابقين خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، فجندوا الأجناد ، واجتمع إليهم الناس ، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة .

وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم ، بل كانوا يكتبون فى الأمر اليسير لإقامة الدين ، والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه فلم يتركوا أمرا فسره القرآن ، أو عمل به النبى ﷺ ، أو ائتمروا فيه بعده إلا علّموهموه .

فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله ﷺ بمصر والشام والعراق على عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، ولم يزالوا عليه حتى قبضوا ، لم يأمروهم بغيره ، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يُحْدِثوا اليوم أمرًا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم .

مع أن اصحاب رسول الله ﷺ قد اختلفوا بعد فى الفتيا فى أشياء كثيرة . ولولا أنى قد عرفت أن قد علمتها لكتبت بها إليك . ثم اختلف التابعون فى أشياء بعد أصحاب رسول الله ﷺ – سعيد بن المسيب ونظراؤه – أشد الاختلاف . ثم اختلف الذين كانوا من بعدهم ، فحضرتهم بالمدينة وغيرها ، ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن أبى عبد الرحمن .

وكان من خلاف ربيعة لبعض من قد مضى ما قد عرفت وحضرت ، وسمعت قولك فيه . وقول ذوى الرأى من أهل المدينة : يحيى بن سعيد . وعبيد الله بن عمر . وكثيربن فرقد ، وغير كثيرٍ ممن هو أسنّ منه . حتى اضطرك ماكرهت من ذلك إلى فراق مجلسه .

وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك . فكنتما من الموافقين فيما أنكرت . تكرهان ما أكرهه ، ومع ذلك – بحمد الله – عند ربيعة خير كثير . وعقل أصيل ، ولسان بليغ ، وفضل مستبين . وطريقة حسنة فى الإسلام . ومودة صادقة لإخوانه عامة ولنا خاصة . رحمه الله وغفر له . وجزاه بأحسن من عمله .

وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه . وإذا كاتبه بعضنا فربما كتب إليه فى الشيء الواحد – على فضل رأيه وعلمه – بثلاثة أنواع . ينقض بعضها بعضا . ولا يشعر بالذى مضى من رأيه فى ذلك .

فهذا الذى يدعونى إلى ترك ما أنكرت تركى إياه .

وقد عرفت أيضاً سبب إنكارى أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر . ومطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله . ولم يجمع منهم إمام قط فى ليلة مطر . وفيهم أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد . ويزيد بن أبى سفيان . وعمرو بن العاص . ومعاذ بن جبل . وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال :

أَعْلَمُكُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنِ جَبَل » .

ويقال :

« يَأتِي مُعَاذُ يَوْمَ القِيَامَةِ بَيْنَ يَدَىِ الْعُلَمَاءِ بِرَتْوَةٍ[٥] »

وشرحبيل بن حسنة ، وأبو الدرداء ، وبلال بن رباح .

وكان أبو ذر بمصر والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ، وبحمص سبعون من أهل بدر ، وبأجناد المسلمين كلها ، وبالعراق ابن مسعود وحذيفة بن اليمان ، وعمران بن الحصين ، ونزلها أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى الجنة ، وكان معه أصحاب رسول الله ﷺ ، فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قط .

ومن ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق[٦] . وقد عرفت أنه لم يزل يقضى بالمدينة به ، ولم يقض به أصحاب رسول الله ﷺ بالشام ولا بحمص ولا بمصر ولا بالعراق ، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلى .

ثم لما ولى عمر بن عبد العزيز – وكان كما قد علمت فى إحياء السنن والجد فى إقامة الدين ، والإصابة فى الرأى والعلم بما مضى من أمر الناس – فكتب إليه زريق بن الحكم : إنك كنت تقضى بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق . فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : إنا كنا نقضى بذلك فى المدينة ، فوجدنا أهل الشام على غير ذلك ، فلا تقضى إلا بشهادة رجلين عدلين ، أو رجل وامرأتين . ولم يجمع بين المغرب والعشاء قط ليلة المطر ، والمطر يسكب عليه فى منزله الذى كان فيه بخناصرة[٧] ساكناً .

ومن ذلك أن أهل المدينة يقضون فى صداقات النساء أنها متى شاءت أن تتكلم فى مؤخر صداقها تكلمت فدفع إليها[٨] . وقد وافق أهل العراق أهل

(٥) الرتوة : الخطوة ، أى يتقدم عليهم بخطوة لفضله .

(٦) هذه هى المسألة الثانية .

(٧) خناصرة : بلد بالشام من عمل حلب ، كان يسكنها خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز

(٨) هذه هى المسألة الثالثة .

المدينة على ذلك ، وأهل الشام وأهل مصر ، ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولا من بعدهم لامرأة بصداقها المؤخر، إلا أن يفرق بينهما الموت أو طلاق فتقوم على حقها.

ومن ذلك قولهم فى الإيلاء إنه لا يكون عليه طلاق حتى يوقف[٩] ، وإن مرت الأربعة الأشهر ، وقد حدثنى نافع عن عبد الله بن عمر – وهو الذى كان يروى عنه ذلك التوقيف بعد الأشهر – أنه كان يقول فى الإيلاء الذى ذكر الله فى كتابه :

« لاَيَحِلُّ لِلْمَوْلَى إذَا بَلَغَ ٱلأَجَل إلاَّ أَنْ يَفِيءَ كَمَا أَمَرَ اللهُ أَوْ يَعْزِمَ الطَّلاَقَ » .

وأنتم تقولون : إن لبث بعد الأربعة الأشهر التى سمى الله فى كتابه ، ولم يوقف ، لم يكن عليه طلاق . وقد بلغنا أن عثمان بن عفان ، وزيد بن ثابت ، وقبيصة بن دويب ، وأبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، قالوا فى الإيلاء : إذا مَضَتْ الأربعة الأشْهُرْ فهى تَطْلِيقَةٌ بائِنَةٌ ، وقال سعيد بن المسيب ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وابن شهاب ، إذا مَضَتْ الأربعة الأشْهُرْ فَهِيَ تطليقةٌ ، وله الرجعةُ فى العِدَّة .

ومن ذلك أن زيد بن ثابت كان يقول : إذا مَلَّكَ الرجلُ امرأته فاختارتْ زَوْجَهَا فهى تطليقةٌ ، وإنْ طَلَّقَتْ نفسها ثلاثاً فهى تطليقةٌ[١٠] ، وقضى بذلك عبد الملك بن مروان ، وكان ربيعة بن أبى عبد الرحمن يقوله ، وقد كاد الناس يجتمعون على أنها إن اختارت زوجها لم يكن له فيه طلاق ، وإن اختارت نفسها واحدة أو اثنتين كانت له عليها الرجعة ، وإن طلقت نفسها ثلاثا بانت منه ، ولم تحلَّ له حتى تنكح زوجاً غيره ، فيدخلَ بها ثم يموت أويطلقها ، إلا أن يرد

---

(٩) هذه هي المسألة الرابعة، والمواد من قوله «يوقف» أن الزوج هنا إما أن يفيء إلى زوجته، وإما أن يطلق
(١٠) هذه هي المسألة الخامسة

عليها فى مجلسه فيقول : إنما ملكتك واحدة ، فيستخلف ، ويخلى بينه وبين امرأته .

ومن ذلك أن عبد الله بن مسعود كان يقول : أيما رجل تزوج أَمَةً ثم اشتراها زوجها فاشتراؤه إياها ثلاث تطليقات[11] ، وكان ربيعة يقول ذلك ، وإن تزوجت المرأة الحرة عبداً فاشترته فمثل ذلك .

وقد بلغنا عنكم شىء من الفتيا مستكره، وقد كنتُ كتبتُ إليك فى بعضها ، فلم تجبنى فى كتابى ، فتخوفتُ أن تكون قد استثقلتَ ذلك ، فتركتُ الكتابة إليك فى شىء مما أنكرت وفيما أوردت فيه على رأيك .

وذلك أنه بلغنى أنك أمرت زفر بن عاصم الهلالى حين أراد أن يستسقى أن يقدم الصلاة قبل الخطبة ، فأعظمت ذلك ، لأن الخطبة والاستسقاء كهيئة يوم الجمعة ، إلا أن الإمام إذا دنا من فراغه من الخطبة فدعا حول رداءه ، ثم نزل فصلى[12] .

وقد استسقى عمر بن عبد العزيز ، وأبو بكر بن محمد بن حزم وغيرهما فكلهم يقدم الخطبة والدعاء قبل الصلاة ، فاستهتر الناس كلهم فعل زفر بن عاصم واستنكروه .

ومن ذلك أنه بلغنى أنك تقول فى الخليطين[13] فى المال أنه لا تجب عليهما الصدقة ، حتى يكون لكل واحد منهم ما تجب فيه الصدقة[14] . وفى كتاب عمر بن الخطاب أنه تجب عليهما الصدقة ويترادّان بالتسوية ، وقد كان ذلك يُعمل به فى زمن عمر بن عبد العزيز قبلكم وغيره ، والذى حدثنا به يحيى بن سعيد ، ولم يكن بدون أفاضل العلماء فى زمانه ، فرحمه الله وغفر له وجعل الجنة مصيره .

---

(١١) هده هى المسألة السادسة

(١٢) هذه هى المسألة السابعة .

(١٣) المراد بالخليطين هنا الشريكان .

(١٤) هده هى المسألة الثامنة .

ومن ذلك أنه بلغنى أنك تقول[١٥] : إذا أفلس الرجل وقد باعه رجل سلعة ، فتقاضى طائفة من ثمنها ، أوأنفق المشترى طائفة منها ، أنه يأخذ ما وجد من متاعه ، وكان الناس على أن البائع إذا تقاضى من ثمنها شيئا ، أوأنفق المشترى منها شيئاً ، فليست بعينها .

ومن ذلك أنك تذكر أن النبى ﷺ لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد[١٦] ، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ، ومنعه الفرس الثالث ، والأمة كلهم على هذا الحديث : أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق وأهل إفريقية ، لا يختلف فيه اثنان ، فلم يكن ينبغى لك – وإن كنت سمعته من رجل مرضى – أن تخالف الأمة أجمعين .

وقد تركت أشياء كثيرة أشباه هذا ، وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك ، لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إلا إذا ذهب مثلك ، مع استئناس بمكانك وإن نأت الديار .

فهذه منزلتك عندى ، ورأيى فيك ، فاستيقنه ولا تترك الكتابة إلىّ بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك ، وحاجة إن كانت لك ، أو لأحد يوصل بك فإنى أسر بذلك .

كتبت إليك ونحن صالحون معافون والحمد لله ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولينا ، وتمام ما أنعم به علينا ، والسلام عليك ورحمة الله » .

تشتمل رسالة الإمام الليث على عشر مسائل أثارها ووضعها تحت نظر الإمام مالك مشمولة برأيه فيها وهى كما يلى :

المسألة الأولى وهى الجمع بين صلاتين ، والجمع بين صلاتين هو أن يصلى المرء صلاتين يتعاقب وقتاهما فى وقت صلاة واحد واعتبار ذلك أداء لا قضاء ، والجمع نوعان : جمع تقديم وجمع تأخير ، فجمع التقديم هو أن يصلى المرء

---

(١٥) هذه هى المسألة التاسعة

(١٦) هذه هى المسألة العاشرة

الصلاتين فى وقت أولاهما ، وجمع التأخير هو أداء الصلاتين فى وقت أخراهما ، وقد صلى رسول الله ﷺ الظهر والعصر يوم عرفة جمع تقديم ، وجمع بين المغرب والعشاء فى مزدلفة جمع تأخير وبذلك فالجمع فى يوم عرفة على هذا السّنة سنة أجمع عليها المسلمون .

أما الجمع فى غير هذين المكانين وهذين الزمنين أى عرفة والمزدلفة ففيه خلاف كثير بين الفقهاء ، وإن كان الجمهور أجازه . ومنعه أبو حنيفة .

أما مالك فقد أخذ بقول ابن عباس أن رسول الله ﷺ جمع بين الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء فى غير خوف ولا سفر ، وقد أخذ مالك عنه بهذا الحديث وبالعمل معا ، فوجد أن العمل كان على الجمع بين المغرب والعشاء فقط وقت المطر .

والمسألة الثانية هى القضاء بشهادة شاهد واحد ويمين صاحب الحق ، ورأى مالك فى ذلك أنه يقضى بالشاهد الواحد ويمين صاحب الحق فى الأموال ، وهذا رأى الفقهاء السبعة والشافعي وأحمد وأبى ثور وداوود .

أما أبو حنيفة والثورى والأوزاعى والليث – صاحب الرسالة التى نحن بصددها – وجمهور أهل العراق فيرون أنه لا يقضى بيمين صاحب الحق وشاهد واحد فى شىء .

والمسألة الثالثة تتعلق بحق مطالبة المرأة فى مؤخر الصداق فالصحابة يرون أن المؤخر لا يحل أجله إلا بالفراق بين الزوجين بطلاق أو وفاة ، غير أنه إذا كان هناك شرط ما وجب تنفيذه كاشتراط تقديم المهر جميعه ، أو اشتراط تأخيره .

والمسألة الرابعة تتعلق بالإيلاء وهو أن يحلف الرجل ألا يقرب زوجته أربعة أشهر أو أكثر أو يطلق ، ويتركها أربعة أشهر أو أكثر ، والأصل فى ذلك قوله تعالى :

« لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَربَعةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، وإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيم » .

والفقهاء متفقون على أنه إذا مضت الأشهر الأربعة دون أن يقرب الرجل زوجته يكون التفريق بينهما .

ويرى مالك ومعه الليث والشافعى وابن حنبل أن للزوج أن يفىء إلى زوجته أوأن يطلقها . ويرى أبو حنيفة وسفيان الثورى أن الطلاق يقع بمضى الشهور الأربعة .

والمسألة الخامسة تتعلق بالزوجة تملك طلاق نفسها ، ورأى جماعة الفقهاء ومنهم مالك وأبو حنيفة والشافعى والأوزاعى إن اختارت زوجها بقيت ، وإن اختارت الطلاق فى المجلس طلقت ، وطلاقها إن كان واحدة فهى رجعية عند مالك والشافعى . وهى بائنة عند أبى جنيفة . وقال ابن حزم إنها لا تملك شيئا لأن ما جعله الشارع بيد الرجل لا يجوز أن تجعله بيد المرأة .

والمسألة السادسة تتعلق بالرجل الذى تزوج أمةً لِغَيْرِه ثم اشتراها يفسخ الزواج . وكذلك الحال فى المرأة تتزوج عبداً ثم تشتريه .

والمسألة السابعة حول الخطبة فى الاستسقاء وهل تكون سابقة على الصلاة أم تأتى بعدها ، ورأى مالك فى ذلك أنه يجوز أن تقدم كما يجوز تأخيرها ويرى الشافعى رأيه . وأما الليث فيرى أنها تقدم كالجمعة . وأما أبو حنيفة فلا يرى خطبة فى صلاة الاستسقاء .

والمسألة الثامنة تتعلق بالزكاة عند الشريكين فى المال : يرى مالك وسبقه إلى ذلك أبو حنيفة أنه لا تجب الزكاة على الشريكين حتى يكون لكل واحد نصاب يملكه أى يكون النصيب الذى يملكه يبلغ القدر من المال الذى تجب فيه الركاة . غير أن الشافعى والليث يريان أن المال المشترك حكمه حكم مال رجل واحد .

والمسألة التاسعة تتعلق بالإفلاس ، بمعنى أنه إذا حكم على رجل بالتفليس وكان قد اشترى عينا لم يقبض البائع ثمنها كاملاً بل قبض بعض الثمن . ماذا يكون الحكم إذن ؟ يرى مالك أنه إن شاء البائع ردّ ما فبض من الثمن واسترد السلعة وإن شاء حاصّ الغرماء فيها . ويقول الشافعى بل يأخذ ما بقى من سلعته بما بقى من الثمن .

والمسألة العاشرة والأخيرة فى رد الليث عن سهم الفرس فى الغنيمة وهل يكون للفارس سهمان عن فرسه أم سهم واحد ؟ يرى مالك والليث أن الفارس يأخذ ثلاثة أسهم: سهمين لفرسه وسهما لنفسه، ويرى أبو حنيفة أن للفارس سهمين ، سهماً لنفسه وسهماً لفرسه وحجته فى ذلك قوله : لا أجعل لبهيمة أكثر مما للإنسان .

تبقى مسألة الإسهام لفرسين أوأكثر ، يرى أبو حنيفة ومالك أنه لا يسهم لأكثر من فرس واحد ، ويرى الليث والأوزاعى أنه يسهم لفرسين ولا يسهم لأكثر من ذلك .

والذى نريد أن نشير إليه هنا يقع فى أمور عدة : منها أن المشورة العلمية وتبادل الآراء الفقهية بالرسائل كان وسيلة فعالة فى استجلاء كثير من الأحكام الغامضة أو تلك التى يقع فيها الخلاف بين الأئمة والفقهاء حسبما هو واضح من القضايا المثارة فى رسالة الإمام الليث ، إن الذى يدعو إلى الرضى والإعجاب هو ذلك الأسلوب الراقى المهذب الذى كان يعمد إليه الأئمة فى رسائلهم ، فالأدب الجم هو الظاهرة السائدة فى ثنايا الرسائل ظاهراً وباطنا ، والإطراء والدعاء كان بدوره من أرق السمات وأوضحها فى تلك الرسائل ، دعاء المتراسلين بعضها لبعض . بل إطراؤهم لمن يرد ذكرهم من العلماء ضمن الرسالة والدعاء لهم وذكرهم بالخير .

والحقيقة أن تلك الظواهر الحميدة تتألق فى رسالة الليث فى أكثر من موضع ، انظر إلى قوله لمالك « وأنا احب توفيق الله إياك وطول بقائك . لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة . وما أخاف من الضيعة إلا إذا ذهب مثلك مع استئناس بمكانك وإن نأت الديار فهذه منزلتك عندى ورأيى فيك فاستيقنه » .

وإذا ورد ذكر أحد من مخالفيهم فإن ذكره يقترن بكلمة خير وجملة دعاء وشهادة حق مهما يكن سبب الخلاف بينهم . لقد كان كل من مالك والليث على خلاف مع ربيعة الرأى فى بعض الأحكام . ومع ذلك يرد ذكره فى الرسالة هكذا « وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيب على ربيعة من

ذلك ، فكنتما من الموافقين فيما أنكرت ، تكرهان ما أكرهه ، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير . وعقل أصيل ، ولسان بليغ ، وفضل مستبين ، وطريقة حسنة فى الإسلام ، ومودة صادقة لإخوانه عامة ، ولنا خاصة ، رحمه الله وغفر له ، وجزاه بأحسن من عمله » .

فهل هناك قول فى مخالف أجمل من هذا القول ، وهل هناك ذكر لمعارض أرق أو آدب من هذا الذكر؟ لكن ذلك ليس بمستغرب ، لأنه أدب الأئمة وشمائل العلماء وأخلاق الفضلاء .

والرسالة تحوى كثيرا من القضايا الفقهية التى يتفاوت العلماء فى مقدار تناولهم لها وفتاواهم فيها ، وهى تدل على قدر من العلم غير محدود وعاه الليث ، ولم يجد كبير ضير فى أن يواجه به إمام دار الهجرة .

بل إنه يفهم من استهلال رسالة الليث إلى مالك أن عدداً آخر من الرسائل قد صدرت عنه إلى مالك سابقة لهذه الرسالة ، وأن مالكاً لم يرد عليه لسبب أو لآخر ، ولو أن هذه الرسائل قدر لها أن تظهر وأن تكون فى متناول العلماء لكشفت صفحات لا تزال مطوية فى أسلوب المساجلات الفقهية عن طريق الرسائل ، ولقدمت نفعاً كثيراً فى قضايا جرى تناولها بين الإمامين الجليلين وكشفت عن صفحات أخرى من فقه كل منهما .

— ٤ —

مالك يؤلف الموطأ :

الموطأ هو ذلك الكتاب الجليل الذى توفر الإمام مالك على العمل فيه جامعاً بين دفتيه ما صح عنده من أحاديث رسول الله ﷺ .

ويذهب كثير من العلماء إلى أن الموطأ هو أول كتاب مؤلف فى الإسلام ثابت النسبة إلى مؤلفه وتناولته الأجيال جيلاً بعد جيل(١٧) . وهذا الرأى صائب كل

---

(١٧) الإمام مالك للشيخ أبى زهرة ص ٢٢ .

الصواب من خلال منطوقه ودقة ألفاظه ، أما إذا ما أوردنا القضية بشيء من الانفتاح فلابد أن نذكر مسند الإمام أبي حنيفه ، وقد وصل إلينا مروياً عن تلاميذه ، وكذلك كانت هناك محاولات كثيرة في هذا السبيل قبل مالك مثل الثوري وابن عيينة والأوزاعي وغيرهم ، ولكن إذا ما تحرينا دقة الخبر الذي ورد قبل قليل عن الموطأ من ثبوت نسبته إلى مالك وتناول الأجيال المتتابعة له ، فالأمر هنا لا يعدو كمال الصحة وجادة الصواب .

وأما مناسبة تأليف الكتاب فقد كانت نتيجة غير مباشرة للمحنة التي تعرض لها الإمام مالك حين ضربه والى المدينة العباسي بالسياط ، على ما مر بنا قبل قليل ، ثم رأى الملك العباسي المنصور أن يسترضيه ، وتم التراضي على أن يلتقي الإمام والمنصور في منى في موسم الحج ، وتم اللقاء بينهما وكرم المنصور مالكاً وجرى بينهما حديث طويل في شئون شتى اتسم بالمجاملة ولم يخلُ من حوار في الفقة أو الحديث أو العلم ، ولم يلبث الملك العباسي أن قال لمالك : يا أبا عبد الله ، ضع هذا العلم ودّونه ، ودوّن منه كتباً ، وتجنب فيه شدائد عبد الله بن مسعود ، واقصد إلى أوسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضي الله عنهم لنحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك ، ونبثها في الأمصار ، ونعهد إليهم ألا يخالفوها ، ولا يقضوا بسواها فقال مالك ، أصلح الله الأمير ، إن أهل العراق لا يرضون علمنا ، ولا يرون في علمهم رأينا ، وفي رواية أخرى قال المنصور لمالك : اجعل العلم يا أبا عبد الله علماً واحدًا ، فقال له مالك : إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد فأفتى كل في مصره بما رأى ، وإن لأهل البلد — يعني مكة فقد كان اللقاء في منى — قولا ، ولأهل المدينة قولا ، ولأهل العراق قولا تعدوا فيه طورهم ، فقال المنصور : أما أهل العراق فلا أقبل منهم صرفاً ولا عدلا ، وإنما العلم عند أهل المدينة ، فضع للناس العلم[١٨] .

هكذا كانت ثقة أبي جعفر المنصور في علم أهل المدينة بعامة وفي علم مالك بخاصة ، وكان مالك من رقة الأدب في التعبير عن علم أهل العراق وعدم موافقته

---

(١٨) ترتيب المدارك ص ٣٠ — ٣٣ .

عليه بحيث قال كلمته الرائقة : إن أهل العراق لا يرضون علمنا ولا يرون فى علمهم رأينا .

وينصرف مالك إلى هذا العمل العلمى الجليل الذى كلفه به أبوجعفر المنصور ، ويجمع فى كتابه الحديث والسنة وأقوال أهل المدينة – أولئك الذين زكاهم المنصور وجعل العلم فيهم – ويظل عاكفاً على عمله العلمى الكبير لمدة إحدى عشرة سنة من سنة ١٤٨ إلى ١٥٩ هـ ويطلق على كتابه عنواناً طريفاً هو « الموطأ » ، والموطأ لغة هو الممهّد الميسّر المعبد ، ولاشك أن مالكاً حين أطلق هذا العنوان على كتابه فإنما صدر فى ذلك عن اقتناع أن هذا الكتاب الذى جمع الفقه والحديث قد يسر للمسلمين فهم دينهم على طريق ممهد معبد بعيد عن تلك الصعاب التى ذكرها المنصور وهو يصف لمالك الكتاب كما تصوره بعيداً عن شدائد عبد الله بن عمر ورخص عبد الله بن عباس وشواذ عبد الله بن مسعود .

ويقدم لنا الإمام مالك النهج الذى اتبعه فى تأليف كتابه موضحاً سبيله فى الفقه فيقول : « أما أكثر ما فى الكتاب فرأى لعمرى ما هو برأى ، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل ، والأئمة المقتدى بهم الذين أخذت عنهم ، وهم الذين كانوا يتقون الله وكثر علىّ ، فقلت رأى ، وكان رأيهم مثل رأيى مثل رأى الصحابة الذين أدركوهم عليه ، وأدركتهم أنا على ذلك ، فهذا وراثة توارثوها قرنا عن قرن إلى زماننا ، فهو رأى جماعة ممن تقدم من الأئمة » . ويستطرد الإمام مالك فى شرح منهجه فى تأليف « الموطأ » فيقول :

« وما كان فيه الأمر المجتمع عليه ، فهو ما اجتمع عليه قول أهل الفقه والعلم لم يختلفوا فيه ، وما قلت الأمر عندى فهو ما عمل الناس به عندنا وجرت به الأحكام وعرفه العام والخاص ، وكذلك ما قلت ببلدنا فيه . وما قلت فيه بعض أهل العلم فهو شىء استحسنته من قول العلماء ، وأما ما لم أسمعه منهم فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته حتى وقع ذلك موقع الحق أوقريبا منه ، حتى لا تخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم ، وإن لم أسمع ذلك بعينه فنسبت الرأى بعد الاجتهاد مع السنة وما مضى عليه أهل العلم المقتدى بهم والأمر المعمول به

عندنا من لدن رسول الله ﷺ والأئمة الراشدين ، فذلك رأيهم ما خرجت إلى غيرهم[19] » .

وكان الإمام مالك نقادة للرجال لا يأخذ العلم إلا ممن وثق منهم وتأكد أنهم أهل لذلك ، وكان له فى ذلك أقوال حكيمة يمكن أن تدخل فى نطاق الوسيلة التى اتبعها فى جمع الأحكام والأحاديث التى ضمنها كتابه ، فهو يقول مثلا : « لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سواهم ، لا يؤخذ من سفيه ، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعة ، ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل ويحدث به[20] » .

لقد كان مالك حسن الرواية للأحاديث ، جيد التمييز بين الضعيف والمتواتر وصحيح الإسناد ، ثم هو إلى جانب ذلك خبير بالرواة ، بارع التمييز بينهم براعة الصيرفى الماهر فى اختبار الدراهم ، يعرف تمام المعرفة عمن يأخذ وعمن يدع ، ولذلك جاء كتابه كنزاً نفيساً اعتز به كبار العلماء وامتدحه جهابذة الفقهاء ، حتى إن الشافعى يقول عنه « ما فى الأرض - حتى زمانه طبعاً - كتاب فى العلم أكثر صواباً من موطأ مالك » ويعجب بالموطأ خليفة له شأنه فى فهم علوم الدين والأدب هو الرشيد ويبلغ به الإعجاب إلى المدى الذى يجعله يعرض على مالك أن يعلق كتابه على الكعبة تكريماً له وإكباراً ، ولكن مالكاً الإمام المتواضع فى علمه يقول : « يا أمير المؤمنين أما تعليق المؤطأ فى الكعبة ، فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا فى الفروع ، وافترقوا فى البلدان ، وكل عند نفسه مصيب » .

وتتبدى سماحة مالك فى تفكيره ومحاولة التيسير على المسلمين فى أمور دينهم حين يقول فى نفس المناسبة موجها خطابه إلى الرشيد : « يا أمير المؤمنين . إن اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة ، كل يتبع ما صح عنده ، وكل على هدى ، وكل يريد الله »

---

(١٩) المدارك ٢٣٤ .

(٢٠) الانتقاء لابن عبد البر ص ١٦

لعل هذا القول المفعم بالسماحة واليسر والإيمان كان الصورة الحقيقية لشخصية مالك الإمام الكبير الذى يرى أن الدين يسر وليس عسراً .

مؤلفات أخرى للإمام :

هذا وللإمام مالك مشاركة فعالة فى التأليف ، فليس الموطأ أثره العلمى الوحيد ، وإنما له آثار علمية أخرى قيمة ، منها تفسير غريب القرآن ، ورسالة إلى ابن وهب فى الرد على القدرية ، ورسالة فى الأقضية ، ورسالة فى الفتوى إلى أبى غسّان ، وكتاب السرور ، وأخيراً رسالته الممتعة إلى الليث بن سعد إمام أهل مصر فى زمانه ، تلك الرسالة التى قدمناها قبل صفحات قليلة .

— ٥ —

مرونة المذهب المالكى :

قد يبدو لبعض الدراسين أن الفقه القائم على الرأى ، يكون أكثر تيسيرا على الناس من الفقه القائم على الأثر ، ومن ثم تكون حركة تفكير الفقيه بالرأى أوسع مدى وأرحب درجات من حركة فكر زميله الملتزم بالأثر ، وعلى هذا المقياس يكون الفقه المالكى أقرب إلى التضييق على أبناء المذهب ، غير أن الأمر على عكس ذلك تماما إذ المعروف والشائع أن المذهب المالكى هو أكثر المذاهب تيسيرا على الناس سواء فى مسائل العبادة أو فى قضايا المعاملات .

والحقيقة أن هذا التيسير الذى عرف به المذهب المالكى يرجع إلى عوامل كثيرة أهمها من وجهة نظرنا عاملان أساسيان : أولها تعدد أصول المذهب ، وثانيهما اجتهاد تلامذة مالك وعلماء المذهب فيما تلا من أزمنة .

فأما العامل الأول وأعنى به أصول المذهب فهى من التعدد بمكان إذا ما قورنت بأصول المذاهب الأخرى التى تنال من الانتشار والتقدير ما ناله المذهب المالكى ، ذلك أن الأصول المتفق عليها فى المذهب المالكى لا تقل عن تسعة هى : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والعرف ، وإجماع أهل المدينة ، والمصالح المرسلة ، وسد الذرائع .

فإذا ما رجعنا إلى الأصول عند الحنفية – وقد استكثرها البعض وجدناها ستة هى الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والعرف ، أى أن أصول المذهب المالكى تزيد عن أصول المذهب الحنفى بثلاثة أصول .

وإذا نظرنا إلى أصول المذهب الشافعي ـ وسوف نتناولها بالتفصيل في كتاب مستقبل ـ وجدناها أربعة فقط، هي: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، والشافعى تلميذ لمالك كما هو معروف، عليه أخذ ومنه تعلم، ومع ذلك فقد مال إلى التحديد فى الأصول على حين مال مالك وتلامذته إلى التكثير على النحو الذى رأينا.

هذا والمذهب المالكى يعتمد كثيرا على المصالح المرسلة والعرف والاستحسان الذى يخالف القياس ، بل إن أكثر اعتماده على هذه الأسس الثلاثة – فيما يرى الشيخ أبو زهرة – فلم يكن الاعتماد فيه أو فى أكثره على القياس ، بل كانت المصالح هى الغالبة سواء أجاءت فى الشكل المناسب الذى يشهد له الدليل من الشارع ، أم جاءت مصلحة مرسلة لا يشهد الشارع لها بالإلغاء ولا بغيره ، وسواء أجاءت تلك المصلحة أصلا قائما بذاته لا يوجد ما يخالفه ، أم جاءت مخالفة لأصل ثابت ، فسميت استحسانا(٢١)

لقد كان الإمام مالك يجعل الاستحسان تسعة أعشار العلم ، ومن ثم كان الاستحسان يؤخذ به بشكل عريض اللهم إلا إذا كان فى الأخذ به عند التطبيق فى مسألة بعينها مخالفة لأصل فقهى مقرر ، فى هذه الحالة يمنع تطبيق الاستحسان تمشيا مع مبدأ جلب المصلحة ودفع المضرة .

لقد كان المذهب من خلال مبادىء المصالح المرسلة وسد الذرائع والأخذ بالاستحسان ميسرا على الناس ، متمشيا مع مصالحهم مؤديا إلى حل مشكلاتهم بحيث يتمثل الفقيه فى فتواه مصلحة الناس ما لم يكن فى ذلك تعارض مع نص ، أو تعارض مع أصل مقرر.

---

(٢٩) الإمام مالك ص ٤٣٧ .

والشيء نفسه يقال عن سد الذرائع ، والذرائع هى الوسائل ، وسد الذرائع يقصد به النظر إلى ثمرات الأفعال ونتائج الأعمال ، فإذا كانت الوسيلة تؤدى إلى فعل الخير فهى مباحة وحلال ، وإذا كانت تنتهى إلى الشر والضرر فهى ممنوعة وحرام ، ولقد كان للفقه المالكى فى ذلك تطبيقات اتسمت بسعة الأفق واستهدفت النفع العام بما يخدم مصالح الناس والتيسير عليهم .

ومن هنا ، ومن خلال كثرة أصول المذهب ، كانت المرونة فى التطبيق التى كانت تنتهى إلى تلبية الحاجات وتيسير المسائل لجمهرة الناس فى مختلف شئونهم ، ما كان متصلا منها بأسباب الحياة ، وما كان مرتبطا منها بأحكام العبادات .

فإذا ما جئنا إلى العامل الثانى من عوامل التيسير فى المذهب المالكى . وهو الاجتهاد ، وجدنا أصول المذهب التى بين أيدينا وأهمها « مدونة سحنون » حملت كثيرا من القضايا بعد أن مستها يد الاجتهاد ، ذلك أن المدونة أخذها سحنون من أوراق أسد بن الفرات المعروفة بالأسدية وعرضها على ابن القاسم تلميذ مالك فى مصر ، فجاءت حاوية فقه مالك مشتملة على آراء ابن القاسم التى يعارض فى بعضها أستاذه ، ومعارضة التلميذ لأستاذه فى نطاق المذهب الواحد هى مرحلة مبكرة من مراحل الاجتهاد .

وسوف نجد كثيراً من تلامذة مالك الذين تلقوا عليه العلم لمدد زمنية طويلة تربو على العشرين عاما يعارضون آراءه وينقضون أحكامه من منطلق الاجتهاد مثل أشهب حين أراد أسد بن الفرات أن يعرض عليه آراء مالك التى جمعها فقال : أخطأ مالك فى مسألة كذا ومسألة كذا مما جعل أسدا يعيبه ويتركه إلى ابن القاسم قائلا « ما أشبه هذا – يعنى أشهب – إلا كرجل بال إلى جانب البحر فقال هذا بحر آخر » ومهما يكن الرأى فى تعليق أسد على ملاحظات أشهب . فإن ذلك لا يعنى إلا أن أشهب قد اجتهد برأيه فى فقه أستاذه ومسائل شيخه .

وابن القاسم نفسه – وهو تلميذ حبيب إلى قلب مالك – وهو الذى ذهب إليه أسد ، ومن بعده ذهب سحنون كان يختلف مع شيخه فى بعض المسائل مثل

مسألة الأجل فى البيع [٢٢] وهذا الاختلاف فى حد ذاته جاء نتيجة للاجتهاد ، والاجتهاد كما هو معروف محدد بالالتزام وبأن يكون الاعتماد فيه على أصل ثابت وقاعدة مقررة .

وهذا يحيى بن يحيى الأندلسى تلميذ مالك وناقل فقهه وناشر مذهبه فى الأندلس يخالف أستاذه فى مسألة الشاهد ويمين صاحب الحق فلم ير القضاء به [٢٣] ، وكان يحيى فى الأندلس يعدّ بحكم قربه من أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن فى منزلة قاضى القضاة إذ لم يكن هشام يولى قاضيا إلا بمشورته .

غير أن الأمر الجدير بالذكر أن هؤلاء الأصحاب الأعلام لم يقولوا بآرائهم هذه فى حياة مالك ، أو بعبارة أصح لم يواجهوه بها ، ذلك أن مالكا لم يكن ليسمح لأحد من تلامذته بمعارضته ، بل كانوا لا يجرؤون على سؤاله عن مصدره فى هذه المسألة أو تلك ، وذلك على العكس تماما مما كان يفعل أبو حنيفة الذى كان يستمع إلى أصحابه وهم يناقشون آراءه أو يعارضونها ، ويظل الحوار قائما بينهم وبين شيخهم حتى ينتهى بهم إلى الرأى الصائب والحكم السليم .

الاجتهاد وطبقات المجتهدين :

لقد بدأ الاجتهاد إذن مبكرا فى المذهب المالكى ، والاجتهاد يسير فى مضمار التخريج والتفريع والاستنباط والانتهاء إلى حكم بحيث لا يخرج هذا الحكم على أصول المذهب .

ومن الأمور الجديرة بالاهتمام هنا أن الاجتهاد عند المالكية مقسم إلى قسمين : اجتهاد لا ينقطع إلا بانقطاع أصل التكليف وهذا مستمر إلى أن تقوم الساعة ، واجتهاد يمكن أن ينقطع .

فأما الاجتهاد الذى لا ينقطع فهو ذلك الذى يقوم على تعرف علل الأحكام واستخراجها من النصوص والأسس التى قامت عليها الشرائع ، ومثل هذا النوع

---

(٢٢) المدونة ١٤/١٤

(٢٣) الانتقاء ص ٥٩

من الاجتهاد لا يمكن أن يتوقف فى أى مذهب من المذاهب – وليس المذهب المالكى وحده – وهذا النوع من الاجتهاد يسمى بالاجتهاد المطلق[٢٤] .

والمجتهدون عند المالكية ينقسمون إلى ثلاثة أقسام ، وإن شئنا قلنا ثلاث طبقات : مجتهدين منتسبين ، ومجتهدين مخرّجين ، وفقهاء نفس .

فأما الطبقة الأولى أى المجتهدون المنتسبون فلابد أن تتوفر فى المجتهد منهم شروط بعينها ، وذلك أن يكون عالما بالفقه وأصوله ، وأدلة الأحكام ، وأن يكون بصيرا بمسالك الأقيسة والمعانى ، تام الارتياض فى التخريج والاستنباط عالما بإلحاق ما ليس منصوصا عليه لإلمامه بأصوله .

والمجتهد من هذه الطبقة مقيد بأصول المذهب كما جاء بها الإمام ، غير مقيد بفروعه ولذلك تكون له آراء فى الفروع تخالف آراء الإمام . ومن هؤلاء ابن القاسم وابن وهب وأشهب ويحيى ، وكلهم من أصحاب مالك ، وغيرهم كثيرون من أبناء المذهب .

وأما الطبقة الثانية وهم المجتهدون المخرجون فهؤلاء يقومون فقط بتقرير مذهب الإمام ، وتحرير نصوصه ، واستنباط أصوله ، ويتقيدون بهذه النصوص . ولا يستنبطون فروعا يخالفون بها فروع الإمام .

وعمل هذه الطبقة مقصور على تخريج الفروع التى لم يعرف حكمها عن الإمام بالأصول التى عرفت عنه ، وكذلك قياس ما لم يعرف حكمه من الفروع على ما عرف حكمه منها . ويدخل فى اختصاصهم كذلك ترجيح بعض الروايات المأثورة عن الإمام على روايات أخرى له ، أو رأى منقول عنه على رأى آخر منسوب إليه . وقد كان ذلك سببا فى أن يطلق على هذه الطبقة طبقة المرجحين[٢٥] .

---

(٢٤) الموافقات للشاطبى ٤/٤٨ وما بعدها .

(٢٥) الإمام مالك ص ٤٤٥ .

وأما الطبقة الثالثة وهم فقهاء النفس فهؤلاء هم الذين عرفوا المذهب وعنوا بتقرير مسائلة ، غير أنهم لم يرضوا طريق الاستنباط والتخريج ، وهؤلاء يقومون بالافتاء دون التخريج والاستنباط إلا فى حالات قليلة إذا مادعت الضرورة إلى ذلك ، ومن ثم فهم أقل درجة فى العلم ، وأدنى منزلة من الطبقتين السابقتين .

ومجمل الرأى الذى نريد أن ننتهى إليه هنا هو أن كثرة أصول المذهب ، وكثرة المجتهدين فيه على مساحة الأراضى الإسلامية قد جعلوا المذهب ييسر على الناس أمورهم ، ويسهم إسهاما فعالا فى تفهم مشكلاتهم ، وبالتالى فى حل مسائلهم فى نطاق من السماحة ومضمار من التيسير وسبيل من المرونة ، وإن كلا من التيسير والمرونة أمران ضروريان للحياة فى كل زمان ومكان .




ولئن صبرتم لهو خير للصابرين

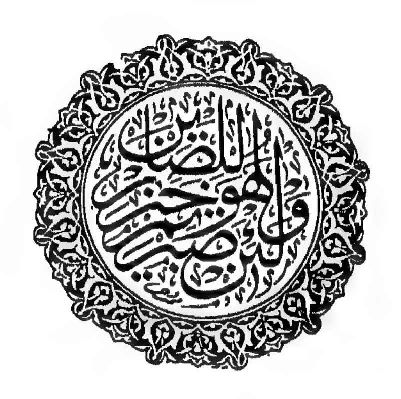
الفصل السابع

أصحاب مالك وتلاميذه

- تلاميذ مالك فى الآفاق .
- عبد الرحمن بن القاسم .
- عبد الله بن وهب .
- أشهب بن عبد العزيز .






ولئن صبرتم لهو خير للصابرين

الفصل السابع
أصحاب مالك وتلاميذه

– ١ –

تلاميذ مالك فى الآفاق :

لكل إمام من أئمة المذاهب أصحاب وتلاميذ ، أو بالأحرى تلاميذ مصاحبون جعلت الصحبة منهم بعد أن شبوا وكبروا – عمرا وعلما – أصحابا فلقد عرفنا لأبى حنيفة أصحابا كثيرين يحتل مكان الصدارة بينهم تلميذاه أبو يوسف ومحمد بن الحسن اللذان عرفا بالصاحبين ، وسوف نعرف للشافعى أصحابا أيضا وكذلك لأحمد .

فإذا كان لنا أن نتناول بالذكر أصحاب مالك فسوف نجدهم من الكثرة بمكان ، وأنهم تفرقوا فى الأمصار الإسلامية شرقا وغربا ، فضلا عمن آثر البقاء منهم فى المدينة أو طوف فى الأمصار ثم مالبث أن عاد إلى قواعده . وكل منهم حامل لفقه مالك أينما حل وحيثما ذهب ، يعلمه ويرويه ويعمل على نشره ، وليس من شك فى أن كثرة تلاميذ مالك وانتشارهم فى الأصقاع الإسلامية كان سببا رئيسيا فى انتشار المذهب وغلبته على مذاهب أخرى ، فضلا عن نفوذ السلطان الذى كان يفرضه على الناس مثلما حدث فى تونس على يد المعز بن باديس ، وكما حدث فى الأندلس على يد هشام بن عبد الرحمن ، فقد فرض كل من الأميرين المذهب على رعاياه ، هذا فى تونس ، وذاك فى الأندلس ، بل نستطيع أن نضيف إليهما الإمام إدريس الذى قال عن مالك : نحن أولى بمذهبه ، حسبما مر القول عند الحديث عن مالك والسياسة .

فإذا ما تتبعنا أصحاب مالك بعد وفاته: إلى أين اتجهوا ، وكيف استقروا ، فسوف نجد فريقا منهم استقر فى المدينة ، وهم محمد بن إبراهيم بن دينار وكان فقيه المدينة على أيام مالك وتوفى سنة ١٨٢ ، وعبد العزيز بن أبى حازم وتوفى سنة

١٨٥ ، وعثمان بن عيسى وتوفى فى السنة ذاتها ، والمغيرة بن عبد الرحمن وتوفى سنة ١٨٦ ، ومعن بن عيسى الذى كان يعرف بعصية مالك وتوفى سنة ١٩٨ ، وعبد الملك بن عبد العزيز الماجشون وتوفى سنة ٢١٢ ، وعبد الله بن نافع الزبيرى وتوفى سنة ٢١٥ ، وأبو مصعب الزهرى وتوفى سنة ٢٤١ هـ .

وأما الذين شرّقوا من أصحاب مالك فبلغ العلم أنهم اثنان فقط وهما عبد الله بن مسلمة القعنبى وقد توفى بالبصرة سنة ٢٢١ هـ وأبو زكريا يحيى بن يحيى التميمى النيسابورى وقد توفى بنيسابور سنة ٢٢٦ هـ .

وكان لمصر نصيب جليل القدر من ين أصحاب مالك ، فقد كان فيها أعلم أصحاب الإمام ، وعلى أيديهم انتشر المذهب على النحو الذى صار إليه ، وهم عبد الرحمن بن القاسم وقد توفى سنة ١٩١ هـ . وعبد الله بن وهب وتوفى سنة ١٩٧ وأشهب بن عبد العزيز وتوفى سنة ٢٠٤ ، وعبد الله بن الحكم بن أعين المولود بمصر مثل زملائه الثلاثة والمتوفى بها سنة ٢١٠ وفى رواية ٢١٦ .

وأما من استقر من الأصحاب فى أفريقية ، ففى تونس استقر على بن زياد التونسى وتوفى سنة ١٨٣ وعبد الله بن غانم الإفريقى وتوفى سنة ١٩٠ هـ .

واستقر فى الأندلس أبو محمد يحيى بن يحيى الأندلسى الذى نقل الموطأ إليها وقد سبقت الإشارة إلى مكانته فى قرطبة وجهده فى نشر المذهب فى الأندلس وتوفى سنة ٢٢٣ .

وهناك اثنان من أصحاب مالك المرموقين عاشا جوّالين هما أبو مصعب مطرف بن عبد الله وقد رحل إلى العراق ثم عاد إلى الحجاز وتوفى بالمدينة سنة ٢١٤ وأسد بن الفرات وهو مولود بحران وتعلم بتونس ثم رحل إلى الحجاز فسمع من مالك ، ثم رحل إلى العراق فتفقه على محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة ثم عاد إلى مصر وسمع فيها من ابن القاسم ثم ذهب إلى تونس ومنها انطلق أميرا للجيش والأسطول الذى غزا صقلية واستشهد على أسوار سرقوسة سنة ٢١٣ هـ وله من العمر ثمانية وستون عاما.

أولئك أشهر أصحاب مالك الذين كان لهم الفضل فى الحفاظ على المذهب ونشره ، وسوف نحاول أن نعرف بأشهرهم صيتا وأوفرهم علما وأقربهم إلى قلب الإمام ، ثم نعود فنقدم تعريفا بأصحاب المدّونات التى حفظت المذهب ومدوناتهم .

— ٢ —

عبد الرحمن بن القاسم :

هو بالنسبة لمذهب مالك مثل محمد بن الحسن بالنسبة لمذهب أبى حنيفة ، وبينهما تشابه كبير ، فكل منهما نقل مذهب صاحبه ورواه عنه مع رأى واجتهاد ، ويتضح فضل ابن القاسم على المذهب فى أن « المدّونة » التى كتبها سحنون قد راجعها عليه وهو فى مصر ، وإن أكثر من يترجم لابن القاسم من أصحاب كتب الطبقات يقول إنه صاحب المدونة[1] .

كان ابن القاسم أحد أكبر أصحاب مالك واسمه كاملا أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة، وقد طالت صحبته للإمام نحواً من عشرين سنة وقد عمق ثقافته الدينية بالتلقى عن الليث بن سعد فى مصر ، ومسلم بن خالد الزنجى وعبد العزيز بن الماجشون فى المدينة ، وسفيان بن عيينة ونافع بن أبى نعيم القارىء وغيرهم .

والحق أن ابن القاسم كان الحجة الأولى فى مذهب مالك حتى إن زميله ابن وهب وهو أطول التلاميذ صحبة لمالك يقول عنه : « إذا أردت هذا الشأن — يعنى فقه مالك — فعلينا بابن القاسم . فإنه انفرد به وشُغِلْنا بغيره » .

ويعد ابن القاسم واضع اللبنة الأولى « للمدّونة » فقد تلقاها سحنون عنه وراجعها عليه على ما سوف نوضحه بعد ذلك عند الحديث عن الأسدية والمدونة وصاحبيها ، وبعبارة أخرى إذا ذكر ابن القاسم ذكر أسد بن الفرات وسحنون .

---

(١) انظر الأعلام ووفيات الأعيان — ترجمته .

وكان ابن القاسم فقيها يغلب عليه الرأى حسبا يرى ابن عبد البر(٢) وحسبا يشير إلى ذلك تعامله مع فقه أستاذه ، فقد اختلف مع مالك فى الأجل فى البيع ، وأنه كان يرفض جوائز السلطان ، بينما كان أغلب مال أستاذه مالك من هبات الخلفاء ، وكان ابن القاسم يقول : ليس فى قرب الولاة ولا فى الدنو منهم خير.

وعرف ابن القاسم بالزهد وكثرة العبادة ولعل ذلك هو سبب بعده عن الحكام ، كما كان ينفر من كثرة الإخوان ، وكان يعتبر كثرتهم عبودية ورقا ، وكان له فى ذلك تعليل غريب ، لأن كثرة الإخوان عنده لا تجعل الشخص حرا فى تقديره للأمور ، فإن كان قاضيا خشى عليه الظلم بالانتصار لفريق دون الآخر ، وإن كان عالما خشى عليه ضياع وقته ، ومن ثم فقد جرى على لسانه ذلك القول المتسربل بالحكمة وهو « إياك ورق الأحرار » فقيل له وكيف يكون ؟ قال : « كثرة الإخوان » .

وقد توفى ابن القاسم فى مصر فى صفر سنة ١٩١ هـ عن عمر مبارك العطاء غير متجاوز ثلاثة وستين عاما وكان قد ولد بالفسطاط سنة ١٣٢ وقيل ١٣٣ هـ .

— ٣ —

عبد الله بن وهب :

أحد أقرب أصحاب مالك إليه ، فقد لزم مالكا أكثر من عشرين سنة ، وقضى حياته كلها طلبا للعلم وسماعا له ، وعطاء للعلم وتسجيلا له ، واسمه كاملا عبد الله بن وهب بن مسلم الفقيه المالكى المصرى المولود فى الفسطاط سنة ١٢٥ هـ المتوفى بها سنة ١٩٧ ، راض نفسه على حب العلم والتفرغ له والرحلة فى سبيله حتى صار كبير أصحاب مالك ، ولقبه الإمام سفيان بن عيينة بشيخ أهل مصر. سمع ابن وهب من شيوخ مصر والحجاز والعراق ، ففى مصر سمع من الليث بن سعد وحسين بن عبد الله المعافرى ، وحيوة بن شريح ، وسعيد بن أبى أيوب ،

---

(٢) الانتقاء ص ٥٠ .

وابن لهيعة، وعياض بن عبد الله الفهرى ، وعبد الرحمن بن شريح ، ومن العراقيين سمع من سفيان الثورى ومن الحجازيين سمع من أصحاب الزهرى ، ومن سفيان بن عيينة وابن جريج ، كما سمع عن عبد الرحمن بن زياد الإفريقى وغيرهم ، بحيث قيل إن شيوخه الذين أخذ عنهم يزيدون عن أربعمائة .

غير أن صلة ابن وهب بمالك ، ومصاحبته الطويلة له ، وجلوسه بين يديه ، واحتفال مالك به أكثر مما احتفل بأحد من تلاميذه الآخرين ، جعل منه عالما جليلا وصاحبا مقدما ، ذلك أن مالكا كان يحبه ويعظمه ، وقد قيل إنه ما نجا أحد من أصحاب مالك من زجره إلا ابن وهب . فقد كان يلقبه بالفقيه . وكان يسمح له بالكتابة عنه ثم لايجد مانعا من مراجعة ماكتبه عليه . ولذلك كانت الرحلة إليه فى حياة مالك وبعد موته . فلم يكن فى استطاعة كل محب لفقه مالك أن يسافر إليه فى المدينة . فكانوا يرحلون إلى ابن وهب فى مصر . ومن ثم كان ابن وهب أحد ناشرى المذهب فى مصر وفيما هو غرب مصر من الأصقاع .

وقد عرف ابن وهب بكثرة رواية الأحاديث ، مما جعل الأمر يختلط عليه فى كثير منها لولا أن مالكا فى الحجاز والليث فى مصر كانا يأخذان بيده ويصوبان له الرواية والمتن ، وهو يقرر ذلك بنفسه فى قوله : « لولا أن الله أنقذنى بمالك والليث لضللت » فقيل له : كيف ذلك ؟ قال : أكثرت من الحديث فحيرنى ، فكنت أعرض ذلك على مالك والليث ، فيقولان خذ هذا ، ودع هذا[3] ولعل ذلك هو السبب فى قول أحد كبار الجيل الثانى من مالكية مصر فيه وهو أصبغ : ابن وهب أعلم أصحاب مالك بالسنن والآثار إلا أنه روى عن الضعفاء .

غير أننا نحب أن نعطى هذا العالم الجليل حقه . ذلك أنه كان من وفرة العلم بحيث كان الإمام مالك يقول عنه : عبد الله بن وهب إمام[4] . وقد كان الناس بالمدينة يختلفون فى الشىء عن مالك فينتظرون قدوم ابن وهب حتى يسألوه عنه[5] .

---

(٣) الديباج المذهب ص ١٣٣

(٤) وفيات الأعيان ترجمة عبد الله بن وهب .

(٥) تهذيب التهذيب ١٧٢/٦ .

ومن المعروف أن ابن القاسم كان أفقه من ابن وهب وذلك ما سجله مالك نفسه حين قال عنهما : ابن وهب عالم وابن القاسم فقيه[٦] . غير أن بعض المحبين لابن وهب وكان ذلك فى مصر وبعد وفاة مالك ، يرون أن ابن وهب أفقه من ابن القاسم، وقائل ذلك هو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم تلميذ الشافعى، فقد قال محمد : كان ابن وهب أفقه من ابن القاسم إلا أنه كان يمنعه الورع من الفتيا . ولكن إذا اجتمعت شهادتان فى موضوع بذاته إحداهما لمالك والأخرى لاحد تلاميذ تلامذته فإن شهادة مالك ترجح بطبيعة الحال .

وإذن فقد كان شهرة ابن وهب مقرونة بالعلم – أى الحديث – وقد أيد هذا الرأى ابن زرعة فى قوله : نظرت فى نحو ثلاثين ألفاً من حديث ابن وهب فى مصر وغير مصر، لا أعلم أنى رأيت له حديثا لا أصل له .[٧]

وإذا ما ذكرنا العلماء الذين رووا عن ابن وهب وجدناهم من الكثرة ومن سمو القدر بمكان . فقد روى عنه أستاذه الليث بن سعد ، وروى عنه شيخ علماء العراق عبد الرحمن بن مهدى ، وعدد كبير من علماء مصر من أمثال عبد الله بن يوسف التنيسى وأحمد بن صالح المصرى ، وأصبغ بن الفرج وحرملة بن يحيى ، ويحيى بن أيوب المقابرى ، ومحمد بن سلمة المرادى ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى ، والربيع بن سليمان المرادى ، صاحبا الشافعى .

وأما عن نقاء سيرة ابن وهب فهو من هذا الجانب يعد من العلماء القلائل الذى قسموا حياتهم – فيما يذكر سحنون – أثلاثا : ثلثا فى الرباط ، وثلثا يعلم الناس ، وثلثا فى الحج[٨] .

ومن طرائف الحكمة التى تروى عن ابن وهب – فيما ذكر يونس بن عبد الأعلى – أن الخليفة كتب إلى ابن وهب ليتولى قضاء مصر ، فحجب نفسه ولزم بيته ، فرآه رشدين بن سعد وهو يتوضأ فى صحن داره فقاله له : ألا تخرج إلى

---

(٦) وفيات الأعيان ترجمة ابن وهب .

(٧) تهذيب التهذيب ٧٢/٦

(٨) المصدر السابق .

الناس فتقضى بينهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فرفع ابن وهب إليه رأسه وقال له : إلى هنا انتهى عقلك ؟ أما علمت أنّ العلماء يحشرون مع الأنبياء ، وأن القضاة يحشرون مع السلاطين ؟[9]

ولابن وهب مؤلفات جليلة ذكرها له مترجموه منها : سماعه عن مالك ويقع فى نحو ثلاثين كتابا ، ومنها موطؤه الكبير ، وكتاب المغازى ، وهو لذلك وغيره كان يسمى « بحر العلم » .

إن فضل عبد الله بن وهب البربرى أصلا ، القرشي ولاءً ، كبير على المذهب ونشره ، ولكنه لا يبلغ فى ذلك مبلغ صديقه وزميله ابن القاسم . ولقد توفى ابن وهب سنة ١٩٧ عن اثنين وسبعين عاما .

— ٤ —

أشهب بن عبد العزيز القيسى :

هو ثالث الصحاب الذين عاشوا فى مصر بعد مالك ، بل عاشوا فيها أيضا فى حياته ، أما الاثنان الآخران فقد مر ذكرهما وهما ابن القاسم وابن وهب ، وقيل إن اسمه الحقيقى مسكين وأشهب لقب ، وهو مصرى الميلاد والوفاة ، فكان مولده سنة ١٥٠ وهى السنة التى ولد فيها الشافعى فى غزة ، وكانت وفاتهما فى سنة واحدة فى بلد واحدة هى الفسطاط وذلك سنة ٢٠٤ هـ غير أنه مات بعد الشافعى بشهر وقيل بل بثمانية عشر يوما .

وقد ذكره ابن يونس مؤرخ مصر فقال : « أشهب القيسى ، ثم العامرى ، من بنى جعدة . ويكنى أبا عمرو .

وسبيل النبوغ فى العلم دائما واحدة ، وهى كثرة الشيوخ الثقاة وحسن الأخذ عنهم والإكثار من التفرغ ، ثم التخصص على شيخ بذاته ، فقد تتلمذ أشهب

---

(٩) الوفيات ترجمته . وتهذيب التهذيب ٦/٧٣ .

على الليث بن سعد ويحيى بن أيوب الغافقي المصرى وابن لهيعة فى مصر وأخذ عنهم وفى الحجاز على سفيان بن عيينة والفضل بن عياض ، وأما ملازمته فكانت لمالك ، رحل صوبه ولزمه ، وجلس إليه ، وأخذ عنه من العلم ما أهله لأن يكون واحدا من أكبر أصحابه ، يشترك فى حمل المذهب بعده إفتاء وتدوينا وتطويرا ونشرا .

وقد مر بنا أن أشهب كان يخالف أستاذه مالكا ، وروينا قصته مع أسد بن الفرات حين أراد مراجعة المذهب معه .

وكان أشهب نظير ابن القاسم فى علمه وفضله ، مع فارق السن بينهما ، فقد كان ابن القاسم يكبر أشهب باثنى عشر عاما ، وعاشا عمراً يكاد يكون متقاربا إذ أن الأول مات عن ثلاثة وستين عاما ومات الثانى سنة ٢٠٤ بعد الشافعى بأيام عن أربعة وستين عاما ولو صح أنه ولد سنة ١٥٠ لكانت وفاته عن أربعة وخمسين عاما ، وبهذه المناسبة نذكر أنه لم يكن صديقا للشافعى ، وقيل إنه كان يدعو على الشافعى بالموت ، فلما علم الشافعى بذلك أنشا هذين البيتين النفيسين :

تَمنَّى رجالٌ أنْ أموتَ وإنْ أمُتْ
فتلكَ سبيلٌ لستُ فيها بِأوحَدِ
فقلْ للذِى يبغِى خلافَ الذى مَضَى
تزّودْ لأخرَى غيرَها فكأَنْ قَدِ

وكان الشافعى يقول ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه ؛ ويروى الخبر بصيغة أخرى وهى : ما نظرت أحداً من المصريين مثيله ، لولا طيش منه . ولا شك فى أن الشافعى يشهد لأشهب بالفطنة دون غيره من المصريين لأنه لم ير ابن القاسم أو ابن وهب ، وبخاصة ابن القاسم ولو قد رآه لكان له قول آخر .

ولمكانة كل من أشهب وابن القاسم من الناحية العلمية فقد لجأ إليهما سحنون عند مراجعة مدونته – وقد سبقت الإشارة إلى أن أسد بن الفرات أراد الأخذ عنه أيضا – ولذلك فقد كان سحنون بحكم المخالطة وبحكم ذكائه وفطنته يسأل عنهما

وعن أيهما أفقه ، فكان يقول : هما كفرسى رهان ، ربما وفق هذا وخذل هذا ، وربما خذل هذا ووفق هذا .

وكان كل من ابن القاسم وأشهب واثقا من علمه ، معتزا بما تلقى ،مستمسكا بما سمع من شيخه ، لا يقبل فى ذلك نقضا أو تخطئة ، الأمر الذى يؤدى إلى تنافس ينتهى إلى طرائف لم تكن تخلو منها حياة الفقهاء ، فقد اختلفا ذات مرة فى قول لمالك فى مسألة من المسائل ، فحلف كل منهما – ثقة منه بنفسه – على نفى قول الآخر وتخطئة علمه بالمسألة ، فسألا زميلهما وثالثهما ابن وهب ، وكان أقدم منهما صحبة لمالك ، بل وكان مدونا لمسائل مالك على النحو الذى سبقت الإشارة إليه ، فأخبرهما ابن وهب أن مالكا قال القولين جميعا ، وبذلك وقع كل منهما فى يمينه ، فحجَّا لليمين التى حلفاها[10] .

وموضع الطرافة هنا أن كلا منهما حلف على خطأ الآخر ، ولو أن كلا منهما حلف على صواب رأيه لما كانت هناك كفارة يمين ، ولكنها النفس البشرية – لا فرق بين عالم وجاهل – تتجه إلى الجانب البعيد ، ولا تبدأ بالجانب القريب ، وما كان ألطفهما لو استمسك كل بصواب رأيه لا أن يستمسك بخطأ الآخر .

وينقل ابن خلكان عن القضاعى صاحب « خطط مصر » أنه كان لأشهب رياسة فى البلد ، ومال جزيل ، وكان من أنظر أصحاب مالك[11] .

ومن الغرائب التى يذكرها محمد بن عاصم المعافرى أنه رأى فى المنام من يقول له مناديا إياه : يامحمد ، فأجابه ، فإذا به يقول له :.

ذهبَ الذين يُقَالُ عند فراقِهِمْ
ليتَ البلادَ بأهلها تَتَصَدَّعُ

وكان أشهب مريضا ، فقال : ما أخوفنى أن يموت أشهب ! ! فمات فى مرضه هذا .

---

(١٠) المدارك ٦٣٥ .

(١١) وفيات الأعيان ترجمة أشهب .

وبغضّ النظر عن مناقشة مدى صدق الرؤيا - والرؤى صادقة إذا توفرت أسبابها - فإن ذلك يدل على مكانة أشهب فى مصر ، وأنه كان من أولئك الرجال الذين تهتز البلاد لفقدهم .

وكان أشهب صاحب علم كثير ، وقد ألف عددا من الكتب النفيسة ، له كتاب المدونة وتسمى مدونة أشهب أوكتب أشهب ، وله كتاب الاختلاف فى القسامة ، وكتاب فى فضائل عمر بن عبد العزيز .

وكانت ولادة أشهب سنة ١٤٠ وقيل سنة ١٥٠ وفى قول ثالث سنة ١٤٥ ووفاته سنة ٢٠٤ هـ بمصر وبعد وفاة الشافعى بأيام حسبما سلف القول .

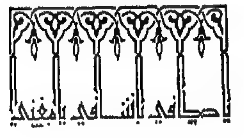


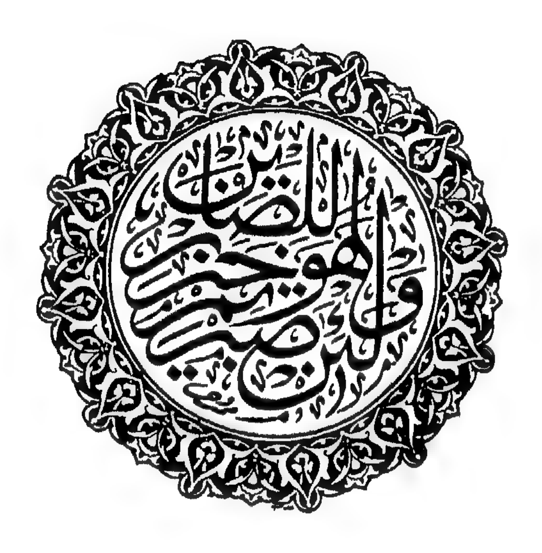
الفصل الثامن

كتب المذهب وأصحابها

- الأسدية وأسد بن الفرات .
- المدونة وسحنون .
- كتب أخرى فى المذهب .

(الواضحة - العتبية - الموازية)





الفصل الثامن

كتب المذهب وأصحابها

لكل مذهب من المذاهب الفقهية كتبه التى تحوى أصوله وفروعه وتضم أحكامه وقضاياه . ومذهب مالك شأنه فى ذلك شأن بقية المذاهب له كتبه التى تضم أصول المذهب ، والتى إليها يرجع من يرغب فى المعرفة فى العلوم الدينية بعامة . ومن يريد التخصص فى الفقه المالكى خاصة .

إن الكتاب الأول فى هذا المذهب هو كتاب إمام المذهب وأستاذه . ونعنى بذلك كتاب « الموطأ » وقد مر حديثنا عنه . والكتاب الثانى من حيث الزمن – فيما نرجح – هو مدونه أشهب التى سبقت الإشارة إليها والتى بسببها جرى جدل اتسم بالطرافة والفكاهة بين أشهب وصاحبه الأكبر ابن القاسم . فقد قيل إنه لما كملت الأسدية أخذها أشهب وأقامها لنفسه ، ولما بلغ ذلك ابن القاسم – أى خبر مدونة أشهب – قال عن صاحبه إنه وجد كتابا تاما فبنى عليه . وقد عنى ابن القاسم بذلك أنه صاحب الفضل الأول فى ضبط الأسدية التى بنى عليها أشهب . فأرسل إليه أشهب قائلا : « أنت إنما غرفت من عين واحدة . وأنا من عيون كثيرة » وهنا يرد عليه ابن القاسم وقد غلبت عليه روح « النكتة المصرية » التى عرفها المصريون منذ أقدم العصور قائلا « عيونك كدرة وعينى أنا صافية » .

فإذا ماجئنا لأشهر كتب المذهب التى عليها الاعتماد وجدناها من حيث الترتيب الزمنى على هذا النحو : الأسدية لأسد بن الفرات . والمدونة لسحنون . والواضحة لعبد الملك بن حبيب الأندلسى . والعتبية لمحمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبى الأندلسى . ثم الموازية لابن المواز .

الأسدية وأسد بن الفرات :

أسد بن الفرات بن سنان هو الفقيه الفارس الغازى الشهيد ، وهو بذلك صاحب صفات ومناقب . وممارس أحداث . ومحقق انجازات لم تتح إلا للقليلين ممن ينتسبون إلى طبقته . وأعى بذلك طبقة العلماء الفقهاء .

وأسد بن الفرات وتلك حاله يعتبر مجمع ثقافات إسلامية وحجة مذاهب فقهية .

ولقد ولد – على أشهر الأقوال – فى حران سنة ١٤٥ . وانتقل مع أبيه إلى تونس . وتونس دائما عاصمة من عواصم العلوم الإسلامية . ومنطلق من منطلقات الدعوة . فمنها انطلقت الجيوش الإسلامية الفاتحة صوب المغرب . ثم صوب الأندلس . ومنها أيضا انطلق الأسطول الكبير يحمل جيوش الفتح إلى صقلية بقيادة أسد هذا الذى نتحدث عنه . فخاض غمار البحر . وقاد الجيش مظفرا فاتحا الجزيرة التى تعتبر مفتاح إيطاليا فى الجنوب . بل مفتاحا من مفاتيح أوربا قديما وحديثا . ونجحت الحملة . ففتحت الجزيرة ، وقامت بها حضارة إسلامية لثلاثة قرون متتالية من الزمان . غير أن أسداً وضع الغرسة ولم يشهد الثمرة . إذ أنه استشهد على أسوار سرقوسة وهو يتصدر قيادة الجيش الفاتح سنة ٢١٣هـ .

وكان أسد قبل الحملة يتولى قضاء القيروان . واقتصر فى أحكامه على مذهب أبى حنيفة . ولقد كان ذلك سببا فى انتشار المذهب الحنفى فى شمال إفريقية والمغرب فترة من الزمان .

هذا ماكان من أمر أسد القائد الفاتح . أما أسد الفقيه فهو أيضا أحد كبار العلماء الذين جمعوا بين إجادة المذهبين المالكى والحنفى . وحاول أن يجمع بينهما من حيث الأصول والأحكام على ماسوف نبين بعد قليل . ذلك أن أسدا بعد أن درس الفقه فى تونس رحل إلى المدينة وجلس إلى الإمام مالك . وانتظم حلقته

المهيبة الجليلة ، وسمع منه الموطأ ، ثم اتجه إلى العراق حيث التقى بصاحبى أبى حنيفة : أبى يوسف ومحمد بن الحسن ، وقرأ كتب محمد التى تمثل جوهر الفقه العراقى الذى يعمد إلى الفروض فى المسائل ثم التصدى لحلها وهذا نهج جديد بالنسبة لأسد الذى ألف من الإمام مالك ألا يتصدى إلا للمسائل الماثلة وليس للقضايا المفترضة .

ولقد كان ذهاب أسد إلى العراق بتوجيه من الإمام مالك نفسه ، ذلك أنه أخذ يلقى على مالك المسائل مبتغيا التعرف على أحكامها فقد سأل مالكا يوما عن مسألة فأجابه . فسأله عن أخرى فأجابه وعن ثالثة فأجابه وأراد أن يسترسل فقال له الإمام : حسبك يا مغربى إذا أردت الرأى فعليك بالعراق فطلب من مالك أن يوصيه قبل أن يفارقه فقال له : أوصيك بتقوى الله العظيم والقرآن ومناصحة الأمة ثم ارتحل إلى العراق ولزم محمد بن الحسن وأخذ منه من العلم ما أخذ .

وأما الأسدية التى ألفها فقد بدأت بالمسائل التى تلقاها من مالك وكان استمع إليه وهو يروى الموطأ . كما استمع إليه وهو يجيب عما يوجه إليه من مسائل وكان يسجل كل ذلك كتابة ، ثم رحل إلى العراق على النحو الذى ذكرناه ، وتلقى فقه أبى حنيفة من محمد بن الحسن بأصوله وفروعه ، فلما ترك العراق عائدا إلى مصر كان الإمام مالك قد انتقل إلى رحمة الله ، وكان أسد قد حمل كثيرا من المسائل التى اشتملت عليها كتب محمد بن الحسن ومن ثم فهى مسائل فقهية حنفية ؛ وأراد أن يعرف آراء الإمام مالك فى ذلك ، ومن ثم يجمع موسوعة نفيسة تضم بين الفقه العراقى وفقه المدينة ، ولما كان مالك قد توفى ولاسبيل إلى التعرف على ما يريد إلا عن طريق تلامذته فقد اتجه إليهم ، وبدأ بابن وهب أكثر أصحاب مالك صحبة له ، ولكنه لم يجد لديه بغيته ، فتركه واتصل بأشهب ، ولكن أشهب بدوره لم يكن الفقيه الذى يرتاح أسد إلى إجاباته ، فقد كان كثير المخالفة لآراء أستاذه مالك ، وأخيرا وجد أسد ضالته فى عبد الرحمن بن القاسم أفقه أصحاب مالك ، وكان له ما أراد ، فكان ابن القاسم يجيبه عن كل مسألة حسبما سمع من مالك ، فإذا جاءت مسألة لم يكن واثقا من رأى مالك فيها كل

الثقة أجاب إجابة ظنية أو ترجيحية وكان أحيانا تصادفه المسألة وهو لا يعرف قول مالك فيها ولكن يحفظ لها مثيلا من أحكام مالك . فكان يحكم بمثل ما حكم به مالك فى المثل ، وأما تلك المسائل التى لا يعرف فيها رأى مالك . ولا يعرف مماثلا لها فى فقه مالك . فقد كان يجيب فيها باجتهاده الشخصى على الأصول المالكية .

جمع أسد بن الفرات هذه المسائل وأجوبتها التى تمثل أبواب الفقه وسماها « الأسدية » وغادر مصر متجها إلى القيروان وقد حملها معه . تاركا نسخة منها فى مصر كان بعض الفقهاء المالكية الشبان قد رغبوا فى نسخها منه وسمح لهم فى ذلك بعد شيء من التمنع .

— ٢ —

المدونة وسحنون :

إنه عبد السلام بن سعيد التنوخى المعروف بسحنون ، وإذا ذكر سحنون فإن المرء يتمثل معانى كثيرة رفيعة مباركة تتصل بشخصه . وترتبط بعلمه . وتتمثل فى عمله . ولعل أهم أولئك جميعا هو أنه صاحب أهم كتاب فى الفقه المالكى بعد « الموطأ » ونعنى بذلك « المدونة الكبرى » .

إن عبد السلام بن سعيد كان فقيرا على زمن حياة الإمام مالك وتمنى لو استطاع أن يرحل إلى المدينة المنورة فيلقى مالكا . ذلك الإمام الذى تاقت نفسه الى رؤياه . وهفت إلى الجلوس إليه . وتمنت الاستماع منه . ولكن القدرة المالية لم تسعف الفتى المتعطش إلى علم مالك . فاختار أهون الطرق ورحل إلى مصر منتصف الطريق بين المغرب والحجاز ، وكان فيها آنذاك أكبر تلامذة مالك قدرا وأوفرهم علما . وأكثرهم معرفة بكتابه وحديثه وفقهه وهم ابن وهب ، وابن القاسم ، وأشهب وعبد الله بن عبد الحكم

لقد كان سحنون رأس العلم فى المغرب ، وكان يجمع بين العلم والفضل والزهد . بل كان يجمع بين المنصب والزهد ، فقد كان فقيها عالما معلما ثقة

صادقا ، وكان له من الأصحاب والتلاميذ مالم يكن لأحد آخر من أصحاب مالك وقد ولى القضاء سنة ٢٣٤هـ وهو فى الرابعة والسبعين دون أن يأخذ أجرا على ذلك ، وأما أعوانه من الكتاب والقضاة الصغار فكان يأخذ لهم رواتبهم من جزية أهل الكتاب ، أما وأنه ليس للسلطان عليه منة ولا فضل ، فقد بات يملك أن يوجه النصح إلى السلطان ، فإذا لم يأت النصح بنتيجة عمد إلى الزجر ، وقد أخر الأمير مرة رواتب أعوانه فقال له : حبست أرزاق أعوانى وهم أجراؤك ، وقد وفوك حقك ولا يجمل ذلك ، وقد قال رسول الله ﷺ :

« **اعْطُوا الأَجِيرَ حَقَّهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ** » .

ولسحنون أخبار كثيرة فى الفضل ، وأفضال وفيرة على العلم والعلماء .

أما « المدونة » فهى فى الأصل « الأسدية » ، وكان سحنون قد تلقاها من أسد ولكنه لم يكن يستريح إلى الكثير مما جاء بها وبخاصة ماكان يجيب عنه ابن القاسم إجابات غير شافية ، كقوله فى بعض المسائل ، أخال وأظن وما إلى ذلك ، فارتحل سحنون إلى مصر حاملا الأسدية ، ولقى ابن القاسم وكاشفه برغبته فى أن يقرأها عليه ، وأن يسقط منها ، ماكان ظنا ، وما كان يشك فى نسبته إلى مالك ، وكان ابن القاسم من التقوى والورع وسعة الأفق ماقد ذكرنا فى ترجمته ، فاستجاب إلى رغبة سحنون ، واستمع إليها مرة ثانية ، وأجرى فيها من الحذف والتهذيب ما اقتضته الأمانة العلمية وفق ما أشار سحنون .

ولم يكتف ابن القاسم بالمراجعة والتهذيب ، بل أمسك بالقلم وكتب إلى أسد حيث هو بالقيروان : « أن عارض كتبك – أى الأسدية – بكتب سحنون فإنى رجعت عن أشياء مما رويتها عنى » .

ولقد هم أسد أن يفعل ذلك ، ويراجع كتبه على كتب سحنون ، غير أن بعض أصحابه أثاروا عزته وردّوه عن ذلك ، وقالوا له : تصلح كتبك من كتبه وأنت سمعتها قبله ؟ ومثل هؤلاء – برغم نسبتهم إلى العلم – أصحاب سوء فقد نجحوا فى صرف أسد عن مراجعة كتبه على تلك التى دونها سحنون ، فشاع الأمر

بين الناس الذين أقبلوا على كتب سحنون للثقة التى توفرت فيها ، وانصرفوا عن كتب أسد أو بالأحرى مجموعة الكتب التى تسمى الأسدية .

ولم يقف الأمر بسحنون فيما يتعلق بكتبه الموثقة المصوبة – التى أسماها المدونة – عند هذا الحد ، بل إنه رتبها وهذبها ، وزاد عليها ما رأى أنه ضرورى لكى تكون مرجعا أساسيا يعتمد عليه لفقه مالك ، فزاد عليها المسائل التى اختلف أصحاب مالك عنه فى إجاباتها ، كما ذيل أبوابها التى قام هو على ترتيبها بالحديث والآثار ، ومن ثم كان للمدونة مكان الصدارة بين كتب المذهب ماسبقها كالأسدية ، وماكتب بعدها كالواضحة أو العتبية .

وكان للمدونة أثر كبيرفى تطوير الفقه المالكى فضلا عن تسجيله وكونها أوجدت فرصة ذهبية لالتقاء الفقه المالكى بالفقه العراقى ، وأنها فتحت باب التخريج فى مذهب مالك منذ عصره الأول .

فأما عن لقاء الفقه العراقى والفقه المالكى فهو ماثل فى النهج الذى اتبعه أسد بن الفرات – والأسدية أصل المدونة كما هو معلوم – فقد كانت مسائل الأسدية محاكاة للمسائل التى اشتملت عليها كتب محمد بن الحسن . وأراد أسد أن يستخرج أجوبة مسائلها من الفقه المالكى ، وحينئذ يحدث الفرض والتخريج فى الفقه المالكى كما هو حادث فى الفقه العراقى .

ومن ناحية أخرى ضمت المدونة آراء مالك وآراء أصحابه وتخريج ابن القاسم على أصول مالك . وهى بذلك تكون قد وضعت أساسا للفقه المقارن ، ذلك أنه يمكن الموازنة بين آراء مالك وآراء أصحابه وبذلك ينفتح باب التخريج فى الفقه المالكى فى وقت مبكر يرتبط بالجيل الأول من تلاميذ إمام المذهب ، وابن القاسم هنا هو الأصل والأساس على اعتبار أنه صاحب الحجر الأساسى فى كل من الأسدية والمدونة [1] .

ولقد احتفل الفقيه ابن رشد الجد بالمدونة فأنشا كتابا كبيرا يعدّ بمثابة مقدمة

---

(١) راجع كتاب الإمام مالك ص ٢٤٩ .

دراسية فقهية تاريخية لها وجعل لكتابه عنوانا طويلا لعله من أطول ما عرف عن الكتب من عناوين هو « المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات » .

وكتاب المقدمات هذا الطويل العنوان بمقدمته وفصوله يعتبر من أمتع ماكتب فى الفقه المالكى بعد المدونة بل هو فى الحقيقة يصعب فصله عنها ، إنه جزء منها أو بالأحرى مفسر بعض محتوياتها متمم لإيضاح بعض مسائلها ، وهو فى ذلك راسم على نهج أحد شيوخه من الفقهاء العظام وهو أبو جعفر بن رزق .

غير أن صفة ابن رشد كقاض للجماعة لم تنفصل عن شخصيته كفقيه وأصولى من حيث عمده إلى بعض الاصطلاحات واستهلاله كتاب المقدمات بموضوعات من علم الكلام وأخرى من أصول الفقه مثل ذلك النص الطويل الذى كتبه « فى وجوب الاستدلال » .

إن ابن رشد يبين الغرض من كتابته « المقدمات » ومنهجه فيها على النحو التالى : قال بعد أن حمد الله وصلى على رسوله وآل بيته الكرام .

« إن بعض أصحابنا المجتمعين إلى المذاكرة والمناظرة فى مسائل كتب المدونة ، سألنى أن أجمع له ما أمكن مما كنت أورده عليهم عند استفتاح كتبها ، وفى أثناء بعضها . عما يحسن الدخول به إلى الكتب ، أو إلى ما استفتحت عليه من فصول الكلام . وتعظم الفائدة ببسطه وتقديمه وتمهيده من معنى اسمه واشتقاق لفظه وتبيين أصله من الكتاب والسنة ، وما اتفق عليه أهل العلم من ذلك ، واختلفوا فيه بوجه بناء مسائله عليه وردها إليه ، وربطها بالتقسيم لها والتحصيل لمعانيها جريا على سنن شيخنا الفقيه أبى جعفر بن رزق رحمه الله تعالى . . . . فأجبت السائل لما سألنى من ذلك ، رجاء ثواب الله تعالى ورغبة فى حسن المثوبة عليه . ووصلت ذلك ببعض ما استكن ذا القول فيه من أعيان مسائل وقعت فى المدونة ناقصة مفرقة ، فذكرتها مجموعة ملخصة مشروحة بعللها مبينة ، فاجتمع من ذلك تأليف مفيد لم يسبقنى أحد ممن

تقدم إلى مثله سميته « بكتاب المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات » .

وفى أحد فصول الكتاب – وهو فصل فى وجوب طلب العلم – يعرض ابن رشد لوجوب طلب العلم مستمدا أدلته من آيات القرآن الكريم . ثم يضرب مثلا لمن ارتحلوا فى طلب العلم بابن القاسم الذى أقام متغربا عن بلده – مصر – فى رحلته إلى مالك عشرين سنة . ثم يذكر أيضا رحلة سحنون إلى ابن القاسم مغتربا فى طلب العلم وقراءة مسائل المدونة قائلا :

« رحل سحنون إلى ابن القاسم . فكان مما قرأ عليه مسائل المدونة والمختلطة ودونها . فحصلت أصل علم المالكيين . وهى مقدمة على غيرها من الدواوين بعد موطأ مالك . ويروى أنه مابعد كتاب الله أصح من موطأ مالك رحمه الله . ولا بعد الموطأ ديوان فى الفقه أفيد من المدونة . والمدونة هى عند أهل الفقه ككتاب سيبويه عند أهل النحو . وككتاب أقليدس عند أهل الحساب وموضوعها من الفقه موضع أم القرآن من الصلاة . تجزى من غيرها ولايجزى غيرها منها[٢] » .

– ٣ –

كتب أخرى فى المذهب المالكى :

قيل عن مصادر المذهب المالكى بعد الموطأ : الأمهات أربعة : « المدونة ، والموازية . والعتبية . والواضحة » .

أما وقد قدمنا تعريفا وافيا بالمدونة – وهى الأم الكبيرة فى الفقه المالكى – فإننا لانجد كبير بأس فى أن نقدم تعريفا موجزا بالأمهات الثلاث الباقيات . وسوف نحاول أن نفعل ذلك تبعا للتدرج التاريخى .

الواضحة :

ألفها عبد الملك بن حبيب الأندلسى المتوفى سنة ٢٣٨ هـ. لقد عمد ابن

(٢) المقدمات الممهدات ص ٢٧ .

حبيب إلى الرحلة إلى المشرق شأنه فى ذلك شأن أكثر علماء الأندلس . فرحل إلى الشرق عام ٢٠٨ والتقى بكثير من أصحاب مالك فى مصر بوجه خاص وكان أشهر من بقى على وجه الحياة منهم عبد الله بن عبد الحكم وعبد الملك بن الماجشون فسمع منهم وتتلمذ عليهم . وكان لهذين الأخيرين أكبر التأثير على تفكيره العلمى ونهجه الفقهى . ولما عاد من الشرق إلى قرطبة وكان ذلك عام ٢١٦ أى بعد ثمانى سنين من الاغتراب فى طلب العلم . ذاع أمره فقربه الأمير إليه . وانفرد بالمشاورة بعد وفاة ابن يحيى . وقد قام ابن حبيب بتأليف كتابه وأسماه « الواضحة » الذى يعتبر الأصل الثانى فى الفقه المالكى .

ولقد أقبل الأندلسيون على « الواضحة » درسا وحفظا وشرحا وتلخيصا . وليس من شك فى أن ابن حبيب كان قد قرأ المدونة واستوعبها . فعلى الرغم من أنه توفى قبل سحنون بعامين . إلا أن سحنون قد رأى ابن القاسم وابن وهب وأشهب . أما هو فلم يلقهم . بل إنه بدأ رحلته إلى المشرق بعد وفاة أصغرهما – وهو أشهب – بأربع سنوات . نسوق ذلك لكى نؤكد على المعنى الذى نريده وهو أن ابن حبيب كان قد حاز المدونة فترة غير قصيرة وأنه استوعبها . فقد كان ذكى الفؤاد جيد التحصيل . ومن ثم بدأ يرسم على منوالها . ولكن لابد للكتاب من أن يأتى بجديد لكى يعيش بجوار كتاب آخر عملاق يشترك معه فى الموضوع ذاته . وهذا مافعله ابن حبيب فى « الواضحة » بالقياس إلى سحنون فى « المدونة » فإذا كانت عناية سحنون فى « المدونة » أكثر ماكانت إلى تصحيح الرواية وتوثيق السماع . فإن ابن حبيب قد عنى فى « الواضحة » باستخراج المعانى وبيان الأصول التى قامت عليها الفروع . ومن ثم كان مقصده المعانى دون الأحكام .

على أن ابن حبيب لم يكن يحتفل بالروايات المختلفة وإنما كان يكتفى بما يجد فيه غناء . وليس ذلك المنهج مما ينبغى أن يسلكه مؤلف فى الأمهات . ولذلك يقول ابن فرحون فى هذا الصدد حين تحدث عن المؤلفين فى المذهب « ومنهم من كان قصده الدب عن المذهب فيما فيه الخلاف إلا ابن حبيب فإنه قصد إلى بناء المذهب على معان تأدت إليه . وربما قنع ببعض الروايات على مافيها » ويشير ابن

فرحون إلى حديث ابن حبيب عن الشافعى فيقول « وفى هذا الكتاب – أى الواضحة – جزء تكلم فيه على الشافعى بمسائل من أحسن كلام وأقبله[٣] » .

العتبية :

وتسمى أيضاً « المستخرجة » . والعتبية – الأم الثالثة للفقه المالكى – نسبة إلى مؤلفها العالم الأندلسى القرطبى محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبى المتوفى سنة ٢٥٥هـ .

والعتبى أحد أعيان فقهاء الأندلس . وهو تلميذ لسحنون . عليه درس وعنه أخذ . كما أنه تلميذ لعبد الملك بن حبيب . وقد وصف العتبى من ناحية علمه بأنه حافظ للمسائل . جامع لها . عالم بالنوازل .

أما « العتبية » فإنها تسمى كذلك «المستخرجة» ولقد سميت كذلك لأنها فيما يقول ابن فرحون : « وقد ألف كتابا اسمه « المستخرجة » أو « العتبية » استخرجها من « الواضحة » لعبد الملك بن حبيب » . وتمضى الرواية فتقول : كانت محل ثقة الأندلسيين والإفريقيين وقتا . ويقول ابن حزم « كان لها عند أهل العلم بإفريقية القدر العالى والطيران الحثيث »[٤] . ويقول ابن خلدون عنها : وكتب أهل الأندلس على العتبية ماشاء لهم أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله ويقول : اعتمد أهل الأندلس كتاب « العتبية » وهجروا الواضحة[٥] .

ولكن الأمر الجدير بالاعتبار أن العتبية قد نالت من النقد والتجريح أكثر مما نالت من التقدير والثناء . بل إن الثناء الذى وجه إليها ربما كان على سبيل المبالغة . فليس من المعقول أن تنال عند أهل إفريقية ذلك الثناء الذى سجله ابن حزم مع وجود « المدونة » لأستاذ الأساتذة الإفريقيين والأندلسيين بين أيديهم . وربما أشاد بها ابن رشد ولكنه فى هذه الحالة يكون قد فعل مافعل وهو بمعزل عن أن يربط بينها وبين « المدونة » ذلك أن رأيه فى« المدونة » مسجل وصريح .

(٣) الديباج المذهب ٢٣٣ .

(٤) نفس المرجع ٢٣٩ .

(٥) المقدمة ص ٢٤٥ .

أما من جرح العتبية فكثيرون . منهم ابن لبانة الذى يقول عن العتبى «كان يؤتى بالمسائل الغريبة . فإذا أعجبته قال أدخلوها فى المستخرجة» وقال أيضاً «كثرت فيها الروايات المطروحة والمسائل الشاذة»[٦] .

قد تحوى بعض الكتب النفيسة مسائل غريبة ولاينال ذلك من نفاستها . وإنما غاية مايقال إنه كان من المستحسن أن لو خلا الكتاب من هذا الذى كان سببا فى توجيه اللوم إلى صاحبه . وربما مانسب إلى العتبية إنما هو من هذا القبيل ولكن الشهادة التى تعيبها عيبا لا سبيل إلى تجاهله تكمن فيما قاله عنها محمد بن عبد الحكم، وهو من الجيل الثانى من مدرسة مالك . فقد كان أبوه تلميذا لمالك . وقد أخذ محمد عن أبيه وعن غير أبيه من أصحاب مالك الذين عاشوا فى مصر . إن محمدا يقول عن العتبية «أتيت بكتب حسنة الخط تدعى المستخرجة من وضع العتبى . فرأيت جلها كذبا . ومسائل لا أصول لها . ومما قد أسقط وطرح . وشواذ من مسائل المجالس لم يوقف على أصحابها[٧] .

الحق أن هذا الحكم لم يخل من شدة ولم يبرأ من عنف إذ لو كان صحيحا كل الصحة لنال من قدر هذا الكتاب الذى وصف بأنه الأم الثالثة للفقه المالكى . وأغلب ترجيحنا أن ذلك الذى قاله محمد بن عبد الحكم إنما هو من قبيل النقد الشديد . نقد الكل بسبب الجزء جريا على القاعدة المعروفة بتسمية الجزء باسم الكل .

الموازيّة :

وتلك هى الأم الرابعة . تمشيا مع العبارة المشهورة عن أمهات الفقه المالكى التى تقول : الأمهات أربع . . . . . .

ومؤلف «الموازية» عالم مصرى إسكندرانى هو محمد بن إبراهيم بن زياد الإسكندرى المتوفى سنة ٢٦٩ المعروف بابن المواز . ومن هنا كانت تسمية كتابه . وذلك على نسق «العتبية» فى نسبتها إلى العتبى .

---

(٦) الديباج المذهب ٢٣٩ .

(٧) المدارك ٣٣٨/٢ .

ولئن صح ما كتبه عنه القاضى عياض فإنه يسبق كثيرا من كتب الأمهات التى تناولناها قبل قليل . ربما سبق « الواضحة » وهو بلاشك يفضل « العتبية » .

يقول القاضى عياض عن « الموازية » : هو أجل كتاب ألفه المالكيون وأصحه مسائل . وأبسطه كلاما . وأوعبه . وذكره أبو الحسن القابسى . ورجحه على سائر الأمهات . وقال إن صاحبه قصد إلى بناء فروع أصحاب المذهب على أصولهم فى تصنيفه . وغيره إنما قصد لجمع الروايات . ونقل نصوص السماعات ومنهم من ينقل عنه الاختيارات فى شروح أفردها ؛ وجوابات لمسائل سئل عنها[٨] .

« فالموازية » وهذا وزنها عند فقهاء المالكية جديرة بأن تحتل مرتبة رفيعة تجعلها تأتى بعد « المدونة » فى الترتيب خاصة أنها تعرض للموازنة بين الفقه المالكى والفقه الحنفى والفقه الشافعى فى محاولة لإظهار مكانة مالك من حيث هو إمام لمدرسة فقهية جديرة بالتميز والحياة .

والحقيقة أن كتب الفقه المالكى من الكثرة بمكان ، وهى أيضا من النفاسة بمكان . ولكن الكتاب الذى يمكن أن يوصف بالدقة والإحاطة والشمول هو هذه « المدونة الكبرى » النفيسة التى كتبها إمام المالكين فى إفريقية الفقيه الصالح الزاهد عبد السلام بن سعيد سحنون التنوخى .



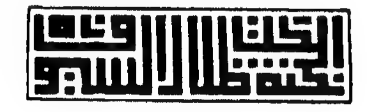
---

(٨) المدارك ٢/٢٢ والديباج ٢٣٣ .

نموذج

من المدونة لسحنون من فقه الإمام مالك

مختارات من أحكام الزكاة





مختارات من أحكام الزكاة

فى زكاة الذهب والورق :

قلت : لعبد الرحمن بن القاسم ماقول مالك فيما زاد على المائتين من الدراهم أن يؤخذ منه فيما قل أوكثر بحساب ذلك فقال : نعم مازاد على المائتين قل أو أكثر يكفيه ربع عشره قلت : ماقول مالك بن أنس فى رجل له عشرة دنانير ومائة درهم فقال : عليه الزكاة قلت : فما قوله فى رجل له مائة درهم وتسعة دنانير قيمة التسعة الدنانير مائة درهم فقال : لا زكاة عليه فيها قال : وقال مالك بن أنس إنما ينظر فى هذا إلى العدد إذا تكافأ كل دينار بعشرة دراهم قلت الدنانير أوكثرت إنما يجعل كل دينار بعشرة دراهم على ماكانت عليه الدراهم فى الزمان الأول فإن كانت تسعة دنانير وعشرة دراهم ومائة درهم وجبت فيها الزكاة فأخذ من الفضة ربع عشرها ومن الدنانير ربع عشرها وهكذا جميع هذه الوجوه ولا تقام الدنانير بالدراهم قال : أشهب : وإن زكاة العين يجمع فيها الذهب والفضة كما يجمع فى زكاة الماشية الضأن إلى المعز والجواميس إلى البقرة والبخت إلى الإبل العراب قال سحنون : وهى فى البيع أصناف مختلفة ولكنها تجمع فى الزكاة والعشرة دراهم بالدينار أبداً والدينار بعشرة دراهم فى الزكاة أبداً لقول رسول الله ﷺ ليس فيما دون خمس أواق زكاة والأوقية من الفضة أربعون درهماً ولقول رسول الله ﷺ فى عشرين ديناراً نصف دينار فعلم أن الدينار بعشرة دراهم سنة ماضية قال : وقال مالك بن أنس من كانت عنده دنانير وتبر مكسور يكون وزن التبر تمام عشرين ديناراً كانت فيه الزكاة وأخذ من الدنانير ربع عشرها ومن التبر كذلك وكذلك الدراهم والتبر قال : وقال مالك بن أنس من كانت له دنانير وجبت فيها الزكاة فأراد أن يخرج ماوجب عليه من زكاة الدنانير دراهم بقيمتها فلا بأس بذلك قلت : أرأيت الدنانير تكون عند الرجل عشرة دنانير فيتجر فيها فتصير عشرين ديناراً قبل الحول بيوم أيزكيها إذا حال الحول قال نعم قلت : لم

وليس أصل الدنانير نصاباً قال : لان ربح الدنانير هاهنا من المال بمنزلة غذاء الغنم منها التي ولدتها ولم يكن أصلها نصاباً فوجبت فيها الزكاة بالولادة فكذلك هذه الدنانير تجب فيها الزكاة بالربح فيها قلت : فإن كانت له عشرة دنانير حال عليها الحول عنده فاشترى بخمسة منها سلعة وأنفق الخمسة الباقية ثم باع السلعة بعد ذلك بأيام أو بعد سنة أو سنتين بخمسة عشر ديناراً قال : فإنه يزكي الخمسة عشر ديناراً نصف دينار وإنما ذلك بمنزلة رجل كانت له عشرون ديناراً فأقرضها رجلاً ثم اقتضى منها خمسة بعد سنة ثم اقتضى الخمسة عشر الباقية بعد ذلك بأيام أو بسنة أو بسنتين فإنه يزكيها ساعة يقبضها نصف دينار قلت : فإن أنفق خمسة من العشرة ثم اشترى سلعة بالخمسة الباقية فباعها بعد أيام أو بعد سنتين بخمسة عشر ديناراً قال : لاشيء عليه حتى يبيعها بعشرين ديناراً وقال سحنون : وقد احتج من يخالفه في هذه العشرة التي حال عليها الحول فاشترى سلعة بخمسة وأنفق خمسة أو أنفق خمسة واشترى سلعة بخمسة فباعها بخمسة عشر إن ذلك سواء لأنه مال واحد وأصل واحد حال على جميعه الحول وإن كانت العشرة لم يحل عليها الحول حتى اشترى بخمسة منها سلعة ثم أنفق الخمسة أو أنفق الخمسة ثم اشترى بالخمسة الباقية سلعة لم يكن عليه في ثمن السلعة شيء إلا أن يبيعها بعشرين لأن ما أنفق قبل الحول لا يحسب فكما لا يحسب ما أنفق قبل الحول فكذلك لايترك أن يحسب ما أنفق بعد الحول قبل الشراء أو بعد الشراء قال : ابن القاسم : وسألنا مالكاً عن الذهب يكون للرجل عشرة دنانير فيبيعها بعد ماحال عليها الحول بمائتي درهم هل ترى فيها الزكاة قال : نعم ساعتئذ ولا يؤخر ذلك وإنما ذلك بمنزلة رجل كانت عنده ثلاثون ضائنة حلوباً أو عشرون من الحواميس أو أربعة من البخت فباع الضأن بعد الحول وقبل أن يأتيه الساعي بأربعين من المعز وهي من غير ذوات الدر أو باع الجواميس بثلاثين من البقر أو باع البخت بعشرة من العراب فإن الساعي يأتيه فيزكيها لأنها إبل كلها وبقر كلها وغنم كلها وسنتها في الزكاة أنه لا يفرق بينهما وإن كانت في البيوع مختلفة .

ابن وهب : عن محمد بن مسلم الطائفي عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله أنه قال : قال رسول الله ﷺ لا صدقة في شيء من الزرع أو النخل أو

الكرم حتى يكون خمسة أوسق ولا فى الرقة تبلغ مائتى درهم . أشهب : عن ابن لهيعة عمن أخبره عن صفوان بن سليم أن رسول الله ﷺ قال فى كل مائتى درهم خمسة دراهم فى كل عشرين مثقالا ذهبا نصف مثقال قال ابن وهب : وأخبرنى جرير بن حازم والحارث بن نبهان عن الحسن بن عمارة عن أبى إسحاق الهمذانى عن عاصم بن ضمرة والحارث الأعور عن على بن أبى طالب عن رسول الله ﷺ أنه قال هاتوا إلى ربع العشر من كل أربعين درهماً وليس عليك شىء حتى يكون لك مائتا درهم فإذا كانت لك مائتا درهم وحال عليها الحول ففيها خمسة دراهم وليس عليك شىء حتى تكون لك عشرون ديناراً فإذا كانت لك وحال عليها الحول ففيها نصف دينار فما زادت فبحساب ذلك . قال فلا أدرى أعلىٌّ يقول بحساب ذلك أم يرفعه إلى النبى ﷺ إلا أن جريراً قال فى الحديث عن النبى ﷺ إنه قال وليس فى مال زكاة حتى يحول عليه الحول . ابن مهدى : عن سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن على بن أبى طالب قال فى كل مائتى درهم خمسة دراهم فما زاد فبالحساب . ابن مهدى : وذكر سفيان وشعبة عن المغيرة عن إبراهيم بمثل قول علىّ فما زاد .

باب ماجاء فى المال يشترى به صاحبه بعد الحول قبل أن يؤدى زكاته :

قال وقال مالك بن أنس ولو أن رجلاً كانت عنده عشرون ديناراً فحال عليها الحول فابتاع بها سلعة ولم يكن أخرج زكاتها فأقامت السلعة بعد الحول عنده حتى حال عليها حول آخر ثم باعها بأربعين ديناراً فقال : يزكى عشرين ديناراً للسنة الأولى نصف دينار ثم يزكى للسنة الثانية تسعة وثلاثين ديناراً ونصف دينار قلت : ولم لا يزكى الأربعين كلها للسنتين فقال : لأن المال إذا أخذ منه نصف دينار نقص فإنما يزكى مابعد نقصانه لأن النصف حين أعطاه المساكين فكأنه إنما أعطاه يوم حال عليه الحول وصارت عليه الزكاة فيما بقى للسنة الثانية . ابن عتاب : قال أشهب وإن كان عنده عرض يكون قيمته نصف دينار أو أكثر زكى الأربعين للسنة الأدنى ديناراً وزكى للحول الأول نصف دينار لأن التفريط يحسب عليه شبه الدين وله عرض يحمل دينه قال : وقال لى مالك بن أنس وإن اشترى سلعة

بالعشرين الدينار بعد الحول ولم يكن زكى العشرين حتى مضى الحول ثم باع السلعة بعد ذلك بستة أشهر بثلاثين ديناراً قال : لا زكاة عليه إلا فى العشرين الدينار ويستقبل بالتسعة والعشرين الدينار ونصف دينار حولاً من يوم حال حول على العشرين قلت : أرأيت لوكان لرجل مائة دينار حال عليها الحول فاشترى بها خادماً فمات الخادم أعليه الزكاة فى الدنانير قال : نعم لأنه حين اشترى الخادم بعد ما حال الحول على المائة ضمن الزكاة قال : قلت وهذا قول مالك بن أنس ؟ قال نعم : قلت : فإن حال الحول وهى عنده ففرط فى زكاتها حتى ضاعت قال : عليه الزكاة وإن كان لم يفرط فلا زكاة عليه فيها قلت : وهذا قول مالك بن أنس ؟ قال نعم .

فى زكاة الحلى :

قال : وقال مالك بن أنس كل حلى هو للنساء اتخذته للبس فلا زكاة عليهن فيه قال : فقلنا لمالك فلو أن امرأة اتخذت حلياً تكريه تكتسب عليه الدراهم مثل الجيب وما أشبهه تكريه للعرائس لذلك عملته فقال : لا زكاة فيه قال : وما انكسر من حليهن فحبسنه ليعدنه أو ما كان للرجل من حلى يلبسه أهله وأمهات أولاده وخدمه والأصل له فلا زكاة عليه فيه وما انكسر منه يريد أن يعيده لهيئته فلا زكاة فيه عليه وما ورث الرجل من أمه أو من بعض أهله فحبسه للبيع أو لحاجة إن احتاج إليه يرصده لعله يحتاج إليه فى المستقبل ليس يحبسه للبس فقال : أرى عليه فيما فيه من الذهب والورق الزكاة إن كان فيه مايزكى أوكان عنده من الذهب والورق ماتتم به الزكاة قال : ولا أرى فى حلية السيف ولا المصحف ولا الخاتم زكاة قال : وقال مالك فيمن اشترى حلياً للتجارة وهو ممن لا يدير التجارة فاشترى حلياً فيه الذهب والفضة والياقوت والزبرجد واللؤلؤ فحال عليه الحول وهو عنده فقال : ينظر إلى مافيه من الورق والذهب فيزكيه ولا يزكى مافيه من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت حتى يبيعه فإذا باعه زكاه ساعة يبيعه إن كان قد حال عليه الحول قال : وإن كان ممن يدير ماله فى التجارات إذا باع اشترى قوم ذلك كله فى شهره الذى يقوم فيه ماله فزكاة لؤلؤه وزبرجده وياقوته وجميع

مافيه إلا التبر الذهب والفضة فإنه يزكى وزنه ولا يقومه وقد روى : ابن القاسم وعلى بن زياد وابن نافع أيضاً إذا اشترى رجل حلياً أو ورثه فحبسه لبيع كلما احتاج إليه باع أو لتجارة زكاة وروى : أشهب فيمن اشترى حلياً للتجارة معهم . وهو مربوط بالحجارة ولا يستطيع نزعه فلا زكاة عليه فيه حتى يبيعه وإن كان ليس بمربوط فهو بمنزلة العين يخرج زكاته فى كل عام وقال أشهب : وابن نافع . فى روايتهما إنه بمنزلة العرض يشترى للتجارة وهو ممن يدير أو لايدير يزكى قيمته فى الإدارة . ويزكى ثمنه إذا باع زكاة واحدة إذا بلغ ماتجب فيه الزكاة إذا كان ممن لايدير قلت : فإن كان ممن يدير ماله فى التجارة أو لايدير فاشترى آنية من آنية الفضة أو الذهب وزنها أقل من قيمتها أيزكى قيمتها أم ينظر إلى وزنها ؟ قال : ينظر إلى وزنها ولا ينظر إلى قيمتها قلت : فإن كانت قيمة هذه الآنية ألف درهم للصياغة التى فيها ووزنها خمسمائة درهم قال : إنما ينظر إلى وزنها ولا ينظر إلى الصياغة قلت : فهل تحفظ هذا من مالك قال : قال مالك كل من اشترى حلياً للتجارة ذهباً أو فضة فإنه يزنه ويخرج ربع عشره ولم يقل يقومه قال ابن القاسم : ومما يدلك على هذا أنه لو اشترى إناء مصوغاً فيه عشرة دنانير وقيمته بصياغته عشرون ديناراً فحال عليه الحول إنه لا زكاة عليه فيه إلا أن يبيعه بما تجب فيه الزكاة فإن باعه بما تجب فيه الزكاة وقد حال على الإناء عنده الحول زكاه ساعة يبيعه لأن هذا عندى بمنزلة مال لا تجب فيه الزكاة فحال عليه الحول فربح فيه فباعه بتمام ماتجب فيه الزكاة فإنه يزكيه مكانه قلت : وهذا قول مالك قال نعم . ابن القاسم : عن مالك قال حدثنى عبد الرحمن بن القاسم بن محمد عن أبيه أن عائشة زوج النبى ﷺ كانت تلى بنات أخيها يتامى فى حجرها لهن الحلى فلا تخرج منه الزكاة أشهب : عن سليمان بن بلال أن يحيى بن سعيد حدثه أن إبراهيم بن أبى المغيرة أخبره أنه سأل القاسم بن محمد عن زكاة الحلى فقال ما أدركت أو ما رأيت أحداً صدقه . قال ابن وهب : قال يحيى فسألت عمرة عن صدقة الحلى فقالت مارأيت أحداً يصدقه ولقد كان لى عقد قيمته اثنتا عشرة مائة فما كنت أصدقه . أشهب : عن ابن لهيعة عن عمارة بن غزية حدثه عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن أن عبد الله بن مسعود وأنس بن مالك كانا يقولان

ليس فى الحلى زكاة إذا كان يعار وينتفع به . ابن وهب : قال ابن لهيعة وأخبرنى عميرة بن أبى ناجية حدثه عن زريق بن حكيم أنه قال عندى حلى فسألت ابن المسيب عن زكاته فقال إن كان موضوعاً لا يلبس فزكه . ابن وهب : قال ابن لهيعة وأخبرنى خالد بن يزيد عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله أنه قال ليس فى الحلى زكاة إذا كان يعار ويلبس وينتفع به . أشهب : عن المنذر بن عبد الله أن هشام بن عروة حدثه عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء بنت عميس أنه كان لها حلى فلم تكن تزكيه قال هشام ولم أر عروة يزكى الحلى . قال ابن وهب : وأخبرنى رجال من أهل العلم عن جابر بن عبد الله وأنس بن مالك وعبد الله بن مسعود والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب وربيعة بن أبى عبد الرحمن وعمرة ويحيى بن سعيد قالوا ليس فى الحلى زكاة.ابن مهدى : عن هشام عن قتادة عن سعيد والحسن وعمر بن عبد العزيز قالوا زكاة الحلى أن يعار ويلبس. بن مهدى : عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال إن الحلى إذا كان يوضع كنزاً فإن فى كل مال يوضع كنزا الزكاة وأما حلى تلبسه المرأة فلا زكاة فيه .

ما جاء فى أموال الصبيان والمجانين :

قلت: هل في أموال الصبيان والمجانين زكاة فقال: سألنا مالكاً عن الصبيان فقال في أموالهم الصدقة وفي حروثهم وفي ناضهم وفي ماشيتهم وفيما يريدون للتجارة. فقال ابن القاسم: والمجانين عندي بمنزلة الصبيان. أشهب: عن ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اضربوا بأموال اليتامى وابحروا بأموال اليتامى لا تأكلها الزكاة» أشهب: وقال مالك بلغني أن عمر بن الخطاب قال مثل ذلك سواء. ابن وهب: عن ابن لهيعة عن عقيل عن ابن شهاب أن عمر بن الخطاب قاله. أشهب: عن مالك بن أنس وسفيان بن عيينة أن عبد الرحمن بن القاسم حدثها عن أبيه أنه قال: كانت عائشة تليني أنا وأخاً لي يتيمين في حجرها فكانت تخرج من أموالنا الزكاة. ابن وهب: عن سليمان بن بلال أن عبد الرحمن بن الحارث حدثه أنه سمع القاسم بن محمد يقول كنا يتامى في حجر عائشة وكانت لنا عندها أموال فكانت تقارض أموالنا فتخرج من الربح قدر

الزكاة. ابن وهب: عن الليث أن نافعاً حدثه أن ابن عمر كان يكون عنده اليتامى فيخرج صدقة أموالهم من أموالهم. قال أشهب: قال أبو الزناد وحدثني الثقة أن ابن عمر أتى بمال يتيم أخواله من بني جمح وهو موسى بن عمر بن قدامة فأبى أن يقبله إلا أن يؤدي زكاة ماله كل عام فأبوا فأبى، وال ابن وهب: عن يزيد بن عياض عن عمرو بن شعيب أن رسول الله ﷺ قال: «**اضربوا لليتامى في أموالهم ولا تضعوها فتذهب بها الزكاة**» قال ابن وهب: وأخبرني رجال من أهل العلم أن علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله وربيعة بن أبي عبد الرحمن وعطاء كانوا يقولون تخرج من مال اليتيم الزكاة. أشهب: عن ابن لهيعة أن سليمان بن يسار وابن شهاب قالا في مال المجنون الزكاة. ابن مهدي: عن سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن ابن لأبي رافع قال باع لنا علي بن أبي طالب أرضاً بثمانين ألفاً فأعطاناها فإذا هي تنقص فقال إني كنت أزكيها. ابن مهدي: عن شعبة بن الحجاج عن الحكم قال ولي على مال بني أبي رافع فكان يزكيه. ابن مهدي: عن أبي عوانة عن الحكم بن عيينة أن عمر وعلياً وعائشة كانوا يزكون أموال اليتامى. ابن مهدي: عن إسرائيل بن يونس عن عبد العزيز بن رفيع عن مجاهد قال: قال عمر بن الخطاب اتجروا بأموال اليتامى واعطوا صدقتها.

فى زكاة السلع :

قال : وقال مالك إذا كان الرجل إنما يشترى النوع الواحد من التجارة أو الأنواع وليس ممن يدير ماله فى التجارات فاشترى سلعة أو سلعاً كثيرة يريد بيعها فبارت عليه ومضى الحول فلا زكاة عليه فيها وإن مضى لذلك أحوال حتى يبيع فإذا باع زكى زكاة واحدة وإنما مثل هذا مثل الرجل يشترى الحنطة فى زمان الحصاد فيريد البيع فى غير زمان الحصاد ليربح فتبور عليه فيحبسها فلا زكاة عليه فيها . قال على بن زياد : قال مالك الأمر عندنا فى الرجل يكون له من الدين ماتجب فيه الزكاة فيغيب عنه سنين ثم يقبضه أنه ليس عليه فيه إلا زكاة واحدة

إذا قبضه قال والدليل على أنه ليس على الرجل فى الدين يغيب عنه سنين ثم يقبضه إلا زكاة واحدة وفى العروض يبتاعها للتجارة فيمسكها سنين ثم يبيعها أنه ليس عليه إلا زكاة واحدة أنه لو وجب على رب الدين أن يخرج زكاته قبل أن يقبضه لم يجب عليه أن يخرج فى صدقة الدين إلا ديناً يقطع به لمن يلى ذلك على الغرماء يتبعهم به إن قبض كان له وإن تلف كان منه من أجل أن السنة أن تخرج صدقة كل مال منه (قال سحنون) : وإنما قال رسول الله ﷺ :

« الزَّكاةُ فِي الْحَرْثِ والْعَيْنِ وَالْمَاشِيَةِ فَلَيْسَ فِي العرُوضِ شَيءٌ حَتَّى تَصِيْرَ عَيْناً »

قلت : أرأيت لو أن رجلاً كانت عنده دابة للتجارة استهلكها رجل فضمن قيمتها فأخذ منه رب الدابة سلعة بقيمتها التى وجبت له أن يكون عليه فى قيمة هذه السلعة التى للتجارة زكاة . فقال : إن كان نوى بالسلعة التى أخذ التجارة زكى ثمنها ساعة بيعها إذا كان الحول قد حال على أصل هذا المال من يوم زكى أصل هذا المال وهو ثمن الدابة المستهلكة وإن كان حين أخذ السلعة بقيمة الدابة المستهلكة لم ينو بها التجارة ونوى بها القنية فلا شيء عليه فيها وإن باعها حتى يحول الحول على ثمنها من يوم باعها وإن كان أخذ فى قيمة الدابة المستهلكة دنانير أو دراهم وقد حال الحول على الأصل زكى الدنانير والدراهم ساعة يقبضها وإن لم يكن حال الحول ثم اشترى بتلك الدنانير والدراهم سلعة فإن نوى بها التجارة فهى للتجارة وإن نوى بها حين اشتراها القنية فهى على القنية لا زكاة عليه فى ثمنها إذا باعها حتى يحول على ثمنها الحول. قلت: وهو قول مالك فقال: قول مالك فى البيع مثل هذا ورأيت أنا هذه المسئلة فى الاستهلاك مثل قول مالك فى البيع قلت : أرأيت لو أن رجلاً كانت عنده سلعة فباعها بعد ما حال عليها الحول بمائة دينار فقال : إذا قبض المائة زكاها مكانه قلت : فإن لم يقبض المائة ولكنه أخذ بها ثوباً قيمته عشرة دنانير فقال : لاشيء عليه فى الثوب حتى يبيعه قلت : فإن باع الثوب بعشرة دنانير قال : لاشيء عليه فيها وقد سقطت الزكاة عنه إلا أن يكون له مال قد جرت فيه الزكاة إذا أضافه كان فيهما الزكاة قلت : فإن باعها بعشرين ديناراً فقال : يزكى يخرج ربع عشرها نصف دينار قلت : وهذا قول

مالك قال نعم قلت : أرأيت عبدا اشتراه رجل للتجارة فكاتبه فمكث عنده سنين يؤدى فاقتضى منه مالاً ثم عجز فرجع رقيقاً فباعه مكانه أيؤدى من ثمنه زكاة التجارة أم هو لما رجع إليه صار فائدة فقال : إذا عجز فرجع رقيقاً رجع إلى الأصل وكان للتجارة ولا تنقض الكتابة ماكان اتباعه له لأن ملكه لم يزل عنه وإنما مثل هـذا عندى مثل مالو أنه باع عبداً له من رجل فأفلس المشترى فأخذ عبده أو أخذ عبداً من غريمه فى دينه فإنه يرجع إلى الأصل ويكون للتجارة كما كان . قال : وكذلك لو أن رجلاً اشترى داراً للتجارة فواجرها سنين ثم باعها بعد ذلك فإنها ترجع إلى الأصل ويزكيها على التجارة ساعة يبيع قلت : أرأيت الرجل يتكارى الأرض للتجارة ويشترى الحنطة فيزرعها يريد بذلك التجارة فقال : قال لى مالك فى هـذا إذا اكترى الرجل الأرض واشترى حنطة فزرعها يريد بذلك التجارة فإذا حصد زرعه أخرج منه العشر إن كان مما يجب فيه العشر أو نصف العشر إن كان مما يجب فيه نصف العشر فإن مكثت الحنطة عنده بعد ماحصدها وأخرج منها زكاة حصادها حولاً ثم باعها فعليه الزكاة يوم باعها وإن كان باعها قبل الحول فلا زكاة عليه حتى يحول عليها الحول من يوم أدى زكاة حصادها وإن كان تكارى الأرض وزرعها بطعامه فحصده وأدى زكاته حين حصده ورفع طعامه فأكل منه وفضلت منه فضلة فباعها كانت فائدة ويستقبل بها حولاً من يوم نض فى يديه . وإن كانت له الأرض فزرعها للتجارة فإنه إذا رفع زرعه وحصده زكاه مكانه ولم يكن عليه إذا باع فى ثمنه زكاة حتى يحول عليه الحول من يوم قبض ثمنه قلت : أرأيت من اكترى أرضاً للتجارة واشترى حنطة وهو ممن يدير التجارة فزرع الأرض أيكون عليه عشر ما أخرجت الأرض قال نعم قلت : فإن هو أخرج عشر ما أخرجت الأرض فحال عليه الحول أيزكى زكاة التجارة وهو ممن لا يدير ماله فى التجارة فقال : لاحتى يبيع الحنطة بعد الحول فإذا باع زكى الثمن مكانه قلت : فمن أين تحسب السنة أمن يوم اشترى الحنطة للتجارة واكترى الأرض أم من يوم أدى زكاة الزرع فقال : من يوم أدى زكاة الزرع قلت : فإن هو باع الحنطة قبل أن يحول عليها الحول من يوم أدى زكاة عشر ما أخرجت الأرض فقال : ينتظر حتى تأتى السنة من يوم أخرج العشر قلت:

فإن كان هـذا يدير ماله فى التجارة فقال : إذا رفع زرعه زكى العشر ويستقبل من يوم زكى الزرع سنة كاملة فإذا جاءت السنة فإن كان له مال سوى هـذا الناض ناض فى سنته هـذه زكى هـذه الحنطة وإن لم يبعها وهـذا مخالف للذى لا يدير ماله لأن الذى يدير ماله هـذه الحنطة فى يديه للتجارة وعنده مال ناض غير هـذه الحنطة فلما حال الحول على هـذه الحنطة لم يكن له بد من أن تقوم هـذه الحنطة.قلت : أرأيت لو أن رجلاً اشترى عروضاً للتجارة فبدا له فجعل ذلك لجمال بيته واقتناه أتسقط عنه زكاة التجارة ؟ قال نعم قلت : وهـذا قول مالك قال نعم . ابن وهب : عن يونس بن يزيد عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن أنه قال إن بارت عليه العروض ولم يخلص إليه ماله فليس عليه صدقة حتى يخلص إليه وإنما فيه إذا خلص العرض والدين وصار عيناً ناضاً صدقة واحدة.وقال : عطاء ابن أبى رباح ويحيى بن سعيد مثل قول ربيعة بن أبى عبد الرحمن . قال : وقال مالك إذا كان رجل يدير ماله فى التجارة كلما باع اشترى مثل الحناطين والبزازين والزياتين ومثل التجار الذين يجهزون الأمتعة وغيرها إلى البلدان فقال : ليجعلوا لزكاتهم شهراً من السنة فإذا جاء ذلك الشهر قوموا ماعندهم مما هو للتجارة وما فى أيديهم من الناض(*) فزكوا ذلك كله. قال: فقلت لمالك فإن كان له دين على الناس فقال : يزكيه مع ما يزكى من تجارته يوم يزكى تجارته إن كان ديناً يرتجى اقتضاؤه قال : فقلت له فإن جاءه عام آخر ولم يقتضى فقال : يزكيه أيضاً قال : ومعنى قوله فى ذلك أن العروض والدين سواء لأن العروض لو بارت عليه وهو ممن يقوم يريد من يدير التجارة زكى العروض السنة الثانية فالدين والعروض فى هـذا سواء فلو لم يكن على الدين شىء فى السنة الثانية لم يكن على العروض شىء فى السنة الثانية لأنه لا زكاة فى عرض على من لايدير التجارة حتى يبيع ولافى دين حتى يقتضى فلما كان الذى يدير التجارات الذى لايشترى إلا باع يزكى عروضه التى عنده فكذلك يزكى دينه الذى يرتجى اقتضاؤه . قال : وقال مالك إذا كان الرجل يدير ماله فى التجارة فجاء يومه الذى يقوّم فيه وله دين من عروض أو غير ذلك على الناس لا يرجوه فقال : إذا كان لا يرجوه لا يقومه وإنما يقوم ما يرتجيه من ذلك.قال مالك : ويقوم الرجل الحائط إذا اشتراه للتجارة إذا

(*) الناض يعنى العملة أى الدرهم والدينار.

كان يدير ماله فى التجارة . قال ابن القاسم : ولا يقوم الثمر لأن الثمر فيه زكاة الثمر فلا يقومه مع ما يقوم من ماله ولأنه غلة بمنزلة خراج الدار وكسب العبد وإن اشترى رقابها للتجارة وهى بمنزلة غلة الغنم ما يكون من صوفها ولبنها وسمنها وإن كانت رقابها للتجارة أو للقنية.قلت : أرأيت رجلاً كان يدير ماله للتجارة لا ينض له شيء فاشترى بجميع ماعنده حنطة فلما جاء شهره الذى يقوم فيه كان جميع ماله الذى يتجر فيه حنطة فقال أنا أؤدى إلى المساكين ربع عشر هـذه الحنطة كيلاً ولا أقوم . فقال : قال لى مالك بن أنس إذا كان رجل يدير ماله فى التجارة ولا ينض له شيء إنما يبيع العرض بالعرض فهذا لايقوم ولاشيء عليه أى لا زكاة ولا يقوم حتى ينض له بعض ماله قال مالك : ومن كان يبيع بالعين والعرض فذلك الذى يقوم.قال سحنون : وكذلك روى ابن وهب عن مالك فى الذى لا ينض له شيء إنما يبيع العرض بالعرض قلت : أرأيت إن كان يدير ماله للتجارة فحالت عليه أحوال لاينض له منها شيء ثم إنه باع منها بدرهم واحد ناض فقال : إذا نض مما فى يديه من العروض بعد الحول وإن درهماً واحداً فقد وجبت الزكاة ويقوم العرض مكانه حين نض هـذا الدرهم فيزكيه كله ويستقبل الزكاة من ذى قبل قلت : فإن أتت السنة من ذى قبل وليس عنده من الناض شيء وماله كله فى العروض وقـد كان فى وسط السنة وفى أولها وآخرها قـد كان ينض له إلا أنه لما حال الحول ذلك اليوم لم يكن عنده من الناض شيء وكان جميع مافى يديه عرضاً فقال : يقوم ويزكى لأن هـذا قـد كان يبيع فى سنته بالعين والعروض قلت : فإن هو باع من ذى قبل بالعرض ولم ينض له شيء حتى أتى الحول وجميع ماعنده عرض أيقوم ؟ فقال : لايقوم لأن هـذا لم ينض له شيء فى سنته هـذه وإنما كان رجل يبيع العرض بالعرض فلا تقويم عليه ولا زكاة حتى ينض له مما فى يديه شيء من يوم زكى إلى أن يحول الحول من ذى قبل قلت : فإن باع بعد الحول فنض له وإن درهماً واحداً زكاه فقال نعم : قلت : ويكون هذا اليوم الذى زكى فيه وقته ويستقبل حولاً من ذى قبل ويلغى الوقت الأول فقال : نعم لأن مالكاً قال لى لا يقوم من يبيع العرض بالعرض لا ينض له شيء . ابن وهب : قال أخبرنى الليث بن سعد وعمرو بن الحارث عن يحيى بن

سعيد عن أبى عمرو بن حماس عن أبيه أنه كان يبيع الجلود والقرون . فإذا فرغ منها اشترى مثلها فلا يجتمع عنده أبداً ما تجب فيه الزكاة فمر به عمر بن الخطاب وعليه جلود يحملها للبيع فقال له زك مالك يا حماس فقال ماعندى شيء تجب فيه الزكاة ، فقال قوم فقوم ماعنده ثم أدى زكاته . قال سحنون : قال عمرو بن الحارث وقال يحيى بن سعيد إنما هذا للذى يدير ماله فلو أنه كان لا يقوم ماله لم يزك أبداً وأما الذى تكسد سلعته فلا زكاة عليه حتى يبيع .

فى زكاة القرض وجميع الدين :

قلت أرأيت لو أنى أقرضت رجلاً مائة دينار قد وجبت على زكاتها فلم أخرج زكاتها حتى أقرضتها فمكثت عند الذى أقرضتها إياه سنتين ثم ردها ماذا يجب على من زكاتها . قال : زكاة عامين وهى الزكاة التى وجبت عليك وزكاة عام بعد ذلك أيضاً ، قال : وهذا قول مالك قلت : أرأيت ديناً لى على رجل أقرضته مائة دينار فأقام الدين عليه أعواماً فاقتضيت منه ديناراً واحداً أترى أن أزكى هذا الدينار فقال لا قلت : فإن اقتضيت منه عشرين ديناراً فقال : تزكى نصف دينار قلت : فإن اقتضيت منه ديناراً بعد العشرين الدينار قال : تزكى من الدينار ربع عشره قلت : فإن كان قد أتلف العشرين كلها ثم اقتضى ديناراً بعد ما أتلفها فقال : نعم يزكيه وإن كان أتلف العشرين لأنه لما اقتضى العشرين صار مالا تجب فيه الزكاة فما اقتضى بعد هذا فهو مضاف إلى العشرين وإن كانت العشرون قد تلفت. قلت : ولم لا يزكى إذا اقتضى مادون العشرين فقال : لأنا لاندرى لعله لايقتضى غير هذا الدينار والزكاة لاتكون فى أقل من عشرين ديناراً قلت : أليس يرجع هذا الدينار إليه على ملكه الأول وقد حال عليه الحول فلم لا يزكيه ؟ قال : لأن الرجل إذا كانت عنده مائة دينار فمضى لها حول فلم يفرط فى زكاتها حتى ضاعت كلها إلا تسعة عشر ديناراً لم يكن عليه فيها زكاة لأنها قد رجعت إلى مالا زكاة فيه وكذلك هذا الدين حين اقتضى منه ديناراً . قلنا لا زكاة عليك حتى تقبض ماتجب فيه الزكاة لأنا لا ندرى لعلك لا تقتضى غيره فتزكى مالا تجب فيه الزكاة ومن كان اقتضى ماتجب فيه الزكاة زكاه ثم

يزكي ما اقتضى من الدين من قليل أو كثير. قلت: أرأيت إن كانت عنده عشرون ديناراً وله مائة دينار دين على الناس أيزكي العشرين إن كان الدين قد حال عليه الحول ولم يحل على العشرين الحول فقال: لا. قلت: فإن اقتضى من الدين أقل من عشرين ديناراً أفيزكيه مكانه؟ قال لا. قلت: لم؟ فقال لأن العشرين التي عنده ليست من الدين وهي فائدة لم يحل عليها الحول. قلت: فإن حال الحول على العشرين التي عنده وقد كان اقتضى من الدين أقل من عشرين ديناراً فقال: يزكي العشرين الدينار الآن وما اقتضى من الدين جميعاً. قلت: فإن كانت عنده العشرون الدينار ولم يقبض من الدين شيئاً حتى حال الحول على العشرين ثم اقتضى من الدين ديناراً واحداً أيزكي الدينار الذي اقتضى؟ قال نعم: قلت: فإن تلفت العشرون فاقتضى ديناراً بعدها أيزكيه قال نعم: قلت: وما الفرق بين ما اقتضى من الدين وبين الفائدة جعلت ما اقتضى من الدين تجب فيه الزكاة يزكي كلما اقتضى بعد ذلك وإن كان الذي اقتضى أولاً قد تلف وجعلته في الفائدة إن تلفت قبل أن يحول عليها الحول ثم اقتضى من الدين شيئاً لم يزكه إلا أن يكون اقتضى من الدين ماتجب فيه الزكاة فقال: لأن الفائدة ليست من الدين إنما تحسب الفائدة عليه من يوم ملكها وما اقتضى من الدين يحسب عليه من يوم ملكه وقد كان ملكه لهذا الدين قبل السنة فهذا فرق مابينهما. قلت: وهذا قول مالك قال نعم. قال ابن القاسم: ولو أن رجلاً كانت له مائة دينار فأقامت في يديه ستة أشهر ثم أخذ منها خمسين ديناراً فابتاع بها سلعة فباعها بثمن إلى أجل فإن بقيت الخمسون في يديه حتى يحول عليها الحول زكاها ثم ما اقتضى بعد ذلك من ثمن تلك السلعة من قليل أو كثير زكاه وإن كانت الخمسون قد تلفت قبل أن يحول عليها الحول وتجب فيها الزكاة فلا زكاة عليه فيما اقتضى حتى يبلغ ما اقتضى عشرين ديناراً فإن بقيت الخمسون في يديه حتى يزكيها ثم أنفقها بعد ذلك فأقام دهراً ثم اقتضى من الدين ديناراً فصاعداً فإنه يزكيه لأن هذا الدينار من أصل مال قد وجبت فيه الزكاة وهي الخمسون التي زكاها فالدين على أصل تلك الخمسين لأنه حين وجبت الزكاة في الخمسين صار أصل الدين وأصل الخمسين واحداً في وجوب الزكاة ويفترقان في أحوالها وإنما مثل

ذلك مثل الرجل يبيع السلعة بمائة دينار ولا مال له غيرها فتقيم سنة فى يد المشترى ثم يقتصى منها عشرين ديناراً فيخرج منها نصف دينار ثم يستهلكها ثم يقتضى بعد ذلك من ذلك الدين شيئاً فما اقتضى من قليل أوكثير فعليه فيه الزكاة لأن أصله كان واحداً . قال : وكل مال كان أصله واحداً أقرضت بعضه أو ابتعت ببعضه سلعة فبعتها بدين ويبقى بعض المال عندك وفيما أبقيت ماتجب فه الزكاة فلم تتلفه حتى زكيته فهو والمال الذى أقرضت أو ابتعت به سلعة فبعت السلعة بدين فهو أصل واحد يعمل فيها كما يعمل فيه لو ابتيع به كله ، فإذا اقتضى مما ابتيع به كله عشرين ديناراً وجب فيه نصف دينار ، وما اقتضى بعد ذلك من قليل أوكثير ففيه الزكاة ، وإن كان قد استهلك العشرين التى اقتضى . قال وهذا قول مالك بن أنس . قال ابن القاسم : وكل مال كان أصله واحداً فأسلفت بعضه أو ابتعت ببعضه سلعة وأبقيت منه فى يديك مالا تجب فيه الزكاة فحال عليه الحول وهو فى يديك ثم أتلفته فإنه يضاف ما اقتضيت إلى ماكان فى يديك مما لا زكاة فيه . فإذا تم ما اقتضيت إلى ماكان فى يديك مما أنفقت بعد الحول فإنه إذا تم عشرين ديناراً فعليك فيه الزكاة ثم ما اقتضيت بعد ذلك من قليل أوكثير فعليك فيه الزكاة ، وكل مال كان أصله واحداً فابتعت ببعضه سلعة أو اسلفت بعضه وأبقيت في يديك ما لا تجب فيه الزكاة، ثم استهلكته قبل أن يحول عليه الحول فإنه لايضاف شيء من مالك خارجاً من دينك إلى شيء منه وما اقتضيت منه قبل أن يحول عليه الحول واستهلكته قبل أن يحول عليه الحول فهو كذلك لا يضاف إلى مابقى لك من دينك ولكن ماحال عليه الحول فى يديك مما فيه الزكاة أو لا زكاة فيه، فإنه يضاف إلى دينك. فإن كان الذى في يديك مما فيه الزكاة . فإنك تزكى ما اقتضيت من قليل أوكثير من دينك ، وإن كنت قد استهلكته وإن كان لاتجب فى مثله الزكاة مما حال عليه الحول ، فاستهلكته بعد الحول فإنك لاتزكى ما اقتضيت حتى تتم ما اقتضيت وما استهلكت بعد الحول عشرين ديناراً فتخرج زكاتها ، ثم ما اقتضيت بعد ذلك من قليل أوكثير فعليك فيه الزكاة قلت : ماقول مالك فى الدين يقيم على الرجل أعواما فكم يزكيه صاحبه إذا قبضه ؟ قال : لعام واحد . قلت : وإن كان الدين مما يقدر على

أخذه فتركه أوكان مفلساً لا يقدر على أخذه منه فأخذه بعد أعوام . أهـذا عند مالك سواء ؟ قال : نعم عليه زكاة عام واحد إذا أخذه وهـذا كله عند مالك سواء . قلت : أرأيت لو أن رجلاً كانت له دنانير على الناس فحال عليها الحول . فأراد أن يؤدى زكاتها من ماله قبل أن يقبضها . فقال : لا يغرم يقدم زكاتها قبل أن يقبضها . قال : وقـد قال لى مالك فى رجل اشترى سلعة للتجارة فحال عليها الحول قبل أن يبيعها فأراد أن يقدم زكاتها . فقال : مالك لا يفعل ذلك . قال : فقلت له إن أراد أن يتطوع بذلك قال يتطوع فى غير هـذا ويدع زكاته حتى يبيع عرضه والدين عندى مثل هـذا . قال ابن القاسم : فإن قدم زكاته لم يجزه فرأيت الدين مثل هـذا . ابن وهب : وأشهب عن القاسم بن محمد عن عبد الله بن عمر أن عبد الله بن دينار حدثه عن ابن عمر أنه قال : ليس فى الدين زكاة حتى يقبض فإذا قبض فإنما فيه زكاة واحدة لما مضى من السنين . أشهب : قال وأخبرنى ابن أبى الزناد وسليمان بن بلال والزنجى مسلم بن خالد أن عمر مولى المطلب حدثهم أنه سأل سعيد بن المسيب عن زكاة الدين فقال ليس فى الدين زكاة حتى يقبض فإذا قبض فإنما فيه زكاة واحدة لما مضى من السنين ؛ قال ابن القاسم : وابن وهب وعلى بن زياد وابن نافع وأشهب عن مالك عن يزيد بن خصيفة أنه سأل سليمان بن يسار عن رجل له مال وعليه دين مثله أعليه الزكاة ؟ فقال لا . ابن وهب : عن غير واحد عن نافع وابن شهاب مثله . ابن وهب : عن يزيد بن عياض عبد الكريـم بن أبى المخارق عن الحكم بن عتيبة عن على بن أبى طالب مثله . ابن وهب : عن عمر بن قيس عن عطاء بن أبى رباح أنهم كانوا يقولون ليس فى الدين زكاة وإن كان فى ملأ حتى يقبضه صاحبه . ابن مهدى : عن سفيان عن ابن جريج عن عطاء قال ليس فى الدين زكاة إذا لم يأخذه صاحبه زماناً ثم يأخذه أن يزكيه إلا مرة . ابن مهدى : عن الربيع بن صبيح عن الحسن مثله قال : على بن زياد قال أشهب قال مالك بن أنس والدليل على أن الدين يغيب أعواماً ثم يقبضه صاحبه فلا يؤخذ منه إلا زكاة واحدة العروض تكون عند الرجل أعواماً للتجارة ثم يبيعها فليس عليه فى أثمانها

إلا زكاة واحدة وذلك انه ليس عليه ان يخرج زكاة ذلك الدين أو العروض من مال سواه ولا تخرج زكاة من شيء عن شيء غيره .

زكاة الفائدة :

قلت : أرأيت إن كانت عند رجل خمسة دنانير فلما كان قبل الحول بيوم أفاد عشرين ديناراً بميراث أوبصدقة أوبهبة أوبغير ذلك إذا لم يكن ذلك من ربح المال فقال : لا زكاة عليه فيها . قلت : لم قال لأن هذا المال الذى أفاد بهبة أو بما ذكرت ليس من ربح المال فليس عليه فيه الزكاة حتى يحول عليه الحول من يوم أفاد هذا المال الذى وجبت فيه الزكاة ، فإذا حال الحول عليه من يوم أفاد هذا المال جمع بعضه إلى بعض فزكى ذلك المال كله . لأنه لما أفاد الذى ذكرت بهبة أو بما ذكرت صار كأنه أفاد ذلك المال كله لأن الأول لم يكن فيه زكاة وليس هذا المال من ربح المال الأول والأول لا زكاة فيه والمال الثانى فيه الزكاة لأنها عشرون ديناراً فصاعدا . قلت : وهذا قول مالك ؟ قال نعم : قال : وقال مالك إذا كان عند الرجل دنانير تجب فيها الزكاة فمكثت عنده ستة أشهر ثم أفاد بعد ذلك ذهبا تجب فيها الزكاة أو لا تجب فيها الزكاة لم يضفها إلى ذهبه الأولى التى كانت فيها الزكاة ، فزكى الذهب الأولى على حولها . وزكى ذهبه الآخرة على حولها إذا كانت الذهبان فى كل واحد منهما عشرون ديناراً وإن كانت الذهب الآخرة ليس فيها عشرون ديناراً زكاها أيضاً على حولها ولم يضفها إلى الأولى . فكلما مضى للأولى سنة من حين يزكيها زكاها على حيالها إذا حال عليها الحول . وكلما مضى للذهب الثانية سنة من يوم أفادها زكاها أيضاً على حيالها إذا حال عليها الحول من يوم زكاها ، فعلى هذا يكون سبيل الذهبين لا يجتمعان أبدا يزكى كل واحدة من الذهبين على ما وجب عليه من وقتها . حتى ترجع الذهبان جميعاً إلى ما لا زكاة فيه، فإذا رجعتا جميعاً هذان الذهبان إلى ما لا زكاة فيه اجتمع الذهبان جميعاً ، وبطل ماكان قبل ذلك من وقتها عنده وخلطها واستقبل بهما حولا مستقبلا . كأنه ذهب أفادها مكانه فيصير سبيلها سبيل ذهب أفادها لا زكاة فيها . فإن افاد إليها ذهبا أخرى ليس من ربحها تكون هذه الفائدة

وما بقى فى يديه من الذهب الأولى يبلغ ما تجب فيه الزكاة ضمها إليها واستقبل بها حولا من يوم أفاد الآخرة ثم لا زكاة عليه فيهما حتى يحول عليه الحول وفيما فى يديه كله ما تجب فيه الزكاة إلا أن يكون تجر فى بقية المال الأول فيتم عشرين ديناراً فيزكيه إذا حال عليه الحول من يوم كان زكاه حين رجع إلى مالا زكاة فيه ولا ينتظر به إلى أن يحول عليه الحول من يوم ربح فيه والربح هاهنا كما وصفت لك هو مخالف للفائدة وهذا الربح لا يبالى من أى بقية المالين كان من الأول أو من الآخر الذى كان لها وقت لكل مال على حدة فهو يوجب عليه الزكاة فى جميع المال وهما على وقتها إذا ربح فيهما أو فى أحدهما ما تجب فيه الزكاة . قلت : أرأيت لو أن رجلا أفاد مالا لا تجب فيه الزكاة فلما مضى لذلك ستة أشهر أفاد أيضاً مالا إن جمعه إلى ماله الأول لم تجب فيه الزكاة فتجر فى المال الثانى بعد ستة أشهر من يوم أفاد المال الثانى فربح فيه حتى صار بربحه إلى ما تجب فيه الزكاة . قال : يضم المال الأول إلى المال الثانى لأنه كأنه رجل كانت له خمسة دنانير فائدة فمضى لها ستة أشهر فلما مضى لها ستة أشهر أفاد أيضًا خمسة دنانير فتجر فى المال الثانى . فإذا حال الحول على المال الثانى من يوم أفاده زكى المال الأول والمال الآخر جميعاً لأن الفائدة الآخرة كأنها كانت خمسة عشر ديناراً من يوم أفادها والخمسة الزائدة التى فيها فضل فإن كان إنما تجر فى المال الأول وهو خمسة دنانير فربح فيه خمسة عشر ديناراً فصارت بربحه تجب فيه الزكاة فإنه يحتسب من يوم أفاد المال الأول حولا فيزكيه ويحتسب للمال الثانى من يوم أفاده أيضاً سنة فيزكيه فيزكى المالين كل مال على حياله إذا كان الربح فى المال الأول .

وإن كان الربح فى المال الثانى أضاف المال الأول إلى المال الثانى فزكى الأول مع الثانى لأن المال الأول لم تكن تجب فيه الزكاة ، فإنما يزكيه من يوم يزكى المال الثانى . كما وصفت لك قال : وهذا كله قول مالك بن أنس قلت : فما قول مالك فيمن أفاد مائة دينار فأقرض منها خمسين ديناراً ثم ضاعت الخمسون الأخرى فى يديه مكانها قبل أن يحول الحول عليها عنده ثم اقتضى من الخمسين الدينار عشرة دنانير بعد ما حال عليها الحول من يوم ملكها . قال : قال مالك لا شىء عليه فى هده العشرة التى اقتضى .

قلت : فإن أنفق هذه العشرة التى اقتضى ثم اقتضى عشرة أخرى بعدها فقال : يزكى هذه العشرة الدنانير التى اقتضاها الساعة والعشرة التى أنفقها . قلت : لم يزكى العشرين جميعا وقد أنفق إحداهما قبل أن يقتضى الثانية وَلِمَ، لم توجب عليه الزكاة فى العشرة الأولى حين اقتضاها وأوجبتَ عليه الزكاة فى العشرة الثانية والعشرة حين اقتضى العشرة الثانية ؛ فقال : لأن المال كان أصله مائة دينار فتلفت الخمسون التى كانت بقيت عنده قبل أن يحول عليها الحول وأقرض الخمسين فحال عليها الحول فلما اقتضى من الخمسين الدين بعد الحول عشرة دنانير قلنا لا تزكِّ ولا شىء عليك فيها الساعة، لأنا لا ندرى لعل الدين لا يخرج منه أكثر من هذه العشرة دنانير . فنحن إن أمرناه أن يزكى هذه العشرة الأولى حين خرجت يخشى أن نأمره أن يزكى ما لا تجب عليه فيه الزكاة . لأن الدين لا يزكى حتى يقتضى . ألا ترى أن الدين لو ضاع كله أو توى وقد حالت عليه أحوال عند الذى هو عليه لم يكن على رب المال فيه زكاة . فكذلك إذا قبض منه ما لا تجب فيه الزكاة لم يزك ذلك . حتى يقبض ما تجب فيه الزكاة . فلما اقتضى العشرة الثانية وجبت الزكاة فى العشرة الأولى . وفى هذه الثانية . وإن كان قد أتلف العشرة الأولى لأنها قد حال عليها الحول من يوم ملكها قبل أن ينفقها مع مالٍ له أيضًا قد حال عليه الحول قبل أن ينفقه وهى هذه العشرة التى اقتضى . ألا ترى أن هذه العشرة الثانية التى اقتضى ليست بفائدة وإنما هى من مال قد كان له قبل أن ينفق العشرة الأولى فلا بد من أن تضاف العشرة الأولى التى أنفقها إلى هذه العشرة الثانية لأن الحول قد حال عليهما من يوم ملكهما فلابد من أن يزكيهما وأما الخمسون التى أنفقها قبل أن يحول عليها الحول عنده فلا يلتفت إلى تلك . لأنه أخرجها من ملكه قبل أن يحول عليها الحول . وقبل أن تجب عليه فيها الزكاة . فلا يلتفت إلى تلك . قلت : فما خرج بعد هذه العشرين من هذا الدين الخمسين وإن درهما واحدًا زكاه . قال : نعم لأن هذا الدرهم الذى يقتضى من هذه الخمسين قد حال عليه الحول ووجبت فيه الزكاة وهو مضاف إلى مالٍ عنده قد وجبت فيه الزكاة وهى تلك العشرون التى زكاها . قلت : أرأيت لو أنه حين أقرض الخمسين الدينار بقيت الخمسون الأخرى عنده لم

تضع منه حتى زكاها فأنفقها بعد ما زكاها مكانه ثم اقتضى من الخمسين الدين ديناراً واحدًا مكانه بعد ما زكى الخمسين التى كانت عنده وبعد ما أنفقها واقتضى الدينار بعد ذلك بيسير فقال : يزكى هذا الدينار ساعة اقتضاه . قلت : لم وإنما اقتضى ديناراً واحداً وقد زعمت فى المسألة الأولى أنه لا يزكى حتى يقتضى عشرين دينارًا . فقال : لا تشبه هذه المسألة الأولى لأن هذه قد بقيت الخمسون فى يديه حتى زكاها والأولى لم تبق فى يديه الخمسون حتى يزكيها . فهذا لما بقيت الخمسون فى يديه حتى زكاها كانت بمنزلة ما لوكانت المائة سلفا كلها ثم اقتضى الخمسين بعد الحول فزكاها ثم أنفقها فلابد له من أن يزكى كل شىء يقتضى من ذلك الدين وإن درهما واحدًا لأنه يضاف إلى الخمسين التى زكى وإن كان قد أنفقها لأن الزكاة لما وجبت عليه فى الخمسين الدينار التى كانت عنده وجبت عليه الزكاة فى كل مال يملكه من الناض مما أفاد قبل الخمسين مما تجب فيه الزكاة أولا تجب فيه فهو لما زكى الخمسين الدينار إنما امتنع أن يزكى الدين لأنه لا يدرى أيخرج أم لا يخرج ؟ فلما خرج منه شىء وإن درهما واحدا لم يكن له بد من أن يزكيه . قلت : وأصل هذا عند مالك أن كل مال أفدته مما لا تجب فيه الزكاة ثم أفدت بعده ما لا تجب فيه الزكاة أو لا يبلغ أن تكون فيه الزكاة إلا أن يجمع بعضه إلى بعض فتجب فيه الزكاة إن جمع فإنما يضاف المال الأول إلى الآخر فيزكى إذا حال عليه الحول من يوم أفاد الفائدة الآخرة قال نعم : قلت وكذلك لو أنه أفاد عشرة دنانير فأقرضها رجلا ثم أفاد بعدها بسنة خمسين ديناراً فحال الحول على الخمسين عنده فزكى الخمسين . ثم أتلفها ثم اقتضى من العشرة الدنانير ديناراً واحداً زكاه لأنه يضاف هذا إلى الخمسين التى أفادها بعد العشرة فزكاها فقال نعم : قلت : وأصل هذا إلى الخمسين التى أفادها بعد العشرة فزكاها فقال نعم : قلت : وأصل هذا فى قول مالك أنك تنظر إذا أفاد الرجل ما تجب فيه الزكاة فأقام عنده حولا فزكاه ينظر إلى كل ما كان له قبل أن يفيد هذا المال الذى وجبت فيه الزكاة من الديون التى على الناس ومما قد كان بيده من الناض مما لم تجب عليه فيه الزكاة إذا حاز ذلك فى ملكه قبل أن يفيد هذا المال الذى وجبت فيه الزكاة . فيضيفه إلى هذا المال الذى وجبت فيه الزكاة

فما كان في يديه من ذلك المال زكاه مكانه مع هذا المال الذى وجبت فيه الزكاة وماكان من دين أخرته حتى تقتضيه فتزكيه فكل شيء تقتضيه منه وإن درهما واحدًا فتخرج ربع عشره لأنه إنما امتنع من أن يزكى هذا الدرهم الذى اقتضاه من دينه يوم زكى ماله الذى وجبت فيه الزكاة لأنه لم يكن في يديه . فلما صار في يديه قلنا زكه مكانك الساعة لأن الزكاة قد كانت وجبت فيه يوم زكيت ما لك . قال : نعم قلت : فلو أنه أفاد دنانيرا أو دراهم تجب فيها الزكاة ثم أفاد بعدها بستة أشهر دراهم أو دنانير لا تجب فيها الزكاة فحال الحول على المال الذى تجب فيه الزكاة عنده فزكاه ثم أنفقه مكانه ثم حال الحول على المال الذى لا تجب فيه الزكاة أيزكيه الساعة أو لا في قول مالك قال : لا زكاة عليه . قلت : ولم وقد زكى المال الأول الذى أنفقه يوم زكاه وهذا المال في يديه قال : لأن هذا المال فائدة بعد المال الأول والمال الأول كان مما تجب فيه الزكاة والمال الأول إذا كان مما تجب فيه الزكاة لا يضاف إلى هذا المال الثانى ويكون المال الأول على حوله والمال الثانى على حوله إن كان المال الآخر مما تجب فيه الزكاة أو لم يكن مما تجب فيه الزكاة . فهو سواء وهو على حوله لا يضاف إلى المال الأول فإذا جاء حول المال الأول زكاه ثم إذا جاء حول المال الثانى نظرنا فإن كان يبلغ ما تجب فيه الزكاة وإن كان مما لا تجب فيه الزكاة نظرنا فإن كان له مال قد أفاد قبله أو معه معاً والمال الذى أفاد قبله أومعه لم يتلفه وهو إذا أضيف هذا المال إلى ما أفاد قبله أومعه معاً يبلغ أن تجب فيه الزكاة ضم ذلك كله بعضه إلى بعض فزكاه إلا أن يكون قد زكى المال الذى أفاد قبله أومعه فيزكى هذا وحده ربع عشره وإن لم يكن في يديه مما أفاد قبله أومعه مما إذا أضيفت هذه الفائدة إليه يبلغ جميعه ما تجب فيه الزكاة لم يكن عليه في هذه الفائدة زكاة قلت : فإن كان في يديه مال قد أفاد بعده فهو إذ أضافت هذه الفائدة إليه يبلغ ما تجب فيه الزكاة وليس في يديه شيء مما أفاد قبلها أيضاف إلى ما أفاد بعدها فيزكيها مكانها أم لا في قول مالك ؟ قال : لا يضاف إلى ما أفاد بعدها فيزكيها مكانها ولكنها تضاف إلى ما أفاد بعدها فإذا حال الحول على الفائدة الآخرة من يوم أفادها نظرنا إلى كل ما بيده من يوم أفاد الفائدة الآخرة وقبل ذلك فيجمع بعضه إلى بعض

فإن كان مما تجب فيه الزكاة زكاهما جميعاً إلا أن يكون منه شيء قد زكاه على حوله قبل أن تجب الزكاة فى هذه الفائدة الآخرة فلا يزكيه مع هذه الفائدة الآخرة لأنه لا يزكى مال واحد فى حول واحد مرتين ولكنه فى الإضافة يضاف بعضه إلى بعض كل مال بيديه قبل الفائدة الآخرة فيزكى الفائدة الآخرة وما لم يزك مما بيده قبل الفائدة الآخرة إلا ما كان قد زكى على حوله إذا كان جميع ما كان فى يديه من الفائدة التى قد حال عليها الحول وما قبل ذلك مما تجب فيه الزكاة . ولا يلتفت إلى ما فى يديه مما لم يحل عليه الحول من الفوائد التى أفاد بعد هـذه الفائدة التى حال عليها الحول . حتى يحول الحول على الفوائد التى بعدها أيضًا . قلت : وهـذا الذى سألتك عنه قول مالك . والذى كان يأخذ به فى الزكاة قال نعم : قلت : أرأيت لو أن رجلا أفاد عشرين ديناراً فلما مضى لها ستة أشهر أفاد عشرة دنانير فمضت سنة من يوم أفاد العشرين الدينار فزكى العشرين الدينار فصارت العشرون إلى مالا زكاة فيها ثم حال الحول على الفائدة أيزكيها أيضاً : فقال : إن كانت العشرون التى أخرج زكاتها بقيت فى يديه إلى يوم حال الحول على العشرة أوبقى منها ما إذا أضفته إلى العشرة تجب الزكاة فى جميعه زكى العشرة وحدها ولا يزكى العشرين التى أخرج زكاتها ولا ما بقى منها . لأنه لا يزكى مال واحد فى عام مرتين . قلت : ثم يزكيها على حولها حتى يرجعا إلى مالا زكاة فيه إذا جمعا . قال نعم : قلت : فإن تجر فى أحد هذين المالين بعدما رجعا إلى مالا زكاة فيهما إذا جمعا فربح فى أحد هذين المالين فصار بربحه يجب فيه الزكاة . فقال : يزكيهما جميعاً على حوليهما كان الربح فى المال الأول أو فى الآخر فهو سواء إذا كانت الزكاة قد جرت فيهما جميعا . قلت : فلو أن رجلا كانت له مائة دينار فلما حال عليها الحول زكى المائة الدينار ثم إنه أقرض منها خمسين ديناراً وتلفت منه الخمسون الدينار الباقية التى بقيت عنده قبل أن يحول عليها الحول ثم اقتضى من الخمسين التى أقرضها عشرة دنانير فقال : لا يزكى هـذه العشرة حتى يقتضى عشرين دينارًا إلا أن يكون عنده مال قد حال عليه الحول إذا أنت أضفته إلى هـذه العشرة التى اقتضى يبلغ ما تجب فى كله الزكاة فيزكى جميعاً إلا أن يكون قد زكى الذى كان عنده قبل أن يقتضى هـذه العشرة

فلا يكون عليه أن يزكى إلا هـذه العشرة وحدها قلت : وهـذا قول مالك قال نعم قلت : فلو أن رجلاً كانت له مائة دينار أقرضها كلها رجلاً فأقامت عند الرجل سنين ثم إنه أفاد عشرة دنانير فحال على العشرة دنانير الحول أيزكى هـذه العشرة حين حال عليها الحول مكانه أم لا فقال : لا زكاة عليه فى هذه العشرة الساعة لأنه ليس فى يديه مال تجب فيه الزكاة ألا ترى أنه لو اقتضى من المائة الدينار الدين بعد ما حال عليها أحوال عشرة دنانير لم تكن عليه زكاة فى العشرة الدنانير حتى يقتضى عشرين إذا لم يكن عنده مال سوى العشرة التى اقتضى فكذلك هـذه العشرة التى أفاد . قلت . فإذا اقتضى من المائة الدينار الدين عشرة دنانير بعد ما حال على هـذه العشرة الفائدة الحول فقال : يزكى العشرة التى اقتضى . والعشرة الفائدة جميعاً ويصير حولها واحدا . قلت : ولم أمرته أن يزكى العشرة الفائدة حين اقتضى العشرة من المائة الدين؟ قال : لأن العشرة الفائدة حين حال عليها الحول عنده وله مائة دينار دين وجبت الزكاة فى هـذه العشرة إن خرج دينه أوخرج من دينه ما إن أضفته إلى هـذه العشرة يبلغ ما تجب فيه الزكاة . وإنما منعنا أن تلزمه الزكاة فى العشرة التى أفاد بعد ما حال عليها عنده الحول لأنا لا ندرى أيخرج من ذلك الدين شىء أم لا ؟ فلما خرج من الدين ما إن أضفته إلى هـذه العشرة الفائدة التى حال عليها الحول وجبت فيها الزكاة وكان وقت ما خرج من الدين والعشرة الفائدة التى أتمها ما يخرج من الدين يصير حولها واحدًا يوم زكاهما ثم ما اقتضى من الدين بعد ذلك زكى كل ما اقتضى منه من شىء ويصير كل ما اقتضى من المائة الدين على حوله من يوم يزكيه شيئاً بعد شىء فتصير أحوال كل ما قبض من الدين وأحوال العشرة الفائدة على ما وصفت لك . وهو قول مالك ولو أنه استهلك الفائدة بعد أن حال عليها الحول . ثم اقتضى بعد ذلك من الدين عشرة دنانير . أوجبت عليه الفائدة الزكاة . وإن كان قد استهلكها أواستنفقها قبل أن يقتضى هـذة العشرة إذا كان الحول قد حال عليها قبل أن يستنفقها أو أن يستهلكها . قلت : أرأيت إن كاتب عبده على دنانير أو إبل أو بقر أوغنم فلم يقبضها منه حتى حال عليها الحول عند المكاتب . فقال : لا يزكيها حتى يقبضها من مكاتبه ويحول عليها الحول عنده بعد ما قبضها .

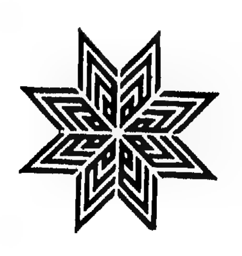
قلت : وهذا قول مالك قال نعم . قال : وقال مالك كل فائدة أفادها رجل من كتابة أو دية وجبت له أو من غير ذلك إذا كانت فائدة فليس على صاحبها فيها الزكاة حتى يحول الحول عليها من قبضها . قال مالك : ولو أن رجلا ورث مالا عن أبيه فلم يقبضه حتى حالت عليه أحوال كثيرة ثم قبضه بعد ذلك. فقال : يستقبل به سنة من ذى قبل وليس عليه فيه شيء للسنين الماضية لأنه لم يكن قبضه . وكذلك لو أن رجلاً ورث داراً عن أبيه فأقامت الدار فى يديه سنين فباعها فمكث الثمن عند المشترى سنين ثم قبض الثمن فليس عليه فيه زكاة حتى يحول الحول على الثمن من يوم قبضه . قال وعلى هذا محمل الفوائد كلها إنما تجب الزكاة عليه بعد سنة من يوم يقبض . وهذا قول مالك قال : وقال مالك : كل سلعة كان لرجل من ميراث أو صدقة أو هبة أو اشتراها لقنية من دار أو غيرها من السلع فأقامت فى يديه سنين أو لم تقم ثم باعها بنقد أو إلى أجل فمطل بالنقد أو باعها إلى أجل فلما حل الأجل مطل بالمال سنين أو أخره بعد ما حل الأجل ثم قبض الثمن فإنه يستقبل به حولا من يوم قبضه ولا يحتسب بشيء كان قبل ذلك ولو كان إنما أسلف ناضاً كان فى يديه أو باع سلعة كان اشتراها للتجارة فمكثت عند المتسلف أو المشترى سنين ثم قبضه فإنه يزكى المال يوم قبضه زكاة واحدة مكانه قال : وسألت مالكاً عن الرجل يكون له على الرجل الذهب وهو ممن لو شاء أن يأخذها منه أخذها منه فتقيم عنده الحول ثم يهبها له أترى على صاحبها الواهب فيها الزكاة . فقال : ليس على الواهب . ولا على الذى وهبت له فيها الزكاة حتى يحول عليها الحول فى يدى الموهوبة له . قال سحنون : وقد روى غيره أن عليه فيه الزكاة كان لمال أولم يكن إذا وهبت له . قال سحنون : وهذا إذا كان الموهوبة له ليس له مال غيرها فأما أن لو كان له من العروض وفاء بها كانت عليه زكاتها وهبت له أو لم توهب له لأنها مضمونة عليه حتى يؤديها وزكاتها عليه إن كان له مال وإن لم يكن له مال فلا زكاة عليه فيها لو بقيت فى يديه ولم توهب له فلما وهبت له وصارت له صارت فائدة وجبت له الساعة فيستقبل بها حولا قلت : لابن القاسم أرايت ما ورث الرجل من السلع مثل الدواب والثياب والطعام والعروض كلها ما عدا الحلى الذهب والفضة فنوى به التجارة حين ورثه أو

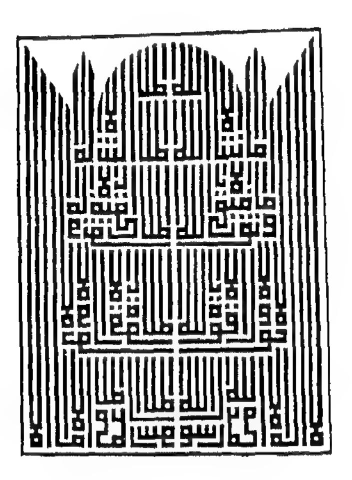
وهب له أو تصدق به عليه فنوى به التجارة يوم قبضه فحال عليه الحول ثم باعه أتكون عليه الزكاة فيه ؟ فقال لا : قلت :لم؟ فقال لا تكون هـذه السلعة للتجارة حتى يبيعها فإذا باعها استقبل بالثمن حولا من يوم باعها لأنه يوم باعها صارت للتجارة ولا تكون للتجارة بنيته إلا ما ابتاع للتجارة . قلت : فإن كان ورث حلياً مصوغا من الذهب والفضة فنوى به التجارة يوم ورثه فحال عليه الحول أيزكيه ؟ فقال : نعم والفضة فى هـذا مخالفان لما سواهما من العروض لأنه إذا نوى بهما التجارة صارتا بمنزلة العين . قلت : وهذا قول مالك بن أنس؟ قال نعم . قلت : فلو ورث آنية من الذهب والفضة أو وهبت له أو تصدق بها عليه أيكون سبيلها سبيل الحلى ؟ فقال : لا ولكن الآنية إذا وهبت له أو ورثها نوى بها التجارة أو لم ينو إذا حال عليها الحول زكى وزنها قلت : وما فرق بين الآنية فى هـذا وبين الحلى قال : لأن مالكا كره اتخاذ الآنية من الذهب والفضة ولم يكره الحلى . فلما كره اتخاذ الآنية من الذهب والفضة صارت بمنزلة التبر المكسور . ففيها إذا حال عليها الحول الزكاة نوى بها التجارة أو لم ينو . قال مالك : والسنة عندنا أنه ليس على وارث زكاة فى مال ورثه فى دين ولا عرض ولا عين ولا دار ولا عبد ولا وليدة حتى يحول على ثمن ما باع وقبض الحول من يوم يقبضه ونض فى يده لأنه فائدة فأرى غلة الدور والرقيق والدواب وإن ابتيع لغلة فائدة لا تجب فى شىء من ذلك الزكاة حتى يحول عليه الحول من يوم يقبضه قال مالك : ومن أجر نفسه فإن إجارته أيضاً فائدة ومهر المرأة على زوجها فائدة أيضاً لا يجب فيه عليها الزكاة حتى تقبضه ويحول عليه الحول من يوم قبض . وما فضل بيد المكاتب بعد عتقه من ماله فهو مثله لا زكاة عليه فيه حتى يحول عليه الحول من بعد عتقه . قلت : أرأيت المرأة إذا تزوجت على إبل بأعيانها فلم تقبضها حتى حال عليها الحول عند زوجها ثم قبضتها بعد الحول ؟ فقال : أرى عليها زكاتها لأنها كانت لها وأيضاً لو ماتت ضمنتها . وليست هـذه مثل التى بغير أعيانها لأن التى ليست بأعيانها لم تجر فيها الزكاة لأنها لا تعرف . وأنها مضمونة على الزوج . وقد قيل لمالك فى المرأة تتزوج بالعبد بعينه تعرفه ثم لا تقبضه حتى يموت العبد على من ضمانه ؟ فقال على المرأة . قلت : أرأيت المرأة إذا تزوجت على دنانير فلم تقبضها حتى حال عليها

الحول عند الزوج ثم قبضتها بعد ما حال الحول على الدنانير عند الزوج أعليها أن تزكيها إذا هى قبضتها أم تستقبل بها حولا من يوم قبضتها قال : بل تستقبل بها حولا من يوم قبضتها لأنها فائدة . قلت : وهذا قول مالك قال نعم : قلت : ما قول مالك فى مهور النساء إذا تزوجن على ما تجب فيه الزكاة من الدنانير أو الإبل أو البقر أو الغنم فلم تقبضها المرأة حتى حال عليها أحوال عند الزوج فقال : إذا قبضت فلا شيء عليها حتى يحول عليها الحول من يوم تقبض قال : ومهرها إنما هو فائدة من الفوائد . قال ابن القاسم : وقال مالك فى قوم ورثوا داراً فباعها لهم القاضى ووضع ثمنها على يدى رجل حتى يقسم ذلك بينهم فأقامت الذهب فى يدى الموضوعة على يديه سنين ثم دفعت إليهم ؛ أترى عليهم فيها الزكاة ؟ فقال : لا أرى عليهم فيها الزكاة . حتى يحول عليها عندهمْ الحول من يوم قبضوها . ثم سئل أيضاً : عن الرجل يرث المال بالمكان البعيد فيقيم عنه الثلاث سنين هل يزكيه إذا قبضه ؟ فقال : إذا قبضه لا يزكيه حتى يحول عليه الحول من يوم قبضه قيل : له فلو بعث رسولا مستأجراً أو غير مستأجر فقبضه الرسول فقال : رسوله بمنزلته يحسب له حولا من يوم قبضه رسوله وكذلك الأموال تكون للرجل دينا فأمر من يتقاضاها له وهو عنها غائب فكل ما اقتضى له وكيله فإنه يحسب له حولا من يوم قبضه . قال وكذلك ما ورث الصغير عن أبيه من العين فقبضه وصيه فمن حين قبضه وصيه تحسب له سنة من يوم قبضه الوصى . قلت : أرأيت لو ورث ماشية تجب فيها الزكاة فحال عليها الحول قبل أن يقبضها وهى فى يدى الوصى أو فى غير يدى الوصى أعليه فيها الزكاة ؟ فقال : نعم عليه فيها الزكاة . وفيما ورث من ثمرة وإن أقام ذلك عنه سنين لا يعلم به أصلاً فإن الساعى يزكيها فى كل سنة ويأخذ زكاة ثمرة كل سنة وليس هذا مثل العين فى هذا . قلت : لأشهب فما فرق ما بين الماشية والثمار وبين الدنانير فى الزكاة ؟ فقال لى لأن السنة إنما جاءت فى الضمار وهو المال المحبوس فى العين وإن السعاة يأخذون الناس بزكاة مواشيهم وثمارهم ولا يأخذونهم بزكاة العين ويقبل قولهم منهم فى العين فلو كانت الماشية والثمار لرجل وعليه دين يغترق ماشية مثلها أو ثماره أوغيره ذلك لم يمنعه ذلك من أن يؤدى زكاة ماشيته وثماره ولو كانت لرجل دنانير أو دراهم أو ذهب أو فضة

وعليه دين وليس له غيرها كان دينه فيها كائناً ذلك الدين ما كان عيناً أو عرضاً لم يكن عليه فيه الزكاة . والذى يرث الدنانير لا تصير فى ضمانه حتى يقبضها . قال ابن القاسم : وسألت مالكاً عن الرجل يشترى الغنم للتجارة فيجزها بعد ذلك بأشهر كيف ترى فى ثمن أصوافها أتكون زكاة الصوف مع رقابها ؟ قال : بل الصوف فائدة يستقبل به حولاً من يوم يبيعه وينض المال فى يديه وليس عليه يوم باع الصوف زكاة فى ثمنه . والغنم إن باعها قبل أن يحول عليها الحول يحسب من يوم زكى الثمن الذى اشتراها به فهى خلاف للصوف . وإن أقامت فى يديه حتى يحول عليها الحول ويأتيه المصدق زكى رقابها . ولم تكن عليه زكاة التجارة فيها . فإن باعها بعد ما زكى رقابها حسب من يوم أخذت منه زكاة الماشية فأكمل سنة من يومئذ . ثم يزكى أثمانها . والصوف إنما هو فائدة من الغنم والغنم إنما اشتريت من مال التجارة . فلذلك افترقا . قال مالك : وكذلك كراء المساكن إذا اشتراها للتجارة وكراء العبيد بهذه المنزلة وكذلك ثمر النخل . قال : وقال مالك فى الرجل يبتاع النخل للتجارة فيثمر النخل ويكون فيها ثمر فيخرص ويجد وتؤخذ منها الصدقة ثم يبيع الحائط من أصله بعد ذلك يبيع الرقاب أنه يزكى ثمن الحائط حين باعه إذا كان قد حال الحول على ثمنه الذى ابتاع به الحائط فقيل : له فالثمرة إذا باعها . فقال : لازكاة عليه فيها حتى يحول على ثمن الثمرة الحول من يوم باع الثمرة وقبض الثمن فيصير حول الثمرة على حدة وحول المال الذى اشترى به النخل على حدة . ومما يبين لك ذلك أن صاحب الحائط الذى اشتراه للتجارة . لو كان ممن يدير ماله فى التجارة وله شهر يقوم فيه لقوم الرقاب ولم يقوم الثمرة . لأن الثمرة إذا قومت سقط منها زكاة الخرص . والخرص أملك بها ولا يصلح أن يطرح من الثمرة زكاة الخرص لمكان زكاة التجارة فإذا صارت الثمرة بحال ما وصفت لك لم يكن بد من تحول الوقت فى الزكاة فى الثمرة والنخل . وهما جميعاً للتجارة . فكذلك الغنم الأولى التى وصفت لك إذا حال عليها الحول . ابن القاسم : وابن وهب عن مالك عن محمد بن عقبة مولى الزبير بن العوام أنه سأل القاسم بن محمد عن مكاتب له قاطعه بمال عظيم هل عليه فيه زكاة ؟ فقال القاسم : إن أبا بكر الصديق لم يكن يأخذ من مال زكاة حتى يحول عليه الحول . قال القاسم : وكان

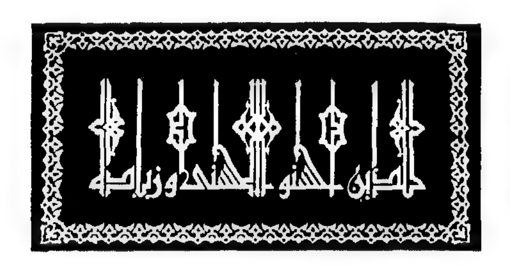
أبو بكر إذا أعطى الناس أعطياتهم يسأل الرجل هل عندك من مال وجبت عليك فيه الزكاة . فإن قال نعم : أخذ من عطائه زكاة ماله ذلك . وإن قال لا أسلم إليه عطاءه ولم يأخذ منه شيئا . قال مالك : وحدثنى عمر بن حسين عن عائشة بنت قدامة عن أبيها قدامة بن مظعون أنه قال : كنت إذا جئت عثمان بن عفان آخذ عطائى سألنى هل عندك من مال وجبت عليك فيه الزكاة فإن قلت نعم : أخذ من عطائى زكاة ذلك المال وإن قلت لا دفع إلى عطائى . قال ابن القاسم : حدثنى مالك عن ابن شهاب أنه قال : أول من أخذ من الأعطية الزكاة معاوية بن أبى سفيان . ابن وهب . عن عمر بن محمد وعبد الله بن عمر عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه كان يقول من استفاد مالا فلا زكاة عليه فيه حتى يحول عليه الحول . ابن وهب : وأخبرنى رجال من أهل العلم أن عثمان وعلى بن أبى طالب وسالم بن عبد الله ويحيى بن سعيد وربيعة وعائشة زوج النبى عليه الصلاة والسلام : كانوا يقولون ذلك ، ابن مهدى : عن سفيان عن أبى اسحاق عن عاصم بن ضمرة عن على بن أبى طالب قال ليس فى المال المستفاد زكاة حتى يحول عليها الحول فإذا حال عليه الحول ففى كل مائتى درهم خمسة دراهم فما زاد فبالحساب . قال : وكذلك قال ابن عمر وعائشة مثل قول على لا تجب زكاة فى مال حتى يحول عليه الحول .

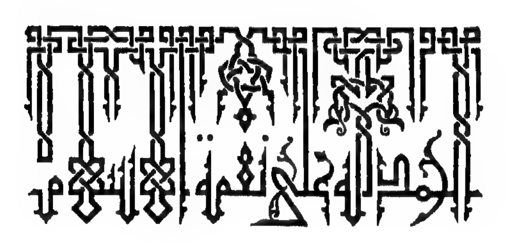


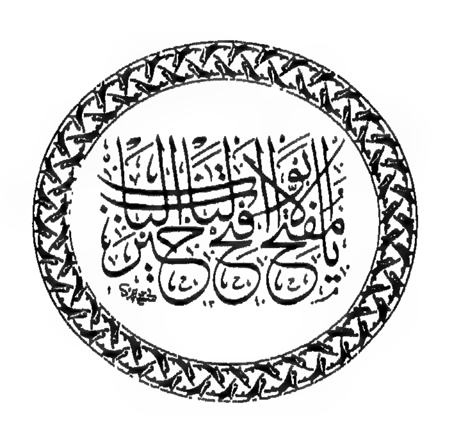


محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة







الأئمة الأربعة
(٣)

الإمام
محمد بن إدريس
الشافعي

الدكتور
مصطفى الشكعة

الناشرون

دار الكتاب المصرى
القاهرة

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

رقم الإيداع

١٩٩٠ / ٤٤٥٢

I.S.B.N. 977 - 238 - 066 - 8

دار الكتاب المصري
٢٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
ت ٣٩٢٢١٦٨/ ٣٩٣٤٣٠١ فاكسيملي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب. ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقياً كتامصر
TELEX No 23081 - 23381 - 22181
ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN
FAX (202) 3924657

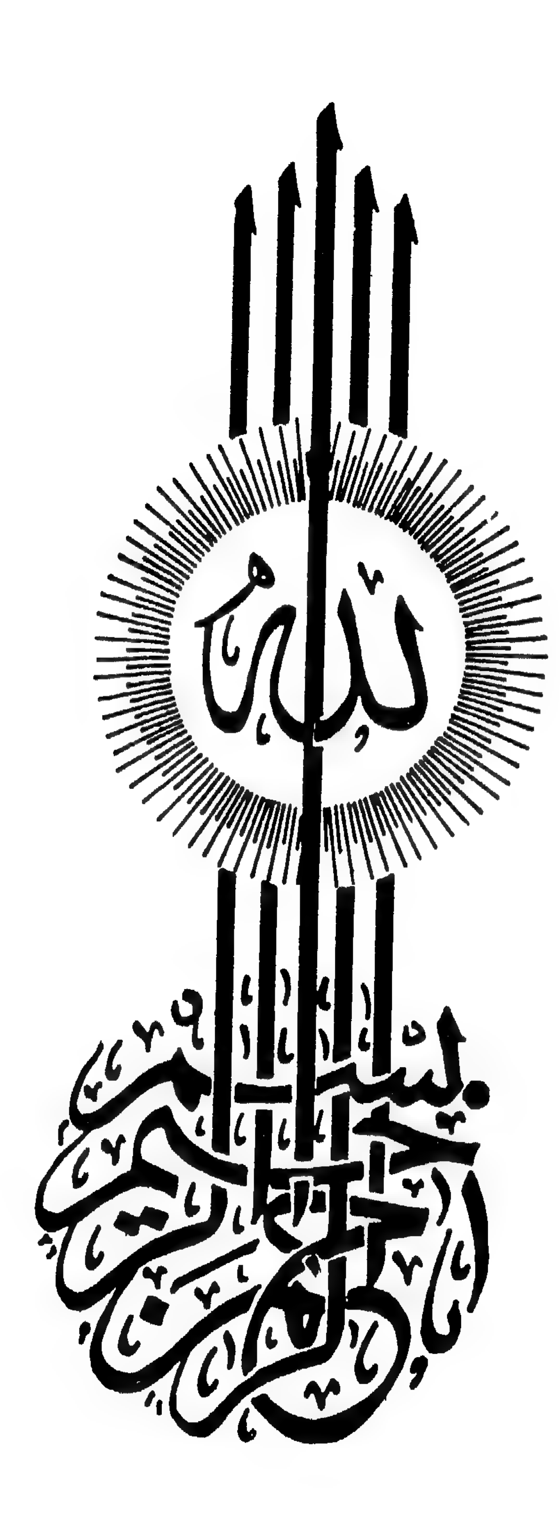
دار الكتاب اللبناني
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت: ٨٦١٥٦٣ - ٨٦٠٧٩٢ - فاكسيملي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
ص.ب. ٨٣٣٠/١١ أو ١٣٥٣٥٢ - بيروت - لبنان
برقيا راكبان
TELEX DKL 23715 LE
ATT MISS MAY HASSAN EL - ZEIN
FAX (9611) 351433

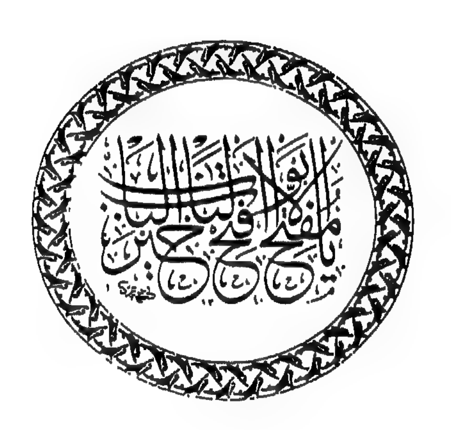
الطبعة الثالثة

١٤١١هـ - ١٩٩١م

Third Edition

1991 A.D — H 1411


الله
بسم الله الرحمن الرحيم





مُقـدّمَـة

أحمد الله سبحانه وتعالى جل شأنه وتقدست أسماؤه ، وأسأله أن يصلى ويسلم على سيدنا محمد الهادى إلى الإيمان ، الداعى إلى الرشاد ، الآخذ بالناس إلى خير الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، اللهم صلّ عليه وعلى آله وأصحابه نجوم الهدى الذين أوضحوا للناس سبيل المحجة ، ومصابيح النور الذين أضاءوا للمسلمين طريقهم وبصّروهم بسنة نبيهم الكريم .

وبعد فهذا هو كتابنا الثالث فى سلسلة كتبنا عن أئمة المسلمين ، بعد كتابينا عن كل من الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، وإمام دار الهجرة مالك بن أنس ، وقد خصّصنا هذا الكتاب للإمام الجليل محمد بن إدريس الشافعى القرشى ، الذى ملأ طباق الأرض علما على الرغم من أنه لم يحسب فى قائمة المعمرين من الأئمة ، بل هو من أقصرهم عُمْراً ، فقد توفى فى مصر سنة أربع ومائتين عن أربعة وخمسين عاما ليس غير ، ولكن الشافعى قد أثبت للناس أن عظمة العلماء لا تقاس بطول أعمارهم ، وأن جلائل أعمالهم العلمية لا ترتبط بعدد سنى حياتهم ، وإنما العلم سعى وتحصيل ، وعطاء العالم ثمرة لكده ، وجنى لسعيه ، وحصاد لفطنته ، وترجمة لتجربته ، وجزاء لإخلاصه ، ثم هو بعد ذلك نبع غامر مبارك ، وفيض عذب سلسال ، فيه من توفيق الله وبركته ما يجعله هدى للناس ونفعا للعالمين .

ولعل الإمام الشافعى أول إمام مشهور – ذى فقه مثبت مكتوب ، ومذهب سائر ذائع – يتتلمذ على إمام سابق جليل – سعى المسلمون إليه من كل أصقاع الدنيا ، فأخذوا عنه وتبنوا آراءه وساروا على مذهبه – هو الإمام مالك .

فالشافعي تلميذ مالك ، جلس إليه صغيرا ، وأخذ عنه كبيرا ، وتلك ميزة لم تتوفر لغيره من الأئمة ، ثم بلغ الشافعي بعد ذلك من النضج واستقلال الرأى ما جعله يخالف شيخه وينقض بعض آراء إمامه دونما نيل من قدره أو تعريض بشخصه ، وإنما فعل ذلك مع الاعتراف بفضله والإشادة بعلمه ، فقضايا العلم – منذ أن عرف العلم – مواطن للاختلاف مثلما هى مناطق للاتفاق ، وهى كذلك منطلقات للاحتكاك مثلما هى أسباب للائتلاف ، ومن الحقائق المؤكدة أن اختلاف الآراء واحتكاك الأفكار يؤديان فى نهاية المطاف إلى جادة الصواب .

والإمام الشافعى آية فى فصاحة اللسان ، وعلم فى نصاعة البيان ، وأحد القلائل فى الإقناع والإفحام ، عارف بأسرار اللغة ، متمكن من أصولها ، إليه انتهى علمها فى زمانه ، وعلى يديه تلقى فحول العلماء غريبها وأوابدها ، وهو إلى ذلك كله شاعر لا يشق له غبار ، خصب الملكة ، عميق الفكرة ، رقيق النظم ، بديع الشعر ، وهو لا يقول الشعر كما يقوله سائر الشعراء ، وإنما ينهج فيه النهج الأخلاق الذى يربى النفس ، ويهذب الحس ، وينقى القلوب ، ويقوّم السلوك . ويكثر الشافعى من شعر التوسل إلى الله والابتهال إلى ذاته الكريمة ، فيصل ما بين العبد وربه ، ويمهد سبيل الإنسان إلى تسبيح خالقه . وربما عمد الإمام الشافعى إلى شكوى زمانه ، وندد بجهالة بعض الناس وغفلتهم ، ولكنه لم يترخص فى قول ، ولم يسفّ فى تعبير ، ولم يمدح رئيسا أو سلطانا ، وهو معدود عند من يفقهون أسرار الشعر مع شعراء الفضيلة والأخلاق ، ولولا أنه كان يكبح جماح شاعريته ويكبح عنانها ، لكان من أكبر الشعراء عطاء ، وأكثرهم شهرة قول وذيوع ذكر ، فقد كان يرى أن قول الشعر لا يجمل بالعلماء ولا يليق بالعظماء وترجم عن رأيه هذا فى بيته المشهور :

ولولا الشعرُ بالعظماء يُزْرِى   لكنتُ اليومَ أشعَر من لَبِيدِ

وإذا كان الإمام أبو حنيفة قد اشتهر بفطنته التى أتاحت له أن يغوص إلى أعماق الأمور ، ويستشرف تطور المجتمعات ، فكان يفترض حدوث مشكلات سوف تفرض نفسها على دنيا الناس فيشرع لها ، بمعنى أنه كان يشرع للمستقبل ،

فقد اشتهر الإمام الشافعي بكونه ذا عقلية فقهية متطوّرة ، فقد عاش فى الحجاز ، ثم أقام بعض الوقت فى العراق ، ثم استقر به المقام فى مصر ، ولما كانت العادات والسلوك وأنماط التفكير تتفاوت بين بلد وآخر ، وتتباين بين قطر وقطر ، فإن الإمام الشافعي كان يعيد النظر فى فكره وفقهه ، وينتهى إلى الأصوب والأفضل فيستقر عليه ، وينبه إلى التخلى عن فكره القديم ، وتلك هى الطريقة المثلى للتفكير فى الإسلام . إن من يرجع إلى الرسالة التى كتبها الفاروق عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى ، يرسى له فيها أسس القضاء فى الإسلام ، يجد من ذلك الشيء الكثير ، ومن ثم فإن الإمام الشافعي كتب « رسالته » المشهورة وهو فى الحجاز – وفى قول ضعيف فى العراق – وهى تمثل لب فكره وأصول فقهه ، فلما أن استقر به المقام فى مصر أعمل النظر فيها ، ثم أعاد كتابتها مغيرا بعض ما رآه خليقا بالتغيير ، مصوّبا ما قد اقتنع بأنه ضرورى التصويب ، وأخرجها للناس بعد ذلك فى صورتها الأخيرة التى هى بين أيدينا اليوم مرجعا للفقهاء ونهجا للأصوليين .

هو إذن إمام فذ متطور فى نطاق العقيدة ، مجتهد فى ظلال النص القرآنى الكريم والحديث الصحيح الشريف ، وكان إلى ذلك رائدا فى فن الحوار ، سيدا فى حلبة الجدال ، يقنع محاوره فى أدب وملاطفة ، ويصرع مصاوله فى تواضع وحياء .

على أن وصف الإمام الشافعي بالتواضع لا يكاد يؤدى معناه ، ذلك أن الإمام الجليل له من المواقف ما يجعل المتواضعين يخجلون من تواضعهم ، فقد ارتحل الإمام إلى بغداد ، ورأى أن يزور قبر الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، وحين دخل المسجد المجاور لمقبرته صلى ركعتين لله سنة المسجد ، وتذكّر أن الإمام أبا حنيفة لم يكن يرفع يديه فى تكبيرات الركوع والقيام منه ، فامتنع الشافعي عن فعل ذلك مجاملة للإمام المسجى فى قبره على بعد خطوات منه ، وحين يسأل الإمام الشافعي عن سبب فعله هذا يجيب قائلا : أدباً مع الإمام أن أظهر خلافه فى حضرته . فهل هناك مجاملة أرق من تلك ؟ أو هل هناك تواضع أبلغ من ذلك التواضع ؟ والشيء

الطريف أن الإمام الشافعي الجليل فعل الصّنيع نفسه حين قدم إلى مصر فأسرع الخطو إلى قبر الإمام الليث زائرا مترحما ، مصليا ركعتين لله على مقربة من ضريحه .

كان الشافعي عالما وفقيها ومحدثا ولغويا وراوية وشاعرا ومجادلا وصاحب رأى فى الفكر والسياسية ، ثم هو بعد ذلك كله كان إنسانا ذا شمائل ووفاء ، ومن أجل ذلك كان إماما جديرا بأن يحتفل بالكتابة عنه الفقيه والمحدث واللغوى والأديب ، وكل منهم يجد فيه نمطا جديدا من العلماء ، وطرازا متميّزا بين الفقهاء ، وأديبا رقيق النظم عميق الفكر سائغ الأسلوب بين الشعراء .

لقد قسمنا هذا الكتاب إلى ثمانية فصول ، خصصنا الفصل الأول منه للحديث عن أسرة الشافعي ونشأته ومرباه ، فهو قرشي النسب ارتبط جدّاه الثالث والرابع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجده الرابع – وهو السائب – أسلم يوم بدر ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول عنه ، هذا أخي . وأما شافع ، وهو جده الثالث ، فقد أسلم يافعا على يد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم يكون جدّاه صحابيين جليلين ، وقد حرص الإمام الجليل على أن ينسب نفسه إلى شافع ، ومن ثم عرف بالشافعي . وكان من الضرورة بمكان أن ننوه بوالدة الإمام الجليل ، فقد ولدته فى غزة ومات أبوه بعد ولادته بقليل ، فانتظرت حتى وصل إلى الفطام وصار قادرا على تحمل الرحلة إلى الحجاز حيث أهله وعشيرته ، فشدت الرحال إلى مكة ، وما أن نما عوده حتى ألحقته بالكتاب ، ثم كان من أمره أن ذهب إلى البادية ، وعاش فى قبيلة هذيل ، التى قومت لسانه وأفادته فى حصيلة اللغة وصقل ملكة الشعر لديه ، وفى هذا الفصل تحدثنا عن تلمذته لمالك وسفيان بن عيينة وعشرين آخرين من جلة الشيوخ .

ولما كان الشافعي علما فى اللغة وإماما فى البيان ، فقد خصصنا الفصل الثانى للحديث عن فصاحته ولغته ، فقد كان الإمام لغويا كبيرا ، وراوية للشعر ، وحجة فى الأنساب ، كان يحفظ شعر هذيل كله ، ومن الطريف أن الأصمعى الراوية قرأ شعر هذيل عليه ، كما قرأ عليه شعر الشنفرى الشاعر اللص الصعلوك ،

وكان الشافعي حجة فى اللغة وقد شهد له بذلك زعيما مدرستى الكوفة والبصرة، وهما أبو العباس ثعلب وأبو العباس المبرد ، وكانا يقولان : ألفاظ الشافعي لغة يحتج بها .

وكان الإمام الشافعي يتقن الأنساب اتقانه للغة ، فقد لقيه ابن هشام حين قدوم الإمام إلى مصر للتذاكر فى ضروب الأنساب ، فقال له الشافعي فى تواضع ينم عن علم كثير : دع عنك أنساب الرجال فإنها لا تغيب عنا ولا عنك ، وخذ بنا فى أنساب النساء . وفى الجملة كان الشافعي موسوعى الثقافة ، حتى إن الإمام أحمد بن حنبل يقول عنه : الشافعي فيلسوف فى أربعة أشياء : اللغة واختلاف الناس والمعانى والفقه . وكان يونس بن عبد الأعلى يقول : كان الشافعي إذا أخذ فى اللغة قلت هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم فى الشعر وإنشاده قلت هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم فى الفقه قلت هو بهذا أعلم .

وتحدثنا فى الفصل الثالث عن الشخصية العلمية للشافعي ، وقد سلفت الإشارة إلى أنه كان عميق الثقافة ، دقيق الفكر ، فقيه العقل ، فطن النفس ، موسوعى المعرفة ، فكان والأمر كذلك ، واسطة العقد بين أئمة المسلمين من حيث كونه وسطا بينهم ، يأخذ بالرأى والحديث معا ، ومن ثم فهو منتسب إلى المدرستين ، سائر فى الاتجاهين .

وفى نطاق الشخصية العلمية للشافعي عرضنا للحديث عنه كمعلم للعلماء ، أو أستاذ للأساتذة حسبما قال عنه إبراهيم الحربى أحد تلاميذ الأمام أحمد ، أوكما وصفه الإمام أحمد نفسه لابنه قائلا : يا بنى كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن ، وهل لهذين من خلف أو لهما من عوض ؟ ! أوكما قال ابن خلكان : اتفق العلماء قاطبة من أهل الحديث والفقه واللغة والنحو وغير ذلك على ثقته وأمانته وعدالته وزهده وورعه ونزاهة عرضه وعفة نفسه وحسن سيرته وعلوّ قدره وسخائه .

من هذا المنطلق تناولنا الشافعي عالما ذا عطاء سخيّ ، وصاحب حلقة فى بيت الله الحرام ، لم تزل تتسع دائرتها حتى زاحمت حلقة أستاذه سفيان بن

عيينة ، وفصلنا القول فيما اتسم به من سرعة البديهة ، وبراعة الحوار بتنوع أسبابه وتباين أبوابه ، يدخل تحت ذلك الحوار مع الخلفاء ، والحوار مع العلماء ، أو الحوار مع الدارسين ، فقد كان الشافعى فى ذلك قمة بين العلماء الذين يجادلون بالحسنى ، ويحاورون بالإقناع ، دون خروج عن سمت العلماء أو نيل من مروءة محاوره .

ولما كان العصر الذى عاش فيه الشافعى زاخرا بالتيارات السياسية المتصارعة ، والاتجاهات المذهبية المتناحرة ، فقد كان طبيعيا ألا يكون بمنأى عنها ، ولكنه كان يتعامل معها تعامل العلماء الذين يبدون آراءهم فى السياسة ولكن لا يغمسون أنفسهم فى خضمها ، ومن ثم فقد كانت عقيدته السياسية منطلقة من الكتاب والسنة ليس غير ، وهو والأمر كذلك . كان يرتبط بأبناء بيت رسول الله ارتباط حب وإجلال وولاء ، يعلن ذلك فى صوت جهير ، وفى شعر رقيق ، وهو صاحب البيت العريق فى معناه الرقيق فى مبناه :

إن كان رفضاً حبُّ آلِ محمدٍ   فليشهد الثقلان أنِّىَ رَافِضِى

ولكنه فى الوقت نفسه لم يكن يفضّل عليا على أبى بكر ، ولا يفضل أبا بكر على علىّ ، فكلاهما خليفة للمسلمين من منطلق الشرعية والشريعة .

لقد كان الشافعى من شيعة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نطاق الحب والإجلال والتقدير ، ولكنه لم يكن كذلك فى نطاق الحكم والسياسة ، وإنما هو يرى صحة خلافة الراشدين بترتيبهم ، ابتداء بالصدّيق أبى بكر وانتهاء بأمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وقد عبر عن رأيه هذا تعبيرا جميلا ناصعا فى أبيات شعرية أثبتناها فى مكانها من هذا الكتاب ، ومجمل رأيه السياسى أن الخلافة فى قريش أيا كان البيت الذى ينتمى إليه الخليفة ، يستوى فى ذلك العباسيون والعلويون والأمويون . تلك كانت أهم الموضوعات التى عالجناها فى الفصل الرابع .

وإذا ما انتقلنا إلى الفصل الخامس ، وجدنا أن د ا حة المنهج من منطلق

الإحاطة بشخصية الإمام الجليل قد فرضت علينا أن نخصص فصلا للحديث عن شعره وشاعريته ، وكان أن خصصنا هذا الفصل لذلك الغرض .

لقد كان لشعر الإمام الشافعى مذاق خاص يميزه عن شعر بقية شعراء العربية ، ذلك أنه شعر صادر من منطلق إسلامى محض ، وإذا كان الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكا وصلة بالله وعلاقة بالناس ، فقد كان شعر الشافعى يتناول هذه القضايا جميعا ، فى فصاحة قول ، ونصاعة بيان ، ورقة صياغة وأناقة لفظ ، وجمال إيقاع .

إن الشافعى الشاعر يعزف على وتر الحكمة وينظم شعرا عظيما فى أحداث الزمان ، وما ينتظم تحت ذلك من علاقات اجتماعية بينه وبين الناس ، أو محاورات داخلية بينه وبين ذاته . وللعلم مكانه ومكانته فى نفس الشافعى ، ومن ثم كان شعره عن العلم وقيمته ، والعلماء وأقدارهم ، فالعالم عنده إذا لم يكن عاملا بعلمه فإن العلم يكون سبة فيه ونقمه عليه ، وفى ذلك يقول :

إِذَا لم يَزِدْ علمُ الفتى قَلْبَهُ هدًى ... وسِيرَتَهُ عدلاً وأخلاقَهُ حُسْنَا
فَبَشِّرْهُ أَنَّ اللهَ أولاهُ نقمةً ... يُسَاءُ بها مثلَ الذى عَبَدَ الْوَثْنَا

وللشعر الأخلاقى فى نطاق العلاقات الإنسانية نصيب كبير عند الإمام الشافعى ، فقد أولى موضوع الصداقة والصديق اهتماما خاصا ، وكتب فى ذلك من القصائد الرقيقة العميقة ما يصلح فحواها لأن يشكل دستورا أخلاقيا اجتماعيا ، وقد لفت نظرى بشدة غفلة أبى حيان التوحيدى عن قيمة شعر الإمام الشافعى فى الكتاب المشهور « الصداقة والصديق » .

أما شعر الشافعى فى الزهد والابتهال إلى الله والاستغفار فهو من الصفاء بحيث يتعبد به ، ومن النقاء بحيث يتقرب به إلى الله ، وما أعمق قوله :

عَسَى مَنْ لهُ الإحسانُ يغفُر زَلَّتِى ... ويسترُ أَوْزَارِى وما قَدْ تَقَدَّمَا

فأما الفصل السادس فقد جعلناه مخصصا للسمات البارزة والشمائل المتميزة

في شخصية الشافعي ، تلك التي جعلت منه إماما ، ومن ثم جعلنا عنوان هذا الفصل : الشافعي الإمام .

أما والأمر على هذا النحو من الدقة ، فقد تحدثنا عن خلقه وسلوكه ، ونفسه الأبية ، وهمته العالية ، واعتزازه بعلمه ، وبعده عن المعاصي ، وهو يكرر في القول المرسل والشعر المنتظم أنه لا يجتمع علم ومعصية .

ومن مؤهلات الإمامة أن يداوم صاحبها على طلب العلم ، وأن يواصل التّحصيل ، وقد ظل الشافعي طوال حياته وبرغم نضوجه المبكر يتلقى العلم على كبار الشيوخ وأساطين الفقهاء في بيت الله الحرام ، وفي مسجد رسول الله في المدينة المنورة ، وفي اليمن والعراق ، والشافعي تلميذ مباشر لكل من الإمامين الجليلين مالك وسفيان بن عيينة ، وغير مباشر للإمامين الكبيرين الأوزاعي والليث بن سعد على النحو المبين في ثنايا هذا الفصل .

ولما كانت حلقات دروس العالم تبين مدى ما وصل إليه من قلوب الناس ، فقد تحدثنا عن حلقات دروس الشافعي وما كان يجري فيها من حوار ، وما كان يتدفق من ينبوعها من علم ، وما يدور فيها من نقاش ، يستوي في ذلك حلقاته في البيت الحرام وحلقاته في مسجد عمرو بالفسطاط في مصر .

ومن مؤهلات الإمام أن يرقى في حياته إلى مستوى يجعل منه أستاذا لشيخه ، ولقد كان هذا الحدث العلمي الكبير مما اختص به الشافعي ، شأنه في ذلك شأن مالك ، فقد كان كثيرا ما يجلس من شيخه سفيان مجلس المعلم في قضايا كثيرة . بل إن الشافعي عارض بعض آراء شيخه وإمامه وإمام المسلمين مالك بن أنس ، وألف في ذلك كتابا أطلق عليه « اختلاف مالك » . وفي نطاق الإنجازات العلمية في محيط العلوم الدينية .. يعتبر الشافعي رائد علم أصول الفقه بتأليفه الكتاب النفيس المعروف بـ « الرسالة » ، فضلا عن كتبه الأخرى مثل أحكام القرآن واختلاف الحديث . ومن الصفات التي ينبغي توفرها في الإمام ، ثبات الجنان ورباطة الجأش ، وقد كان الشافعي علما في ذلك ، شأنه شأن الإمام أبي حنيفة في مواقف عديدة ، وأما عن الحوار وأدبه ، والوفاء والتخلّق به ، والزهد

والجود فى آن معا ، والقصد والاعتدال فى الأمور والأحكام ، والفكاهة بقدر والمدح فى اقتصاد فهى موضوعات مرتبطة بالإمام الشافعى ارتباط السوار بالمعصم حسبما يجرى المثل ، وقد وفينا ذلك كله شرحا وبيانا فى هذا الفصل من الكتاب .

فإذا ما كان البحث مرتبطا بفقه الإمام الشافعى وكتبه ، فقد بات من الضرورة أن نفرد لذلك فصلا ، نفسح فيه القول . ومن ثم جعلنا هذا الفصل – وهو السابع – مخصصا لتلك الموضوعات الهامة النفيسة .

إن فقه الشافعى هو فقه التوسط والاعتدال ، وهو يجمع حسبما سلف القول بين فقه أهل الرأى وفقه أهل الحديث ، وقد نقد الشافعى بعض آراء الأئمة الكبار من أمثال أبى حنيفة ومالك والأوزاعى مع احترامه الكامل لشخصياتهم ، وثنائه الجليل على علمهم ، وهو حين نقد أساتذته من أئمة المسلمين لم يفعل ذلك طلبا لشهرة أو مجلبة لثناء ، وإنما كان ذلك النقد نابعا من اجتهاده واستنباطه .

ولقد بينا فى هذا الفصل مصادر فقه الشافعى ، وهى فى مجملها محصورة فى الأخذ بالكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وكان الإمام الجليل متمكناً من مصادر فقهه وتطبيقها إلى المدى الذى جعل منه واسطة العقد بين أئمة المسلمين ، وقد كان الفقيه العراقى الجليل الكرابيسى يقول : ما كنا ندرى ما الكتاب ولا السنة ولا الإجماع حتى سمعنا الشافعى يقول الكتاب والسنة والإجماع .

هذا وقد حرصنا على التعريف بمؤلفات الشافعى التى هى من الكثرة بمكان ومن القيمة بمقدار ، والتى أهمها كتاب « الأم » الذى يحوى فقهه ، والذى اقتفى فى منهجه وترتيبه منهج أبى حنيفة ، ولقد كان الإمام الجليل من الدقة والوضوح فى هذا الشأن بحيث يكرر قوله : العلماء عيال على أبى حنيفة فى الفقه .

إن الشافعى يقسم كتاب «الأم» إلى أبواب ، يطلق على كل باب لفظ كتاب ، فيجعل الكتاب الأول للطهارة والصلاة بأنواعها ، والكتاب الثانى للزكاة ، والثالث للصيام وهكذا ، ومع الدقة الكاملة فى كل موضوع فإن الأبواب – أعنى الكتب –

تتراوح بين القصر والطول ، ولكن القصر لا يحول دون الدقة كما أن الطول لا يؤدى إلى الاستطراد بعيدا عن موضوعه ، ذلك أن الشافعى يعد من أساطين العلماء فى دقة التعبير وإيضاح القصد ، ولا غرو فى ذلك ، فهو يمتلك ناصية اللغة ويستحوذ على أسلوب الأديب .

وإثر الانتهاء من الحديث عن كتاب الأم كان الحديث عن الكتاب ذى الشهرة العريضة والقيمة النفيسة ، وأعنى به كتاب « الرسالة » الذى يمثل نمطا جديدا من التأليف الدينى ، وطرازا متميزا فى المنهج العلمى ، وبهذا الكتاب اعتبر الشافعى واضعا للأسس الأولى لعلم أصول الفقه . هذا وقد كتب الشافعى الرسالة أول مرة فى مكة المكرمة ، ثم عاد وكتبها فى مصر ، أو بالأحرى أملاها على تلميذه الربيع بن سليمان ، ويتناول كتاب الرسالة دراسات عن القرآن الكريم وسبل هدايته ، ثم يتبع ذلك بذكر العلم وطبقات الناس فيه ، وموقعهم منه ، ودرجاتهم حياله ، ثم يفرد بابا للإجماع يتبعه بباب آخر للقياس ، ويتدفق الشافعى فى كتابه تدفق السيل فى بيان ناصع وعمق أصيل ، واستنباط حكيم ، ثم أنهينا هذا الفصل بصفحات حزينة عن مرض الشافعى ولحاقه بالرفيق الأعلى .

وإذا كان فقه كل إمام يبقى ويستمر وينتشر ما بقى له تلاميذ نابهون ، ومريدون مخلصون يتابعون فكره وينشرون فقهه ، فقد جعلنا هذا الفصل الثامن والأخير للحديث عن تلاميذ الشافعى ، وقسمناهم على حسب مواطنهم ، ففريق منهم حجازيون ، وفريق منهم بغداديون ، وفريق ثالث مصريون .

فأما الحجازيون ، فهم محمد بن إدريس الذى يطابق اسمه اسم الإمام وإن لم يكن يمتّ إليه برابطة القرابة ، وإبراهيم بن محمد بن شافع وهو ابن عم الإمام ، وابن ابى الجارود وهو من أنشط تلاميذ الإمام من الحجازيين ، ثم أبو بكر الحميدى الذى ارتحل إلى مصر إثر ارتحال الإمام إليها ، وظل فيها مصاحبا إيّاه إلى أن لقى الإمام ربه ، حينئذ خطر له أن يعود إلى الحجاز ، ولكنه لم يفعل قبل أن يسهم فى اختيار من يرأس حلقة الإمام فى جامع عمرو ، وكان له الفضل فى تمكين أبى يعقوب البويطى من رئاسة الحلقة الشافعية فى المسجد الجامع بمدينة الفسطاط .

وأما البغداديون من تلاميذ الإمام ، أو بالأحرى العراقيون منهم ، فهم أحمد بن حنبل الذي صار بعد ذلك واحدا من أعظم أئمة المسلمين، وإبراهيم بن خالد المكنى بأبي ثور الكلبي ، وأبو علي الكرابيسي وهو أحد الصحاب الأربعة الذين رووا الفقه الشافعي القديم ، والحسن بن محمد بن الصباح المشهور بالزعفرانى ، وكل واحد من هؤلاء صاحب علم وفضل وفقه وحديث .

وأما التلاميذ المصريون فهم : أبو يعقوب البويطى أكبر تلاميذ الإمام الشافعي فى مصر ، واسماعيل بن يحيي المزنى ، والربيع بن سليمان الجيزى ، والربيع بن سليمان المرادى ، وحرملة بن يحيي التجيبى ، ويونس بن عبد الأعلى الصدفى ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم .

إن كل واحد من تلامذة الشافعي المصريين الذى سلف ذكرهم ، إمام بذاته ، وهم الذين سجلوا ما تبقى من فقهه بعد وفاته ، وعلى كثير منهم ، وبصفة خاصة ، الربيع المرادى ، كان الإمام يملى مؤلفاته ومسائله ، وقد امتحن منهم اثنان فى فتنة خلق القرآن التى أشعلها أحمد بن أبي دؤاد فى عهد المأمون والمعتصم ، إنهما البويطى وابن عبد الحكم اللذان اقتيدا مكبّلين بالحديد من الفسطاط إلى بغداد ، وقد أطلق سراح ابن عبد الحكم ، وأما البويطى فقد مات فى السجن ضحية للفتنة وشهيدا للعقيدة ، ولقد أولينا هؤلاء التلاميذ البررة جميعا قدرا من الاهتمام بذكر أفضالهم والتعريف بجهودهم .

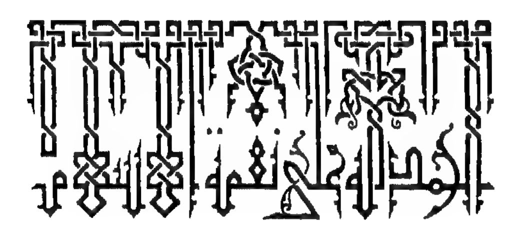
وبعد فقد كان الإمام الشافعي إماما عظيما من أئمة هذه العقيدة السمحة ، ورائدا أصيلا من رواد الفكر العلمى الإسلامى ، وإنسانا فذا فى تمكنه فى فروع المعرفة وتبحره فى فنون العلوم ، نرجو أن نكون قد وفيناه بعض حقه وأعطيناه بعض قدره .

والله نسأل أن يتقبل عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجعله لنا نورا وللمسلمين قبسا هاديا ، إنه نعم المسئول وهو الهادى إلى سواء السبيل .

مصطفى محمد الشكعه .

مكة المكرمة فى ٣ من جمادى الثانية سنة ١٤٠٢ هـ

٢٨ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٢ م



الكتاب الثالث

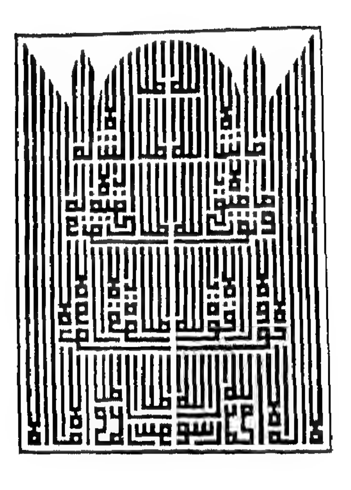
الامام محمد بن ادريس الشافعى

١٥٠ - ٢٠٤ هـ

الفصل الاول

الأسرة والمنشأ والمربى

* عالم قريش
* الأسرة
* والدة الشافعى
* الشافعى الصغير فى المكتب
* فى البادية
* عود إلى التعلم والنضوج



الفصل الأوّل

الأسرة والمنشأ والمربى

— ١ —

عالم قريش :

هذا علم من أعلام الإسلام وإمام متميز من أئمة هذه الأمة . ذو شخصية فذة تلزم المرء أن يحنى لها الجباه إجلالا ويطأطىء الهام لها إعظاما . كما جمع بين جلال العلم وشدة الفطنة . والحفاظ على المعانى الإنسانية التى تجعل منه إمام دين وإمام دنيا .

إنه أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف الذى حدد معالم شخصيته — فيما يذهب كثير من العلماء — الحديث الشريف :

« لا تسبوا قريشا فإنِ عالمها يملأ الأرض علما . اللهم إنَّكَ أَذَقْتَ أَوَّلَهَا عَذَاباً . أو وَبَالاً . فأذِقْ آخِرَهَا نَوَالاً » .

وللحديث رواية أخرى هى قوله صلى الله عليه وسلم :

« اللَّهُمَّ اهْدِ قُرَيشاً فإنَّ عَالِمَهَا يَمْلأُ طِبَاقَ الأَرْضِ عِلْماً . اللَّهُمَّ كَمَا أَذَقْتَهُمْ عَذَاباً فَأَذِقْهُم نَوَالاً » .

لقد عرض العلماء للبحث عن ذلك العالم القرشى الذى تنطبق عليه نبوءة الرسول ﷺ . وانتهوا إلى أن الشافعى هو المراد بذلك إنه « رجل من علماء هذه الأمة من قريش ظهر علمه وانتشر فى البلاد . وكتبوا تآليفه كما تكتب المصاحف . واستظهروا أقواله ، وهذه صفة لا نعلمها قد أحاطت إلا

بالشافعي » . ويمضي العلماء في تأكيد أن الشافعي هو العالم القرشي المراد بالحديث دون بقية علماء قريش قائلين : « إذ كان كل واحد من قريش من علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم وإن كان علمه قد ظهر وانتشر . فإنه لم يبلغ مبلغا يقع في تأويل هذه الرواية عليه . إذ كان لكل واحد منهم نتف وقطع من العلم ومسألات . وليس في بلد من بلاد المسلمين مدرس ومُفْتٍ ومصنف يصنف على مذهب قرشي إلا على مذهبه فعلم أنه بعينه لا غيره . وهو الذي شرح الأصول والفروع وازدادت على مر الأيام حسنا وبيانا »[1] .

— ٢ —

الأســرة :

إن الشافعي قرشي كما هو واضح من نسبه . ويلتقي مع الرسول ﷺ في عبد مناف . إذ أن كلا من هاشم والمطلب أخوان . فقد أنجب عبد مناف أربعة بنين هم هاشم والمطلب ونوفل وعبد شمس[2] .

ويرتبط الشافعي عن طريق جديه الثالث والرابع – وهما شافع والسائب – بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وبالرسالة ارتباطا وثيقا . فكل منهما صحابي جليل ، أسلم السائب يوم بدر فقد وقع أسيرا في أيدي المسلمين وكان يحمل راية بني هاشم ففدى نفسه . ثم أسلم.وكان السائب من الرجال ذوي الفطنة وفصل الخطاب ، فقد سئل : لِم لَمْ تسلم قبل أن تفتدي ، فقال : ما كنت أحرم المؤمنين طمعا لهم فيّ.وقد كرمه الرسول حين أتي به إليه هو وعمه العباس قائلا : « هذا أخي ».فأكرم بها من إخوة تلك التي يخلعها رسول الله على الجد الرابع للشافعي . وأما شافع جده الثالث فقد نشأ على الإسلام ولقي الرسول وهو في طور النشوء والنمو يافعا مترعرعا . ولعل ذلك هو السبب الذي جعل الإمام يقصر نسبه عليه .

---

(١) تاريخ بغداد ٦١/٢ .

(٢) الانتقاء لابن عبد البر ص ٦٦ .

ويزداد عدد الصحابيين فى الأسرة المطلبية واحدا هو عبد الله بن السائب أخو شافع، بل إن عبد الله هذا جمع إلى شرف الصحبة ولاية مكة فقد ولى إمارتها لبعض الوقت .

ولد محمد بن إدريس فى غزة بأرض فلسطين سنة ١٥٠ هـ ، فقد هاجر أبوه إدريس من مكة إلى غزة وعسقلان بحثا عن الرزق . وربما للالتحاق برباط المسلمين . غير أنه مات بعد ولادة ولده محمد بزمن قصير مثلما مات بها هاشم شقيق جده المطلب .

- ٣ -

والدة الشافعى :

وهنا يصبح مصير الطفل الصغير اليتيم مرتبطا بتصرف أمه . فإن كانت الأم عاقلة حاذقة هيأت للطفل أسباب السعادة والنشأة الصالحة . وإن كانت على غير ذلك من السلوك عرضت وليدها للشقاء والمستقبل المضطرب . ولحسن الطالع كانت أم الشافعى من الفريق الأول . فريق الأمهات الصالحات الحاذقات المجاهدات .

إن هذه السيدة الجليلة تذكرنا بسيدة جليلة أخرى . أهدت إلى الأمة الاسلامية إماما عظيما هى أم الإمام مالك . ومن المصادفات المباركة أن يصبح ولدها إماما عظيما أيضا . وأن يكون تلميذا للإمام مالك نفسه . وهى فيما يرى أكثر المؤرخين فاطمة بنت عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبى طالب(٣) وقيل بل بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب . ومن ثم يكون الشافعى هاشميا من ناحيتى أمه وأبيه . وقد ذكر بعض المؤرخين تبعاً لذلك أنهم لا يعلمون هاشميا ولدته هاشمية إلا على بن أبى طالب والشافعى . ولعل كثيرين من الهاشميين أباً وأماً قد غابوا عن ذاكرة هؤلاء

---

(٣) تهذيب التهذيب ٢٩/٩ .

المؤرخين ، ويحضرنا فى هذا المقام محمد الأمين بن هارون الرشيد وزبيدة ، فكل من الرشيد وزبيدة هاشمى على غير مقارنة منا بين محمد بن إدريس ومحمد الأمين ، فالأول إمام من أئمة المسلمين والثانى كان بإغراقه فى ملذاته خنجرا فى جنب الإسلام والمسلمين .

على أن هناك رواية أخرى تنكر أن أم الشافعى كانت هاشمية ، وإنما هى أزدية ، وذكروا أنها كانت تكنى بأم حبيبة الأزدية ، وأيًّا ما كانت هذه السيدة — هاشمية أو أزدية — فلله درها ، وعليها رحمة الله ورضوانه ، فقد كفاها شرفا أنها أنجبت ورعت واحدا من أعظم أئمة المسلمين .

ومن طريف ما يذكره المؤرخون عن والدة الشافعى أنها كانت ذات حذق وذكاء وتفقه فى الدين وقوة عارضة ، وقدرة على الاستنباط ، ودليل ذلك أنها تقدمت هى وامرأة أخرى مع رجل للإدلاء بشهادة أمام قاضٍ ، فأراد القاضى أن يفرق بين المرأتين ، ولكن والدة الشافعى المتصفة بما أسلفنا من شمائل اعترضت على القاضى قائلة : ليس لك ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

« أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى »(٤)

فأسقط فى يد القاضى وانصاع لقولها(٥) .

هذه المرأة الفاضلة لا يتوقع منها إلا أن تحسن رعاية وليدها ، وتسهر على تنشئه تنشئة صالحة ، وتختار له الطريق القويم ، فكان أن نظرت فى أمره وأمرها ، ورأت أن المكان الأمثل لتربيته هو مكة لا غزة ، ففى مكة أهله وعشيرته ، وأهلها وعشيرتها ، وفيها العلم والفضل ، وحولها البادية التى فيها يقوّم لسان الغلام وتصحّ لغته ، ولكن غضارة الطفل لم تكن تسمح له بالسفر الطويل من غزة إلى مكة فى زمن كانت أسباب الانتقال خشنة ، ووسائل الترحال غير مريحة ، فانتظرت حيث هى حتى بلغ الطفل القرشى عامين من عمره فغذّت

---

(٤) البقرة آية ٢٨٢ .

(٥) توالى التأسيس بمعالى ابن إدريس لابن حجر ص ٤٢ .

المسير من عسقلان التى كانت انتقلت إليها بعد وفاة زوجها – وهى غير بعيدة عن غزة – متجهة إلى مكة حيث المقام الصالح والبيئة الطيبة وحيث الأهل والعشيرة .

الشافعى الصغير فى المكتب :

ومع ذلك ورغم المقام الجديد بقى الطفل فقيرا ، وأدخل إلى المكتب دون أن تجد والدته أجر المعلم . وكان المعلم تبعا لذلك يقصر فى تعليمه ، ولكن الطفل القرشى الذكى اليتيم لا يكاد يسمع معلمه يعلم صبيا شيئا حتى يتلقفه من الصبى ، ثم لا يلبث أن ينصب نفسه معلما لأترابه إذا ما تزحزح المعلم بعيدا ، ويكتشف المعلم هذه الموهبة الفذة فى تلميذه الصغير النابه ، فيرى أن يفيد منه فى تعليم الصغار ، ويتغاضى تبعا لذلك عن طلب الأجرة من الطفل الفقير ويمضى الحال على هذا النحو وقتا غير قصير حتى يكون الطفل المطلبى قد حفظ القرآن كله ولما يتجاوز عمره سبع سنين(٦) .

إن الشافعى نفسه يقول : حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر سنين . ويقرر الإمام أنه كان فقيرا غير ذى مال يستطيع الاستعانة به على طلب العلم من أجر للمعلم وثمن للأقلام والصحائف التى يكتب عليها ؛ فأما أجر المعلم فقد تخلص منه بعطاء يرجح الأجر حسبما سلف القول قبل قليل . بقى أن يهيىء الشافعى الصغير لنفسه ما يكتب عليه . ولذلك يقول : كنت أذهب إلى الديوان استوهب الظهور أكتب فيها(٧) .

أما ياقوت الرومى فيورد الخبر على لسان الإمام أكثر دقة وأتم شمولا على هذا النحو : لما خرجت من الكتاب كنت أتلقط الخزف والدفوف وكرب النخل وأكتاف الجمال أكتب فيها الحديث وأجىء إلى الدواوين فأستوهب منها الظهور فأكتب فيها حتى كانت لأمى حباب .(٨)

---

(٦) مناقب الإمام الشافعى للفخر الرازى ص ١٥ .

(٧) تاريخ بغداد ٥٩/٢ .

(٨) معجم الأدباء ٣٦٩/٦ تحقيق مرجوليوت – الدفوف الجلود التى يعمل منها الطبل . كرب النخل هى أصول السعف الغلاظ العراض الظهور الأوراق . الحباب الجرار .

وكان هذا الطفل المطلبي على حبه العلم وحماس إقباله على الدرس مشغوفا باللعب ، ولم يكن ذلك بمستغرب منه ، فجميع الأطفال يجمعون إلى طلب العلم اللعب والرياضة البدنية ، ولكن الشافعي كان قد شغف بنوع بعينه من الرياضة وهو رمى السهام ، وكان شغفه بالرمى مماثلا لشغفه بطلب العلم ، بل إنه كان يسمى ذلك نهما ، فيقول وهو يتحدث عن طفولته : كانت نهمتى فى شيئين ، فى الرمى وطلب العلم ، فنلت من الرمى حتى كنت أصيب من عشرة عشرة .

والأطفال يستعذبون اللعب ويديمون الإدمان فيه حتى إنهم يعرضون أنفسهم لبعض الأضرار ما لم ينصحهم ناصح أو يردعهم رادع ، وكان الشافعي هكذا ، يطيل الوقوف فى حرارة الشمس لساعات طويلة من النهار لا عبا راميا حتى حذره الطبيب . إنه يصف هذه الهواية وشدة كلفه بها قائلا : كنت ألزم الرمى حتى كان الطبيب يقول لى : أخاف أن يصيبك السل من كثرة وقوفك فى الحر . ولعل الطبيب كان مهذبا لبقا فى قوله هذا ، فإن الشمس وحدها لا تصيب من يكثر الوقوف تحت حرارتها بالسل ، ولكن اللعب الطويل مع الافتقار إلى قدر معين من الغذاء ذى كم وكيف هو الذى يعرض اللاعب للمرض .

— ٥ —

فى البادية :

ولكى تكتمل للشافعي أسباب البلاغة والفصاحة كان عليه أن يخرج إلى البادية ، وأن يختار قبيلة معروفة بالفصاحة واللسن يعيش بين ظهرانيها زمنا أو أزمنة ، فوقع اختياره على قبيلة هذيل ، ولقد عرفت هذيل بالبيان والشعر ، بل هى من أفصح قبائل العرب وأشعرها ، ولها ديوان شعر كبير مطبوع معروف هو « ديوان الهذليين » من يقرأه يملأ جوانحه طربا ويلمس من رقتهم عجبا .

مع هذه القبيلة عاش الشافعي سبع عشرة سنة يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم — حسب تعبيره — فلما عاد إلى مكة كان سمته أقرب إلى سمت الأدباء ، وظل ينشد الأشعار ويذكر الأخبار وأيام العرب وألوانا من الآداب ، فمر به رجل

قريش من الزبيريين وتطوع بنصحه أن يتجه إلى دراسة الفقه . إن الشافعي يروى هذه المرحلة القصيرة من حياته بعد تركه هذيلا وقدومه إلى مكة قائلا : « فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار ، وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب ، فمرّ بى رجل من الزبيريين من بنى عمى ، فقال لى : ياأبا عبد الله . عزّ علّى ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه ، فتكون قد سدت أهل زمانك ، قلت : فمن بقى نقصده ؟ فقال لى : مالك بن أنس سيد المسلمين يومئذ فوقع فى قلبى فعمدت إلى الموطأ ، فاستعرته من رجل بمكة ، فحفظته فى تسع ليال ظاهرا ، ثم دخلت إلى والى مكة ، وأخذت كتابه إلى والى المدينة وإلى مالك بن أنس »(٩) .

— ٦ —

عود إلى التعلم والنضوج :

وهنا يبدأ التحول الكامل فى حياة الشافعي ، فيحمل كتاب والى مكة إلى والى المدينة حتى يقدم الشافعي إلى الإمام مالك ، ويتم التقديم على النحو الذى ذكرناه عند حديثنا عن الإمام مالك وكرامة العلم لديه .

وقد نجد من المستحسن هنا أن نشير إلى قضية حفظ الشافعي للموطأ فهو مرة يحفظه وعمره عشر سنين ، ومرة أخرى تكون الرواية أنه حفظه بعد عودته من البادية واستعداده للقاء مالك ، ونحن نرجح الرواية الثانية ، إذ أن الشافعي الطفل يمكن أن يحفظ القرآن فى سن السابعة ، فذلك أمر معقول ومطلوب عند أبناء الأسر المسلمة المحافظة على دينها ، يبعثون بأبنائهم صغارا إلى الكتاتيب لغرض أساسى نبيل هو حفظ القرآن الكريم ، أما أن يحفظ الشافعي الموطأ وهو ابن عشر ، فالبديهة تجعلنا نستبعد ذلك لأنه لم يكن فى حاجة إليه فى تلك السن، وربما لا تسعفه حافظته ـ على حدتها ـ بحفظه آنذاك، وإنما كان يحفظ قدرا من الحديث ربما زاد عما يحفظه أترابه ممن هم في سنه نظراً لذكائه وحدة حافظته.

---

(٩) معجم الأدباء ٦/٣٧٠ تحقيق مرجليوث .

كان مالك هو الأستاذ الأول للشافعى ، عنه أخذ وإليه جلس متفرغا لسماعه ، ومن ثم فقد طالت صحبته لشيخه فى المدينة حتى انتقل مالك إلى جوار ربه سنة مائة وتسعة وسبعين ، وكان عمر الشافعى آنذاك تسعة وعشرين عاماً ، وهى سن الاستيعاب السريع ومن ثم يكون الشافعى قد أخذ من شيخه علما كثيرا .

ولكن الشافعى كان قد اتخذ من سفيان بن عيينة أيضا شيخا وأستاذا ، وكانت حلقة سفيان حول الكعبة ، ثم ما لبث التلميذ أن اتخذ لنفسه حلقة أخرى حذاء حلقة أستاذه ، فاقتها سعة ، وزادت عنها طلابا ، ورجحتها علما ، ولم يلبث الشيخ أن صار يستعين بتلميذه فى فهم بعض الأحكام وإيضاح بعد القضايا على ما سوف نبين فى فصل قادم .

على أننا لا ينبغى أن نهمل ذكر شيوخ آخرين أجلاء أخذ عنهم الشافعى فى الحجاز واليمن ، فلقد ذكر الخطيب البغدادى ستة وعشرين شيخا أخذ الشافعى عنهم ، وذكر ابن حجر سبعة عشر ، وأشهر هؤلاء وأولئك بعد مالك وسفيان : مسلم بن خالد الزنجى ، وابراهيم بن أبى يحيى ، وعمه محمد بن على بن شافع ، وعبد الله بن الحارث المخزومى ، ومحمد بن إسماعيل بن أبى فديك ، وسعيد بن سالم القداح ، وعبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون ، ومحمد بن الحسن الشيبانى ، ومطرف بن مازن ، وإسماعيل بن جعفر ، ويحيى بن أبى حسان التنيسى(١٠).

ولمناسبة ذكر مسلم بن خالد الزنجى كشيخ من شيوخ الشافعى ، فإننا نورد الخبر الذى يفيد أن الشافعى كان يفتى وعمره خمس عشرة سنة ، وفى رواية وهو دون العشرين ، فقد قال الزنجى للشافعى : « يا أبا عبد الله أفت الناس آن لك والله أن تفتى ، وهو ابن دون العشرين سنة »(١١) .

ورواية الخبر على هذا النحو تفيد أن الشافعى كان يفتى الناس فى شئون دينهم وهو لا يزال غضّ الإهاب ، يطلب العلم على مالك وسفيان ، وتعنى كذلك أنه

---

(١٠) تاريخ بغداد ٢/٥٦ وتهذيب التهذيب ٩/٢٥ .

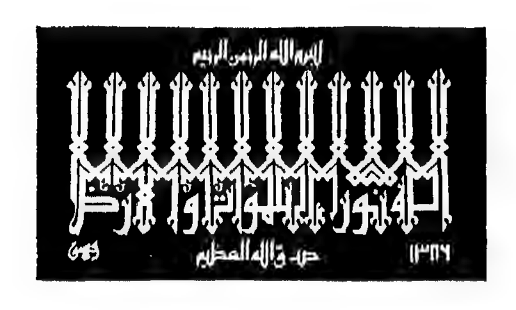
(١١) تاريخ بغداد ٢/٦٤ .

كان يفتى فى الزمن الذى كان مفترضا أن يعيشه فى البادية مع هذيل التى عاش بين ظهرانيها سبع عشرة سنة . يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم . ومثل هذا التضارب يجعل الترجمة للشافعى فى فجر حياته قلقة بعض الشىء . فليس من المستطاع أن يكون فى مكانين فى وقت واحد أى فى البادية وحول الكعبة أو فى حلقة مالك فى الوقت ذاته . والتعليل الذى نأخذ به أن الشافعى كان يقطع إقامته مع هذيل لكى يجىء إلى مكة حاجا أو معتمرا أو زائرا لأمه . وهو آنذاك يكون على صلة بالعلم والشيوخ . ولكن ليس بجمع أسبابه فإن القليل من العلم عند الشافعى الفتى الذكى يرجح العلم الكثير عند أترابه من سائر الفتيان . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى لو أننا رجعنا إلى رواية الإمام عن نفسه حين كان يتلقط الخزف والدفوف وكرب النخل وأكتاف الجمال والظهور لوجدناه يستعملها فى كتابة الحديث آنذاك .

وإذن فالشافعى لم يكن منقطعا كل الانقطاع عن الدراسة فى العلوم الدينية لا وهو فتى صغير . ولا وهو يافع ناشىء . وإنما غلبت عليه هواية الأدب زمنا ما دون أن تحجب عنه دراسة العلوم الدينية .

وتتصل أسباب التلقى والدراسة والرحلة والفطنة حتى يصير الشافعى عالم قريش الذى ملأ أطباق الأرض علما تصديقا لنبوءة الرسول ﷺ .




بسم الله الرحمن الرحيم
الله نور السموات والأرض
صدق الله العظيم
١٣٢٦

الفصل الثاني

فصاحة الشافعي ولغته

* الشافعي أستاذ الأصمعي
* الشافعي والأنساب
* رؤوس مدرستي الكوفة والبصرة والشافعي .
* الشافعي الموسوعي


ولئن صبرتم لهو خير للصابرين

الفصل الثاني

فصاحة الشافعي ولغته

— ١ —

الشافعي أستاذ الأصمعي :

سلف القول أن الشافعي حين تبدّى ليصيب لسانه فنون الفصاحة اختار قبيلة هذيل المشهورة بالبيان ، المغرقة فى قول الشعر الذى يجمع فنونا من الرقة وألوانا من التجويد وقبائل من الإبداع ، ولايزال شعراء هذيل يصبون روائع شعرهم فى أسماع الدنيا من خلال ماخلفوه من قريض مجموع فى ديوانهم أو مفرق فى كتب الحماسة ومختارات الشعر .

لم يكن غريبا إذن حين يقول الأصمعي الأديب اللغوى الراوية صاحب النوادر والأخبار أنه قرأ ديوان الهذليين على شاب من شباب قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعي ، ولم يكن غريبا كذلك أن يروى مصعب الزبيرى الحفيد الثانى لعبد الله بن الزبير أن أباه والشافعي كانا يتناشدان الشعر فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظا ، ويستطرد الشافعي بعد ذلك قائلا لوالد مصعب — وكان اسمه عبد الله بن مصعب — : لاتعلم بهذا أحدا من أهل الحديث فإنهم لايحتملون هذا ولقد صدق الشافعي فى احتياطه للأمر لأن الشعر ومنشديه ورواته لم يكونوا ممن يستريح إليهم أو يثق فيهم الفقهاء والمحدثون ، ولكن الشافعي طراز من الرجال فريد ، لايجد غضاضة فى رواية الشعر كما لايجد حرجا فى قرضه ، وسوف نرى بعد قليل أن الشافعي من أجود شعراء العربية سلامة عبارة ، ونقاء جرس ، وجلالة معنى ، وعمق فكرة ، وطهارة قصد ،وحسن بيان .

لم يكن ديوان هذيل وحده هوكل مايحفظ الشافعي من شعر ، ولكنه بعض ماقد حفظ ، فإن حصيلته من شعر الأقدمين كانت من الوفرة وحسن الاختيار

بحيث صارت له سندا ومسعفا فى فهم آيات الكتاب العزيز وأحاديث الرسول ﷺ .

ويعود الأصمعى مرة أخرى يقول : قرأت شعر الشنفرى على محمد بن إدريس . ومثل هذا القول لاينبغى أن يمرّ عليه الدارس الفاحص مرورا عابرا فالأصمعى عالم كبير ومؤلف جليل . وراوية ثقة للغة والشعر والنوادر . وهو يعترف بأنه قرأ شعر قبيلة بأكملها هى هذيل . وديوان شاعر جاهلى مغرب فى لفظه مستغلق فى معانيه . ولنا أن نستنتج كم من الدواوين الأخرى كان الشافعى يحفظ ويعى . حفظ روايات . ووعى فاهم مستبحر . وكل ذلك مما يميز شخصية الشافعى ويمده بالأدوات التى تعينه على الفهم والاستنباط .

كان الشافعى والأمر كذلك يستعين بمحفوظاته فى الشعر القديم وذخيرته من اللغة فى تفسير كتاب الله . فعل ذلك أكثر من مرة . وفى أكثر من موضع . إنه على سبيل المثال يستعين بنص شعرى فى تفسير قوله تعالى :

« وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . وَحَيْثُ مَاكُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ »(١) .

يقول الشافعى إن لفظ « شَطرَهُ » بمعنى تلقاءه ، وبمعنى جهته ، ثم يستشهد بقول خُفَاف بن ندبة السلمى . وهو ابن عم الخنساء ومن فرسان العرب وأغربتهم الثلاثة :

ألاَ مَنْ مبلغٌ عمراً رسولاً
وما تُغْنِى الرسالةُ شَطْرَ عَمْرِو

ويقول ساعدة بن جؤية الذى كان أبو ذؤيب الهذلى راوية لشعره :

أَقولُ لأمِّ زنباعٍ أقيمِى
صدورَ العِيسِ شَطْرَ بنِى تميمِ

(١) سورة البقرة الآية ١٥٠ .

– ويقول لقيط الإيـادى من شعر ينذر به قومه من غزو كسرى :

وقدْ أَظَلَّكُمُ مِنْ شَطْرِ ثغرِكُمُ
هَوْلٌ له ظُلَمٌ تغشاكمُ قِطَعاَ

– ويقول شاعر قديم لم يذكر اسمه :

إن العير بها داءٌ مخَامِرُهَا
فَشَطْرُهَا بَصَرُ العينينِ مَسْحُورُ

يقول الشافعى فى شرح البيت الأخير : يريد تلقاءها بصر العينين ، ثم يمضى مشيرا إلى المقصد الذى قصد إليه : وهذا كله مع غيره من أشعارهم يبين أن شطر الشيء قصد عين الشيء ، إذا كان معاينا فبالصواب ، وإن كان مغيبا فبالاجتهاد بالتوجه إليه ، وذلك أكثر مايمكنه فيه[٢] .

إن الشافعى يتمثل شواهده ويستعملها فى يسر ورخاء مثلما يترشف المرء رشفات عذبة من ماء زلال ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لتحصيل طويل من أفواه العرب فى ديارهم ، إنه يقرر أنه أقام فى بطون العرب عشرين سنة يأخذ أشعارها ولغاتها ، ويقول أيضا : حفظت القرآن فما علمت أنه مّربى حرف إلا وقد علمت المعنى فيه والمراد ماخلا حرفين[٣] .

لقد كان الشافعى حافظا لكتاب الله مستوعبا آياته ، خادما لحديث رسول الله مستحضرا أحكامه ، حجة فى اللغة ، ثقة فى السير ، راوية للشعر مستجمعا منه مئات القصائد والأراجيز ، فضلا عن عقل رحيب ونفس زكية ، وقلب كبير ، وسجية شاعرة ، فلا غرابة إذنْ أن يكون قمة فى اللغة ، واللغة وهذا شأنها معه تشكل له مدداً سخيّا فى القول والفهم والمحاضرة ، وسندا معاضدا فى الحجاج والكتابة ، ولذلك لم يكن غريبا أن يقول الجاحظ فى الشافعى وبلاغته :

---

(٢) رسالة الشافعى – باب البيان الخامس .

(٣) تاريخ بغداد ٦٣/٢ .

« نظرت فى كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا فى العلم فلم أر أحسن تأليفا من المطلبى ، كأن لسانه ينظم الدر » .

ومثل هذه الشهادة لها خطرها فإنها صادرة من عالم له من سمو المكانة مالم يتيسر لكثيرين غيره ، ضنين بالثناء ، بخيل بالإطراء ، فضلا عن كونه ينتسب إلى مدرسة فكرية تختلف عن مدرسة الشافعى ، فالجاحظ معتزلى والشافعى سنى . والخصومة والبغضاء تشكلان أبرز سمات العلاقات بين أهل السنة وأهل الاعتزال .

— ٢ —

الشافعى والأنساب :

يتحدث عبد الملك بن هشام صاحب السيرة وعالم اللغة وصديق الشافعى وجليسه فى مصر عن بلاغة الشافعى ونصاعة بيانه حين يكتب وحين يحاضر وحين يتكلم فيقول : طالت مجالستنا للشافعى فما سمعت منه لحنة قط ، ولا كلمة غيرها أحسن منها . بل إنه يذهب كما ذهب غيره من العلماء المعاصرين له والمتأخرين عنه إلى أن كلام الشافعى لغة يحتج بها .

ومعرفة العربية وإجادتها ترتبط بشكل أو بآخر بعلم الأنساب ورواية الشعر والأخبار والنوادر ، وكان الشافعى حجة فى هؤلاء جميعا ، وقد مر بنا قبل قليل أن الشافعى حجة فى رواية الشعر وأن الأصمعى قرأ عليه شعر هذيل وشعر الشنفرى ، ويجدر بنا فى هذا المقام أن نشير إلى إتقان الشافعى الأنساب وبلوغه الغاية فيها ، ويصور ذلك قصة لطيفة جرت بينه وبين عبد الملك بن هشام بل لعلها كانت أول لقاء بينهما ، فقد قيل لابن هشام : لو أتيت الشافعى ، وكان الشافعى حديث القدوم إلى مصر ، فتردد ابن هشام بعض الوقت ، فألح الناس من عارفى قدر الشافعى أن يفعل ، فالتقى العالم الوافد والعالم المقيم فتذاكرا فى الأنساب طويلا ، ثم قال له الشافعى فى رقة وتواضع : دع عنك أنساب الرجال ، فإنها لاتذهب عنا ولاعنك ، وخذ بنا فى أنساب النساء ، ولما أن بدأ

الشافعي يأخذ فيها ويفيض اشرأبت إليه الأجياد وتعلقت به الأنظار وأصغت إليه الأسماع ، وكان ابن هشام يقول عن الشافعي بعد ذلك – وابن هشام هو من هو – ماظننت أن الله عز وجل خلق مثل هذا .

– ٣ –

رؤوس مدرستي الكوفة والبصرة والشافعي :

لم يكن ابن هشام وحده من بين اللغويين صاحب هذا الرأى فى لغة الشافعي وحسن بيانه والاحتجاج بأقواله ، وإنما هناك جمهرة كبيرة من رؤوس علماء اللغة ينهجون السبيل نفسه فى الإشادة بفضل الشافعي والاعتراف به كواحد من أكثر العلماء نباهة وأرفعهم شأنا فى العلوم اللغوية ، فهذا أبو العباس ثعلب إمام علماء الكوفة ورأس مدرستها وصاحب كتاب الفصيح وكتاب المجالس يقرر أن ألفاظ الشافعي لغة يحتج بها فيقول : « العجب أن بعض الناس يأخذون اللغة عن الشافعي – أى ينقلون عنه علوم اللغة – وهو بيت من اللغة ، الشافعي يجب أن يؤخذ منه اللغة لا أن يؤخذ عليه اللغة » إن أبا العباس ثعلباً بهذا القول لايجعل من الشافعي أستاذا للغة وراوية لها وحسب وإنما كلامه هو – شأن كلام أبناء القبائل – مصدر من مصادر اللغة يحتج به تماما مثلما يحتج بكلام عرب البادية .

وإذا كان أبو العباس ثعلب رأس مدرسة الكوفة يقول في الشافعي هذا القول فإن معاصره وقرينه أبا العباس المبرد رأس المدرسه المضادة ونعني بها مدرسة البصرة يقول فى الشافعي القول نفسه أو قريبا منه ، حين يقرر أن الشافعي كان « من أشعر الناس وآدب الناس وأعرفهم بالقراءات » وجماع قول المبرد ينتهي به وبنا إلى أن الشافعي علم من أعلام الشعر والأدب والقراءات ، وأن تلك الفنون جميعا تجعل منه لغويا ثبتا وعالما عظيما ، ولقد صاغ المبرد رأيه من خلال سجيته الأدبية الموسوعية ، ذلك أن كتب المبرد وفى مقدمتها كتاب الكامل كانت كتب أدب قبل أن تكون كتب لغة ، ومن هنا كانت قولة ابن خلدون الشهيرة : من قرأ البيان والتبيين للجاحظ وأدب الكاتب لابن قتيبة والكامل للمبرد والأمالى للقالى

ولم يتعلم الأدب فلا أشب الله له قرنا ، ومن هنا كان حكم المبرد على الشافعي فيه شمول الأديب ، وكانت شهادة ثعلب فيها حدود المتخصص .

وينخرط فى قافلة علماء اللغة الذين اعترفوا بفضل الشافعي ، إمام العلوم اللغوية والنحوية المازنى وذلك فى قوله :

« الشافعي عندنا حجة فى النحو » ولفظ « عندنا » الذى تضمنته عبارة المازنى تعنى فى تقديرنا : عندنا نحن النحويين واللغويين .

إن أبا عثمان المازنى معاصر للشافعي وإن طال به العمر ، فقد توفى سنة ٢٤٩هـ أى بعد الشافعي بخمس وأربعين سنة ، فإذا عرفنا أن الشافعي مات ولم يكمل الخامسة والخمسين وأن أبا عثمان فقد منح بسطة فى العمر أدركنا أنهما لم يتعاصرا وحسب بل ربما التقيا ، فالمازنى من أهل البصرة وكان يتردد على بغداد ، والشافعي زار بغداد أكثر من مرة ، وكانت زيارته لها تطول بعض الوقت مما يرجح فرصة لقائهما بعضهما ببعض ، فأبوعثمان لغوى يؤلف ويكتب ، ويقول إن الشافعي عندنا حجة فى النحو ، ومن ثم فإن الشافعي كان فى خاطر أبى عثمان طوال السنوات التى كتب فيها كتبه المشهورة فى اللغة مثل : ماتلحن فيه العامة ، والديباج ، والتصريف ، والعروض ، والألف واللام .

وهذا لغوى آخر صاحب ريادة وزعامة فى ميدان اللغة هو أبو منصور الأزهرى المتوفى سنة ٣٧٠هـ الذى فرض نفسه على الدراسات اللغوية وتابع مؤلفات المازنى وصنف الكتب الكثيرة التى أهمها « تهذيب اللغة » و« تفسير ألفاظ المازنى » . يقول عن الشافعي وكتبه : « عكفت على المؤلفات التى ألفها علماء الأمصار ، فألفيت الشافعي أغزرهم علما ، وأفصحهم لسانا ، وأوسعهم خاطرا » .

ويزيد الربيع بن سليمان خادم الشافعي وصاحبه ومريده الأمر وضوحا فيما يتعلق بتبحر الشافعي فى العربية وشاطئه غير المحدود فيها فيقول : لو رأيت الشافعي وحسن بيانه لتعجبت منه ، ولو ألف هذه الكتب – يعنى كتب الشافعي – على

عربيته التى يتكلم بها معنا فى المناظرة لم يُقدر على قراءة كتبه لفصاحته وغرائب ألفاظه . غير أنه كان يجتهد فى تآليفه فى أن يوضح للعوام .

وهكذا نجد الشافعى يخاطب الناس على قدر عقولهم وطاقة استعدادهم للفهم ، مادته واحدة من حيث العمق والغزارة والتدفق ، ولكنه يقدمها لكل صنف من الناس من خلال التركيبة القريبة الفهم إلى عقولهم ، فهو مع العلماء الذين يناظرهم غريب اللفظ فصيح العبارة دافق المعانى ، وهو مع الأوساط الذين يقرأون له فى حياته وبعد مماته متبسط فى قوله دون تهافت ، واضح فى عبارته فى غير ماتخلٍّ عن أسباب الفصاحة ونصاعة البيان .

— ٤ —

الشافعى الموسوعى :

كانت حلقة الشافعى فى مكة أو بغداد أو الفسطاط تضيق على سعتها بالعلماء ، وتغص بطالبى المعرفة من كل لون ، وإذا كانت حلقاته قد غلب عليها درس العلوم الدينية من فقه وأصول ، فإن كثيرا ممن ترددوا عليها لم يكن يعنيهم العلم الدينى بقدر ما كان يعنيهم العلم اللغوى منبثقا من أقوال الشافعى أسلوبا وأداء وتعليقا واستشهادا . يقول محمد بن الحسن الزعفرانى تلميذ الشافعى : كان قوم من أهل العربية يختلفون إلى مجلس الشافعى معنا ويجلسون ناحية ، فقلت لرجل من رؤسائهم : إنكم لاتتعاطون العلم ، فلم تختلفون معنا ؟ — أى لم تجلسون معنا فى مجلس الشافعى ؟ فأجاب : إننا نسمع لغة الشافعى .

والإمام ابن حنبل تلميذ الشافعى وصفيه يصف علم أستاذه فيقول : الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء : فى اللغة ، واختلاف الناس ، والمعانى ، والفقه .

وإذن فهناك إجماع على سيادة الشافعى فى اللغة وتسنمه قمتها وامتلاكه ناصيتها .

لم يكن غريبا إذن أن يتردد أصحاب اللغة — فضلا عن طلاب الفقه — على

حلقة الشافعى ليستمعوا إلى بيانه الناصع ، ويستمتعوا بنبرات صوته العذبة ، فقد كان الإمام الجليل أقرب إلى الكمال فى كل مايتعرض له من قول أو فعل حتى إن داوود الظاهرى يقول عنه : من تعلق بشىء من بيانه صار محجاجا .

ويقول يونس بن عبد الأعلى مصداقا لذلك : كـان الشافعى إذا أخذ فى العربية قلت هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم فى الشعر وإنشاده قلت هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم فى الفقه قلت هو بهذا أعلم(٤) . وفى حسن أدائه ونصاعة بيانه يقول أبو الوليدبن أبى الجارود : ما رأيت أحدا إلا وكتبه أكثر من مُشاهدته ، إلا الشافعى ، فإن لسانه كان أكثر من كتابه(٥) .

إن الشافعى نفسه يصف بيانه ولسانه بقوله :

لسانٌ كشقشقـــةِ الأرحَبِىِّ
أو كالْحُسامِ اليمانِى الذَّكَرْ

وهذا البيت هو واحد من جملة أبيات نفيسة فاخر الشافعى فيها بعلمه وبيانه وشخصيته وفيها يقول :

إذا المشكلاتُ تصدَّيْنَ لى
كَشَفْتُ حَقَـائِقَهـاَ بـالنظرْ
لسانٌ كشقشقـــةِ الأرحَبِىّ
أو كالحُسامِ اليمانىِ الذكرْ
ولستُ بإمَّعَةٍ فى الرجالِ
أسائلُ هذا وذَا مَـا الْخَبَرْ

---

(٤) معجم الأدباء ترجمة محمد بن إدريس الشافعى .
(٥) تاريخ بغداد ٦٧/٢ .

ولكنّني مـــدرهُ الأصغريْـنِ

جَلاّبُ خيرٍ وفَرّاجُ شرّ

الحديث عن الشافعي اللغوى الأديب الموسوعي حديث طويل ، غير أن الأمر المهم فى ذلك أن اللغة وإجادتها ، والشعر وروايته ، عنصران أساسيان يرشحان المرء لولوج أبواب الدراسات القرآنية والفقهية ، فإذا ماخلصت نيته لله وتوفر على القراءة والاستيعاب ، وصل إلى الغاية وانتهى به علمه إلى الإمامة .



الفصل الثالث

الشخصية العلمية للشافعي

* واسطة العقد .
* الشافعي معلما .
* أستاذ الأساتيذ .
* براعة الحوار وسرعة البديهة .



الفصل الثالث

شخصية الشافعي العلمية

— ١ —

واسطة العقد :

الشافعي ثالث الأئمة الأربعة المشهورين من حيث حياتهم فى الزمان . ولكنه فى الوقت نفسه واسطة العقد بينهم من حيث شخصيته المتطورة المتجددة المتمكنة المتفتحة . ومن حيث نظرته للقضايا الفقهية . وتناولها للأصول الدينية . وتعرضه للمعضلات الجدلية . وهجومه على علوم زمانه المختلفة شكلا المتكاملة موضوعا . التى من حصيلتها تتكون الشخصية العلمية للإنسان . فتوسع مداركه وتضعه فى المكان الذى يمكنه من العطاء والنفع . ووزن الأمور وزنا صحيحا . والالتفات إلى الجواهر منها . والتغاضى عن العرض دون حرج أو مبالاة .

وإذا كان الإمامان الجليلان السابقان على الشافعي زمنًا وهما أبو حنيفة ومالك . قد تزعم أولها مدرسة الرأى . وتبوأ ثانيهما رأس مدرسة الحديث . فإن الشافعي قد أخذ من منهج كل من المدرستين بطرف فى نطاق هضمه للكتاب والسنة . وفى مجال فهمه الصحيح للفقه الإسلامى . حتى إن العالم الفاضل الشيخ محمداً أبا زهرة يرحمه الله يرى أنه قد جمع بين فقه أهل الرأى وفقه أهل الحديث بمقادير متعادلة[١] وإن الأخ الجليل الدكتور أحمد الشرباصي قد رأى أنه أقرب إلى مدرسة الحديث والنقل منه إلى مدرسة الرأى والعقل[٢] . وكلا الرأيين للعالمين الجليلين يثبت مشاركة الشافعي فى منهج المدرستين السابقتين له . هذا يرى مشاركة متوازنة وذاك يرى مشاركة يرجح أحد جانبيها الجانب الآخر .

---

(١) الشافعي : حياته وعصره – آراؤه وفقهه ص ١١ .

(٢) الأئمة الأربعة ص ١٥٠

ومهما كان أمر الاتفاق أو الاختلاف . فإن شخصية الشافعى وعلمه وأدبه ودينه وسلوكه تشكل طرازا فريدا فى دنيا العلم والعلماء . بحيث ذهب الإمام أحمد بن حنبل تلميذه ومريده إلى أنه مجدد القرن الثانى .

— ٢ —

الشافعى معلما :

وتكتمل للشافعى أسباب النضوج . ويجلس فى ثوبه الأبيض ووجهه المشرق الذى تعلوه سمرة خفيفة على مقربة من بئر زمزم . ينثر على الناس درر علمه فى يسر ورخاء . وتواضع وسخاء . ويجيب عن أسئلتهم فى ثقة وعدل وأمانة . ويجادل مخالفيه فى الرأى بإيمان وثبات ومنطق نابع من كتاب الله وسنة رسوله وحصيلة علم وجماع ذكاء وفيض عبقرية . فيذيع اسمه ويكثر تلاميذه وفى مقدمتهم الإمام الجليل أحمد بن حنبل . ويجمع الناس على فضله وعلمه ودينه فتنطلق الأحكام من ألسنة الخلق مقرظة مادحة معجبة . وهى فى تقريظها ومدحها وإعجابها لم تعد كبد الحقيقة أو تخرج عن جادة المحجة . ذلك أن الشافعي إلى خلقه كان ينبوعا من العلم قراره عميق . وبحرا من الفضل شاطئه بعيد، علوم الدين من قرآن وحديث وفقه ولغة، وعلوم الدنيا من نحو وعروض وشعر ونوارد وأخبار وأيام وفلك ورحلة وطب، فكان كما قال ابن حنبل لابنه «يا بني: كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن وهل لهذين من خلف أو لهما من عوض»[٣]. لقد ألم بعلوم زمانه جميعاً فكان كما قال ابن خلكان[٤]: اتفق العلماء قاطبة من أهل الحديث والفقه واللغة والنحو وغير ذلك على ثقته وأمانته وعدالته وزهده وورعه ونزاهة عرضه وعفة نفسه وحسن سيرته وعلو قدره وسخائه، وهذا يونس بن عبد الأعلى يقول[٥]، كان الشافعي إذ أخذ في

---

(٣) تاريخ بغداد ٢/٦٦ .

(٤) الوفيات ترجمة محمد بن إدريس .

(٥) معجم الأدباء ١٧/٣٠٠ .

العربية قلت هو بهذا أعلم . وإذا تكلم فى الشعر وإنشاده قلت هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم فى الفقه قلت هو بهذا أعلم . ويشير ابن حنبل إلى فضل الشافعى على كل متعلم فى جملة بليغة مانعة جامعة بقوله : مامن أحد بيده محبرة إلا وللشافعى فى رقبته منة(٦) .

ثم يصف ابن حنبل فروع المعرفة التى بز فيها أستاذه غيره من العلماء فيقول : الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء . فى اللغة واختلاف الناس والمعانى والفقه .

ويذكر الربيع بن سليمان خادم الإمام وتلميذه ومريده أن الشافعى كان يجلس فى الجامع فى حلقته إذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن ، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر ، فإذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار(٧) .

وإذا كان مالك قد توفر على حديث رسول الله ﷺ حفظا وتدوينا وتعليما . فإن الشافعى قد توفر عليه حفظا وتعليما وتلقينا واستنباطا لأحكامه وفهما لأصوله وتنبيها إلى شأنه ومكانته ، فهذا ابن حنبل على خطر قدره وجلال علمه يقول :(٨) ماعرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعى ، وينبه الزعفرانى إلى فضل الشافعى على علماء الحديث بقوله : كان أصحاب الحديث رقودا حتى جاء الشافعى فأيقظهم فتيقظوا . وعلى هذا النهج من ترديد الاعتراف بفضل الشافعى على طلاب الحديث يقول ابن حنبل : قدم علينا نعيم بن حماد فحضّنا على طلب المسند . فلما قدم الشافعى وضعنا على المحجة البيضاء .

إن الشافعى بعلمه الغزّير وتحصيله الوفير وعقله الناضج . وتفرغه الكامل للعلم يعيش فى رحابه ويفنى فى سبيله . قد جعل منه إماماً جليلا تنطبق عليه كل كلمات ابن حنبل فيه ، تلك الكلمات التى أبلغها أنه وضع العلماء على المحجة البيضاء .

---

(٦) الوفيات . ترجمة محمد بن إدريس الشافعى .

(٧) معجم الأدباء ٣٠٤/١٧ .

(٨) الوفيات : ترجمة محمد بن إدريس .

وإذا ماتلا الشافعى القرآن الكريم تلاه بصوت حسن - وكان حسن الصوت - فلا يلبث الناس أن يتجمعوا حوله . سواء كانت القراءة حول الكعبة أم فى مسجد بغداد أم فى جامع عمرو، وباستمرار تلاوته وحسن أدائه وجمال صوته . تقفز قطرات الدمع من مآقى مستمعيه . وتعلو أصواتهم بالنشيج .ويشيع بين صفوفهم الضجيج . فإذا رأى الشافعى ذلك توقف عن التلاوة . وأمسك عن القراءة .

إن صلة الشافعى بالقرآن الكريم - مفتاح كل هداية - دائمة متتابعة . فقد كان يختم القرآن كل ليلة . فإذا كان شهر رمضان صارت الختمة ختمتين . ختمة بالليل وختمة بالنهار . وبعبارة أخرى كان الشافعى يقرأ القرآن فى رمضان ستين مرة . ولقد ظل يحيى الليل بقراءة القرآن والتعبد والصلاة إلى أن لقى ربه .

لعل إماماً من أئمة المسلمين لم يكتمل نضوجه فى وقت مبكر مثلما اكتمل نضوج الشافعى . فقد تواترت الأخبار أنه جلس للافتاء وهو ابن خمس عشرة سنة . ومن الروايات الثابتة أنه جلس للافتاء فى المسجد الحرام قبل سن العشرين . يذكر الخطيب البغدادى أن مسلم بن خالد الزنجى قال للشافعى : يا أبا عبد الله أفت الناس . آن لك والله أن تفتى . وكان الشافعى دون العشرين آنذاك[9] .

لم يكن ذلك الأمر غريبا من الشافعى ، فقد وصفه شيوخ مكة منذ صغره بالذكاء والعقل والصيانة وكانوا يقولون لم نعرف له صغيرة[10].

ظل الشافعى طوال حياته يعطى ويأخذ . يعطى علما ويأخذ علما . يقول أبو وليد المكى الفقيه عن مداومة الشافعى للدراسة واتصال حبل تلقيه وتتابع مصادره : كنا نتحدث نحن وأصحابنا من أهل مكة أن الشافعى أخذ كتب ابن جريج عن أربعة أنفس : عن مسلم بن خالد . وسعيد بن سالم وهذان فقيهان . وعن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبى دواد وكان أعلمهم بابن جريج . وعن

---

(٩) تاريخ بغداد ٦٤/٢ .

(١٠) مرآة الجنان ٢١/٢ .

عبد الله بن الحارث المخزومى وكان من الأثبات . وانتهت رياسة الفقه بالمدينة إلى مالك بن أنس فرحل إليه وأخذ عنه . وانتهت رياسة الفقه بالعراق إلى أبى حنيفة فأخذ عن صاحبه محمد بن الحسن جملا ليس فيها شيء إلا وقد سمعه عليه . فاجتمع له علم أهل الرأى وعلم أهل الحديث . فتصرف فى ذلك حتى أصّل الأصول وقعد القواعد . وأذعن له الموافق والمخالف . واشتهر أمره . وعلا ذكره . وارتفع قدره حتى صار منه ماصار .

– ٣ –

أستاذ الأساتيذ :

يقول محمد بن عبد الله بن الإمام الشافعى حدثونى عن إبراهيم الحربى أنه قال : قال أستاذ الأساتيذ . قالوا : من هو؟ قال : الشافعى . أليس هو أستاذ أحمد بن حنبل (١١) . هكذا كان يلقب الشافعى من قبل تلاميذ الإمام أحمد . والإمام أحمد أستاذ لعدد كبير من العلماء الفقهاء الأئمة ومن بين هؤلاء إبراهيم الحربى . وكان إبراهيم إماما فى الفقه . حافظا للحديث . بصيرا فى الأحكام . رأسا فى الزهد . صاحب تآليف كثيرة نفيسة . فصارت تسميته للشافعى لقبا يعرف به عند جمهرة علماء الشافعية والرعيل الأول من الحنابلة .

وتبعا لذلك يقول الإمام أحمد بن حنبل تلميذ الشافعى وصفيه جملة الأقوال الكثيرة النفيسة فى أستاذه: «كانت أقضيتنا في أيدى أصحاب أبى حنيفة ما تنزع حتى رأينا الشافعى فكان أفقه الناس فى كتاب الله وفى سنة رسول الله » .

ويعطى الشافعى حديث رسول الله مزيدا من الدرس والعناية والفهم . ويمكن الرجوع فى ذلك إلى الفصول الخاصة بالحديث فى « الرسالة » مما جعل الإمام ابن حنبل يقول : لولا الشافعى ماعرفنا فقه الحديث .

---

(١١) تاريخ بغداد ٦٦/٢ .

وعلاقة ابن حنبل بالشافعى نشأت مبكرة ومنذ الأيام الأولى . حين بدأ الشافعى يتخذ لنفسه حلقة فى المسجد الحرام وكان لايزال صغيرا . وكانت كبرى الحلقات آنذاك حلقة الإمام سفيان بن عيينة أستاذ الشافعى . ولكن ابن حنبل يترك حلقة الإمام سفيان ويتحلق فى مجلس الشافعى مع من يتحلقون فيعاتبه أحد إخوانه فى ذلك ويستنكر فعله فى ترك حلقة سفيان والجلوس إلى هذا الأعرابى – يقصد الشافعى – فيقول له ابن حنبل فى جد ويقين وربما فى حدة : اسكت . إنه إن فاتك حديث بعلو وجدته بنزول . وإن فاتك عقل هذا أخاف ألا تجده ، مارأيت أحداً أفقه بكتاب الله من هذا الفتى .

وفى أستاذية الشافعى وتفوقه على سائر من اشتغلوا بالعلم يقول أبو ثور : من زعم أنه رأى مثل محمد بن إدريس فى علمه وفصاحته ومعرفته وثباته وتمكنه فقد كذب . ويمضى أبو ثور مستطردا : كان محمد بن إدريس منقطع القرين فى حياته . فلما مضى لسبيله لم يعتض عنه .

وأبو ثور هو الفقيه الكبير إبراهيم بن خالد الكلبى البغدادى . وكان فى أول أمره من أصحاب محمد بن الحسن ، ثم تردد على الشافعى وهو ببغداد محاولاً السخرية منه بتوجيه أسئلة إليه فى مجلسه . ولكن علم الشافعى وأدبه وشمائله استطاعت أن تستأنس أبا ثور على ماسوف نوضح فى الفصول التالية . فصار أبو ثور فى مقدمة المتحمسين للشافعى . الآخذين بفقهه . وفى نطاق تحمسه يواجه بسؤال عن أيهما أفقه الشافعى أو محمد بن الحسن ؟ فيجيب على الفور : الشافعى أفقه من محمد . وأبى يوسف . وأبى حنيفة . وحماد . وإبراهيم وعلقمة والأسود . إنه بهذا قد ألغى كل فقه أبى حنيفة ممثلا فى صاحبيه أبى يوسف ومحمد . وفى أبى حنيفة ذاته وفى أستاذه حماد . وأساتذة أستاذه من النخعيين .

وهو وإن كان حماسا غير محمود من جانب أبى ثور لأنّ القصد فى هذه القضايا أمر مطلوب . إلا أن الرجل يريد أن يفصح إفصاحا شديدا عن مكانة الشافعى أستاذ الأساتيذ حسبما لقبه أحد رجال الجيل الثانى من أبناء المذهب . وبهذه المناسبة نذكر أن أبا ثور لم يكن يفضل الشافعى على أبى حنيفة وصحابه

فقط ، وإنما كان يفضل الشافعي على أستاذه مالك ، وقد ألف كتابا فى اختلاف مالك والشافعي وكان فيه أكثر ميلا إلى جانب الشافعي .

ويدلى إسحاق بن راهويه بدلوه فى التعريف بأستاذية الشافعي فيقول : ماتكلم أحد بالرأى إلا والشافعي أكثر اتباعا وأقل خطأ ، ويذكر عددا من الأئمة فى نطاق قوله هذا ، منهم الثورى والأوزاعي ومالك وأبو حنيفة . وإسحاق ابن راهويه هو عالم خراسان فى وقته ، وكان فقيها حافظا صادقا وربما زاهدا . عاش بين سنتى ١٦١ – ٢٣٨ وله مع الإمام الشافعي مناظرة مشهورة سوف نعرض لها بعد قليل .

ولقد التفت الفقهاء المعاصرون للشافعي إلى ظاهرة امتاز بها عن أكثر من كتبوا الكتب وألفوا فى العلم . فالأمر السائد أن العالم يكون أكثر فيضا وعطاء فى كتبه عنه فى كلامه ومشهده ، أما الشافعي فكان على عكس ذلك على الرغم من سخاء عطائه فى كتبه وجلال علمه فى مولفاته . يلتفت ابن ابى الجارود إلى ذلك ويقول : ما رأيت أحداً إلا وكتبه أكثر من مشاهدته إلا الشافعي ، فإن لسانه كان أكثر من كتابه (١٢) .

لقد صدق ابن أبى الجارود فى ملاحظته كل الصدق فلقد تميز الشافعي بالفصاحة التى قل أن توفرت فى معاصر له ، بل قل أن توفرت فى العلماء على مسرى العصور ، وهذا أمر متفق عليه ، فإن ابن هشام يقول : جالست الشافعي زمانا فما سمعته تكلم بكلمة إلا اعتبرها المعتبر لايجد كلمة فى العربية أحسن منها (١٣) . ويقول الزعفرانى : مارأيته لحن قط (١٤) .

لقد كانت فصاحة الشافعي مضرب المثل ، بل كانت سببا فى بقائه على قيد الحياة حين مثل أمام الرشيد متهما بالخروج على العباسيين ، فكان دفاعه عن نفسه ليس سببا فى نجاته وحسب ، بل جعل الرشيد يخلع عليه خمسين ألفاً ماكاد

---

(١٢) تاريخ بغداد ٦٧/٢ .

(١٣) معجم الأدباء ٣٧٢/٦ .

(١٤) تهذيب التهذيب ٣٠/٩ .

يتسلمها حتى وزعها على باب قصر الخليفة على الحجاب والبوابين .

فإذا ما تركنا لسن الشافعى وفصاحته إلى حين ، لكى نذكر كتبه ، تلك التى كانت موضعا للمقارنة مع فصاحته ومشهده ، فإن كثيرا من القوم استكثروها مع قصر عمره وقصر السنين التى عاشها وهى أربع وخمسون سنة فإننا نقرر أن قيمة كتب الشافعى ليست فى كثرتها وحسب ، وإنما فى جوهرها وما جاء به على صفحاتها من الأصول التى لم يتهيأ لغيره أن يأتى بمثلها ، ولقد سئل إسحاق بن راهوية الذى مر ذكره قبل قليل : كيف وضع الشافعى هذه الكتب وكان عمره يسيرا ؟ فأجاب هذه الإجابة الملهمة قائلا : جمع الله تعالى له عقله لقلة عمره[١٥] . هذا من ناحية الجوهر والمحتوى ، وأما من ناحية الأسلوب فشهادة الجاحظ له وهو من سادة أصحاب الأسلوب فى العربية خير ما يثبت للشافعى تسنمه قمة مملكة القلم ، فإن الجاحظ يقول : نظرت فى كتب الشافعى فإذا هو در منظوم لم أر أحسن تأليفا منه[١٦] .

فإذا ما كان الأمر متصلا بالحديث وجرحه وتعديله فى كتب الشافعى ، فإن يحيى بن معين إمام الجرح والتعديل يعطينا الجواب بأن طعناً واحدا لم يوجد فى روايات الشافعى .

— ٤ —

براعة الحوار وسرعة البديهة :

كان الشافعى من ذلاقة اللسان وإشراق البيان وسرعة البديهة ماقد ذكرنا قبل قليل ، وكان من رباطة الجأش فى أشد المواقف حرجا ، وجدية الحوار حين تبلغ القلوب الحناجر بحيث يستطيع إقناع من يستعصى إقناعه .

إن حوارا جرى بين الشافعى والرشيد والسيف مرفوع والنطع مفروش والدم مطلول ، فإذ بالحوار يحول الرشيد من حانق شديد الحنق إلى راض هادئ

(١٥) ، (١٦) المصدر السابق ٢٩/٩ .

النفس ، ومن آمر بالقتل والبطش إلى طالب علم وخاطب ود ، ويحول الشافعي من متهم بجرم إلى رائد ومعلم ، ذلك أن الشافعي قد اتهم مع تسعة من العلويين فى اليمن - وقيل فى مكة على اختلاف الروايات - بالخروج على الدولة العباسية ، وكان اتهامه نتيجة لمكيدة دبرها حاكم الرشيد على اليمن ، فقد أبى الشافعي أن يقر هذا الحاكم على مظالمه الكثيرة فوشى به وجعله فى زمرة بعض العلويين المتهمين بالخروج على الرشيد ، فألقى القبض عليهم ومن بينهم الشافعي ، وكان إذ ذاك يتولى عملا بنجران ، وأرسلوا إلى بغداد ، فضربت رقاب العلويين وجاء دور الشافعي وكان الفقيه الحنفي محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة وأستاذ الشافعي جالسا فالتفت إلى الرشيد وقال : يا أمير المؤمنين ، هذا المطلبى لايغلبنك بفصاحته فإنه رجل لسن ، فقال الشافعي وهو فى موقفه الرهيب بين السيف والنطع : « مهلا يا أمير المؤمنين فإنك الداعى وأنا المدعو ، وأنت القادر على ماتريد منى ، ولست القادر على ما أريد منك ، يا أمير المؤمنين ، ما تقول فى رجلين أحدهما يرانى أخاه والآخر يرانى عبده ، أيهما أحب إلى ؟ قال : الذى يراك أخاه ، فقال : فذاك أنت يا أمير المؤمنين ، إنكم ولد العباس ، وهم ولد على ، ونحن بنو المطلب ، فأنتم ولد العباس تروننا إخوتكم ، وهم يروننا عبيدهم، وهنا يهدأ الرشيد ويسرى عنه ويستوى جالسا ويقول: يا ابن إدريس : كيف علمك بالقرآن ، فيجيب الشافعي : عن أى علومه تسألنى ؟ عن حفظه ؟ فقد حفظته ووعيته بين جنبى وعرفت وقفه وابتداءه ، وناسخه ومنسوخه ، وليليه ونهاريّه ، ووحشيّه وإنسيّه ، وما خوطب به العام يراد به الخاص ، وماخوطب به الخاص يراد به العام . فيقول الرشيد : والله يا ابن إدريس لقد ادعيت علما فكيف علمك بالنجوم ؟ فيجيب الشافعي : إنى لأعرف منها البرى من البحرى ، والسهلى والجبلى والفيلق والمصبح وماتجب معرفته . قال : فكيف علمك بأنساب العرب ؟ قال الشافعي : إنى لأعرف أنساب اللئام وأنساب الكرام ونسبى ونسب أمير المؤمنين ، قال لقد ادعيت علما ، فهل من موعظة تعظ بها أمير المؤمنين ، فذكر الشافعي موعظةً لطاووس اليمانى ، فوعظه بها فبكى ، وأمر له بخمسين ألفا - لعلها من الدراهم - وحمل على فرس وركب بين

يدى الرشيد ، فما أن وصل إلى الباب حتى فرقها جميعا على الحجاب والبوابين .

إنه موقف لايستطيع التغلب عليه والإفلات منه إلا ذو جأش رابط ، وإيمان بالله عميق ، وعلم غزير ، وبيان ناصع ، وبديهة سريعة ، وهكذا كان الشافعى .

هذا ما كان من الشافعى فى موقف الامتحان أمام الرشيد ، انتصر فيه بالعلم ورباطة الجأش معا فى مناظرة علمية سياسية كان من اليسير أن تنتهى بدمه مطلولا، ويجسده مجندلا، وبعنقه طائرا، فقد كان العباسيون على جانب من البطش الشديد إذا ماوقف أمامهم من تحوم حوله ظلال من شك فى التآمر عليهم أو الخروج على حكمهم .

لقد كانت هذه المحنة التى تعرض لها الشافعى فى فجر حياته سببا فى إظهار شخصيته العلمية والأدبية ، بل كانت سببا أيضاً فى دخوله العراق لأول مرة ، فقد دخلها متهما بجرم سياسى كبير ، والحقيقة أن قصة هذه المحنة رويت بأساليب شتى ، وأنها لم تخل من حشو وزيادات ، فأكثر الذين ترجموا للشافعى ذكروها ، ذكرها الرازى فى « مناقب الإمام الشافعى » وذكرها ياقوت فى « معجم الأدباء » وقد اعتمدنا على روايته فيما كتبنا ، وذكرها ابن حجر فى توالى التأسيس بمعالى ابن إدريس وذكرها ابن عبد البر فى كتابه « الانتقاء » .

غير أن الشيخ مصطفى عبد الرازق يرى أن رواية ابن عبد البر للقصة هى الأدنى إلى القصد والأقرب إلى الصواب ، يقول ابن عبد البر بعد ذكره قصة الاتهام « حمل الشافعى من الحجاز مع قوم من العلوية تسعة وهو العاشر إلى بغداد ، وكان الرشيد بالرقة ، فحملوا من بغداد إليه وأدخلوا عليه ، ومعه قاضيه محمد بن الحسن الشيبانى ، وكان صديقا للشافعى وأحد الذين جالسوه فى العلم وأخذوا عنه – المأخوذ عنه هنا هو محمد بن الحسن بطبيعة الحال – فلما بلغه أن الشافعى فى القوم الذين أخذوا من قريش بالحجاز واتهموا بالطعن على الرشيد والسعى عليه ، اغتم لذلك غما شديدا وراعى وقت دخولهم على الرشيد . قال – أى الشافعى – فلما أدخلوا على الرشيد سألهم وأمر بضرب أعناقهم إلى أن بقى حدث علوى من أهل المدينة وأنا ، فقال للعلوى : أأنت الخارج علينا والزاعم

أنى لا أصلح للخلافة ؟ فقال العلوى لن أدعى ذلك ولن أقوله . قال : فأمر بضرب عنقه ، فقال العلوى : إن كان لابد من قتلى فأنظرنى أكتب لأمى بالمدينة فهى عجوز لم تعلم بخبرى ، فأمر بقتله فقتل . ثم قدمت . ومحمد بن الحسن جالس معه ، فقال لى مثل ماقال للفتى فقلت : يا أمير المؤمنين . لست بطالبى ولا علوى وإنما أدخلت فى القوم بغيا علىّ ، وأنا رجل من بنى المطلب بن عبد مناف بن قصى ، ولى مع ذلك حظ من العلم والفقه ، والقاضى يعرف ذلك ، وأنا محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف . فقال لى : أنت محمد بن إدريس ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين قال : ماذكرك لى محمد بن الحسن ، ثم عطف على محمد بن الحسن فقال : يا محمد ، مايقول هذا هو مايقوله ؟ قال : بلى ، وله من العلم محل كبير ، وليس الذى رفع عليه من شأنه . فقال : فخذه إليك حتى أنظر فى أمره ، فأخذنى محمد وكان سبب خلاصى لما أراد الله عز وجل منه (١٧) .

— ٥ —

الحوار العلمى :

فإذا ما أردنا أن نورد أنموذجا لواحدة من المناظرات العلمية للشافعى وما أكثرها فإننا نختار فى هذا السبيل مناظرته مع إسحاق بن راهويه عالم خراسان ، الذى مر ذكره قبل قليل مادحا للشافعى متحمسا له مثنيا عليه ، ولم يكن هذا التحول إلى الحماس والثناء إلا بعد تلك المناظرة ، وكان كلما تذكرها شعر بغير قليل من الخجل ، وها هو نص المناظرة كما أوردها ياقوت الرومى :

حدث الآبرى باسناده : قال إسحاق بن راهوية كنا عند سفيان بن عيينة نكتب أحاديث عمرو بن دينار فجاءنى أحمد بن حنبل فقال لى يا أبا يعقوب قم

---

(١٧) الانتقاء ص ٩٧ . ٩٨ .

حتى أريك رجلا لم تر عيناك مثله . قال فقمت فأتى بى فناء زمزم ، فإذا هناك رجل عليه ثياب بيض تعلو وجهه السمرة ، حسن السمت ، حسن العقل ، وأجلسنى إلى جانبه فقال له : يا أبا عبد الله هذا إسحاق بن راهويه الحنظلى ، فرحب بى وحيانى ، فذاكرته وذاكرنى فانفجر لى منه علم عجز عنه حفظى . قال : فلما أن طال مجلسنا قلت له : يا أبا عبد الله قم بنا إلى الرجل ، قال : هذا هو الرجل، فقلت له: يا سبحان الله، أقمتنا من عند رجل يقول «حدثنا الزهرى » فما توهمت إلا أن تأتى بنا إلى رجل مثل الزهرى أو قريبا منه ، فأتيت بنا إلى هذا الشاب ؟ (أو هذا الحدث) . فقال لى : يا أبا يعقوب ، اقتبس من الرجل فإنه مارأت عيناى مثله . قال الآبرى قال إسحاق : فسألته عن سكنى بيوت مكة (أراد الكرى) فقال : جائز . فقلت : أى يرحمك الله ، وجعلت أذكر له الحديث عن عائشة وعبد الرحمن وعمر وأصحاب رسول الله ﷺ ، ومن كره كرى بيوت مكة ، وهو ساكت يسمع وأنا أسرد عليه ، فلما فرغت سكت ساعة ، وقال : أى يرحمك الله ، أما علمت أن النبى ﷺ قال :

« هَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أو دَارٍ »

قال فوالله مافهمت عنه ما أراد بها ولا أرى أن أحدا فهمه ، فقال إسحاق : اتأذن لى فى الكلام ، فقال : نعم ، فقلت : حدثنا يزيد بن هرون عن هشام عن الحسن أنه لم يكن يرى ذلك ، وأخبرنا أبو نعيم وغيره عن سفيان عن منصور عن إبراهيم أنه لم يكن يرى ذلك . (قال الحاكم) ولم يكن الشافعى عرف إسحاق ، فقال الشافعى لبعض من عرفه من هذا ؟ فقال هذا إسحاق بن إبراهيم بن الحنظلى ابن راهويه الخراسانى، فقال له الشافعى: أنت الذى يزعم أهل خراسان أنك فقيههم؟ قال إسحاق: هكذا يزعمون. قال الشافعى ما أحوجنى أن يكون غيرك فى موضعك فكنت آمر بعرك أذنيه . وقال الحاكم فى خبر آخر : قال له الشافعى : لو قلت قولك احتجت إلى أن أسلسل ، أنا أقول لك قال

---

(١٨) معجم الأدباء ٣٧٩/٦ ط هندية .

رسول الله ﷺ وأنت تقول عطاء وطاووس ومنصور وإبراهيم والحسن وهؤلاء لايرون ذلك ، هل لأحد مع رسول الله ﷺ حجة ؟ قال إسحاق : لبعض من معه من المراوزة بلسانهم ؛ الرجل ما لكانى . ومالكان قرية من قرى مرو أهلها فيهم سلامة وغفلة . قال الحاكم فى خبره فلما سمع الشافعى تراطنه علم أنه قد نسبه إلى شيء ، فقال : تناظر ؟ وكان إسحاق جريئا فقال : ماجئت إلا للمناظرة . فقال له الشافعى : قال الله عز وجل .

« لِلْفُقَرَاءِ المُهاجرين الَّذِيْنَ أُخْرِجُوْا مِنْ دِيَارِهِمْ » . الآية .

نسب الدار إلى المالكين أو إلى غير المالكين ؟ قال إسحاق : إلى المالكين . قال الشافعى : فقوله عز وجل أصدق الأقاويل . وقد قال رسول الله ﷺ .

« مَنْ دَخَلَ دَارَ أبى سُفْيانَ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ » .

أنسب رسول الله ﷺ الدار إلى مالك أو إلى غير مالك ؟ قال إسحاق : إلى مالك . فقال الشافعى : وقد اشترى عمر بن الخطاب دار الحجامين فأسكنها ، وذكر له جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ اشتروا دور مكة وجماعة باعوها . وقال إسحاق له : قال الله عز وجل .

« سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيْهِ وَالْبَادِ » . فقال الشافعى : اقرأ أول الآية قال :

« وَالمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِىْ جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيْهِ وَالْبَادِ » .

قال الآبرى قال الشافعى : والعكوف يكون فى المسجد ألا ترى إلى قوله :

« لِلطَّائِفِيْنَ وَالْعَاكِفِيْنَ » .

والعاكفون يكونون فى المساجد ، ألا ترى إلى قوله جل وعز .

« وَأَنْتُمْ عَاكِفُوْنَ فى الْمَسَاجِدِ » فدل ذلك أن قوله عز وجل « سَوَاءً الْعَاكِفُ فيهِ وَالْبَادِ » . فى المسجد خاص فأما من ملك شيئا فله أن يكرى وأن

يبيع . (قال الحاكم) وقال الشافعي : ولو كان كما تزعم لكان لا يجوز أن تنشد فيها ضالة ، ولا ينحر فيها البدن ، ولا تنثر فيه الأرواث ، ولكن هذا فى المسجد خاصة . قال فسكت إسحاق ولم يتكلم .

وفى خبر الآبرى : فلما تدبرت ماقال من قول رسول الله ﷺ :

« هَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيْلٌ مِنْ رِبَاعٍ أو دَارٍ » .

علمت أنه قد فهم ماذهب عنا . قال إسحاق ولو كنت قد أدركني هذا الفهم وأنا بحضرته لعرّفته ذاك ، ثم نظرنا فى كتبه فوجدنا الرجل من علماء هذه الأمة .

إنّ الإمام الشافعي صاحب مناظرات علمية كثيرة ، وهو فى ذلك يذكرنا بالإمام أبى حنيفة ومناظراته ، وكان كل من الإمامين الجليلين علماً فى أدب المناظرة وآية فى سعة الصدر ، ومثلا فى طول الصبر ، وما دخل أحدهما مناظرة إلا كان الحق والظفر فى جانبه .

إن للإمام الشافعي مناظرات كثيرة وطريفة مثل تلك التى كانت بينه وبين ابن راهويه ، ومثل مناظراته مع أبى ثور الكلبى الإمام الفقيه ، ومثل مناظراته الكثيرة مع الإمام محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة .

وبهذه المناسبة نذكر أن بعض مؤرخي المذاهب قد صوروا عن قصد أو غير قصد أن ثمت خلافا أو خصومة كانت قائمة بين محمد بن الحسن والشافعي ، أو أن محمد بن الحسن كان ضعيف الحجة ضائقا ذرعا ببراعة الشافعي فى الحجاج والمناظرة ، والحقيقة أن الأمر جد مختلف عن ذلك تماما .

لقد كان محمد بن الحسن محباً للشافعي كل الحب، بل ربما آثر صحبته على صحبة الخليفة، فقد كان ممتطياً صهوة جواده متوجهاً إلى مقر السلطة ذات يوم، وإذ به يلتقي بالشافعي وجها لوجه، فيسارع العالم الجليل إلى الترجل ويبش له، ويصر على العودة به إلى منزله مفضلاً مجالسته، مكرماً إياه محتفياً به.

وكان الشافعي يقول عن محمد : ماناظرت أحدا إلا تغير وجهه ماخلا محمد بن الحسن . وذلك يدل على قدر محمد بن الحسن ومدى بشاشته للشافعي .

إن محمدا هذا الذى يترجل للشافعي ويحتفى به ، ويشفع له فى محنته كان من الاعتداد بنفسه وعلمه وقدره بحيث لم يكن يقف للرشيد والناس له قيام . ذلك أن الرشيد دخل يوما على مجلس من القوم يضم محمد بن الحسن ، فقام الجميع وقوفا ماعدا ابن الحسن فقد ظل قاعدا ، فانصرف الرشيد وفى نفسه شيء ، ومالبث القوم إلا قليلا حتى جاء رسول من الرشيد يستدعى الفقيه الجليل ، ولما مثل أمامه سأله الخليفة عن السبب الذى جعله ينفرد بالجلوس دون بقية القوم ، فأجاب محمد على الفور : لقد كرهت أن أخرج عن الطبقة التى جعلتنى فيها ، إنك أهّلتنى للعلم ، فكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة .

ولم يقف الأمر بمحمد عند ذلك ، بل لم يلبث أن أردف القول بنصيحة صبها فى أسماع الرشيد صبا موجعا قائلا : إن ابن عمك رسول الله ﷺ قال :

« مَنْ أحَبَّ أن يَتَمثَّل لَه الرِّجَالُ قِيَامًا فلْيَتَبوأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

هكذا كان محمد بن الحسن علما وفضلا وشجاعة ، ليت علماء زماننا يتعلمون منه ، إذن لتحسنت أحوال الحكام ، وانتشر العدل ، ووئد الظلم ، وانعدم النفاق . . . . . .

فالإمام الشافعي وهذه ثقافته ، وهذا إيمان العلماء بتقدمه عليهم ، وريادته لهم ، وتذليل الطريق أمامهم ، ومبايعتهم له ، كل ذلك بالإضافة إلى تطوافه فى الأرض الإسلامية ، ورحلته إلى العديد من أقطارها من حجاز ويمن وعراق ومصر ، ومناقشته علماءها ، ومجادلته فقهاءها لايكون مستغربا منه أن يأتى فى ميدان العلوم الدينية بالجديد غير المبتدع ، فهو بإشراقة إيمانه ، وضافى علمه ، ووافى معرفته ، وصافى بصيرته ، وشمول نظرته ، كان أول من تكلم فى أصول الفقه ، وأول من استنبطه ، هذا فضلا عن قضايا أخرى عديدة سوف نعرض لها عند الحديث على الفقه الشافعي .


ولئن صبرتم لهو خير للصابرين

الفصل الرابع

الشافعى والسياسة

* عقيدته السياسية من الكتاب والسنة .
* حب آل البيت من منطلق دينى .
* يطلب الجهر بحب آل البيت .
* ليس فيه ذرة من التشيع المذهبى .
* ينكر فقه الشيعة .
* تهمة الاعتزال .
* الإمامة فى قريش .


وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ

الفصل الرابع

الشافعي والسياسة

— ١ —

عقيدته السياسية من الكتاب والسنة :

أسلفنا القول بأنه لايجمل بالعلماء أن ينخرطوا فى ميدان السياسة ويلتزموا باتجاه محدود ، تابعين لهذا الخليفة ، أو سائرين خلف هذا الزعيم ، ذلك لأنهم ملك للناس أجمعين مهما اختلفت أراؤهم أو تباينت أحزابهم ، وهم القدوة الصالحة لمجتمعهم ، ومن ثم وجب أن يكونوا متبوعين لاتابعين ، أئمة لا مأمورين ، يقولون للحاكم إن أصاب أصبت ، وإن حاد عن الجادة أخطأت .

وعلى هذا النهج سلك الشافعى طريقه ومضى إلى غايته ، ولكن بعض الناس نسبوه إلى التشيع ، وقلة قليلة نسبته إلى الاعتزال ، وهو فى حقيقة أمره برىء من هؤلاء وأولئك ، وإنما هو إمام قدوة ، له رأيه النابع من الشريعة ، وفكره المنطلق من العقيدة .

ولعلنا لانزال نذكر قضية اتهامه مع العلويين فى اليمن بالخروج على العباسيين ، ومثوله بين يدى الرشيد للمحاكمة والمجازاة ، ودفاعه عن نفسه ، واقتناع الرشيد ببراءته ، وصلته إياه بمال وفير .

وإذا كان مالك قد تصرف فى نطاق ما أملاه عليه دينه فى ارتباطاته بهؤلاء وأولئك حيناً ، ورفضه لمسلكهم حيناً آخر بحيث يمكن ألا ننسب إليه ولاء سياسياً معيناً رغم أن له رأياً فى مجريات الأمور ، فإن الشافعى لم يكن له بدوره ولاء سياسى يرتبط به ، ولكن كان ولاؤه لما يمليه عليه دينه . لقد كان دينه يملى عليه

أن يحب أبا بكر صدّيق الرسول ورفيقه فى أقدس رحلة ، وأول خليفة على المسلمين ، ولقد كان دينه أيضاً يملى عليه أن يحب علياً صهر الرسول وابن عمه ، وأول من آسلم من الصبيان، وفاديه ليلة الهجرة، وهو بحبّه أبا بكر يعلم أنه سيرمى من قبل الشيعة بأنه ناصبى، ومن قبل خصومهم بأنه رافضى، ولكنه مصرّ على عاطفته تلك الرحبة التى عمرها الحب للجديرين بالحب جميعاً، ولذلك فهو ينشد شعراً طريفاً يقول فيه:

إذَا نحنُ فَضَّلْنا عليًّا فإننا
روافضُ بالتفضيلِ عند ذَوى الْجَهْلِ
وفضْلُ أبِى بكرٍ إذا ما ذكرتُنا
رميتُ بنصْبٍ عند ذِكْرِىَ للفضْلِ
فلازلتُ ذَا رفْضٍ ونصبٍ كلاهما
أدِينُ به حتَّى أُوَسَّدَ فى الرمْلِ

على أن مسحة الحزن التى رانت على المسلمين جميعاً باضطهاد آل البيت من قبل الأمويين والعباسيين على السواء وما تعرضت له العترة الطاهرة من تعذيب وتقتيل قد جعلت المسلمين الصادقين جميعاً – والشافعى فى مكان الصدارة منهم – يرتبطون بآل البيت عطفاً ، ثم يتعلقون بهم حبًّا . ولكن حب الشافعى حبٌّ شجاع ، لأنه صادر من إنسان له قيمته وخطره ، ولأنه معلن ذلك شعراً رقيقاً سهل الحفظ خفيف الوقع على القلب والسمع ، ولأنه بعد ذلك كله قيل فى ثوب من التحدّى ، وإطار من الإعلان على رءوس الأشهاد .

يا راكباً قِفْ بالمحصَّبِ منْ مِنًى
واهتفْ بقاعِدِ خَيْفِهَا والنَّاهِضِ

سَحَراً إذَا فَاضَ الحجيجُ إلى منًى
فَيْضًا بِمُلْتَطِمِ الفُرَاتِ الفائِضِ
إنْ كانَ رفضًا حُبُّ آلِ محمدٍ
فَلْيَشْهد الثَّقلاَنِ أنّى رَافِضِى

إن هـذا الحب الذى يعلنه الشافعى لعترة الرسول الكريـم لا يعتبر ميلاً سياسياً بقدر ما يفسر على حقيقته الفعلية ، وهو تعلق مسلم مخلص بأهل رسول الإسلام وعترته الطاهرة .

وهناك سبب رئيسى جعل الشافعى يطرق هـذه المعانى وينشد هـذه الأبيات ، فقد نسبه الخوارج إلى الرفض ، وبمعنى آخر اتهموه بأنه ينتمى إلى مذهب شيعى ، وحجتهم فى ذلك حبه لآل بيت الرسول وولائه لهم وتعلقه بهم .

يذكر ابن عبد البر فى « الانتقاء » أن بعض الناس قال للشافعى : « إن فيك بعض التشيع ، قال : وكيف؟ قالوا : لأنك تظهر حب آل محمد . فقال : ياقوم ، ألم يقل رسول الله ﷺ :

« لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ»

وقال : « إنَّ أَوْلِيائِى مِنْ عِتْرَتِى المُتَّقُونَ »

فإذا كان واجباً على أن أحب قرابتى وذوى رحمى إذا كانوا من المتقين . أليس من الدين أن أحب قرابة رسول الله ﷺ إذا كانوا من المتقين ؟ .

إن صلةً وثيقة من القرابة تربط بين الإمام الشافعى وآل بيت رسول الله . وإن وشيجة مؤكدة تربط بينه وبين الإمام علىّ من ناحية الأب ومن ناحية الأم ، وكان الشافعى يقول : على بن أبى طالب ابن عمى وابن خالتى ، وهو يشير بذلك إلى أن « الشفاء » أم جده الأعلى السائب بن عبيد هى بنت الأرقم بن هاشم بن عبد مناف ، وأمها « خلدة » بنت أسد بن هاشم أخت

« فاطمة » بنت أسد والدة عليّ ؛ ففاطمة أم على بن أبى طالب خالة إحدى جدات الشافعى فأطلق عليها خالته من قبيل المجاز[1] .

— ٢ —

حب آل البيت من منطلق دينى :

إن المبادئ الكريمة والقيم الرفيعة جميعاً تدعو المرء لكى يكون باراً بأهله وفيًّا لأقاربه ، فما بالنا إذا كان هؤلاء الأقارب هم آل بيت الرسول الذين منهم البتول فاطمة ، ورفيع القدرعليّ ، والسبطان الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة .

لقد كان الشافعى شديد الاحترام كثير التوقير للعترة من أبناء عليّ ، وكان يحلّ فى مجلسهم مستمعا فقط ، يمنع نفسه رغم طلاقتها عن الكلام إجلالاً لهم ، ويذكر ابن النديم فى هذا المقام أن الشافعى حضر يوماً مجلساً فيه بعض الطالبيين فقال : لا أتكلم فى مجلس يحضره أحدهم ، وهم أحق بالكلام ، ولهم الرياسة والفضل .

وسأل رجل الشافعى يوماً عن مسألة أجابه فيها ، فقال له السائل : خالفت عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال له : اثبتْ لى هذا عن على بن أبى طالب حتى أضع خدى على التراب وأقول : قد أخطأت وأرجع عن قولى إلى قوله .

لقد اعتمد ابن النديم على مثل هذه الأخبار ونسب الشافعى إلى التشيع ، بل قال ماهو أكثر من ذلك ، قال : لقد كان الشافعى شديداً فى التشيع ، مع أن هذا الذى حدث لا ينهض سبباً وجيهاً لنسبة الشافعى إلى التشيع التقليدى فضلاً عن التشيع المتشدد ، ذلك أن كل مسلم يجل آل البيت ، ويعطى الطالبيين حقهم من الإجلال بأن يحسن الاستماع إليهم ، وكل مسلم إذا أحس بأنه خالف عليًّا فى قضية سارع إلى تصويب نفسه ونهض إلى تصحيح علمه ، وأخذ بما قال

(١) توالى التأسيس لابن حجر ص ٤٦ .

به الإمام العظيم ربيب بيت النبوة ومدينة العلم كما كان يسميه الرسول ، ولكن يبدو أن ابن النديم قد اعتمد فى نسبة الشافعى إلى التشيع على أبى عبيدة ويحيى ابن معين ، فقد نسبا الشافعى إلى التشيع كما سوف يتضح بعد قليل .

إن الشافعى يحب علياً ويجلّه . تماماً كما يحبه كل مسلم بالحقيقة ويجله ، وإن الشافعى يحب فاطمة وأبناءها ويجلهم . تماماً كما يجب أن يفعل كل مسلم ؛ إن كل مسلم يصلى عليهم فى الصلوات الخمس . وفى الصلوات النوافل مما يعبر الشافعى عنه بصدق فى قوله :

يَاآلَ بيتِ رسولِ اللهِ حُبُّكُمُ
فرضٌ مِنَ اللهِ فى القُرآنِ أَنْزَلَهُ
يَكْفِيكُمُ مِنْ عظيمِ الفخْرِ أنكمُ
مَنْ لَمْ يُصَلِّ عليكمْ لاَصَلاَةَ لَهُ

ويتشفع الشافعى بآل النبى ويناجيهم ويتوسل بهم . تماماً كما يتوسل بهم كل مسلم سنياً كان أو شيعياً ويقول :

آلُ النبىِّ ذَرِيعَتِى وهُمُ إليْهِ وَسِيلَتِى
أرجُو بهمْ أُعْطَى غدًا بيدِى اليمينِ صَحِيفَتِى

ويخص الشافعى الإمام علياً بالحب والإجلال، كما يحبه كل مسلم، فعلىّ هو أول من أسلم من الصبية . وهو ابن عم الرسول . وزوج ابنته البتول ؛ وولداه الحسن والحسين . وهو ذو الفقار الذى خاض المعارك المظفرة فى سبيل الدعوة . وهو صفى الرسول . وهو أحد الراشدين الأربعة . وهو مدينة العلم والفضل . وهو صاحب التقى والكرم . والشجاعة والفروسية . إنه جدير بالحب والإجلال دون ماتشيع سياسى أو رفض مذهبى . وهنا يقول الشافعى :

قالوا : تَرَفَّضْتَ . قلتُ : كلاَّ
ما الرفضُ دِينِى ولا اعْتِقَادِى

لكنْ تولَّيتُ غيرَ شَكٍّ
خَيْرَ إمــــامٍ وخَيْرَ هـــادِى

إنْ كانَ حبُّ الولىِّ رفضاً
فـــــإنَّنِى أَرْفَضُ الْعِبَـادِ

— ٣ —

يطلب الجهر بحب آل البيت :

ولفرط حب الشافعي لآل البيت فإنه يسخر من أولئك الذين لا يجهرون بحبهم ، ولعل الناس كانوا يخشون العباسيين الذين بلغوا من القسوة فى مطاردة آل البيت ما بلغوا ، فضلاً عن تغلغل الإحساس الذى زرعه الخوارج فى بعض النفوس ، مع بقايا أخرى من الأموية كانت لم تزل باقية ، فكان الإعلان عن حب آل فاطمة وأبناء علىّ يجلب عليهم رزايا لم يحبّوا أن يتعرضوا لها ، وأما الشافعي فكان بحكم شجاعته ومكانته وجرأته يجهر بذلك ، بل لعله كان يدعو الناس إلى التخلى عن الخوف وإلى الإعلان عن حبهم للعترة الشريفة ، وليس فى ذلك مايتعارض مع السلطان لأن حب آل البيت جزء من العقيدة .

إن الشافعي يذكر ذلك فى صراحة ، ويسخر فى مرارة من المعرضين عن الإعلان عن حبهم لآل البيت سواء أكان ذلك عن خوف أم عن نهج سياسى ويقول :

إذا فى مجلسٍ ذَكَرُوا عليًّا
وَسِبْطَيْـــهِ وفـــاطمــةَ الزكيَّــهْ

يُقَالُ تَجَاوَزُوا يا قومُ هـذَا
فهذَا مِنْ حديثِ الرَّافِضِيَّهْ

بَرِئْتُ إلى المُهَيْمِنِ مِنْ أُنَاسٍ
يرَوْنَ الرفضَ حُبَّ الفَاطِمِيَّهْ

— ٤ —

ليس فيه ذرة من تشيع :

إن كل ذلك الذى قاله الشافعى نثراً أو شعراً ليس فيه من التشيع قدر ذرة أو مثقال حبة خردل ، وأعنى بالتشيع هنا التشيع المذهبى ؛ فالتشيع المذهبى لا يقـرّ بخلافة الراشدين الثلاثة : أبى بكر وعمـر وعثمان، وينكرهم إنكاراً جلياً لا لبس فيه ولا إبهام ، بل إن بعض متطرفى الشيعة لا يذكرونهم بالخير . وأتحرج من القول بأنهم لا يذكرونهم إلا بكل سوء . وأما الإمام الشافعى فإنه يحب الراشدين الأربعة حباً جمًّا ، ويجعلهم جميعاً مصدراً للهداية . ويمتدح من يجلهم ، ويسب من ينتقص من أقدارهم ، وهو حين يفعل ذلك فإنما يلعن فريقاً من الشيعة ، إنه يقول ذلك فى شعر بليغ أنيق :

شَهِدْتُ بأنَّ اللهَ لاَ رَبَّ غَيْرَهُ
وأشهدُ أن البعْثَ حقٌّ وأُخلِصُ

وأنَّ عُرَى الايمَانِ قولٌ محسنٌ
وفعلٌ زكيٌّ قـد يزيد وَيَنْقُصُ

وأنَّ أبا بكْرٍ خليفةُ رَبِّهِ
وكانَ أبُو حفْصٍ على الخير يَحْرِصُ

وأُشْهِدُ رَبِّى أنَّ عثمانَ فاضلٌ
وأنَّ عليًّا فضلُهُ مُتَخَصِّصُ

أئمةُ قَـوْمٍ نهتـدِى بِهُـدَاهُمُ
لَحَا اللهُ مَنْ إياهمُ يَتَنَقَّصُ (٢)

---

(٢) ابن عساكر ٢/٦٥ والنجوم الزاهرة ٣/٢٩٩ .

الشافعى يحب علياً ويخصه بالفضل . ومن ثم ينسبه بعض الجهال إلى الرافضية ، وهو يحب أبا بكر ويخصه كذلك بالفضل . فينسبه جهال آخرون إلى النصب ، وأما هو فى حقيقة ذاته . فلا يرى بأسا من أن يكون رافضياً وناصبياً فى الوقت نفسه إذا كان ذلك هو ثمن الحقيقة . الحقيقة التى تقول باحترام لأبى بكر وعلىّ كليهما معاً . ومن ثم فهو يقول هذه الأبيات النفيسة التى مر ذكرها قبل قليل ولا بأس من تكرارها :

إِذَا نحنُ فَضَّلْنَا عَلِيًّا فإنَّنَا
رَوَافِضُ بالتفضيلِ عند ذوِى الجَهْلِ
وفضلُ أبِى بكرٍ إذا ما ذكرتُهُ
رُمِيتُ بِنَصْب عندَ ذكرِىَ للفضْلِ
فلا زلتُ ذَا رفْضٍ. ونصبٍ كلاهما
أدِينُ بهِ حتَّى أُوسدَ فى الرمْلِ

والشافعى متزوج من أموية ، والمتشيع لايفعل ذلك وإن جاز أن يحدث ذلك فى زمن متأخر فإنه لم يكن مقبولاً فى زمن الشافعى ، إن زوجة الشافعى هى حميدة بنت نافع بن عنبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فهى والأمر كذلك عثمانية ، وعثمان أموى عبشمى حسبما هو معروف ، ولقد ولدت حميدة للشافعى ابنه أبا عثمان محمدًا الذى صار قاضياً لحلب كما ولدت له أيضاً فاطمة وزينب [٣] .

إن الإمام أحمد بن حنبل تلميذ الشافعى – وهو صادق صدوق – ينفى صفة التشيع عن أستاذه نفياً قاطعاً ، فقد سأل رجل أحمد بن حنبل قائلاً : « يا أبا عبد الله إن يحيى بن معين وأبا عبيدة ينسبان الشافعى إلى التشيع ! ! ؟ فقال أحمد : لا أدرى مايقولان ، والله ما رأينا منه إلا خيراً . ثم قال لمن حوله :

(٣) مقدمة الشيخ مصطفى عبد الرازق لكتاب الأم ص ١٧ .

اعلموا أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله تعالى شيئاً وحرم قرناءه وأشكاله ، حسدوه ، فرموه بما ليس فيه ، وبئست هـذه الخصلة فى أهل العلم[٤] .

— ٥ —

ينكر فقه الشيعة :

ونحن من جانبنا نرى أن التشيع بمعناه المذهبى وبمفهومه العقدى بعيد عن الشافعى بعد السماء عن الأرض ، فالشيعة ينكرون خلافة أبى بكر وعمر وعثمان حسبما أشرنا قبل قليل ، والشافعى يجل الأربعة الراشدين بترتيبهم ، ويرى أن خلافتهم خلافة شرعية ، وإمارتهم للمؤمنين إمارة صحيحة ، بريئة من الخطأ خالصة من أية شائبة .

والشيعة يرون وصاية الإمام على وأبنائه على الرسالة ، وهـذا الشرط يعتبر ركنًا من أركان العقيدة عندهم ، تماماً كالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج ويسلسلون الإمامة فيهم ، الأرشد فالأرشد من الأبناء ، وبالتالى فإن كل خلفاء المسلمين ابتداء من الخليفة الراشد الأول حتى العباسيين ، مرورا بالأمويين ، حكامٌ غير شرعيين ، والشافعى لايرى ذلك ، ولم يزد عن رأيه بأن الإمامة فى قريش واجبة أياً كان هـذا القرشى فاطمياً كان أو أموياً أو عباسياً .

والشيعة لا يتلقون علوم الدين إلا من آل البيت ، ولا يعتمدون الأحاديث لنبوية إلا مروية من أبناء بيت النبوة ، وتبعاً لذلك لا يقبـلون الأحاديث التى رواها الصحابة الكرام ولا يقـرّون بها حتى إن السيد محمد حسين كاشف الغطاء أحد فقهاء الشيعة المعاصرين يرى أن جميع الأحاديث التى رواها أبو هريرة لاتساوى — على حد تعبيره — جناح بعوضة .

والشافعى لم يكن كذلك فأياً ماكان الحديث صحيحاً اعتمده وأخذ به ، وأكثر رواة الأحاديث التى يعتمدها ليسوا من بيت النبوة ، وتبعاً لذلك لا يكون للشافعى صلة ما بالشيعة أو التشيع المذهبى .

(٤) مناقب الإمام الشافعى للرازى ص ٣٤ .

والشيعة يقولون بصحة زواج المتعة وهو لديهم حلال ، والشافعي لا يعترف بزواج المتعة وهو لديه حرام .

هـذا بالإضافة إلى أسباب أخرى كثيرة تباعد بين الشافعي والتشيع المذهبي ، وفى الحقيقة ليس الشافعي بشيعي أو متشيع ، ولا الشيعة أنفسهم يعترفون به فقيها شيعياً .

– ٦ –

تهمة الاعتزال :

ومن الأمور الطريفة أن الشافعي قد اتهم بالاعتزال أيضاً مثلما نسب إلى التشيع ، والأمر الذى لاشك فيه أن الشافعي تتلمذ فى المدينة بعد عودته من اليمن على إبراهيم بن أبى يحيى . إنه يقول : «كنت على اليمن ، واجتهدت فى الخير والبعد عن الشر ، ثم قدمت إلى المدينة فلقيت ابن أبى يحيى وكنت أجالسه ، فقال لى : تجالسوننا وتسمعون منا ، فإذا ظهر لأحدكم شىء دخل فيه »[٥] .

والأمر الذى لاشك فيه أن الشافعي أخذ عن ابن أبى يحيى ، وكان يجله ويعتبره من الثقات ، وكان حين يروى عنه يقول : أخبرنى من لا أتهم .

ولكن عبارة ابن أبى يحيى للشافعي التى يقول فيها : « تجالسوننا وتسمعون منا فإذا ظهر لأحدكم شىء دخل فيه » تدل دلالة واضحة على أن الشافعي لم يصطنع الاعتزال مذهباً ، وأن ابن أبى يحيى أحس بأنه ليس من اليسير أن يصبح الشافعي – على الرغم من إجلاله لعلمه – تابعاً لمذهبه .

هـذا وإن كل من قرأ الاعتزال لا يكاد يحس رابطة ما تصل بين الشافعي وبين المعتزلة ، فالمعتزلة يدخلون العقل فى كل شىء إلى المدى الذى يكادون فيه يهملون النقل ، وليس الشافعي كذلك ، والمعتزلة يوغلون فى الكلام والشافعي ينفر منه ، والمعتزلة يتسمون بالعنف فى جدالهم ، والتطرف فى حوارهم ، بحيث يرمون

---

(٥) مناقب الإمام الشافعي ص ٢٠ .

من خالفهم بالكفر ، والشافعي على الطرف الآخر من ذلك : عف اللفظ . رطب اللسان ، رفيق فى حواره ، رقيق فى مناظرته ، مهذب فى جدله ، يرعى أحاسيس الطرف الآخر ويستمسك بصداقته .

ربما أفاد الشافعي من المعتزلة الجانب المتصل ببراعة الحوار وإجادة المناظرة ، ولكنه خلّص الحوار من العنف ، وهذّب التناظر من الشطط ، وطبعهما بطابع التسامح ، وخلع عليهما مسحة من الرقة وظلالاً من الود ، وذلك هو خلق الإسلام ، فالله سبحانه يقول :

« وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ويقول جل وعلا « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ».

— ٧ —

الإمامة فى قريش :

على أن للشافعي رأياً فى الإمامة ، وهو بمعنى آخر رأىٌ فى السياسة ، ولكنه رأىٌ نابع من صميم تفكيره الإسلامى . واجتهاده الفقهى . وتخريجه الدينى . بعيداً عن أى مؤثر آخر غير تلك التى ذكرنا . فأما الإمامة عنده فلابد منها . يعمل تحت ظلها المؤمن ويستمتع بها الكافر . ويقاتل بها العدو ، وتأمن بها السبل . ويؤخذ بها للضعيف من القوى . حتى يستريح بر ، ويستراح من فاجر .

والشافعي يرى الإمامة فى قريش دون تعيين بطن بعينها من بطونها ، يستوى فى ذلك الهاشميون والأمويون وغير الهاشميين وغير الأمويين ، فقد كان علىّ كرم الله وجهه هاشمياً ، وكان عثمان وعمر بن عبد العزيز — وقد اعتبره الشافعي خامس الخلفاء الراشدين — أمويين ، وكان عمر مخزومياً ، والشافعي يرى أن الإمامة قد تجىء من غير بيعة إن كان ثمة ضرورة ، بل لقد أثر عنه رأى أبعد من ذلك وأشد جرأة رواه عنه تلميذه حرملة بن يحيى التجيبى : وهو أن كل

قرشي غلب على الخلافة بالسيف حتى سمي خليفة واجتمع عليه الناس فهو خليفة[٦] وإذن فالعبرة عنده فى الخلافة حسب ما رأى الشيخ أبو زهرة فى أمرين : كون المتصدى لها قرشياً، واجتماع الناس عليه سواء أكان الاجتماع سابقاً على إقامته خليفة كما هو الأمر فى حالة الانتخاب أو البيعة . أم لاحقاً لتنصيب نفسه خليفة كحال المتغلب الذى أشار إليه .[٧]

والحق أنه رأى خطير من الإمام الجليل لأنه إذا صحت نسبة هذا الرأى إليه كانت خلافة معاوية صحيحة تمام الصحة ، بل و « خلافة » يزيد صحيحة إذا صح لها أن تسمى خلافة . وأخشى أن أقول إن بيعة الحسين وبيعة زيد لا تكونان صحيحتين فى ظل فتوى الإمام الشافعي واجتهاده ، ذلك أن الحسين عليه السلام كان يحمل بيعة صحيحة كل الصحة وكذلك كان زيد يحمل بيعة صحيحة كل الصحة .

على كل حال ، إن آراء الشافعي هذه – رغم أنها السياسة بعينها – اجتهادات فقهية صرفة ، ولعل هذه الآراء إن كانت صدرت قبل لقائه مع الرشيد ذلك اللقاء الذى كانت حياته فيه على حافة الهاوية ، فإنها تكون السبب الحقيقى فى نجاته من تهمة الخروج على دولة الرشيد ، وهو ما نحن بسبيل الحديث عنه بعد قليل ، غير أنى لا أستطيع إلا أن أقف وقفة غير قصيرة أتدبر فيها هذا الرأى الذى يلفت النظر ، ويصطدم اصطداماً مباشراً بالحديث الشريف الصحيح الإسناد :

« النَّاسُ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِىٍّ عَلَى أَعْجَمِىّ إلاَّ بالتَّقْوَى »

وأن الشورى هى أساس الحكم فى الإسلام ، وأن هذه الشورى واحدة من مفاخر الإسلام العظمى .

---

(٦) طبقات الشافعية ص ١٧ .

(٧) الشافعى ص ١٣٨ .

الفصل الخامس

الشافعى ومذهبه فى الشعر

* منهج أخلاقى
* الحكمة وارتباطها بأحداث الزمان
* العلم وفضله
* الصداقة والصديق
* الزهد

الإيمان والدعاء والابتهال



الفصل الخامس

الإمام الشافعي ومذهبه فى الشعر

– ١ –

منهج أخلاق :

إن القارئ لشعر الشافعي يلمس فيه مذاقا مختلفا عن ذلك المذاق أو بالأحرى تلك الطعوم التى يحسها عند سائر الشعراء المحترفين . ذلك أن الشافعى إمام فقيه . ناضج العقيدة ، رفيع الفكرة ، مستقيم النهج . معلم مصلح رائد . ومن ثم كان النهج الأخلاق يسيطر على شعره . والثوب الثقافى يغطى قوله ، والعلاقات الاجتماعية الرفيعة تتمشى فى جسم قصيده . والزهد والتسبيح والمناجاة للخالق تعطر أردان ما يصدر عنه من نفثات صدر . أو خفقات قلب أو فيض الخواطر .

للشافعى كما ذكرنا مشاركة فى جميع علوم زمانه دينيّها ودنيويّها ، ولقد مرّ بنا أنه تفرغ فى صباه الأول للغة والشعر والأخبار . وأنه عاش فى قبيلة هذيل يقوم لسانه ويحفظ أشعارها سنين كثيرة ، وأن الأصمعي صحح عليه شعر هذيل . ومرّ بنا أن مجلس الشافعى كان يبدأ بأهل القرآن وينتهي برجال الشعر والأدب ، ومرّ بنا أيضاً قول يونس بن عبد الأعلى فيه : إذا أخذ فى العربية قلت هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم فى الشعر وإنشاده قلت هو بهذا أعلم . . . . وينسب إلى الشافعي أيضاً قوله : « من تعلم القرآن عظمت قيمته . ومن نظر فى الفقه نبل قدره . ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر فى اللغة رق طبعه ، ومن نظر فى الحساب جزل رأيه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه »[١] واللغة التى يعنيها الشافعي هنا هو الأدب لأنه لا يرقق الطبع من علوم اللغة غير الأدب وكان أكثره على عهده شعراً . .

---

(١) طبقات الشافعية ص ٤٢ .

إن النصوص الشعرية التى تركها الشافعي تنبيء عن موهبة شعرية خصبة وملكة مواتية دربها العلم وصقلها التحصيل ، ولولا أن الشافعي رفض أن يعد نفسه فى سلك الشعراء لكان له نصيب من شهرة فى صفوفهم . ولكنه التمس السيادة فيما هو أسمى من الشعر وهو الفقه والحديث وعلوم الدين . وهذا الصنف من الرجال الذين ينتظم الشافعي قافلتهم يرون أنه لا يجمل بهم أن يعرفوا بين جمهرة الناس كشعراء ، وهم فى الوقت ذاته لا يحاولونه إلا بقدر . فإذا حاولوه لا ينطلقون فيه إلى آخر الشوط ، ولعل خير ترجمان على هذا الرأي قول الشافعي نفسه :

ولولا الشعرُ بالعلماءِ يُـزْري
لكنتُ اليومَ أَشْعَرَ من لبيدِ

وهو مع ذلك لا يفتأ يصطنع الشعر ويفخر بأن له فيه نصيباً طيباً ، فمن ذلك قوله :[٢] .

عندي يواقيتُ القريض ودُرُّه
وعليَّ إكليلُ الكلامِ وتاجُهُ

تُرْبِي علي روْض الرُّبا أَزهارُهُ
ويَرِفُّ فى نادِي الندى ديباجُهُ

والشاعرُ المنطِيقُ أَسودُ سالخٌ
والشعرُ مِنه لعابُهُ ومجاجُهُ

وعداوةُ الشعراءِ داءٌ مُعضِلٌ
ولقد يهونُ على الكريم علاجُهُ

(٢) الوفيات ترجمة محمد بن إدريس الشافعي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— ٢ —

الحكمة وارتباطها بأحداث الزمان :

الواقع أن الفكرة فى شعر الشافعي أكبر من ثوب الشعر نفسه أو بعبارة أخرى إن شعر الشافعي لا يسع أفكاره العميقة المتزاحمة والمثال على ذلك تلك الأبيات القافيّة التى يصبّ فيها بعض أفكاره الحكيمة : [٣] .

إنَّ الذي رُزِقَ اليسارَ ولم يُصِبْ
حمداً ولا أَجراً لَغَيْرُ موفَّقِ

الجدُّ يُدْنى كلَّ أَمرٍ شاسعٍ
والجَدُّ يَفْتَحُ كلَّ بابٍ مُغْلَقِ

وإذا سمعتَ بأَنَّ مجدوداً حوى
عوداً فأَثْمَرَ فى يديْهِ فَصَدِّقِ

وإذا سمعتَ بأَنَّ محروماً أَتى
ماءً لِيَشْرَبَهُ فَغَاضَ فحقِّقِ

لو كان بالحِيَلِ الغِنى لوجدْتني
بنجومِ أَقطارِ السَّماءِ تعَلُّقِي

لكنَّ مَنْ رُزِقَ الحِجَى حُرِمَ الغِنى
ضدَّانِ مفترقانِ أَيَّ تفرُّقِ

---

(٣) الوفيات ترجمة الشافعى .

ومن الدليلِ على القضاءِ وكونه
بُؤْسُ اللَّبِيْبِ وَطِيْبُ عَيْشِ الأَحْمَقِ

لاشك أن القدرة على اصطناع الحكمة خلال هذه الأبيات أكبر من القدرة على اصطناع الشعر الذى يلائم زنتها وقيمتها ، وهى حكمة متدفقه متدافعة تترجم عن شخصية قائلها ترجمة دقيقة صادقة .

وللشافعي أبيات فى الفخر لعل النسج والمعنى فيها قد سارا جنب إلى جنب فى تساوق ومساواة، غير أننا لا ننتظر من العالم الجليل والإمام المقدم فخراً جاهليّ المعنى صاحب المذهب . وإنما هو فخر فى نطاق العلم والبيان والأخلاق ؛ مع مسار واضح تتغلغل الحكمة المقنعة فى فحواه[٤] .

إذا المشكلاتُ تصدَّيْن لِي
كَشفْتُ حقـائِقَهـا بـالنَّظَرْ

لسانٌ كشقْشَقَةِ الأَرْحَبِـ
ـيِّ أَو كالحسامِ اليمانى الذكرْ

ولستُ بإمَّعَةٍ فى الرِّجا
لِ أُسائِلُ هذَا وذَا ما الخبَرْ

ولكنَّنِي مـدْرَهُ الأَصْغَرَيْـ
ـنِ جلاَّبُ خيْرٍ وفرَّاجُ شَرّ

ومن لطائف شعر الشافعي فى الفخر إثر محنة تعرض لها حين قطع عليه الطريق فدخل مسجداً وقد ارتدى ثوباً بالياً والناس يدخلون ويخرجون دون أن يلتفتوا إليه :[٥]

(٤) معجم الأدباء ٣٠٩/١٧ ط المأمون .
(٥) المعجم ٣٢٠/١٧ ط المأمون .

عليَّ ثيابٌ لو يُباع جميعُها
بفَلْسٍ لكان الفلْسُ منهنَّ أَكثرَا
وفيهنَّ نفسٌ لو يُقاسُ ببعضِها
نفوسُ الورَى كانتْ أَجلَّ وأَكبرَا
وما ضَرَّ نصلَ السيفِ إخلاقُ غمدِه
إذَا كانَ عَضْباً أَين وجَّهْتَهُ فَرَى

وإذا كانت النفس تفخر حيناً فإنها تشكو أحياناً . ولا يضر النفس الكريمة أن تشكو ما دامت شكواها مما لا ينال من قدرها . بل إن الشكوى خليقة بأن تصدر عن النفس الكريمة إذا ماأحست بشيء من الهوان . والشكوى مالم تكن متشحة بالحكمة موسومة بالعاطفة لا تستطيع أن تصل إلى مشارف الحس فضلا عن اقتحام سويداء القلوب . فمن شعر الشافعي الذي يخاطب القلب خطاباً مباشراً قوله : (٦)

أَصبحتُ مُطَّرَحاً فى معشر جَهلوا
حقَّ الأديبِ فباعوا الرأْس بالذنَبِ
والناسُ يجمعُهُمْ شَمْلٌ وبينَهمُ
فِي العقلِ فرقٌ وفى الآدابِ والحسَبِ
كمثلِ ما الذهبِ الإبْرِيزِ يَشْرَكَهُ
فى لونه الصُّفْرُ والتفضيلُ للذهبِ
والعودُ لوْ لم تَطِبْ منهْ روائحُهُ
لم يَفْرِق الناسُ بينَ العُودِ والحَطَبِ

---

(٦) المصدر السابق ٣١٩/١٧٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويذكر الربيع بن سليمان المرادي خادم الشافعي وتلميذه ومريده أن سيده لما دخل مصر حين قدومه إليها جفاه الناس فلم يجلس إليه أحد ، فقال له بعض من قدم معه لو قلت شيئاً يجتمع إليك ، فقال : إليك عني وأنشأ يقول(٧) .

أأنثُرُ دُرًّا بين سارحَةِ البَهَمْ
وأَنظِمُ مَنْثُوراً لراعيةِ الغَنَمْ

لعمرِى لئنْ ضُيِّعْتُ فى شرِّ بلدةٍ
فلستُ مُضِيعاً فيهمُ الغرر الكلِمْ

لئن سهَّلَ الله العزيزُ بلطفِهِ
وصادفْتُ أَهلاً للعلومِ وللحِكَمْ

بَثَثْتُ مفِيداً واستفدْتُ ودَادَهُمْ
وإلاَّ فمكنونٌ لديَّ ومكتَتَمْ

ومَنْ مَنَحَ الجهَّالَ علماً أَضاعَهُ
ومَنْ منعَ المستوجِبِين فقدْ ظَلَمْ

وتستبد بالشافعي شكواه من مصاحبة من هو غير جدير بصحبته فى غربته فيعبر عن ذلك فى بيتين من الشعر الإنسانى الرفيع قائلاً :(٨) .

وأَنزلنى طولُ النَّوَى دارَ غُرْبةٍ
إذا شئتُ لاقيتُ امْرءاً لا أُشاَكِلُهْ

أُحَامِقُهُ حتى تُقُالَ سَجِيَّةٌ
ولو كان ذا عقلٍ لكنْتُ أُعاَقِلُهْ

(٧) المصدر ٣٠٩/١٧ .

والشافعي كثير الترحل محب للأسفار . لقد حمل صغيراً من غزة إلى الحجاز . وفى الحجاز تنقل بين مكة والمدينة والبادية حيث تلقى الفصاحة والشعر فى هذيل ، وحينما اشتد عوده سافر ليتقلد بعض الأعمال فى اليمن ويزور العراق غير مرة ويقيم فيها مرة ثلاث سنين ومرة أشهراً ، ويختم حياته بزيارة مصر ، ومن ألف السفر ذاق لذته وأحس بقيمة ما يكتسبه منه من فوائد فى العقل والنفس والبدن لا تقدر إلا بالثمن الربيح ، ولذلك فإن الشافعي يدفع نفسه إلى السفر دفعاً رغم ما فيه من مخاطر وفجاءات فيقول :

سأضربُ في طولِ البلادِ وعَرْضِها
أنالُ مرادي أَو أَمُوتَ غرِيبا
فإنْ تَلِفَتْ نفسى فَلِلَّهِ دَرُّها
وإنْ سلِمَتْ كان الرجوعُ قريبَا

ولا تتلف نفس الشافعي من سفر ، بل تراض على الخبرة بالحياة ، والانتفاع بكل خطوة تخطوها فى رحابها ، فيجعل من نفسه داعية للارتحال ، ويدعو الناس إلى مشاركته حب السفر ، ويقول أبياته النفيسة المشهورة المحفوظة عند كثرة من عقلاء الناس :

سافِرْ تجدْ عوضاً عمَّنْ تفارقُهُ
وانْصَبْ فإنَّ لذيذَ العيشِ فى النَّصَبِ
إنّي رأيتُ وقوفَ الماءِ يُفْسِدُهُ
إنْ سالَ طابَ وإنْ لمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ
والأُسْدُ لولا فِراقُ الغابِ ما افْترستْ
والسَّهمُ لولا فِراقُ القَوْسِ لم تُصِبِ
والتِّبْرُ كالتُّرب مُلْقىً فى أَماكِنِه
والعُودُ فى أَرْضِهِ نوعٌ من الحَطَبِ

وإذا عمد الشافعي إلى كتابة شعر وجداني فإنه يكون من أرق الشعراء لولا أن مكانته الدينية كانت تمنعه من التمادي فيه ، ولكنه ينهج سبيله فى بعض المناسبات ، فقد مرض محمد بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري تلميذ الشافعي وصاحبه وكان قريباً إلى قلب الشافعي كل القرب ، بل كان أبوه وإخوته الثلاثة الحكم وعبد الرحمن وسعد – فيما يروى صاحب الطبقات[٩] – من الملازمين للإمام ، وذهب الشافعي ليعود محمداً وعاد من زيارته وقد تألم لصديقه وتلميذه فقال هذين البيتين الطريفين :

مرضَ الحبيبُ فعُدْتُهُ فمرضْتُ من حَذَرِي عَلَيْه

وأتَى الحبيبُ يَعُودني فبرِئْتُ من نظري إلَيْه

وللشافعي فى هذا اللون من الشعر أبيات متناثرة هنا وهناك .

نحن إذا أمعنا النظر فى مقطوعات الشافعي تلك التى مضت ، وجدنا أنها مستمدة من وقائع جرت له ومصورة لأحداث ارتبطت به فى علاقاته بالناس ، وفى حله وترحاله ، فهو يفخر بعلمه حين ارتفع أمر الجهال ، وتلك هى الحكمة بعينها ويشيد بنفسه الأبية حين لم يعره الناس اهتماما لما وجدوه بالمسجد فى ثياب رثة بعد أن سرقه اللصوص . ويذكر علمه وضنّه به على الناس حين دخل مصر فلم يلتفت إليه الناس أول عهده بالوصول إليها . والشافعي كثير الأسفار دائم الترحال . وكل من السفر والرحلة يكسبان المرء تجارب وفوائد ، ومن ثم وجدنا الشافعي يترجم عن أولئك جميعا فى عبارة ناصعة وصيغة مشرقة وإيقاع جميل . فليس الشافعي بذلك الشاعر التقليدى الذى يضمن الحكمة شعره على النسق الذى عمد إليه الشعراء المحترفون . ولكنه عالم فقيه ذو فضل ومروءة ، ومرتبط بأعماق فكرية وسلوكية ليس إلى تخطيها من سبيل . فكان هذا النمط من شعر الحكمة والفخر المتداخل أحدهما فى الآخر على النحو الذى رأينا وقرأنا :

ويوغل الشافعي إلى لب القول الحكيم حين يرى الناس غافلين متكاسلين

---

(٩) طبقات الشافعية ص ٢٠ .

متواكلين مستعبدين مغلوبين على أمرهم فإذا ما خوطبوا فى ذلك ردوا مآسيهم إلى حكم الزمان . إن الشافعى يرفض دعواهم تلك . وتبريراتهم هذه . الدعوى المتهافتة والتبريرات المريضة ويقول موبخا معنفا[10] .

نعيبُ زَمَانَنَا والعيْبُ فِينَا
وما لِزَمَانِنَا عيْبٌ سِوَانَا

ونهجُو ذَا الزمانَ بغيرِ جُرْمٍ
ولو نَطَقَ الزمانُ إِذًا هَجَانَا

وهما بيتان نفيسان محملان بأعباء نفيسة من القيم سهر عليهما الشاعران الكبيران أبو تمام والمتنبى وأخذا منهما مأخذا حسنا فى كثير من المعانى التى طرقاها .

وإذا كان الشافعى قد تناول جمهرة الناس من عامة وخاصة بذلك القول الحكيم الذى قاله فإنه لم يغفل عن الحكام الظالمين الذى أوقعوا بالآمنين فقتلوا نفوسا . وسلبوا أموالا . وصادروا دورا . ونهبوا متاجر . وأذاعوا الفاحشة وأفشوا الفساد وشجعوا الانحلال . ومزقوا القيم . وحاربوا الإنسان فى أنفس ما يملك الإنسان .

إن الشافعى يذكر هؤلاء الظالمين قائلا :[11]

تحَكَّمُوا فاسْتَطالُوا فى تحكُّمِهِمْ
عمَّا قليلٍ كأنَّ الحكم لم يَكُنِ

لو أَنْصَفُوا أُنْصِفُوا لكنْ بَغَوْا فَبَغَى
عليهمُ الدهرُ بالأحزانِ والمحنِ

فأصبحُوا ولسانُ الحالِ يُنْشِدُهُم
هذا بِذَاكَ ولاَ عَتْبٌ على الزمنِ

---

(١٠) المحمدون من الشعراء ص ١٩٦ .

(١١) ديوان الشافعى لعبد العزيز سيد الأهل ص ٦٧ .

— ٣ —

العلم وفضله :

الشافعي عالم فقيه إمام آمن بالعلم وسيلة وغاية ، ورأى فيه السيادة والمروءة ، وعلم وتعلم . وسافر وارتحل فى سبيل اقتناص المعرفة ، وفى كلمات موجزة عاش الشافعي يحمل على عاتقه رسالة العلم وأمانة الكلمة ، فكان من الطبيعى أن يتوقف فى شعره غير قليل عند العلم والعلماء ، وأن يقدم ذلك كله فى نطاق من المعانى المثلى والقيم العليا .

يعرض الشافعي للعلم وما يخلعه على صاحبه من فضل ، يرفع قدره وإن كان وضيعا . ويعظم شأنه ولو كان حقير المنشأ رقيق الحال[١٢] :

رأيتُ العِلْمَ صاحبهُ كريمٌ
ولوْ وَلَدَتْهُ آباءٌ لئامُ
وليس يَزالُ يَرْفَعُهُ إلى أَنْ
يُعَظِّمَ أَمْرَهُ القومُ الكرامُ
ويَتَّبِعُونَهُ فى كلِّ حالٍ
كَرَاعِي الضَّأْنِ تَتْبَعُهُ السَوَامُ
فلولا العلمُ ما سَعِدَتْ رجالٌ
وَلاَ عُرِفَ الحلالُ ولا الحرامُ

أما وإن هذا هو قدر العلم وموقع العالم من الناس ، فليقدم المرء على اقتناصه فى صبر وأناة ، فمن لا يزينه علم لا يوقره جمع . ومن لا يجمل نفسه بالمعرفة فهو والموتى سواء ، والتعلم على زمان الشافعي كان محفوفا بالمصاعب خاصة من لدن

(١٢) المصدر ص ٥٧ .

المعلمين الذين يؤدبون الصغار . فضلا عن بعض من يعلمون الكبار ، ولقد مر بنا كم صادف من صعاب حتى وصل إلى باب مالك ، وقبل ذلك كم لاقى من إهمال من معلم الكتاب . إن ذلك كله يصوره الشافعي فى هذه الأبيات القليلة :

تَصَبَّرْ على مُرِّ الْجَفَا من معلِّمٍ
فإنَّ رسوبَ العلمِ فى نَفَرَاتِهِ

وَمَنْ لم يَذُقْ ذُلَّ التَّعَلُّمِ ساعةً
تَجَرَّعَ ذُلَّ الجهلِ طولَ حياتِهِ

وَمَنْ فاته التعليمُ وقْتَ شَبَابِهِ
فكبِّرْ عليهِ أَرْبَعًا لِوَفَاتِهِ

حياةُ الْفَتَى – والله – بالعلم والتُّقَى
إذَا لمْ يكونَا لاَ اعتِبَارَ لذاتِهِ

والشافعى فقيه أجرى حياته على سنن ، وأقامها على شروط،واستوى بها على أحكام ، ومن ثم فهو يطبق ذلك على طالب العلم ، وينبهه ويأخذ بيده إلى الوسائل الكفيلة بأن تصل به إلى شاطئه فينهل ويرتوى . إن هذه الوسائل وتلك الشرائط لخصها الشافعى فى هذين البيتين .

أَخِي لَنْ تنالَ العِلْمَ إلاَّ بِسِتةٍ
سأنبيكَ عَنْها مُخْبِراً بِبَيَانِ

ذكاءٍ وحرصٍ واصطبارٍ وبُلْغَةٍ
وصُحْبَةِ أُسْتَاذٍ وطُولِ زَمَانِ

ولقد أسلفنا القول عند الحديث عن الأئمة السابقين : أبى حنيفة ومالك وغيرهما من كبار الفقهاء إن شرط النبوغ كان يستلزم التفرغ لأستاذ بعينه وصحبته زمنا طويلا . فقد لزم أبو حنيفة حمادا ثمانى عشرة سنة ، ولزم مالك ابن هرمز

ثمانى سنين ، والشافعى نفسه لزم مالكا حتى انتقل مالك إلى رحمة الله . إنها ما أطلق عليه الشافعى شعرا : «وصحبة أستاذ وطول زمان» .

على أن العلم وحده لا يجدى فتيلا ما لم يكن مصحوبا بتقوى الله والخلق السوى والسيرة الطيبة والمسلك الحسن . إن الشافعى ينبه إلى ذلك فيما ينبه وهو يتناول قضية العلم فى شعره فيقول[١٣] :

إِذَا لَمْ يَزِدْ علمُ الفَتَى قَلْبَهُ هُدًى
وَسِيرَتَهُ عَدْلاً وأَخْلاَقَهُ حُسْنَا

فَبَشِّرْهُ أَنَّ اللهَ أَوْلاَهُ نِقْمَةً
يُسَاءُ بها مثلَ الذى عَبَدَ الْوَثْنَا

هكذا يكون العلم المقرون بالخلق الحسن فضلا ونعمة ، ويكون العلم المقرون بسوء السيرة شرا ونقمة ، ولا توسط بين الأمرين .

وإذا كان الإنسان غير مستطيع الإحاطة بكل أصناف العلم وفنون المعرفة ، وهو لاشك غير مستطيع ، فينبغى عليه أن يختار أحسن العلوم وأفضلها ، وأن يتوفر عليها ويتقنها ، وهو ما يتمثل فى قول الشافعى :

لَنْ يَبْلُغَ العِلْمَ جميعًا أحدٌ
لا ولو حَاوَلَهُ أَلْفَ سَنَهْ

إِنَّما العلمُ عميقٌ بَحْرُهُ
فَخُذُوا مِنْ كلِّ شيءٍ أَحْسَنَهْ

ومن أصاب علما كان عرضة لأن يسأل ويسأل . ويحاور ويحاور ، ويناظر ويناظر ، وللحوار آداب ، وللمناظرات تقاليد أهمها الهدوء والتسامح والسكوت والتواضع ، والبعد عن اللجاج واجتناب المكابرة ، ولقد عرف الشافعى بهدوئه فى

---

(١٣) ديوان الشافعى عن حاشية الصاوى ص ٦٥ .

مناظراته ، وأدبه فى محاوراته ، وسعة صدره فى مجادلاته ، فكسب بذلك قلوبا ، وراض نفوسا ، وربح أتباعا ، وألف أحبابا ، واستصلح خصوما . إنه يترجم عن آداب المناظرة فى هذه الأبيات السلسة العذبة قائلا :

إِذَا ما كنْتَ ذَا علمٍ وفضْلٍ
بما اخْتَلَفَ الأَوائِلُ والأواخِرْ

فَنَاظِرْ مَنْ تُنَاظِرُ فى سكونٍ
حليمًا لا تَلِجُّ ولا تُكَابِرْ

يُفِيدُكَ ما استَفَادَ بِلاَ امتنانٍ
من النكَتِ اللطيفةِ والنَّوادِرْ

وإِياكَ اللَّجُوجَ وَمَنْ يَرَانِى
بأنى قَدْ غَلَبْتُ وَمَنْ يُفَاخِرْ

فإِنَّ الشَّرَّ فى جنباتِ هذَا
قَمِينٌ بالتَّقَاطُعِ والتَّدَابُرْ

— ٤ —

الصداقة والصديق :

إن أهم ما يؤثل مبادىء الحب والألفة فى نفوس الناس ، صفاء الود ، وحسن المصاحبة ، وشيوع الصداقة وانتشار المودة . فمن خلال هذه القيم يتكون المجتمع الصالح المترع بالحب النقى من العداوات . ومن ثم فقد عنى الشافعى فيما كتب من شعر بهذه القيم ، يظهرها ويركز عليها ، ويهتم بها ويشير إليها وقد جعل من الصداقة والصديق مرتكزا ومنطلقا ، ومن ثم فإنه يوضح من هو الصديق ، وما هى صفاته فى هذه الأبيات[١٤] .

(١٤) ديوان الشافعى ص ٣٩ عن تنبيه المغترين للشعرانى .

صديقٌ ليس ينفعُ يومَ بَاسِ
قريبٌ من عَدُوٍّ فى القياسِ
ولا يُرْجَى الصديقُ بكلِّ عصرٍ
ولا الإخوانُ إلاَّ للتآسِى
خَبَرْتُ الناسَ مُلْتَمِساً بِجَهْدِى
أَخَا ثقةٍ فأَكْدَاهُ الْتِمَاسِى
تنكرت البلادُ علىَّ حتىَّ
كأَنَّ اناسها لَيْسوا بِنَاسِ

إن الأبيات تتضمن قيما أخلاقية لعل الشافعى كان من التشاؤم بحيث عبر عن افتقادها . ونخشى نحن أيضا أن نكون قد افتقدناها فى العصر الذى نعيشه الآن إذ أن طبيعة الفرق بين هذا العصر وذاك تقدم القرينة فى هذا الأمر .

ولكى يعيش المرء سعيدا فى مجتمع نقى عليه أن يستمسك بصفات تقربه إلى الناس وتقرب الناس إليه فى نطاق التزين بالخلق والصيانة والصبر وهو ما يعبر الشافعى عنه بقوله :

صُنْ النفْسَ واحْمِلْها على ما يَزِيْنُهَا
تَعِشْ سالماً والقولُ فيكَ جميلُ
ولاَ تُرِيَنَّ الناسَ إلاَّ تَجَمُّلاً
نَبَا بكَ دهرٌ أو جَفَاكَ خليلُ
وإنْ ضَاقَ رِزْقُ اليومِ فاصْبِرْ إلى غدٍ
عَسَى نكباتُ الدَّهْرِ عَنْكَ تَزُولُ

ثم يدلف الشافعي فى رشاقة ويسر إلى حديث الصداقة والصديق . أو بالأحرى حديث الإخوان من جانبي الخير والشر فيقول :

وَلاَ خَيْرَ فى وُدِّ امرئٍ مُتَلَوِّنٍ
إذا الريحُ مالتْ مَالَ حيثُ تَمِيلُ
وما أَكْثَرَ الإِخْوانَ حينَ تَعُدُّهُم
ولكنهمْ فى النـائبـاتِ قليـلُ

ويسجل الشافعي فى أبيات قليلة صفة الإخوان الجديرين بحبه الخليقين بصداقته على هذا النحو : (١٥)

أُحِبُّ من الإِخْوَانِ كلَّ مُوَاتِى
وكلَّ غَضِيضِ الطَّرْفِ عن عَثَرَاتِى
يُوَافِقُنِى فى كلِّ أمرٍ أُرِيدُهُ
وَيَحْفَظُنِى حَيّاً وبَعْدَ وَفَاتِى

ثم يبحث الشافعي عن هذا الصديق لعله يجده . ويعبر عن ذلك قائلا

فَمَن لِى بِهذَا ؟ لَيْت أَنِّى أَصَبْتُهُ
فَقَاسَمْتُهُ مَا لِى مِنَ الْحَسَنَاتِ
تَصَفَّحْتُ إخْوانِى وَكَانَ أَقَلُّهُمْ
على كَثْرَةِ الإِخْوانِ – أَهْلَ ثِقَاتِى

لقد طرق الشافعي معنى جليلا ألح عليه إلحاحا شديدا فى الإشادة بقيمة الصداقة وقدر الصديق . الصديق الذى تخيل الشافعي ندرة وجوده ، ولو قد

---

(١٥) الديوان ص ٢٠ عن أدب الدنيا والدين للماوردى .

وجده فإنه يستحق منه أغلى ما يملك الإنسان فى دنياه وآخرته وهو حسناته . إذن لقاسمه إياها فى رضى وارتياح .

أما وإن هذا الصديق قد ندر وجوده . وذاك الخل قد أصبح حلما لا ينال . فإن الوحدة والابتعاد عن الناس هى أفضل الأمور وأخفها ضررا :

إِذَا لَمْ أجِدْ خِلاًّ تَقِيًّا فَوَحْدَتِى
أَلَذُّ وأَشْهَى من غَوِىٍّ أُعاشِرُهُ
وأَجْلِسُ وحْدِى ، للسَّفَاهَةِ آمناً
أَقَرُّ لِعَيْنِى من جَلِيسٍ أُحَاذِرُهُ

تلك فلسفة الصداقة والصديق عند الشافعى وهى معان جليلة جاءته كحصيلة لتجارب فى الحياة مريرة عديدة ضمنها فى بلاغة وعمق هذه الأبيات النفيسة على قلة عددها .

على أن الشافعى لم يعدم الصديق الناصح والجليس الصالح ؛ إن الصديق الناصح يصدق المرء إذا استنصحه . ويعظه إذا شاوره . ولقد وجد الشافعى هذا الصديق فى وكيع بن الجراح . وفى ذلك يقول الشافعى هذين البيتين الجميلين النفيسين : (١٦) .

شكوتُ إلى وكيعٍ سُوءَ حِفْظِى
فأرْشَدَنِى إلى تَرْكِ المْعَاصِى
وقالَ اعلمْ بأنَّ العِلْمَ فَضْلٌ
وفضلُ اللَّهِ لا يُؤْتَاه عَاصِى

---

(١٦) المحمدون من الشعراء ١٩٣ .

الزهد :

كان الإمام الشافعى على علمه وفضله وورعه متصفا بالزهد معروفا بالقناعة . وأما من ناحية كرمه فكان مثل الريح عطاء وكالبحر جودا . ولقد ألمحنا إلى شيء من ذلك فى موضعه من هذا الكتاب . ومن ثم فإننا لا نكون غالين أو مبالغين إذا ما قررنا أن شعر الزهد عند الشافعى ربما كان خير شعره . بل هو من خير ما أثر من شعر الزهد فى الأدب العربى . إنه يبدأ حياة الزهد معبرا عنها بهذه الأبيات : (١٧)

أَمَتُّ مَطَامِعِي فَأَرَحْتُ نَفْسِي
فإنَّ النفْسَ ما طَمِعَتْ تَهُونُ

وأحْيَيْتُ القُنُوعَ وكان مَيْتاً
فَفِي إحْيَائِهِ عِرْضِي مَصُونَ

إذَا طَمَعٌ يَحِلُّ بقلبِ عَبْدٍ
عَلَتْهُ مَهَانَةٌ وعَلاهُ هُونُ

إن صورة الزهد هنا تبرز أيضاً جانبا أخلاقيا . فإن النفس الطماعة تهون على الناس . وليس كذلك النفس القانعة . والطمع مذلة ومهانة ومن هنا كان الركون إلى القناعة هو بداية الزهد وجوهر الصون .

ثم يطرق الشافعى الباب الأصيل للزهد فى قوة وعزم وثبات . ويجعل هذه الأبيات له مدخلا يترجم من خلالها عن خوضه فى بحره قائلا : (١٨)

---

(١٧) الديوان ٦٣ عن حاشية الصاوى على الجلالين .

(١٨) الديوان ٣٠ عن العمدة لابن رشيق .

وَمُتْعَبِ العيشِ مرتاحًا إلى بَلَدٍ
والموتُ يَطْلُبُهُ من ذلكَ البلَدِ
وضاحكٍ والمنايا فَوْقَ مَفْرِقِهِ
لو كانَ يعلمُ غَيْباً ماتَ مِنْ كَمَدِ
مَنْ كانَ لمْ يُؤْتَ عِلْماً فى بقاءِ غَدٍ
ماذَا تَفَكُّرُهُ فى رِزْقِ بَعْدِ غَدِ

ويخاصم الشافعى الدنيا وينصرف عنها . ويسخر فى رفق من أولئك الطامعين فيها . المستمسكين بأذيالها وهم يعلمون أنهم فيها مسافرون . وأنهم لابد عنها راحلون فيقول :

يا مَنْ يُعَانِقُ دُنْيَا لا بَقَاءَ لَهَا
يُمْسِى ويُصْبِحُ فى دُنْيَاهُ سَفَّاراَ
هَلاَّ تركْتَ لِذِى الدُّنْيا مُعَانَقَةً
حتَّى تُعَانِقَ فى الفِرْدَوْسِ أَبْكَاراَ
إنْ كُنْتَ تَبْغِى جِنَانَ الْخُلْدِ تَسْكُنُهَا
فَيَنْبَغِى لَكَ أَلاَّ تَأْمَنَ النَّارَا

وعلى نفس الدرب يمضى الشافعى فى زهده مستصغرا الدنيا محقرا لشأنها وإن كان ثمت ما يؤدى فيها فهى الأعمال الصالحة التى تكون خير زاد لأطول رحلة وأقصى سفرة . ومن ثم يقول :

إنَّ للَّهِ عِباداً فُطُنَا طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخافُوا الفِتَنَا
نَظَرُوا فيها فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّها لَيْسَتْ لِحَىٍّ وَطَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً واتَّخَذُوا صَالِحَ الأعْمَالِ فيها سُفُنَا

الإيمان والدعاء والابتهال :

كان الشافعي قواما صواما . متعبدا ناسكا . يعيش فى محراب الحق مسبحا مناجيا . يعبد الله بلسانه وقلبه . ويعظ ويبشر . وينصح ولا ينفر . وقد عبر عن الكثير من دعائه وابتهالاته شعرا رقيقا ناصعا . وصاغ ضراعته واستغفاره نظما نورانيا لامعا .

يروى عبد الله بن مردان أنه سمع الشافعي يدعو الله قائلا : « اللهم امنن علينا بصفاء المعرفة . وهب لنا تصحيح المعاملة فيما بيننا وبينك على السنة . وارزقنا صدق التوكل عليك وحسن الظن بك . وامنن علينا بكل ما يقربنا إليك مقرونا بعوافى الدارين برحمتك يا أرحم الراحمين » .

فلما فرغ من دعائه خرج من المسجد فوقف ينظر إلى السماء ثم أنشد :

بِمَوْقِفِ ذُلٍّ دونَ عِزَّتِكَ العُظْمَى
بِمَخْفِيِّ سِرٍّ لا أُحِيطُ به عِلْمَا

بِإِطْرَاقِ رأْسِى ، بِاعْتِرَافِى بِذِلَّتِى
بِمَدِّ يَدِى أَسْتَمْطِرُ الجودَ والرُّحْمَى

بِأَسْمَائِكَ الحُسْنَى الّتِى بَعْضُ وَصْفِهَا
لِعِزَّتِهَا يَسْتَغْرِقُ النَّثْرَ والنَّظْمَا

بِعَهْدٍ قَدِيمٍ مِنْ « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ »
بِمَنْ كَانَ مَجْهُولاً فَعَلَّمْتَهُ الأَسْمَا

أَذِقْنَا شَرَابَ الأُنْسِ يَا مَنْ إِذَا سَقَى
مُحِبًّا شَرَاباً لا يُضَامُ وَلاَ يَظْمَا.[19]

---

(١٩) الديوان ٥٨ .

وكان الشافعي جالسا فى مدينة الرسول بعد صلاة الصبح فدخل عليه رجل فقال له : إنى خائف من ذنوبى أن أقدم على ربى وليس لى عمل غير التوحيد . فطيب الشافعي خاطره . وأذهب خوفه مستشهدا بقول الله جل وعز .

« وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ » .

وقال له : لو أراد الله عقوبتك فى جهنم وتخليدك لما ألهمك معرفتك به وتوحيدك له . ثم أنشد :

إِنْ كُنْتَ تغْدُو فى الذنوبِ جليدًا

وتخافُ فى يوم المعَادِ وَعِيدًا

فلقدْ أَتَاكَ مِنْ الْمُهَيْمِنِ عَفْوُهُ

وأَتَاحَ مِنْ نِعَمٍ عليكَ مَزِيدًا

لاَ تَيْأَسَنْ مِنْ لُطْفِ رَبِّكَ فى الْحَشَا

فِى بَطْنِ أُمِّكَ مُضْغَةً وَوَلِيدًا

لَوْ شَاءَ أَنْ تَصْلَى جَهَنَّمَ خَالِدًا

مَا كَانَ أَلْهَمَ قَلْبَكَ التَّوْحِيدَا (٢٠)

ويبلغ الشافعي قمة الشفافية وهو يستغفر الله تعالى ويناجيه . ويضرع إليه . وكان مريضا مرضه الأخير . دخل عليه تلميذه المزنى فوجده ينظر إلى السماء باكيا مستعبرا مناجيا :

تَعَاظَمَنِى ذَنْبِى فَلَمَّا قَرَنْتُهُ

بِعفْوِكَ رَبِّى كان عَفْـوُكَ أَعْظَمَا

ولمَّا قَسَا قَلْبِى وضاقتْ مَذَاهِبِى

جَعَلْتُ رجَائِى نَحْوَ عَفْوِكَ سُلَّمَا

---

(٢٠) الديوان ٢٧ عن نور الأبصار .

ومَا زِلْتَ ذَا عفوٍ عنِ الذنْبِ لم تَزَلْ
تجودُ وتَغْفِرُ مِنَّةً وَتَكرُّمَا
فَلَوْلاَكَ لمْ يَقْدِرْ بِإبْلِيسَ عَابِدٌ
فكيفَ وَقَدْ أَغْوَى صَفِيَّكَ آدَمَا
فَيَا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ أَصِيرُ لِجَنَّةٍ
أُهَنَّا وإِمَّا للسَّعِيرِ فَأَنْدَمَا
فَلِلَّهِ دَرُّ العَارِفِ النَّدبِ إِنَّهُ
تَسِحُّ لِفَرْطِ الوجْدِ أَجْفَانُهُ دَمَا
يُقِيمُ إذَا ما الليلُ جَنَّ ظَلاَمُهُ
على نَفْسِهِ من شِدَّةِ الخوفِ مَأْتَمَا

وينهى الشافعى ضراعته الطويلة بتوقع الإحسان من صاحب الإحسان وطلب الغفران من صاحب الغفران فيقول :

عَسَى مَنْ لَهُ الإحْسانُ يغْفِرُ زَلّتِى
ويَسْتُرُ أَوْزَارِى وَمَا قَدْ تَقَدَّمَا

إن الشافعى فى ضراعته تلك كان يفرش لنفسه طريق الآخرة بالاستعبار والاستغفار . وهو على يقين من أن الله سبحانه هو غافر الذنوب جميعا . ولقد كان من عميق ثقته بالله عز وجل يردد هذين البيتين :

صبرًا جميلاً ما أَقْرَب الفَرَجَا
مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ فى الأُمُورِ نَجاَ

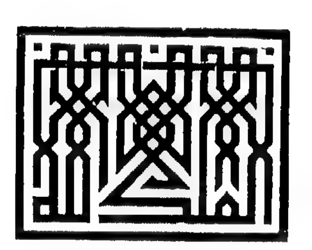
مَنْ صَدَّقَ اللهَ لَمْ يَنَلْهُ أَذًى
وَمَنْ رَجَاهُ يكونُ حَيْثُ رَجَا

لقد كان الشافعى رحمه الله مصدقا بالله راجيا لله مراقبا الله . ولو كان تفرغ للشعر . فإن الأمر الذى لا نشك فيه أن موهبته كانت من السخاء بحيث تؤهله لاحتلال مكانه سامية بين صفوة شعراء العربية المرموقين .

الفصل السادس

الشافعي الامام

* الخلق والسلوك .
* دوام التعلم والتحصيل .
* حلقات الشافعي .
* الشافعي يعلّم أستاذه .
* الشافعي ينقد مالكا .
* الشافعي وأصول الفقه .
* ثباته ورباطه جأشه .
* الشافعي وأدب الحوار .
* الشافعي والوفاء .
* الشافعي الزاهد الجواد .
* القصد والاعتدال .
* الشافعي والفكاهة والمرح .



الفصل السادس

الشافعي الإمام

ليس كل عالم إماماً . ولكن كل إمام لابد أن يكون عالماً . غير أن العلم وحده لا يصنع إماماً . فكم من علماء فى الماضى والحاضر تنكروا لقيمة العلم وأساءوا إلى قدسيته . فانحرفوا عن الجادة . وضلوا السّبيل . وسعوا إلى جاه المناصب . وركضوا خلف المال . وضيعوا الأمانات . ونافقوا الحاكم الغاشم وساعدوا صاحب الأمر الظالم . بل مَضَوْا إلى غاية من الانحراف فقعّدوا له القواعد . وخرّجوا له الأحكام . وفلسفوا له الفساد . إن هؤلاء قد خانوا الأمانة . وربما كان وزرهم عند الله أكثر من وزر الظالم الذى ساعدوه . والمستبد الذى نافقوه .

— ١ —

الخلق والسلوك :

فالعلم إذا كان بمعزل عن الخلق والسلوك والتطبيق . بات عديم القيمة . سيء الغاية . فاسد النتيجة . ولذلك فقد حدد الإمام الشافعى قيمة العلم بالأخلاق والسلوك حين قال : من تعلّم القرآن عظمت قيمته . ومن تعلم الحديث قويت حجته . ومن نظر فى اللغة رقّ طبعه . ومن نظر فى الحساب جزل رأيه . ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه .

فكل هذه الأصناف من العلم على سمو قدرها ورفعة شأنها . لا تؤدى إلى نفع ولا تحقق خيراً مالم تكن مرتبطة بخلق كريم . موثقة بسلوك قويم . كان هذا مضمون قول الشافعى . وكان ذلك أيضاً سلوك الشافعى .

والخلق القويم والسلوك الكريم مع العلم الغزير يعنيان أموراً كثيرة نافعة

بناءة . والخلق السيء والسلوك المنحرف مع العلم قلّ أو كثر يعنيان أموراً كثيرة ضارة هدامة .

إن العالم ينبغي له أن يتحلى بنفس أبيَّة . وهمة عالية . وترفّع عن كل ما ينال من النفس أو يتنافى مع المروءة . وهو ما يعبر عنه الشافعي فى هذه الأبيات الرفيعة المعانى مصوراً خلقه مبيناً سلوكه :

أَمْطِرِي لؤلؤاً جِبَالَ سَرَنْدِيـ
بَ وَفِيضي آبارَ تكْرُورَ تِبْرا
أنا إنْ عشتُ لستُ أعدمُ قوتًا
وإذا مُتُّ لستُ أعدمُ قبرًا
هِمَّتِي همةُ الملوكِ ونفْسِي
نفسُ حُرٍّ تَرَى المذلَّةَ كُفْرًا

والعلم يرفع من قدر صاحبه ولو كان وضيع المنشأ . ويسمو به ولو كان رقيق الحال . ويضعه فى مكان القيادة والصدارة مهما كان منتماه . وتلك معان عبر عنها الشافعي فى قوله :

رأيتُ العلْمَ صاحبُهُ كريمٌ
ولو وَلَدَتْهُ آباءٌ لئامُ
وليس يزالُ يرفعه إلى أنْ
يُعَظِّمَ أَمْرَهُ القومُ الكرامُ
وَيَتَّبِعُونَهُ فى كلِّ حالٍ
كراعِي الضأْنِ تَتْبَعُهُ السَّوَامُ

فلولا العلمُ ما سَعِدَتْ رجالٌ
ولا عُرِفَ الحلالُ ولا الحرامُ

ولا يجتمع علم ومعصية . تماماً كما لا تجتمع همة وتهافت . أو فضل ونقيصة . فالعالم العاصى يذهب علمه وتبقى معصيته . والعالم المنافق يضيع علمه ويبقى نفاقه . بمعنى أن أحداً لا يصدقه حين ينطق بالعلم . وأن أحداً لا يثق به إذا تحدث بالفضل . لأن صفة النفاق فيه تحجب أصالة العلم لديه . وفى ذلك يقول الإمام الشافعى هذين البيتين المترعين بالصدق . الحافلين بالأصالة :

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حِفْظِى
فأرْشَدَنِى إلى تَرْكِ الْمَعَاصِى
وقالَ اعلَمْ بأنَّ العلمَ فضلٌ
وفضلُ اللهِ لاَ يُؤْتَاهُ عَاصِى

لقد منى الناس فى كل زمان بعلماء لم يلتزموا بكرامة العلم . ورزىء الخلق فى مختلف الأوطان بعلماء نافقوا الحكام . وصوروا نقائصهم على أنها أفضال . وعيوبهم على أنها محاسن . وظلمهم بأنه عدل . وعدوانهم على الخلق بأنه إصلاح . وفطن الشافعى إلى ذلك . ولعله قاسى منه . وليس من شك فى أنه تنبأ بأن هـذه الظاهرة الهدامة سوف تستشرى يوماً – ظاهرة نفاق بعض العلماء لبعض الحكام – فألح على هـذه القضية فى معنى آخر من معانيه الرفيعة فى نطاق الشعر فقال :

إذَا لمْ يَزِدْ علمُ الفتَى قلبَهُ هُدًى
وسيرَتَهُ عدلاً وأَخْلاقَهُ حُسْنَا
فَبَشِّرْهُ أن اللهَ أَوْلاَهُ نِقْمَةً
يُسَاءُ بهَا مِثْلَ الذِّى عَبَدَ الْوَثَنَا

وفى يقيننا أن العالم إذا ظل محتفظاً بعلمه فى خاطره . متمثلاً معانيه فى قلبه . مصطحباً قضاياه فى صحوه وإغفائه . وحلّه وترحاله . كان ذلك سبباً فى عصمته من النفاق . وحائلاً دون ترديه فى النقائص . وهو ماعبر عنه الإمام أجلَّ تعبير وأعمقه فى هذا القول العميق الرقيق الدقيق :

عِلْمِى مَعِى حَيْثُمَا يَمَّمْتُ ينفَعُنِى
قلبى وعاءٌ له لاَ بَطْنُ صُنْدُوقِ

إنْ كُنْتُ فى البيتِ كانَ العِلْمُ فيه مَعِى
أَوْ كنتُ فى السُّوقِ كان العلمُ فى السُّوقِ

— ٢ —

دوام التعلّم ومواصلة التحصيل :

نعود لنقرر مرة أخرى أن العلم لايصنع إماماً مالم يكن العالم موسوماً بصفات أخرى حميدة ، حائزاً لجماع من السجايا جليلة ، تفرض شخصيته على جموع الخاصة والعامة على مساحة الأرض الإسلامية ومسيرة الرحلة التاريخية .

فالإمام ينبغى أن يكون جيد التحصيل للعلم جيد العطاء له ، مجدداً لأصوله ، موثقاً لقواعده ، موضحاً لما استبهم على الناس ، منشئاً لجيل من التلامذة ، مربياً لجماعة من المريدين ، متمسكاً بالحق ، رابط الجأش ، قوى الإقناع ، موسوماً بالتواضع ، موصوفاً بالوفاء ، صاحب نفس متفتحة سمحة شفافة ، غير متهافتة أو متساهلة أو متحجرة .

تلك مؤهلات لا يكون الإمام إماماً بغيرها مجتمعة ، لا يغنى بعضها عن جملتها ، ولا يجزى كثيرها عن جميعها .

فإذا ما تتبعنا شخصية الشافعى وجدناه مالكاً لزمام هذه المؤهلات ، حائزاً لجميع تلك الصفات ، ذلك أن إقبال الشافعى على التحصيل ، ومواظبته على

التعلم واختلافه إلى الأئمة والفقهاء والعلماء . وانتقاله من بلد إلى بلد فى سبيل لعلم . وتتابع رحلاته سعياً إليه . لما يخلق من شخصيته عالماً فذًا ، وإماماً جليلاً فقد تتلمذ الشافعى على أساطين زمانه فى عاصمتى الحجاز مكة والمدينة وفيهما درس كتب ابن جريج . وتتلمذ على سفيان بن عيينة وكان كوفى النشأة ثم رحل إلى الحجاز وصار صاحب حلقة فى المسجد الحرام . ثم جلس إلى إمام دار الهجرة مالك بن أنس فى المدينة . هذا فضلاً عن سائر الفقهاء الكبار فى البلدتين الطاهرتين من أمثال مسلم بن خالد الزنجى وسعيد بن سالم القداح وعبد الحميد بن عبد العزيز بن أبى داوود في مكة، وإبراهيم بن يحيى الأسامى وعبد الله بن نافع الصائغ وابن أبى فديك فى المدينة.

وفى اليمن تلقى الشافعى العلم على قاضى صنعاء مطرف بن مازن الصنعانى وهشام بن يوسف . كما تلقى عن فقيهين آخرين جليلين هما عمرو بن أبى سلمة صاحب الإمام الأوزاعى . ويحيى بن حسان صاحب الليث بن سعد . ومن المعروف أن الأوزاعى والليث إمامان جليلان . الأول كان إماما للشام لبضعة قرون ، والثانى كان إماما لمصر.

ولما ذهب الشافعى إلى العراق تتلمذ على محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة . وكان قد لقى محمدا قبل ذلك فى الحجاز وقرأ كتبه . كما تتلمذ على وكيع ابن الجراح المعروف بأبى سفيان الكوفى وغيرهم.

وبنظرة سريعة إلى أسماء من تتلمذ عليهم الشافعى نجد أنهم يمثلون مذاهب فقهية مختلفة ، بل مذاهب فكرية متباينة . فكل من الإمام مالك والإمام سفيان بن عيينة يمثل مدرسة الحديث . ومحمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة يمثل مدرسة الرأى .وإبراهيم بن يحيى الأسامى يمثل مدرسة الاعتزال ، وأستاذيه اليمنيين عمرو بن أبى سلمة ويحيى بن حسان يمثل أولهما مدرسة الشام، ويمثل ثانيهما المدرسة المصرية.

كان طبيعياً وتلك حصيلة الشافعى من العلم وهؤلاء أساتذته – ومنهم إمامان جلبلان تلقى عليهما مباشرة – وهذا ذكاؤه ، وتلك فطنته . أن تصيب العقيدة

الاسلامية على يديه فكرا ونصرا ، وأن يصيب المسلمون على يديه فضلا وعلما . بل أن ينتفع به أساتذته ويتلقى بعضهم عنه ويفيد منه ويستمع إليه .

— ٣ —

حلقات الشافعى :

إن الشافعى لم يسكن بلدا إلا كانت حلقته فيه أكبر الحلقات وأكثرها ازدحاما بالسامعين . وليس فى ذلك كبير غرابة . فالمورد العذب كثير الزحام . لقد كانت حلقات العلم حول الكعبة كثيرة العدد . وكان أشهرها حلقة الإمام الجليل سفيان بن عيينة الذى تتلمذ الشافعى عليه وتلقى عنه . غير أن الشافعى ما يكاد يتخذ مجلسا حول الكعبة حتى تكون حلقته أكبر الحلقات . ولا تزال تأخذ فى الاتساع حتى يصير طرفها قريبا من حلقة سفيان . ذلك أن الشافعى كان طرازا جديدا من الفقهاء . ونمطا متميزا بين العلماء . لم يكن يتكلم إلا بالكتاب والسنة . مع استعمال لعقله الذكىّ . ونفسه الفطنة . وذخيرة وفيرة من العلم المختزن . والفكر المنطلق كالشعاع الوهاج .

عن الشافعى وحلقته فى مكة يقول عبد الله بن محمد بن هارون الفريانى : وقفت بمكة على حلقة عظيمة وفيها رجل فسألت عنه : فقيل هذا محمد بن إدريس الشافعى . فسمعته يقول : سلونى عما شئتم أخبركم بآية من كتاب الله . وسنة من رسول الله ﷺ وقول صحابى . فقلت فى نفسى إن هذا الرجل جرىء . ثم قلت له فى المُحْرِم يقتل زنبورا ؟ فقال : قال الله تعالى :

« مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، ومَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »

وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعى عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ :

« اقْتَدُوا بالَّذِينَ مِنْ بَعْدِى . أبِى بَكْرٍ وعمَر » .

وحدثنا سفيان بن عيينة عن مِسعر عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب أن عمر رضى الله عنه أمر المُحْرِم بقتل الزنبور[1].

ولشدة احتفاء الشافعى بحديث رسول الله ﷺ أطلق عليه أهل مكة لقباً شريفاً هو « ناصر الحديث ».

تلك كانت حال الشافعى فى الحجاز أو بالأحرى فى مكة . فإذا ذهب إلى بلاد العراق واستقر ببغداد . وكان شهرته قد سبقته إليها عن طريق محدث العراق عبد الرحمن بن مهدى . الذى كتب إليه فى مكة أن يكتب كتابا فيه معانى القرآن ويجمع فنون الأخبار فيه وحجة الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة . فكتب له الكتاب الذى عرف فيما بعد بكتاب « الرسالة » . وكذلك عن طريق بشر المريسى الذى رآه واختلف إلى حلقته حول الكعبة . وعن طريق الإمام الجليل أحمد بن حنبل الذى عرف الشافعى فى مكة واستمع إليه .

نقول إن الشافعى فعل بجمهرة علماء العراق ما فعله بجمهرة علماء مكة . فقد أخذ العراقيون بعلمه وبيانه وهيبته . فانصرفوا عن حلقات العلماء العراقيين واجتمعوا إلى حلقة الإمام المطلبى . فما لبثت هذه الحلقة بعد قليل أن صارت الحلقة الوحيدة فى جامع بغداد .

يروى الخطيب البغدادى أنه « لما قدم الشافعى إلى بغداد كان فى الجامع إمَّا نيف وأربعون أو خمسون حلقة . فلما دخل بغداد مازال يقعد فى حلقة حلقة ويقول لهم : قال الله وقال الرسول . وهم يقولون قال أصحابنا . حتى ما بقى فى المسجد حلقة غيره »[2] .

وإذا كان الأمر هكذا من حيث أن الشافعى يزاحم علماء بغداد بالاستشهاد بالكتاب العزيز وبحديث رسول الله ﷺ . والقوم يستشهدون بأقوال أصحابهم . فليس ثمة غرابة فى أن يطلق البغداديون على الامام الجليل ما سبق أن أطلقه عليه المكيون . فيخلعوا عليه اللقب نفسه وهو « ناصر الحديث » ذلك

(١) معجم الأدباء ٣٩٢/٦ .

(٢) تاريخ بغداد ٦٨/٢

أن حرملة سمع الشافعي يقول « سميت ببغداد ناصر الحديث »[٣] وكان الشافعي يشهد الناس على نفسه فى شدة الاستمساك بالأحاديث الصحيحة قائلا : اشهدوا أنه إذا صح الحديث عندى ولم آخذ به فإن عقلى قد ذهب .

لقد كان تأثير الشافعي على البغداديين كبيرا، فقد تحول بعض فقهائها من المذهب الحنفى إلى المذهب الشافعي وفى مقدمة هؤلاء أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي . فقد كان من أصحاب محمد بن الحسن عالم بغداد وفقيهها وصاحب أبى حنيفة . ذهب أبو ثور يوما إلى الشافعي يسأله مسألة فى الدور – أى دار الحرب وملكية الدور وخاصة دور مكة وأحس الشافعي أنه جاء للاستهزاء وليس للاستفهام . فبادره الشافعي بسؤال عن كيفية رفع اليدين فى الصلاة . فأخطأ أبو ثور فى الإجابة ، وسأل الشافعي عن صحة رفع اليدين ، فقال له الشافعي : حدثنى ابن عيينة أن النبي ﷺ كان يرفع يديه حذو منكبيه ، وإذا ركع وإذا سجد . فوقع الشافعي فى قلب أبى ثور من ذلك الوقت وأكثر من المجيء إليه ، وأقصر فى الاختلاف إلى محمد بن الحسن ، ومع مرور الوقت كان الشافعي يجيب أبا ثور عن كل ما سأل ومن بين ذلك سؤال الدور الذى كان على سبيل الاستهزاء وليس على سبيل الجد والاستفهام .

ولم يكن استئناس الشافعي لأبى ثور – وهو إمام كبير – من خلال القضايا الفقهية وحدها . بل كان من خلال أدب الحوار . والابتسامة الوقورة . والفصاحة الناصعة . واستعمال الألفاظ المنتقاة التى تلفت نظر أبى ثور . فقد سلف القول أن أبا ثور دخل على الشافعي مدخلا غير برىء جمع بين الاستهزاء والتحدى ولكن الشافعي يقول له فى هدوء ووقار جملته المشهورة : يا أبا ثور . الإيناس قبل الإبساس. فيسقط فى يد أبى ثور . ذلك أنه ليس له سابقة معرفة بهذه الجملة التى جمعت بين غرابة المعنى ورقة الإيقاع . ويقول يا أبا عبد الله : ماهو؟ فيقول له الشافعي : الإيناس مسح الناقة بيدك حوّل ضرعها . والإبساس حلب ضرعها بيدك .

(٣) المصدر السابق . الصفحة نفسها .

وامتد أثر وجود الشافعى فى بغداد إلى محيط المعتزلة وعلى وجه التخصيص بشر المريسى الذى عرف بقوة الجدل شأنه فى ذلك شأن جميع أصحاب الاعتزال .

يقول الحسين بن محمد الزعفرانى : كنا نحضر مجلس بشر المريسى فكنا لا نقدر على مناظرته . فمشينا إلى أحمد بن حنبل فقلنا له : ائذن لنا فى أن نحفظ الجامع الصغير الذى لأبى حنيفة كى نخوض معهم إذا خاضوا – أى مع المعتزلة – فقال : اصبروا فالآن يقدم عليكم المطلبى الذى رأيته بمكة فقدم الشافعى علينا فمشينا إليه وسألناه شيئا من كتبه . فأعطانا كتاب اليمين مع الشاهد . فدرسته فى ليلتين ثم غدوت على بشر المريسى وتخطيت إليه . فلما رآنى قال : ما جاء بك ياصاحب حديث ؟ – يعنى يامن أنت من أهل الحديث – قلت : ذرنى من هذا . ما الدليل على إبطال اليمين مع الشاهد . فناظرته فقطعته . فقال : ليس هذا من كيسكم . هذا من كلام رجل رأيته بمكة معه نصف عقل أهل الدنيا [٤] .

ويتوق الشافعى إلى زيارة مصر والرحلة إليها . فالفسطاط مدينة مزدانة بالعلم آهله بالعلماء . وفيها نشأ إمام جليل هو الليث بن سعد وكان قد قضى نحبه قبل ذلك بسنوات غير بعيدة . وفيها ينتشر مذهب أستاذه مالك . وفيها السيدة نفيسة . نفيسة العلم وسليلة رسول الله . وفيها الخير والحب واللغة والأدب . وتترنم خواطر الشافعى بهذين البيتين اللذين كان قد أنشأهما وهو بمكة [٥] . أى أن فكرة زيارة مصر كانت تلح على خاطره قبل زيارته للعراق :

لقدْ أصْبَحَتْ نَفْسِى تَتُوقُ إلى مِصْر
وَمِنْ دُونِهَا أرضُ المهامه والْفَقْرِ

---

(٤) معجم الأدباء ٦/٣٨٣ . ٣٨٤ .

(٥) هناك من يرى أن الشافعى جاء إلى مصر لأنه لم يكن بها فقيه معلوم ومن ثم يسهل عليه نشر مذهبه . بل هناك من شكك فى نسبه البيتين للشافعى ونسبهما إلى أبى نواس ولم يزد دور الشافعى على أن تمثل بهما .

فوَاللهِ مَا أَدْرِى أَلِلْخَفْضِ والغنَى
أُسَاقُ إِلَيْهَا أَمْ أُسَاقُ إِلى قَبْرِى ؟

ومهما قيل حول هذين البيتين من تعليقات . ومن أن الشافعى سيق إلى ما قد تساءل عنه فى بيته أى الخفض والغنى والقبر جميعا . فإنه وصل إلى مصر سنة ١٩٩ ولم يعش بها أكثر من خمسة أعوام . فإن مجيئه إلى مصر كان أعمق أثرا وأوفر خصبا . وأجزل عطاء . وأكثر جودا من وجوده فى الحجاز وإقامته فى بغداد . فنى مصر كتب كتبه . وأعاد صياغة تلك التى كان قد ألفها فى الحجاز أو العراق . فعلى سبيل المثال أعاد تأليف كتاب « الرسالة » وكان قد سبق أن ألفه فى الحجاز . كما جمع أكثر مولفاته فى كتابه النفيس « الأم » .

حين قدم الشافعى إلى مصر وذهب إلى جامع عمرو بالفسطاط مصليا ومحاضرا ما لبثت شخصيته الفريدة أن فرضت وجودها على المصريين . وفى ذلك يقول هارون بن سعيد الأيلى : ما رأيت مثل الشافعى . قدم علينا مصر فقيل قدم رجل من قريش . فجئناه وهو يصلى فما رأينا أحسن صلاة منه ولا أحسن وجها . فلما تكلم ما رأينا أحسن كلاما منه فافتتنا به(٦)

لقد أحب الناس الشافعى فى مصر حبا شديدا . وذاعت شهرته . وبعد صيته . وقصده الناس من العراق واليمن وسائر بقاع المسلمين ، وفى ذلك يقول الربيع بن سليمان : والله لقد فشت فى الناس شهرته كما فشا ذكر على بن أبى طالب(٧) .

وكما كان للشافعى حلقة فى المسجد الحرام بمكة وثانية بالجامع الكبير فى بغداد . فقد صارت له حلقة أكبر وأرحب فى جامع عمرو بالفسطاط . ولكنها كانت حلقة متعددة العلوم متنوعة الفروع . ذلك أنه ما يكاد يفرغ من صلاة الصبح حتى يجيئه أهل القرآن فيسألونه . فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل

---

(٦) توالى التأسيس لابن حجر ص ٥٩

(٧) تاريخ بغداد ٢/٦٠ .

الحديث فيسألونه عن معانيه وتفسيره . فإذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة . فإذا ارتفع النهار تفرقوا . وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو حتى يقرب انتصاف النهار ثم ينصرف إلى منزله [٨] .

وليس من شك فى أن دوام هذه الحلقات بغير انقطاع مع تفرغ الشافعى لتأليف كتبه فى تلك السنوات القليلة قد أثر على صحته تأثيرا لم يساعده على مقاومة مرضه . فكانت وفاته بالفسطاط فى رجب سنة ٢٠٤ هـ .

— ٤ —

الشافعى يعلم أستاذه :

من المؤهلات التى ينبغى أن تتوفر فيمن تسمو به ملكاته إلى درجة الإمامة أن يبز أساتذته فى علمهم . وإلا كان صورة مكررة منهم . ولا يكون الإمام إماماً إلا إذا أتى بجديد .

إن سفيان بن عيينة إمام جليل وهو أستاذ للشافعى . كم اختلف إلى حلقته بجوار الكعبة . وكم روى عنه من أحاديث . غير أن التلميذ النابه لا يلبث أن يصبح صاحب حلقة تنافس حلقة أستاذه . ثم تفوقها عددا واتساعا . ثم يصير التلميذ النابه عونا لأستاذه على فهم المشكلات وتصويب الروايات . تارة متطوعا . وتارة أخرى بعد طلب العون .

سمع الشافعى أستاذه سفيانا يفسر حديث رسول الله ﷺ :

« لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ » .

بمعنى يستغنى به . فينهض الشافعى فى أدب جم مصححا لأستاذه معنى الحديث قائلا : ليس هو هكذا . لو كان هكذا لقال : يتغانى . إنما هو يتحزن ويترنم ويقرأه حدرا وتحزينا .

---

(٨) المرجع نفسه ص ٦٢ ومعجم الأدباء ٣٨٣/٦ .

ومن المرات التي يستجيب الشافعي فيها لأستاذه سفيان وقد طلب إليه تفسير أحد الأحاديث وهو قول رسول الله ﷺ :

« أَقِرُّوا الطَّيْرَ فِي مُكُنَاتِهَا » .

مرة كان الشافعي يجلس فيها إلى جانب أستاذه فقاله له سفيان : يا أبا عبد الله ما معنى قول النبي ﷺ :

« أقِرُّوا الطَّيْرَ فِي مُكُنَاتِهَا »

فأجاب الشافعي قائلا : إن علم العرب كان في زجر الطير والخط والاعتياف . كان أحدهم إذا غدا من منزله يريد أمرا نظر أول طير يراه . فإن سنح عن يساره فاجتاز عن يمينه . قال هذا طير الأيامن . فمضى في حاجته ورأى أن يستنجحها . وإن سنح عن يمينه فمر عن يساره قال هذا طير الأشائم . فرجع وقال هذه حالة مشئومة . فيشبه قول رسول الله ﷺ :

« أقِرُّوا الطَّيْرَ فِي مُكُنَاتِهَا »

أي لا تهيجوها ، فإن تهييجها وما تعملون به من الطيرة لا يصنع شيئاً . وإنما يصنع فيما توجهون فيه قضاء الله عز وجل(٩) .

فارتضى سفيان هذا التفسير ، وكان يفسر الحديث بعد ذلك على النحو الذى فسره له الشافعي .

إن هذا التفسير الذى قدمه الشافعي يتضح فيه أثر علمه بالعربية وتقاليد العرب وعادات البادية . ومن المعروف أن الشافعي عاش في البادية بضعة عشر عاما .

ومن التفسيرات التي تدل على فطنة عالية وذوق رفيع ، تخريج الشافعي لأحد أقوال رسول الله ﷺ . فقد مرّ رجل برسول الله ﷺ في بعض الليل وهو جالس مع امرأته صفية . فقال له الرسول :

(٩) معجم الأدباء ٣٨٠/٦ . ط . هندية .

« تَعَالَ هَذِهِ امْرَأتِي صَفِيَّةُ، فقال الرجلُ : سبحَانَ اللهِ يارسُولَ اللهِ . فقال الرسولُ : إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى منَ الإنْسَانِ مَجْرَى الدَّم » .

كان سفيان حائرا فى فحوى هذا الحديث ومقصده وهو يحدث به . فقال للشافعى : ما فقه هذا ياأبا عبد الله؟ فقال الشافعى شارحا المقصود من الحديث : إنْ كان القوم اتهموا النبى – أى أساءوا به الظن لجلوسه مع من لا يعرفونها فى الظلام – كانوا بتهمتهم إياه كفاراً . لكن النبى ﷺ أدَّب من بعده ؛ فقال : إذَا كنتم هكذا فافعلوا هكذا . حتى لا يُظَنَّ بكم ظن السوء . لا أن النبى يُتَّهَمُ وهو أمين الله عز وجل فى أرضه . فقال سفيان : جزاك الله خيرا ياأبا عبد الله . ما يجيئنا منك إلا كل ما نحبه .

تلك كانت مواقف للشافعى من أستاذه الثانى الإمام سفيان بن عيينة ؛ غير أن له موقفاً شديدا قبل أستاذه الأول مالك بن أنس إمام دار الهجرة . بل هو موقف مخلد عند المسلمين لأنه كتاب فى نقد الإمام مالك .

لقد وصل الشافعى إلى مصر وهو لا يعرف أن مالكا يخالف أحاديثه إلا فى ستة عشر حديثا . يقول الشافعى « فنظرت فإذا هو يقول بالأصل ويدع الفرع . ويقول بالفرع ويدع الأصل » .

إن الإمام الشافعى من الأدب والوفاء والشمائل بحيث لا يخطر بباله أن يخدش عاطفة إنسان ما . فما بالنا إذا كان هذا الإنسان هو الإمام مالك صاحب الفضل الأول على الشافعى . بل وصاحب المقام الأول لديه بين أساتذته . إنه يقول : إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب . وعن موطأ الإمام مالك يقول الشافعى : مافى الأرض كتاب فى الفقه والعلم أكثر صواباً من كتاب مالك . ويقول عن مالك وابن عيينة : مالك وابن عيينة القرينان . ولولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز . ويضيف الشافعى إماما ثالثا إليهما فى بعض الأحيان فيقول : العلم يدور على ثلاثة مالك والليث وسفيان بن عيينة .

غير أن ذلك كله لم يمنع الشافعى من أن يقول كلمة نقد مخلصة . أو يصدر

حكما صادقا فيما يختلف فيه مع أساتذته الذين هم فى رأيه أساتذة الدنيا .

— ٥ —

الشافعى ينقد الإمام مالكا :

يبدو أن نقد الشافعى لمالك كان أمرا لا فكاك منه . فإن للشافعى آراء فى الفقه يختلف فيها مع مالك اختلافاً جوهرياً، ولكنه لم يشأ أن يضمنها كتاباً خاصا احتراماً لأستاذه ، وإجلالاً له ، واعترافاً بفضله . إلى أن بلغه أن أتباع مالك فى الأندلس قد وضعوه موضعا يتساوى فيه مع رسول الله . وغلَوْا فى ذلك غلواً شديدا . كان يُقال لهم فى مجال الجدل والإقناع : قال رسول الله ﷺ ويُتلى عليهم الحديث الذى يقطع فى القضية . فيردون على ذلك قائلين : قال مالك .

لقد سمع الإمام الشافعى أيضاً أن بالأندلس قلنسوة للإمام مالك يستسقى بها . فقال إن مالكا بشر يصيب ويخطئ . وحتى يبينّ للناس أن مالكا كذلك ألف كتاباً بعنوان « اختلاف مالك » . لم يكن القصد منه التشهير بأستاذه أو النيل منه . وإنما قصد إلى تصويب أخطاء رآها فى أحكامه . ومن ثم التنبيه إلى أنه إنسان . صحيح أنه عالم وإمام . ولكن العالم والإمام – وأعنى الإمام عند أهل السنة – غير معصومين من الخطأ . وكذلك كان مالك . ويروى أن الشافعى حبس الكتاب عاماً كاملاً عن الناس بعد تأليفه من باب الإجلال لأسْتاذه . ثم استخار الله وطلع به على الناس .

إن الإمام مالكاً يرى أن إجماع أهل المدينة إجماع . والشافعى لا يرى ذلك . وإنما هو إجماع لبعض العلماء .

ويقول الشافعى . وأما عمل أهل المدينة . فما قلدوا فيه النبى فحجته أنه السنة . وما اجتهدوا فيه برأيهم فعملوه . فهو اجتهادهم .

ويقول الشافعى أيضا : ولا تدعوا الإجماع أبدا إلا فيما لم يوجد بالمدينة فيه

اختلاف . وهو لايوجد بالمدينة إلا وجد بجميع البلدان عند أهل العلم متفقين فيه . ولم يخالف أهل البلدان أهل المدينة إلا فى ما اختلف فيه أهل المدينة بينهم .

وقد ذكر الشافعى فى رده على مالك المسائل التى ترك الأخبار الصحيحة فيها بقول واحد من الصحابة أو بقول واحد من التابعين أو الرأى لنفسه . وذكر أيضا ما ترك فيه مالك أقاويل الصحابة لرأى بعض التابعين أو لرأى لنفسه . وذلك أنه ربما يدعى الإجماع وهو مختلف فيه . وأوضح الشافعى ضعف قول مالك فى أن « إجماع أهل المدينة حجة »[10].

ولم يكن نبوغ الشافعى وتفوقه على أساتذته حائلا بينه وبين الكلمة الطيبة والشهادة المنصفة لمن سبقه من الأئمة والعلماء . حتى أولئك الذين لم تتفق أفكاره مع أفكارهم . إن أقواله فى الإمام أبى حنيفة لما يبيّض له وجه الحقيقة . بل وأقواله فى أصحاب أبى حنيفة أيضا . فقد سأله رجل عن رأيه فى علماء العراق وبدأ بالسؤال عن أبى حنيفة فقال الشافعى : سيدهم . فقال السائل : ما تقول فى أبى يوسف ؟ قال : أتبعهم للحديث . قال : فما تقول فى محمد بن الحسن ؟ قال : أكثرهم تفريعا . قال : فما تقول فى زفر ؟ قال : أحدّهم قياسا .

ومهما يكن من أمر فالشافعى قد بزّ أساتذته . وصحح بعض آرائهم . وصوب بعض معلوماتهم . وشهد لأقرانه بالفضل ؛ وتلك واحدة من مؤهلات الإمام .

— ٦ —

الشافعى وأصول الفقه :

جاء الشافعى بعلم جديد هو علم « أصول الفقه » وقد صنف فى ذلك أكثر من كتاب أهمها كتاب « الرسالة » . على أن كتاب الرسالة لا يقلل من قيمة كتبه الأخرى فى « الأصول » وهى كتاب أحكام القرآن ، واختلاف الحديث ،

---

(١٠) مناقب الإمام الشافعى للرازى ص ٢٦ .

وإبطال الاستحسان . وكتاب جماع العلم . وكتاب القياس الذى ذكر فيه تضليل المعتزلة ورجوعه عن قبول شهادتهم[١١] .

يقول الرازى فى هذا السبيل إن نسبة الشافعى إلى علم الأصول كنسبة أرسطاطاليس إلى علم المنطق . وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض . ذلك أن أرسطو وجد الناس يستدلون ويعترضون من منطلق فطرتهم السليمة . فلما رأى ذلك اعتزل الناس مدة مديدة ، واستخرج علم المنطق . ووضع لهم قانونا كليا يرجع إليه فى معرفة الحدود والبراهين .

وكذلك كان الشعراء قبل الخليل بن أحمد . ينظمون أشعارهم معتمدين علي الفطرة النقية والطبع السّليم . فجاء الخليل وتوفر على الشعر . واستخرج قانونا كليا فى معرفة مصالح الشعر ومفاسده . فكذلك كان الناس قبل الإمام الشافعى . يتكلمون فى مسائل أصول الفقه . ويستدلون ويعترضون ، ولكن لم يكن لهم قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة ، وفى كيفية معارضتها وترجيحاتها . فاستنبط الشافعى علم أصول الفقه . ووضع للخلق قانونا كليا يُرجع إليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع[١٢] .

ويتفق مع الرازى والزركشى عدد كبير من أعلام علماء الإسلام فى أن الشافعى هو أول من ألف فى الأصول . فالإمام الجوينى فى شرح الرسالة يقرر ذلك فى وضوح وبيان . ومنهم ابن خلدون الذى يسوق آراءه عادة بشىء من التوضيح فيقول : وكان أول من كتب فى علم أصول الفقه الشافعى رضى الله عنه . أملى رسالته المشهورة وتكلم فيها فى الأوامر . والنواهى . والبيان . والخبر . والنسخ . وحكم العلة المنصوصة من القياس ويستطرد ابن خلدون قائلا : ثم كتب فقهاء الحنفية فيه ، وحققوا تلك القواعد . وأوسعوا القول فيها . ثم يضيف أن المتكلمين كتبوا فى ذلك أيضا[١٣] ومنهم القاضى شمس الدين العثمانى

---

(١١) البحر المحيط فى أصول الفقه لبدر الدين الزركشى ص ٨١ .
(١٢) مناقب الإمام الشافعى للرازى ص ٩٨ ومابعدها .
(١٣) المقدمة فصل أصول الفقه .

الصفدى صاحب كتاب طبقات الشافعية الذى ذهب إلى أن الشافعى ابتكر ما لم يسبق إليه . وهو أصول الفقه . فإنه أول من صنف أصول الفقه بلا خلاف وضرب مثلاً ببعض كتب الشافعى مثل كتاب القسامة . وكتاب الجزية وكتاب قتال أهل البغى (١٤)

على أن هناك أخبارا واردة حول علم الأصول وأن صاحبى أبى حنيفة : محمد بن الحسن الشيبانى وأبا يوسف قد ألفا كتبا فى هذا العلم . فإذا صح ذلك يكون لكل منهما فضل السبق . إن الموفق المكى صاحب « مناقب الإمام الأعظم » يذكر أن أبا يوسف هو أول من وضع الكتب فى أصول الفقه على مذهب أبى حنيفة(١٥) وكذلك ذكر ابن النديم فى ترجمته لمحمد بن الحسن أن محمدا له كتاب يسمى أصول الفقه .

والحق أن كل من تابع هاتين الشخصيتين الجليلتين – وهما من كبار علماء الإسلام – لا يتردد فى قبول نسبة الكتابة فى الأصول إليهما . فقد كان كل منهما بحكم علمه وعقله . وصواب منهجه . وعمق استنباطه . وجودة تفريعاته . مؤهلا للتأليف فى أصول الفقه .

ويرى الشيخ مصطفى عبد الرازق أن القول بأن أبا يوسف هو أول من تكلم فى أصول الفقه على مذهب أبى حنيفة لا يعارض القول بأن الشافعى هو الذى وضع « أصول الفقه » وجعل منه علما ذا قواعد عامة يرجع إليها كل مستنبط لحكم شرعى .

– ٧ –

ثبات الشافعى ورباطة جاشه :

إن المؤهل للإمامة ينبغى أن يتسلح برباطة الجأش عند المحن . وأن يتحلى بالخلق الكريم فى سلوكه مع أضرابه . والوفاء لأصحاب الفضل عليه .

(١٤) مقدمة كتاب الأم للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٣١ .

(١٥) مناقب الإمام الأعظم ٢/٢٤٥ .

والاعتدال فى أموره . والقصد فى أحكامه . والاعتزاز بشخصه . والانصراف عن الحكام إلا إذا سعوا بأقدامهم إليه ولقد كان الشافعى كذلك .

إن رباطة جأشه فى حضرة الرشيد وقد سيق بين العلويين المتهمين بالخروج على الدولة لما يدعو إلى الإعجاب والإجلال . لقد رأى الشافعى رؤوس العلويين التسعة تغادر أجسامهم بضربات سريعة من سيافٍ خشن . ويقعون جميعا صرعى أمامه تتناثر دماؤهم على مقربة من ثوبه . وهو يحمل نفس التهمة الموجهة إليهم . وليس بينه وبين الموت إلا لحظات وهو يستمع إلى قول الرشيد : أنت الخارج علينا والزاعم أنى لا أصلح للخلافة ؟ فيجيبه بجنان ثابت ومنطق سليم ولفظ نق : يا أمير المؤمنين لست بطالبى ولا علوى ، وإنما أدخلت فى القول بغيا علىّ ، ويمضى فى دفاعه ذاكرا نسبه معلنا عن علمه – وقد كان الرشيد يعرف قدر العلماء – فيقول : وإنما أنا من بنى المطلب بن عبد مناف بن قصىّ ، ولى مع ذلك حظ من العلم والفقه ، ثم يشير إلى العالم الجليل محمد بن الحسن قائلا : والقاضى يعرف ذلك .

لو كان امرؤ آخر مكان الشافعى فى تلك المحنة لانخلع جنانه وجف لسانه ولكن الشافعى المسلح بالعلم . الموصوف بالشجاعة . الواثق من براءته . المؤمن بأن لكل أجل كتابا . يقابل المحنة بما تستحق من همة . ويخرج منها بريئا عزيزا مكرما .

ولما عزم الشافعى على سكنى مصر بدأ يدرس أحوالها وينظر فى كيفية العيش فيها . وتلك هى الحكمة بعينها . فلا ينبغى لعاقل أن يسكن بلدا لا يعرف عنه شيئا . وانطلاقا من ذلك فإن الشافعى يسأل عبد الله بن عبد الحكم فى هذا الأمر فيقول له ابن عبد الحكم : إذا أردت أن تسكن مصر فليكن لك قوت سنة . ومجلس من السلطان تتعزز به . فيرد عليه الشافعى والعزة ملء برديه قائلا : من لم تعزه التقوى فلا عزّ له . وقد ولدت بغزة وربيت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة وما بتنا جياعا قط [١٦] .

---

(١٦) توالى التأسيس ٦٧ .

ولقد كان الشافعى كثيرا ما يفزع إلى الشعر يحمله نوازع نفسه ويضمنه حقيقة قدره فقد كان الشافعى على فرط تواضعه يضع نفسه فى موضعها الصحيح فمها نال الفقر من هيئته فإنه يعجز عن النيل من همته . لقد خرج عليه لصوص قطعوا عليه الطريق وسلبوه كل شيء . فدخل بعض المساجد وليس عليه سوى خرقة جعلت الناس ينكرونه . فدخلوا المسجد وخرجوا منه دون أن يلتفت إليه أحد ، فصعب الموقف عليه وعزت عليه نفسه فأنشأ قائلا :

عَلَيَّ ثيابٌ لو يُبَاعُ جَميعُهَا
بِفَلْسٍ لكانَ الْفَلْسُ منهنَّ أَكْثَرَا
وفيهنَّ نفْسٌ لو يُقَاسُ بِبَعْضِها
نفوسُ الْوَرَى كانتْ أَجَلَّ وأَكْبَرَا
وَمَا ضَرَّ نَصْلَ السَّيفِ إِخْلاَقُ غِمْدِهِ
إِذَا كانَ عَضْباً أَيْنَ وَجَّهْتَهُ فَرَى
فإِنْ تَكُنْ الأيامُ أَزرَيْنَ بِزَّتِي
لكم مِنْ حُسَامٍ فى غلافٍ تكَسَّرَا[17]

لقد كانت شخصية الشافعى الظاهرة والباطنة شخصية إمام جليل.

— ٨ —

الشافعى وأدب الحوار :

والشافعى يتحلى بالخلق فى الحوار والمناظرة . وكان كثير المناظرات وجميع مناظراته تعلم الفقه والمنطق وأدب الحوار . إن ولده محمدا المكنى بأبى عثمان

---

(١٧) معجم الأدباء ٣٩٣/٦ هندية . والمحمدون من الشعراء ١٩٥ وقد تفرد بالبيت الأخير .

يقول : ما سمعت أبي يناظر أحدا قط فيرفع صوته . واما الشافعي نفسه فيقول ما كلمت أحداً إلا أحببت أن يوفق ويسدّد ويعان . والمقصود بالكلام هنا المناظرة والحوار ، ويعود الشافعي فيكرر المعنى الكريم نفسه بألفاظ أخرى رقيقة قائلا : ما ناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطىء .

إن المناظرات عند الشافعي وسيلة لإظهار الحقيقة من أى طريق جاءت ، منه أو من مناظره ، ولذلك يقول : ما ناظرت أحداً قط إلا على النصيحة ومرة أخرى يقول : ما ناظرت أحدا قط على الغلبة .

الحق أن هذه الكلمات التى صدرت عن الشافعي فى مقام التناظر ، وكان الإمام الأعظم أبو حنيفة قد سبقه إلى ذلك ، تشكل دستورا رفيعا لأدب الحوار ومنهج المجادلة ، لو اتبعها المتناظرون وسار على نهجها المتحاورون لأثمرت الخير ، وقضت على الشحناء والبغضاء التى غالبا ما تسود جو المناظرات وتنتهى بها المحاورات .

إن طريقة حواره مع أبي ثور ، ومناظراته لمحمد بن الحسن مع الاحتفاظ بالود وتمكين الصداقة ، بل بكسب أبي ثور إلى جانب مذهبه وتركه مصاحبة محمد بن الحسن الشيباني الحنفي ، لما يدعو إلى الاعجاب الشديد .

والشافعي لا يكتفي بتلك الكلمات التى يؤصل بها أدب التناظر ، ولكنه يصوغها أبياتا من الشعر رقيقة اللفظ ، رفيعة الغاية ، سامية القيمة فيقول :

إِذَا ما كُنْتَ ذَا عِلْمٍ وَفَضْلٍ
بما اختلفَ الأوائلُ والأواخِرْ

فَنَاظِرْ مَنْ تُنَاظِرُ فى سُكُونٍ
حليماً لاَ تَلِجُّ ولا تُكَابِرْ

يُفِيدُكَ ما استَفَادَ بِلاَ امْتِنَانٍ
مِنَ النُّكَتِ اللطيفةِ والنَّوَادِرْ

وإيَّاكَ اللَّجُوجَ، وَمَنْ يَرَانِى
بأنِّى قَدْ غَلَبْتُ ، وَمَنْ يُفَاخِرْ
فَإِنَّ السِّرَّ فى جَنبَاتِ هَذَا
قمِينٌ بالتَّقاطُع والتَّدَابُرْ

— ٩ —

الشافعى والوفاء :

كان الشافعى شديد الوفاء كثير الدعاء لمن سبقه من العلماء والفقهاء إلى دار البقاء . فإذا ذكر اسم الإمام أبى حنيفة فى قول أو على صفحة كتاب . قال : رضى الله عنه أو رحمه الله . بل إنه يحفظ للإمام الأعظم حقه فى تسم قمة الفقه بقوله : من أراد الفقه فهو عيال على أبى حنيفة .

ولم يكن وفاء الشافعى للإنسان وحسب بل إن وفاءه امتد إلى المكان لقد ولد الشافعى بغزة — على ماهو معروف — وهو لا يذكر شيئاً من أمره فيها . فلقد تركها وهو رضيع . ومع ذلك فإن نفسه تهفو إليها وفاء منه وشدة حنين . فيقول فى ذلك :

وإِنِّى لَمُشْتَاقٌ إلى أرضِ غَزَّةٍ
وإنْ خَانَنِى بَعْدَ التَّفَرُّقِ كِتْمَانِى
سَقَى اللهُ أرضاً لَوْ ظَفِرْتِ بِتُرْبِهَا
كَحَلْتُ بِهِ مِنْ شِدَّةِ الشَّوقِ أَجْفَانِى

وحفاظا على خلق الوفاء ما يكاد الشافعى الجليل يدخل بغداد حتى يحث الخطى إلى قبر أبى حنيفة زائرا مترحما. ولا يقف الأمر به عند ذلك، بل إنه يصلى ركعتين لله على مشارف القبر ولا يرفع يديه مع التكبير — وفقه الشافعى يقتضى رفع

اليدين مع تكبيرات الإحرام والركوع والقيام منه – وحين يسأل الشافعي عن السبب في فعله هذا يقول : أدباً مع الإمام أن أظهر خلافه في حضرته . إن الشافعي معلم فقه . ومعلم وفاء . ومعلم أخلاق . هل يفعل أحد مثل ذلك ؟ وهل رأى أحد له في ذلك شبيها ؟

ويدخل الشافعي مصر فيفعل الصنيع نفسه أو قريبا منه عند قبر الإمام الليث بن سعد . إنه يذهب إلى قبر الليث زائرا مترحما . ثم يخاطبه في قبره قائلا : لله درك ياإمام . حُزْتَ أربع خصال لم يكملن لعالم : العلم والعمل والزهد والكرم .

– ١٠ –

الشافعي الإمام الزاهد الجواد :

وكأنما يريد الشافعي أن يجعل مؤهلات الإمامة محددة بالعلم والعمل والزهد والكرم . غير أن صفات الشافعي كانت من ذلك أكثر . ومؤهلاته إلى ذلك كانت أوفر . فالشافعي كان عالما عاملا زاهدا كريما .

فمن ناحية الزهد كان على قمة الزهاد . أليس هو المصور زهده في هذه الأبيات البليغة .

وَمُتْعَبِ العيشِ مُرْتَحِلاً إلى بَلَدٍ
والموتُ يطلبهُ مِنْ ذَلِكَ الْبَلَدِ
وَضَاحِكٍ والْمَنَايَا فَوْقَ مَفْرِقِهِ
لَوْ كَانَ يَعْلَمُ غَيْباً مَاتَ مِنْ كَمَدِ
مَنْ كَانَ لَمْ يُؤْتَ عِلْماً في بقاءِ غدٍ
ماذا تفكّرُهُ في رزْق بَعد غَد

وهو القائل أيضا :

يَامَنْ يُعَانِقُ دُنْيَا لا بقاءَ لَهَا
يُمْسِى وَيُصْبِحُ فى دُنْيَاهُ سَفَّارَا
إنْ كنتَ تَبْغِى جِنَانَ الْخُلْدِ تَسْكُنُهَا
فَيَنْبَغِى لَكَ ألا تَأْمَنَ النَّـارَا

ومن جهة الكرم . كان الشافعى فى غاية من الكرم ، وطرف من الجود ، وذلك على الرغم من قلة ماله وضيق ذات يده ، وكان يتحسر لأنه لا يجد المال الذى يجود به على الفقراء الذين يستحون من السؤال ، ويتوجع حين يُسأل فلا يستطيع ويضطر إلى الاعتذار . إن الشافعى الكريم اليد يشكو ضيق اليد وعدم الاستطاعة فى هذا القول البليغ :

يَالهْفَ نَفْسِى عَلَى مالٍ أُفَرِّقُهُ
عَلَى ٱلْمُقِلِّينَ مِنْ أَهْلِ الْمُرُوءَاتِ
إنَّ اعْتِذَارِى إلَى مَنْ جَاءَ يَسْأَلُنِى
مَالَيْس عِنْدِى لَمِنْ إحْدَى الْمُصِيبَاتِ

ومع هذه الشكوى من الفقر فإن جوده كالريح بالقليل من المال الذى يقع فى يده . لقد تزوج الربيع بن سليمان خادمه ومرافقه فقال له الشافعى : كم أصدقتها ؟ قال : ثلاثين دينارا ، قال كم أعطيتها ؟ قال : ستة دنانير ، فما كان من الشافعى إلا أن أرسل إليه صرة فيها بقية المهر وهى أربعة وعشرون دينارا .

ودخل عليه فى بيته بالفسطاط رجل خياط كان جارا له ، فطلب اليه أن يصلح أزرار ثوبه ، فأصلحها ، فأعطاه دينارا ذهبا ، فنظر الخياط إليه وضحك ، فقال الشافعى : خذه فلوكان عندنا أكثر منه مارضينا لك به . فقال الخياط فى حياء : أصلحك الله ، إنما دخلنا إليك لنسلم عليك ، فقال

الشافعي في سماحة وسرور وكأنما وجد مزيدا من أسباب تبرير جوده : فأنت أذن ضيف زائر . وليس من المروءة استخدام الضيف الزائر .

والأكثر من ذلك والأكرم عبد الله بن عبد الحكم جمع للشافعي حين قدومه إلى مصر الفي دينار . فوزعها جميعا على الناس . ولما مات الشافعي مات فقيرا إلا من القليل الذى لا ينهض لكى ينقله من طبقة الفقراء .

ولقد سئل الربيع عن الشافعي وعن لباسه فقال : كان مقتصدا فيه . يلبس الثياب الرفيعة من الكتان والقطن البغدادى . وكان ربما لبس قلنسوة ليست مشرفة جدا . ويلبس كثيرا العمامة والخف . وكان لا يأتى عليه يوم لا يتصدق . ويتصدق فى الليل ولا سيما فى رمضان . ويتفقد الفقراء والضعفاء(١٨) .

إن أبا ثور الفقيه العظيم يبلغ ذروة البلاغة فى وصفه كرم الشافعي وجوده بهذه الكلمات القليلة «كان الشافعي قلما يمسك الشيء من سماحته» .

— ١١ —

القصد والاعتدال :

ومن مؤهلات الإمام القصد فى أموره وأحكامه إلا فيما يتعلق بالشمائل من تقى وكرم . فهاتان صفتان كلما أكثر المرء من التشبث بأسبابهما كان أقرب إلى رضى الله وحب الناس .

لقد كان المتكلمون — على سبيل المثال — متطرفين فى أفكارهم غالين فى أحكامهم . فوقف الشافعي منهم موقف القصد والاعتدال . ويروى عن الشافعي فى هذا الخصوص حادثة تدل على عقله ودينه واعتداله . فقد سمع بعض تلامذته يتناظرون فى الكلام ؛ فأراد أن يردهم عما هم فيه فاحتجب عنهم مدة سبعة أيام . ولما أرادوا أن يتبينوا سبب احتجابه قال : ما منعنى من الخروج إليكم

---

(١٨) توالى التأسيس ٦٨ .

إلا أننى سمعتكم تتناظرون فى الكلام . وقد درسته وبلغت فيه مبلغا عظيما . غير أن الكلام لا غاية له . ثم أمرهم أن يتناظروا فى أمور إن أخطاوا فيها قيل لهم أخطأتم ولا يقال لهم كفرتم .

ولقد بلغ من تحاشى الشافعى للكلام وصرف الناس عن الولوغ فيه أن قال : لو أن رجلا أوصى بكتب من العلم وفيها كتب الكلام . لم تدخل كتب الكلام فى الوصية .

ولقد سبقت الإشارة إلى صور كثيرة من القصد والاعتدال فى حياة الشافعى وسلوكه وبخاصة اعتداله مع مناظريه . وقصده فى سلوكه معهم . وعمق إقناعه لهم . مما كان سببا فى حبهم له . وجنوحهم إليه . وإقبالهم عليه .

وكثيرا ما كان المتفقهون يغلون فى أحكامهم ويشتطون فى فتاواهم . ولكن الشافعى كان يقف من هذه الأحكام موقف القصد والاعتدال متمثلا قول الرسول الكريم :

« **إنَّ هَذَا الدِّين مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيه بِرِفْقٍ** » .

لقد رأى الشافعى بمصر رجلا مزكيا يجرح رجلا آخر . فسأله عن سبب ذلك وألح عليه فقال : رأيته يبول قائما . قال : وما فى ذلك ؟ قال : يرد الريح من رشاشه على بدنه وثيابه فيصلى فيه . قال : هل رأيته أصابه الرشاش وصلى قبل أن يغسل ما أصابه ؟ قال : لا . ولكن أراه سيفعل[١٩] .

الحق أن هذا الموقف الذى وقفه الشافعى يدل على سماحة غامرة . وأفق واسع . ويدل فى الوقت ذاته على أن للشافعى مرحا مقبولا ودعابة لطيفة . وفكاهة عذبة ومزاحا رقيقا .

---

(١٩) طبقات الشافعية ١/١٩٤ .

الشافعى والفكاهة والمرح :

الشافعى إذن فيه مرح لطيف وصاحب دعابات وملح . وليس ثمة ما يمنع من أن يكون المرء عالما جادا وصاحب فكاهة غير مسفة . فقد كان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا صدقا . فالشافعى كان بلغة العصر الذى نعيش فيه صاحب نكتة .

يسمع الشافعى حديثا يرويه أبو العالية الرياحى : « على الضاحك الوضوء » فيبتسم الشافعى ويقول : حديث أبى العالية الرياحى رياح . ويروى حرام بن عثمان أحاديث منسوبة إلى الرسول ظاهرة الضعف أو الانتحال . فيقول الشافعى معلقا ساخرا : حديث حرام كاسمه حرام .

ويتعرض الشافعى للمرض . فيسأله الربيع خادمه : كيف تجدك ؟ فيقول : ضعيفا ياربيع . فيقول الربيع : قوّى الله ضعفك . فيقول الشافعى : إذن يقتلنى . لأنه إنما هو ضعف وقوة . فإذا قوى الله الضعف قتل صاحبه .

ودعابات الشافعى لا تقف عند القول المترسل . وإنما هو صاحب دعابات شعرية كثيرة . يقول الربيع بن سليمان : كنا عند الشافعى إذ جاءه رجل برقعة فنظر فيها وتبسم . ثم كتب فيها شيئا ودفعها إليه . وظن الجميع أن الرجل يسأل الشافعى مسألة . ولحقنا بالرجل وأخذنا الرقعة منه . وإذا فيها :

سَلِ الْمُفْتِيَ الْمَكِّيَّ هَلْ فِي تَزَاوُرٍ
وَضَمَّةِ مشتاقِ الفُؤَادِ جُنَاحُ

وإذْ بإجابة الشافعى تقول :

أَقُولُ مَعاذَ اللهِ أنْ يُذْهِبَ التُّقَى
تَلاَصُقُ أكبادٍ بِهِنَّ جِرَاحُ

ومرة أخرى جاء رجل إلى الشافعى برقعة فيها :

سَلِ الْمفْتِيَ الْمَكِّىَّ مِنْ آلِ هاشمٍ
إذَا اشتدَّ وجدٌ بامرىءٍ كيفَ يَصْنَعُ

فكتب الشافعى تحته :

يُدَاوِى هَوَاهُ ثُمَّ يَكْتُمُ حُبَّهُ
وَيَصْبِرُ فِى كُلِّ الأُمُورِ وَيَخْضَعُ

فأخذها صاحبها وانصرف . ثم ما لبث أن جاء وقد كتب تحت البيت الذى جعله الشافعى جوابا :

فَكَيْفَ يُدَاوِى والْهَوَى قَاتِلُ الْفَتَى
وفى كلِّ يومٍ غُصَّةً يَتَجَرَّعُ

فكتب الشافعى :

فَإِنْ هُوَ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابهُ
فَلَيْسَ لَهُ شىءٌ سِوىَ المْوتِ أَنْفَعُ

فالشافعى على علمه وجده وهيبته ، صاحب ملح وطرف فى نثره وشعره . والشافعى لا يخترع الحديث الفكه وحسب . وإنما هو راوية للملح . مردد للفكاهات ، وقد ذكر له ياقوت شيئا من ذلك . فمن الملح التى رواها قوله : كنا فى سفر بأرض اليمن . فوضعنا سفرتنا لنتعشى . وحضرت صلاة المغرب . فقلنا نصلى ثم نتعشى . فتركنا سُفرتنا كما هى ، وكان فى السفرة دجاجتان . فجاء ثعلب فأخذ إحدى الدجاجتين . فلما قضينا صلاتنا أسفنا عليها . وقلنا حرمنا طعامنا . فبينما نحن كذلك جاء الثعلب وفى فمه شىء كأنه الدجاجة . فوضعه . فبادرنا إليه لنأخذه ونحن نحسبه الدجاجة قد ردها ، فلما قمنا لخلاصها إذا هو قد

جاء إلى الأخرى فأخذها من السفرة ؛ وأصبنا الذى قمنا إليه لنأخذه . فإذا هو ليفة قد هيأها مثل الدجاجة[٢٠] .

ومن الطرف التى يرويها الشافعى عن وال لم يخل من حماقة قوله : كان بالمدينة وال وكان رجلا صالحا . فقال : مالى لا أرى الناس يجتمعون على بابى كما يجتمعون على أبواب الولاة ؟ فقالوا : إنك لا تضرب أحداً . ولا تؤذى الناس . فقال : أهكذا ؟ على بالإمام . فجيء به فنصب بين العقابين وجعل يضرب والإمام يقول : أعز الله الأمير . إيش جُرْمِى ؟ وهو يقول : حَمِّلْنَا بنفسك . حتى اجتمع الناس على بابه[٢١] .

فالمزاح اللطيف فى غير ما ترخص أو تهافت يقرب الناس إلى المرء . ويستأنس قلوبهم . وكثير من الأئمة كانوا كذلك . يطلقون النكتة البريئة فتبعث البسمة على الشفاه ولا تنال من قدر صاحبها . وكان الإمام أبو حنيفة يطلق النكتة فى مكانها . سأله رجل ذات يوم : متى يحرم الطعام على الصائم ؟ فقال أبو حنيفة : إذا طلع الفجر . فقال السائل : فإن طلع نصف الليل ؟ فقال الإمام : قم يا أعرج ! !

ويروى شيء قريب من ذلك عن أبى يوسف . فقد جلس فى مجلسه رجل يطيل الصمت . فقال له : ألا تتكلم ؟ قال : بلى . متى يفطر الصائم ؟ قال أبو يوسف : إذا غابت الشمس . قال : فإن لم تغب إلى نصف الليل ؟ قال أبو يوسف . أصبت فى صمتك . وأخطأت أنا فى استدعائك للكلام .

ويتعدى المزاح العلماء الأفراد إلى جمهرتهم . فقد ولد الشافعى فى السنة التى توفى فيها أبو حنيفة . فاتخذ كل من فقهاء الأحناف وفقهاء الشافعية من ذلك مادة مزاح يداعب كل منهما بها الفريق الآخر . يقول الأحناف للشافعية : إمامكم كان مخفيًّا حتى ذهب إمامنا . ويقول الشافعية : لما ظهر إمامنا هرب إمامكم[٢٢]

(٢٠) معجم الأدباء ٣٨٦/٦ . هندية .

(٢١) المصدر السابق ٣٩٢ .

(٢٢) مرآة الجنان لليافعى ٢٥/٢ .

ومما يجدر ذكره وتحسن الإشارة إليه أن الشافعى كان من سعة الأفق والنّهم إلى الاغتراف من العلم بحيث لم يكتف بالعلوم الدينية وحدها ، ولا بعلوم العربية وحدها وقد بلغ فيهما الغاية ، ولكنه تعلم الفراسة حين كان باليمن وعالج التنجيم ودرس الطب ، وللشافعى فى ذلك أقوال ومواقف ، فمن أقواله فى هذا السبيل : « إنما العلم علمان علم الدين وعلم الدنيا ، فالعلم الذى للدين هو الفقه ، والعلم الذى للدنيا هو الطب » .

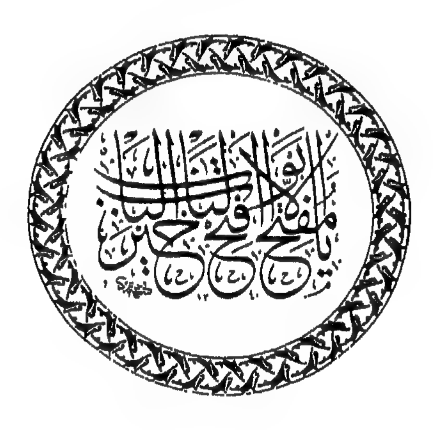
ومن الطرائف التى تروى حول براعة الشافعى فى الطب أن طبيبا مصريا ذاكره فى طب فى الفسطاط فبهره الشافعى بمعلوماته الطبية وإتقانه إياه حتى ظن أنه لايتقن غيره ، فأخذت الدهشة الطبيب وقال موجهاً سؤاله للإمام : هل أقرأ عليك شيئاً من أبقراط ؟ فأشار الشافعى إلى الجامع وقال : إن هؤلاء لا يتركوننى [٢٣] .

ومن نصائح الشافعى الغالية قوله : لا تسكنن بلدا ليس فيه عالم يفتيك فى أمر دينك ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك .

لقد كان الشافعى عالما بالقرآن والحديث والفقه والأصول واللغة والأدب صاحب خلق ودين ، مربيا للأجيال ، رابط الجأش مستمسكا بالحق ، مجددا مبتكرا ، فصيحا بليغا ، قوى الحجة عميق الإقناع ، كريما متواضعا ، وفياً ظريفا ، كاتبا شاعرا ، إمام مدرسة خلدت على الزمان ، وهو بعد ذلك تلميذ لإمامين هما مالك وسفيان ، وأستاذ لإمام هو أحمد بن حنبل ، ومن ثَمَّ كان الشافعى جديراً بالإمامة .

---

(٢٣) توالى التأسيس ص ٦٦ .

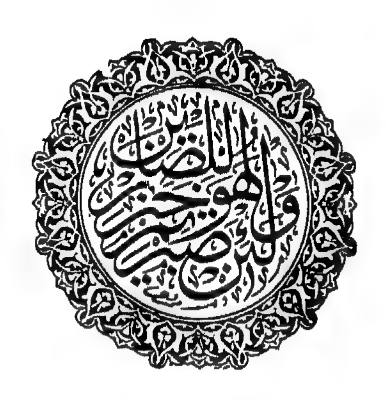


الفصل السابع

فقه الشافعي وكتبه

* فقه القصد والاعتدال .
* أصول فقه الشافعي ومصادره .
* جملة مؤلفات الشافعي .
* كتاب الأم ونماذج منه .
* كتاب الرسالة ونماذج منه .
* الشافعي ينتقل إلى الرفيق الأعلى .




ولئن صبرتم لهو خير للصابرين

الفصل السابع

فقه الشافعي وكتبه

– ١ –

فقه القصد والاعتدال :

سبقت الإشارة إلى أن الشافعى كان يجمع بين فقه أهل الرأى وفقه أهل الحديث ولكن بمقادير اختلف العلماء وبخاصة المحدثين منهم على ضبطها ؛ فمنهم من يرى أن الجمع بين مدرستى الفقه كان بمقادير متعادلة ؛ ومنهم من يرى أنه فى جمعه بين رأى المدرستين كان إلى مدرسة الحديث أقرب منه إلى مدرسة الرأى .

ومهما كان الرأى فى الشافعى من حيث ارتباطه بهذه أو بتلك من مدارس الفقه . فالذى لاشك فيه أنه كان فقيها مستقلا فى رأيه . متكاملا فى شخصيته ؛ غير متأثر كل التأثر بهذا أو بذاك من الأئمة الأجلاء الذين سبقوه ؛ لقد كانوا موضع التقدير والامتداح لديه فى مواطن شتى . كما كانوا موضع النقد الشديد متى دعت الأمانة العلمية والحقائق الفقهية إلى ذلك . وأقرب مثل على هذا الرأى الأخير نقده لأستاذه مالك . لقد ربى الشافعى علميا وروحيا بين يدى مالك . وظل ملازما له حتى وفاته . ورغم استكمال أسباب النجاح وأدوات الإفتاء فإنه لم يجلس متفرغاً للفتيا فى حياة أستاذه مع ماذاع عنه من قدرة علمية فائقة أهلته للإفتاء فى الخامسة عشرة من عمره .

لقد نقد الشافعى آراء لأبى حنيفة مع احترامه الكامل لشخصه وعلمه وما أثر عنه فيه من أقوال كريمة . ولقد نقد كذلك الأوزاعى إمام أهل الشام وفقيههم . ولا بأس فى ذلك مادام النقد لآراء أبدوها واختلف معهم فيها مع حفاظه على تقدير شخصية كل منهم .

أما الأمر فيما يخص الإمام مالكا فمختلف إلى حد كبير . ذلك أن الشافعى نشأ علميا فى حجره كما يقولون . ولكن حينما اشتد عوده . واكتملت شخصيته . واستقلت آراؤه المستمدة من حصيلته العلمية وملكته المجتهدة الخلاقة . بدأ فى إصدار أحكامه التى كانت تتفق أحياناً مع آراء أستاذه . وتختلف معها حينا آخر دون أن يقول شيئا عن مدى اتفاقه أو اختلافه مع أستاذه الذى كان قد رحل عن الدنيا ، وبقى فقهه فى كتبه وصدور تلامذته ومريديه .

لقد كان واضحا أن الشافعى ذو شخصية فقهية مستقلة مما كان يصدر عنه من آراء شفهية فى أمور الدين فى مجالسه فى المدينة ومكة . أو ماكان يصدر عنه مكتوبا . مثل تلك الآراء التى صدرت عنه فى « الرسالة » وقد كتبها فى ريعان شبابه وبين فيها شروط الاستدلال بالقرآن والسنة والاجماع والقياس وبيان الناسخ والمنسوخ ومراتب العموم والخصوص . إلى غير ذلك من الموضوعات الدينية والقضايا الفقهية التى جعلت رجلا مثل عبد الرحمن بن مهدى اللؤلؤى البصرى أحد كبار حفاظ الحديث يقول حين قرأها : ماأظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل . يعنى الإمام الشافعى على ماسوف نفصل القول عند الحديث عن الرسالة .

وإذن فالشافعى حينما يعارض آراء أستاذه مالك . لم يفعل ذلك طلبا لشهرة أو محاولة لاستقطاب الأنظار إليه . فإن ذلك الأمر لم يكن فى نطاق تفكيره . وإنما لأن قدرته الاستنباطية وملكته الفقهية قد أهلته لمكانة من التفكير المستقل عن غيره . والاستدلال المبنى على أسس من العقيدة . وأصول من الشريعة ودعامات من الكتاب والسنة لم يستطع غيره أن يفهمها فهمه . أو أن يجعلها قاعدة لاستنباطه ومصدرا لاجتهاده .

ولكن الأمر الذى يدعو إلى النظر هو أن معارضة الشافعى لأستاذه مالك كانت بعد ذلك عالية الصوت . لأنه ألف فى ذلك كتاباً أسماه « اختلاف مالك » تردد فى إعلانه على الناس بعض الوقت ثم مالبث أن دفعته بعض الأسباب إلى إعلانه . أهمها — حسبما أسلفنا القول — أن بعض المسلمين فى

الأندلس اتجهوا إلى جعل مالك شخصا مقدسا ، بل أنهم قدسوا آثاره وثيابه ، وقد كان له قلنسوة بالأندلس فأخذ الناس يتبركون بها، وزاد الطين بلة أن قوما من المسلمين كانوا إذا قالوا فى مجال الاستشهاد : قال رسول الله ، رد قوم آخرون قائلين : قال مالك ، الأمر الذى تهدد العقيدة كلها بفتنة لم يكن يعرف مداها إذا ما غض الطرف عنها إلا الله ، هنا يتقدم الشافعى ويقدم على تخطئة مالك فيما لم يكن متفقا معه فيه من آراء ليثبت للناس وبخاصة أولئك الذين فتنوا به ووضعوا أقواله فى مواجهة أقوال الرسول ، أن مالكا بشر يخطئ ويصيب وأنه من الخروج على سنن هذا الدين أن آجه قول الرسول بأى قول آخر غير كتاب الله إذا كانت ثمة أسباب إلى ذلك . وهو مالم يحدث إلا فى مجالات الإفصاح عن قضية جاء بها الكتاب العزيز مجملة فجاء الحديث الشريف ففصلها ، هذه هى فى الحقيقة جوهر الأسباب التى دعت الشافعى إلى مخالفة أستاذه إلى المدى الذى جعله يؤلف كتاباً يثبت فيه ماهو كائن بينهما من خلاف ، ولكن الشافعى رغم هذا الخلاف فى وجهة النظر لم ينل من أستاذه بكلمة واحدة خارجة عن الجادة . أو بجملة واحدة ندّت عن النهج المهذب فى أدب النقد .

وإذن وقد ألممنا بالمرحلة التى هيأت للشافعى أسباب الاستقلال يمكن أن نلخص أهم آرائه الفقهية فى النقاط على النحو التالى :

— ٢ —

أصول الفقه الشافعى ومصادره :

أولا : يقوم مذهب الشافعى على الأخذ بالكتاب والسنة الإجماع والقياس وهى المبادئ التى ذكرها فى كتابه « الرسالة » فكانت بمثابة العناصر الجديدة المعالم فى محيط الفقه الإسلامى عند جمهرة الفقهاء . حتى إن واحدا من الفقهاء هو الكرابيسى يقول : ماكنا ندرى ما الكتاب ولا السنة ولا الإجماع حتى سمعنا الشافعى يقول الكتاب والسنة والإجماع . وحتى إن عالماً كبيرا كأبى ثور يقول : لما قدم علينا الشافعى كان يقول : إن الله تعالى قد يذكر العام ويريد به الخاص .

وقد يذكر الخاص ويريد به العام وكنا لانعرف هذه الأشياء فسألناه عنها فقال : إن الله تعالى يقول :

« إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ » .

والمراد أبو سفيان . وقال :

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ».

فهذا خاص والمراد به عام . هذا نهج من الكلام فى الفقه والأصول لم يكن المسلمون يعرفون عنه شيئا قبل الشافعى .

ثانيا : فقه الشافعى مزيج من فقه أصحاب الرأى وهم أصحاب أبى حنيفة . وأصحاب الحديث وهم أصحاب مالك . وقد كان لكل من الفريقين سلوكه الخاص فى الفهم والتفكير والاستنباط . أهل الرأى أصحاب نظر وجدل وسعة أفق . وقدرتهم على استيعاب الآثار والسنن دون مقدرة أصحاب الحديث . وأصحاب الحديث حافظون لأحاديث الرسول متمكنون من أخباره وآثاره وأفعاله . غير أنهم ليسوا أصحاب جدل أو عميق استنباط . ولابد للفقيه أو صاحب الفقه أن يكون على مقدرة فى الاستعانة بالحديث والرأى جميعا . والإمام الشافعى صاحب رأى وجدل وحسن استنباط وإجادة نقاش وسرعة بديهة . وقد مر علينا شيء من ذلك فى حواره مع الرشيد وجدله مع ابن راهويه . وهو فى الوقت نفسه عالم بالحديث . أيقظ رجاله من سباتهم فتيقظوا . وهو الذى وضعهم على المحجة البيضاء حسبما مر بنا قبل صفحات . وهو فى الجملة « ناصر الحديث » ذلك اللقب الذى خلعه عليه علماء عصره عن جدارة واقتناع واستحقاق . وإذن فقد أصبح الشافعى ذلك الإمام القادر على المزج بين نقاء أهل الحديث وإمكانية أهل الرأى . فجاء فقهه مزيجا من المدرستين السابقتين . ومن ثم فقد اعتبر الشافعى مؤسس علم أصول الفقه . الذى صار أساساً من أسس مدرسته . وعماداً من أعمدة مذهبه . حتى إن الفخر الرازى قال فى ذلك : إن نسبة الشافعى إلى علم الأصول كنسبة أرسطو إلى علم المنطق . وكنسبة الخليل بن

أحمد إلى علم العروض . وليس من شك فى أن الذى يقرأ « الرسالة » للشافعى . وسوف نقدم دراسة عنها بعد قليل . يستطيع فى يسر أن يلمح الجهد الذى بذله فى وضع القوانين التى يمكن الرجوع إليها فى معرفة الاستدلال فى نطاق الشريعة الغراء .

ثالثا : تبدو مدرسة الحديث عند الشافعى أوضح أصولا وأقرب متناولا . ذلك أنه يعتمد أول مايعتمد على القرآن الكريم فى جميع الأحكام وأصول التشريع ويتبع الكتاب بالسنة التى أظهر وجوهها الحديث . وهو ليس فى حاجة إلى الأخذ بالرأى مادام الحديث الشريف قد سد الثغرة التى أمامه فى حكم أو رأى . وكان دستوره فى ذلك قوله : مهما قلت من قول أو أصلت من أصل وفيه عن رسول الله ﷺ خلاف ماقلت . فالقول ماقال رسول الله ﷺ . وهو قولى . ولعل هذا الملحظ بالذات يفسّر لنا الدافع الذى حدا بالشافعى إلى الحملة على بعض آراء مالك حين جعل بعض أصحابه من آرائه أهلا لأن تواجه الأحاديث الشريفة كمصدر للتشريع .

رابعا : يأخذ فقه الشافعى بمبدأ الإجماع . ذلك أن الحقائق الشرعية جميعا تحمله على أن يعتبره حجة يجب الأخذ بها . فوضع له المقاييس التى تنظمه . والمعايير التى تكشف بطلان دعوى من يعمد إلى استغلاله دون برهان ثابت أو أساس من الدين مكين . على أن الشافعى جعل الاجماع – وهذا منطق – يأتى فى مرتبة بعد مرتبة الكتاب والسنة لايتقدم عليها حتى ولو كان هناك حديث خبر آحاد.

خامسا : يأخذ فقه الشافعى بالقياس . وكان الشافعى أول من تكلم فيه حين لاحظ أن الفقهاء لم يضعوا حدا بين الرأى الصحيح والرأى غير الصحيح . فجاء الشافعى فقعد القواعد للرأى الذى يعتقده صحيحا . والاستنباطات التى لاتكون صحيحة « فرسم حدود القياس ورتب مراتبه . وقوة الفقه المأخوذ عن القياس بالنسبة للفقه المأخوذ عن النص . ثم بين الشروط التى يجب توافرها فى الفقيه

الذى يقيس [1] وبيّن الشافعى أن هناك فرقا كبيرا بين أنواع الاستنباطات الأخرى وبين القياس فى نطاق الحدود التى رسمها له .

سادسا : أبطل الشافعى مبدأ الاستحسان . وألف فى ذلك كتابا سماه « إبطال الاستحسان » وهو المبدأ الذى أخذ به أبو حنيفة ومالك . ويعلل الشافعى نظريته فى إبطال الاستحسان . بأن الفقيه حين يأخذ بهذا المبدأ بعد أن استشار الكتاب والسنة والأثر والإجماع والقياس يكون قد أخذ بما استحسنه هو . وليس بما أعطاه الدليل من الكتاب والسنة . وثمة دليل آخر يسوقه الشافعى على إبطال الاستحسان . هو أن الاجتهاد بطريق الاستحسان من غير الاعتماد على أصل من الشرع أو نص من الكتاب والسنة يكون اجتهادا باطلا . ونتيجته تبعا لذلك باطلة .

هذا وسوف نستعرض الكثير من آراء الشافعى فى الفقه حال ما نقدم دراسات فى كتبه أو نماذج من بعضها .

— ٣ —

جملة المؤلفات :

مؤلفات الإمام الشافعى كثيرة العدد . وفيرة الموضوعات . نفيسة المحتويات . فقد ألف وأملى فى كل بلد نزل به أو حلّ فيه . ومن المعروف أن الشافعى عاش فى الحجاز والعراق ومصر ، وكان قد قضى فترة قصيرة فى اليمن فى شبابه الباكر .

وكان للشافعى فى كل قطر من الأقطار الثلاثة حلقة درس ومجلس علم . وكان جمهوره من الخاصة والعامة وإن كانت الخاصة أكثر . كان يحاضر ويملى ويناظر ويناقش . وكانت محاضراته تدون وتقرأ عليه كما كان الحال مع الإمام أبى حنيفة .

لم تكن محاضرات الشافعى مقصورة على الفقه والحديث وحدهما . وإنما

---

(١) الشافعى لأبى زهرة ص ٢٦٧ .

كانت متشعبة الجوانب . متعددة الموضوعات . كثيرة الفروع من لغة وأدب وسير وتاريخ وأيام وحكمة وطب . بل لقد ألف فى هواية كان يتعشقها صغيرا وهى السبق والرمى .

ولو قد وصلت إلينا كل أمالى الشافعى وكتبه لكانت مصادر نفيسة فى موضوعاتها ومراجع طريفة فى أبوابها . فكما كان الشافعى قمة سامقة فى الفقه والحديث . كان أيضاً كذلك فى اللغة والأدب والجدل والحوار والطب .

لقد أحصى ياقوت الرومى للشافعى مائة وسبعة وأربعين كتابا[٢] . وقد سجل ابن حجر مؤلفات الشافعى ملخصا إياها عن البيهقى على النحو التالى : الرسالة القديمة . ثم الجديدة . اختلاف الحديث . جماع العلم . إبطال الاستحسان . أحكام القرآن . بياض الغرض . صفة الأمر والنهى . اختلاف مالك والشافعى . اختلاف العراقيين . اختلافه مع محمد بن الحسن . كتاب على وعبد الله . فضائل قريش . كتاب الأم (وعدته مائة ونيف وأربعون كتابا) . وكتاب السنن (وقد حمله عنه حرملة) وهو كتاب كبير . وكتاب المبسوط (وقد حمله عنه المزنى) وهو المختصر الكبير . والمنثورات[٣] .

ويذكر الرازى للشافعى كتابا كبيرا هاما هو المسند أو مسند الشافعى ويقول إنه كتاب مشهور فى الدنيا[٤] .

وللشافعى كتاب هام هو كتاب الحجة صنفه فى العراق . وهو مجلد ضخم يشتمل على حصيلة مناقشاته وما أفتى به فى العراق . وقد حمله عنه ابن حنبل والزعفرانى وأبو ثور والكرابيسى . ويضم القديم من مذهبه . ولذلك فإن الشافعى يسمى هذا الكتاب بالكتاب البغدادى . قال الشافعى : اجتمع علىَّ أصحاب الحديث فسألونى أن أضع على كتاب أبى حنيفة . فقلت : لا أعرف قولهم حتى

---

(٢) معجم الأدباء ٣٢٤/١٧ ط المأمون . ٣٩٦/٦ ط هندية .

(٣) توالى التأسيس ص ٧٨ .

(٤) مناقب الإمام الشافعى ص ١٤٦ .

أنظر فى كتبهم . فأمرت فكتبت لى كتب محمد بن الحسن . فنظرت فيها سنة حتى حفظتها . ثم وضعت الكتاب البغدادى . يعنى الحجة[٥] .

ومن الأمور البدهية أن ثمة تداخلا بين كتاب الحجة وبعض الكتب الأخرى السالفة الذكر، ولكننا نستطيع أن نقرر أن كتاب اختلاف العراقيين هو نفسه كتاب اختلاف أبى حنيفة وابن أبى ليلى الذى يضمه الجزء السابع من كتاب الأم وكتاب اختلافه مع محمد بن الحسن .

وللشافعى كتاب آخر يدل عنوانه على مبلغ أهميته وهو (كتاب السير) رواية أبى عبد الرحمن أحمد بن يحيى الشافعى . ويبدو أنه من كتبه البغدادية ونرجو ألا يكون هذا الكتاب هو نفسه سير الأوزاعى الذى ضمه أيضاً كتاب الأم .

على أن لنا بعض التحفظات على تلك القائمة الطويلة من الكتب المائة والسبعة والأربعين التى ذكرها ياقوت . وتلك القائمة الأخرى التى ذكرها ابن حجر . فهذه الكتب أو تلك ليست جميعها كتبا بالمعنى المألوف . ولكن أكثرها رسائل صغيرة وإن تكن من القيمة والنفاسة بمكان .

ونحن لانقدم هذا التحفظ لأن الشافعى غير مستطيع أن يصدر مثل هذا العدد الكبير من الكتب فى خلال عمره القصير وحياته غير المستقرة . فذلك مالم يذهب الفكر إليه قط . ولكن لأننا وجدنا الكثير مما ذكره ياقوت وابن حجر عن البيهقى موجودا بين دفتى كتاب الأم . مثال ذلك كتاب اليمين مع الشاهد . وكتاب صلاة الاستسقاء . وكتاب صلاة الخوف . وكتاب صلاة الكسوف . وكتاب الجنائز أو صلاة الجنائز . وكل هذه الكتب ذكرها ياقوت على أنها مؤلفات مستقلة . كذلك وجدنا بعض الكتب التى ذكرها ابن حجر ضمن محتويات كتاب الأم نفسه مثل كتاب إبطال الاستحسان . كتاب اختلاف العراقيين . كتاب اختلافه مع محمد بن الحسن . كتاب اختلاف مالك والشافعى وهذا الأخير من الكتب التى أحدثت ضجة عندما أظهرها الشافعى على الملأ ونشرها للناس .

---

(٥) توالى التاسيس ٧٦ .

ومن ثم يكون كتاب الأم جديرا باسمه هذا . إنها تسمية واقعية صادقة لأن الكتاب يعتبر بمثابة الأم لفقه الشافعي جميعا . ولأن كل تلك الكتب الصغيرة التي أوردها ياقوت . وكثيرا من الكتب الأخرى التي أوردها ابن حجر هي بمثابة الأبناء الصغار والكبار احتضنتهم دفتا كتاب الأم في رفق وحفظ وأمان.

على أن هناك أمرا هاما ينبغي أن نشير إليه فيما يختص بكتاب « الأم » الذى بين أيدينا . ذلك الأمر هو أن بعض ماضمه الكتاب ليس مما ألفه الشافعي ولكنها مؤلفات لأئمة آخرين مثال ذلك : كتاب سير الأوزاعي . وكتاب اختلاف أبى حنيفة وابن أبى ليلى . وكتاب سير الواقدى .

هذا ونحب أن نشير إلى أن للشافعي غير كتاب الأم وما احتواه من كتب . كتبا أخرى ثلاثة بين أيدينا هي كتابه الجليل المسمى بالرسالة . وكتاب اختلاف الحديث وكتاب المسند . وسوف نخص الكتابين الكبيرين الأم والرسالة بشيء من التعريف الموجز الواضح بعد قليل .

ومما تجدر الإشارة إليه ونحن نتحدث عن مؤلفات الشافعي أنه حين استقر بمصر وعاش بين أهلها ، تغيرت كثير من أفكاره ، وتبدل غير قليل من آرائه بحكم البيئة والتجربة ومزيد من التمعن ، فأعاد تصنيف عدد من كتبه ، وأدخل تعديلات على بعضها الآخر ، وانتهى بها إلى آراء ثابتة هي ما نعرفه اليوم بالفقه الشافعي .

هذا ومن الثابت أن الشافعي أعاد كتابة « الرسالة » وأن النسخة التي بين أيدينا هي النسخة المصرية . بينما ضاعت النسخة البغدادية أوالحجازية فيما لوكان قد كتبها أثناء وجوده فى مكة . ومن الكتب التي أعاد النظر فيها «كتاب الأم » أو بالأحرى بعض الكتب التي ضمها «كتاب الأم » .

وهناك كتاب صنفه لأول مرة وهو فى مصر هو كتاب « اختلاف مالك » فقد اكتشف الشافعي قضايا الخلاف بينه وبين مالك وهو بمصر . أو لعله بدأ فى اكتشافها قبل ذلك ولكن فكرة إصدار كتاب فى هذا الموضوع اختمرت ثم نضجت وهو فى مصر . ولذلك لم يكد يظهر الكتاب بين أيدى القراء والدارسين

حتى حدث شغب كثير نال الشافعي من جرائه كثير من الأذى . فقد كانت مصر آنذاك حصناً من حصون المالكية، وكان أشهب بن عبد العزيز تلميذ مالك لم يزل على قيد الحياة . ولعل العدوان الذى تعرض له كان من أسبابه ظهور هذا الكتاب .

وثمة كتب للشافعى لم يشأ أن يعيد تصنيفها وهى : الصيام . الصداق . الحدود . الرهن الصغير . الاجارة . الجنائز . ولاشك فى أن هذه الكتب كانت تحوى مسائل رجع الشافعى عنها . ولذلك فقد أمر بتحريق مارجع عنه من مسائل وما قد غاير اجتهاده . ومن هنا وجدت مسائل للشافعى عند الحجازيين والعراقيين غير مذكورة فى كتبه الجديدة[٦] .

وتبعا لذلك فإن المذهب الذى انتهى إليه الشافعى والآراء التى تمثل اتجاهه فى الفقه والشريعة هى تلك التى حوتها كتبه المصرية وعلى رأسها « الأم » و « الرسالة » و « اختلاف مالك » .

ومما يرجح أن آراء الشافعى التى سجلها فى كتبه المصرية هى التى تمثل – دون غيرها – مذهبه . مارواه ابن عبد البر من أن أحمد بن حنبل سئل : « ماترى فى كتب الشافعى التى عند العراقيين . أهى أحب إليك أم التى بمصر؟ قال : عليك بالكتب التى وضعها بمصر ، فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها . ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك »[٧] .

ومادام كل الأثر الباقى من كتب الشافعى بين أيدينا هو «كتاب الأم» وكتاب الرسالة وكتاب اختلاف الحديث وكتاب المسند فإنه يجمل بنا أن نقدم تعريفا وافيا بالغرض لأهم هذه الكتب . وهما « الأم » و « الرسالة » .

---

(٦) توالى التاسيس ص ١٤٦ .

(٧) الانتقاء ص ٧٨ .

كتاب الأم :

يضم كتاب الأم فقه الشافعي ومذهبه . وهو كتاب كبير يقع فى سبعة مجلدات مطبوعة . راعى فيه الشافعي الأبانة والدقة والتفصيل والشمول . وهو فى واقع أمره يمثل مجموعة الكتيبات والرسائل والمسائل التى ألفها الشافعي وعالجها قبل أن يجئ إلى مصر . فلما جاء إلى مصر جمع كل ذلك وأملاه على صاحبه وتلميذه ومريده الربيع بن سليمان .

والحقيقة أن للكتاب من اسمه نصيبا . فهو بالنسبة إلى أبواب الفقه وفروعه كالأم بالنسبة إلى الأبناء . إليها يفيئون إذا ما ارتجوا شفاء غلة أو افتقدوا نصحا أو احتاجوا إلى رشد . فكذلك كتاب « الأم » بالنسبة لدارسى الفقه وطالبى التعرف على شئون دينهم . بل هو كذلك لكل مسلم ومسلمة ينشد البحث عن أمر من أمور دينه فى العقيدة أو العبادات أو المعاملات أو الحدود أو الأحوال الشخصية .

ومع جماع إجلالنا للشافعي وتقديرنا لكتابه « الأم » فإننا نرى روح أبى حنيفة مطلة من خلال منهجه . فلقد سبق القول أن أبا حنيفة هو أول من دوّن الفقه حين خشى عليه أن يضيعه خلف السوء . ومن ثم أقبل على تدوينه وجعله أبوابا . فبدأ بالطهارة ثم بالصلاة . لأن المكلف أول ما يطالب به بعد صحة الاعتقاد أن يقيم الصلاة لأنها أخص العبادات . ولاتصح صلاة بدون طهارة . ثم مضى أبو حنيفة فى منهجه فدون سائر العبادات ثم المعاملات ثم المواريث على النحو الذى فصلناه عند كلامنا عن أبى حنيفة .

إن منهج «كتاب الأم » هو نفسه منهج أبى حنيفة إلى مدى بعيد . ولا بأس فى ذلك فإن الشافعي نفسه يكن لأبى حنيفة من الاجلال ماقد أشرنا إليه فى الصحائف السابقات ، وهو نفسه القائل « العلماء عيال على أبى حنيفة فى الفقه » .

إن الشافعى يقسم الأم إلى أبواب طويلة أو بالأحرى إلى كتب . بمعنى أنه يسمى كل باب كتابا . فيجعل الكتاب الأول للطهارة والصلاة . ويسهب القول فى الطهارة والصلاة بأنواعها من فرائض ونوافل : الصلوات الخمس والجمع والسنن وصلاة العيدين . وصلاة الخوف . وصلاة الكسوف . وصلاة الاستسقاء وصلاة الجنائز . وكل ما يتصل بهذه الصلوات من شعائر وأركان .

ويخصص الشافعى الكتاب الثانى من « الأم » للزكاة باعتبار أنها الفرض الثانى بعد الصلاة . ويتناولها تناولا شاملا دقيقا مفصلا لايكاد يترك أمرا يتعلق بها . فيتحدث عن فرض الزكاة وزكاة المال وزكاة الذهب وزكاة الحلى وزكاة المعادن وزكاة الفطر . والصدقات بكل أنواعها مثل صدقة الغنم . وصدقة البقر وصدقة الزرع . وتعجيل الصدقة ومن تجب عليه .

وينتقل الشافعى من الزكاة إلى الصيام بكل مايتصل به من قريب أو بعيد . ولايقف عند الحديث على صيام رمضان وإنما يتحدث عن صيام التطوع حديثا وافيا .

ومن الصيام ينتقل الشافعى إلى الحج وهو باب بالغ الطول . بالغ الدقة . حافل بالتفاصيل . ذلك أن أحكام الحج كثيرة من إحرام وقران وتمتع ووقوف بعرفة ونفرة إلى المزدلفة وانسياب إلى منى . ويوم تروية وأيام تشريق وتحليق وتقصير وتحلل وتضحية ورجم وطواف قدوم وإفاضة ووداع واستلام للحجر وسعى بين الصفا والمروة والإنابة والحج عن الغير وغير ذلك من شعائر الحج التى تحتاج كل شعيرة منها إلى حديث طويل بل بيان مستفيض . ويتناول الشافعى أيضا فى هذا الجزء الثانى من كتابه موضوع الصيد والذبائح وموضوع النذر .

والجزء الثالث من كتاب الأم مخصص بأكمله للبيوع . وهو باب يتسم بالدقة والتفصيل والشمول . ويدل على مقدرة فائقة ونبوغ فذ . وتلك كانت صفات الشافعى .

والجزء الذى يليه يشمل كتب المواريث . والوصايا . والجزية وقتال أهل البغى وأهل الردة . والحكم فى قتال المشركين .

ويمضى الشافعى فى بقية أجزاء كتابه متناولا النكاح من زواج وطلاق وعدة وصداق . وأبواب أخرى عن تحريم القتل والديات ، والقسامة . والحدود . والسير وأدب القاضى . والأقضية ، إلى غير ذلك من عظائم المسائل ودقيق الأحكام التى تتصل بالفقه الإسلامى اتصالا مباشرا أو غير مباشر.

إن أول عنوان يتصدر الكتاب هو « الطهارة » ثم يكون استهلال الكتاب على هذا النحو :

« أخبرنا الربيع بن سليمان قال : أخبرنا الشافعى رحمه الله تعالى قال : قال الله عز وجل .

« إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فاغْسِلُوا وجُوهكُمْ وأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ » الآية .

قال الشافعى : فكان بينا أن من خوطب بالآية أن غسلهم إنما كان بالماء . ثم أبان فى هذه الآية أن الغسل بالماء . وكان معقولا عند من خوطب بالآية أن الماء ماخلق الله تبارك وتعالى مما لاصنعة فيه للآدميين . وذكر الماء عاما فكان ماء السماء وماء الأنهار والآبار والقلات (*) والبحار العذب من جميعه والأجاج سواء فى أنه يطهر من توضأ واغتسل منه . وظاهر القرآن يدل على أن كل ماء طاهر : ماء بحر وغيره وقد روى فيه عن النبى ﷺ حديث يوافق ظاهر القرآن فى إسناده من لا أعرفه . قال الشافعى : أخبرنا مالك .

« عَنْ صَفْوَانِ بن سُلَيمْ عن سَعِيدِ بن سَلَمَةَ رجل من آل ابن الأزرق أن المغيرة بن أبى بردة وهو من بنى عبد الدار خبّره أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول : سأَلَ رجلٌ النبىَّ ﷺ فقال . : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ وَمَعَنَا الْقَلِيلُ مِنَ الْمَاءِ فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا أَفَنَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فقالَ النَّبِىُّ ﷺ : هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مِيتَتُهُ » .

(*) القلات جمع قلت كسهام وسهم ، وهى النقرة فى الجبل تمسك الماء .

قال الشافعى : أخبرنا إبراهيم بن محمد عن عبد العزيز بن عمر . عن سعيد بن ثوبان عن أبى هند الفراسى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :

« مَنْ لَمْ يُطَهِّرْهُ البحْرُ فَلاَ طَهَّرَهُ اللهُ »

قال الشافعى : فكل الماء طهور مالم تخالطه نجاسة . ولاطهور إلا فيه أو فى الصعيد . وسواء كل ماء من برد أو ثلج أذيب . وماء مسخن وغير مسخن . لأن الماء له طهارة والنار لاتنجس الماء .

قال الشافعى رحمه الله : ولا أكره الماء المشمس إلاَّ من جهة الطب . قال الشافعى : أخبرنا إبراهيم بن محمدعن صدقة بن عبد الله عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله أن عمر كان يكره الاغتسال بالماء المشمس وقال إنه يورث البرص . قال الشافعى : الماء على الطهارة ولاينجس إلا بنجس خالطه . والشمس والنار ليسا بنجس . إنما النجس المحرم . فأما ما اعتصره الآدميون من ماء شجر ورد أو غيره فلا يكون طهورا . وكذلك ماء أجساد ذوات الأرواح لايكون طهورا لأنه لايقع على واحد من هذا اسم ماء . إنما يقال له ماء بمعنى ماء ورد . وماء شجر كذا . وماء مفصل كذا . وجسد كذا . وكذلك لو نحر جزورا وأخذ كرشها فاعتصر منه ماء لم يكن طهورا لأن هذا لايقع عليه اسم الماء إلا بالاضافة إلى شيء غيره . يقال ماء كرش . وماء مفصل . كما يقول ماء ورد وماء شجر كذا وكذا فلا يجزى أن يتوضأ بشيء من هذا » .

لعلنا نلاحظ فى هذا الفصل القصير من باب الطهارة فى كتاب الأم أن الشافعى يبدأ الفصل مرتبطا بسبب من أسباب العبادة وهو الوضوء . والوضوء تطهر من الحدث الأصغر . وهو فى الوقت ذاته نظافة . والشافعى يستهل استهلالا قرآنيا . مبينا أن الطهارة لاتكون أصلا إلا بالماء . ثم يتبع الآية القرآنية بعدد من الأحاديث النبوية الشريفة التى تحدد طبيعة الماء الطاهر الذى يجوز به الاغتسال والوضوء . فإذا ماوثق القضية قرآنيا وسنة . انطلق بعقليته الفقهية يستعرض ويفرع ويستنبط تحليلا وتحريما على النحو الذى رأيناه . شارحا المسائل مصدرا للأحكام .

ثم ينتقل الشافعي بعد ذلك إلى الحديث عن الماء الذى ينجس والماء الذى لاينجس . ويقسم الماء إلى ماء جار وماء راكد . ويبين متى وكيف يكون الماء الجارى طاهرا أو نجسا . وكذلك الحال بالنسبة للماء الراكد . ومتى وكيف يكون طاهرا أو نجسا . يصنع الشافعي ذلك من خلال نظرة دقيقة وعرض حسن مفصل واستنباط بارع ذكى .

واذا كان لنا أن نختار نموذجا آخر لقضية من القضايا التى عالجها الشافعى فى كتاب « الأم » فليكن ذلك أحد موضوعات باب أوكتاب الصيد والذبائح . وقد يحسن أن تكون المسألة التى نعرض لها متسمة بالغرابة موصوفة بالطرافة ولذلك فإننا نقدم موضوع أكل لحوم الحمر الأهلية .

« أخبرنا مالك عن شهاب عن عبد الله والحسن ابنى محمد بن على عن أبيهما عن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أن النبى ﷺ نهى عام خيبر عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية . قال الشافعى سمعت سفيان يحدث عن الزهرى أخبرنا عبد الله والحسن ابنا محمد بن على وكان الحسن أرضاهما عن على رضى الله عنه . قال الشافعى : فى هذا الحديث دلالتان إحداهما تحريم أكل لحوم الحمر الأهلية . والأخرى إباحة لحوم حمر الوحش . لأنه لاصنف من الحمر إلا الأهلى والوحشى . فإذا قصد رسول الله ﷺ بالتحريم قصد الأهلى . ثم وصفه دل على أنه أخرج الوحشى من التحريم . وهذا مثل نهيه عن كل ذى ناب من السباع . فقصد بالنهى قصد عين دون عين . فحرّم مانهى عنه وحلّ ماخرج من تلك الصفة سواء . مع أنه قد جاء عن رسول الله ﷺ إباحة أكل حمر الوحش . أمر أبا بكر رضى الله عنه أن يقسم حمارا وحشيا قتله أبو قتادة بين الرفقة . وحديث طلحة أنهم أكلوا معه لحم حمار وحشى .

قال الشافعى : وخلق الحمر الأهلية يباين خلق الحمر الوحشية مباينة يعرفها أهل الخبرة بها . فلو توحش أهلى لم يحل أكله وكان على الأصل فى التحريم . ولو استأهل وحشى لم يحرم أكله . وكان على الأصل فى التحليل » .

إن الشافعى هنا أيضاً يعرض لقضية فقهية ينتهى فيها إلى حكم فقهى من

خلال حديث للرسول يتناوله الشافعى بالفهم الجلىّ والتحليل المنطقى مع الاستعانة بجملة من الأخبار تؤيد رأيه . قد لا يكون من الأهمية بمكان موضوع استحلال أكل لحوم حمر الوحش إذا ماقورن بموضوع آخر كالزواج والطلاق والميراث والحدود أو العبادات . ولكن الفقيه يتغلغل فى الحياة بكل جوانبها . ويتلمس الأسباب الشرعية لإصدار أحكام صائبة لاتتنافى مع الدين فى كل ما يتصل بحياة الناس من قريب أو بعيد فى كل زمان ومكان .

ولعلنا قد لاحظنا أن الكتاب مروى بلسان الربيع، ومن ثم لا يكون الشافعى قد أمسك قلما وسطر كل قضية من قضاياه . فبعضه ألقى على أسماع التلاميذ والمريدين . وبعضه كتب بخط الإمام ، ذلك أن الأخبار تفيد بأنه كان يطلب من جارية أن تشعل له المصباح فى بعض الليالى نحوا من ثلاثين مرة ، لكى يكتب خاطرة شرعية ، أو يسجل فتوى لمسألة فقهية سنحت الإجابة عنها، وخاف إن هو لم يسارع إلى تقييدها ليلا على القرطاس هربت مع فلول جيوش الظلام .

ومهما كان الأمر فكتاب الأم مصدر أصيل من مصادر الفقه الإسلامى . وهو ثمرة جنية غالية لفكر عالم فذ وفقيه ملهم وإمام مستنير .

— ٥ —

كتاب الرسالة :

كتاب « الرسالة » هو أشهر كتب الشافعى على الإطلاق . إنه ليس من الضخامة بحيث يضارع كتاب « الأم » حجما . فهو من هذه الناحية أصغر بكثير . ولكن الفرق بين الكتابين من حيث القيمة والإبداع . صحيح أن كتاب « الأم » من أوثق كتب الفقه الإسلامى . وأكثرها غناء بالمسائل . وأوسعها تناولا للقضايا وأرحبها تفصيلا للفروع . ولكن هناك من كتب الفقه العدد الوفير الذى يحفل بكل جليل من القضايا . وكل خطير من المسائل . وكل دقيق من الأحكام .

فالتراث الفقهى الإسلامى من الوفرة والنفاسة بحيث يشكل ظاهرة فكرية حضارية عالمية . وليس إسلامية وحسب . فلقد تنافس الفقهاء وتسابق أصحاب المذاهب إلى تقديم مذاهبهم للمسلمين وتيسيرها لأفهامهم . وجعلها سهلة التقبل لديهم ملبية لحاجاتهم . وذلك بالإكثار من التأليف وضرب الأمثال بالمسائل المتشعبة مع إجادة التخريج وحسن الاستنباط . فكان التأليف فى الفقه كثيرا ووفيرا حتى لايكاد المتخصص يقوى على حصر كتب الفقهاء أو الإحاطة بكل تآليفهم .

أما كتاب « الرسالة » فيمثل نمطا جديدا من التأليف الدينى الإسلامى . وطرازا فريدا فى المنهج العلمى الذى وصل بصاحبه إلى نتائج وضعته هو وكتابه فى رتبة الخالدين . ذلك أن الشافعى برسالته هذه قد وضع الأصول الأولى – على أرجح الروايات – لعلم أصول الفقه . هذا علما بأن الزركشى ذكر أن الشافعى ألف كتبا أخرى فى الموضوع ذاته هى كتاب أحكام القرآن . واختلاف الحديث وإبطال الاستحسان . وجماع العلم . وكتاب القياس .

ومهما يكن الأمر فكتاب الرسالة هو العمل العلمى الكبير الذى فرض نفسه بجدارة على الفكر الإسلامى . بل على العقل الإنسانى ، فقد ترجم إلى غير العربية على الرغم من أن قارئه بالعربية يصادف نصبا إذا هو لم يكن مؤهلا لقراءته من قبل بخلفية فقهية إسلامية .

والأمر الغريب فى كتاب الرسالة أنه ألف مرتين . المرة الأولى فى مكة(٨) وكان الشافعى آنذاك حديث السن رطب العود غض الإهاب . ولكن حلقة دروسه فى الكعبة كانت تمتد وتتسع بحيث تصل إلى حلقة شيخه . والمرة الثانية فى مصر بعد أن استقر بها . وكان آنذاك يناهز الخمسين عمرا . ولذلك يطلق على الرسالة الأولى الرسالة القديمة . ويطلق على الثانية المصرية الرسالة الجديدة .

لم يكتب الشافعى الرسالة متطوعا . وإنما كتبها امتثالا لمن لايستطيع أن

---

(٨) هكذا يرى المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر محقق الكتاب فى مقدمته له ص ١١

يرفض له طلبا أو يرد له رجاء . ولاشك أن السمعة العلمية الطيبة المبكرة التى ذاعت عن الشافعى كانت وراء ذلك التكليف .

فقد كتب إليه عبد الرحمن بن مهدى « أن يضع له كتابا فيه معانى القرآن ويجمع فنون الأخبار فيه . وحجة الإجماع . وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة فوضع له كتاب الرسالة(٩) » .

وكان من الطبيعى أن يستجيب العالم الشاب لتوجيه الإمام الحافظ عبد الرحمن بن مهدى فيكتب هذا الكتاب الحافل بكل جليل من الأحكام مما جعل عبد الرحمن بن مهدى يقرظه قائلا : « لما نظرت الرسالة للشافعى أذهلتنى لأننى رأيت كلام رجل عاقل فصيح ناصح . فإنى لأكثر الدعاء له » ولنا أن نقف بعض الوقت حيال قول الإمام ابن مهدى وهو يقرر أن رسالة الشافعى أذهلته . فإذا ماعرفنا أن ابن مهدى (١٣٥ – ١٨٥هـ) كان إمام زمانه فى البصرة فى الفقه والحديث . وأن الشافعى يقول فى وصفه : لا أعرف له نظيرا فى الدنيا . أدركنا إلى أى مدى كان الشافعى مجددا فى كتابه منجزا فيه من القضايا المتعلقة بالعقيدة مالم يسبق إليه أو يبارى فيه .

على أن الفخر الرازى يرى أن كتاب الرسالة الأول كتبه الشافعى إبان وجوده فى بغداد وليس فى مكة . ولما وفد إلى مصر واستقر فيها مقامه أعاد تأليفه وأن فى كل من الرسالة المؤلفة فى بغداد وتلك الأخرى التى ألفت فى مصر علما كثيرا .

وأيا ماكان الأمر بالنسبة للرسالة الأولى وما إذا كان الشافعى كتبها فى مكة أو بغداد . فإن الرسالة الثانية قد كتبت فى مصر . وأنها هى نفسها ذلك الكتاب النفيس الذى ين أيدينا . أما الرسالة الأولى فقد فقدت بين مافقد من كتب الشافعى الأخرى .

---

(٩) تاريخ بغداد ٢/٦٤ .

وإذا ماعرفنا أن الشافعى دخل مصر سنة ١٩٩ [١٠] وتوفى بها سنة ٢٥٤ أى أنه أقام بها خمس سنوات ليس غير كانت خاتمة حياته المباركة الخصبة المعطاءة، أدركنا أو رجحنا أن كتاب الرسالة كان آخر كتاب ألفه الشافعى وضمنه خلاصة علمه وعصارة تجاربه وجوهر فكره . ومن ثم استحق أن يحتفل به وأن يكون مصدرا أصوليا للعلوم الفقهية وعلوم الحديث .

أملى الشافعى كتاب الرسالة إملاء على الربيع بن سليمان تلميذه وصاحبه . ولم تكن مكتبته مصاحبة له . وهو يقرر ذلك فى قوله حول تأليف الرسالة « وكل حديث كتبته منقطعا فقد سمعته متصلا أو مشهورا عمن روى عنه بنقل عامة من أهل العلم يعرفونه عن عامة . ولكنى كرهت وضع حديث لا أتقنه حفظا . وغاب عنى بعض كتبى . وتحققت بما يعرفه أهل العلم مما حفظت . فاختصرت خوف طول الكتاب . فأتيت ببعض مافيه الكفاية دون تقصى العلم فى كل مرة » .

وبيت القصيد فى هذا الخبر هو تقرير الشافعى أنه ألف الرسالة أو أملاها وبعض كتبه غائبة عنه . ولكن الحقيقة التى لامراء فيها أن عقل الشافعى كان مكتبة قائمة بذاتها . تختزن ماحفظت من علم . وما وعت من أحكام . ثم تحللها وتربط بعضها ببعض . وتنسق محتواها . وتنتهى إلى تخريج علم جديد متصل الأسباب بالكتاب العزيز مرتبط الأساس بالسنة الشريفة.

على أن لدينا رأيا عارضا لم نرغب فى أن تنتهى هذه المقدمة دون إثباته . فقد ذهب العالم الجليل المرحوم الشيخ محمد أحمد شاكر صاحب الجهد المشكور فى تحقيق هذا الكتاب الجليل وغيره من الكتب الإسلامية الجليلة إلى أن الشافعى لم يطلق على كتابه اسم « الرسالة » . وإنما أطلق عليه اسم الكتاب . وربما شارك الشيخ فى هذا الرأى بعض الباحثين من العلماء الأجلاء المعاصرين ولقد أشار الشيخ إلى عبارات للإمام ترددت فى عدد من صفحات الرسالة بقوله « الكتاب »

---

(١٠) تاريخ بغداد ٦٤/٢ .

أو «كتابى» أو «كتابنا» . ومن ثم وقر فى خاطر الشيخ المحقق أن هذا هو عنوان الكتاب[11] . والحقيقة أن تلك الملاحظة لاتنتهى إلى هذه النتيجة فكلنا يكتب كتبا ويطلق على كل كتاب عنوانا بعينه . غير أننا إذا تحدثنا عن هذا الكتاب أو ذاك فى المقدمة أو فى المتن لانذكر عنوان الكتاب المرسوم على غلافه . وإنما نقول «كتابنا» أو «الكتاب» تماما كما فعل الشافعى وهو يتحدث عن الرسالة .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد عرفت الرسالة منذ أن كتبها الإمام الشافعى بهذا العنوان وظل هذا العنوان يتردد على أفواه العلماء إلى يومنا هذا .

كان المزنى وهو تلميذ الشافعى ومريده يسميها باسمها الحقيقى وهو الرسالة . ويقول : «قرأت الرسالة خمسمائة مرة . مامن مرة إلا استفدت منها فائدة جديدة» . ويقول مرة أخرى : «أنا أنظر فى الرسالة منذ خمسين سنة ما أعلم أنى نظرت فيها مرة إلا استفدت منها شيئا لم أكن أعرفه» . ومع ذلك لم يقل أحد للمزنى أن هذا الذى قرأته خمسمائة مرة ليس «الرسالة» ولكنه «الكتاب» .

وكذلك لم يشر أحد من شراحها والمنتفعين بمحتواها من العلماء على مر العصور بأن عنوانها ليس «الرسالة» بل اسمها «الكتاب» .

هذه ملاحظة عابرة أردنا أن نسجلها على عجل حتى لايختلط الأمر على القراء فيطلقوا على الشىء مالايتفق مع اسمه .

موضوعات الرسالة :

قلنا إن كتاب الرسالة يعتبر المحاولة الأولى عند أئمة المسلمين لوضع أسس علم الأصول . وهذا رأى الأكثرين من الباحثين المشتغلين بالعلوم الإسلامية منذ أن كتب الشافعى رسالته إلى يومنا هذا .

والمستعرض «للرسالة» يستطيع أن يلمس القدرة التى وهبها الله للإمام القرشى فى عرض المسائل عرضا جليا يـجمع ين العمق والأصالة والبيان وبراعة

---

(11) مقدمة المحقق ص ١٢ .

الحوار وحسن الاستنباط ودقة الاستشهاد بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة . كل ذلك فى نطاق من سلامة المنهج الفكرى . وانطلاق السياق البيانى . مع امتلاك لناصية القضايا الفقهية . وتمكن من رواية الأحاديث النبوية . وحسن استحضار الآيات القرآنية .

إن استهلال الكتاب نفسه يعتبر خير دليل على محتواه . فهو حديث نقى فى حمد الله سبحانه وتعالى وتمجيده . ودعوات طاهرة فى الهداية والاستغفار . ثم هو بعد ذلك استعراض لحال الناس قبل رسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه . أهل الكتاب منهم وعبدة الأصنام والنجوم وما فى حكمها . ثم اصطفاء الله محمدا نبيا ورسولا يهديهم سبل السلام . وتفضيله إياه على خلقه . وبعثه أول الأمر لعشيرته الأقربين .

وينتقل الشافعى فى مقدمته إلى الحديث عن القرآن الكريم وسبل هدايته للعالمين . ثم يتبع ذلك بالحديث عن العلم . وطبقات الناس فيه . وموقعهم منه . ودرجاتهم حياله .

ويختم الإمام استهلاله لكتاب الرسالة بعدد من الآيات المحكمات الموصولة الأسباب بالكتاب العزيز مثل قوله تعالى :

« وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ » وقوله تعالى « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَاكُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىَ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

وتبدأ مقدمة الرسالة هكذا :

« قال أبو القاسم عبد الرحمن بن نصر . قال : حدثنا أبو على الحسن بن حبيب . قال : حدثنا الربيع بن سليمان قال :

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف المطلبى . ابن عم رسول الله ﷺ :

« الحمدُ لله الذِّي خَلَقَ السَّموَاتِ والأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ والنُّور ، ثُمَّ الذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » .

والحمد لله الذى لايؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة منه . تُوجب على مؤدى ماضى نعمه بأدائها : نعمة حادثة يجب عليه شكره بها .

ولا يبلغ الواصفون كنه عظمته . الذى هو كما وصف نفسه . وفوق ما يصفه به خلقه .

أحمده حمدا كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله .

وأستعينه استعانة من لاحول له ولا قوة إلا به .

وأستهديه بهداه الذى لايضل من أنعم به عليه .

وأستغفره لما أزلفت وأخرت : استغفار من يقر بعبوديته . ويعلم أنه لا يغفر ذنبه ولا ينجيه منه إلا هو .

وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وَحده لاشريك له . وأن محمدا عبده ورسوله . بعثه والناس صنفان :

أحدهما : أهل كتاب . بدلوا من أحكامه . وكفروا بالله . فافتعلوا كذبا صاغوه بألسنتهم . فخلطوه بحق الله الذى أنزل إليهم .

فذكر تبارك وتعالى لنبيه من كفرهم . فقال :

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ ،

وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»(١٢).

ثم قال : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ : هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَوَيْلٌ لَهُم مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » .

وقال تبارك وتعالى : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ : عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى : الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ، ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ، يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ . قَاتَلَهُمُ اللهُ . أَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟ ! اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ . وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا . لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ . سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(*)» .

وقال تبارك وتعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : هَٰؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا(١٣) » .

وصنف كفروا بالله فابتدعوا مالم يأذن به الله . ونصبوا بأيديهم حجارة وخشبا وصورا استحسنوها . ونبزوا(١٤) أسماء افتعلوها . ودعوها آلهة عبدوها . فإذا استحسنوا غير ما عبدوا منها ألقوه ونصبوا بأيديهم غيره فعبدوه : فأولئك العرب .

---

(١٢) سورة آل عمران ٧٨ .

(*) سورة التوبة: ٣٠، ٣١.

(١٣) سورة النساء (٥١، ٥٢).

(١٤) « نبزوا » أى لقبوا . والمصدر « النبر » بسكون الباء . والاسم « النبز » بفتحها .

وسلكت طائفة من العجم سبيلهم فى هذا . وفى عبادة ما استحسنوا من حوت ودابة ونجم ونار وغيره .

فذكر الله لنبيه جوابا من جواب بعض من عبد غيره من هذا الصنف . فحكى جل ثناؤه عنهم قولهم :

« إِنَّا وَجَدْنَا آباءَنا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُون[١٥] » .

وحكى تبارك وتعالى عنهم : « لاتَذَرُنَّ آلِهتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً . وَقَدْ أَضَلُّوا كَثيراً[١٦] » .

وقال تبارك وتعالى : « وَاذْكُرْ فى الْكِتَابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كان صِدِّيقاً نبِيًّا . إِذْ قَالَ لأَبِيهِ : يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنْكَ شَيْئاً ؟ ! [١٧] » .

وقال : « وَاتلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهيمَ . إِذْ قالَ لأَبيهِ وَقَوْمِهِ : مَا تَعْبُدُونَ ؟ قالُوا : نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . قالَ : هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ؟ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ؟ ! [١٨] » .

وقال فى جماعتهم يذكرهم من نعمه . ويخبرهم ضلالتهم عامة . وَمَنَّهُ على من آمن منهم :

« وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعداءً فَأَلَّفَ بيْنَ قُلُوبِكُمْ

---

(١٥) سورة الزخرف (٢٣) .

(١٦) سورة نوح (٢٣ . ٢٤) .

(١٧) سورة مريم (٤١ – ٤٢) .

(١٨) سورة الشعراء (٦٩ – ٧٣) .

فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا . كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[19] » .

قال : فكانوا قبل إنقاذه إياهم بمحمد ﷺ : أهل كفر فى تفرقهم واجتماعهم . يجمعهم أعظم الأمور : الكفر بالله . وابتداع مالم يأذن به الله . تعالى عما يقولون علوا كبيرا . لا إله غيره . وسبحانه وبحمده . رب كل شيء وخالقه .

مَن حى منهم فكما وصف حاله حيا : عاملا قائلا بسخط ربه . مزدادا من معصيته .

ومن مات فكما وصف قوله وعمله : صار إلى عذابه .

فلما بلغ الكتاب أجله . فحق قضاء الله بإظهار دينه الذى اصطفى . بعد استعلاء معصيته التى لم يرض . فتح أبواب سماواته برحمته . كما لم يزل يجرى – فى سابق علمه عند نزول قضائه فى القرون الخالية – : قضاؤه .

فإنه تبارك وتعالى يقول : « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ[20] » .

فكان خيرته المصطفى لوحيه . المنتخب لرسالته . المفضل على جميع خلقه . بفتح رحمته . وختم نبوته . وأعم ما أرسل به مرسل قبله . المرفوع ذكره مع ذكره فى الأولى . والشافع المشفع فى الأخرى . أفضل خلقه نفسا . وأجمعهم لكل خلق رضيه فى دين ودنيا . وخيرهم نسبا ودارا : محمدا عبده ورسوله .

وعرفنا وخلقه نعمه الخاصة . العامة النفع فى الدين والدنيا فقال :

---

(١٩) سورة آل عمران (١٠٣) .

(٢٠) سورة البقرة (٢١٣) .

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[٢١] » .

وقال : « لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا[٢٢] » . وأم القرى : مكة . وفيها قومه .

وقال : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ[٢٣] » .

وقال : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ؛ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ[٢٤] » .

قال الشافعى : أخبرنا ابن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله : « **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ** » .

قال : يقال : ممن الرجل ؟ فيقال : من العرب . فيقال : من أى العرب ؟ فيقال : من قريش[٢٥] .

قال الشافعى : وما قال مجاهد من هذا بَيِّنٌ فى الآية . مستغنًى فيه بالتنزيل عن التفسير .

فخص جل ثناؤه قومه وعشيرته الأقربين فى النذارة[٢٦] . وعم الخلق بها

---

(٢١) سورة التوبة (١٢٨) .

(٢٢) سورة الشورى (٧) .

(٢٣) سورة الشعراء (٢١٤) .

(٢٤) سورة الزخرف (٤٤) .

(٢٥) الأثر رواه أيضا الطبرى فى التفسير (٢٥ : ٤٦) عن عمرو بن مالك عن سفيان .

(٢٦) ضبطت فى الأصل بكسر النون . قال فى القاموس : « النَّذِيرُ : الإنذار . كالنَّذَارة . بالكسر . وهذه عن الإمام الشافعى رضى الله عنه » . قال الزبيدى : « قلت : وجعله ابن القطاع [نذرت بالشيء] إذا علمته » .

بعدهم . ورفع بالقران[٢٧] ذكر رسول الله . ثم خص قومه بالنذارة إذ بعثه . فقال :

« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ » .

وزعم بعض أهل العلم بالقرآن أن رسول الله قال :

---

(٢٧) لفظ « قران » ضبطه المحقق فى كل موضع ورد فيه فى « الرسالة » بضم القاف وفتح الراء مخففة وتسهيل الهمرة . وذلك اتباعا للامام الشافعى – مؤلف الرسالة – فى رأيه وقراءته . قال الخطيب فى تاريخ بغداد (ج ٢ ص ٦٢) « أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى بن الفضل الصرفى بنيسابور قال نا أبو العباس محمذ بن يعقوب الأصم قال نا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم المصرى قال نا الشافعى محمد بن إدريس قال نا إسماعيل بن قسطنطين قال : قرأت على شبل . وأخبر شبل أنه قرأ على عبد الله بن كثير . وأخبر عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد ، وأخبر مجاهد أنه قرأ على ابن عباس . وأخبر ابن عباس أنه قرأ على أبىّ. وقال ابن عباس : وقرأ أبىّ على النبى ﷺ . قال الشافعى : وقرأت على إسماعيل بن قسطنطين . وكان يقول : (القران) اسم . وليس بمهموز . ولم يؤخذ من (قرأت) ولو أخذ من (قرأت) لكان كل ما قرىء قرآنا . ولكنه اسم للقران . مثل التوراة والإنجيل . يهمز (قرأت) ولا يهمز (القران) . وإذا قرأت القران : يهمز (قرأت) ولا يهمز (القران) » . وهذا الإسناد رواه الحافظ ابن حجر فى توالى التأسيس (ص ٤٢) بإسناده إلى الخطيب . واختصر المتن . ثم قال : « هذا حديث حسن متصل الإسناد بأئمة الحديث » . ونقل فى لسان العرب فى مادة (قرأ) نحو هذا عن الشافعى . وزاد : « وقال أبو بكر بن مجاهد المقرىء : كان أبو عمرو بن العلاء لا يهمز القران) . وكان يقرؤه كما روى عن ابن كثير » . ونقل الحافظ ابن الجزرى فى طبقات القراء عن الشافعى عن ابن قسطنطين نحو ما نقل الخطيب (١ : ١٦٦) وهذا النقل عن الشافعى نقل رواية للقراءة واللغة . ونقل رأى ودراية أيضا . فإن قراءة ابن كثير– قارىء مكة – معروفة أنه يقرأ لفظ (قران) بدون همز . والشافعى ينقل توجيه ذلك من جهة اللغة والمعنى . ولا يرده . فهو يعتبر رأيا له حين أقره . وهو حجة فى اللغة دراية ورواية . قال ابن هشام – صاحب السيرة المشهورة – : « جالست الشافعى زمانا فما سمعته تكلم بكلمة إلا إذا اعتبرها المعتبر لا يجد كلمة فى العربية أحسن منها » . وقال أيضا : « الشافعى كلامه لغة يحتج بها » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ! إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي أن أُنْذِرَ عَشِيرَتِي الأَقْرَبِينَ . وأَنْتُمْ عَشِيرَتِي الأَقْرَبُونَ[٢٨] » .

قال الشافعي : أخبرنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله : « وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ » .

قال : لا أذكر إلا ذكرت معي : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .

يعني . والله أعلم : ذكره عند الإيمان بالله والأذان . ويحتمل ذكره عند تلاوة الكتاب . وعند العمل بالطاعة . والوقوف عن المعصية .

فصلى الله على نبينا كلما ذكره الذاكرون . وغفل عن ذكره الغافلون . وصلى عليه في الأولين والآخرين . أفضل وأكثر وأزكى ماصلى على أحد من خلقه . وزكانا وإياكم بالصلاة عليه . أفضل مازكى أحدا من أمته بصلاته عليه . والسلام عليه ورحمة الله وبركاته . وجزاه الله عنا أفضل ماجزى مرسلاً عن من أرسل إليه ، فإنه أنقذنا به من الهلكة . وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس .

---

(٢٨) يقول الشيخ شاكر : لم أجد هذا الحديث بهذا اللفظ في أي كتاب من كتب السنة . ويظهر لي من تعبير الشافعي بقوله « وزعم بعض أهل العلم بالقرآن » أنه لم يكن حديثا مرويا عنده بالإسناد . بل هو من الأحاديث التي كانت تدور على ألسنة المفسرين . كمثل الأحاديث التي تدور في كتب الفقه والأصول على ألسنة الفقهاء والأصوليين . وكثير من هذه الأنواع لا يعرفه أهل العلم بالحديث . نعم قد روى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : « قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله [وأنذر عشيرتك الأقربين] قال : يامعشر قريش ! – أوكلمة نحوها – اشتروا أنفسكم . لا أغني عنكم من الله شيئا ، ياعباس بن عبد المطلب ! لا أغني عنك من الله شيئاً » الحديث . واللفظ للبخاري . انظر فتح الباري (٨ : ٢٨٦) . وروى مسلم (١ : ٧٦) وغيره من حديث قبيصة بن المخارق وزهير بن عمرو قالا : لما نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين] انطلق نبي الله ﷺ إلى رضمة من جبل فعلا أعلاها حجرا، ثم نادى: يا بني عبد مناق! إني نذير» الحديث. وجاءت أحاديث أخرى بهذا المعنى. انظر الدر المنثور (٥ : ٩٥ – ٩٨) ولكن ليس في شيء منها ما يوافق اللفظ الذي هنا : أنه قال لهم : « وانتم عشيرتي الأقربون » .

دائنين بدينه الذى ارتضى . واصطفى به ملائكته ومن أنعم عليه من خلقه . فلم تمس بنا نعمة ظهرت ولا بطنت . نلنا بها حظا فى دين ودنيا . أو دفع بها عنا مكروه فيهما وفى واحد منهما إلا ومحمد صلى الله عليه سببها . القائد إلى خيرها . والهادى إلى رشدها . الذائد عن الهلكة وموارد السّوء فى خلاف الرشد . المنبه للأسباب التى تورد الهلكة . القائم بالنصيحة فى الإرشاد والإنذار فيها . فصلى الله على محمد وعلى آل محمد . كما صلى على إبراهيم وآل إبراهيم . إنه حميد مجيد .

وأنزل عليه كتابه فقال :

« وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لا يأتيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ؛ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(٢٩) » .

فنقلهم من الكفر والعمى . إلى الضياء والهدى . وبيَّنَ فيه ما أحل منا بالتوسعة على خلقه . وما حرم لما هو أعلم به من حظهم فى الكف عنه فى الآخرة والأولى . وابتلى طاعتهم بأن تعبدهم بقول وعمل . وإمساك عن محارم حماهموها . وأثابهم على طاعته من الخلود فى جنته . والنجاة من نقمته : ماعظمت به نعمته . جل ثناؤه .

وأعلمهم ما أوجب على أهل معصيته من خلاف ما أوجب لأهل طاعته .

ووعظهم بالأخبار عمن كان قبلهم . ممن كان أكثرمنهم أموالا وأولادا . وأطول أعمارا . وأحمد آثارا . فاستمتعوا بخلاقهم فى حياة دنياهم . فأذاقهم عند نزول قضائه مناياهم دون آمالهم . ونزلت بهم عقوبته عند انقضاء آجالهم . ليعتبروا فى أنف الأوان(٣١) . ويتفهموا بجلية التبيان . ويتنبهوا قبل رين الغفلة(٣٢) . ويعملوا قبل انقطاع المدة . حين لايعتب مذنب . ولا تؤخذ

(٢٩) سورة فصلت (٤١ و ٤٢) .

(٣٠) « الخلاق » الحظ والنصيب من الخير . قال الزمخشرى فى الكشاف : « هو ما خلق للإنسان : أى قدر : من خير . كما قيل له قسم : لأنه قسم . ونصيب . لأنه نصيب : أى أثبت » .

(٣١) « الأنف » بضمتين : الجديد المستأنف . يريد هنا : فيما يستقبل من الأوان .

(٣٢) « الرين » : الطبع والتغطية . وكل ما غطى شيئا فقد ران عليه .

فدية . و« تَجِدُ كلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً . وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبينَهُ أَمَدًا بَعِيدًا »[٣٣] .

فكل ما أنزل فى كتابه – جل ثناؤه – رحمة وحجة . علمه من علمه . وجهله من جهله . لا يعلم من جهله . ولا يجهل من علمه .

والناس فى العلم طبقات . موقعهم من العلم بقدر درجاتهم فى العلم به .

فحق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم فى الاستكثار من علمه . والصبر على كل عارض دون طلبه . وإخلاص النية لله فى استدراك علمه : نصا واستنباطا . والرغبة إلى الله فى العون عليه . فإنه لايدرك خير إلا بعونه .

فإن من أدرك علم أحكام الله فى كتابه نصا واستدلالا . ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه . فاز بالفضيلة فى دينه ودنياه . وانتفت عنه الريب . ونورت فى قلبه الحكمة . واستوجب فى الدين موضع الإمامة .

فنسأل الله المبتدئ لنا بنعمه قبل استحقاقها . المديمها علينا . مع تقصيرنا فى الإتيان على ما أوجب به من شكره بها . الجاعلنا فى خير أمة أخرجت للناس : أن يرزقنا فهما فى كتابه . ثم سنة نبيه . وقولا وعملا يؤدى به عنا حقه . ويوجب لنا نافلة مزيده .

قال الشافعى : فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها .

قال الله تبارك وتعالى : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الحَمِيدِ[٣٤] » .

وقال : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَانُزِّلَ إِلَيْهِم وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[٣٥] » .

---

(٣٣) سورة آل عمران (٣٠) . وهذا اقتباس . وأول الآية (يوم تجد كل نفس) .

(٣٤) سورة إبراهيم (١) . (٣٥) سورة النحل (٤٤) .

وقال : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ[٣٦] » .

وقال : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانَ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى به مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[٣٧] » .

بعد هذه المقدمة البليغة التى وشاها الشافعى بالآيات القرآنية الجليلة وتوخى أن تكون كل آية فى موضعها . وتلك ميزة لاتتوفر إلا لعدد قليل من العلماء . ينطلق الشافعى معالجا الموضوعات التى ترتبط بهدف الرسالة . والتى جعلت من هذا الكتاب حدثا جديدا فى دنيا التأليف الإسلامى مما حدا بصفوة علماء المسلمين إلى اتخاذه الأساس لعلم الأصول .

يستهل الشافعى موضوعات « الرسالة » بالحديث عن البيان . والبيان هنا ليس البيان اللغوى وحسب وإنما هو البيان الدينى . فينبه إلى ماقد أبان الله لخلقه من فرائض، ومن أوامر ونواه، وما أحكم الله فرضه، وما سنه رسوله ﷺ، ويجعل من الاجتهاد فرضا أوجبه الله على المسلمين . ويبين وجوه الاجتهاد وطرائقه .

ويضرب الشافعى الأمثال من القرآن الكريم . المثل تلو الآخر . وكل مثل مرتبط بموضوعه ونبراس له . إنه يذكر قول الله عز وجل :

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُمَا كُنْتُم فَوَلُّوا وُجُوهَكُم شَطْرَهُ » .

---

(٣٦) سورة النحل (٨٩) .

(٣٧) سورة الشورى (٥٢) .

ثم ينتقل الشافعى إلى التمثيل بآية أخرى من السورة ذاتها وهى سورة البقرة . وإن لم تكن الآيتان متتاليتين وهى قوله تعالى :

« وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ ماكُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ » .

ثم يربط الشافعى بين أحكام الآيتين قائلا : فدلهم جل ثناؤه إذا غابوا عن عين المسجد الحرام إلى صواب الاجتهاد مما فرض عليهم منه بالعقول التى ركب فيهم . المميزة بين الأشياء وأضدادها . والعلاقات التى نصب لهم دون عين المسجد الحرام الذى أمرهم بالتوجه شطره فقال :

« وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهاَ فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ » .

ثم يتبع هذه الآية من سورة الأنعام بآية أخرى مكملة لمعناها من سورة النحل وهى قوله تعالى :

« وَعَلاَمَاتٍ وبالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » .

ويمضى الشافعى شارحا مبينا قائلا : فكانت العلامات جبالا وليلا ونهارا . فيها أرواح – يعنى رياح – معروفة الأسماء . وإن كانت مختلفة المهابّ . وشمس وقمر ونجوم معروفة المطالع والمغارب والمواضع من الفلك . ففرض عليهم الاجتهاد بالتوجه شطر المسجد الحرام مما دلهم عليه مما وصفت . فكانوا ماكانوا مجتهدين غير مزايلين أمره جل ثناؤه . ولم يجعل لهم إذا غاب عنهم عين المسجد الحرام أن يصلوا حيث شاءوا .

وها نحن نقدم هنا الباب الذى جعل الشافعى عنوانه : « كيف البيان » :

« قال الشافعى : والبيان اسم جامع لمعانى مجتمعة الأصول . متشعبة الفروع .

فأقل ما فى تلك المعانى المجتمعة المتشعبة : أنها بيان لمن خوطب بها ممن نزل

القرآن بلسانه . متقاربة الاستواء عنده . وإن كان بعضها أشد تأكيد بيان من بعض . ومختلفة عند من يـجهل لسان العرب .

قال الشافعي : فجماع ما أبان الله لخلقه فى كتابه . مما تَعَبَّدَهُمْ به . لما مضى من حكمه جل ثناؤه — : من وجوه :

فمنها : ما أبانه لخلقه نصا . مثل جمل فرائضه . فى أن عليهم صلاة وزكاة وحجا وصوما ، وأنه حرم الفواحش، ما ظهر منها وما بطن . ونص الزنا والخمر وأكل الميته والدم ولحم الخنزير . وبين لهم كيف فرض الوضوء . مع غير ذلك مما بين نصا.

ومنه : ما أحكم فرضه بكتابه . وبَيَّنَ كيف هو على لسان نبيه . مثل عدد الصلاة والزكاة ووقتها . وغير ذلك من فرائضه التى أنزل من كتابه[٣٨] .

ومنه : ما سنَّ رسول الله ﷺ مما ليس لله فيه نص حكم . وقد فرض الله فى كتابه طاعة رسوله ﷺ والانتهاء إلى حكمه . فمن قبل عن رسول الله فبفرض الله قبل .

ومنه : مافرض الله على خلقه الاجتهاد فى طلبه . وابتلى طاعتهم فى الاجتهاد . كما ابتلى طاعتهم فى غيره مما فرض عليهم .

فإنه يقول تبارك وتعالى : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصابرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ[٣٩] » .

---

(٣٨) يعنى الفرائض والأحكام التى جاءت فى القرآن . مجملة النصوص . لم تذكر هيئاتها ولا تفاصيلها . وبينها رسول الله ﷺ فى سنته القولية والعملية . والفرق بين هذا النوع وبين النوع الذى قبله : أن الأول فى أصل الفرض وأصل الحكم . كالصلاة : أصل فرضها ثابت بالكتاب . فهذا من النوع الأول . وتفصيل مواقيتها وعدد ركعاتها ثابت بالسنة القولية والعملية . فهذا من النوع الثانى . ومثل تحريم الربا : أصله ثابت بالكتاب نصا . فهذا من النوع الأول . وتفصيل ما يدخل فيه الربا . وكيف هو فى التطبيق العملى : ثابت بالسنة القولية . فهذا من النوع الثانى . وهكذا .

(٣٩) سورة محمد (٣١) .

وقال : « وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ[٤٠] » .

وقال : « عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ[٤١] » .

قال الشافعي : فَوَجَّهَهُمْ بالقبلة إلى المسجد الحرام . وقال لنبيه :
« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ[٤٢] » .

وقال : « وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ[٤٣] » .

فَدَلَّهم جل ثناؤه إذا غابوا عن عين المسجد الحرام على صواب الاجتهاد . مما فرض عليهم منه . بالعقول التي ركب فيهم . المميزة بين الأشياء وأضدادها . والعلامات التي نصب لهم دون عين المسجد الحرام الذي أمرهم بالتوجه شطره .
فقال : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ[٤٤] » . وقال : « وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ[٤٥] » .

(٤٠) سورة آل عمران (١٥٤) .
(٤١) سورة الأعراف (١٢٩) .
(٤٢) سورة البقرة (١٤٤) .
(٤٣) سورة البقرة (١٥٠) .
(٤٤) سورة الأنعام (٩٧) .
(٤٥) سورة النحل (١٦) .

فكانت العلاماتُ جبالا وليلا ونهارا . فيها أرواح[٤٦] معروفة الأسماء . وإن كانت مختلفة المهاب . وشمس وقمر ونجوم . معروفة المطالع والمغارب والمواضع من الفلك .

ففرض عليهم الاجتهاد بالتوجه شطر المسجد الحرام . مما دلهم عليه مما وصفت . فكانوا ما كانوا مجتهدين غير مزايلين أمره جل ثناؤه . ولم يجعل لهم إذا غاب عنهم عين المسجد الحرام أن يصلوا حيث شاءوا .

وكذلك أخبرهم عن قضائه فقال :

« أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى[٤٧] » .

والسدى الذى لايؤمر ولا ينهى .

وهذا يدل على أنه ليس لأحد دون رسول الله أن يقول إلا بالاستدلال . بما وصفت فى هذا وفى العدل وفى جزاء الصيد . ولايقول بما استحسن . فإن القول بما استحسن شيء يحدثه لا على مثال سبق .

فأمرهم أن يشهدوا ذوى عدل . والعدل أن يعمل بطاعة الله . فكان لهم السبيل إلى علم العدل والذى يخالفه .

وقد وضِعَ هذا فى موضعه . وقد وَضَعْتُ جملا منه . رجوت أن تدل على ماوراءها . مما فى مثل معناها .

لقد أطلق الشافعى على هذا الباب حسبما رأينا عنوان «كيف البيان » ، أى أنه يعلّم الدارس كيف يكون البيان فى كتاب الله سبحانه وتعالى . ولكنه يرى أن ذلك – وقد نرى نحن معه أيضا – غير مسعف بالقدر الكافى ، فيعود ويخصص

---

(٤٦) « الأرواح » : جمع ريح . قال الجوهرى : « الريح واحدة الرياح والأرياح . وقد تجمع على أرواح . لأن أصلها الواو . وإنما جاءت بالياء لانكسار ما قبلها . فإذا رجعوا إلى الفتح عادت إلى الواو » . وأنكر بعضهم جمعها على « أرياح » وقالوا إنه شاذ .

(٤٧) سورة القيامة (٣٦) .

أبوابا خمسة لنماذج من البيان فى القرآن الكريم . كل باب منها يعالج فرضا من فروض التكليف . أو قضية متصلة الأسباب بأصول العقيدة . ففى « البيان الأول» يعالج قضية عدد الأيام في الصيام، سواء أكان الصيام فرضا أم نافلة أم قضاء أم جزاء أم بيانا لعدد أيام شهر رمضان. وقد تتصل الأعداد بأسباب أخرى . إنما الشاهد الذى يعتمد عليه الشافعى هو تمثله بالآيات القرآنية الكريمة فيما يتصل بالأعداد . مستنبطا منها قواعد وأحكاماً . مقررا من فهمه لها مبادىء وأصولا :

يقول الشافعى فى « البيان الأول »(٤٨)

قال الله تبارك وتعالى فى التمتع : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بالْعُمْـرَةِ إلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْى فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فى الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إذَا رَجَعْـتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ ، ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى المَسْجِدِ الْحَرَامِ »(٤٩)

فكان بيّناً عند من خوطب بهذه الآية أن صوم الثلاثة فى الحج . والسبع فى المرجع عشرة أيام كاملة .

قال الله تعالى « تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ » فاحتملت أن تكون زيادة فى التبيين . واحتملت أن يكون : أعلمهم أن ثلاثة إذا جمعت إلى سبع كانت عشرة كاملة .

مثال آخر يتمثله الإمام الشافعى . وهو قوله تعالى :

« وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْـلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً »(٥٠)

---

(٤٨) الرسالة ص ٢٦ .
(٤٩) البقرة الآية ١٩٦ .
(٥٠) الأعراف الآية ١٤٢ .

يقول الشافعى : فكان بيّنًا عند من خوطب بهذه الآية أن ثلاثين وعشرا ، أربعون ليلة . وقوله « أربعين ليلة » يحتمل ما احتملت الآية قبلها من أن تكون : إذا جمعت ثلاثون إلى عشر كانت أربعين ، وأن تكون زيادة فى التبيين .

ويضرب الشافعى مثلا ثالثا حول البيان فى فريضة الصيام ، وذلك فى قوله تعالى :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِين مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ »(٥١) .

وفى قوله تعالى : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ »(٥٢)

يقول الشافعى : فافترض عليهم الصوم ، ثم بيّن أنه شهر ، والشهر عندهم ما بين الهلالين ، وقد يكون ثلاثين ، وتسعا وعشرين . فكانت الدلالة فى هذا كالدلالة فى الآيتين ، وكان فى الآيتين قبله زيادة تبين جماع العدد .

ثم ينتهى الشافعى إلى إصدار حكمه فى نطاق التبيين قائلا : وأشبه الأمور بزيادة تبيين جملة العدد فى السبع والثلاث ، وفى الثلاثين والعشر أن تكون زيادة فى التبيين ، لأنهم لم يزالوا يعرفون هذين العددين وجماعه ، كما لم يزالوا يعرفون شهر رمضان .

على هذا النسق من البيان ، أو بالحرى من التبيين يمضى الشافعى يختار قضايا بعينها من القرآن والسنة ذات صلة بالأحكام الشرعية محللا ومفصلا ، رابطا بين

---

(٥١) البقرة الآيتان ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٥٢) البقرة الآية ١٨٥

بعضها وبعض حتى يجليها ويبينها . وهو فى ذلك يقف من عامة المسلمين موقف المعلم الإمام . ومن العلماء موقف المرشد الأستاذ .

ويضم كتاب « الرسالة » أبوابا رائدة . ودراسات مرشدة . ونظرات فاحصة فى الكتاب العزيز مثل : « مانزل من الكتاب عاما يراد به العام ويدخله الخصوص »(٥٣) و « ما أنزل من الكتاب عام الظاهر وهو يجمع العام والخصوص(٥٤) » و « بيان ما نزل من الكتاب عام الظاهر يراد به كله الخاص(٥٥) » .

إنها جميعا دراسات عميقة واعية متسمة بالأصالة معنية بالإفاضة تدور كلها حول الكتاب العزيز والقضايا المتعلقة بما جاء من أصول وأحكام مما لا غنى لدارس عن معرفته . ولا لمتفقه عن إدراكه واستيعابه .

ويظفر موضوع الناسخ والمنسوخ من الآيات بدراسة طويلة من لدن الإمام الجليل . إن « الناسخ والمنسوخ » من الموضوعات الدقيقة التى لا يهجم على تناولها إلا من حاز صفات خاصة وكان على مستوى رفيع من فهم علوم القرآن وهضمها .

يبين الشافعى فى دراسته هذه أن القرآن لا ينسخه إلا قرآن وأن السنة لا يمكن أن تكون ناسخة له . وإنما هى تبع له بمثل ما نزل نصا . ومفسرة معنى ما أنزل الله منه مجملا .

كأن الشافعى وقد انتقل إلى الرفيق الأعلى قبل اثنى عشر قرنا من الزمان قد تنبأ بأن بعض المجدفين فى الدراسات الإسلامية دون ما استعداد أو فهم سوف يجيئون فى زماننا لكى يهرفوا بما لا يعرفون حول النص القرآنى العزيز فى زمان قصر فيه الباحثون . ونكص فيه أصحاب القدرة على البيان . وذاع الجهل وانتشر الادعاء فى العلم .

---

(٥٣) الرسالة ص ٥٣ .

(٥٤) الرسالة ص ٥٦ .

(٥٥) الرسالة ص ٥٨ .

إن الشافعي يسوق القضايا وهو مستحضر دائما المثل فى عقله وقلبه وخاطره : إنه يتمثل بقوله تعالى :

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَاَل الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِى أنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِىَ ، إنْ أَتَّبعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَىَّ ، إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يومٍ عَظِيمٍ »[٥٦]

فالله سبحانه فرض على رسوله أن يتبع ما يوحى إليه . ولم يجعل له أن يبدل شيئا من الكتاب . بل لم يجعل له أن يبدل حرفا من الكتاب . ومن ثم فإنه لا ينسخ كتاب الله إلا كتابه . ويعزز الشافعي المبدأ بأنه لا ينسخ القرآن إلا قرآن بقوله تعالى :

« مَانَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها ، أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِير»[٥٧].

إن الشافعي يمضى على رسله فى هذا الباب النفيس من « الرسالة »موضحا كيف ينسخ القرآن السنّة . وكيف تنسخ السنّة السنّة . كما يبين الناسخ والمنسوخ الذى يدل الكتاب على بعضه . والذى تدل السنة على بعضه[٥٨].

ويخصص الشافعي فى رسالته للفرائض مكانا رحيبا . إنه يخصص بابا للفرائض التى أنزل الله نصا . والفرائض المنصوصة التى سَنّ رسول الله معها . والفرض المنصوص الذى دلت السنة على أنه إنما أراد الخاص . وجمل الفرائض من صلاة وزكاة وصوم وحج .

وربما كانت موضوعات الشافعي فى جمل الفرائض فى كتاب « الأم » أكثر

---

(٥٦) سورة يونس الآية ١٥ .

(٥٧) البقرة الآية ١٠٦ .

(٥٨) الرسالة ص ١١٣ .

شمولا وأدق تفصيلا . فإن طبيعة المنهج والمقصد فى كتاب « الرسالة » تختلف عنها فى كتاب « الأم » فكتاب الرسالة قصارى اهتمامه بأصول الفقه . وأما كتاب الأم فموضوعه الفقه مجردا والأحكام مفصلة .

فإذا ماكان الأمر متصلا بحديث رسول الله ﷺ . فإن الشافعى يفسح له فى رسالته مكانا رحيبا . ويفرد له دراسة وافية تقارب ربع حجم الكتاب .

إنه يجعل لدراسة الأحاديث الشريفة عنوانا ربما كان من قبيل تسمية الكل باسم الجزء ، لأن العنوان الذى اختاره الشافعى لهذه الدراسة هو (باب العلل فى الأحاديث) مع أن الدراسة من الشمول . بحيث تتجاوز هذا العنوان . ومن العمق بحيث تتعدى مفهوم التسمية المختارة .

لقد أولى الشافعى فى دراسته تلك حديث رسول الله من العناية وحسن العرض ، ودقة التناول وصدق الفهم وأمانة القصد ما جعله جديرا بلقب ناصر الحديث . والحقيقة أن هذه الدراسة الوافية الشافية منهجا ومقصدا يمكن أن يطلق عليها اسم « فقه الحديث » تمييزا لها عن موضوع مصطلح الحديث .

إن كتاب الرسالة بجماع أبوابه من النفاسة بمكان . ولكن لعل أهم موضوعاته هى تلك التى تناولتها هذه الأبواب : باب العلم . باب الإجماع . باب القياس . باب الاجتهاد ، باب الاستحسان . باب الخلاف .

لقد درج الشافعى – على عادته – على الجلاء مع العمق . والبيان مع الدقة ، والإفاضة مع التأصيل . الأمر الذى يجعلنا نفضّل أن نثبت هنا بعض هذه الأبواب بلغة الشافعى وأسلوبه .

باب العلم

قال الشافعى : فقال لى قائل : ما العلم ؟ وما يجب على الناس فى العلم ؟

فقلت له : العلم علمان : علم عامة لا يسع بالغاً غير مغلوب على عقله جهله .

قال : ومثل ماذا ؟

قلت : مثل الصلوات الخمس . وأن لله على الناس صوم شهر رمضان . وحج البيت إذا استطاعوه . وزكاة فى أموالهم . وأنه حرم عليهم الزنا والقتل والسرقة والخمر . وما كان فى معنى هذا . مما كلف العباد أن يعقلوه ويعملوه ويعطوه من أنفسهم وأموالهم . وأن يكفوا عنه : ما حرم عليهم منه .

وهذا الصنف كله من العلم موجود نصا فى كتاب الله . وموجود عاما عند أهل الإسلام . ينقله عوامهم عن من مضى من عوامهم . يحكونه عن رسول الله . ولا يتنازعون فى حكايته ولا وجوبه عليهم .

وهذا العلم العام الذى لا يمكن فيه الغلط من الخبر . ولا التأويل . ولا يجوز فيه التنازع .

قال : فما الوجه الثانى ؟

قلت له : ما ينوب العباد من فروع الفرائض . وما يخص به من الأحكام وغيرها ، مما ليس فيه نص كتاب . ولا فى أكثره نص سنة . وإن كانت فى شيء منه سنة فإنما هى من أخبار الخاصة . لا أخبار العامة . وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياساً .

قال : فيعدو هذا أن يكون واجباً وجوب العلم قبله ؟ أو موضوعاً عن الناس علمه . حتى يكون من علمه منتفلا ومن ترك علمه غير آثم بتركه ؟ أو من وجه ثالث . فَتوجِدْنَاهْ خبراً أو قياساً ؟

فقلت له : بل هو من وجه ثالث .

قال : فصفه واذكر الحجة فيه . ما يلزم منه . ومن يلزم . وعن من يسقط ؟

فقلت له : هذه درجة من العلم ليس تبلغها العامة . ولم يكلفها كل الخاصة . ومن احتمل بلوغها من الخاصة فلا يسعهم كلهم كافة أن يعطلوها ، وإذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية لم يحرج غيره ممن تركها . إن شاء الله . والفضل فيها لمن قام بها على من عطلها .

فقال : فأوجدنى هذا خبراً أو شيئاً فى معناه . ليكون هذا قياساً عليه ؟

فقلت له : فرض الله الجهاد فى كتابه وعلى لسان نبيه ثم أكد النفير من الجهاد فقال :

« إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجيل وَالقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُمُ الذِى بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذٰلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ »(٥٩) .

وقال : « قاتِلوا الْمشْرِكِينَ كافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كافةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمتَّقِينَ »(٦٠) .

وقال : « اقْتُلُوا الْمشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُم ، إِنَّ اللهَ غَفُور رَّحِيمٌ »(٦١) .

---

(٥٩) سورة التوبة (١١١) .

(٦٠) سورة التوبة (٣٦) .

(٦١) سورة التوبة (٥) .

وقال : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ »(٦٢) .

أخبرنا عبد العزيز بن محمد عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« لاَ أَزالُ أُقاتِلُ الناسَ حتى يقولوا لا إله إلاَّ الله . فإذا قالوها عَصَمُوا منّى دماءَهم وأموالَهم إلاَّ بحقِّها ، وحسابُهم على الله » .

وقال الله جل ثناوه : « مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ، أَرَضِيتُمْ بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ، فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ . إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمُ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »(٦٣) .

وقال : « انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »(٦٤) .

قال : فاحتملت الآيات أن يكون الجهاد كله والنفير خاصة منه على كل مطيق له . لا يسع أحداً منهم التخلف عنه . كما كانت الصلوات والحج والزكاة . فلم يخرج أحد وجب عليه فرض منها من أن يؤدى غيره الفرض عن نفسه . لأن عمل أحد فى هذا لا يكتب لغيره .

واحتملت أن يكون معنى فرضها غير معنى فرض الصلوات . وذلك أن يكون

---

(٦٢) سورة التوبة (٢٩) .

(٦٣) سورة التوبة (٣٨ و ٣٩) .

(٦٤) سورة التوبة (٤١) .

قصد بالفرض فيها قصد الكفاية . فيكون من قام بالكفاية فى جهاد من جوهد من المشركين مدركاً تأدية الفرض ونافلة الفضل ، ومخرجا من تخلف من المأثم .

ولم يسو الله بينهما ، فقال الله : « لاَ يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالمُجَاهِدُون فى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللهُ الْمجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً »[٦٥] .

فأما الظاهر فى الآيات فالفرض على العامة[٦٦] .

قال : فأين الدلالة فى أنه إذا قام بعض العامة بالكفاية أخرج المتخلفين من المأثم ؟

فقلت له : فى هذه الآية .

قال : وأين هو منها ؟

قلت : قال الله « وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحسْنَى » .

فوعد المتخلفين عن الجهاد الحسنى على الإيمان . وأبان فضيلة المجاهدين على القاعدين . ولو كانوا آثمين بالتخلف إذا غزا غيرهم – كانت العقوبة بالإثم – إن لم يعفو الله – أولى بهم من الحسنى .

قال : فهل تجد فى هذا غير هذا ؟

قلت : نعم . قال الله :

« وَمَا كَانَ المؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ، فَلَوْلاَ نَفَر مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ

---

(٦٥) سورة النساء (٩٥) .

(٦٦) هذه الجملة من كلام الشافعى . يريد أن ظاهر الآيات فى الأمر بالقتال أنه فرض عين . ثم هو يريد أن يشرح ما دعاه إلى القول بغير ظاهرها . فى صورة السؤال والجواب .

لِّيَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون »[٦٧] .

وغَزا رسولُ الله وغَزَّى معه من أصحابه جماعةً وخلَّفَ أُخرَى . حتى تخلف على بن أبى طالب فى غزوة تبوك . وأخبرنا الله أن المسلمين لم يكونوا لينفروا كافة :

« فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ »

فأخبرَ أن النفير على بعضهم دون بعض . وأن التفقه إنما هو على بعضهم دون بعض .

وكذلك ما عدا الفرض فى عظم(*) الفرائض التى لا يسع جهلها . والله أعلم .

وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصوداً به قصد الكفاية فيما ينوب . فإذا قام به من المسلمين من فيه الكفاية خرج من تخلف عنه من المأثم .

ولو ضيعوه معاً خفت أن لا يخرج واحد منهم مطيق فيه من المأثم . بل لا أشك إن شاء الله . لقوله :

« إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً »[٦٨] .

قال : فما معناها ؟

قلت : الدلالة عليها أن تخلفهم عن النفير كافة لا يسعهم ؛ ونفير بعضهم – إذا كانت فى نفيره كفاية – يخرج من تخلف من المأثم . إن شاء الله . لأنه إذا نفر بعضهم وقع عليهم اسم « النفير » .

قال : ومثل ماذا سوى الجهاد ؟

---

(٦٧) سورة التوبة الآية ١٢٢ .

(٦٨) سورة التوبة الآية ٣٩ .

(*) عظم بضم العين وسكون الظاء يعنى معظم .

قلت : الصلاة على الجنازة ودفنها . لا يحل تركها ولا يجب على كل من بحضرتها كلهم حضورها ، ويخرج من تخلف من المأثم من قام بكفايتها .

وهكذا رد السلام . قال الله :

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا »(٦٩) .

وقال رسول الله : « يُسَلِّمُ القائم عَلَى القَاعِدِ » . و « إِذَا سَلَّمَ من القومِ واحدٌ أجزأ عنهم(٧٠) »

وإنما أريد بهذا الرد . فرد القليل جامع لاسم « الرد » والكفاية فيه مانع لأن يكون الرد معطلا .

ولم يزل المسلمون على ما وصفت . منذ بعث الله نبيه - فيما بلغنا - إلى اليوم يتفقه أقلهم . ويشهد الجنائز بعضهم . ويجاهد ويرد السلام بعضهم . ويتخلف عن ذلك غيرهم . فيعرفون الفضل لمن قام بالفقه . والجهاد وحضور الجنائز ورد السلام . ولا يؤثّمون من قصر عن ذلك . إذا كان بهذا قائمون بكفايته .

---

(٦٩) سورة النساء (٨٦) .

(٧٠) يعلق محقق الرسالة فيقول هذان حديثان . ولكن في الموطأ (ج ٣ ص ١٣٢) : « مالك عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال : يسلم الراكب على الماشي . وإذا سلم من القوم واحد أجزأ عنهم » . وأخرج الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « يسلم الصغير على الكبير . والمارّ على القاعد . والقليل على الكثير » . له ألفاظ أخرى . وانظر عون المعبود (ج ٤ ص ٥١٦ – ٣١٧) وفتح الباري (ج ١١ ص ١٣ – ١٤) وصحيح مسلم (ج ٢ ص ١٧٤) . وروى أبو داوود (ج ٤ ص ٥٢٠) من حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً « يجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم . ويجزىء عن الجلوس أن يردّ أحدهم » . وفي إسناده سعيد بن خالد الخزاعي المدني . وفيه ضعف من قبل حفظه . وفي الباب حديث بمعناه من رواية الحسن بن علي . نسبه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٨ ص ٣٥) إلى الطبراني . وقال : « وفيه كثير بن يحيى . وهو ضعيف » .

باب الإجماع

قال الشافعي : فقال لى قائل : قد فهمت مذهبك فى أحكام الله ثم أحكام رسوله ، وأن من قبل عن رسول الله فعن الله قبل ، بأن الله افترض طاعة رسوله ؛ وقامت الحجة بما قلت بأن لا يحل لمسلم علم كتاباً ولا سنة أن يقول بخلاف واحد منهما . وعلمت أن هذا فرض الله . فما حجتك فى أن تتبع ما اجتمع الناس عليه . مما ليس فيه نص حكم لله . ولم يحكوه عن النبي ؟ أتزعم ما يقول غيرك أن إجماعهم لا يكون أبداً إلا على سنة ثابتة وإن لم يحكوها ؟ !

قال : فقلت له : أما ما اجتمعوا عليه فذكروا أنه حكاية عن رسول الله ؛ فكما قالوا . إن شاء الله .

وأما ما لم يحكوه . فاحتمل أن يكون قالوا حكاية عن رسول الله . واحتمل غيره . ولا يجوز أن نعده له حكاية . لأنه لا يجوز أن يحكى إلا مسموعاً ؛ ولا يجوز أن يحكى شيئاً يتوهم . يمكن فيه غير ما قال .

فكنا نقول بما قالوا به اتباعاً لهم . ونعلم أنهم إذا كانت سنن رسول الله لا تعزب عن عامتهم . وقد تعزب عن بعضهم . ونعلم أن عامتهم لا تجتمع على خلاف لسنة رسول الله . ولا على خطأ . إن شاء الله .

فإن قال : فهل من شيء يدل على ذلك . وتشده به ؟

قيل : أخبرنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه : أن رسول الله قال :

« نَضَّرَ اللهُ عبداً » .

أخبرنا سفيان عن عبد الله بن أبى لبيد(٧١) عن ابن سليمان بن يسار(٧٢) عن أبيه :

---

(٧١) وعبد الله هذا مدنى ثقة . وكان من العباد المنقطعين . مات فى أول خلافة أبى جعفر

(٧٢) هو عبد الله بن سليمان بن يسار . كما أوضحه الحافظ فى تعجيل المنفعة وفى ترجمة عبد الله بن

«أن عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية فقال: إن رسول الله قام فينا كمقامي فيكم، فقال: ، فقال:

« أَكْرِمُوا أصحابِي . ثم الذين يَلُونَهُم . ثم الذين يَلُونَهُم . ثم يَظْهرُ الكذبُ . حتى إن الرجلَ لَيَحْلفُ ولا يُسْتَحْلفُ . ويَشْهَدُ ولا يُسْتَشْهَدُ . أَلاَ فَمنْ سَرَّهُ بَحْبَحةُ الجنة(٧٣) فَلْيَلْزَمِ الجماعةَ . فإن الشيطانَ مع الفَذِّ . وهو مِنَ الاثنين أَبْعَدُ . ولا يخْلُوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ . فإن الشيطانَ ثالثهم(٧٤) . ومن سَرَّتْهُ حسنته . وساءته سَيِّئَتُه فهو مؤمنٌ »(٧٥) .

أبي لبيد من التهذيب . وفي سائر النسخ « عن سليمان بن يسار » بحذف « ابن » وهي ثابتة في الأصل . وحذفها خطأ، لأن يساراً والد سليمان لم يعرف برواية أصلا. وإنما الرواة أبناؤه الأربعة: «عطاء» و « سليمان » و « عبد الله » و « عبد الملك » . فابن أبي لبيد روى هنا عن عبد الله بن سليمان عن سليمان . وسليمان بن يسار إمام تابعي مشهور . ويكنى « أبا تراب » ومات سنة ١٠٧ وهو ابن ٧٣ سنة . وكان هو واخوته موالي لميمونة بنت الحرث أمّ المؤمنين .

(٧٣) « البحبحة » بموحدتين مفتوحتين وحاءين مهملتين الأولى ساكنة والثانية مفتوحة . وهي التمكن في المقام والحول . يقال « تبحبح » الرجل و « بحبح » إذا تمكن في المقام والحلول وتوسط المنزل . و « البحبوحة » بضم البائين : وسط الدار أو المكان . ومعنى الكلمتين من أصل واحد ومادة واحدة .

(٧٤) قال المحقق في سائر النسخ « ثالثهما » وهو مخالف للأصل . وكلاهما صحيح عربية . يقال « فلان ثالث ثلاثة » و « رابع أربعة » وهكذا . ويقال أيضا « ثالث اثنين » و « رابع ثلاثة » . وانظر اللسان مادة (ث ل ث) .

ونسأل الله العصمة مما ابتلي به المسلمون من اختلاط الرجال بالنساء في عصرنا هذا . وخلوتهم بهن . ومراقصتهن ومخادنتهن . حتى أنكرنا بلاد الإسلام . وعشنا فيها أغرابًا كأنا لسنا من أهلها . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

(٧٥) الحديث بهذا الإسناد مرسل . لأن سليمان بن يسار لم يدرك عمر . ولم أجده بهذا الإسناد في غير هذا الموضع . ولكنه حديث صحيح معروف عن عمر . رواه أحمد في المسند من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن عمر . ومن طريق عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة عن عمر ورواه الطيالسي من الطريق الثاني أيضا (ص ٧) وكذلك روى ابن ماجه قطعة منه (ج ٢ ص ٣٤) . ورواه الترمذي في أبواب الفتن في باب لزوم الجماعة من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر (ج ٣ ص ٢٠٧ من شرح المباركفوري) ، وقال : حسن صحيح غريب من هذا الوجه » . وكذلك رواه=

قال : فما معنى أمر النبي بلزوم جماعتهم ؟

قلت : لا معنى له إلا واحد .

قال : فكيف لا يحتمل إلا واحدا ؟

قلت : إذا كانت جماعتهم متفرقة فى البلدان فلا يقدر أحد أن يلزم جماعة أبدان قوم متفرقين . وقد وجدت الأبدان تكون مجتمعة من المسلمين والكافرين والأتقياء والفجار . فلم يكن فى لزوم الأبدان معنى . لأنه لا يمكن . ولأن اجتماع الأبدان لا يصنع شيئا . فلم يكن للزوم جماعتهم معنى . إلا ما عليهم جماعتهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما .

ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التى أمر بلزومها . وإنما تكون الغفلة فى الفرقة ؛ فأما الجماعة فلا يمكن فيها كافة غفلة عن معنى كتاب ولا سنة ولا قياس . إن شاء الله .

= الحاكم فى المستدرك بأسانيد من طريق عبد الله بن دينار وصححه . ورواه أيضا من طريق عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه عن عمر . وصححه . ووافقه الذهبى (ج ١ ص ١١٣ - ١١٥) . وورد المعنى أيضا فى أحاديث صحاح . من حديث ابن مسعود وعمران بن حصين وعائشة وجعدة بن هبيرة . أشار إليها العجلونى فى كشف الخفا (رقم ١٢٦٥) .

باب القياس

قال : فمن أين قلت يقال بالقياس فيما لا كتاب فيه ولا سنة ولا إجماع ؟ أفالقياس نص خبر لازم قلت : لوكان القياس نص كتاب أو سنة قيل فى كل ما كان نص كتاب « هذا حكم الله » وفى كل ما كان نص السنة « هذا حكم رسول الله » . ولم نقل له « قياس »

قال : فما القياس ؟ أهو الاجتهاد ؟ أم هما مفترقان ؟

قلت : هما اسمان لمعنى واحد .

قال : فما جماعها ؟

قلت : كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم . أو على سبيل الحق فيه دلالة موجودة . وعليه إذا كان فيه بعينه حكم وجب اتباعه وإذا لم يكن فيه بعينه طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد . والاجتهاد القياس .

قال : أفرأيت العالمين إذا قاسوا على إحاطةٍ هم من أنهم أصابوا الحق عند الله ؟ وهل يسعهم أن يختلفوا فى القياس ؟ وهل كلفوا كل أمر من سبيل واحد أو سبل متفرقة ؟ وما الحجة فى أن لهم أن يقيسوا على الظاهر دون الباطن ؟ وأنه يسعهم أن يتفرقوا ؟ وهل يختلف ما كلفوا فى أنفسهم وما كلفوا فى غيرهم ؟ ومن الذى له أن يجتهد فيقيس فى نفسه دون غيره ؟ والذى له أن يقيس فى نفسه وغيره ؟

فقلت له : العلم من وجوه : منه إحاطة فى الظاهر والباطن . ومنه حق فى الظاهر .

فالإحاطة منه ما كان نص حكم لله أو سنة لرسول الله نقلها العامة عن العامة . فهذان السبيلان اللذان يشهد بهما فيما أُحِلّ أنه حلال . وفيما حُرِّمَ أنه حرام . وهذا الذى لا يسع أحداً عندنا جهله ولا الشك فيه

وعلم الخاصة سنة من خبر الخاصة يعرفها العلماء . ولم يُكَلَّفْهَا غيرهم ؛ وهى موجودة فيهم أو فى بعضهم . بصدق الخاص المخبر عن رسول الله بها . وهذا اللازم لأهل العلم أن يصيروا إليه . وهو الحق فى الظاهر ؛ كما نقتل بشاهدين. وذلك حق فى الظاهر . وقد يمكن فى الشاهدين الغلط .

وعلم إجماع .

وعلم اجتهاد بقياس . على طلب إصابة الحق . فذلك حق فى الظاهر عند قايسه . لا عند العامة من العلماء . ولا يعلم الغيب فيه إلا الله .

وإذا طلب العلم فيه بالقياس فقيس بصحة : أُيتفق المقايسون فى أكثره . وقد نجدهم يختلفون .

والقياس من وجهين : أحدهما أن يكون الشىء فى معنى الأصل . فلا يختلف القياس فيه . وأن يكون الشىء له فى الأصول أشباه ؛ فذلك يلحق بأولاها به وأكثرها شبها فيه . وقد يختلف القايسون فى هذا .

قال : فأَوْجَدَنِى ما أعرف به أن العلم من وجهين : أحدهما إحاطة بالحق فى الظاهر والباطن . والآخر إحاطة بحق فى الظاهر دون الباطن . مما أعرف ؟

فقلت له : أرأيت إذا كنا فى المسجد الحرام نرى الكعبة . أكلفنا أن نستقبلها بإحاطة ؟

قال : نعم .

قلت : وفرضت علينا الصلوات والزكاة والحج وغير ذلك ؛ أكلفنا الإحاطة فى أن نأتى بما علينا بإحاطة ؟

قال : نعم .

قلت : وحين فرض علينا أن نجلد الزانى مائة . ونجلد القاذف ثمانين . ونقتل من كفر بعد إسلامه . ونقطع من سرق . أكلفنا أن نفعل هذا بمن ثبت عليه بإحاطة نعلم أنا قد أخذناه منه ؟ قال نعم .

قلت : وسواء ما كلفنا فى أنفسنا وغيرنا . إذا كنا ندرى من أنفسنا بأنا نعلم منها ما لا يعلم غيرنا . ومن غيرنا ما لا يدركه علمنا عيانا كإدراكنا العلم فى أنفسنا ؟

قال : نعم .

قلت : وكلفنا فى أنفسنا أين ما كنا أن نتوجه إلى البيت بالقبلة ؟

قال : نعم .

قلت : أفتجدنا على إحاطة من أنا قد أصبنا البيت بتوجهنا ؟

قال : أما كما وجدتكم حين كنتم ترون فلا . وأما أنتم فقد أديتم ما كلفتم .

قلت : والذى كلفنا فى طلب العين المغيَّب غير الذى كلفنا فى طلب العين الشاهد قال : نعم :

قلت : وكذلك كلفنا أن نقبل عدل الرجل على ما ظهر لنا منه ، ونناكحه ونوارثه على ما يظهر لنا من إسلامه ؟

قال : نعم .

قلت : وقد يكون غير عدل فى الباطن ؟

قال : قد يمكن هذا فيه . ولكن لم تكلفوا فيه إلا الظاهر .

قلت : وحلال لنا أن نناكحه ونوارثه ونجيز شهادته ، ومحرم علينا دمه بالظاهر ؟ وحرام على غيرنا إن علم منه أنه كافر إلا قتله ومنعه المناكحة والموارثة وما أعطيناه ؟

قال : نعم .

قلت : وجد الفرض علينا فى رجل واحد مختلفا على مبلغ علمنا وعلم غيرنا ؟

قال : نعم . وكلكم مؤدى ما عليه على قدر علمه .

قلت : هكذا قلنا لك فيما ليس فيه نص حكم لازم . وإنما نطلب باجتهاد القياس . وإنما كلفنا فيه الحق عندنا .

قال : فتجدك تحكم بأمر واحد من وجوه مختلفة ؟

قلت : نعم . إذا اختلفت أسبابه .

قال : فاذكر منه شيئا .

قلت : قد يقر الرجل عندى على نفسه بالحق لله أو لبعض الآدميين ، فآخذه بإقراره ، ولا يقر ، فآخذه ببينة تقوم عليه ، ولا تقوم عليه بينة ، فيدعى عليه فآمره بأن يحلف ويبرأ ، فيمتنع ، فآمر خصمه بأن يحلف ، ونأخذه بما حلف عليه خصمه ، إذا أبى اليمين التى تبرئه ، ونحن نعلم أن إقراره على نفسه - بشحه على ماله . وأنه يخاف ظلمه بالشح عليه - أصدق عليه من شهادة غيره . لأن غيره قد يغلط ويكذب عليه ؛ وشهاده العدول عليه أقرب من الصدق من امتناعه من اليمين ويمين خصمه . وهو غير عدل[٧٦] ، وأُعْطِى منه بأسباب بعضها أقوى من بعض .

قال : هذا كله هكذا ، غير أنا إذا نكل عن اليمين أعطينا منه بالنكول[٧٧] .

قلت : فقد أعطيت بأضعف مما أعطينا منه ؟

قال : أجل ، ولكنى أخالفك فى الأصل .

قلت : وأقوى ما أعطيت به منه إقراره ، وقد يمكن أن يقر بحق مسلم ناسيا أو غلطا . فآخذه به ؟

قال : أجل ، ولكنك لم تُكَلَّفْ إلا هذا .

قلنا : فلست[٧٨] ترانى كُلِّفْتُ الحق من وجهين : أحدهما حق بإحاطة فى الظاهر والباطن . والآخر حق بالظاهر دون الباطن ؟

---

(٧٦) يعنى أن الخصم قد يكون غير عدل . ومع ذلك فقد أعطيناه دعواه بيمينه التى ردّها عليه المدعى عليه .

(٧٧) يعنى مذهب الأحناف الذين يعطون المدعى بنكول المدعى عليه . ولا يرون ردّ اليمين على المدعى .

(٧٨) استفهام محذوف الهمزة .

قال : بلى . ولكن هل تجد فى هذا قوة بكتاب أو سنة ؟

قلت : نعم : ما وصفت لك مما كلفت فى القبلة وفى نفسي وفى غيرى .

قال الله : « وَلاَ يُحيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمه إلا بِمَا شاَءَ »(79)

فآتاهم من علمه ما شاء . وكما شاء . لا معقب لحكمه . وهو سريع الحساب .

وقال لنبيه : « يَسْئَلونَكَ عن الساعةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أنتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إلَى رَبِّكَ مُنْتَاهَا »(80) .

سفيان عن الزهرى عن عروة قال : « لم يَزَلْ رسولُ الله يَسْئَلُ عن الساعةِ ، حتى أنزلَ الله عليه « فِيم أنتَ مِن ذِكْرَاهَا » فانْتَهَى »(81) .

وقال الله : « قُل لاَّ يَعْلَمُ مَنْ فى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إلاَّ اللهُ »(82) .

وقال الله تبارك وتعالى : « إنَّ اللهَ عِنْدَه عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فى الأَرْحَامِ ، ومَا تَدْرِى نَفْسٌ ماذَا تَكْسِبُ غَداً ، وما تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »(83) .

---

(79) سورة البقرة (255) .

(80) سورة النازعات (42 – 44) .

(81) هذا مرسل . وكذلك رواه مرسلاً سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه . ورواه البزار والطبرى وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه موصلا عن عائشة . كما فى الدر المنثور (6 : 314) .

(82) سورة النمل (65) .

(83) سورة لقمان (34) .

فالناس مَتَعَبَّدُونَ بأن يقولوا ويفعلوا ما أمروا به ، وينتهوا إليه ، لا يجاوزونه ، لأنهم لم يعطوا أنفسهم شيئاً . إنما هو عطاء الله . فنسأل الله عطاء مؤديا لحقه ، موجباً لمزيده ».

ومهما يكن الأمر فإن كتاب الرسالة للشافعى سواء نسخته المصرية التى بين أيدينا ، أم تلك التى ألفها فى صدر شبابه – فى مكة على قول وفى بغداد على قول آخر – عمل علمى فقهى حديثى قلما يتوافر له مثيل من حيث المنهج أو المحتوى أو طريقة معالجة القضايا وأسلوب استنباط الأحكام .

لقد قال شيخ محدثى العراق عبد الرحمن بن مهدى : لما نظرت الرسالة للشافعى أذهلتنى لأننى رأيت كلام رجل عاقل فصيح ناصح . وهذا الإطراء قاله عالم رفيع القدر عن النسخة الأولى التى كتبها الشافعى فى صدر شبابه ، والتى لم يصل متنها إلى أيدينا ، ومن البداهة بمكان أن النسخة التى كتبها فى مصر ، أو بعبارة أدق التى أعاد كتابتها فى مصر قد أضاف إليها الكثير ، وربما قام بالتعديل هنا والحذف هناك . فإن ما يكتبه العالم فى كهولته يكون أوفر نضوجا وأبعد عمقا من ذلك الذى يكتبه فى شبابه ، وهذا أمر طبيعى . فكثير من كتبنا التى ألفناها فى صدر شبابنا نعيد النظر فى بعض أحكامها حين تنفد طباعتها الأولى ونعيد طباعتها ، ومن المعلومات المسلم بصحتها أن الشافعى غيّر كثيرا من آرائه الفقهية بعد أن عاش فى مصر ، ومن ثم أعاد كتابة كتبه من جديد ومن بينها الرسالة ، وقد سلف القول أن الإمام أحمد بن حنبل سئل عن فقه الشافعى فى مكة والعراق وعن فقهه في مصر، وعلى أيها يعتمد، وبأيها يهتدى، فنصح بكتبه التى دونت فى مصر.

وإذا كانت ثمة ملاحظة فهى ملاحظة عابرة عن جانب من طريقة ترتيب « الرسالة » فالمؤلف الجليل بعد حديثه عن الفرائض من صلاة وزكاة وحج يتناول العدد – بكسر العين – مثل عدة التى مات زوجها وعدة المطلقة ، ثم يتبع ذلك بالحديث عن محرمات النساء ، ثم ينتقل إلى محرمات الطعام ، ثم يعود لكى ينتقل فجأة إلى باب العلل فى الأحاديث .

ربما بدأ للقارىء الخاص أن شيئا ما ينال من انسجام المنهج من خلال هذا الترتيب . ولكن السبب فى ذلك – فيما يبدو لنا – هو أن الشافعى كان يملى رسالته وهو فى مصر . بعكس الرسالة القديمة التى لم تصل إلينا فليس من شك فى أنه سجلها كتابة وليس إملاء .

ونحن نرجح أن التبويب الذى وصلت إلينا الرسالة على أساسه إنما هو من ترتيب الربيع تلميذ الشافعى ومتلقى أماليه .

ومهما كان الأمر فالعبرة بالمحتوى وليس بالشكل . فأما محتوى رسالة الشافعى فهو علم جديد فى سماء المعرفة الإسلامية . وأما الشكل فأيا ما كان نظمه أو ترتيبه فهو مقبول على العين والرأس . فقد يكون من الإجحاف أن نطبق شكليات المنهج الحديث على كتب يقصر العلماء المحدثون عن تأليف بعض ما يماثلها فضلا عن كامل مماثلتها .

– ٦ –

الشافعى ينتقل إلى الرفيق الأعلى :

إن العالم الجليل يونس بن عبدالأعلى تلميذ الشافعى وراويته يصف حال الإمام فى آخر لحظات حياته وهو يودع الدنيا ويستقبل الآخرة فيقول: « دخلت عليه فقال : يا أبا موسى اقرأ على ما بعد العشرين والمائة من آل عمران وأخف القراءة ولا تثقل » ويقرأ أبو موسى . فإذا انتهى وأراد الانصراف ينظر إليه الإمام الجليل المفارق الذى ملأ طباق الأرض علما ويقول له : « لا تغفل عنى فإنى مكروب » إنها كلمات لها وزنها ومعناها لصدورها ممن يعرف قدر الكلمات ويزن معانيها . إن الشافعى يريد أن يقول إنه مودع .

وهو لا يودع إلا وهو مستمع إلى كتاب الله . لقد كان من قبل يقرأ فى كل يوم ختمة وفى كل شهر ثلاثين ختمة . وكان فى رمضان يقرأ كل يوم ختمتين : واحدة بالنهار وأخرى بالليل أى أنه يقرأ القرآن فى رمضان ستين مرة .

إنه الآن غير مستطيع التلاوة لفرط ضعفه ، فليكن سامعا بعد أن كان قارئا ، متلوا عليه بعد أن كان تاليا . ويختار الإمام الآيات التى يستمع إليها لآخر مرة فى حياته . إن القرآن كله كتاب الله . وليس تفضل آية من آياته آية أخرى ، ولكن الآيات تمثل مواقف مختلفة ومن ثم يختار الشافعى الآيات من سورة آل عمران مما بعد المائة والعشرين . إنه يريد أن يستمع وهو فى طريق الآخرة إلى قول الله تعالى وهو يخاطب رسوله فى موقف من مواقف الامتحان :

« وإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ واللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِنْ الملائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ من الملائِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لكم وَلِتطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ به ومَا النصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ العزيزِ الحكيمِ [٨٤] .

ويريد الشافعى وهو فى الطريق إلى لقاء الله أن يستمع إلى مشيئة الله سبحانه وتعالى فى خلقه عذابا للعصاة ، وغفرانا للصالحين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والمستغفرين الله إذا أخطأوا أو ظلموا ممثلا فى قوله تعالى :

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ويُعذِّبُ من يشاء واللهُ غفورٌ رحيمٌ . يا أَيُّها الذينَ آمنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . واتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .

---

(٨٤) آل عمران ١٢١ - ١٢٦ .

وأطيعوا اللّهَ والرسُولَ لعَلّكُمْ تُرحَمُونَ. وسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماواتُ والأرضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الذينَ يُنْفِقُونَ فى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ والْعَافِينَ عَنِ الناس، واللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. والَّذِين إذا فَعَلُوا فَاحِشَةً أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فاسْتَغْفَرُوا لِذُنوبِهِم. وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنوبَ إِلاَّ الله. وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجرِى مِنْ تَحْتِها الأنهارُ خَالِدِينَ فِيَها ونِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» .(٨٥)

ويريد الشافعى وهو على فراش الموت أن يستمع بعض الآيات القرآنية التى تناولت الموت، فجميع خلق الله ميتون حتى سيد الخلق محمد ﷺ حق عليه الموت كما حق على سائر البشر. إن الشافعى يحسن الاستماع إلى يونس بن عبد الأعلى وهو يرتل فى رفق هذه الآيات الكريمة من قوله تعالى :

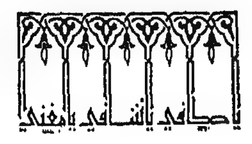
«وما محمدٌ إلاَّ رسولٌ قدْ خلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ على أَعْقَابِكُمْ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ. وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُـؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ. وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فى سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا. واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ واللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» .(٨٦)

(٨٥) آل عمران ١٢٩ - ١٣٦ . (٨٦) آل عمران ١٤٤ - ١٤٨

وليس من شك فى أن الشافعى كان يستمع بكل جوارحه . ويؤمن بجماع عقله وقلبه وأحاسيسه . ويهوّم فى سماء غير سمائنا . ويسبح فى دنيا غير دنيانا حين يسمع تلميذه. يوسف يرتل هذه الآيات من آخر سورة آل عمران :

« رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ؛ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ولا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لاَتُخْلِفُ الميعَادَ . فاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فالَّذِينَ هَاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوْا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، واللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَاب »(٨٧)

إن الله صادق الوعد وعنده حسن الثواب . نسأله أن يحسن ثواب العالم العامل الإمام . وأن يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عنده . والله عنده حسن الثواب .



(٨٧) آل عمران ١٩٣ - ١٩٥ .



الفصل الثامن

تلاميذ الشافعي

* **الحجازيون**

« محمد بن إدريس . إبراهيم بن محمد بن شافع . ابن أبي الجارود . أبو بكر الحُمَيْدِي » .

* **البغداديون**

« أحمد بن حنبل . أبو ثور الكلبي . الزعفراني . أبو عبد الرحمن الأشعري . الكرابيسي .

* **المصريون**

« البويطي . الربيع المرادي ، الربيع الجيزي . المزني ، يونس بن عبد الأعلى ، حرملة التّجيبي . محمد بن عبد الله بن عبد الحكم »



الفصل الثامن

تلاميذ الشافعي

خلف الشافعي تلاميذ كثيرين وصحابا نابهين عرفوا بالعلم واتصفوا بالفضل . شأن تلامذة الأئمة جميعا . فإن الذين يقتربون من القلة القليلة من سادة علماء البشرية ينهلون من معينهم العلمي والفكري والخلقي والسلوكي . وبذلك يصبحون حواريين مخلصين أتقياء . وقادة بررة أصفياء . ومعلمين بارزين أوفياء .

ولقد ترك الشافعي عددا غير قليل من الصحاب والتلامذة . ذلك أنه ألقى علمه في أقطار ثلاثة هي الحجاز، والعراق، ومصر، أو بالأحرى مكة وبغداد والفسطاط ؛ ومن ثم كان له تلامذة مكيون وآخرون بغداديون وغير أولئك مصريون . وإن كان الاعتماد على الصحاب المصريين فى فقه الشافعي هو الأساس . نظراً لأن آخر سنى حياة الشافعي كانت بمصر ؛ وفيها أعاد كتابة كتبه ونقّحها ؛ وأدخل عليها من التعديل ما قد رآه ضروريا ؛ ومن ثم كانت هى المعتمدة . وعليها المعوّل . وقد سئل الإمام ابن حنبل عن أفضل آراء الشافعي فأجاب بأنها هى تلك التى أفتى بها فى مصر . ومن ثم كانت الصحبة المصرية للشافعي . وكان الصحاب المصريون للشافعي هم الذين يمثلون فقهه أدق تمثيل .

على أن ذلك لا يمنع من أن نعرف بإيجاز بتلامذته المشهورين برغم اختلاف أقطارهم .

— ١ —

تلاميذ الشافعي الحجازيون :

قضى الشافعي فى الحجاز الجانب الأعظم من سنى حياته . طالبا دارسا ثم معلما فقيها إماما . ولو أننا استثنينا من حياة الشافعي السنوات الخمس التى

قضاها فى مصر والسنوات الثلاث التى قضاها على وجه التقريب فى العراق على فترتين . وسنتى الطفولة التى عاشها فى غزة وعسقلان . لكانت مدة حياته فى الحجاز قرابة اثنين وأربعين عاما . عاش جانبا منها فى البادية . والجانب الآخر وهو الأطول . عاشه فى الحرم المكى الشريف آخذا دارسا فى أول أمره . ثم منتقلا إلى المدينة المنورة متوفرا على الجلوس بين يدى مالك . ثم عائدا إلى مكة مستقرا حول الكعبة . وقد تحلّق من حوله نجباء الدارسين . وعلماء الوافدين . وصفوة المتفقهين .

وكان طبيعيا والأمر كذلك أن يترك الشافعى فى الحجاز قبل رحيله إلى بغداد ثم مصر عددا من تلامذته الذين التزموا الجلوس إليه حول الكعبة واحتفظوا بفقهه وفكره بعد هجرته النهائية من مكة .

محمد بن إدريس :

على أن أشهر تلامذة الشافعى الحجازيين أربعة أولهم سميّه محمد بن إدريس وكان يكنى بأبى بكر . وكان دائم الجلوس إلى الشافعى . طويل الصحبة له . كثير الأخذ عنه . ولكن لم يؤثر عنه شيء ذو خطر من فقه الإمام .

إبراهيم بن محمد بن شَافِع :

وثانى الأصحاب الحجازيين هو ابن عمه إبراهيم بن محمد بن العباس بن عمر بن شافع وكان يكنى بأبى أسحاق . ولقد نشأ أبو أسحاق فى بيت علم وفضل . فقد كان أبوه راوية حافظا . وكذلك كان جده لأمه محمد بن على بن شافع . ولقد أخذ أبو إسحاق قبل أن يلزم حلقة ابن عمه ويختص به عن الإمامين الجليلين حماد بن زيد وسفيان بن عيينة . وكان سفيان واحدًا من أساتذة الشافعى حسبما سلف القول . ثم صار بعد ذلك واحدا ممن يأخذون عنه . ويستعينون به فى تفسير المسائل وتوضيح القضايا .

هذا ولا يعرف عن أبى إسحاق أنه خلف كتبا أو رسائل فى فقه ابن عمه . بل لعل صلته به قد توقفت بعد أن ارتحل الإمام إلى مصر . وتوفى أبو إسحاق بمكة سنة ٢٣٧ هـ وفى رواية أخرى بعد ذلك بعام . وقد امتدحه رواة الحديث .

وأخذوا عنه . وأثنوا عليه . فقد أثنى عليه الإمام ابن حنبل . وروى عنه من أصحاب الكتب الستة ابن ماجه والنسائى . كما روى عنه مسلم خارج كتاب الصحيح [1]

ابن أبى الْجَارُود :

وثالث الأصحاب الحجازيين هو موسى بن أبى الجارود المشهور بأبى الوليد المكى الفقيه .

كان ابن أبى الجارود من أنشط تلامذة الشافعى الحجازيين . فقد روى عن أستاذه حديثا كثيرا كما روى عنه الأمالى . وإن أصحاب كتب الطبقات والمناقب يعتبرون ابن أبى الجارود واحدا من كبار الفقهاء المكيين على مذهب الشافعى بما وعى عن أستاذه من فقه . وبما سجل عنه من حديث وكتب عنه من مسائل . ورجحوا أن يكون ما سجله من فقه لا يخرج عما كان يقول الشافعى به قبل خروجه إلى بغداد . ونحن من جانبنا نرجح أن ابن أبى الجارود زار أستاذه فى مصر . وإذا حاولنا الاحتياط فى الاستنتاج قلنا إنه غير مستبعد أن يكون قد جاء إلى مصر لأنه فيما تذكر الأخبار قد أخذ عن البويطى المصرى صاحب الشافعى وخليفته فى حلقته وسوف يأتى حديثه بعد قليل . هذا وربما يكون ابن أبى الجارود روى عن البويطى أثناء سجنهما فى بغداد معاً فى فتنة خلق القرآن . فإن ابن أبى الجارود يقول : كان البويطى جارى فما كنت أنتبه ساعة من الليل إلا سمعته يقرأ ويصلى [2] . كما أخذ عنه الربيع بن سليمان المرادى المصرى تلميذ الشافعى وصاحبه . وتلك هى القرينة التى تجعلنا نرجح زيارة ابن أبى الجارود للشافعى فى مصر مع من كانوا يفدون إليه من العراق والحجاز واليمن .

أبو بكر الْحُمَيْدِى :

والصاحب الحجازى الرابع للإمام هو أبو بكر الحُمَيْدِى واسمه عبد الله بن الزبير . وكان على علم وفضل . أخذ عن سفيان بن عيينة ثم عن الإمام

---

(١) تهذيب التهذيب ١٥٤/١ .

(٢) تاريخ بغداد ٣٠٠/١٤ .

الشافعي .. وصار بعد ذلك من خاصة صحابه . وقد قيل عنه إنه ثقة إمام . روى عنه أصحاب الكتب الستة، وروى البخارى عنه خمسة وسبعين حديثا .

وقد ذكر أصحاب التراجم أنه ذهب مع الشافعي إلى مصر . وهذا يعنى أنه صحبه فى رحلته وأنه خرج معه . فأما أنه كان مع الشافعي فى مصر فذلك أمر لا شك فيه . وأما أنه خرج معه بمعنى مرافقته فى الرحلة منذ بدايتها فذلك أمر يحتاج إلى ترو وبحث . إن الفقيه المحدث محمد بن عبد الرحمن الهروى يقول : قدمت مكة عقب وفاة ابن عيينة فسألت عن أجلّ أصحابه . فقالوا الحميدى [٣] . وقال أبو حاتم هو أثبت الناس فى ابن عيينة وهو رئيس أصحابه . وقد توفى ابن عيينة سنة ١٩٨ . والشافعي غادر مكة إلى العراق فى تلك الآونة أو بعدها بقليل . وبقى فى العراق أشهرا ثم ارتحل إلى مصر فوصل إليها فى السنة التالية الأمر الذى يوحى إلينا أن الحميدى لحق بالشافعي بمصر ولم يصحبه إليها . وإلا كان عليه أن يصطحبه إلى العراق أولا . ويمكث معه فى العراق أشهرا . ثم يستأنف معه الرحلة إلى مصر . وهو ما لا توحى به الرواية .

ومهما يكن الأمر فإن أبا بكر الحميدى قد لحق بالشافعي وارتحل إلى مصر ولزمه طوال السنوات التى عاشها فى الفسطاط . إلى أن انتقل الإمام إلى الرفيق الأعلى سنة ٢٠٤ على ما هو معروف . وحينئذ لم يطل المقام بالحميدى فى مصر . ولعل الحياة نفسها لم تطب له بعد وفاة الإمام فعاد إلى مكة . وعاش بها نحوا من خمس عشرة سنة . فقد توفى بها سنة ٢١٩ أو سنة ٢٢٠ هـ على رواية أخرى .

ولكن الحميدى لم يكن ليغادر مصر قبل أن يسهم فى التمهيد لملء كرسى الإمام ورئاسة حلقته . ذلك أنه لما اشتد مرضُ الموت على الإمام الشافعي . جاء محمد بن عبد الله بن الحكم وأراد أن يحل مكان الإمام فى مجلسه منازعا بذلك أبا يعقوب أكبر صحاب الشافعي المصريين سنا وأوفرهم علما . وكان ابن عبد الحكم يظن أنه أولى بالمقعد . فجاء الحميدى وقال : قال لى الشافعي ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف بن يحيى – يعنى البويطى – فغضب ابن عبد الحكم واتهم

---

(٣) تهذيب التهذيب ٢١٥/٥ .

الحميدى بالكذب . ثم لم يلبث أن جعل لنفسه مجلسا مستقلا . وجلس البويطى فى مجلس الشافعى فى الطاق الذى كان يجلس الإمام فيه[(٤)]

هذا وكان الإمام أحمد يقول : الشافعى عندنا إمام . والحميدى عندنا إمام . وإسحاق بن راهويه عندنا إمام[(٥)]

أولئك هم أصحاب الإمام من الحجازيين . وقد رأينا أن الحميدى كان أكثرهم قربا من الإمام . وأطولهم صحبة له . فقد صحبه فى مكة . وصحبه فى مصر . واستفاد منه علما كثيرا مع ما أخذه من علم سفيان بحيث اعتبره الناس رأس مدرسته

— ٢ —

تلاميذ الشافعى البغداديون :

زار الشافعى بغداد مرتين حسبما هو معروف الزيارة الأولى كانت سنة ١٩٥ وبقى فيها عامين أو نحوهما . والثانية كانت سنة ١٩٨ هـ وبقى فيها شهرا وقيل أشهرًا ارتحل بعدها إلى مصر.

والعراق حين زاره الشافعى كان الرأى يغلب على فقهائه . وكان فى بغداد الصاحبان الكبيران لأبى حنيفة أبو يوسف ومحمد بن الحسن . وكان فى العراق أيضا رؤوس المعتزلة الذين كانوا يحسنون المناظرة ويجيدون المحاورة . فما أن استقر الشافعى فى العراق شهورا حتى كثر أصحابه . ونشط للميل إلى فقهه كثرة من صفوة العلماء . وفى مقدمتهم أحمد بن حنبل الذى لزمه وصار فيما بعد إماما عظيما من أئمة المسلمين .

ومن أصحاب الشافعى فى العراق أيضاً إبراهيم بن خالد المكنى بأبى ثور الكلبى . وأبو على الحسين بن على الكرابيسى . وأبو على الحسن بن الصبّاح الزعفرانى . وأبو عبد الرحمن أحمد بن محمد بن يحيى الأشعرى البصرى .

---

(٤) وفيات الأعيان ترجمة البويطى .

(٥) تاريخ بغداد ٣٥٠/٦ .

ابن حَنْبَل :

فأما الإمام ابن حنبل فحديثه طويل مبارك سوف يحتل القسم التالى للشافعى من هذا الكتاب ، ولكن ونحن فى مقام الحديث عنه وعن الشافعى ، ينبغى أن نشير إلى أنه لم ينشط للترحيب بالشافعى وفقهه عندما زار الشافعى بغداد أول الأمر ، ثم ما لبث أن اكتشف نباهة شأن الإمام الجليل ، فلزم مجلسه مع من لزمه من أبناء المدرسة الشافعية فى العراق ، وفى هذا المضمار يُروى خبر لا يخلو من طرافة ، فإن الفقيه الحافظ يحيى بن معين يقول : كان أحمد بن حنبل ينهانا عن الشافعى – يعنى عن الجلوس إليه والاستماع لفقهه – ثم استقبلته يوما والشافعى راكب بغلة وهو يمشى خلفه ، فقلت : يا أبا عبد الله تنهانا عنه وتمشى خلفه ؟ فقال : اسكت ، لو لزمت البغلة لانتفعت.

هكذا كان أحمد بن حنبل يجل الشافعى وهكذا كانت بداية صلته به .

أبو ثَوْرٍ الكَلْبِى :

ومن الأصحاب البغداديين للشافعى أبو ثور الكلبى ، وهو من فقهاء بغداد المرموقين ومن علمائها الصالحين ، وكانت مشاعره حيال الشافعى فى أول الأمر قريبة من مشاعر الامام أحمد من ناحية الابتعاد عن الإمام وعدم النشاط إلى الاهتمام بفقهه وعلمه ، بل ربما كان أبو ثور أكثر تحاملا على الإمام ، وقد مرت إشارتنا إلى القصة التى جعلت أبا ثور يتحول من فقه محمد بن الحسن إلى فقه الشافعى ، وكيف أنه ذهب إلى مجلس الإمام ساخرا يسأله عن مسألة فى الدور ، فما زال الإمام به حسن استقبال ، ولطف حوار ، وإتقان رواية ، ووفرة علم ، وفيض أدب حتى ربحه إلى جانبه ، وأخذ رويدا رويدا يترك مجلس محمد بن الحسن على الرغم من جلاله ووفرة علمه متحولا إلى مجلس الشافعى[٦] .

وأبو ثور بالإضافة إلى ذلك فقيه حافظ متمكن ، تشهد له صفوة العلماء وتصغى إلى فتاواه جلة الفقهاء ، فقد سأل رجل أحمد بن حنبل عن مسألة فى

---

(٦) راجع الخبر فى فصل سابق وفى تاريخ بغداد ٦٨/٦ .

الحلال والحرام ، فقال له أحمد : سل عافاك الله غيرنا ، فقال الرجل : إنما نريد جوابك يا أبا عبد الله ، فقال : سل عافاك الله غيرنا ، سل الفقهاء ، سل أبا ثور.

هكذا كانت ثقة الإمام أحمد فى أبى ثور كعالم وفقيه ، ولعل ذلك حدث قبل أن تكتمل لابن حنبل جماع أسباب العلم وكامل مؤهلات الإمامة.

ومسألة أخرى يتوقف كبار الفقهاء عن الإجابة عنها حتى إذا وصل أبو ثور أصدر فتواه فيها بما غاب عنهم ، فقد وقفت امرأة على مجلس فيه يحيى بن معين وأبو خيثمة ، وخلف بن سالم وغيرهم من جماعة يتذاكرون الحديث ، سمعتهم يقولون قال رسول الله ﷺ ، ورواه فلان ، وحدّث به فلان ، وكان فى خاطرها مسألة تقلق ضميرها ، وكانت المرأة غاسلة موتى ، فسألتهم عن الحائض تغسل الموتى ، فلم يجبها أحد منهم وجعل بعضهم ينظر إلى بعض ، وآنذاك تصادف وصول أبى ثور ، فقالوا لها : عليك بالمقبل ، فالتفتت إليه وقد دنا منها ووجهت إليه السؤال تطلب جوابه ، فقال لها : نعم ، تغسل الميت ، ثم أردف داعما فتواه قائلا : لحديث القاسم عن عائشة أن النبى ﷺ قال لها :

« أَمَا إِنَّ حَيْضَتكِ لَيْسَتْ فِي يَدِكِ »

ولقولها : كنتُ أفرق رأس النبى ﷺ وأنا حائض . ويمضى أبو ثور قائلا : فإذا فرقت رأس الحى فالميت أولى به .

فلما سمع القوم فتوى أبى ثور قالوا : نعم رواه فلان ، وحدثناه فلان وخاضوا فى الطرق والروايات ، فقالت لهم المرأة : وأين كنتم إلى الآن ؟ .

فإذا ما رجعنا بالحديث إلى أبى ثور وصلته بالإمام ومدى تأثره به ، ردّدْنا قوله : كنت أنا وإسحاق بن راهويه وحسين الكرابيسى – وذكر جماعة من العراقيين – ما تركنا بدعتنا حتى رأينا الشافعى . وكان أبو ثور على شدة ميله إلى الشافعى صاحب فقه مستقل ، تمثل فى عدد من الكتب التى ألفها . وكانت وفاته ببغداد سنة ٢٤٠ هـ ، وأبو ثور هو أحد رواة فقه الشافعى القديم ، أى قبل حياته فى مصر وقبل الرجوع عن بعض آرائه السابقة .

الزَّعفَرانى :

وفى مقدمة تلاميذ الشافعى العراقيين يجيئ الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى الذى راض نفسه على الفقه والحديث ، وسمع من كبار رجال عصره فى العراق والحجاز من أمثال ابن عيينة ، ووكيع ، ويزيد بن هارون ويعقوب الحضرمى أحد القراء العشرة .

وكان الزعفرانى يذهب فى الفقه مذهب أهل العراق ، فلما قدم الشافعى إلى بغداد كان ممن جلسوا إليه ، والتفوا حوله ، وأخذوا عنه ، وصاروا من مريديه بالعراق ، ولقد أجمع الحفاظ على صدق رواية الزعفرانى وأمانته ، وهو أحد الأربعة الذين رووا الأقوال القديمة للشافعى [٧] وهم – فضلا عنه – ابن حنبل ، وأبو ثور ، والكرابيسى الآتى ذكره بعد قليل .

ولقد اختص الزعفرانى بالقراءة فى مجلس الشافعى دون بقية أترابه العراقيين ، والسبب فى ذلك هو ما قيل من أنه لم يكن فى وقته أفصح لسانا منه ولا أبصر باللغة منه .

إن الزعفرانى يقص بنفسه هذا الخبر فيقول : لما قرأت كتاب الرسالة على الشافعى ، قال لى : من أى العرب أنت ؟ فقلت : ما أنا بعربى ، وما أنا إلا من قرية يقال لها الزعفرانية ، قالْ : أنت سيد هذه القرية [٨] .

ولقد توفى الزعفرانى فى ربيع الآخر سنة ٢٥٩ هـ حسب رواية ابن حجر ، وسنة ٢٦٠ حسب رواية ابن تغرى بردى الذى ذكر أنه قرأ على الشافعى كتاب الأم [٩] ، والصواب أنه قرأ الرسالة على ما أشرنا قبلا . والزعفرانى هو صاحب القول المشهور عن الشافعى وعلم الحديث : كان أصحاب الحديث رقودا حتى جاء الشافعى فأيقظهم فتيقظوا وينسب إليه أيضاً أنه القائل : ما حمل أحد محبرة إلا وللشافعى عليه منة .

---

(٧) وفيات الأعيان ترجمة الزعفرانى .

(٨) تهذيب التهذيب ٣١٨/٢ .

(٩) النجوم الزاهرة ٣٢/٣ .

أبو عبد الرحمن الأشعرى :

من صحاب الشافعى وتلاميذه العراقيين أيضاً أحمد بن محمد بن وكنيته أبو عبد الرحمن الأشعرى البصرى، وكان أبو عبد الرحمن أكثر التلامذة البغداديين تحمسا للشافعى وأخذا عنه ، وتأثرا به ، ودفاعا عن مذهبه ، وخاصة بعد أن رحل عن بغداد واستقر فى مصر حتى أنه لقب بالشافعى ، ولعله من أول من أُطلق عليه هذا اللقب أو هذه الصفة بسبب انتمائه للمذهب والدفاع عنه والتأليف فيه ، ثم ما لبثت هذه الصفة - أعنى صفة الشافعى - أن أطلقت على جلة النابهين فى المذهب بحيث إذا راجعنا كتب الطبقات وجدنا جملة من يحملون هذا اللقب يعدون بالعشرات إن لم يكونوا بالمئات .

كان أبو عبد الرحمن من العلماء الكبار والمتكلمين البارعين والمناظرين الحاذقين ، وكان واسع الثقافة عارفا بالإجماع واختلاف المذاهب ؛ كما كان عالما بالحديث والأثر . ومما لاشك فيه أن الأشعرى البصرى الشافعى كان يتمتع بشخصية وقورة نفاذة تدفع بالعام والخاص إلى إجلاله واحترامه ، وتبعا لذلك كان رفيع القدر عند ذوى السلطان ، وفى الجملة كان أبو عبد الرحمن هو أول من خلف الشافعى فى الاستمرار بالتعريف بالمذهب والذّب عن أصحاب المذهب فى العراق .

أبو على الكَرَابِيسى :

ومن الصحاب البغداديين كذلك أبو على الحسين بن على بن يزيد الكرابيسى وهو أحد الصحاب الأربعة الذين رووا فقه الشافعى القديم ، وقد لقب بالكرابيسى لأنه كان يبيع الكرابيس ، وهى الثياب الغليظة ، وقد سلفت الإشارة أكثر من مرة إلى أن كثيراً من فقهاء المسلمين كانوا يرتزقون من الاتجار بالبيع والشراء أو من ممارسة صنائع بعينها.

ولقد كان الكرابيسى قبل مجىء الشافعى إلى بغداد يأخذ بالرأى ، ويتبع الفقه العراق ، شأنه فى ذلك شأن بقية أصحابه العراقيين . فلما وفد الشافعى إلى بغداد التحق بمجلسه ، وأكثر من التردد عليه ، والجلوس بين يديه ، فحفظ فقهه

وألف فيه كتبا . والكرابيسى فضلا عن ذلك صاحب تصانيف فى أصول الفقه وفروعه . كما صنف فى الجرح والتعديل[10] . وقد بلغت كتبه مئتى جزء[11]

ويبدو أن الكرابيسى كان دون الزعفرانى فى صلته بالإمام وأنه اتصل به متأخرا بعض الشيء لأنه يقول : « لما قدم الشافعى – يعنى إلى بغداد – قدمته وقلت له : أتأذن لى أن أقرأ عليك الكتب . فأبى وقال : خذ كتب الزعفرانى فقد أجزتها » .

كان ذلك فى أول عهد الكرابيسى بالشافعى فى بغداد . فلما طالت الصحبة صار أحد المقربين منه . الكثيرى الأخذ عنه . والجلوس إليه . فصار بعدئذ معدودا فى كبار أصحابه .

وكان الكرابيسى صاحب قدر رفيع عند الصفوة والعامة . وكان قريبا إلى قلب الإمام أحمد بن حنبل حتى بدأت فتنه خلق القرآن التى أثارها المعتزلة ـ فقد تعكر حينذاك أفق سماحة الفكر الاسلامى ـ فانقلبت الصداقة إلى عداوة . وليس معنى ذلك أن الكرابيسى كان يقول بخلق القرآن . فإن شيئا من ذلك لم يؤثر عنه . وإنما كان ذا رأى غريب . ذلك أنه كان يقول : القرآن غير مخلوق ولفظى به مخلوق[12] فغضب منه الإمام أحمد الذى تحمل المحنة بكاملها فى سبيل إنكاره أن يكون القرآن الكريم مخلوقا . ومع أن رأى الكرابيسى لا يوحى بأن القرآن مخلوق . إلا أن الإمام ابن حنبل كان يريد اقتلاع الفكرة من جذورها بألا تصدر من فم أحد صفة الخلق عن القرآن وكل ما يتصل بالكتاب العزيز من ناحيتى لفظه ومعناه .

والأمر الذى لاشك فيه أن الكرابيسى برأيه هذا الذى قاله فى القرآن ، وعلى الرغم من أنه لا يعنى صراحة أو تلميحا أن القرآن مخلوق . خسر كثيرا من مكانته العلمية والفقهية عند صفوة علماء بغداد وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل وأبى ثور الكلبى وهما من رؤوس أصحاب الشافعى البغداديين .

(١٠) وفيات الأعيان ترجمة الكرابيسى .

(١١) تهذيب التهذيب ٣٦٠/٢ .

(١٢) نفس المرجع ٣٦١/٢ .

— ٣ —

تلاميذ الشافعى المصريون :

كانت حلقة الشافعى فى مصر خصبة نشطة معطاءة على النحو الذى أسلفنا . وقد سلف القول قبل قليل أن الشافعى ترك فى بغداد أربعة من الصحاب يحملون علمه ويروونه لطالبى المعرفة . وقد عرفوا بين الجمهرة بأنهم حاملو الأقوال القديمة للشافعى .

وفى خلال إقامة الشافعى فى مصر أعاد النظر فى كتبه . وأجرى تعديلات فى آرائه . وتطويرا فى أقواله . ومن ثم أحدث تحولات فقهية بحيث إن جميع كتبه قد أعاد كتابتها وإملاءها ، وذلك فضلا عن تلك التى كتبها فى مصر لأول مرة والتى كان أشهرها وأكثرها إثارة كتاب اختلاف مالك .

لقد أطلق الفقهاء على فقه الشافعى المتطور الذى أملاه فى مصر « الأقوال الجديدة » . مثلما أطلقوا على كتبه وأماليه فى بغداد وما قبل بغداد « الأقوال القديمة » .

أما رواة الأقوال الجديدة فكلهم بطبيعة الحال مصريون . فضلا عن الحُميدى الذى عاد إلى مكة بعد وفاة الشافعى . وكان قد لحق به حين جاء إلى مصر . وقلة من الفقهاء العراقيين الذى زاروا بدورهم الشافعى فى الفسطاط قبل وفاته .

والرواة المصريون لفقه الشافعى هم أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى . وأبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزنى . والربيع بن سليمان الجيزى . والربيع بن سليمان المرادى . وحرملة بن يحيى التجيبى . ويونس بن عبد الأعلى الصدفى . وهؤلاء جميعا أعلام نابهون فى سماء المعرفة الإسلامية بوجه عام . وفى حقل الفقه الشافعى بوجه خاص . ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء الأعلام الستة من تلامذة الشافعى وصحابه تلميذا آخر كان يتمتع بمكانة متميزة عند الإمام هو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم .

أبو يعقوب البُوَيْطي :

هو أبو يعقوب يوسف بن يحيى القرشي البويطي نسبة إلى بويط ، وهى قرية من أعمال بنى سويف فى مصر الوسطى . ووواحد من كبار علماء مصر ، والمقدم بين أصحاب الشافعي ، وهو إلى ذلك علم من أعلام المسلمين لامتحانه فى مهزلة المعتزلة التى عرفت بفتنة خلق القرآن .

ولفضل أبى يعقوب وعلمه ورجاحة عقله أوصى الشافعي وهو فى مرضه الأخير بأن يكون أبو يعقوب خليفته على حلقة درسه . وليس من شك فى أن قرار الشافعي – وهو الحكيم الإمام – يدل على أن أبا يعقوب كان من فيض العلم . والقدرة على العطاء بحيث يصلح لأن يجلس فى مكان لا يستطيع أن يملأه إلا متمكن فى العلم مستوعب لفقه المذهب ، ولقد أحدث قرار الشافعي شيئاً غير قليل فى نفس ابن عبد الحكم .

فقد كان محمد بن عبد الله بن عبد الحكم يطمع فى أن يخلف الإمام لكونه يتمتع بمكانة خاصة عند الشافعي حتى أنه كان يعتبره بمثابة ولده . فقد ترك مجلس أبيه – وكان إماما فى الفقه المالكى – ولحق بحلقة الشافعي . ولكن الحُميدى الذى سبقت الإشارة إليه قال إن الشافعي أوصى بأن يحل فى مجلسه من بعده يوسف بن يحيى البويطى وكانت أزمة بين محمد وبين الحميدى انتهت بأن جلس البويطى حيث كان يجلس الشافعي (١٣) .

وكان الشافعي – وهو أستاذ فى علم الفراسة – كأنما قد قرأ لوح الغيب ، فقد امتحن البويطى فى فتنة خلق القرآن ، وحمل إلى بغداد ، وأودع السجن إلى أن مات فى محبسه . وكان البويطى وهو فى سجنه يشكل نمطا فريدا للعلماء المؤمنين الصابرين ، شأنه شأن كثيرين ممن امتحنوا فى هذه المهزلة المخجلة ، فقد كان لكل واحد من أولئك العلماء نمط بل أنماط من السلوك والشموخ التى تروى على الأجيال ، حتى يعتبر بها السلف ، ويتعلمها العلماء فى العصور المتأخرة . إن سجان

---

(١٣) تاريخ بغداد ٢٩١/٢ .

حبس بغداد يقول : كان البويطى يغتسل كل يوم جمعة ويغسل ثيابه ثم يخرج إلى باب السجن إذا سمع النداء - يعنى الأذان - فيرده السجان ويقول : ارجع رحمك الله ، فيقول البويطى : اللهم أنى أجبت داعيك فمنعونى »[١٤] وظل على تلك الحال إلى أن توفى غريبا فى محبسه .

وكان الجلادون فى سجن المعتصم والواثق فى بغداد ينكلون بالعلماء الأتقياء الأنقياء الذين رفضوا أن يوافقوهم على بدعتهم السخيفة ، يقيدونهم بسلاسل الحديد فى أعناقهم وأرجلهم مع وضع أثقال حديدية فى تلك الأغلال ، إن الربيع بن سليمان يقول : « رأيت البويطى على بغل ، فى عنقه غلّ وفى رجليه قيد ، وبين الغلّ والقيد سلسلة من حديد فيها طوبة وزنها أربعون رطلا وهو يقول : إنما خلق الله سبحانه الخلق بـ « كُنْ » فإذا كانت « كُنْ » مخلوقة فكأن مخلوقا خلق مخلوقا ، فوالله لأموتن فى حديدى حتى يأتى من بعدى قوم يعلمون أنه مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم ، ولئن أدخلت عليه - يعنى الواثق - لأصدقنه » .

لقد امتلأت سجون بغداد بالعلماء من الحجاز والعراق والشام ومصر ، وأخذ من مصر عدد كبير من العلماء فى تلك الفتنة ، غير أن أحدا من أصحاب الشافعى لم يخرج من مصر بسبب هذه المحنة إلا البويطى ، وذلك لأن قاضى مصر ابن أبى الليث الحنيفى كان يحسد العالم الجليل ويعاديه[١٥]

ومن الكلمات النورانية تلك التى كتبها البويطى من محبسه للربيع يقول فيها : « إنه ليأتى علىّ أوقات لا أحس بالحديد أنه على بدنى حتى تمسه يدى ، فإذا قرأت كتابى هذا فأحسن خُلُقَكَ مع أهل حلقتك ، واستوص بالغرباء خاصة خيرا ، فكثيرا ماكنت أسمع الشافعى رضى الله عنه يتمثل هذا البيت :

أُهِينُ لَهُمْ نَفْسِى لأُكْرِمَهَا بِهِمْ
وَلَنْ تُكْرَمَ النَّفْسُ التى لاَتُهِينُهَا »

---

(١٤) طبقات الفقهاء للشيرازى ص ٩٨ .

(١٥) الانتقاء ص ١٠٩ .

لقد كان البويطى امتدادا عظيما لإمام عظيم ، ولم يعرف من مؤلفاته غير « المختصر » وكانت وفاته سنة ٢٣١ هـ فى سجن بغداد .

الرّبيع بن سليمان المُرادِى :

هو الربيع بن سليمان المرادى أبو محمد ألصق أصحاب الشافعى به ، وهو تلميذه وخادمه وراوية أكثر كتبه ، وقد سلف القول أن رسالة الشافعى من روايته وكذلك كتاب الأم فضلاً عن بقية كتبه ، والربيع بن سليمان هـذا يتشابه مع تلميذ آخر للشافعى من حيث الاسم هو الربيع بن سليمان الأزدى الجيزى ، ولنا إليه عودة بعد قليل ، وقد كان ذاك يعرف بالأعرج ، بينما يعرف صاحبنا هـذا بالمؤذن ، فقد كان يؤذن فى الجامع الكبير بالفسطاط ، وظل على تلك الحال إلى أن مات ، وقيل لم يؤذن أحد فى المنارة قبله ، وكانت الرحلة من جميع الأقطار إلى الربيع بعد وفاة الشافعى فى طلب علم الإمام وكتبه ، ويقرر العلماء أنه إذا ذكرت كتب الشافعى مقرونة بأنها من رواية الربيع ، فإنّ الربيع المقصود هو المرادى المؤذن . والربيع هو آخر من روى بمصر للشافعى .

ويقص الربيع هذا قصة توضح مدى صلة الشافعى بتلامذته وصحابه ومدى حكمه على كل منهم فيقول : كنا جلوسا بين يدى الشافعى رضى الله عنه أنا والبويطى والمزنى ، فنظر إلى البويطى فقال : ترون هذا ؟ إنه لن يموت إلا فى حديده . ثم نظر إلى المزنى فقال : ترون هذا ؟ أما أنه سيأتى عليه زمان لايفسر شيئا فيخطئه . ثم نظر إلىّ فقال : أما إنه ما فى القوم أحد أنفع لى منه ، ولوددت أنى حشوته بالعلم حشوًا[١٦]

ولقد صدق الشافعى فى كل نبوءة من النبوءات الثلاث ، ولم يكن ذلك على سبيل معرفة الغيب ، ولكنها فراسة المؤمن ، وكان الشافعى ذا إيمان وفراسة .

ومما تجدر الإشارة إليه فى شأن الربيع هذا ، أنه كان قد جلس لتلقى العلم فى مسجد الفسطاط قبل مجئ الشافعى وسمع من كبار العلماء وجلّة الفقهاء مثل ابن

---

(١٦) وفيات الأعيان ترجمة الربيع بن سليمان المرادى .

وهب صاحب مالك ، وشعيب بن الليث وغيرهما ، كما روى عنه عدد من كبار رجال الحديث مثل أبي داوود والنسائى وابن ماجه والترمذى . وكان من سمو القدر بحيث إن المزنى مع جلالته – حسب تعبير ابن حجر – استعان على مافاته عن الشافعى بكتاب الربيع (١٧) .

ولقد عمر الربيع طويلا فقد ولد سنة ١٧٤ وتوفى فى شهر شوال سنة ٢٧٠ فيكون قد ناهز المائة ، وهو من أجل ذلك أدرك الدولة الطولونية وكان أول من أملى الحديث فى مسجد ابن طولون .

الربيع الجيزى :

هذا هو الربيع الثانى بين تلامذة الشافعى وصحابه ، وهو الربيع بن سليمان بن داوود الجيزى نسبة إلى الجيزة ، وهو أزدى بالولاء ، وكنيته أبو محمد تماما مثل كنية سميه الربيع الراوية المؤذن . والربيع الجيزى على الرغم من كونه حجة فى الفقه الشافعى كان واسع المعرفة بأصول الفقه وفروعه على المذهب المالكى الذى كان قد انتشر فى مصر قبل مجئ الشافعى ، ولذلك فقد روى الربيع أيضا عن عبد الله بن وهب صاحب مالك وعبد الله بن عبد الحكم ، وإسحاق بن وهب وغيرهم .

وقد روى عنه بعض أصحاب الكتب الستة مثل أبى داوود والنسائى (١٨) وذكر السبكى فى الطبقات أن الربيع هذا روى مسألتين من الفقه عن الشافعى هما أن قراءة القرآن بالألحان مكروهة ، وأن الشعر بعد الممات يتبع الجسد قياسا على حال الحياة أى أنه يطهر بالدباغة .

وكان الربيع الجيزى موسوما بالعقل ، متصفا بالتسامح ، فقد قيل إنه اجتاز يوما بمصر ، فطرحت عليه إجانة رماد ، فنزل عن دابته وجعل ينفضه عن ثيابه ولم يقل شيئا ، فقيل له : ألا تزجرهم ؟ فأجاب : من استحق النار وصولح

---

(١٧) تهذيب التهذيب ٢٤٦/٣ .

(١٨) تهذيب التهذيب ٢٤٥/٣ .

بالرماد فقد ربح[١٩] . ولقد توفى الربيع الجيزى فى ذى الحجة سنة ٢٥٦هـ وكان ميلاده بعد الثمانين ومائة .

أبو إبراهيم المزنى :

هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزنى من أهل مصر ، وكان زاهدا عالما مجتهدا قوى الحجة ، وكان أستاذه الشافعى يعرف فيه ذلك فهو القائل فيه : لو ناظر الشيطان لغلبه ، كما قال فيه أيضا ذلك القول الذى رواه الربيع المرادى : أما أنه سوف يأتى عليه زمان لايفسر فيه شيئا فيخطئه .

وكان المزنى بالنسبة للشافعى مثل محمد بن الحسن بالنسبة لأبى حنيفة ، وابن القاسم وابن وهب بالنسبة لمالك ، فقد صنف المزنى كتبا كثيرة فى مذهب الشافعى ، منها الجامع الكبير ، والجامع الصغير ، والمنثور ، والمسائل المعتبرة ، والترغيب فى العلم ، وكتاب الوثائق ، والمختصر ، وهى مؤلفات من النفاسة بمكان ، ولذلك فقد أثر عن الشافعى قوله : المزنى ناصر مذهبى[٢٠] . والحق إن من يقرأ مختصر المزنى على « الأم » يستطيع أن يستبين علم الرجل وسمو قدره .

ولقد كان المزنى من الحرص والأمانة والتقوى فى التأليف بحيث إنه كان إذا فرغ من مسألة وأودعها ، « المختصر » قام إلى المحراب وصلى ركعتين لله .

ويقول أبو العباس أحمد بن سريج عن مختصر المزنى : يخرج مختصر المزنى من الدنيا عذراء لم تفض ، وهو أصل الكتب المصنفة فى مذهب الشافعى رضى الله عنه ، وعلى مثاله رتبوا ، ولكلامه فسروا وشرحوا[٢١] وقد شرح المختصر غير قليل من العلماء منهم أبو إسحاق المروزى وأبو العباس بن سريج .

ومما يتمثل به لبيان المزنى ، ووفرة علمه ، وقوة حجته ، قصة القاضى بكار معه ، فقد ولى بكار بن قتيبة قضاء مصر وجاء من بغداد وهو على مذهب أبى

---

(١٩) طبقات السبكى ٢٥٩/١ .

(٢٠) طبقات الفقهاء للشيرازى ص ٩٧ .

(٢١) وفيات الأعيان ترجمة إسماعيل بن يحيى المزنى .

حنيفة ، وأراد أن تأتى مناسبة ليلتقى فيها بالمزنى فلم يتفق له ذلك ، فاجتمعا يوما فى صلاة جنازة ، فقال القاضى لأحد أصحابه : سل المزنى شيئا حتى أسمع كلامه ، فقال ذلك الصاحب موجها القول إلى المزنى : يا أبا إبراهيم ، قد جاء فى الأحاديث تحريم النبيذ وجاء تحليله أيضاً ، فلم قدم التحريم على التحليل ؟ فقال المزنى : لم يذهب أحد من العلماء إلى أن النبيذ كان حراما فى الجاهلية ثم حلل ، ووقع الاتفاق على أنه كان حلالا ، فهذا يعضد صحة الأحاديث بالتحريم ، فاستحسن ذلك منه .

وكان المزنى من الزهد على طريقة صعبة ، ولم يكن أحد من أصحاب الشافعى يحدث نفسه بالتقدم عليه لعلمه وفضله وزهده واستقامته ، وكان قد أعطى بسطة فى العمر فعاش تسعا وثمانين سنة وتوفى فى رمضان سنة ٢٦٤هـ وكان مولده سنة ١٧٥ .

يونس بن عبد الأعلى :

هو أبو موسى يونس بن عبد الأعلى الصدفى المصرى أحد تلامذة الشافعى وصحابه المصريين ، وكان مجمع ثقافات دينية ، فقد روى عن سفيان بن عيينةوعن عبد الله بن وهب المصرى تلميذ مالك . وروى عنه مسلم والنسائى وابن ماجه وغيرهم ، وكان علامة فى علم الأخبار ومعرفة الصحيح من السقيم ، ثم هو بعد ذلك حجة فى القراءات ، فقد أخذ القراءة عن ورش وسقلاب بن شيبة المصرى ومعلّى بن دحية المصرى عن نافع .

وكان يونس أعقل أهل زمانه ، صاحب الشافعى طويلا ، ولزم مجلسه وأخذ عنه الحديث والفقه وحدث بهما ، وكان الإمام يثق فيه ويستريح إليه ، ويقول مارأيت بمصر أعقل من يونس بن عبد الأعلى .

وعندما وصل القاضى بكّار إلى مصر ، سأل سلفه محمد بن الليث ، وقد التقيا فى الطريق بين مصر وبغداد ، عمن يشاوره ويسكن إليه من المصريين ، فقال له : عليك برجلين أحدهما عاقل هو يونس بن عبد الأعلى ، وذكر له الشخص الآخر وكان من الزهاد العابدين .

وكان يونس تقيا ورعا زاهدا ، وكان لطول مجالسته للإمام الشافعى يلتقط منه درر الكلم ، وينقل عنه حكم القول . يقول يونس : سمعت من الإمام الشافعى حكمة لاتسمع إلا من مثله وهى « رضى الناس غاية لاتدرك ، فانظر مافيه صلاح نفسك فى أمر دينك ودنياك فالزمه » .

وكان يونس يروى عن الإمام هذين البيتين :

مَاحَكَّ جِلْدَكَ مِثْلُ ظِفْرِك   فَتَولَّ أَنْتَ جَمِيعَ أَمْرِكْ
وإِذَا قَصَدْتَ لِحَاجَةٍ   فاقصدْ لِمُعْتَرِفٍ بِفَضْلِكْ

ولقد كان يونس من الفضل والعلم ماجعل ابن جرير الطبرى يقرأ عليه ، وكان من أصحاب الأعمار الطويلة أيضا فقد عاش ستة وتسعين عاما . ولد سنة ١٧٠ وتوفى سنة ٢٦٤هـ .

حَرْمَلَةُ التُّجَيْبى :

إنه حرملة بن يحيى بن حرملة ، وهو الذى نزل الشافعى عنده وحل ضيفا عليه فى منزله حين وصل إلى مصر قادما من العراق ، وقد كان رجلا فاضلا ، صاحب مكانة وهيبة ، روى عن الشافعى ـ فيما يقول ابن عبد البر ـ من الكتب ما لم يروه الربيع المرادى المؤذن ، منها كتاب الشروط وهو ثلاثة أجزاء ، وكتاب السنن وهو عشرة أجزاء ، ومنها كتاب ألوان الإبل والغنم وصفاتها وأسنانها ، ومنها كتاب النكاح ، فضلا عن كتب أخرى كثيرة انفرد بروايتها عن الشافعى .

إن حرملة وهذا قدره من العلم والرواية والملازمة للشافعى مع استضافته له ردحا من الزمن ، يحتل مكانا فى الصدارة رحيبا بين صحاب الشافعى وتلاميذه .

وكما روى حرملة كتبا للشافعى فإنه قد أسهم أيضاً بالتأليف فى المذهب فصنف كتاب المبسوط وكتاب المختصر ، وهو غير مختصر المزنى بطبيعة الحال .

وكان حرملة ثقة فى الحديث ، فقد روى عن ابن وهب تلميذ مالك ، وكان ذا صلة وثيقة به قبل مجئ الشافعى إلى مصر ، ومن طرائف صلته بابن وهب أن

ابن وهب طلب للقضاء فهرب واستخفى فى بيت حرملة زمنا ؛ فكانت فرصة حرملة فى السماع منه مما لم يتيسر لغيره من المحدثين والعلماء .

هذا وقد روى عن حرملة مسلم بن الحجاج فى صحيحه ؛ فقد كان أعلم الناس بابن وهب حسبما سلف القول . وروى عنه أيضاً ابن ماجه والنسائى . فيكون قد روى عنه ثلاثة من أصحاب الكتب الستة ، وقد توفى حرملة سنة ٢٤٣ وقيل ٢٤٤ وكان مولده سنة ١٦٦ وبذلك يكون قد عاش ما يناهز الثمانية والسبعين عاما كانت كلها علما وخيرا وبركة .

محمد بن عبد الله بن عبد الْحَكَم :

هو أبو عبد الله بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعْيَن المصرى ، والده الفقيه المالكى عبد الله بن عبد الحكم الذى كانت الرياسة فى مصر قد أفضت إليه بعد أشهب صاحب مالك وتلميذه[٢٢] . ومن ثم فقد نشأ محمد فى بيت علم كبير . متلقيا فيه أصول الفقه المالكى . فلما جاء الشافعى إلى مصر كان محمد فى السابعة عشرة من عمره فتى غض الإهاب . ولم يلبث غير قليل حتى توطدت علاقته بالشافعى بأكثر مما توطدت به صلة أخرى . فلزمه وجلس إليه . وأخذ عنه واختص به . وكثيرا ما كان ينفرد بالجلوس إليه ساعات طوالا .

يقول المزنى : كنا نأتى الشافعى نسمع منه فنجلس على باب دارم . ويأتى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم فيصعد إليه ويطيل المكث . وربما تغذى معه ثم نزل . فيقرأ علينا الشافعى . فإذا فرغ من قراءته قرّب إلى محمد دابته فركبها وأتبعه الشافعى ببصره فإذا غاب قال : وددت أن لى ولدا مثله وعلىَّ ألف دينار لا أجد لها قضاء .

إلى هذا المدى البعيد من الحب والتقدير كانت مشاعر الشافعى تجاه الشاب ابن عبد الحكم . وكان محمد هذا جديرا بهذه العناية من الإمام . فقد ترك حلقة أبيه ومجلسه وهو أحد رؤوس المالكية فى مصر لكى يلتحق بحلقة أخرى غير حلقة

---

(٢٢) طبقات الفقهاء للشيرازى ١٥١ .

أبيه ، ويتلقى فقها آخر غير الفقه الذى نشأ عليه مما سبب لأبيه كثيرا من النقد والشكوى من قبل أصحاب المذهب المالكى

إن محمدا يقصّ بنفسه هذا الموقف قائلا : كنت أتردد على الشافعى فاجتمع قوم من أصحابنا إلى أبى ، وكان على مذهب الإمام مالك ، فقالوا : يا أبا محمد ، إن محمدا ينقطع إلى هذا الرجل - يعنى الشافعى - ويتردد إليه ، فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه ، فجعل أبى يلاطفهم ويقول : هو حدث ، ويحب النظر فى أقاويل الناس ومعرفة ذلك . ويقول لى فى السرّ : يابنى ، الزم هذا الرجل ، فإنك لو جاوزت هذا البلد فتكلمت فى مسألة فقلت فيها : قال أشهب . لقيل لك : مَنْ أشهب ؟

ويمضى محمد قائلا : فلزمت الشافعى ، ومازال كلام والدى فى قلبى حتى خرجت إلى العراق . فكلمنى القاضى بحضرة جلسائه فى مسألة . فقلت فيها : قال أشهب عن مالك فقال : ومن أشهب ؟ وأقبل على جلسائه فقال لبعضهم كالمنكر : ما أعرف أشهب ولا أبلق(٢٣) .

إنه من الأمور الطبيعية أن يختار المرء رجلا كالشافعى إذا كان الخيار بينه وبين أشهب. إن أشهب فقيه جليل ما فى ذلك شك ، وهو أحد رؤس الفقه المالكى ، ولكن الشافعى إمام ورأس مدرسة وصاحب مذهب . ومن ثم فلا لوم ولاتثريب على محمد الفتى الشاب المتطلع إلى آفاق رحبة من المعرفة أن يتجه صوب الشافعى ويترك جماعة رأسها أشهب ، هذا فضلاً عما عرف به أشهب من حب النقد والشدة والإصرار على مناصبة الشافعى العداء . كل ذلك رفع من مقام الشافعى عند محمد ، فترك المدرسة المالكية والتحق بحلقة الشافعى وارتبط به ذلك الرباط الذى قد علمنا .

ولقد خص الشافعى محمدا بما لم يخص به غيره من العناية العلمية والرعاية الشخصية ، فقد خص الشافعى محمدا بكتاب الوصايا ، وقد سئل الربيع عن

---

(٢٣) وفيات الأعيان ترجمة محمد بن عبد الله بن عبد الحكم .

ذلك فقال : وجدناه بخط الشافعي بعد موته . ولم يحدّث به . ولم يقرأ عليه[٢٤] ومن غير المستبعد أن يكون محمد قد سمعه منه .

وإذن فقد جمع محمد أسبابا من العلم كثيرة . وكان حجة فى فقه مالك والشافعي على السواء . ففقه مالك درسه فى البيت . وقد نشأ أول مانشأ عليه . وفقه الشافعي تلقاه من الإمام نفسه . الأمر الذى جعل محمدا ثقة رفيع القدر عند رجال الفقه والحديث . فالنسائى يقول عنه : هو صدوق . وهو أشرف من أن يكذب . وربما كان نفى الكذب عنه متعلقا بالتشكيك فى تحديثه بكتاب الوصايا سالف الذكر . وإلا فصفة الكذب غير ذات محل فى هذا المقام .

ويقول ابن خزيمة عن محمد : ما رأيت فى فقهاء الإسلام أعرف بأقاويل الصحابة والتابعين منه[٢٥] .

ولكن محمدا مايلبث أن يترك مذهب الشافعي ، ويعتزل أصحابه بعد موت الإمام ، فلقد كان يطمع بحكم صلته الوثيقة به أن يكون على رأس حلقته بعد وفاته ولكن الإمام كان قد أوصى بالبويطى رئيسا للحلقة من بعده ، ولقد تولى تنفيذ هذا الأمر أبو بكر الحميدى على ما مر بنا فى موطن سابق من هذا الفصل ، فاعتزل محمد حلقة الشافعية وأقام لنفسه حلقة خاصة به .

إن من يتدبر الأمر يجد أن الإمام الشافعي بكل ماعرف عنه من رجاحة العقل وخلق الإمامة . لم يكن ليوصى بالرئاسة لشاب لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره ويترك أمثال البويطى والمزنى وحرملة ، ولكنه طموح الشباب دائما يدفع بالكثيرين منهم إلى التسرع واستعجال الأمور . حيث ينبغى التأنى حتى النضوج . والتريث حتى الاستواء ، والانتظار للتلقى ممن هم أهل للعلم والعطاء .

وكان محمد من العلماء الذين أوشكت محنة خلق القرآن أن تصيبه بشواظها .

---

(٢٤) تهذيب التهذيب ٢٦١/٩ .

(٢٥) المصدر السابق ٢٦٠/٩ .

فقد حمل إلى بغداد ، وأدخل إلى ابن ابى دؤاد، ولم يجب إلى ماطلب منه ، ولكنه ولم يلبث أن رد إلى مصر(٢٦) سالما .

ولقد عاش محمد ستة وثمانين عاما ، فقد ولد سنة ١٨٢ وتوفى سنة ٢٦٨هـ كان خلالها أهلا للرياسة ، وكان طبيعيا أن تنتهى إليه رئاسة الفقه بمصر .

وقد روى القضاعي فى كتابه خطط مصر خبرا أورده يا قوت عن محمد بن عبد الله بن الحكم وأحمد بن طولون . ذلك أن ابن طولون أحضره فى الليل إلى حيث سقايته بالمعافر ، وكان الناس قد توقفوا عن شرب مائها والوضوء به ، فشرب منه محمد وتوضأ ، فأعجب به ابن طولون — وكان بدوره على علم وفقه — وصرفه لوقته ووجه إليه جائزة وصله بها(٢٧) .

وإذا كانت هناك من كلمة أخيرة فى نهاية هذا الفصل ، فإننا ننبه إلى أن كلا من فقه الشافعى والمالكى من قبله قد قام بحمل أمانتها فقهاء مصر ، ومنها انطلق فقه مالك ، وفقه الشافعى إلى كل اتجاه . مع أن أيًا من الإمامين الجليلين ليس مصريا، بل إن مالكا لم ير مصر، ولا بلدا غير الحجاز في حياته، ولكن البيئة المصرية تتميز بالقدرة على الحفاظ على كل معرفة حضارية . وبخاصة إذا كانت معرفة متصلة الأصول والأسباب بالعقيدة عامة والعقيدة الإسلامية بخاصة .

---

(٢٦) طبقات الشيرازى ص ٩٩ .

(٢٧) آخر ترجمة محمد بن عبد الله بن الحكم فى وفيات الأعيان .

محتويات الكتاب

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الموضوع **الصفحة**

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

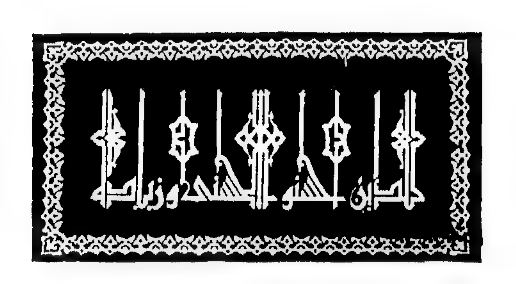
الموضوع **الصفحة**

الفصل السابع

الفصل الثامن

الموضوع — الصفحة





الأئمة الأربعة
(٤)

الإمام أحمد بن حنبل

الدكتور
مصطفى الشكعة

الناشرون

دار الكتاب المصرى
القاهرة

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

رقم الإيداع

١٩٩٠ / ٤٤٥٣

I.S.B.N. 977 - 238 - 067 - 6

دار الكتاب المصرى
٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج م ع
ت: ٣٩٢٢١٦٨/ ٣٩٣٤٣١/ ٣٩٢٢١٦٨ فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقياً كتامصر
TELEX No 23081 - 23381 - 22181
ATT MR HASSAN EL - ZEIN
FAX. (202) 3924657

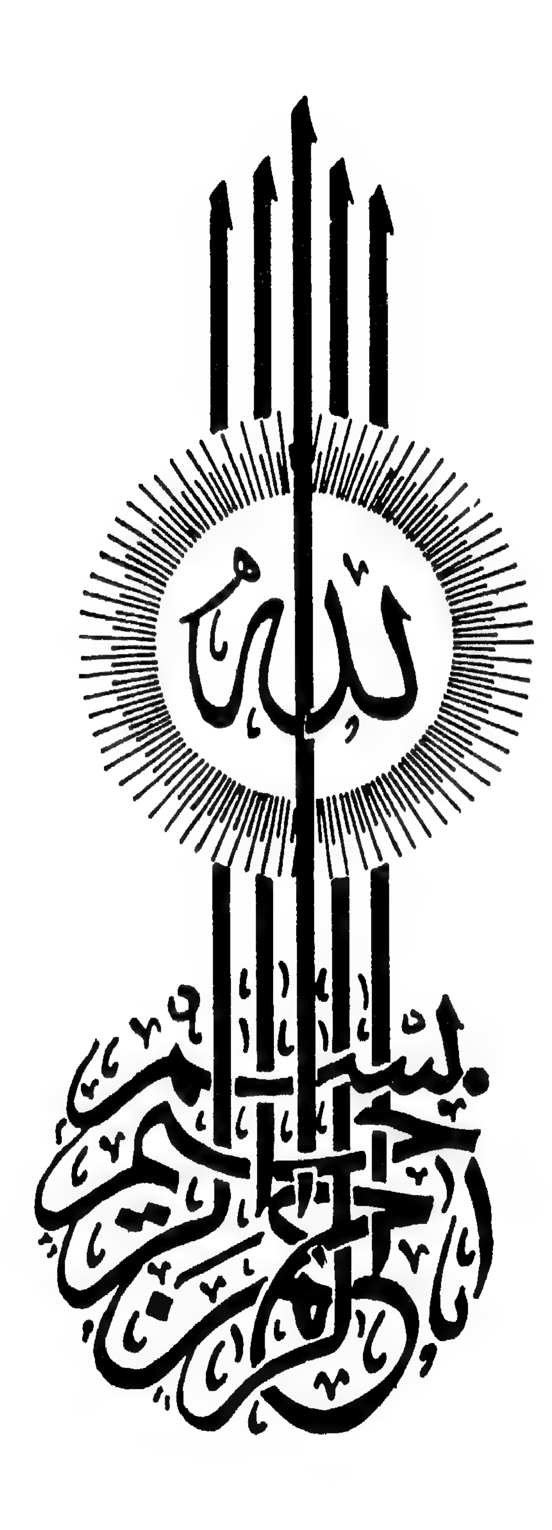
دار الكتاب اللبنانى
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت: ٨٦١٥٦٣-٨٦٠٧٩٢-٨٦١٥٦٣ فاكسميلي ٣٥١٤٣٣٠ (٩٦١١)
ص.ب. ٨٣٣٠/١١ أو ١٣٥٣٥٢ - بيروت - لبنان
برقيا: داكلبان
TELEX DKL 23715 LE
ATT MISS MAY HASSAN EL - ZEIN
FAX (9611) 351433

الطبعة الثالثة

١٤١١هـ - ١٩٩١م

Third Edition

1991 A.D — H 1411


الله
بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

أحمد الله سبحانه وتعالى حمدا كثيرا ، وأسأله أن يعفو عنا وأن يقينا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . كما أسأله جلّ وعلا أن يصلى على سيدنا محمد سيد خلقه وخاتم أنبيائه ، عليه وعلى آله وأصحابه كمال الصلاة وأتم التسليم .

هذا كتابنا الرابع عن سلسلة أئمة المسلمين الذين وضعونا على المحجة البيضاء ، فأناروا النهج ومهدوا السبيل ، ولما كان الإمام الجليل أحمد بن حنبل هو رابع أئمة أهل السنة من حيث الترتيب الزمنى . فقد خصصنا هذا الكتاب وهو الرابع فى سلسلة كتبنا عن الأئمة للتعريف بشخصيته الجليلة التى اجتمع فيها كثير من شمائل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن حديثنا عن شخصية الإمام أحمد يشمل جوانب حياته كلها من الطفولة إلى الشيخوخة، مع دراسة جادة لعلمه ومذهبه في الدين والحياة، ومؤلفاته وكتبه، وصحابه الذين كانوا من الكثرة بمكان، ومن العلم والفضل بمقدار.

إن الأمر الشائع بين الناس أن مذهب الإمام أحمد غالى التشدد بالغ التزمّت ، وتلك فرية ظالمة أطلقها الجهال فلقيت رواجا بين العامة ؛ ذلك أن الإمام أحمد جعل فقهه مرآة لشخصيته . وكانت شخصية عذبة لينة متسامحة متواضعة ، فجاء فقهه على هذا النسق ميسرا على الناس من منطلق الكتاب والسنة ، وهو فى المعاملات على وجه الخصوص أكثر وضوحا وأعم تيسيرا وإذا كان ثمت تشدّد ، فإن ذلك يقع أكثر ما يكون فى الطهارة وبعض العبادات . وفى رأينا ورأى كل عاقل من المسلمين أن هذا الذى يسمى تشددا

ليس فى حقيقته إلا الاستمساك بجوهر العقيدة ، فعقيدة الإسلام تقوم على النظافة – نظافة الجسم ونظافة الروح – ثم يكون الإعلان عن الانتماء الحقيقى إليها بالعبادات عامة والصلاة منها بوجه خاص ، وهو ما قد شدد عليه الإمام الجليل فى فتاواه وأحكامه ، وأما بقية القضايا الفقهية والعقدية ، فشأنه فى التعامل معها شأن بقية أئمة المسلمين ، مع التيسير فى المعاملات حسبما سلف القول ، واما قضية التشدد التى لحقت بالمذهب الحنبلى فليس مردّها إلى الإمام ذاته . وإنما يرجع الأمر فيها إلى بعض أبناء المذهب الذين جاءوا بعد الإمام أحمد بزمن غير يسير ، فقد كان بعض هؤلاء من التشدد والحماس إلى درجة جعلت بعض المسلمين ينعتونهم بالعنف والمغالاة ، شأنهم فى ذلك – مع فروق كثيرة – شأن بعض أتباع الإمام جعفر الصادق ، ومن ثم فقد قيل : إمامان صالحان - بُليا بأصحاب سوء – جعفر بن محمد وأحمد بن حنبل .

إن معالم شخصية الإمام أحمد بن حنبل تشع نورا ، وتفيض بركة ، وتتفجر علما ، وتتدفق ورعا ، وتسمو تواضعا ، وتجلّ اعتزازا بكلمة الله ، وتصمد دفاعا عن سنة رسوله .

إن معالم شخصيته رضى الله عنه متعددة جوانب الخير ، كثيرة حواشى البركة ، مثله فى ذلك مثل سائر أعلام أئمة المسلمين ، غير أن هناك مَعْلَمَيْن بارزين فى حياة الإمام أحمد تميز بهما عن سائر نظرائه من أئمة العقيدة الإسلامية ، فأما المَعْلَم الأول فهو توفره على جمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والارتحال فى سماعه وتحصيله كما لم يرتحل إمام من قبله ، فلقد سمع الحديث الشريف أول ما سمعه على القاضى أبى يوسف – تلميذ الإمام الأعظم أبى حنيفة – فى بغداد ، ثم انقطع بعد ذلك للجلوس إلى شيخه ومعلمه هُشَيْم بن بشير حتى مات هشيم ، وحينئذ انطلق جوّاب آفاق مشرّقاً ومغرّباً يذرع الأرض الإسلامية من أطرافها إلى أطرافها ، ويزور الأمصار من شمالها إلى جنوبها . لقد طوّف بالكوفة والبصرة وواسط من مدن العراق ، وارتحل إلى مكة خمس مرات ، ثلاث مرات منها ماشيا على الأقدام ، ولقى فى ذلك من المشقة ما لقى حيث استمع إلى الإمام

الشافعى والإمام سفيان بن عيينة ، كما ارتحل إلى صنعاء ليسمع الحديث من محدث اليمن عبد الرزّاق بن همام ، وفى الطريق إلى صنعاء نفد ماله فاضطر إلى الاشتغال حمّالا ، وفى صنعاء يتعرض للفاقة فيلوذ بالصبر ، ويعرض عليه شيخه المال فيتعفف عن قبوله ، ومرة أخرى يرحل إلى الشام ثم إلى طرسوس بعيدا فى شمال سورية ، كل هذه الأسفار وتلك الرحلات كانت فى سبيل سماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمعه وتصحيح إسناده ، فلا غرابة بعد ذلك أن يجمع كتابه النفيس «المسند» ولا غرو أن يعيش يدافع عن السنة ويذب عن بيضة الدين .

وأما المعْلَم الثانى فى حياة الإمام أحمد ، فهو موقفه الثابت الصامد إزاء ما قد اصطلح على تسميته بفتنة خلق القرآن . لقد أشعل هذه الفتنة بعض رجال المعتزلة وعلى رأسهم أحمد بن دؤاد ، واستُغِلَّ المأمون العباسى وأخوه المعتصم من بعده فى هذا الشأن أشنع استغلال وأبشعه . وتعرض كبار علماء المسلمين فى أقطار الدولة العباسية للمحنة ، واستشهد منهم كثيرون فى القيود والسجون ، واستسلم منهم عدد غير قليل آثروا العافية ، وبقى الإمام أحمد وحده صامدا صابرا مدافعا يفحم علماء المعتزلة بحضرة المعتصم ويلجمهم ، ويلقمهم أحجارا ويسخر منهم ، وهو بين لسعات السياط تدمى جسده وتمزق لحمه ، وبين عذاب السجن وقيوده ثمانية وعشرين شهرا . وحيال صبر الإمام أحمد وتحمله الآلام ، وإلجام أصحاب الفتنة بالحجة ومقارعتهم بالرأى على النحو الذى أوردناه تفصيلا فى مكانه من هذا الكتاب ، ولجبنهم وخشيتهم أن يفتك بهم المسلمون إذا مات الإمام أحمد من وحشية تعذيبهم . اضطروا إلى أن يطلقوا سراحه ويشهدوا الناس على أنه خرج من السجن حياً ، وهل حيٌّ ذلك الذى لم يكن فى جسمه موضع إلا وهو ممزق من أثر التعذيب حتى اضطر معالجوه إلى أن يقطعوا من جسده قطع اللحم النافرة من تمزيق السياط .

لم يكن غريبا حينئذ أن يصير ابن حنبل رمزا للمحافظين على سلامة العقيدة ، المدافعين عن سنة صاحب الرسالة عليه أطيب السلام وأتم التسليم .

إن هذه المواقف جعلت كثيرا من علماء المسلمين يسرفون فى تحمسهم للامام أحمد بن حنبل ، فيقدمونه على بعض الخلفاء الراشدين ، إن على بن المدينى مثلا يقول فى هذا المقام : إن الله أعزّ هذا الدين باثنين لا ثالث لهما ، هما أبو بكر الصديق يوم الردّة وأحمد بن حنبل يوم الفتنة ، بل إن فى الإمام الجليل أقوالا أخرى كثيرة اتسمت بالغلو ، وفضّله بعضهم على الصديق أبى بكر . على كل حال لعل الحماس الشديد هو الذى أدى إلى هذه المبالغات ، والأصل فيها هو ذلك الموقف المتفرد الذى شاءت المقادير أن يكون أحمد بن حنبل هو بطله وصاحبه .

كان أحمد بن حنبل جديراً إذن بأن نكتب عنه كتابا نفصل فيه حياته وتحصيله وشيوخه ، وندرس فيه فقهه وفكره دينا ودنيا ، ونعرّف فيه بمدرسته وتلاميذه ، وكانوا مباركين علما ، مرموقين فضلا ، معروفين نباهة شأن وذيوع صيت ، فجعلنا الكتاب فى ثمانية فصول ، وخصصنا الفصل الأول للحديث عن منشأ الإمام ومرباه ، وألقينا بعض الضوء على بنى شيبان – قبيلة الإمام – فى الجاهلية والإسلام ، وبطولاتهم هناك ، وجهادهم هنا ، كما ذكرنا شيئاً من المعلومات عن والدة الإمام وحدبها الشديد عليه ، وتعلقه الأشد بها ، وهى فى فضلها ودينها مثيلة لوالدة كل من الإمامين الجليلين مالك والشافعى ، ثم تابعنا أحمد الصغير على أولى مراقى العلم ودرجاته .

أما الفصل الثانى فقد خصصناه للحديث عن شيوخ الإمام الجليل ، وطلبه العلم على أيديهم ، مرتحلا إليهم ، قاصدا حلقاتهم أينما وجدت ، تستوى فى ذلك الحلقة القريبة فى بغداد ، أو القريبة البعد فى واسط والكوفة والبصرة ، أو البعيدة فى مكة والمدينة ، أو النائية فى صنعاء اليمن . لقد زار الإمام الكوفة مرات كثيرة أخذ العلم فيها عن ثلاثة كبار ، هم يحيى بن آدم وعبد الرحمن بن محمد ووكيع ابن الجراح ، وهذا الأخير كان أحد أصدقاء الإمام الشافعى ، وهو الذى عناه فى أبياته الجميلة التى يقول فيها :

شكوتُ إلى وكيعٍ سُوءَ حِفْظى ... فأرشدنى إلى تَرْكِ المعاصِى
وقال : اعلمْ بأنَّ العلمَ فضلٌ ... وفضلُ اللهِ لا يُؤْتَاهُ عَاصِى

وإلى البصرة يذهب الإمام مرات كثيرة ، وقد كانت تتضوع بنور المعرفة ، وتفيض ساحاتها بالعلماء الأعلام من الفقهاء والحفاظ ، لقد دخل الإمام أحمد البصرة خمس مرات ، وقد كانت حبيبة إلى نفسه لكونها غاصة بالعلماء ، ولأنها فى الأصل ديار قومه ، وكان لبنى شيبان فيها مسجد معروف يقصد إليه الإمام ، ويؤثر الصلاة فيه ويقول : هذا مسجد أجدادى .

لقد أخذ الإمام عن ثلاثة كبار فى البصرة هم إسماعيل بن عُلَيَّة ، وعبد الرحمن بن مهدى ، ويحيى بن سعيد القطان ، والشىء الجدير بالذكر هنا هو أن عبد الرحمن بن مهدى هذا هو الذى طلب إلى الإمام الشافعى كتابة «الرسالة» ، ذلك الكتاب النفيس على النحو الذى بيناه تفصيلا فى كتابنا عن الإمام الشافعى .

ومن جملة المدن العراقية التى زارها الإمام أحمد – للجلوس إلى العلماء – مدينة واسط ، وفيها جلس إلى الشيخ العالم العامل الجليل يزيد بن هارون الذى لم يجرؤ الخليفة المأمون على الإقدام على إثارة فتنة خلق القرآن إلا بعد وفاته ، ولقد أوردنا حوارا ساخنا بين رسول المأمون ويزيد بن هارون فى شأن هذه الفتنة عند حديثنا عنها .

فإذا ما انتهى أحمد من الأخذ عن مشايخ العراق يمم وجهه شطر مكة التى زارها مرات خمساً حسبما سلف من القول ، وفيها جلس إلى سفيان بن عيينة ، ثم لم يلبث أن اكتشف حلقة الإمام الشافعى بكل ما حوت من علم غزير ، وفضل كثير ، وجمهور غفير ، فكانت ملازمته له ، وأخذه عنه ، وتأثره به ، وتلمذته عليه ، ولقد أفاد أحمد من الشافعى فقها أكثر مما أفاد حديثاً .

بعد ذلك تبدأ رحلة الإمام أحمد إلى صنعاء لسماع الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعانى على النحو الذى سلفت الإشارة الموجزة إليه ، هذا ونحب أن ننوه

بأننا أولينا كل واحد من هؤلاء العلماء عناية خاصة ، فقدمنا عنه دراسة لم يحل إيجازها دون الوفاء بالغرض ، كما أننا لم ننته من كتابة هذا الفصل إلا وقد وصل الإمام أحمد إلى مرحلة النضوج والاكتمال .

فإذا ما كان الفصل الثالث ، فإننا قد جعلناه للحديث عن هيئة الإمام أحمد ومعالم شخصيته ، فذكرنا وصفه وصفته ومهابته ؛ كما أشرنا إلى زواجه المتأخر ، وزوجاته بالتتابع وأولاده ، كما تحدثنا عن ورعه وزهده وتواضعه ، ورفضه أموال الخلفاء وعطاياهم ، مع كونه فى أشد الحاجة إلى المال ، وهو فى ذلك مماثل للإمام أبي حنيفة ، فكل من الإمامين الجليلين رفض قبول هدايا الخلفاء وأموالهم رفضا باتا ، على أن الإمام الشافعي قبل ذات مرة هبة مالية من الرشيد ، ولكنه وزعها جميعا على الفقراء على باب قصر الخليفة .

كان الإمام أحمد لشدة زهده يكره الشهرة ويضيق بها ذرعا ، وقد طبقت شهرته الآفاق لعلمه وفضله وتقاه وصموده إبان الفتنة ، وكان يرى شهرته بلاء حلّ به ويقول : أريد أن أكون ببعض تلك الشعاب بمكة حتى لا أُعرف . ومرة أخرى يقول : قد بليتُ بالشهرة وإني لأتمنى الموت صباحا ومساء .

هذا وكان الإمام أحمد مهذبا فى سلوكه الاجتماعى ، راقيا فى تعامله مع الناس ، خفيض الصوت رقيق الحاشية ، يشارك الناس فى احتفالاتهم الاجتماعية بالقدر الذى لا ينال من المروءة ، وكان على الرغم من فقره كريما إلى درجة الجود ، والحق أن الحديث عن سلوك الإمام ومروءته حديث طويل ممتع متنوع ، ومن الأفضل الرجوع إليه فى مكانه من آخر هذا الفصل .

فإذا كان الفصل الرابع ، فإن طبيعة المنهج قد وجهتنا إلى تخصيصه لدراسة فكر الإمام أحمد ، وتناول آرائه فى الإمامة والصحابة والسياسة بالدرس والتفصيل ، وأصل العقيدة عند الإمام أحمد هو نفسه ذلك الذى اتفق عليه سائر الأئمة مأثورا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو وحدانية الله سبحانه وأن محمدا عبده ورسوله ، والإقرار بما أتى به الرسل والأنبياء . ولكن الإيمان عند

الإمام أحمد يزيد بالحسنات وينقص بالمعاصى ، وهو هنا يختلف مع بعض الأئمة ، ذلك أن الإمام أبا حنيفة مثلا .. يرى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، ويقول الإمام أحمد إن نقصان الإيمان ينزل بالمرء من الإيمان إلى الإسلام . ويؤمن الإمام أحمد بالقدر خيره وشره ، وقليله وكثيره ، وحلوه ومره ، ومحبوبه ومكروهه وبأن ذلك كله من عند الله ، وبأن الشرك والمعاصى والسرقة والزنا وشرب الخمر كل ذلك بقضاء وقدر . ويكره الإمام أحمد الكلام وأصحاب الكلام . وفيما يختص بالقرآن يرى الإمام أنه كلام الله ، وكلامه سبحانه من صفاته ومن ثم فالقرآن قديم غير مخلوق .

ويرى الإمام أحمد أن الخلافة فى قريش ما بقى فى الناس اثنان منهم ليس لأحد أن ينازعهم فيها ولا يخرج عليهم ، كما أنه يقرّ خلافة الراشدين على ترتيبها التاريخى ، ويرى أن من يقدم عليا على عثمان يكون صاحب بدعة . وبالنسبة إلى خلافة معاوية وواقعتى صفين والجمل فإن الإمام أحمد يمسك عن الحديث فى شأنهما ويقول : دماء صان الله يدى عن ملابستها فأصون لسانى عن الخوض فيها . والصحابة عنده سواء لا يصدر منه فى شأنهم إلا كل قول طيب ، والإمام أحمد عباسى الميل وكان يقول : العباس أبو الخلفاء ، وإنه لما يدعو إلى الغرابة أن يظلّ الإمام أحمد على ولائه للخلافة العباسية على الرغم مما أوقعه به ثلاثة منهم هم المأمون والمعتصم والواثق ، فلقد آذوه وعذبه المعتصم حتى أشرف على التلف ، ولكنه رضى الله عنه لم يكن يصدر فى أحكامه عن ميل ذاتى ، وإنما يصدر فى ذلك عن فهمه للشريعة .

ولما كانت فتنة خلق القرآن وصمود الإمام أحمد فى أتونها تشكل معْلَما بارزاً من معالم شخصيته على النحو الذى أوضحنا فى صدر هذه المقدمة ، فقد أفردنا لها الفصل الخامس من هذا الكتاب مع بسطة فى التناول وتحليل للأحداث ، ومتابعة لكيد مدبريها ، وكشف لبدايتها وأصولها ، فأوردنا كتب المأمون الثلاثة إلى إسحاق بن إبراهيم صاحب شرطة بغداد ، وهى كتب غريبة المحتوى بحيث يُستغرب صدورها من خليفة عرف بالعلم ثم لم يتورع عن أن ينال فيها من علماء المسلمين وسبّهم ، ومن الغريب حقا أن يتبنى المأمون هذه الفتنة ويشعل أولى فتائلها

مع أن فكرة خلق القرآن غريبة عنه ، فإن أول من نادى بها هو الجعد بن درهم مؤدب مروان إبن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، ومن عجب أيضا أن ينادى بشر المريسى المعتزلى اليهودى للأب بهذه الفكرة فى أيام الرشيد فيتوعده الرشيد ويقول : بلغنى أن بشر بن غياث (المريسى) يقول : إن القرآن مخلوق ، ويمضى الرشيد مغيظا متوعدا قائلا : لله علىّ عهد إن أظفرنى به لأقتلنه ، ولذلك فقد توارى بشر طوال حكم الرشيد ، فلما مات الرشيد ظهر ودعا إلى هذه الضلالة .

هكذا تبدو القضية من أولها مشبوهة ، تفوح من جنباتها رائحة المؤامرة الخسيسة على الإسلام وعلماء المسلمين ، ومن ثم كان موقف الإمام أحمد وإرساله فى زورق هو والعالم الشاب ابن نوح إلى المأمون فى طرسوس واستشهاد ابن نوح فى الطريق وقدماه فى القيد إلى غير ذلك من تمام الخبر على النحو الذى فصلناه تفصيلا ، هذا وقد أوردنا رواية الذين شاهدوا محاكمة الإمام أحمد وما وقع عليه من تعذيب ، ولم نهمل رواية المعتزلة التى تبرع الجاحظ بها — وليته ما فعل — ثم أنهينا هذا الفصل بالتعريف ببعض العلماء الأجلاء الشهداء ممن اكتووا بنارها ، وهم محمد بن نوح العالم الشاب ، ونعيم بن حماد ، وأحمد بن نصر الخزاعى الذى قتله الخليفة الواثق بيده ، وأبو يعقوب يوسف البويطى العالم المصرى الشافعى وخليفة الإمام الشافعى فى حلقته بجامع الفسطاط .

ولقد درجنا فى كل كتاب كتبناه عن أحد الأئمة على أن نخصص فصلا للحديث عن مؤهلات الإمام وميزاته التى جعلته يحوز ذلك اللقب ، ويتمتع به عن جدارة دون سائر علماء المسلمين ، ومن ثم فقد خصصنا هذا الفصل السادس لذكر هذه المؤهلات وجعلنا عنوانه «ابن حنبل الإمام» .

والحق أن ابن حنبل كان مؤهلا للإمامة كل التأهيل ، حائزا لصفاتها عن تمام الجدارة وكمال الاستحقاق ، فقد كان بحرا متدفقا بالعلم منذ صغره ، حتى إن الهيثم بن جميل الحافظ المحدّث نزيل أنطاكية قال فيه : لو عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه ، ويقول الإمام الشافعى : رأيت ببغداد شابا إذا قال : حدثنا ، قال الناس كلهم : صدق ، فقيل له : من؟ قال : أحمد بن حنبل .

إن الحديث عن علم الإمام أحمد وشهادة أعيان علماء زمانه فيه لما يستعصى على الحصر ، فإذا صاحب العلم تقوى كانت صفة الإمامة أقرب إلى صاحبها . وليس من شك فى أن أحمد بن حنبل كان من أكثر الناس ورعا إن لم يكن أورع أهل زمانه ، فهذا يحيى بن معين يقسم على زعامة أحمد للفقه قائلا : والله ما تحت أديم السماء أفقه من أحمد بن حنبل . ليس فى شرق ولا غرب . وفى مقام الفقه والورع معا ، يقول الإمام الشافعى : خرجت من بغداد وما خلفت بها أحداً أتقى ولا أورع ولا أفقه من أحمد بن حنبل .

وهذا حرملة بن يحيى التجيبى المصرى تلميذ الشافعى يجمل صفات الإمام ابن حنبل قائلا : عالم العصر ، وزاهد الوقت ، ومحدث الدنيا ، ومفتى العراق ، وعلم السنة ، وباذل نفسه فى المحنة ، وقل أن ترى العيون مثله ، كان رأسا فى العلوم والعمل ، والتمسك بالأثر ، ذا عقل رزين ، وصدق متين ، وإخلاص مكين ، وخشية ومراقبة العزيز العليم ، وذكاء وفطنة ، وحفظ وفهم ، وسعة علم ، هو أجل من أن يمدح بكلمى ، وأن أفوه ذكره بفمى .

ومن مؤهلات الإمام أن يأخذ عنه شيوخه ويروى عنه أساتيذه . وقد حاز هذا المؤهل الفذ كل من مالك والشافعى ، وها هو الإمام أحمد يمثّل نفس المكانة فى نفوس شيوخه فيروى عنه من هؤلاء الشيوخ عبد الرحمن بن مهدى وعبد الرزاق بن همام ووكيع بن الجراح ويزيد بن هارون وغيْرهم .

ومن مؤهلات الإمام أن يكون قدوة ، وأن يكون ثابت الجأش قوى الفؤاد ، وقد كان ابن حنبل كذلك ، وإن نظرة أو بعض نظرة إلى مواقفه إبان الفتنة تضفى عليه صفة إمام المسلمين .

وأما الفصل السابع من هذا الكتاب فقد خصصناه للحديث عن فقه ابن حنبل ومؤلفات الإمام نفسه ، فتحدثنا عن فقه الإمام ودخوله إليه من باحة الحديث الشريف ، وكان النص عنده هو الأساس ، كما أنه لم يكن يفتى بالرأى بل كان يحرّمه ويحمل بشدة على أصحابه – أى أصحاب الرأى – كما أنه لم يقل

بالقياس ، وأما مصادر فقهه فهى على الترتيب · كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتوى الصحابة ، ثم القياس فى أضيق الحدود إذا دعت الضرورة ، وهو أمر وجد الإمام نفسه مضطراً إلى استعماله فى آخر المطاف ، وهناك أيضا مصادر فرعية لفقه الإمام أحمد هى الاستصحاب والمصالح المرسلة ، والذرائع .

كذلك أوضحنا فى هذا الفصل مظاهر التشدد ومظاهر التيسير فى الفقه الحنبلى ، ثم ذكرنا الكتب التى ألفها الإمام ، ووقفنا غير قليل عند المسند ، والمنهج الذى اتبعه الإمام فى جمعه وتأليفه ، وملاحظاتنا حول تكرار بعض الأحاديث بنفس السند ، الأمر الذى يدعو إلى إعادة إخراج هذا الكتاب الفريد ، وكان طبيعيا أن نشير إلى المسانيد السابقة التى استقى الإمام أحمد أحاديثه منها ، وهى من الكثرة بمكان .

فإذا ما كان الفصل الثامن والأخير ، فإنه من الطبيعى أن يكون خاصا بالتعريف بتلاميذ الإمام أحمد ومؤلفاتهم ، وهم فى مجملهم باقة من العلماء تتضوع عطرا وتفوح طيبا ، إنه من الصعب إحصاؤهم ، ومن ثم فقد وقع اختيارنا على أشهرهم وأكثرهم صلة بالإمام ، وأوفرهم إنتاجا لصالح المذهب .

لقد تحدثنا فى هذا الفصل عن عبد الملك الميمونى ، وأبى بكر المرّوذى ، ومهنأ بن يحيى ، وأبى بكر الأثرم ، وإبراهيم بن إسحاق الحربى ، وصالح وعبد الله ابنى الإمام أحمد ، وكلاهما كان عونا لأبيه ، كاتباً له ، مشيرا عليه ، آخذا بيده فى المحنة . إن الحديث عن هؤلاء التلاميذ وصفاتهم وعلمهم وسير حياتهم لما يثلج القلب ويسر الخاطر ، ويكفيهم شرفا أنهم تلامذة أحمد بن حنبل .

على أن الذى يتحدث عن تلامذةالإمام ابن حنبل لا يستطيع أن يتجاهل ابا بكر الخلال ، لكننا نسارع إلى القول بأن الخلال لم ير الإمام أحمد ، إنما هو تلميذ المرّوذى ألصق تلاميذ الإمام به ، ولكن أهمية أبى بكر الخلاّل تكمن فى

كونه ناقل فقه الإمام أحمد وجامعه فى « الجامع الكبير » فهو والأمر كذلك يعتبر فى الفقه الحنبلى مماثلا لسحنون فى الفقه المالكى . فكلاهما جمع فقه المذهب من كبير تلاميذ إمامه ولم ير أحد منهما إمام مذهبه .

ثم نعود مرة أخرى لنقرر أن من يذكر أبا بكر الخلال لا مفر له من أن يذكر تلميذه أبا القاسم الخرقى وكتابه « المختصر ». لأن هذا الكتاب أعنى « المختصر » هو أشهر كتاب فى الفقه الحنبلى ، وقد بلغت شروح علماء الحنابلة وتعليقاتهم عليه نحوا من ثلثمائة شرح . على أن أكبر شروحه وأنفسها هو « المغنى » لموفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسى المتوفى سنة ٦٢٠ هـ .

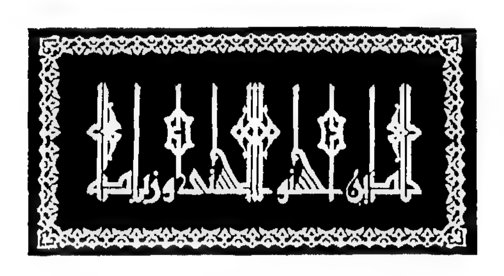
وتبعا لعادتنا فى كل كتاب ألفناه عن الأئمة فقد ذيلنا هذا الكتاب بنماذج من الفقه الحنبلى استقيناها من كتاب المقنع لابن قدامة . وتلك النماذج هى باب الشفعة ، وباب الوديعة ، وباب اللقطة .

وبعد ، فإنى آمل أن أكون قد صادفت بعض التوفيق فى تعريف المسلمين بواحد من أعظم أئمتهم علما وورعا ، وتقى وتواضعا ، وجرأة فى الحق ، وحربا على الباطل ، واستمساكا بالسنة الشريفة هو الإمام الجليل أحمد بن حنبل .

أسأل الله أن يتقبل هذا الجهد خالصا لوجهه الكريم ، وأن يمنّ علينا بالتوفيق والسداد ، ويجنبنا مزالق الخطأ ومهاوى الزلل ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير وهو نعم المولى ونعم النصير .

مصطفى محمد الشكعة .

مكة المكرمة فى ٨ من جمادى الثانية ١٤٠٢ هـ
٢ من إبريل ١٩٨٢ م



أحمد بن حنبل

١٦٤ - ٢٤١ هجرية

الفصل الأول

المنشأ والمربي

* أحمد فى بنى شيبان .
* والدة أحمد .
* أحمد الصغير يتعلم ويتورع





الفصل الأوّل

المنشأ والمربى

يقع ترتيب أحمد بن حنبل بين المشهورين من أئمة أهل السنة الرابع من حيث الترتيب الزمنى . فقد ولد سنة أربع وستين ومائة . وتوفى سنة إحدى وأربعين ومائتين من الهجرة النبوية وأما من حيث قدره العلمي والدينى فنحن أمام رجل فريد فى الاستمساك بعقيدته . متميّز فى علمه ومعرفته . شجاع فى رأيه ومسلكه . لا يخشى فى الله لومة لائم . خاشع لربه . صائم قائم . ورع زاهد . يرعى الله فى كل قول وفعل . ويخشاه فى كل حركة ولمحة . ويتمثله فى كل لحظة وطرفة عين ويتخذ من رسول الله ﷺ إماما فى القول والفعل وأسلوب العيش ونمط الحياة .

— ١ —

أحمد فى بنى شيبان :

فى شهر ربيع الأول – الشهر المبارك الذى ولد فيه سيد الخلق محمد بن عبد الله ﷺ – أنعم الله على أمة المسلمين بمولد طفل من بنى شيبان هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله . وكان ذلك فى سنة أربع وستين ومائة بعد الهجرة .

واختلف المؤرخون فى موطن ميلاده . فمن قائل إنه ولد بمروفى بلاد فارس حيث كان يعمل أبوه وجده من قبل . ومن قائل إنه جئ به إلى بغداد وهو جنين فى بطن أمه ثم كان المولد فى مدينة السلام . وهذا القول الأخير هو الراجح عند جمهرة المؤرخين .

يقول الإمام أحمد : لم أر جدى ولا أبى [١] . أى أنه شب يتيما . مثله فى ذلك مثل أستاذه الإمام محمد بن إدريس الشافعى .

(١) كتاب المصعد الأحمد فى ختم سند الإمام أحمد عن مقدمة الشيخ شاكر للمسند صفحة ٣٦ .

فأما أبوه محمد فتجمع الروايات على أنه توفى شابا فى الثلاثين . ونحن نقدر أن وفاته كانت فى السنة التى ولد فيها أحمد أى سنة أربع وستين ومائة . وكان محمد فارسا من فرسان المسلمين يلبس ملابس الغزاة . فقد ذكر المؤرخون أنه كان جنديا . ثم خصص الأصمعى نوع هذه الجندية فقال إنه كان قائدا[٢] . غير أن أحمد الطفل النابه لم يكتب له ما يكتب للكثرة الوافرة من الأطفال كى ينعم برعاية الأب وحنانه ، فقد مات القائد الشاب قبل أن يملأ هو الآخر ناظريه من وليده الصغير الذى سوف يصبح واحداً من أشهر رجال الإسلام . بل واحداً من القمم الشامخة فى عالم الإسلام وفى دنيا الإنسان .

وأما جد أحمد فهو حنبل بن هلال بن أسد الذى كان بحكم قبيلته ولياقته واحدا من رجال الدولة المرموقين . فقد كان واليا على مدينة سرخس وما حولها من أرض خراسان ، ولم يكن مجرد وال وحسب ، وإنما كان ذا نشاط فعال فى مجريات الأمور . وإسهام مؤثر فى أخطر التحولات السياسية فى دنيا المسلمين . ونعنى بذلك الاشتراك فى إسقاط دولة بنى أمية وإنشاء دولة بنى العباس . ومن ثم فقد وصف حنبل بأنه واحد من أبناء الدعوة . والمقصود بالدعوة هنا الدعوة العباسية ، ذلك أن العباسيين لم يصلوا إلى كرسى الخلافة بين عشية وضحاها وإنما سبق ذلك تخطيط دقيق . وتربص يقظ . وعمل موصول . وانتظار غير قصير المدى .

إن المرء ينسب دائما إلى أشهر أجداده . سواء أكان هذا الجد بعيدا أم قريبا ، فالإمام مالك على سبيل المثال نسب إلى جده البعيد « ذى أصبح » . اليعربى القحطانى ، ومن ثم كان يلقب بالأصبحى . ذلك أن ذا أصبح واسمه الحارث بن عوف بن مالك كان سيد قومه ، وهو الجد السابع للإمام مالك . ونجد الإمام محمد بن إدريس الشافعى ينسب إلى جده الثالث واسمه شافع بن السائب . صحيح أن السائب كان سيدا من سادة قريش وواحدا من قوادهم فى

---

(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى ص ١٤ .

غزوة بدر . ووقع أسيرا فى أيدى المسلمين وافتدى نفسه . ثم أسلم ولقى من رسول الله ﷺ تكريما وترحيبا لما اتصف به من فطنة . ولما عرف عنه من عقل . ولكن الشافعى فضل – فيما يبدو لنا – أن ينسب نفسه إلى شافع . لأن شافعا نشأ على الإسلام فتى صغيرا . وذلك على عكس السائب الذى حارب الرسول فى بدر ثم أسلم فحسن إسلامه .

فإذا كان الأمر متعلقا بالإمام أحمد فإننا نجده منسوبا إلى جده الأول – أى والد أبيه – حنبل . لأنه فيما بدا لنا كان ذا شأن فى الحكم . وصاحب أثر فى إنشاء الدولة العباسية . ومن ثم عرف الإمام بأحمد بن حنبل . وصارت النسبة إليه بلفظ حنبلى . تماما مثل الأصبحى فيما يتصل بمالك والشافعى فيما يتصل بمحمد بن إدريس .

إن الإمام أحمد شيبانى ربعى نزارى . يلتقى مع رسول الله ﷺ فى نزار ذلك أن كلا من ربيعة ومضر كانا أخوين وهما ابنا نزار أحد جدود الرسول ﷺ .

فأحمد من ولد شيبان بن ذهل بن ثعلبة . وليس من ولد ذهل بن شيبان حسبما تصور بعض الروايات وإن ذهل بن ثعلبة هو عم ذهل بن شيبان(٣) .

وكان بنو شيبان من أصحاب السطوة والنفوذ والصدارة فى الجاهلية والإسلام ، ويبدو أن صدارة ذهل بن شيبان ذلك الذى مر ذكره قبل قليل لم تكن محصورة فى باب المحامد وحدها ، وإنما عرفت أيضاً بالعدوان والغارات إلى المدى الذى جعل أحد شعراء بنى العنبر يضج منهم بالشكوى ، ويستغيث ، ويرمى قومه بالتخاذل لتواكلهم فى نصرته . فقال الأبيات المشهورة :

لَوْ كنتُ من مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِى
بَنُو اللقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا

---

(٣) تاريخ بغداد ٤/٤١٣ .

إذنْ لقامَ بِنَصْرِى معشرٌ خُشُنٌ

عِندَ الحفيظةِ إنْ ذُو لُوثَةٍ لَانَا

قومٌ إذَا الشرُّ أَبْدَى نَاجذَيْهِ لهمْ

طارُوا إليهِ زُرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا

لا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حينَ يَنْدُبُهُمْ

للنَّـائبـاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا

لكنَّ قَوْمِى وإنْ كَانُوا ذوى عَدَدٍ

لَيْسُوا من الشرِّ فى شىءٍ وإنْ هَانَا

يـجزون من ظُلْمِ أهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً

ومِنْ إسَاءَةِ أَهْلِ السُّوء إحْسَانَا

كأنَّ رَبَّكَ لمْ يَخْلُقْ لِخَشْيَتِهِ

سِوَاهُمُ مِنْ جميعِ النَّاسِ إنْسَانَا

إن هذه المقطوعة الشعرية من الشهرة عند دارسى الأدب بمكان . لأنها المقطوعة الأولى فى كتاب الحماسة لأبى تمام . أو الحماسية رقم واحد حسب التسمية الفنية لمقطوعات ديوان الحماسة . ومن الطريف أن يكون استهلال أول كتاب من كتب الحماسة بمقطوعة شعرية موضوعها موصول الأسباب ببنى شيبان أو بالأحرى ببطن من بطونهم وهى بطن ذهل بن شيبان .

وقبيلة شيبان سيدة بين قبائل ربيعة فى الجاهلية والإسلام بحيث جرى المثل باحترامها وإكبارها ومراعاة جانبها ؛ فإن العرب الأقدمين يقولون : إذا كنت فى ربيعة فكاثر بشيبان . وفاخر بشيبان . وحارب بشيبان . وشيبان هذا الذى يكاثر ويفاخر ويحارب به هو شيبان بن ثعلبة الحصن [٤] الجد الأعلى لأحمد بن حنبل .

---

(٤) تاريخ بغداد ٤/٤١٤ .

ومن القضايا الطريفة أنه لم يتوفر لبطن من بطون القبائل العربية ماتوفر لشيبان فى ربيعة من عدد وعزة وشجاعة تؤدى إلى المكاثرة والمفاخرة والمحاربة . دلك أننا لو أخذنا قبيلة كبرى كقيس أو خندف على سبيل المثال وجدناهم يقولون : إذا كنت فى قيس فكاثر بعمرو بن صعصعة وحارب بسليم بن منصور وفاخر بغطفان بن سعد . وإذا كنت من خِنْدِف . فكاثر بتميم وفاخر بكنانة وحارب بأسد(٥) .

وهكذا تتميز شيبان بين جميع بطون ربيعة بصفات لم تجتمع لبطن واحدة من بطون سائر قبائل العرب .

أما بنو شيبان فى الإسلام فكانوا ذوى همة مشرفة . وصورة مشرقة . فما أن تبدأ الفتوح الإسلامية الباكرة فى خلافة الصديق أبى بكر حتى يبرز فارس شيبانى هو المثنى بن حارثة فيبلى البلاء الحسن ويقود الجيوش الإسلامية الظافرة عند الهجوم على العراق ويتناقل المسلمون والفرس أخباره . وكان أبو بكر لا يعرفه . فقد أسلم المثنى متأخرا فى العام التاسع من الهجرة على وجه التحديد . يقول أبو بكر : من هذا الذى تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ فيجيبه القائد الفارس قيس بن عاصم المنقرى سيد تميم . بل سيد أهل الوبر حسبما سماه رسول الله ﷺ ، فقد خلع الرسول هذا اللقب على قيس حين وفد عليه على رأس وفد تميم . يقول قيس مجيبا أبا بكر فى شأن المثنى : أما إنه غير خامل الذكر . ولا مجهول النسب . ولا قليل العدد . ولا ذليل العارة . ذلك المثنى بن حارثة الشيبانى .

إن المثنى هو أول من أغار على العراق – أعنى على دولة الأكاسرة – من المسلمين . فأمده أبو بكر بخالد بن الوليد . فاجتمع حينئذ فارسان من أشجع فرسان الدنيا فكان أمرا طبيعيا أن يبدأ بهما الفتح الإسلامى . إن حديث المثنى بن حارثة الشيبانى القائد الفارس حديث طويل ليس هنا مكانه . ولكن الذى نحب

---

(٥) المصدر والصحفة

أن نشير إليه أنه واحد من ثمار الشجرة السامقة التى إليها ينتسب إمام المسلمين أحمد بن حنبل .

إن البطن التى ينتمى إليها أحمد فى شيبان منجب للرجالات . ففضلا عن المثنى تذكر كتب الأنساب أنه بطن كثير العلماء والخطباء والشعراء والنسايين . فمنه على سبيل المثال محارب بن دثار السدوسى الشيبانى الكوفى . المكنى بأبى المطرف . العالم الزاهد الفارسى الفقيه المحدث الشاعر . الذى ولى قضاء الكوفة ثم عزل ثم أعيد وظل قاضيا حتى توفى سنه ١١٦هـ وكان قد أكره على تولى القضاء . وهو صاحب قول سديد آخذ بمجامع القلوب إنه القائل : لما أكرهت على القضاء بكيت وبكى عيالى . فلما عزلت عن القضاء بكيت وبكى عيالى . وكان محارب يرى الإرجاء فى شأن عثمان وعلى . وله فى ذلك شعر كثير منه قوله[٦] :

يَعِيبُ عَلَيَّ أقوامٌ سَفَاهاً ... بِأَنْ أرجو أَبَا حَسَنٍ عَلِياًّ

وإرْجَائِى أَبَا حَسَنٍ صوابٌ ... عن العُمَرَيْنِ بَرًّا أو شَقِيًّا

فإنْ قَدَّمْتُ قوماً قَال قومٌ ... أَسَأْتَ وكنتَ كذَّاباً رَدِيًّا

إذَا أَيْقَنْتُ أَنَّ اللهَ رَبِى ... وَأَرْسَلَ أَحْمَدًا حقًّا نَبِيًّا

وأَنَّ الرُّسْلَ قدْ بُعِثُوا بِحَقٍّ ... وأنَّ اللهَ كانَ لَهُمْ وَلِيًّا

فَلَيْسَ عَلَيَّ فى الإرْجَاءِ بأس ... وَلاَ لَبْسٌ وَلَسْتُ أَخافُ شَيًّا

ومن هذه البطن من شيبان الشاعر عمران بن حطان . وكان رأس القعدة من الخوارج الصفرية وخطيبهم وشاعرهم . عاش مطاردا من قبل بنى أمية . وكان على الضد من قريبه محارب بن دثار . فذاك كان مرجئا أما هذا فخارجى دموى . فحين اغتال عبد الرحمن بن ملجم أمير المؤمنين على بن أبى طالب كان عمران أول الشامتين فى الإمام الشهيد . وقال فى ذلك شعراً كريها يمجد الجريمة

---

(٦) الأغانى ١١/٧ بولاق .

الشنعاء التى اقترفها ابن ملجم . ويصورها على أنها عمل دينى تقرب به إلى الله ، والبيتان هما :

لِلَّهِ دَرُّ المُرَادِيِّ الذى سَفَكَتْ
كَفَّاهُ مُهْجَةَ شَرِّ الخَلْقِ إنْسَانَا

أَمْسَى عَشِيَّةَ غَشَّاهُ بِضَرْبَتِهِ
مِمّا جَنَاهُ مِنَ الآثَامِ عُرْيَانَا

على أن لعمران شعراً آخر يتسم بالإجادة ويفيض بالحياة يمجد فيه الموت فى سبيل العقيدة التى كان يؤمن بها . فحين قتل رفيقه أبو بلال ابن أدية قال :

لقدْ زادَ الحياةَ إلىَّ بُغْضاً وَحُبًّا لِلْخُرُوجِ أَبُو بِلَالَ
أُحَاذِرْ أنْ أموتَ على فِراشِي وأرجُو الموتَ تحتَ ذُرَا الْعَوَالِى
ولوْ أنِّى علمتُ بأن حَتْفِى كَحَتْفِ أَبِى بِلالٍ لَمْ أُبَالِ
فَمَنْ يكُ هَمُّهُ الدنْيَا فإنِّى لَهاَ - واللهِ ربِّ البيتِ - قَالِ

وهكذا تجمع هذه البطن من شيبان بين الأضداد فكرا المشهورين ذكرا .

ولم يكن لأحمد إخوة أو أخوات . وإنما كان له عمّان يساكنانه فى بغداد هما عبد الله بن حنبل وإسحاق بن حنبل . ولقد كان إسحاق جارا لأحمد فى المسكن . وكان يتلقى عنه عندما كبر بين من تلقوا عليه من الخلق حين صار أستاذا إماما .

فأما منازل بنى شيبان فى الإسلام . فكانت البصرة مساكنهم . وحين كبر أحمد واشتد عوده وأخذ يتردد على الأمصار طلبا للعلم . كان يختلف إلى البصرة فإذا نزل بها صلى فى مسجد فيها يعرف بمسجد مازن . فلما سئل فى ذلك قال : إنه مسجد آبائى .

لقد كان أحمد بن حنبل عربيا صليبة . ربعى الأصول ، نزارى النجار .

وهو مع ذلك لم يفخر يوما بعروبته هذه حتى إن الفقيه الجليل يحيى بن معين رفيق حياته وصديقه يقول : ما رأيت خيرا من أحمد بن حنبل . ما افتخر علينا بالعربية قط ولا ذكرها[7] . وذكر يحيى بن معين لهذا الخبر على هذا النحو يعنى أن العصبية العربية كانت تسيطر على العرب آنذاك . فيفخرون بها على سائر المسلمين من أهل الأمصار المفتوحة . وتلك بقية من جاهلية . لا يسمح الإسلام بها . ولكن بعض القوم أصر عليها ، فكانت سببا من أسباب انتشار الشعوبية التى أسهمت فى القضاء على دولة بنى أمية .

– ٢ –

والدة أحمد :

إنها صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك بن شيبان[8] ، فهى شيبانية مثله ، وهى ليست من عامة شيبان . وإنما هى حفيدة لواحد من سادتهم هو عبد الملك بن سوادة بن هند الشيبانى الذى كان من وجوه بنى عامر . عاشت فى كنفه وربيت فى رعايته وكان كريما مضيافا ، تنزل عليه قبائل العرب فيضيفهم . وكان محمد بن حنبل والد أحمد نزل بهم فتزوج صفية . تلك المرأة الطاهرة الباذلة . التى أهدت أحمد بن حنبل إلى دنيا المؤمنين وعالم الموحدين .

لقد وهبت صفية حياتها كلها لطفلها اليتيم ، واختارت من أجله الترمل فى سن الشباب نهجاً لحياتها . وقد كان الكثيرات من نساء العرب يفضلن الزواج إذا مات الزوج صونا للعفة وحفاظا على السمعة ، بل إنه كان من الأمور المتعارف عليها أن تتزوج المرأة إذا ترملت أو طلقت ، أما صفية – والطهر أصيل فى أردانها ، والعفة ركن من بنيانها – فقد منحت شبابها لوليدها ، ذلك أنها كانت دون الثلاثين حين مات زوجها ، والزوج مات شابا فى الثلاثين حسبما سلف القول . والزوجة فى العادة تكون أصغر سنا من الزوج إلا فى حالات

(٧) تاريخ بغداد ٤/٤١٤ .

(٨) المصعد الأحمد ص ٣٦ من مقدمة المسند .

قليلة ، ومن ثم فإننا نستنتج أن صفية كانت فى الخامسة والعشرين أو نحوها حين مات زوجها محمد بن حنبل ، فملأت على ولدها حياته حنانا وأنسا ، وكان أحمد حتى بعد أن كبر لا يخفى أثرها على سلوكه ، وشأن البررة من الأبناء كان أحمد يطيع توجيهاتها ، ويخشى مخالفتها ، ولا يأتى عملا يظن أنها تعترض عليه ، بل إنها كانت إذا رأته يمعن فى الاستيقاظ من نومه مبكرا ويغادر البيت إلى حيث يدرس أمسكت بثيابه طالبة إليه الانتظار حتى يؤذن للناس أو حتى يصبحوا[٩] ويذهب أحمد فى طاعة أمه والحرص على رضاها مذهبا بعيدا حتى إنه رفض عبور دجله من شاطئه الغربى إلى شاطئه الشرقى إبان فيضانه ليسمع مع إخوانه من جرير بن عبد الحميد عالم الرى ، ولما خاطبه أترابه فى ذلك أجاب : إن أمى لا تدعنى ، وكان عمره عندئذ اثنتين وعشرين سنة .

والحق أننا نرى ثمت تشابها كبيرا بين والدة الشافعى ووالدة أحمد إن والدة أحمد ترملت وهى شابة وتفرغت للعناية بصغيرها وكذلك فعلت والدة الشافعى وكانت هى الأخرى فى ربيع شبابها ، وإن والدة أحمد اختارت لولدها العلم نهجا وسبيلا وكذلك فعلت والدة الشافعى حين تركت غزة واتجهت به إلى مكة .

وكان أحمد وحيدا بلا أخ أوأخت ، وكذلك كان الشافعى . ومع ذلك فإن كلا من السيدتين الفاضلتين وهبت حياتها كاملة لولدها فكانت ثمرة هذه العناية أن صار كل منهما واحدا من أئمة البشرية .

فإذا عرفنا أن الإمام ابن حنبل لم يتزوج قبل سن الأربعين أدركنا أن السبب فى ذلك هو ما هيأته له أمه من سبيل العناية وغامر الاهتمام . وإن كنا لانعرف على وجه التحديد فى أى سنة توفيت صفية الشيبانية الأم العظيمة لذلك الإمام العظيم .

---

(٩) مناقب الإمام احمد لابن الجوزى ص ٢٥ .

أحمد الصغير يتعلم ويتورع :

كان الصبى الصغير أحمد بن محمد بن حنبل قد اتجه إلى حفظ القرآن وتعلم اللغة شأن كل أبناء المسلمين فى طفولتهم ؛ ولكن أحمد لم يكن يكتفى بالقدر الذى يتعلمه فى الكتاب فى الصباح . وإنما كان يختلف إلى الديوان فى المساء حين اشتد عوده لكى يروض نفسه على تجويد الكتابة وإتقانها . وقد ساعده على ذلك أن عمه كان يعمل فى أحد الدواوين . إنه يقول فى هذا الشأن : كنت وأنا غليم اختلف إلى الكتاب ، ثم اختلفت إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة .

وما أن يحس أحمد الصغير القدرة على الكتابة حتى يسعى إلى سماع الحديث وكتابته ، والخبر الشائع أن أحمد سمع أول ماسمع من هُشَيْم بن بشير الواسطى ، غير أن الحقيقة أنه سمع أول ما سمع من أبى يوسف . إنه يقرر ذلك فى قوله : أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف(١٠) .

وفى قول آخر للإمام : طلبت الحديث وأنا ابن ست عشرة ، وأول سماعى من هشيم سنة تسع وسبعين ومائة(١١) .

إنه ليس ثمت تضارب بين هذا القول والقول الذى سبقه . فالإمام يقول : طلبت الحديث وأنا ابن ست عشرة فيكون قد أراد بذلك جلوسه إلى أبى يوسف . ثم يردف قائلا : وأول سماعى من هشيم سنة تسع وسبعين ؛ ذلك أن جلوسه إلى أبى يوسف لم يكن جلوسا طويلا . وإنما الجلوس الحقيقى هو الملازمة للأستاذ طبقا لأنماط العصر . ولقد جلس أحمد إلى هشيم مدة زمنيةتتراوح بين أربع وخمس سنين فلقد مات هشيم سنة ثلاث وثمانين ومائة وكان جلوسه إليه جلوسا موصولا متفرغا .

---

(١٠) المناقب لابن الجوزى ص ٣٣ .

(١١) حلية الأولياء ١٦٢/٩ .

وكان أحمد . ذلك الصبى الصغير ، يرعى الله ويخشاه وكأنه رجل كبير ، لقد كان أحمد يعيش طفولته فى عصر الرشيد ، وكان الرشيد كثير الإقامة فى الرقة التى اتخذ منها مصيفا ومنتجعا ، وكان جنده البغداديون يصاحبونه فى رحلاته تلك ، ومن هناك يكتبون لزوجاتهم فى بغداد فكان بعض هؤلاء الزوجات يلجأن إلى أحمد ليقرأ لهن كتب أزواجهن ، ثم يملين عليه رد الخطابات . وربما ترخصت الزوجة فى كلمة غير محتشمة تمليها على أحمد كى يضمنها الخطاب إلى الزوج فكان يرفض أن يثبت مثل هذه الكلمات ولا يكتب إلا اللفظ النظيف والعبارة المحتشمة .

ولم يكن التزام أحمد الصغير جانب التقوى موقوفا على عمل بذاته ، وإنما كان يتحرى النقاء والاستقامة فى كل أمر يقوم به . وفى كل شأن يكلف بإتيانه . ويروى فى هذا السبيل أن عمًّا له كان يراسل أحد الولاة بأخبار بغداد إذا غاب الخليفة عنها حتى يرفعها إليه ليكون الخليفة على علم متتابع بما يجرى فى عاصمته ، ثم توقفت الرسائل بعض الوقت ، فلما عاد الوالى إلى بغداد خاطب عم أحمد فى ذلك ، فقال له : لقد كنت أبعث بها مع أحمد ابن أخى ، ثم أحضر أحمد لكى يستشهد به على صدق قوله ويستفسر منه عن مصير تلك الأخبار ، ولكن أحمد يعترف بتسلمه هذه « التقارير » ويقول لعمه فيما يشبه الاستنكار : أنا أرفع مثل تلك الأخبار ؟ لقد رميت بها فى الماء . وهنا يردد الوالى الآية الكريمة : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ثم يقول فيما يشبه الاستغراب والأسف : هذا غلام يتورع ، فكيف نحن ؟[١٢]

لقد كان أحمد الصغير مثلا للخلق والدين والاستقامة بين أترابه من الغلمان . وكان الآباء من الأغنياء ينظرون إلى هذا الغلام الفقير مالا ، الغنى بالخلق سلاحا ويقول أحدهم : إنى أنفق على أولادى وأجيئهم بالمؤدبين لكى يتأدبوا فما أراهم يفلحون ، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم . انظروا كيف ؟[١٣]

---

(١٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى ص ٢٢ .

(١٣) المصدر السابق ص ٢١ .

إن حياة الاستقامة وسلوك التقوى والنشاط إلى التعبد والخلوص إلى العبادة لازمت أحمد منذ أن كان صغيرا . إن إبراهيم بن شماس العابد الزاهد الذى استشهد فى منطقة سمرقند سنة إحدى وعشرين ومائتين يشهد الغلام أحمد بن حنبل يتعبد بالليل فيقول «كنت أرى أحمد بن حنبل يحيى الليل وهو غلام» .

إن الهيثم بن جميل الفقيه الحافظ نزيل أنطاكية – وكان من أصحاب الحديث ببغداد – يقول عن أحمد بن حنبل الصغير الذى يطلب العلم : إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه .

إن الهيثم بن جميل لم يكن يلقى القول على عواهنه . فلقد كان إماما فى الحديث . روى عن الأئمة مالك والليث وابن المبارك وغيرهم . وهو ليس كذلك وحسب . وإنما هو واحد من أولياء الله . ما مشى إلى حرام قط . إنه وهو يحتضر وقد سجى نحو القبلة . قامت جاريته تغمز رجليه حتى تتبين مدى ما فى جسمه من حياة . فإذ به يقول لها : اغمزيهما . فالله يعلم أنهما ما مشتا فى حرام قط [١٤] .

إن هذا الرجل القطب الهيثم بن جميل يقول عن أحمد : إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه . ولقد صدقت فراسة الهيثم أبى سهل الحافظ وعاش الفتى . وصار إماما عظيما . وكان حقا حجة على أهل زمانه . ونحن نضيف ليس زمانه وحسب وإنما ما والى زمانه من أزمان .

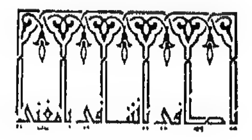


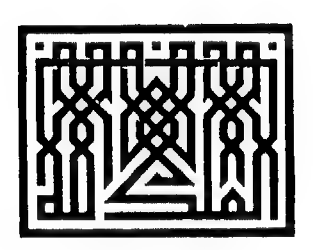
(١٤) تهذيب التهذيب ١١/٩٠ .

الفصل الثانى

شيوخ ابن حنبل وطلبه العلم

* أحمد يطلب العلم فى بغداد
* أحمد يرحل فى طلب الحديث
* هشيم ويزيد بن هارون وابن عليّة وابن عيينة وعبد الرزّاق .
* مرحلة النضوج





الفصل الثانى

شيوخ ابن حنبل وطلبه العلم

— ١ —

أحمد يطلب العلم فى بغداد :

كانت حياة أحمد بن حنبل مكرسة لطلب العلم . والسعى وراء المعرفة . والتفرغ لحديث رسول الله ﷺ . والوقوف على أصول الفقه الإسلامى . فما رئى أحمد إلا وهو يحمل محبرة وقلما . وهو صاحب القول الحضارى العلمى الجليل . مع المحبرة إلى المقبرة .

لقد مربنا فى الفصل السابق طرف من حياة أحمد فى صغره . قضاها فى التعلم ورياضة نفسه على إجادة الكتابة والتحرير مع استمساك بالعبادة نهارا والقيام ليلا .

فأما عن طلبه الحديث فإنه يقول : أول ماكتبت عنه الحديث أبو يوسف[١] . فلقد كان أبو يوسف قاضى القضاة فى بغداد . وكان علما من أعلام الفقه الإسلامى ومحدثا صدوقا وعالما جليلا . وهو تلميذ الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان . وقد وفينا أبا يوسف بعض حقه عند حديثنا عن تلاميذ أبى حنيفة فى الكتاب الخاص بالإمام الأعظم .

كان مجلس أبى يوسف مجلسا فخما وكانت حلقته مليئة بأعلام السامعين . ولكنه كان ينتسب إلى مدرسة الرأى حسبما هو معروف . بل هو رأسها بعد أستاذه أبى حنيفة . غير أن الفتى اليافع أحمد بن حنبل كان قد اتخذ موقفا مبكرا من

---

(١) المناقب لابن الجوزى ص ٣٣ .

فقه الرأى ، فقرأه فى كتب أصحابه وجلس بعض الوقت إلى أبى يوسف ثم قرر الانصراف إلى فقه الأثر الذى كان يمثله فى بغداد آنذاك هُشَيْم بن بَشِير الواسطى .

ذهب أحمد فى العام نفسه يستمع إلى هُشَيْم ، بل ينقطع إليه ، ويتوفر على حلقته ، ويتخذ منه أستاذا وشيخا ، ملتزما بذلك التقليد العلمى العتيد الذى يحتم التفرغ إلى أستاذ واحد بصفة أساسية . ولا بأس من الاختلاف إلى غيره اختلاف غير المتفرغ . لقد فعل أبو حنيفة ذلك مع أستاذه حماد . وفعل ذلك أيضاً مالك مع أستاذه ابن هرمز . والنهج نفسه سلكه الشافعى مع أستاذه مالك .

لقد تفرغ أحمد للجلوس إلى هشيم بن بشير وكان إماما فاضلا ثقة زاهدا صدوقا . يقول الإمام أحمد كتبت من هشيم سنة تسع وسبعين ولزمناه إلى سنة ثلاث وثمانين ومائة ، وكتبنا منه كتاب الحج نحوا من ألف حديث . وبعض التفسير ، وكتاب القضاء ، وكتبا صغارا . ويسأل صالح بن الإمام أحمد والده قائلا : أيكون ثلاثة آلاف ؟ فيجيبه والده قائلا : أكثر(٢) .

نستطيع إذن أن ندرك أى قدر من المعرفة استطاع أحمد أن يتلقاه من هشيم ، وكم من الأحاديث النبوية الشريفة تمكن من سماعها وكتابتها . فقد كان أحمد حسبما هو مشهور عنه يحفظ مئات الأحاديث بإسنادها دون الرجوع إلى كتاب . أما إذا جلس للتحديث فلم يكن يفعل ذلك إلا والكتاب بين يديه حسبما سوف نفصل فى مناسبة قريبة .

يقول أحمد فى صفة أستاذه والمدة التى لزمه فيها : كان هشيم كثير التسبيح . ولازمته أربعة أو خمسة ما سألته عن شىء هيبة له إلا مرتين(٣) . وفى رواية الخطيب يقول عبد الله : سمعت أبى يقول . . . ويذكر الخبر جميعه ثم يبين عن السؤالين اللذين وجهها والده إلى أستاذه هشيم وهما مسألة فى الوتر ومسألة أخرى عن أشعث(٤) .

---

(٢) المناقب لابن الجوزى ص ٢٥ وتاريخ بغداد ٤١٦/٤ .

(٣) تهذيب التهذيب ٦٢/١١ .

(٤) تاريخ بغداد ٨٩/١٤ .

لقد سبق أن أشرنا إلى أن الدارس كان يتفرغ لأستاذ واحد يجعله شيخا له ، ويجعل من نفسه مريدا بين يديه . ولم يكن ثمت بأس فى أن يختلف إلى شيوخ آخرين ، وقلنا إن الأئمة الثلاثة السابقين فعلوا هذا الصنيع . إن أحمد بن حنبل يفعل الصنيع ذاته . إنه فى بغداد فى عصرها الذهبى حيث موردها عذب فرات ، والمورد العذب كثير الزحام . ذلك أن مدينة السلام - كما كانت تسمى - حافلة بالعلم مليئة بالعلماء الأعلام من مقيمين ووافدين . إن هشيما نفسه ليس بغداديا ولكنه واسطى قدم بغداد ، ولذلك نجد أحمد مع لزومه هشيما يتردد على عدد من صفوة العلماء والحفاظ فى الوقت الذى يستمسك فيه بهشيم ويلتزم بحلقته .

لقد أسلفنا القول بأنه سمع الحديث أول ما سمع من أبى يوسف . وقلنا إن ذلك كانت سنة تسع وسبعين ومائة . وها نحن نجد أحمد يسمع فى السنة ذاتها من على بن هاشم بن البريد . إذ يقول الإمام : « سمعت من على بن هاشم بن البريد سنة تسع وسبعين فى أول سنة طلبت فيها الحديث »(٥)

لقد سمع ابن حنبل من ثلاثة علماء أعلام فى عام واحد ، سمع من أبى يوسف ، وسمع من هشيم ، وسمع من ابن البريد . وقد بينا السبب الذى من أجله لم يستمر أحمد فى السماع من أبى يوسف ودوام الاختلاف إلى حلقته ، فمن هو البريدى هذا الذى سمع منه ابن حنبل فى سنة الابتداء المباركة ولم يكمل الاستمرار معه . إنه على بن هاشم بن البريد البريدى المكنى بأبى الحسن الكوفى الخزاز ، أى الذى يبيع الخز كما كان يفعل الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان . لقد كان البريدى ثقة ، قال عنه ذلك عدد من العلماء حضروا مع ابن حنبل عليه ؛ منهم يحيى بن معين الحجة فى الحكم على الرجال وصاحب الجرح والتعديل .

إن الإمام أحمد يقول : سمعت منه سنة تسع وسبعين ومائة مجلسا ثم عدت إليه المجلس الآخر وقدمات(٦) ، ومعنى ذلك أن على بن هاشم البريدى مات سنة

---

(٥) تاريخ بغداد ٤/٤١٦ .

(٦) تهذيب التهذيب ٣٩٣/٧ .

١٧٩ فيكون انقطاع ابن حنبل عن السماع عنه قد حدث بسبب وفاة المحدث الجليل ، غير أن هناك خبرا يقول إن البريدى توفى سنة إحدى وثمانين ومائة ، كما أن بعض الروايات تذكر أنه كان متشيعا ، ويقول ابن حبان إنه كان غالياً فى التشيع[٧] . فإذا صح خبر تشيعه مع تأخر وفاته إلى سنة إحدى وثمانين تبين لنا السبب الذى جعل الإمام أحمد يتوقف عن التلقى منه ، وكان أحمد منذ نشأته بعيدا عن الغلو سواء كان تشيعا أو اعتزالا .

وفى بغداد يستمع أحمد إلى محدث البصرة وعالمها الكبير عبد الرحمن بن مهدى وكان ذلك سنة ثمانين ومائة . إن الإمام أحمد يقول : « قدم علينا عبد الرحمن بن مهدى سنة ثمانين ومائة وقد خضب وهو ابن خمس وأربعين سنة . وكنت أراه فى المسجد الجامع » .

إن ابن مهدى علم من أعلام العراق وليس البصرة وحدها ، وهو واحد من كبار المحدثين الثقاة . وهو الذى طلب إلى الإمام الشافعى أن يكتب « الرسالة » وقد مرّ حديث ذلك تفصيلا عند كلامنا عن الإمام الشافعى وكتبه ، وقد كان يلقب بالإمام . وقد مات سفيان الثورى فى داره . وعن ابن مهدى يقول الإمام الشافعى : لا أعرف له نظيرا فى الدنيا[٨] .

لقد وفد ابن مهدى على بغداد قادما من البصرة سنة ثمانين ومائة ، وعاش بعد ذلك ثمانية عشر عاما . ومعنى ذلك أن ابن حنبل سمع منه فى بغداد . ثم عاد وسمع منه مرة أخرى حين بدأ فى الترحال بعد سنة ست وثمانين ومائة إلى البصرة طلبا للحديث الشريف من علمائها ثم من سائر علماء الأصقاع ومختلف البلدان .

وتذكر كتب التراجم أن من شيوخ ابن حنبل كبار القراء من أمثال يحيى بن آدم . وسعيد بن الصباح . وإسماعيل بن جعفر . والذى نهتم له الآن من بين هؤلاء الثلاثة هو إسماعيل بن جعفر . فقد كان إسماعيل قارئ أهل المدينة فى

---

(٧) المصدر ٣٩٢ .

(٨) تهذيب التهذيب ٢٨١/٦ .

عصره . ورحل إلى بغداد وتوفى بها سنة ثمانين ومائة . وكان أحمد يحتفل بالكتاب العزيز حفظا وقراءة وتجويدا احتفاله بحديث من أنزل عليه الكتاب . ولما كان إسماعيل بن جعفر قد توفى فى بغداد فى السنة المذكورة فيكون معنى ذلك أن أحمد درس عليه . وجلس إليه . وتلقى عنه فى تلك السنة أو قبل ذلك بسنة أوبسنتين . لأن إسماعيل لم يعش فى بغداد طويلا . وإنما عاجلته المنية بعد وصوله إليها بزمن غير طويل عن عمر يناهز الخمسين عاما . لأن مولده كان سنة ثلاثين ومائة .

ومن العلماء الحفاظ الذين استمع أحمد إليهم فى بغداد وهو على بداية الدرب . المحدث الحافظ أبو بكر بن عياش . ويبدو أن أبا بكر كان يلقى أحاديثه مع الفجر ، لقد كان ابن حنبل يحرص على السماع منه ، ويفيق مبكرا غاية التبكير ، فتحاول أمه أن تثنيه عن هذا الإمعان فى التبكير ، وتطلب إليه الانتظار حتى يؤذن للفجر ، ولقد قصد ابن حنبل أبا بكر فى قولته عن حرص أمه عليه :

«كنت ربما أردت البكور فى الحديث فتأخذ أمى بثيابى حتى يؤذن للناس أو حتى يصبحوا » .

وثمت عالم حافظ آخر ينتظم هذا العقد الثمين من الأئمة والمحدثين الذين أخذ أحمد عنهم العلم الحديث فى بغداد هو الحافظ عمير بن عبد الله بن خالد المتوفى سنة ثنتين وثمانين ومائة .

ولقد سمع أحمد فى بغداد أيضاً من حافظ بصرى ثقة شريف نبيل هو عبّاد بن عبّاد العتكى المتوفى ببغداد سنة إحدى وثمانين ومائة (٩) ، فقد ورد اسمه بين شيوخ أحمد ، ولما لم يكن أحمد قد خرج إلى البصرة قبل تاريخ وفاة عباد . فيكون سماعه منه فى بغداد وليس فى مكان آخر .

وهكذا يكون أحمد بن حنبل الشاب قد تفرغ للأخذ عن الإمام هشيم بن بشير بشكل متصل حتى مات هشيم وأثرى فكره وعقله فى الوقت نفسه بسماع

---

(٩) تهذيب التهذيب ٥/٩٥ .

سبعة من كبار علماء العصر فى بغداد وحدها هم أبو يوسف وعلى بن هاشم بن البريد البريدى . وعبد الرحمن بن مهدى . وإسماعيل بن جعفر . وأبو بكر بن عياش ، وعمير بن عبد الله بن خالد . وعباد بن عباد . غير أن الثروة العلمية الكبرى التى خرج بها ورجحت غيرها هى تلك الأحاديث والمسائل التى تلقاها عن هشيم فقد قال أحمد : حفظت كل شيء سمعته من هشيم وهشيم حى [١٠] .

– ٢ –

أحمد يرحل فى طلب الحديث .

أحمد بن حنبل خادم أمين لحديث رسول الله ﷺ . فهو القائل : من أراد الحديث خدمه . وخدمة الحديث طلبه . وقيل له : ما خدمة الحديث ؟ قال : النظر فيه .

لقد كانت الرحلة فى طلب الحديث تقليدا علميا . بل هى المنهج السليم الأمين فى طلبه . وقد عرف رجال الحديث جميعا بالرحلة فى طلبه . جابوا فى ذلك البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . وطوفوا فى الأمصار وسعوا فى الآفاق ، وكان أحمد بن حنبل – على مدى علمنا – هو أول من طوف فى البلاد وجاب الأمصار طلبا للحديث . ففى العراق اختلف مرات إلى واسط ثم الكوفة والبصرة لسماع علماء المصرين . وذهب إلى الحجاز حاجا طالبا للعلم مستمعا للحديث خمس مرات منهن ثلاث ماشيا . وذهب إلى اليمن ماشيا . ورحل إلى الشام وطرسوس ماشيا . ولقى فى أسفاره هذه من المشقة ما لقى . وصادف من المتاعب ما صادف . فمرة تسرق ملابسه فيجلس حبيس البيت حتى تنفرج الكربة ، وينفد ماله مرة أخرى وهو فى طريقه إلى اليمن فيعمل حمالا . وهو فى كل هذه المتاعب يأبى عون إخوانه . ويتعفف عن عطاء أساتذته على ما سوف نبين ذلك فى مكانه بالتفصيل .

---

(١٠) ترجمة الإمام أحمد للذهبى عن مقدمة المسند ص ٦٢ .

بل إن ضيق ذات اليد حال بينه وبين أمله فى أن يلتقى بالحافظ العالم جرير بن عبد الحميد محدث الرى ؛ وقد كانت الرحلة إليه تكلفه خمسين درهما ليس غير.

وكان جرير قد وفد ضيفا على بنى المسيب فى بغداد على الشاطئ الشرقى ، وكانت دجلة غاضبة هائجة مائجة آنئذ سنة أربع وثمانين ومائة فلم يعبرها أحمد مع من عبر قائلا قولته النبيلة الحانية : إن أمى لاتدعنى .

وكانت زيارة مصر أملا كثيرا ماداعب خاطر الإمام لكى يلتقى صديقه وأستاذه الشافعى فيها ، وكان قد وعد الشافعى بذلك . ولكن المنية وافت الشافعى سنة أربع ومائتين ثم تدافعت محنة خلق القرآن فوضعت أحمد فى أتونها حتى منّ الله عليه بالسلامة والأمان . سلامة الجسد وأمان المعتقد .

فى الكوفة :

لقد خرج أحمد أول ما خرج من بغداد إلى الكوفة وذلك يستبين من قوله : مات هشيم سنة ثلاث وثمانين وخرجت إلى الكوفة فى تلك الأيام . ووصلت البصرة سنة ست وثمانين ثم دخلتها سنة تسعين[١١] ؛ وإن كانت زياراته للبصرة زادت عن مرتين ، فقد زارها خمس مرات . وربما كانت تطول الزيارة فى المرة الواحدة فتمتد إلى ستة شهور لأنه كان يراها دارا له ؛ فإن البصرة مقر بنى شيبان ومسكنهم .

فإذا ماكان الحديث عن الكوفة التى خرج إليها أحمد أكثر من مرة ، نجد رحلته إليها تتسم بسمتين متضادتين ، سمة خشنة تتمثل فيما لاقى فيها من متاعب فى الإقامة . فقد ذكر أنه كان ينام فى بيت ويجعل تحت رأسه لبنة . وأما السمة الأخرى فكانت لينة ناعمة ، فقد أخذ فيها عن ثلاثة من كبار الأئمة والعلماء هم يحيى بن آدم ، وعبد الرحمن بن محمد ، ووكيع بن الجراح .

---

(١١) ترجمة الإمام أحمد للذهبى عن مقدمة المسند ص ٦٠ .

فأما يحيى بن آدم فقد كان يجمع بين الفقه والحديث . وقد سمع منه مع أحمد رفيقه وصديقه يحيى بن معين . وقد توفى يحيى سنة ثلاث ومائتين وله عدة كتب أشهرها كتاب الخراج وهو مطبوع .

وثانى علماء الكوفة الذين سمع أحمد منهم هو عبد الرحمن بن محمد بن زياد المحاربى المتوفى خمس وتسعين ومائة .

وأما ثالثهم فهو العالم الفقيه المحدث الحافظ وكيع بن الجراح . ويتمتع وكيع بمكانة سامية بين العلماء . وبدرجة رفيعة فى العلم . وكان صديقا للإمام الشافعى ، وهو الذى عناه ببيتيه :

شَكَوْتُ إِلَى وكيعٍ سُوءَ حِفْظى
فأَرْشَدَنِى إِلى تَرْكِ الْمعَاصِى
وقَالَ : اعْلَمْ بأَنَّ العِلْمَ فَضْلٌ
وَفَضْلُ اللهِ لاَ يُؤْتَاهُ عَاصِى

وفى وكيع يقول يحيى بن معين : ما رأيت أحفظ من وكيع ، قيل له : ولا هشيم ؟ قال : وأين يقع حديث هشيم من حديث وكيع ؟ وقد سئل أحمد فى شأن وكيع وعبد الرحمن بن مهدى وكلاهما أستاذه . فقال : وكيع أكبر فى القلب ، وعبد الرحمن بن مهدى إمام[١٢] . وكان أحمد يقول : ما رأيت مثل وكيع فى الحفظ والإسناد والأبواب مع خشوع وورع ، ولقد حجّ وكيع سنة ست وتسعين ومائة ومات فى الطريق عن ثمانية وستين عاما . وهو من طبقة الأئمة الكبار حفظا وفقها وتقى وعبادة وسلوكا .

لقد توفر أحمد على وكيع ، وحفظ ما عنده من أحاديث بإسنادها ، وكان يقول لولده عبد الله : خذ أى كتاب شئت من كتب وكيع ، فإن شئت أن

---

(١٢) تهذيب التهذيب ١١/١٢٦ .

تسألني عن الكلام حتى أخبرك عن الإسناد ، وإن شئت بالإسناد حتى أخبرك عن الكلام [١٣] .

وكانت صلة أحمد بوكيع شبيهة إلى حد كبير بصلة زفر بن الهذيل بأستاذه أبى حنيفة . فقد كان زفر يحادث شيخه ويحاوره فى بعض الليالى حتى يطلع الفجر . وكذلك كان يفعل أحمد مع وكيع . يقول قتيبة بن سعيد : كان وكيع إذا جاءت العتمة ينصرف معه أحمد بن حنبل ، فيقف على الباب فيذاكره . فأخذ وكيع ليلة بعضادتى الباب ثم قال : يا أبا عبد الله : أريد أن ألقى عليك حديث سفيان ، قال : هات . قال : تحفظ عن سفيان عن مسلمة بن كهيل كذا ؟ قال : نعم حدثنا يحيى . فيقول : سلمة كذا وكذا ؟ فيقول : حدثنا عبد الرحمن فيقول : عن سلمة كذا وكذا ؟ فيقول : أنت حدثتنا . حتى يفرغ من سلمة . . . ويمضى حديث رسول الله على لسانيهما حتى جاءت الجارية فقالت : قد طلع الكوكب .

ويقول أحمد أيضاً فى شأن تلقيه عن وكيع : كنت أذاكر وكيعا بحديث الثورى ، وكان إذا صلى العشاء الآخرة خرج من المسجد إلى منزله . فكنت أذاكره، فربما ذكر تسعة أو عشرة أحاديث فأحفظها، فإذا دخل قال لى أصحاب الحديث: أملّ علينا فأملها عليهم [١٤].

لقد نهل أحمد من فيض علم وكيع وحفظه وتقواه ؛ ولقد وقع أحمد بذكائه وفطنته وحفظه وسلوكه فى قلب أستاذه مما جعل وكيعا يقول : ما قدم الكوفة مثل ذاك الفتى ، يعنى أحمد [١٥] .

فى البصرة :

وبعد رحلات أحمد إلى الكوفة وخروجه منها بحصيلة من الأحاديث الشريفة سمعها من وكيع ويحيى بن آدم وعبد الرحمن بن محمد يفكر فى رحلة أخرى

---

(١٣) ترجمة الإمام أحمد للذهبى ص ٦٣ من مقدمة المسند .

(١٤) ترجمة الإمام أحمد للذهبى عن مقدمه المسند ص ٦٣ .

(١٥) المصدر السابق ص ٦٤ .

داخل العراق . ولكنها أبعد مسافة من الكوفة . إنها البصرة مدينة العلم والفقه واللغة والشعر . وهى إلى ذلك مدينة المتطرفة من أصحاب الأهواء . والغالية من أصحاب المقالات .

إن الإمام أحمد يقول دخلت البصرة سنة ست وثمانين . ثم دخلتها سنة تسعين . يعنى ست وثمانين ومائة ثم تسعين ومائة . وتذكر الأخبار أنه دخلها خمس مرات حسبما أسلفنا القول . وأن الزيارة الواحدة كانت تستمر أحيانا ستة أشهر . وهى فترة طويلة نسبيا إذا ما عرفنا أن البصرة فى العراق وليست فى قطر آخر . ولكن سببين أساسيين كانا وراء تعدد رحلات أحمد إلى البصرة . وطول إقامته فيها بين الزيارة والأخرى . فأما السبب الأساسى الأول . وقد سبقت الإشارة إليه . فهو أن البصرة ديار قومه . ولهم فيها مساكن وأحياء ومسجد كبير معروف باسم مسجد مازن . كان أحمد يكثر التردد عليه ويجعل صلواته فيه . وكان يسأل عن سبب إيثاره هذا المسجد بالصلاة فيه فيقول : إنه مسجد أجدادى . والمرء يشعر بالأنس فى ديار قومه وإن لم يسبق له العيش فيها . إنه يحس بروابط متينة تشده إليها . ويشعر بأحاسيس كامنة تدخل السكينة والإيناس فى نفسه . ومن ثم تذهب الوحشة ويقل الاحساس بالغربة . فتطول الإقامة دون ملل أو ضجر

وأما السبب الأساسى الثانى فهو طبيعة الجو العلمى فى البصرة . ووفرة الثمار الناضجة التى تجتنى . وتنوع الينابيع العلمية التى تروى الصدى وتبعث الانتعاش فى النفوس الظمأى . ثم بالإضافة إلى كل ذلك وفرة الفقهاء الثقاة المأمونين .

التقى أحمد فى البصرة بثلاثة من كبار فقهاء الإسلام وأصحاب حديث رسول الله هم إسماعيل بن علية . وعبد الرحمن بن مهدى . ويحيى بن سعيد القطان . فأما إسماعيل بن علية فإن الإمام أحمد يقول فى شأنه وفى شأن سفيان بن عيينة : فاتنى مالك فأخلف الله علىّ سفيان بن عيينة . وفاتنى حماد بن زيد فأخلف الله علىّ إسماعيل بن علية[16].

---

(١٦) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى ص ٣٠ .

لقد كان أحمد مأخوذا بعلم شيوخه فى البصرة . فقد أسلفنا قوله عن ابن علية وسوف نزيد ابن علية تعريفا بعد قليل .

فأما يحيى بن سعيد القطان فقد ولد بالبصرة سنة عشرين ومائة وتوفى بها سنة ثمان وتسعين ومائة عن ثمان وسبعين سنة . وقد سمع على بعض التابعين وكبار تابعى التابعين سمع من عبيد الله بن عمر ؛ ويحيى بن سعيد الأنصارى . وهشام بن عروة ، والإمام جعفر الصادق ، والأعمش ، وابن جريج ، ومالك والأوزاعى ، كما سمع من شعبة وسفيان الثورى .

لقد جلس يحيى إلى شعبة عشرين سنة عملا بالتفرغ لشيخ واحد كما جلس بعد ذلك إلى سفيان الثورى فأخذ ما عنده من حديث . كان يحيى بن سعيد القطان حجة على أهل زمانه وحكما بين الحفاظ إذا اختلفوا . فقد اختلف رجال الحديث مع شعبة بن الحجاج . وشعبة هو من هو فى الحديث . فقالوا اجعل بيننا وبينك حكما . فقال : قد رضيت بالأحول . يعنى سعيدا . وكان سعيد به حول فى إحدى عينيه . وكان المحدث الكبير خالد بن الحارث يقول : غلبنا يحيى بالثورى . يعنى أن يحيى بن سعيد قد تفوق على معاصريه بحفظه أحاديث سفيان الثورى فضلا عن سائر ما يحفظ لغير الثورى .

وكان يحيى من قوة الحفظ بحيث كان يخطئ أستاذه الثورى . وذلك أمر نادر لأن الثورى كان يلقب بأمير المؤمنين فى الحديث . ومع هذا التمكن يصحح له يحيى خطأه .

يقول يحيى : كنت إذا أخطأت قال لى الثورى أخطأت يا يحيى ؛ فحدّث يوما – أى الثورى – عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر بحديث الشرب فى آنية الذهب والفضة . فقلت : أخطأت يا أبا عبد الله – كنية سفيان – هذا أهون عليك إنما حدثنا عبيد الله عن نافع عن يزيد بن عبد الله عن عبد الله بن عبد الرحمن عن أم سلمة . فقال لى : صدقت[١٧] .

---

(١٧) تهذيب التهذيب ٢١٧/١١ .

ويذكر الإمام أحمد شيخه يحيى بكل تقدير ويفضله على سائر شيوخه . كان يقول عنه : ما رأت عيناى مثله : ويسأل عبد الله بن أحمد أباه قائلا : من رأيت فى هذا الشأن ؟ يعنى فى الحديث . فيقول : ما رأيت مثل يحيى القطان . فيقول عبد الله : فهشيم ؟ فيجيبه أحمد . هشيم شيخ . فيقول عبد الله : فعبد الرحمن بن مهدى . فيجيب أحمد : لم يُر مثل يحيى . كان إليه المنتهى فى التثبت بالبصرة . ويروى صالح بن الامام أحمد عن أبيه أن يحيى بن سعيد أثبت هؤلاء جميعا ، يعنى ابن مهدى ووكيعا وغيرهما .

وكان ليحيى هيبة قلما اجتمعت لغيره من العلماء وبخاصة فى قلوب تلامذته ، إنه يذكرنا فى هذا السبيل بهيبة الإمام مالك . يروى إسحاق بن إبراهيم بن أبى حبيب الشهيد قائلا : كنت أرى يحيى القطان يصلى العصر ثم يستند فيقف بين يديه على بن المدينى وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين والشاذكونى وعمرو بن على يسألونه عن الحديث وهم قيام هيبة له .

لقد كان يحيى يجمع بين وفرة العلم وفرط الهيبة وشدة التقى ، فإن يحيى بن معين يقول : أقام يحيى القطان عشرين سنة يختم القرآن فى كل ليلة ولم يفته الزوال فى المسجد أربعين سنة .

إن عبد الرحمن بن مهدى وهو إمام فى الحديث وشيخ لأحمد فى البصرة يقول عن يحيى : ما رأيت أحسن أخذا للحديث ولا أحسن طلبا له من يحيى القطان . وفى يحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدى يقول على بن المدينى : ما رأيت أعلم بالرجال من يحيى القطان ، ولا رأيت أعلم بصواب الحديث والخطأ من ابن مهدى ، فإذا اجتمعا على ترك رجل تركته . وإذا أخذ عنه أحدهما حدثت عنه .

لم يكن غريبا إذن أن يرحل أحمد بن حنبل إلى البصرة مرات عدة ، وأن تطول إقامته فى كل رحلة حتى بلغت ذات مرة ستة شهور .

وفى البصرة أيضاً يلتقى أحمد بن حنبل الفقيه الحافظ عبد الرحمن بن مهدى ، لقد أسلفنا ذكر خبر مجئ عبد الرحمن إلى بغداد سنة ثمانين ومائة . وقد

سمع منه أحمد بن حنبل بين الكثرة التي جلست إلى حلقة الفقيه المحدث البصرى فى مسجد بغداد ، وتفيد الأخبار أن ابن مهدى كان كثير التردد على بغداد ، وتبعا لذلك كان يعقد حلقات حديث يستمع الناس خلالها منه ويجلسون إليه .

يقول أحمد عن ابن مهدى بعد أن ذكر خبر مجيئه إلى بغداد سنة ثمانين ومائة : « ثم قدم بعد فأتيناه ولزمناه وكتبت عنه ههنا نحواً من ستمائة وسبعمائة »(١٨) .

يقول الخطيب البغدادى عن ابن مهدى : هو بصرى قدم بغداد وحدث بها ، وكان من الربانيين فى العلم . وأحد المذكورين بالحفظ . وممن برع فى معرفة الأثر وطرق الروايات وأحوال الشيوخ(١٩) .

كان ابن مهدى من العلماء الأفذاذ علما وديناً ومسلكا وتحصيلا فقد سمع من مالك والثورى وشعبة وعبد العزيز الماجشون وسفيان بن عيينة . كما أن علماء زمانه وأئمته قد رووا عنه مثل عبد الله بن المبارك ، وعبد الله بن وهب ، وعلى بن المدينى ، ويحيى بن معين ، وإسحاق بن راهويه ، وأبى ثور الكلبى ، وإمامنا الجليل أحمد بن حنبل .

وفضلا عن هذه الكوكبة الوضاءة من العلماء الذين رووا عنه فإن للشافعى به صلة متينة ووشيجة راسخة . فإن ابن مهدى هو الذى طلب إلى الشافعى أن يكتب كتابه النفيس « الرسالة » وقد مر حديث ذلك تفصيلا فى دراستنا للشافعى .

وإذن فقد جمع ابن مهدى بين فضل الفقه وجلال الحديث ، ففى مجال الحديث يقول عنه عبيد الله بن عمر القواريرى : أملى علىّ عبد الرحمن بن مهدي عشرين ألف حديث(٢٠) وفى مجال الفقه يقول عنه أحمد بن حنبل : كان يتوسع فى الفقه ، كان أوسع فيه من يحيى بن سعيد .

(١٨) تاريخ بغداد ٢٤١/١٠ .
(١٩) المصدر ٢٤٠ .
(٢٠) حلية الأولياء ٣/٩ .

إن عبد الرحمن ينتمى إلى مدرسة الحديث دون مدرسة الرأى . يقول عنه الإمام أحمد : كان عبد الرحمن يذهب إلى بعض مذاهب الحديث وإلى رأى المدينيين . يعنى أهل المدينة ، وكان لا يأخذ بالرأى ويحمل على أصحابه ، وهنا يتبين لنا السبب الذى جعل أحمد يجلس إليه فى بغداد ويأخذ عنه ، ثم يرحل إليه فى البصرة لكى يتلقى عنه وعن يحيى وابن عليّة .

قال نعيم بن حماد لابن مهدى : كيف تعرف صحيح الحديث من سقيمه ؟ فقال : كما يعرف الطبيب المجنون . ولشدة حبه لحديث رسول الله ﷺ وتعلقه بحفظه وروايته كان يقول : يحرم على الرجل أن يروى حديثا فى أمر الدين حتى يتقنه ويحفظه كالآية من القرآن الكريم أو كاسم الرجل .

ولابن مهدى أقوال فى نطاق العلم والعلماء تتسم بالحكمة وتفيض بالإشراق كقوله : كان يقال إذا لقى الرجلُ الرجلَ فوقه فى العلم كان يوم غنيمة ، وإذا لقى من هو مثله دارسه وتعلم منه . وإذا لقى من هو دونه تواضع له وعلمه ، ولا يكون إماما فى العلم من يحدث عن كل أحد . ولا يكون إماما فى العلم من يحدث بالشاذ من العلم والحفظ والإتقان .

وابن مهدى هو صاحب هذا القول : الرجل إلى العلم أحوج منه إلى الأكل والشرب .

وفى شأن ابن مهدى من حيث العلم والفضل والعدل قيل : ليس بالبصرة أحد يصلح للقضاء إلا رجل واحد هو عبد الرحمن بن مهدى . ولكن عيبه أنه ليس له عشيرة . إن هذا حكم تنضح منه الجاهلية . فلئن افتقد ابن مهدى عشيرة العدد والأقارب ، فقد كانت له عشيرة أرفع وأنبل تتمثل فى تلامذته من العلماء الذين صار بعضهم أئمة للمسلمين أجمعين .

لقد توفى عبد الرحمن سنة ثمان وتسعين ومائة وهى السنة التى توفى فيها يحيى بن سعيد القطان مواطنه وصديقه وكانت ولادة عبد الرحمن سنة خمس وثلاثين ومائة .

لقد ذهب أحمد إلى البصرة مرات لكى يتلقى عنه . ولقد أخذ عنه الكثير من الحديث والفقه . غير أن الشئ الطريف الذى لا ينبغى لنا أن نغفله فى هذا المقام أن للأئمة الثلاثة مالك والشافعى وأحمد مواقف متباينة تجاهه : فالإمام مالك أمر بحبسه عندما وجده يضع ملابسه أمامه فى مسجد رسول الله ﷺ . والإمام الشافعى يقول عنه : لا أعرف له نظيرا فى الدنيا . والإمام أحمد يجلس إليه . ويتتلمذ عليه . ويرحل إليه فى البصرة آخذا منه . راويا عنه . مسجلا له أكبر عدد أمكنه تسجيله من الأحاديث . ويقول فيه وفى يحيى : مارأيت فى البصرة مثل يحيى وبعده عبد الرحمن . وعبد الرحمن أفقه . وكان عبد الرحمن بدوره يقول عن أحمد . ما نظرت إلى أحمد بن حنبل إلا تذكرت سفيان الثورى .

فى واسط :

وكان على أحمد قبل أن يغادر العراق أن يسمع من شيخ إمام هو يزيد بن هارون . وكان يزيد يقيم بواسط . وإلى واسط كان يتجه طالبو العلم . ومن واسط يشع علم يزيد وسلطانه فيخافه الخليفة فى بغداد . لقد حاول المأمون أن يشعل فتنة خلق القرآن ولكنه رجع عن ذلك فزعا وخوفا قائلا : أخشى يزيد بن هارون . فإنه سوف يرد علىّ فتكون فتنة . هكذا كان وزن يزيد وقدره . الخليفة الشاب الطائش فكريا فى بغداد يخافه فلما أن انزاح السد الشامخ من أمامه ومات يزيد سارع الخليفة الأخرق إلى فعلته الشنعاء . فعذب العلماء . وقتل الأولياء . وجلد الأئمة أمام السائمة والعوام . وسوف نفصل موقف يزيد وحواره مع رسول المأمون إليه عند حديثنا عنه فى سلسلة شيوخ أحمد .

على أن الأمر الجدير بالذكر أن أحمد لم يسمع من يزيد فى واسط وحسب . بل الأمر الذى لا شك فيه أنه سمعه ببغداد أولا . مثلما سمع من عبد الرحمن بن مهدى فى عاصمة المنصور قبل أن يرحل إلى سماعه بالبصرة .

كان مجلس يزيد بن هارون فى بغداد مجلسا كبيرا غاصا بأهل العلم . حافلا بجموع كبيرة من البشر . إن يحيى بن أبى طالب يقول : سمعت يزيد بن

هارون فى المجلس ببغداد[٢١] . وذلك يؤكد الظاهرة البديهية التى يفهم منها أن كل علماء الأمصار العراقية مثل الكوفة والبصرة وواسط كانوا يختلفون إلى بغداد حيث تعقد لهم مجالس العلم فيتزاحم على ساحتهم المتعطشون إلى المعرفة من أبناء مدينة السلام .

فإذا ما أردنا بيان علاقة أحمد بيزيد وجدناها من أكثر العلائق وثوقا . ومن أمتنها رباطا . كان يزيد بثاقب بصره ونور بصيرته يرى فى أحمد مالم يره فى غيره من أترابه . فأحمد ذكى تقى نقى ورع صباه طاهر وشبابه نبيل . مع إقبال جاد على العلم . وإرادة راسخة فى تتبع حديث رسول الله ﷺ والسعى إلى رجاله يأخذ عنهم ويسمع منهم .

كان أحمد يجلس فى حلقة يزيد بمدينة واسط وكأنه ليس بطالب علم . بل يبدو وكأنه مشارك فى إدارة الحلقة لما يلقاه من تكريم شيخه له وإجلاله إياه . يقول أحمد بن سنان الحافظ المحدث المكنى بأبى جعفر الواسطى . وهو أحد أبناء حلقة يزيد : ما رأيت يزيد بن هارون لأحد أشد تعظيما منه لأحمد بن حنبل . ولا رأيته أكرم أحدا مثله . وكان يقعده إلى جنبه ويوقره ولا يمازحه[٢٢] .

لقد جرى العرف على أن يمازح الكبير الصغير . والمزاح البرئ أمر لا غبار عليه . فقد كان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا صدقا . وكان الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان يمزح مزاحا عذبا لطيفا . وكان الإمام الشافعى يمزح مزاحا عذبا لطيفا . بل كان يروى المزحة البريئة والنكتة التى تبعث الابتسامة على الشفاه . أما عن علاقة الإمام أحمد بمن هم أكبر منه ومن هم دونه فلم يكن يميل إلى المزاح . وكان شيوخه وأترابه يعرفون ذلك فيه فلم يكونوا يمازحونه إجلالا له ومراعاة لنهجه فى حياته . ومن ثم ورد الخبر بأن أستاذه يزيد بن هارون -- وهو من أكثر شيوخه تأثيراً فيه على ما سوف نفصل بعد قليل -- لم يكن يمازحه مع حبه له وإيثاره إياه بالكثير من العناية والتفضيل .

---

(٢١) تاريخ بغداد ٣٤٦/١٤ .

(٢٢) ترجمة الإمام أحمد للذهبى فى مقدمة المسند ص ٦٤ وانظر تهذيب التهذيب ٧٣/١ .

لم يقف الأمر بيزيد عند امتناعه عن ممازحة أحمد . بل لقد تفادى أن يمزح فى الحلقة إذا كان أحمد جالسا فيها . إن خلف بن سالم المخرمى السندى المكنى بأبى محمد المهلبى الحافظ وزميل أحمد فى حلقات يزيد وابن علية وهشيم يقول : كنا فى مجلس يزيد بن هارون . فمزح يزيد مع مستمليه . فتنحنح أحمد بن حنبل . فضرب يزيد على جبينه وقال : ألا أعلمتمونى أن أحمد هنا حتى لا أمزح ؟ ! (٢٣) .

هذا ولم يكن يزيد مزاحا ولا كثير الضحك . بل كان على الضد من ذلك تماما . كان مسبحا مصليا عابدا ملتزما . ولكن أحمد الذى كان يلتزم بالخلق الأسمى والمنهج الأليق كان يجبر جليسه على مراعاة مشاعره ولو كان هذا الجليس يزيد بن هارون العالم الشامخ المتعالى على خليفة بغداد .

إن أحمد فى مجلس أستاذه يجيد الأخذ ويحسن الاستماع . ولكنه على الرغم من حداثة سنه صاحب علم ومخزن حديث . وربما اختلف مع أستاذه فى رواية ما ويتحاوران ثم ينتهى الأمر باكتشاف أن الحق فى جانبه .

يروى محمد بن عبد الملك بن زنجويه البغدادى المكنى بأبى بكر الغزّال جار أحمد فى المسكن ورفيقه فى حلقه يزيد فيقول : رأيت يزيد بن هارون يصلى فجاء إليه أبو عبد الله أحمد بن حنبل . فلما سلم يزيد من الصلاة التفت إلى أحمد بن حنبل فقال : يا أبا عبد الله . ما تقول فى العارية ؟ فقال أحمد : مؤداة . فقال له يزيد : أخبرنا حجاج عن الحكم قال : ليست بمضمونة . فقال أحمد :

« قَدْ اسْتَعَارَ النبىُّ ﷺ مِنْ صَفْوَانِ بْن أُمَيَّةَ أَدْرعاً فَقَالَ لَهُ : عَارِيَةٌ مُؤَدَّاةٌ . فَقَالَ النبىُّ ﷺ : الْعَارِيَةُ مُؤَدَّاةٌ » (٢٤) .

---

(٢٣) حلية الأولياء ١٦٩/٩

(٢٤) حلية الأولياء ١٦٣/٩ .

لقد كان أحمد حريًّا إذن بالاحترام من أستاذه . فهو من الاستقامة ما قد رأينا . وهو من العلم بحيث يحاور أستاذه العالم الكبير يزيد بن هارون . ثم هو بعد ذلك كله متعفف عن المال على الرغم من فقره . مستغن عن هبة يزيد على الرغم من حاجته.إن قبول الطالب منحة أستاذه مسألة لاغبار عليها عرفا وشرعا . ولكن الشيخ يزيد بن هارون يحسّ أن بعض تلاميذه ومنهم أحمد فى حاجة إلى المال وهم متوفرون على درسه فى واسط فيعرض عليهم مالاً . حوالى خمسمائة درهم لكل منهم . فلم يقبل أحمد المال . وقبله كل من يحيى بن معين وأبى مسلم المستملى (٢٥) .

لقد أخذ أحمد من كبار شيوخ العراق فى بغداد مبتدئا بهشيم . ثم عرج على الكوفة . ورحل إلى البصرة . ثمَّ انتقل إلى واسط وكان فى خلال تلك الفترة قد أدى فريضة الحج وسمع من علماء الحجاز وجمع وكتب وقطع شوطا غير قصير فى مرحلة التكوين العلمى . وهنا بدأ أحمد يفكر فى الارتحال إلى خارج العراق .

. . . إلى مكة :

إن الذى يعرف طبيعة أحمد بن حنبل لن يتردد فى التنبأ بأن أول رحلة خارجية يقوم بها ستكون صوب الحجاز . ففى الحجاز مكة يزينها بيت الله الحرام . وفى الحجاز المدينة المنورة دار هجرة الرسول ومثوى أعظمه الطاهرات . وإلى كل من مكة والمدينة تشد الرحال . وفى مكة وما حولها تؤدى شعائر الحج . والحج هو الفريضة الرابعة فى العبادات . والركن الخامس فى الإسلام ، وفى المدينة قبر الرسول ومسجده وبينهما روضة من رياض الجنة . وزيارة الرسول واجبة على كل مسلم مستطيع . فزيارته ﷺ تجلو صدأ النفس وتمحو ظلم الخاطر ، وتزيد ضياء القلب . وتؤكد نقاء الروح . وتثبت قواعد المعتقد . وتعمق مسارب الإيمان . وحول المسجد الحرام حلقات أئمة الإسلام . وفى مسجد الرسول مجالس علماء دار الهجرة أبناء التابعين وأحفاد صحابة رسول الله ﷺ . وأحمد بن حنبل

---

(٢٥) المصدر ١٧٧ .

مشوق إلى ذلك جميعا ، يؤدى الفريضة ، ويقوم بحق الزيارة ، ويستمع إلى سفيان بن عيينة صاحب أشهر حلقة حول الكعبة ، ويأخذ عن الشاب القرشى الفقيه الإمام محمد بن إدريس الذى يقول علما جديدا ، بأسلوب عذب أخاذ ، وصوت جميل الوقع واضح النبرات ، سبقته شهرته إلى العراق وسائر الأمصار .

لذلك أعد أحمد نفسه للارتحال . وحث الخطى ، وغذّ المسير إلى الحجاز حاجًّا ودارسا وجامعا لحديث رسول الله .

يقول أحمد : « قدمنا مكة سنة سبع وثمانين وقد مات الفضيل(*) . وفى سنة إحدى وتسعين . وفى سنة ست . وأقمت بمكة سنة سبع . وخرجنا سنة ثمان . وأقمت سنة تسع وتسعين عند عبد الرزّاق – أى فى صنعاء – وحججت خمس مرات : منها ثلاثا راجلا – أى ماشيا – وأنفقت فى هذه الحجج ثلاثين درهما [٢٦] .

لقد حج أحمد خمس مرات حسبما ذكر بنفسه . ولم يكن ليقوم بشعائر الحج وحسب . فإن حجة واحدة كافية لأداء الفريضة . إنها حجة الإسلام . ولكن رحلة الحج كانت للحج والدرس والسماع وجمع الحديث الشريف . ولما لم يجد أحمد أيام الحج كافية فقد قرر المجاورة ، أى لزوم البيت العتيق تعبدا بالدراسة وتقربا إلى الله بأداء الشعائر فيه . فأقام بمكة طوال سنة سبع وتسعين ومائة .

لم تكن إقامة أحمد فى مكة ناعمة مريحة . فهو فقير . ارتحل إليها من بغداد ماشيا ثلاث مرات . ويزيد الطين بلة – حسبما يقولون – أن تسرق ملابس أحمد . فلا يجد علاجا لحالته إلا بحبس نفسه فى الدار التى كان يعيش فيها . فهو من التعفف والترفع والحياء بحيث لايشكو لأحد غير الله . ولكن كيف يخرج أحمد من ورطته هذه ؟ إن ملابسه على قلتها وخشونتها مسروقة . وإن جيبه خالى

(*) هو الفضيل بن عياض بن مسعود من أكابر العباد الزهاد العلماء الصلحاء شيخ الحرم المكى ولد فى سمرقند سنة خمس ومائة . ونشأ فى أبيورد . ودخل الكوفة . وسكن مكة . وبها توفى سنة سبع وثمانين ومائة وهى أول سنة يحج فيها الإمام أحمد .

(٢٦) ترجمة الإمام أحمد للذهبى من مقدمة المسند ص ٦٠ .

الوفاض ، وإنه متعفف يرفض اى عون . ثم هو بعد ذلك حبيس البيت رهين الحاجة . إن على بن الجهم الشاعر المعروف يروى هذه القصة التى تحمل مفاتيح مشكلة أحمد وطريقة حلها . يقول ابن الجهم : كان لنا جار ببغداد فأخرج إلينا كتابا فقال : أتعرفون هذا الخط ؟ قلنا : نعم هذا خط أحمد بن حنبل ، فقلنا له : كيف كتب ذلك ؟ قال : كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة ، فقصدنا أحمد بن حنبل أياما فلم نجده ، ثم جئنا إليه لنسأل عنه ، فقال لنا أهل الدار التى هو فيها : هو فى ذلك البيت – أى الحجرة – فجئنا إليه والباب مردود عليه ، وإذا عليه خلقان ، فقلنا له : يا أبا عبد الله ، ما خبرك ، لم نرك منذ أيام ؟ فقال : سرقت ثيابى ، فقلت له : معى دنانير ، فإن شئت خذ قرضا وإن شئت صلة ، فأبى أن يفعل ، فقلت : تكتب لى بأجرة ؟ قال : نعم . فأخرجت ديناراً فأبى أن يأخذه وقال : اشتر لى ثوبا واقطعه نصفين . فأومأ أنه يأتزر بنصف ويرتدى النصف الآخر وقال : جئنى ببقيته – أى بقية الدينار – ففعلت ، وجئت بورق وكاغد فكتب لى ، فهذا خطه(٢٧).

إن تعفف أحمد عن المال وزهده فيه مهما حلّ به من ضنك وعوز لمما ينبغى أن يخصص له حديث مستقل . وسوف نفعل ذلك إن شاء الله ، ولكن الأمر الذى يلفت النظر فى القصة هو قول الجار : كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة ، والإقامة هنا هى إقامة الدراسة والتلقى ، وليست إقامة النزول والضيافة . وإذن فقد كان أحمد متوفرا على حضور حلقة سفيان .

غير أن أحمد لم يكن متوفرا على حلقة سفيان وحدها وإنما لم يلبث أن اكتشف حلقة أخرى ، هى حلقة محمد بن إدريس الشافعى القرشى . وإن المتتبع لسنوات حج أحمد وإقامته بمكة سوف يجدها جميعا تقع فى عشر التسعين بعد المائة . وكانت مساحة البيت العتيق حول الكعبة مزدحمة بحلقات الفقهاء والمحدثين ، غير أن أشهر هذه الحلقات على الإطلاق كانت حلقة سفيان التى لم يكمل صاحبها ذاك العقد من القرن فتوفى سنة ثمان وتسعين ومائة ، والحلقة

(٢٧) حلية الأولياء ٩ / ١٨٦ ، ١٨٧

الأخرى كانت حلقة الشافعى التى بدأت صغيرة متواضعة ثم أخذت فى الاتساع حتى امتدت أطرافها فزاحمت حلقة سفيان .

كان سفيان أستاذا للشافعى . إليه جلس . وعنه أخذ . ثم ما لبث أن صار الشافعى علما يسأله سفيان عن أمور فى الدين واللغة خفيت عليه فيجليها الشافعى له ؛ وقد مرّ بعض هذا الحديث عند كلامنا على الإمام الشافعى فى الكتاب الذى خصصناه به . يقول الإمام الشافعى : لولا مالك وسفيان لضاع علم الحجاز . وكان مالك شيخ علماء المدينة . وكان سفيان بداهة – وهو مقيم بمكة – شيخ علماء مكة . وكان طبيعيا أن يجلس الناس إليه ويقصده الدارسون من مختلف الأمصار ؛ وفى مقدمة هؤلاء الوافدين من أصقاع الأرض – لا ريب – أحمد بن حنبل كان سفيان بن عيينة يحدث بحديث عمرو بن دينار ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، وإن كلا من الزهرى وابن دينار قمة من قمم الحديث . فأخذ أحمد عن سفيان حديث الزهرى وحديث عمرو بن دينار ، كما استمع إلى فتاواه ومسائله فأصاب بذلك خيرا كثيرا .

غير أن الجديد الجدير بالاهتمام فى رحلة أحمد إلى مكة هو اكتشافه الشافعي(*) كانت شهرة سفيان – وعلمه طبعا – تشد الناس إليه شدا . أما الشافعى فكان مجلسه متواضعا فى أول أمره . ولكن أحمد طالب المعرفة . الخبير بصنوف القول ومعادن الرجال يستمع إلى ذلك الفتى الشاب الوقور الأسمر حول الكعبة الذى يتدفق العلم من فيه عذبا فراتا صحيحا سليما قويما عميقا جديدا . فيكتشف هذه الحلقة ويلفت نظر صفوة صحابه إليها وبخاصة يحيى بن معين وإسحاق بن راهويه .

كيف أخذ أحمد أصحابه إلى الحلقه ؟ وكيف حببها إليهم ؟ إن إسحاق بن راهويه صاحب أحمد وعالم خراسان يقص علينا الخبر على هذا النحو أو قريبا منه : كنا عند سفيان بن عيينة نكتب أحاديث عمرو بن دينار . فجاءنى

(*) تذهب بعض الروايات إلى أن اكتشاف أحمد للشافعى كان ببغداد وليس بمكة

أحمد بن حنبل فقال لى : يا أبا يعقوب . قم حتى أريك رجلا لم تر عيناك مثله . فقمت . فأتى بى فناء زمزم . فإذا هناك رجل عليه ثياب بيض . تعلو وجهه سمرة . حسن السمت . حسن العقل . وأجلسنى إلى جانبه . فقال له : يا أبا عبد الله . هذا إسحاق بن راهويه الحنظلى . فرحب بى وحيانى . فذاكرته وذاكرنى . فانفجر لى منه علم عجز عنه حفظى . فلما أن طال مجلسنا قلت لأحمد : يا أبا عبد الله . قم بنا إلى الرجل . فقال : هذا هو الرجل . فقلت له : ياسبحان الله . أقمتنا من عند رجل يقول حدثنا الزهرى فما توهمت إلا أن تأتى بنا إلى رجل مثل الزهرى أو قريبا منه . فأتيت بنا إلى هذا الشاب أو هذا الحدث . فقال لى : يا أبا يعقوب . اقتبس من الرجل . فإنه ما رأت عيناى مثله . فسألته – أى سألت الشافعى – عن سكنى بيوت مكة . أى كرى بيوتها . فقال : جائز . فقلت : أى يرحمك الله . وجعلت أذكر له الحديث عن عائشة . وعبد الرحمن . وعمر وأصحاب رسول الله ﷺ . ومن كره كرى بيوت مكة . وهو ساكت وأنا أسرد عليه . فلما فرغت سكت ساعة وقال : أى يرحمك الله . أما علمت أن النبى ﷺ قال :

« **هَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أَوْ دَارٍ ؟** » .

يقول إسحاق : فوالله ما فهمت عنه ما أراد بها . ولا أرى أن أحدا فهمه . ثم قلت : أتأذن لى فى الكلام ؟ فقال : نعم . فقلت : حدثنا يزيد بن هارون عن هشام عن الحسن أنه لم يكن يرى ذلك . فقال لبعض من عرفه : من هذا . فقال : هذا إسحاق بن إبراهيم بن الحنظلى بن راهويه الخراسانى . فقال الشافعى : أنت الذى يزعم أهل خراسان أنك فقيههم ؟ قلت : هكذا يزعمون . قال : ما أحوجنى أن يكون غيرك فى موضعك فكنت آمر بعرك أذنيه ! ! أنا أقول لك قال رسول الله ﷺ . وأنت تقول : عطاء وطاووس ومنصور وإبراهيم والحسن وهؤلاء لا يرون ذلك ! ! هل لأحد مع رسول الله ﷺ حجة ؟ .

وبقية الخبر أن إسحاق كلم بعض أصحابه بالفارسية التى لم يكن الشافعى

يعرفها ولكنه فهم أنه نسبه إلى أمر غير كريم فقال له : تناظر ؟ وكان إسحاق جريئا فقال : ما جئت إلا للمناظرة . وجرت بينهما مناظرة فى الموضوع الذى بدآه وهو ما يتعلق بكرى دور مكة . ووضح أنها مناظرة غير متكافئة الأطراف . فمازال الشافعى بإسحاق يلقنه حجة بعد حجة مستندا إلى آيات الكتاب العزيز وإجابة إثر إجابة مستشهدا بالأحاديث الصحيحة وبرهانا بعد برهان مستعملا بديهته الحاضرة وتسلسله الباهر حتى سكت إسحاق ولم يتكلم .

ونحن نرجح أن ابن حنبل قد تعرف على الشافعى فى أول رحلة له إلى مكة أى سنة سبع وثمانين ومائة . لأن إسحاق يصف الشافعى فى هذه المقابلة بالشاب أو الحدث . وهذا الوصف لا يتأتى إلا إذا كانت المقابلة قد حدثت فى السنة المذكورة فقد كانت سن الشافعى آنذاك سبعا وثلاثين سنة . والمرء فى الثلاثينات من عمره يبدو كامل الشباب . ويزيد الأمر ترجيحا أن أحمد يقرر أن قدومه الثانى لمكة كان سنة إحدى وتسعين . وفى تلك السنة كان الشافعى قد بلغ الواحدة والأربعين من العمر وهى سن لا يوصف المرء فيها بالحداثة أو الشباب إلا من قبيل المجاملة . ولم يكن الموقف بين الشافعى وإسحاق بن راهوية مما يمكن أن تجرى فيها مودة أو مجاملة .

لقد أفاد أحمد من الشافعى فقها أكثر مما أفاد حديثا . فالحديث كان أكثر ما أخذ منه هو ذلك الذى أخذه عن سفيان . أما عن الشافعى فقد أخذ عنه أحمد كيفية التخريج فى الأحكام وسبيل الدقة فى الاستنباط . أما الحديث فكان أحمد صاحب سبق فيه . إن أحمد لم يلق الشافعى إلا وكان قد أخذ كل ما عند هشيم . وأكثر ما عند يزيد بن هارون وعبد الرحمن بن مهدى وعمير بن خالد ويحيى بن سعيد القطان وإسماعيل بن علية ووكيع بن الجراح ويحيى بن آدم وعبد الرحمن بن محمد وعلى بن هاشم بن البريد . وكان الشافعى يدرك ذلك ويقول لأحمد : يا أبا عبد الله أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا . فإذا كان خبر صحيح فأعلمنى حتى أذهب إليه كوفيا كان أو بصريا أو شاميا[28] .

---

(٢٨) حلية الأولياء ٩/١٧٠ .

إلى صنعاء :

إن الإمام ابن حنبل يتابع حديث رسول الله . يبحث عنه ويسعى إليه ولوكان محدثه فى أقصى بقاع الأرض . لقد سمع عن المحدث الكبير عبد الرزاق بن همام المكنى بأبى بكر الصنعانى فعقد العزم هو وصديقه يحيى بن معين على الارتحال إلى صنعاء .

يقول صالح بن الإمام أحمد : عزم أبى على الخروج إلى مكة ورافق يحيى بن معين . فقال أبى : نحج ونمضى إلى صنعاء إلى عبدالرزاق ، فمضينا حتى دخلنا مكة ، فإذا عبدالرزاق فى الطواف ، وكان يحيى يعرفه ، فطفنا ثم جئنا عبد الرزاق فسلم عليه يحيى وقال : هذا أخوك أحمد بن حنبل . فقال : حياه الله ، إنه ليبلغنى عنه كل ما أسرّ به . ثبته الله على ذلك ، ثم قام لينصرف ، فقال يحيى : ألا نأخذ عليه الموعد ؟ فأبى أحمد ، وقال : لم أغير النية فى رحلتى إليه ؟ ثم سافر إلى اليمن لأجله وسمع منه الكتب وأكثر عنه الرواية(٢٩) .

إن هذا الخبر يدعو إلى الغرابة بالنسبة للمرء العابر ، رجل يسعى إلى طلب الحديث من محدث فى مكان بعيد . ثم يجد المحدث أمام عينيه فيرفض أن يأخذ عنه إلا فى بلده النائى البعيد ! ! ؟

الأمر فى حقيقته لا يدعو إلى الغرابة ، وإنما هو يدعو إلى الإجلال والإعجاب ، إن أحمد لا يريد أن يأخذ الحديث فى سهولة ويسر ، إنه يريد أن يتعب ويكدح حتى يصل إليه ، إنه يرى فى ذلك ثوابا مضاعفا ، فالثواب على قدر المشقة ، وهو يرى فى ذلك تكريما للحديث بأن يسعى هو إلى الحديث ولا يترك الحديث يسعى إليه ، وهو يرى فى ذلك وفاء وتعظيما لصاحب الحديث ﷺ ، ولقد كان حب أحمد لأحمد واقتفاء أثره متابعة وتقليدا واقتداء ما قد فاضت به الأخبار وما سوف نحاول الإشارة إليه بمزيد من التفصيل فى موضع آخر من هذا الكتاب .

---

(٢٩) ترجمة الذهبى للإمام أحمد عن مقدمة المسند ص ٦١ .

إن الإمام أحمد يقول : أقمت بمكة سنة سبع . وخرجنا سنة ثمان . وأقمت سنة تسع وتسعين عند عبد الرزاق . يعنى فى صنعاء .

لقد فعلها أحمد وارتحل الرحلة الشاقة . فقد قال الأولون : لابد من صنعا وإن طال السفر . ولقد ارتحل كاتب هذا الكتاب إلى صنعاء سنة سبع وأربعين وتسعمائة وألف ميلادية . فصادف فى طريقه هو ومن برفقته من الأهوال ألوانا . ومن المتاعب والمخاطر صنوفا . فكيف كانت رحلة أحمد قبل ذلك باثنى عشر قرنا . لقد صادف هو الآخر متاعب وأهوالا .

إن أحمد العالم المحدث الإمام تنقطع به الأسباب فى الطريق إلى اليمن، ينفد ماله ولا يجد النفقة فيعمل حمالا أو بعبارة أبى نعيم يكرى نفسه من بعض الحمالين إلى أن وافى صنعاء . ولقد عرض عليه أصحابه العون . تماما مثلما فعلوا معه بمكة حين سرقت ملابسه فلم يقبل من أحد شيئا[٣٠] .

لقد أقام أحمد فى صنعاء سنتين . هكذا يخبر عبد الرزاق ويقول : قدم علينا أحمد بن حنبل هاهنا فأقام سنتين إلا شيئا . فقلت له : يا أبا عبد الله خذ هذا الشيء فانتفع به فإن أرضنا ليست بأرض متجر ولا مكسب – وقدم له عبدالرزاق كفه وفيها الدنانير – فقال أحمد : أنا بخير . ولم يقبل منى[٣١] .

إن لأحمد سابقة فى ذلك فقد عرض عليه أستاذه وشيخه يزيد بن هارون مبلغا من المال زهاء خمسمائة دينار فرفضها . وفى الوقت ذاته قبل المنحة نفسها زميله يحيى بن معين . وأبو مسلم مستملى يزيد .

ولكن الأمر يختلف هذه المرة . فتلك كانت فى واسط فى العراق غير بعيد عن بغداد موطن أحمد . أما هنا فالوطن بعيد والمكان جديب . وكان أحمد فى شدة الحاجة إلى المال . وقد لاحظ هذا الأمر رفيقه فى الرحلة والمسكن إسحاق بن

---

(٣٠) حلية الأولياء ١٧٤/٩ .

(٣١) المصدر ١٧٥ .

راهويه وقال له : إن شئت قرضا وإن شئت صلة . فأبى ورفض المال ، وراقبه ابن راهويه فإذا هو ينسج التكك ويبيع وينفق(٣٢) .

وتبلغ الفاقة بأحمد إلى المدى الذى يجعله يشكو المسغبة وألم الجوع فيرهن نعله عند خباز على طعام أخذه منه(٣٣) .

إن أحمد بن حنبل يتحمل كل ذلك الذى لا يتحمله إلا أولى العزم من الرجال حبًّا فى حديث رسول الله .

وفى صنعاء كان يقيم محدث آخر هو إبراهيم بن معقل بن منبه الصنعانى . فيسعى أحمد للسماع منه ويقول : كان عسرا ، أقمت على بابه يوما أو يومين حتى وصلت إليه فحدثنى بحديثين ، وكان إبراهيم يروى عن عم أبيه وهب بن منبه(٣٤) .

كانت رحلة اليمن رحلة شاقة كابد فيها ابن حنبل كل المكابدة . ولكنه أخذ حديثا كثيرا من عبد الرزاق . وكان عبد الرزاق عنده الكثير . ولقد رأى أحمد شيخه يحدث من كتاب فأخذ عنه ذلك وكان هو الآخر لا يحدث إلا من كتاب فيما بعد .

لقد عاد أحمد من اليمن مارا بمكة حاجا ومعتمرا . ولم يكن مستمعاً حول الكعبة هذه المرة . فقد كان سفيان انتقل إلى الرفيق الأعلى سنة ثمان وتسعين . وكان الشافعى مرتحلا إلى مصر أو فى الطريق إليها . ولعل أحمد ردد حينئذ قول الشاعر :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ إِلَى الصَّفَا
أنيس وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ

---

(٣٢) ترجمة الإمام أحمد للذهبى عن مقدمة المسند ص ٧٢ .

(٣٣) حلية الأولياء ٩/١٧٥ .

(٣٤) تهذيب التهذيب ١/١٤٦ .

هُشَيم ويَزِيد وابنُ عُلَيَّة وابنُ عُيَيْنَة وعبدُ الرَّزَّاق :

إنه عنوان طويل حقا لأنه يحوى أسماء خمسة . غير أن هذا العنوان لن يكون طويلا إذا ما عرفنا أنه لا يضم خمسة أسماء . بل خمسة أعلام وإن شئنا قلنا خمسة أئمة من الحفاظ الفقهاء الرواد الذين على علمهم تخرج واحد من أكبر وأشهر وأنقى وأتقى وأشجع أئمة المسلمين . إنهم شيوخ أحمد بن حنبل ولا فخر .

هشيم بن بشير :

سلف القول بأن أحمد بن حنبل تلقى العلم أول ما تلقاه على هشيم وكان ذلك سنة تسع وسبعين ومائة . وأنه لزمه أربع سنين وقيل خمسة . وأنه جمع علم هشيم وهشيم حى . وقدر أحمد أن ما جمعه منه يزيد على ثلاثة آلاف ورقة . فمن هو هشيم هذا الذى وضع فى قلب أحمد الأساس العلمى لفكره ومذهبه وفقهه ؟ إنه هشيم بن بشير بن القاسم بن دينار السلمى المكنى بأبى معاوية الواسطى . أصله من بخارى . وولد بواسط سنة أربع ومائة هجرية . وبها نشأ[٣٥] . ومدينة واسط كانت آنذاك حديثة الإنشاء . أنشأها الحجاج بن يوسف الثقفى سنة أربع وثمانين واستغرقت عمارتها سنتين فكان تمام عمارتها سنة ست وثمانين . وهى السنة التى مات فيها عبد الملك بن مروان . ولما فرغ الحجاج من بنائها كتب إلى عبد الملك : إنى اتخذت مدينة فى كرش من الأرض بين الجبل والمصرين - يعنى الكوفة والبصرة - وسميتها واسطا . فلذلك سمى أهل واسط الكرشيين[٣٦] . ولذلك سوف نجد بعض أعلام واسط يحملون صفة الواسطى كما يحملون أيضاً صفة الكرشى .

هشيمٌ بخارى الأصل كما ذكرنا . وكان أبوه بشير طباخ الحجاج بن يوسف الثقفى حسب رواية الخطيب البغدادى . وكان عمل بشير فى مطبخ الحجاج قبل أن يولد ولده هشيم . ذلك أن الحجاج مات سنة خمس وتسعين . وهشيم ولد

---

(٣٥) تاريخ بغداد ١٤/٨٦ .

(٣٦) معجم البلدان مادة واسط .

سنة أربع ومائة أى بعد وفاة الحجاج بتسع سنين ، فلما أن بلغ هشيم السن التى يطلب فيها العلم كان أبوه قد أصبح فقيرا رقيق الحال يبيع نوعا من طعام الأسماك الصغيرة يسمى الصحنا أو الصحناه .

وكان هشيم يطلب الحديث وأبوه يمنعه من ذلك ، لفقره ورقة حاله ، تماما مثلما كان يفعل إبراهيم والد أبى يوسف ، فقد ذكرنا عند حديثنا عن الإمام أبى حنيفة وتلميذه أبى يوسف أن والد أبى يوسف كان رقيق الحال يريد أن يتوسل بولده حتى يعينه على أعباء الحياة بالعمل والكسب . فقام أبو حنيفة بهذه المهمة وأجرى على أبى يوسف راتبا شهريا كفاه وأهله مؤونة الحياة .

غير أن بشيرا والد هشيم لم يجد مثيلا لأبى حنيفة يجرى راتبا على هشيم ، وأصر هشيم على طلب حديث رسول الله رغم ممانعة أبيه ، وكتب صحفا من الحديث حفظها وجادل بها ، وكان هشيم على الرغم من صغره يجالس أبا شيبة قاضى واسط ويناظره فى الفقه . والعلم فى الإسلام لا يعرف الطبقية ولا يقرها ، بل هو حرب عليها مقبح لها ولأصحابها . ولذلك لم يكن هناك غرابة فى أن يجالس فتى فقير يبيع أبوه الصحنا قاضيا كبيرا مثل أبى شيبة مادامت وشيجة اللقاء هى العلم من فقه وحديث .

ومن الطريف أن هذه الصلة بين الفتى الفقير الدارس المجتهد وبين القاضى تكون سببا فى رضى بشير عن ولده والسماح له بطلب الحديث والاستمرار فيه حتى يصبح واحدا من أئمة المسلمين . ذلك أن الفتى هشيم مرض ذات مرة وطال مرضه بعض الوقت وغاب عن مجلس القاضى فافتقده وسأل عنه قائلا : ما فعل ذلك الفتى الذى كان يجئ إلينا ؟ فقال الجلساء : إنه عليل . فقال القاضى على الفور : قوموا بنا حتى نعوده . فقام أهل المجلس جميعا حتى جاءوا إلى منزل بشير فدخلوا إلى هشيم . فأسرع أحد الجيران إلى دكان بشير ويده فى الصحناه . فقال : الحق ابنك . فقد جاء إليه القاضى يعوده . فأسرع بشير إلى الدار والقاضى فى بيته يعود ولده . فلما خرج قال لابنه : يا بنى قد كنت أمنعك من

طلب الحديث . أما اليوم فلا . صار القاضي يجئ إلى بابي ! ! متى أملت أنا هذا [٣٧] .

أقبل هشيم على حديث رسول الله حفظا وفهما . وكان يحفظ فى مجلس واحد مائة حديث . وكان يقول فى ذلك : لو سئلت عنها بعد شهر لأجبت .

على أن المتحدث عن هشيم ينبغى ألا يغفل أن لهشيم خؤولة فى الحفظ والحديث ذلك أن خاله هو القاسم بن مهران القيسى وأن هشيما قد روى عنه . ورد ذكر هذه الخؤولة عند ترجمة صاحب تهذيب التهذيب لكل من هشيم [٣٨] والقاسم بن مهران [٣٩] . ولم يكن هشيما وحده بين طبقة الرجال العظام هو الذى روى عن خاله القاسم . وإنما روى عنه أيضاً شعبة بن الحجاج وإسماعيل بن علية وعبد الله بن دكين . إن إسماعيل بن علية من أئمة الإسلام وواحد من كبار شيوخ ابن حنبل وسوف يأتى حديثنا عنه بعد قليل .

وهشيم من المحدثين الذين رووا عن كبار التابعين وتابعى التابعين . فقد ذهب إلى مكة صغيرا . وسمع من الزهرى وعمرو بن دينار . كما سمع من الأعمش ويحيى بن سعيد الأنصارى .

ومن الذين رووا عنه من الأئمة : مالك وسفيان الثورى وشعبة بن الحجاج وهم أكبر منه سنا . كما روى عنه ولده سعيد بن هشيم . وعبد الله بن المبارك ، ووكيع بن الجراح . وابن بلده يزيد بن هارون . ويحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدى وهؤلاء الأربعة الأخيرون من شيوخ أحمد . كما روى عنه يحيى بن معين وقتيبة بن سعيد وعلى بن المدينى وأبو خيثمة وغيرهم كثيرون [٤٠] .

---

(٣٧) تاريخ بغداد ٨٧/١٤ .

(٣٨) ابن حجر ٥٩/١١ .

(٣٩) ابن حجر ٣٣٩/٨ .

(٤٠) تاريخ بغداد ٦٠/١١ .

وكان هشيم قد ضاق ذرعا بالإقامة فى واسط فهجرها إلى بغداد . ذلك أن مدينة واسط صغيرة وأن أهلها ليسوا من المروءة بحيث يعطون العالم حقه . ولا يسودون واحدا منهم . ومن ثم كثرت أهاجى الشعراء فيها والتعريض بها والنيل من مروءة أهلها . إن الفضل الرقاشى الشاعر يقول معاتبا صديقا له معرّضا بأهل واسط :

تركْتَ عِيَادَتى وَنَسِيتَ بِرِّى
وقِدْماً كنتَ بِى بَرًّا حَفِيًّا

فَماَ هَذَا التَّغَافُلُ يا ابْنَ عِيسَى
أَظُنُّك صِرْتَ بَعْدِىَ وَاسطِياّ

والتغافل صفة لازمة لاحقة بأهل واسط . ولم تسلم واسط من حدة لسان بشار بن برد . وبشار شاعر هجاء . يجرى الهجاء فى عروقه مجرى الدم . ومن ثم فهو يقول فيها وفى أهلها :

عَلَى وَاسِطٍ مِنْ رَبِّهاَ ألفُ لَعْنَةٍ
وتسعةُ آلافٍ على أَهْلِ وَاسِطِ

أَيُلْتَمَسُ المعروفُ من أهلِ وَاسِطٍ
وَوَاسِطُ مَأْوَى كُلِّ عِلْجٍ وَسَاقِطِ

نُبيطٌ وَأَعْلاَجٌ وَخُوزٌ تَجَمَّعُوا
شِرَارُ عِبَادِ اللهِ مِنْ كُلِّ غَائِطِ

وإِنِّى لأَرْجُو أَنْ أَنَالَ بِشَتْمِهِم
مِنَ اللهِ أَجْرًا مِثْلَ أَجْرِ الْمُرَابِطِ

إننا لم نقصد إلى التعريض بواسط وأهلها قصداً . فهى مدينة دخلت التاريخ من أقبح أبوابه . من باب هو أقرب إلى أبواب جهنم . فقد كان مؤسسها وبانيها

الحجاج بن يوسف من أشد السفاكين الظالمين فى تاريخ البشر ، أحصى فى محبسه ثلاثة وثلاثون ألف إنسان لم يحبسوا فى دم ولا تبعة ولا دين ، وأحصى من قتله صبرا – أى حبسوا على القتل حتى يقتلوا – فبلغوا مائة وعشرين ألفا . إن الذنب فى ذلك يرجع إلى الحجاج وليس إلى واسط وأهلها حتى يأمل بشار أن ينال بشتمهم ثواب المرابط فى سبيل الله . ولكن مدينة واسط فيما يبدو لم تكن تحتفل بأعلامها أو تكرم علماءها ، فكان منهم من يرحل عنها إلى غير رجعة مثل هشيم ومثل شعبة بن الحجاج ، ومنها من ارتضى الإقامة بها ولكن على مضض كما فعل يزيد بن هارون .

المهم فى الأمر أن هشيما هجر بلده وارتحل إلى بغداد وعقد حلقته فى مسجدها الكبير وجلس إليه من قد ذكرنا من أعلام الرجال وصار يعرف بمحدث بغداد .

ولقد حظى هشيم بما هو أهل له من ثناء وتقدير ، فشهد له أئمة الزمان من معاصريه بالصدق فى حفظه ، والأمانه فى روايته ، والوفرة فى علمه ، فقد كان معاصرا لكبار الأئمة مثل أبى حنيفة ومالك والليث والثورى والأوزاعى وشعبة ؛ وإن كانوا يكبرونه سنا ، ولكن حسن سمعته وسلامة حفظه وأمانة روايته وصلت إلى أسماع كثير منهم ؛ فالإمام مالك يقول : وهل فى العراق أحد يحسن الحديث إلا ذاك الواسطى ؟ يعنى هشيما(٤١) .

ويرتحل هشيم إلى البصرة زائرا محدثا وفيها شعبة ذو القدر الكبير والمقام الراسخ فى حديث رسول الله ، وشعبة أكبر من هشيم باثنتين وعشرين سنة فقد ولد سنة اثنتين وثمانين ، وهو الذى قال عنه الشافعى : لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق . إن طلاب البصرة وعلماءها يذكرون لشعبة وفود هشيم عليهم ؛ فيقول لهم : إن حدثكم عن ابن عباس وابن عمر فصدقوه(٤٢) . فإذا ماعرفنا كم كان قدر عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر أدركنا أى شهادة رفيعة تلك التى شهدها شعبة لهشيم .

---

(٤١) تهذيب التهذيب ٦٠/١١ وتاريخ بغداد ٩٢/١٤ .

(٤٢) تاريخ بغداد ٨٨/١٤ وتهذيب التهذيب ٦٢/١١ .

وأما عبد الرحمن بن مهدى فيفضل هشيما على سفيان الثورى ويقول : كان هشيم أحفظ للحديث من سفيان الثورى ، ونحن من جانبنا لا نكذب ابن مهدى فلقد كان إماما كبيرا ، ولكننا نتحفظ فى مدى صحة الخبر ، لأن الثورى كان إمام الحديث دون منازع ، وهو الملقب بأمير المؤمنين فى الحديث . أما يزيد بن هارون وهو من طبقة هشيم ، فإنه يبدو أكثر اعتدالا مع إنصاف لهشيم إذ يقول : ما رأيت أحفظ من هشيم إلا سفيان الثورى .

إن هشيم بن بشير لم يكن مجرد شيخ يحفظ الحديث ويملى الفقه ويفتى فى المسائل ، وإنما كان رجلا صالحا ذا هيبة ، ولعلّ ذلك واحد من الأسباب التى جعلت أحمد يتفرغ إلى حلقته إلى أن مات . وإن أحمد يصفه فيقول : كان هشيم كثير التسبيح . . . ما سألته عن شيء هيبة له إلا مرتين . وقد سبق أن أشرنا إلى رواية أحمد هذه فى مستهل هذا الكتاب .

ومن الأمور التى لا ينبغى أن يغفلها متحدث عن هشيم . بل ينبغى إبرازها كعمل متميز فى حياة هشيم . أنه كان ممن خرج مع إبراهيم الإمام شقيق محمد النفس الزكية فى واسط ، وأن ولده معاوية – الذى يكنى به – قد خاض المعارك فى صفوف إبراهيم وقتل فيها ، فكان إسهام هشام فى حركة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم أكثر من إسهام أبى حنيفة ومالك . فقد أسهم بنفسه وقدم دماء ولده الكبير لتلك الحركة المباركة التى لم يكتب لها النجاح .

بقى أن نذكر لهشيم أنه صاحب تفسير . وأن له كتاب السنن فى الفقه . وكتابا فى المغازى .

هذا وكان ميلاد هشيم سنة أربع ومائة فى واسط ، وكانت وفاته سنة ثلاث وثمانين ومائة فى بغداد .

يزيد بن هارون :

كان هشيم واسطيا كما رأينا ترك بلده وأقام ببغداد . وهذا يزيد بن هارون إمام حافظ فقيه من واسط ، وهو بهذه النسبة يشترك مع هشيم . ثم هما بعد ذلك

يشتركان فى أصل آخر ، ذلك أن كليهما بخارى الأصل رحل أبوه إلى واسط وإذا كان إمامان غيره هما هشيم وشعبة قد غادرا واسط إلى غير رجعة هذا إلى بغداد وذاك إلى البصرة ، فإن يزيد كان يغادر واسط ويتجه إلى بغداد حيث تعقد له حلقة تفيض بالرجال وتحفل بسامعى حديث رسول الله ﷺ ، ثم لا يلبث أن يعود إلى واسط ، وليس معنى رحلته خارجها ثم عودته إليها أنه كان يحبها . إن الأمر على العكس من ذلك تماما ، فإن واسط بمفهوم هشيم وشعبة هى نفسها بمفهومها عند يزيد ، مدينة قبيحة خليقة بالشعر الذى قيل فى هجائها ، إلا أن مسقط الرأس كثيرا ما يكون عزيزا على المرء ولو كان من أقبح ديار الأرض وأهله من أخس الناس أخلاقا ، فبعض الناس لهم قدرة على هجر مسقط الرأس ، والبعض الآخر لا يستطيع ذلك ، وكان يزيد من هذا الفريق الأخير .

يقول محمد بن عبد الملك الدقيقى الواسطى المحدث الثقة المتوفى سنة ست وستين ومائتين عن واحد وثمانين عاما ، وكان تلميذا ليزيد : سمعت يزيد بن هارون يقول : لا ينبل أحد من أهل واسط بواسط لأنهم حساد ، فقيل له ولا أنت يا أبا خالد ؟ فأجاب : ما عُرِفْتُ حتى خرجت من واسط[٤٣] .

إن أبا خالد يزيد بن هارون مرتبط ببلدته واسط ، بها ولد سنة سبع عشرة ومائة وقيل ثمانى عشرة ومائة ، وعلى أرضها نشأ وربى . وكان يرحل فى طلب العلم والحج أو لزيارة بغداد ثم يعود إليها . وبها توفى سنة ست ومائتين عن عمر يقل قليلا عن التسعين فاقد البصر . ولقد كف بصره على مرحلتين . إن الحسن بن عرفة بن يزيد العبدى البغدادى المؤدب المتوفى سنة سبع وخمسين ومائتين عن عمر يناهز العشرة بعد المائة[٤٤] يقول : رأيت يزيد بن هارون وهو من أحسن الناس عينين ، ثم رأيته بعين واحدة ، ثم رأيته وقد ذهبت عيناه ، فقلت : يا أبا خالد . ما فعلت العينان الجميلتان ؟ قال : ذهب بهما بكاء الأسحار[٤٥] .

---

(٤٣) تاريخ بغداد ٣٤٥/١٤ .

(٤٤) راجع تهذيب التهذيب ٢٩٣/٢ .

(٤٥) تاريخ بغداد ٣٤١/١٤ ، ٣٤٢ .

إن بكاء الأسحار يعنى الصلاح والتقوى وقيام الليل والسهر فى العبادة ، لقد كان يزيد يفعل ذلك مستجيبا لقول الله تعالى :

« الذينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيامًا وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » (٤٦)

كان يزيد متعبدا حسن الصلاة ، يصلى الضحى ست عشرة ركعة ، وكان هو وهشيم معروفين بطول الصلاة . وكان أحمد بن سنان أبو جعفر الواسطى الحافظ المتوفى سنة تسع وخمسين ومائتين يقول : ما رأينا عالما قط أحسن صلاة من يزيد بن هارون ، يقوم كأنه اسطوانة ، كان يصلى بين المغرب والعشاء ، والظهر والعصر ، لم يكن يفتر من صلاة الليل والنهار ، هو وهشيم جميعا معروفان بطول الصلاة بالليل والنهار(٤٧) . وقال رجل ليزيد : كم حزبك من الليل ؟ فقال : وأنام من الليل شيئا ؟ إذن لا أنام الله عينى .

هذا ماكان من أمر صلاح يزيد وتقواه ، وكان أحمد يتحرى الأتقياء الأنقياء من الرجال ، وأما عن علمه وحفظه فكان يقول : أحفظ خمسة وعشرين ألف إسناد ولا فخر ، ويعود ليقول : أحفظ للشاميين عشرين ألف حديث لا أسأل عنها ، ويقول أيضاً : لا أقامنى الله إن كنت لا أقوم بحديثى .

لذلك فقد شهد له الحفاظ والفقهاء الكبار . فهذا على بن المدينى يقول : لم أر أحفظ من يزيد بن هارون . وأما يحيى بن يحيى فيقول : كان بالعراق أربعة من الحفاظ : شيخان وكهلان ، فأما الشيخان فهشيم ويزيد بن زريع(*) وأما الكهلان – الكهولة المرحلة التالية للشباب – فوكيع ويزيد بن هارون ، وأحفظ

---

(٤٦) سورة آل عمران الآية ١٩١ .

(٤٧) تاريخ بغداد ٣٤٠/٤ .

(*) هو أبو معاوية البصرى الحافظ الثقة المتوفى بالبصرة سنة ثنتين وثمانين ومائة ، وكان أبوه واليا على الأبلة ونخلف خمسمائة ألف دينار فما أخذ منها دينارا واحدا .

الكهلين يزيد بن هارون ، وأما يحيى بن معين فكان متحفظا إذا ما سئل عن يزيد وهو فى ذلك يخالف جمهرة الحفاظ – مع أن يزيد كان يفيض عليه علما ويصله بالمال – فمرة يقول عنه إنه مثل هشيم وابن علية غير أنهما أقل خطأ منه – يعنى ثلاثتهم يخطئ – ومرة أخرى يقول عنه إنه ليس من أصحاب الحديث (٤٨) .

إن هذا الذى يوجه إلى يزيد من طعن ليس جديدا فى عالم المحدثين والحفاظ والفقهاء . فقد رمى أبو حنيفة بأكثر من ذلك . وكذلك فعل بعض المحدثين مع مالك .

أما أحمد بن حنبل تلميذ يزيد فقد قيل له : يزيد بن هارون له فقه ؟ فقال : نعم ما كان أفطنه وأذكاه وأفهمه . فقيل له : فابن علية ؟ قال : كان له فقه إلا أنى لم أخبره خبرى يزيد بن هارون . ويمضى الإمام أحمد قائلا : ما كان أجمع أمر يزيد ! ! صاحب صلاة . حافظ . متقن للحديث . صوانة وحسن مذهب (٤٩) .

لقد كان يزيد بن هارون كما قال أحمد فقها وحديثا وحسن مذهب ، وهو بعد ذلك صاحب شهرة وصيت . إذا ذهب إلى بغداد وجلس للحديث خرجت بغداد لسماعه . يقول يحيى بن أبى طلبة . وهو تلميذ ليزيد . محدث حافظ واسطى : سمعت يزيد بن هارون فى المجلس فى بغداد وقيل إن فى المجلس سبعين ألفا .

إنها ليست إذن مشيخة وحسب . ولكنها زعامة وسلطنة على النفوس ، وعرش على القلوب . ومن ثم فإن خليفة بغداد المتطرف فى فكره كان يتحامى جانبه ، وخشى أن يقول ببدعة خلق القرآن خوفا على عرشه من يزيد .

إن المأمون يقول : لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرت خلق القرآن . فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين . ومن يزيد حتى يُتَّقَى ؟ فيرد عليه المأمون :

---

(٤٨) تاريخ بغداد ٣٣٨/١٤ .

(٤٩) تهذيب التهذيب ٣٦٨/١١ .

ويحك ، إني لا أتقيه لأن له سلطانا أو سلطنة ، ولكن أخاف إن أظهرته فيرد عليّ ، فيخلف الناس وتكون فتنة ، وأنا أكره الفتنة . فقال له الرجل : فأنا أخبر لك ذلك منه ، فقال المأمون : نعم . فخرج الرجل إلى واسط فجاء إلى يزيد ودخل عليه المسجد وجلس إليه فقال له : يا أبا خالد . إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك : إني أردت أن أظهر أن القرآن مخلوق . فقال يزيد : كذبت على أمير المؤمنين ، أمير المؤمنين لا يحمل الناس على ما لا يعرفونه وما لم يقل به أحد . فعاد الرجل إلى بغداد فقال : يا أمير المؤمنين لقد كنت أعلم ، كان من القصة كيت وكيت ، فقال له المأمون : ويحك تلعّب بك[٥٠]

إن الحقيقة الواضحة أن يزيد لم يتلعّب بالرجل ، وإنما كان حادا كالسيف ، جارفا كالسيل ، أدخل الرعب بقوله هذا إلى قلب المأمون ، فلم يجرؤ على فعلته الشنعاء فى حياة يزيد .

كان الناس يسمعون يزيد يحلف بالله الذى لا إله إلا هو أن من قال : القرآن مخلوق فهو كافر ، ثم يكرر القول فى مجلسه الكبير بألفاظ أخرى : القرآن كلام الله ، لعن الله جهماً ومن يقول بقوله ، كان كافرا جاحدا هذه المعانى الواضحة كالشمس كانت تصل إلى أسماع المأمون ، فتدخل الفزع إلى قلبه ، فيخاف إظهار ما كان ينوى إظهاره حول خلق القرآن ، فلما أن خلا له الميدان بوفاة يزيد سنة ست ومائتين بدأ بإشعال نار الفتنة التى كان وقودها كثير من علماء المسلمين وكان بطلها الصامد أحمد بن حنبل .

من هنا كان تأثر أحمد بن حنبل بشيخه ، سمع منه الحديث وأخذ عنه الفقه ، ورأى فيه التبتل والصلاح ، ورآه يدافع عن كتاب الله ، ويدفع الفتنه من أن تظهر .

ومن ناحية أخرى كان يزيد بن هارون ممن يعدون من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر فى سلوكه ونمط حياته . وكانت فكرة الأمر بالمعروف والنهى

---

(٥٠) تاريخ بغداد ٣٤٢/١٤

عن المنكر من أنبل ما تبناه أحمد بن حنبل ومدرسته من أفكار ، ولايزال أبناء المذهب حتى يومنا هذا يؤلفون جماعات للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهم فى ذلك يمثلون امتدادا للمدرسة التى تتلمذ فى رحابها أحمد بن حنبل ، مدرسة العالم العابد العارف المحدث الإمام يزيد بن هارون .

ابن عُلَيَّة :

لقد مرّ بنا القول بأن ابن علية كان أحد شيوخ ابن حنبل فى البصرة ، وكان أحمد بن حنبل يرى فى شيخه ابن علية خير عوض عن الفقيه المحدث حماد بن زيد . قال أحمد : فاتنى مالك فأخلف الله علىّ سفيان بن عيينة . وفاتنى حماد بن زيد فأخلف الله علىّ إسماعيل بن علية(٥١) .

لقد ولد ابن علية فى البصرة سنة عشر ومائة من أب كوفى اسمه إبراهيم بن مقسّم كان يعمل بالتجارة بين الكوفة والبصرة ، فتزوج فى البصرة امرأة فاضلة عاقلة اسمها عليّة فأنجبت له إسماعيل فنسب إلى أمه كما أنجبت ولدا آخر اسمه ربعى .

وكانت علية بنت حسان – أم إسماعيل – امرأة نبيلة عاقلة ذات فضل وفطنة ، وكان وجوه البصرة يدخلون عليها فتبرز لهم وتحادثهم وتسائلهم .

وكانت أيضاً من حب العلم وتقدير أهله بحيث عهدت بولدها إسماعيل إلى عبد الوارث بن سعيد أحد أئمة الحديث بالبصرة وقالت له : ابنى يكون معك ويأخذ بأخلاقك ، وكان إسماعيل فتى فطن العقل ، ذكى الفؤاد ، جميل المحيا ، فتخرج ابن علية على عبد الوارث وعلى غيره ، وأهل البصرة لا يشكون فى أنه أثبت من عبد الوارث .

ولكن إسماعيل كان يضيق ذرعا بهذه التسمية أو هذه النسبة إلى أمه . وكان

---

(٥١) تهذيب التهذيب ٢٧٦/١ وتاريخ بغداد ٢٣٤/٦ وقد اعتمدنا فى أكثر الأخبار والروايات عن ابن علية على هذين المصدرين .

يقول : من قال ابن علية فقد اغتابني . وكان الإمام أحمد إذا سمع أحدا ذكر إسماعيل مقرونا بابن علية . قال له : لا تقل ابن علية . ولكن قل إسماعيل بن إبراهيم . لأنه يكره أن ينادى أو يعرّف بهذه التسمية . وليس ذلك بغريب فالإمام أحمد كان فى غاية من الأدب مع نفسه ومع الناس ومع الله .

ولقد كان ابن علية يمارس التجارة مثلما كان يفعل أبوه . ثم ولى صدقات البصرة . ثم انتقل إلى بغداد وولى المظالم بها فى أواخر خلافة الرشيد . واشترى بها دارا أقام بها هو وولده إبراهيم حتى توفى سنة ثلاث وتسعين ومائة ودفن ببغداد ، أما ولده إبراهيم فقد ارتحل إلى مصر . وأقام بها زمنا غير قصير . وجرت له مع الشافعى مناظرات وتوفى سنة ثمانى عشرة ومائتين فى مصر . وقيل بل عاد إلى بغداد وتوفى فيها .

وكان ابن علية من الحفظ والأمانة بحيث أخذ عنه صفوة الحفاظ وأعلام المحدّثين مثل شعبة بن الحجاج وابن جريج وهما من شيوخه ، وأخذ عنه إبراهيم بن طهمان الخراسانى النيسابورى البغدادى المكى المتوفى بمكة سنة ثمان وستين ومائة . أى أنه أكبر من ابن علية سنا .

وممن أخذ عنه – وهم أقرانه – حماد بن زيد . وعبد الرحمن بن مهدى . وبقية بن الوليد بن صائد . كما أخذ عنه إمامان جليلان هما الشافعى وأحمد . وذلك فضلا عن كبار المحدثين من أمثال يحيى بن سعيد ، وعلى بن المدينى ، وأبى خيثمة زهير بن حرب .

فإذا ماكان الأمر متعلقا بالحفظ والأمانة والصدق فى الرواية . فهناك بين رجال الحديث ما يشبه الإجماع على أن ابن علية كان كذلك ، وقد اتفق على أنه لم يحدث من كتاب قط وإنما كان حافظا حديث رسول الله ﷺ عن ظهر قلب .

إن قتيبة بن سعيد المحدث الحافظ يقول : كانوا يقولون الحفاظ أربعة ، إسماعيل بن علية . وعبد الوارث . ويزيد بن زريع . ووهيب .

فأما عبد الوارث فهو عبد الوارث بن سعيد وهو أول من تلقى ابن علية العلم

على يديه ، وأما يزيد بن زريع فهو أبو معاوية البصرى الحافظ الثقة الفقيه العابد الذى كان يطلق عليه الإمام أحمد : ريحانة البصرة ، وقد توفى سنة ثلاث وثمانين ومائة . وأما وهيب رابع الحفاظ فهو وهيب بن خالد المكنى بأبى بكر البصرى ، وقد فضله الإمام أحمد بعد فتنة خلق القرآن على ابن علية ، وقد توفى وهيب سنة خمس وستين ومائة وهو ابن ثمان وخمسين سنة[٥٢] .

وفى حفظ ابن عليّة وتمكنّه يورد الخطيب البغدادى هذا الخبر : اجتمع حفاظ أهل البصرة وحفاظ أهل الكوفة فقال أهل الكوفة لأهل البصرة : نحّوا عنا إسماعيل – يعنى ابن علية – وهاتوا من شئتم[٥٣] ، وهذا يعنى أن ابن علية لم يكن سيد محدثى البصرة وحسب ، وإنما كان مشهودا له بالتفوق والأمانة عند حفاظ أهل الكوفة ، وهم أنداد عدول لأهل البصرة .

وعن ابن علية وتثبته وبعده عن الخطأ يقول أبو داوود السختيانى : ما أحد من المحدثين إلا وقد أخطأ ، إلا إسماعيل بن علية وبشر بن المفضل .

وأما شعبة بن الحجاج شيخ محدثى البصرة وإمامهم فإنه يقول : إسماعيل بن علية سيد المحدثين ، ومرة أخرى يقول عنه : إسماعيل بن علية ريحانة الفقهاء .

ويذهب عبد الرحمن بن مهدى فى تفضيل ابن علية إلى القول بأن ابن علية أثبت من هشيم ، وقد مر حديثنا عن هشيم وأستاذيته للإمام أحمد .

والإمام أحمد يقول فى شيخه ابن علية : كان حماد بن زيد لا يعبأ إذا خالفه الثقفى ووهيب . وكان يهاب إسماعيل بن علية إذا خالفه . وأما حماد بن سلمة ، وهو أحد الحمادين ، فكان يقول : القول ما قال إسماعيل .

لقد كان إسماعيل بن علية إلى ذلك كله عابدا ، متبتلا . قارئا للقرآن الكريم ، وقورا . لا يضحك ولا يبتسم . فقد ذكر بعض تلاميذه أنه جالسه عشرين سنة فما رآه يضحك ، ويقول على بن المدينى : بتّ عنده ليلة فقرأ ثلث القرآن . وما ضحك قط .

---

(٥٢) تهذيب التهذيب ١١/١٧٠

(٥٣) تاريخ بغداد ٦/٢٣٣

ولعبد الله بن المبارك الإمام الفقيه المرابط الزاهد قصة طريفة مع ابن علية ، لقد كان ابن المبارك يمارس التجارة حتى يستطيع أن يؤمن لنفسه وأسرته الكفاف . وفى ممارسته التجارة يقول : لولا خمسة ما اتجرت . فقيل له : يا أبا محمد من الخمسة ؟ فقال سفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ، والفضيل بن عياض ، ومحمد بن السّماك ، وابن علية .

وكان عبد الله بن المبارك يخرج فيتجر إلى خراسان ، فكلما ربح شيئا أخذ القوت لعياله ومقدار ما يكفيه لنفقة الحج ، والباقى يصل به إخوانه الخمسة . فقدم سنة فقيل له : قد ولى ابن علية القضاء ، فلم يأته ولم يصله بالصرة مثل كل سنة ، فبلغ ابن علية أن ابن المبارك قد قدم فركب إليه ، ولكن عبد الله لم يلتفت إليه ولم يكلمه ، فانصرف ، فلما كان من غد كتب إليه ابن علية رقعة فيها : «بسم الله الرحمن الرحيم ، أسعدك الله بطاعته ، وتولاك بحفظه ، وحاطك بحياطته ، قد كنت منتظرا لبرك وصلتك أتبرك بها ، وجئتك أمس فلم تكلمنى ، ورأيتك واجداً علىّ ، فأى شيء رأيت منى حتى أعتذر إليك منه ؟ » فلما وردت الرقعة على عبد الله بن المبارك دعا بالدواة والقرطاس وقال : يأبى هذا الرجل إلا أن نقشر له العصا ، ثم كتب إليه : بسم الله الرحمن الرحيم .

يَا جَاعِلَ الدِّينِ له بَازِيًا ... يَصْطَادُ أَمْوَالَ الْمسَاكِين
احْتَلْتَ للدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا ... بحيلةٍ تَذْهَبُ بالدِّينِ
فَصِرْتَ مجنونًا بها بَعْدَمَا ... كُنْتَ دَوَاءً للمجانينِ
أَيْنَ رِوَايَاتُكَ فى سَرْدِهَا ... عَنِ ابْنِ عَوْنٍ وابنِ سِيرِينِ
أَيْنَ رِوَايَاتُكَ فى سَرْدِهَا ... لِتَرْكِ أَبْوَابِ السَّلاَطِينِ
إنْ قُلْتَ أُكْرِهْتَ فَذَا باطلٌ ... زَلَّ حِمَارُ العِلْمِ فى الطِّينِ

فلما وقف ابن علية على هذه الأبيات قام من مجلس القضاء ، فوطىء بساط هارون الرشيد وقال : يا أمير المؤمنين ، الله الله ، ارحم شيبتى فإنى لا أصبر

للخطأ . فقال له هارون : لعل هذا المجنون أغرى عليك . فقال : الله الله أنقذنى أنقذك الله . فأعفاه من القضاء . فلما اتصل بعبد الله بن المبارك بعد ذلك . وجه إليه الصرة (٥٤) .

وفى رواية أخرى أن هذا الخلاف الذى حدث بين ابن علية وابن المبارك كان بعد أن ولى ابن علية صدقات البصرة .

ومهما يكن الأمر من حيث الوظيفة التى وليها ابن علية ، أهى صدقات البصرة أو مظالم بغداد . فقد كان هؤلاء العلماء الأئمة الأعلام يرون أنه مما ينتقص من قدر العالم أن يقوم بوظيفة ما فى الدولة . لما تستدعيه الوظيفة أحيانا من ظلم أو خداع . وهو ما لا يجمل بالعلماء أن يتورطوا فيه ولا ينبغى لهم أن يفعلوه .

سفيان بن عُيَيْنَة :

اشتهر بين أئمة الحديث وكبار حفاظه إمامان جليلان يحمل كل منهما اسم سفيان . عاشا فى عصر واحد . وولدا فى بلدة واحدة هى الكوفة . وإن كان أحدهما يكبر الآخر بعشر سنين . وكان يطلق عليهما السفيانان . إن هذين السفيانين هما سفيان بن عيينة موضوع حديثنا فى هذا المقام وسفيان الثورى . إن أصغر السفيانين هو سفيان بن عيينة الذى ولد فى الكوفة سنة سبع ومائة . ثم هاجر مع أبيه لأسباب سياسية إلى مكة . وجدّ فى طلب العلم حتى صار يعرف بمحدث الحرم المكى .

إن سفيان بن عيينة ليس غريبا عنا . فقد سبقت الإشارة إليه فى أكثر من موضع . وأوضح هذه الإشارات ما قد أجملناه حول بعض مواقفه عندما رحل الإمام أحمد إلى الحجاز . وإشارة أخرى خصصناه بها ونحن نتكلم عن الإمام الشافعى فى الكتاب السابق الخاص بالإمام القرشى المطلبى .

واسم سفيان كاملا هو سفيان بن عيينة بن أبى عمران . وقيل بل سفيان بن

---

(٥٤) تاريخ بغداد ٦/٢٣٥ . ٢٣٦

عيينة بن أبى ميمون . وكنيته أبو محمد . وكان سفيان من الموالى ولم يكن عربى الأصول . فقد كان مولى لبنى هلال ولذلك كان يلقب ويكنى بأبى محمد الهلالى وقيل بل كان مولى للمحدث الفقيه مسعر بن كدام .

لقد سلف القول بأن الإمام الشافعى كان يقول لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز . وكان يقول أيضاً : مالك وسفيان بن عيينة القرينان[٥٥] . يعنى كلاهما قرين الآخر فى السنة والحديث . وليس من شك فى أن الذى وجه الإمام أحمد إلى السماع من سفيان بن عيينة والأخذ عنه هو الإمام الشافعى نفسه . ولقد رضى أحمد عن سماعه من سفيان كل الرضى وهو القائل فى هذا الشأن : فاتنى مالك فأخلف الله علىّ سفيان بن عيينة . وفاتنى حماد بن زيد فأخلف الله علىّ إسماعيل بن علية . ولقد قدمنا دراسة مختصرة لابن علية قبل هذا الذى نكتبه عن ابن عيينة تفى بغرض الدارس غير المتمهل .

لم يكن نبوغ سفيان بالأمر المستغرب . فهو إلى ذكائه وفطنته نشأ فى بيت علم . والعلم يرفع من قدر المرء ولو كان من الموالى . فلقد قضى الإسلام على هذه النعرة الجاهلية . وآخى بين العربى وغيره . وساوى بين السيد والمولى .

كان عيينة والد سفيان يرعاه ويعلمه العبادات منذ أن كان صغيرا.إن سفيان يذكر أن أباه اصطحبه معه إلى الحج وله من العمر ست سنين . ويقول إنه — أى والده — حج به سبعا وعشرين حجة إلى أن بلغ نيفا وثلاثين . ومعنى ذلك أن سفيان كان يحج من الكوفة . ثم لما انتقل مع والده وإخوته إلى مكة كان يحج مع أبيه من مكة . ومعنى ذلك أيضاً أن عيينة قد اكتحلت عيناه ونعمت أذناه برؤية ولده سفيان جالسا للتحديث وسمعه يروى حديث الزهرى وابن دينار . فلقد جلس سفيان للتحديث وهو حدث — حسب تعبيره — وإذن تكون الغرسة الطيبة التى غرسها عيينة نمت وترعرعت وأثمرت الخير فى وقت مبكر . لا شك أنه كان بذلك شاكرا لله حامدا فضله . وهل هناك أجل من أن يرى الأب ولده عالما يجلس فى كرسى الأستاذ ينثر على الناس علمه ويحدثهم بحديث رسول الله

---

(٥٥) تاريخ بغداد ١٧٩/٩

يقول سفيان بن عيينة : أول من أسندنى إلى الاسطوانة – يعنى طلب إلى الجلوس للتحديث – مسعر بن كدام . فقلت : إنى حدث . فقال : إن عندك الزهرى وعمرو بن دينار . أى عندك أحاديث الزهرى وأحاديث عمرو بن دينار . ولقد كان ذلك صحيحا . فلقد لقى سفيان كلا من ابن شهاب الزهرى وعمرو بن دينار وجلس إليهما وعمره ست عشرة سنة . إن سفيان يروى خبر تلقيه عن الحافظين الكبيرين وهو فى هذه السن المبكرة ويضيف قائلا : زعموا أن الزهرى قال : ما رأيت طالبا لهذا الأمر أصغر سنا منه(٥٦) .

قلنا إن سفيانا نشأ فى بيت علم . ذلك أن أباه لم يشجعه وحده على التعلم . وإنما كان يشجع أبناءه جميعا . فقد كان لسفيان تسعة إخوة . نبغ منهم أربعة غيره . وجلسوا للحديث . وهم محمد . وآدم . وعمران . وإبراهيم أبناء عيينة .

فإذا ما عدنا إلى سفيان ومرحلة تعلمه وسماعه وجدناه قد أدرك نيفا وثمانين نفسا من التابعين حسب رواية الخطيب البغدادى . وكان يقول : ليس بينى وبين أصحاب النبى ﷺ إلا ستر . يعنى ليس بينه وبين الصحابة إلا رجل واحد . فقد سمع من ابن شهاب الزهرى وعمرو بن دينار حسبما أسلفنا القول قبل قليل . كما روى عن أبى إسحاق السبيعى . وعبد الله بن دينار بن أسلم . ومنصور بن المعتمر . وأبى الزناد . وأيوب السختيانى وغيرهم كثيرين .

أما من رووا عن ابن عيينة فكثيرون . إنهم صفوة الأئمة ورءوس الحفاظ . روى عنه سميّه سفيان الثورى . والأعمش . وشعبة بن الحجاج . ويحيى بن سعيد القطان . وعبد الرحمن بن مهدى . وعبد الله بن المبارك . ووكيع بن الجراح . ومحمد بن إدريس الشافعى . وأحمد بن حنبل وما أدراك ما هؤلاء ! ! إنهم بعض مصابيح هذه الأمة . وروى عن ابن عيينة أيضاً أبو معاوية الضرير . وأبو نعيم . والحميدى صاحب الشافعى . وابن وهب صاحب مالك . وعلى بن المدينى . ويحيى بن معين . وأبو خيثمة . وقتيبة بن سعيد وغيرهم .

---

(٥٦) تاريخ بغداد ١٧٦/٩

إن سفيان صاحب مدرسة كبرى من مدارس الحديث والفقه . وكنا ذكرنا قبل ذلك أن حلقته كانت حول الكعبة قريبة من بئر زمزم . وأن الشافعى بعد أن جلس للتحديث اتخذ لنفسه حلقة قريبة من حلقة سفيان . وأن سفيان كان يسمع من الشافعى ويسأله عن أمور ربما خفيت عليه من الحديث واللغة . ولا تثريب عليه فى ذلك . فالعلماء يأخذ بعضهم من بعض . ويكمل بعضهم علم بعض . وكثيرا ما أخذ الكبير عن الصغير فى العلم مادام علم الأصغر علما صحيحا سليما .

جلس سفيان يملى الحديث سنة اثنتين وأربعين ومائة . ومعنى ذلك . أنه حدّث فى سن الخامسة والثلاثين . وكان من وفرة العلم وشدة الثقة بنفسه بحيث حدث فى حياة الأعمش فى عرينه فى الكوفة . والأعمش سليمان بن مهران واحد من الرجالات الذين تفخر الكوفة بعلمهم وتعتز بسلوكهم . وكان سفيان من البيان وحسن الصوت وجمال الأداء وجرس الإيقاع بحيث يغرى الناس بالجلوس إليه والالتحاق بحلقته . إن على بن حرب المحدث الحافظ الأديب الشاعر النسابة يقول : كنت أحب أن لى جارية فى غنج ابن عيينة إذا حدث . أى فى عذوبة صوته وحسن أدائه . وكان سفيان فضلا عن صوته العذب وأدائه الأخاذ متمكنا فى علمه . كان يقول : ما كتبت شيئا قط إلا شيئا حفظته قبل أن أكتبه . وهكذا نرى الأمر على زمان هذا الرعيل الجليل على العكس مما هو عليه فى رعيلنا المعاصر . إن قومنا يحفظون المكتوب . وأما أولئك فكانوا يكتبون المحفوظ حتى لا ينسوه . ولقد سلف القول أن الأصل فى التحديث أن يكون من الحافظة وأن المحدثين كانوا يفخرون بأنهم يحدثون الأحاديث بأسانيدها دون الاستعانة بورقة أو كتاب .

سبق القول أن سفيان بن عيينة كان معاصراً لسفيان الثورى . وإن كان الثورى ولد قبل ابن عيينة بعشر سنوات ومات قبله بسبع وثلاثين سنة . إن كلا من السفيانين إمام جليل وحافظ ثقة وفقيه عدل . ومن الطبيعى أن يكون لكل واحد منهما تلاميذ يتحمسون له . ويتعصبون لروايته . ويرجحون كفته . وما دمنا بصدد التعرض للتعريف بابن عيينة فقد يجمل بنا أن نورد آراء بعض مريديه فيه . إن

على بن المدينى صاحب الإمام أحمد يقول : سفيان بن عيينة أحسن حديثا من سفيان وشعبة . يعنى سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج . ويسأل سائل يحيى بن معين : ابن عيينة أحب إليك فى عمرو – أى عمرو بن دينار – أو الثورى ؟ فيقول : ابن عيينة أعلم به .

إن المتتبع لأحاديث عمرو بن دينار والمتخصصين فيه يجدهم يكادون يجمعون على أن أعلم الحفاظ به هو ابن عيينة . غير أن بعض الرجال يفضلون ابن عيينة فى عمرو بن دينار . وغير عمرو بن دينار . يسأل سائل يحيى بن سعيد القطان : من أحسن من رأيت حديثا ؟ فيجيب ما رأيت أحدا أحسن حديثا من سفيان بن عيينة . والمفهوم هنا أن السؤال يتعلق بمن هم على قيد الحياة . إن شهادة يحيى بن سعيد القطان لها خطرها . فهو من رجالات الحديث الثقاة . ومن الأئمة البارزين . وهو أستاذ لعدد من الأئمة . لقد رؤى الامام أحمد ويحيى بن معين وعلى بن المدينى يسألون يحيى وهم قيام هيبة له . ولقد مات يحيى بن سعيد سنة ثمان وتسعين ومائة . وهى السنة ذاتها التى مات فيها ابن عيينة . وكان الثورى قد مات قبلها بسبع وثلاثين سنة . وحينئذ يمكن أن نتصور أن الثورى لم يكن فى خاطر يحيى بن سعيد حين فضل ابن عيينة فى الحديث على جميع الناس . ذلك أن الثورى كان يلقب بأمير المؤمنين فى الحديث . وهو لم يحصل على هذا اللقب بغير استحقاق . وإنما استحقه عن جدارة وعلم وتقى وزهد .

ولكن إماماً جليلا آخر هو عبد الرحمن بن مهدى يتجه إلى نفس ما اتجه إليه القطان فى شأن السفيانين . إن نعيم بن حماد يسأله : أين ابن عيينة من الثورى ؟ فيجيب : عند ابن عيينة من معرفته بالقرآن وتفسير الحديث . وغوصه على حروف متفرقة يجمعها مالم يكن عند الثورى . ويقول ابن وهب المصرى : ما رأيت أحدا أعلم بكتاب الله من ابن عيينة . ويقول الإمام أحمد : ما رأيت أحدا كان أعلم بالسنن من ابن عيينة .

إنه فيما يتصل برأى الإمام أحمد فى ابن عيينة وفى أنه ما رأى أحدا كان أعلم

منه لا يعنى موازنة بين السفيانين ، لأن الإمام أحمد لم ير الثورى فقد توفى الثورى قبل مولد الإمام بثلاث سنين(٥٧) . وأما عن ابن وهب فإننا نذهب المذهب نفسه ، ونرجح أنه لم يقصد إلى الموازنة بين السفيانين ، لأن إقامة ابن وهب كانت بين المدينة المنورة والفسطاط . وكانت رحلته إلى مكة محدودة قليلة . وإن الثورى لم يطل الإقامة بمكة . فقد هرب منها ، واختبأ فى البصرة حتى مات فرارا من طلب المهدى العباسى له .

وأما قول ابن مهدى فى تفضيله ابن عيينة على الثورى فلعله يقصد تفضيله فيما ذكر من تفسير القرآن الكريم وفهم الحديث دون روايته . إن مصاحبة ابن مهدى لابن عيينة ولقاءه إياه حقيقة لاشك فيها . فلقد توفيا فى عام واحد هو عام ثمانية وتسعين ومائة . وإن اختلفا فى عمريهما . فقد توفى ابن مهدى عن ثلاثة وستين عاما . وتوفى ابن عيينة عن واحد وتسعين عاما . أما مصاحبة ابن مهدى للثورى . فقد كانت قصيرة رغم كون الثورى توفى فى بيته لأن الثورى توفى سنة إحدى وستين ومائة . وكان ابن مهدى آنذاك فى السادسة والعشرين . وهى سن لا تسمح بإصدار حكم سليم فى تفضيل إمامين عظيمين أحدهما على الآخر . مع أن ابن مهدى فيما تذكر الأخبار كان يعرض حديثه على الثورى(٥٨) .

إن الأمر الذى يدعو إلى التأمل أن ابن مهدى فضل ابن عيينة على الثورى فى المعرفة بالقرآن والتفسير والحديث . مع أن الثورى كان أمير المؤمنين فى الحديث حسبما أسلفنا من قول . وكان الثورى كذلك صاحب مذهب مثل أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل فيما بعد . وفقهه معروف . وفتاواه مكتوبة مبثوثة فى كتب الفقه . هذا فضلا عن مواقف الثورى من الخليفة العباسى ورجاله :

دخل الثورى على المهدى فكلمه بكلام فيه غلظة . فقال له عيسى بن موسى العباسى : تكلم أمير المؤمنين بمثل هذا الكلام وإنما أنت رجل من ثور؟ فقال له سفيان : إن من أطاع الله من ثور خير ممن عصا الله من قومك .

---

(٥٧) ولد الإمام أحمد سنة ١٦٤ وتوفى الثورى سنة ١٦١ .

(٥٨) تهذيب التهذيب ٢٨١/٦ ترجمة ابن مهدى .

ومرة أخرى دخل سفيان الثورى على المهدى فقال : سلام عليكم . كيف أنتم يا أبا عبيد الله — لم يسلم عليه كما يسلم على الخلفاء — ثم جلس فقال : حج عمر بن الخطاب فأنفق فى حجته ستة عشر دينارا . وأنت حججت فأنفقت فى حجتك بيوت الأموال . فقال له المهدى : فأى شيء تريد ؟ تريد أن أكون مثلك ؟ فقال له الثورى : فوق ما أنا فيه ودون ما أنت فيه . فتدخل أبو عبيد الله وزير المهدى قائلا : يا أبا عبد الله — كنية سفيان — قد كانت كتبك تأتينا فننفذها ، فقال سفيان : من هذا ؟ فقال المهدى : هو أبو عبيد الله وزيرى . فقال سفيان : احذره فإنه كذاب . إنى ماكتبت إليك . ثم قام فقال له المهدى : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ قال : أعود . وكان قد ترك نعله حين قام . فعاد فأخذها ثم مضى . فانتظره المهدى فلم يعد فقال المهدى غاضبا : وعدنا أن يعود فلم يعد . وكان سفيان قد عاد لأخذ نعله وهذا تفسير قوله : أعود . فقال المهدى : قد أمن الناس إلا سفيان الثورى . ورؤى فى المسجد الحرام وأريد إلقاء القبض عليه فألقى نفسه بين النساء فخبأنه . ثم خرج إلى البصرة واختبأ فيها إلى أن مات فى بيت ابن مهدى .

أما عن علمه وحديثه وإمامته ففى ذلك الكثير من الأخبار . إن سفيان بن عيينة يقول فى شأنه : أصحاب الحديث ثلاثة . عبد الله بن عباس فى زمانه ؛ والشعبى فى زمانه . والثورى فى زمانه . ومرة أخرى يقول سفيان بن عيينة : والله ما رأى سفيان الثورى مثله . ويقول الفريابى : سألت ابن عيينة عن مسألة فتكلم فيها . فقلت : إن سفيانا — يعنى الثورى — يقول خلاف هذا ؛ فقال : لم تر عيناك مثل سفيان أبدا . وقال سفيان بن عيينة أيضاً : كان سفيان الثورى كأن العلم ممثل بين عينيه . يأخذ منه ما يريد ويدع ما لايريد[٥٩] .

وقال أبو عمرو الأوزاعى وهو أحد أئمة المسلمين وصاحب المذهب المشهور : لو قيل لى اختر لهذه الأمة ما اخترت إلا سفيان الثورى . ويقول الإمام

---

(٥٩) انظر ترجمة الثورى فى تاريخ بغداد ١٥١/٩ — ١٧٤

الأوزاعى : كنت أقول فيمن ضحك فى الصلاة قولا لا أدرى كيف هو . فلما لقيت سفيان الثورى سألته فقال : يعيد الصلاة والوضوء فأخذت به .

ولقد ذهب بعض الفقهاء والمحدّثين إلى تفضيل سفيان الثورى على مالك .

فقد سئل يحيى بن سعيد : أيما أحب إليك ؟ رأى مالك أم رأى سفيان ؟ قال : سفيان . لا شك فى هذا . سفيان فوق مالك فى كل شىء .

إن القول فى فضل سفيان الثورى كثير . لقد فضله وكيع بن الجراح على كل معاصريه وكذلك فعل عبد الله بن المبارك . بل إن عبد الرحمن بن مهدى وقد ذكرنا تفضيله ابن عيينة قبل قليل يقول : ما رأيت رجلا أحسن عقلا من مالك بن أنس . ولا رأيت رجلا أنصح لأمة محمد ﷺ من عبد الله بن المبارك . ولا أعلم بالحديث من سفيان – الثورى – ولا أقشف من شعبة[٦٠] .

ليس موضوع حديثنا هنا سفيان الثورى وإنما هو سفيان بن عيينة . ولكننا لم نر بدًّا من أن نقدم تعريفا موجزا بالثورى حتى لا يختلط الأمر على المرء فيما يتعلق بالسفيانين . فإن للثورى الإمامة والتقدم بغير شك . ولقد شهد له ابن عيينة نفسه بذلك فى أخبار كثيرة . وشهد له غيره فى أقوال أكثر وأطول .

فإذا ما عدنا إلى ابن عيينة . وجدناه يشكو الحياة والناس حين تقدم به العمر فيقول : كنت أخرج إلى المسجد فأتصفح الخلق . فإذا رأيت كهولا مشيخة جلست إليهم . فأنا اليوم قد اكتنفنى هؤلاء الصبيان ثم ينشد .

خَلَتْ الدِّيَارُ فَسُدْتُ غَيْرَ مُسَوَّدِ

ومِنَ الشَّقَاءِ تَفَرُّدِى بالسُّؤْدَدِ

وهو معنى جميل فى مرماه فريد فى شكواه . وله فى الحكمة قول كثير سديد ، جدير بأن يحفظ ويردد على الأسماع . فمن ذلك قوله .

« ليس العالم الذى يعرف الخير والشر . إنما العالم الذى يعرف الخير فيتبعه . ويعرف الشر فيجتنبه .

(٦٠) وفيات الأعيان ترجمة الثورى .

* أول العلم الاستماع . ثم الإنصات، ثم الحفظ . ثم العمل . ثم النشر.

* الغيبة أشد من الدين . الدين يقضى والغيبة لا تقضى .

* رؤى سفيان وقد أتى ماء زمزم فشرب وسقى الذى عن يمينه وقال : ماء زمزم بمنزلة الطيب لا يردّ .

* كان ابن عيينة يتمثل بهذه الأبيات .

إِذَا مَا رَأَيْتَ المرءَ يَقْتَادُهُ الْهَوَى
فقدْ ثَكِلَتْهُ عِنْدَ ذَاكَ ثَوَاكِلُه

وَقَدْ أَشْمَتَ الأعداءَ جَهْلاً بِنَفْسِهِ
وَقَدْ وَجَدَتْ فيهِ مَقَالاً عَوَاذِلُه

ولنْ يَنْزِعَ النفْسَ اللحوحَ عن الهوى
من الناسِ إلاَّ وَافِرُ العقْلِ كَامِلُهْ

هذا ولسفيان بن عيينة تفسير للقرآن وردت بعض نماذجه فى كتب الطبقات والتراجم .

سئل ابن عيينة عن قوله تعالى :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسَانِ » .

قال : العدل الإنصاف . والإحسان التفضل . وسئل : لأى شيء سمى الله عز وجل نفسه المؤمن ؟ فقال : يؤمن عذابه بالطاعة .

وسئل سفيان بن عيينة عن قوله تعالى :

« لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ » .

قال : أنزل عليه القرآن بمكارم الأخلاق . فهم الذين كانوا يشرفون بها .

ويفضل بعضهم بعضا بها . من حسن الجوار ، ووفاء بالعهد . وصدق الحديث ، وأداء الأمانة .

وفى قوله تعالى : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » .

قال : أنزل من السماء قرآنا فاحتمله الرجال بعقولها .

« كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فأما الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً » وهو قول أهل البدع والأهواء « وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فى الأَرْض » وهو الحلال والحرام(٦١) .

هذا وكان ابن عيينة زاهدا عابدا حج آخر حجة له سنة سبع وتسعين ومائة فقال : هذه توفى لى سبعين وقفة بعرفة . ومات فى أول رجب فى السنة التالية وهى ثمان وتسعون ومائة عن إحدى وتسعين سنة من عمر مديد خصيب مبارك العطاء .

عبد الرزاق :

إنه عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميرى الصنعانى . إمام الحديث فى صنعاء . كان خزانة علم حسب وصف الذهبى له . إليه كانت تشد الرحال من جميع أصقاع العالم الإسلامى لتسمع منه حديث رسول الله ﷺ . وقد انتظم اسمه عقد كبار الحفاظ العلماء المحدثين . فيذكر اسمه مجردا دون اسم أبيه أو لقبه وذلك لشهرته وإمامته ومكانته، تماما مثلما نقول أحمد فإنه ينصرف الذهن إلى الإمام أحمد، وإذا قلنا مالك ينصرف الذهن إلى الإمام مالك، وإذا قلنا يحيى في العراق ينصرف الذهن إلى يحيى بن سعيد القطان وهكذا.

ينتمى عبد الرزاق إلى أسرة علم احتفلت بحفظ حديث رسول الله . فقد كان أبوه وعمه حافظين فروى عنهما كما روى عن معمر بن راشد الأزدى البصرى ساكن

---

(٦١) حلية الأولياء ٧/٢٧٧ . ٢٩١

صنعاء . كما أخذ العلم والحديث عن كبار علماء الأمة ومحدثيها . وساح فى الأقطار والأمصار سامعا ومحدثا . فروى عن عبيد الله بن عمر بن حفص حفيد الفاروق عمر . وعن عبد الله أخى عبيد الله . وعن ابن جريج والأوزاعى ومالك والسفيانين وإسماعيل بن عياش وغيرهم .

وكان عبد الرزاق من جلال القدر . بحيث روى عنه بعض شيوخه مثل سفيان بن عيينة ومعتمر بن سليمان . ثم رحل إليه وسمع منه الإمام أحمد ومعاصروه من العلماء والمحدثين من أمثال إسحاق بن راهويه ويحيى بن معين وعلى بن المدينى وغيرهم . وقصة رحلة الإمام أحمد إليه فى اليمن معروفة وقد سبقت الإشارة إليها فقد خرج أحمد من بغداد يقصد مكة للحج وينطلق من مكة إلى صنعاء ليسمع من عبد الرزاق . ثم فوجئ هو وصاحبه يحيى بن معين بالإمام عبد الرزاق يطوف حول الكعبة . وسلم يحيى عليه وقدم له أحمد . وكانت الفرصة مواتية لأحمد حتى يسمع منه فى مكة . ولكن أحمد وهو المستعذب للرحلة فى سبيل جمع الحديث . العارف قدر عبد الرزاق . أبى إلا أن يركب الصعب ويتجشم مشقة السفر إلى صنعاء ليسمع من محدث اليمن فى بلده . وشد أحمد الرحال إلى اليمن ونفد ماله فى الطريق فاشتغل حمالا ! ! أحمد بن حنبل العظيم يعمل حمالا لكى يجمع بعض حديث رسول الله ! ! ووصل إلى صنعاء . وجلس إلى الشيخ الجليل . وكان موضعا لعطفه ورعايته سنتين إلا قليلا .

لقد كان عبد الرزاق منذ حداثته من الفطنة والذكاء والحفظ والإقبال بحيث يبشر بمستقبل يجعل منه واحدا من أئمة علماء المسلمين علما وفقها وحديثا .

إن معمر بن راشد البصرى المحدث المقيم فى صنعاء يسأل عمن يختلف إليه من طلاب الحديث . فيجيب قائلا : يختلف إلينا أربعة : رباح بن زيد . ومحمد بن ثور . وهشام بن يوسف .وعبد الرزاق . ثم يصف معمر كل واحد من تلامذته الأربعة فيقول : فأما رباح فخليق أن يغلب عليه العبادة . وأما هشام فخليق بأن يغلب عليه السلطان . وأما ابن ثور فكثير النسيان . وأما عبد الرزاق فإن عاش

فخليق بأن تضرب إليه أكباد الإبل[٦٢] . ويعلق ابن أبى السرى على قول معمر بعد أن علا شأن عبد الرزاق قائلا : فوالله لقد أتعبها . أى أتعب الإبل فى أن تضرب أكبادها إليه .

وإذا كان لنا أن نستطرد قليلا لذكر طرفة تتعلق بمعمر هذا فإننا نقول إنه كان بصريا فقيها حافظا ثقة متقنا للحديث واشتهر علمه بين مواطنيه فى البصرة ثم زار اليمن طلبا للعلم وإسماعا له فأحبه أهل صنعاء . فلما عزم على العودة إلى البصرة كره أهل صنعاء أن يفارقهم فقال لهم رجل : قيدوه . فزوجوه فأقام عندهم حتى توفى سنة ثلاث وخمسين ومائة . وهو من كتاب الحديث وأول من صنف باليمن .

فإذا ما عدنا إلى عبد الرزاق والرحلة إليه فى طلب الحديث وجدنا صنعاء قد غصت بالرجال يسمعون منه ويحفظون حديثه ، بل إن أبا سعد بن السمعانى يقول : قيل ما رحل أهل الحديث إلى أحد بعد رسول الله ﷺ مثلما رحلوا إلى عبد الرزاق[٦٣] .

وكان عبد الرزاق يعطف على تلاميذه ويساعدهم بالمال . مثلما كان يفعل الإمام أبو حنيفة . ولكن عبد الرزاق كان أقل مالا من الإمام الأعظم .

إن عامين من إقامة بن حنبل فى صنعاء والجلوس إلى عبد الرزاق سببها وفرة علم شيخ صنعاء . وكان أحمد بن صالح المصرى يقول لأحمد بن حنبل . أرأيت أحسن حديثا من عبد الرزاق ؟ فيقول ؟ أحمد : لا[٦٤] . وكان عبد الرزاق يقول هو الآخر عن تلميذه ابن حنبل : ما رأيت أفقه منه ولا أورع[٦٥] .

ولقد ذهب يحيى بن معين إلى أن عبد الرزاق كان من المتشيعين . وأنه قد تأثر بجعفر بن سليمان الذى قدم إلى صنعاء فحدث كثيرا وكان من الشيعة . ولكن

---

(٦٢) تهذيب التهذيب ٣١١/٦ . ٣١٢

(٦٣) وفيات الأعيان ترجمة عبد الرزاق بن همام الصنعانى

(٦٤) تهذيب التهذيب ٣١١/٦

(٦٥) تهذيب التهذيب ٧٣/١

الحقيقة أن عبد الرزاق كان محبا لعلى بن أبى طالب شأن المسلمين جميعا وأنه لم يتشيع تشيع مذهب . فقد سأل عبد الله بن أحمد أباه : هل كان عبد الرزاق يتشيع ويفرط فى التشيع ؟ فقال : أما أنا فلم أسمع منه فى هذا شيئا . ومرة أخرى يقول عبد الله بن أحمد : سمعت سلمة بن أبى شبيب يقول : سمعت عبد الرزاق يقول : والله ما انشرح صدرى قط أن أفضّل علياً على أبى بكر وعمر . رحم الله أبا بكر وعمر وعثمان من لم يحبهم فما هو مؤمن . ويقول عبد الرزاق فى ذلك أيضاً : أفضّل الشيخين بتفضيل علىّ إياهما على نفسه . ولو لم يفضلهما مافضلتهما . كفى بى ازدراء أن أحب عليًّا ثم أخالف قوله

وربما شبهة التشيع التى لصقت بعبد الرزاق بعض الوقت جاءت من أنه كان يعرّض بمعاوية بن أبى سفيان . وهذا يعنى أن تشيع عبد الرزاق لو كان صحيحا فإنه يكون من أتباع زيد بن علىّ وهو من أئمة الإسلام علما وفضلا .

إن عبد الرزاق كان ممن جمع وصنف وحفظ وذاكر . وكان يحدث من كتاب . وبه تأثر الإمام أحمد بعد ذلك . فكان لا يحدث إلا من صحيفة أو صحف مكتوبة . وكان عبد الرزاق يحفظ نحواً من سبعة عشر ألف حديث وله كتاب « الجامع الكبير » فى الحديث وكتاب « تفسير القرآن الكريم » وهو تفسير نفيس لا يزال مخطوطا حتى الآن .

لقد كان عبد الرزاق بفضله وعلمه خليقا بأن يكون واحداً من شيوخ الإمام أحمد .



النضوج والاكتمال العلمي :

رأينا كيف عاش أحمد بن حنبل صباه وشبابه فى محاريب العلم . يأخذ عن كبار شيوخ أهل زمانه فى بغداد والكوفة والبصرة وواسط ومكة والمدينه وصنعاء . وكيف كان يرحل ماشيا على قدميه آلاف الأميال يحمل كتابه ومحبرته . تارة مصعدا شطر صنعاء وتارة أخرى مصوبا نحو الشام والثغور . ولقد كان علمه ينمو ومعرفته بأصول الإسلام تتأصل . فكان شيوخه يشهدون له بالفضل . ويقرون له بالسبق ، ويحاورونه فى بعض المسائل . ويأخذون برأيه فى كثير من القضايا . وما من واحد منهم إلا وله فى أحمد شهادة بالفضل وتنويه بالتقدم .

حصّل أحمد أول ما حصّل علوم العربية فهى لغة الإسلام . أعنى لغة القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ . وإجادة العربية هى الأداة الأولى لفهم الكتاب والسنة . إن الإمام أحمد يقول فى هذا الصدد : كتبت من العربية أكثر مما كتب أبو عمرو بن العلاء .

إن أبا عمرو بن العلاء ذلك الذى يتحدث عنه الإمام أحمد كان حسبما وصفه أبو عبيدة أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر . وهو أحد القراء السبعة ، وهو مكي المولد ، بصرى النشأة . كوفى الوفاة . أعنى أنه تابع مواطن علوم الدين واللغة والأدب . وحفظها جميعا . وكتب فى ذلك شيئا كثيرا . فقد كانت كتبه التى كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له إلى قريب السقف . ثم تنسك فأحرقها جميعا(٦٦) . فإذا كان الإمام أحمد قد فعل فى ذلك مثل ما فعل أبو عمرو — وهو صادق فى قوله — فإنه يكون إماما فى العربية إلى جوار كونه إماما فى الفقه والحديث ، ولقد مرّ بنا عند الحديث عن الشافعى أنه كان

---

(٦٦) وفيات الأعيان ترجمة أبى عمرو بن العلاء .

بدوره يحتل مركز الإمامة فى العربية والشعر ، وكان له حلقة فى ذلك فى جامع عمرو بن العاص .

وما دمنا بصدد الحديث عن أحمد بن حنبل واللغة العربية فإنه تجدر بنا الإشاره إلى أنه وهو العربى أصولا ، الشيبانى محتدا ، كان يعرف اللغة الفارسية على قلة احتفال ذوى الأصول العربية بتعلم لغات البلدان المفتوحة ، ولكن اللغة الفارسية لم تكن مجرد لغة بلدان فتحها المسلمون ، وإنما هى لغة حضارة عظيمة ، وعلم غزير ، ومعرفة وفيرة ، ومن ثم فقد تعلمها الإمام أحمد ، وقد لا نعدو جانب الصواب إذا ما قررنا أن الإمام أحمد قد تعلم الفارسية استجابة لحديث رسول الله ﷺ فى تعلم لغة من يرتبطون بالمسلمين بأسباب ، وقد تختلف هذه الأسباب باختلاف الظروف ، فإذا كان بعض الصحابة قد تعلم العبرية بأمر من رسول الله ﷺ حتى يأمن المسلمون كيد اليهود ، فليس ما يمنع علماء المسلمين فيما تتابع من عصور من أن يتعلموا لغات إخوانهم المسلمين غير العرب توثيقا للمودة وتأصيلا لروابط القربى .

إن معرفة أحمد بالفارسية من هذا المفهوم الذى أشرنا إليه ينبغى أن تعطى مزيدا من الاحتفال ، ولقد جاء خبرها عن حفيد للإمام أحمد هو زهير بن صالح ولد الإمام . قال زهير : قدم علينا من خراسان ابن خالة جدى وكان يكنى بأبى أحمد ، فنزل على أبى ، فدخلت معه إلى جدى ، فجاءت الجارية بطبق خلاف ، وكان عليه خبز وبقل وخل وملح ، ثم جاءت بغضارة فوضعتها بين أيدينا فيها مصلية فيها لحم وسلق كثير ، فجعلنا نأكل وهو يأكل معنا ، ويسأل أبا أحمد عمن بقى من أهلهم بخراسان فى خلال ما يأكل ، فربما استعجم الشىء على أبى أحمد فيكلمه جدى بالفارسية(٦٧) .

ولم تكن دراسة الإمام أحمد للغة العربية وأختها الفارسية مجرد اهتمام تقليدى بهما ، وإنما كانت معرفة اهتمام بفروعها الكثيرة ، وفى أقل الأحوال بفروع

---

(٦٧) ترجمة الإمام أحمد للذهبى عن مقدمة المسند ص ٨٤ .

العربية . حتى إنه كان صاحب مشاركة فى قول الشعر الرفيع . إن أبا العباس ثعلب رأس مدرسة الكوفيين فى العربية وأحد علمائها المبرزين وصاحب « المجالس » و« الفصيح » و« قواعد الشعر » وغيرها من المؤلفات القيمة يروى هذا الخبر قائلا[٦٨] : كنت أحب أن أرى أحمد بن حنبل . فدخلت عليه . فقال لى : فيم تنظر ؟ فقلت : فى النحو والعربية والشعر . فأنشدنى أحمد بن حنبل رحمة الله تعالى عليه :

إِذَا ما خَلَوْتَ الدهْرَ يوماً فلا تَقُلْ
خَلَوْتُ . ولكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

لَهَوْنَا عن الأيامِ حتَّى تَتَابَعَتْ
ذنوبٌ على آثارِهِنَّ ذُنُوبُ

فَيَالَيْتَ أنَّ اللهَ يَغْفِرُ مَا مَضَى
ويأذَنُ لِى فى تَوْبَـةٍ فأَتُوبُ

إِذَا مَا مَضَى الْقَرْنُ الذى أنْتَ فِيهِمُ
وخُلِّفْتَ فى قَرْنٍ فَأَنتَ غَرِيبُ

وكان طبيعيا أن يترجم الإمام أحمد عن مذهبه فى الفقه وأن ينبه طلاب العلم إلى ما ينبغى أن يأخذوا وما يجب عليهم أن يدعوا . وذلك من خلال أبيات تحمل طابع الشعر التعليمى فيقول :

يَا طَالِبَ العِلْمِ صَارِمْ كُلَّ بطَّالِ
وكلَّ غادٍ إلى الأهواءِ ميَّالِ

واعملْ بِعِلْمِكَ سِرًّا أَوْ علانيةً
يَنْفَعْكَ يومـاً على حالٍ من الحالِ

---

(٦٨) حلية الأولياء ٩/٢٣٠ والبيت الأخير من المناقب .

ولاَ تَمِيلَنَّ يَـــاهَذَا إلى بدَعٍ
تُضِلُّ أَصْحَابَها بالقِيلِ والقَالِ
خُذْ مَا أَتَاكَ بِهِ مَا جَاءَ مِنْ أثرٍ
شِبْهاً بِشِبْـهٍ وأَمْثَـالاً بِـأَمْثَالِ
ألاَ وكُنْ أَثَرِيًّا خالصاً فَهِماً
تَعِشْ حَمِيدًا وَدَعْ آرَاءَ ضُلاَّلِ

ويلح الإمام على اتباع فقه الأثر والنهى عن فقه الرأى ببيان واضح وبرهان صادق من خلال هذه الأبيات(٦٩) :

دِينُ النبـــىِّ محمدٍ آثَـــارُ
نِعْمَ المطِيَّةُ لِلْفَتَى الأخْبَـــارُ
لاَ تُخْدَعَنَّ عَنِ الحديثِ وأَهْلِهِ
فالــرَّأْىُ ليلٌ والحديثُ نَهَـارُ
وَلَرُبَّمَا جَهِلَ الْفَتَى طُرُقَ الهُدَى
والشمسُ طَـالِعَةٌ لَهَـا أَنْوَارُ

غير أن الإمام ابن حنبل لم يغرم بالشعر غرام الشافعى به . فقد كانت اهتماماته مقصورة على حديث رسول الله ﷺ دون سواه .

كان أحمد قد نهل موارد العلم كلها من حديث وفقه ولغة وتفسير وقراءات . بل درس فقه الرأى وعلم الكلام .

فأما عن الرأى فهو على خلاف شديد مع هذه المدرسة التى يراسها الإمام

---

(٦٩) إعلام الموقعين ١/٧٩ .

أبو حنيفة . والتى أسسها إبراهيم النخعى وجعل أصولها عند الإمام على . وقد كان الإمام أحمد متحفظا فى دينه . متحوطا فى فتياه . بحيث لم يفت فى مسألة إلا بنص من الكتاب أو السنة . فإن لم يسعفه النص امتنع عن الفتوى . وكذلك فعل الإمام مالك من قبل . وأما مدرسة الرأى - وقد مر الكلام عنها - فإن الفتوى عندها واجبة فيما يستجد من قضايا أوجدتها ظروف الزمان والمكان . ولم تكن موجودة فى أيام الرسول ﷺ وصحابته الكرام . ثم تعرضت مدرسة الرأى لكثير من التحامل من بعض فقهاء الأثر . وربما حدثت بعض المبالغات فيما نسب إلى بعض أئمة الأثر فى خلافهم مع أئمة الرأى .

على كل حال كان الإمام أحمد عارفا بفقه الرأى حافظا له . ولكنه جنب نفسه أن يعمل به . بل نسب إليه التعريض بأبى حنيفة فى هذا الخبر . قال موسى بن حزام الترمذى : كنت اختلف إلى أبى سليمان الجوزجانى فى كتب محمد بن الحسن - أى أذهب إليه لسماع كتب محمد بن الحسن - فاستقبلنى أحمد بن حنبل عند الجسر - أى جسر دجلة - فقال لى : إلى أين ؟ فقلت . إلى أبى سليمان . فقال : العجب منكم . تركتم إلى النبى ﷺ ثلاثة وأقبلتم على ثلاثة إلى أبى حنيفة . فقلت : كيف يا أبا عبد الله ؟ قال : يزيد بن هارون بواسط يقول : حدثنا حميد عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ . وهذا يقول : حدثنا محمد بن الحسن عن يعقوب عن أبى حنيفة(٧٠) .

إن من حق الإمام أن يفضل يزيد بن هارون على أبى سليمان الجوزجانى ذلك أن يزيد إمام جليل من أئمة حديث رسول الله . ولكن المقصد البعيد الذى كان الإمام يقصد إليه هو التعريض بأبى حنيفة . وقد جعل منه مصدراً للشريعة من منطلق أن أبا حنيفة يقول بالرأى . وتلك عقيدة الإمام أحمد وهذا فهمه لمدرسة أبى حنيفة . ولا تثريب عليه فى ذلك . فهو واحد من أئمة هذه الأمة . ومن واجب كل المسلمين أن يوقروه وينزلوا رأيه منزل الاحترام . ولكن ليس منزل

---

(٧٠) حلية الأولياء ٩/١٨٥ .

الإلزام . لأن الإمام أبا حنيفة كان لا يعمل بالرأى فيما ورد فيه نص من كتاب أو سنة . وإنما يعمل بالرأى حيث لا نص من كتاب أو سنة أو قول صحابى ، وهو إذا أعمل رأيه كان يستهدى بشيء مماثل ورد فى الكتاب أو السنة .

وكان الإمام أحمد قد اطلع على أقوال المتكلمين وعرف مذهبهم ولكنه كان يذمهم وينهى الناس عن علم الكلام . وكان يقول فى ذلك : من أحب الكلام لم يفلح . لا يؤول أمرهم إلى خير . وكان يقول أيضاً : ما رأيت أحدا طلب الكلام واشتهاه فأفلح . لأنه يخرجه من أمر عظيم . لقد تكلموا يومئذ بكلام واحتجوا بشيء فما يقوى قلبى ولا ينطلق لسانى أن أحكيه .

وهكذا يكون الإمام أحمد قد خالط أهل الكلام وسمع آراءهم الجريئه فما استراح لها قلبه ولا رضيها دينه . ولقد مر بنا أن كلا من الإمامين الجليلين أبى حنيفة وأبى عبد الله الشافعى كانا ينهيان أصحابهما وتلاميذهما عن الكلام ، وكان الإمام أبو حنيفة يقول لأن نقول خطأ خير من أن نقول كفرا . وكان الإمام الشافعى يقاطع مجلس تلاميذه ويتحجب عنهم إذا ما حاولوا ولوج باب الكلام كنوع من الزجر حتى لا يعودوا إلى ذلك مرة أخرى . والرأى نفسه كان رأى الإمام مالك . وإن كان مالك بحكم وجوده فى المدينة كان بعيدا عن المتكلمين . فقد كانت نشأة المتكلمين بالعراق . وكل من أبى حنيفة وأحمد عراق ، وأما الشافعى فقد مر بالعراق وسكنه بعض الوقت ورآهم وسمعهم وقرأ ما كتبوه .

فأما الحديث والفقه فقد بلغ أحمد فيهما السماكين وعلى الأخص الحديث ، حتى إن الإمام الشافعى اعتبره فى هذا الميدان إحدى أعجوبات ثلاث رآها فى بغداد . يقول الشافعى : رأيت ببغداد ثلاث أعجوبات : رأيت نبطيا يتنحى علىّ – يعنى يستعمل الإعراب فى كلامه – حتى كأنه عربى وكأنى نبطى ! ورأيت عربيا يلحن حتى كأنه نبطى . ورأيت شابا وخطه الشيب فإذا قال حدثنا . قال الناس كلهم : صدق . فسئل الشافعى عن الثلاثة فقال : الأول الزعفرانى . والثانى أبو ثور وكان لحانا . وأما الشاب فأحمد بن حنبل(٧١) .

(٧١) ترجمة الإمام أحمد للذهبى عن مقدمة المسند ص ٨٤ .

إن الإمام الشافعى لم يتجاوز كبد الحقيقة فى ذلك الذى قاله عن الإمام أحمد . فما كدح كادح فى جمع أحاديث رسول الله ﷺ وحفظها ووعيها مثل ما فعل . فهو أول من جمع الأحاديث فى كل إقليم من أقاليم الإسلام . صنع ذلك فى رضى وإقبال على الرغم مما تعرض له من مشاق . ولقد أسلفنا القول حول قصة رحلته إلى اليمن . وما لاقى فى طريقه من متاعب ونفاد الزاد . مما جعله يكرى نفسه للحمالين . وما حلّ به من ضيق ومسغبة فى صنعاء حتّى اضطر إلى نسج التكك وبيعها . وحتّى اضطر إلى رهن نعله قبيل خروجه من صنعاء .

على أن ما يدعو إلى زيادة إجلال الإمام الكبير أن الشافعى – وكان صديقه – حين علم برغبته فى الرحلة إلى اليمن لطلب الحديث من عبد الرزاق . أوحى إلى الخليفة الأمين أن يقلده قضاء اليمن . وأراده الأمين بالفعل على ذلك حتّى تتيسر له أسباب العيش الهانئ . ويطلب الحديث دون مشقة أو خشونة حياة . ولكن الإمام الجليل رفض العرض رفضا قاطعا . وقال للشافعى : يا أبا عبد الله إن سمعت منك هذا ثانيا فلن ترانى عندك[72] .

لقد رفض ابن حنبل قضاء اليمن وذهب إلى اليمن ماشياً شبه جائع وذهب إلى الحجاز والجزيرة والشام والثغور . وقبل ذلك طوف بأمصار العراق . فصار شيوخه يروون عنه ويجعلون منه أستاذا لهم . وتلك واحدة من علامات الإمامة . فلا يكون الإمام إماما إلا إذا كان حجة زمانه . ولن يكون كذلك إلا إذا أخذ عنه جميع معاصريه بما فيهم شيوخه . فمن روى عنه من شيوخه عبد الرزاق . والحسن بن موسى الأشيب . والشافعى . غير أن الشافعى لم يكن يروى عنه بالاسم . وإنما كان يقول عنه « الثقة » وفى ذلك يقول عبد الله بن الإمام أحمد : كل شيء فى كتاب الشافعى « أخبرنا الثقة » فهو عن أبى[73] .

كما روى عنه من شيوخه أيضاً عبد الرحمن بن مهدى . ووكيع بن الجراح .

---

(٧٢) المناقب ص ٢٧١ .

(٧٣) ترجمة الإمام أحمد للذهبى عن مقدمة المسند ص ٧٠

ويحيى بن آدم . ويزيد بن هارون[٧٤] . وروى عنه من أقرانه يحيى بن معين . وعلى بن المديني . وأبو قدامة السّرخسى. وزياد بن أيوب . ومحمد بن يحيى بن أبي سمينة . ودحيم واسمه عبد الرحمن بن إبراهيم . كما روى عنه ابناه عبد الله وصالح وتلامذته أبو بكر الأثرم . وحرب الكرماني . وبقى بن مخلد . وحنبل بن إسحاق . وشاهين بن السميع . والميموني وغيرهم .

كان عبد الرحمن بن مهدى – وهو من عرفنا مشيخة وأستاذية – يقول : ما نظرت إلى أحمد بن حنبل إلا تذكرت سفيان الثورى . وكان الشافعي يقول لأحمد : يا أبا عبد الله إذا صح عندكم الحديث عن رسول الله ﷺ فأخبرونا به حتى نرجع إليه . ويقول ابراهيم بن إسحاق الحربى : سلسلة التابعين فى الحديث : سعيد بن المسيب فى زمانه . وسفيان الثورى فى زمانه . وأحمد بن حنبل فى زمانه .

هكذا بلغت مرحلة النضوج فى الحديث عند أحمد بن حنبل واستتمت حلقة الحفظ كمالها . ومع ذلك لم يجلس للدرس والحديث إلا حينما بلغ الأربعين من عمره . إنه لم يفعل ذلك عشوائيا . وإنما تحرى ألا يجلس إلى الناس إلا فى هذه السن المباركة . إنها السن التى بعث فيها النبى ﷺ برسالة الهدى . وكأن أحمد يقتفى أثر الرسول ﷺ فى كل فعل . الرسول بعث على رأس الأربعين وإذن فلا ينبغى له أن يحدث بحديث رسول الله إلا فى سن الأربعين . الرسول حين احتجم أعطى الحجام دينارا وإذن فليمنح أحمد الحجام دينارا عندما احتجم . والرسول يختبى ثلاثة أيام وهو فى هجرته من مكة إلى المدينة . فليختبئ أحمد ثلاثة أيام حين طلبه الواثق .

لقد اكتملت أدوات علم الإمام أحمد قبل الأربعين . وكان قول الإمام الشافعي عنه ووصفه إياه بإحدى عجائب بغداد وهو دون الأربعين . ذلك لأن الشافعي مات وأحمد على شفا الأربعين . ومع ذلك لم يجلس للتحديث إلا مرة

---

(٧٤) تهذيب التهذيب ٧٢/١ .

واحدة لعل الظروف هى التى أملت عليه ذلك . فلقد شوهد سنه ثمان وتسعين ومائة فى مسجد الخيف بمنى مستندا إلى المنارة يعلم الحديث والفقه ويفتى فى المناسك . ومن الأمور البديهية أن المرء لا يفتى فى المناسك إلا من خلال الفقه والحديث . وكانت سن أحمد أنذاك ستا وثلاثين سنة .

يبلغ أحمد بن حنبل الأربعين من العمر ويصبح صاحب حلقة بمسجد بغداد . إنه يحفظ الأحاديث بأسانيدها . لا يخطئ فى حديث واحد . ولكنه مع ذلك لا يحدث إلا من كتاب أو من صحف مكتوبة . إن حلقته كبيرة العدد واسعة المساحة تضم فى أكثر الأحيان خمسة آلاف مستمع يكتب منهم خمسمائة [٧٥] ولم تكن ضخامه العدد لتحول دون يسر الاستماع : ذلك أن الناس كانوا آنذاك يقدرون العلم ويجلون العلماء . ومن ثم يحسنون الإنصات . فتنساب إلى أسماعهم وتنسرب إلى قلوبهم أحاديث رسول الله ومسائل الفقه رخاء ميسرة ، لا جلبة توقفها ولا ضجيج يعوقها .

وكان الإمام يتحرى موعد حلقته بعد العصر ، ربما لأن ذلك الموعد كان يتفق مع طبيعة أهل بغداد بينما كان الشافعى فى الفسطاط يعقد حلقته فى الصباح الباكر وينتهى منها قبل الظهر .

ومن الطبيعى أن حلقة تضم خمسة آلاف يغلب أن يتألف حضورها من أخلاط مختلفة المستويات من طلاب المعرفة ، ومن ثم كان الإمام يخص طلابه بحلقة خاصة فى بيته يستمعون منه فيها مع ولديه صالح وعبد الله زبدة العلم وجوهره ، مع الاستيناء فى الرواية والتحديث .

وكان الناس سواسية فى حلقة أحمد ، وكان أقربهم إلى قلبه وأجدرهم بالاحتفاء لديه الفقير ، فإن المروذى صاحبه يقول : لم أر الفقير فى مجلس أعز منه فى مجلس أبى عبد الله . وكان الإمام يصطحب معه فى حلقته بالمسجد على وجه الخصوص كتابى الإيمان والأشربة ، فيصلى ويجلس ، فإذا سئل أجاب ، والا انصرف إلى بيته يحمل كتابيه بيمينه .

---

(٧٥) المناقب لابن الجوزى ص ٢١٠ .

لقد كان ابن حنبل مكتملا أسباب العلم وأسباب التقى مع تواضع تام . إن الشافعي يقول خرجت من بغداد وما خلفت بها أحدا أتقى ولا أورع ولا أفقه من أحمد بن حنبل[٧٦] . وكان الإمام أحمديضطرفى مواطن ليس إلى تلافيها من سبيل إلى أن يقول : استفاد منا الشافعي ما لم نستفد منه وقد سلف القول بأن الشافعي كان يقول له : يا أبا عبد الله أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا . فإذا كان خبر صحيح فأعلمنى به حتى أذهب إليه كوفيا كان أو بصريا أوشاميا[٧٧]

إن قتيبة بن سعيد وهو أحد رجالات الحديث والفقه العظام . وأحد الرواة عن أحمد – على الرغم من أنه من الجيل الأكبر منه – يقول : لو أدرك أحمد بن حنبل عصر الثورى ومالك والأوزاعي والليث بن سعد لكان المقدم[٧٨] .

إن أبا عاصم النبيل شيخ حفاظ الحديث فى البصرة – واسمه الضحاك بن مخلد -- يسأل أصحاب الحديث فى المسجد فيما يشبه الزجر : ألا تتفقهون ؟ أو ليس فيكم فقيه ؟ وجعل يذمهم . فقالوا : فينا رجل . فقال : أين هو؟ قالوا : يجئ الساعة . فلما جاء قالوا : ها هو جاء . وكان أحمد بن حنبل – فنظر إليه وقال له : تقدم فقال أكره أن أتخطى رقاب الناس . فقال أبو عاصم : هذا من فقهه . وأخذه فقال : وسعوا له . فوسعوا ؛ فدخل فأجلسه بين يديه فألقى عليه مسألة فأجاب . وألقى ثانية فأجاب . وثالثة فأجاب ، ومسائل أخرى متتالية فأجاب . فأنشأ أبو عاصم مستعظما شأن ابن حنبل وفيض علمه قائلا : هذا من دواب البحر .

هكذا اكتملت أسباب العلم عند أحمد بن حنبل فوقف على أعتاب الإمامة بقدم ثابته وقدرة راسخة وأداة كاملة .

---

(٧٦) تاريخ بغداد ٤/٤١٩ .
(٧٧) حلية الأولياء ٩/١٧٠ .
(٧٨) المصدر ١٦٦ .

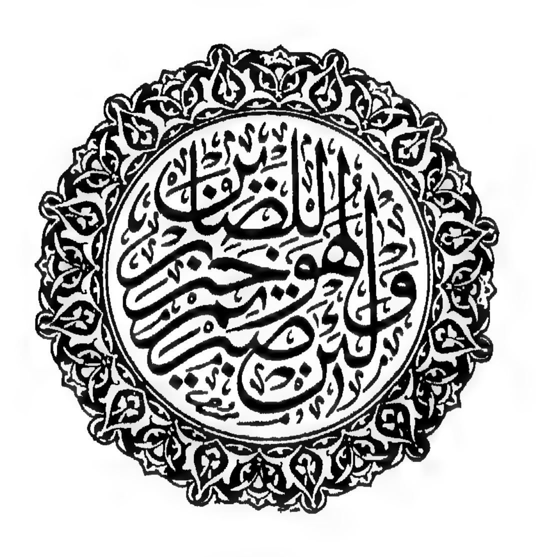


الفصل الثالث

هيئة الإمام ابن حنبل
ومعالم شخصيته

* سماته وأهله .
* أزواجه وأولاده .
* ورعه وزهده وتواضعه .
* سلوكه الاجتماعي وأدبه وسجاياه .




ولئن صبرتم لهو خير للصابرين

الفصل الثالث

هيئة الإمام ابن حنبل ومعالم شخصيته

— ١ —

سماته وأهله :

وصف الذهبي أحمد بن حنبل نقلا عن حرملة تلميذ الشافعي بهذا القول : « عالم العصر . وزاهد الوقت . ومحدث الدنيا . ومفتي العراق . وعلم السنّة . وباذل نفسه في المحنة . وقل أن ترى العيون مثله . كان رأسا في العلم والعمل . والتمسك بالأثر . ذا عقل رزين . وإخلاص مكين . وخشية ومراقبة العزيز العليم . وذكاء وفطنة . وحفظ وفهم . وسعة علم . هو أجل من أن يمدح بكلمي . وأن أفوه بذكره بفمي » .

تلك كانت الصفات العامة للإمام أحمد . لم يختلف اثنان على صفة واحدة منها . وفي الحقيقة أن أحمد بن حنبل إن وصف وصفا حقا قيل فيه أكثر من ذلك . فإن جوهر فكره . وعمق إيمانه . وفيض علمه . وثبات جنانه قد حفظ على هذه الأمة دينها في فتنة عمياء كادت أن تعصف بإيمان الناس . وتذهب بمعتقداتهم السليمة . فتصدى أحمد بن حنبل وحده لتلك الفتنة وهزم ثلاثة من الخلفاء ذوي البطش . فأمنت الأمة على دينها على ما سوف نفصل عند الحديث عن فتنة خلق القرآن .

فأما الصفات الجسدية للإمام أحمد : فكان ربعة من الرجال أسمر وقيل كان طويلا . حسن الوجه . في لحيته شعرات سود . يلبس ثيابا غليظة إلا أنها بيض . يعتمّ أويلبس العمامة كما يلبس الإزار . تعلوه سكينة ووقار وخشية[1] .

---

(١) تاريخ بغداد ٤١٦/٤ وترجمة الإمام للذهبي عن مقدمة المسند ص ٣٧ .

وكان الإمام نظيفا فى ملبسه . انيقا فى هيئته فى نطاق الحفاظ على زهده . فليس ثم تضاد بين أناقة المظهر وسلامة الهيئة وبين الالتزام بسلوك الزهاد .

إن الميمونى تلميذ الإمام يصفه قائلا : ما أعلم أنى رأيت أحدا أنظف ثوبا . ولا أشدّ تعاهدا لنفسه فى شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه . ولا أنقى ثوبا وشدة بياض من أحمد بن حنبل[٢].

ذلك كان المظهر العام للإمام أحمد . نظيف الثياب أبيضها . مرتب الملبس . وضاء الوجه رغم سمرته . تزين رأسه عمامة جليلة . وهو إلى ذلك كله تعلوه مهابة تذكرنا بهيبة الإمام مالك على ما بين لون وجهيهما من فرق . فذاك أبيض وهذا أسمر . ولكن المهابة غير مرتبطة بلون أو جنس . وإنما هى هبة من عند الله ينميها سلوك المرء وتربيها مروءته .

كان الإمام أحمد مهيبا عند الخاصة والعامة . إن القاسم بن سلام أحد تلامذته يقول : ما هبت أحدا فى مسألة مثلما هبت أحمد بن حنبل[٣] .

ولقد سلفت الإشارة فى فصل سابق إلى أن شيخه يزيد بن هارون كان يتجنب المزاح إذا كان أحمد حاضرا الحلقة . ولقد مزح ذات مرة مع مستمليه فتنحنح أحمد . فضرب يزيد على رأسه بيده قائلا : ألا تخبرونى أن أحمد هنا حتى لا أمزح .

وتلميذ آخر من تلاميذ الإمام يقول : كنا نهاب أن نرد أحمد فى الشىء أو نحاجّه فيه . ويقول آخر منهم : دخلت على إسحاق بن إبراهيم – والى بغداد – وفلان وفلان من السلاطين فما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل . صرت إليه أكلمه فى شىء فوقعت علىّ الرعدة حين رأيته من هيبته .

ولقد تعدت هيبة أحمد نفوس الخاصة والعامة من الناس إلى نفوس الشرطة والجلادين . كان أحمد مراقبا أيام ما بعد محنة خلق القرآن . وكان رجال الشرطة

---

(٢) ترجمة الإمام أحمد عن مقدمة المسند ص ٧٤ .

(٣) تاريخ بغداد ٩/١٦٦ .

مطالبين بمراقبته وطرق بابه ليطمئنوا إلى وجوده فى بيته ، فكان الشرطى يهاب أن يطرق بابه مباشرة ، وإنما يؤثر أن يطرق باب عمه أولا حتى تستأنس نفسه ويهدأ باله ، ثم يصل إلى الإمام من خلال ذلك الباب .

أزواجه وأولاده :

لم يتزوج الإمام أحمد إلا بعد أن بلغ الأربعين ، والسبب فى ذلك واضح كل الوضوح ، فلقد كان راهبا فى محراب العلم طوال سنى ما قبل الأربعين ، ولعل وجود أمه بجواره وحدبها عليه ورعايتها لشئونه فضلا عن انصرافه الكامل إلى التحصيل كان كل أولئك سببا أساسيا فى كونه لم ينشط إلى الزواج كما ينشط سائر الناس ، فلما توفيت والدته ، كان قد وصل إلى المرحلة من حياته التى أكثر فيها من الرحلات ، وطالت فيها غيبته عن بلده ، فكان يغيب السنة والسنتين عن بغداد ليس أمامه من هم إلا سماع حديث رسول الله ﷺ وجمعه .

فلما أن بلغ أحمد الأربعين وأصبح أقرب إلى الاستقرار من ذى قبل ، فكر فى الزواج ، وكانت أولى زوجاته هى العباسة بنت الفضل حسبما ذكر حفيده وحفيدها زهير بن صالح ، وكانت العباسة فتاة عربية من ربض بغداد ، أى من ضواحيها القريبة ، عاشت العباسة مع الإمام ثلاثين سنة ، أنجبت منه ولدهما صالحا . وفى شأن العباسة يقول المروذى تلميذ الإمام : سمعت أبا عبد الله يقول : أقامت معى أم صالح ثلاثين سنة فما اختلفت أنا وهى فى كلمة(٤) .

ولما توفيت أم صالح تزوج الإمام زوجته الثانية « ريحانة » ، وأنجبت منه ولدا واحدا هو عبد الله ، فلما ماتت أم عبد الله اشترى جارية اسمها « حُسْن » فأنجبت له زينب ثم توأمين هما الحسن والحسين فماتا بعد ولادتهما ، ثم ولدت الحسن ، ومحمدا ، ثم ولدت بعد ذلك سعيدا .

هكذا كانت الحياة الأسرية للإمام ، ستة أولاد من ثلاث زوجات أو

---

(٤) ترجمة الإمام أحمد للذهبى ص ٨٦ من مقدمة المسند .

بالأحرى من زوجتين وأم ولد ، خمسة أولاد وابنة واحدة ، نبغ فى الفقه منهم صالح وعبد الله ، وأما سعيد فقد ولى قضاء الكوفة فيما بعد .

ومن طرائف الأمور أن « حسنا » كانت مثالا للوفاء والإيثار ، فحين كان يحتاج الإمام إلى المال كانت لاتبخل بما لديها ، فمرّة باعت فردة خلخالها بثمانية دنانير ونصف ، ومرات كثيرة كانت تغزل وتصنع ثيابا حسنة ، وتدفع بها إلى السوق كى تباع وتنفق ثمنها فى شئون البيت .

٢

ورعه وزهده وتواضعه :

إذا ما عددنا الأتقياء أصحاب الورع كان أحمد بن حنبل فى مقدمتهم ، وإذا تحدثنا عن الزهاد كان أحمد على رأسهم ، كان حياته عابدا فى محراب العلم ومحراب الصلاة ، دائم الصوم حتى فى أيام المحنة كان يـجلد بالسياط وهو صائم لله تطوعا وتبتلا ، كانت صلاته فى اليوم ثلاثمائة ركعة ، فلما أوذى فى محنة خلق القرآن ، ونزل به من الضرب والجلد ما نزل ، وبقيت آثار الجلد تؤلمه إلى أن مات لم يستطع أن يحافظ على الركعات الثلاثمائة فأنزلها إلى مائة وخمسين ركعة فى اليوم . وكانت له ختمة فى كل سبع ليال .

وكان الإمام أحمد يتمثل الموت دائما ، وكان إذا ذكر الموت خنقته العبرة ويردف قائلا : الخوف يمنعنى أكل الطعام والشراب ، هكذا يذكر تلميذه المروذى . والإمام أحمد شديد التعلق بالرسول ﷺ ، ولم يكن هذا التعلق بالحب والاهتمام بالحديث الشريف والاحتفال بالسنة النبوية وحسب ، وإنما بما يقع تحت يده من مخلفات رسول الله . يقول ابنه عبد الله : رأيت أبى يأخذ شعرة من شعر النبى ﷺ فيضعها على فمه ويقبلها ، وأحسب أنى رأيته يضعها على عينيه ، ويغمسها فى الماء ويشربه ويستشفى به .

وكان فى تعامله مع كتاب الله وسنة رسوله يراعى الحيطة الكاملة حين يعبر عن علاقة أحدهما بالآخر ، إنه يسمع قول يحيى بن أبى بكر : السنة قاضية على

الكتاب ، فلا يرضى عن هذه الصيغة فى علاقة السنة بكتاب الله ويقول : لا أجسر على أن أقول مثل هذا ، ولكن السنة تفسر الكتاب .

وتبلغ التقوى بأحمد درجة تجعله يعترض على ولديه صالح وعبد الله وعمه لأنهم قبلوا مال الخليفة المتوكل ، ويقول لهما : لم تأخذونه والثغور معطلة ، والفئ غير مقسوم بين أهله ؟

وكان أكبر أبناء الإمام سنا هو صالح ، ومع ذلك فقد جعل كنيته أبا عبد الله . وعبد الله هو ولده الثانى ، والآباء يكنون عادة بأسماء أكبر الأبناء ، فقد كان يرى فى هذه التكنية التى عرف بها قبل أن يتزوج وينجب ، بركة وخيرا وتقوى وورعا .

وفى مجال ورعه وتقواه كان الإمام يقول : ماكتبت حديثا إلا وقد عملت به ، حتى مرّبى أن النبى ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة دينارا فأعطيت الحجام دينارا حين احتجمت[٥]

وحين اختفى من الواثق أصر الإمام على أن تكون فترة اختفائه ثلاثة أيام تشبها بالرسول ﷺ فى رحلة الهجرة . يقول إبراهيم بن هانئ : اختفى أحمد بن حنبل عندى ثلاثة أيام ، ثم قال : اطلب لى موضعا ، قلت : لا آمن عليك ، قال : افعل ، فإذا فعلت أفدتك ، فطلبت له موضعا ، فلما خرج قال لى : اختفى رسول الله ﷺ فى الغار ثلاثة أيام ثم تحول ، وليس ينبغى أن تتبع سنة رسول الله ﷺ فى الرخاء ثم تترك فى الشدة[٦] .

ويدرك الإمام أحمد أن رقة القلوب من صلب الورع وبنية التقوى ، ويسأله سائل : كيف يرق قلبى ؟ فيقول له : ادخل المقبرة وامسح على رأس اليتيم . وهذا أبو حفص عمر بن صالح الطرسوسى يقول ذهبت إلى أبى عبد الله وقلت له: رحمك الله يا أبا عبد الله، بم تلين القلوب؟ فأبصر إلى أصحابه فغمزهم

---

(٥) الذهبى مقدمة المسند ص ٧٤ .

(٦) ابن الجوزى ٣٥٠ .

بعينه ثم أطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال : يابنى بأكل الحلال . فمررت أنا إلى أبى نصر بشر بن الحارث – المشهور ببشر الحافى لشدة زهده – فقلت : يا أبا نصر ، بم تلين القلوب ؟ قال : ألا بذكر الله تطمئن القلوب . قلت : فإنى جئت من عند أبى عبد الله ، فقال : هيه إيش قال لك أبو عبد الله ؟ قلت : بأكل الحلال ، فقال : جاء بالأصل ، فمررت إلى عبد الوهاب بن أبى الحسن فقلت : يا أبا الحسن : بم تلين القلوب ؟ قال : ألا بذكر الله تطمئن القلوب . قلت : فإنى جئت من عند أبى عبد الله ، فاحمرت وجنتاه من الفرح وقال لى : أيش قال أبو عبد الله ؟ فقلت : قال بأكل الحلال . فقال : جاءك بالجوهر ، جاءك بالجوهر ، الأصل كما قال ، الأصل كما قال(٧) .

فأما حديث زهد أحمد فحديث طويل ، إنه حسبما مر القول واحد من أئمة الزاهدين . لقد أسلفنا حديث زهده فى مال أساتذته وإخوانه ، فقد زهد فى مال شيخه يزيد بن هارون فى واسط ، ورفض عطاء شيخه عبد الرزاق بن همام فى صنعاء وكان فى أشد الحاجة إلى المال ، ورفض عون رفيق رحلته إلى اليمن إسحاق بن راهويه ، والشيء نفسه فعله مع يحيى بن معين ، وفعله مع أحد جيرانه حين سرقت ملابسه فى مكة . ومن أمثلة زهده فى مال العلماء تلك القصة التى يقصها ولده صالح . قال صالح : قال أبى ، جاءنى ابن يحيى – وما خرج من خراسان بعد ابن المبارك رجل يشبه يحيى بن يحيى – فجاءنى ابنه فقال : إن أبى أوصى بمنطقة له لك ، وقال : تذكرنى بها . فقلت جئنى بها ، فجاء بزرمة ثياب فقال : اذهب رحمك الله . فقلت لأبى : بلغنى أن أحمد الدورق أعطى ألف دينار ، فقال : يابنى « وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » ويمضى صالح فى حديثه قائلا : وذكرت له ابن أبى رسته وعبد الأعلى النرسى ومن قدم به إلى العسكر من المحدثين فقال : إنما كانت أيام قلائل ثم تلاحقوا وما تحلوا منها بكثير(٨) . والمعنى الذى قصد إليه الإمام أن المال الذى أخذه هؤلاء المحدثون من السلطان قد زال . وماتوا هم دون أن يفيدوا منه إلا قليلا .

(٧) حلية الأولياء ١٨٢/٩ .

(٨) حلية الأولياء ١٧٨/٩ ، ١٧٩ .

وكما رفض الإمام مال العلماء والمشايخ رفض مال تلاميذه ، فقد كان غلام من الصيارفة يختلف إلى الإمام ، فناوله يوما درهمين فقال له : اشتر بهما كاغدا . فخرج الغلام واشترى الكاغد وجعل فى جوف الكاغد خمسمائة دينار ، وشده وأوصله إلى بيت الإمام . فلما أن فتحه الإمام تناثرت الدنانير فردها فى مكانها ، وسأل عن الغلام حتى دل عليه فوضع المال والكاغد ، بين يديه ، فكان الغلام يقول : الكاغد بدراهمك ، خذه ، فأبى الإمام أن يأخذ الكاغد أيضاً .

ويقص صالح بن الإمام قصة أخرى عن زهد الإمام وترفعه عن المال فى وقت كان أشد ما يكون حاجة فيه إلى درهم ، وهو وقت المحنة ، فيقول : دخلت على أبى فى أيام الواثق – والله يعلم فى أى حالة نحن – وقد خرج لصلاة العصر ، وقد كان له لبد يجلس عليه قد أتت عليه سنون كثيرة حتى بلى ، فإذا تحته كتاب كاغد ، وإذا فيه : بلغنى يا أبا عبد الله ما أنت فيه من الضيق وما عليك من الدين ، وقد وجهت إليك بأربعة آلاف درهم على يدى فلان لتقضى بها دينك وتوسع بها على عيالك ، وما هى من صدقة ولا زكاة ، وإنما هو شيء ورثته عنه أبى . فقرأت الكتاب ووضعته . فلما دخل قلت : يا أبت ما هذا الكتاب ؟ فاحمر وجهه وقال : رفعته منك . ثم قال : تذهب بجوابه . فكتب إلى الرجل : وصل كتابك إلىّ ونحن فى عافية ، فأما الدين فإنه لرجل لا يرهقنا ، وأما عيالنا فهم فى نعمة والحمد لله . فذهبت بالكتاب إلى الرجل فقال : لو أن أبا عبد الله قبل هذا الشيء ورمى به مثلا فى دجلة لكان مأجورا ، لأن صاحب هذا المال لا يعرف له معروف . ويقول صالح : قلت لأبى وقد مضى على ذلك سنة أو أقل أو أكثر ، لو كنا قبلنا هذا المال ؟ فقال أبى : لو كنا قبلناها كانت ذهبت .

وكان الإمام أكثر زهدا فى مال السلطان . يقول إسحاق بن موسى الأنصارى : دفع إلىّ المأمون مالا أقسمه على أصحاب الحديث ، فإن فيهم ضعفاء ، فما بقى أحد إلا أخذ ، إلا أحمد بن حنبل فإنه أبى .

وينزل الإمام أحمد ضيفا على الخليفة المتوكل بالعسكر ستة عشر يوما فما

ذاق إلا مقدار ربع سويق ، وكان يشرب كل ليلة شربة ماء ، ويستف فى كل ثلاث ليال حفنة من السويق أى دقيق البرغل .

لقد كان الإمام أحمد زاهدا حتى فى الكلام ، إنه لم يكن يخوض فيا يخوض فيه الناس من أهل الدنيا ، فإذا ذكر العلم تكلم .

ولقد بلغ الإمام أحمد فى زهده مبلغا جعله ينفر من جوار السلطان والاقتراب من الخليفة حتى لو كان فى هذا الاقتراب نفع للمسلمين ، لقد رغب المتوكل فى أن يتولى أحمد ولى العهد « المعتز » بالعلم والرعاية ، ولكنه اعتذر عن عدم النهوض بتلك المهمة الرفيعة ، وليته فعل ، فقد كان الحكم آنذاك فى حاجة إلى خليفة يربيه إمام عظيم مثل ابن حنبل .

والزهد يستتبع التواضع ، وكان الإمام أحمد فى ذروة التواضع إن صح أن يكون للتواضع ذروة ، فقد ملأت شهرته الدنيا إلى المدى الذى كان المحاربون الغزاة فى الثغور ينطقون باسمه وهم يضربون المنجنيق ، فكان الإمام إذا سمع هذا يقول : ليته لا يكون استدراجا .

وكان الإمام وقد أحاطت به الشهرة من كل جانب يقول : أريد أن أكون فى بعض تلك الشعاب بمكة حتى لا أعرف ، قد بليت بالشهرة ، إنى لأتمنى الموت صباحا ومساء . وكان يقول فى مناسبة أخرى : لو وجدت السبيل لخرجت حتى لا يكون لى ذكر(٩) .

هكذا كان الإمام من التواضع بحيث يرى أن الشهرة بلوى ، مع أن شهرته كانت شهرة العلماء الأجلاء العاملين المجاهدين .

لعل من أجل ما وصف به الإمام أحمد فى دينه وزهده قول أبى عمير عيسى بن محمد الرملى فيه : رحمه الله ، عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه ، وبالصالحين ما كان ألحقه ، عرضت له الدنيا فأباها ، والبدع فنفاها(١٠) .

---

(٩) الذهبى عن مقدمة المسند ٧٤ .

(١٠) المصدر السابق ٦٨ .

- ٣ -

سلوكه الاجتماعي وأدبه وسجاياه :

ليس معنى الجد الذى أخذ به الإمام نفسه أن يكون خشنا مع الناس ، بعيدا عنهم ، قاليا لمجتمعاتهم ، إن الأمر على النقيض من ذلك تماما . لقد كان الإمام أحمد رقيق الحاشية ، محبا للناس ، مشاركا فى أفراحهم ماكانت متمشية مع الحشمة ، ودودا لإخوانه ، سائلا عنهم ، زائرا من غاب منهم ولو تجشم فى ذلك الصعاب ، يكرم ضيفه ، ويخص إخوانه بالتقدم ويؤثرهم على نفسه فى كثير من المواقف بل فى المواقف كلها ، وهو بعد ذلك متسامح مع من يسئ إليه إلا أن يعود إلى ذلك ، وقد بلغ قلبه درجة من التسامح بحيث لم يذكر من أهانوه وحبسوه وعذبوه بكلمة سوء واحدة .

كان الإمام يشارك الناس احتفالاتهم الاجتماعية مثل الزواج والختان ، بل إنه كان يجامل بالمال أو بما نسميه فى زماننا هذا « بالنقوط » . إن تلميذه المرُّوذى يقول : رأيت أبا عبد الله وقد ألقى لختّان درهمين فى الطست . كما أنه حضر حفل ختان حفيده على بن صالح ، وجلس فى الموضع الذى جلس فيه حفيده والصبى فى ثيابه الملونة ، وأعطى الحجام الذى قام بالختان درهما وأعطى الصبى درهما أيضاً ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الإمام كان إنسانا متواضعا يحب أفراح الناس ، ويشارك فيها ماكانت المشاركة تسرهم ، وماكانت المناسبة وقورة خالية من الإسراف ، سواء أكان هذا الإسراف فى الإنفاق أم فى وسيلة التعبير عن الفرح ، حتى إنه لما شاهد الإسراف فى حفل ختان حفيده بعث إلى صالح ولده وأبى الصبى – قبل وصوله إلى الحفل – أن يبدأ بالفقراء والضعفاء فيطعمهم[١١] ، وهكذا يكون هذا الحفل أو ذاك وسيلة للخير وبرًّا بالفقير ، وذلك على النقيض مما يحدث فى زماننا ، فمثل هذه المناسبات لا ينال الفقراء منها شيئا ، وإنما يزداد المتخمون فيها تخمة على تخمتهم .

(١١) الذهبى عن مقدمة المسند ٨٣ .

وكان الإمام كريما على الرغم من فقره ، كرما يرفعه إلى مصاف الأجواد من الرجال . لقد كان إيراد الإمام عددا قليلا من الدراهم تجئ إليه من إيجار بعض الحوانيت الملحقة بداره المتواضعة فى بغداد . وكان ذات يوم واقفا على رأس بئر بيته وفى يده مقراض ، فوقع المقراض من يده فى البئر ، فجاء ساكن أحد الحوانيت فنزل البئر وأخرج له المقراض ، فوضع الإمام يده فى جيبه وأخرج منها مقدار نصف درهم وناوله للرجل ، فاعتذر الرجل بلطف وقال : لا آخذ شيئا ، إن ثمن المقراض لا يزيد عن قيراط . ومرت أيام على هذا الحادث ، فلما رأى الإمام الرجل سأله : كم عليك من كراء الحانوت ؟ قال الرجل : كراء ثلاثة أشهر وكراؤه فى كل شهر ثلاثة دراهم ، فضرب الإمام على حسابه وقال : أنت فى حل(١٢) .

إن المتمعن فى هذه القصة لا يتردد فى أن يضع الإمام على قمة أصحاب الجود ، إنه يتسامح فى إيجار ثلاثة شهور لأحد دكاكينه -- وهى مصدر دخله الوحيد -- نظير إخراج مقراض من بئر ثمنه قيراط . إن الأمر فى نظرنا يخرج عن هذا الإطار المادى إلى إطار أسمى ، لقد كان تقدير الإمام لما قام به الرجل من خلال الحس الإنسانى المرهف الذى كان يتمتع به الإمام ، وليس بمستبعد أن يكون الإمام قد عرف بطريق أو بآخر أن ساكن الحانوت رقيق الحال ، أو أنه يمر بأزمة مالية وقد تجمع عليه إيجار ثلاثة شهور فسارع إلى اتخاذ حكاية المقراض وسيلة إلى التخفيف عليه والتفريج عنه .

وكان الإمام مجاملا للناس إلى الحد الذى كان يلزم فيه نفسه بذلك ، كان إذا عاد من الحج يفد الناس للسلام عليه ، فإذا جاء موسم الحج وشد الناس الرحال لأداء الفريضة قال لولديه صالح وعبد الله : اكتبا أسماء من سلم علينا ممن خرج للحج فإذا قدم سلمنا عليه .

وإذا زار زائر الإمام فى بيته خلع عليه أسباب التكريم ، وأحاطه بألوان الترحيب ، وأجلسه فى مكان الصدارة ، وجلس هو دونه ، وكثيرا ما كان

---

(١٢) حلية الأولياء ٩/١٧٩ .

الضيف يشعر بالحرج لأنه يعرف قدر الإمام عند الناس أجمعين ويحاول أن يـجلس هو بين يدى الإمام . ولكن الإمام أحمد الذى ربى على الأدب ، وجبل على اللياقة يصر على أن يأخذ ضيفه حقه من الترحيب ونصيبه من التكريم كاملين .

وربما أضاف الإمام أحمد بسجاياه ولياقته شيئا جديدا إلى آداب المجتمع الذى عاش فيه ، فقد كانت طبيعة الناس أن ينصرفوا من المجتمعات انصرافا عفويا ، أما الإمام أحمد فقد سن فى ذلك سنة حميدة ، فلم يكن ينصرف من مجتمع هو فيه حتى يتوجه إلى جلسائه قائلا : إذا شئتم[١٣] .

والإمام أحمد على رقة حاله يكرم ضيفه قدر استطاعته ، ويأمر بتقديم ألوان من الطعام ويقول : يؤكل الطعام بثلاث : مع الإخوان بالسرور ، ومع الفقراء بالإيثار ، ومع أبناء الدنيا بالمروءة . ويقول فى معنى الجود والإيثار : لو أن الدنيا تقل حتى تكون فى مقدار لقمة ، ثم أخذها امرؤ مسلم فوضعها فى فم أخيه المسلم ما كان مسرفا .

ومشاعر الناس كانت تحتل مكانا رفيعا فى قلب الإمام أحمد ، لم يكن يحب أن يجرح مشاعر أحد بقول أو بفعل . كان شيخه إسماعيل بن إبراهيم مشهورا باسم إسماعيل بن علية – وعلية أمه حسبما عرفنا من حديثنا عنه – وكان إسماعيل لا يحب أن يذكر بهذه النسبة ، بل إنه قال : من قال عنى إسماعيل بن علية فقد اغتابنى ، فامتنع الإمام عن ذكره بهذا الاسم ، ولم يقف به الأمر عند هذا الحد ، بل كان يقول لصديقه يحيى بن معين : إنك تقول إسماعيل بن علية ، قل إسماعيل بن إبراهيم ، فقد بلغنى أنه يكره أن ينسب إلى أمه .

وكان الإمام من الرفق بإخوانه الذين يسكنون ديارا بعيدة بحيث يذهب هو إليهم ليراهم ولا يكلفهم مشقة السفر ، والمجئ إليه ، كان الإمام مرتبطا بإسحاق بن راهويه إمام خراسان والمشرق برباط الأخوة فى العلم والمحبة فى الله ،

---

(١٣) الذهبى عن مقدمة المسند ص ٧٤ .

وقد عرفنا طرفا من ذلك مما مضى من فصول ، فلما خرج الإمام من السجن بعد فتنة خلق القرآن ، رأى أن يزور إسحاق ويطمئن عليه ويطمئنه على نفسه ، فقد كان خبر القبض على أحمد قد عبر الآفاق وسمع به جميع أبناء الأمة الإسلامية ، وكان قد مر زمان على افتراق أحمد وإسحاق ، وغيرت السنون الطوال منهما . بحيث إذا رأى أحدهما الآخر أنكره . إن عبد الله بن الإمام يقص الخبر على هذا النحو : لما أطلق أبى من المحنة خشى أن يجئ إليه إسحاق بن راهويه ، فرحل أبى إليه ، فلما بلغ الرى دخل إلى مسجد هناك ، فجاء مطر كأنه أفواه القرب ، فلما كانت العتمة قال له خدم المسجد اخرج فإنا نريد أن نغلقه ، فقال لهم : هذا مسجد الله وأنا أعبد الله ، فقالوا له : أيما أحب إليك ، أن تخرج أو تجرّ برجلك ؟ قال الإمام : فقلت سلاما ، فخرجت من المسجد والمطر والرعد والبرق فلا أدرى أين أضع رجلى ولا أين أتوجه ! ! فإذا رجل قد خرج من داره فقال لى : يا هذا أين تمر فى هذا الوقت ؟ قلت : لا أدرى أين أمر ، فقال لى : ادخل ، فأدخلنى دارا ونزع ثيابى وأعطانى ثيابا جافة ، وتطهرت للصلاة ، فدخلت فى غرفة فيها كانون وفحم ولبود ومائدة منصوبة ، فقيل لى : كل ، فأكلت معهم ، ثم قال لى الرجل : من أين أنت ؟ قلت أنا من بغداد ، فقال لى : تعرف رجلا يقال له أحمد بن حنبل ؟ فقلت : أنا أحمد بن حنبل ، فقال لى : وأنا إسحاق بن راهويه(١٤) .

إنها قصة طريفة ، والمفاجأة التى فيها تزيدها طرافة ، ومثل هذه القصص تحدث كثيرا ، ولكن المعنى الجليل الذى تحمله ، هو ذلك البر الذى يحمله الإمام أحمد لإخوانه مهما بعدت الديار ، فيتجشم الرحلة ، ويقتحم متاعب السفر ليطمئن عليهم ، ولكى يطمئنهم على نفسه ، وقد شعر أنهم فى قلق بشأنه لما عرفوا من أمر محنته .

ومادمنا بشأن هذه القصة الطريفة فى حياة الإمام ، فلا بأس من أن نذكر طرفة أخرى حدثت له فى بغداد ، ولكنها مختلفة عن تلك التى رويناها ، لقد

---

(١٤) مناقب أحمد لابن الجوزى ص ٣٨٠ .

دخل الإمام مسجد المنصور ببغداد ومعه صديقه المحدث يحيى بن معين فوجدا فيه رجلا قصاصا – أى واعظا – يقول : حدثنى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين بكذا وكذا ، ولم يكن واحد منهما حدثه بشيء ؛ وإنما أراد القاصّ أن يدخل فى روع سامعيه أنه من المحدثين ذوى الشأن وأنه مخالط لأئمة العلماء متلقّ عنهم ؛ وكانت تلك الأحاديث التى حدث بها الرجل مليئة بالخلط والأكاذيب ، فالتفت أحمد بن حنبل إلى يحيى بن معين وقال له فى غضب أنت حدثته بهذا ؟ فأجاب بالنفى ، فقال : قم إليه فانصحه . فرأى يحيى أنه من الأفضل لو نصحه ابن حنبل نفسه . فتقدم الإمام إلى الرجل القاصّ وقال له : أنا أحمد بن حنبل وهذا يحيى بن معين ، فمتى حدثناك بهذا ؟ ولكن الرجل كان من الوقاحة وسرعة البديهة بحيث قال : مازلت أسمع بحماقتكما حتى رأيتكما ! ! ألا يوجد فى الدنيا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين غيركما ؟ فلم يجد العالمان الجليلان مناصا من أن ينصرفا ضاحكين .

لقد اعتبر الإمام أحمد سلوك القاصّ سلوك رجل غير مسئول ، أو بالأحرى اعتبره رجلا مجنونا ، ولو كان غير ذلك ما تركه ؛ فقد كان إجلاله لكتاب الله وسنة رسول الله على مسرى حياته يحتّم عليه التدخل ؛ وقد سلف القول أن يحيى بن أبى بكر كان يقول : السنة قاضية على الكتاب ؛ فكان الإمام أحمد يقول : لا أجسر على أن أقول هذا ، ولكن السنة تفسر الكتاب .

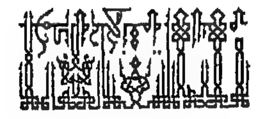
وكان الإمام أحمد يأخذ جانب الإصلاح الاجتماعى من حيث كونه يكبح من نار البغضاء ويكسر شوكتها فى النفوس ، فليس أكثر غرسا للبغضاء فى النفوس من الغيبة ، والشامخون من الرجال معرضون للاغتياب ، وأحمد بن حنبل واحد من هؤلاء الرجال الشامخين ، لقد جاءه رجل فقال له : يا أبا عبد الله اغتبتك ، فاجعلنى فى حل . فلم يقل له الإمام اذهب فأنت فى حل وكفى ، ولكنه يشرع آدابا للمجتمع ، ويرسى تقاليد للبشر . فيقول للرجل : أنت فى حل إن لم تعد. إنها إجابة تجمع بين التسامح والتعليم والتربية والتشريع .

كان أحمد بن حنبل مثلا أعلى للرجال فى سلوكه وقمة فى سجاياه ، إن أحدا

لم يره إلا فى مسجد مصليا معلما ، أوفى جنازة معزيا مواسيا ، أويعود مريضا مؤنسا داعيا ، وكان يرتفع عن المشى فى الأسواق.(١٥)

لقد كان أحمد بن حنبل من الأدب بحيث كان بعض الناس يجلسون إليه السنوات الطوال لا ليسمعوا منه الحديث ولكن لكى يتعلموا أدبه يقول أبو بكر يعقوب بن يوسف المطوعى : جلست إلى أبى عبد الله أحمد بن حنبل ثلاث عشرة سنة وهو يقرأ المسند على أولاده ، ماكتبت منه حرفا واحدا ، وإنما كنت أكتب آدابه وأخلاقه وأتحفظها ، وكان يعقوب يكرر هذا المعنى فى قول آخر : كنت أختلف إلى أحمد ثلاث عشرة سنة لا أكتب عنه وهو يقرأ المسند ، وإنما كنت أنظر إلى هديه أتأدب به(١٦) .

هكذا كان أحمد بن حنبل كرما وجودا ، وبرا ، وسجايا ، وشمائل ، وتشريعا للمجتمع ، وحفاظا على كرامة البشر.



---

(١٥) حلية الأولياء ٩/١٨٤ .

(١٦) خصائص المسند للحافظ المدينى عن مقدمة المسند ص ١٩ .

الفصل الرابع

فكر الإمام ابن حنبل
وآراؤه فى الإمامة والصحابة والسياسة

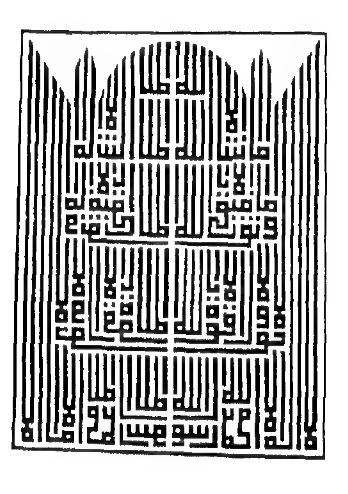
الإيمان أصل العقيدة

- القدر .
- الكلام وأصحابه .
- خَلْق القرآن .
- الذات العلية ورؤية الله .
- الحياة الأخرى والحوض والشفاعة .

رأى ابن حنبل فى الإمامة والصحابة والسياسة .

- الخلافة فى قريش .
- موقف ابن حنبل من على ومعاوية .
- ابن حنبل والصحابة .
- ابن حنبل وخلافة العباسيين .

* * *



الفصل الرابع

فكر الإمام ابن حنبل وآراؤه السياسية

- ١ -

الإيمان أصل العقيدة :

الأصل فى العقيدة هو الإيمان ، ويحدد الإمام ابن حنبل صفة المؤمن من أهل السنة والجماعة بأنه من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأقر بجميع ما أتت به الأنبياء والرسل ، وعقد قلبه على ما ظهر من لسانه ولم يشك فى إيمانه[1] .

فإذا ما وضّح الإمام أحمد طبيعة الإيمان يرى أنه يزيد وينقص ، وأنه قول وعمل ، وتبعا لذلك فالحسنات تزيد الإيمان ، والمعاصى تنقص من الإيمان ، وقد سلف القول أن الإمام أبا حنيفة كان يرى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، وبالتالى فليس هناك نصف مؤمن ولا ثلث مؤمن ، ولعلنا نذكر الحوار الذى جرى بين أبى حنيفة وبين الخوارج على باب مسجد الكوفة فى شأن رجل شرب الخمر فكَظّته فمات ، وامرأة زنت فلما أيقنت بالحمل قتلت نفسها .

أما الإمام أحمد فحين يرى زيادة الإيمان ونقصانه فإنه يقول : زيادته إن أحسنت ونقصانه إن أسأت . ونقصان الإيمان ينزل المرء من الإيمان إلى الإسلام ، فإن تاب رجع إلى الإيمان ، ولا يخرجه إلا الشرك بالله أو أن يردّ فريضة من من فرائض الله جاحدا لها ، فإن تركها تهاونا بها وكسلا ، كان فى مشيئته ، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه[2] .

---

(١) المناقب لابن الجوزى ص ١٦٥ .

(٢) المصدر السابق ١٦٨ .

ثم يعود الإمام أحمد فيستثنى الصلاة من الفرائض ويرى أن تاركها كافر ، حتى ولو كان الترك على سبيل التهاون والتكاسل ، فهو يقول : ليس من الأعمال شيء تركه كفر إلا الصلاة . بل إنه يعامل تارك الصلاة معاملة المرتد لأنه يكمل حكمه فى تارك الصلاة قائلا : وقد أحل الله قتله .

القدر :

وأما القدر فإن الإمام أحمد يؤمن به خيره وشره ، ويسلم الأمور كلها لله . وهو يرفض المناقشة فى هذه القضية ، ويرى أن الجدل فيها لا ينتهى إلى غاية ، ويقول : هذه مسألة قد استصعبت على الناس فأنى يطيقونها ، هذه مسألة مقفلة قد ضلّ مفتاحها ، فإن وجد مفتاحها علم ما فيها ، ولم يفتح إلا بمخبر من الله يأتى بما عنده ، ويأتيه ببينة وبرهان .

ويقول الإمام ابن حنبل : « القدر خيره وشره ، وقليله وكثيره ، وظاهره وباطنه ، وحلوه ومره ، ومحبوبه ومكروهه ، وحسنه وسيئه ، وأوله وآخره من الله قضاء قضاه ، وقدرا قدره عليهم ، بل هم كلهم صائرون إلى ما خلقهم له ، واقفون فيما قدر عليهم لأفعاله ، وهو عدل منه عزّ ربنا وجلّ . والزنا والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس وأكل المال الحرام والشرك بالله والمعاصى كلها بقضاء وقدر ، من غير أن يكون لأحد من الخلق على الله حجّة ، بل الحجة البالغة على خلقه ، لا يُسأل عما يفعل ، وهم يُسألون . ومن زعم أن قتل النفس ليس بقدر من الله عز وجل وأن ذلك بمشيئته فى خلقه ، فقد زعم أن المقتول مات بغير أجله . وأى كفر أوضح من هذا ؟ بل ذلك بقضاء الله عزّ وجل ، وذلك بمشيئته فى خلقه ، وتدبيره فيهم ، وما جرى من سابق علمه فيهم ، وهو العدل الحق الذى يفعل ما يريد »[٣] .

وينهى الإمام أحمد عن الصلاة خلف القدرية ويقول : « القدرى يقول إن الله لا يعلم ما يعمل العباد حتى يعملوا ، فلا تصلّ خلفه »[٤] .

---

(٣) طبقات الحنابلة ١/٢٥ ـ ٢٦ .

(٤) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى ص ١٥٩ .

ويرد الإمام ابن حنبل على المعتزلة فى حكم مرتكب الكبيرة فيقول : لا يكفر أحد من أهل التوحيد وإن عملوا بالكبائر . وهو فى ذلك متفق مع جمهرة أهل السنة .

الكلام وأصحابه :

يكره الإمام أحمد الكلام وأهل الكلام ، ويقول فى ذلك : لا يفلح من تعاطى الكلام . ولا يخلو من أن يتجهم ، أى يصير جهميا . يقول الإمام فى ذلك : من أحب الكلام لم يفلح ولا يؤول أمرهم إلى خير : عليكم بالسنة والحديث . وإياكم والخوض والجدال والمراء . فإنه لا يفلح من أحب الكلام .

وكان الإمام يقول لعمه : لاتجالسهم ولا تكلم أحدا منهم ، ويقول أيضاً : أدركنا الناس وما يعرفون هذا ، ويجانبون أهل الكلام . ما رأيت أحدا طلب الكلام واشتهاه فأفلح . لأنه يخرجه إلى أمر عظيم ، لقد تكلموا يومئذ بكلام واحتجوا بشيء . فما يقوى قلبى ولا ينطلق لسانى أن أحكيه[٥]

ويقول المرُّوذى تلميذ الإمام : قلت لأبى عبد الله : قد جاءوا بكلام فلان ليعرض عليك . وأعطيته الرقعة وكان فيها : « والإيمان يزيد وينقص ، فهو مخلوق ، وإنما قلت هو مخلوق على الحركة والفعل لا على القول ، فمن قال الإيمان مخلوق وأراد القول فهو كافر » . فلما قرأها أحمد وانتهى إلى قول « الحركة والفعل » غضب ورمى بها فقال : هذا مثل قول الكرابيسى ، إنما أراد الحركات مخلوقة ، إذا قال الإيمان مخلوق فأى شيء بقى ؟ ليس يفلح أصحاب الكلام .

إن الذهبى صاحب تاريخ الإسلام وصاحب ترجمة الإمام أحمد التى اعتمدنا عليها كثيرا يقول حول تلك الرقعة : هى والله بحث صحيح ، وتقسيم مليح ، وبعد هذا فقد ذمّ من أطلق الخلْق على الإيمان باعتبار قول العبد لا باعتبار مقوله ، لأن ذلك نوع من الكلام . وهو – أى الإمام أحمد – كان يذم الكلام

---

(٥) ترجمة الإمام أحمد للذهبى عن مقدمة المسند ص ٨٢ .

وأهله وإن أصابوا . وينهى عن تدقيق النظر فى أسماء الله وصفاته . مع أن محمد بن نصر المَرْوَزِى قد سمع إسحاق بن راهويه يقول : خلق الله الإيمان والكفر والخير والشر[٦] .

ولقد سجل الإمام ابن حنبل رأيه مكتوبا حول مناظرة أهل الكلام والجلوس معهم . قال صالح بن الإمام : كتب رجل إلى أبى يسأل عن مناظرة أهل الكلام والجلوس معهم . فأملى علىّ أبى جواب كتابه :

« أحسن الله عاقبتك . الذى كنا نسمع وأدركنا عليه من أدركنا . أنهم كانوا يكرهون الكلام والجلوس مع أهل الزيغ . وإنما الأمر فى التسليم والانتهاء إلى ما فى كتاب الله . لا تَعْدُ ذلك . ولم يزل الناس يكرهون كل محدث من وضع كتاب . وجلوس مع مبتدع . ليورد عليه بعض ما يلبس عليه فى دينه »[٧] .

ذلك كان موقف الإمام أحمد من الكلام وأصحابه . إنه يكفرهم صراحة ويطلب مقاطعتهم وينهى عن الجلوس إليهم أو الاستماع إلى ما يقولون .

خَلْقُ القرآن :

لقد تسببت قضية خلق القرآن فى محنة الإمام أحمد المشهورة . وسوف يأتى حديثها بعد قليل . ولكن فريق المعتزلة يرون أن القرآن مخلوق غير قديم . وتحمسوا لذلك تحمسا بلغ حد التهور . وقسم الأمة الإسلاميه . وكاد أن يمزق صفوفها . وموقف الإمام أحمد حيال هذه القضية من الوضوح بحيث يستبعد كلمة الخَلْق عن كل ما يتعلق بالقرآن . بل إنه يمنع التعرض للقرآن من قريب أو بعيد . فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمى والجهمى كافر . ومن زعم أنه غير مخلوق فهو مبتدع .

يقول الإمام أحمد : الله سبحانه وتعالى قديم لا أول له . فكذلك صفاته . وفيها صفات الكلام . والقرآن كلام الله .

(٦) المصدر ٨٥ . ٨٦ .

(٧) المصدر ص ٨٥

ويقول الإمام أحمد فى ذلك أيضاً : القرآن كلام الله . تكلم به ليس بمخلوق . ومن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمى كافر . ومن زعم أن القرآن كلام الله ووقف ولم يقل ليس بمخلوق فهو أخبث من قول الأول . ومن زعم أن ألفاظنا به وتلاوتنا له مخلوقة و قرآن كلام الله فهو جهمى ومن لم يكفرّ هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم[٨] .

على أن جمهرة كبيرة من المسلمين ترى أن اللفظ بالقرآن مخلوق . وأما القرآن نفسه كلام الله فقديم غير مخلوق ولقد كان الكرابيسى وهو من تلاميذ الإمام الشافعى فى بغداد وكان صديقا للإمام أحمد يرى هذا الرأى فسمى هو وأصحابه « باللفظية » وخاصمه الإمام أحمد خصاما شديدا وبقيا متخاصمين حتّى انتقلا إلى رحمة الله . إن ابن قتيبة وهو من أعلام أهل السنة يرى ذلك . كما أن كثيرا من العلماء المحدثين يرون أن اللفظ به مخلوق وأما هو فقديم .

ولعل خير ما يوضح لنا رأى الإمام أحمد فى قضية خلق القرآن هو ما تضمنته رسالته التّى كتبها إلى الخليفة المتوكل فى هذا الشأن . فمن المعروف أن كلاًّ من المأمون والمعتصم والواثق كان يقول بخلق القرآن . وقد آذى ثلاثهم الإمام أحمد بالسجن والقيد والضرب والمصادرة – أعنى مصادرة الرأى إذ لم يكن الإمام أحمد يملك مالا حتّى يصادر – فلما ولى المتوكل . كان على العكس من أسلافه فى هذه القضية . وحاول أن يقرب الإمام إليه . وخلع عليه كثيرا من المال . إلا أن الإمام رفضه جميعا . ثم أنزله ضيفا عليه فى « العسكر » فقبل الإمام الاستضافة مرغما متورطا لم يذق خلالها – وقد زادت على الاسبوعين – من زاد الخليفة إلا الماء والقليل من السويق .

قال صالح ابن الإمام أحمد : كتب عبيد الله بن يحيى بن خاقان – وزير المتوكل – إلى أبى يخبره « أن أمير المؤمنين أمرنى أن أكتب إليك كتابا من أمر القرآن . لا مسألة امتحان ولكن مسألة معرفة وبصيرة » ، فأملى علىّ أبى رحمه

---

(٨) طبقات الحنابلة ٢٩/١ .

الله إلى عبيد الله بن يحيى . وكنا وحدنا ما معنا أحد هذه الرسالة[٩]

« بسم الله الرحمن الرحيم . أحسن الله عاقبتك أبا الحسن فى الأمور كلها . ودفع عنك مكاره الدنيا برحمته .

قد كتبتَ إلىَّ رضى الله تعالى عنك بالذى سأل عنه أمير المؤمنين بأمر القرآن بما حضرنى . وإنى أسأل الله أن يديم توفيق أمير المؤمنين . قد كان الناس فى خوض من الباطل واختلاف شديد يغتمسون فيه . حتى أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين . فنفى الله بأمير المؤمنين كل بدعة . وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المجالس . فصرف الله ذلك كله . وذهب به بأمير المؤمنين . ووقع ذلك من المسلمين موقعا عظيما . ودعوا الله لأمير المؤمنين . وأسأل الله أن يستجيب فى أمير المؤمنين صالح الدعاء . وأن يتم ذلك لأمير المؤمنين . وأن يزيد فى بيته ويعينه على ما هو عليه . فقد ذكر عن عبد الله بن عباس أنه قال : لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض . فإن ذلك يوقع الشك فى قلوبكم . وذكر عن عبد الله بن عمر أن نفرًا كانوا جلوسا بباب النبى ﷺ فقال بعضهم : ألم يقل الله كذا ؟ وقال بعضهم : ألم يقل الله كذا ؟ قال : فسمع ذلك رسول الله ﷺ . فخرج كأنما فقئ فى وجهه حب الرمان فقال :

« أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ ؟ إِنَّمَا ضَلَّتْ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ فى مِثْلِ هَذَا . إِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِمَّا هُنَا فى شىءٍ . انْظُرُوا الَّذِى أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ . وانظُرُوا الذى نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا عَنْهُ » .

وروى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :

« مِرَاءٌ فى الْقُرْآنِ كُفْرٌ » .

---

(٩) حلية الأولياء ٩/٢١٦ – ٢١٨ .

وروى عن أبى جهم – رجل من أصحاب النبى ﷺ – عن النبى ﷺ قال :

« **لا تماروا فى القرآن فإن مراء فيه كفر** » .

وقال عبد الله بن العباس : قدم على عمر بن الخطاب رجل فجعل عمر يسأل عن الناس فقال : يا أمير المؤمنين قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا . فقال ابن عباس فقلت : والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا فى القرآن هذه المسارعة . قال : فنهرنى عمر وقال : مه . فانطلقت إلى منزلى مكتئبا حزينا . فبينا أنا كذلك إذ أتانى رجل فقال : أجب أمير المؤمنين . فخرجت فإذا هو بالباب ينتظرنى . فأخذ بيدى فخلا بى وقال : ما الذى كرهت مما قال الرجل آنفا ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين متى يتسارعوا هذه المسارعة يختلفوا . ومتى ما يختلفوا يختصموا . ومتى ما يختصموا يختلفوا . ومتى ما يختلفوا يقتتلوا . قال : لله أبوك . والله إن كنت لا أكتمها الناس حتى جئت بها .

وروى عن جابر بن عبد الله قال : كان النبى ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول :

« **هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِى إلى قَوْمِهِ فَإِنَّ قُرَيشاً قَدْ مَنَعُونِى أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّى** » .

وروى عن جبير بن نفير قال : قال رسول الله ﷺ :

« **إِنَّكُمْ لَنْ تَرْجِعُوا بِشَىْءٍ أَفْضَلَ مِمَّا خَرَجَ مِنْهُ** » **يعنى القرآن** .

وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : جردوا القرآن لا تكتبوا فيه شيئا إلا كلام الله عز وجل .

وروى عن عمر بن الخطاب أنه قال : هذا القرآن كلام الله فضعوه مواضعه .

وقال رجل للحسن البصرى : يا أبا سعيد . إنى إذا قرأت كتاب الله وتدبرته كدت أن أيأس وينقطع رجائى . قال : فقال الحسن : إن القرآن كلام الله

وأعمال ابن آدم إلى الضعف والتقصير . فاعمل وأبشر . وقال فروة بن نوفل الأشجعى : كنت جاراً لخبَّاب – وهو من أصحاب النبى ﷺ – فخرجت معه يوما من المسجد وهو آخذ بيدى فقال : يا هذا تقرب لله بما استطعت فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحب من كلامه . وقال رجل للحكم بن عتبة : ما حمل أهل الأهواء على هذا ؟ قال : الخصومات . وقال معاوية بن قرة – وكان أبوه ممن أتى النبى ﷺ – إياكم وهذه الخصومات فإنها تحبط الأعمال . وقال أبو قلابة – وكان قد أدرك غير واحد من أصحاب رسول الله ﷺ – لا تجالسوا أصحاب الأهواء – أو قال أصحاب الخصومات – فإنى لا آمن أن يغمسوكم فى ضلالاتهم ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون .

ودخل رجلان من أصحاب الأهواء على محمد بن سيرين فقالا : يا أبا بكر ، نحدثك بحديث ؟ فقال : لا . قالا : فنقرأ عليك آية من كتاب الله ؟ قال : لا ، لَتقومَانِ عنى أو لأقوم عنكما . قال : فقام الرجلان فخرجا ، فقال بعض القوم : يا أبا بكر ، وما عليك أن يقرآ عليك آية من كتاب الله تعالى ؟ فقال له ابن سيرين : إنى خشيت أن يقرآ علىّ آية فيحرفانها فيقرّ ذلك فى قلبى .

وقال محمد : لو أعلم أنى أكون مبتلى الساعة لتركتها . وقال رجل من أهل البدع لأيوب السختيانى : يا أبا بكر ، أسألك عن كلمة ؟ فولىّ وهو يقول بيده : ولا نصف كلمة . وقال ابن طاووس لابن له يكلمه رجل من أهل البدع : يا بنى أدخل إصبعيك فى أذنيك لاتسمع ما يقول . ثم قال : اشدد .

وقال عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل . وقال إبراهيم النخعى : إن القوم لم يدخل عنهم شيء خير لكم لفضل عندكم . وكان الحسن – البصرى – رحمه الله يقول : شرّ داء خالط قلبا . يعنى الأهواء .

وقال حذيفة بن اليمان – وكان من أصحاب رسول الله ﷺ – اتقوا الله معشر القراء . وخذوا طريق من كان قبلكم . والله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقا بعيدا . ولئن تركتموه يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا . أو قال مبيناً . قال

أبى – يعنى الإمام أحمد – رحمه الله : وإنما تركت ذكر الأسانيد لما تقدم من اليمين التى حلفت بها مما قد علمه أمير المؤمنين . لولا ذلك لذكرتها بأسانيدها .

وقد قال الله تعالى : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ(١٠) » وقال : « أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ(١١) » فأخبر بالخلق ثم قال والأمر ، فأخبر أن الأمر غير المخلوق ، وقال عز وجل « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » فأخبر تعالى أن القرآن من علمه .

وقال تعالى : « وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلاَ نَصِيرٍ(١٢) » . وقال : « وَلَئِنْ أَتَيْتَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ(١٣) » . وقال تعالى : « وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلاَ وَاقٍ(١٤) » .

فالقرآن من علم الله تعالى . وفى هذه الآيات دليل على أن الذى جاءه ﷺ هو القرآن لقوله :

« وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ(١٥) » .

---

(١٠) التوبة الآية ٦ .

(١١) الأعراف الآية ٥٤ .

(١٢) البقرة الآية ١٢٠ .

(١٣) البقرة ١٤٥ .

(١٤) الرعد الآية ٣٧ .

(١٥) البقرة ١٢٠ .

وقد روى عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون : القرآن كلام الله ليس بمخلوق . وهو الذى أذهب إليه . لست بصاحب « كلام » ولا أدرى « الكلام » فى شىء من هذا إلا ما كان فى كتاب الله أو حديث عن النبى ﷺ . أو عن أصحابه أو عن التابعين رحمهم الله . فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود » .

الذات العلية ورؤية الله :

يتحدث الإمام أحمد عن الذات العلية فيقول : « ولله عز وجل عرش . وللعرش حملة يحملونه . والله عز وجل على عرشه ليس له حدّ . والله أعلم بحدّه . والله عزّ وجلّ سميع لا يشك . بصير لا يرتاب . عليم لا يجهل . جواد لا يبخل . . . . يتحرك ويتكلم . وينظر ويبصر . ويضحك ويفرح . ويحب ويكره . ويبغض ويرضى . ويغضب ويسخط » . . . . ويمضى الإمام ابن حنبل فى ذكر الأفعال المستمدة من أسماء الله الحسنى إلى أن يقول : « وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف يشاء . ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن . يقلبها كيف يشاء . ويودعها ما أراد . خلق آدم بيده على صورته . والسموات والأرض يوم القيامة فى كفه . ويضع قدمه فى النار فتزوى ؛ ويخرج قوما من النار بيده . وينظر أهل الجنة إلى وجهه يرونه فيكرمهم . ويتجلى لهم فيعطيهم . ويعرض عليه العباد يوم القيامة . ويتولى حسابهم بنفسه . لا يلى ذلك غيره عزّ وجلّ[١٦] .

ويؤمن الإمام أحمد برؤية الله يوم القيامة إيمانا كاملا ويرى أنها جزء لا يتجزأ من إيمان أهل السنّة التى يعرفها ويعرّف أصحابها فيما يلى : « أصول السنّة عندنا التمسك بما كان عليه الصحابة . وترك البدع . وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء . وترك المراء والجدال . وليس فى السنّة قياس . ولا يضرب لها الأمثال . ولا تدرك بالعقول . والقرآن كلام الله غير مخلوق . وإنه من الله ليس

---

(١٦) طبقات الحنابلة ٢٩/١

ببائن منه . وإياك ومناظرة من أحدث فيه . ومن قال باللفظ وغيره . ومن وقف فيه فقال : لا أدرى مخلوق أو ليس بمخلوق وإنما هو كلام الله . فهو صاحب بدعة . . .

ويستطرد الإمام إلى وجوب الاعتقاد برؤية الله عزّ وجل قائلا : « والإيمان بالرؤية يوم القيامة . وأن النبى ﷺ رأى ربه . رواه قتادة والحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس . والحديث عندنا على ظاهره . على ما جاء عن النبى ﷺ . والكلام فيه بدعة . ولكن نؤمن به على ما جاء على ظاهره . وأن الله يكلم العباد يوم القيامة ليس بينهم وبينه ترجمان[١٧] » .

الحياة الأخرى والحوض والشفاعة :

ومن أصول العقيدة التى لامراء فيها عند كافة المسلمين الإيمان بالحياة البرزخية وحساب القبر . وحوض الرسول ﷺ يروى منه المسلمين وشفاعته لأمته ﷺ . نسأل الله أن ننالها . إن الإمام أحمد يؤكد على ذلك فيقول :

« وعذاب القبر حق . يسأل العبد عن دينه وعن ربه . وعن الجنة وعن النار . ومنكر ونكير حق . وهما فتّانا القبر . نسأل الله الثبات » .

« وحوض محمد ﷺ حق . ترده أمته . وله آنية يشربون بها منه . والصراط حق يوضع على سواء جهنم . ويمرّ الناس عليه . والجنة من وراء ذلك نسأل الله السلامة . والميزان حق توزن به الحسنات والسيئات كما يشاء الله أن توزن . والصور حق ينفخ فيه إسرافيل فيموت الخلق . ثم ينفخ فيه الأخرى فيقومون لرب العالمين وللحساب والقضاء . والثواب والعقاب . والجنة والنار . واللوح المحفوظ يستنتج منه أعمال العباد لما سبق فيه من المقادير والقضاء . والقلم حق كتب به الله مقادير كل شيء وأحصاه فى الذكر تبارك وتعالى » .

« والشفاعة يوم القيامة حق . يشفع قوم فى قوم فلا يصيرون إلى النار . ويخرج قوم من النار بشفاعة الشافعين . . . ويذبح الموت يوم القيامة بين الجنة

---

(١٧) الذهبى عن مقدمة المسند ص ٧٩ . ٨٠ .

والنار . وقد خلقت الجنة ومافيها . والنار وما فيها . خلقهما الله عزّ وجلّ . وخلق الخلق لهما . لا تفنيان ولا يفنى ما فيهما أبدا[١٨] » .

تلك أهم أصول العقيدة عند الإمام أحمد بن حنبل قدمناها موجزة فى غير ما خلل بحيث تفى بالغرض المنشود من تصور فكره الدينى وأصول العقيدة لديه . وهو متفق فى الكليات مع سائر أئمة المسلمين .

— ٢ —

رأى ابن حنبل فى الإمامة والسياسة :

الخلافة فى قريش :

إن ابن حنبل يرى«الخلافة فى قريش ما بقى من الناس اثنان ليس لأحد أن ينازعهم فيها ولا يخرج عليهم . ولا نقر لغيرهم إلى قيام الساعة[١٩]». إنه فى ذلك لايقل حماساً عن أستاذه الشافعى . ويستطرد الإمام ابن حنبل قائلاً : « والجهاد قائم مع الأئمة برّوا أو فجروا . لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل . والجمعة والعيدان والحج مع السلطان وإن لم يكونوا بررة عدولا أتقياء . . والانقياد إلى من ولاه الله أمركم لا تنزع يدا من طاعته، ولا تخرج عليه بسيفك حتى يجعل الله لك مخرجاً[٢٠]» .

ويقر ابن حنبل خلافة الراشدين على ترتيبهم التاريخى ويقف عند علىّ كما وقف قبله الإمام مالك فيقول : خير الأمة بعد النبى أبو بكر وعمر بعد أبى بكر . وعثمان بعد عمر . وعلىّ بعد عثمان . ثم يتحفظ قليلاً قائلاً « ووقف قوم عند عثمان » ثم لا يلبث أن يثبت علياً بين الراشدين فيقول : « وهم خلفاء راشدون مهديون . ثم أصحاب رسول الله ﷺ بعد هؤلاء الأربعة خير الناس[١٩] .

(١٨) طبقات الحنابلة ١/٢٧ . ٢٨ .

(١٩) طبقات الحنابلة ١/٢٦ .

(٢٠) المصدر والصفحة .

على أن للإمام أحمد رأيًا فى التفضيل . فقد قال يعقوب بن إسحاق المطوعى : سمعت أحمد بن حنبل وقد سئل عن التفضيل فقال : على حديث ابن عمر رضى الله عنهما : أبو بكر وعمر وعثمان[٢١] . وأما حديث ابن عمر فهو قوله : «كنا نعد ورسول الله ﷺ حيّ وأصحابه متوافرون أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم نسكت[٢٢] » .

إنه الرأى الذى استمسك به الإمام مالك ولم يحد عنه حين جعل الراشدين ثلاثة لا غير ولم يحسب عليًّا بينهم .

ويرى ابن حنبل أن من يقدم عليا على عثمان فهو مبدَّع . أى مصطنع للبدعة . فقد قال ولده صالح : سئل أبى عمن يقدم عليا على عثمان وأنا شاهد . يبدَّع ؟ فقال : هذا أهل أن يُبَدَّعَ . أصحاب رسول الله ﷺ قدموا عثمان[٢٣] .

وكان الإمام ابن حنبل يـجعل عليًّا والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص فى مرتبة واحدة . وكلهم صالح للخلافة . وكلهم إمام[٢٤] فكان الترتيب عنده على هذا النحو : أبو بكر فعمر فعثمان . هؤلاء هم الثلاثة المفضلون بحسب ترتيبهم . وأما المرتبة الرابعة فلا يحتلها صحابى واحد بذاته وإنما يحتلها هؤلاء الخمسة الكرام الذين ذكرناهم مجتمعين .

هذا عن جانب التفضيل . وأما من حيث خلافة علىّ . فهى صحيحة عنده لاشك فيها . وكان يقول : من لم يثبت الإمامة لعلىّ فهو حمار . ويقول أيضاً : نِعْمَ خليفة رضيه أصحاب رسول الله ﷺ وصلوا خلفه . وغزوا معه وجاهدوا وحجّوا وكانوا يسمونه أمير المؤمنين . راضين بذلك غير منكرين فنحن له تبع . ويقول فى الخلافة وعلىّ : إن الخلافة لم تزين عليًّا . ولكن عليًّا زينها .

---

(٢١) الذهبى مقدمة المسند ص ٨١ .
(٢٢) المناقب لابن الجوزى ص ١٦١ .
(٢٣) الذهبى عن مقدمة المسند ص ٨١ .
(٢٤) مناقب ابن الجوزى ١٦١ .

ثم يعود الإمام أحمد – حسب رواية ابن الجوزى – فيقول : ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما لعلىّ رضى الله عنه[٢٥] .

وهنا يقع ابن الجوزى فى تناقض مع نفسه . وأنزه نفسى عن أن أقول إن الإمام أحمد ناقض نفسه – لأن راوى الأخبار هو ابن الجوزى . فقد ذكر أن المقدمين بإجماع هم أبو بكر وعمر وعثمان . وجعل أربعة من الصحابة يشاركون علياً المرتبة الرابعة . ونسب ذلك إلى الإمام أحمد . وجعل سنده فى ذلك حديث ابن عمر الذى سجلناه قبل قليل . وهاهو مرة أخرى ينسب إلى الإمام أحمد القول بأنه ما لأحد من الصحابة من الفضائل – بالأسانيد – ما لعلى رضى الله عنه . مع أن صالح ابن الإمام أحمد يشهد أن أباه قرر أن من يقدم عليًا على عثمان فهو صاحب بدعة . وأن يعقوب بن إسحاق المطوعى قد سمع الإمام وقد سئل عن التفضيل فقال : على حديث ابن عمر رضى الله عنهما : أبو بكر وعمر وعثمان .

الرأى الراجح أن الإمام أحمد يرى فى ترتيب الراشدين ما يراه جمهرة أهل السنة . أى أنهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على .

موقف ابن حنبل من على ومعاوية :

إن للإمام ابن حنبل موقفا مميزا فى ذلك الخلاف الدامى الذى جرى بين الإمام على ومعاوية بن أبى سفيان . لقد جرت بينهما حروب وسالت دماء وأزهقت أرواح . وكلها دماء مسلمة وأرواح مؤمنة . وقد كانت للإمام على بيعة صريحة فى رقاب المسلمين . والإمام أحمد صاحب تشدد فى مسألة البيعة والإمامة . إنه يقول : من مات ورقبته عريّة من اعتقاد الإمامة فميتته جاهلية . وفى ظل عقيدته هذه . وفى نطاق اعترافه بعلىّ كأمير للمؤمنين ورابع للراشدين يكون فريق علىّ وجيشه على حق ، وفريق معاوية وجيشه على غير ذلك . فما هو حكم الإمام ابن حنبل فى هذه القضية ؟ بل ما هو موقفه فى حروب أخرى خاضها الإمام على مثل موقعة الجمل وموقف طلحة والزبير ؟

---

(٢٥) المصدر السابق ١٦٣ .

إن ابن حنبل لا يمس معاوية بكلمة سوء . ويمسك عن الخوض فيما جرى بواقعتى صفين والجمل ويقول : دماء صان الله يدى عن ملابستها فأصون لسانى عن الخوض فيها . ويرد ما حدث من خلاف إلى اجتهاد الفريقين . وليس كل مجتهد مصيبا . للمصيب أجران وللمخطئ أجر .

بل إن موقف الإمام أحمد انصرف إلى يزيد بالإمساك . فقد ذهب فى شأنه مذهبا لم يشاركه فيه كثير من المسلمين . لقد كان يمسك عنه ويرى أن يكله إلى الله [٢٦] .

ابن حنبل والصحابة :

كان الإمام ابن حنبل يجلّ صحابة رسول الله ﷺ ويحترمهم ولا يذكرهم إلا بالخير . وهذا هو السبب فى أنه لم يتناول معاوية بكلمة نقد واحدة مع تسليمه بشرعية خلافة على . ولم يعلق على حروب صفين والجمل على كثرة ما وقع فيها من ضحايا كان بعضهم من رءوس الصحابة . إن أحمد لم يفعل ذلك إلا لكى يصون لسانه عن أن ينزلق بكلمة فى واحد من أصحاب رسول الله .

قال أبو بكر المرُّوذِى : قيل لأبى عبد الله ونحن « بالعسكر » وقد جاء بعض رسل الخليفة فقال : يا أبا عبد الله فيما كان بين على ومعاوية ؟ فقال : ما أقول فيهم إلا الحسنى [٢٧] . وكان لا يسمح بالجدل فى أيهما كان على الحق ؛ وقد سأله هاشمي فيما جرى بينهما . فأعرض عنه . فلما أعلم بأنه من بنى هاشم أقبل عليه بعد الإعراض وقال له : اقرأ قول الله تعالى :

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ . وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وكان الصحابة عنده سواء لا يصدر عنه في شأنهم إلا القول الجميل . وكان

---

(٢٦) طبقات الحنابلة ٢/٢٧٢ - ٢٧٤ مقدمة ابن تميم الحنلى فى أصول المذهب .

(٢٧) الذهبى عن مقدمة المسند ص ٨١ .

يقول : معاوية وعمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى . كلهم وصفهم الله تعالى فى كتابه فقال :

« سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ » .

وأورد ابن الجوزى رأيا لأحمد بن حنبل عمن هو الرافضى . وكان ولده عبد الله قد سأله هذا السؤال فقال : الذى يشتم أويسبّ أبا بكر أو عمر[28] ويورد الذهبى السؤال نفسه على لسان عبد الله بن أحمد موجها إلى أبيه . يقول عبد الله : قلت لأبى من الرافضى ؟ فقال : الذى يشتم رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ أو يتعرض لهم . ما أراه على الإسلام[29] .

وهكذا لا يكون رافضيا من شتم أوسبّ أبا بكر وعمر وحسب . وإنما الرافضى كل من سب رجلا من صحابة رسول الله ﷺ . ولا يكتفى الإمام أحمد بنعته بالرفض وإنما يوجه إليه تهمة الكفر . وفى ذلك يقول : إذا رأيت رجلا يذكر أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ بسوء فاتهمه على الإسلام[30]

ابن حنبل وخلافة العباسيين :

الرأى بأن ابن حنبل لم يكن له ميل سياسى معيّن لا بد من أن يعاد النظر فيه . ذلك أنه كان يقول الأئمة من قريش . ويعين على إمامة ولد العباس . ويقول : العباس أبو الخلفاء وإذن فلقد كان الإمام ابن حنبل عباسى الميل السياسى . ولعله الوحيد بين الأئمة الأربعة الذى يرى هذا الرأى . على أن ذلك ينبغى أن يحسب له لا عليه . فمهما اختلفت الآراء حول أحقبة بنى العباسى بالخلافة فإن تأييد ابن حنبل لملكهم . أو لخلافتهم – وهم الذين أوقع ثلاثة منهم به صنوف العسف والجلد والسجن والعذاب – ليعتبر نوعاً من النزاهة الفريدة المثال . والعدالة المنقطعة النظير إن الرجل العظيم يبدى رأيه فى خلافتهم بِغَضٍّ النظر عن تصرفهم حياله . ويرى أنهم رغم ذلك أحق بالخلافة من غيرهم .

(٢٨) المناقب ١٦٥ .

(٢٩) الذهبى مقدمة المسند ص ٨١ .

(٣٠) المناقب ١٦٠ .

ولكن سؤالا يفرض نفسه على الدارس . وهو لماذا انفرد الإمام أحمد عن بقية الأئمة السابقين عليه بالابتعاد عن السياسة . هل لأن أحداثا سياسية هامة لم تحدث على الساحة الإسلامية فى عصره ؟ لقد خرج زيد بن على . ثم إبراهيم بن عبد الله وأخوه محمد النفس الزكية فى عصر الإمام أبى حنيفة . فشارك الإمام فى الثورتين بالقول والإفتاء والمال . وقد خرج محمد النفس الزكية فى عصر الإمام مالك فشارك مالك فى تلك الحركة الحريثة بالرأى والإفتاء . وكان الإمام الشافعى صاحب رأى سياسى يبارك به أبناء فاطمة البتول . ويقدم أبناء أمير المؤمنين على بن أبى طالب . فما عسى أن يكون قد وقر فى قلب الإمام أحمد ؟

لقد كان حريا به أن يخرج على بنى العباس وقد فعلوا به من التعذيب والسجن والجلد ومصادرة دروسه ما فعلوا . ولو قد خرج عليهم لم يكن عليه تثريب من أحد . ولكن الإمام أحمد لم يكن يصدر فيما يفعل عن عاطفة ذاتية . وإنما عن رأى مستقر وعقيدة يؤمن بها . لقد كانت الخلافة قائمة والإمامة ثابتة . وقد سلف القول أنه كان يراها فى أبناء العباس . ومن هنا فإن فكرته عن الخلافة تتمثل فى هذا القول أو هذه الرسالة :

« السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين . البر والفاجر . ومن ولى الخلافة فاجتمع الناس عليه . ورضوا به . ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين . والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة . البر والفاحر . وقسمة الفئ وإقامة الحدود إلى الأئمة ماض . ليس لأحد أن يطعن ولا ينازعهم . ودفع الصدقات إليهم جائز نافذ . من دفعها إليهم أجزأت عنه برًّا كان أو فاجرا . وصلاة الجمعة خلفه وخلف كل من ولى جائزة إمامته . ومن أعادها فهو مبتدع تارك للآثار . مخالف للسنّة . ليس له من فضل الجمعة شيء إذا لم ير الصلاة خلف الأئمة من كانوا برهم وفاجرهم . فالسنّة أن تصلى معهم ركعتين . وتدين بأنها تامة لا يكن فى صدرك شك . ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين وقد كان الناس اجتمعوا عليه . وأقروا له بالخلافة بأى وجه كان . بالرضا أو بالغلبة .

فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين . وخالف الآثار عن رسول الله . فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية(٣١) »

وإذن فاعتراف ابن حنبل بخلافة بني العباس . وعدم تجريحها أو نقدها أو الخروج عليها نابع من عقيدة دينية . مع أنه كان يرفض مالهم ولا يقبل عطاياهم . ولكن يبدو أن هذا الرفض لم يكن من قبيل التعفف وحسب بل من قبيل التحريم . فقد حرم على ولديه وعمه قبول مال المتوكل وخاصمهم لقبولهم هذه الأموال . الأمر الذي يجعل موقف الإمام أحمد من بني العباس محتاجا إلى مزيد من الاستجلاء .



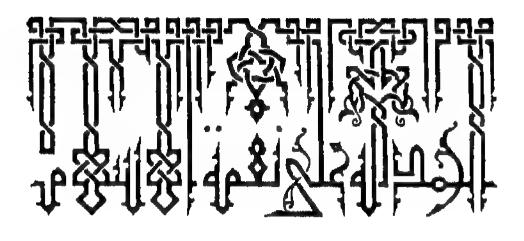
---

(٣١) المناقب ١٧٦ .

الفصل الخامس

فتنة خلق القرآن

* أصل الفتنة ونشأتها .
* كتب المأمون فى الفتنة .
  - الكتاب الأول .
  - الكتاب الثانى .
  - إسحاق يمتحن العلماء والقضاة .
  - الكتاب الثالث .
* الإمام أحمد يواجه المحنة .
  - المحنة كما رواها صالح .
  - المحنة كما رواها أحمد بن الفرج .
  - المحنة كما رواها سليمان السجزى .
  - رواية الجاحظ للفتنة .
* انتصار السنّة واندحار الفتنة .
* علماء من ضحايا الفتنة .
  - محمد بن نوح .
  - نعيم بن حماد .
  - أحمد بن نصر الخزاعى .
  - يوسف البويطى .



الفصل الخامس

فتنة خلق القرآن

— ١ —

أصل الفتنة ونشأتها :

ارتبطت فتنة خلق القرآن برجلين مشهورين من رجالات هذه الأمة . الأول مشعلها وهو الخليفة المأمون . والثانى المكتوى بنارها . الصابر على محنتها . المطفئ لضلالها . الإمام أحمد بن حنبل .

إن الأمر الذى يدعو إلى الأسف فى هذه الفتنة أن الرجل الذى أشعلها — أعنى المأمون — عرف فى التاريخ بأنه ملك مثقف مستنير . أيقظ الحياة العلمية وشجع العلماء . وجمع الكتب من الآفاق . وأنشأ دار الحكمة . وترجم تراث الأمم ذات الحضارات من يونان وفرس إلى العربية . ولكنه لا يلبث أن يتزاحم عليه المعتزله والمتكلمون . فيصبح لا ينظر إلا بعيونهم . ولا يرى إلا بأبصارهم ولا يفكر إلا بعقولهم . ولقد كان للمعتزلة حسنات لاشك فيها . ولكن كانت لهم أيضاً ألوان من الشطط فى الفكر الدينى . وتلك مسؤوليتهم الذاتية . ولكن الخطر كل الخطر تمثل فى أنهم تسللوا إلى مناصب الدولة . وحاولوا فرض أفكارهم على الناس بقوة السلطان . ومن هذه الأفكار المنحرفة تلك الفتنة التى أشعلوها . وهى فتنة خلق القرآن . ومن المؤسف أن يكون الأداة الطيعة فى أيديهم هو ذلك الخليفة الذى عرف بالعلم واشتهر بالثقافة .

لم يكن المعتزلة هم أصحاب الفكرة أصلا وإنما هم تبنوها واعتنقوها وفرضوا نشرها على الناس بالقوة والإرهاب فأما أول من عرف بإثارتها فهو الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . ولذلك كان مروان

يعرف بالجعدى نسبة إلى الجعد بن درهم مؤدبه . وربما كان فى هذه النسبة ما ينال من مروءته ويؤذيه . ذلك أن للجعد أخبارا فى الزندقة والفكر المنحرف . وقد زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا . ولم يكلم موسى تكليما . ولذلك قتله خالد بن عبد الله القسرى والى العراق بالكوفة يوم عيد الأضحى سنة ١١٨ عند صلاة العيد . وكان قد قبض عليه وأتى به مشدودا .

فأمّا الرجل الثانى الذى قال بذلك فهو الجهم بن صفوان . وإليه تنسب فرقة الجهمية . ولقد سبقت لنا وقفة معه عندما حاوره الإمام أبو حنيفة وأفحمه فى قضايا أثارها معه . ولقد نفى الجهم صفة الكلام عن الله . وحجته فى ذلك أنه ينزه الله سبحانه عن الحوادث وصفاتها . وانتهى إلى القول بأن القرآن مخلوق وليس قديما . وكان الجهم صاحب شغْب وفتن سياسية فقتله نصر بن سيار والى بنى أمية وأحد قوادهم سنه ١٢٨هـ أى بعد سنوات عشر من مقتل الجعد بن درهم .

وفى العصر العباسى . وفى عهد الرشيد على وجه التحديد ظهر بشر بن غياث المشهور ببشر المريسى نسبة إلى محلة ببغداد وقال بخلق القرآن . وكان بشر يهودى الأب وسار فى ركب المعتزلة ورأس فرقة منهم نسبت إليه . وكان بدوره متهما بالزندقة . وتترامى إلى سمع الرشيد مقالة بشر . فيتوعده الرشيد ويقول : بلغنى أن بشر بن غياث يقول أن القرآن مخلوق . لله علىّ إن أظفرنى به لأقتلنه . وكان بشر متواريا طيلة حكم الرشيد لأنه كان يعرف عقاب ما ينشره من فتنة، فلما مات الرشيد ظهر ودعا إلى الضلالة[1] .

ومن المفارقات الغريبة بل المحزنة أن يكون الذى فجر هذه الفتنة هو ابن هارون الرشيد نفسه فيحول الشر الذى كان أبوه يحاربه ويقاوم أصحابه إلى خير يتبناه ويكرم أصحابه فيعتنق فكرة خلق القرآن وينادى بها .

غير أن الذى يتابع سير المأمون مع **الفتنة**، يرى أنه لم يكن أول أمره مقتنعا بها

---

(١) الذهبى عن مقدمة المسند ص ٨٩ .

كل الاقتناع . لأن صاحب الرأى ينادى به دون خوف . وبخاصة إذا كان صاحب هذا الرأى رجلاً فى مثل مكانة المأمون . أو بالحرى هو المأمون نفسه .

كان المأمون يقول : لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرت خلق القرآن . فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين . ومن يكون يزيد بن هارون حتى يُتَّقَى ؟ قال : ويحك . إنى لا أتقيه لأن له سلطانا أو سلطنة . ولكن أخافه إن أظهرته فيرد علىّ . فيختلف الناس وتكون فتنة . وأنا أكره الفتنة[٢] .

لقد كان المأمون فى غاية من الغفلة وهو يدلى بهذا القول . فقد كان يزيد بن هارون صاحب سلطان وسلطنة . ولكن المأمون بقصر نظره لم يدرك ذلك . لقد كان يزيد سلطانا على قلوب الناس وأفئدتهم . وسلطنته هى العلم والتقى . وما يصحب العلم والتقى من شجاعة وحجة وبذل ودفاع عن العقيدة . ولقد مرت بنا القصة كاملة ونحن نعرّف بيزيد باعتباره أحد شيوخ الإمام أحمد . وكيف أرسل المأمون إليه رسولا فى واسط . فأبلغ يزيد رسول المأمون أن القائل بخلق القرآن كافر . ولم يجرؤ المأمون أن يردّ عليه وكل الذى فعله أنه انتظر حتى مات يزيد سنة ٢٠٦ فبدأ يجهر بفكرته بين الناس ويدعو إليها بالبطش والإرهاب . وسرعان ما صارت جزءا من كيانه تجرى فى فكره مجرى الدماء فى العروق .

كان المأمون أسيرا للمعتزلة حسبما ذكرنا . يقربهم إليه ويأتمر بأمرهم . وكان المعتزلة من قصر النظر بحيث تخلوا عن سلاحهم الأصيل القائم على المناظرة والحجاج والإقناع إلى سلاح السيف والسوط والسجن والإرهاب . لقد أصبحوا حكاما إرهابيين فى عهد المأمون . وكان المأمون إذا دخل عليه أبو هشام الفوطى أحد رءوسهم همّ بالقيام له أو كاد . ولم يكن يفعل ذلك مع رجل آخر . وكان المأمون تلميذا للهذيل بن العلاف يجلس إليه ويقربه منه . ولقد بلغ إعجابه به إلى المدى الذى جعله يقول فيه : أطل أبو الهذيل على الكلام كإطلال الغمام على الأنام .

---

(٢) تاريخ بغداد ٣٤٢/١٤ .

إلى هذا المدى صار المأمون أسيرا للمعتزلة بعامة . ولأبى الهذيل العلاف بخاصة . ثم زاد الطين بلة أن اختار من بينهم وزيرا متعصبا . مروءته قليلة . وشره كثير هو أحمد بن أبى دؤاد . فكان الجلاد الذى يزيد الفتنة اشتعالا . كلما انطفأت وضع لها من الوقود ما يؤجج نارها بعد موت المأمون .

إنه على الرغم من هذه الجحافل من المعتزلة التى كانت تحيط بالمأمون فلم يجرؤ هو أو واحد منهم على بث فتنة خلق القرآن إلا بعد موت يزيد بن هارون بست سنوات أى سنة ٢١٢هـ حيث أعلن خلق القرآن . وظل يجعل من هذه المقولة شغله الشاغل حتى مات فى طرسوس سنة ٢١٨هـ .

لم تشغل فتنة خلق القرآن المأمون فى حياته وحسب بل شغلته وهو يحتضر على فراش الموت . وجعلها جزءا من وصيته . كما أوصى بالإبقاء على مؤججى شعلتها أن يظلوا فى مناصبهم وفى مقدمتهم إسحاق بن إبراهيم وأحمد بن أبى دؤاد .

يقول المأمون فى مستهل وصيته وهو على فراش الموت على مقربة من طرسوس على مشهد من أخيه المعتصم والقواد والفقهاء : « هذا ما أشهد عليه عبد الله بن هارون أمير المؤمنين بحضرة من حضره . أشهدهم جميعا على نفسه أنه يشهد ومن حضره أن الله عز وجل وحده لا شريك له فى ملكه ولا مدبر لأمره غيره . وأنه خالق وما سواه مخلوق . ولا يخلو القرآن أن يكون شيئا له مثل . ولا شىء مثله تبارك وتعالى . وأن الموت حق والبعث حق والحساب حق . . .[٣] » .

هكذا نجد المأمون غالياً فى فكرة خلق القرآن إلى المدى الذى يجعلها جزءا من وصيته . ولم يكتف المأمون بذلك بل يوصى أخاه المعتصم قائلا : « يا أبا إسحاق ادن منى واتعظ بما ترى . وخذ بسيرة أخيك فى القرآن . واعمل فى الخلافة إذا طوّقكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه[٤] » .

ولكى تظل الفتنة مشتعلة الأوار فإن المأمون يوصى أخاه المعتصم بالإبقاء على إسحاق بن إبراهيم وأحمد بن أبى دؤاد . وأولهما حارس للفتنة . وثانيهما مفجرها

(٣) تاريخ الطبرى القسم الثالث ص ١١٣٦ .

(٤) المصدر ص ١١٣٧ .

والقائم على إمدادها بالوقود . يقول المأمون فى هذا الجزء من الوصية : « . . . وإسحاق بن إبراهيم فأشركه فى ذلك فإنه أهل له . وأهل بيتك فقد علمت أن لا بقية فيهم . وإن كان بعضهم يظهر الصيانة لنفسه عبد الوهاب . عليك به من بين أهلك فقدمه عليهم وصيّر أمرهم إليه . وأبو عبد الله بن أبى دؤاد فلا يفارقك . وأشركه فى المشورة فى كل أمرك فإنه موضع لذلك منك(٥)».

إن وصية المأمون لو لم تشتمل على هذه السقطات لكانت قطعة من الأدب الرفيع . والفكر الوضىء . والوعظ الرشيد . والسياسة الحصيفة . ولكن الرجل لفرط عصبيته لقضية خلق القرآن جعل وصيته كالثوب الأبيض النقى الملطخ ببعض اللطع السوداء .

— ٢ —

كتب المأمون فى الفتنة :

كان ذلك سنة ٢١٨هـ والمأمون فى الرقة مصيفه ومصيف أبيه الرشيد ، وكان فى طريقه إلى حدود بلاد الروم شمالا . فكتب إلى عامله على بغداد وصاحب شرطتها إسحاق بن إبراهيم الذى مر ذكره أن يمتحن القضاة والمحدّثين فى خلق القرآن وأمر بأن يُشخص جماعة منهم إلى الرقة ثم إلى طرسوس .

لقد كتب المأمون من الرقة ومن طرسوس عدة كتب إلى صاحب شرطته ببغداد إسحاق بن إبراهيم . وكلها لا تتحدث إلا عن العلماء والفقهاء وامتحانهم فى خلق القرآن . وقد استعمل الخليفة العباسى فى كل رسالة بعث بها إلى نائبه ببغداد ألوانا من القذف غير الكريم . وألفاظا من السب الرخيص لعلماء المسلمين . مما لا يليق بإنسان راق أن يفعله فضلا عن خليفة للمسلمين افترض فيه العلم والعدل والثقافة وسعة الصدر وسمو الأخلاق . هى رسائل كثيرة كريهة يبعث بها من منتجعه فى الرقة أو مغزاه فى طرسوس تحمل أوامر أو توجيهات أو سبابا

---

(٥) المصدر ص ١١٣٩ .

أو ردودا على رسائل عامله ، وهانحن نقدم الكتب الثلاثة المتتالية التى كتبها المأمون إلى عامله إسحاق بن إبراهيم فى بغداد الواحد بعد الآخر ، وهى جميعا تفصح عن طبيعتها ، وتبين عن مقاصدها ، دون ما حاجة إلى تعليق أو بيان أو إيضاح .

الكتاب الأول(٦) :

أما بعد ، فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد فى إقامة دين الله الذى استحفظهم ، ومواريث النبوة التى أورثهم ، وأثر العلم الذى استودعهم ، والعمل بالحق فى رعيتهم ، والتشمير لطاعة الله فيهم ، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته ، والإقساط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته ؛ وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم ، والسواد الأكبر من حشو الرعية ، وسفلة العامة ممن لانظر له ولا روية ، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، والاستضاءة بنور العلم وبرهانه فى جميع الأقطار والآفاق ، أهل جهالة وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده ، والإيمان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه ، وواجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ونقص عقولهم ، وجفائهم عن التفكر والتذكر ، وذلك أنهم سَاوَوْا بين الله تبارك وتعالى ، وبين ما أنزل من القرآن ، فاطبقوا مجتمعين واتفقوا غير متعاجمين على أنه قديم أول ، لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه ، وقد قال الله عز وجل فى كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاء ، وللمؤمنين رحمة وهدى :

« إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً » ، فكل ما جعله الله ، فقد خلقه ، وقال سبحانه : « الْحَمْدُ للهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّور » ، وقال عز وجل : « كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ » فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها ، وتلا به متقدمها ، وقال تعالى : « الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » .

---

(٦) الطبرى : القسم الثالث ص ١١١٢ - ١١١٦ .

وكل محكم مفصل دخله محكم مفصل ، والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه .

ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السُّنَّة ، وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم ، مكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين ، والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغروا به الجهال ، حتى مال أهل قوم من أهل السمت الكاذب ، والتخشع لغير الله . والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ومواطأتهم على سيء آرائهم ، تزينا بذلك عندهم ، وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا دين الله وليجة إلى ضلالتهم . فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ، ونفذت أحكام الكتاب بهم ، على دغل دينهم ونغل أديمهم ، وفساد دنياتهم ويقينهم ، وكان ذلك غايتهم التى إليها جروا . وإياها طلبوا فى متابعتهم ، والكذب على مولاهم . وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه ، أولئك الذين أصمهم الله .

« وأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ، أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » .

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورؤس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد حظا ، والمخسوسون من الإيمان نصيبا ، وأوعية الجهالة ، وأعلام الكذب ، لسان إبليس الناطق فى أوليائه ، والمائل عن أهوائه من أهل دين الله ، وأحق من يتهم فى صدقه ، وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، وإلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد ، ومن عمى عن رشده وحظه من الإيمان به وتوحيده كان عما سوى ذلك من عمله والقصد فى شهادته أعمى وأضل سبيلا ، ولعمر أمير المؤمنين أن أحجى الناس بالكذب فى قوله ، وتخرص الباطل فى شهادته ، من كذب على الله ووحيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وإن أولاهم برد شهادته فى حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه ، وبهت حق الله بباطله . فاجمع من بحضرتك من القضاة

واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك . فابدأ بامتحانهم فيم فيما يقولون .
وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين
غير مستعين فى عمله ولا واثق فيما قلده واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق
بدينه . وخلوص توحيده ويقينه . فإذا أقروا بذلك ، ووافقوا أمير المؤمنين فيه .
وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فرهم بنصّ من يحضرهم من الشهود على
الناس ومسألتهم عن علمهم فى القرآن ، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق
محدث . ولم يره ، والامتناع من توقيعها عنده ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما
يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم . والأمر لهم بمثل ذلك . ثم أشرف
عليهم . وتفقد آثارهم . حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر فى
الدين ، والإخلاص للتوحيد ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن
شاء الله .

كتب فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ

وكتب المأمون إلى اسحق بن ابراهيم فى إشخاص سبعة نفر ، منهم محمد بن
سعد الواقدى وأبو مسلم مستملى يزيد بن هارون ويحيى بن معين وأبو خيثمة
زهير بن حرب وإسماعيل بن داوود وإسماعيل بن أبى مسعود وأحمد بن
الدورقى ، فأشخصوا إليه ، فامتحنهم . وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعاً
أن القرآن مخلوق ، فأشخصهم إلى مدينة السلام وأحصرهم إسحاق بن إبراهيم
داره فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ، فأقروا بمثل
ما أجابوا به المأمون ، فخلّى سبيلهم ، وكان ما فعل إسحاق بن إبراهيم من
ذلك بأمر المأمون .

الكتـــاب الثـــانى :

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم(٧) :

أما بعـــد ، فإن من حق الله على خلفائه فى أرضه وأمنائه على عباده الذين
ارتضاهم لإقامة دينه ، وحمّلهم رعاية خلقه ، وإمضاء حكمه وسننه ، والائتام

---

(٧) الطبرى : القسم الثالث ص ١١١٧ — ١١٢١

بعدله فى بريته أن يجهدوا لله أنفسهم ، ، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلوا عليه تبارك وتعالى بفضل العلم الذى أودعهم ، والمعرفة التى جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ، ويقفوهم على حدود إيمانهم ، وسبيل فوزهم وعصمتهم ، ويكشفوا لهم عن مغطيات أمورهم ، ومشتبهاتها عليهم ، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبينة على كافتهم ، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم ، إذ كان جامعاً لفنون مصالحهم ، ومنتظماً لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ، ويتذكروا أن الله مرصد من مساءلتهم عما حملوه وبما أسلفوا وقدموا عنده ، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحـــده ، وحسبه الله ، وكفى به . ومما بينه أمير المؤمنين برؤيته ، وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره ، وجليل ما يرجع فى الدين وكفــه وضرره ما ينــال المسلمون بينهم من القول فى القرآن الذى جعله الله إماماً لهم ، وأثراً من رسول الله وصفيه محمـــد ﷺ باقياً لهم ، واشتباهه على كثير منهم ، حتى حسن عندهم وتزين فى عقولهم ألا يكون مخلوقاً ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله ، والذى بان به من خلقه ، وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأولويته التى لا يبلغ أولاها ، ولا يدرك مداها ، وكان كل شىء خلقاً من خلقه ، وحدثاً هو المحدث له ، وإن كان القرآن ناطقاً به ، ودالاً عليه ، وقاطعاً للاختلاف فيه ، وضاهوا به قول النصارى فى ادعائهم فى عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمة الله ، والله عز وجـــل يقول :

« إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا » ، وتأويل ذلك : « إنا خلقناه » كما قال تعالى :« وجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » وقال تعالى : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً » وقال تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التى ذكرها فى شية الصنعة ، وأخبر أنه جاعله وحده ، فقال تعالى : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » ، فدل ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ،

ولا يحاط إلا بمخلوق ، وقال تعالى لنبيه ﷺ : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » وقال سبحانه : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ » وقال سبحانه : « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » واخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا : « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » ثم كذبهم على لسان رسوله: فقال لرسوله ﷺ « قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا » فسمى الله تعالى القرآن ذكرا ، وإيمانا ، ونورا ، وهدى ، ومباركا عربيا ، وقصصا ، قال تعالى : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ » وقال جل من قائل « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ » وقال سبحانه : « قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » وقال جل وعلا : « لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ » .

فجعل له أولا وآخرا ، ودل عليه أنه محدود مخلوق ، وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم فى القرآن الثلم فى دينهم ، والجرح فى أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد فى قلوبهم ، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التى هى لله وحده ، وشبهوه والأشباه أولى بخلقه ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال هذه المقالة حظا فى الدين ، ولا نصيبا من الإيمان اليقين ، ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة فى أمانة ، ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صدقاً فى قول ولا حكاية ، ولا تولية لشىء من أمر الرعية ، وإن ظهر قصد بعضهم ، وعرف بالسداد مسدد فيهم ، فإن الفروع مردودة إلى أصولها ، ومحمولة فى الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر دينه الذى أمره الله به من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلا .

فاقرأ على جعفر بن عيسى . وعبد الرحمن بن إسحاق القاضى كتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك . وأنصصهما من علمهما فى القرآن . وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده . وأنه لا توحيد لمن لم يقرّ بأن القرآن مخلوق . فإن قالا بقول أمير المؤمنين فى ذلك فتقدم إليهما فى امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق . ونصهم عن قولهم فى القرآن . فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أبطلا شهادته ، ولم يقطعا حكما بقوله . وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد فى أمره . وافعل ذلك بمن فى سائر عملك من القضاة . وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة فى بصيرته . ويمنع المرتاب من إغفاله دينه . واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك إن شاء الله .

إسحاق يمتحن العلماء والقضاة :

استجاب إسحاق وأحضر للامتحان جماعة من الفقهاء والقضاة والمحدثين فأحضروا أبا حسان الزيادى . وبشر بن الوليد الكندى . وعلى بن أبى مقاتل والفضل بن غانم، والذيال بن الهيثم، وسجادة، والقواريري، وأحمد بن حنبل وقتيبة، وسعدويه الواسطى. وعلى بن الجعد، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وابن الهرش . وابن علية الأكبر ، ويحيى بن عبد الرحمن العمرى . وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب كان قاضى الرقة ، وأبا نصر التّمّار . وأبا مَعْمَر القَطِيعى. ومحمد بن حاتم بن ميمون . ومحمد بن نوح ، وابن الفرُّخَان ، وجماعة منهم النضر بن شميل . وابن على بن عاصم . وأبو العوام البزاز ، وابن شجاع . وعبد الرحمن بن إسحاق . فأدخلوا جميعا على إسحاق .

وابتدأ الامتحان بقراءة كتاب المأمون هذا عليهم مرتين حتى فهموه . ثم أخذ فى إلقاء الأسئلة .

قال لبشر بن الوليد : ماتقول فى القرآن ؟ فقال قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة . قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ، فقال : أقول القرآن كلام الله ، قال لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو؟ قال الله خالق كل

شيء ، قال القرآن شيء ؟ قال هو شيء . قال فمخلوق ؟ قال ليس بخالق . قال ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو؟ قال ما أحسن غير ما قلت لك ؛ وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه ؛ وليس عندى غير ما قلت لك .

فأخذ إسحاق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووقفه عليها ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، أحد فرد ، لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ولا يشبهه شيء من خلقه فى معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه ، قال : نعم . وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب : اكتب ما قال .

ثم قال لعلى بن أبى مقاتل ما تقول ياعلى ؟ قال سمعت كلامى لأمير المؤمنين غير مرة ، وما عندى غير ما سمع ، فامتحنه بالرقعة ، فأقر بما فيها ، ثم قال له : القرآن مخلوق ؟ قال : القرآن كلام الله . قال : لم أسألك عن هذا قال : هو كلام الله ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء ، سمعنا وأطعنا . فقال للكاتب : اكتب مقالته ، ثم قال للذيّال نحوا من مقالته لعلى بن أبى مقاتل ، فقال له مثل ذلك .

ثم قال لأبى حسان الزيادى ما عندك ؟ قال:سل عما شئت ، فقرأ عليه الرقعة ووقفه عليها ، فأقر بما فيها ، ثم قال:من لم يقل هذا القول فهو كافر فقال : القرآن مخلوق هو؟ قال : القرآن كلام الله ، والله خالق كل شيء وما دون الله مخلوق . وأمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم مالم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا فصار يقيم حجنا وصلاتنا ، وتؤدى إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا ائتمرنا ، وإن نهانا انتهينا ، وإن دعانا أجبنا ، قال القرآن مخلوق هو؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال : إن هذه مقالة أمير المؤمنين ، قال قد تكون مقالة أمير المؤمنين ، ولا يأمر بها الناس ، ولا يدعوهم إليها ، وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول ، قلت ، ما أمرتنى به ، فإنك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتنى عنه من شيء ، فإن أبلغتنى عنه بشيء صرت إليه ، قال : ما أمرنى أن أبلغك شيئا ، قال على بن أبى مقاتل ، قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فى الفرائض والمواريث ، ولم يحملوا الناس عليها . قال له أبو حسان ما عندى إلا السمع والطاعة ، فمرنى آتمر ، قال : ما أمرنى أن آمرك ، وإنما أمرنى أن أمتحنك .

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل ، فقال ما تقول فى القرآن ؟ قال هو كلام الله . قال : أمخلوق هو؟ قال : هو كلام الله ، لا أزيد عليها ، فامتحنه بما فى الرقعة ؛ فلما أتى إلى «لا يشبهه شيء فى خلقه فى معنى من المعانى ، ولا وجه من الوجوه»، قال: أقول ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر ، فقال أصلحك الله : إنه يقول سميع من أذن ، بصير من عين . فقال إسحاق لأحمد بن حنبل: ما معنى قوله سميع بصير ؟ قال: هو كما وصف نفسه . قال: فما معناه ؟ قال: لا أدرى ، هو كما يصف نفسه .

ثم دعا بهم رجلا رجلا ، كلهم يقول القرآن . كلام الله . إلا هؤلاء النفر قتيبة، وعبد الله بن محمد بن الحسن، وابن علية الأكبر، وابن البكاء، وعبد المنعم بن إدريس ابن بنت وهب بن منبه . والمظفر بن مُرَجًّا . ورجلا ضريرا ليس من أهل الفقه ولا يعرف بشئ منه إلا أنه دس فى ذلك الموضع . ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضى الرقة ، وابن الأحمر ، فأما ابن البكاء الأكبر فإنه قال : القرآن مجعول ، لقول الله تعالى .

« **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**»، **والقرآن محدث ، لقوله تعالى « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ** » .

قال له إسحاق : فالمجعول مخلوق ؟ قال نعم . قال : فالقرآن مخلوق ؟ قال : لا أقول مخلوق ، ولكنه مجعول وكتب مقالته .

فلما فرغ من امتحان القوم ، وكتب مقالاتهم اعترض ابن البكاء الأصغر فقال : أصلحك الله إن هذين القاضيين أئمة فلو أمرتهما . فأعادا الكلام .

قال له إسحاق: هما من يقوم بحجة أمير المؤمنين ، قال: فلو أمرتهما أن يسمعانا مقالتهما لتحكى ذلك عنهما ، قال له إسحاق: إن شهدت عندهما بشهادة فستعلم مقالتهما ، إن شاء الله .

فكتب مقالة القوم رجلا رجلا ، ووجهت إلى المأمون فمكث القوم تسعة أيام ثم دعا بهم وقد ورد كتاب المأمون جواب كتاب إسحاق بن إبراهيم فى أمرهم وها هو ذا :

الكتاب الثالث :

« بسم الله الرحمن الرحيم » أما بعد : فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك جواب كتابه . فيما ذهب إليه متصنعة أهل القبلة ، وملتمسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة من القول فى القرآن ، وأمرك به أمير المؤمنين من امتحانهم وتكشيف أحوالهم .وإحلالهم محالهم .

تذكر إحضارك جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن إسحاق عند ورود كتاب أمير المؤمنين مع من أحضرت ممن كان ينسب إلى الفقه ، ويعرف بالجلوس للحديث وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام ، وقراءتك عليهم جميعا لكتاب أمير المؤمنين . ومساءلتك إياهم اعتقادهم فى القرآن ، والدلالة لهم على حظهم ؛ وإطباقهم على نفى التشبيه ، واختلافهم فى القرآن ، وأمرك من لم يقل منهم أنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى فى السر والعلانية ، وتقدمك إلى السندى وعباس مولى أمير المؤمنين بما تقدمت به فيهم إلى القاضيين بمثل ما مثّل لك أمير المؤمنين من امتحان من يحضر مجالسها من الشهود ، وبث الكتب إلى القضاة فى النواحى من عملك بالقدوم عليك لتحملهم وتمتحنهم على ما حدّه أمير المؤمنين ، وتثبيتك فى آخر الكتاب أسماء من حضر ومقالاتهم ، وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت ، وأمير المؤمنين يحمد الله كثيرا ، كما هو أهله ، ويسأله أن يصلى على عبده ، ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ويرغب إلى الله فى التوفيق لطاعته ، وحسن المعونة على صالح نيته برحمته .

وقد تدبر أمير المؤمنين على ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن ، وما رجع إليه فيه كل امرئ منهم ، وما شرحت من مقالتهم .

« فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد فى نفى التشبيه ، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق وادعى من تركه الكلام فى ذلك واستعهاده أمير المؤمنين ، فقد كذب بشر فى ذلك وكفر ، وقال الزور والمنكر ، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص ، والقول بأن القرآن مخلوق ، فادع به إليك ، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك . وانصصه عن قوله فى القرآن واستتبه

منه . فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته . إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح . والشرك المحض عند أمير المؤمنين . فإن تاب منها فأشهر أمره . وإن أصرّ على شركه . ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده . فاضرب عنقه . وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه . إن شاء الله . وكذلك إبراهيم بن المهدى . فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا . فإنه كان يقول بقوله . وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالغ . فإن قال إن القرآن مخلوق . فأشهر أمره . واكشفه . وإلا فاضرب عنقه . وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه . إن شاء الله .

وأما على بن أبى مقاتل فقل له : ألست القائل لأمير المؤمنين : إنك تحلل وتحرم والمتكلم له بمثل ما كلمته به . مما لم يذهب عنه ذكره .

وأما الذيال بن الهيثم ، فأعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرقه فى الأنبار ، وفيما يستولى عليه من أمر عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبى العباس ما يشغله ، وأنه لو كان مقتفيا آثار سلفه ، وسالكا مناهجهم ، ومحتذيا سبيلهم ، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه . وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العوام ، وقوله إنه لا يحسن الجواب فى القرآن ، فأعلمه أنه صبى فى عقله ، لا فى سنه ، جاهل ، وأنه إن كان لا يحسن الجواب فى القرآن فسيحسنه إذا أخذه التأديب . ثم إن لم يفعل . كان السيف من وراء ذلك ، إن شاء الله .

وأما أحمد بن حنبل : وما تكتب عنه . فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة . وسبيله فيها . واستدل على جهله وآفته بها .

وأما الفضل بن غانم فأعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال فى أقل من سنة ، وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله فى ذلك . فإنه من كان شأنه شأنه . وكانت رغبته فى الدينار والدرهم رغبته . فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعا فيهما ، وإيثارا لعاجل نفعهما ، وأنه مع ذلك القائل لعلى بن هشام ما قال . والمخالف له فيما خالفه فيه ، فما الذى حال به عن ذلك . ونقله إلى غيره ؟ وأما الزيادى . فأعلمه أنه كان منتحلا لأول دعى كان فى الإسلام . خولف فيه حكم رسول الله ﷺ ، وكان جديرا أن يسلك

مسلكه ، فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد أو يكون مولّى لأحد من الناس ، وذكر أنه إنما نسب إلى زياد لأمر من الأمور .

وأما المعروف بأبي نصر التمّار ، فإن أمير المؤمنين شبّه خساسة عقله بخساسة متجره . وأما الفضل بن الفرّخان ، فأعلمه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذ الودائع التى أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره ، تربصا بمن استودعه ، وطمعا فى الاستكثار لما صارفى يده ، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لاجزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا وائتمانك إياه ، وهو معتقد للشرك ، منسلخ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبى معمر ، فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا ، عن الوقوف على التوحيد، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم فى الله ومجاهدتهم ، إلا لإربائهم ، وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم ، لاستحل ذلك ، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا ، وصاروا للنصارى مثلا ؟

وأما أحمد بن شجاع فأعلمه أنك صاحبه بالأمس ، والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذى كان استحله من مال على بن هشام، وأنه ممن الدينار والدرهم دينه .

وأما سعدويه الواسطى فقل له : قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث والتزين به والحرص على طلب الرياسة فيه . أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها : متى يمتحن ، فيجلس للحديث . وأما المعروف بسجادة وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه ، القول بأن القرآن مخلوق . فأعلمه أنه فى شغله بأعداد النوى، وحكه لإصلاح سجادته ، وبالودائع التى دفعها إليه على بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وألهاه ، ثم سله عما كان يوسف بن أبى يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه . إن كان شاهدهما وجالسهما .

وأما القواريرى ففيما تكشف من أحواله ، وقبوله الرشا والمصانفات ما أبان عن مذهبه ، وسوء طريقته ، وسخافة عقله ودينه ، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أن

يتولى جعفر بن عيسى الحسنى مسائلة ، فتقدم إلى جعفر بن عيسى فى رفضه ، وترك الثقة به ، والاستنامة إليه .

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمرى . فإن كان من ولد عمر بن الخطاب فجوابه معروف . وأما محمد بن الحسن بن على بن عاصم فإنه لوكان مقتديا بمن مضى من سلفه لم ينتحل النحلة التى حكيت عنه ، وإنه بعد صبى يحتاج إلى تعلم وقد كان أمير المؤمنين وجه إليه المعروف بأبى مُسْهِر ، بعد أن نصه أمير المؤمنين عن محنته في القرآن فجمجم عنها ولجلج فيها حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف فأقر ذميما، فانصصه عن إقراره، فإن كان مقيماً عليه فاشهر أمره في ذلك وأظهره إن شاء الله . ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمير المؤمنين فى كتابك ، وذكره أمير المؤمنين لك ، أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا ولم يقل إن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد ، وإبراهيم بن المهدى فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهم فى طريقهم ، حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين ويسلمهم إلى من يؤمر بتسليمهم إليه ، لينصهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله .

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا فى خريطة بندارية ، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلا به ؛ تقربًا إلى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ورجاء ما اعتمد ، وإدراك ما أمل . من جزيل ثواب الله عليه فأنفذ لما أتاك من أمير المؤمنين ، وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط ، لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله. وكتب سنة ٢١٨ هـ . »

هكذا شغل المأمون نفسه بقضية خلق القرآن ، وكأن مشاغل الخلافة قد انتهت ، ومشكلات الملك قد تقلصت ، ولم يبق أمامه غير مشكلة خلق القرآن ، فجعل كل همه فيها من على القرب والبعد ، يسفه العلماء ، ويكفر المحدثين ، ويتهم الأبرياء ، ثم هو بعد ذلك كله يهدد علماء الأمة بالسيف ، ويطلب إنفاذهم إليه حتى ينصاعوا لقوله أو تضرب رقابهم .

— ٣ —

أحمد يواجه المحنة :

كان لابد للرأيين المتناقضين أن يواجه أحدهما الآخر بعد أن عجز نائب المأمون فى بغداد عن أن يقنع ابن حنبل أويرغمه وبعض صحابه على القول بخلق القرآن . أو بالأحرى كان على الخير والشر أن يتصارعا وجها لوجه ليصرع واحد منهما الآخر . والعهد بنا أنه ما صرع شر خيرا قط وإنما الخير دائما هو صاحب الظفر وإن طال العهد .

أربعة شداد من العلماء رفضوا أن يذعنوا لقول المأمون بخلق القرآن بعد أن استسلم كثير من العلماء المرموقين من أمثال بشر بن الوليد الكندى وعلى بن أبى مقاتل . وعلى بن الجعد . ويحيى بن عبد الرحمن العمرى . وأبو نصر التمار وغيرهم .

أما الأربعة فهم أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح . وعبيد الله بن عمر القواريرى . والحسن بن حمادة المشهور بسجّادة . وشرع إسحاق بن إبراهيم فى إرسال الأربعة العلماء مقيدين إلى المأمون فى أقصى شمال المملكة الإسلامية . ولكن اثنين منهم مالبثا أن انهارت قواهما فآثرا السلامة ، ولاشك فى أنهما تلفعا بالتقية . فأقرا لإسحاق بما أراد وأراد المأمون .

بقى على صموده كل من أحمد بن حنبل والشاب محمد بن نوح . اللذين أرسلا إلى بلاد الروم ليواجها المأمون . ولكن شاء الله أن يموت المأمون وهما فى أدنه مقيدين بالسلاسل فى الطريق إليه . فيعادا مرة ثانية إلى بغداد ليمثلا أمام المعتصم الخليفة الجديد . وتشاء المقادير أن يمرض الشاب محمد بن نوح فى الطريق ويسلم الروح ورجلاه مقيدتان فى الحديد فى بلدة عانة بشمال العراق ، فيقوم أحمد بغسله والصلاة عليه ، ويدفن الشاب المؤمن الباسل فى الطريق . ويكمل أحمد الطريق فى قيده حتى يصل إلى بغدد . وتبدأ المواجهة بينه وبين المعتصم وما صاحب ذلك من حوار وضرب وجلد وتعذيب .

لقد رويت الحادثة فى أكثر من مصدر . ومن قبل الجهتين المتصارعتين . كما رويت من قبل جهة محايدة . ومن ثم فقد قررنا أن نقدم روايات أربعة للمحنة . الأولى لأبى الفضل صالح بن الإمام كما سمعها من أبيه وهى التى يقول عنها الحافظ أبو نعيم الأصبهانى إنها أصح الروايات . والثانية رواها أحد شاهدى المحنة وهو أحمد بن الفرج . وكان يلى إحدى وظائف الدولة . والثالثة رواها شاهد عيان آخر هو سليمان بن عبد الله السجزى . وهو متعاطف مع جانب أهل السنة . والرابعة رواها الجانب الآخر ونعنى بذلك جانب المعتزلة . وقد مثلهم الجاحظ فى هذا المقام . ومن ثم كانت روايته دفاعا عن الجريمة أكثر منها دفاعا عن القضية .

المحنة كما رواها صالح :

« حدثنا محمد بن جعفر وعلى بن أحمد قالا : ثنا محمد بن إسماعيل بن أحمد ثنا أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل قال سمعت أبى يقول[٨] : لما دخلنا على إسحاق بن إبراهيم قرئ علينا كتابه الذى كان صار إلى طرسوس فكان فيما قرئ علينا : ليس كمثله شىء . وهو خالق كل شىء . فقلت « وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » فقال بعض من حضر : سله ما أراد بقوله « وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » فقال ابى رحمه الله فقلت : كما قال الله تعالى . قال صالح : ثم امتحن القوم فوجه بمن امتنع إلى الحبس . فأجاب القوم جميعا غير أربعة: أبى، ومحمد بن نوح . وعبيد الله بن عمر القواريرى . والحسن بن حماد سجادة . ثم أجاب عبيد الله بن عمر والحسن بن حماد . وبقى أبى ومحمد بن نوح فى الحبس . فمكثنا أياما فى الحبس . ثم ورد الكتاب من طرسوس بحملنا . فحمل أبى ومحمد بن نوح مقيدين زميلين . وأخرجا من بغداد فسرنا معهما إلى الأنبار . فسأل أبو بكر الأحول أبى فقال : يا أبا عبد الله إن عرضت على السيف تجيب ؟ فقال : لا ! قال أبى : فانطلق بنا حتى نزلنا الرحبة . فلما رحلنا منها — وذلك فى جوف الليل — وخرجنا من الرحبة عرض لنا رجل فقال أيكم أحمد بن

---

(٨) حلية الأولياء ١٩٦/٩ وما بعدها .

حنبل ؟ فقيل له : هذا ، فسلم على أبى ثم قال له : ياهذا ماعليك أن تقتل هاهنا وتدخل الجنة هاهنا . ثم سلم وانصرف . فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هذا رجل من العرب من ربيعة يعمل الشعر فى البادية يقال له جابر بن عامر . فلما صرنا إلى أدنه ورحلنا منها – وذلك فى جوف الليل – فتح لنا بابها فلقينا رجل ونحن خارجون من الباب وهو داخل فقال : البشرى . قد مات الرجل . فقال أبى : وكنت أدعو الله أن لا أراه .

قال أبو الفضل صالح : فصار أبى ومحمد بن نوح إلى طرسوس وجاء – يعنى جثمان المأمون – من البذندون ورفدوا فى أقيادهما إلى الرقة فى سفينة مع قوم محتبسين . فلما صارا بعانات[٩] توفى محمد بن نوح رحمه الله فتقدم أبى فصلى عليه ، ثم صار إلى بغداد وهو مقيد . فمكث بالياسرية أياما ، ثم صيّر إلى الحبس فى دار اكتريت له عند دار عمارة(*) ، ثم نقل بعد ذلك إلى حبس العامة فى درب الموصلية ، فمكث فى السجن منذ أخذ ، وحُمل إلى أن ضرب وخلى عنه ثمانية وعشرين شهرا ، قال أبى : فكنت أصلى بهم وأنا مقيد وكنت أرى بوران يحمل له فى زورق ماء بارد فيذهب به إلى السجن .

حدثنا محمد بن جعفر وعلى بن أحمد والحسين بن محمد قالوا : ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل قال : قال أبى : لما كان فى شهر رمضان لليلة سبع عشرة خلت منه حولت من السجن إلى دار إسحاق بن إبراهيم وأنا مقيد بقيد واحد يوجه إلى فى كل يوم رجلان سماهما أبى ، قال أبو الفضل : وهما أحمد بن رياح ، وأبوشعيب الحجاج ، يكلمانى ويناظرانى ، فإذا أرادا الانصراف دعوا بقيد فقيدت به ، فمكثت على هذه الحال ثلاثة أيام ، فصارفى رجلى أربعة أقياد ، فقال لى أحدهما فى بعض الأيام فى كلام دار بيننا وسألته عن علم الله ، فقال : علم الله مخلوق . فقلت له : ياكافر كفرت . فقال لى الرسول الذى كان يحضر معهم من قبل إسحاق : هذا رسول أمير المؤمنين :

---

(٩) هى نفسها عانة بشمال العراق .

(*) فى رواية ابن كثير أن الإمام حبس فى اصطبل لمحمد بن إبراهيم أخى إسحاق بن إبراهيم .

فقلت له : إن هذا زعم أن علم الله مخلوق ، فنظر إليه كالمنكر عليه ما قال ثم انصرفا . قال أبى : وأسماء الله فى القرآن من علم الله ، فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن زعم أن أسماء الله مخلوقة فقد كفر . قال أبى رحمه الله : فلما كانت ليلة الرابعة بعد العشاء الآخرة وجه المعتصم بنا إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلى يأمره بحملى .

فأدخلت على إسحاق فقال لى : يا أحمد إنها والله نفسك ، إنه حلف أن لا يقتلك بالسيف ، وأن يضربك ضربا بعد ضرب ، وأن يلقيك فى موضع لاترى فيه الشمس ، أليس قد قال الله عز وجل .

« إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا » أفيكون مجعولا إلاَّ مخلوقًا ، ، قال أبى فقلت له : قد قال « فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأْكُولٍ » .

أفخلقهم ؟ فقال : اذهبوا به . قال أبى : فأنزلت إلى شاطئ دجلة فأحدرت إلى الموضع المعروف بباب البستان ومعى بغا الكبير ورسول من قبل إسحاق . قال : فقال بغا لمحمد المحاربى بالفارسية : ما تريدون من هذا الرجل ؟ قال : يريدون منه أن يقول القرآن مخلوق . فقال : ما أعرف شيئا من هذه الأقوال ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وقرابة أمير المؤمنين من رسول الله ﷺ . قال أبى فلما صرنا إلى الشط ، أخرجت من الزورق ، فجعلت أكاد أخرّ على وجهى حتّى انتهى بى إلى الدار ، فأدخلت ثم عرج بى إلى الحجرة ، فصيرت فى بيت منها ، وأغلق على الباب وأقعد عليه رجل ، وذلك فى جوف الليل وليس فى البيت سراج ، فاحتجت إلى الوضوء فمددت يدى اطلب شيئا ، فإذا أنا بإناء فيه ماء وطشت فتهيأت للصلاة وقمت أصلى .

فلما أصبحت جاءنى الرسول فأخذ بيدى فأدخلنى الدار وإذا هو جالس — يعنى المعتصم — وابن أبى دؤاد حاضر ، قد جمع أصحابه والدار غاصة بأهلها ؛ فلما دنوت سلمت فقال لى : ادنُه ، فلم يزل يدنينى حتّى قربت منه ، ثم قال لى : اجلس ، فجلست وقد أثقلتنى الأقياد ، فلما مكثت هنيهة قلت : تأذن فى الكلام ؟ فقال : تكلم . فقلت إلام دعا رسول الله ﷺ ؟ فقال : إلى شهادة أن

لا إله إلا الله . قال قلت أنا أشهد أن لا إله إلا الله . ثم قلت له : إن جدك ابن عباس يحكى أن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله ﷺ أمرهم بالإيمان بالله . قال :

« أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ ؟ قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهَ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ . وإِقَامُ الصلاَةِ وإِيْتَاءُ الزَّكَاةِ وَصوْمُ رَمَضَانَ وَأَنْ تُعْطُوا الْخُمْسَ مِنَ الْمغْنَمِ » .

قال أبو الفضل حدثناه أبى ثنا يحيى بن سعيد عن شعبة قال : حدثنى أبو حمزة قال : سمعت ابن عباس قال :

« إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أَمَرَهُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ » .

قال أبو الفضل قال أبى : فقال لى عند ذلك لولا أن وجدتك فى يد من كان قبلى ما تعرضت لك . ثم التفت إلى عبد الرحمن بن إسحاق فقال له : ياعبد الرحمن : ألم آمرك أن ترفع المحنة ؟ قال أبى : فقلت فى نفسى : الله أكبر . إن فى هذا فرجا للمسلمين قال ثم قال : ناظروه وكلموه . ثم قال : ياعبد الرحمن كلّمه . فقال لى عبد الرحمن ما تقول فى القرآن ؟ قال : قلت ما تقول فى علم الله . فسكت . قال أبى فجعل يكلمنى هذا وهذا فأرد على هذا وأكلم هذا . ثم أقول يا أمير المؤمنين أعطونى شيئا من كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله عليه الصلاة والسلام أقول به . أراه قال فيقول ابن أبى دؤاد : فأنت ما تقول إلا ما فى كتاب الله أو سنة رسوله . قال : فقلت تأولت تأويلا فأنت أعلم وما تأولت تحبس عليه وتقيد عليه : قال فقال ابن أبى دؤاد : هو والله يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع . وهؤلاء قضاتك والفقهاء فسلهم . فيقول : ما تقولون فيه ؟ فيقولون يا أمير المؤمنين هو ضال مضل مبتدع . قال : ولا يزالون يكلمونى . قال : وجعل صوتى يعلو أصواتهم . وقال إنسان منهم: قال الله تعالى :

« مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ » فيكون محدثا إلا مخلوقا ؟ قال فقلت له : قال الله تعالى : « صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ » .

فالقرآن هو الذكر والذكر هو القرآن ، وتلك ليس فيها ألف ولام قال : فجعل ابن سماعة لا يفهم ما أقول . قال : فجعل يقول لهم ما يقول ؟ فقالوا : إنه يقول كذا وكذا . قال فقال لى إنسان منهم حديث خباب : « تقرب إلى الله بما استطعت فإنك لن تتقرب إليه بشىء هو أحب إليه من كلامه » قال أبى : فقلت لهم ، نعم هكذا هو . فجعل ابن أبى دؤاد ينظر إليه ويلحظه متغيظا عليه . قال أبى وقال بعضهم أليس قال : « خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » قلت قد قال : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ »(*) فدمرت إلا ما أراد الله . قال فقال بعضهم : فما تقول وذكر حديث عمران بن حصين « إن الله كتب الذكر » فقال : إن الله خلق الذكر . فقلت هذا خطأ ، حدثناه غير واحد أن الله كتب الذكر . قال أبى : فكان إذا انقطع الرجل منهم اعترض ابن أبى داؤد فتكلم . فلما قارب الزوال قال لهم : قوموا . ثم حبس عبد الرحمن بن إسحاق فخلا بى وبعبد الرحمن ، فجعل يقول : أما تعرف صالحا الرشيدى كان مؤدبى ، وكان فى هذا الموضع جالسا وأشار إلى ناحية من الدار ، قال فتكلم وذكر القرآن فخالفنى ، فأمرت به فسحب ووطىء . ثم جعل يقول لى : ما أعرفك ألم تكن تأتينا ؟ فقال له عبد الرحمن : يا أمير المؤمنين أعرفه منذ ثلاثين سنة يرى طاعتك والحج والجهاد معك وهو ملازم لمنزله . قال ، فجعل يقول : والله إنه لفقيه وإنه لعالم ، ومايسوءنى أن يكون معى يرد على أهل الملك ، ولئن أجابنى إلى شىء له فيه أدنى فرج لأطلقنّ عنه بيدى ، ولأطأنّ عقبه ، ولأركبنّ إليه بجندى . قال ثم يلتفت إلىّ فيقول : ويحك يا أحمد ما تقول : قال فأقول يا أمير المؤمنين أعطوني شيئا من كتاب الله أوسنة رسول الله ﷺ . فلما طال بنا المجلس ضجر فقام ، فرددت إلى الموضع الذى كنت فيه ، ثم وجه إلى برجلين سمّاهما ، وهما صاحب الشافعى وغسان من أصحاب ابن أبى

(*) هى من سورة الأحقاف الآية ٢٥ من قوله تعالى : « تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين » .

دؤاد يناظراني . فيقيمان معي حتّى إذا حضر الإفطار وجه إلينا بمائدة عليها طعام ، فجعلا يأكلان . وجعلت أتعلل حتّى ترفع المائدة . وأقاما إلى غدو . فى خلال ذلك يجئ ابن أبى دؤاد فيقول لى : يا أحمد يقول لك أمير المؤمنين : ما تقول ؟ فأقول له : أعطوني شيئا من كتاب الله عز وجل أو سنة رسول الله ﷺ حتّى أقول به . فقال لى ابن أبى دؤاد : والله لقد كتب اسمك فى السبعة فمحوته ، ولقد ساءنى أخذهم إياك، وإنه والله ليس السيف . إنه ضرب بعد ضرب . ثم يقول لى : ما تقول ؟ فأرد عليه نحوًا مما رددت عليه . ثمّ يأتينى رسوله فيقول : أين أحمد بن عمار أجب الرجل الذى أنزلت فى حجرته . فيذهب ثم يعود فيقول : يقول لك أمير المؤمنين ماتقول ؟ فأرد عليه نحوًا مما رددت على ابن أبى دؤاد . فلا تزال رسله تأتى أحمد بن عمار وهو يختلف فيما بينى وبينه ويقول : يقول لك أمير المؤمنين أجبنى حتّى أجئ فأطلق عنك بيدى .

قال : فلما كان فى اليوم الثانى أدخلت عليه فقال : ناظروه وكلموه . قال : فجعلوا يتكلمون هذا من هاهنا وهذا من هاهنا فأرد على هذا وهذا ، فإذا جاؤا بشئ من الكلام مما ليس فى كتاب الله عز وجل ولا سنة رسول الله ﷺ ولا فيه خبر ولا أثر قلت : ما أدرى ما هذا . قال فيقولون ياأمير المؤمنين : إذا توجهت له الحجة علينا وثب . وإذا كلمناه بشئ يقول لا أدرى ما هذا . قال فيقول : ناظروه ، ثم يقول : ياأحمد إنى عليك شفيق . فقال رجل منهم أراك تذكر الحديث وتنتحله فقال له : ما تقول فى قول الله تعالى .

« يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ » .

فقال خص الله بها المؤمنين . قال فقلت له : ما تقول إن كان قاتلا أو عبداً أو يهوديًا أو نصرانيا ؟ فسكت . قال أبى : وإنما احتججت عليهم بهذا لأنهم كانوا يحتجون على بظاهر القرآن . ولقوله أراك تنتحل الحديث . وكان إذا انقطع الرجل منهم اعترض ابن أبى دؤاد فيقول : ياأمير المؤمنين والله لئن أجابك لهو أحبّ إليّ من مائة ألف دينار ومائة ألف دينار فيعدد ما شاء الله من ذلك . ثم أمرهم بعد ذلك بالقيام وخلابى وبعبد الرحمن ، فيدور بيننا كلام كثير وفى خلال

ذلك يقول ندعو أحمد بن دؤاد ؟ فأقول ذلك إليك . فيوجه إليه فيجئ فيتكلم . فلما طال بنا المجلس قام ورددت إلى الموضع الذى كنت فيه . وجاءنى الرجلان اللذان كانا عندى بالأمس فجعلا يتكلمان . فدار بيننا كلام كثير . فلما كان وقت الإفطار جيء بطعام على نحو مما أتى به فى أول ليلة فأفطروا . فتعللت وجعلت رسله تأتى أحمد بن عمار فيمضى إليه . فيأتينى برسالة على نحو مما كان فى أول ليلة . وجاء ابن أبى دؤاد فقال : إنه قد حلف أن يضربك ضربا وأن يحبسك فى موضع لا ترى فيه الشمس . فقلت له : فما أصنع ؟ حتى إذا كدت أن أصبح قلت لخليق أن يحدث فى هذا اليوم من أمرى شيء . وقد كنت أخرجت تكتى من سراويلى فشددت بها الأقياد أحملها بها إذا توجهت إليه . فقلت لبعض من كان معى الموكل بى أريد لى خيطا . فجاءنى بخيط فشددت به الأقياد . وأعدت التكة فى سراويلى ولبستها كراهية أن يحدث شئ من أمرى فأتعرى .

فلما كان فى اليوم الثالث أدخلت عليه والقوم حضور ، فجعلت أدخل من دار إلى دار وقوم معهم السيوف وقوم معهم السياط وغير ذلك من الزى والسلاح . وقد حشيت الدار بالجند ولم يكن فى اليومين الماضيين كبير أحد من هؤلاء حتى صرت إذا كان فى الوقت الذى كان يخلو بى فيه فجاءنى ثم اجتمعوا فشاورهم ، ثم نحاهم ودعانى فخلا بى وبعبد الرحمن فقال لى : ويحك ياأحمد . أنا والله عليك شفيق ، وإنى لأشفق عليك مثل شفقتى على هارون ابنى . فأجبنى . فقلت : ياأمير المؤمنين . أعطونى شيئا من كتاب الله عز وجل أو سنة رسول الله ﷺ . فلما ضجر وطال المجلس قال : عليك لعنة الله لقد طمعت فيك . خذوه واخلعوه واسحبوه . قال فأخذت فسحبت ، ثم خلعت . ثم قال : العقابين والسياط ، فجيء بعقابين والسياط . قال أبى : وقد كان صار إلىّ شعرتان من شعر النبى ﷺ فصررتهما فى كم قميص . فنظر إسحاق بن إبراهيم إلى الصرة فى كمّ قميصى فوجه إلىّ : ما هذا المصرور فى كمك ؟ فقلت شعر من شعر النبى ﷺ . فسعى بعض القوم إلى القميص ليحرقه فى وقت ما أقمت بين العقابين . فقال لهم : لا تحرقوه وانزعوه عنه . قال أبى : فظننت أنه بسبب الشعر الذى كان فيه . ثم صيرت بين العقابين وشدت يدى وجيء بكرسى فوضع له . وابن أبى دؤاد قائم

على رأسه والناس اجتمعوا وهم قيام ممن حضر . فقال لى إنسان ممن شدنى خذ : أىّ الخشبتين بيدك وشد عليها . فلم أفهم ما قال . قال فتخلّعت يدى لما شدت ولم أمسك الخشبتين . قال أبو الفضل – يعنى صالح بن الإمام أحمد – ولم يزل أبى رحمه الله يتوجع منها من الرسغ إلى أن توفى . ثم قال للجلادين تقدموا فنظر إلى السياط فقال : ائتوا بغيرها . ثم قال لهم : تقدموا فقال لأحدهم : أدْنِه أوجع قطع الله يدك . فتقدم فضربنى سوطين ثم تنحى . فلم يزل يدعو واحدا بعد واحد فيضربنى سوطين ويتنحى . ثم قام حتى جاءنى وهم محدقون به فقال : ويحك ياأحمد تقتل نفسك ؟ ويحك أجبنى حتى أطلق عنك بيدى . قال : فجعل بعضهم يقول على ويحك : إمامك على رأسك قائم . قال : وجعل يعجب وينخسنى بقائم سيفه ويقول : تريد أن تغلب هؤلاء كلهم ؟ وجعل إسحاق بن إبراهيم يقول : ويلك الخليفة على رأسك قائم . قال ثم يقول بعضهم ياأمير المؤمنين دمه فى عنقى . قال : ثم رجع فجلس على الكرسى ثم قال للجلاد : أدْنه شد – قطع الله يدك – ثم لم يزل يدعو بجلاد بعد جلاد فيضربنى سوطين ويتنحى . وهو يقول له : شد قطع الله يدك . ثم قال لى (المرة) الثانية فجعل يقول : ياأحمد أجبنى . وجعل عبد الرحمن بن إسحاق يقول لى : من صنع بنفسه من أصحابك فى هذا الأمر ما صنعت ؟ هذا يحيى بن معين وهذا أبو خيثمة وجعل يعدد علىّ من أجاب . وجعل هو يقول : ويحك أجبنى قال فجعلت أقول نحوا مما كنت أقول لهم . قال فرجع فجلس ثم جعل يقول للجلاد شد – قطع الله يدك – قال أبى : فذهب عقلى . وما عقلت إلا وأنا فى حجرة أطلق عنى الأقياد . فقال إنسان ممن حضر . إنّا كببناك على وجهك وطرحنا على ظهرك سارية ودسناك . قال أبى : فقلت ما شعرت بذلك . قال فجاؤنى بسويق فقالوا لى : اشرب وتقيأ . فقلت : لا أفطر . ثم جىء بى إلى دار إسحاق بن إبراهيم . قال أبى : فنودى بصلاة الظهر فصليا الظهر . قال ابن سماعة : صَلَّيْتَ والدمُ يسيل من ضربك ؟ فقلت : قد صلى عمر وجرحه يثعب دما فسكت .

ثم خلّى عنه ووجّه إليه برجل ممن يبصر الضرب والجراحات ليعالج فيها فنظر إليه فقال لنا : والله لقد رأيت من ضرب ألف سوط ما رأيت ضربا أشد من

هذا . لقد جرى عليه من خلفه ومن قدامه ، ثم أدخل ميلا(*) فى بعض تلك الجراحات . وقال : لم يثغب فجعل يأتيه ويعالجه . وقد كان أصاب وجهه غير ضربة . ثم مكث يعالجه ما شاء الله ثم قال : إن هاهنا شيئا أريد أن أقطعه . فجاء بحديدة فجعل يعلق اللحم ويقطعه بسكين معه وهو صابر لذلك يحمد الله فى ذلك فبراه منه . ولم يزل يتوجع من مواضع منه . وكان أثر الضرب بيّنا فى ظهره إلى أن توفى رحمه الله . قال أبو الفضل : سمعت أبى يقول : والله لقد أعطيت المجهود من نفسى . ولوددت أن أنجو من هذا الأمر كفافاً لا علّى ولا لى . قال أبو الفضل : فأخبرنى أحد الرجلين اللذين كانا معه وقد كان هذا الرجل – يعنى صاحب الشافعى – صاحب حديث قد سمع ونظر . ثم جاءنى بعد فقال لى ياابن أخى : رحمة الله على أبى عبد الله . والله ما رأيت أحدا يشبهه . قد جعلت أقول له فى وقت ما يوجه إلينا بالطعام : ياأبا عبد الله أنت صائم وأنت فى موضع مسغبة . ولقد عطش فقال لصاحب الشراب : ناولنى فناوله قدحا فيه ماء وثلج فأخذه فنظر إليه هنيهة ثم رده عليه . قال : فجعلت أعجب إليه من صبره على الجوع والعطش وما هو فيه من الهول. قال أبو الفضل : وكنت ألتمس وأحتال أن أوصل إليه طعاما أو رغيفا أو رغيفين فى هذه الأيام فلم أقدر على ذلك . وأخبرنى رجل حضره قال : تفقدته فى هذه الأيام وهم يناظرونه ويكلمونه فما لحن فى كلمة . وما ظننت أن أحدا يكون فى مثل شجاعته وشدة قلبه .

قال أبو الفضل : دخلت على أبى يوما فقلت له : بلغنى أن رجلا جاء إلى فضل الأنماطى فقال له : اجعلنى فى حلّ إذ لم أقم بنصرتك . فقال فضل : لا جعلت أحدًا فى حل . فتبسم أبى وسكت . فلما كان بعد أيام قال مررت بهذه الآية .

« فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ » .

فنظرت فى تفسيرها فإذا هو ما حدثنى به هاشم بن القاسم ثنا المبارك قال حدثنى من سمع الحسن يقول : إذا جثت الأمم بين يدى رب العالمين يوم القيامة

(*) الميل آلة يسبر بها الجرح ، وهى أيضا ما يجعل به الكحل فى العين .

نودوا : ليقم من أجره على الله ، فلا يقوم إلا من عفا فى الدنيا . قال أبى : فجعلت الميت فى حل من ضربه إياى ، ثم جعل يقول : وما على رجل أن لا يعذب الله بسببه أحدا .

رواية أحمد بن الفرج

قال أحمد بن الفرج[10] كنت أتولى شيئا من أعمال السلطان ، فبينا أنا ذات يوم قاعد فى مجلس إذا أنا بالناس قد أغلقوا أبواب دكاكينهم وأخذوا أسلحتهم ، فقلت : مالى أرى الناس قد استعدوا للفتنة ؟ فقالوا : إن أحمد بن حنبل يحمل ليمتحن فى القرآن . فلبست ثيابى وأتيت حاجب الخليفة وكان لى صادقا فقلت : أريد أن تدخلنى حتى أنظر كيف يناظر أحمد الخليفة ، فقال : أتطيب نفسك بذلك ؟ قلت : نعم ، فجمع جماعة وأشهدهم علىّ وتبرأ من إثمى ، ثم قال لى : امض ، فإذا كان يوم الدخول بعثت إليك . فلما أن كان اليوم الذى أدخل فيه أحمد على الخليفة أتانى رسول فقال : البس ثيابك للدخول ، فلبست قباء فوق قفطان ، وتمنطقت بمنطقة وتقلدت سيفا وأتيت الحاجب ، فأخذ بيدى وأدخلنى إلى الفوج الأول مما يلى أمير المؤمنين ، وإذا أنا بابن الزيات وإذا بكرسى من ذهب مرصع بالجوهر قد غشى أعلاه بالديباج ، فخرج الخليفة فقعد عليه ثم قال : أين هذا الذى يزعم أن الله عز وجل يتكلم بجارحتين ؟ علىّ به . فأدخل أحمد وعليه قميص هروى وطيلسان أزرق وقد وضع يداً على يد وهو يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله حتى وقف بين يدى الخليفة فقال : أنت أحمد بن حنبل ؟ فقال : أنا أحمد بن محمد بن حنبل فقال : أنت الذى بلغنى عنك أنك تقول القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدا وإليه يعود ؟ من أين قلت هذا ؟ قال أحمد : من كتاب الله تعالى وخبر نبيه ﷺ قال : وما قال النبى ﷺ ؟ فقال : حدثنى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن سالم عن أبيه أن النبى ﷺ قال :

« إنَّ اللهَ كلَّمَ مُوسَى بِمِائةِ أَلْفِ كَلِمَةٍ وعشرينَ أَلْفِ كَلِمةٍ وثَلاثمِائَةِ كَلمةٍ وثَلاثَ عَشْرَةَ كَلِمَةً » .

---

(١٠) حلية الأولياء ٢٠٤/٦ – ٢٠٦ .   (*) الصواب هو ابن أبى دؤاد . .

فكان الكلام من الله والاستماع من موسى . فقال موسى « أَىْ رَبِّ أَنْتَ الَّذِى تكلمنى أَمْ غَيْرُكَ » ؟ قَالَ اللهُ تعالى : « أَنَا أُكَلِّمُكَ لاَ رَسولَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ » .

قال كذبت على رسول الله ﷺ . قال أحمد . فإن يك هذا كذبا منى على رسول الله ﷺ فقد قال الله تعالى :

(وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لأَمْلَئَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) .

فإن يكن القول من غير الله فهو مخلوق . وإن كان مخلوقا فقد ادعى حركة لا يطيق فعلها . فالتفت إلى احمد وابن الزيات فقال : ناظروه . قالوا : ياأمير المؤمنين اقتله ودمه فى أعناقنا . قال فرفع يده فلطم حر وجهه . فخر مغشيا عليه . فتفرق وجوه قواد خراسان . وكان أبوه من أبناء قواد خراسان . فخاف الخليفة على نفسه منهم فدعا بكوز من ماء فجعل يرش على وجهه . فلما أفاق . رفع رأسه إلى عمه وهو واقف بين يدى الخليفة فقال : ياعم لعل هذا الماء الذى صب على وجهى غضب صاحبه عليه . فقال الخليفة : ويحكم ما ترون ما يهجم على من هذا الحديث ؟ وقرابتى من رسول الله ﷺ لا رفعت عنه السوط حتى يقول القرآن مخلوق . ثم دعا بجلاد يقال له أبو الدنّ فقال فى كمّ تقتله ؟ قال فى خمسة أو عشرة أو خمسة عشر أو عشرين . فقال : اقتله . فكلما أسرعت كان أخفى للأمر . ثم قال : جردوه . قال : فنزعت ثيابه ووقف بين العقابين وتقدم أبو الدن – قطع الله يده – فضربه بضعة عشر سوطا فأقبل الدم من أكتافه إلى الأرض . وكان أحمد ضعيف الجسم . فقال إسحاق بن إبراهيم : ياأمير المؤمنين إنه إنسان ضعيف الجسم . فقال : قد سمعت قولى . وقرابتى من رسول الله ﷺ لارفعت السوط عنه حتى يقول كما أقول فقال : يا أبا عبد الله البشرى . إن أمير المؤمنين قد تاب عن مقالته وهو يقول لا إله إلا الله . فقال أحمد كلمة الإخلاص وأنا أقول لا إله إلا الله. فقال ياأميرالمؤمنيں إنه قد قال كما تقول. فقال خل وارتفعت بالباب . فقال اخرج فانظر ما هذه الضجة ؟ فخرج ثم دخل فقال : ياأمير المؤمنين إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج أحمد بن حنبل إنى لك من

الناصحين . فأخرج . وقد وضع طيلسانه وقميصه على يده . وكنت أول من وافى الباب . فقال الناس : ما قلت ياأبا عبد الله حتى نقول؟ قال : وما عسى أن أقول : اكتبوا ياأصحاب الأخبار واشهدوا يامعشر العامة أن القرآن كلام الله غير مخلوق . منه بدأ وإليه يعود . قال أحمد بن الفرج وكنت أنظر إلى أحمد بن حنبل والسوط قد أخذ كتفيه وعليه سراويل فيه خيط فانقطع الخيط ونزل السراويل فلحظته وقد حرك شفتيه فعاد السراويل كما كان ، فسألته عن ذلك فقال نعم : إنه لما انقطع الخيط قلت : اللهم إلهى وسيدى أوقفتني هذا الموقف فلا تهتكنى على رؤوس الخلائق فعاد السراويل كما كان .

رواية سليمان السجزى :

وهذا أيضا أحد مشاهدى المحنة إنه سليمان بن عبد الله السجزى . قال[11] « أتيت إلى باب المعتصم وإذا الناس قد ازدحموا على بابه كيوم العيد . فدخلت الدار فرأيت بساطا مبسوطا وكرسيا مطروحا ، فوقفت بإزاء الكرسى . فبينما أنا قائم فإذا المعتصم قد أقبل . فجلس على الكرسى . ونزع نعله من رجله . ووضع رجلا على رجل . ثم قال : يحضر أحمد بن حنبل . فأحضر ، فلما وقف بين يديه وسلم عليه ، قال له : ياأحمد تكلم ولا تخف . فقال أحمد : والله ياأمير المؤمنين . لقد دخلت عليك وما فى قلبى مثقال حبة من الفزع . فقال له المعتصم : ما تقول فى القرآن ؟ فقال : كلام الله ، قديم غير مخلوق . قال الله عز وجل .

« وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ »[12] .

فقال له : عندك حجة غير هذا ؟ فقال أحمد : نعم . ياأمير المؤمنين : قول الله عز وجل :

« الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ »[13] ولم يقل : الرحمن خلق القرآن ، وقوله عز وجل « يس ، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » .

(11) طبقات الحنابلة ١/١٦٤ - ١٦٧ .

(12) سورة التوبة الآية ٩ .

(13) سورة الرحمن الآيتان ١ ، ٢ .

ولم يقل : يس والقرآن المخلوق ، فقال المعتصم : احبسوه . فجلس وتفرق الناس . فلما أصبحتُ قصدت الباب . فأدخل الناس . فدخلت معهم . فأقبل المعتصم وجلس على كرسيه ، فقال : هاتوا أحمد بن حنبل . فجيء به . فلما أن وقف بين يديه قال له المعتصم : كيف كنت ياأحمد فى محبسك البارحة ؟ فقال : بخير . والحمد لله ، إلا أنى رأيت ياأمير المؤمنين فى محبسك أمراً عجباً . قال له : وما رأيت ؟ قال : قمت فى نصف الليل فتوضأت للصلاة . وصليت ركعتين . فقرأت فى ركعة (الحمد لله) و (قل أعوذ برب الناس) وفى الثانية (الحمد لله) و (قل أعوذ برب الفلق) ثم جلست وتشهدت وسلمت . ثم قمت فكبرت وقرأت (الحمد لله) وأردت أن أقرأ (قل هو الله أحد) فلم أقدر . ثم اجتهدت أن أقرأ غير ذلك من القرآن فلم أقدر . فمددت عينى فى زاوية السجن . فإذا القرآن مُسَجَّى ميتا . فغسلته وكفنته . وصليت عليه ودفنته . فقال له : ويلك ياأحمد . والقرآن يموت ؟ فقال له أحمد : فأنت كذا تقول : إنه مخلوق . وكل مخلوق يموت . فقال المعتصم : قهرنا أحمد . قهرنا أحمد . فقال ابن أبى دؤاد وبشر المريسى : اقتله ؛ حتى نستريح منه . فقال : إنى قد عاهدت الله أن لا أقتله بسيف ولا آمر بقتله بسيف . فقال له ابن أبى دؤاد : اضربه بالسياط . فقال : نعم . ثم قال : أحضروا الجلادين . فأحضروا . فقال المعتصم لواحد منهم : بكم سوط تقتله ؟ فقال : بعشرة ياأمير المؤمنين . فقال : خذه إليك . قال سليمان السجزى : فأخرج أحمد بن حنبل من ثيابه . وائتزر بمئزر من الصوف . وشد فى يديه حبلان جديدان وأخذ السوط فى يده . وقال : أضربه ياأمير المؤمنين ؟ فقال المعتصم : اضرب . فضربه سوطاً . فقال أحمد : الحمد لله . وضربه ثانياً . فقال : ما شاء الله كان . فضربه ثالثاً . فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . فلما أراد أن يضربه السوط الرابع نظرت إلى المئزر من وسطه قد انحل . ويريد أن يسقط . فرفع رأسه نحو السماء وحرك شفتيه . وإذا الأرض قد انشقت . وخرج منها يدان فوزرتاه بقدرة الله عز وجل . فلما أن نظر المعتصم إلى ذلك قال : خلوه . فتقدم إليه ابن أبى دؤاد وقال له : ياأحمد . قل فى أذنى : إن القرآن مخلوق . حتى أخلصك من يد الخليفة . فقال له

أحمد : ياابن أبى دؤاد قل فى أذنى : إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، حتى أخلصك من عذاب الله عز وجل . فقال المعتصم : أدخلوه الحبس . قال سليمان : فحمل إلى الحبس ، وانصرف الناس ، وانصرفت معهم . فلما كان الغد أقبل الناس . وأقبلت معهم . فوقفت بإزاء الكرسى . فخرج المعتصم . وجلس على الكرسى ، وقال : هاتوا أحمد بن حنبل . فجىء به . فلما وقف بين يديه ؛ قال له المعتصم : كيف كنت فى محبسك الليلة ياابن حنبل ؟ قال : كنت بخير والحمد لله . فقال : ياأحمد ، إنى رأيت البارحة رؤيا . قال : وما رأيت باأمير المؤمنين ؟ قال : رأيت فى منامى كأن أسدين قد أقبلا إلى وأرادا أن يفترسانى ، وإذا ملكان قد أقبلا ودفعاهما عنى . ودفعا إلى كتاباً . وقالا لى : هذا المكتوب رؤيا رآها أحمد بن حنبل فى محبسه . فما الذى رأيت ياابن حنبل ؟ فأقبل أحمد على المعتصم، فقال له: يا أمير المؤمنين فالكتاب معك؟ قال: نعم، وقرأته لما أصبحت وفهمت ما فيه . فقال له أحمد : ياأمير المؤمنين . رأيت كأن القيامة قد قامت . وكأن الله قد جمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد . وهو يحاسبهم . فبينما أنا قائم إذ نودى بى . فقدمت حتى وقفت بين يدى الله عز وجل . فقال لى : ياأحمد . فيم ضربت ؟ فقلت : من جهة القرآن . فقال لى : وما القرآن ؟ فقلت :كلامك اللهم لك . فقال لى : من أين قلت هذا ؟ فقلت : يارب حدثنى عبد الرزاق . فنودى بعبد الرزاق . فجىء به حتى أقيم بين يدى الله عز وجل . فقال له : ما تقول فى القرآن . ياعبد الرزاق ؟ فقال : كلامك اللهم لك . فقال الله عز وجل : من أين قلت هذا ؟ فقال : حدثنى معمر . فنودى بمعمر . فجىء به حتى أوقف بين يدى الله عز وجل . فقال له عز وجل له : ما تقول فى القرآن يامعمر ؟ فقال معمر : كلامك اللهم لك . فقال له : من أين قلت هذا ؟ فقال معمر : حدثنى الزهرى . فنودى بالزهرى فجىء به . حتى أوقف بين يدى الله عز وجل . فقال الله عز وجل له : يازهرى . ما تقول فى القرآن ؟ فقال الزهرى : كلامك اللهم لك . فقال : يا زهرى من أين لك هذا ؟ قال : حدثنى عروة . فجىء به . فقال : ما تقول فى القرآن ؟ فقال : كلامك اللهم لك . فقال له : ياعروة : من أين لك هذا ؟ فقال : حدثتنى عائشة بنت

أبى بكر الصديق . فنوديت عائشة ، فجئ بها . فوقفت بين يدى الله عز وجل ، فقال الله عز وجل لها : يا عائشة : ما تقولين فى القرآن ؟ فقالت : كلامك اللهم لك . فقال الله عز وجل لها : من أين لك هذا ؟ قالت : حدثنى نبيك محمد ﷺ . قال : فنودى بمحمد ﷺ . فجئ به . فوقف بين يدى الله عز وجل : فقال الله عز وجل له : يا محمد . ما تقول فى القرآن ؟ فقال له : كلامك اللهم لك . فقال الله له : من أين لك هذا ؟ فقال النبي ﷺ : حدثنى به جبريل . فنودى بجبريل . فجئ به . حتى وقف بين يدى الله عز وجل فقال له : ياجبريل ، ما تقول فى القرآن ؟ قال : كلامك اللهم لك . فقال الله تعالى له : من أين لك هذا ؟ فقال : هكذا حدثنا إسرافيل . فنودى بإسرافيل ، فجىء به ، حتى وقف بين يدى الله عز وجل . فقال الله سبحانه : يا إسرافيل : ما تقول فى القرآن ؟ فقال : كلامك اللهم لك . فقال الله له : ومن أين لك هذا ؟ فقال إسرافيل : رأيت ذلك فى اللوح المحفوظ ، فجىء باللوح ، فوقف بين يدى الله عز وحل . فقال له : أيها اللوح ، ما تقول فى القرآن ؟ فقال : كلامك اللهم لك . فقال الله تعالى له : من أين لك هذا ؟ فقال اللوح : كذا جرى القلم علىّ . فأتى بالقلم حتى وقف بين يدى الله عز وجل له : ياقلم ، ما تقول فى القرآن ؟ فقال القلم : كلامك اللهم لك . فقال الله : من أين لك هذا ؟ فقال القلم : أنت نطقت وأنا جريت . فقال الله عز وجل : صدق القلم ، صدق اللوح ، صدق إسرافيل صدق جبريل صدق محمد ، صدقت عائشة ، صدق عروة ، صدق الزهرى ، صدق معمر ، صدق عبد الرزاق ، صدق أحمد بن حنبل : القرآن كلامى غير مخلوق .

قال سليمان السجزى : فوثب عند ذلك المعتصم . فقال : صدقت يا ابن حنبل وتاب المعتصم . وأمر بضرب رقبة بشر المريسى وابن أبى دؤاد(*) ، وأكرم أحمد بن حنبل . وخلع عليه . فامتنع من ذلك . فأمر به فحمل إلى بيته .

(*) لم تضرب عنق هذا أو ذاك فقد توفى بشر فى ذى الحجة سنة ٢١٨ وهى السنة التى توفى فيها المأمون وقيل بل سنة ٢١٩ وأما ابن أبى دؤاد فقد توفى سنة ٢٤٠ هـ .

رواية الجاحظ :

وأما رواية فريق المعتزلة فيعبر عنها الجاحظ ، وهو معتزلى معروف وصاحب مدرسة معروفة باسم الجاحظية وقد عاصر المحنة وشهدها وكان أحد مؤيديها . قال الجاحظ (١٤) :

« وبعد فنحن لم نُكَفِّر إلا من أوسعناه حجة ، ولم نمتحن إلا أهل التهمة . وليس كشف المتهم من التجسس ولا امتحان الظنين من هتك الأستار . ولو كان كل كشف هتكاً وكل امتحان تجسساً ، لكان القاضى أهتك الناس لستر ، وأشد الناس كشفاً لعورة . والذين خالفوا فى العرش ، إنما أرادوا نفى التشبيه ، فغلطوا ، والذين أنكروا أمر الميزان ، إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجساماً وأجراماً غلاظاً . فإن كانوا قد أصابوا . فلا سبيل عليهم ، وإن كانوا قد أخطأوا ، فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر . وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق . فبين المذهبين أبين الفرق .

وقد قال صاحبكم (أى الإمام أحمد بن حنبل) للخليفة المعتصم ، يوم جمع الفقهاء والمتكلمين . والقضاة والمخلصين أعذاراً وأنذاراً : امتحنتنى ، وأنت تعرف ما فى المحنة ، وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنتنى من بين جميع هذه الأمة . قال المعتصم : أخطأت بل كذبت ، وجدت الخليفة قبلى قد حبسك وقيدك . ولو لم يكن حبسك على تهمة . لأمضى الحكم فيك ، ولو لم يَخَفْك على الإسلام ، ما عرض لك . فسؤالى إياك عن نفسك . ليس من المحنة . ولا من طريق الاعتساف . ولا من طريق كشف العورة . إذ كانت حالُك هذه الحال ، وسبيلك هذه السبيل ؛ وقيل للمعتصم فى ذلك المجلس : ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا إقراره . ويعاينوا انقطاعه . فينقض ذلك استبصارهم . فلا يمكنه جحد ما أقر به عندهم ؟ فأبى أن يقبل ذلك . وأنكره عليهم . وقال : لا أريد أن أوتى بقوم ؛ إن اتهمتهم مُيزت فيهم بسيرتى فيهم . وإن بان لى أمرهم . أنفذت حكم الله فيهم . وهم . ما لم أوت بهم . كسائر الرعية . وكغيرهم من

(١٤) مقدمة كتاب أحمد بن حنبل والمحنة ص ١٢ - ١٤ .

عوام الأمة ، وما شيء أحب إليّ من الستر . ولا شيء أولى بى من الأناة والرفق .

* * *

وما زال به رفيقا وعليه رقيقا ، ويقول : لأن أستحييك بحق . أحب إلى من أن أقتلك بحق . حتى رآه يعاند الحجة ويكذب صراحاً عند الجواب ، وكان آخر ما عاند فيه ، وأنكر الحق وهو يراه ، أن أحمد بن أبى دؤاد ، قال له : أليس لا شيء إلا قديم أوحديث ؟ . قال : نعم ، قال : أوليس القرآن شيئاً ؟ . قال : نعم . قال : أوليس لا قديم إلا الله ؟ قال : نعم . قال : فالقرآن إذاً حديث ؟ قال : ليس أنا متكلم . وكذلك كان يصنع فى جميع مسائله . حتى كان يجيبه فى كل ما سأل عنه ، حتى إذا بلغ المُنْخَنَق ، والموضع الذى إن قال فيه كلمة واحدة ، برئ منه أصحابه ، قال : ليس أنا متكلم . فلا هو قال فى أول الأمر : لا علم لى بالكلام ، ولا هو حين تكلم . فبلغ موضع ظهور الحجة ، خضع للحق ، فمقته الخليفة ، وقال عند ذلك : أف لهذا الجاهل مرة ، والمعاند مرة .

وأما الموضع الذى فيه واجه الخليفة بالكذب . والجماعة بالقحة ، وقلة الاكتراث ، وشدة التصميم ، فهو حين قال له أحمد بن أبى دؤاد : أتزعم أن الله تعالى رب القرآن ؟ . قال : لو سمعت أحداً يقول ذلك ، لقلت . قال : أفما سمعت ذلك قط من خالف ولا سائل ، ولا من قاص ، ولا فى شعر . ولا فى حديث ؟ . . . قال : فعرف الخليفة كذبه عند المسألة ، كما عرف عناده عند الحجة . وأحمد بن أبى دؤاد ، حفظك الله تعالى ، أعلم بهذا الكلام وبغيره من أجناس العلم ، من أن يجعل هذا الاستفهام مسألة ، ويعتمد عليها فى مثل تلك الجماعة . ولكنه أراد أن يكشف لهم جرأته على الكذب ، كما كشف لهم جرأته فى المعاندة ، فعند ذلك ضربه الخليفة .

« وأية حجة لكم فى امتحاننا إياكم ، وفى إكفارنا لكم ؟ . وزعم (أى الإمام أحمد بن حنبل) يومئذ أن حكم كلام الله تعالى كحكم علمه ، فكما لا يجوز أن يكون علمه محدثاً ومخلوقاً ، فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً

ومحدثاً . فقال (أى أحمد بن أبى دؤاد) له : أليس قد كان الله يقدر أن يُبَدل آية مكان آية ، وينسخ آية بآية ، وأن يذهب بهذا القرآن ويأتى بغيره ؛ وكل ذلك فى الكتاب مسطور؟ قال : نعم . قال : فهل كان يجوز هذا فى العلم ، وهل كان جائزاً أن يُبَدل الله علمه ويذهب به ويأتى بغيره ؟ . قال : لا .

وقال (أى أحمد بن أبى دؤاد) له : روينا فى تثبيت ما تقول الآثار ؛ وتلونا عليك الآية من الكتاب ، وأريناك الشاهد من العقول التى بها لزم الناس الفرائض ، وبها يفصلون بين الحق والباطل . فعارضنا أنت الآن بواحدة من الثلاث . فلم يكن ذلك عنده ، ولا استخزى من الكذب فى هذا المجلس ؛ لأن عدة من حضره ، أكثر من أن يطمع أحد أن يكون الكذب يجوز عليه .

« وقد كان صاحبكم هذا (أى الإمام أحمد) يقول : لا تقية إلا فى دار الشرك . فلو كان ما أقر به من خلق القرآن ، كان منه على وجه التقية ؛ فقد أعملها فى دار الإسلام . وقد أكذب نفسه ، وإن كان ما أقر به على الصحة والحقيقة ، فلستم منه ، وليس منكم . على أنه لم ير سيفاً مشهوراً ، ولا ضُرب ضرباً كثيراً ، ولا ضُرب إلا بثلاثين سوطاً ؛ مقطوعة الثمار ، مشعبة الأطراف ، حتى أفصح بالإقرار مراراً . ولا كان فى مجلس ضيق ، ولا كانت حاله حالاً مؤيسة ، ولا كان مثقلا بالحديد ، ولا خُلع قلبه بشدة الوعيد . ولقد كان يُنازع بألين الكلام ، ويجيب بأغلظ الجواب ، ويرزنون ويخف ، ويحلمون ويطيش » .

— ٤ —

انتصار السنة واندحار الفتنة :

على الرغم من أن المعركة لم تكن متكافئة من حيث الشكل . فإن النصر كان للحق ، وكان الاندحار للباطل ، جانب يملك قوة القهر وجبروت السلطان ، وأدوات الملك ووسائل العدوان . ولكنه لم يكن يملك حجة الإيمان ، كان ذلك الجانب الذى يمثله خلفاء ثلاثة هم المأمون ثم المعتصم ثم الواثق . والجانب الثانى

لم يكن يملك من ذلك شيئا على الإطلاق : لا سلطان ولا ملك ولا مال ولكنه كان يملك ما هو أسمى من ذلك وأرجح ميزانا ، وهو الحق والإيمان .

لقد بدأت القضية خاسرة على رأس من نادى بها منذ أن راودته الفكرة لأول مرة . تمثل ذلك فى قول المأمون : لولا يزيد بن هارون لأظهرت خلق القرآن . وهو خبر مر حديثه . ثم خاض المأمون معركة غير متكافئة مع العلماء العزل الذين لم يستطيعوا تحمل التعذيب الرهيب الذى حل بأحمد بن حنبل . ولم يكونوا جميعا كأحمد بن حنبل ؛ ففى أحمد صفات الإمامة ومؤهلاتها . وهذه المؤهلات السامية هى التى جعلته يستمسك برأيه النابع من إيمانه السليم بقضية القرآن وشجبه لكل رأى مخالف ؛ فدارت رحى القضية فى أكثر من فلك ، وتعاورها أكثر من ملك . ومع ذلك انهزم الملوك الخلفاء بما حملوا من باطل الرأى . وأنتصر الفقير بن حنبل ومن كان وراءه من فقراء المؤمنين بعد أن قضى أحمد بن حنبل فى السجن ثمانية وعشرين شهرا مقيدا فى الحديد . وقد جلد بالسياط فى نهار رمضان وهو صائم . وكانت الدماء تتفجر من جسمه من شروخ السياط . ويجئ وقت الإفطار فلا يفطر إلا على الماء . ويؤذن للصلاة فيقوم لأدائها وجسمه النحيل يهترئ جروحا ويثغب دما ؛ فيقول له القاضى ابن سماعة : صليت والدم يسيل من ضربك ؛ فيجيبه الشيخ الإمام الصامد الصائم الجريح : قد صلى عمر وجرحه يثغب دما ؛ فيلجمه ويسكته .

لم يكن المعتصم مؤهلا لأن يكون طرفا فى هذه الفتنة ؛ فالمعتصم كان رجل حرب وليس برجل علم ؛ لقد كان من ناحية العلم قريبا من الأمين ، وهو صاحب القول المشهور : « لا حول ولا قوة إلا بالله خليفة أمىّ ووزير عامى » . فقد ورد فى إحدى رسائل ولاته كلمة الكلأ ، فلم يفهم معنى الكلأ ، فسأل وزيره عن معناها فلم يعرف هو الآخر فقال قولته تلك التى اعترف فيها بأنه أمى .

لقد كانت القضية قضية فئة بدأت مستنيرة تعالج القضايا بالعقل والحجة والبيان ، وانتهت باغية تفرض آراءها بالقهر والضرب والقتل ، إنها فئة المعتزلة التى تزعمها آنذاك القاضى أحمد بن أبى دؤاد .

بل إن المعتصم يتنصل من تبعة ما يجرى أمامه من تعذيب الإمام الجليل المستبسل ومن خلفه عذاب المسلمين جميعا من أجله ، لأنه يمثل رأيهم ويدافع عن عقيدتهم .

لم يكن العلماء وحدهم خلف أحمد بن حنبل ، بل كانت العامة قبل العلماء ، كان أحمد فى الطريق إلى لقاء المأمون عند الرحبة ، وبينا هو يتحرك فى جوف الليل مع حراسه ، دخل أعرابى من العامة وسأل : أيكم أحمد بن حنبل ؟ فلما دل عليه قال له : يا هذا ، ما عليك أن تقتل هاهنا وتدخل الجنة ، ثم سلم وانصرف ، ولم يعرف عنه أكثر من أنه أعرابى من ربيعة يعمل الشعر فى البادية .

كانت القضية إذن قضية العام قبل الخاص ، وقد كان المعتصم فى حرج من أمره ، فلا هو فاهم شيئا ، ولا هو مدرك لب القضية ، وهو يقول ذلك صراحة لابن حنبل وسط الجمع : لولا أن وجدتك فى يد من كان قبلى ما تعرضت لك .

بل إنه يؤخذ بإجابات أحمد وبسالته وصموده وحده وليس له من سند إلا الله ، ويقول عنه وسط معمعة الضرب بالعصى والجلد بالسياط : والله إنه لفقيه ، وإنه لعالم ، وما يسوءنى أن يكون معى يرد على أهل الملك ، ولئن أجابنى إلى شىء فيه أدنى فرج لأطلقنّ عنه بيدى ، ولأطأنّ عقبه ، ولأركبنّ إليه بجندى .

إن المعتصم يرضى من أحمد بأدنى إشارة تحفظ على الخليفة جلال الملك لكى يطلق سراحه بيده ، وهو إذا ماتمّ ذلك أهل لأن يصهر إليه ويمشى إليه بجنده .

إنه تفكير خير على كل حال من جانب المعتصم ، ولكن التفكير شىء والعمل شىء آخر ، وأحمد فى غنى عن أن يركب الخليفة إليه بجنده ، وهو فى غنى عن أن يصهر الخليفة إليه ، ولعله لا يرضى بهذا الإصهار ، فالحكم والسلطان لا يجعلانه كفئا لابنة الإمام الفقية الحافظ المحدث ، فقديما رفض سعيد بن المسيب زواج ابنته من الوليد بن عبد الملك ولى عهد أبيه لأنه لم يره كفئا لابنته . وكان سعيد فقيرا فى ماله ولا سلطان له ، ولكنه كان يملك سلطان العلم وهو أسمى بكثير من سلطان الحكم ، لأن الحكم حائل زائل والعلم ثابت باق .

لقد نفقت الفتنة كما تنفق البهائم ، لم يستطع المعتصم ومن خلفه ابن أبى دؤاد أن ينتصرا على الإمام الأعزل المعتدى عليه ، الذى سال دمه واهترأ لحمه من وقع السياط ، وخافا ثورة الناس للعلم ممثلا فى ابن حنبل ، فأطلقا سراحه فجأة ، ولشدة فزعهما من غضبة الناس أشهدا بعض من حضر من أهل بغداد على أنه حىّ يمشى على رجليه . وماكان الإمام الجليل يستطيع الحركة برجلية أو ساعديه ، فإن الأذى لم يترك مكانا فى جسده إلا آلمه ومزقه وأدماه ، وظل يعالج شهورا ، وبقى يشكو الآلام سنين ، فتباً للطغاة الجبناء .

إن الأمر الذى يدعو إلى الخجل أن رجلا من عامة الناس ينازل أحمد بن أبى دؤاد فى قضية خلق القرآن أمام الواثق ثالث الخلفاء الذين تبنوا الفتنة ، فيسقط من عينيه ويسدل الستار نهائيا على هذه المهزلة التى أقلقت دنيا المؤمنين منذ أن نادى به المأمون سنه ٢١٢ .

لقد ظل الواثق بن المعتصم يسير على نفس هذا الدرب الكريه من امتحان الناس فى خلق القرآن ، وإن لم يستطع أن يمس ابن حنبل بسوء غير أنه أوقفه عن التحديث والتدريس وطلب ألا يساكنه فى بلد هو فيه ، أما مع بقية الناس فقد أعمل السجن والقتل ، قتل بيده أحمد بن نصر الخزاعى للسبب نفسه سنة ٢٣١ هـ أى قبل وفاته بعام واحد . لقد كانت المفارقات تغشى حياة هذا الواثق . إنه يقتل الناس بسبب رفض القول بخلق القرآن وهو فى الوقت ذاته متفرغ للعود والطنبور والقيان المغنيات حتى قيل إنه صنع مائة صوت أى بلغة عصرنا لحن مائة أغنية .

فلنعد إلى كيفية إجهاض الفتنة وإفحام ابن أبى دؤاد أمام الواثق . ذكر محمد المهتدى بن الخليفة الواثق – والرواية عن ابن كثير – « أن شيخا دخل يوما على الواثق . فسلم ، فلم يرد عليه الواثق ، بل قال : لا سلم الله عليك . فقال : يا أمير المؤمنين ، بئس ما أدبك معلمك ، قال الله تعالى :

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا » .

فلا حييتنى بأحسن منها ولا رددتها . فقال ابن أبى دؤاد : الرجل متكلم ، فقال : ناظره ، فقال ابن أبى دؤاد : ما تقول ياشيخ فى القرآن ؟ أمخلوق هو؟ فقال الشيخ : لم تنصفنى ، المسألة لى ، فقال : قل . فقال الشيخ : هذا الذى تقوله علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، أوما علموه ؟ فقال ابن أبى دؤاد : لم يعلموه ، قال : فأنت علمت ما لم يعلموا ؟ فخجل وسكت ، ثم قال : أقلنى ، بل علموه ، قال الشيخ : فلم لا دعوا الناس إليه كما دعوتهم أنت ؟ أما يسعك ما وسعهم ؟ فخجل ابن أبى دؤاد وسكت . فأمر الواثق للرجل بجائزة نحو أربعمائة دينار فلم يقبلها .

قال المهتدى : فدخل أبى المنزل فاستلقى على ظهره ، وجعل يكرر قول الشيخ على نفسه ويقول : أما وسعك ما وسعهم ؟ ثم أطلق الشيخ وأعطاه أربعمائة دينار ورده إلى بلاده . وسقط من عينيه ابن أبى دؤاد . ولم يمتحن بعده أحدا (١٥) .

إنها فتنة أشعلها المأمون . وهو مسئول عن كل ضحاياها فقد ظل المسلمون يكتوون بضرامها منذ بدايتها سنة ٢١٢هـ إلى سنة ٢٣٢هـ وهى السنة التى مات فيها الواثق ، وذلك يعنى أن الأمة الإسلامية بكافة أقطارها ظلت تئن وتنزف عشرين سنة بالتمام والكمال ، سفكت فيها دماء العلماء ، وأزهقت فيه أرواح الفقهاء ، وقتلت فيه نفوس الأبرياء من الرجال الأنقياء والقادة الأتقياء ، فإذا سأل عاقل نفسه عن السبب فى ذلك لم يجد إجابة غير كلمة واحدة : الحماقة ، فالويل لأمة يحكمها أحمق ! ! .

لقد وأد الفتنة وأزهق باطلها رجل من عامة الناس ، لم يحفل التاريخ بذكر اسمه على الرغم من عظمة عمله ونفاسة كلمه ، لقد ضرب رأس الأفعى - أحمد بن أبى دؤاد - فسكت الذيل وهو الخليفة ، ونفقت الفتنة كما ينفق البعير ، ولكن بعد أن دمى جسم الأمة الإسلامية فى عدد من صفوة رجالها من كل مصر وكل صقع .

---

(١٥) ابن كثير ٣٢١/١٠ .

— ٥ —

علماء من ضحايا الفتنة :

درج العقلاء بل العامة أيضاً على وصف الفتنة بالعمى فقالوا إن الفتنة عمياء . ولئن صدق هذا الوصف على كل فتنة ، فإنه يكون مختلفا إذا طبق على فتنة خلق القرآن . لقد وصفت الفتنة – أى فتنة – بالعمى لأنها لا تبقى ولاتذر ، ولا تفرق فى القتل والتعذيب والتدمير ، تقتل الغنى والفقير ، والكبير والصغير ، والذكر والأنثى ، والإنسان والحيوان ، تهدم البيت والمسجد ، وتخرب القرية والمدينة ، إنها الفتنة العمياء .

فإذا ما أمعنا النظر فى فتنة خلق القرآن وجدناها فتنة ذات عينين حادتين شريرتين ، وهنا مكمن الخطر ، فالفتنة العمياء لا ترى ، فتسوى فى التخريب والقتل بين الجميع ، بين الغث والسمين ، والرخيص والغالى ، والحقير والعظيم . أما الفتنة ذات العينين فإنها تنتقى نوعية رفيعة من الرجال ، وفريقا متميزا من الناس ، وصفوة رائدة من العلماء ، وكذلك فعلت فتنة خلق القرآن . لقد كانت تنشر بصرها الشرير الحاد فلا يقع إلا على صفوة العلماء ، وجلة الفقهاء ، وثقات الحفاظ ، وكبار المحدثين . وقد امتدّ هذا البصر الشرير – ولا نقول البصيرة ، فالفتنة دائماً بغير بصيرة – لا إلى نواحى العراق وحدها ، وإنما حملق آثما إلى الأقطار والأمصار فشمل خراسان والمشرق ، ووصل إلى الحجاز ومصر ، وحمل من كل هذه الأقطار علماء وفقهاء وأئمة ازدحمت بهم سجون بغداد ، وضاقت بهم سجون سامرا . وتعطرت بدمائهم الزكية أرض بغداد وثرى « سر من رأى » التى ثار منها الزمان فجعلها « سوء من رأى » ثم انتهت إلى الاسم الذى تعرف به حاليا وهو سامرا .

لقد مات محمد بن نوح فى قيده وهو مرافق للإمام أحمد بن حنبل حين أعيدا إلى بغداد ، فوافاه الأجل وهو فى الطريق ، وفى السجن أيضاً مات الفقيه المحدث نُعيم بن حماد ويوسف بن يحيى البويطى المصرى ، وفى سامرا يتولى الخليفة المغنى

الموسيقى الواثق قتل التقى النقى الطاهر أحمد بن نصر الخزاعى . يقتله بنفسه ، بسيفه ، بيديه التى كان أكثر امتشاقها لريشة العود والنقر على الطبل وليس امتشاق حسام الجهاد والفتح والغزاة .

وتشاء المقادير أن يكون بعض العلماء الذين لحقتهم الفتنة من أبناء مصر البررة كالبويطى صاحب الشافعى وخليفته على حلقته . ومحمد بن إبراهيم المواز الإسكندرى الذى كانت له رئاسة الفقه المالكى بمصر على النحو الذى بيناه عند حديثنا عن مدونى الفقه المالكى ، ومحمد بن عبد الله بن الحكم صاحب الشافعى وتلميذه ، وقد قدمنا عنه دراسة مختصرة أثناء حديثنا عن تلاميذ الشافعى فى المكان الذى خصصناه لذلك من هذه البحوث .

وفى سجن بغداد يموت البويطى شيخاً غريباً مؤمناً محتسباً حياته لله ، ويطلب ابن المواز ليمتحن فى بغداد فينجو بدينه ودمه ويهرب إلى أحد حصون الشام . ويحمل محمد بن عبد الله بن عبد الحكم إلى بغداد . ويواجه ابن أبى دؤاد رأس الفتنة ، ويتأبى على الانهزام ولا يجيب ابن أبى دؤاد إلى ماطلبه منه من القول بخلق القرآن ، وكأن ابن دؤاد خشى أن ينزل الأذى بابن عبد الحكم أو يودعه السجن فيثور أهل الفسطاط ومن ورائهم أهل مصر جميعا ، فقد كان أبوه عبد الله بن عبد الحكم بن أعين ، من كبار رجالات الفسطاط علماً وفضلا ومالا ومكانة . فيطلق سراحه ويرده إلى مصر . ويظل شأن محمد هذا فى ارتفاع حتى انتهت إليه الرياسة على النحو الذى بيناه فى حديثنا عنه .

على أن طبيعة الوفاء بدراسة هذه الفتنة تقتضى أن نقدم شيئا عن بعض شهدائها وضحاياها ، اعترافا بجميلهم على العقيدة ، ووفاء بفضلهم قبل الأجيال المسلمة التى ينبغى أن تعرف القليل إن لم يكن الكثير عن بعض الشهداء الأبرار من علمائها . والعظماء الأخيار من فقهائها .

محمد بن نوح :

إنه محمد بن نوح بن المضروب . وذلك تمييزا له عن محدثين آخرين يحملان الاسم ذاته . وكان محمد بن نوح شاباً فى مقتبل العمر هيأ لنفسه أسباب الدراسة

والتحصيل والحفظ والرواية . وإن لم تكن قد تهيأت له بعد أسباب الشهرة . ولكن ثباته على عقيدته وشجاعته فى رأيه وبذل حياته فى سبيل الحفاظ على دينه قد أدخله إلى باحات الشهرة والخلود من أوسع الأبواب وأرحبها وأشرفها .

كان محمد بن نوح ينتظم قافلة من الفقهاء والعلماء عددهم ستة وعشرون رفضوا جميعاً أن يقولوا بخلق القرآن . وقد ذكرنا أسماءهم فى الفقرة الخاصة بامتحان إسحاق بن إبراهيم لهم . ثم انهار عدد كبير من هؤلاء العلماء . وأقروا بما نادى به المأمون من خلق القرآن عدا تسعة كان محمد بن نوح واحدا منهم . ثم استسلم عدد آخر من هؤلاء التسعة وبقى أربعة مستمسكين بعقيدتهم رافضين القول بخلق القرآن وهم أحمد بن حنبل . وعبيد الله بن عمر القواريرى . والحسن بن حماد المعروف بسجادة وصاحبنا هذا الشاب الشجاع محمد بن نوح .

وحين بدأ إسحاق بن إبراهيم صاحب شرطة بغداد يتخذ السبيل لوضع العلماء الأربعة فى القيد وترحيلهم إلى المأمون فى طرسوس . عاد اثنان من الأربعة فتراجعا فى قولهما واستسلما للقول بخلق القرآن . وبقى على رأيهما رجلان عظيمان أحدهما الشاب محمد بن نوح . وأما الآخر . بل الأول . فإنه الإمام الجليل أحمد بن حنبل .

ويصبح محمد بن نوح رفيق المحنة للإمام ، ويدخل التاريخ من هذا الباب الطاهر العتبات المطهر العرصات ، ويتزاملان مقيدين محمولين على بعير واحد متجها بهما إلى الشمال لقطع الطريق الطويل ذى المئات العديدة من الأميال لكى يلقيا المأمون ويصارعاه فكريا ، وقد وقر فى قلب كل منهما أنه نائل الشهادة لا محالة ، وعند وصول الركب إلى أدنه تكون حياة المأمون قد انتهت . ويصبح فى ذمة التاريخ . ولكنه كان قد أصر على الإبقاء على الفتنة وإذكائها مسجلا ذلك فى وصيته على النحو الذى بيناه فيما سلف من صفحات . فيعود الجلادون بالإمام أحمد وزميله محمد بن نوح من أدنه متجهين إلى بغداد مرة ثانية لتجرى المواجهة مع المعتصم خليفة المأمون . وفى الطريق يصاب الشاب محمد بن نوح بالمرض ، فيقول للإمام أحمد وقد صادفا خلوة بعيدين عن الحراس —

والرواية هنا عن الإمام نفسه – « يا أبا عبد الله ، الله الله ، إنك لست مثلى ، أنت رجل يقتدى بك ، وقد مدّ هذا الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك ، فاتق الله واثبت لأمر الله » .

بهذا القول الأخّاذ النفّاذ يوصى شاب مجاهد مريض واحدا من أعظم أئمة هذه الأمة ، أليس جديراً بالخلود هذا الشاب ؟ ! !

إن الإمام أحمد يعلق على كلام محمد بن نوح هذا قائلا : فعجبت من تقويته لى وموعظته إياى[16] ! !

ويستبد المرض بمحمد ، وليس من طبيب ، والحراس لا يرحمون ، والسفر لا يتوقف ، والقافلة الظالمة المظلومة لا ترحم ، فيحم القضاء ، ويسلم الشاب المجاهد محمد بن نوح الروح ، والقيد الحديدى الثقيل فى رجليه ، ولا يخلى عنه إلا ساعة غسله وتكفينه ، ويقوم على الغسل والتكفين والصلاة عليه ودفن جثمانه الإمام أحمد ، ويدفن جدث بن نوح غريباً فى الطريق فى بلدة عانة بشمال العراق ، ويصير الاثنان واحدا ، فيكمل ابن حنبل الطريق وحيدا إلا من الجلادين والحراس إلى بغداد ، وفى نفسه حزن عميق على فقيد الصحبة والعقيدة والطريق .

يقول الخطيب البغدادى عن هذا الشاب الشهيد الذى توفى بعد وفاة المأمون بأيام أوأسابيع قليلة من سنة ٢١٨ هـ أنه كان أحد المشهورين بالسنة ، وأنه حدث شيئاً يسيرا .

ويبدو لنا أن محمد بن نوح كان تلميذا للإمام ، به تأثر فكراً ومذهباً وسلوكاً ، فالخطيب البغدادى يقول إنه كان جار الإمام أحمد فى المسكن ، وكان الإمام يقول لمن يسأله عنه : اكتب عنه فإنه ثقة ، وكان يثنى عليه ، وله حديث رواه عنه أبو بكر المرُّوذى تلميذ الإمام وهو : حدثنا محمد بن نوح قال : حدثنا إسحاق الأزرق عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :

(١٦) تاريخ بغداد ٣/٣٢٣ .

« مَا مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ بَعْضُهَا فِي الْجَنَّةِ وَبَعْضُهَا فِي النَّارِ ، إِلاَّ أُمَّتِي فَإِنَّها فِي الْجَنَّةِ » .

نُعَيم بن حمّـــاد :

قلنا عن هذه الفتنة إنها كانت ذات عينين شريرتين خبيثتين ، تبحث عن العلماء الفقهاء الأعلام فى كل مكان لكى يسحبوا إلى المساءلة الظالمة ، فالسجن فالموت .

إنّ نعيم بن حماد العالم المحدث واحد من أكابر ضحايا فتنة المأمون والمعتزلة ، فهو عربى من خزاعة سكن مرو والعراق والحجاز ومصر . وهو فى كل مرحلة من مراحل رحلته ومسكنه يدرس حديث رسول الله ، ويقاوم الجهمية ، ويرد عليهم . ويسفه آراءهم ، وينقض أفكارهم بالحوار تارة وبالكتابة تارة أخرى ، فقد ألف نحوا من ثلاثة عشر كتاباً فى الرد عليهم ، ومع وجوده فى مصر بعيدا فإن يد الشر تصل إليه وتحمله إلى العراق ليلقى المصير الذى لقيه غيره من العلماء الأوفياء لدينهم الأبرار بأمتهم .

كان نعيم ينتمى إلى المدرسة التى إليها ينتمى الإمام أحمد وصحابه ، وقف على باب هشيم بن بشير مثلما وقف أحمد وصحابه ، وكان موضع عناية خاصة من الإمام وهو لا يزال يطلب الحديث عن هشيم . يقول الإمام أحمد : جاءنا نعيم بن حماد ونحن على باب هشيم نتذاكر المقطعات ، فقال : جمعتم حديث رسول الله ﷺ ؟ ويمضى الإمام قائلا : فعنينا به منذ يومئذ .

لنا أن نتصور قدر دارس كان موضعاً لعناية الإمام أحمد بن حنبل وصحابه ، لقد كان هذا الدارس هو نعيم نفسه ، وكان نعيم قد أعد نفسه لسماع

حديث رسول الله . فسمع من صفوة الأئمة المحدثين الحفاظ مثل سفيان بن عيينة . وأبى حمزة السكرى وعبد الله بن المبارك والفضيل بن عياض وغيرهم من أولئك الصفوة .

وكان نعيم أيضاً ثقة صدوقا أهلا لأن يروى عنه الثقات من الرجال . فروى عنه يحيى بن معين إمام الجرح والتعديل . وكذلك روى عنه البخارى والنّسائى والترمذى . وظل يحدث حتّى وهو فى السجن . وكان آخر من سمع منه وهو فى السجن بسامرا حمزة بن محمد الكاتب . وكان طبيعيا أن تتحول السجون إلى مجالس فقه وحديث . فسكان السجون عادة يكونون من اللصوص والقتلة وقطاع الطريق . وبفضل المأمون والمعتصم والواثق ومن خلفهم المعتزلة صارت السجون سكنا للفقهاء ومقرا للحفاظ ومأوى للمحدثين . فكان من البداهة بمكان أن تتحول هذه السجون إلى حلقات درس ومجالس حديث .

إن يحيى بن معين يقول : نعيم بن حماد ثقة صدوق ، رجل صدق ، أنا أعرف الناس به . كان رفيقى بالبصرة . كتب عن روح بن عبادة خمسين ألف حديث . ويمضى يحيى بن معين قائلا : أنا قلت له قبل خروجى من مصر – فقد كان يحيى يزور مصر إبان مقامْ نعيم فيها – هذه الأحاديث التى أخذتها من العسقلانى أى شيء هذه ؟ – وربما كان يحيى قد شك فى مدى صحة هذه الأحاديث – فقال : يا أبا زكريا مثلك يستقبلنى بهذا ؟ فقلت له : إنما قلت هذا من الشفقة عليك . قال : إنما كانت معى نسخ أصابها الماء فدرس بعض الكتاب . فكنت أنظر فى كتاب هذا فى الكلمة التى تشكل علىّ . فإذا كان مثل كتابى عرفته . فأما أن أكون كتبت عنه شيئا قط . فلا والله الذى لا إله إلا هو .

ويقول الخطيب البغدادى عن نعيم إنه أول من جمع المسند وصنفه (١٧) ، ويقول الميمونى تلميذ الإمام نقلا عن الإمام نفسه : أول من عرفناه يكتب المسند نعيم (١٨) .

(١٧) تاريخ بغداد ٣٠٦/١٣ .

(١٨) تهذيب التهذيب ٤٥٩/١٠ .

من ذلك نتبين قدر نعيم بن حماد ، إنه أول من كتب المسند عن الإمام أحمد ، ونحسب صدقا أنه أول من صنفه واهتم بترتيبه ، ومن ثم يتبين قدر الرجل فى الحديث ومكانته فيه .

وكان نعيم كذلك صاحب فقه ، ويقول عبد الله بن أحمد بن حنبل : قال أبى – عن نعيم – كان من أعلم الناس بالفرائض ، وكنا نسميه نُعيماً الفارض (١٩) .

ولقد مر نعيم بأطوار عدة وتجارب شتى ، لقد كان جهميًّا فى أول أمره ، والجهمية هم حسبما مر بنا أصحاب جهم بن صفوان الذين يقولون بالجبرية ، أى أن الإنسان ليس له إرادة فيما يفعل ، وأن الله هو الفاعل لكل ما يجرى على يديه من خير وشر . إنه يقول : أنا كنت جهميا ، فلذلك عرفت كلامهم ، فلما طلبت الحديث عرفت أن أمرهم يرجع إلى التعطيل . وهو لذلك قد ألف ثلاثة عشر كتابا فى الرد عليهم .

كانت هذه مكانة نعيم بن حماد الخزاعى علما وفقها وحفظا وفضلا ، وكان قد فضّل الإقامة بمصر ، واستقرت به الأحوال فيها ، وأخذ يختلف إلى جامع عمرو فيحدث الناس بحديث رسول الله ﷺ ، ولكن عين الفتنة كانت تبحث عن العلماء فى كل مكان لكى تصادر علمهم وعقيدتهم ، وفى مصر وقعت عينها على عدد من العلماء الأعلام ، ومن بينهم نعيم والبويطى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وابن المواز فيما بعد ، فحمل نعيم والبويطى سنة ثلاث وعشرين ومائتين إلى العراق فى خلافة المعتصم ، وسئل عن القرآن ، فأبى أن يجيبهم بشىء مما أرادوه عليه ، وامتنع عن القول بأن القرآن مخلوق ، فألقى به فى السجن فى سامرا على النحو الذى أشرنا إليه مقيدا فى الحديد ، ولما شعر بنهاية الأجل أوصى بأن يدفن فى قيوده ، وقال تعليلا لذلك : إنى مخاصم .

وفى يوم الأحد الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ٢٢٨هـ أسلم العالم الحافظ الفقيه نُعَيْم بن حماد روحه فى السجن فى سامرا فى أوائل خلافة الواثق ، فجرّ

---

(١٩) تاريخ بغداد ٣٠٧/١٣ .

بقيوده فألقى فى حفرة من غير أن يكفن أو يصلى عليه . هكذا كان يفعل ابن أبى دؤاد وجلادوه بالعلماء . وهكذا كانت نتيجة الفتنة الكريهة غير النائمة . وهكذا كان فعلها بمصابيح هذه الأمة من رجال العقيدة السليمة والإيمان النقى .

أحمد بن نصر الخزاعى :

قدمت قبيلة خزاعة أكثر من شهيد فى الدّفاع عن القرآن الكريم ومقاومة الفتنة التى أثارها المأمون ومن جاء بعده من خلفاء بنى العباس . فهذا نعيم بن حماد الخزاعى الذى مر ذكره مات فى سجنه سنة ٢٢٨ بسامرا ودفن فى حفرة وهو فى قيده دون أن يكفن أو يصلى عليه . وهذا خزاعى آخر عالم فقيه جليل . هو أحمد بن نصر بن مالك الخزاعى الذى قتله الواثق العباسى بسيفه لم تشفع له شيبته وبياض رأسه ولحيته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر .

إننا لا نستغرب إذن موقف الشاعر الخزاعى دعبل بن على حين هجا أربعة من خلفاء بنى العباس هم الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق ، لقد كان هجاء دعبل لهم لأنه كان متشيعا يرى الخلافة فى الطالبيين من أبناء الزهراء البتول فاطمة ، ولكن مقتل شيخين عالمين جليلين من قبيلته على يد المعتصم والواثق هما نعيم وأحمد بن نصر قد زاد موجدة دعبل على العباسيين وعلى المعتصم بخاصة ، فقال فى هجائه هذه الأبيات من قصيدة طويلة[20] :

مُلُوكُ بَنِى العبَّاسِ فى الكُتْبِ سَبْعَةٌ
وَلَمْ تَأْتِنَا عَنْ ثَامِنٍ لَهُمُ كُتُبُ

كَذَلِكَ أهل الْكَهْفِ فى الكَهْفِ سَبْعَةٌ
كِرَامٌ إِذَا عُدُّوا وَثَامِنُهُمْ كَلْبُ

وإِنّى لأُعْلِى كَلْبَهُمْ عَنْهُ رِفْعَةً
لأَنَّكَ ذُو ذَنْبٍ وَلَيْسَ لَهُ ذَنْبُ

---

(٢٠) ديوان دعبل الخزاعى ص ١٠٢ .

لَقَدْ ضَاعَ مُلْكُ النَّاسِ إِذْ سَاسَ مُلْكَهُمْ
وَصِيفٌ وَأَشْنَاسٌ وَقَدْ عَظُمَ الْكَرْبُ

لقد أفحش دعبل فى هجاء المعتصم ، ومن المعروف أن ترتيب المعتصم بين خلفاء العباسيين هو الثامن ، وقد شبهه بكلب أهل الكهف ، وفضل كلب أهل الكهف عليه ، لأن ذاك لم يذنب وأما المعتصم فصاحب ذنوب ، ولعله كان يقصد بذلك تعذيبه للعلماء وإيداعهم السجون ومن بينهم ابن عمه نعيم .

وحين يموت المعتصم يكون قد أخذ العهد لولده هارون الواثق ، وكان الواثق على ما مرّ بنا يجمع بين النقيضين يدعى الاعتزال ويعاقب من لا يقول بخلق القرآن من علماء المسلمين ، وهو فى الوقت ذاته عاكف على العزف منصرف إلى ضرب العود وسماع القيان ومعاقرة الكأس حتى قيل إنه صنع مائة صوت (لحن) . وللمعتصم مفاخره كخليفة قائد يعرف طريقه إلى استجلاب النصر وهزيمة أعداء المسلمين ، ومن ثم نهض الشعراء على كثرة عددهم إلى رثائه حين مات ، والرجل إذا مات ذكرت حسناته وكف عن ذكر سيئاته ، ومن ثم فليقم برثاء المعتصم من أحسن بفضله ، وليصمت من أحصى عيوبه ، ولكن دعبلا لا يرثيه ولا يصمت ، وإنما يهجوه ، فإن له قبله ثأرا ، لقد ألقى بابن عمه نعيم فى السجن بسامرا حتى مات فى أغلاله ، وألقى بجدثه فى حفرة دون كفن أو صلاة عليه ، ولقد أخذ العهد من بعده للواثق الذى قتل ابن عم آخر له ممن تشرف بهم القبيلة هو أحمد بن نصر ، ومن ثم فقد نهض دعبل إلى العودة إلى هجائه بهذه الأبيات[٢١] :

قَدْ قُلْتُ إِذْ غَيَّبُوهُ وَانْصَرَفُوا
فى شَرِّ قَبْرٍ لِشَرِّ مَدْفُونِ
اذْهَبْ إِلى النَّارِ وَالْعَذَابِ فَمَا
خِلْتُكَ إِلاَّ مِنَ الشَّيَاطِينِ

(٢١) الديوان ص ٢٢٩ .

مَازِلْتَ حَتَّى عَقَدْتَ بَيْعَةَ مَنْ
أَضَرَّ بِالْمُسْلِمِينَ وَالدِّينِ

إن المروءة لا ترضى بسبّ الموتى أو هجائهم ، وبخاصة من كان فى مكانة المعتصم مجدا ونصرا ، وقد سلفت الإشارة إلى أن المعتصم لم يكن يفهم من أمر الفتنة شيئا ، ولم يكن إلا منفذا لوصية أخ استبد به الحمق فى آخر حياته هو المأمون فأصر على مفهوم خاطئ عاقب بسببه العلماء واضطهد الفقهاء ، وكان رأس الفتنة الحقيقى هو أحمد بن دؤاد .

ولكن من ناحية أخرى كان المعتصم شخصية عامة ، وكان حاكما ، وإذا كان الحاكم ظالما غاشما مستبدا فمن حق المتضرر منه أن يذكر سوءاته ويبرز أخطاءه ، إن كثيرا من الحكام المستبدين قتلوا العلماء ، وسفكوا دماء الآباء والأزواج ، وصادروا أموال الناس بالباطل ، وأخذوا بيوتهم وأملاكهم ظلما ، فلا تثريب على الفتى اليتيم إذا ما لعن من قتل أباه ، ولا ضرر من الزوجة المترملة أن تسب من قتل زوجها ويتم أطفالها ، ولا جناح على جمهرة المسلمين أن يلعنوا من قتل علماءهم ، ويسبوا من حارب عقيدتهم ، وسلب الناس الأمن والأمان فى أرواحهم ودمائهم وأموالهم وأفكارهم ومعتقداتهم .

من هذا المنطلق لم يكن على دعبل تثريب فى هجاء المعتصم بعد وفاته إذا كان دافعه إلى ذلك هو التنفيس عن الزج بابن عمه نعيم فى السجن مقيدا حتى مات وإلقاء جثته فى إحدى الحفر على النحو البشع الذى أسلفنا تفصيله .

بعد موت المعتصم سار الواثق على الدرب نفسه من إيذاء العلماء على النحو الذى بينا ، فعمد دعبل إلى هجائه وهجاء سلفه المعتصم ، ولكن الوسيلة التى أوصل بها دعبل الأبيات إلى الواثق ربما كانت أكثر إيجاعا وأشد مهانة من الهجاء نفسه ، فقد عمد دعبل إلى طومار فكتب فيه أبيات الهجاء ثم ذهب إلى حاجب الواثق فى عقر دار الخلافة ، فدفع إليه الطومار وقال : أقرئ أمير المؤمنين السلام وقل له : هذه أبيات امتدحك بها دعبل ، فلما فضها الواثق وقرأها بلغ به الغيظ

مبلغا كبيرا وتطلب دعبلا بكل ما يقدر عليه من الطلب ، فلم يستطع الظفر به ، أما الأبيات فهى مزيج من الهجاء للواثق والمعتصم معا وفيها يقول[٢٢] :

الحمدُ للهِ لاَ صَبْرٌ وَلاَ جَلَدُ
وَلاَ عزاءٌ إِذَا أَهْلُ الْبَلاَ رَقَدُوا

خليفةٌ ماتَ لمْ يَحْزَنْ لَهُ أَحَدٌ
وآخَرٌ قَامَ لَمْ يَفْرَحْ بِهِ أَحَدُ

فَمَرَّ هَذَا وَمَرَّ الشُّؤْمُ يَتْبَعُهُ
وَقَامَ هَذَا فَقَامَ الْوَيْلُ وَالنَّكَدُ

وكما هجا دعبل كلا من المأمون والمعتصم والواثق أصحاب الفتنة ، فإنه لم يغفل عن أحمد بن دؤاد أحد رءوس الفتنة ومشعليها ، فقد خصه دعبل بالعديد من قصائد الهجاء التى تنال من عفته ومروءته ، ولكثرة ما جاء فيها من ألفاظ الفحش وعبارات الخنا فقد نزهنا هذه الصفحات عن أن تحوى نماذج منها .

وإذن فقد كان من أسباب هجاء دعبل لبنى العباس ومناصبهم العداء عدوانهم على أعيان بنى قومه وكبار علماء قبيلته ، هذا بالإضافة إلى الخلاف السياسى الأصيل بين مذهبه ومذهبهم .

فإذا ما عدنا إلى أحمد بن نصر بن مالك الخزاعى وجدناه كما يقول الخطيب البغدادى : من أهل العلم والفضل ، مشهورا بالخير ، أمارا بالمعروف ، قوالا للخير ، وكان من سادات بغداد ، وكان جده مالك بن الهيثم الخزاعى أحد نقباء بنى العباس[٢٣] .

---

(٢٢) ديوان دعبل ص ٨٠ ، ١٦٨ .

(٢٣) تاريخ بغداد ١٧٣/٥ ، ١٧٤ .

وكان أحمد بن نصر من أهل الحديث . وينتمى إلى المدرسة التى عليها تخرج أحمد بن حنبل . فقد سمع الحديث من مالك وحماد بن زيد . وهشيم بن بشير . وسفيان بن عيينة . وكان يملك عدة مصنفات لهشيم كما كان عنده عن مالك أحاديث كبار[٢٤] بل إن يحيى بن معين يقول إن أحمد بن نصر كان عنده مصنفات هشيم كلها[٢٥] ثم هو بعد ذلك صاحب رسالة فى هداية الناس وتبصيرهم بالاستقامة ونهج الصواب . فقد بايع الناس على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو وصاحبه سهل بن سلامة . وكان ذلك أيام المأمون .

ولقد اتهم أحمد بن نصر بأنه يدعو لنفسه من خلال مريديه الذين عاهدوه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فنمّ عليه وعليهم قوم إلى إسحاق بن إبراهيم صاحب شرطة بغداد فألقى القبض عليهم وحملهم مقيدين إلى « سر من رأى » ومثلوا أمام الواثق . فجلس لهم واختص من بينهم أحمد بن نصر وقال له : دع ما أخذت له . ما تقول فى القرآن ؟

وهنا نقف قليلا لكى نتدبر هذا الموقف . كيف يترك خليفة مساءلة متهم بالخروج عليه مهدد لملكه فلا يوجه إليه تهمة فى ذلك وإنما يسأله عن قضية أخرى لا تهدد بنيان الخلافة وهى قضية خلق القرآن . إن المسألة فى ظننا لم تخرج عن كونها تمثيلية – بلغة عصرنا – أومكيدة دبرت لكى يلقى القبض على أحمد بن نصر باعتباره واحدا من أعيان العلماء الذين يجاهرون برأيهم بين الناس برفض فتنة خلق القرآن . ذلك ما يتمشى مع العقل ويرتضيه المنطق وعكس هذا مرفوض إلا إذا كان الواثق قد بلغ به الجنون بفكرة خلق القرآن فتصور أنها أهم من ثبات ملكه وكيان خلافته . وهو أمر مستبعد إلى حد كبير .

كان أحمد بن نصر الخزاعى على علمه وفضله وتقاه شيخا كبيرا أبيض الرأس واللحية حسبما وصفه من رآه حيا ومن رأى رأسه مصلوبة بجوار جسر بغداد بعد أن قتله الواثق سنة ٢٣١ . لقد سمع أحمد بن نصر الحديث من الإمام مالك .

---

(٢٤) تهذيب التهذيب ٧٨/١ .

(٢٥) تاريخ بغداد ١٧٥/٥ .

ولاشك فى أنه فعل ذلك وعمره أكثر من عشرين سنة ؛ لأنه بغدادى ، والإمام مالك لم يترك المدينة . والمرء لا يغترب فى طلب الحديث فى بلد آخر قبل هذه السن . وبخاصة إذا كانت بلده حافلة بجلة العلماء وصفوة رجال الحديث . ولقد توفى الإمام مالك سنة ١٧٩هـ ومعنى ذلك أن صاحبنا أحمد بن نصر ولد قبل سنة ١٥٩ فيكون عمره حين قتله الواثق يناهز الخامسة والسبعين . فهل بعد ذلك من خسة . وهل بعد ذلك من جبن ؟

إن الواثق يقول فى استئساد للشيخ الوقور العجوز : دع ما أخذت له . ما تقول فى القرآن ؟ قال : كلام الله . قال : أفمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله . قال : أفترى ربك يوم القيامة ؟ قال : كذا جاءت الرواية . فقال : ويحك . يرى كما يرى المحدود المتجسم ؟ يحويه مكان ويحصره الناظر ؟ أنا أكفر برب هذه صفته . ثم نظر الواثق إلى من حوله من المستوظفين الأجراء وفى مقدمتهم عبد الرحمن بن إسحاق قاضى الجانب الغربى من بغداد وقال : ما تقولون فيه فقال ابن إسحاق : هو حلال الدم . ووافقه على ذلك جماعة ممن وصفوا بأنهم فقهاء . وهنا يخشى ابن أبى دؤاد على الخليفة مغبة قتل رجل فى العقد الثامن من عمره . لم تخرج إجاباته عن جادة . ولم تتعد جانب التحرز . فقد قال : هكذا جاءت الرواية . وهى إجابة لبقة لا تحتمل أية مؤاخذة . لقد حذر ابن أبى دؤاد الخليفة بقوله : يا أمير المؤمنين . شيخ مختل . لعل به عاهة أوتغير عقل يؤخر أمره . فرفض الواثق شفاعة ابن أبى دؤاد . وما كان ابن أبى دؤاد ليتشفع لو أن الرجل كان متهما بالخروج على الخلافة . ويقول الواثق : ما أراه إلا مؤديا لكفره . قائما بمعتقده . ودعا بالسيف الصمصامة وقال : إذا قمت إليه فلا يقومن أحد معى . فإنى أحتسب خطاى إلى هذا الكافر الذى يعبد ربا لا نعبده ولا نعرفه بالصفة التى وصفه بها . ثم أمر بالنطع فأجلس عليه الشيخ الكبير وهو مقيد . وأمر بشدّ رأسه بحبل . وأمر الجلادين أن يمدوه . ومشى إليه فضرب عنقه . وأمر بحمل رأسه إلى بغداد . وعلقت فى أذنه رقعة مكتوب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم « هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك . دعاه عبد الله الإمام

هارون وهو الواثق بالله أمير المؤمنين إلى القول بخلق القرآن ونفى التشبيه . فأبى إلا المعاندة فعجله الله إلى ناره » وكان كاتب الرقعة بأمر الواثق الكاتب الوزير محمد بن عبد الملك الزيات (٢٦) .

إن الجريمة برمتها مخجلة . ومما يزيدها خجلا أن الذى يقتل العالم الجليل هو الخليفة بنفسه . والأكثر من ذلك مدعاة إلى الخجل أنه كان خليفة طبّالا زمارا لا تفارقه الكأس ولا تبعد عنه القيان .

لقد تمت جريمة القتل ليومين بقيا من شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين . ونصب رأس أحمد بن نصر على رأس جسر بغداد يوم السبت فى مستهل رمضان . ولم يزل رأسه منصوبا ببغداد وجسده « بسر من رأى » ست سنين إلى أن جمع بين رأسه وبدنه ودفن ببغداد فى شوال سنة سبع وثلاثين ومائتين . وقيل بل كان قتله يوم السبت غرّة رمضان سنة إحدى وثلاثين ومائتين فيكون الشيخ الجليل قد قابل ربه صائما (٢٧) .

لم تكن مثل هذه الجريمة البشعة لتمر على الناس دون أن تنال من كيانهم وتهز عواطفهم هزا . ولذلك صار أحمد بن نصر يعرف بين الناس بالشهيد ، وبدأت الروايات حول كرامات له تترى وتتزاحم فى أسماع الناس . ولئن صحت هذه الكرامات – وليس ذلك بمستبعد – أو لم تصح . فإن لها دلالات عميقة . لأنها تعبر عن مد سخط الناس على الجريمة ومقترفيها ومن ثم تخلع الجمهرة على القتيل المظلوم صفات تزيد فى تعظيمه . وتردد روايات تجسم تكريمه وترفع من قدره .

يروى الخطيب البغدادى هذا الخبر عن إبراهيم بن إسماعيل بن خلف قال : كان أحمد بن نصر خُلّى . فلما قتل فى المحنة وصلب رأسه ، أخبرت أن الرأس

---

(٢٦) تاريخ بغداد ١٧٧/٥ .

(٢٧) رويت القصة بطريقة أخرى فحواها أن الواثق لما عقد مجلسا لامتحان أحمد بن نصر أتبع سؤاله بشتمه . فشتمه أحمد هو الآخر فقام الواثق إليه فضربه بالسيف على عاتقه ثم على رأسه . وتقدم الجلاد فحز رأسه . وتلك رواية للطبرى والمسعودى .

يقرأ القرآن . فمضيت فبتّ بقرب من الرأس مشرفا عليه . وكان عنده رجّالة وفرسان يحفظونه ؛ فلما هدأت العيون سمعت الرأس تقرأ :

« أَلَم ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ » .

فاقشعر جلدى . ثم رأيته بعد ذلك فى المنام وعليه السندس والاستبرق . وعلى رأسه تاج فقلت : ما فعل الله بك يا أخى ؟ قال : غفر لى وأدخلنى الجنة . إلا أنى كنت مغموما ثلاثة أيام . قلت : ولم ؟ قال : رأيت رسول الله ﷺ مرّ بى فلما بلغ خشبتى حوّل وجهه عنى . فقلت له بعد ذلك : يا رسول الله . قتلت على الحق أو على الباطل ؟ فقال : أنت على الحق . ولكن قتلك رجل من أهل بيتى . فإذا بلغت إليك أُستحى منك[٢٨] » .

للقارئ أن يصدق هذه الرؤيا . ورؤيا الصالحين صادقة دائما إذا لم تكن موضوعة . وله أن يغض الطرف عنها . ولكن أمرا هاما ينبعث من خلف رواية هذه المنامات . وغيرها من الأخبار التى نسبت إلى رأس أحمد بن نصر ، هذا الأمر هو التعاطف مع هؤلاء الضحايا من العلماء الأبرار . وهذا التعاطف يحمل فى طياته السخط على مثيرى الفتنة واستجلاب اللعنة عليهم من قلوب الناس قبل أفواههم .

بل إن المحنة قد جعلت من أهل مرو أبطالا أو بالأحرى استغلها أهل مرو ليشيدوا ببطولاتهم فى الذود عن حمى الدين ودفع الباطل عن العقيدة الإسلامية والاستبسال فى تحمل الأذى بسببها . فإنهم يقولون لم يصبر فى المحنة إلا أربعه كلهم من أهل مرو : أحمد بن حنبل أبو عبد الله . وأحمد بن نصر بن مالك الخزاعى . ومحمد بن نوح بن ميمون المضروب . ونعيم بن حماد وقد مات فى السجن مقيدا .

وفى الحق أن لأهل مرو أن يفخروا بذلك ويجعلوا منه مصدر اعتزاز . ولكن من الحق أيضاً أن نقرر أن كثيرا من علماء المسلمين فى أنحاء الأقطار قد نالهم من

---

(٢٨) تاريخ بغداد ١٧٩/٥ .

الأذى الشيء الكثير . ولقد ضربنا مثلا بثلاثة من فقهاء مصر وأئمتها وهم البويطى وابن عبد الحكم وابن الموّاز .

ومن الأخبار التى تروى حول مقتل أحمد بن نصر ، خبر يحمل فى ثناياه دلالة تمجيد العالم الشهيد ومدى تعاطف الناس معه إلى المدى الذى أقلق الخليفة المتوكل أخا الواثق والمتولى الخلافة بعده . وكان هذا القلق نفسيا . وشكل جرحا معنويا فى ضميره .

يقول الخطيب البغدادى : لما جلس المتوكل دخل عليه عبد العزيز بن يحيى المكى فقال : يا أمير المؤمنين . ما رؤى أعجب من أمر الواثق . قتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن . قال : فوجد المتوكل من ذلك . وساءه ما سمعه فى أخيه . إذ دخل عليه محمد بن الملك الزيات فقال له : يا ابن الزيات : فى قلبى من قتل أحمد بن نصر ، فقال : يا أمير المؤمنين . أحرقنى الله . إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرا . قال . ودخل عليه هرثمة . فقال : ياهرثمة . فى قلبى من قتل أحمد بن نصر ، فقال : يا أمير المؤمنين قطعنى الله إربا إربا إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرا . قال . ودخل عليه أحمد بن دؤاد . فقال : يا أحمد فى قلبى من قتل أحمد بن نصر ، فقال : يا أمير المؤمنين . ضربنى الله بالفالج إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرا . قال المتوكل : فأما ابن الزيات . فأنا أحرقته بالنار . وأما هرثمة فإنه هرب وتبدى واجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجل من الحى . فقال : يا معشر خزاعة . هذا الذى قتل ابن عمكم . أحمد بن نصر . فقطعوه إربا إربا . وأما ابن أبى دؤاد فقد سجنه الله فى جلده .

مرة أخرى نقول : للمرء أن يقبل صحة هذه الرواية أويرفضها . ولكن مصائر الرجال الثلاثة الذين سألهم المتوكل . وكلهم اشترك فى الفتنة انتهت على النحو الذى ذكره المتوكل . ومعنى ذلك أن جمهرة المسلمين باتت مستنكرة لما حل بالعلماء من قتل وتعذيب . وأنها رأت حكم الله فى مشعليها . وأن لعنة كامنة كانت تتفجر من نفوسهم فتصورها خواطرهم فى رواية أخبار صحيحة . أو فى

ابتكار قصص تريح نفوسهم . وتنفس عن آلامهم . وتخفف من عمق جراحاتهم .

لقد رثى الإمام أحمد بن حنبل الشهيد أحمد بن نصر بكلمتين فقال : رحمه الله ماكان أسخاه . لقد جاد بنفسه .

وأما دعبل ابن عمه فقد رثاه وطلب الثأر له وحضّ على الثورة ضد العباسيين ونادى بشنّ الحرب عليهم وإعمال القتل فيهم وترك جثثهم نهبا لسباع الأرض وسباع الطير وكان يعاير الخليفة هارون الواثق بمقتل عمه الأمين(٢٩) :

بَنِى مَالِكٍ صُونُوا الجُفُونَ عَنِ الكَرَى
ولاَ تَرْقُدُوا بَعْدَ ابنِ نَصرِبْنِ مَالِكِ
فَقَدْ حَمَلَتْهُ لِلْقُبورِ مَطِيَّةٌ
أَنَافَتْ بِهَادِيهِ عَلَى شَخْصِ بَابَكِ
وَسُلُّوا مِنَ الأَجْفَانِ كُلَّ مُهَنَّدٍ
بَصِيرٍ بِضَرْبٍ لِلطُّلَى مُتَدَارِكِ
يَقُومُ بِهِ لِلْهَاشِمِيَّاتِ مأْتَمٌ
لَهُ ضَجَّةٌ يَبْكِي بِهَا كلُّ ضَاحِكِ
تُذَكِّرُهُمْ قَتْلَى بِبَدْرٍ تَنُوشُهُمْ
سِبَاعٌ وَطَيْرٌ مِنَ سِبَاعٍ بَوَارِكِ

---

(٢٩) ديوان دعبل ص ٢٥١ . ٢٥٢ .

المعانى : الكرى النوم . بابك هو بابك الخرمي وكان جسم أحمد بن نصر قد صلب عليه فى سامرا . الأجفان مفرده جفن وهو قراب السيف . والطلى الأعناق . المتدارك المتتابع . الهاشميات نساء بنى هاشم يعنى نساء بنى العباس . محمد هو الأمين العباسي ويعرف أيضاً بالمخلوع . وهارون فى البيت الأخير هو الخليفة الواثق بن المعتصم .

كَماَ فَتَكَتْ أَسْيَافُهُمْ بِمُحَمَّدٍ
وَهَدَّتْ مَبَانِى عَرْشِهِ الْمُتَمَاسِكِ
فَطُلَّ دَمُ الْمَخْلُوعِ وَانْتُهِكَتْ لَهُ
ذَخَائِرُ مِنْ مَنْقُوشَةٍ وَسَبَايِكِ
فَإِنْ غُصَّ هَارُونُ بِجُرْعَةِ عَمِّهِ
فَأَيْسَرُ مَفْقُودٍ وَأَهْوَنُ هَالِكِ

على أن الموقف أجل من كلمة مواساة وأعظم من أن تقوم به قصيدة رثاء . فقتل الناس بغير ذنب جريمة شنعاء . ويكون الموقف أكثر شناعة إذا وقع القتل على العلماء . وتصبح الشناعة أدعى إلى إدماء المشاعر إذا كان العالم القتيل فى الخامسة والسبعين من العمر . كم كان أحمق ذلك الذى كان يعرف بالواثق ! !

يوسف بن يحيى البويطى :

سلف القول بأن نعيم بن حماد الخزاعى العالم الفقيه قد حمل من مصر إلى العراق . وحمل معه أيضاً أبو يعقوب يوسف البويطى سنة مائتين وثلاث وعشرين . ولقد ظل الفقيهان الجليلان فى السجن حتى ماتا فى قيدهما . الأول مات فى سجن سامرا فى جمادى الأولى سنة ٢٢٨ وألقى به حفرة دون كفن أو غسل . والثانى مات فى سجنه وقيده ببغداد سنه ٢٣١هـ .

إن البويطى حين أخذ للامتحان أمام عصابة خلق القرآن كان شيخ علماء مصر . ورئيس حلقة الإمام الشافعى وخليفته عليها . ومن هنا يتضح كم كان الثمن الذى دفعته مصر فى هذه الفتنة الخرقاء فادحا .

والبويطى هو أبو يعقوب يوسف بن يحيى القرشى المصرى الفقيه . من أولئك الأعلام البررة الذين خرجوا من قرى مصر ليكونوا بعلمهم وفضلهم وتضحياتهم منارات للهدى ومصابيح للأنام .

إن أبا يعقوب البويطى من قرية بويط القريبة من بنى سويف فى صعيد مصر الأدنى . مثلما كان الإمام الليث بن سعد من قرية قلقشندة – حاليا قرقشنده – من ريف مصر فى منطقة القليوبية غير بعيد عن الفسطاط عاصمة مصر إلى ما قبل بناء القاهرة .

والبويطى شأنه فى ذلك شأن بقيه علماء مصر فى القرنين الأول والثانى خريج جامعة الفسطاط التى كانت حلقات علمها تنعقد فى جامع عمرو بن العاص . ومن هذه الجامعة العتيدة تخرج صفوة العلماء المسلمين فى الفقه والحديث واللغة والأدب والتاريخ .

وكان البويطى تلميذا لعبد الله بن وهب صاحب مالك . وابن وهب مصرى كما هو معروف صاحب مالكا عشرين سنه . وأخذ عنه علمه . ثم عاد إلى موطنه مصر هو وزميلاه فى حلقة مالك عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز .

ولما جاء الشافعى إلى مصر سنة ١٩٩هـ ولفت أنظار الناس بعلمه الغزير. وأدبه الجم . وفصاحته الطلقه . وطريقة تخريجه للأحاديث . ووسيلة استنباطه للأحكام . التفّ حوله العلماء الشبان النابهون . وفى مقدمتهم أبو يعقوب البويطى الذى احتل منزلة خاصة من قلب الإمام القرشى . وكان البويطى قرشيا أيضاً حسبما سلف القول .

واكتملت للبويطى أسباب العلم وأدوات الفتيا فكان الرجل ربما يسأل الشافعى عن المسألة فيقول له : سل أبا يعقوب . فإذا أجابه أخبره . فيقول الشافعى : هو كما قال[٣٠] .

كان البويطى عالم مصر بعد الشافعى وإمامها . يصفه ابن عبد البر فيقول : إنه كان من أهل الدين والعلم والفهم والثقة . صلباً فى السنة ، يرد على أهل البدع . وكان حسن النظر[٣١] . ولقد صدق ابن عبدالبر كل الصدق . ويضاف

---

(٣٠) تاريخ بغداد ١٤/٣٠٠ .

(٣١) تهذيب التهذيب ١٣/٤٢٨ .

إلى ذلك أن الفقيه الجليل كان من أكثر الناس صحة استشهاد بالقرآن وسرعة استحضار للآية التي تدعم إجاباته عن المسائل وفي هذا يقول الربيع بن سليمان صاحب الشافعي وتلميذه . وصاحب البويطي أيضاً : ما رأيت أحدا أسرع بحجة من كتاب الله تعالى من أبي يعقوب البويطي ، وتروى العبارة بطريقة أخرى سديدة أيضاً وهي : ما رأيت أحدا أنزع بحجة من كتاب الله تعالى من أبي يعقوب .

والإمام الشافعي كان شديد الاختلاط بتلامذته . كثير الحب لهم . دائم الحوار معهم . وكان ببصيرته النافذة وشفافيته الخارقة ربما تنبأ للواحد منهم بمصيره في مستقبل أيامه . ومن الأمور العجيبة أن الشافعي يتنبأ للبويطي بأنه سوف يموت في الحديد وتصدق نبوءته . فلقد روى الربيع بن سليمان قائلا : كنت عند الشافعي أنا والمزني وأبو يعقوب البويطي فنظر إلينا فقال لي : أنت تموت في الحديث . وقال للمزني هذا لو ناظره الشيطان قطعه . وقال للبويطي أنت تموت في الحديد . يقول الربيع : فدخلت على البويطي أيام المحنة فرأيته مقيدا إلى أنصاف ساقيه مغلولة يده إلى عنقه .

لقد كان البويطي من العلم والفضل والتقوى والزهد بحيث استخلفه الشافعي على حلقة درسه بعد وفاته .

صحيح أن نزاعا حدث بين أصحاب الشافعي بعد وفاته عن أيهم يجلس مكانه . وكان محمد بن عبد الله بن عبد الحكم يرى نفسه أحق بذلك . وكان هو الآخر قريبا من قلب الشافعي ، وكان ذا علم وفضل ودين . ولكنه كان لا يزال حديث السن بالقياس إلى الآخرين . ولقد حسم الأمر شهادة الحميدى صاحب الشافعي وتلميذه في مكة وكان قد جاء لزيارته في مصر وظل بها إلى أن توفى الإمام ، فشهد بأنه سمع الشافعي يقول : ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف بن يحيى ، وليس أحد من أصحابي أعلم منه ، وبشهادة الحميدى حسم الموقف ، وصارت رئاسة حلقة الشافعي للبويطي .

كان الحميدى صادقا الصدق كله فى رواية وصية الشافعى . فقد سلف القول أن الرجل ربما سأل الشافعى عن مسألة فيقول له : سل أبا يعقوب .

وتفتش الفتنة على علماء الأمة لتستأصلهم جميعا دفعة واحدة كأنها الطاعون ، وتجمع أفراد العلماء من العراق وخراسان والحجاز والشام ومصر . ويحمل البويطى من حلقة علمه الواسعة بجامع عمرو . ويقيد بالحديد ثم يرحّل على بغل إلى بغداد . ويطلب إليه أن يقول بخلق القرآن . ولكن أنى لهم ذلك . إنه تلميذ الشافعى وأثيره . وهو قبل ذلك تلميذ ابن وهب الذى ورث علم مالك . ثم هو قبل ذلك خريج مدرسة الليث بن سعد . وناهيك عن عالم جمع علم الليث ومالك والشافعى .

لقد امتنع البويطى عن القول بخلق القرآن وحاور القوم وحاوروه . وأفحمهم بالحجة من الكتاب والسنة ومن دليل العقل . ولكنهم ألقوا به فى قعر سجن بغداد مع جمهرة أخرى من العلماء ، وقد زادوا له فى القيد ثقلا ، وفى السلاسل وزنا . وكانوا قبل ذلك قد فعلوا الشىء نفسه مع العالم الجليل تعذيبا وتنكيلا . وهو مع ذلك كله يردد القول الذى يسفههم ، وينطق بالحجة التى تلجمهم .

يقول الربيع بن سليمان : رأيت البويطى على بغل ، فى عنقه غل . وفى رجليه قيد ، وبين الغل والقيد سلسلة حديدية فيها طوبة وزنها أربعون رطلا وهو يقول : إنما خلق الله الخلق بكن . فإذا كانت كن مخلوقة . فكأن مخلوقا خلق مخلوقاً .

وكان البويطى شديد البأس فى يقينه ، مستبسلا فى عقيدته ضد أصحاب الفتنة ، ويقول فى ذلك : فوالله لأموتنّ فى حديدى هذا حتى يأتى من بعدى قوم يعلمون أنه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم ، ولئن أدخلت إليه لأصْدُقَنَّه ، يعنى الواثق [٣٢] .

هكذا كان البويطى عظيما وهو فى محنته ، ومن الأمور الغريبة أن يحول زبانية

---

(٣٢) تاريخ بغداد ١٤/٣٥٧ .

الفتنة بين البويطى وبين أن يلقى الواثق . مع أن كثيرا من الممتحنين كانوا يمثلون أمامه . ولكن ربما خشى القوم أن يفحم العالم المصرى الجليل الخليفة الغافل المتطرف فينقلب عليهم . ولقد حدث ذلك بالفعل حسبما ذكرنا فى صفحات سابقة حين ناظر أعرابى مجهول ابن أبى دؤاد فى خلق القرآن أمام الواثق فأفحمه وأقلع الواثق بعدها عن امتحان العلماء . ولكن بعد أن قتل العلماء بالسيف وبعد أن زهقت أرواحهم فى سجون بغداد وسامرا .

لقد حول البويطى سجن بغداد على ضيقه وظلمته إلى حلقة درس . ومجلس حديث ، ومحراب صلاة ، وساحة عبادة . لقد عقد مجلس الحديث ، وكأنه على رأس حلقته فى جامع عمرو بالفسطاط وسمع منه كبار العلماء الذين جئ بهم من الأقطار الإسلامية وفى مقدمتهم أبو الوليد بن أبى الجارود ابن مكة المكرمة وواحد من فقهائها الذين وسعهم سجن بغداد .

وكان البويطى دائم الصلاة فى السجن ليلا ونهارا . يقول أبو الوليد بن أبى الجارود . كان أبو يعقوب البويطى جارى . فما كنت أنتبه ساعة من الليل إلا سمعته يقرأ ويصلى .

لقد استعذب البويطى العذاب . وراض نفسه عليه فى سبيل كلمة الحق وعقيدة الصدق . فلا يحس بثقل الحديد ولا بعذاب القيد . فقد كتب من السجن ببغداد إلى الربيع بن سليمان فى مصر قائلا : إنه ليأتى علىّ أوقات ما أحس بالحديد أنه على بدنى حتى تمسه يدى .

والبويطى وهو فى سجنه فى بغداد قلبه مع صحابه وتلاميذ حلقته التى خلفه الربيع عليها فى مصر ، إنه يفكر فيهم ، ويهتم بأمرهم . مع علمه أنه هالك فى سجن بغداد ولا سبيل لديه أو أمل فى الرجوع إلى الفسطاط العزيزة . وإلى الأهل والولد والأقربين والصحاب . إنه يكتب للربيع تلك الكلمات العظيمة التى مر ذكرها ثم يستطرد قائلا : فإذا قرأت كتابى هذا فأحسن خلقك مع أهل حلقتك . واستوص بالغرباء خاصة خيرا ، فكثيرا ما كنت أسمع الشافعى يتمثل بهذا البيت :

أَهِينُ لَهُمْ نَفْسِي لِكَيْ يُكْرِمُونَها
وَلاَ تُكْرَمُ النَّفْسُ التِي لاَتُهِينُها

ويعلم الإمام البويطى أن صلاة الجمعة فرض . وأن طول الإقامة فى دار الغربة لا يسقط أداءها . ومن ثم فإنه كان إذا سمع المؤذن وهو فى السجن يوم الجمعة اغتسل ولبس ثيابه ومشى حتّى يبلغ باب السجن . فيقول له السجان : ارجع . فيقول : اللهم انك تعلم أنى قد أجبت داعيك فمنعونى[٣٣] .

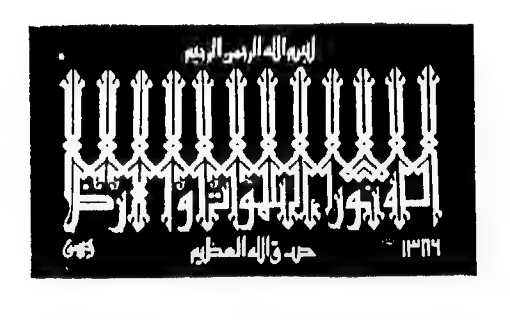
وتطول إقامة البويطى فى سجنيه ببغداد . سجن أصحاب الفتنة . وسجن القيد . وهو صابر محتسب عند الله ما بذله من تضحيات وما لقّى من عذاب . وتمضى ثمانى سنوات طوال ثقال . وتنطفئ الشمعة المضيئة فى سجن بغداد . ويموت الإمام البويطى فى قيده . غريبا فى سجنه . فى شهر رجب سنة ٢٣١هـ فى خلافة الواثق . وفى السنة نفسها الّتى استشهد فيها أحمد بن نصر .

وتنطوى صفحه حياة العالم العامل المجاهد الذى قال : فوالله لأموتن فى حديدى هذا حتّى يأتى بعدى قوم يعلمون أنه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم . لقد ظل البويطى فى الحديد ثمانية من الأعوام العجاف . ومات فى السجن مقيدا فيه . وها نحن بعد أكثر من أحد عشر قرنا من الزمان نذكره ونترحم عليه ونقول : إنه قد مات قوم فى هذا الشأن فى حديدهم .

نضّر الله وجه البويطى وجعل منه قدوة للعلماء . فلا نامت أعين الجبناء .



(٣٣) تهذيب التهذيب ٤٢٨/١١ .


بسم الله الرحمن الرحيم
الله نور السموات والأرض
صدق الله العظيم
١٣٦٦

الفصل السادس

ابن حنبل الإمام

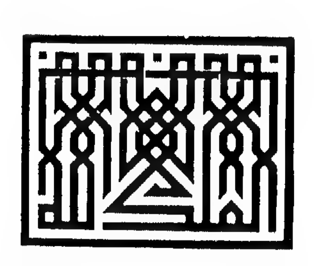
* العلم والتقوى .
* أحمد بن حنبل أستاذ لشيوخه .
* الإمام الزاهد الورع المتسامح .
* أحمد الإمام القدوة

سلوكه فى المحنة

* علماء المسلمين يبايعونه بالإمامة .

وفاته استفتاء لإمامته

* حنابلة أساءوا إلى الإمام أحمد .







الفصل السادس

ابن حنبل الإمام

للإمامة مؤهلات معينة وشروط خاصة لا تتوافر لدى كل من وهب نفسه للعلم وصار فيه ذا نباهة وشهرة . ولا تتهيأ لكل من سجد لله مصليا أو قضى الدهر صائما . وإنما الإمامة علم وعمل . وفقه وحديث . وحسن اجتهاد وجودة استنباط . وسلوك وعبادة . وتبصير وهداية . ونصح وقدوة . ودرس وتحصيل . وشجاعة وثبات . وزهد في الدنيا والمال . وعزف عن الحكم والسلطان . وتعفف وهيبة . وحب للناس وتكريم لهم . وعطف على اليتامى وحدب عليهم . وحلم وتسامح . ودفاع عن الحق ودفع للظلم . ثم هي بعد ذلك مبايعة من خاصة العلماء واتباع من عامة الناس . والمبايعة التي نقصد إليها ليست مبايعة بالخلافة أو السلطنة أو الحكم . ولكنها مبايعة الحب والثقة والإجلال . فما لم يحز الإمام حب الناس وثقتهم واحترامهم فقد حرم أوليات مؤهلات الإمامة . ولقد كان أحمد بن حنبل يحوز كل تلك المزايا والمؤهلات . ويمتلك جميع هذه الشمائل والصفات

— ١ —

العلم والتقوى :

كان أحمد بن حنبل إمام عصره . إليه يقصد كل طالب علم . وله يشهد أعيان الزمان . بل إن شهادة العلماء له كانت مبكرة ولما يزال غض العود رطب العمر في ربيع الحياة . فقد أسلفنا القول أن أبا سهل الحافظ الهيثم بن جميل محدث بغداد ونزيل أنطاكية تنبأ للفتى أحمد بن حنبل بالعلم والاستقامة والإمامة فقال : لو عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه .

ولا يقف الأمر عند حد التنبأ ولكنه يصل إلى حد الإقرار والاعتراف بعلم

أحمد وهو فى أوليات الثلاثين من العمر . ويزداد وزن هذا الإقرار إذا كان صادرا من إمام عظيم من أئمة هذه الأمة هو محمد بن إدريس الشافعى . يقول المزنى أحد تلامذة الشافعى وصحابه النابهين : قال الشافعى . رأيت ببغداد شابا إذا قال حدثنا . قال الناس كلهم صدق . قلت من ؟ قال : أحمد بن حنبل[1] . ولقد سلف أن روينا أن الشافعى رأى فى بغداد ثلاث عجائب إحداهن أحمد بن حنبل . لقد غادر الشافعى بغداد سنة ١٩٩ هـ قادماً إلى مصر . وكان أحمد فى تلك السنة فى اليمن يطلب الحديث من عبد الرزاق بن همام . فلم ير الشافعى ابن حنبل فى تلك السنة وإنما كان الشافعى – حسب رواية الزعفرانى – قدم بغداد سنة ١٩٥ هـ وأقام بها سنتين . وهى الفترة التى لازمه فيها أحمد بن حنبل . وفيها كان هذا الانطباع الجميل الذى وقر فى خاطر الشافعى عن الشاب العالم من بنى شيبان .

وتتأكد إمامة العلم والفقه والتقى والورع لأحمد بشهادة أخرى للشافعى رواها عنه تلميذه وصاحبه حرملة بن يحيى . وكان الشافعى كثير الإخبار عن أحمد بن حنبل لصحابه المصريين . وكأنما قد أراد أن يوجد رابطة مابين صحابه فى بغداد وصحابه فى مصر . يقول حرملة : سمعت الشافعى يقول : خرجت من بغداد وما خلفت بها أحدا أتقى ولا أورع ولا أفقه من أحمد بن حنبل[2] . ويورد الذهبى الخبر برواية أخرى تحمل الثناء ذاته وهو : ما خلفت ببغداد أفقه ولا أورع ولا أعلم من أحمد بن حنبل . فيكون الشافعى قد شهد لابن حنبل بإمامة بغداد . بل العراق . فى العلم والفقه، والتقى والورع .

وهذا عبد الرزاق إمام حفاظ اليمن وفقهائها وأستاذ أحمد يشهد له بالسبق فى الفقه والورع فيقول : مارأيت أفقه من أحمد بن حنبل ولا أورع .

وأما يحيى بن معين إمام الجرح والتعديل فى علم الحديث . ورفيق أحمد فى السماع على كبار شيوخ العصر والأخذ عنهم . فإنه يقرن شهادته لأحمد بالقسم

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبى عن مقدمة المسند ص ٦٥ .

(٢) تاريخ بغداد ٤١٩/٤ .

الأعظم فيقول : والله ماتحت أديم السماء أفقه من أحمد بن حنبل . ليس فى شرق ولا غرب .

وماكان لرجل فى مثل علم يحيى بن معين ودينه وتحرزه ودقة أحكامه أن يطلق مثل هذه اليمين مالم يكن عارفا بقدر أحمد فى فقهه وعلمه . ولقد كان أحمد كذلك . فلقد كان رفيق دراسته فى العراق والحجاز حسب ما أسلفنا القول فى صفحات سابقة .

إن أئمة الحجاز يشهدون لأحمد بالإمامة ممثلين فى الشافعي وابن عيينة . وأئمة اليمن يشهدون له ممثلين فى عبد الرزاق . وأئمة العراق يشهدون له ممثلين فى يحيى بن معين وأستاذهم يزيد بن هارون وغيرهما ممن سوف نعرض لآرائهم فى أحمد فى موطن آخر قادم . ويشهد له أئمة خراسان ممثلين فى إسحاق بن راهويه رفيقه فى رحلة اليمن . وأئمة مصر ممثلين فى الشافعي وصحابه الذين رووا عنه وفى مقدمتهم المزنى وحرملة والربيع . ثم لا يلبث حرملة أن يدلى بشهادته الخاصة فى أحمد غير متأثر بأستاذه الشافعي . فقد كانت شهادته هذه بعد أن انتقل الشافعي إلى الرفيق الأعلى . وهذه الشهادة مسطورة فى أحد كتبه بخط يده نقلها عنه الحافظ الذهبى .

يقول الذهبى نقلت من خط حرملة عن أحمد : « انتهت إليه الإمامة فى الفقه والحديث والإخلاص والورع . وأجمعوا على أنه ثقة حجة إمام » .

هكذا كان الإمام أحمد حجة إماما . والحجة الإمام لابد له من شمائل ومزايا يختص بها دون غيره من كافة جمهرة الناس . وهو ما تنبه حرملة إلى تسجيله بخط يده ونقله الذهبى عنه أيضا . وتلك المزايا والشمائل والأوصاف هى : « عالم العصر . وزاهد الوقت . ومحدث الدنيا . ومفتى العراق . وعلم السنّة . وباذل نفسه فى المحنة . وقل أن ترى العيون مثله . كان رأسا فى العلوم والعمل . والتمسك بالأثر . ذا عقل رزين . وصدق متين . وإخلاص مكين . وخشية ومراقبة العزيز العليم . وذكاء وفطنة . وحفظ وفهم . وسعة علم . هو أجلّ من أن يمدح بكلمى . وأن أفوه بذكره بفمى »[٣] .

(٣) تاريخ الإسلام عن مقدمة المسند ص ٣٧ .

كانت تلك حقيقة صفات الإمام أحمد ومزاياه العلمية والخلقية . وإن ما بسطناه عن سيرته فيما تقدم من فصول يحوى وقائع عديدة كلها تشهد بصدق وصف حرملة له . وإن كان حرملة ليس محل شك حتى نؤكد صدقه . هذا فضلا عن كونه غير صاحب مصلحة فى أن يخلع على إمام المسلمين بالعراق ماليس فيه من صفات .

لقد ذهب محمد بن جرير الطبرى إلى أن أحمد بن حنبل كان محدثا فقط ولم يكن فقيها . ومن ثم فهو ليس بصاحب مذهب . لأن أئمة المذاهب لابد لهم أن يكونوا فقهاء محدثين . ولقد لقى الطبرى بسبب قوله هذا نصبا . ولعله قد تسرع فى إصدار حكمه على أحمد وتجريده من صفة الفقيه . وقد شهد له أئمة المسلمين فى بقاع الأرض المعاصرين له بالفقه والحديث والتقى والورع والأمانة والإمامة .

— ٢ —

أحمد بن حنبل أستاذ لشيوخه :

الإمامة فى الفقه والحديث درجة لايصل إليها إلا من يبز أهل زمانه فيهما أو فى أحدهما بحيث يروى عنه جميع معاصريه بما فى ذلك أساتذته . لقد رأينا ذلك عند أبى حنيفة ومالك والشافعى . ولما كان أحمد بن حنبل ينتظم عقد هذه الصفوة من أئمة علماء المسلمين . فقد وجدنا شيوخه يروون عنه ويأخذون منه . لقد رأينا فى فصل سابق كيف أخذ أحمد بن حنبل عن الشافعى فى مكة وبغداد . وعن عبد الرحمن بن مهدى فى البصرة . ووكيع بن الجراح فى الكوفة . ويزيد بن هارون فى واسط . وعبد الرزاق بن همام فى صنعاء اليمن وكيف كانت مشقة الرحلة إليه . وقد كان السماع منه ميسرا فى موسم الحج .

إن هؤلاء الشيوخ الأئمة يأخذون من أحمد كما أخذ منهم . ويروون عنه كما روى عنهم . فقد روى عنه عبد الرحمن بن مهدى . وعبد الرزاق بن همام .

ووكيع بن الجراح . ويحيى بن آدم . ويزيد بن هارون . ومحمد بن إدريس الشافعى . وهذان الإمامان الأخيران لأحمد منهما مواقف علمية متميزة سوف نشير إليها بعد قليل .

وامتدت إمامة أحمد فى الفقه والحديث إلى من هم أكبر منه سنا من العلماء والحفاظ الثقات من أمثال قتيبة بن سعيد . وداوودبن عمر وخلف بن هشام . كما روى عنه بعض أقرانه من رجالات الحديث مثل يحيى بن معين . وعلى بن المدينى . والحسين بن منصور . وأبى قدامة السرخسى . وعنه روى أيضاً ثلاثة من الستة الكبار هم البخارى ومسلم وأبو داوود.

إن أحمد بن حنبل يقف من بعض شيوخه موقف الأستاذية المباشرة . فإذا ما أخطأ الأستاذ وصحح التلميذ خطأه كان التلميذ والأستاذ سواء . وبخاصة إذا أصاب التلميذ تبحراً فى العلم وإحاطة به . ولم يكن تصويبه لأستاذه من قبيل علم المصادفة .

يقول محمد بن عبد الملك بن زنجويه رفيق أحمد فى مجلس يزيد بن هارون : رأيت يزيد بن هارون يصلى . فجاء إليه أحمد بن حنبل . فلما سلم يزيد من الصلاة التفت إلى أحمد بن حنبل فقال : يا أبا عبد الله . ما تقول فى العارية ؟ قال : مؤداة . فقال له يزيد : أخبرنا حجاج عن الحكم قال : ليست بمضمونة . فقال له أحمد بن حنبل :

« قَدْ اسْتَعَارَ النبىُّ ﷺ مِنْ صَفْوَانِ بْنِ أمَيَّةَ أدْرُعًا فقَال لَهُ : عَارِيَةٌ مُؤدَّاةٌ . فَقَالَ ﷺ : الْعَارِيَةُ مُؤدَّاةٌ »

فسكت يزيد ورجع إلى قول أحمد[٤] .

إن أحمد هنا ليس مجرد مذكر بحديث . وإنما هو هنا فقيه ذو طاقة كبرى على الإفتاء . والفقيه يستنبط أحكامه من الكتاب والسنة . ولقد أفتى أحمد شيخه

---

(٤) حلية الأولياء ١٦٣/٩ .

حين أشكلت القضية على الشيخ . ومن هو ذلك الشيخ ؟ إنه يزيد بن هارون الذى تحامى المأمون جانبه وخشى بأسه . ولم يجرؤ على تفجير الفتنة إلا بعد وفاته بست سنين .

ويقول المرّوذى تلميذ الإمام أحمد : حضرت أبا ثور . وقد سئل عن مسألة . فقال : قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل شيخنا وإمامنا فيها كذا وكذا[٥] .

إن أبا ثور الكلبى – وقد مر حديثه وحواره ومحاولة سخريته من الإمام الشافعى فى بغداد – يقول عن أحمد بن حنبل : شيخنا وإمامنا . وكان أبو ثور أكبر من الإمام أحمد سنا . فقد مات وهو شيخ كبير ببغداد سنة ٢٤٠ قبل وفاة الإمام بعام واحد . وكان حسبا وصفه أصحاب التراجم والطبقات : أحد أئمة الدنيا فقها وعلما وورعا وفضلا . وقد صار بعد صدامه مع الشافعى واحدا من المتحمسين لفقهه . ثم هو بعد ذلك يجعل من ابن حنبل شيخا له وإماما .

فإذا كان الأمر متعلقا بالشافعى وابن حنبل . وابن حنبل معدود من تلامذة الشافعى . بل هو كذلك . فإن الإمام أحمد يقول فى مجال الحديث لتلامذته عن علاقته بالشافعى وقدر استفادة كلاهما من الآخر : « استفاد منا الشافعى مالم نستفد منه » . يعنى أكثر مما استفدنا منه . ويكمل ابن حنبل القول : « وكان الشافعى يقول : يا أبا عبد الله . أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا . فإذا كان خبر صحيح فأعلمنى حتى أذهب إليه كوفيا كان أو بصريا أو شاميا » .

ويقول عبد الله بن الإمام أحمد : جميع ماحدث به الشافعى فى كتابه فقال : « حدثنى الثقة » أو « أخبرنى الثقة » فهو أبى رحمه الله[٦] .

ولقد أورد الذهبى الأخبار نفسها وإن يكن بصياغة لفظية مختلفة .

---

(٥) تاريخ بغداد ٤١٧/٤ .

(٦) حلية الأولياء ١٧٠/٩ .

والحق أن هذه الرواية لا تعيب الإمام الشافعى ولا تنال من سمو قدره وغزارة علمه لأن العلماء يأخذ بعضهم من بعض . والأئمة يكمل بعضهم بعضا . ولكنها تضفى صفة الإمامة الأصيلة على أحمد بن حنبل الفقيه المتمكن . والحافظ الصادق . والمحدث الثقة . وشيخ شيوخه وأستاذ أساتذته . وهو فى ذلك مماثل للشافعى غير بعيد عنه .

إن عددا كبيرا من الحفاظ والفقهاء وهبهم الله فسحة فى العمر مكنتهم من أن يرووا ويسمعوا لعدد كبيرا من أئمة الفقه والعلم قبل ابن حنبل وبعده . وانتهوا إلى الرأى الذى جعلهم يفضلونه على هؤلاء علما وفقها وورعا وزهدا . على وفرة ما رزق هؤلاء من العلم والفقه والورع والزهد . إن الحافظ أبا نعيم الأصفهانى يورد خبرا من هذا القبيل عن مهنا بن يحيى الشامى الذى يقول : ما رأيت أحدا أجمع لكل خير من أحمد بن حنبل . رأيت سفيان بن عيينة . ووكيعا . وعبد الرزاق . وبقية بن الوليد . وضمرة بن ربيعة وكثيرا من العلماء فما رأيت مثل أحمد بن حنبل فى علمه وفقهه وزهده وورعه [٧] .

وكان أحمد بن حنبل إذا جلس إلى أحد المحدثين واختلف إلى حلقته اعتبر ذلك شهادة لهذا المحدث أو ذاك فيسمع الناس منه فى ثقة مطمئنين إلى صحة حديثه وصدق روايته . يقول أبو حاتم : رأيت قتيبة بن سعيد بمكة . فقلت لأصحاب الحديث : كيف تغفلون عنه وقد رأيت أحمد بن حنبل فى مجلسه . فلما سمعوا هذا أخذوا نحوه وكتبوا عنه [٨] .

وهكذا يفرض أحمد بن حبل علمه من حديث وفقه . وينشر منهجه من ورع وزهد على المجتمعات الإسلامية فى زمانه ويصبح واحدا من أصحاب الريادة فى دنيا الفقه والحديث .

---

(٧) حلية الأولياء ٩/١٦٥ .

(٨) تاريخ الإسلام عن مقدمة المسند ص ٦٨ .

— ٣ —

الإمام الزاهد الورع المتسامح :

تلك كانت بعض جوانب إمامة العلم والفقه فى أحمد بن حنبل . ولقد ذكرنا فى مستهل هذا الفصل مؤهلات الإمامة . ومفهوم قولنا أن الإمامة ليست علما فقط . وإنما هى مؤهلات أخرى كثيرة عددناها ومزايا فصلناها . منها الزهد والورع والتسامح . ولقد كان أحمد بن حنبل مثلا أعلى فى هذه الصفات . بل كان إماما فيها . فلا يصلح الرجل مهما أوتى من العلم لأن يكون إماما وهو يركض خلف السلطان ويجرى وراء الدنيا . أو إذا كان غافلا عن ذكر الله غير مكثر من التعبد والتبتل . أو فظا غير متسامح . خشنا غير ذى لين .

لقد ضربنا أمثلة كثيرة لزهد أحمد بن حنبل فى الفصل الرابع من هذا الكتاب . ولسنا نزعم أن ماكتبناه يمثل كل جوانب زهد ابن حنبل . فذلك شيء أجل من أن نستطيع الإحاطة به . لقد تعفف عن المال كل المال وهو فى حالة جوع ومسغبة . ونزه نفسه عن الصلات وهو فى حالة انقطاع واضطرار . إنه لم يرفض مال السلطان وحسب . ولم يحجم عن قبول صلات الأغنياء والموسرين وحدهم وكانت صلاتهم مالا حلالا طيبا ليس بصدقة ولا زكاة . ولكنه تعفف عن صلات شيوخه . وقد أسلفنا القول أن شيخه يزيد بن هارون عرض عليه وعلى بعض أقرانه مالا فرفض قبوله فى استحياء وخجل . وقبل زميلاه المال . وكان أحمد أكثر حاجة إليه من أى منهما . كما أسلفنا القول أن شيخه عبد الرزاق بن همام الصنعانى عرض عليه مالا وقد أحس بحاجته الشديدة إليه . وكان يقول له وقد طال مقام أحمد فى صنعاء : يا أبا عبد الله . خذ هذا الشيء فانتفع به فإن أرضنا ليست بأرض متجر ولا مكسب . فأجابه أحمد . وكان أكثر وقته ذا معدة خاوية : أنا بخير . ولم يقبل مال أستاذه(٩) .

(٩) حلية الأولياء ٩/١٧٤ . ١٧٥ .

لقد كان أحمد بن حنبل إماما فى الزهد أيضا . كان بشر الحافى أحد كبار زهاد زمانه يقول عنه : إنه إمامنا . وكان ذو النون المصرى وقد امتحن وسجن فى عهد المتوكل إذا زاره أحد فى سجنه سأله قائلا : كيف حال سيدنا . وكان يعنى « بسيدنا » الإمام أحمد . إن أحمد بن حنبل لم يكن إذن إمام الزاهدين وحسب . ولكنه كان سيد الزهاد . وليس من شك فى أن الزهد والصبر عنصران من مؤهلات الإمامة . ولقد أحسن أبو محمدعبد الله بن عبد الرحمن كل الإحسان فى إجابته حين سئل عن أحمد بن حنبل : أهو إمام ؟ فقال : « أى والله . وكما يكون الإمام . إن أحمد أخذ بقلوب الناس . إن أحمد صبر على الفقر سبعين سنة »[10] . إن عبد الله بن عبد الرحمن ليس من عامة العلماء . ولكنه من صفوة الفقهاء وخاصةِ الحفاظ ورؤوس القضاة . فلقد سمع الحديث بالحجاز والشام ومصر والعراق وخراسان من مشاهير الحفاظ . وولى القضاء بسمرقند فقضى فى قضية واحدة ثم استعفى . وله من المؤلفات المسند فى الحديث وكتاب التفسير والجامع الصحيح الذى بين أيدينا نتزود منه وننتفع من محتواه . وكان أبو محمد معاصرا للإمام أحمد فقد ولد سنة ١٨١ وتوفى بسمرقند سنة ٢٥٥ هـ[11]

والإمام أحمد – كما قد عرفنا وذكرنا – كان صوّاماً قوّاماً دائم التلاوة للقرآن الكريم . فضلا عن حفظه أحاديث رسول الله ﷺ بأسانيدها . كان يصلى كل يوم ثلاثمائة ركعة . فلما اعتل جسده من ضرب السياط التى لم تترك قطعة من جسمه بغير أثر صار غير قادر على الوفاء بما كان أخذ نفسه به من صلاة الركعات الثلاثمائة . فأنقص العدد تحت وطأة عجزه وآلامه إلى مائة وخمسين كل يوم . وكان الإمام دائم الصيام أو على الأقل كثير الصوم . وقد سلف القول أنه عذب بضرب السياط وهو صائم . وأنه صلى بعد الجلد وجسمه يثغب دما . وأنه بقى أياما صائما دون إفطار إلا على الماء أو السويق . وكان الإمام

---

(١٠) المصدر السابق ١٧٦ .

(١١) تهذيب التهذيب ٥/٢٩٤ .

أحمد قد أخذ نفسه بأن يختم القرآن مرة كل أسبوع . لم ينقطع عن ذلك طوال حياته إلا حينما أثخنته الجراح . وحالت بينه وبين ذلك آلامه . ولكنه كان مع الله دائما يرطب لسانه بالتسبيح وبالذكر . ويعيد السكينة إلى قلبه بالدعاء والابتهال .

وكان الإمام أحمد طيب القلب . رحب الصدر . حلو المعشر . صاحب عفو عن المسئ وتسامح عن المعتدى . لقد بذل الخليفة المتوكل للإمام أحمد كل الوسائل لاسترضائه . ومسح الجراح التى أنزلها به أبوه المعتصم . وندم على المطاردة التى لاحقها به أخوه الواثق . وكان أحمد يستطيع من خلال ذلك أن يثأر ممن آذاه . وأن يجزى بسوء كل من عذبه . وأن يقهر أعداءه جميعا بغير استثناء . لقد كان المتوكل يثق بالإمام وعلمه وفضله ويسأله الدعاء والبركة . وكان بقية من اللئام لا يزالون يحيطون بالمتوكل ويقومون بالسعاية ضده ويقولون له : إنه لا يأكل من طعامك . ولا يجلس على فراشك ويحرم الذى تشرب . ولكن المتوكل كان من السماحة والتفتح . بل ربما من الخجل والندم على ما صدر من أخيه وأبيه وعمه حيال الإمام بما قد جعله يقول : لو نشر المعتصم وقال فيه شيئا لم أقبل منه(١٢) .

لقد عفا الإمام عن كل من آذاه حتى المعتصم . قال حنبل بن إسحاق تلميذه وصاحبه : سمعت الإمام أحمد يقول : كل من ذكرنى فى حلّ إلا مبتدع . وقد جعلت أبا إسحاق – يعنى المعتصم – فى حل . ورأيت الله تعالى يقول :

« وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ » .

وأمر النبى ﷺ أبا بكر بالعفو فى قصة مِسْطَح . وكان الإمام أحمد يقول : العفو أفضل . وما ينفعك أن يُعَذَّب أخوك المسلم فى سببك .

كان فى استطاعة أحمد أن يوقع الأذى بابن أبى دؤاد . وبمحمد بن عبد الملك الزيات وغيرهما ممن آذوه . ولكن الله سبحانه يدافع عن الذين آمنوا . لقد اقتص الله منهم فى حياتهم على مرأى من الإمام أحمد . فابن الزيات قتل

---

(١٢) تاريخ الإسلام عن مقدمة المسند ص ١١٧ .

حرقاً فى حياة الإمام أحمد سنة ٢٣٣هـ بعد أن نال من التعذيب على يد المتوكل بعض ما ناله الإمام على يد المعتصم وابن أبى دؤاد . وأما أحمد بن أبى دؤاد فقد أذلّه المرض وعذبته العلة سنوات طوالا . وأصيب بالفالج سبع سنين من سنة ٢٣٣هـ بعد موت ابن الزيات الوزير بمائة يوم . وكانا عدوين لدودين رغم كون هذا وزيرا وذاك قاضى القضاة لكل من المعتصم والواثق . ولكنهما كانا شريكين فى العدوان على الإمام النقى التقى أحمد بن حنبل .

لقد ظل ابن أبى دؤاد أسير الفالج . سجينا فى جلده حسب تعبير الخليفة المتوكل سبع سنين . صودرت خلالها أمواله وأموال ولده محمد الذى ولى القضاء ومات قبل وفاة أبيه بعشرين يوما سنة ٢٤٠هـ . ولم تكن هذه النكبات من قبيل المصادفة . ولكن الله يدافع عن الذين آمنوا . وماكان المعتصم ليصنع بالإمام العظيم ما فعل من تعذيب وجلد وامتهان لإنسانيته . وبالتالى امتهان لإنسانيه كل علماء الإسلام لولا أن ابن أبى دؤاد كان وراء ذلك كله . فابن أبى دؤاد رغم علمه وفطنته وكرمه وأدبه قد أضاع كل مكارمه بعدوانه على الإمام أحمد . فإن لازون بن إسماعيل بحكم قربه من المعتصم وابن أبى دؤاد يقول : ما رأيت أحدا قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبى دؤاد(١٣) .

كان الإمام أحمد كلة تسامح . ولقد ذكرنا أن رجلا جاءه فقال : لقد اغتبتك فاجعلنى فى حلّ . أى سامحنى . فقال له أنت فى حل إن لم تعد إلى ذلك .

كان أحمد فيما يروى ابن الجوزى : من أحيى الناس وأكرمهم نفسا . وأحسنهم عشرة وأدبا . كثير الإطراق والغض . معرضا عن القبح واللغو . لا يسمع منه إلا المذاكرة بالحديث . وذكر الصالحين والزهاد . فى وقار وسكون ولفظ حسن . وإذا لقيه إنسان بشّ به وأقبل عليه . وكان يتواضع للشيوخ تواضعا شديدا . وكانوا يكرمونه ويعظمونه(١٤) .

---

(١٣) وفيات الأعيان ترجمة أحمد بن أبى دؤاد .

(١٤) المناقب ٢١٥ .

وفى شمائله يقول حجاج بن الشاعر هذا القول البالغ حد البلاغة والجمال : ما رأت عيناى روحا فى جسد أفضل من أحمد بن حنبل [١٥] .

وبلغ من زهد الإمام أحمد أنه جعل طلب الدنيا داء . وجعل طلب السلطة مرضا . وجعل العلم طبا . والمرض لا يعالجه إلا طبيب . ولا يجمل بالطبيب أن يتورط فيصاب بالمرض ويتبلى بالداء . إن الإمام أحمد يكتب فى هذا المعنى . إلى سعيد بن يعقوب قائلا : أما بعد . فإن الدنيا داء . والسلطان داء . والْعَالِم طبيب . فإذا رأيت الطبيب يجر الداء إلى نفسه فاحذره [١٦] .

الحقيقة أن العلم والسلطان لا يجتمعان . إذكيف يتصور أن يكون المرء خالصا للعلم متفانيا فيه بما يصحب ذلك من شفافية وتواضع . وخفض للجناح . وانصراف عن بهرج الحياة . ويكون فى الوقت نفسه صاحب سلطان . وحليف نفوذ . إن السلطان والنفوذ فتنة . وصاحبهما ليس بمنجاة عن الخطأ . وليس بمعصوم من إيقاع الظلم بالناس . والسلطان والنفوذ يستتبعان المظاهر . واصطناع البهرج . وقبول النفاق . والتراخى عن بعض الآثام . وغض البصر أحيانا عن الزور وارتكاب المعاصى . إن العلم والحكم لا يجتمعان . فالعالم سيد بحكم القيم . والحاكم سيد بحكم القوة . وليس كل الحكام مثل الراشدين أوعمر بن عبد العزيز .

إن صفات الإمامة من منطلق الورع والتقى والزهد والتسامح زاخرة وافرة متلاحقة متتابعة فى شخص الإمام أحمد . حتى ليكاد يمسك بعضها بخناق بعض . وهذا واحد من آلاف الناس الذين لا قوه فاستولت مجامع فضله عليه فقال : ما رأيت أحدا فى عصر أحمد ممن رأيت أجمع منه ديانة وصيانة ؛ وملكا لنفسه . وفقها . وأدب نفس . وكرم خالق . وثبات قلب . وكرم مجالسة [١٧]

---

(١٥) الذهبى عن مقدمة المسند ص ٦٩

(١٦) المصدر السابق ص ٧٣ .

(١٧) مناقب ابن الجوزى ص ٢١٤ .

نقول إن هذه جميعا هى الصفات التى تؤهل للإمامة : الديانة والصيانة والفقه والأدب والجود والثبات وكرم المجالسة. ولقد ضربنا أمثلة كثيرة لكرم مجالسة الإمام . وكيف أنه كان يجلس بين يدى ضيفه . وكيف كان يشارك الناس احتفالاتهم مالم تخالف هذه الاحتفالات مقتضيات الشرع ونهج المروءة . وكيف أنه كان إذا أراد أن ينصرف من مجلس قوم استأذنهم فى الانصراف قائلا : إذا شئتم .

كان الإمام أحمد إنسانا راقيا بكل ما تحمل كلمة الرقى من معان . كان كما وصفه حجاج بن الشاعر قبل قليل : ما رأت عيناى روحا فى جسد أفضل من أحمد بن حنبل . غير أننا نريد أن نعرض لصفة هامة من صفات الإمام . وهى ثبات القلب . فلا يكون الإمام إماما ما لم يكن ثابت القلب رصين السلوك هادئ الجنان . ولعلنا نذكر ذلك لكل من أبى حنيفة ومالك والشافعى عند حدينا عن أهليتهم للإمامة .

— ٤ —

أحمد الإمام القدوة :

إذا لم يكن الإمام قدوة لغيره من الناس فى عمله وقوله ونهجه فى الحياة . فلا إمامة له وإن أطلقوا عليه لقب الإمام . فكثير من الأسماء نقرأ عنها وليس لها من الإمامة غير اللقب . لأن الإمامة نهج فى الحياة قائم على الفضل كل الفضل . والعلم كل العلم ، والتقوى كل التقوى . والشمائل كل الشمائل . لا تغنى واحدة من هؤلاء عن سائرها ، فإذا لم تجتمع كلها فى شخص بذاته دون زيادة أو نقصان بات لقب الإمامة بالنسبة إليه مجرد ترف باطل ، ولقب زائف . إن هذا أمر مألوف فى بعض المجتمعات الإسلامية ، وبخاصة فى زمننا المعاصر ، فما أكثر الألقاب الزائفة التى خلعت على بعض من لا يستحقونها ؛ وغالبا ما يكونون قد سَطَوْا عليها سطوًا واغتصبوها اغتصابا .

ومن مؤهلات الإمامة أن يكون حامل لقبها قدوة للناس فى حياته المرتبطة

بالأصول الدينية . وقدوة فى سلوكه العام والدفاع عما تتعرض له العقيدة من كيد الكائدين وما يبيت لها من انحراف المنحرفين .

لقد سلك الإمام أحمد المسلكين معا والتزم بالسير على النهجين جميعا . ففى نهج حياته من حيث ارتباطه بالأصول الدينية كان يستمد سلوكه من قيم القرآن الكريم . فهو مكرم للفقير . وقد سلف القول أن الفقير لم ير أعز جانبا منه فى مجلس أحمد . وهو بار باليتيم فقد سأله سائل قائلا : كيف يرق قلبى ؟ قال له : ادخل المقبرة وامسح على رأس اليتيم . فهو يعى قول الله جل وعزّ :

« فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَتَنْهَرْ » .

ولقد وقر فى أعماقه ما جاء فى الأثر من أن اليتيم إذا بكى اهتز العرش لبكائه . وهو من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس . وقد أسلفنا قبل قليل عفوه عن كل من آذاه فى المحنة . مستجيبا لقول الله تعالى :

« وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ » . وكان يهش للناس ويخاطبهم بالحب ويربط بينه وبينهم بالود ، مستحضرا دائما الآية الكريمة « فَبِماَ رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ »

وكان الإمام أحمد على ضيق ذات يده يجود بما عنده ، ويؤثر الناس على نفسه ، ويدعو للإيثار قائلا : « لو أن الدنيا تقل حتى تكون فى مقدار لقمة فأخذها امرؤ مسلم فوضعها فى فم أخيه المسلم ما كان مسرفا » .

كان أحمد بن حنبل قدوة للناس من حيث إنه كان يستلهم سلوكه من القرآن الكريم ، وكان أيضاً يستلهم نمط حياته من السنة الشريفة ومن أسلوب الرسول ﷺ فى الحياة .

إن أحمد يقول : ماكتبت حديثا إلا وقد عملت به ، ثم يستطرد قائلا : حتى مر بى أن النبى ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة دينارا ، فأعطيت الحجام دينارا حين احتجمت .

وإذا كانت الرسالة لم تنزل على الرسول إلا عندما بلغ الأربعين ، فإن أحمد بن حنبل لا يجلس للتحديث والإفتاء إلا فى سن الأربعين ، فهى سن مباركة لا تكتمل للمرء أسباب كمال العقل إلا فيها . ولذلك فإن الله سبحانه لم يكلف محمدا بالرسالة إلا فى هذه السن . صحيح أن رسلا قبل محمد ﷺ قد كلفوا قبل هذه السن ، ولكن محمدا مميز عن الرسل أجمعين ، هكذا كرمه الله بهذا التشرف فجعله إمام الأنبياء وسيد المرسلين ، فهيأه للرسالة الخاتمة ، وجعل تكليفه فى سن كمال النفس وتمام العقل . إن أحمد بن حنبل تيمنا بهذه الحقيقة يؤجل جلوسه للتحديث والفتيا إلى هذه السن ، وقد كان مستطيعا أن يفعل فيحدث ويفتى قبلها ، ولقد شوهد وهو فى السادسة والثلاثين يفتى الناس بمسجد الخيف فى منى فى شئون الحج ويبصرهم بشعائره ، ولكنها كانت مناسبة أملتها الضرورة ، ثم لم يستمر فى ذلك حتى بلغ تلك السن المباركة .

ولقد سبقت الإشارة إلى أنه التزم السنة وهو فى محنته ، فقد اختفى حين اضطهده الواثق عند إبراهيم بن هانى فى بيته فى بغداد ، فلما مضت أيام ثلاثة قال له أحمد : اطلب لى موضعا حتى أتحول إليه ، فقال له إبراهيم : لا آمن عليك يا أبا عبد الله ، فقال الإمام : إذا فعلت أفدتك . قال إبراهيم : فطلبت له موضعا – أى هيأت له مكانا آخر يختبئ فيه – فلما خرج قال لى : « اختفى رسول الله ﷺ فى الغار ثلاثة أيام ثم تحوّل ، وليس ينبغى أن نتبع رسول الله ﷺ فى الرخاء ونتركه فى الشدة(١٨) » .

هكذا كان اقتداء الإمام أحمد برسول الله ، اقتداء أمينا دقيقا ، وإذن فسلوكه من سلوك الرسول ، فلا غرابة بعد ذلك أن يكون خير قدوة للناس من معاصريه ، يشهدون أعماله ويقتفون أقواله .

سلوكه فى المحنة :

لقد مر بنا حديث المحنة مفصلا ، رويناها من مصادر عدة ، وباستثناء رواية المعتزلة على لسان الجاحظ ، كان أحمد مناط تفكير الناس ، عليه علقوا

---

(١٨) حلية الأولياء ٩/١٨٠ .

رجاءهم . وإليه اشرأبت أعناقهم . وبه ارتبطت عواطفهم . لقد استسلم العلماء واحدا بعد واحد أمام جبروت رئيس شرطة المأمون فى بغداد حتى لم يبق غير اثنين هما أحمد والشاب محمد بن نوح . ثم مات ابن نوح وبقى أحمد للمواجهة والمجابهة . وكان هناك عدد آخر من العلماء المستبسلين روينا مواقفهم . ولكنهم كانوا مغيبين فى أعماق السجون لا يدرى سواد الناس عنهم شيئا .

لم يبق إذن أمام الناس من مدافع عن العقيدة . منافح عن سلامتها . متحمل الأذى فى سبيل الذود عنها غير أحمد بن حنبل . وإذا كان أحمد جديرا بالإمامة فليتحمل حتى يكون القدوة . والقدوة مؤهل أساسى من مؤهلات الإمامة . ولقد كان أحمد عند حسن الاعتقاد فيه . المنافح المكافح والقدوة الصالحة .

كان أحمد فى قمة من الشجاعة . وغاية من التماسك . وذروة من الثبات وهو مسوق من سجنه إلى الباحة التى جلس فيها المعتصم وزبانية الفتنة وعلى رأسهم أحمد بن أبى دؤاد . لقد أدخل على المعتصم وقد هوّل السجانون عليه الأمر ، وحاولوا أن يدخلوا إلى قلبه الرعب . وكانوا قد ضربوا عنق رجلين قبله ، فلم يزد أحمد على أن نظر إلى أبى عبد الرحمن الشافعى وقال له بصوت مسموع : أى شىء تحفظ عن الشافعى فى المسح ؟ فأحسّ ابن أبى دؤاد أن الخطة التى وضعت لكى تنال من ثبات ابن حنبل قد ذهبت أدراج الرياح . فقال فى غيظ شديد : انظروا رجلا هو ذا يقدم لضرب عنقه يناظر فى الفقه .

ونصبت المهزلة ، وكان العالم الفقية الصابر الإمام مثقل القدمين والساقين بسلاسل الحديد ، فكان هو الذى يقوم بمحاكمة المعتصم وليس العكس . كان الإمام أحمد يوجه السؤال إلى المعتصم من كتاب الله وسنة رسوله فيجيبه المعتصم الإجابة السليمة ، وإذا تعثّر المعتصم قام أحمد بإكمال الإجابة له حتى التفت الخليفة إلى عبد الرحمن بن إسحاق وقال له : يا عبد الرحمن ، ألم آمرك أن ترفع المحنة ؟ هكذا كان أحمد بقيوده أمام المعتصم بهيلمانه ثابت الجنان متماسك البنيان ، ولم يكن إقناع المعتصم بالأمر العسير ، فهو لا يعرف من طرق الجدل

قليلا أوكثيرا . ولكن الثبات الأكبر يكمن فى منازلة الإمام لرجال ابن أبى دؤاد المتمرس على الجدل المروض على الحوار . وقد كان سلاح المعتزلة حسبما هو معروف براعة الحوار وإجادة الجدل . هذا فضلا عن كون الإمام مقيدا حبيسا وابن أبى دؤاد حرا طليقا يتولى أكبر منصبين قضائيين فى الدولة هما قاضى القضاة ورئيس ديوان المظالم . وتكالب ابن أبى دؤاد ورجاله على الإمام هذا يكلمه فيرد عليه . وداك يسأله فيعطيه الحواب . ثم نظر إلى المعتصم وقال : يا أمير المؤمنين . أعطونى شيئا من كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله عليه الصلاة والسلام أقول به . يعنى أقول به إن القرآن مخلوق . وبداهة ليس فى الكتاب أو السنة شىء من ذلك . وبداهة أيضاً أن أساس العقيدة مستمد من الكتاب والسنة . فكانت الغلبة الحقيقية لأحمد الأعزل المقيد . وكان جزاؤه لغلبته الضرب والجلد والتعذيب على النحو الذى رويناه مفصلا فى الفصل الخاص بالمحنة . فكان أحمد بثباته القدوة الحسنة التى التف الناس حولها فى خلال الفترة الساخنة الخاصة بالصراع لصون العقيدة وإبقائها على جانب النقاء .

لم يكن أحمد بن حنبل بثباته فى الفتنة قدوة لأوساط الناس وحسب . ولكنه صار قدوة الخاصة من العلماء والفقهاء . والجمهرة من أبناء البوادى والحضر ؛ وأحسب أنه أصبح يمثل قمة نصر العقيدة السليمة على الفريق الذى أراد أن يجعل منها وسيلة للعب والعبث . لغير ما سبب واضح أو علة مقنعة .

إن أصحاب بشربن الحارث المعروف ببشر الحافى . وكان كبير زهاد زمانه . يسألونه حين ضرب أحمد قائلين : يا أبا نصر . لو أنك خرجت فقلت إنى على قول أحمد بن حنبل ! ! فيقول بشر فى عفوية وصدق : أتريدون منى أن أقوم مقام الأنبياء ؟ حفظ الله أحمد من بين يديه ومن خلفه[19] .

ومرة أخرى يجيب بشر وقد سئل عن أحمد بن حنبل قائلا : أنا أسأل عن أحمد ؟ إن أحمد أدخل الكير فخرج ذهبا أحمر .

---

(١٩) تاريخ الإسلام عن مقدمة المسند ص ٦٧ .

وهذا إسحاق بن راهويه إمام خراسان وحافظها . وصديق أحمد ورفيق سماعه من عبد الرزاق فى اليمن وغير عبد الرزاق فى العراق والحجاز يقول عن أحمد والفتنة : لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها . لذهب الإسلام . يقصد بذلك أن استحداث البدع ينشط فيضيع جوهر الإسلام . ويترجم عن هذا المعنى قتيبة بن سعيد الحافظ المحدث فيقول : لولا سفيان الثورى لمات الورع . ولولا أحمد بن حنبل لأحدثوا فى الدين .

نقول إن الإمام ينبغى له لكى تصمد إمامته وترسخ فى قلوب الناس وعقولهم وخواطرهم أن يكون قدوة لهم فى زمن اليسر وفى وقت الشدة . ولقد كان أحمد بن حنبل خير قدوة فى الزمنين .

— ٥ —

علماء المسلمين يبايعون أحمد بالإمامة :

كان أحمد بن حنبل بعلمه وفقهه وحفظه وسلوكه ونهج حياته وزهده وورعه وهيبته وثباته على معتقده وتعرضه للمحنة وقمعه للفتنة مؤهلا لأن يبايعه علماء المسلمين بالإمامة . والإمامة التى نعنيها هنا إمامة العلم والدين وليس إمامة الخلافة والملك والسلطان .

لم تكن بيعة علماء الإسلام لأحمد بالإمامة فى مجلس أو جمع أو مؤتمر . وإنما هى منبثقة من خلال آرائهم فيه . وأقوالهم فى شخصه . وتمثلهم لمواقفه .

إن العالم المحدث إبراهيم بن إسحاق الحربى أحد تلامذة ابن حنبل يقول : رأيت أحمد بن حنبل كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين . ثم يتكلم عن أئمة الأجيال المتعاقبة منذ الجيل الأول للتابعين فيقول : سعيد بن المسيب فى زمانه . وسفيان الثورى فى زمانه . وأحمد بن حنبل فى زمانه [٢٠] .

وليس مثل هذا الحكم من الأمور العارضة . لأن قيمة الأحكام تستمد من قدر قائليها . وإبراهيم الحربى صاحب هذه الأقوال من كبار حفاظ بغداد

(٢٠) حلية الأولياء ٩/١٦٩ .

ومحدثيها . كان فقيها حافظا أديبا زاهدا يرفض أموال الخلفاء . وقد ردّ صلة مالية كبيرة وصله المعتضد بها . وله الكثير من الكتب النفيسة الموضوعات . الجليلة المحتويات مثل غريب الحديث . الهدايا والسنة فيها . سجود القرآن . مناسك الحج . دلائل النبوة . الحمام وآدابه وقد توفى ببغداد سنة ٢٨٥هـ عن سبع وسبعين سنة .

ويقول الحافظ المحدث أحمد بن سلمة البزاز رفيق مسلم بن الحجاج فى رحلاته لجمع الحديث : أحمد بن حنبل إمام الدنيا[٢١] . هكذا يصدر ابن سلمة حكمه بدون أدنى تحفظ . وهو من الرواة الثقات . وله « صحيح » فى الحديث مثل صحيح البخارى وصحيح مسلم .

ويعتبر قتيبة بن سعيد الفقية المحدث الحافظ أن الإمام أحمد كان حصنا للدين . وحاجزا يوقف تدفق البدع . وسدًّا فى وجه من أرادوا أن يشوهوا وجه العقيدة . مثلما كان الشافعى محييا للسنن . ومثلما كان الأوزاعى رأس أهل الورع . يقول قتيبة فى دلك : بموت أحمد بن حنبل تظهر البدع . وبموت الشافعى ماتت السنن . وبموت الثورى مات الورع .

إن قتيبة بن سعيد قد سمع من الإمام أحمد وروى عنه مع كونه أسن منه . فقد ولد قتيبة سنة ١٥٠هـ وتوفى سنة ٢٤٠هـ أى أنه توفى قبل وفاة الإمام بعام . ومعنى ذلك أنه أدلى بشهادته فى حياة الإمام . فقد رأى كفاحه وشهد نضاله وتألم لعذابه . وقتيبة هذا هو نفسه الذى اكتظّ الناس حوله فى الكعبة يستمعون إليه حين أذيع عليهم أنه سمع من أحمد بن حنبل . ولكن قتيبة بلغ من حماسه للإمام مبلغا جعل شهادته عرضة للأخذ والرد . لأنه صاحب القول : لو أدرك أحمد بن حنبل عصر الثورى ومالك والأوزاعى والليث بن سعد لكان المقدم[٢٢] . وهناك كثيرون غيره من مريدى الإمام بالغوا فى إصدار الأحكام التى أضرت بهم ولم تضر بالإمام بطبيعة الحال . فقد كان عصر هؤلاء الأربعة الكبار

---

(٢١) تاريخ الإسلام عن مقدمة المسند ص ٦٥

(٢٢) حلية الأولياء ١٦٦/٩

يضم أبا حنيفة أيضاً . وكانت ثمت صداقة وطيدة تربط بين الثورى ومالك والأوزاعى والليث . وكانوا يجتمعون كثيرا فى الموسم . وقد بدا حكم قتيبة بن سعيد وفيه من المبالغة ما يجعل الإمام يرفضه ولا يرضى به .

ويسلم يحيى بن معين للإمام أحمد بالإمامة تسليما صريحا واضحا لا لبس فيه ولا إبهام ويعترف بفضله ويشيد بشجاعته . وقد ذكرنا أكثر من مرة من هو يحيى بن معين . وما مقامه فى علم الحديث والجرح والتعديل . يقول يحيى : أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ! ! لا والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد بن حنبل . ولا على طريقة أحمد[٢٣] .

كان أحمد بن حنبل عمدة الفقهاء وحجة الحفاظ ورأس المحدثين وإمام أولئك جميعا . وكان على تواضعه وبساطة حياته يستقبل الجميع فى بيته ؛ بل إن علماء الدنيا كانوا يسعون إليه فى البيت أو المسجد ليسلموا عليه . يروى أبو نعيم الأصفهانى أن إدريس بن عبد الكريم الحداد قال : رأيت علماءنا مثل الهيثم بن خارجة . ومصعب الزبيرى . ويحيى بن معين . وأبى بكر بن أبى شيبة ؛ وعثمان بن أبى شيبة . وعبد الأعلى بن حماد النرسى ؛ ومحمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب . وعلى بن المدينى . وعبيد الله بن عمر القواريرى ، وأبى خيثمة زهير بن حرب . وأبى معمر القطيعى . ومحمد بن جعفر الوركانى . وأحمد بن محمد بن أيوب صاحب المغازى . ومحمد بن بكار بن الريان . وعمرو بن محمد الناقد . ويحيى بن أيوب المقابرى العابد . وشريح بن يونس . وخلف بن هشام البزاز . وأبى الربيع الزهرانى فيمن لا أحصيهم من أهل العلم والفقه يعظمون أحمد بن حنبل ويجلونه ويوقرونه ويبجلونه ويقصدونه للسلام عليه .

جميع هؤلاء العلماء وغيرهم كثيرون على اختلاف صنوفهم ومقاماتهم كانوا يحملون له الإجلال والتوقير والتبجيل . ومثل هذه الدرجات من الاحترام وبخاصة إذا كانت مجتمعة لا تكون إلا لمن يحوز صفة الإمامة . ولقد كان ذلك سببا وجيها

---

(٢٣) المصدر ١٦٨ .

لأن يطلق على الإمام أحمد فى حياته لقب « شيخ الإسلام » وربما كان لقب شيخ الإسلام يطلق آنذاك لأول مرة على واحد من أئمة المسلمين ، وكان هذا الإمام هو أحمد بن حنبل .

لقد كان أحمد بن حنبل من كمال العلم وكمال الخلق بحيث أطلق عليه يوم مات صفة سادس الراشدين . يروى أبو نعيم الأصفهانى أن أحمد بن إبراهيم الصوفى قال عشية مات أحمد بن حنبل : قال لى رجل من أهل العلم – وكان حبرا فاضلا يكنى بأبى جعفر فى العشية التى دفنا فيها أبا عبد الله : أتدرى من دفنا اليوم ؟ قلت : من ؟ قال : سادس خمسة . قلت : من ؟ قال : أبو بكر الصديق . وعمر بن الخطاب . وعثمان بن عفان . وعلى بن أبى طالب . وعمر بن عبد العزيز . وأحمد بن حنبل .

هكذا كانت مكانة أحمد بن حنبل فى قلب صفوة العلماء وعامة الناس . كل يطلق عليه صفة عليا ولقبا رفيعا . وكانت كل هذه الصفات وتلك الألقاب تنتهى بالإنسان العظيم أحمد بن حنبل إلى لقب الإمامة . فقد استحقها بجدارة . وحازها بمقدرة . إنه لم يسع إليها ولكنها سعت إليه . بل إنه نفر منها وأراد الهرب من الشهرة التى لاحقته . وتمنى لو استطاع أن ينزل شعبا من شعاب مكة . يعيش فيه فلا يعرف أحد له مكانا . وهذا التمنى فى حد ذاته يعتبر مؤهلا من مؤهلات الإمامة .

وفاته استفتاء لإمامته :

على أن إمامة ابن حنبل قد توجته فى آخر حياته باستفتاء الناس أجمعين . كان ذلك أثناء مرضه . ويوم وفاته . وساعة تشييعه . ولأيام عدة بعد وفاته . لقد انتشر الناس فى شوارع الحى الذى يسكنه لكى يسلموا عليه حين سمعوا بمرضه . وحين اشتدت به العلة تزاحم الناس فى الشوارع والمساجد وتعطل الباعة لكثرة الزحام وحيل بينهم وبين البيع والشراء .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الدولة اهتمت بمرض الإمام أحمد . وأرسل محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد – وكان ذا شأن وهيبة – حاجبه إلى

الإمام فقال : إن الأمير يقرئك السلام وهو يشتهي أن يراك . فقال الإمام : هذا مما أكره . ولقد أعفانى أمير المؤمنين مما أكره[٢٤] .

ولقد اشتغل البريد بين بغداد والعسكر حيث يقيم المتوكل لكى ينقل إليه الأخبار يوما بعد يوم . وساعة بعد ساعة . وجاء بنو هاشم ودخلوا عليه وجعلوا يبكون . وتوافد على بيت الإمام عدد من القضاة ورجال الدولة فلم يؤذن لهم .

وبعد أيام تسعة من المرض الذى شغل الناس جميعا أسلم أحمد بن حنبل الروح فى ضحى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول سنة واحد وأربعين ومائتين عن عمر قدره سبعة وسبعون عاما . وكانت وفاته استفتاء آخر لإمامته من الدولة والناس على حد سواء .

فأما الدولة فأرادت أن تحتفل بتشييع جنازته رسميا – بتعبير العصر الذى نعيش فيه – فأرسل محمد بن طاهر نائب المتوكل فى بغداد بحاجبه ومعه غلامان يحملان مناديل فيها ثياب وطيب . وقالوا لصالح بن الإمام : الأمير يقرئك السلام ويقول : قد فعلت ما لو كان أمير المؤمنين حاضره كان يفعل ذلك . ولكن صالحا ردهم شاكرا للأمير . مذكرا إياه بأن أمير المؤمنين كان قد أعفى الإمام فى حياته مما يكره . ولا يحب أن يتبعه بعد موته بما كان يكرهه فى حياته .

وحضر تكفين الإمام أولاده ونحو مائة من بنى هاشم . وجعلوا يقبلون جبهته ثم صلوا عليه فى الدار . فلما سارت الجنازة إلى الصحراء . وبدأت الصلاة على الإمام . وتقدم ولده صالح – وهو أكبر أولاده – للصلاة . خطا إليه أمير بغداد ابن طاهر ونحّاه . وأم الناس فى صلاة الجنازة . فكان المتوكل بعد ذلك يقول لابن طاهر : طوبى لك يا محمد . صليت على أحمد بن حنبل رحمة الله عليه .

لقد امتلأت بغداد بمئات الآلاف من المشيعين وفتحت البيوت أبوابها لمن يريد الوضوء حتى يستطيع الصلاة على الإمام . وظل الناس يتوافدون على القبر يصلون على ساكنه لأيام كثيرة بل لشهور عديدة .

(٢٤) مناقب ابن الجوزى ٤٠٦ .

وقد اهتمت الدولة بإحصاء عدد المشيعين واختلفت الروايات فى ذكر عددهم فكان أكبر تقدير لهم مليونين من البشر رجالا ونساء . وكان أقل تقدير لعددهم سبعمائة ألف .

وبذلك يكون ابن حنبل إماما فى حياته . إماما فى موته وتشييعه . إماما بعد مماته وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

— ٦ —

حنابلة أساءوا إلى الإمام أحمد :

يشيع بين العامة أن التشدد والجمود مرتبطان بمذهب ابن حنبل . ويطلق العامة أيضاً على كل متشدد فى حكم أو مستبد فى رأى أنه حنبلى . ومثل هذا القول . أو مثل تلك الشائعات تؤلم نفس الحر . وتدمى قلبه . فما كان الإمام أحمد – وقد عرضنا لحياته – إلا النور مجسما فى إنسان . وإلا السماحة والطيبة والبشاشة والزهد والتواضع والحنان . وإلا العلم والدين . وإلاّ حب الفقير والمسح على رأس اليتيم . وهو يعلم ويعلّم أن الدين يسر لا عسر . فمن أين جاءت هذه التّهمة الظالمة لأحمد الإمام ولمذهبه الجليل وفقهه النبيل .

لقد جاءت التّهمة إلى المذهب من بعض المنتمين إليه فى القديم الحديث . أخذوا من مذهب أحمد قشورا وتركوا اللب . وأخذوا مظاهر هو منه براء وتركوا الجوهر الذى عاش الإمام له وبه . وظنوا أن التدين غلظة فى الطبع . وثوب ذا مقياس معين يرتدى . وغطاء بذاته يغطى الرأس والفودين ونعل مكشوف توضع فيه بعض القدم . ولحى شعثة . ووجوه مكفهرة . وصياح وصخب فى وجوه من يخالفونهم .

ما هكذا كان الإمام الذى قال عنه أحد صحابه : ما رأت عيناى روحا فى جسد أفضل من أحمد بن حنبل .

ولكن الإمام الجليل مثلما امتحن بجماعة خلق القرآن فى حياته . ابتلى ببعض من ينتسبون إلى مذهبه بعد وفاته . فأساءوا إليه . وشوهوا المذهب عند الناس

ومن ثم قيل : رجلان صالحان بليا بأصحاب سوء : جعفر بن محمد وأحمد بن حنبل .

إن كثيرا مما يسيء إلى الإمام أحمد ومذهبه يتمثل فى الشدة والخشونة والمبالغة التى اتصف بها بعض أنصاره وأتباعه وتلاميذه ، يصفهم واحد من أجلة الفقهاء الحنابلة وهو شيخ الإسلام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلى فيقول : إنهم « قوم خشن تقلصت أخلاقهم عن المخالطة وغلظت طباعهم عن المداخلة ، وغلب عليهم الجد ، وقل عندهم الهزل ، وغربت نفوسهم عن ذل المراءاة ، وفزعوا عن الآراء إلى الروايات ، وتمسكوا بالظاهر تحرجاً عن التأويل ، وغلبت عليهم الأعمال الصالحة فلم يدققوا فى العلوم الغامضة ، بل دققوا فى الورع وأخذوا ما ظهر من العلوم ، وما وراء ذلك قالوا : الله أعلم بما فيها من خشية باريها » .

ومن الأمور التى بدت فيها حدة التصرف والاندفاع ذهابهم إلى الطبرى وعتابهم له لأنه فى كتابه « اختلاف الفقهاء » عدّ ابن حنبل محدثاً ولم يعده فقيهاً . فلما أجابهم بقوله : ما رأيته رُوى عنه ولا رأيت له أصحاباً يقول عليهم . وثبوا عليه ورموه بمحابرهم ثم قذفوا داره بالحجارة إلى أن تدخلت الشرطة واضطر الرجل حفاظاً على نفسه أن يعتذر لهم . وعندما مات الطبرى منع الاحتفال به ودفن فى داره ليلاً .

هكذا يصفهم أحد أعلامهم بما يمكن أن يسمى بالسلبية الفكرية فى العصر الحديث . هذا وللقوم مبالغات فى بعض الآراء والأخبار دفع بهم إليها حماسهم لمذهبهم وتعلقهم بشيخهم وإمامهم وإمام المسلمين لأنه يستحق ذلك عن جدارة . ولكن ما كان ذلك سبباً يذهب بأحدهم وهو على بن المدينى إلى القول بأن الله أعزّ هذا الدين باثنين لا ثالث لهما هما أبو بكر الصديق يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة[٢٥] ثم لا يلبث ابن المدينى أن يقطع فى الحماس لنفس الموضوع شوطاً أبعد من ذلك حين يروى الميمونى على لسانه أنه ما قام أحد بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ ما قام أحمد بن حنبل . فقال له : يا أبا الحسن ولا أبو بكر

---

(٢٥) تاريخ بغداد ٤١٨/٤ .

الصديق ؟ قال : ولا أبو بكر الصديق . إن أبا بكر كان له أعوان وأصحاب وأحمد لم يكن له أعوان وأصحاب[٢٦] ومن هذه المبالغات ما ذكره على بن موفق المعروف بأبى الحسن العابد من أنه قرأ أن أحمد بن حنبل حج ستين حجة[٢٧] . ومن المعروف أن أول حجة حجها ابن حنبل كانت سنة مائة وست وثمانين وأنه مات سنة مائتين وواحدة وأربعين، فلو أن حنبل أدى الفريضة كل سنة منذ أول حجة حتى يوم وفاته . وهو ما لم يحدث . لما وصلت عدد المرات التى حج فيها إلى هذا القدر . وعلى درب هذا اللون من الحماس يقول زكريا بن يحيى الساجى : أحمد بن حنبل أفضل عندى من مالك والأوزاعى والثورى والشافعى[٢٨] وهو أمر لو صح عنده واقتنع به فإن فضل هؤلاء الأئمة الأعلام ينبغى أن يقف بالساجى عند حد المتعارف عليه من وجوب التوقير عند الحديث عن الأئمة . وينسب صاحب الطبقات إلى الربيع بن سليمان أنه سمع الشافعى يقول : من عاند أحمد بن حنبل فهو كافر . ويكمل المؤلف الحوار حتى يمكّن الشافعى من الدفاع عن وجهة نظره . يقول الربيع : تطلق عليه اسم الكفر؟ فيقول الشافعى ! من عاند أحمد بن حنبل عاند السنة . ومن عاند السنة قصد الصحابة . ومن قصد الصحابة أبغض النبى . ومن أبغض النبى ﷺ كفر بالله العظيم[٢٩] . ومن هذه المبالغات أيضاً ما ذكر من أنه « يوم موت بن حنبل وقع النوح فى المسلمين واليهود والنصارى والمجوس وأسلم عشرون ألفاً منهم[٣٠] » الأمر الذى جعل الذهبى يعلق على ذلك وينكره قائلاً :

وهى حكاية منكرة لا أعلم أحدا رواها إلا هذا الوركانى . ثم يقول : فوالله لو أسلم عشرة أنفس يوم موته لكان أمرا عظيما .

---

(٢٦) طبقات الحنابلة ١/١٧ .

(٢٧) المصدر السابق ١/٣٣١ .

(٢٨) المصدر ١/١٨ .

(٢٩) المصدر ١/١٣ .

(٣٠) تاريخ الذهبى من مقدمة المسند ص ١٣٠ . ١٣١

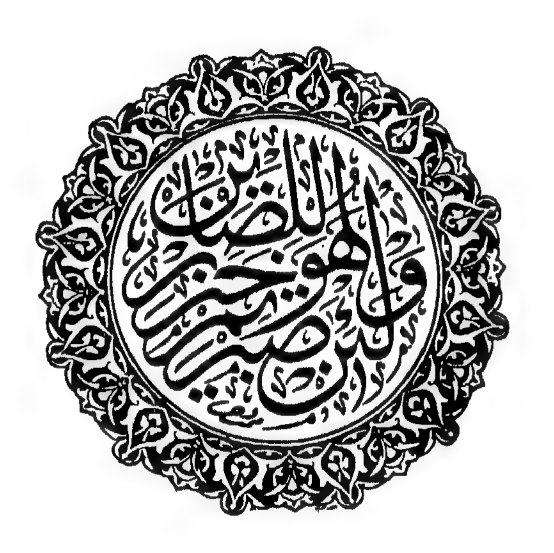
والأمثلة على ذلك كثيرة وهى إن قصد بها تعظيم ابن حنبل وتمجيده فإنها قد تؤدى عند غير العالمين إلى عكس ذلك . فإن أحمد بن حنبل بفضله وعلمه وورعه وزهده وتقواه وتوفره على حديث الرسول ودفاعه عن السنّة الشريفة وذوده عن صلب العقيدة وشجاعته التى لم تتكرر إلا عند القليل من أمثاله . كل ذلك - دون تلك الحواشى الزائدة والمبالغات غير المقبولة - يضعه فى مكان الصدارة بين علماء المسلمين وفى الصف الأول من أئمتهم العظام .



الفصل السابع

فقه أحمد بن حنبل وكتبه

* أصول فقه الإمام أحمد
* مصادر فقه الإمام أحمد
  الكتاب، السنة، فتوى الصحابة، القياس
* مصادر فرعية للفقه الحنبلي
  - الاستصحاب، المصالح المرسلة، الذرائع
  - الإمام أحمد لا يقول بالإجماع
* الفقه الحنبلي بين التشدد والتيسير
  - مظاهر التشدد
  - مظاهر التيسير
* كتب الإمام أحمد
  - كتب غير المسند
  - المسند
  - دراسات حول المسند
  - منهج المسند
  - مسانيد سابقة


ولئن صبرتم لهو خير للصابرين

الفصل السابع

فقه أحمد بن حنبل وكتبه

(١)

أصول فقه الإمام أحمد :

الأصل فى العالم أو الفقيه أن يكون فى فكره وفقهه متأثراً بشيوخه سالكاً طريقهم . متبعاً منهجهم . لا تكاد تخطئ هذه القاعدة إلا فى حالات قليلة نادرة . والقليل النادر يعتبر استثناء . والاستثناء لا يشكل قاعدة فى عالم الفكر ودنيا العلماء .

أردنا بذكر هذه البديهية أن نلفت النظر إلى شيوخ أحمد ونهجهم فى العلم لكى نتعرف فى سهولة ويسر على نهجه فى الفقه ومذهبه فى العقيدة .

كان أشهر شيوخ أحمد هم هشيم بن بشير . ويزيد بن هارون . ووكيع بن الجراح . وعبد الرحمن بن مهدى . وإسماعيل بن علية . ويحيى بن سعيد القطان . وسفيان بن عيينة . وعبد الرزاق بن همام . إنهم جميعاً بغير ما استثناء رجال حديث وأثر . سعى أحمد إليهم جميعاً . قاطعاً المسافات . مرتحلا بالأيام والشهور إليهم حيث يعيشون وكلهم غير بغداديين باستثناء هشيم . وعدد منهم غير عراقيين من أمثال عبد الرزاق بن همام الذى ارتحل إليه فى صنعاء وسفيان بن عيينة الذى ارتحل إليه فى مكة . وإن كان فى الأصل كوفيا هجر الكوفة إلى مكة . هذا فضلا من شيوخ آخرين فى الجزيرة والشام .

وإذا نظرنا إلى أشهر أقران أحمد وأبرز رفاقه وجدناهم إسحاق بن راهويه عالم خراسان . ويحيى بن معين إمام الجرح والتعديل وواحد من أكبر خدام حديث رسول الله ﷺ . وأحمد بن المدينى . وكلهم رجال أثر وأصحاب حديث .

عاش الإمام أحمد حياته المباركة كلها فى رحاب حديث رسول الله . آخذاً حافظاً كاتباً جامعاً مرتحلا محدثاً ثم مؤلفاً « المسند » الذى سوف نتحدث عنه فى صفحات قادمة . والذى يعتبر أحد الكتب العمد فى حديت رسول الله ﷺ .
وإذن فقد عاش الإمام أحمد حياته كلها منقوعاً فى الحديث فيما لو صح هذا التعبير .

ومن ثم فإن الإمام أحمد قد دخل إلى ساحة الإمامة ودلف إلى باحة الفقه من باب الحديث الشريف . وإمامٌ هذه وسيلته يكون فقهه فقه أثر وليس فقه رأى . وهو يقرر ذلك النهج مؤكداً عليه بقوله : « ما أجبت فى مسألة إلا بحديث رسول الله ﷺ إذا وجدت السبيل إليه أو عن الصحابة » . ومن الحقائق المقررة عند أئمة المذاهب جميعاً أن الصحابة مصدر أساسى من أصول الفقه . وعلى آرائهم تدور الفتيا . فقد عايشوا الرسول ﷺ . ومنه تعلموا . وعنه تلقوا . وعلى نهجه ساروا .

كان الإمام أحمد لا يجيب عن مسألة أو يفتى فى قضية بغير نص من الكتاب أو السنة فيقول دائماً حدثنا أو أخبرنا . إن عبد الوهاب الوراق تلميذ الإمام أحمد وخليفته فى حلقته يصف لنا طريقة الإمام فى الإجابة عن المسائل والإفتاء فيها إذا ما سئل فيقول : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل . سئل عن ستين ألف مسألة . فأجاب فيها حدثنا وأخبرنا . والنتيجة المستفادة من قول الإمام أحمد ومن خبر تلميذه عبد الوهاب أنه لم يكن يقول بالرأى . بل كان يحرمه فى شدة وحزم . وكان يحمل على أصحاب الرأى . حملات شديدة . ويستفاد من قول الإمام وتلميذه أيضاً أنه لم يكن يستعمل القياس أو يقول به . وان كان القياس قد شكل فيما بعد مصدراً من مصادر الفقه المالكى . وقد بلغ نفور الإمام أحمد من القول بالرأى . مهما كان الرأى صائباً . إلى المدى الذى جعله يفضل الحديث الضعيف على الرأى . فقال فى هذا المقام : ضعيف الحديث أولى من رأى الرجال . وربما كرر القول نفسه بصيغة أخرى هى : ضعيف الحديث خير من الرأى .

فالإمام أحمد لم يقل بالرأى . بل حرمه . وكل منطلقاته الفقهية أساسها حديث رسول الله . والكتاب قبل الحديث بداهة . غير أن كتاب الله وما حوى من أحكام محتاج إلى تفسير . وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن السنة قاضية على الكتاب . قال ذلك يحيى بن أبى بكير . ويذهب الإمام أحمد المذهب نفسه ولكنه . وهو الموصوف بالأدب الموسوم بالتقوى . لا يتبنى هـذا المبدأ من خلال لفظه . بل من خلال معناه . وأما اللفظ فإن الإمام أحمد رضى الله عنه يقول : لا أجسر على هـذا أن أقوله . ولكن السنة تفسّر الكتاب وتبينه . ومهما كان الأمر فإن الإمام أحمد يعتبر أكثر الأئمة تبنّيا لا ستصدار الأحكام من خلال السنة الشريفة . أشدهم استمساكاً بذلك .حتى من الإمام مالك نفسه برغم ما عرف عن مالك فى هـذا السبيل .

وعلى الرغم من أن الإمام ابن حنبل لم يأخذ برأى . ولم يذهب إلى قياس . فقد كان بمعيشته مع أحكام الكتاب وخوضه إلى أعماق الحديث . وتمكنه من أعمال الصحابة وفتاواهم أعلم الناس . فقد حصّل العلم . ووهبه الله فتحاً فيه وبركة منه . مما جعل إبراهيم الحربى أحد تلاميذه يقول : رأيت أحمد بن حنبل . فرأيت كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين . ومما جعل يحيى بن معين الحافظ وإمام الجرح والتعديل يقسم بالله قائلا : والله ما تحت أديم السماء أفقه من أحمد بن حنبل . ليس فى شرق ولا غرب .

فأحمد بن حنبل إذن إمام عظيم فى الفقه . وهو رابع الأئمة المشهورين من حيث الترتيب الزمنى . لا يحجب عنه صفة الفقية قول ابن جرير الطبرى . أوقول من جعله مجرد عالم كبير بالفقه الشافعى . لأن صفوة علماء زمانه . وخاصة فقهاء عصره أجمعوا على إمامته على النحو الذى بينّا فى أكثر من موضع فى هـذا الكتاب . وكانت أصول فقهه مرتبطة بالأثر . مستمسكة بالسنة . آخذه عنها . نابعة منها . مؤكدة عليها .

(٢)

مصادر فقه الإمام أحمد :

يُجمل الإمام أحمد مصادر فقهه فى قوله هـذا الذى يعرّف فيه بالدين ومن ثم بالمصادر الأساسية التى منها تستقى الأحكام الفقهية : « الدين إنما هوكتاب الله عز وجل . وآثار وسنن وروايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة المعروفة . يصدق بعضها بعضاً حتى ينتهى ذلك إلى رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين وتابعى التابعين . ومن بعدهم الأئمة المعروفين المقتدى بهم . المتمسكين بالسنة والمتعلقين بالآثار . لا يعرفون بدعة . ولا يطعن فيهم بكذب . ولا يرمون بخلاف . وليسوا بأصحاب قياس ولا رأى . لأن القياس فى الدين باطل . والرأى مثله وأبطل منه . وأصحاب الرأى والقياس مبتدعة ضلال . إلا أن يكون فى ذلك أثر عمن سلف من الأئمة »[1] .

فالإمام أحمد يبطل الرأى والقياس فى شدة ويستثنى الرأى أو القياس الذى أثر عن السلف .

ولقد شرح فقهاء المذهب قول الإمام أحمد واتفقوا على تحديد مصادر خمسة جعلوها أصولاً لفقه الحنابلة وهى :

أولا : **كتاب الله** اعتماداً على قول الله تعالى :

« مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »

وأن القرآن الكريم هو أساس الشريعة . وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثانيا : **سنة رسول الله** ﷺ . وذلك استناداً إلى قول الله عز وجل :

« فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ »

---

(١) طبقات الحنابلة ٣١/١ .

وقوله تعالى :

وَمَا آتَاكُمُ الرسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »

وقول رسول الله ﷺ :

« عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي »

وفيما يتعلق بالسنة فإن الأئمة السابقين على أحمد بن حنبل مجمعون على أنها من حيث كونها مصدراً من مصادر الفقه تأتى فى مرتبة متأخرة عن القرآن .

غير أن ابن قيم الجوزية حين تحدث عن أصول المذهب جعل المصدر الأول هو « النص » والنص بداهة يعنى الكتاب والسنة أحدهما أوكليهما . وهنا يقع ما يحتاج إلى البيان والتوضيح حول مرتبة النص من السنة . فقد أسلفنا القول الذى يجعل السنة حاكمة على القرآن . وارتضى الإمام أحمد هذا المعنى واعترض على الصيغة . وهذبها قائلا : بل هى مفسرة له ومبينة .

إن القرآن الكريم ونصوصه مقدمة لاشك من حيث الاعتبار . وأما من ناحية الأحكام فإن الحنابلة يجعلون السنة فى مرتبة مساوية . لأن ظاهر القرآن عندهم لا يقدم على السنة . ولأن رسول الله ﷺ هو الذى يفسر القرآن الكريم (٢) . والله سبحانة يقول :

« إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »

فالسنة مفسرة للقرآن مبينة الناسخ والمنسوخ . مفصلة ما أجمله من أحكام ومقيدة المطلق منها .

إن الإمام أحمد يوضح موقف السنة ويرد على من أخذ بظاهر القرآن وترك السنة بقوله : « إن الله جل ثناؤه ، وتقدّست أسماؤه بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون . وأنزل عليه كتابه بالهدى والنور لمن اتبعه ، وجعل رسول الله على ما أراد من ظاهره وباطنه . وخاصه وعامه ،

---

(٢) ابن حنبل لأبى زهرة ص ٢٤٤ .

وناسخه ومنسوخه . وما قصد له الكتاب . فكان رسول الله ﷺ هو المعبّر عن كتاب الله . الدال على معانيه . شاهده فى ذلك أصحابه الذين ارتضاهم الله لنبيه . واصطفاهم له . ونقلوا ذلك عنه . فكانوا أعلم الناس برسول الله ﷺ . وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم وما قصد له الكتاب . فكانوا هم المعبرين عن ذلك بعد رسول الله ﷺ »[٣] .

وقد أعطى الفقهاء مزيداً من الاهتمام لمبدأ كون السنة حاكمة على الكتاب . فيوضح الشاطبى هذا الأمر قائلا : « السنة عند العلماء قاضية على الكتاب وليس الكتاب بقاض على السنة . لأن الكتاب يكون محتملاً لأمرين فأكثر . فتأتى السنة بتعيين أحدهما . فيرجع إلى السنة ويترك مقتضى الكتاب . وأيضاً فقد يكون ظاهر الكتاب أمراً فتأتى السنة فتخرجه من ظاهره »[٤] .

ويمضى الشاطبى فى إعطاء مزيد من البيان وضرب الأمثلة على كون السنة قاضية على الكتاب بقوله : « إنها تقيد مطلقه . وتخصص عمومه . وتحمله على غير ظاهره . فالقرآن آت بقطع اليد . فخصت السنة ذلك بسارق النصاب المحرز . وآت بأخذ الزكاة من جميع المال ظاهراً فخصته بأموال مخصوصة » .

والحقيقة أن السنة مبينة لأحكام الكتاب مفسرة لها . مكملة لأصول الشريعة . فلقد حددت الآيتان من سورة النساء من يحرم زواجهن فى قوله تعالى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ » إلى قوله تعالى :

« وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ . . . »[٥]

فجاءت السنة فأخرجت من ذلك زواج المرأة على عمتها أو خالتها .

ربما نكون قد وقفنا عند السنة كمصدر للفقه الحنبلى وقفة أقرب إلى الطول لأن الفقه الحنبلى يعتبر فقه السنة فى أكثر مصادر الفقه تحديداً . ولأن الحنابلة

(٣) المصدر ص ٢٤٣ .

(٤) إعلام الموقعين ٩/٤ .

(٥) النساء : الآيتان ٢٣ . ٢٤ .

وعلى رأسهم الإمام أحمد هم القائلون بأن السنة قاضية على الكتاب فى قضايا الفقه .

ثالثا : فتوى الصحابة : كان الإمام أحمد يأخذ فى فتاواه بفتوى الصحابة . ويجعلها الأصل الثالث لفقهه بعد كتاب الله وسنة رسوله . أو الأصل الثانى بعد « النص » من الكتاب والسنة . إن فتوى الصحابى عنده تلى ما قد أخذ من الحديث الصحيح . ولكنها مقدمة على الحديث المرسل .

والأمر الجدير بالذكر أن الصحابة خلفوا من الفتاوى ما يملأ المجلدات . وما يلبى حاجة أكثر السائلين المستوضحين قضايا دينهم ومسائله . وكان أكثر الصحابة إفتاء عمربن الخطاب وعلى بن أبى طالب . وعبد الله بن مسعود . وعبد الله بن عباس . وزيد بن ثابت . وأم المؤمنين عائشة .

ومن أصحاب الفتاوى من الصحابة أيضاً ولكن بقدر أقل أبوبكر الصديق . وعثمان بن عفان . ومعاذ بن جبل الأنصارى . وسعد بن أبى وقاص . وطلحة بن عبيد الله . والزبيربن العوام . وعبد الله بن عمرو بن العاص . وسلمان الفارسى .

غير أن أكثر أهل الفتيا على الإطلاق من بين الصحابة هما عمر وعلىّ . لأنهما وليا إمارة المؤمنين فسئلا . ولأنهما قضيا بين المسلمين فكثرت أحكامهما وفتاواهما .

وأما إذا وجد الإمام أحمد اختلافاً فى فتوى فى موضوع بعينه بين صحابى وآخر تخير من الأقوال ماكان أقربها إلى كتاب الله وسنة رسوله . فإذا لم يتبين له موافقة أى من الأقوال للكتاب والسنة عمد إلى ذكر الخلاف . ولم يجزم بقول .

ويأخذ الإمام أحمد بقولة الواحد من الصحابة إذا انتشر ولم يعرف له منكر أنكره . وهو فى ذلك آخذ بالحديث الشريف :

« أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ »

ولقد ورد عند فقهاء الحنابلة أن الإمام أحمد يأخذ برأى التابعى ويعتبره حجة إذا لم يكن هناك نص أو فتوى صحابى أو حديث مرسل .

رابعاً : القياس :

لم يكن الإمام أحمد من المتحمسين كثيراً للقياس . فلقد سبق أن ذكرنا فى صدر هذا الفصل عند تعريف الإمام بالدين قوله : القياس فى الدين باطل والرأى مثله وأبطل منه » ولكنه يستثنى القياس والرأى الذى أثر عن السلف .

ولكن الإمام أحمد وجد نفسه آخر الأمر مضطراً لاستعمال القياس . وقال فى ذلك : « لا يستغنى أحد عن القياس » ويقول ابن تيمية وهو أحد أكبر أعلام الحنابلة : كان أصحاب رسول الله ﷺ يجتهدون فى النوازل ويقيسون بعض الأحكام على بعض . ويعتبرون النظير بنظيره[٦] . ويعرف ابن تيمية القياس قائلا : القياس لفظ مجمل . يدخل فيه القياس الصحيح والقياس الفاسد . والقياس الصحيح هو الذى وردت به الشريعة . وهو الجمع بين المتماثلين والفرق بين المختلفين . والأول قياس الطرد . والثانى قياس العكس . وهو — أى القياس — من العدل الذى بعث الله به رسوله .

والذى عليه جمهرة المسلمين . والحنابلة منهم . أن القياس مبدأ لا مناص من الأخذ به . لأن أحداث الحياة مستمرة . وفيها الجديد غير المسبوق الذى لم يرد فى الإفتاء فيه نص صريح أو فتوى صحابى أو تابعى . فكان لابدّ للفقيه من الأخذ به . بل إن رسول الله ﷺ كان يصدر من الأحكام ما يمكن أن يكون معلما للناس لكى يستعملوا القياس متى دعت الضرورة إلى ذلك .

لقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال له : إن أبى أدركه الإسلام وهو شيخ كبير لا يستطيع الرحلة والحج مكتوب عليه . أفأحج عنه ؟ فقال له النبى ﷺ : **أَنْتَ أَكْبَرُ وَلَدِهِ ؟**

قالَ : نعم . قال :
أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دَيْنٌ فَقَضَيْتَهُ . أَكَانَ يُجزِى ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَحُجَّ عَنْهُ .

---

(٦) إعلام الموقعين ١٧٦/١ .

هكذا علمنا رسول الله ﷺ أن نستعمل القياس دلك أنه اذا كان سداد الولد دين أبيه يجزى لإبراء الذمة . فإن الحج عنه يجزى . ومادام الحج عنه وهو عاجز على قيد الحياة يجزى . فكذلك يكون الحج عنه بعد وفاته مجزيا .

على أن الإمام أحمد وإن أخذ بالقياس فإنه قد عمد فيه إلى القصد والاعتدال . لم يجمد فيه كما جمد الظاهرية الذين رفضوا الأخذ به . كما أنه لم يغلُ فى استعماله غلو العراقيين . ومهما يكن من أمر فيبدو أن الإمام أحمد كان يرى استعمال القياس بمنزلة من يضطر إلى فعل الشيء ولا سبيل إلى تجنبه . فقد قيل إن القياس عنده بمنزلة الميتة مع الضرورة . واستعمال التراب مع عدم وجود الماء . فلما امتد الزمان . وتعاقبت القرون . وتعقدت سبل الحياة . واحتيج إلى أحكام فى قضايا لم تكن موجودة عند السلف . عمد الحنابلة إلى استعمال القياس مع تحديده وتقنينه والانتهاء من خلاله إلى استنباط أحكام يرضى عنها الدين ولا تنفر منها روح الشريعة .

(٣)

مصادر فرعية للفقه الحنبلى :

ذكرنا فى الفقرة السابقة المصادر الأصلية للفقة الحنبلى . وهى الكتاب والسنة وقول الصحابى والقياس عند الضرورة . ونلاحظ أن الفقة الحنبلى أهمل الإجماع كأصل من أصول مصادره لرأى خاص للإمام أحمد فيه سوف نعود إليه بعد قليل . كما كان ينكر الاستحسان ويرفض أن يجعله أصلاً من أصول الشريعة أو مصدراً من مصادر الفقه .

وأما المصادر الفرعية التى جعلها الإمام أحمد صالحة لأن يبنى عليها فقه الحنابلة فهى الاستصحاب . والمصالح . والذرائع . وهى أصول أخذ بها سابقوه من الأئمة . ولكن لكل إمام نهجاً محدداً ذا صفة متميزة عن غيره فى الأخذ بهذه الوسائل من حيث التوسع أو التحديد أو الاختلاف فى المفهوم أو ظروف استعمالها ووسيلة تطبيقها ونهج الاستنباط منها . وسوف نحاول التعريف بها من خلال المفهوم الحنبلى على النحو التالى .

أولا : الاستصحاب : وهو أصل فقهي أجمع الأئمة الأربعة على الأخذ به وإن كانوا قد تباينت سبلهم فى ذلك . واختلف أخذهم منه قلة وكثرة . وتحديداً واتساعاً . فبينما يتوسع فيه الحنابلة يقلل الحنفية من استعماله .

ولكي نفهم الاستصحاب فهما دقيقاً فإننا نقدم له أكثر من تعريف لأكثر من فقية . فإن حصيلة هذه التعريفات سوف تنتهى بنا لا ريب إلى الفهم الذى أردناه .

يقول ابن قيم الجوزية فى الاستصحاب إنه استدامة إثبات ما كان ثابتاً . ونفي ما كان منفيا . يعني بقاء الحكم على ما هو عليه نفياً وإثباتا حتى يقوم دليل على تغيير الحالة . فهذه الاستدامة أو بقاء الحكم لا تحتاج إلى دليل إيجابى لبقائها . وإنما تستمر لعدم وجود دليل يستدعى تغييرها . مثال ذلك ثبوت الملكية فى عين بدليل يدل على شرائها . فإن الملكية تستمر قائمة بدليل هذا الشراء حتى يوجد دليل يفيد نقل الملكية إلى الغير . ولا يكفى احتمال البيع لزوالها . بل لابد من قيام دليل على البيع . ومثال آخر يمكن أن يضرب فى هذا السياق : شخص علم أنه حى فى زمن معين . فإنه يغلب على الظن وجوده فى الحاضر والمستقبل ما لم يقم الدليل على موته . فيحكم باستمرار حياته حتى يوجد الدليل الذى يثبت وفاته . ومن ثم فالقاعدة من خلال الاستصحاب هى الحكم بحياة المفقود حتى يوجد ما يدل على وفاته . أو توجد أمارات يغلب الظن معها على أنه قد توفى .

ويقول الإمام الشوكانى فى تعريف المصاحبة ومعناها : أن ما ثبت فى الزمن الماضي . فالأصل بقاؤه فى الزمن الحاضر والمستقبل مأخوذ من المصاحبة . وهو بقاء ذلك الأمر ما لم يوجد ما يغيره . فيقال : الحكم الفلانى كان فيما مضى وكل ما كان فيما مضى لم يظن عدمه . فهو مظنون البقاء »(٧) وهو تعريف تغلب عليه لغة الأصوليين . وقد كان الشوكانى أصولياً كبيراً توفى فى بلده صنعاء فى منتصف القرن الماضى ١٢٥٠ هـ عن سبعة وسبعين عاماً . ومائة وأربعة عشر كتاباً منها

(٧) إرشاد الفحول ص ٢٠٧ .

كتاب إرشاد الفحول فى أصول الفقه وهو الكتاب الذى ننقل منه هذه التعريفات .

على أن بعض الفقهاء يرون أن الاستصحاب هو آخر الأصول التى يلجأ إليها الفقية بعد أن تعييه المصادر الأخرى المقدمة من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس . ومن ثم فإن الإمام الشوكانى يورد هذا الحكم فى شأن الأخذ بالاستصحاب عن الخوارزمى قائلا : « هو آخر مدار الفتوى . فإن المفتى إذا سئل عن حادثة يطلب حكمها فى الكتاب ثم فى السنة ثم فى الإجماع ثم فى القياس . فإن لم يجده . يأخذ حكمها من استصحاب الحال فى النفى والإثبات . فإن كان التردد فى زواله فالأصل بقاؤه . وإن كان التردد فى ثبوته فالأصل عدم بقائه »[8]

ويمكن أن نقدم بعض الأمثلة للأحكام المستمدة من « الاستصحاب » عند الحنابلة :

* إذا غرق الصيد فى الماء قبل الاستيلاء عليه لا يؤكل ولو وجدت آثار السهام فيه . لأنه لا يدرى أقتل غرقاً فلا يحل . أم قتل بالسهم الذى سمى عليه عند إرساله فيحل . ولما كان الأصل فى الذبائح التحريم حتى يثبت الحلّ بالذبح المسمى عنده . أو بالصيد الذى يسمى على السهم عند إرساله إليه . ولم يثبت دليل الحل بيقين . فتبقى القضية على أصل التحريم .
* مثل آخر الأصل فيه هو التحليل . فقد قرر الحنابلة أن الأصل فى الماء أنه طاهر مطهر . ولذلك فإنه يبقى على أصله هذا من الطهارة والتطهير حتى يقوم دليل على انتقاله من هذه الحال إلى حال أخرى تغير الحكم . فلا تزول الطهارة إلا بقيام دليل النجاسة من تغير فى اللون أو الرائحة أو رؤية شيء نجس يخالطه .

مثل ذلك ينطبق على الوضوء أيضا . فإذا توضأ شخص فإنه يكون متطهراً مؤهلاً لأداء الصلاة ويستمر على وضوئه يصلى به مادام لم يعلم يقينا أو يغلبه ظن أنه قد حدث منه ما ينقض ذلك الوضوء . فإذا مضت فترة على وضوئه .

---

(٨) المصدر السابق ص ٢٠٨ .

ولم يعلم أويظن شيئا من ذلك . ولكنه شك فى أنه ربما حدث له ما ينقض الوضوء . فإنه يستمر طاهراً . ويستمر وضوؤه قائماً . وله أن يصلى مع هذا الشك . لأن الأصل بقاء الحال الثابتة حتى يقوم دليل على نقيضها . وفى الحالة التى نحن بصددها لم يقم الدليل على ما ينقض الوضوء .

إذا طلق رجل زوجته فشك فى أنه طلق واحدة أو ثلاثا . فإن الإمام أحمد يرى أنه لا يقع إلا طلقة واحدة رجعية – وهو الحكم الذى أخذ به أبو حنيفة والشافعى ورفضه مالك – واعتماد الإمام أحمد فى حكمه هذا قائم على أن الحلال ثابت بيقين بمقتضى عقد الزواج الخالى عند إنشائه من كل مانع شرعى . فكان الحل أو الحلال هو الحال الثابتة المستمرة . فلا تزول بالشك . بل لا تزول إلا بما يماثلها فى الثبوت . والطلقة الواحدة مستيقنة فتثبت . وهى لا تنافى الحل فتثبت معه(٩)

ثانيا : المصالح المرسلة :

لقد جاءت الشريعة للتيسير على الناس وتنظيم حياتهم والحفاظ على مصالحهم . ومن ثم فقد اهتم الأئمة والفقهاء بمصالح الناس وجعلوها أصلا من أصول التشريع ما لم تكن مخالفة لروح الدين أو نص العقيدة .

وإذا كان الإمام أحمد لم يذكرها صراحة كأصل من أصول فقهه ومصدر من مصادره . فإن كثيرا من فتاواه التى استهدفت صلاح الناس وصيانة المجتمع ودفع الضر عنه . تعتبر مما يندرج تحت باب المصالح المرسلة . ولقد جاء ابن قيم الجوزية وهو متأخر فقرر أن المصالح أصل من أصول الاستنباط . ذلك لأنه ما من أمر شرعه الشارع إلا وهو متفق مع مصالح العباد . وأن أمور الشريعة التى تتصل بمعاملات الناس تقوم على إثبات المصلحة ومنع الفساد والمضرة . وقد عمد ابن القيم إلى التوكيد على ذلك فى أكثر كتبه وبصفة خاصة فى زاد المعاد . وفى إعلام الموقعين .

والحقيقة أن المصالح مصدر من مصادر التشريع وأصل من أصول الاستنباط

---

(٩) راجع إعلام الموقعين ٢٩٤/١ وما بعدها .

منذ العصر الباكر للخلفاء الراشدين ، والإمام أحمد تلميذ أمين لمدرسة الصحابة فى الفقه ، ورؤوس الصحابة هم الخلفاء الراشدون .

والأمثلة على أخذ الخلفاء الراشدين بالمصالح أكثر من أن تحصى ، وكثير من هذه الأمثلة معروف ، مثل قصة نفى نصر بن حجاج من المدينة ، فقد كان عمر كعادته فى تفقد أحوال الرعية . يتسمع عما يجرى داخل بعض البيوت فى الليل لعله يجد ذا حاجة فينجده ، أو يقع على سوء فيمنعه . أو انحراف فيقومه ، فسمع ذات ليلة امرأة تردد هذا البيت :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إلى خَمْرٍ فَأَشْرَبُهَا
أَو هَلْ سَبِيلٌ إِلَى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ

فانزعج عمر لأن امرأة تنادى بصوت عال وقد غلبتها الرغبة فى رجل بعينه ، وهو أمر لم يكن مألوفا فى مجتمع المسلمين ، فلما كان الصباح بعث عمر فى استحضار نصر بن حجاج فإذا هو فتى وسيم جميل قد أسدل لمته ، وأرسل شعره . وتأنق فى مظهره بما يبعث الفتنة فى قلوب النساء . فنفاه من المدينة تأديبا له . وحفاظا على النساء من الفتنة ، وإنذارا لغيره من الشباب الذين يبالغون فيما لا ينبغى أن يسرفوا فيه لكى يلفتوا أنظار النساء إليهم .

ومن الأحكام المعروفة عن عمر فى هذا السبيل أنه قضى بقتل الجماعة بالواحد . ولم يكن هناك سابق نص يعتمد عليه فى مثل تلك الفتوى ، ولكن مصالح الناس وأمنهم اقتضت أن يقتل الجماعة بالواحد . لأنه لو شاع بين الناس ألاّ قصاص إذا كان القاتل أكثر من واحد أو إذا كان القتل بالاشتراك انتهى الأمر إلى فساد المجتمع وضياع أمن الفرد . فجعل عمر الجماعة المشتركة فى القتل بمثابة الواحد القاتل . فقتلها كلها يشبه قتل القاتل وحده ، وأنزل الأشخاص المجتمعين لغرض القتل منزلة الشخص الواحد . والذى دعى إلى مثل هذا الحكم هو مصلحة المجتمع وحقن دماء الناس والحفاظ على أرواحهم وسلامتهم .

ومن الأمثلة الطريفة النفيسة فى الأخذ بالمصالح المرسلة اتفاق الخلفاء الراشدين على تضمين الصناع – وهو مبدأ أصيل فى عصرنا معمول به فى كل

الأقطار المتقدمة – مع أن الأصل فى كونهم أمناء . ولكن رؤى أنهم إذا لم يضمنوا فإنهم قد يستهينون فى المحافظة على أمتعة الناس وأموالهم . فكانت المصلحة تقتضى تضمينهم ليحافظوا على ما تحت أيديهم . وقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى هذا المبدأ . أعنى مبدأ التضمين : « لا يُصلح الناس إلا ذاك » .

ومن منطلق المصالح المرسلة ما فعله عمر بالولاة الذين لم يكن يثق بهم . فقد كان يشاطرهم فى أموالهم الخاصة ويردها إلى بيت المال . والسبب فى ذلك هو اختلاط أموالهم الخاصة بالأموال التى استفادوها بحكم سلطتهم وولايتهم . فعل عمر ذلك لأنه رأى فى هذا التصرف صلاح الولاة ومنعهم من استغلال سلطة الولاية لجمع المال وجر المغانم .

نقول إن الإمام أحمد يعلم ذلك كله . وقد أصدر فتاوى تستهدف صلاح المجتمع وتطهيره من الفساد وزجر المستهينين بالقيم الأخلاقية . مثال ذلك فتاواه فى نفى أهل الفساد والدعارة إلى بلد يؤمن فيه من شرهم . ومن ذلك تغليظ الحد على شارب الخمر فى رمضان .

الحقيقة أن المصالح المرسلة أصل ثابت من أصول الفقه الحنبلى وإن لم ينص عليها . وهى جميعا فى خدمة المسلمين وتأمين مصالح الناس . ومن الفتاوى الطريفة البناءة فى هذا المقام ما أفتى به أصحاب الإمام أحمد من أنه يجوز إجبار المالك على أن يسكن فى بيته من لا مأوى له . إذا كان فيه متسع [١٠] .

ثالثا : الذرائع :

إن الشارع ينهى عن الشىء وينهى عن كل ما يوصل إليه . ويأمر بالشىء ويأمر بكل ما يوصل إليه . ففيما يتعلق بالنهى على سبيل المثال نجد الشارع نهى الناس عن الفرقة والتباغض . ونهى عما يؤدى إليهما . مثل نهيه أن يخطب الرجل على خطبة أخيه ، أو يبتاع على بيع أخيه . لأن خطبة الأخ على خطبة أخيه

---

(١٠) الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية ص ٢٣٩ وبه أمثلة كثيرة للأخذ بالمصالح .

ذريعة إلى الفرقة والتباغض المنهى عنهما . ومن ثم فقد قسم الشارع المواريث بين أهلها ونهى عن الوصية لوارث كما نهى عن منع الوارث حقه .

وفيما يتعلق عن الأمر بالشيء والأمر بكل ما يوصل إليه . فقد أمر الشرع بصلاة الجمعة وأمر بالسعى إليها وأمر بالتوقف عن البيع والشراء كوسيلة لتحقيقها والسعى إليها .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ »(١١) .

ومن ثم يكون كل ما هو منهىّ عنه تكون وسائله منهيا عنها لأنها الذرائع التى تؤدى إليه . وكل ما هو مطلوب فعله ينبغى أن تكون وسائل الحصول عليه وتنفيذه وسائل حلالا مشروعة .

ولمزيد من الإبانة تقول إن الذرائع الهدف منها الحفاظ على سلامة المجتمع وإشاعة الأمن والأمان من خلال أحكام دينية ثابتة أفتى بها الصحابة الأولون . وسار على نهجها الأئمة والفقهاء . وكان فى مقدمة من أخذ بالذرائع من الأئمة مالك وابن حنبل .

لقد اجتهد صحابة رسول الله فى تطبيق الذرائع مثلما اجتهدوا فى القياس والمصالح المرسلة . فقرروا أن المطلقة طلاقا بائنا فى مرض موت الزوج ترث من الزوج برغم حدوث الطلاق . ذلك أن الطلاق فى مثل هذا الظرف يجعل الزوج متهما بقصد حرمان الزوجة من الميراث . وإن لم يكن هذا القصد قائما فى نيته . غير أن الطلاق فى هذه الحالة غالبا ما يكون القصد منه الحرمان من الميراث إلا إذا قام الدليل على عكس ذلك كأن يكون الطلاق بطلب من الزوجة نفسها .

والصحابة تلاميذ فى مدرسة النبوة . ومن ثم لا يصدر عنهم من فتاوى إلا ما كان متمشيا مع ما تعلموه من الرسول . ولقد نهى الرسول ﷺ عن قطع

---

(١١) سورة الجمعة الآية ٩ .

الأيدى فى الغزو . مع صراحة النص بقطع يد السارق . ولكن سبق القول أن السنة مبينة للكتاب مفسرة له . فرأى الرسول ﷺ فى مثل حالة الحرب أن السارق إذا قطعت يده ربما كان ذلك ذريعة لالتحاقه بالأعداء . فيكشف عورات المسلمين ويكون عينا عليهم لصالح أعدائهم .

من المثالين السابقين مثال وراثة المطلقة فى مرض الموت للزوج ، وعدم قطع يد السارق أثناء الحرب . نستطيع أن نفهم أن الذرائع لم يقصد بها نفع الفرد وحده . وإنما تستهدف النفع العام من تثبيت للخير ودفع للفساد .

لقد سار الإمام أحمد على هذا النهج فى استعمال الذرائع . ولقد أعطى ابن قيم الجوزية تحديدا لمفهوم الذرائع من وجهة النظر عند الحنابلة فقال : لما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضى إليها . كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها . **فوسائل المحرمات والمعاصى** فى كراهتها والمنع بها بحسب إفضائها إلى غاياتها وارتباطها بها . **ووسائل الطاعات والقربات** فى محبتها والإذن بها بحسب إفضائها إلى غاياتها . فوسيلة المقصود تالية للمقصود . وكلاهما مقصود ، ولكنه مقصود قصد الغايات . وهى مقصودة قصد الوسائل . فإذا حرم الرب شيئا وله طرق ووسائل تفضى إليه فإنه يحرمها تحقيقا لتحريمه وتثبيتا له ومنعا أن يُقرب حماه . ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية لكان ذلك نقضا للتحريم وإغراء للنفوس به . وحكمته تعالى وعلمه يأبى ذلك كل الإباء . بل إن سياسة ملوك الدنيا تأبى ذلك . فإن أحدهم إذا منع جنده أو رعيته أو أهل بيته من شيء ثم أباح لهم الطرق والأسباب والذرائع الموصلة إليه لعدّ متناقضا . ولحصل من رعيته وجنده ضد مقصوده . وكذلك الأطباء إذا أرادوا حسم الداء منعوا صاحبه من الطرق والذرائع الموصلة إليه . وإلا فسد عليهم ما يرومون إصلاحه . فما الظن بهذه الشريعة التى هى فى أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال . وَمَنْ تأمَّلَ مصادرها ومواردها علم أن الله تعالى ورسوله سدّ الذرائع المفضية إلى المحارم بأن حرمها ونهى عنها »[١٢] .

---

(١٢) إعلام الموقعين ١١٩/٣ .

وفى نطاق الذرائع قد يقصد المرء الشر بفعل المباح . وقد يقصد الخير بفعل المنهى عنه . ومن هنا يكون ثواب المرء أو عقابه فى الآخرة بحسب نيته . ويكون حسن عمله أو قبحه فى الدنيا بحسب نتيجته وثمرته .

فمن أمثلة القصد إلى الشر بفعل المباح التاجر الذى يرخص بضاعته ليضر بذلك تاجرا آخر ينافسه . إن ذلك العمل مباح . ولكنه فى حقيقته ذريعة إلى فعل الشر وهو الإضرار بغيره . ومع كون هذا العمل ذريعة للشر فإن القضاء لا يستطيع الحكم ببطلانه . لأنه فى ظاهره وسيلة للتاجر لكى تروج بضاعته . بل ومن حيث الشكل ربما كان ذريعة إلى التيسير على الناس بإرخاص البضائع وربما إلى تنزيل الأسعار . ولكنه أمر مفتعل موقوت . القصد الأصلى منه اتخاذه ذريعة للإضرار بتاجر آخر .

ومن أمثلة القصد إلى الخير بفعل الشر سبّ الأصنام إذ كان سبها يؤدى بالمشركين إلى سب الله كرد فعل على سب أصنامهم . إن سبّ الأصنام عمل طيب . وترك سبها يعتبر رضى بها وهى شيء منكر ، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

« وَلاَ تَسبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُم ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(١٣) .

إن الإمام أحمد يتوسع فى تطبيق سدّ الذرائع مستهدفا خير المجتمع ونفع الناس. وتلك ميزة كبرى من ميزات الفقه الحنبلى . فهو يرى تدخل ولى الأمر لمنع التاجر من احتكار الطعام سدًّا لذريعة الفساد وإيقاع الأذى بالناس من جراء ذلك .

---

(١٣) سورة الأنعام الآية ١٠٨ .

بل إن الإمام أحمد يذهب فى هذا الأمر مذهبا أبعد مما نتصور ، ولكنه لا يهدف إلاّ إلى خير الناس . فقد أفتى بأن من احتاج إلى طعام أو شراب من شخص فلم يعطه حتّى مات جوعا وجبت عليه الدية . والدية لا يحكم بها شرعا إلا للقتل العمد أو الخطأ . ولكن الإمام أحمد رأى أن منع الطعام والشراب كان وسيلة للموت وسبباً له . فوجبت الدية على المتسبب سدا لذريعة الشر الناتج عن الأنانية . واستهدافا لغرس الخير بين الناس والدعوة إلى التعاون والتكافل .

ذلك هو مبدأ سد الذرائع الذى يشكل أصلا من أصول المذهب الحنبلى وتلك أسبابه وأمثاله . المباح الذى يؤدى إلى ضرر يجب منعه . وغير المباح الذى يؤدى إلى نفع يكون الموقف منه بحسب النية مثل سب الأصنام .

على أن هناك أعمالا تؤدى إلى الخير والشر معا . فهل يترك المرء مقبلا عليها مؤديا لها كذريعة للنفع . أو يمنع عن أدائها ويحال بينه وبين تنفيذها كذريعة لدرء الشر . والمثال على ذلك غرس الكروم . إن ثمارها هى العنب وهو فاكهة طيبة تفيد الناس . وهى نعمة من نعم الله . ولكن إذا عصرت تلك الفاكهة صارت خمرا محرم شربها . وهى مؤدية إلى السكر الذى يضر بالمجتمع .

ماهو موقف الشرع من غرس الكروم وتلك حالها ؟ لقد أجمع الفقهاء على أن ما يكون سبيلاً للخير والشر معا ويكون فى فعله فوائد للناس لا يكون ممنوعا ، وضربوا لذلك مثلا بغرس أشجار العنب .

ومن الطريف أن الحاكم بأمر الله الفاطمى قد خالف الجمهرة حين أمر بقطع جميع أشجار الكروم لأنها تثمر العنب ومن العنب يصنع النبيذ .

الإمام أحمد لا يقول بالإجماع :

الإجماع أصل من أصول الفقه ومصدر ثابت من مصادره عند جمهرة علماء المسلمين وبخاصة الأئمة السابقين على الإمام أحمد ، مثل أبى حنيفة ومالك والأوزاعى والشافعى ولكن الشافعى كان يأخذ به فى أضيق الحدود ، وله فيه

كلام كثير أورده فى أكثر من فصل من فصول « الرسالة » حسبما أوضحنا بشيء غير قليل من التوسع عند حديثنا عن الإمام الشافعى .

والإمام أحمد تلميذ للإمام الشافعى كما هو معروف ، سمع منه فى مكة ، وتلقى عليه فى بغداد ، وقرأ « الرسالة » القديمة والجديدة ، واستوعب مضمونها فى مبدأ الإجماع ، ورأى تردد الإمام الشافعى فى التسليم به تسليما مطلقا ، فكان أكثر احترازا من أستاذه إلى الحد الذى جعله ينكره ، أو جعله أقرب إلى إنكاره ، ومن ثم لم يورده الإمام أحمد أو أحد من تلاميذه المعاصرين له أو المتأخرين عنه كأصل من أصول المذهب ، وكمصدر من مصادر فقهه .

إن الإمام ابن تيمية كبير فقهاء المذهب الحنبلى فى عصره يقول : « معنى الإجماع أن يجتمع علماء المسلمين على حكم من الأحكام ، وإذا ثبت إجماع الأمة على حكم من الأحكام لم يكن لأحد أن يخرج على إجماعهم . فإن الأمة لا تجتمع على ضلالة » .

إلى هنا لا نجد شيئا غريبا فى كلام ابن تيمية ، ولكنه يمضى مستأنفاً كلامه قائلا : « ولكن كثيرا من المسائل يظن بعض الناس فيها إجماعا ، ولا يكون الأمر كذلك ، بل يكون القول الآخر أرجح »[١٤] .

والشيء الواضح هنا أن ابن تيمية ينفى الإجماع ، ويجعل وجوده أمرا صعبا ، بل إنه يخطيء من ظن أن هناك إجماعا ، ثم يقرر أن الأمر كان على عكس ذلك .

إن ابن تيمية لم يذهب إلى هذا الذى ذهب إليه فى نفى الإجماع وعدم الأخذ به إلا من قول الإمام نفسه ، فقد قال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل : « سمعت أبى يقول : ما يدعى فيه الرجل الإجماع فهو كذب ، من ادعى الإجماع فهو كاذب ، لعل الناس اختلفوا ما يدريه ، ولم ينبه إليه ، فليقل لا نعلم الناس اختلفوا » .

---

(١٤) الفتاوى لابن تيمية ٤٠٦/١ .

وهكذا ينكر الإمام أحمد حتى لفظ الإجماع ، وإنما إذا أراد أن يعبر عن الإجماع الذى لم يعترف هو به يقول : لا نعلم الناس اختلفوا . ويقول الإمام فى ذلك أيضا لو اجتمع الصحابة أو التابعون ووجد تابعى مجتهد خالف الصحابة فى زمانهم لم ينعقد إجماع .

ومجمل القول أن الحنابلة وعلى رأسهم الإمام أحمد لا يأخذون بالإجماع كأصل أو مصدر للشرع لتصورهم صعوبة تحقيقه .

(٤)

الفقه الحنبلى بين التشدد والتيسير :

المفهوم السائد عند جمهرة المسلمين أن المذهب الحنبلى هو مذهب التشدد فى الأحكام ، حتى إنه يذيع بين العامة أن خيال الكلب ينجس ، والحقيقة أن الأمر ليس كذلك تماما ، صحيح أن بالفقه الحنبلى تشددا ، ولكن بقية الحقيقة تستدعى التقرير أن فيه تيسيرا وتخفيفا ، فكل ما اتصل بالطهارة وبعض العبادات ظهر فيه التشدد ، ويبلغ هذا التشدد أحيانا مبلغا يجعل الناس يظهرون برمهم ويجأرون بشكواهم .

ولكن المذهب نفسه يميل إلى التيسير ويتجه إلى التخفيف فى كل ما يتصل بالحياة العامة وبخاصة فى المعاملات التى لا غنى عنها للناس فى حياتهم اليومية ومسيرة أحوالهم العامة .

مظاهر التشدد :

فمن أمثلة التشدد – وكلها فى الطهارة – أن نجاسة سؤر الكلب لا يطهرها إلا غسل الإناء أو غيره ثمانى مرات إحداهن بالتراب ، بينما يراها الشافعية سبع مرات إحداهن بالتراب ، ويجرى على الخنزير عند الحنابلة ما يجرى على الكلب .

فإذا ما كانت النجاسة ليست نجاسة الكلب أو الخنزير ، فإن المرجح عند الحنابلة أن تتم الطهارة بالغسل سبع مرات ، بينما عند بقية المذاهب تكفى المكاثرة بالماء حتى تزول عين النجاسة .

ويبدو عند الحنابلة مزيد من التشدد حيال الماء الذى من الإناء المغسول أو من الشيء المغسول مثل الثوب وما شاكل ذلك . إنهم يرون أن هذا الماء نجس ، ومن ثم فإنه إن أصاب شيئا آخر فإنه ينجسه ، ومن ثم تجب طهارته بالغسل بالماء الطاهر . ويزيد بعض الحنابلة الأمر تشددا بقولهم : إذا كان الماء المتخلف عن الغسل من ماء الغسلة الأولى وجب تطهير الشيء بغسله ست مرات ؛ وإن كان ماء الثانية وجب تطهيره بغسله خمس مرات وهلم جرا من حيث الترتيب التنازلى .

وإذا كان معك إناءان بأحدهما ماء طاهر وبالآخر ماء نجس ، واشتبه الأمر عليك فلم تدر أيهما الطاهر أيهما غير الطاهر وأردت الوضوء ، كان عليك إراقة ماء الإناءين ثم تتيمم .

ومن الطريف عند بعض من حكموا بذلك من فقهاء الحنابلة أن المرء إذا تيمم قبل إراقة ماء الإناءين لم يصح تيممه ، لأنه تيمم ومعه ماء طاهر بيقين ؛ فإن أراقهما لم يبق معه ماء طاهر ومن ثم يجوز التيمم بعد ذلك ، على أن هناك رأيا للإمام أحمد بأنه يجوز التيمم قبل الإراقة .

ينفرد الحنابلة عن المذاهب الأخرى بوجوب المضمضة والاستنشاق فى الوضوء ، بينما هما سنة عند بقية المذاهب ، ذلك أن فرائض الوضوء منصوص عنها فى الكتاب العزيز :

« يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ، وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ »(١٥)

وحجة الحنابلة فى وجوب المضمضة والاستنشاق فى الوضوء والغسل أنهما من الوجه ، ومن ثم فإن الآية الكريمة تنطبق عليهما طبقا لهذا الاعتبار .

---

(١٥) المائدة الآية ٦ .

ومن صور التشدد الأخرى فى الطهارة عند الإمام أحمد أنه يرى وجوب الوضوء من أكل لحوم الإبل ، أى أن أكل لحوم الإبل مطبوخة أو مشوية أو على أى صورة من الصور ناقض للوضوء ، وهو فى ذلك مخالف لبقية المذاهب ، ولقد استند الإمام أحمد فى فتواه هذه إلى قول الرسول ﷺ :

« **تَوَضَّأُوا مِنْ لُحُومِ الأَبِلِ ، وَلاَ تَوَضَّأُوا مِنْ لُحُومِ الْغَنَمِ** » والحديث صحيح ، ولكنه منسوخ بقول الرسول ﷺ : « **الْوُضُوءُ مِمَّا يَخْرُجُ لاَ مِمَّا يَدْخُلُ** » .

ومن رواية عن جابر قوله « كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ ترك الوضوء مما مسّت النار »[١٦] .

هذا ومن التشدد حيال المقصرين فى العبادات اعتبار تارك الصلاة كافرا .

مظاهر التيسير :

إذا كان التشدد بدا فى الفقه الحنبلى واضحا فى أمور الطهارة ، فلأنها متعلقة بالنظافة ، والنظافة أساس من أسس الإيمان فى الإسلام . ومع ذلك فقد رأينا بعض جوانب التيسير فى تلك الموضوعات التى بدا فيها التشدد واضحا ، فإن الإمام أحمد يرى استمرار صحة الوضوء حتى إذا شك المرء فى أنه لا يزال على وضوئه ، لأن الأصل عنده بقاء الحالة الثابتة ، كما رأينا كذلك أن الأصل فى الماء أن يكون طاهرا ومطهرا ، ولا تزول منه هاتان الصفتان إلا بقيام دليل على النجاسة .

ويبدو التيسير فى الفقه الحنبلى على أنق ما يكون إذا ما تعلق الأمر بصالح الفرد وسعادة الأسرة ورخاء المجتمع وراحة الناس . هنا يقفز المذهب الحنبلى لكى يقف فى مقدمة المذاهب الإسلامية تيسيرا .

إن الإمام حرصا منه على عصمة الفرد يبيح له الزواج قبل الحج فيما لو لم يكن

---

(١٦) ابن حنبل لأبى زهرة ص ٣٩٦ وما بعدها .

يملك من المال إلا ما يسمح له بأن يقوم بواحدة منهما . إن الحج فريضة من فرائض الإسلام وركن من أركان العبادات ما استطاع المسلم إليه سبيلا . فإذا ماكان لدى المسلم من المال لا يسمح إلا بالزواج أو الحج قدم الزواج على الحج .

إن سعادة الأسرة ترتبط بالزواج القائم على العدل والفهم من الزوجين ، ومن ثم سمح بأن يتم الزواج تحت شروط معينة إذا ما رأى أحد الزوجين ذلك فإذا لم تنفذ تلك الشروط أمكن فسخ الزواج .

لقد أجاز الإمام أحمد أن تشترط الزوجة ألا تسافر مع زوجها بغير رغبتها ، وألا تنتقل من دارها ، وأجاز أن تشترط عليه ألا يتزوج عليها ، كما أجاز لها أن تشترط أن يكون ذا مال ويسار ، فإذا تبين غير ذلك جاز لها فسخ العقد ، بل أجاز للزوجة أن تشترط على الزوج ألا يفرق بينها وبين والديها أو بينها وبين أولادها سواء أكانوا منه أم من زوج سابق .

ويرى الحنابلة أن الزوجة غير ملزمة بأنواع من الخدمة مثل الطحن والعجن والخبز ، وإن كان الأجدر بها والأولى أن تقوم بذلك ، لأن العادة جرت به ، كما يرى الحنابلة أن من حق الزوجة إلزام الزوج بنفقة امرأة مؤنسة للزوجة إذا مادعت الحاجة إلى ذلك .

على أن للزوجة أن يكون لها فى الطاهرة الزهراء فاطمة بنت رسول الله الأسوة والقدوة ، فقد كانت تقوم بكل مسئوليات البيت وكل واجبات الزوج على أتم ما يكون القيام وأكمل ما تكون الرعاية .

وللأم مكان متميز فى الإسلام . ومن ثم عند جميع الأئمة . وهى عند الإمام أحمد أكثر تميزا . وطاعتها واجبة .

إن الإمام أحمد – برًا بالأم – يوجب على الابن إذا سمعها تدعوه وهو يصلى كان عليه نداءها أن يلبى بالخروج من الصلاة إذ كانت صلاة تطوع .

وإذا أراد الولد أن يحج عن أبويه كان عليه أن يبدأ بأمه فيحج عنها أولا . ما لم يكن الأب قد وجب عليه الحج .

وعلى الابن أن يحايل أمه حتى ترضى إذا ما عارضته فى اتجاه مرتبط بمستقبل حياته . حتى ولو كان ذلك الاتجاه هو طلب العلم الذى هو فريضة على كل مسلم . فقد سئل الإمام من أحد تلاميذه عما يفعله مع أمه التى تمنعه من طلب العلم وتريده أن يعمل بالتجارة . فقال له الإمام : دارها وأرضها ولا تدع طلب العلم .

فإذا ما كان الأمر متعلقا بالمواريث فإن الحنابلة يتميزون عن جميع المذاهب ويرون أن المواريث تشمل القرابة جميعا قريبة كانت أم بعيدة من عصبيات وأصول وفروع وذوى الأرحام .

كذلك يتوسع مذهب الامام أحمد فى وجوب النفقه . ويرى أن القرابة بكل أشكالها وصلاتها توجب النفقة . وكل من يرث الفقير العاجز عن الكسب تجب عليه نفقته .

وللزوج بطبيعة الحال أن يشترط بدوره شروطا على الزوجة ويكون من حقه فسخ العقد إذا لم تتحقق أو إذا لم تقم الزوجة بالوفاء بها .

فإذا ما خرجنا قليلا إلى نطاق المجتمع العام وجدنا الإمام أحمد يحسب الطلاق طلقة واحدة إذا ما شك الرجل فى أنه طلق واحدة أو ثلاثا .

ويرى الإمام أحمد إجبار المالك أن يسكن فى بيته الفقير الذى لا سكن له إذا كان فى ملكه من السعة ما يسمح بذلك حسبما بينا فى أمثلة سابقة .

وفى نطاق التجارة يرى الحنابلة منع احتكار البضائع وتوزيعها على الناس إذا ما كانوا محتاجين إليها . كما يرون فى بعض الحالات تسعير البضائع إذا ما اشتط التجار فى رفع أسعارها . مع أن الأصل هو عدم التسعير .

والأمر فى العقود والمعاملات المالية عند الحنابلة من الرحابة بمكان . ومن بعد النظر واستشراف المستقبل بمقدار . فالأصل عندهم الإباحة . وللناس أن يعقدوا ما يشاءون من الصفقات التجارية أو غيرها من بيع وشراء أيا كانت صورة العقد ومهما كانت شروطه على ألا تشتمل العقود على أمر حرمه الله ونهى عنه كالربا مثلا . فإن العقد يكون باطلا فى مثل تلك الحال .

والعقود واجبة الوفاء لا ريب . ويعبر ابن تيمية عن ذلك بقوله : « إن العقود إنما وجب الوفاء بها لإيجاب الشارع الوفاء بها مطلقا . إلا ما خصه الدليل . على أن الوفاء بها من الواجبات التى اتفقت عليها الملل والعقلاء جميعهم » .

إن إرادة المتعاقدين هى الأصل فى نفاذ العقد وهى الأساس فى شروطه ما لم تحل حراما أو تحرم حلالا . وذلك استجابة لقول الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً »(١٧)

الأصل عند غير الحنابلة هو عدم وجوب الوفاء حتى يقوم دليل شرعى على وجوبه . أما الحنابلة فقد جعلوا الأصل هو وجوب الوفاء حتى يقوم الدليل على المنع بعقد معين أو بشرط متفق عليه . وهنا نعود إلى قرار الحنابلة بأن الأصل فى العقود والشروط الإباحة .

فإذا ضربنا مثلا بعقود الملكية وجدنا الفقه الحنبلى يقر انتقال الملكية بشروط يشترطها البائع . وقيود يستمسك بها . لأن الشروط جائزه ما لم تحلل حراما . فيستطيع البائع أن يشترط على المشترى أنه - أى المشترى - إذا استغنى عن العين المبيع وأراد بيعها . عادت إلى البائع بثمنها . كما يستطيع من يبيع دارا أن يشترط سكناها مدة معلومة . أو أن يشترط على المشترى أن يقف الشىء المبيع .

الحقيقة التى لا مراء فيها أن الفقه الحنبلى فى قضايا الشروط المقرونة بالعقود من الرحابة بمكان بحيث يسر على الناس أسباب التعامل الذى سهّل بدوره لهم سبل الحياة . ولقد أحسن ابن تيمية تلخيص ذلك فى قوله : إن مقصود العباد من المعاملات لا يبطله الشارع إلا مع التحريم . لا أنه لا يصححه إلا بتحليل،

---

(١٧) النساء الآية ٢٩ .

ومن ثم يكون الفقه الحنبلى أخذ بالجانب الإيجابى فى المعاملات فحقق يسرا وتفادى عسرا .

ومجمل القول أنه إذا كان قد تشدد فى جانب فإنه قد يسّر فى جانب آخر أكثر اتصالا بالحياة وأوفر نفعا للناس .

(٥)

كتب الإمام أحمد :

كان الإمام أحمد بن حنبل منقطعا إلى العلم بصفة عامة وللحديث بصفة خاصة . ولذلك فإنه ترك رصيدا نفيسا من المؤلفات تندرج جميعا تحت باب الحديث أكثر من اندراجها تحت أى باب آخر من العلوم الدينية . وحتى تلك التى لا يدل اسمها على أنها كتب حديث تعتمد أكثر ما تعتمد على الأحاديث الشريفة تأخذ منها مادتها وتنسج منها موضوعاتها .

والكتب التى ذكرت لابن حنبل فى طبقات الحنابلة هى كتابه العظيم « المسند » . والتفسير . والناسخ والمنسوخ . وحديث شعبة . والمقدم والمؤخر فى كتاب الله . وجوابات القرآن . والمناسك الكبير . والمناسك الصغير . ثم يضيف المصدر . وغير ذلك من التصانيف[١٨] . ومعنى ذلك أن للإمام تصانيف أخرى لم يُعن مصنف الطبقات بتسجيلها إما لشهرتها آنذاك أو لأنها رسائل صغيرة

فإذا رجعنا إلى ما بين أيدينا من كتب للإمام وجدنا بعضها لم يذكر فى النص السابق ووجدنا بعض الكتب التى ذكرت لم تصل إلينا .

والكتب التى بين أيدينا مطبوعة للإمام هى : المسند . وكتاب الصلاة وهو كتاب صغير . وكتاب السنة وهو رسالة صغيرة . وكتاب الورع . وكتاب الزهد . وكتاب مسائل الإمام أحمد الذى جمعه أبو داوود السجستانى وقام على نشره الشيخ رشيد رضا . ورسالة الرد على الجهمية .

---

(١٨) طبقات الحنابلة ١٨٣/١ .

المسند :

هذه هى كتب الإمام المنشورة إلا أنها جميعا على ما فيها من خير لا تقف منتصبة القامة أمام عمله الجليل الخالد « المسند » .

لقد توفر أحمد على جمع المسند طوال أيام حياته ، ضمنه ثلاثين ألف حديث حسب رواية أبى الحسين بن المناوى ، وذهب قوم إلى أن عدد أحاديث المسند أربعون ألفاً ، وبعض المستشرقين ممن اهتموا بالحديث مثل جولدسيهر ونالينو يقدرون أنها دون الثلاثين ألفاً ، ومهما كان الأمر فلا بدّ من متخصص فى الحديث لكى يتوفر عليها ، ويرسم حدود كل حديث مستقل بذاته ويحذف المكرر ويقدم لنا الرقم الصحيح لعددها .

على أن أحاديث المسند قد انتقيت من سبعمائة وخمسين ألف حديث رويت من أكثر من سبعمائة صحابى ، والإمام أحمد قد أحس بخطر هذا العمل الذى قام به بأمانة ودقة وهما صفتان من صفات الإمام الجليل ، وكان الإمام يملى الأحاديث على خاصته وخصوصا ولده عبد الله ، كما كان يسجل بعضها فى كثير من الأحيان بنفسه ، ولكنه توفى قبل أن يخرج العمل الكبير للناس بنفسه فقام ابنه عبد الله على إعداده ، وإضافة بعض ما سمع من أحاديث صحيحة نصّ على أنه أضافها بعد وفاة أبيه .

على أن شكل الكتاب كان متضحا فى نظر ابن حنبل وكان قد اتخذ شكلا يجعله أقرب إلى التماسك منه إلى نثار مفوّق من الأوراق ، وهو لذلك يقول: « إن هذا الكتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث فيما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارجعوا إليه ، فإن كان فيه ، وإلا ليس بحجة » ومعنى كلام الإمام أن حديثا ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يكون موجودا فى المسند لا يلتفت إليه . وهو يعلم قدر كتابه كل العلم لأنه يكرر أنه المرجع الأخير فى أحاديث الرسول بأكثر من عبارة فيقول مرة أخرى « عملت هذا الكتاب إماماً إذا اختلف الناس فى سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رُجع إليه » .

دراسات حول المسند :

كان المسند موضع اهتمام كل علماء الحديث . وقد ذهب المحدثون مذاهب شتى فى إجلاله وتعظيمه . ومبعث الإجلال والتعظيم أن الكتاب يضم أحاديث خير البشر . وأن الذى قام على جمعه إمام ليس إلى الشك فى أمانته وتقواه وورعه واحترازه من سبيل، حتى إن شمس الدين بن الجزرى يقول في كتابه «المصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد» هو كتاب لم يُرْوَ على وجه الأرض كتاب فى الحديث أعلى منه .

وبين أيدينا كتب أربعة اهتمت بمسند أحمد وضمت دراسات شاملة دقيقة عنه أولها : خصائص المسند للحافظ أبى موسى المدينى المتوفى سنة ٥٨١هـ . وثانيها: المصعد الأحمد ذلك الذي أشرنا إليه قبل قليل لشمس الدين بن الجزري المقرىء المتوفى سنة ٨٣٣ وثالثها : القول المسدد فى الذب عن المسند لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ . ورابعها : ذيل القول المسدد لمحمد صبغة الله المدراسى الهندى المتوفى حوالى ١٣٠٠ هـ . والكتابان الأخيران مطبوعان فى حيدر أباد الدكن .

على أن الناظر فى المسند المشتغل به لابد له من أن يضع فى الحسبان رجالا ثلاثة كأنما كان يجرى المسند على ألسنتهم – على حد قول المحدث الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله – وهم شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ وتلميذاه الحافظ شمس الدين بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ وعماد الدين بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ . فثلاثتهم أئمة فى الفقه الحنبلى . وهم مجددو المذهب ويضعهم كثير من الحنابلة فى الترتيب بعد الإمام أحمد مباشرة على بعد الشقة الزمنية بينه وبينهم .

منهج المسند :

إنه على الرغم مما يبدو لقارئ المسند أنه لا يخضع لمنهج معين فى جمعه وتأليفه . وآية ذلك أنه غير مقسم على أبواب . وهى ضرورة كانت تقتضيها طبيعة

الانتفاع بهذا الكتاب الجليل . فإن المتتبع لمراحل جمع المسند يستطيع أن يتعرف على منهج الإمام أحمد فيه .

إن الإمام أحمد قصد إلى جمع الأحاديث المشهورة كلها بغض النظر عن رتبتها صحة وضعفا . إن عبد الله ولده يقول : قلت لأبى : ما تقول فى حديث رِبْعِى بن خراش عن حذيفة ؟ قال : الذى يرويه عبد العزيز بن أبى رواد ؟ قلت : نعم . قال : الأحاديث بخلافه . قلت : فقد ذكرته فى المسند ؟ قال : قصدت فى المسند المشهور . فلو أردت أن أقصد ما صح عندى لم أرو من هذا المسند إلا القليل . ولكنك يابنى تعرف طريقتى فى الحديث . لست أخالف ما ضعف من الحديث إذا لم يكن فى الباب شىء يدفعه[١٩] .

ولقد كان فى الإمكان لو أفسح الله للإمام أحمد فترة أطول فى العمر والصحة أن يقدم المسند على نحو أكثر تنظيما من الحالة التى وصل إلينا بها . ذلك أن الترتيب الذى وصل إلينا به إنما هو من صنع ولده عبد الله الذى أخرج المسند بعد وفاة أبيه مع زيادات أضافها إليه من الأحاديث التى رواها عن أشياخه . ثم جاء أبو بكر القطيعى ففعل شيئا مماثلا لذلك الذى فعله عبد الله . وهذا هو السبب الذى جعل شمس الدين بن الجزرى يقول فى المصعد الأحمد : لعل الله تبارك وتعالى أن يقيض لهذا الديوان السامى من يخدمه ويبوب عليه ، ويتكلم على رجاله ، ويرتب هيئته ووضعه ، فإنه محتو على أكثر الحديث النبوى . وقل أن يثبت حديث إلا وهو فيه »[٢٠]

ومن عجب أن أحدا لم يستجب إلى دعوة ابن الجزرى لتبويب المسند وترتيب هيئته حتى الآن رغم مرور أكثر من خمسة قرون على هذه الدعوة . لقد قام المحدث الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر بتحقيق المسند وبذل ما فيه من الجهد ما نسأل الله أن يجزيه عنه خير الجزاء . ولكن التبويب وتخليص الكتاب مما فيه من تكرار لم يجد من ينهض بإنجازه حتى اليوم .

---

(١٩) صيد الخاطر لابن الجوزى ص ٢٤٦ .

(٢٠) المصعد الأحمد عن مقدمة المسند ص ١١ .

لقد لاحظنا من ذلك شيئا كثيرا فى المسند ونحن نقرأ أحاديثه ونستقصى موضوعاتها ، فعلى سبيل المثال وجدنا حديث آكل الوبا يتكرر فى جزء واحد من المسند هو الجزء الثانى تسع مرات تحت ارقام ٦٣٥ ، ٦٦٠ ، ٦٧١ ، ٧٢١ ، ٨٤٤ ، ٩٨٠ ، ١١٢٠ ، ١٢٨٨ ، ١٣٦٤ [٢١] .

ولاحظنا مثلا أن أحاديث ما حرم من الأتربة والآنية تتكرر بنصّها أربع مرات فى جزء واحد هو الجزء الرابع تحت أرقام ٢٤٧٦ ، ٤٩٩ ، ٢٦٥٠ ، ٢٧٦٩ .

وفى موضوع الوصايا وجدنا الحديث مكررا بنصه عدة مرات فى الجزء الثالث . وهكذا مما يصعب علينا – ولسنا من رجال الحديث المتخصصين – حصره وعدّه ، فهذا عمل رجال الحديث من الحنابلة .

ولذلك فقد وجدنا الحافظ الذهبى يذهب مذهب العجز فى حصر أحاديث المسند وصعوبة الوصول إلى عددها بالدقة ويقول : لا يسهل عده إلا بالمكرر والمعاد ، أما عده بلا مكرر فيصعب ولا ينضبط تحرير ذلك .

ونحن من جانبنا لا نزال نكرر دعوة لشمس الدين بن الجزرى فى أن يقيض الله لهذا الكتاب الجليل من يبوبه ويرتبه ويحذف ما كان مكررا منه .

مسـانيد سابقة استقى منها أحمد :

لم يكن الإمام أحمد هو أول من أطلق اسم المسند على ما جمعه من أحاديث رسول الله ﷺ . فإن عددا كبيرا من المسانيد قد جمعت قبله ، وكان اعتماده فى مسنده على الكثير منها إن لم يكن عليها جميعا ، هذا فضلا عما أخذه من شيوخه ورواه عنهم مثل يحيى بن سعيد القطان ، وهشيم بن بشير ، ويزيد بن هارون ، وعبد الرحمن بن مهدى . وسفيان بن عيينة ، وعبد الرزاق بن همام ، ووكيع بن الجراح وغيرهم ، ومن الأسانيد المعروفة قبل أحمد : مسند بنى هاشم ، مسند أهل البيت ، مسند أم المؤمنين عائشة ويضم ألفا وأربعمائة وثلاثين حديثا ، مسند

---

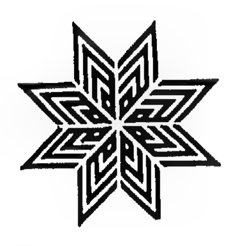
(٢١) راجع طبعة دار المعارف بتحقيق الشيخ أحمد شاكر .

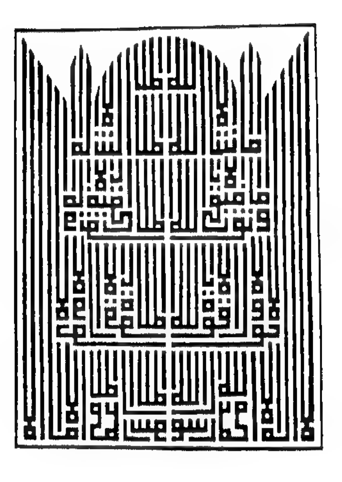
النساء ويضم تسعمائة وستة وثلاثين حديثا . مسند عبد الله بن مسعود ويضم ثمانمائة وخمسة وسبعين حديثا . مسند أنس ويضم ألفين وثمانمائة وثمانين حديثا .

وربما حدث خطأ فى عدد حديث كل مسند ولكن الأعداد المذكورة هى الأقرب إلى الدقة . وهناك مسانيد أخرى اعتمد الإمام أحمد عليها مثل مسند العشرة . ومسند أبى هريرة . ومسند أبى سعيد الخدرى . ومسند جابر بن عبد الله . ومسند عبد الله بن عمر . ومسند عبد الله بن عباس . ومسند عبد الله بن عمرو بن العاص ويلحق به مسند أبى رمثة . ومسند الأنصار . ومسند المكيين والمدنيين . ومسند الكوفيين . ومسند البصريين . ومسند الشاميين .

تلك أكثر المسانيد التى اعتمد عليها أحمد وكل أصحابها صحابة كرام وتابعون بررة . وقد بلغ عدد الصحابة الذين لهم روايات فى هذه المسانيد نحو سبعمائة من الرجال . ونحو مائة ونيف من النساء بينهن ست وتسعون صحابية .

هذا وقد عرفت مسانيد كثيرة أخرى للأئمة المعاصرين للإمام أحمد . ولتلاميذه من بعده ولكن أشهر كتاب يحمل اسم المسند بحيث إذا ذكر الاسم لا يذهب الخاطر إلا إليه هو مسند الإمام أحمد .



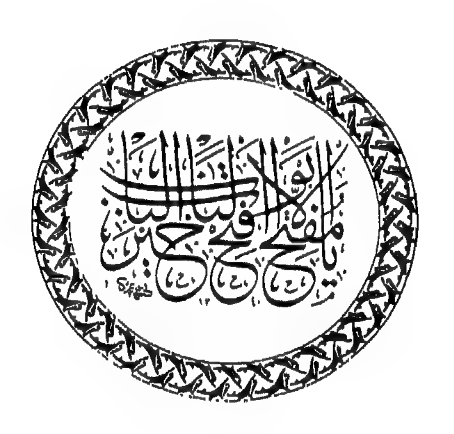


الفصل الثامن

تلاميذ أحمد بن حنبل

* باقة تلاميذه .
* عبد الملك الميمونى .
* أبو بكر المرُّوذى .
* مهنأ بن يحيى .
* أبو بكر الأثرم .
* إبراهيم بن إسحاق الحربى .
* صالح بن الإمام بن حنبل
* عبد الله بن الإمام بن حنبل .
* أبو بكر الخلال والجامع الكبير
* الخرقى ومختصره وشروحه .

وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا



الفصل الثامن

تلاميذ أحمد بن حنبل

باقة تلاميذه :

كانت مدرسة أحمد بن حنبل فى الفقه والحديث واحدة من تلك المدارس الكبرى التى خرجت عظماء العلماء ونبهاء الفقهاء وجمهرة من المحدثين فضلا عمن يمكن أن يطلق على الواحد منهم لفرط علمه وزهده وفقهه وتقواه لقب إمام .

إن مدرسة الإمام أحمد تذكرنا بالمدارس الكبرى السابقة عليها مثل مدرسة أبى حنيفة ومدرسة مالك ومدرسة الشافعى على اختلاف بينها فى الفكر والفقه والمنهج والمشرب . غير أنها تنبع جميعا من مدرسة النبوة وتصب كلها فى بحر علم الإسلام . محاطة بهالة من نور . مطوقة بسياج من التقوى . مزدانة بعقد من الصفوة . متميزة بفيض من العطاء .

إنه من الصعوبة بمكان أن نحصى تلاميذ مدرسة أحمد الذين جلسوا إليه ؛ وأخذوا عنه . وكتبوا حديثه وسجلوا فقهه . وارتحلوا إلى حلقته من مختلف بقاع الأرض الإسلامية ، وليس من بينهم إلا من صار علما فى الفقه ، سيدا بين الحفاظ ، مبرزا فى الثقات ، مقدما فى الزاهدين .

إننا نذكر على سبيل المثال عبد الملك الميمونى وأبا بكر المرّوذى ؛ ومهنأ بن يحيى الشامى وأبا بكر الأثرم أو الوراق أحمد بن محمد بن هانى ، وإبراهيم بن هانى . وحرب بن إسماعيل الكرمانى . وإبراهيم بن إسحاق الحربى ، وبقى بن مخلد . وعبد الوهاب بن عبد الحكم الوراق ؛ وإسحاق بن منصور التميمى المعروف بأبى يعقوب العوسج . وأبا داوود السجستانى ، ومحمد بن إسماعيل البخارى . ومسلم بن الحجاج النيسابورى ؛ ولا بد لنا أن نذكر من أبناء الإمام ولديه صالحا وعبد الله . كما نذكر عمه إسحاق، وحنبلا ولد عمه .

ومن كبار تلاميذ أحمد وصحابه أيضاً أحمد بن محمد الكحال . وأبو طالب المشكاتى . وإسماعيل الشاليخى . وبشربن موسى . والحسن بن ثواب . والحسن بن زياد . ومثنى بن جامع وأبو الصقر يحيى . وأبو بكربن محمد بن الحكم وكثيرون غيرهم مما يضيق المجال هنا عن ذكرهم فضلا عن حصرهم .

لقد وددنا أن نقدم تعريفا خاصا بكل واحد من هؤلاء العلماء الأعلام . ولكن ذلك مما لا يتسع له مثل هذا المكان . ومن ثم فسوف نقدم تعريفات موجزة ذات غناء للمشهورين من أصحاب أحمد . المرموقين فى فقههم . الكثيرى الأخذ عنه . المطيلى المجالسة له الحائزين أكثر من غيرهم على ثقته واطمئنانه . الحافظين لعلمه المسجلين له .

عبد الملك الميمونى :

هو صاحب المكانة المتميزة فى مجلس أحمد وفى قلبه . فقد صحبه سبعة وعشرين عاما . هكذا كان يقول . وكانت مصاحبته لأحمد من سنة مائتين إلى سبع وعشرين ومائتين[1] . إن اسمه كاملا عبد الملك بن عبد الحميد بن ميمون بن مهران الجزرى . قال إنه ولد سنة إحدى وثمانين ومائة وذكر رواة الأخبار أنه توفى سنة أربع وسبعين ومائتين .

وكان الميمونى حسن الكتابة عن أحمد كثير السماع . وكان الإمام يحترمه ويستحى منه فلا ينهاه عن الكتابة كما كان ينهى الآخرين . وفى ذلك يقول ابن حجر : إنه كان فقيه اليدين . وكان أحمد يكرمه ويفعل معه مالا يفعله مع أحد غيره . ولقد قدر ما جمعه من مسائل الإمام ستة عشر جزءا[2] . كانت إحدى المصادر الكبرى لأبى بكر الخلال الذى جمع فقه ابن حنبل والذى يعتبر بالنسبة لفقه ابن حنبل من حيث الجمع والترتيب والتدقيق كسحنون بالنسبة لفقه مالك .

---

(١) تهذيب التهذيب ٦/٤٠٠ .

(٢) ترجمة الخلال للميمونى فى المنهج الأحمد ص ١٩٩ .

كان أبو بكر الخلال والأمر كذلك شديد الإعجاب بطريقته فى الكتابة عن أحمد . وكان يقول عنه إنه الإمام فى أصحاب أحمد .

وفى حديث الخلال عنه يقول إنه بعد الصحبة الطويلة لأحمد . كان يخرج – أى يرتحل – ثم يقدم عليه الوقت بعد الوقت . ومن المنطق بمكان أن الميمونى كان كلما قدم على الإمام سأله عما تجمع لديه من مسائل . وكان الإمام أحمد يـجيبه فى سماحة ورضى . ومن ثم فقد جمع من فقه الإمام وكتب من مسائله ما قد شكل منبعا صافيا وفير العطاء من فقه المذهب الحنبلى .

أبو بكر المرُّوذى :

هو ألصق أصحاب الإمام به وأقرب تلامذته إليه وأكثرهم حيازة لثقته . إنه يقول : كان أبو عبد الله – يعنى الإمام – يبعث بى فى الحاجة فيقول : كل ما قلت على لسانى فأنا قلته[٣] .

إن اسمه كاملا أحمد بن محمد بن الحجاج . وكان الإمام يأنس به ويرتاح إليه . وقد قام على خدمته ومصاحبته حتّى انتقل الإمام إلى الرفيق الأعلى فكان هو الذى غمض عينيه وقام على غسله . ولقد صحب المروذى الإمام أحمد فى كل الظروف التّى مرت به . كان يراقبه إبان المحنة وقلبه يتمزق ألما على شيخه وأسى لأستاذه . ولما استدعى الخليفة المتوكل الإمام أحمد إلى العسكر لكى يرد إليه اعتباره ويكفر عما فعله أبوه المعتصم به . كان أبو بكر المروذى مصاحبا له ملازما . وكان الإمام لفرط أدبه يحتشم من رفض أمور كثيرة . فكان أبو بكر هو الناطق بلسانه المعبر عن رغباته .

ولقد قيل فى فضل المروذى أخبار كثيرة . قال إسحاق بن داوود : لا أعلم أحدا أقوم بأمر الإسلام من أبى بكر المروذى . يقصد علمه . وقال عنه أبو بكر بن صدقة برواية الخلال : ما علمت أحدا كان أذب عن دين الله منه .

---

(٣) تاريخ بغداد ٤/٤٢٤ .

كان المروذى بحرا من العلم . وكان عنده أكثر كتب الإمام أحمد ، وبخاصة كتاب الورع . وهو من أنفس ما كتب الإمام .

وربما ضرب المثل فى الوفاء بالمروذى وارتباطه بشيخه . فحين مات الإمام أحمد لم يجد المروذى متنفسا يخفف ما به من لوعة لفراق شيخه إلا الغزو فى سبيل الله . فخرج من بغداد والآلاف من الناس يسيرون فى وداعه . وقد صنعوا موكبا جليلا . وجعل يرد الناس فلا يرجعون حتى وصل الركب سامرا . فحزروا عدد الناس فإذا هم خمسون ألفا غير من رجع . فقيل له : يا أبا بكر احمد الله فهذا علم قد نشر لك . فبكى ثم قال : ليس هذا العلم لى . وإنما هو علم أحمد بن حنبل (٤) .

هكذا كان علم أبى بكر المروذى . وهكذا كان وفاؤه . وهو شيخ أبى بكر الخلال الذى جمع فقه ابن حنبل حسبما مر بنا قبل قليل عند الحديث على الميمونى .

وحين توفى المروذى ببغداد سنة مائتين وسبع وسبعين وقيل بل خمس وسبعين نهضت بغداد لتشييعه ، وتولى الصلاة عليه هارون بن العباس الهاشمى ودفن قريبا من قبر شيخه ابن حنبل .

مهنأ بن يحيى :

هو أبو عبد الله مهنأ بن يحيى الشامى الأصل ونزيل بغداد ، يذكره الخطيب البغدادى فيجعل صحبته لأحمد جزءا من اسمه وصفة لازمة من صفاته فيقول فى عنوان التعريف به : « مهنا بن يحيى صاحب الإمام أحمد » .

وجدير بالخطيب البغدادى أن يفعل ذلك ويذكره ، فبلغ علمنا أن أحدا من التلاميذ لم يصحب شيخه زمنا مثلما صحب مهنا شيخه وإمامه أحمد بن حنبل . لقد صحبه ثلاثة وأربعين عاما ، يعنى نصف قرن تقريبا من المصاحبة

---

(٤) تاريخ بغداد ٤/٤٢٤ .

والتلمذة والتعلم والسماع . إنه يقول : لزمت أبا عبد الله ثلاثا وأربعين سنة ، واتفقنا عند عبد الرزاق ورأيته بمكة سنة ثمان وتسعين ، وكان معنا أيضاً عند عبد الرزاق إسحاق بن راهويه(٥) . بل إن مهنأ حدث عن يزيد بن هارون شيخ أحمد فى واسط ، والذى نستنتجه من ذلك أنه صاحب أحمد أيضاً فى واسط فى حلقة يزيد بن هارون ، وإن الذى يتتبع حديثنا عن أحمد وهو يأخذ عن شيوخه ويقيم فى بلدانهم يجد أنهم كانوا يعاملونه معاملة الأشياخ رغم شبابه ، ولعلنا لانزال نذكر قصة مزاح يزيد مع مستمليه وماكان من أحمد حين نبه أستاذه إلى ذلك وتنحنح فضرب يزيد على جبهته بيده وأردف قائلا : ألا أعلمتمونى أن أحمد هنا حتى لا أمزح .

وإذن فقد كانت صحبة مهنأ لأحمد قائمة وهو طالب ، مستمرة وهو إمام ، وكان أحمد متميزا فى كل حلقة من حلقات شيوخه سواء أكان ذلك فى واسط أم الكوفة أم البصرة أم مكة أم صنعاء

يقول أبو بكر الخلال : وأبو عبد الله مهنأ بن يحيى من كبار أصحاب أبى عبد الله ، وكان أبو عبد الله يكرمه ، ويعرف له حق الصحبة ، وقدمه ، ورحل مع أبى عبد الله إلى عبد الرزاق – يعنى إلى صنعاء اليمن – وصحبه إلى أن مات ، وكان يستجرئ على أبى عبد الله ، ما لم يستجرئ عليه أحد مثله ، ويحتمله أبو عبد الله ما لم يحتمل أحدا مثله وسأله عن كبار المسائل .

والإمام أحمد إنسان عظيم فى علمه وفضله وشمائله ، ومن ثم كان يتحمل مهنأ ، وكان مهنأ يستغل كرم الشيخ إلى المدى غير المقبول . يقول عبد الله بن الإمام ، كنت أرى مهنأ يسأل أبى حتى يضجره ويكرر عليه جدا حتى ربما قام وضجر .

غير أن هذا الإلحاح الذى يُرى غير محمود ، قد أتى بأعظم الثمرات ، فإن المسائل التى جمعها مهنأ من الإمام – فى قول الخلال – أكثر من أن تحد ، حتى

---

(٥) تاريخ بغداد ٢٦٨/١٣ .

إن عبد الله بن الإمام أحمد كتب عن مهنأ مسائل كثيرة تشكل بضعة عشر جزءا من مسائل أبيه لم تكن عنده . وبذلك يكون مهنأ بن يحيى واحدا من رجال المذهب الكبار . ومصدرا من مصادر فقهه ومرجعا من مراجع مسائله ، ولقد توفى مهنأ سنة تسع وأربعين ومائتين .

أبو بكر الأثرم :

إنه أحمد بن محمد بن هانى الطائى أبو بكر الأثرم البغدادى الإسكافى . وهو واحد من أنجب تلاميذ الإمام وأكثرهم تشبها به فى الزهد والتوقف عن الكلام إلا ما دعت الضرورة إليه ، صحب الإمام وتفقه عليه ونقل عنه وكتب فى ذلك الكثير المفيد .

قال عنه الخلال : كان معه تيقظ عجيب جدا ، وقال عنه يحيى بن معين وقد لمس فيه التيقظ والألمعية : كأن أحد أبوى الأثرم جنى[٦] .

وكان الأثرم قد روى عن شيوخ الحفاظ ، ومن بين من روى عنهم أبو بكر بن أبى شيبة ، فجاءه رجل طلب أن يكتب له من كتاب الصلاة ماليس فى كتب ابن أبى شيبة ، فكتب له فى ذلك ستمائة ورقة من كتاب الصلاة ليس فيها شيء من الكتاب المذكور .

وكان الأثرم فى بداية أمره يحفظ الفقه والخلاف ، فلما التحق بمدرسة الإمام أحمد أخذ بتقاليدها واتسم بسماتها ونهج على طريق شيخه من زهد وورع وتقوى ، وكان يقول فى شيخه : « أحمد بن حنبل رضى الله عنه ستر من الله على أصحابه ، فينبغى لأصحاب أحمد أن يتقوا الله ولا يعصوه مخافة أن يعيّروا بأحمد »

لقد كتب الأثرم كثيرا من فقه الإمام أحمد وروى كثيرا من أحاديثه ، وهو القائل عن الإمام بأن قراءة القرآن بالألحان بدعة إلا أن يكون صوت الرجل يقرأ

---

(٦) تهذيب التهذيب ١/٧٨ .

القرآن لا يتكلفه . كما أنه روى عن الإمام أحمد جواز المسح على العمامة فى الوضوء وإغنائه عن المسح على الرأس . قال : سمعت أبا عبد الله سئل عن المسح على العمامة . قيل : تذهب إليه ؟ قال : نعم من خمسة وجوه عن النبى ﷺ[٧] .

وأبو بكر الأثرم هو ناقل رأى الإمام أحمد فى أن المضمضة والاستنشاق ركنان من أركان الوضوء . ولقد توفى الأثرم سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل بل سنة ثلاث وسبعين ومائتين[٨] والتاريخ الأول أقرب إلى الصواب .

إبراهيم بن إسحاق الحربى :

إذا كان كل أصحاب أحمد بن حنبل متميزين بالعلم والفضل والورع والزهد . فإن إبراهيم الحربى كان أكثر تميزا وأعمق ثقافة وأوسع شمولا ، فقد كان فقيها حافظا محدثا زاهدا أديبا شاعرا لغويا نحويا صاحب أخبار ونوادر ، وهو إلى ذلك يمتلك مكتبة تضم اثنى عشر ألف كتاب .

وأصل إبراهيم من مرو ، وأمه عربية تغلبية . وأخواله من نصارى تغلب ، ولقب بالحربى نسبة إلى منطقة الحربية ببغداد ، كما كان يلقب بالمروزى أيضاً نسبة إلى مرو .

وكان إبراهيم بن إسحاق الحربى صاحب بسطة فى العمر والعمل ، فقد عاش سبعة وثمانين عاما لأنه ولد سنة ثمان وتسعين ومائة وتوفى سنة خمس وثمانين ومائتين . وخلف من الكتب والآثار ما سوف يأتى حديثه بعد قليل .

لقد مر علينا فى فصول سابقة عدد من الأثرياء الذين أنفقوا أموالهم فى طلب الحديث والفقه . كما مر علينا عدد من الفقراء الذين لم يمنعهم الفقر من أن يسعوا إلى ساحات التعلم وحلقات الشيوخ حتى صاروا من أئمة الدنيا . لقد كان إبراهيم الحربى من أبناء الأغنياء الذين باعوا ما يملكون وأنفقوه فى طلب الحديث . يذكر إبراهيم ثروته فيقول ، قطائعنا فى المراوزة ، كان لى فيها اثنتان

---

(٧) ابن حنبل لأبى زهرة ص ٢٠٦ .

(٨) تهذيب التهذيب ١/٧٩ .

وعشرون دارا وبستانا فبعتها وأنفقتها على الحديث ، وورثت من خال لى بجولايا - قرية كانت بنواحى النّهروان - عشرين ومائة جريب فيها رطبة فلم أفرغ لها ، ولا ذهبت لآخذ منها أصلا ولا فرعا[٩] .

مع هذه الحال من الغنى واليسار آثر إبراهيم أن ينفض عن نفسه كواهل الثروة وعبء المال وعاش للعلم بفروعه ، ونزع إلى الزهد بحرمانه ، فصار كما قال محمد بن صالح القاضى : لا نعلم أن بغداد أخرجت مثل إبراهيم بن إسحاق الحربى فى الأدب والفقه والحديث والزهد .

فأما عن زهد إبراهيم فأخباره لاتحصى ونوادره لا تستقصى ، إنه يقول : أفنيت من عمرى ثلاثين سنة برغيفين ، إن جاءتنى أمى أو أختى أكلت وإلا بقيت جائعا عطشان إلى الليلة التالية ، وأفنست ثلاثين سنة من عمرى برغيف فى اليوم والليلة ، إن جاءتنى امرأتى أوإحدى بناتى به أكلته وإلا بقيت جائعا عطشانا إلى الليلة الأخرى ، والآن آكل نصف رغيف وأربع عشرة تمرة إن كان بُرْنياً أونيفا وعشرين إن كان دَقَلاً[*] .

وأخبار إبراهيم الحربى فى الزهد وتحريم أطايب الطعام والشراب على نفسه كثيرة ، كان يهذب نفسه بالحرمان ، ويروضها على الزهد فى كل ما يشتهى .

وكان إبراهيم مثل شيخه أحمد بن حنبل يرفض صلات الحكام والخلفاء ويعيدها إليهم إذا بعثوا بها إليه ، فقد جاء رجل من أصحاب الخليفة المعتضد إليه بعشرة آلاف درهم بعثها الخليفة إليه فردها ، فانصرف الرسول ثم عاد فقال له : إن أمير المؤمنين يسألك أن تفرق المال فى جيرانك ، فقال إبراهيم : عافاك الله ، هذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه ، فلا نشغلها بتفرقته . ثم أرسل إنذارا إلى الخليفة مع رسول إليه بقوله : قل لأمير المؤمنين إن تركتنا وإلا تحولنا من جوارك .

تلك جوانب من أخلاق إبراهيم مع المال ومع الحكام ومع الخلفاء ، إنه ينذر الخليفة المحسن على العلم ، الحدب على إكرام العلماء بأن يكف عن إرسال المال

---

(٩) تاريخ بغداد ٢٨/٦ .

(*) البرنى تمر جيد والدقل من أردأ أنواع التمر .

إليه وإلا رحل إلى مكان آخر ، إنها مدرسة أحمد بن حنبل ، وإبراهيم واحد من تلاميذ هذه المدرسة ، بل إنها مدرسة العلماء المسلمين ، وتلك أصول أخلاقهم وأسس سلوكهم ، فما كان العالم على هذا السلوك فهو من علماء المسلمين . وما حاد عنه فهو من غير علماء المسلمين ، ولا ينبغى أن يكون محسوبا عليهم ولو كان صاحب علم .

ويستبد الفقر والحرمان بإبراهيم الحربى حتى وهو مريض . فلا يشكو وإنما يستمسك بالرضى والصبر . وكان صبورا يرى الصبر أساسا للإيمان ، فهو القائل : كان بى شقيقة – يعنى صداع فى شق من رأسه – خمسا وأربعين سنة ما أخبرت بها أحدا قط ، ولى عشر سنين أبصر بفرد عين ما أخبرت بها أحدا قط . إنه صبور على الألم والمرض والجوع والحرمان . ولكن إن استطاع إبراهيم أن يحتمل ذلك فلا يستطيع أهل بيته بالضرورة أن يكونوا مثله .

اعتل إبراهيم ذات مرة علة شديدة حتى أشرف على الهلاك ، والبيت خال من الزاد ، فارغ من الطعام ، فكلمته ابنته فى حالهم . واختلفت معه مثلما يكون الخلاف بين الوالد وأهل بيته فى شئون الدار ، فدخل صديقه أبو القاسم الجبلى يعوده ، فقال له : يا أبا القاسم ، أنا فى أمر عظيم مع ابنتى . ثم قال لابنته : هذا عمك كلميه ، فألقت الخمار على وجهها وقالت : يا عم ، نحن فى أمر عظيم ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، الشهر والدهر مالنا طعام إلا كسر يابسة وملح ، وربما عدمنا الملح ، وبالأمس وجه إليه المعتضد مع « بدر » ألف دينار فلم يأخذها ، ووجه إليه فلان وفلان فلم يأخذ منها شيئا ، وهو عليل ، فالتفت إبراهيم إلى ابنته وتبسم فقال لها : يابنية ، إنما خفت الفقر ؟ قالت : نعم ، فقال لها : انظرى إلى تلك الزاوية ، فنظرت فإذا كتب ، فقال : هناك اثنا عشر ألف جزء لغة وغريب كتبتها بخطى ، إذا مت فوجهى فى كل يوم بجزء تبيعينه بدرهم ، فمن كان عنده اثنا عشر ألف درهم ليس هو فقير .

إننا نلاحظ أمرين هنا ، الأمر الأول هو أن إبراهيم الحربى قد نهج منهج شيخه ابن حنبل فى رفض هدايا الخلفاء والامتناع عن أخذ صلات الناس امتناعا

كاملا ، الأمر الثانى أن إبراهيم كان صاحب مكتبة خاصة قلما وجد لها مثيل عند واحد من أقرانه في تلك الفترة من الزمان، وبخاصة إذا كانت تضم اثنى عشر ألف كتاب في النحو والغريب لا غير، هذا فضلا عن بقية فنون المعرفة وبخاصة الدينية منها. لقد كان الحربي لغويا بشهادة علماء اللغة وبخاصة المبرد وثعلب رأسى مدرستى البصريين والكوفيين. كان أبو العباس ثعلب يقول: ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس لغةٍ أو نحو خمسين عاما.

فإذا ما كان الأمر متعلقا بإبراهيم الحربى والشعر ، فإن إبراهيم صاحب ذوق ورأى وحفظ وقول وإنشاء . فمن طرائف إبراهيم الحربى قوله :

أَنْكَرْتَ ذُلِّى فَأَىُّ شَىْءٍ أَحْسَنُ مِنْ ذِلَّةِ الْمُحِبِّ
أَلَيْسَ شَوْقِى وَفَيْضُ دَمْعِى وَضَعْفُ جِسْمِى شُهُودَ حُبِّى

ثم أردف قائلا : هؤلاء شهود ثقات .

وقرأ مقرئ ضرير عند إبراهيم ، ولم يكن المقرئ حسن الصوت فأنشد إبراهيم :

اثْنَـــانِ إِذَا عُــــدَّا فَخَيْرٌ لَهُــــمُ الْمَوْتُ
فَقِيرٌ مَـــالَـــهُ زُهْـدٌ وَأَعْمَى مَــــالَهُ صَوْتُ

وكان إبراهيم مريضا ، وتحمل الجارية بوله إلى الطبيب المعالج المرة بعد المرة ، والطبيب يختلف إليه لكى يعالجه ، فذهبت الجارية بالماء ثم مالبثت أن عادت قائلة : لقد مات الطبيب ، فبكى إبراهيم ثم أنشأ يقول :

إِذَا مَاتَ الْمُعَالِجُ مِنْ سَقَامٍ
فَيُوشَكُ لِلْمُعَالَجِ أَنْ يَمُوتَا

ودخل قوم يعودون إبراهيم وهو مريض ، فقالوا : كيف تجدك يا أبا إسحاق ؟ فقال أحدنى كما قال الشاعر :

دَبَّ فِيَّ الْبَلاَءُ سُفْلاً وَعُلْوًا　　وَأَرَانِي أَذُوبُ عِضْوًا فَعِضْوَا

بَلِيَتْ جِدَّتِي بِطَاعَةِ نَفْسِي　　فَتَذَكَّرْتُ طَاعَةَ اللهِ نِضْوَا

لقد كان إبراهيم يجمع بين حفظ شعر العشق وقوله ، كما كان يجمع بين حفظ شعر الزهد وقوله ، ولقد كان يحتكم إليه بعض العلماء الشعراء فيما يجرى بينهم من مساجلات . لقد جرت مساجلة بين محمد بن عبيد الله الكاتب وبين أبى العباس المبرد فتطارحا أبياتا فى شعر العشق ، كل كان يدلى بما عنده من طرائف ما قيل فى هذا الأمر . ثم أتى ابن عبيد الله أبا العباس ثعلباً فأنشده ما جرى على لسانه ولسان المبرد من أبيات . فأدلى ثعلب أيضاً بدلوه وأنشد أبياتا على درجة رفيعة من رقة اللفظ وجمال المعنى مع اتصالها بموضوع المساجلة ، ثم ذهب ابن عبيد الله بعد ذلك إلى إبراهيم بن إسحاق الحربى وأخبره بما كان بينه وبين المبرد، ثم ما كان بينه وبين ثعلب. فقال: ألا أنشدته:

يَا حَيَائِي مِمَّنْ أُحِبُّ إِذَا مَا

قُلْتُ بَعْدَ الْفِرَاقِ إِنِّي حَيِيتُ

لَوْ صَدَقْتُ الْهَوَى حَبِيباً عَلَى الصِّحَّـ

ـةِ لَمَّا نَأَى لَكُنْتُ أَمُوتُ

لقد أورد صاحب تاريخ بغداد وصاحب معجم الأدباء نماذج عديدة من هذه المواقف الشعرية للحربى فليراجعها من يريد الاستزادة ، وإنما نحن قد ضربنا هذه الأمثلة لأن علم اللغة مرتبط بالأدب ، والشعر هو شواهد اللغة . ولا يكون اللغوى حجة فى علمه ما لم يكن مزودا بالكثير من الشواهد ، وأقوال إبراهيم تلك التى أنشدها لم تزد فى رأينا عن كونها شواهد شعرية ومن ثم فهى بعض أدواته فى علوم اللغة التى كان علما من أعلامها .

وإبراهيم الحربى أحد رجال التربية الإسلامية بما يصدر عنه من قول وفعل ، قال إبراهيم لجماعة عنده : من تعدّون الغريب فى زمانكم هذا ؟ فقال واحد

منهم: الغريب من نأى عن وطنه . وقال آخر . الغريب من فارق أحبابه . وقال كل واحد منهم شيئا مما يعتقد فى تعريف الغريب . فقال لهم إبراهيم : الغريب فى زماننا رجل صالح عاش بين قوم صالحين . إن أمر بالمعروف آزروه وإن نهى عن المنكر أعانوه : وإن احتاج إلى سبب من الدنيا مانوه . ثم ماتوا وتركوه .

ومن وسائل التربية الإسلامية التى كان يعمد إليها إبراهيم الحربى ما رواه محمد بن بنان العكى . قال حضرت مع أبى وأخى عند أبى إسحاق الحربى . فقال لأبى : هؤلاء أولادك ؟ قال : نعم . قال : احذر . لا يرونك حيث نهاك الله فتسقط من أعينهم .

وكان الحربى لا يحدث إلا من كان كامل الدين والخلق والمسلك . فقد كان على بن المدينى من كبار الحفاظ والمحدثين . وكان أول أمره صديقا للإمام أحمد ورفيقا له فى طلب الحديث وبخاصة عند سفيان بن عيينة ، ولكن إبراهيم لا يحدث عنه بشىء برغم ما عنده من أحاديثه الكثيرة . وذلك لأنه رآه يسعى إلى أحمد بن أبى دؤاد ويصلى خلفه . وابن أبى دؤاد على ما قد عرفنا من رجال المعتزلة . ولمدرسة أحمد بن حنبل خاصة . ولأهل السنة عامة رأى غير كريم فى معتقدات أهل الاعتزال . هذا فضلا عن أن أحمد بن أبى دؤاد هو رأس فتنة خلق القرآن التى ملأت سجون بغداد وسامرا بعلماء المسلمين ظلما وبغيا .

إن إبراهيم الحربى كما وصفه الدارقطنى الحافظ : كان إماما . وكان يقاس بأحمد بن حنبل فى زهده وعلمه وورعه .

لقد طالت مصاحبة إبراهيم الحربى لأحمد نحوا من عشرين سنة . وكان يقول عن شيخه الإمام : كل شىء أقول لكم هذا قول أصحاب الحديث فهو قول أحمد بن حنبل . هو ألقى فى قلوبنا مذكنا غلمانا اتباع حديث رسول الله ﷺ وأقاويل الصحابة والاقتداء بالتابعين .

وكان إبراهيم شيخا فى الفرائض على زمن أستاذه ابن حنبل . وكان الإمام يوجه الدارسين إليه وفى مقدمتهم ولده عبد الله . إن عبد الله بن أحمد يقول : كان أبى يقول . امض إلى إبراهيم الحربى حتى يلقى عليك الفرائض . ومن ثم

كان إبراهيم محلا للاحترام وموضعا للتبجيل من علماء العصر وخلفاء ابن حنبل وبخاصة أولاده . فحين توفى سعيد بن الإمام أحمد ذهب إبراهيم إلى عبد الله يعزيه فى أخيه . فقام له عبد الله . وكان عبد الله آنئذ محلا للإجلال والإكبار امتدادا لإجلال الناس لأبيه . فقال إبراهيم : تقوم إلىّ ؟ فقال عبد الله : لم لا أقوم . والله لو رآك أبى لقام إليك .

هكذا كانت شخصية إبراهيم بن إسحاق الحربى أبى إسحاق الذى كان مصدرا من مصادر الفقه الحنبلى ونبعا من ينابيع مسائله . ولقد ترك مؤلفات كثيرة نفيسة منها : كتاب سجود القرآن . كتاب مناسك الحج . كتاب الهدايا والسنة فيها . كتاب الحمّام وآدابه . كتاب غريب الحديث . كتاب دلائل النبوة . كتاب ذم الغيبة . كتاب النهى عن الكذب . وعددا كبيرا من البحوث فى علوم اللغة . كما خلف عددا كبيرا من المسانيد فى مقدمتها مسانيد الخلفاء الراشدين والصحابة .

صالح وعبد الله ابنا الإمام أحمد :

إنهما أكبر أبناء الإمام أحمد . ويكبر صالح عبد الله بنحو عشر سنين رباهما أحمد فى مدرسة هى أقرب شىء إلى مدرسة النبوة . فأحمد بن حنبل أكثر الأئمة أخذا بالسنة واقتداء بها وتنفيذا لتوجيهاتها . وقد مر بنا أن الإمام أحمد قال : ما حفظت حديثا إلا وقد عملت به . وإذن فقد نشأ كل من صالح وعبد الله هذه النشأة الصالحة النقية .

صالح بن أحمد :

إن صالحا هو أكبر أبناء الإمام سنا . فقد ولد سنة ثلاث ومائتين وتوفى سنة خمس وستين ومائتين . ولقد مرت أخبار كثيرة عن صالح من خلال ترجمتنا لأبيه على طول هذا الكتاب وعرضه .

كان صالح يجلس فى حلقة أبيه العامة . كما كان يجلس فى حلقته الخاصة . وقد سلف القول أنه كان للإمام أحمد حلقتان إحداهما عامة تضم الآلاف من

المستمعين ، والثانية خاصة تضم تلاميذه المقربين ، وكان صالح إلى ذلك كله رفيق أبيه فى البيت وعشيره فى الحياة ، ولقد أتاح له والده أن يلقّى كل من يزوره من عظام الفقهاء وكبار الزهاد حتّى يتلقّى من هؤلاء ويقتدى بأولئك .

وصالح هو الذى يعتمد عليه فى رواية قصة حياة أبيه ، فقد رافق مسيرة المحنة من أولها ، منذ أن قيد أبوه هو ومحمد بن نوح وسار فى وداعهما حتّى الأنبار ، ثم قص على لسان أبيه قصة موت ابن نوح والعودة إلى بغداد ، ورأى أباه يعذب ثم يفرج عنه ، وقص رحلة أبيه إلى « العسكر » حيث المتوكل وكل التفصيلات الدقيقة التى أوردناها .

وغير المحنة حكى صالح أخبارا أخرى كثيرة عن أبيه فى العلم والحياة ، ففى العلم يقول صالح : سمعت أبى يقول ، افترقت الجهمية على ثلاث فرق : فرقة قالوا القرآن مخلوق ، وفرقة قالوا القرآن كلام الله تعالى وسكتوا ، وفرقة قالوا لفظنا بالقرآن غير مخلوق[11] .

وهو الذى روى خبر خروج أبيه للحج وبصحبته يحيى بن معين وقد قررا أن يرتحلا بعد الحج إلى صنعاء للسماع من عبد الرزاق بن همام ثم لقاءهما به يطوف حول الكعبة واقتراح يحيى بن معين السماع منه فى مكة ، وإصرار أحمد على السفر إلى اليمن إلى آخر هذه القصة الممتعة التى مرّت علينا بالتفصيل فيما سلف من فصول .

وكان صالح ذا علم وفقه وحديث ، جمع مثل أبيه بين الزهد والكرم ، ولكن كثرة العيال اضطرته لقبول منصب القضاء مرتين ، المرة الأولى كانت ولايته قضاء طرطوس ، ولكن يبدو أنه لم يطل العهد به فى تلك البلاد فعاد إلى بغداد وجلس للفقه والإفتاء ، فألح عليه الدين ونفقات الأبناء فقبل قضاء أصبهان .

ولم تخل قصة ولايته قضاء أصبهان من حزن ألمّ به حتّى بكى تأثرا ، وذلك أنه حين دخل أصبهان بدأ بالجامع فدخله وصلى ركعتين ، ثم قرئ العهد الذى

---

(١١) الذهبى عن مقدمة المسند ص ٧٦ .

كتبه الخليفة لتوليته والناس من حوله شيوخا وشباناً يحتفلون به ويرحبون بمقدمه ، ولكنه بكى بكاء شديدا حتى أبكى من حوله من الشيوخ ، ثم قال لهم: أتدرون ما الذى أبكانى ؟ ذكرت أبى أن يرانى فى مثل هذه الحال – وكان عليه السواد الشعار الرسمى للعباسين – ومضى يقول : كان أبى يبعث خلفى إذا جاءه رجل زاهد أو رجل متقشف لأنظر إليه يحب أن أكون مثله ، وتطفر دمعة أخرى من عين صالح ويقول : أترانى مثله ؟ ! ! ولكن يعلم الله ما دخلت فى هذا الأمر إلا لدين غلبنى وكثرة العيال[١٢] .

ولم يزل صالح بأصبهان يلى قضاءها حتى مات بها سنة ست وستين ومائتين ، وقيل بل خمس وستين وله من العمر ثلاث وستون سنة .

وعلى الرغم من ولايته القضاء بأصبهان فإن ذلك لم يشغله عن الجلوس للفتيا والحديث وكان صدوقا ثقة ، ولعل أول تجربة فى القضاء طبق فيها فقه أحمد كانت على يد ولده صالح فى طرسوس وأصبهان .

عبد الله بن أحمد :

كل ما قيل عن صالح بن الإمام أحمد من سجايا ومعايشة لأبيه وإخبار عن أحداث حياته يمكن أن يقال عن عبد الله الذى كان يكنى بأبى عبد الرحمن باستثناء شىء واحد هو ولاية القضاء ، فإن أبا عبد الرحمن لم يشغل نفسه بشىء من ذلك .

كان عبد الله – شأنه فى ذلك شأن صالح – يقص الأخبار المرتبطة بحياة والده ، فهو الذى أخبر بأن والده كان يصلى ثلاثمائة ركعة فى اليوم والليلة ، فلما تعرض للمحنة وترك الضرب فى جسده آثارا ظلت تعيقه عن بعض ما كان عليه قبلا من الحركة والصحة جعلها مائة وخمسين ركعة ، وهو الذى رأى أباه يأخذ شعرة من شعر النبى ﷺ كان يحتفظ بها فيضعها على فمه ويقبلها ، أو على عينيه يستشفى بها ، وعبد الله وهو الذى روى قصة المال الذى عرضه يزيد بن هارون على

(١٢) تاريخ بغداد ٣١٨/٩ .

والده فاعتذر عن قبوله . وهو الذى روى ما تعرض له أبوه من سرقة متاعه فى مكة فجعل يكتب بالأجرة لجار بغداذى كان يرافقه فى الحج .

وأما من ناحية العلم فعبد الله أوفر حظا وأرفع قدرا من صالح على الرغم من كون صالح أسن منه . ذلك أن أباه الإمام يشهد له بذلك قائلا لصديقه عباس الدورى وقد زاره : يا عباس إن أبا عبد الرحمن – يعنى عبد الله – قد وعى علما كثيرا . وكان عبد الله يؤكد قول أبيه دون أن يقصد إلى ذلك قصدا فيقول : كل شىء أقول قال أبى قد سمعته مرتين وثلاثاً وأقله مرة .

وكان الإمام أحمد يعتمد كثيرا على ولده عبد الله فى تثبيت الأحاديث التى يحفظها فيقول : ابنى عبد الله محظوظ من علم الحديث لا يكاد يذاكرنى إلا بما لا أحفظ [١٣] ويروى ابن حجر الخبر بطريقة أخرى : فيرويه عن أبى زرعة بقوله : قال لى أحمد : ابنى عبد الله محظوظ من علماء الحديث لا يكاد يذاكر إسماعيل بن على إلا بما لا أحفظ [١٤] .

وليس من شك فى أن الإمام كان يراجع ما يحفظ على ولده عبد الله فقد ورد الخبر عن عبد الله قوله : قال لى أبى خذ أى كتاب شئت من كتب وكيع ، فإن شئت أن تسألنى عن الكلام حتى أخبرك الإسناد . وإن شئت الإسناد حتى أخبرك بالكلام [١٥] .

إن عبد الله بن أحمد منقوع فى الحديث والفقه والفضل نقعا بحكم هذه المخالطة العلمية والبيتية والبنوية لإمام السنة . هذا فضلا عن دراساته الخاصة ورواته عن كثير من أئمة الحفاظ المعاصرين لأبيه والذين جاءوا من بعده ، وهم من الكثرة عددا والقيمة وزنا بمكان ، وقد ذكرهم تفصيلا كل من الخطيب البغدادى وابن حجر العسقلانى . ثم هو الذى رتب مسند أبيه . وضم إليه عشرة آلاف حديث . وهو صاحب الزوائد على كتاب الزهد الذى كتبه أبوه .

---

(١٣) تاريخ بغداد ٣٧٦/٩ .

(١٤) تهذيب التهذيب ١٤٢/٥ .

(١٥) الذهبى عن مقدمة المسند ص ٦٣ .

ولعل ماكتبه ابن المنادى عن عبد الله بن الإمام فيه الغناء من حيث مكانته العلمية وآثاره وسلوكه وسجاياه . وليست شهادة أحمد بن جعفر بن المنادى المتوفى سنه ٣٣٦ بالأمر اليسير فقد كان عالما بالتفسير والحديث . وقد عدد له ابن النديم مائة ونيفا وعشرين كتابا . وأحصى المهتمون بالفقه الحنبلى له أربعين كتابا فى علوم القرآن وحدها . يقول ابن المنادى فى شأن عبد الله : لم يكن فى الدنيا أحد أروى منه عن أبيه . لأنه سمع المسند وهو ثلاثون ألف حديث . والتفسير وهو مائه ألف وعشرون ألفا . سمع منها ثمانين ألفا والباقى وجادة . وسمع الناسخ والمنسوخ . والتاريخ . وحديث شعبة . والمقدم والمؤخر فى كتاب الله تعالى . وجوابات القرآن . والمناسك الكبير . والصغير وغير ذلك من التصانيف . وحديث الشيوخ .

ويمضى ابن المنادى فى التعريف بالمكانة العلمية لعبد الله قائلا : ومازلنا نرى أكابر شيوخنا يشهدون له بمعرفة الرجال . وعلل الحديث . والأسماء والكنى . والمواظبة على طلب الحديث فى العراق وغيرها(١٦) .

وكان عبد الله بالإضافة إلى ذلك لا يكتب عن أحد إلا من أمره أبوه بالكتابة عنه . ولقد نبل بأبيه حسبما يرى ابن عدى . ولا بأس فى ذلك فإن كل تلك الأخبار والروايات تجعل من عبد الله واحداً من القمم الشامخة والينابيع الثرة والمصادر الصادقة للفقه الحنبلى . ولقد كان كذلك بالفعل .

لعل عبد الله بن الإمام أحمد يجئ فى مقدمة أبناء الأئمة إذا ما قورن بهم . فلقد كان حماد بن أبى حنيفة صادقاً نابها . ولقد كان عبد الله بن الإمام الشافعى كذلك . ولكن عبد الله بن أحمد بن حنبل كان من العلم والفضل بحيث يرجحهما، ولقد صدق أبو بكر الخلال حين قال: كان عبد الله رجلاً صالحا صادق اللهجة كثير الحياء(١٧) . وكانت ولادته سنة ثلاث عشرة ومائتين وكانت وفاته ببغداد سنة تسعين ومائتين عن سبعة وسبعين عاما ، وصلى عليه زهير ولد أخيه صالح وشيعته بغداد تشييعا يليق بمقامه ومقام أبيه .

---

(١٦) تاريخ بغداد ٣٧٥/٩ . ٣٧٦ .

(١٧) تهذيب التهذيب ١٤٣/٥

أبو بكر الخلاّل ناقل فقه أحمد وجامعه :

إن من يعرض لذكر الإمام أحمد وفقهه وتلاميذه لا يستطيع أن يغفل ذكر أحمد بن محمد بن هارون المشهور بأبى بكر الخلال . ويجب أن نسارع إلى تقرير أن الخلال لم ير الإمام أحمد . ولم يتتلمذ بالتالى عليه . ولم يحضر حلقته فقد ولد فى الفترة التى انتقل فيها الإمام إلى رحمة الله .

إنه والأمر كذلك يعتبر بالنسبة لمذهب أحمد مثل سحنون بالنسبة لمذهب مالك ، فكلاهما لم ير إمام مذهبه . وكلاهما العمدة فى جمع فقه المذهب ، وإذا لم يكن أبو بكر الخلال تلميذا للإمام فهو تلميذ غير مباشر له لأنه صحب أبا بكر المرُّوذى ألصق تلاميذ الإمام به وصحبه إلى أن توفى . ولم تفتّ وفاة المروذى فى عضد الخلال فضى فى مهمته الجليلة حتّى أكملها .

إن الخطيب البغدادى يقول عنه إنه صرف عنايته إلى الجمع لعلوم أحمد بن حنبل وطلبها وسافر لأجلها وكتبها عالية ونازلة وصنفها كتبا[١٨]. وعنه يقول الذهبى : إنه جامع علم أحمد ومرتبه . وكان يدرس فقه الإمام من الكتب التى جمعها فى جامع المهدى ببغداد وكان يعتبر إمام المذهب بين فقهاء الحنابلة المعاصرين له . وكان الخلال لوفرة علمه ، ولكثرة ما جمع . صاحب أنصار ونضو حاسدين . فأبو بكر بن شهريار الحنبلى يقول : كلنا تبع للخلال لأنه لم يسبقه إلى جمعه وعلمه أحد ، ويقول أيضاً : من يقدر على ما يقدر عليه الخلال من الرواية ؟ ومن حساده كان أبو بكر الشيرجى الذى يقول : الخلال قد صنف كتبه ويريد منا أن نقعد بين يديه ونسمعها منه ، وهذا بعيد ! !

غير أن الأمر الذى لاشك فيه أنه لقى التأييد والتشجيع من أستاذه أبى بكر المرُّوذى وطوف فى أنحاء البلاد يلتمس فتاوى أحمد مجدا فى طلبها .

إن أصحاب أحمد ومريديه ومن اقتنوا فقهه وأحاديثه كانوا من الكثرة بمكان ، وكانوا مفرقين فى أنحاء شتيتة من الأرض ، وهم على حد وصف أبى

---

(١٨) تاريخ بغداد ١١٢/٥ .

اليمن عبد الرحمن العليمى فى المنهج الأحمد[١٩] يشق إحصاء أسمائهم . سمع منهم مسائل أحمد . ورحل إلى أقصى البلاد فى جمع مسائل أحمد . وسماعها ممن سمعها من أحمد ، وممن سمع من سمعها من أحمد . فنال منها . وسبق إلى مالم يسبقه إليه سابق . ولم يلحقه بعده لاحق .

ومن الواضح أنه أخذ كل ما استطاع أن يأخذه من أصحاب أحمد فى بغداد ابتداء بولده عبد الله ثم بمن لحق بهم قبل الوفاة مثل إبراهيم بن إسحاق الحربى . وحرب بن إسماعيل الكرمانى الذى كان سخيا فى العطاء للخلال فى فقه أحمد ، والميمونى الذى كتب الكثير من الإمام وأبى بكر الأثرم وغيرهم .

ومهما كان الأمر فقد جمع أبو بكر الخلال معظم فقه الإمام أحمد والجانب الأوفى منه ، وصنفه فى كتابه المشهور « الجامع الكبير » الذى يقع فى عدد من المجلدات الكبيرة أو الأسفار تتراوح بين العشرين والثلاثين مجلدا . أو فى مئتى جزء صغير .

ولقد مات أبو بكر الخلال سنة إحدى عشرة وثلاثمائة بعد أن أدى رسالته كاملة فى جمع فقه أحمد فى « الجامع الكبير » وكتب أخرى ألفها مثل تفسير الغريب ، وطبقات أصحاب ابن حنبل ، والسنة ، والعلل . ودفن بجوار شيخه المروذى .

الخرقى ومختصره :

إن من يتكلم عن أبى بكر الخلال وجامعه الكبير ، لا مفر له من أن يذكر الخرقى وكتابه « المختصر » ذلك لأن المختصر هو أشهر كتاب فى الفقه الحنبلى على الإطلاق ، وأما صاحب المختصر فكما يبدو من صفته كان يبيع الخرق فى بغداد ، ومع ذلك نهض بعبء أشهر كتاب فى فقه ابن حنبل ، ولقد جاءت شهرته لقيمته وأمانته ونفاسته ، ولضياع أكثر الجامع الكبير إلا ما بقى منه متناثرا .

---

(١٩) المنهج الأحمد ١/٣٩٢ .

لقد هجر أبو القاسم عمر بن الحسين الخرقى بغداد قبل سقوطها تحت سنابك خيل بنى بويه . وكانوا شيعة . وأسباب الخلاف وأشكاله معروفة بين أهل السنة والشيعة آنذاك . فترك الخرقى بغداد إلى دمشق وتوفى فى السنة التى سقطت فيها بغداد وهى سنه ٣٣٤هـ واحترقت كتبه ولم ينج منها إلا « المختصر » الذى بين أيدينا والذى يعتبر أشهر كتب الفقه الحنبلى .

ولنفاسة « المختصر » فقد توفر عليه علماء الحنابلة بالشرح والتعليق حتى بلغت شروحه نحوا من ثلاثمائة شرح .

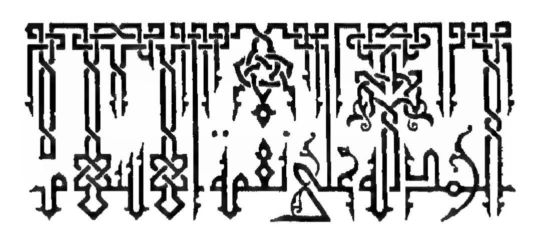
ومن يذكر « المختصر » لا بد له من أن يذكر أكبر شروحه وأنفسها وهو « المغنى » الذى يقع فى ثلاثة عشر مجلدا لمؤلفه موفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسى المتوفى سنة ٦٢٠هـ .

هكذا نجد الفرق بين وفاة الخرقى صاحب « المختصر » وابن قدامة صاحب الشرح نحوا من ثلاثة قرون ، قام خلالها عدد من الفقهاء بشرح المختصر والتعليق عليه . غير أن « المغنى » لابن قدامة يعتبر حسب تعبير ابن مفلح الحنبلى « أحد كتب الإسلام » وهى صفة عادلة للمغنى . لأن ابن قدامة لم يقف عند أحكام الفقه الحنبلى وحدها التى أفاض فيها . وإنما عمد إلى تقديم المقارنات بين الأحكام عند مختلف الأئمة سواء فى ذلك المذاهب القائمة أو المذاهب الدارسة مثل الأوزاعى الذى عاش فقهه حوالى ثلاثة قرون من الزمان وكان مذهبا لأهل الشام والأندلس . ومن هنا يمكن أن نعتبر « المغنى » موسوعة للفقه الإسلامى المقارن وإن كان ابن قدامة جعل الفقه الحنبلى هو الأصل ومنه عمد إلى التفريع والتخريج .

لقد كان المغنى جديرا بالوصف الجليل الذى أطلقه عليه شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام حين قال : ما رأيت فى كتب الإسلام مثل المحلى لابن حزم ، وكتاب المغنى للشيخ موفق الدين فى جودتها وتحقيق ما فيها .

هذا وإن كتب الفقه الحنبلي من الكثرة بحيث يصعب أن تحصى ولا يسهل أن تستقصى . ولكن المشتغل بالفقه الحنبلي لا مفر له من أن يعرج على كتب شيخ الإسلام أبى العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحرانى الدمشقى المتوفى سنه ٧٢٨هـ وتلميذه النابه شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية الزرعى الدمشقى . فما لاشك فيه أنهما يمثلان نقطة تحول فى مسيرة المذهب . وأنهما مجددان فى كثير من الأحكام .



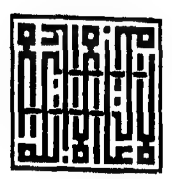


نماذج
من فقه الإمام بن حنبل

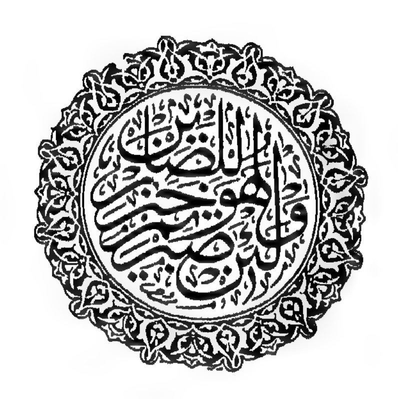
من كتاب المقنع لموفق الدين عبد الله ابن قدامة

من الجزء الأول

* باب الشفعة .
* باب الوديعة .
* باب اللقطة .







باب الشفعة(*)

وهى استحقاق الإنسان انتزاع حصة شريكه من يد مشتريها ولا يحل الاحتيال لإسقاطها[1] . ولا تثبت إلا بشروط خمسه (**أحدها**) أن يكون مبيعاً[2] ولا شفعة فيما انتقل بعير عوض بحال[3] ولا فيما عوضه غير المال كالصداق[4] . وعوض الخلع . والصلح عن دم العمد فى أحد الوجهين .

(*) كتاب المقنع جزء أول صفحة ٤٥٣ .

(١) قوله ولا يحل الاحتيال لإسقاطها : هذا المذهب وقد ذكر الأصحاب للحيلة فى إسقاطها صورا .

١ – أن تكون قيمة الشقص مائة والمشترى عرض قيمته مائة فيبيعه بمائتين ثم يشترى الشقص منه بمائتين فيتقاصان أو يتواطئان على أن يدفع إليه عشرة دنانير عن المائتين وهى أقل من المائتين فلا يقدم الشفيع عليه لنقصان قيمته عن المائتين .

٢ – إظهار كون الثمن مائة ويكون المدفوع عشرين فقط .

٣ – أن يكون كذلك ويبريه من ثمانين .

٤ – أن يهبه الشقص ويهبه الموهوب له الثمن .

٥ – أن يبيعه الشقص بصرّة دراهم معلومة بالمشاهدة مجهولة المقدار أو بجوهرة ونحوها فالشفيع على شفعته فى جميع ذلك فيدفع فى الأولى قيمة العرض مئة أو مثل العشرة دنانير وفى ٢ عشرين وفى ٣ كذلك لأن الإبراء حيلة قاله فى الفائق وقال فى المغنى يأخذ الجزء المبيع من الشقص بقسطه من الثمن ويحتمل أن يأخذ الشقص كله بجميع الثمن قال الحارثى وهو الصحيح فى ٤ مثل الثمن الموهوب له وفى ٥ يدفع مثل الثمن المجهول أو قيمته إن كان باقياً ولو تعذر بتلف أو موت يدفع إليه قيمة الشقص .

(٢) قوله أن يكون مبيعا : وكذا لوكان مصالحا به صلحا بمعنى البيع أو مصالحا به عن جناية موجبة للمال كقتل الخطأ وشبه العمد أو موهوباً هبة مشروطاً فيها ثواب معلوم لأن الشفيع يأخده بمثل الثمن الذى انتقل به إلى المشترى ولا يمكن هذا فى عير المبيع وألحق به المذكورات بعده لانها بيع فى الحقيقة

(٣) قوله بحال : أى لا مالى . لا غيره كموهوب بغير عوض وموصى به وموروث ولو أصدق المرأة أرضاً وباعت نصفها ثم طلقها الزوج قبل الدخول فإنه يرجع إليه النصف الباقى فى ملكها ولا شفعة من المشترى من المرأة عليه .

(٤) قوله كالصداق : لأن دلك ليس له عوض يمكن الأخذ به كموهوب والثانى الشفعة اختاره فيه ابن حامد وأبو الخطاب فى الانتصار وابن حمدان .

(فصل)

(الثانى) أن يكون شِقْصاً(*) مشاعا من عقار ينقسم(٥) . فأما المقسوم(٦) المحدد فلا شفعة لجاره فيه ولا شفعة فيما لا تجب قسمته(٧) كالحمام الصغير والبئر(٨) والطرق والعِراص الضيقة وما ليس بعقار كالشجر والحيوان والبناء المفرد(٩) فى إحدى الروايتين . إلا أنَّ البناء والغراس(١٠) يؤخذ تبعا للأرض . ولا تؤخذ الثمرة(١١) والزرع تبعاً(١٢) فى أحد الوجهين .

(فصل)

(الثالث) المطالبة بها على الفور(١٣) ساعة يعلم نص عليه (وقال القاضى)

(*) الشقص النصيب أو السهم فى القطعة من الأرض أو من الشىء

(٥) قوله ينقسم : قسمة إجبار .

(٦) قوله فأما المقسوم الخ هذا المذهب لما روى جابر قال: قضى رسول الله ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة : رواه البخارى وقيل تثبت للجار صححه ابن الصيرفى وقيل تجب الشفعة بالشرك فى مصالح عقار اختاره الشيخ تقى الدين وصاحب الفائق .

(٧) قوله ولا شفعة فيما لا تجب قسمته الخ هذا المذهب فى ذلك كله لقوله عليه السلام « لا شفعة فى فناء ولا طريق ولا منقبة » وقال عثمان لا شفعة فى بئر ولا نخل والثانية فيه الشفعة اختاره ابن عقيل وابن محمد الجوزى والشيخ تقى الدين قال الحارثى وهو الحق .

(٨) قوله والبئر : ولو كان يسقى أرضها .

(٩) قوله والبناء المفرد : والجوهرة والسيف .

(١٠) قوله البناء والغراس : والنهر والبئر والقناة والدولاب .

(١١) قوله الثمرة : المتشققة .

(١٢) قوله والزرع تبعاً : لأنهما لا يدخلان فى البيع فلا يدخلان فى الشفعة كقماش الدار .

(١٣) قوله المطالبة بها على الفور الخ الحديث « الشفعة كحل العقال » . رواه ابن ماجه وهو واه (تنبيه) كلام المصنف وغيره مقيد بما إذا لم يكن له عذر فإن كان له عذر مثل أن لا يعلم أو علم ليلا فأخره إلى الصبح أو لطهارة وإغلاق باب ونحو ذلك فلا تسقط إلا أن يكون المشترى حاضرا عنده فى هذه الأحوال فمطالبته ممكنة ماعدا ما إذا كان يصلى وليس عليه تخفيفها ثم إن كان المشترى غائبا عن المجلس حاضرا فى البلد فالأولى أن يشهد على الطلب ويبادر إلى المشترى بنفسه أو وكيله فإن بادره هو أو وكيله من غير إشهاد فالصحيح من المذهب أنه على شفعته خلافا (لح) والقاضى فى الجامع الصغير وإن اقتصر على الطلب مجردا عن مواجهة المشترى قال الحارثى فالمذهب الإجزاء وصرح به فى المحرر لكن بقيد الإشهاد وإيراد المصنف يقتضى عدم الإجزاء وأن الواجب المواجهة .

له طلبها فى المجلس وإن طال[١٤] فإن أخره سقطت شفعته إلا أن يعلم[١٥] وهو غائب . فيشهد على الطلب بها . ثم إن أخّر الطلب[١٦] بعد الإشهاد عند إمكانه أو لم يشهد ولكن سار فى طلبها . فعلى وجهين . وإن ترك الطلب والإشهاد لعجزه عنها كالمريض والمحبوس ومن لا يجد من يشهده . أو لإظهارهم زيادة فى الثمن أو نقصا فى المبيع . أو أنه موهوب له . أو أن المشترى غيره أو أخبره من لا يقبل خبره فلم يصدقه فهو شفعته . وإن أخبره من يقبل خبره[١٧] فلم يصدقه أو قال للمشترى بعنى ما اشتريت[١٨] أو صالحنى سقطت شفعته[١٩]

---

(١٤) قوله وإن طال . لأن المجلس كحالة العقد بدليل التقابض فيه لما يعتبر له القبض .

(١٥) قوله أن يعلم : أى الشريك بالبيع .

(١٦) قوله وإن أخر الطلب الخ فيه مسألتان أحداهما أن يشهد على الطلب حين يعلم ويؤخر الطلب بعده مع إمكانه ففيه وجهان أحدهما لا تسقط وهو المذهب لأن الشهادة بالطلب دليل على الرغبة وعلى أنه لا مانع له من الطلب إلا قيام العذرية وكالغائب مريض ومحبوس

٢- إذ كان غائبا فسار حين علم فى طلبها ولم يشهد مع القدرة على الإشهاد ففيه وجهان أحدهما تسقط وهو المذهب لأن السير يكون لطلب الشفعة ولغيره وقد قدر أن يبين كونه للشفعة بالإشهاد فإذا لم يفعل سقطت كتارك الطلب مع حضوره

(١٧) قوله وإن أخبره من يقبل خبره إذا أخبره عدلان فلم يصدقهما سقطت شفعته وإن أخبره عدل فلم يصدقه سقطت على الصحيح من المذهب وقيل لا تسقط صححه الناظم ويروى عن ح وزفر لأن الواحد لا تقوم به بينه ولنا أنه خبر لا تعتبر فيه الشهادة فقبل من العدل كالرواية والفتيا والمرأة كالرجل والعبد كالحر وإن أخبره فاسق أو صبى لم تسقط إذا علمت ذلك فإذا تركها تكذيبا للعدل أو العدلين سقطت (تنبيه) محل ما تقدم إذا لم يصدقه أما إن صدقه ولم يطالب فإنها تسقط سواء كان المخبر ممن لا يقبل خبره أو يقبل لأن العلم قد يحصل بخبر من لا يقبل خبره لقرائن .

(١٨) قوله أو قال للمشترى بعنى ما اشتريت : هذا الصحيح من المذهب وقال الحارثى مقوّى عندى عدم السقوط كقول أشهب صاحب م .

(١٩) قوله أو صالحنى سقطت شفعته : هذا الصحيح من المذهب وقيل لا تسقط اختاره القاضى وابن عقيل لأنه لم يرض باسقاطها وإنما رضى بالمعاوضة عنها (تنبيه) محل الخلاف فى سقوط الشفعة أما الصلح عنها فلا يصح قولا واحداً وبه قال ح ش وقال م يصح لأنه عوض عن إزالة ملك فجاز كأخذ العوض عن تمليك امرأة أمرها ولنا أنه خيار لا يسقط إلى مال فلم يجز أخذ العوض عنه كخيار الشرط وبه يبطل ما قاله .

وإن دل فى البيع أو توكّل لأحد المتبايعين[٢٠] . أو جعل له الخيار[٢١] فاختار إمضاء البيع فهو على شفعته . وإن أسقط شفعته[٢٢] قبل البيع لم تسقط[٢٣] ويحتمل أن تسقط وإن ترك الولى[٢٤] شفعة للصبى فيها حظ لم تسقط[٢٥] وله الأخذ بها إذا كبر . وإن تركها لعدم الحظ فيها سقطت . ذكره ابن حامد[*] وقال القاضى : يحتمل أن لا تسقط .

---

(٢٠) قوله أو توكل لأحد المتبايعين : هذا المذهب وهو ظاهر مذهب ش وقيل لا تسقط إذا كان وكيلا للمشترى اختاره القاضى وقال أصحاب الرأى لا شفعة لوكيل المشترى .

(٢١) قوله أو جعل له الخيار الخ هذا المذهب وكذا لو ضمن العهدة للمشترى وبه قال م ش وقال أصحاب الرأى تسقط ولنا أن هذا سبب وجوب الشفعة فلم تسقط به كالإذن فى البيع .

(٢٢) قوله وإن أسقط الخ هذا المذهب وبه قال م ش والبستى وأصحاب الرأى ويحتمل أن تسقط وهو رواية اختارها الشيخ تقى الدين وهى قول الحكم والثورى وأبى عبيد وأبى خيثمة وطائفة من أهل الحديث لقوله عليه السلام : من كان له شركة فى أرض ربعة أو حائط فلا يحل له أن يبيع حتى يستأذن شريكه فإن شاء أخذ وإن شاء ترك : ومحال أن يقول رسول الله ﷺ فإن شاء ترك ولا يكون لتركه معنى ولان مفهوم قوله فإن باعه ولم يؤذنه فهو أحق به أنه إذا باعه بإذنه لا حق له قلت وهذا هو الحق الذى لا ريب فيه .

(٢٣) قوله قبل البيع لم تسقط : لأنه أسقطها قبل وجوبها فلم يصح .

(٢٤) قوله وإن ترك الولى إذا بيع فى شركة الصغير شقص تثبت له الشفعة فى قوله عامة الفقهاء منهم الحسن وعطاء م والأوزاعى ش وسوار والعنبرى وأصحاب الرأى وقال ابن أبى ليلى لا شفعة له وروى عن النخعى والحارث العكلى ولنا عموم الأحاديث اذا ثبت هذا فإن الصغير إذا كبر فله الأخذ بها أو فى تركها وبه قال الأوزاعى وزفر ومحمد بن الحسن وهو المذهب وقال ابن حامد إن تركها لحظ الصبى أو لأنه ليس للصبى ما يأخذها به سقطت وهو ظاهر مذهب ش واختاره الشيخ تقى الدين لأن الولى فعل ما له فعله فلم يجز للصبى نقضه كالرد بالعيب وقال ح تسقط بعفو الولى فى الحالين (فائدة) لو كان الأخذ أحظ لزم الولى وثبت ملك الصبى ولم يملك نقضه بعد البلوغ فى قول م ش وأصحاب الرأى وقال الأوزاعى ليس للولى الأخذ بها .

(٢٥) قوله فيها حظ لم تسقط : وقال المصنف فى المغنى فى الحمل إذا ولد وكبر فله الأخذ .

(*) ابن حامد هو الفقيه الحسن بن حامد البغدادى أبو عبد الله إمام الحنابلة فى زمانه . له مصنفات فى الفقه الحنبلى منها « الجامع » فى أربعمائة جزء . وشرح أصول الدين . وتهذيب الأجوبة وتوفى سنة ٤٠٣ هـ .

(فصل)

(**الرابع**)[٢٦] أن يأخذ جميع المبيع فإن طلب أخذ البعض سقطت شفعته فإن كانا شفيعين[٢٧] . فالشفعة بينهما على قدر ملكيهما . (وعنه) على عدد الرءوس فإن ترك أحدهما شفعته[٢٨] لم يكن للآخر أن يأخذ إلا الكل أو يترك . فإن كان المشترى شريكا[٢٩] فالشفعة بينه وبين الآخر . فإن ترك شفعته ليوجب الكل على شريكه لم يكن له ذلك[٣٠] . وإذا كانت دار بين اثنين فباع أحدهما نصيبه[٣١] لأجنبى صفقتين . ثم علم شريكه . فله أن يأخذ[٣٢]

---

(٢٦) قوله فالشرط الرابع الخ هذا المذهب وبه قال محمد بن الحسن وبعض أصحاب ش وقال أبو يوسف لا تسقط لأن طلبه لبعضها طلب لجميعها لكونها لا تتبعض ولنا أنه تارك لطلب بعضها فسقط وسقط باقيها لكونها لا تتبعض .

(٢٧) قوله فإن كانا شفيعين الخ هذا المذهب قال الحارثى المذهب عند الأصحاب جميعا تفاوت الشفعة بتفاوت الحصص روى ذلك عن الحسن وابن سيرين وعطاء وبه قال م وسوار والعنبرى وإسحاق وأبو عبيد لأنه حق يستفاد بسبب الملك فكان على قدر الأملاك كالغلة (وعنه) على عدد الرؤوس روى عن النخعى والشعبى وهو قوله ابن أبى ليلى وابن شبرمة وأصحاب الرأى

(٢٨) قوله فإن ترك أحدهما شفعته الخ هذا المذهب وحكاه ابن المنذر إجماعا وبه قال م ش ح لان فى أخذ البعض إضراراً بالمشترى بتبعيض الصفقة عليه ولا يزال الضرر بالضرر فإن وهب بعض الشركاء نصيبه من الشفعة لبعض الشركاء أو لغيره لم يصح لأن ذلك عفو فإن كان الشفعاء غائبين لم تسقط الشفعة للعذر فإذا قدم أحدهم فليس له إلا أن يأخذ الكل أو يترك ولا يجوز تأخير حقه إلى أن يقدم شركاؤه للضرر بالمشترى فإذا أخذ الجميع ثم حضر آخر قاسمه ان شاء أو عفى فبقى للأول

(٢٩) قوله فإن كان المشترى شريكا الخ وبه قال ح ش لأنهما تساويا فى الشركة فتساويا فى الشفعة كما لو اشترى أجنبى وحكى عن الحسن والشعبى والبتى لا شفعة للآخر لأن الشركة متقدمة ولا ضرر فى شرائه .

(٣٠) قوله لم يكن له ذلك: ولم يصح إسقاطه الملكية له بالشراء.

(٣١) قوله فباع أحدهما نصيبه الخ هذه صورة إذا تعددت العقود دون البائع والمشترى .

(٣٢) قوله فله أن يأخذ بالبيعين . لأنه شفيع فيهما .

بالبيعين . وله أن يأخذ بأحدهما . فإن أخذ بالثانى[٣٣] شاركه المشترى فى شفعته فى أحد الوجهين . وإن أخذ بالأول لم يشاركه[٣٤] ، وإن أخذ بها لم يشاركه فى شفعة الأول . وهل يشاركه فى شفعة الثانى ؟ على وجهين[٣٥] . وإن اشترى اثنان حق[٣٦] واحد[٣٧] . فللشفيع أخذ حق احدهما . وإن اشترى واحد حق اثنين[٣٨] أو اشترى واحد شقصين من أرضين صفقة واحدة فللشفيع أخذ احدهما على أصح الوجهين . وإن باع شِقْصا وسيفا . فللشفيع أخذ الشقص[٣٩] بحصته من الثمن . ويحتمل أن لا يجوز . وإن تلف بعض المبيع فله أخذ الباقى[٤٠] بحصته من الثمن . وقال ابن حامد : إن كان تلفه بفعل الله تعالى . فليس له أخذه إلا بجميع الثمن .

---

(٣٣) قوله فإن أخذ بالثانى الخ وهو الصحيح من المذهب لأن ملك المشترى استقر فى الأول بإسقاط حقه منه فصار شريكه فيشاركه فى البيع الثانى وهذا مذهب ح وبعض أصحاب ش والثانى لا يشاركه فيها اختاره القاضى وابن عقيل .

(٣٤) قوله وان أخذ بالأول لم يشاركه : لأنه لم تسبق له شركة .

(٣٥) قوله وهل يشاركه فى شفعة الثانى على وجهين : أحدهما لا يشاركه قال الحارثى وهو الأصح قال فى الإنصاف وهو الصواب قلت وجزم به فى الإقناع لأنه لم تسبق له شركة .

(٣٦) قوله حق واحد : هذه إذا تعدد المشترى دون البائع الثالثة تعدد البائع دون المشترى .

(٣٧) قوله وان اشترى اثنان حق واحد الخ أى صفقة واحدة هذا المذهب وبه قال م ش ح فى إحدى الروايتين عنه لأنهما مشتريات فجاز للشريك أخذ نصيب أحدهما .

(٣٨) قوله وان اشترى واحد حق اثنين الخ فيه مسألتان .

١- تعدد البائع والمشترى واحد فللشفيع أخذ أحدهما فى أصح الوجهين والثانى ليس له إلا أخذ الكل أو الترك اختاره القاضى فى الجامع الصغير .

٢- التعدد بتعدد المبيع بأن باع شقصين من دارين صفقة واحدة من واحد فللشفيع أخذهما جميعا وإن أخذ أحدهما فله ذلك على الصحيح من المذهب وهو من المفردات والثانى ليس له أخذ أحدهما قال بعضهم اختاره القاضى فى المحرر فعليه إن اختار أحدهما سقطت الشفعة لترك أحدهما مع الإمكان (تنبيه) هذا إذا اتحد الشفيع فإن كان لكل واحد منها شفيع فلهما أخذ الجميع أو قسمة الثمن على القيمة وليس لواحد منهما الانفراد بالجميع فى أصح الوجهين .

(٣٩) قوله للشفيع أخذ الشقص : وبه قال ح ش وقال م تتشبث فيهما .

(٤٠) قوله وإن تلف بعض المبيع فله أخذ الباقى : ولو بفعل الله وبه قال الثورى وأبو يوسف والعنبرى و ش

(فصل)

(الخامس) أن يكون للشفيع ملك سابق[٤١] . فإن اشترى اثنان دارا صفقة واحدة فلا شفعة لأحدهما على صاحبه . وإن ادعى كل واحد منهما السبق[٤٢] فتحالفا أو تعارضت بيّنتاهما . فلا شفعة لهما . ولا شفعة بشركة الوقف[٤٣] في أحد الوجهين .

(فصل)

وإن تصرف المشتري[٤٤] في المبيع قبل الطلب بوقف أو هبة سقطت الشفعة

---

(٤١) قوله مالك سابق: للرقبة لا لمنفعة كدار موصى بنفعها: لأن الشفعة إنما تثبت لدفع الضرر عن الشريك وإذا لم يكن له ملك سابق فلا ضرر عليه .

(٤٢) قوله وإن ادعى أحدهما السبق الخ إذا ادعى أحدهما السبق وله بينه بما ادعاه قضى له وإن كان لكل منهما بينة قدم أسبقهما تاريخا فإن شهدت بينة كل منهما بسبق ملكه، وتجدد ملك صاحبه تعارضتا وان لم يكن لواحد منهما بينة سمعنا دعوى السابق وسألنا خصمه فإن أنكر فالقول قوله مع يمينه فإن حلف سقطت دعوى الأول ثم نستمع دعوى الثاني على الأول فإن انكر وحلف سقطت دعواهما وان ادعى الأول ونكل الثاني عن اليمين قضينا عليه ولم نستمع دعواه لأن خصمه قد استحق ملكه وان حلف الثاني ونكل الأول قضينا عليه .

(٤٣) قوله ولا شفعة بشركة الوقف الخ إذا بيع طلق وقف فهل يستحقه الموقوف عليه لا يخلو إما أن نقول بملك الموقوف عليه الوقف أم لا فإن قلنا بملكه وهو المذهب فالصحيح من المذهب عنا أنه لا شفعة له لأن ملكه غير تام لأنه لا يبيح التصرف في الرقبة فلا يملك به ملكا تاما وقال أبو الخطاب له الشفعة قال الحارثي وجوب الشفعة على قولنا بالملك هو الحق وإن قلنا لا يملك الموقوف عليه الوقف فلا شفعة أيضا على الصحيح .

(٤٤) قوله وإن تصرف المشتري الخ هذا المذهب في الجميع وكذلك لو عتقه أو تصدق به لأن الشفعة إنما تثبت في المملوك وليس هذا موقوفا وقال أبو بكر لا تسقط وهو قول م ح ش لأن حق الشفيع أسبق وجنبته أقوى فلم يملك المشتري تصرفا يبطل حقه قال المصنف القياس قول أبي بكر اختاره في الفائق قال في الفائق وخص القاضي النص بالوقوف ولم يجعل غير مسقطا واختاره شيخنا انتهى (فائدتان) لا تسقط برهنه وإجارته لبقاء المرهون والمؤجر في ملك المشتري

٢- لو أوصى بالشقص فإن أخذ الشفيع قبل القبول بطلت الوصية واستقر الأخذ وان طلب ولم يأخذ بعد بطلت الوصية أيضا ويدفع الثمن إلى الورثة لأنه ملكهم وإن كان الموصى قبل أخذ الشفيع أو طلبه سقطت .

نص عليها . (وقال أبو بكر) لا تسقط . وإن باع[٤٥] فللشفيع الأخذ بأى البيعين شاء . فإن أخذ بالأول[٤٦] رجع الثانى على الأول . وإن فسخ البيع بعيب أو إقالة أو تحالف . فللشفيع أخذه[٤٧] . ويأخذه فى التحالف[٤٨] بما حلف عليه البائع . وأن أجّره[٤٩] أخذه الشفيع وله الأجرة من يوم أخذه . وإن استغله فالغلة له[٥٠] . وإن أخذه الشفيع وفيه زرع أو ثمرة ظاهرة فهى للمشترى مبقاة إلى الحصاد والجذاذ[٥١] . وإن قاسم المشترى[٥٢] وكيل الشفيع أو قاسم

---

(٤٥) قوله فإن باع الخ هذا المذهب لأن سبب الشفعة الشراء وقد وجد من كل منهما وعلم منه صحة تصرف المشترى فى الشقص قبل الطلب لأنه ملكه وكون الشفيع له أن يتملكه لا يمنع تصرفه فيه كما لو كان أحد العرضين فى البيع معيبا فإنه لا يمنع من التصرف فى الآخر .

(٤٦) قوله فإن أخذ بالأول الخ أى بما دفعه له من الثمن وينفسخ البيع الثانى وإن كان ثم ثالث فأكثر رجع الثانى على الأول والثالث على الثانى وهلم جرا وينفسخ بعد البيع الأول وإن أخذ بالبيع الأخير فلا رجوع واستقرت العقود وإن أخذ بالمتوسط استقر ما قبله وانفسخ ما بعده .

(٤٧) قوله فللشفيع أخذه : لأن حقه سابق على ذلك كله لأنه ثبت بالبيع .

(٤٨) قوله ويأخذه فى التحالف الخ لأن البائع مقر بالثمن الذى حلف عليه ومقر للشفيع باستحقاق الشفعة بذلك فإذا بطل حق المشترى بإنكاره لم يبطل حق الشفيع بذلك (تنبيه) هذا إذا وقع الفسخ بما ذكر أما لو فسخ لعيب فى ثمنه المعين فإن كان قبل الأخذ بالشفعة فلا شفعة لما فيها من الأضرار بالبائع بإسقاط حقه من الفسخ الذى ثبت بالبيع وإن كان الفسخ بعد الأخذ بالشفعة استقرت للشفيع وللبائع الزام المشترى بقيمة شقصه .

(٤٩) قوله وإن أجره الخ لا تنفسخ الإجارة ويستحق الشفيع الإجارة من يوم أخذه وهو أحد الوجوه والثانى تنفسخ من حين أخذه وهو المذهب جزم به فى المحرر والثالث للشفيع الخيار بين فسخ الإجارة وتركها قال فى القواعد وهو ظاهر كلام القاضى فى خلافه قال وهو أظهر انتهى .

(٥٠) قوله فالغلة له : الحديث « الخراج بالضمان » .

(٥١) قوله إلى الحصاد والجذاذ: بلا أجرة على المذهب وقيل تجب فى الزرع والأجرة من حين أخذ الشفيع اختاره ابن عبد وس فى تذكرته قال ابن رجب وهو اظهر قلت وهو الصواب قاله فى الإنصاف .

(٥٢) قوله وإن قاسم المشترى الخ وجملة ذلك أنه يتصور بناء المشترى وغرسه فى الشقص المشفوع على وجه مباح فى مسائل منها أن يظهر المشترى أنه اشتراه بأكثر من ثمنه أو أنه وهب له أو غير ذلك مما يمنع الشفيع من الأخذ بها فيتركه ويقاسمه ثم يبنى المشترى ويغرس فيه ومنها أن يكون غائبا فيقاسمه وكيله أو صغيرا فيقاسمه وليه ثم يقدم الغائب أو يبلغ الصبى فيأخذ بالشفعة فللمشترى قلع غرسه وبنائه فإن لم يختر القلع فللشفيع الخيار بين ثلاثة أشياء ترك الشفعة ودفع قيمة الغراس والبناء فيملكه مع الأرض وقلع

الشفيع لكونه أظهر له زيادة فى الثمن أو نحوه . وغرس أو بنى . فللشفيع أن يدفع إليه قيمة الغراس والبناء . ويملكه أو يقلعه . ويضمن النقص . فإن اختار أخذه فأراد المشترى قلعه فله ذلك[٥٣] إذا لم يكن فيه ضرر . وإن باع الشفيع ملكه قبل العلم لم تسقط شفعته فى أحد الوجهين . وللمشترى الشفعة فيما باعه الشفيع فى أصح الوجهين . وإن مات الشفيع بطلت الشفعة إلا أن يكون بعد طلبها فتكون لوارثه .

(فصل)

ويأخذ الشفيع بالثمن[٥٤] الذى وقع العقد عليه[٥٥] وان عجز عنه أو عن بعضه . سقطت شفعته . وما يحط من الثمن أو يزاد فيه فى مدة الخيار يلحق به . وما كان بعد ذلك لا يلحق به . وإن كان مؤجلا[٥٦] أخذه الشفيع بالأجل إن

الغرس والبناء ويضمن له مانقص وبهذا قال الأوزاعى وابن أبى ليلى وم والليث وش والبتى وسوار واسحق وقال حماد بن أبى سليمان والثورى وأصحاب الرأى يكلف المشترى القلع ولا شئ له لأنه بنى فيما استحق عليه أخذه فأشبه الغاصب ولنا قوله عليه السلام « لا ضرر ولا ضرار » ولا يزال الضرر عنهما إلا بذلك ولأنه بنى ملكه الذى ملك بيعه فلم يكف قلعه مع الإضرار كما لو لم يكن مشفوعا .

(٥٣) قوله فله ذلك : قال فى الإقناع ولو مع ضرر لايضمن نقص الأرض .

(٥٤) قوله ويأخذ الشفيع بالثمن . قدرا وجنسا وصفة إن قدر عليه وإن طلب الإمهال أمهل يومين أو ثلاثة فإذا مضت ولم يحضره فللمشترى الفسخ بلا حكم حاكم فإن كان مثليا فبمثله وإلا فبقيمه وقت لزومه وإن دفع المشترى مكيلا بوزن أخذ مثل كيله كقرض (إقناع)

(٥٥) قوله وقع العقد علينا : لما روى الجور جانى فى حديث جابر مرفوعا : فهو أحق به بالثمن.

(٥٦) قوله وإن كان مؤجلا الخ هذا المذهب وبه قال م وإسحق وقال الثورى لا يأخدها إلا بالنقد حالا وقال ح لا يأخذ إلا بثمن حالا وإن مضى الأجل ثم يأخذ وعن ش كمذهبنا ومذهب لأنه لا يمكنه أخده بالمؤجل لأنه يفضى إلى أن يلزم المشترى قبول ذمة الشفيع والذمم لا تتماثل وإنما يأخذ بمثله ولا لزمه أن يأخذ بمثله حالا لئلا يلزمه أكثر مما يلزم أكثر مما يلزم المشترى ولنا أن الشفيع تابع للمشترى فى قدر الثمن وصفته والتأجيل من صفاته ولأن فى الحلول زيادة على التأجيل فلم يلزم الشفيع وما ذكره من اختلاف الذمم فإنا لا نوجبها حتى توجد الملاءة فى الشفيع أو فى الضامن (فائدتان) .

١ — إذا أخذ الشفيع بالأجل فمات هو أو المشترى وقلنا يحل الدين بالموت حل الدين على الميت منهما دون الحى .

٢ — لو لم يتفق طلب الشفيع إلا عند حلول الأجل أو بعده ثبت له استئناف الأجل قطع به الحارثى ونصره قاله فى الإنصاف قلت وقال فى الإقناع فلو لم يعلم حتى حل فكالحال انتهى

كان مليا . وإلا أقام كفيلا مليا وأخذ به . وإن كان الثمن عرضا أعطاه مثله إن كان بالمثل وإلا قيمته[٥٧] . وإن اختلفا في قدر الثمن[٥٨] فالقول قول المشتري . إلا أن يكون للشفيع بينة . وإن قال المشتري اشتريته بألف وأقام البائع بينة أنه باعه بألفين فللشفيع أخذه بألف[٥٩] . وإن قال المشتري غلطت[٦٠] فهل يقبل قوله مع يمينه ؟ على وجهين . وإن ادعى أنك اشتريته بألف قابل بل اتهبته أو ورثته . فالقول قوله مع يمينه[٦١] . فإن نكل عنها أو قامت للشفيع بينة . فله أخذه ويقال للمشتري[٦٢] إما أن تقبل الثمن وإما أن تبرىء منه . وإن كان عوضا في الخلع أو النكاح أو عن دم عمد يأخذه بقيمته . وقال غيره يأخذه بالدية ومهر المثل .

---

(٥٧) قوله وإلا قيمته: وبه قال ش وأصحاب الرأي وحكي عن الحسن وسوار أنها لا تجب هنا لأنها تجب بمثل الثمن وهذا لا مثل له ولنا أنه أحد نوعي الثمن فجاز أن تثبت كالمثلي والمثل يكون من طريق الصورة والقيمة كبدل المتلف.

(٥٨) قوله وإن اختلفا في قدر الثمن الخ وبهذا قال ش لأن المشتري العاقد فهو أعلم بالثمن ولأن المبيع ملكه فلا ينزع منه بدعوى مختلف فيها وإن أقام كل واحد منهما بينة بما ادعاه قدمت بينة الشفيع لأنها بمنزلة بينة الخارج ولا تقبل شهادة البائع لواحد منهما لأنه متهم ويقبل عدل وامرأتان وشاهد ويمين يؤخذ بقول مشتر في جملة بالثمن فيحلف أنه لا يعلم قدره ولا شفعة لأنه لا يمكن الأخذ بغير الثمن ولا يمكن أن يدفع إليه ما لا يدعيه إلا أن يفعل ذلك تحيلا على إسقاطها فلا تسقط فإن اتهمه أنه فعله حيلة حلفه وإن وقع حيلة دفع إلى المشتري مثل ما أعطاه البائع إن علم ذلك أو قيمة الشقص إن تعذرت معرفة الثمن.

(٥٩) قوله أخذه بألف: لأن المشتري مقر له باستحقاقه بألف فلم يستحق الرجوع بأكثر وبه قال ش وقال ح إن حكم الحاكم عليه بألفين أخذه الشفيع بهما.

(٦٠)قوله غلطت: أو نسيت أو كذبت والبينة صادقة.

(٦١) قوله مع يمينه: لأن الأصل معه فلم يتحقق البيع.

(٦٢)قوله ويقال للمشتري الخ هذا أحد الوجوه اختاره القاضي كسيد المكاتب إذا جاءه المكاتب بمال الكتابة فادعى أنه حرام والثاني يقر في يد الشفيع إلى أن يدعيه المشتري فيدفع إليه كما لو أقر له بدار فأنكر قال المصنف والشارح هذا أولى والثالث يأخذه الحاكم فيحفظه له إلى أن يدعيه (فائدتان).

١ ـ ومثل هذا لو ادعى الشفيع أن واضع اليد شراه فأنكر وأقر البائع.

٢ ـ لو ادعى شريك على حاضر بيده نصيب شريكه الغائب أنه اشتراه وأنه يستحقه بالشفعة فصدقه المدعي عليه أخذه منه وكذا لو ادعى الشريك على الحاضر أنه باع نصيب الغائب بإذنه فقال نعم فإذا أقدم الغائب وأنكر حلف وانتزع الشقص وطالب بالأجرة من شاء منهما وقرار الضمان على الغاصب

(فصل)

ولا شفعة فى بيع الخيار[٦٣] قبل انقضائه . نص عليه . ويحتمل أن يجب . وإن أقر البائع[٦٤] بالبيع وأنكر المشترى . فهل تجب الشفعة ؟ على وجهين . وعهدة الشفيع[٦٥] على المشترى . وعهدة المشترى على البائع . فإن أبى المشترى قبض المبيع أجبره الحاكم عليه[٦٦] . (وقال أبو الخطاب)[٦٧] قياس المذهب أن يأخذه الشفيع من يد البائع . وإذا ورث اثنان شقصاً عن أبيهما فباع أحدهما نصيبه . فالشفعة بين أخيه وشريك أبيه[٦٨] . ولا شفعة على مسلم[٦٩]

---

(٦٣) قوله ولا شفعة فى بيع الخيار الخ أى سواء كان خيار مجلس أو شرط لهما أو لأحدهما لما فى الأخذ من إبطال خياره وإلزام المشترى بالعقد قبل رضاه بالتزامه وإيجاب العهدة عليه وتفويت حقه من الرجوع فى عين الثمن إن كان الخيار له وتفويت حق البائع من الرجوع فى عين البيع إن كان الخيار له ويحتمل أن يجب مطلقا وهو تخريج لأبى الخطاب يعنى إذا قلنا بانتقال الملك وقال ح إن كان الخيار لهما أو للبائع لم يثبت حتى تنقضى وان كان للمشترى فقد انتقل الملك إليه فلك الشفيع الأخذ .

(٦٤) قوله وإن أقر البائع الخ إحداهما تجب وهو المذهب وبه قال ح والمزنى والثانى لا تجب وهو قول م وابن شريح قال الحارث وهذا قوى لأن الشفعة للبيع فلا تثبت إلا بثبوت الأصل ووجه الأول أن البائع أقر بحقين حق للشفيع وحق للمشترى فإذا سقط حق المشترى بإنكاره ثبت حق الشفيع

(٦٥) قوله وعهدة الشفيع الخ إذا أخذ الشفيع الشقص فظهر مستحقا فرجوعه بالثمن على المشترى ورجع المشترى على البائع وإن وجده معيبا فله رده على المشترى أو أخذا رشه منه والمشترى يرد على البائع وبه قال ش وهذا المذهب ويستثنى من ذلك إذا أقر البائع بالبيع وأنكر المشترى وقلنا بثبوت الشفعة وقال ح إن قبضه من المشترى فالعهدة عليه وإن أخذه من البائع فالعهدة عليه .

(٦٦) قوله أجبره الحاكم عليه : هذا المذهب القبض واجب ليحصل حق المشترى من تسليمه .

(٦٧) قوله وقال أبو الخطاب الخ واختاره المصنف وقال الحارثى هو الأصح وبه قال ح للزوم العقد فى العقار قبل القبض وجواز التصرف فيه بنفس العقد والدخول فى ضمانه به

(٦٨) قوله وشريك أبيه : هذا المذهب وبه قال ح ش وقال م ش فى القديم الأخ أحق بها .

(٦٩) قوله على مسلم : روى عن الحسن والشعبى وقال م والثورى ش وأصحاب الرأى تجب للعموم ولنا قوله عليه السلام « ولا شفعة لنصرانى » .

وهل تجب الشفعة للمضارب على رب المال[٧٠] أو لرب المال على المضارب[٧١] فيما يشتريه للمضاربة ؟ على وجهين .



---

(٧٠) قوله وهل تجب الشفعة للمضارب على رب المال : وصورته أن يكون للمضارب شقص فى دار فيشترى لمضارب من مال المضاربة بقيتها فلا شفعة له على الأصح إن ظهر ربح لأنه يصير له جزء من مال المضاربة فلا يثبت على نفسه وإن لم يظهر ربح وجبت لأنه أجنبى هذا على القول بملك المضارب حصته من الربح بالظهور .

(٧١) قوله أو لرب المال على المضارب : وصورته ان يكون لرب المال شقص فى دار فيشترى المضارب من مال المضاربة بقيمتها فلا شفعة لرب المال لأن الملك له فلا يستحق الشفعة على نفسه والثانى تجب فيهما قال الحارثى فى الأولى وهو الأولى وأختاره ابن عبدوس فى الثانية .

باب الوديعة(*)

وهى أمانة لا ضمان عليه فيها إلا بعد أن يتعدى[1] . وإن تلفت من بين ماله[2] لم يضمن فى أصح الروايتين . ويلزمه حفظها فى حرز مثلها[3] فإن عين صاحبها حرزا فجعلها فى دونه ضمن . وإن أحرزها بمثله[4] أو فوقه لم يضمن . وقيل يضمن إلا أن يفعله لحاجة . وإن نهاه عن إخراجها[5] فأخرجها لغشيان شىء الغالب منه التّوى لم يضمن . وان تركها فتلفت ضمن[6] . وان

(*) المقنع جزء أول صفحة ٤٦٧.

(١) قوله وهي أمانة لا ضمان عليه فيها إلا أن يتعدى: وكذا لو فرط في حفظها فتلفت لأن المتعدي متلف لمال غيره فضمنه كما لو أتلفه من غير إيداع والمفرط متسبب بترك ما وجب عليه من حفظها.

(٢) قوله وإن تلفت من بين ما له الخ هذا المذهب روى عن أبي بكر الصديق وعلي بن طالب وابن مسعود رضي الله عنهم وبه قال شريح والنخعي وم وأبو الزناد والثوري وش وأصحاب الرأي والثانية إن ذهبت من بين ما له ضمنها لما روي عن عمر بن الخطاب أنه ضمن أنس بن مالك وديعة ذهبت من بين ما له قال القاضي والأول أصح لأن الله سماها أمانة والضمان ينافيها وقال عليه السلام فليس على المستودع غير المغل ضمان «رواه الدارقطني بإسناد ضعيف».

(٣) قوله مثلها: عرفا إن لم يعين المودع موضعا فإن لم يحفظها في حرز مثلها ضمن.

(٤) قوله وإن أحرزها بمثله الخ هذا الصحيح من المذهب وبه قال لأن تقييده بهذا الحرز يقتضي ما هو مثله كمن اكترى أرضاً لزرع الحنطة فله زرعها وزرع مثلها في الضرر ولأن من رضي حرزا رضي ما هو مثله أو فوقه (فائدتان).

١ ـ أن الوديعة عقد جائز من الطرفين فإن أذن المالك بالاستعمال ففعل صارت عارية مضمونة كالرهن إذا أذن ربه للمرتهن في استعماله فإن لم يستعملها فهي أمانة.

٢ ـ لو أطارت الريح ثوباً إلى داره وجب عليه رده فوراً من التمكن فإن تلف قبله فهدر لا بعده لتعديه بأمساكه.

(٥) قوله وإن نهاه عن إخراجها الخ هذا المذهب كما ولو لم ينهيه لكن إذا أخرجها فلا يحرزها إلا في حرز مثلها أو فوقه فإن تعذرا والحالة هذه ونقل إلى أدنى فلا ضمان ذكره المصنف في المغنى لأن حرازها بذلك وليس في وسعه سواه قلت فيعايا بها.

(٦) قوله وإن تركها فتلفت ضمن: سواء تلفت بالأمر المخوف أم غيره لأنه مفرط في حفظها وفيه وجه لا يضمن لأنه امتثل أمر صاحبها.

أخرجها لغير خوف ضمن [٧] . فإن قال لا تخرجها ولو خفت عليها [٨] فأخرجها عند الخوف أو تركها لم يضمن . ولو أودعه بهيمة فلم يعلفها حتى ماتت ضمن . إلا أن ينهاه المالك عن علفها [٩] . فإن قال اترك الوديعة فى جيبك فتركها فى كمه ضمن [١٠] . وإن قال اتركها فى كمك فتركها فى جيبه لم يضمن [١١] . فإن تركها فى يده [١٢] احتمل وجهين . وإن دفع الوديعة [١٣] إلى من يحفظ ماله

(٧) قوله وإن أخرجها لغير خوف ضمن: سواء إخراجها إلى مثل الحرز أو دونه أو وفوقه لأنه خالف نص صاحبها لغير فائدة وهذا ظاهر كلام ش وقيل لا يضمن اختاره القاضي كما لو لم يعين حرزا وقال ح إن نهاه عن نقلها من بيت فنقلها إلى بيت آخر من الدار لم يضمن لأنهما من دار واحدة وطريقها واحد فأشبه ما لو نقلها من زاوية إلى زاوية وإن نقلها من دار إلى دار ضمن ولنا أنه خالف أمر صاحبها بما لا مصلحة فيه فضمن كما لو نقلها من دار إلى دار ولا يصح هذا الفرق لأن بيوث الدار تختلف.

(٨) قوله وإن قال لا تخرجها وإن خفت عليها الخ هذا المذهب فإن أخرجها في هذه الحال لغير خوف ضمن (فوائد).

١ ـ لو أخرج الوديعة المنهي عن إخراجها فتلفت وادعى أنه أخرجها لغشيان نار أو وسيل أو أمر ظاهر وأنكر صاحبها وجوده فعلى المستودع البينة فإذا ثبت كان القول قوله في التلف مع يمينه ولا يحتاج إلى بينة لأنه يتعذر إقامة البينة فلم يطالب بها كما لو ادعى نقلها بأمر خفي وهذا قول ش والحكم في إخراجها من الخريطة والصندوق حكم إخراجها من البيت.

٢ ـ إذا كان إنفاقه عليها بإذن ربها فلا كلام فإن أنفق بإذن حاكم رجع به وإن كان بغير إذنه مع تعذره وأشهد على الإنفاق فله الرجوع وإن كان مع إمكان إذن الحاكم ولم يستأذنه بل نوى الرجوع فقط لم يرجع على الصحيح وقيل يرجع جزء به في المنتخب وصححه الحارثي قلت وهو الصواب قاله في الإنصاف.

٣ ـ لو كانت الوديعة ثوباً فخاف عليه العث وجب عليه نشره فإن لم يفعل وتلف ضمن.

(٩) قوله إلا أن ينهاه المالك عن علفها: فلا يضمن والوجوب باق بحاله وهذا قول أكثر أصحاب ش وقيل يضمن وهو قول ابن المنذر قال في الحاوي الصغير ويقوي عندي أنه يضمن لنهيه عليه السلام عن إضاعة المال فيصير أمر مالكها وسكوته سواء.

(١٠) قوله في كمه ضمن ربما نسي فسقط الشيء من كمه.

(١١) قوله لم يضمن: لأن الجيب أحرز.

(١٢) قوله فإن تركها في يده إلخ أحدهما يضمن وهو الصحيح لأن سقوط الشيء من اليد مع النسيان أكثر من سقوطه من الكم والثاني لا يضمن لأن اليد لا يتسلط عليها الطراز بالبطة بخلاف الكم قال الحارثي وهو الأظهر عند القاضي وابن عقيل.

(١٣) قوله وإن دفع الوديعة إلخ هذا المذهب وبه قال ح وقال ش يضمن وأورده السامري عن ابن أبي موسى لأن الوديعة إلى من لم يرض به صاحبها ولنا أنه حفظها بما يحفظ به ماله فلم يضمن كما لو حفظها بنفسه.

كزوجته وعبده لم يضمن . وإن دفعها إلى أجنبى[١٤] أو حاكم ضمن . وليس للمالك مطالبة الأجنبى . (وقال القاضى) له ذلك . وإن أراد سفراً خاف عليها عنده ردها إلى مالكها[١٥] . فإن لم يجده حملها معه إن كان أحفظ لها[١٦] وإلا دفعها إلى الحاكم[١٧] . فإن تعذر ذلك أودعها ثقة . أو دفنها وأعلم بها ثقة يسكن تلك الدار . فإن دفنها ولم يعْلِم بها أحدا أو أعلم بها من لا يسكن الدار ضمنها[١٨] . وإن تعدى فيها[١٩] فركب الدابة لغير نفعها . ولبس الثوب وأخرج الدراهم لينفقها[٢٠] ثم ردها أو جحدها ثم أقرّ بها[٢١] . أوكسر ختم

---

(١٤) قوله وإن دفعها إلى أجنبى الخ إذا دفع الوديعة إلى غيره لغير عذر فعليه الضمان بغير خلاف المذهب إلا أن يدفعها إلى من جرت عادته بحفظ ما له وبه قال شريح م ش ح وأصحابه وإسحق وقال ابن أبى ليلى لا ضمان عليه لأن عليه حفظها واحرازها وقد أحرزها عند غيره ولنا أنه خالف المودع فضمنها كما لو نهاه عن إيداعها فإنه أمره بحفظها بنفسه فلم يرض لها غيره فإن فعل فتلفت عند الثانى مع علمه بالحال فله تضمين أيهما شاء لأنهما متعديان ويستقر الضمان على الثانى لأن التلف حصل عنده وإن لم يعلم فله تضمين الأول وليس للأول الرجوع والثانى لأنه دخل معه فى العقد على أنه أمين وإن أحب المالك تضمين الثانى فليس له تضمينه واختاره القاضى فى المحور وابن عقيل والشيخ تقى الدين وهو مذهب ح وقال الشافعى له تضمين الثانى واختاره القاضى فى موضع آخر والمصنف والشارح وقال هو أقرب إلى الصواب وهو المذهب لأنه قبض مال غيره على وجه لم يكن له قبضه ولم يأذن له مالكه فيضمن كالقابض من الغاصب .

(١٥) قوله ردها إلى مالكها : أو من يحفظ ماله عادة كزوجته أو وكيله فى قبضها ان كان .

(١٦) قوله وإن كان أحفظ لها : ولم ينهه فعلى هذا لا يضمنها سواء كان به ضرورة إلى السفر أو لا .

(١٧) قوله دفعها إلى الحاكم : فإن أودعها مع القدرة على الحاكم ضمن : وان نهاه عن السفر بها ضمن الا أن يكون لعذر كجلاء أهل البلد أو هجوم عدو أو حرق أو غرق .

(١٨) قوله من لا يسكن الدار ضمنها : لأنه فرط فى الحفظ لأنه إذا لم يعْلم قد يموت عن سفره أو يضل عن موضعها فلا تصل لربها .

(١٩) قوله وإن تعدى فيها الخ أى يضمن فى الجميع وبه قال ش وقال ح لا يضمن لأنه ممسك لها باذن صاحبها فأشبه ما قبل التعدى ولنا أنه يضمنها بعدوان فبطل الاستئمان كما لو جحدها ثم أقر بها فعلى هذا لا يعود عقد الوديعة بغير عقد متجدد .

(٢٠) قوله لينفقها : أو ليراها .

(٢١) قوله ثم أقر بها : أى يضمن لأنه بجحدها خرج عنه الاستئمان فلم يزل عنه الضمان بالإقرار ونقل البغوى ما يدل على نفى الضمان .

كيسها[٢٢] أو خلطها بما لا تتميز منه ضمنها[٢٣] . وإن خلطها بمتميز أو ركب الدابة ليسقيها لم يضمن . وان أخذ درهما[٢٤] ثم رده فضاع الكل ضمنه وحده . (وعنه) يضمن الجميع وإن ردّ بدله متميزا فكذلك[٢٥] . وإن كان غير متميز ضمن الجميع[٢٦] . ويحتمل أن لا يضمن غيره[٢٧] . وإن أودعه صبى وديعة ضمنها ولم يبرأ إلا بالتسليم إلى وليه[٢٨] . وإن أودع الصبى وديعة فتلفت بتفريطه لم يضمن . وإن أتلفها لم يضمن[٢٩] . (وقال القاضى) يضمن . وإن أودع عبدا وديعة فأتلفها ضمنها فى رقبته .

---

(٢٢) قوله أوكسر ختم كيسها : وكذا لو حله أى ضمنها سواء أخرج منها شيئا أم لم يخرج لانه هتك الحرز بفعل تعدى به فإن خرق الكيس فوق الشد فعليه ضمان ما خرق خاصة لانه ما هتك الحرز وقال ح إذا كسر ختم الكيس لم يلزمه ضمان الوديعة لانه لم يتعد فى غيره وهو رواية أحمد .

(٢٣) قوله أو خلطها بما لا تتميز منه ضمنها : هذا المذهب قال فى التلخيص رواية واحدة وبه قال ش وأصحاب الرأى وحكى عن م لا يضمن الا أن يكون دونها لانه لا يمكنه ردها إلا ناقصة وقال الحارثى وعن أحمد لا يضمن بخلط النقود فعلى هذه الرواية لو تلف بعض المختلط بغير عدوان جعل التلف من ماله وجعل الباقى من الوديعة نص عليه ولنا أنه خلطها بماله خلطا لا يتميز فوجب أن يضمنها كما لو خلطه بدونه .

(٢٤) قوله وإن أخذ درهما : من وديعة غير مختومة ونحوها : الخ هذا المذهب وبه قال ش وقال م لا ضمان عليه إذا رده أو مثله وقال أصحاب الرأى إن لم ينفق ما أخذه ورده لم يضمن وإن انفقه ثم رده أو مثله ضمن ولنا أن الضمان تعلق بذمته بالأخذ بدليل أنه لو تلف فى يده قبل رده ضمنه فلا يزول إلا برده إلى صاحبه كالمغصوب .

(٢٥) قوله فكذلك : وكذلك لو أذن له المالك فى أخذه منها ورد بدله بلا إذن .

(٢٦) قوله ضمن الجميع : هذا المذهب لخلطه الوديعة بما لا تتميز منه .

(٢٧) قوله ويحتمل أن لا يضمن غيره : وهو رواية جزم به القاضى فى التعليق وهو ظاهر كلام الخرقى وقطع به القاضى أبو الحسين واختاره أبو بكر وقال الحارثى وهو المذهب ومال إليه فى المغنى .

(٢٨) قوله إلى وليه : إن كان غير مميز أو مميزا غير مأذون له والأصح فيما أذن له بالتصرف فيه .

(٢٩) قوله وإن أتلفها لم يضمن هذا المذهب وهو ظاهر مذهب ح قال ابن عقيل وهو أصح عندى وقال القاضى يضمن وهو ظاهر ش واختاره المصنف والشارح وهو المذهب على ما اصطلحناه لان ما ضمنه باتلافه قبل إيداع ضمنه باتلافه بعده كالبالغ .

(فصل)

(والمودع أمين) والقول قوله[٣٠] فيما يدعيه من رد[٣١] وتلفٍ وإذنٍ في دفعها إلى إنسان[٣٢] وما يدعى عليه من خيانة وتفريط . وإن قال لم تودعني[٣٣] ثم أقرَّبها أو ثبتت ببينّة فادعى الرد أو التلف لم يقبل وإن أقام به بيّنة . ويحتمل أن تقبل[٣٤] بينته وإن قال مالك عندى شيء[٣٥] قبل قوله فى الرد والتلف . وإن

---

(٣٠) قوله والقول الخ هذا المذهب قال ابن المنذر أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أن المودع إذا أحرز الوديعة ثم ذكر أنها ضاعت أن القول قوله وقال أكثرهم مع يمينه وإن ادعى ردها إلى صاحبها فالقول قوله مع يمينه وبه قال الثوري ش وأصحاب الرأي وإسحاق وبه قال م إن كان دفعها إليه بغير بينة أو أن أودعه إياها بينه لم يقبل قوله في الرد إلا ببينة وحكاه القاضي أبو الحسين رواية عن أحمد ولنا أنه أمين لا منفعة له في قبضها فقبل قوله في الرد بغير بينة كما لو أودع بغير بينة (تنبيه) محل هذا إذا لم يتعرض لذكر سبب التلف فإن تعرض له فأبدى سبباً خفياً من سرقة أو ضياع ونحوه قبل وإلا فلا يقبل قوله إلا بينة تشهد بوجود ذلك السبب في تلك الناحية.

(٣١) قوله من رد: إليه أو إلى زوجته أو عبده ونحوه ولا إلى ورثة وحاكم.

(٣٢) قوله أو أذن في دفعها إلى إنسان: هذا الصحيح من المذهب وهو من المفردات وبه قال ابن أبي ليلى وقيل لا يقبل قوله وبه قال م والثوري والعنبري وأصحاب الرأي قال الحارثي وهو قوي هذا إن كان المدفوع إليه وديعاً فإن كان غريما وأنكر ضمن الدافع إن لم يشهد لتقصيره.

(٣٣) قوله وإن قال لم تودعني الخ مراده إذا ادعى الرد أو التلف قبل جحوده بأن يدعي عليه الوديعة يوم الجمعة فينكرها ثم يقر وتقوم بينة بها فيقيم بينة بأنها تلفت أو ردها يوم الخميس أو قبله مثلاً فالمذهب في هذا كما قال المصنف أنه لا يقبل قوله ولا ببينة وبه قال م وش وأصحاب الرأي وإسحاق لأنه مكذب لإنكاره الأول ومعترف على نفسه بالكذب المنافي للأمانة وإن كان ما ادعاه من الرد والتلف بعد جحوده كما لو ادعى عليه بالوديعة يوم الخميس فجحدها ثم اقر بها يوم السبت ثم ادعى أنه ردها أو تلفت بغير تفريطه يوم الأربعاء وأقام بذلك بينة قبلت بها لأنه ليس بمكذب لها.

(٣٤) قوله ويحتمل أن تقبل: لأن صاحبها لو أقر بذلك سقط عنه فتسمح البينة به وقال الحارث وهو الحق وهو المذهب عندي.

(٣٥) قوله وإن قال مالك عندي شيء الخ أي ثم أقر بالإيداع أو ثبتت به بينة قبل قوله في الرد والتلف بيمينه لأنه لا ينافي جوابه لجواز أن يكون أودعه ثم تلفت بغير تفريط لكن أن وقع التلف بعد الجحود وجب الضمان لاستقرار حكمه بالجحود فيشبه الغاصب قلت وظاهره ولو أقام به بينة قاله في الاقناع وشرحه.

مات المودع[٣٦] وادعى وارثه الرد لم يقبل إلا ببيّنه . وإن تلفت عنده قبل إمكان ردها لم يضمنها . وبعده يضمنها فى أحد الوجهين[٣٧] . وإذا ادعى الوديعة اثنان فأقرّبها لأحدهما فهى له[٣٨] مع يمينه . ويحلف المودع[٣٩] أيضاً . وإن أقرّبها لهما[٤٠] فهى لهما . ويحلف لكل واحد منهما . فإن قال لا أعرف صاحبها حلف أنه لا يعلم ويقرع بينهما[٤١] . فمن قرع صاحبه حلف وأخذها . وإن أودعه اثنان مِكَيلاً أو موزونا فطلب أحدهما نصيبه سلمه إليه . وإن غصبت العين . فهل للمودع المطالبة[٤٢] بها ؟ على وجهين .

---

(٣٦) قوله وإن مات المودع الخ وكذا لو ادعى أن مورثه ردها أو ادعاه لملتقط أو من إطار الريح إلى داره ثوباً لأن المالك لم يأتمنهم (فائدة) تثبت الوديعة بإقرار الميت أو ورثته أو بينته وإن وجد خطه «لفلان عندي وديعة أو على كيس «هذا لفلان» عمل به وجوباً على الصحيح من المذهب وقيل لا يعمل به ويكون تركة اختاره المصنف والشارح وغيرهما وإن وجد خطة بدين له على فلان حلف الوارث ودفع إليه وإن وجد خطه بدين عليه فقيل لا يعمل به وقيل بلى قال القاضي أبو الحسن المذهب وجوب الدفع إلى من هو مكتوب باسمه.

(٣٧) قوله يضمنها في أحد الوجهين: وهو المذهب.

(٣٨) قوله فهي له: لأن اليد كانت للمودع وقد نقلها إلى المدعي فصارت اليد له ومن كانت اليد له قبل قوله مع يمينه.

(٣٩) قوله ويحلف المودع: لأنه منكر لدعواه وتكون على نفي العلم.

(٤٠) قوله وإن أقر بها لهما الخ فإن قال لا أعرف صاحبها فاعترفا له بجهله بغير المستحق فلا يمين عليه وإن ادعيا معرفته لزمته يمين واحدة أنه لا يعلم ذلك وقال ح يحلف يمينين.

(٤١) قوله ويقرع بينهما إلخ لأنهما تساويا في الحق فيما ليس بأيديهما فوجب أن يقرع بينهما كالعبدين إذا اعتقهما في مرضه فلم يخرج من الثلث إلا أحدهما أو كما لو أراد السفر بإحدى نسائه وقال ش يتحالفان وتوقف بينهما حتى يصطلح وهو قول ابن أبي ليلى لأنه لا يعلم المالك منهما وللشافعي قول آخر يقتسم بينهما وحكاه ابن المنذر وعن أبي ليلى وهو قول ح وصاحبيه.

(٤٢) قوله المطالبة بها: المذهب له.

"Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)"

باب اللقطة(*)

وهي المال الضّائع من ربه . وينقسم ثلاثة أقسام : (**أحدها**) ما لا تتبعه الهمة كالسوط والشسع والرغيف فيملك بأخذه بلا تعريف[1] . (**الثانى**) الضّوالّ التّى تمتنع من صغار السباع[2] كالابل والبقر والخيل والبغال والظباء والطير والفهود ونحوها ، فلا يجوز التقاطها[3] . ومن أخذها ضمنها[4] . فإن دفعها إلى نائب

(*) المقنع جزء. أول صفحة ٤٨٤ .

(١) قوله فيملك بأخذه بلا تعريف : لما روى جابر قال « رخص لنا رسول الله ﷺ فى العصا والسوط والحبل وأشباهه » يلتقطه الرجل ينتفع به رواه أبو داوود وليس عن أحمد تحديد اليسير الذى يباح ويحتمل أن لا يجب تعريف ما لا تقطع به يد السارق وبه قال ح وهو ربع دينار عند م وعشرة دراهم عند ح لأن مادون ذلك تافه فلا يجب تعريفه ولنا حديث زيد بن خالد وهو عام فى كل لقطة فيجب ابقاؤه على عمومه الا ما خرج بالدليل والتحديد لا يثبت إلا بنص أو إجماع وظاهره لا يلزمه دفع بدله إذا تلف أو وجد ربه على الصحيح من المذهب لأن النبي ﷺ رخص فيه ولم يذكر عليه ضمانا .

(٢) قوله الثانى الضوال التّى تمتنع من صغار السباع الخ لقوله عليه السلام لما سئل عن ضالة الإبل « مالك ولها دعها فإن معها حذاءها وسقاءها ترد الماء وتأكل الشجر حتّى يجدها ربها » متفق عليه وكإبل حمر أهلية وخالف المصنف فيها فقال الأولى الحاقها بالشاء وبذا قال ش وأبو عبيد وقال م والليث فى ضالة الإبل من وجدها فى القرى عرفها ومن وجدها فى الصحراء لا يقربها وقال ح يباح التقاطها لأنها لقطة اشبهت الغنم وهذا قياس يعارض صريح النص على أن الابل تفارق الغنم لضعفها وقلة سيرها والخوف عليها من الذئب .

(٣) قوله فلا يجوز التقاطها : لعدم إذن الشارع والملك سواء كان زمن أمن أو فساد ولا يرجع بما انفقه لتعديه لكن الإمام أو نائبه أخذ ذلك ليحفظ لربه لأن عمر حمى النقيع لخيل المجاهدين والضوال : غير الإبق فإنه يجوز ولا يملكه بتعريف وإذا أراد المالك أخذها فلابد من البينة .

(٤) قوله ومن أخذها ضمنها : يعنى إذا تلفت ويضمن نقصها أيّا ماكان أو غيره لأنه أخذ ملك غيره بغير إذنه ولا إذن الشارع له فهو كالغاصب فإن رده إلى موضعه لم يبرأ من الضمان وبه قال ش وقال م يبرأ لأن عمر قال : أرسله فى الموضع الذى اصبته فيه : ولنا أن ما لزمه ضمانه لا يزول إلا برده إلى صاحبه أو نائبه كالمغصوب والمسروق لكن إتلافها لا يخلو إما أن يكون قد كتمها أولا فالأول يضمنها بقيمتها مرتين على المذهب قال أبو بكر فى التنبيه ثبت خبر عن النبى ﷺ أنه قال فى الضالة المكتومة « غرامتها ومثلها معها » قال وهذا حكم رسول الله ﷺ فلا يرد والثانى ضمنها كناصب .

الإمام[٥] زال عنه الضمان (**الثالث**) سائر الأموال[٦] كالأثمان والمتاع والغنم والفصلان والعجاجيل والافلاء . فمن لا يأمن نفسه عليها ليس له أخذها[٧] فإن فعل ضمنها[٨] ولم يملكها وإن عرفها[٩] . ومن أمن نفسه[١٠] عليها وقوى على تعريفها[١١] فله أخذها ، والأفضل تركها[١٢] . وعند أبى الخطاب رحمه الله تعالى إن وجدها بمضيعة فالأفضل أخذها ، ومتى أخذها ثم ردها إلى موضعها أو فرط فيها ضمنها[١٣] وهى على ثلاثة أضرب[١٤] : (حيوان) فيتخير بين

---

(٥) قوله إلى نائب الإمام : أو أمره بردها إلى موضعها ففعل .

(٦) قوله الثالث سائر الأموال الخ وكذا الدجاج والأوز وجحاش الحمير والخشبة الصغيرة وقطعة الحديد والنحاس ونحوه والزق من العسل ونحوه والغرارة من الحب والمريض من كبار الإبل ونحوها كالصغير .

(٧) قوله ليس له أخذها : لما فيه من إتلافها على ربها .

(٨) قوله ضمنها : إن تلفت ولو بغير تفريط كالغاصب .

(٩) قوله وإن عرفها : لأن السبب المحرم لا يفيد الملك بدليل السرقة .

(١٠) قوله ومن أمن نفسه الخ لما روى زيد بن خالد عن النبى ﷺ أنه سئل عن لقطة الذهب والورق فقال : اعرف وكاءها وعفاصها ثم عرفها سنة فإن لم تعرف فاستنفقها ولتكن وديعة عندك فإن جاء صاحبها يوما من الدهر فادفعها إليه : وسأله عن ضالة الإبل فقال « مالك ولها دعها فإن معها حذاءها وسقاءها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يجدها ربها » وسأله عن الشاة فقال « خذها فإنما هى لك أو لأخيك أو للذئب» متفق عليه ثبت فى الذهب والفضة وقسنا عليه المتاع وقسنا على الشاة كل حيوان لا يتمنع من صغار السباع ولا فرق بين أن يجدها بمصر أو مهلكة وقال ش وأبو عبيد وابن المنذر فى الشاردة توجد فى المنحر اذبحها وكلها وفى المصر ضمها حتى يأتيها صاحبها لأن النبى ﷺ قال « هى لك أو لأخيك أو للذئب » ولا يكون للذئب فى المصر ولنا إنه عليه السلام أمر بأخذها ولم يستفصل .

(١١) قوله وقوى على تعريفها : فأما إن عجز عن تعريفها فليس له أخذها .

(١٢) قوله والأفضل تركها : روى معنى ذلك عن ابن عباس وابن عمر وبه قال جابر بن زيد والربيع بن خيثم وعطاء وعند أبى الخطاب رحمه الله وهذا قول ش قال فى الانصاف وهو الصواب .

(١٣) قوله ضمنها : لأنها أمانة حصلت فى يده فلزمه حفظها كسائر الأمانات وتركها والتفريط فيها تضييع لها هى روى عن طاوس وبه قال ش وقال م لا ضمان عليه لأن عمر قال لرجل وجد بعيرا أرسله حيث وجدته رواه الأثرم .

(١٤) قوله وهى على ثلاثة أضرب الخ ومراده إذا استوت الثلاثة عنده أما إذا كان أحدها أحفظ فانه يلزمه فعله .

أكله وعليه قيمته . وبين بيعه[١٥] وحفظ ثمنه . وبين حفظه والإنفاق عليه من ماله[١٦] . وهل يرجع بذلك[١٧] ؟ على وجهين (الثانى) ما يخشى فساده فيتخير بين بيعه وأكله[١٨] إلا أن يمكن تجفيفه كالعنب فيفعل ما يرى الحفظ فيه لمالكه[١٩] . وغرامة التجفيف منه[٢٠] . وعنه يبيع اليسير ويدفع الكثير إلى الحاكم (الثالث) سائر المال[٢١] . فيلزمه حفظه ويعرّف الجميع بالنداء عليه فى مجامع الناس كالأسواق وأبواب المساجد فى أوقات الصلوات حولا كاملا من ضاع

---

(١٥) قوله وبين بيعة : ويلزمه فعله .

(١٦) قوله من ماله : فإن تركها ولم ينفق عليها ضمنها .

(١٧) قوله وهل يرجع بذلك الخ يعنى إذا نوى الرجوع أحدهما يرجع وهو المذهب وبه قال عمر بن عبد العزيز لأنه أنفق لحفظها فكان من مال صاحبها كمؤنة تجفيف الرطب والثانى لا يرجع بشىء وهو قول الشعبى ش ولم يذكر أصحابنا لها تعريفا فى هذه المواضع وبه قال م لقوله عليه السلام « خذها فإنما هى لك أو لأخيك أو للذئب » ولم يأمر بتعريفها ولنا أنها لقطة لها خطر فوجب تعريفها كالمطعوم الكثير وإنما ترك تعريفها لأنه ذكرها بعد بيانه التعريف فيما سواها فاستغنى عن ذكره فيها ولا يلزم من جواز التصرف فيها فى الحول سقوط تعريفها كالمطعوم .

(١٨) قوله بين بيعه وأكله : ولا يجوز إبقاؤه فإن تركه حتى تلف ضمنه لأنه فرط فى حفظه فهو كالوديعة .

(١٩) وقوله لمالكه : لأنه مال غيره فلزمه الأحفظ لولى اليتيم .

(٢٠) قوله منه : لأنه من مصلحته فإن أنفق من ملكه رجع ربه فى الأصح

(٢١) قوله الثالث سائر المال الخ وجملة ذلك أن فى التعريف فصولا ستة ١ فى وجوبه . فيجب على كل ملتقط سواء أراد تملكها أم حفظها لصاحبها إلا فى اليسير الذى لا تتبعه النفس لحديث زيد بن خالد وأبى بن كعب وقال ش لا يجب على من أراد حفظها لمالكها ٢ فى قدر التعريف وذلك سنة روى عن عمر وعلى وابن عباس وبه قال سعيد بن المسيب والشعبى م ش وعن عمر رواية أخرى يعرفها ثلاثة أشهر وعنه ثلاثة أعوام لأن النبى ﷺ أمر أبى بن كعب بتعريف مائة الدينار ثلاثة أعوام ولنا حديث زيد بن خالد الصحيح فإن النبى ﷺ أمره بعام واحد وأما حديث أبى قال الراوى لا أدرى ثلاثة أعوام أو عام واحد ٣ فى زمانه وهو النهار دون الليل لأن النهار مجمع الناس ويكون ذلك فى اليوم الذى وجدها فيه والأسبوع لأن الطلب فيه أكثف ولا يجب فيما بعد ذلك متواليا ٤ فى مكانه وهو الأسواق وأبواب المساجد ومجامع الناس لأن المقصود إشاعة ذكرها ٥ فى كيفية تعريفها فيذكر جنسها لا غير فيقول من ضاع منه ذهب أو فضة أو دنانير أو دراهم لقول عمر لواجد الذهب قل الذهب بطريق الشام ولا يصفها ٦ فيمن يتولى تعريفها وهو الملتقط إن شاء بنفسه ونائبه فإن وجد متبرعا بذلك وإلا أستأجر .

منه شيء أو نفقة . وأجرة المنادى عليه[٢٢] . (وقال أبو الخطاب ما لا يُملك بالتعريف وما يُقصد حفظه لمالكه يرجع بالأجرة[٢٣] فإن لم يعرف دَخَل فى ملكه بعد الحول حُكْماً[٢٤] كالميراث . وعند أبى الخطاب لا يملكه حتّى يختار ذلك[٢٥] .

وعن أحمد رحمه[٢٦] الله تعالى لا يملك إلا الأثمان وهى ظاهرة المذهب وهل له الصدقة بغيرها[٢٧] ؟ على روايتين (وعنه) لا تُملك لقطة الحرم بحال[٢٨] .

(فصل)

ولا يجوز له التصرف فى اللقطة حتّى يعرف وعاءها ووكاءها[٢٩] وقدرها[٣٠]

---

(٢٢) قوله وأجرة المنادى عليه : وبه قال ش وأصحاب الرأى لأنه سبب فى العمل فكانت عليه كما لو اكترى من يقلع له مباحا .

(٢٣) قوله يرجع بالأجرة : لأنه من مؤنة إيصالها إلى مالكها فكان عليه كمؤنة تجفيفها وأجرة مخزنها .

(٢٤) بعد الحول حكما : أى من غير اختيار غنيا أو كان فقيرا .

(٢٥) قوله حتّى يختار ذلك لأنه عقد بمعاوضة فلم يجبر عليه كالبيع والقرض قال فى الإنصاف وهو الصواب .

(٢٦) قوله وعن أحمد رحمه الله الخ قدم المصنف رحمه الله أن غير الأثمان كالأثمان وهو إحدى الروايتين لعموم الأحاديث .

(٢٧) قوله وهل له الصدقة بغيرها : يعنى على القول بأنه لا يملك بغير الأثمان إحداهما له الصدقة بشرط الضمان وهو الصحيح من المذهب .

(٢٨) قوله وعنه لا تملك لقطة الحرم بحال : قدم المصنف أن لقطة الحرم كغيرها وهو الصحيح من المذهب روى ذلك عن ابن عباس وابن عمر وعائشة وابن المسيب وهو مذهب م ح وعن أحمد أنه لا يجوز لقطة الحرم للتملك ويجوز لحفظها لمالكها فإن التقطها عرفها أبدا حتّى يأتى صاحبها وبه قال عبد الرحمن بن مهدى وأبو عبيد واختاره الشيخ تقى الدين والحارثى وصاحب الفائق وغيرهم وعن ش كالمذهبين لقوله عليه السلام فى مكة « لا تحل ساقطتها إلا لمنشد » متفق عليه ولنا عموم الأحاديث وكالمدينة وقوله إلا لمنشد يحتمل أنه لمن عرفها عاما وتخصيصها بذلك لتأكيدها لالتخصيصها .

(٢٩) قوله ووكاءها : وهو الخيط الذى تشدّ به .

(٣٠) قوله وقدرها : من كيل أو وزن أو عد .

وجنسها ، ويستحب ذلك[٣١] عند وجدانها والإشهاد عليها[٣٢] ، فمتى جاء طالبها[٣٣] . فوصفها . لزم دفعها إليه بنمائها المتصل[٣٤] وزيادتها المنفصلة لمالكها قبل الحول[٣٥] . ولواجدها بعده[٣٦] فى أصح الوجهين ، وإن تلفت أو نقصت قبل الحول لم يضمنها[٣٧] . وإن كان بعده ضمنها[٣٨] وإن وصفها اثنان قسمت بينها فى أحد الوجهين . وفى الآخر يُقرع بينهما . فمن قرع صاحبه حلف

---

(٣١) قوله يستحب ذلك : أى معرفة ما ذكر من صفاتها فإن أخره إلى مجىء صاحبها جاز

(٣٢) قوله والإشهاد عليها : أى يستحب ويكونان عدلين وهذا المذهب وبه قال م ش وقال ح يضمنها إذا لم يشهد عليها لقوله عليه السلام « من وجد لقطة فليشهد ذا عدل أو ذوى عدل » وهذا أمر يقتضى الوجوب وهو اختيار أبى بكر وابن أبى موسى والحارثى وغيرهم قال فى الفائق وهو المنصوص ولنا حديث زيد بن خالد وأبى بن كعب فإنه أمرهما بالتعريف دون الإشهاد ولوكان واجبا لبينه فإنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة لاسيا وقد سئل عن حكم اللقطة فلم يكن ليخل بذكر الواجب فيها فيتعين حمل حديث عياض على الندب

(٣٣) قوله فمتى جاء طالبها الخ وسواء غلب على ظنه صدقه أم لم يغلب وبه قال م وأبو عبيد وداوود وابن المنذر وقال ح ش لا يجبر على ذلك إلا ببينة ويجوز له دفعها إليه إذا غلب على ظنه صدقه وقال أصحاب الرأى إن شاء دفعها إليه وأخذ كفيلا بذلك لأن النبى ﷺ قال « البينة على المدعى » ولأن صفة المدعى لا يستحق بها كالمغصوب ولنا حديث زيد ولم يذكر فيه البينة ولوكانت شرطا للدفع لذكرها ولأن إقامة البينة على اللقطة يتعذر لأنها إنما تسقط حال الغفلة فتوقف دفعها على البينة منع لصاحبها عن أخذها أبدا وما هذا سبيله يسقط اعتبار البينة فيه كالإنفاق على اليتيم وقوله – البينة على المدعى – يعنى إذا كان ثم منكر (فائدتان) (إذا تصرف فى اللقطة بعد الحول فإن كانت مثليه ضمنها بمثلها وإن لم تكن مثلية ضمنها بقيمتها يوم عرف ربها على الصحيح من المذهب ٢ لو أدركها ربها بعد الحول مبيعة أو موهوبة فليس له إلا البدل كما فى التلف ولو أدركها فى زمن الخيار فوجهان أصحهما وجوب الفسخ ولو عاد إلى البائع بفسخ أو رد أو شراء أو غير ذلك أخذه المالك ولو أدركه مرهونا ملك انتزاعه لقيام ملكه وعدم إذنه فى الرهن .

(٣٤) قوله بنمائها المتصل : لأن الزيادة المتصلة تتبع فى الرد بالعيب والإقالة وغير ذلك

(٣٥) قوله قبل الحول : لأنها نماء ملكه .

(٣٦) قوله بعده : لأنها نماء ملكه .

(٣٧) قوله لم يضمنها : إذا لم يفرط لأنها أمانة .

(٣٨) قوله وإن كان بعده ضمنها . وإن لم يفرط وهذا المذهب وكذا يضمن نقصها وهذا قول أكثر العلماء الذين حكموا بملكه لها بعد الحول فأما من قال لا يملكها باختياره لم يضمنه إياها حتى يتملكها .

وأخذها[٣٩] وإن أقام آخر بيّنة أنها له أخذها من الواصف ، فإن تلفت ضمنها من شاء من الواصف أو الدافع إليه[٤٠] ، إلا أن يدفعها بحكم حاكم . فلا ضمان عليه . ومتى ضمن الدافع رجع على الواصف .

(فصل)

ولا فرق بين كون الملتقط غنيا أو فقيراً[٤١] مسلما أو كافراً[٤٢] . عدلا أو فاسقا . يأمن نفسه عليها . (وقيل) يضم إلى الفاسق أمين[٤٣] في تعريفها وحفظها ، وإن وجدها صبيّ أو سفيه[٤٤] قام وليه بتعريفها . فإذا عرفها فهي لواجدها . وإن وجدها عبد[٤٥] فلسيده أخذها منه وتركها معه يتولى تعريفها إذا كان عدلا . وإن لم يأمن العبد سيده عليها ، لزمه سترها عنه . فإن أتلفها قبل

---

(٣٩) قوله حلف وأخذها : وهو المذهب ومحله إذا وصفاها معا أو وصفها الثانى قبل دفعها إلى الأول وأما إذا وصفها واحد ثم د ـ ـ إليه ثم وصفها آخر فإن الثانى لا يستحق شيئا على الصحيح من المذهب .

(٤٠) قوله فإن تلفت ضمنها من شاء من الواصف أو الدافع إليه : وبه قال ح ش والقاضى وجزم به فى الوجيز ويتخرج أن لا يلزم الملتقط شيء إذا قلنا بوجوب الدفع عليه لأنه فعل ما أمر به ولم يفرط وهذا المذهب قال الحارثى وهو الصحيح .

(٤١) قوله ولا فرق بين كون الملتقط غنيا أو فقيرا : روى نحو ذلك عن عمر وعلى وابن مسعود وعائشة وابن عباس وعطاء والنخعى والشعبى وطاووس وعكرمة وبه قال ش وابن المنذر وقال ح ليس له أن يتملكها إلا أن يكون فقيرا من غير ذوى القربى ونقل حنبل عن أحمد مثله وأنكره الخلال ولنا حديث زيد بن خالد وغيره ولأن من جاز الالتقاط جاز له التملك كالفقير .

(٤٢) قوله أو كافرا : لأنه نوع اكتساب فكان من أهله كالحش والاحتطاب وكذلك الفاسق .

(٤٣) قوله وقيل يضم الخ : كالذمى وبه قال ح ش لا نالا نأمنه عليها .

(٤٤) قوله وإن وجدها صبى أو سفيه : وكذا مجنون لكن إذا علم بها وليه لزمه أخذها منه لأنه ليس من أهل الحفظ والأمانة فإن تركها فى يده ضمنها لأنه يلزمه حفظ ما يتعلق به حق الصبى وهذا يتعلق به حقه فإذا تركه كان مضيعا لها

(٤٥) قوله وإن وجدها عبد الخ يصح التقاط العبد بغير إذن سيده وبه قال ح ش فى أحد قوليه لعموم الخبر ولأن الالتقاط سبب يملك به الصبى ويصح منه فصح من العبد كالاصطياد .

الحول[٤٦] فهى فى رقبته . وإن أتلفها بعده فهى فى ذمته . والمكاتب كالحر[٤٧] ومن بعضه حر فهى بينه وبين سيده إلا أن يكون بينهما مهايأة . فهل تدخل فى المهايأة ؟ على وجهين[٤٨] .

---

(٤٦) قوله فإن أتلفها قبل الحول الخ إذا فرط العبد فى اللقطة حتى تلفت أو أتلفها فإن كان قبل الحول فهى فى رقبته وعلى السيد الفداء أو التسليم وإن كان بعده فإن قلنا يملكها فهى فى ذمته وإن قلنا لا يملكها فهى فى رقبته هذا المذهب نص عليه وجزم به فى المغنى والشرح والمحرر وغيرهم وقال الزركشى عن كلام المصنف هنا ومن تابعه كلامهم متوجه إن قلنا إن العبد يملك وإن قلنا الملك للسيد كما صرح به أبو محمد فالجناية على مال السيد فلا تتعلق بذمته ولا برقبته بل الذي ينبغي أن تتعلق بذمته السيد وإن قلنا إن العبد لا يملك ولا السيد تعين التعلق برقبته كجنايته انتهى ومثله أم ولد ومدبر ومعلق عتقه بصفة لكن ان تلفت بتفريط أم الولد فأداها سيدها بالأقل من قيمتها أو قيمة ما أتلفته .

(٤٧) قوله والمكاتب كالحر : لأن المكاتب يملك أكسابه وهذا منها .

(٤٨) قوله فهل تدخل فى المهايأة على وجهين : أحدهما لا تدخل فى المهايأة بل تكون بينه وبين سيده وهو الصحيح من المذهب لأنها كسب نادر لا يعلم وجوده ولا يظن فلم تدخل فى المهايأة كالارث والثانى تدخل فى المهايأة جزم به فى الوجيز لأنها من كسبه فأشبهت سائر أكسابه فعلى هذا تكون لمن توجد فى يومه وكذلك الحكم فى الهدية والوصية وسائر الأكساب النادرة فيها الوجهان (فوائد) منها لو وجد لقطة فى غير طريق مأتى فهى كاللقطة على الصحيح من المذهب واختار الشيخ تقى الدين أنه كالركاز (ومنها) لو أخذ متاعه أو ثوبه وترك له بدله فالصحيح من المذهب أنه لقطة لم يقع بينه وبين مالكه معارضة تقتضى زوال ملكه فإذا أخذه فقد أخذ ملك غيره وقيل لا يعرفه مع قرينة سرقة وهو احتمال للمصنف قال فى الإنصاف وهو غير الصواب فعليه هل يتصدق به بعد تعريفه إن قلنا يعرفه أو يأخذ حقه بنفسه أو بإذن حاكم ؟ فيه أوجه قال المصنف والثانى أقرب إلى الرفق بالناس قال الحارثى وهذا أقوى على أصل من يرى أن العقد لا يتوقف على اللفظ أما على التوقف فلا يكفى مثل هذا قال وبالجملة فالأظهر الجواز (ومنها) لو وجد فى جوف حيوان أن درة أو نقدا فهو لقطة لواجده على الصحيح من المذهب إلا أن تكون الدرة غير مثقوبة فى سمكة فهى للصياد لأن الظاهر ابتلاعها من معدنها (ومنها) لو وجد لقطة فى دار الحرب وهو فى الجيش عرفها ثم وضعها فى المغنم نص عليه وإن كان يصل بأمان عرفها ثم هى له إلا أن يكون فى جيش فهى كالتى قبلها (ومنها) مؤونة رد اللقطة على ربها على الصحيح . ومنها لو استيقظ فوجد فى ثوبه دراهم لا يعلم من صرها فهى له ولا تعريف على الأصح .



محتويات الكتاب

الفصل الأول

الفصل الثانى

الموضوع **الصفحة**

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الموضوع **الصفحة**

الفصل الخامس

الفصل السادس

الموضوع **الصفحة**

الفصل السابع

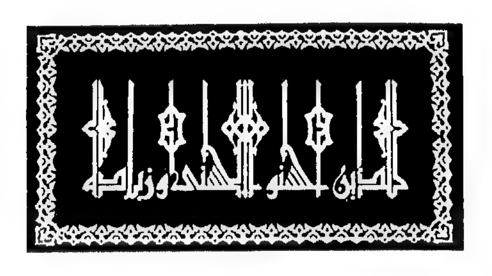
الموضوع | الصفحة

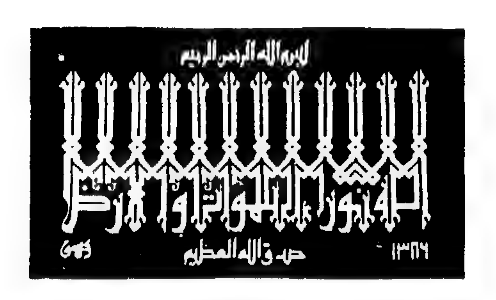
الفصل الثامن








للذين أحسنوا الحسنى وزيادة


بسم الله الرحمن الرحيم
الله نور السموات والأرض
صدق الله العظيم
١٣٦٦





دار الكتاب المصري

طباعة . نشر . توزيع

TELEX No 23081 - 23381 22181 22481 ATT MR HASSAN EL ZEIN

FAX (202) 3924657 CAIRO EGYPT





TELEX No DKL 23715 LE ATT MRS MAY EL ZEIN
FAX (9611) 351433 BEIRUT LEBANON

AL-A'IMMA AL-ARBA'A

BY

DR. MUSTAFA AL-SHAK'A

DAR AL-KITAB ALLUBNANI
DAR AL-KITAB AL-MASRI